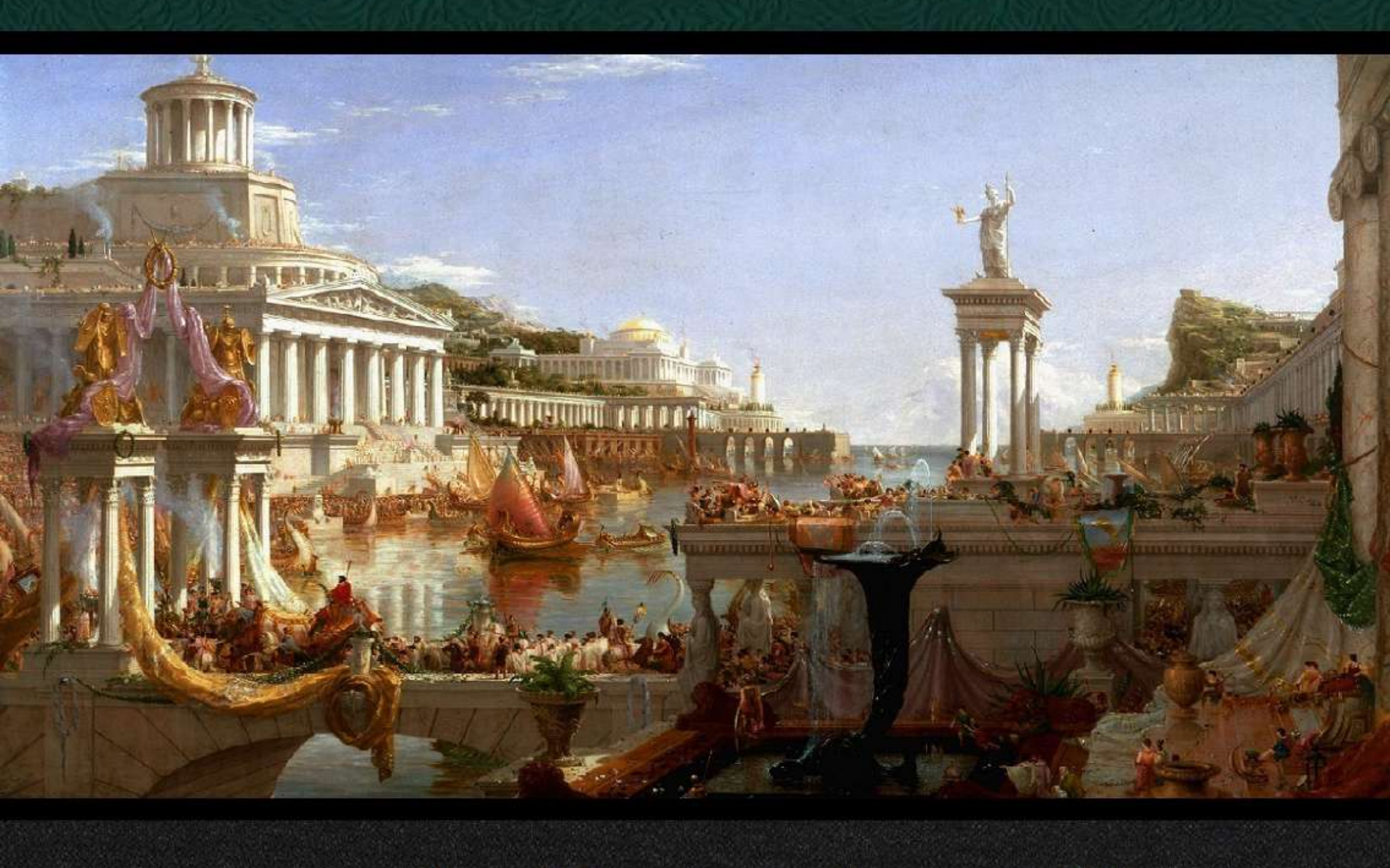
قصة الحضارة



المجلد الرابع

ويل ديورانت

قصة الحضارة

12- عصر الإيمان (الجزء الأول)

13- عصر الإيمان (الجزء الثاني)

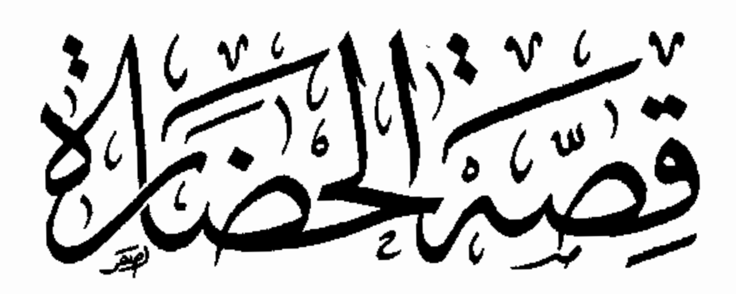
14- عصر الإيمان (الجزء الثالث)

15- عصر الإيمان (الجزء الرابع)

16- عصر الإيمان (الجزء الخامس)

17- عصر النهضة

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الرابع





بيروت



تونس

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الكتاب الأول – الدولة البيزنطية فى أوج مجدها

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الأول : يوليان المرتد

الباب الثانى : انتصار البرابرة

الباب الثالث : تقدم المسيحية ٩١

الموضوع الصفحة

الباب الرابع : أوربا تتشكل

الباب الخامس : جستنيان

الباب السادس : الحضارة البيزنطية

الموضوع

الباب السابع : الفرس

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله نبدأ الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلدات قصة الحضارة السبعة ، وقد صدر منها بعد هذا مجلد خامس فى حضارة عصر النهضة . أما هذا المجلد فيروى قصة حضارة العصور الوسطى من قسطنطين إلى دانتى ، وهى فترة دامت أكثر من ألف عام ؛ وقد أطلق المؤلف على هذا العهد اسم عصر الإيمان لأنه كان عصر العقيدة الدينية القوية ، ولأن فيه أضحت المسيحية دين الدولة الرومانية ، وفيه ظهر الدين الإسلامى وانتشر فى آسية وأفريقية وأوربا ، وبلغت الحضارة الإسلامية فيه ذروة مجدها فى الشرق والغرب على السواء .

وهذا المجلد الرابع — وإن لم يشمل من الزمن إلا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العالم — من أكبر مجلدات هذه القصة ؛ فهو فى الأصل الإنجليزى يبلغ نحو ألف ومائتى صفحة مقسمة إلى خمسة « كتب » سنصدرها باللغة العربية فى ستة أجزاء .

وهذه الفترة من أهم الفترات وأبقاها أثراً فى تاريخ العالم ، وحسبنا أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أن فيها ثبتت دعائم المسيحية ، وظهر الإسلام ، وقام الصراع بين اليهودية والمسيحية . وفيها بدأت أوربا تتشكل ، وتحطمت الإمبراطورية الرومانية وظهرت الأمم الأوربية الحديثة ، ونشبت الحروب الصليبية ، وظهر الإسلام وعم نوره الآفاق ، ولاحت تباشير عصر النهضة .

وسيجد القارئ ذلك كله مفصلا فى هذا الجزء والأجزاء التالية إن شاء الله .

ونرى مرة أخرى أن نكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وللجنه التأليف والترجمة والنشر وللقراء الكرام الذين كان إقبالهم على الأجزاء السابقة أكبر مشجع لنا على مواصلة الجهد فى ترجمة هذا المجلد الضخم ونرجو ألا يطول انتظارهم لبقية الأجزاء ؟



صورة رقم ١

تمثال لدانتى من البرنز فى المتحف القومى بناپلى

مقدمة

إلى القارئ

إن الغرض الذى أبغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض على القارئ قصة حضارة العصور الوسطى من عام ٣٢٥م إلى عام ١٣٠٠ كاملة بقدر ما تتسع لها صفحاته ، بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية ، والطريقة التى اتبعتها فى تأليفه هى النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضه بعضاً — أى تصوير جميع مظاهر حضارة من الحضارات أو عصر من العصور فى صورة جامعة شاملة ، وإيراد قصة تلك الحضارة وذلك العصر بهذه الطريقة عينها . ولقد كان اضطرارنا إلى الإحاطة بجميع النواحى الاقتصادية ، والسياسية ، والقانونية ، والحربية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، والدينية ، والتربوية ، والعلمية ، والطبية ، والفلسفية ، والأدبية ، والفنية لأربع حضارات متباينة — البيزنطية ، والإسلامية ، واليهودية ، والأوربية الغربية ، مما جعل وحدة المنهج والإيجاز من أشق الأمور . فأما من حيث الوحدة فإن التقاء الحضارات الأربع واصطراعها أيام الحروب الصليبية قد خلع على هذا المنهج شيئاً منها ، وأما الإيجاز ففى وسع القارئ المتعب ، الذى يرهقه طول الكتاب ، أن يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن المخطوط فى صورته الأصلية كان يزيد على هذا النص الذى بين يديه بقدر نصف طوله(*) . ذلك أننا لم نبق من المخطوط الأصلى إلا ما كان فى رأينا لا غنى عنه لفهم تلك الفترة من تاريخ العالم على الوجه الصحيح ، أو يجعل القصة حية واضحة زاهية .

على أن فى وسع القارئ غير المتخصص أن يمر ببعض الفقرات العويصة

(*) إن الثغرات التى يجدها القارئ أحيانا فى ترقيم المراجع سببها ما حذفناه من العبارات فى اللحظة الأخيرة .

دون أن يقف عندها طويلا ، ولن يخل هذا بسياق القصة أو يشوه الصورة ، وهذا المجلد هو القسم الرابع من قصة الحضارة التي ستكون بعد تمامها مؤلفة من ستة أقسام(*) : القسم الأول هو « تراث الشرق » (١٩٣٥) ، وقد أحطنا فيه بتاريخ مصر والشرق الأدنى من أقدم العهود إلى أن فتحهما الإسكندر حوالى ٣٣٠ ق . م ، وبتاريخ الهند والصين واليابان إلى الوقت الحاضر ؛ والقسم الثاني وهو « حياة اليونان » (١٩٣٩) ، يروى تاريخ اليونان والشرق الأدنى ويصف حضارتهما إلى أن فتح الرومان بلاد اليونان في عام ١٤٦ ق . م ؛ والقسم الثالث « قيصر والمسيح » (١٩٤٤) يروى تاريخي رومة والمسيحية من بدايتهما ، وتاريخ الشرق الأدنى من عام ١٤٦ ق . م ، إلى مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ م . ويواصل هذا الكتاب دراسة حياة الرجل الأبيض حتى موت دانتى فى عام ١٣٢١ . ويشمل القسم الخامس « النهضة والإصلاح » تاريخ الفترة الواقعة بين عامى ١٣٢١ ، ١٦٤٨ ونعتزم إصداره فى عام ١٩٥٥ ؛ وأما الجزء السادس «عصر العقل ، الذى يصل بالقصة إلى الوقت الحاضر ، فسيصدر بمشيئة الله في عام ١٩٦٠ وفى هذا الوقت يكون المؤلف قد قرب من الشيخوخة قرباً يضطره إلى أن يتخلى عن ميزة تطبيق الطريقة الجامعة التي سار عليها فى الأقسام الستة على الأمريكتين .

والخطة التي اتبعناها فى هذه الأقسام الستة هى أن يكون كل منها وحدة مستقلة بذاتها ، ولكن القراء الذين درسوا « قيصر والمسيح » سيجدون أن من السهل عليهم أكثر من غيرهم أن يمسكوا بخيوط القصة التي نرويها فى هذا الكتاب . وسيضطرنا تاريخ الحوادث وتسلسلها إلى أن نبدأه بأقل ما يعنى به الناس عادة من نواحى حضارة العصور الوسطى الرباعية وهو الحضارتان البيزنطية

(*) وقد عاد المؤلف فجعلها سبعة إذ خص الإصلاح بمجلد كامل وقد صدر المجلد الخامس فى عصر النهضة وحدة وشرعنا فعلا فى ترجمته . (المترجم)

والإسلامية ؛ وسيدهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اختصصنا بها الثقافة الإسلامية ، كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيز الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد . ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز ، وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلهما ؛ ولكنا مع هذا لا ندعي العصمة من الهوى ، ولا ننكر أنه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صحفه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين . ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكاك منه .

ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات ، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة ، وما من شك في أنه لا يزال به كثير منها ، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل ، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء .

ولقد كان من الواجب على أن أهدى هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة ، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها ، وحمايتها ، وإرشادها ، وإلهامها لا تفي به هذه المجلدات جميعها . ولكنها هي التي أشارت علىّ بأن أهدى هذا الكتاب إلى ابنتنا ، وإلى زوجها ، وإلى حفيدنا .

في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ول ديورانت

الكتاب الأول

الدولة البيزنطية فى أوج مجدها

٣٢٥ - ٥٦٥

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

التواريخ المذكورة أمام أسماء الحكام والبابوات هى تواريخ حكمهم والتواريخ كلها بعد الميلاد

٢٢٦ أردشير نيوسس الأسرة الساسانية

٢٤١ – ٢٧٢ شابور الأول ملك فارس

٢٥١ – ٣٥٦ القديس أنطونيوس المصرى

٢٩٣ – ٣٧٣ أثاناسيوس

٣٠٠ – ٣٦٧ هيلارى البواتييرى

٣٠٩ – ٣٧٩ شابور الثانى ملك فارس

٣١٠ – ٤٠٠ أوسنيوس ، الشاعر

٣١١ – ٣٨١ ألفلاس رسول إلى القوط

٣٢٥ مجمع نيقية

٣٢٥ – ٤٠٣ أوريبسيوس ، الطبيب

٣٢٥ – ٣٩١ أميانس مرسلانس ، المؤرخ

٣٢٩ – ٣٧٩ القديس بازل

٣٢٩ – ٣٨٩ جريجورى نزيانزين

٣٣١ مولد يوليان المرتد

٣٣٧ موت قسطنطين

٣٤٠ – ٣٩٨ القديس أمبروز

٣٤٠ – ٤١٠ القديس جيروم

٣٤٥ – ٤٠٧ القديس يوحنا كريستوم

٣٤٥ – ٤١٠ سماكس ، عضو مجلس الشيوخ

٣٤٨ – ٤١٠ برودنتيوس ، الشاعر

٣٥٣ – ٣٦١ قنسطنطيوس ينفرد بالملك

٣٥٤ – ٤٣٠ القديس أوغسطين

٣٥٩ – ٤٠٨ استلكو الشريف

٣٦١ – ٣٦٣ يوليان إمبراطوراً

٣٦٣ – ٣٦٤ جوفيان إمبراطوراً

٣٦٤ – ٣٦٧ فلنتنيان الأول ، إمبراطور الغرب

٣٦٤ – ٣٧٨ فالنز إمبراطور الشرق

٣٦٥ – ٤٠٨ كلوديان الشاعر

٣٦٦ – ٣٨٤ البابا دماسس الأول

٣٧٢ الهون يعبرون الفلجا

٣٧٥ – ٣٨٣ جراتيان إمبراطور الغرب

٣٧٨ معركة هدريانوپل

٣٧٩ ثيون الإسكندرى ، العالم الرياضى

٣٧٩ – ٣٩٥ ثيودوسيوس الأول ، الإمبراطور

٣٨٢ – ٣٩٢ مسألة مذبح النصر

٣٨٣ – ٣٩٢ فلنتنيان الثانى إمبراطور بالغرب

٣٨٦ – ٤٠٤ جيروم يترجم الكتاب المقدس

٣٨٧ تعميد أوغسطين

٣٨٩ – ٤٦١ القديس پتريك

٣٩٠ توبة ثيودوسيوس

٣٩٢ – ٣٩٤ يوجنيوس إمبراطور الغرب

٣٩٤ نهاية الألعاب الأولمبية

٣٩٤ – ٤٢٣ هونوريوس إمبراطور الغرب

٣٩٥ – ٤٠٨ أركاديوس إمبراطور الشرق

م ق

٣٩٥ — ٤٠١ ألريك الأول ملك القوط الغربيين
٣٩ اعترافات القديس أوغسطين
حوالى ٤٠٠ ساترناليا لمكروبيوس
٤٠٢ هزيمة ألريك عند پلنتيا
٤٠٣ رافنا تصبح عاصمة الغرب
٤٠٤ نهاية ألعاب الجالدين
٤٠٧ الفيالق الرومانية تغادر انجلترا
٤٠٨ — ٤٥٠ ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الشرق
٤٠٩ بلاجيوس ، العالم الدينى
٤١٠ ألريك ينهب رومة
٤١٠ — ٤٨٥ پركلس ، العالم الرياضى
٤١٣ أورسيوس ، المؤرخ
٤١٣ — ٤٢٦ « مدينة الله » لأوغسطين
٤١٥ اغتيال هيپاشيا
٤٢٥ جامعة القسطنطينية
٤٢٥ — ٤٥٥ ڤلنتنيان الثالث إمبراطور الغرب
٤٨٢ — ٤٣١ نسطوريوس بطرق القسطنطينية
٤٢٩ الوندال يفتحون إفريقية
٤٣١ مجمع إفسوس
٤٣٢ — ٤٨٢ سيدنيوس أپلينارس
٤٣٢ — ٤٦١ القديس پاترك فى أيرلندة
٤٣٣ — ٤٥٤ إيتيوس ، الشريف
٤٣٨ قانون ثيودوسيوس
٤٣٩ جيزريك يستولى على قرطاجنة
٤٤٠ — ٤٦١ البابا ليو الأول
٤٤٠ موسى القورينى المؤرخ

م ق

٤٤٩ الإنجليز — السكسون يغزون بريطانيا
٤٥٠ — ٤٦٧ سارسيان إمبراطور الشرق
٤٥٠ — ٥٥٠ عصر البناء والفسيفساء العظيم فى رافنا
٤٥١ هزيمة أتلا فى ترويس
٤٥٢ ليو الأول يصد أتلا عن رومة
٤٥٣ موت أتلا
٤٥٤ ڤلنتنيان الثالث يذبح إيتيوس
٢٥٥ جيسريك ينهب رومة
٤٥٦ ريسيمر يحكم الغرب
٤٥٧ — ٤٦١ ماچريان إمبراطور الغرب
٤٦٦ — ٤٨٣ القوط الغربيون يفتحون أسپانيا
٤٧٤ — ٤٩١ زينون إمبراطور الشرق
٤٧٥ — ٤٧٦ روميولوس أوغسطولس
٤٧٥ — ٥٢٦ ثيودوريك ملك القوط الشرقيين
٤٧٥ — ٥٢٤ بوئثيوس ، الفيلسوف
٤٧٦ خاتمة الدولة الرومانية الغربية
٨٠ — ٥٧٣ كسيودورس ، المؤرخ
٤٨١ كلوڤس والفرنجة يبدءون فتح غالة
٤٨٣ — ٥٣١ كافادة الأول ، الشيوعية المزادقية
٤٩٠ — ٥٧٠ پروكپيوس ، المؤرخ
٤٩١ — ٥١٨ أنستاسيوس الأول إمبراطور الشرق
٤٩٣ — ٥٢٦ ثيودوريك يحكم إيطاليا
٥٢٥ — ٦٠٥ الإسكندر الترالينى ، الطبيب

ق م

٥٢٧ — ٥٦٥ جستنيان الأول الإمبراطور

٥٢٩ جستنيان يغلق مدارس أثينة ، القديس بندكت يؤسس منتى كسينو

٥٣٠ — ٦١٠ فرتناتس الشاعر

٥٣١ — ٥٧٩ كسرى الأول ملك فارس

٥٣٢ — ٥٣٧ كنيسة أيا صوفيا

٥٣٣ بلساريوس يستعيد إفريقية

٥٣٥ — ٥٥٣ « الحرب القوطية » في إيطاليا

٥٣٨ — ٥٩٤ جريجوري التوري المؤرخ

ق م

٥٤٦ — ٥٥٣ توتيلا يحكم إيطاليا

٥٥٢ دخول صناعة الحرير في أوربا

٥٧٠ — ٦٣٦ إزدور الأشبيلي ، صاحب دائرة المعارف

٥٧٧ انتصار الإنجليز — السكسون في ديورهام

٥٨٩ — ٦٢٨ كسرى الثاني ملك فارس

٦١٦ الفرس يفتحون مصر

٦٣٧ — ٦٤٢ العرب يفتحون فارس

٦٤١ نهاية الأسرة الساسانية

الباب الاول

توليان المرتد

٣٣٢ - ٦٣

الفصل الأول

تراث قسطنطين

لما أحس الإمبراطور قسطنطين بدنو أجله جمع حوله فى عام ٣٣٥ أبناءه وأبناء أخيه وقسم بينهم حكم الإمبراطورية الضخمة التى استولى عليها ، وكان عمله هذا مثلا من أمثلة الحمق الذى تدفع إليه معزة الأبناء . وقد خص ابنه الأكبر قسطنطين الثانى بالغرب — بريطانيا ، وغالة ، وأسپانيا ، وخص ابنه قنسطنطيوس Constantius بالشرق — بآسية الصغرى ، وسوريا ، ومصر ؛ وخص ابنه الأصغر قنسطانس Constans بشمالى أفريقية وإيطاليا ، وإليركُم ، وتراقية بما فى ذلك العاصمتان الجديدة والقديمة — القسطنطينية ورومة — ، وأعطى ابنى أخ له أرمينية و مقدونية وبلاد اليونان . وكان الإمبراطور المسيحى الأول قد بذل حياته وحيوات كثيرة غير حياته ، فى إعادة الملكية ، وتوحيد العقيدة الدينية فى الدولة الرومانية ؛ فلما مات فى عام ٣٣٧ تعرض هذا كله للخطر الشديد ، ولم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين ليس فيهما حظ لمختار ، فإما أن تقسم حكومة البلاد وإما أن تتعرض لخطر الحرب الأهلية ؛ ذلك أن حكمه لم يدم حتى يخلع عليه القداسة طول الزمن ، ولم يكن يضمن والحالة هذه أن تنعم البلاد بالسلم إذا خلفه

على العرش وارث واحد ، ولهذا بدا له أن شر تقسيم البلاد بين عدة حكام أهون من شر الحرب الأهلية .

غير أن البلاد مع هذا لم تنج من الحرب الأهلية ، ويسر الاغتيال حل مشكلة التقسيم . ذلك أن الجيش رفض كل سلطان عدا سلطان أبناء قسطنطين ، واغتيل جميع الذكور من أقارب الإمبراطور السابق عدا جالس Gallus ويوليان Julian ابني أخيه ، فأما جالس فكان عليلا يرجى ألا تطول حياته كثيراً ، وأما يوليان فكان في سن الخامسة ، ولعل سحر الطفولة هو الذى رقق قلب قنسطنطيوس الذى تعزو إليه الروايات المتواترة ، ويعزو إليه أمنيوس ، هذه الجرائم[1] . وأوقد قنسطنطيوس مرة أخرى نار الحرب مع بلاد الفرس وهى حلقة من النزاع القديم بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذى لم تخمد جذوته واقع الأمر من أيام مرثون ، وأجاز لإخوته أن يبيد بعضهم بعضاً بسلسلة من الاغتيالات الأخوية . ولما انفرد بالملك (٣٥٣) عاد إلى القسطنطينية ، وحكم الدولة التى وجدت من جديد حكماً بذل فيه كل ما اتصف به من عجز يصحبه الإخلاص ، واستقامة شديدة ، ولم يكن يهنأ له عيش لارتيابه فى الناس وسوء ظنه بهم ، ولا يحبه أحد لقسوته ، ولا يرقى إلى مصاف العظماء لكبريائه وغروره .

وكانت المدينة التى سماها قسطنطين روما الجديدة Nova Roma ، والتى سميت باسمه فى أثناء حياته ، قد أقامها على مضيق البسفور جماعة من المستعمرين اليونان حوالى عام ٦٥٧ ق . م ، وظلت ما يقرب من ألف عام تعرف باسم بزنطية ، وسيظل لفظ بزنطى عنواناً لحضارتها وفنها على مر الأيام ، ولم يكن ثمة موضع آخر فى الأرض كلها أصلح منها لإقامة عاصمة لدولة ما . وقد أطلق عليها نابليون فى تلزت Tilsit عام ١٨٠٧ اسم إمبراطورية العالم ، وأبى أن يسلمها إلى الروسيا التى كانت تتوق إلى السيطرة عليها مسوقة إلى هذا باتجاهما يخترق بلادها من الأنهار . وتستطيع الدولة المسيطرة عليها أن تغلق

فى أى وقت تشاء باباً رئيسياً بين الشرق والغرب ، وفيها تجتمع تجارة ثلاث قارات ، وتفرغ غلات مائة من الدول ، وهنا يستطيع جيش أن يصمد ليصد الفرس المتحضرين ، والهون الهمج الشرقيين ، وصقالبة الشمال ، وبرابرة الغرب . وتحميها المياه الدافقة من جميع الجهات إلا جهة واحدة يستطاع حمايتها بالأسوار المنيعة ، وتستطيع الأساطيل الحربية والسفن التجارية أن تجد فى القرن الذهبى — وهو خليج صغير من خلجان البسفور — مرفأ أميناً يقيها هجمات السفن المعادية والأعاصير المدمرة . ولعل اليونان قد سموا هذا الخليج قرناً Keras لشكله الذى يشبه القرن ، أما وصفه بالذهبى فقد أضيف إليه فيما بعد ليوحى إلى سامعيه بما ينم به هذا المرفأ من ثروة عظيمة يأتى إليه بها السمك والحبوب والتجارة . ورأى الإمبراطور المسيحى أنه واجد فى هذا المكان ، بين السكان الذين تدين كثرتهم بالمسيحية ، والذين طال عهدهم بالملكية والأبهة الشرقيتين ، من تأييد الشعب ما لا يستطيع أن يجده فى رومة ، وما يضن به عليه مجلس شيوخها المتغطرس وسكانها الوثنيون . وهنا عاشت الدولة الرومانية ألف عام بعد وفاته رغم هجمات جحافل البرابرة التى أغرقت رومة فيما بعد ، فقد هدد القوط ، والهون ، والوندال ، والأفار ، والفرس ، والعرب ، والبلغار ، والروس العاصمة الجديدة ، وعجزوا جميعاً عن الاستيلاء عليها ، ولم تسقط فى تلك القرون العشرة إلا مرة واحدة ، وكان سقوطها فى أيدى الصليبيين المسيحيين الذين كان حبهم للذهب يزيد قليلا على حبهم للدين . وظلت بعد ظهور الإسلام ثمانية قرون تصد جيوش المسلمين التى اكتسحت أمامها آسية وإفريقية ، وأسبانيا . وفيها ظلت الحضارة اليونانية قائمة لا ينضب معينها تحتفظ للعالم بشعلة أنقذته فيما بعد من الهمجية ، وعضت بالنواجذ على كنوزها القديمة ، حتى أسلمتها آخر الأمر إلى إيطاليا فى عصر النهضة ، ومنها إلى العالم الغربى .

وفى عام ٣٢٤ سار قسطنطين الأكبر على رأس جماعة من قواده الجند ،

والمهندسين ، والقساوسة ، وانتقل بهم من مرفأ بيزنطية، واجتاز ما حوله من التلال ، ليرسم حدود العاصمة التي كان يعتزم إنشاءها . ولما عجب بعضهم من اتساع رقعتها رد على هؤلاء بقوله : « سأواصل السير حتى يرى الله الذى لاتدركه الأبصار أن من الخير أن أقف[٢] » . وكانت هذه سنته التي جرى عليها طوال حكمه ، فلم يكن يتردد قط فى القيام بأى عمل ، أو النطق بأى لفظ ، يمكن أن تنال به خططه أو دولته ذلك التأييد القوى الذى ينبعث من عاطفة الشعب الدينية وولائه للكنيسة المسيحية .

ثم جاء « إطاعة لأمر الله »[٣] بآلاف الصناع والفنانين لإقامة أسوار المدينة ، وحصونها ، ودور المصالح الحكومية ، وقصورها ، ومنازل سكانها . وزين الميادين والشوارع بالفساقى ، والأبهاء ذات العمد ، وبالنقوش التى جاء بها من مختلف المدن فى دولته الواسعة بلا تمييز بينها ؛ وهداه حرصه على تسلية العامة وإيجاد متنفس ينصرف فيه شغبها واضطرابها ، فأنشأ مضماراً للسباق تستطيع فيه الجماهير أن تشبع غريزة اللعب والمقامرة على نطاق لم يُر له مثيل إلا فى رومة أيام انحلالها . وأعلنت رومة الجديدة عاصمة للدولة الشرقية فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ ، واتخذ ذلك اليوم بعدئذ عيداً يحتفل به فى كل عام بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة . وكان ذلك إيذاناً بانتهاء عهد الوثنية من الوجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إذا صح ذلك التعبير . وبذلك انتصر الشرق فى معركته الروحية على الغرب الظافر بقوته المادية الجسمية ، وسيطر على الروح الغربية مدى ألف عام .

وما كان يمضى على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة حتى أصبحت أغنى مدائن العالم وأجملها وأعظمها حضارة ، وظلت كذلك مدى عشرة قرون كاملة . وبينا كان عدد سكانها فى عام ٣٣٧ لا يزيد على ٥٠٫٠٠٠ نسمة إذا هم يبلغون فى عام ٤٠٠ حوالى مائة ألف ، وفى عام ٥٠٠ ما يقرب من مليون[٤] . وثمة وثيقة

رسمية (يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٤٥٠) تقول إنه كان بالمدينة وقت كتابة هذه الوثيقة خمسة قصور إمبراطورية وستة قصور لسيدات الحاشية ، وثلاثة لعظماء الدولة ، و٤٣٨٨ من الدور الفخمة ، و٣٢٢ شارعاً ، ٥٢ مدخلا ذا عمد ؛ هذا فضلا عن نحو ألف حانوت ، ومائة مكان للهو ، وكثير من الحمامات الفخمة ، والكنائس المزدانة بالنقوش الجميلة ، والميادين الواسعة العظيمة التي كانت متاحف حقة لفن العالم القديم[*] . وقد أنشئت على التل الثاني من التلول التي كانت تعلو بالمدينة فوق ما يحيط بها من المياه سوق قسطنطين ، وهي ساحة رحبة إهليلجية الشكل يدخل الإنسان إليها من كلا جانبيها تحت قوس من أقواس النصر . وكان يحيط بالساحة مداخل ذات عمد ، وتماثيل ، وكان في ناحيتها الشمالية بناء فخم لمجلس الشيوخ ، وفي وسطها عمود من حجر السماق يعلو فوق الأرض ١٢٠ قدماً ، ويتوجه تمثال لأپلو ، ويقال إن هذا العمود من صنع فدياس نفسه[*] .

وكان يمتد من السوق العامة في اتجاه الغرب طريق وسط تقوم على جانبيه قصور وحوانيت ، وتظلله طائفة من العمد ، ويخترق المدينة إلى الأوغسطيوم Augusteum ، وهو ميدان واسع طوله ألف قدم وعرضه ثلثمائة ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى هلينا Helena أم قسطنطين بوصفها Augusta (العظيمة) . وعند الطرف الشمالي من هذا الميدان قامت في صورتها الأولى كنيسة أيا صوفيا Sophia — أي كنيسة الحكمة القدسية . وكان عند طرفه الشرقي قاعة ثانية لمجلس الشيوخ ؛ وعند طرفه الجنوبي شيد القصر الرئيسي للإمبراطور ، كما شـــيدت حمامات زيوكسپس Zeuxippus الضخمة التي كانت تحتوي على مئات من التماثيل المنحوتة من الرخام ، أو المصبوبة من البرنز . وعند الطرف الغربي للطريق الأوسط كان يقوم بناء ضخم مكون من عقود — يعرف باسم الميليون milion

(*) وقد اسود لونه بتأثير الزمن والحرائق ، وأصبح الآن يعرف بالعمود المحروق .

أو شاخص الميل — ومنه تتشعب الطرق العظيمة الكثيرة (التي لا يزال بعضها باقياً للآن) ، والتي تربط عاصمة الدولة بمختلف ولاياتها . وهنا أيضاً في غرب الأوغسطيوم أنشئ ميدان السباق العظيم ، وبينه وبين كنيسة أياصوفيا كان يمتد القصر الإمبراطوري أو القصر المقدس ، وهو بناء معقد من الرخام تحيط به مائة وخمسون فداناً من الحدائق والأبواب ذات العمد . وانتشرت في انحاء مختلفة من المدينة وضواحيها بيوت الأشراف . وفي الشوارع الجانبية الضيقة الملتوية المزدحمة بالسكان كانت حوانيت التجار ومساكن العامة على اختلاف أنواعها . وكان الطريق الأوسط ينتهي عند طرفه الغربي « بالباب الذهبي » في سور قسطنطين ، ويطل من هذا الباب على بحر مرمرة . وكانت القصور تقوم على الشواطئ الثلاثة وتضطرب ظلالها الفخمة في أمواج البحار .

وكان جل أفراد الطبقة العليا من سكان المدينة من الرومان ، أما الكثرة الساحقة من غير هذه الطبقة فكانوا من اليونان . وكان هؤلاء وأولئك وغيرهم من السكان يسمون أنفسهم « يونانا » . وكانت اللاتينية لغة الدولة الرسمية ، ولكن اليونانية ظلت لغة الشعب حتى حلت قبيل مستهل القرن السابع محل اللاتينية في المصالح الحكومية نفسها . وكانت تلي طبقة كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ طبقة من الأشراف قوامها ملاك الأراضي الذين يقيمون في المدينة تارة وفي ضياعهم في الريف تارة أخرى . وكانت هناك طبقة أخرى هي طبقة التجار تحتقرها الطبقات السالفة الذكر ولكنها تنافسها في الثراء . وكان هؤلاء التجار يستبدلون ببضائع القسطنطينية والإقليم الذي من خلفها غلات بلاد العالم . ويلي طبقة التجار في المدينة طبقة أخرى مطردة الزيادة من موظفي الحكومة ، ومن تحتهم أصحاب الحوانيت ورؤساء الصناع الذين يعملون في مختلف الحرف ، وتليهم طبقة يعد أفرادها عمالا أحراراً من الوجهة الرسمية الشكلية ، لا حق لهم في الانتخابات العامة ، جبلوا على الشغب والاضطراب ، أذلهم الجوع وخضعوا

عادة لرجال الشرطة ، يشترى هدوءهم بالألعاب وسباق الخيل ، وبما يوزع عليهم فى كل يوم من الخبز أو الحبوب التى تبلغ ثمانين ألف مكيال ، ليظلوا هادئين مسالمين . وكانت أحط طبقات المجتمع فى القسطنطينية ، كما كانت أحطها فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، طبقة الأرقاء ، وكان عددهم وقتئذ أقل من عددهم فى رومة أيام قيصر ، وكانوا يلقون من المعاملة خيراً مما كانوا يلقونه فى أيامه بفضل شرائع قسطنطين وتأثير الكنيسة التى خففت عن كاهلهم كثيراً من الأعباء ، وأشعرت سادتهم الرحمة بهم والإشفاق عليهم .

وكان السكان الأحرار يخرجون من أعمالهم فى مواسم معينة ، ويجتمعون فى ميدان السباق ، فيتغصص بهم على سعته . وكان فى هذا الميدان مدرج طوله خمسمائة وستون قدماً وعرضه ثلثمائة وثمانون ، وتتسع مقاعده لعدد من النظارة يتراوح بين ثلاثين ألفاً وسبعين(٧) ، يحميهم عن المجتلد خندق ذو شكل إهليلجى ؛ وكان فى وسعهم خلال الفترات التى بين الألعاب أن يتنزهوا فى طريق ظليل ذى خطار من الرخام طوله ٢٧٦٦ قدماً(٨) . وكان يخترق مضمار السباق جدار منخفض يمتد فى وسطه فى أكبر طوليه من إحدى نهايتيه إلى الأخرى ويسمى الأسبينا spina أو عموده الفقرى ؛ وقد صفت التماثيل على جانبيه ، وقامت فى وسطه مسلة من مسلات الملك تحتمس الثالث جىء بها من مصر . وكان فى طرفه الجنوبى عمود مكون من ثلاث جهات من البرنز ملتوية بعضها على بعض . أقيم فى بادئ الأمر فى دلفى تخليداً لذكرى معركة پلاتيه plataea (٤٧٩ ق . م) ؛ ولا تزال المسلة والعمود قائمين حتى الآن . وقد ازدانت الكاثزما Kathisma أى مقصورة الإمبراطور فى القرن الخامس بتماثيل لأربعة جياد من البرنز المذهب من عمل ليسبوس فى الزمن القديم . وفى هذا المضمار كان يحتفل بالأعياد القومية العظيمة ، فتسير فيه المواكب ، وتقام المباريات الرياضية ، والألعاب البهلوانية ، وتقتتل الحيوانات وتصاد ، وتعرض الوحوش والطيور الأجنبية الغريبة . وبفضل التقاليد

اليونانية والعاطفة المسيحية كانت أسباب التسلية واللهو فى القسطنطينية أقل قسوة من نظائرها فى رومة ، وشاهد ذلك أننا لا نسمع فى العاصمة الجديدة عن قتال المجالدين ؛ ومع هذا فإن أشواط سباق الجياد والعربات البالغة أربعة وعشرين شوطاً ، وهى الجزء الأهم من منهاج الاحتفالات ، كانت تثير فى نفوس الجماهير ما تثيره حفلات الأعياد الرومانية فى نفوس الرومان من حماسة بالغة . وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق ، أو خضر ، أو حمر ، أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات ، وحسب ما يرتدون من ثياب ؛ وعلى هذا النحو أيضاً ينقسم النظارة ، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم . وكان الحزبان الرئيسيان — الزرق والخضر — يقتتلان بالخناجر فى المضمار وبالخناجر أحياناً فى شوارع المدينة : ولم يكن فى وسع السكان أن يعبروا عن مشاعرهم إلا فى أثناء هذه الألعاب والمباريات ، ففيها كانوا يطالبون بحقهم فى أن ينالوا رعاية الحكام ، أو فيما يريدونه من ضروب الإصلاح ، أو فى الشكوى من ظلم الحكام ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتبون على الإمبراطور نفسه وهو جالس فى مقعده الأمين الرفيع الذى كان يتصل بقصره بمخرج يقوم عليه حراس مدججون بالسلاح .

أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لاحول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك أن دستور قسطنطين ، الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة : وقد كان فى وسع مجلسى الشيوخ فى القسطنطينية وفى رومة أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما ، وأن يشرعا ، ويفصلا فى بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى الأعلى المقدس : يضاف إلى هذا أنه كان من حق الإمبراطور أن يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه ، كما أن إرادته كانت هى

القانون الأعلى . وكان الأباطرة يرون أن الدمقراطية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها ، وأنها قد قضت عليها الإمبراطورية التى ساعدت هى على إقامتها . نعم إنه قد يكون فى وسعها أن تحكم مدينة ، ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الأوضاع ، ولقد أسرفت فى الحرية حتى جعلتها إباحية ، ثم أسرفت فى الإباحية حتى أصبحت فوضى ، وحتى هددت حروبها الأهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم البحر المتوسط ، وانتهى دقلديانوس وقسطنطين إلى أن النظام لا يمكن أن يعود إلا بقصر المناصب العليا على الأشراف ما بين كنت Conites ودوق Duces ، لا يختارون على أساس مولدهم ، بل يعينهم الإمبراطور الذى يتحمل تبعة الحكم كاملة ، ويستمتع بالسلطه كاملة ، والذى تحيط به هالة رهيبة من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب ، والأبهة الشرقية ، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج ، والتقديس ، والتأييد . ولعل هذا النظام كان له ما يبرره من الظروف المحيطة بالدولة فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يفرض على إرادة الحاكم قيوداً إلا مشورة أعوان يهمهم أن يرضوه ، وإلا خوفه من الموت المفاجئ . نعم إن هذا النظام قد أوجد أداة إدارية وقضائية قديرة إلى أقصى حدود القدرة ، وأطال حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسى وبالجمود فى كل مناحى الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ، ودسائس الخصيان ، وحروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التى شبت نارها فى القصر ، والتى رفعت إلى العرش أباطرة كفاة فى بعض الأحيان ، ولكنها قلما رفعت إليه أباطرة ذوى استقامة خلقية ؛ وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم ، أو من العصابات الأجركية ، أو من الحمقى البلهاء .

الفصل الثانى

المسيحيون واليهود

فى القرن الرابع الميلادى كانت الشئون الكنسية ، فى عالم البحر المتوسط الذى تعتمد فيه الدولة اعتماداً كبيراً على الدين ، قلقة مضطربة إلى حد شعرت الحكومة معه أن لا بد لها من أن تتدخل فى أسرار الدين وخفاياه : ذلك أن مجمع نيقية الذى عقد فى عام ٣٢٥ لم يضع حداً للنقاش الحاد الذى احتدم أواره بين أثناسيوس وأريوس ، بل ظل كثير من الأساقفة — كانوا هم الكثرة الغالبة فى الشرق[٩] — يناصرون أريوس سراً أو جهراً ؛ أى أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله ، ولكنه لا يشترك مع الأب فى مادته ولا فى خلوده . ولم يستنكف قسطنطين نفسه ، بعد أن قبل قرار المجمع ، وطرد أريوس من البلاد ، أن يدعوه إلى اجتماع شخصى معه (٣٣١) ؛ فلما اجتمع به لم يجد فى أقواله ما يستطيع أن يعده خروجاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم . واحتج أثناسيوس على ذلك ، فاجتمع فى صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلعه من كرسى الإسكندرية الدينى (٣٣٥) ، وظل عامين طريداً فى غاله . أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى ، وأعلن قبوله للعقيدة التى قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها . وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر الإسكندر بطرق القسطنطينية أن يقبله فى العشاء الربانى . وفى هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسى هذه القصة المحزنة المؤلمة :

«كان ذلك يوم السبت ، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين فى اليوم الذى يليه ، ولكن القصاص الإلهى عاجله فأحبط عمله الإجرامى الجرىء . ذلك

أنه لما خرج من القصر الإمبراطورى . . . واقترب من العمود السماق المقام فى سوق قسطنطين ، تملكه الرعب ، وأصيب بإسهال شديد . . . خرجت فيه أمعاؤه من بطنه ، وأعقبه نزيف حاد ، ونزلت أمعاؤه الدقاق . ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبده قد انفصلا من حدة النزيف ومات لساعته(١٠) » .

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسائل نفسه : ألم يكن أريوس فى واقع الأمر كافراً زنديقاً ؟ لكنه لما مات فى السنة التالية تلقى مراسم التعميد على يد صديقه ومشيره يوسبيوس أسقف نقوميديا ، وهو من أتباع أريوس نفسه .

وعنى قنسطنطيوس بشئون الدين عناية أكثر جدية من عناية أبيه ، فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس ، وشعر بأن واجبه الأدبى يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحى . وطرد أثناسيوس من كرسى الإسكندرية مرة أخرى (٣٣٩) ، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين . ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد ، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما فى المادة . وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم ، وكان الغوغاء فى بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها ، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح . وكان أثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله ، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه ، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطر فى خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضا حياته فى معظمها لأشد الأخطار ، وأن يهيم على وجهه فى البلاد الأجنبية . وظل خمسين عاما (٣٢٣ — ٣٧٣) صابراً يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته ، مستعيناً على ذلك بمهارة الدبلوماسى وعنف الرجل البليغ . ولم تلن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا

ليبريوس واستسلم . وإليه يرجع معظم الفضل في استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث .

وعرض أثناسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (٣٤٠)، فرده يوليوس إلى كرسيه ، ولكن مجمعاً من أساقفة الشرق عقد في أنطاكية (٣٤١) ، وأنكر على البابا حقه في هذا الحكم، ورشح جريجورى ، وهو رجل من أتباع أريوس ، أسقفاً لكرسي الإسكندرية . لكن جريجورى لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين ، واضطر أثناسيوس على أثرها إلى التخلي عن كرسيه حقناً للدماء (٣٤٢)[١١] . وثارت في القسطنطينية فتنة أخرى من نوعها ، كان سببها أن قنسطنطيوس أمر أن يستبدل ببولس ، الرجل الوطني المستمسك بالدين القويم، مقدونيوس الأريوسي ، فهب جماعة من مؤيدي بولس يقاومون جند الإمبراطور ، وقتل في الاضطرابات التي أعقبت هذه المقاومة ثلاثة آلاف شخص ، وأكبر الظن أن الذين قتلوا من المسيحيين بأيدي المسيحيين في هذين العامين (٣٤٢ — ٣٤٣) يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين في تاريخ رومة كله . واختلف المسيحيون وقتئذ في كل نقطة عدا نقطة واحدة ، هي أنه يجب إغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة أملاكها ، واستخدام أسلحة الدولة التي كانت توجه من قبل لقتال المسيحية في قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون فيها[٢١] . وكان قسطنطين قد قاوم القرابين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريماً باتاً ؛ فلما جاء قنسطانس حرمها وأنذر من يعصي أمره بالموت ؛ ثم جاء قنسطنطيوس فأمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية في الدولة ، ومنع جميع الطقوس الوثنية ، وأنذر من يعصي أمره بقتله ومصادرة أملاكه ، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر[١٣]. ومع هذا كله فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة في بحر المسيحية الآخذ في الاتساع ، فكان في المدن القديمة — أثينة ، وأنطاكية ، وأزمير ، والإسكندرية

ورومة —وبخاصة بين الأشرف وفى المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين فى أحيائها المختلفة . وظلت الألعاب تقام فى أولمبيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥) ، والطقوس الخفية يحتفل بها فى إلوسيس ، حتى جاء ألريك فهدم هيكلها فى عام ٣٩٦؛ولم تنقطع مدارس أثينة عن إذاعة تعاليم أفلاطون ، وأرسطو ، وزينون ، وإن فسرتها تفسيرات تلطف من وثنيتهم . (أما تعاليم أبيقور فقد حرمت وأصبح اسم هذا الفيلسوف مرادفاً للكفر) : وظل قسطنطين وولده يؤديان ما كان مقرراً من رواتب لرؤساء المدارس الفلسفية وأساتذتها الذين يكونون ما يمكن أن نسميه ببعض التساهل جامعة أثينة ؛ كما ظل المحامون والخطباء يهرعون إلى تلك المدينة ليتعلموا فيها أساليب الخطابة وحيلها ؛ وكان السوفسطائيون الوثنيون — أو معلمو الحكمة — يعرضون بضاعتهم على كل من يستطيع شراءها : وكانت أثينة كلها مولعة ومعجبة ببروهيرسيوس Prohaeresius ، الذى جاءها شابا فقيراً ، واشترك مع طالب آخر فى فراشه وردائه ، وما زال يرتقى حتى شغل كرسى البلاغة الرسمى ، واحتفظ حتى سن السابعة والثمانين بوسامته ، وقوته ، وفصاحته ، احتفاظاً جعل تلميذه يونبيوس يرى أنه « إله لا يهرم ولا يموت »[١٤] :

ولكن حامل لواء السوفسطائيين فى القرن الرابع هو ليبانيوس Libanius : وكان مولده فى أنطاكية عام ٣١٤ ، ولكنه انتزع نفسه من أمه المولعة به ، ووفد إلى أثينة للتعلم والدرس ، ولما عرض عليه فى بلده أن يتزوج من وارثة غنية إذا بقى فيها قال إنه يرفض الزواج من إلهة إذا حال ذلك بينه وبين رؤية دخان أثينة[١٥] . ولم يكن يرى أن معلميه فى هذه المدينة أنبياء ملهمون بل كان يراهم مجرد منبهين إياه للتأمل والتفكير ، ولهذا فقد علم هو نفسه وسط متاهة من الأساتذة والمدارس . وبعد أن ظل يحاضر وقتا ما فى القسطنطينية ونقوميديا عاد إلى أنطاكية (٣٥٤) ، وأقام فيها مدرسة ظلت مدى أربعين عاما أشهر مدارس الإمبراطورية وأكثرها طلابا . وقد بلغ من الشهرة (كما يؤكد لنا هو نفسه) حداً جعل الناس يتغنون بالفقرات الأولى من تعاليمه[١٦] وكان من بين تلاميذه أميانس مرسلينس

Ammianus Marcellinus والقديس يوحنا كريسستوم St. John Chrysostom والقديس باسيلي St. Basil . وكان يستمتع برضاء الأمراء المسيحيين ، وإن كان يخطب ويكتب في الدفاع عن الوثنية ، ويقرب القرابين في الهياكل . ولما أضرب خبازو أنطاكية عن العمل اختاره الطرفان المتنازعان حكماً بينهما ؛ ولما ثارت أنطاكية على ثيودوسيوس الأول اختارته المدينة المعذبة ليدافع عن قضيتها أمام الإمبراطور(١٧) . وقد طالت حياته ما يقرب من جيل كامل بعد أن اغتيل صديقه يوليان ، وبعد أن انهارت دعائم النهضة الوثنية .

وتشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة : فكان منها المثراسية ، والأفلاطونية الجديدة ، والرواقية ، والكلبية ، وكان منها الطقوس المحلية التي تقام لآلهة المدن أو الريف ، ثم فقدت المثراسية مكانتها ، ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر في الدين والفلسفة . وكان للعقائد التي كساها أفلوطين ظلا من الحقيقة — كالقول بوجود نفس ثلاثية تؤلف بين الحقائق كلها وتربطها برباط واحد ؛ وبالعقل أو الإله الوسيط الذي قام بعملية الخلق ، والروح وهي بوصفها الجزء القدسي ، والمادة وهي الجسم ومبعث الشر ، وبمناطق الوجود التي هبطت على درجاتها غير المنظورة النفس البشرية من الله إلى الإنسان ، والتي تستطيع أن ترقى عليها من الإنسان إلى الله — كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها في آراء الرسولين بولس ويوحنا وفي كثير ممن حذا حذوهما من المسيحيين ، وفي تشكيل كثير من العقائد المسيحية الخارجة على الدين القويم(١٨) . وقد ضم أيمبلقوس Iamblichus من أهل خلقيس Chalcis السورية المعجزات إلى الشعائر الخفية في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فقال إن الرجل المتصوف لا يكتفي بإدراك الأشياء التي لا تدركها الحواس بل إنه — بفضل اتصاله بالله في أثناء نشوته — قد أصبحت له مواهب ربانية من السحر والاطلاع على الغيب . ثم جمع مكسموس الصوري تلميذ أيمبلقوس بين دعوى المواهب الصوفية

والوثنية المؤمنة المخلصة الفصيحة التى انتصرت على يوليان وأخضعته لسلطانها ؟ وإلى القارئ فقرة من أقوال مكسموس يدافع فيها عن استخدام الأوثان فى العبادات الوثنية ويرد على استهزاء المسيحيين بها :

« الله الأب الذى صور كل ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء ، وأعظم من الزمان ، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة ، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت ، أو أن تراه عين ، لكننا نحن لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات ، والأسماء ، والصور ، وبالذهب المطروق ، والعاج ، والفضة ، وبالنبات ، والأنهار ، وبالسيول ، وقلل الجبال فى إشباع حنيننا إلى معرفته ؛ ونداري عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل فى هذا العالم . . . فإذا ما تاق يونانى لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة فنية من عمل فدياس أو تاقت نفس مصرى لهذه الذكرى فعبد الحيوان ، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار ، فإن اختلافهم عنى لا يغضبنى ؛ وكل ما أطلبه إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا ، وأن يحبوا[19] .

وكانت فصاحة ليبانيوس ومكسموس من الأسباب التى جعلت يوليان يرتد من المسيحية إلى الوثنية ، ولما أن اعتلى تلميذهما عرش الإمبراطورية هرع مكسموس إلى القسطنطينية ، وأنشد ليبانيوس فى أنطاكية نشيد النصر والفرح : « هانحن أولاء قد عدنا حقاً إلى الحياة ، وهب على الأرض كلها نسيم السعادة لما أن حكم العالم إله حق فى صورة إنسان » [20] .

الفصل الثالث

قيصر الجديد

ولد فلاڤيوس كلوديوس يوليانوس Flavius Claudius Julianus فى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية فى عام ٣٣٢ ، وكان ابن أخى قسطنطين . وقد قتل أبوه ، وأخوه الأكبر ، ومعظم أبناء عمه ، فى المذبحة التى حدثت أيام حكم أبناء قسطنطين . وأرسل هو إلى نقوميديا ليتلقى فيها العلم على الأسقف يوسبيوس ؛ ولقن من علوم اللاهوت المسيحية أكثر ما يطيقه عقله ، وظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديسا . ولما بلغ السابعة من عمره بدأ يدرس الآداب القديمة على مردونيوس Mardonius ، وسرى حب هومر وهزيود والتحمس لآدابهما من الخصى الهرم إلى تلميذه ، ودخل يوليان إلى عالم الأساطير اليونانية الشعرى الزاهر بدهشة وبهجة عظيمتين .

وفى عام ٣٤١ نفى يوليان وأخوه جالوس Gallus إلى كپدوكيا لأسباب لا نعلمها الآن ، وظلا ست سنين يكادان أن يكونا فيها سجينين فى حصن ماسلوم Macellum ولما أطلق سراحهما سمح ليوليان أن يعيش وقتاً ما فى القسطنطينية ولكن مرح الشباب ، وما امتاز به من إخلاص وذكاء حبباه إلى الشعب حباً أقلق بال الإمبراطور ؛ فأرسله مرة أخرى إلى نيقوميديا حيث أخذ يدرس الفلسفة . ولما أراد أن يستمع فيها إلى محاضرات ليبانيوس حرم عليه هذا ، ولكنه استطاع أن يحصل على مذكرات وافية لدروس هذا المعلم . وكان وقتئذ شابا فى السابعة عشرة من عمره ، بهى الطلعة ، جياش القلب بالعواطف ، متأهباً لأن يبهره سحر الفلسفة الخطر ، وبينا كانت الفلسفة ، وبينا كان التفكير الحر يأتيان إليه بكل مافيهما من إغراء ، كانت المسيحية تعرض عليه بوصفها مجموعة من العقائد التعسفية

التي لا تقبل الجدل ، وكنيسة تمزقها الفضائح ، منقسمة على نفسها بسبب منازعات أريوس وأتباعه ، وبسبب تبادل اللعنات بين الشرق والغرب ، وتكفير كل منهما الآخر .

وفي عام ٣٥١ جعل جالوس قيصراً أي ولياً للعهد — وعهد إليه حكم أنطاكية ، وأحسن يوليان وقتاً ما بأنه آمن من ريبة الإمبراطور فأخذ يتنقل من نيقوميديا إلى برجوم ثم إلى إفسوس ، يدرس فيها الفلسفة على إدسيوس Edesius ، ومكسموس ، وكريسنثيوس Chrysanthius وقد أتم هؤلاء تحويله سراً إلى الدين الوثني . وفي عام ٣٥٤ استدعى قسطنطين جالوس ويوليان إلى ميلان حيث كان يعقد محكمة للنظر في أمرهما . ذلك أن جالوس تعدى حدود السلطة المخولة له ، وحكم الولايات الأسيوية حكما بلغ من استبداده وقسوته أن ارتاع له قسطنطين نفسه . وحوكم الرجل أمام الإمبراطور ، ووجهت إليه عدة تهم ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام ، ونفذ على الفور : وأما يوليان فقد ظل تحت الحراسة في إيطاليا عدة أشهر ، حتى أفلح أخيراً في أن يقنع الإمبراطور المرتاب أن السياسة لم تكن له على بال في يوم من الأيام ، وأن اهتمامه كله موجه إلى الفلسفة ؛ واطمأن قنسطنطيوس إذ عرف أن غريمه ليس إلا رجلا فيلسوفاً ، فنفاه إلى أثينة (٣٥٥) . وإذ كان يوليان قبل هذا النفي يتوقع الإعدام ، فإنه لم يجد صعوبة في الرضا بالنفي إلى بلد هو منبع العلم ، والدين ، والتفكير الوثني ؛

وقضى في تلك المدينة ستة أشهر ، كانت من أسعد أيام حياته ، يدرس الفلسفة في الغياض التي استمعت إلى صوت أفلاطون في الزمن القديم ، وعقد فيها أواصر الصداقة مع ثامسطيوس Themistius وغيره من الفلاسفة المخلدين والمنسيين ، الذين أعجبوا بشغفه بالعلم ، وكسب قلوب أهل المدينة برقة شمائله ، وتواضعه ، وجميل مسلكه . وكان يُشَبَّه هؤلاء الوثنيين المثقفين المهذبين الذين ورثوا ثقافة قرون عشرة بعلماء الدين الوقورين الذين كانوا يحيطون به في نقوميديا

أو بأولئك الساسة والحكام الأتقياء الذين رأوا من الواجب عليهم أن يقتلوا أباه وإخوته وكثيرين غيرهم من خلق الله ؛ وخاص من هذا كله إلى أنه ليس ثمة وحوش أكثر تعطشاً للدماء من المسيحيين[٢١] . وكان إذا سمع أن معابد مشهورة قد دمرت ، وأن كهنة وثنيين قد حكم عليهم بالإعدام ، وأن أملاكهم قد وزعت على الخصيان وأشياع السلطان أجهش بالبكاء[٢٢]. وكان هذا فى أغلب الظن هو الوقت الذى قبل فيه أن يتعلم سراً وفى حذر شديد طقوس إليسيز الخفية وأسرارها ؛ وكانت المبادئ الأخلاقية الوثنية تتجاوز عما لجأ إليه فى ارتداده من مخادعة ورياء . هذا إلى أن أصدقاءه ومعلميه المطلعين على سره لم يكونوا يوافقون على أن يجهر بهذا الارتداد ، فقد كانوا يعرفون أنه إذا فعل سيتوجه قنسطنطيوس فى غير الوقت الملائم ، بتاج الشهداء . وكانوا هم يتطلعون إلى الوقت الذى يرث فيه صنيعتهم عرش الإمبراطورية ، ويعيد إليهم رواتبهم وآلهتهم . ولهذا قضى يوليان عشر سنين كاملة يؤدى جميع الشعائر والعبادات المسيحية الظاهرة ، بل لقد بلغ من أمره أن كان يقرأ الكتاب المقدس علناً فى الكنيسة[٢٣] .

وفى وسط هذا التخفى والخوف استدعى مرة أخرى إلى المثول بين يدى الإمبراطور فى ميلان ؛ وتردد أول الأمر فى الذهاب خشية العقاب ، لكن الإمبراطورة يوزيبيا أرسلت إليه تبلغه أنها دافعت عنه لدى الإمبراطور ، وأنه لن يصاب بمكروه ، وما كان أشد دهشته حين زوجه الإمبراطور من أخته هلينا Helena ، وخلع عليه لقب قيصر ، وعهد إليه حكم غالة (٣٥٥) . وارتدى الرجل الأعزب الحيى الذى قدم على الإمبراطور فى ثياب الفيلسوف الخشنة حلة القائد الرسمية على مضض ، وقام بواجبات الزوجية . وما من شك فى أنه قد ضايقه فوق هذا وحيره أن يعرف أن الألمان قد اغتنموا فرصة اشتعال نيران الحرب الأهلية التى كادت تقضى على ما للإمبراطورية فى الغرب من قوة حربية ، فغزوا الولايات الرومانية الممتدة على ضفاف الرين ، وشتتوا شمل جيش رومانى ، ونهبوا المستعمرة الرومانية

القديمة فى كولونى ، واستولوا على أربع وأربعين مدينة غيرها ، وفتحوا الألساس كلها ، وتقدموا مدى أربعين ميلا فى غالة . ولما أن واجه قنسطنطيوس هذه الأزمة العصيبة ، طلب إلى الشاب الذى يرتاب فيه ويزدريه أن يبدل نفسه من فوره فيجعل منها نفس جندى محارب وإدارى حازم . وأعطى يوليان حرساً مؤلفاً من ثلثمائة وستين رجلا ، وكلفه بإعادة تنظيم الجيش المرابط فى غالة ، وأمره بعبور جبال الألب .

وقضى يوليان الشتاء فى ڤين Vienne ويانه على نهر الرون ، يدرب نفسه التدريب العسكرى ، ويدرس فنون الحرب دراسة الرجل المجد المتحمس لأداء واجبه . وفى ربيع عام ٣٥٦ جمع جيشاً عند ريمس Reims صد به الغزاة الألمان واسترد منهم كولونى ؛ ولما حاصرته قبيلة الألمانى — التى أصبح اسمها علما على ألمانيا كلها — فى سنس Sens ظل يصد هجمات المحاصرين ثلاثين يوما ، واستطاع أن يحصل على ما يحتاجه جنوده وأهل المدينة من المؤن حتى نفد صبر الأعداء . ثم زحف نحو الجنوب والتقى بجيش قبيلة الألمانى الأكبر عند استرسبورج ، ونظم جيشه على شكل إسفين هلالى ، وقاده قيادة الرجل العارف بأفانين الحرب ، المملوء القلب بالشجاعة ، فانتصر نصراً على قوات العدو التى تفوق قواته عددا[٢٤] ، وتنفست غالة الصعداء بعد هذا النصر المؤزر ؛ ولكن قبائل الفرنجة الضاربة فى الشمال كانت لا تزال تعيث فساداً فى وادى الموز Meuse ، فزحف عليها يوليان بنفسه ، وأوقع بها هزيمة منكرة ، وأرغمها على عبور الرين ، ثم عاد إلى باريس عاصمة الولاية متوجا بأكاليل النصر ، ورحب به أهل غالة ، وشكروا له حسن صنيعه ، ورأوا فى قيصر الصغير يوليوسا Julius جديداً ؛ وما لبث جنوده أن جهروا بأملهم فى أن يجلس عما قريب على عرش الإمبراطورية .

وبقى فى غالة خمس سنين ، يعمر الأرض المخربة بالسكان ، ويعيد تنظيم وسائل الدفاع عن نهر الرين ، ويمنع استغلال الأهلين الاقتصادى والفساد

السياسي ، ويعيد الرخاء إلى الولاية ، ويملأ خزائنها بالمال ، ويخفض فى الوقت عينه ما كان مفروضا على البلاد من الضرائب . وعجب الناس كيف استطاع هذا الشاب الغارق فى التفكير ، الذى لم ينتزع من بين كتبه إلا من وقت قريب ، أن يبذل نفسه فيجعل منها — كأنما قد مسته عصا ساحر — قائداً محنكا ، وحاكما عظيما ، وقاضيا عادلا رحيما[٢٥] . وكان هو الذى وضع فى القضاء ذلك المبدأ القائل بأن المتهم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته . وكان سبب تقرير هذا المبدأ أن نومريوس **Numerius** أحد حكام غالة النربونيه السابقين اتهم باختلاس الأموال التى عهد إليه تحصيلها ؛ ولكنه أنكر التهمة ، ولم يكن من المستطاع دحض حجة من الحجج التى أدلى بها . واغتاظ القاضى دلفديوس **Delfedius** لنقص الأدلة التى تثبت التهمة عليه فصاح قائلا : « أى قيصر العظيم ! هل يمكن أن يدان إنسان إذا كان مجرد إنكاره التهمة يكفى لبراءته ؟ » فكان جواب يوليان . وهلا يمكن أن يبرأ إنسان إذا كان كل ما فى الأمر أنه اتهم ؟ » « وكان هذا » كما يقول أمنيانوس « شاهداً من الشواهد الكثيرة ، الدالة على رحمته »[٢٦] .

غير أن إصلاحاته قد خلقت له أعداء . فالموظفون الذين كانوا يخشون بحثه وتنقيبه ، أو يحسدونه لحب الناس له ، أخذوا يتهمونه سراً لدى قنسطنطيوس بأنه يعمل للاستيلاء على عرش الإمبراطورية : فلما علم بذلك يوليان رد عليهم بأن كتب يمتدح الإمبراطور مدحا فيه كثير من المبالغة . ولكن ذلك لم يبدد شكوك قنسطنطيوس ، فاستدعى إليه سالست **Sallust** الذى كان من أخلص أعوان يوليان . وإذا جاز لنا أن نصدق أميانوس فإن الإمبراطورة يوزيبيا ، التى لم يكن لها ولد ، والتى كانت الغيرة من يوليان وزوجته تأكل قلبها ، قد رشت بعض حاشية زوجة يوليان بأن يعطوها عقارا مجهضا كلما حملت . ولما أن وضعت هلينا ، على الرغم من هذا ، طفلا ذكراً ، قطعت القابلة حبل سرته قريبا من جسمه إلى حد

نزف منه الدم حتى مات[٢٧] . وبينا كانت هذه المتاعب كلها تحيط بيوليان تلقى فى عام ٣٦٠ أمراً من قنسطنطيوس بأن يبعث بخير عناصر جيوشه فى غالة ليُنضموا إلى الجيش الذى يحارب فارس . .

وكان لعمل قنسطنطيوس هذا ما يبرره . فقد طالب شابور الثانى أن ترد إليه بلاد النهرين وأرمينية (٣٥٨) ، فلما رفض قنسطنطيوس هذا الطلب حاصر شابور أميدا Amida (ديار بكر الحالية فى ولاية كردستان التركية) . ونزل قنسطنطيوس الميدان وأمر يوليان أن يمد الجيوش الإمبراطورية بثلثمائة رجل من كل فيلق من الفيالق الغالية لتشترك فى هذه الحرب الأسيوية . ورد يوليان على هذا الطلب بأن هؤلاء الجنود قد تطوعوا فى تلك الفيالق على ألا يدعوا إلى الخدمة وراء حدود جبال الألب ، وحذر الإمبراطور من عاقبة هذا العمل قائلا إن غالة لن تأمن على نفسها إذا ما تعرض جيشها لهذا النقص الكبير ، (وقد حدث أن نجح الألمان فى غزو غالة بعد ست سنين من ذلك الوقت) ولكنه مع ذلك أمر جنوده أن يطيعوا رسل الإمبراطور ، غير أن الجنود عصوا هذا الأمر ، وأحاطوا بقصر يوليان ، ونادوا به أغسطسا Augutus أى إمبراطوراً ، ورجوه أن يستبقيهم فى غالة ، فنصحهم مرة أخرى بإطاعة أمر الإمبراطور ، ولكنهم أصروا على الرفض ، وأحس يوليان ، كما أحس قيصر آخر من قبله ، أن الأقدار قد قررت مصيره ، فقبل اللقب الإمبراطورى ، واستعد للقتال لإنقاذ الإمبراطورية وإنقاذ حياته ، وأقسم الجيش الذى أبى قبل أن يغادر غالة ، أن يزحف على القسطنطينية ويجلس يوليان على العرش .

وكان قنسطنطيوس فى كليكية حين بلغته أنباء الفتنة ، وظل عاما آخر يقاتل الفرس ، معرضاً عرشه للضياع فى سبيل الدفاع عن بلاده . ثم عقد هدنة مع شابور وزحف بفيالقه غرباً لملاقاة ابن عمه . وتقدم يوليان نحوه ومعه قوة صغيرة ، ثم وقف بعض الوقت عند سرميوم Sirmium (بالقرب من بلغراد الحالية) ، وفيها

أعلن إلى العالم اعتناقه الوثنية ، وكتب إلى مكسموس رسالة حماسية قال فيها : « إننا الآن نجهر بعبادة الأرباب ، وكذلك يخلص فى عبادتها جميع الجنود الذين اتبعونى »(٢٨). وقد ساعده الحظ فأنجاه من مأزق حرج : ذلك أن قنسطنطيوس توفى فى نوفمبر من عام ٣٦١ على أثر حمى أصيب بها فى طرسوس ، وكانت وفاته فى الخامسة والأربعين من عمره . وبعد شهر من وفاته دخل يوليان القسطنطينية وجلس على العرش دون أن يلقى مقاومة ، وأشرف على جنازة ابن عمه قنسطنطيوس بجميع مظاهر الحب .

الفصل الرابع

الإمبراطور الوثنى

وكان يوليان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، ويصفه أميانوس الذى كان يراه كثيراً بقوله :

كان متوسط القامة ، وكان شعره مرسلا ناعماً كأنه قد عنى بتمشيطه ، وكانت لحيته كثة مستدقة ، وعيناه براقتين تومضان ناراً ، وتكشفان عن حدة ذهنه . وكان حاجباه دقيقين وأنفه معتدلا ، وفمه كبيراً بعض الشيء ، وشفته السفلى ممتلئة ، ورقبته غليظة منحنية ، ومنكباه كبيرين عريضين ؛ وكان جسمه كله من أعلى رأسه إلى أطراف أصابع قدميه حسن التناسب ، ولهذا كان قوياً سريع العدو(٢٩) .

غير أن الصورة التى يصور هو بها نفسه لم تكن بهذا الحسن فهو يقول : إن الطبيعة لم تخلع على وجهى كثيراً من الوسامة ، ولم تهبه نضرة الشباب ، ومع هذا فإنى بعنادى قد أضفت إليه هذه اللحية الطويلة . . . ولم أعبأ بالقمل الذى كان يسرح فيها ويمرح كأنها أجمة للوحوش البرية . . . أما رأسى فنكوش ، لأنى قلما أقص شعرى أو أقلم أظافرى ، وأصابعى لا تكاد ترى إلا سوداء ملوثة بالحبر(٣٠) .

وكان يفخر بأنه يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط . وما كاد يجلس على العرش حتى تخلص من الخصيان ، والحلاقين ، والجواسيس ، الذين كانوا فى خدمة قنسطنطيوس . ولما ماتت زوجته فى شبابها صمم على ألا يتزوج بعدها أبداً ، ولهذا لم يكن فى حاجة إلى الخصيان ، وكان يشعر أن فى وسع حلاق واحد أن يغنى بجميع موظفى القصر ؛ أما الطهاة فلم يكن فى حاجة إليهم لأنه لم يأكل

إلا أبسط الأطعمة التي يستطيع أن يعدها أي إنسان[٣١] . وكان هذا الإمبراطور الوثني يعيش عيشة الرهبان ويلبس كما يلبسون ، ويلوح أنه لم يتصل اتصالا جنسياً بالنساء بعد أن ماتت زوجته ، وكان ينام على قش خشن في حجرة غير مدفأة[٣٢] ، ولا يسمح بتدفئة أية حجرة من حجراته طوال فصل الشتاء « لكي يعتاد تحمل البرد » . ولم يكن يميل إلى اللهو والتسلية ، فكان يهاب دور التمثيل ، وما فيها من مسرحيات صامتة مثيرة للغريزة الجنسية ، وأثار غضب العامة بالابتعاد عن ميدان السباق ؛ فقد كان في الاحتفالات الكبرى يقضي فيه قليلاً من الوقت ، ولكنه يجد أن لا فرق بين سباق وسباق ، فلا يلبث أن يغادره . وقد أكبر الشعب في بادئ الأمر فضائله ، وزهده ، وانهماكه في العمل ، وفي أزمات الحكم ؛ وكانوا يشبهونه بتراجان في حسن قيادته العسكرية ، وبأنطونينس بيوس في تقواه وصلاحه ، وبماركس أورليوس في الجمع بين الملكية والفلسفة[٣٣] . وإنا ليدهشنا أن نرى هذا الوثني الشاب قد رضيت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرفا منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين .

وقد أرضى مجلس شيوخ بزنطية بمحافظته على تقاليده وحقوقه دون أن يفخر بذلك أو يمن به عليه . وكان يقوم من مقعده ليحيي القناصل ، ويمثل جميع المظاهر التي يتصف بها الإمبراطور من الوجهة النظرية ، وهي أنه خادم لشيوخ الأمة وشعبها ومندوب عنهم . وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ ، فما كان منه إلا أن حكم على نفسه بغرامة قدرها عشرة أرطال من الذهب ، وأعلن أنه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الإمبراطورية وتقاليدها . وكان يقضي وقته من الصباح إلى المساء يكدح في أداء واجبات الحكم ، لا ينقطع عن ذلك إلا فترة صغيرة بعد الظهر ، يخصها بالدرس . ويحدثنا المؤرخون أن ما كان يتناوله من طعام خفيف قد أكسب جسمه وعقله نشاطاً عصبياً ، كان يستطيع بفضله أن ينتقل من واجب إلى واجب

ومن زائر إلى زائر ، وأن يرهق بالعمل ثلاثة من أمناء السر فى كل يوم .
وكان يظهر فى قيامه بواجبات القاضى منتهى النشاط والجلد والاهتمام ؛
ويكشف فى أثناء ذلك عن سفسطة المحامين ، ويخضع فى تواضع وأدب جم
لآراء القضاة المدعمة بالبراهين والتى تخالف آراءه هو ، وأعجب الناس جميعاً
بعدالة أحكامه . ومن أعماله أنه خفض الضرائب المفروضة على الفقراء ،
ورفض التيجان الذهبيـــة التى كانت التقاليد تقضى بأن تقدمها كل ولاية
للإمبراطور الجديد ، وألغى ما تجمع على إفريقية من الضرائب المتأخرة ،
وتجاوز عن الجزية الباهظة التى كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على اليهود[٣٤].
وأصر على إلزام كل من يريد ممارسة مهنة الطب أن يحصل على ترخيص
بممارستها ، واشتد فى تنفيذ ذلك كثيراً ، وقصارى القول أنه توج انتصاراته
العسكرية بنجاحه فى الأعمال الإدارية . ويقول أميانوس إن « شهرته أخذت
تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت جميع بقاع العالم »[٣٥].

ومع هذا النشاط الجم فى شئون الحكم كان أهم ما يولع به هو الفلسفة ،
وكانت غايته التى لم يغفل عنها يوماً ما هى أن يعيد الشعائر الدينية القديمة إلى
سابق عهدها . ولكى يحقق هذه الغاية أمر بإصلاح الهياكل الوثنية وفتحها ،
ورد ما صودر من أملاكها ، وإعادة ما كان لها من موارد . كذلك بعث بالرسائل
إلى كبار الفلاسفة فى عهده يدعوهم إلى القدوم إليه ليعيشوا ضيوفاً عليه فى بلاطه .
ولما أن قدم مكسموس ، وكان يوليان يلقى خطبة فى مجلس الشيوخ ، قطع خطبته ،
وجرى بأسرع ما يستطيع ليحيى أستاذه ، وقدمه إلى المجلس ، وأثنى عليه الثناء
المستطاب ، وعبّر له عن شكره واعترافه بفضله . واغتنم مكسموس تحميس
الإمبراطور فارتدى أحسن الثياب ، وعاش عيشة الترف حتى أثار حوله الريب ،
ولما أن مات يوليان حوسب حساباً عسيراً على الوسائل التى جمع بها تلك الثروة
الطائلة فى هذا الوقت القصير[٣٦]. لكن يوليان لم يكن يلقى بالاً إلى المتناقضات
التى بدت فى حياة الرجل لأن حب الفلسفة قد ملك عليه كل تفكيره . ولهذا

لم يصرفه عنها أى نقص فى سلوك الفلاسفة . . وقد كتب فى ذلك إلى يومنيوس يقول : « إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك بأن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشرى من دراسة الفلسفة على مهل ومن غير أن يعوقه عن دراستها عائق ، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخدعك »[٣٧] .

وكان مولعاً بالكتب ، يحمل معه مكتبته فى حروبه ، وقد وسع دار الكتب التى أنشأها قسطنطين ، وأنشأ غيرها من الدور . وكتب فى ذلك يقول : « من الناس من هو مولع بالخيل ، ومنهم من هو مولع بالطير أو بالوحوش البرية ؛ أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفارى مولعاً أشد الولع باقتناء الكتب »[٣٨] . وكان يفخر بأنه مؤلف وحاكم سياسى معاً ، فصرف غير قليل من جهده فى تبرير خططه السياسية بمحاورات على طريقة لوشيان Lucian ، أو خطب من طراز خطب لبانيوس ، أو رسائل لا تكاد تقل سحراً وطرافة عن رسائل شيشرون ، أو مقالات فلسفية طوال . وقد شرح عقيدته الوثنية الجديدة فى « ترنيمة لابن ملك » ؛ وأوضح فى مقاله « ضد أهل الجليل » الأسباب التى من أجلها ارتد عن المسيحية ، وكتب فى مقال له من النقد العالى يقول إن الأناجيل يناقض بعضها بعضاً ، وإن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ؛ فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى فى روايتها وفيما تحتويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة .

« فإذ لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة فى سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ، كما أعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله . ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلا بأن التى خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه . ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر (وهى دون غيرها المعرفة التى تؤلف بين عناصر

العقل البشرى وتجعله وحدة متناسقة) ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولمَ يكون إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ؟ ... ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟ ألا فوازنوا بين سلوكه وسلوك ليقورغ نفسه والرومان أنفسهم إزاء من يخرجون على القوانين . يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرها وتتطلبها الوثنية) ... ولم لا تقبلون الشريعة التى نزلها الله على اليهود ؟ ... تقولون إن الشريعة الأولى ... كانت مقصورة على زمان ومكان معينين ، ولكن فى وسعى أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف — لا العشرات فقط — من الفقرات التى تقول إن الشريعة نزلت ليعمل بها فى جميع الأزمان[٣٩] »

ولما أراد يوليان أن يعيد الوثنية وجد أنها لا تناقض بعضها بعضاً فى العقائد والعبادات فحسب ، بل أنها فوق ذلك تحتوى فى جميع أجزائها من المعجزات والأساطير التى لا يقبلها العقل أكثر مما تحتويه المسيحية ؛ وأدرك من ثم أنه ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية ويحركها إلا إذا خلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات ، والقصص والطقوس التى تبهر العقول . واشد ما تأثر بقدم الأساطير وبانتشارها بين أمم العالم أجمع . ومن أقواله فى هذا : « إن الإنسان لعاجز عن أن يعرف متى اخترعت الأساطير أول الأمر ... عجزه عن أن يعرف من هو أول رجل عطس[٤٠]» ، ولهذا كله أسلم نفسه لدراسة الأساطير ، ولم ير عيباً فى أن تستخدم فى غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة فى عقول غير المتعلمين[٤١] ؛ ولم يستنكف هو نفسه أن يكرر قصة سيبيل Cybele ، وكيف جيء بالأم العظمى فى صورة حجر أسود من فريجيا إلى رومة ؛ وليس فى مقدور أى إنسان يقرأ قصته أن يظن أنه يشك فى ألوهية الحجر ، أو فى قدرته على أن يستحيل أماً عظمى . ولقد تبين شدة الحاجة إلى الرموز الحسية لتنقل إلى الناس

المبادىء الروحية . وكان يعد العبادة المثراسية للشمس ديناً يحل عند عامة الشعب محل إجلال الفلاسفة للعقل والاستنارة . ولم يكن عسيراً على هذا المليك — الشاعر أن يكتب ترنيمة هليوس الملك ، الشمس مصدر الحياة كلها ، وواهب النعم التي لا تحصى للخلق . ويقول إن هذا هو الكلمة المقدسة التي خلقت العالم والتي هي الآن سنده ودعامته ؛ وقد أضاف يوليان إلى هذا المبدإ الأسمي والعلة الأولى ، في الأديان الوثنية القديمة من أرباب وجن يخطئهم الحصر ، وكان يظن أن الفيلسوف المتسامح لا يجد حرجاً من قبولهم بقضهم وقضيضهم .

وإنا لنخطئ إذا صورنا يوليان في صورة الرجل الحر التفكير الذي يستبدل العقل بالأساطير ؛ ذلك أنه كان يشنع بالكفر ويعده من الحيوانية[٤٢] ، ويعلم الناس مبادىء لا تقل بعداً عن الأمور الطبيعية المعقولة عما نجده في أي دين من الأديان ؛ وقلما كتب إنسان من السخف مثل ما كتب يوليان في ترنيمته للشمس ؛ وقد قبل التثليث الذي تقول به الأفلاطونية الحديثة ، وقال إن الأفكار الخلاقة الأولى التي يقول بها أفلاطون هي بعينها عقل الله ؛ وكان يرى أنها هي الحكمة التي صنعت كل شيء ، وينظر إلى عالم المادة والجسم كأنه عقبة من فعل الشيطان يضعها في طريق الفضيلة المؤدى إلى تحرير الروح السجينة ؛ وفي اعتقاده أن النفس البشرية ، إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة ، قد تتحرر من سجنها هذا وتسمو إلى آفاق التفكير في الحقائق والشرائع الروحية ، وتندمج بهذا في الحكمة الإلهية ، بل ربما اندمجت في الله الأزلي نفسه . ولم تكن أرباب الشرك الكثيرة ، في اعتقاد يوليان ، إلا قوى غير شخصية ؛ كما أنه لم يكن في وسعه أن يؤمن بها في صورها المجسدة البشرية كما يؤمن عامة الناس ، ولكنه كان يعرف أن الناس قلما تسمو بهم أفكارهم إلى التجريدات التي تسمو إليها عقول الفلاسفة ، أو إلى الرؤى الصوفية التي يراها القديسيون ؛ وكان يمارس الشعائر القديمة في السر والعلن ، وبلغ ما ضحى به من الحيوانات للآلهة من

الكثرة حداً جعل المعجبين به أنفسهم يغضون أبصارهم حياء من هذه المجازر(٤٣) . وكان فى أثناء حروبه ضد الفرس يستشير مهابط الوحى ، ويتفاءل ويتطير كما كان يفعل القواد الرومان ، ويعنى أشد العناية بالاستماع إلى تفسير الأحلام ، ويبدو أنه كان يؤمن بسحر مكسموس .

وكان يرى كما يرى كل مصلح أن العالم فى حاجة إلى تجديد من الناحية الأخلاقية ؛ ولكى يصل إلى هذه الغاية لم يقصر همه على سن القوانين الخارجية بل سعى إلى أن يتقرب عن طريق الدين إلى قلوب الناس وسرائرهم . وقد تأثر أشد التأثر بطقوس إليوسيز وإفسوس الرمزية ، وكان يرى أنه ليس ثمة طقوس أصلح منها لأن تبعث فى قلوب الناس حياة جديدة أنبل من حياتهم السابقة ، ويأمل أن المراسم المتبعة مع من يريد الاندماج فى أصحاب هذه الطقوس وفى رسامتهم يمكن أن تتسع فتتعدى القلة الأرستقراطية إلى طائفة كبيرة من الشعب . ويحدثنا ليبانيوس أنه «كان يفضل أن يسمى قساً من أن يسمى إمبراطوراً(٤٤) » . وكان يحسد السلطة الكهنوتية المسيحية ، على نظمها الحسنة وعلى إخلاص قساوستها ونسائها ، وروح المساواة التى تسود المصلين والمتعبدين فى كنائسها ، والصدقات التى تؤلف بين قلوب أهل ذلك الدين وتستميل نفوسهم إليه . ولم يكن يترفع عن أن يأخذ خير ما فى الدين الذى يرجو أن يقوض أركانه ويستبدل به غيره ، وقد أدخل عناصر جديدة فى الكهانة الوثنية ، ونظم كنيسة وثنية وضع نفسه على رأسها ، وألح على من دونه من الكهنة أن يجادلوا رجال الدين المسيحيين ويتفوقوا عليهم فى تعليم الشعب ، وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وفى استضافة الغرباء ، وفى ضرب أحسن الأمثلة للناس فى التقى والصلاح (٤٥) . وقد أنشأ فى كل مدينة مدارس تلقى فيها المحاضرات فى الدين الوثنى وتعرض فيها مبادئه . وكان يكتب لكهنته الوثنيين كما كتب من بعده القديس فرنسيس لأتباعه من الرهبان فيقول :

« عاملونى بما تظنون أنى سأعاملكم به ، ودعونا نتعاهد فيما بيننا على أن أبين

لكم آرائى فى جميع شئونكم ، وأن تفعلوا أنتم معى فى مقابل هذا نفس العمل فيما يختص بأقوالى وأعمالى ، وفى اعتقادى أن ليس ثمة شىء أعظم قيمة من تبادل الرأى على هذا النحو ....[٤٦] ومن واجبنا أن نقتسم مالنا مع الناس جميعاً ، وعلى الأخص مع الصالحين ، والضعفاء والفقراء . وأصار حكم القول ، وإن بدا لكم أن فى قولى هذا تناقضاً ، إن من الأعمال الدالة على التقى والصلاح أن نقتسم ثيابنا وطعامنا مع الأشرار ؛ ذلك أننا حين نعطى إنما نعطى الإنسانية الممثلة فى الناس ، ولا نعطى خلقه طيبين كانوا أو خبيثين[٤٧] .

والحق أن هذا الرجل الوثنى كان مسيحياً فى كل شىء عدا عقيدته ؛ ونحن إذا ما قرأنا ما كتبه ، وغضضنا النظر عن أساطيره المجردة من الحياة ، خيل إلينا أنه مدين بكثير من تطورات خُلُقه إلى المبادئ الأخلاقية المسيحية التى لُقِّنها فى طفولته وشبابه المبكر . فكيف كان مسلكه إذن إزاء الدين الذى ربى فى أحضانه ؟ لقد ترك للمسيحية كامل حريتها فى الوعظ ، والعبادة ، وممارسة جميع شعائرها ، وأعاد الأساقفة المستمسكين بدينهم القويم ، والذين نفاهم قنسطنطيوس . لكنه منع عن الكنيسة المسيحية ما كانت تقدمه لها الدوله من إعانات مالية ، وحرم على المسيحيين أن يشغلوا كراسى البلاغة ، والفلسفة ، والأدب فى الجامعات ، وكانت حجته فى ذلك أن هذه الموضوعات لا يمكن أن تجد مدرسين يعطفون عليها إلا من بين الوثنيين[٤٨] ؛ ووضع حدًّا لإعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وغيرها من الفروض المدنية المرهقة ، ولحق القساوسة فى أن ينتفعوا من غير أجر بالمزايا والتسهيلات المخولة للموظفين العموميين . كذلك حرم الوصية بالمال للكنائس ، كما حرم المناصب الحكومية على المسيحيين[٤٩] ، وأمر الجماعات المسيحية فى كل بيئة أن يعوضوا الهياكل الوثنية تعويضاً كاملا عما أنزلوه بها من الأضرار فى أثناء حكم الأباطرة السابقين ؛ وأجاز هدم الكنائس المسيحية المقامة على الأراضى التى اغتصبت ظلماً وعدواناً من المزارات والأضرحة الوثنية . ولما أن

وقع الاضطراب والظلم والشغب نتيجة لهـــذا المنطق المتهور حاول يوليان أن يرد الأذى عن المسيحيين ، ولكنه أبى أن يلغى ما سنه من القوانين . ولقد أظهر قدرته على السخرية التى قلما تليق بفيلسوف مثله ، حين ذكّر بعض المسيحيين الذين وقع عليهم العدوان بأن «كتابهم المقدس يهيب بهم أن يصبروا على الأذى (٥٠) » وعوقب المسيحيون الذين ردوا على هذه القوانين بالعنف أو الإهانات عقاباً صارماً ، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى الإهانة فى معاملتهم للمسيحيين فقد عوملوا باللين(٥١) . من ذلك أن العامة من الوثنيين أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على چورچ ، الأسقف الأريوسى الذى اغتصب كرسى أثناسيوس ، لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس المثراسية ، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إرباً ؛ ومع أن المسيحيين ، إلا قلة منهم لا تستحق الذكر ، لم يهتموا بالدفاع عنه ، فقد قتل أو جرح كثيرون من المسيحيين فيما صحب هذه الفتنة من اضطراب (٣٦٢) . وأراد يوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب ، ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يكتفى بإرسال خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية . وفى هذا الوقت خرج أثناسيوس من مخبئه واستعاد كرسى أسقفيته ، ولكن يوليان أنكر عليه هذا العمل قائلا إنه لم يؤخذ فيه رأيه ، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه . وصدع الأسقف الشيخ بالأمر ، ولكن الإمبراطور توفى فى السنة التالية ، وعاد البطرق رمز أهل الجليل المنتصرين إلى كرسيه ، ولبث فيه إلى أن مات فى الثمانين من عمره ، بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، مثقلا بمظاهر الشرف ومثخناً بالجراح .

وكان اندفاع يوليان ومثابرته الشديدة على تنفيذ منهجه سبباً فى إخفاقه آخر الأمر . ذلك أن من أساء إليهم كانوا يقاومونه بإصرار ومعاندة ، ومن اجتباهم لم يستجيبوا له فى حماسة . ومرد هذا أن الوثنية كانت قد ماتت من الناحية الروحية ، ولم يبق فيها ما يجدد شبابها ، أو يواسيها فى أحزانها ، أو يبعث فى

أهلها الأمل فى الدار الآخرة ، نعم إن بعض الناس قد اعتنقوها فى تلك الأيام الأخيرة ، ولكن معظمهم لم يفعلوا ذلك إلا لما كانوا ينتظرون أن ينالوه من المطامع السياسية أو الذهب الإمبراطورى . كذلك عادت بعض المدن إلى تقديم القرابين الرسمية ، ولكنها كانت تؤدى بهذا ثمن ما تناله من العطف عليها والعناية بمصالحها. وقد اضطر يوليان فى بسينس Pessinus نفسها ، وهى بيت سيبيل ، أن يرشو أهلها لكى يعظموا الأم العظمى. وقام كثير من الوثنيين يفسرون الوثنية بأنها مراعاة الذمة والضمير فى انتهاب الملذات ؛ وساءهم أن يجدوا يوليان أكثر تزمتاً من المسيح ، فقد كان هذا الرجل الحر فى التفكير أتقى رجل فى الدولة ، وكان أصدقاؤه أنفسهم يجدون من أصعب الأشياء عليهم أن يجاروه فى ورعه ، ومنهم من كانوا متشككة يسخرون سراً من أربابه الذين ولى زمانهم ومن الذبائح التى كان يستعطف بها أولئك الأرباب . ذلك أن عادة التضحية بالحيوان على المذابح كانت قد ماتت أو كادت تموت فى الشرق ، وفى كل ما عدا رومة من بلاد الغرب ، وشرع الناس ينظرون إليها على أنها عمل يجلل صاحبه العار ، أو أنها فى القليل طعام يشترك فى أكله الناس . وكان يوليان يسمى حركته هذه « الهلينية » ، ولكن هذه التسمية قد اشمأزت منها نفوس الوثنيين الطليان ، الذين كانوا يحتقرون كل شىء يونانى غير ميت . وكان يفرط فى الاعتماد على الجدل الفلسفى الذى لم يصل فى يوم من الأيام إلى أن يكون الأساس العاطفى للدين ؛ كذلك لم يكن أحد يفهم مؤلفاته إلا الفئة المتعلمة ، التى كان تعليمها يحول بينها وبين قبول ما فى هذه المؤلفات من الأفكار ، ولم تكن عقائده إلا توفيقاً مصطنعاً بين متناقضات ، وكانت خالية من الجذور التى تمتد إلى آمال الناس أو خيالهم. ولقد لاحت بوادر إخفاقه حتى قبل وفاته ، ولم يستنكف الجيش الذى أحبه وحزن عليه أن يرشح مسيحياً ليخلفه على العرش .

الفصل الخامس

خاتمة المطاف

وكان حلمه الأخير العظيم أن يفعل ما فعله الإسكندر وتراجان : فيرفع العلم الرومانى على العواصم الفارسية ، ويقضى القضاء النهائى على الخطر الفارسى الذى كان يهدد أمن الدولة الرومانية وسلامتها . وللوصول إلى هذه الغاية عنى أعظم عناية بتنظيم الجيش ، وباختيار ضباطه ، وترميم الحصون المشيدة على التخوم وخزن المؤن فى المدن القائمة على طريق نصره . فلما تم له ذلك جاء إلى أنطاكية فى خريف عام ٣٦٢ ، وجمع فيها جنوده ؛ واغتنم تجار المدينة احتشاد الجند فيها فرفعوا أسعار الحاجيات ، وشكا الناس قائلين « إن كل شىء موفور ولكن كل شىء غالى الثمن » . فما كان من يوليان إلا أن استدعى إليه رؤساء الأعمال الاقتصادية وأخذ ينصحهم بالحد من مكاسبهم ، فوعدوه بذلك ولكنهم لم يوفوا بوعدهم ؛ فلما يئس منهم « حدد ثمناً عادلا لكل سلعة وأعلنه للناس جميعاً » ، ثم عمل على استيراد أربعمائة ألف موديوس (*) من القمح من بلدان سوريا ومصر [٥٢] واحتج التجار بأن الأثمان التى حددها لم تترك لهم شيئاً من الأرباح ، وابتاعوا فى الخفاء القمح المستورد ، ونقلوه هو وبضاعتهم إلى مدن أخرى ، ووجدت أنطاكية نفسها تزخر بالنقود وتفتقر إلى الطعام . وسرعان ما قام العامة يندون بيوليان لتدخله فى هذه الشئون ، وأخذ الفكهون يسخرون من لحيته ومن انهماكه فى خدمة الآلهة الأموات . ورد عليهم يوليان بنشرة أصدرها سماها « كاره اللحى » (Misopogon) حوت من الفكاهة والمتعة ما لا يتفق مع مقام إمبراطور . فقد اعتذر فى سخرية عن لحيته ، وعنف أهل أنطاكية على وقاحتهم ،

(*) تعادل نحو ١٨٣٦٠ إردبا مصرياً . (المترجم)

وطيشهم ، وإسرافهم ، وفساد أخلاقهم ، واستخفافهم بآلهة اليونان . وكانت الحديقة الشهيرة المعرفة باسم دافنى Daphne ، والتى كانت من قبل مزاراً مقدساً لأپلو ، قد حولت إلى مكان للهو والتسلية ، فأصدر يوليان أمره أن يمنع اللهو منها وأن تعود مزاراً مقدساً كما كانت من قبل ؛ وما كاد هذا العمل يتم حتى التهمتها النيران ؛ وظن يوليان أن الحريق من فعل المسيحيين فأغلق كنيسة أنطاكية ، وصادر أملاكها ، وعذب كثيرين من الشهود ، وقتل أحد القساوسة[٥٢] . ولم يجد الإمبراطور أنطاكية سلوى إلا « وليمة العقل » التى اجتمع فيها بليبانيوس .

وأخيراً تأهب الجيش للنزول إلى الميدان ، وبدأ يوليان الحرب فى شهر مارس من عام ٣٦٣ ، فسار على رأس جيوشه وعبر نهر الفرات ، ثم نهر دجلة ، وطارد الفرس المتقهقرين ، ولكنه لاقى الأمرين ، وكاد يلاقى الهزيمة من جراء « إجداب الأرض » وهى الخطة التى اتبعها الفرس وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات فى كل جزء يخلونه من البلاد ، حتى كان جنود يوليان يموتون من الجوع مرة بعد مرة . وقد أظهر الإمبراطور فى هذه الحروب المضنية أحسن ما اتصف به من خلال ، فكان يشارك جنوده كل ما يعترضهم من صعاب ، ويكتفى مثلهم بالقليل وبأقل من القليل ويسير مثلهم على قدميه فى القيظ ، ويخوض مجارى المياه ، ويحارب فى الصفوف الأولى فى جميع المعارك . وكان من بين الأسرى فارسيات ذوات جمال فى نضرة الشباب ، ولكنه لم يقتحم عليهن خلوتهن ، ولم يسمح لإنسان أن يمس بأذى شرفهن . وتقدم الجنود تحت قيادته القديرة حتى طرقوا أبواب طشقونة Ctesiphon ، وضربوا عليها الحصار ، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد عنها لعجزهم عن الحصول على الطعام . واختار شابور الثانى رجلين من أشراف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلى يوليان ويدعيا أنهما قد فرا من عند الملك لقسوته عليهما واعتدائه الصارخ على كرامتهما ، ثم يقودانه هو وجيشه إلى صحراء جدباء . وفعل الرجلان ما أمرا به ، وصدقهما يوليان وسار خلفهما هو

وجيشه مسافة عشرين ميلا حتى وجد نفسه في صحراء جدباء لا ماء فيها ولا نبات ، وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله من هذا الفخ الذى نصب له هاجمته قوة من الفرس ، ولكنه صد هجومها وردها على أعقابها ، وفر الفرس لا يلوون على شيء . وكان يوليان فى مقدمة المطاردين غير عابئ بأنه ليس على جسمه دروع ، فأصابته حربة فى جنبه نفذت إلى كبده ، فسقط عن ظهر جواده وحمل إلى خيمة ، وأنذره طبيبه بأنه لن تطول حياته أكثر من بضع ساعات . ويقول ليبانيوس إن الذى رماه بالحربة رجل مسيحى ، ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الفرس لم يطالب بالمكافأة التى وعد بها شابور من يقتل الإمبراطور . ومن المسيحيين من يؤيد رواية ليبانيوس ويثنى على القاتل « الذى أقدم على هذا العمل الجرىء حباً فى الله وفى الدين »[٥٤] ، ومن هؤلاء سوزومين Sozomen . وكانت الساعة الأخيرة من حياة يوليان خليقة بتقاليد سقراط وسنكا ، وقد وصفها أميانوس فقال : إن يوليان وهو مسجى فى خيمته خاطب رفاقه المحزونين الذين ملك الأسى قلوبهم بقوله : « أيها الأصدقاء ، إن هذه الساعة لهى أنسب الأوقات التى أغادر فيها هذه الحياة ، وأردها إلى الطبيعة بعد أن طلبت ردها إليها » . . . وبكى جميع الحاضرين فلامهم على بكائهم محتفظاً حتى فى تلك الساعة بسلطانه عليهم ، وقال لهم إنه لا يليق بهم أن يحزنوا من أجل زعيم دعى للاتحاد بالسماء وبالنجوم . ولما أن أسكتهم بقوله هذا دخل مع الفيلسوفين مكسموس وبرسكوس فى حوار دقيق عن شرف النفس ونبلها . وفى أثناء هذا النقاش اتسع الجرح الذى فى جانبه فجاءة ، وحال ضغط الدم المتدفق بينه وبين التنفس ؛ وبعد أن تناول جرعة من الماء البارد طلبها إلى الحاضرين أسلم الروح وكان فى الثانية والثلاثين من عمره[٥٥](*).

(*) وقد ذكرت القصة القائلة بأنه صاح عند موته : « غلبت ياجليلى » لأول مرة فى كتاب ثيودريت Theodoret المؤرخ الموسيقى من رجال القرن الخامس ، ولكن العلماء الآن مجمعون على رفضها ويعدونها مجرد خرافة[٥٦] .

كان الجيش لا يزال معرضاً للخطر وفى حاجة إلى قائد ، فاختار زعماؤه جوفيان Jovian قائد الحرس الإمبراطورى . وعقد الإمبراطور الجديد الصلح مع فارس ، بأن رد إليها أربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين عاماً . ولم يضطهد جوفيان إنساناً ، ولكنه لم يلبث أن حول تأييده من الهياكل الوثنية إلى الكنيسة المسيحية . واحتفل مسيحيو أنطاكية بموت الإمبراطور الوثنى احتفالا عاماً أظهروا فيه الفرح والابتهاج[٥٧] ، وإن كان زعماء المسيحيين المنتصرين كانوا فى معظم الأحوال يحضون جماعات المصلين أن يكونوا كراماً ، وأن ينسوا ما أصاب المسيحية من أذى[٥٨] . وانقضت بعد ذلك أحد عشر قرناً قبل أن تشهد المسيحية يوماً آخر كهذا اليوم .

الباب الثانى

انتصار البرابرة

٣٢٥ — ٤٧٦

الفصل الأول

التخــوم المهددة

لم تكن بلاد الفرس إلا قطاعاً من تخوم يبلغ طولها عشرة آلاف ميل، تتعرض فيها الإمبراطورية الرومانية المؤلفة من مائة أمة مختلفة للغزو فى أية نقطة وفى أية ساعة على أيدى قبائل لم تفسدها الحضارة، ولكنها تطمع فى ثمارها. وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل، فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفاً؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استعادوا كل ما كان دارا الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت — إلا قليلا منه. وكان فى غرب بلادهم العرب، ومعظمهم من البدو الفقراء؛ ولو أن إنساناً فى ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمين قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرومانية وعلى بلاد الفرس كلها لسخر من قوله هذا أحكم الساسة وأنفذهم بصيرة. وكان فى جنوب الولايات الرومانية الإفريقية الأحباش، واللوبيون، والبربر، والنوميديون، والمغاربة، وكان هؤلاء كلهم يتربصون بالإمبراطورية الدوائر، وينتظرون على أحر من الجمر تداعى الحصون الإمبراطورية أو قوى البلاد المعنوية. ولاح أن أسبانيا ستظل رومانيـــة آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعة وبحارها التى لا يستطيع المغيرون اجتيازها؛ ولم يكن أحد يظن أنها

ستصبح فى هذا القرن الرابع ألمانية ، وفى القرن الثامن بلاداً إسلامية . أما غالة فقد كانت وقتئذ تفوق إيطاليا اعتزازاً برومانيتها ، كما تفوقها فى النظام وفى الثراء ، وفى الآداب اللاتينية من شعر ونثر ؛ ولكنها كان عليها فى كل جيل أن تدفع عن نفسها غارات التيوتون الذين كانت نساؤهم أعظم خصباً من حقولهم . ولم يكن فى وسع الدولة الرومانية أن تستغنى إلا عن حامية قليلة لتدفع بها عن بريطانيا غارات الاسكتلنديين والپكتيين من الغرب والشمال ؛ وغارات أهل الشمال والقراصنة السكسون من الشرق أو الجنوب ؛ فقد كانت شواطئ النرويج بجميع أجزائها معششاً لهؤلاء القراصنة ، وكان أهلها يرون الحرب أقل مشقة من حرث الأرض ، ويعتقدون أن الإغارة على السواحل الأجنبية عملا شريفاً لذوى البطون الخاوية وفى أيام الفراغ . ويدعى القوط أن موطنهم الأول هو جنوبى السويد وجزائرها الصغرى ، ولا يبعد أن يكون ذلك الموطن هو الإقليم المحيط بنهر الفستيولا Vistula ؛ ولكنهم أياً كان موطنهم انتشروا باسم القوط الغربيين نحو نهر الدانوب الجنوب ، واستقروا باسم القوط الشرقيين بين نهرى الدنيستر Dniester والدن Don . وفى قلب أوربا — الذى تحده أنهار الفستيولا والدانوب والرين — كانت تجول قبائل قدر لها أن تغير خريطة أوربا وتبدل أسماء أممها : هى قبائل الثورنچيين Thuringians ، والبرغنديين ، والإنجليز ، والسكسون ، والچوت ، والفريزيين Frisians ، والچپيديين Gipidae ، والكوادى Quadi ، والوندال ، والألمانى ، والسوبى Suevi ، واللمبارد ، والفرنجة . ولم يكن للإمبراطورية كلها — عدا بريطانيا — أسوار تصد تيار هذه الأجناس ، وكل ما كان لها من هذا القبيل هو حصون أو حاميات فى أماكن متفرقة على طول الطرق البرية أو مجارى الأنهار التى كانت فى أطراف الدولة الرومانية . وكانت تفوق البلاد الخارجية عن حدود الدولة الرومانية فى نسبة مواليدها ، وتفوقها هى على هذه البلاد فى مستوى معيشة أهلها ، مما جعل الهجرة

إليها أو الإغارة عليها قضاء محتوماً لا مفر لها منه فى ذلك الوقت ، كما أنهما الآن قضاء محتوم على أمريكا الشمالية .

ولعل من واجبنا أن نعدل بعض التعديل تلك الرواية التى تصف تلك القبائل الألمانية بأنها قبائل متبربرة . نعم إن اليونان والرومان حين أطلقوا على أولئك الأقوام لفظ برابرة barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم ، وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ ڤرڤارا varavar فى اللغة السنسكريتية ، ومعناه الفظ الجاف ، غير المثقف[1] ؛ وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر berber ؛ ولكن اتصال الألمان مدى خمسة قرون بالحضارة الرومانية عن طريق التجارة والحرب كان لا بد أن يترك فيهم أثراً قوياً ؛ وقبل أن يحل القرن الرابع بزمن طويل كانوا قد تعلموا الكتابة وأقاموا لهم حكومة ذات قوانين ثابتة . وكانت مبادئهم الأخلاقية من الناحية الجنسية أرقى منها عند الرومان واليونان[*] إذا استثنينا منهم قبائل الفرنجة المروفنجيين ؛ وكثيراً ما كانوا يفوقون الرومان فى الشجاعة ، وكرم الضيافة ، والأمانة ، وإن كانت تعوزهم رقة الحاشية ودماثة الخلق ، وهما الخلتان اللتان يتصف بهما المثقفون . ولسنا ننكر أنهم كانوا قساة القلوب ، ولكنهم لم يكونوا أشد قسوة من الرومان ؛ وأكبر الظن أنهم قد روعهم أن يعرفوا أن الشريعة الرومانية كانت تجيز تعذيب الأحرار لتنتزع منهم الشهادات أو الاعترافات[2] . وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى ، على حين أن الرومان كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه قد رُوِّضوا على حسن المعاشرة

(*) وعمدتنا فى هذا أيضاً هو تاسيتوس Tacitus صاحب النزعة الأخلاقية (فى كتابه جرمانيا ص١٨ – ١٩) ، ولكنا نحيل القارئ أيضاً إلى رسالة للأسقف بنيفاس Boniface (حوالى ٧٥٦) يقول فيها : « وكان من عادة الأهلين فى سكسونيا القديمة : إذا ارتكبت جريمة الزنا عذراء فى بيت أبيها أو امرأة متزوجة تحت حماية زوجها ، أن يحرقوها حية ، أو يخنقوها بيديها ، ويشنقوا من زنى بها فوق قبرها ؛ أو أنهم كانوا يشقون أثوابها حتى وسطها ويسلطون عليها نساء شريفات جاوزن سن الشباب فيضربنها بالسياط ويطعنها بالسكاكين حتى يقضين عليها »[2] . وتلك طريقة شنيعة فى التعذيب .

والميل إلى السلم : وكان أهل الطبقات العليا منهم يقدرون الآداب والفنون بعض التقدير ، وقد اندمج منهم استلكو Stilicho ، ورسمر Ricimer ، وغيرهما من الألمان فى الحياة الثقافية العليا التى كانت تسود المجتمعات فى رومة ، وكتبوا أدباً لاتينيا أقر سماكوس Simmachus أنه وجد فيه كثيراً من المتعة . وكان الغزاة بوجه عام — وخاصة القوط — يبلغون من الحضارة درجة تمكنهم من أن يعجبوا بالحضارة الرومانية ويعترفوا أنها أرقى من حضارتهم ، ويسعون لاكتسابها لا لتدميرها ؛ وظلوا قرنين من الزمان لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالدخول فى بلاد الإمبراطورية والاستقرار فى أراضيها المهملة ؛ وطالما اشتركوا فى الدفاع عنها بجد ونشاط. ولهذا فإنا إذا ما ظللنا نستخدم لفظ البرابرة فى حديثنا عن القبائل الألمانية فى القرنين الرابع والخامس ، فإنما نفعل ذلك بحكم العادة التى جعلت هذا اللفظ يجرى به القلم ، مع مراعاة هذه التحفظات والاعتذارات السالفة الذكر :

وكانت هذه القبائل التى تكاثر أفرادها قد دخلت بلاد الإمبراطورية فى جنوب نهر الدانوب وجبال الألب بطريق الهجرة السلمية وبدعوة من الأباطرة فى بعض الأحيان . وقد بدأ أغسطس هذه السياسة ، فسمح للبرابرة أن يستقروا داخل حدود الإمبراطورية ليعمروا ما خلا من أرضها ، ويسدوا ما فى فيالقها من ثغرات بعد أن عجز الرومان عن تعمير أولاها وسد ثانيتها لقلة تناسلهم وضعف روحهم العسكرية . وجرى على هذه السنة نفسها أورليوس ، وأورليان ، وبروبوس . وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت كثرة السكان فى بلاد البلقان وفى غالة الشرقية من الألمان . وكذلك كان الجيش الرومانى ، وكانت مناصب الدولة السياسية منها والعسكرية فى أيدى التيوتون . وكانت الإمبراطورية فى وقت من الأوقات قد صبغت أولئك الأقوام بالصبغة الرومانية ، أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإنهم هم الذين بربروا الرومان(*) ؛ فقد أخذ الرومان أنفسهم يرتدون

ملابس من الفراء على طراز ملابس البرابرة ، وأخذوا كذلك يرسلون شعورهم مثلهم ؛ ومنهم من لبسوا السراويل ، (البنطلون) ، واستثاروا بذلك غضب الأباطرة ، فأصدروا فى غيظهم مراسيم بتحريم هذه الثياب . (٣٩٧ ، ٤١٦)[٦] . وجاءت القوة التى دفعت هذه القبائل إلى غارتها الكبرى على الإمبراطورية الرومانية من سهول المغول النائية . وتفصيل ذلك أن الزيونج نو Hsiung-nu أو الهيونج — نو Hung-nu أو الهون Hun — وهم فرع من الجنس الطورانى ، كانوا فى القرن الثالث الميلادى يحتلون الأصقاع الواقعة فى شمال بحيرة بلكاش وبحر آرال . وكانت سحنتهم ، كما يقول چردانيس Jordanes هى أقوى أسلحتهم :

فقد كانت ملامحهم الرهيبة تلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ؛ ولعلهم هم لم يكونوا أقدر على الحروب من هؤلاء الأعداء . فقد كان أعداؤهم يستولى عليهم الفزع فيفرون من أمامهم لأن وجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب فى القلوب . . ولأنهم كانت لهم فى مكان الرأس كومة لا شكل لها فيها ثقبان بدل العينين . وهم يقسون على أولادهم من يوم مولدهم، لأنهم يقطعون خدود الذكور بالسيف حتى يعودهم تحمل ألم الجروح قبل أن يذوقوا طعم اللبن ، ولهذا فإنهم لا تنبت لهم لحى إذا كبروا وتشوه ندب جروح السيوف وجوههم . وهم قصار القامة ، سريعو الحركة ، خفاف مهرة فى ركوب الخيل ، بارعون فى استعمال الأقواس والسهام ، عراض الأكتاف صلاب الرقاب ؛ منتصبوا الأجسام على الدوام[٧] .

وكانت الحرب صناعتهم ، ورعاية الماشية رياضتهم و « بلادهم » كما ورد فى أحد أمثالهم « هى ظهور خيلهم »[٨] . وتقدم أولئك الأقوام إلى الروسيا حوالى عام ٣٥٥ ، مسلحين بالأقواس والسهام ، مزودين بالشجاعة والسرعة ، يدفعهم من خلفهم جدب بلادهم وضغط أعدائهم الشرقيين ، فهزموا فى زحفهم قبائل الألانى Alani ، وعبروا نهر الفلجا (٣٧٢ ؟) ، وهاجموا فى أكرانيا القوط الشرقيين الذين كادوا أن يصبحوا أقواماً متحضرين . وقاومهم إرمنريك

Ermanaric المعمر ملك القوط الشرقيين مقاومة الأبطال ، ولكنه هزم ومات بيده لا بيد أعدائه كما يقول بعض المؤرخين . واستسلم بعض القوط الشرقيين وانضووا تحت لواء الهون ، وفر بعضهم متجهين نحو الغرب إلى أراضي القوط الغربيين الواقعة شمال الدانوب . والتقى جيش من القوط الغربيين بالهون الزاحفين عند نهر الدنيستر ، فأوقع به الهون هزيمة منكرة ، وطلب بعض من نجوا من القوط الغربيين إلى ولاة الأمور الرومان في البلاد الواقعة على نهر الدانوب أن يأذنوا لهم بعبور النهر والإقامة في موئيزيا Moesia وتراقية . وأرسل الإمبراطور ڤالنز Valens إلى عماله أن يجيبوهم إلى طلبهم على شرط أن يسلموا أسلحتهم ويقدموا شبانهم ليكونوا رهائن عنده . وعبر القوط الغربيون الحدود ، ونهب موظفو الإمبراطورية وجنودها أموالهم غير مبالين بما يجللهم عملهم هذا من عار . واتخذ الرومان الذين افتتنوا ببناتهم وغلمانهم أولئك الغلمان والبنات عبيداً لهم وإماء ، ولكن المهاجرين استطاعوا بفضل الرشا التي نفحوا بها ولاة الأمور الرومان أن يحتفظوا بأسلحتهم . وبيع لهم الطعام بما يباع به في أيام القحط ، فكان القوط الجياع يبتاعون شريحة اللحم أو رغيف الخبز بعشرة أرطال من الفضة أو بعبد ، بل إن القوط قد اضطروا في آخر الأمر أن يبيعوا أطفالهم بيع الرقيق لينجوا من الهلاك جوعاً[٩] . ولما بدت عليهم أمارات التمرد دعا القائد الروماني زعيمهم فرتچيرن Fritigern إلى وليمة وفي نيته أن يقتله ؛ ولكن فرتچيرن نجا وأثار حمية القوط المستيئسين وحرضهم على القتال ، فأخذوا ينهبون ، ويحرقون ، ويقتلون ، حتى أصبحت تراقية كلها تقريباً خراباً يباباً تعاني الأمرين من جوعهم وغيظهم . وأسرع ڤالنز من بلاد الشرق لملاقاتهم والتحم بهم في سهول هدريانوپل Hadrianople ، ولم يكن معه إلا قوة صغيرة معظم رجالها من البرابرة الذين كانوا في خدمة رومة (٣٧٨) . وكانت النتيجة ، كما يقول أميانوس « أشنع هزيمة حلت بجيوش الرومان منذ واقعة كاني Cannae » التي حدثت قبل ذلك اليوم

بخمسمائة وأربع وتسعين سنة[١٠] . وفيها تفوق الفرسان القوط على المشاة الرومان ، وظلت حركات الفرسان وفنونهم العسكرية من ذلك اليوم حتى القرن الرابع عشر هى المسيطرة على فن الحرب الآخذ فى الاضمحلال . وهلك فى هذه المعركة ثلثا الجيش الرومانى ، وأصيب ڤالنز نفسه بجرح بالغ ، وأشعل القوط النار فى الكوخ الذى آوى إليه ، ومات الإمبراطور ومن كان معه محترقين بالنار . وزحفت الجموع المنتصرة على القسطنطينية ، ولكنها عجزت عن اختراق وسائل الدفاع التى أقامتها ومنيكا أرملة ڤالنز . وأخذ القوط الغربيون ، ومن انضم إليهم من القوط الشرقيين والهون الذين عبروا الحدود غير المحمية عند نهر الدانوب ، يعيثون فساداً فى بلاد البلقان من البحر الأسود إلى حدود إيطاليا .

الفصل الثاني

الأباطرة المنقذون

٣٦٤ — ٤٠٨

ولم تُقفر الإمبراطورية في هذه الأزمة من الحكام القادرين : فقد نقل الجيش ومجلس الشيوخ تاج الإمبراطورية إلى ڤلنتنيان وهو جندي فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية يذكرنا بڤسپازيان . وعين ڤلنتنيان أخاه الأصغر ڤالنز ، بموافقة مجلس الشيوخ ، أوغسطس وإمبراطوراً على الشرق ، واختار هو لنفسه الغرب الذي كان يبدو وقتئذ أشد خطراً من الشرق . ثم أعاد تحصين حدود إيطاليا وغالة ، وأعاد إلى الجيش قوته ونظامه ، وصد مرة أخرى الغزاة الألمان إلى ما وراء نهر الرين ، وأصدر من عاصمته ميلان تشريعات مستنيرة حرم فيها على الآباء قتل الأبناء ، وأنشأ الكليات الجامعية ، ووسع نطاق المساعدات الطبية الحكومية في رومة ، وخفض الضرائب ، وأصلح النقد الذي كان قد انخفضت قيمته ، وقاوم الفساد السياسي ، ومنح جميع سكان الإمبراطورية حرية العقيدة والعبادة . وكان لهذا الإمبراطور عيوبه ونقاط ضعفه . من ذلك أنه كان يقسو أشد القسوة على أعدائه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق سقراط المؤرخ فإنه شرع الزواج باثنتين لكي يجيز لنفسه أن يتزوج جستينا[11] ، التي غالت زوجته في وصف جمالها له . ومع هذا كله فقد كان موته العاجل (٣٧٥) مأساة كبرى حلت برومة . وخلفه ابنه جراتيان Gratian على عرش الإمبراطورية في الغرب ، وسار فيها سيرة أبيه عاماً أو عامين ، ثم أطلق العنان للهو والصيد ، وترك أزمة الحكم إلى موظفين فاسدين عرضوا جميع المناصب والأحكام للبيع . لهذا خلعه القائد مكسموس عن العرش وغزا إيطاليا ليحاول تنحية ڤلنتنيان الثاني خلف

جراتيان وأخيه غير الشقيق عن ولاية الملك ، ولكن ثيودوسيوس الأول الأكبر الإمبراطور الجديد على الشرق زحف غرباً ، وهزم الغاصب ، وثبت الشاب فلنتنيان على عرشه فى ميلان (٣٨٨) .

وكان ثيودوسيوس من أصل أسبانى ، أظهر مواهبه الحربية ومهارته فى القيادة فى أسبانيا ، وبريطانيا ، وتراقية . وكان قد أقنع القوط المنتصرين بالانضواء تحت لوائه بدل أن يحاربوه ، وحكم الولايات الشرقية بحكمة وروية فى كل شىء إلا فى عدم تسامحه الدينى ؛ فلما تولى الملك روع نصف العالم بما اجتمع فيه من صفات متناقضة هى جمال خلقه ، ومهابته ، وغضبه السريع ورحمته الأسرع ، وتشريعاته الرحيمة ، وتمسكه الصارم بمبادئ الدين القويم . وبينما كان الإمبراطور يقضى الشتاء فى ميلان حدث فى تسالونيكى (سالونيكا) اضطراب كان من خصائص تلك الأيام . وكان سببه أن بُثريك Botheric نائب الإمبراطور فى ذلك البلد قد سجن سائق عربة محبوب من أهل المدينة جزاء له على جريمة خلقية فاضحة ، فطلب الأهلون إطلاق سراحه ، وأبى بثريك أن يجيبهم إلى طلبهم ، وهجم الغوغاء على الحامية وتغلبوا عليها ، وقتلوا الحاكم وأعوانه ومزقوا أجسامهم إرباً ، وطافوا بشوارع المدينة متظاهرين يحملون أشلاءهم دلالة على ما أحرزوه من النصر . ولما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع ثيودوسيوس فاستشاط غضباً وبعث بأوامر سرية تقضى بأن يحل العقاب بجميع سكان تسالونيكى . فدعى أهل المدينة إلى ميدان السباق لمشاهدة الألعاب ، ولما حضروا انقض عليهم الجند المترصدون لهم وقتلوا منهم سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال ، (٣٩٠)[١٢] . وكان ثيودوسيوس قد بعث بأمر ثان يخفف به أمره الأول ولكنه وصل بعد فوات الفرصة .

وارتاع العالم الرومانى لهذا الانتقام الوحشى وكتب الأسقف أمبروز Ambrose الذى كان يجلس على كرسى ميلان ويصرف منه شئون الأبرشية

الدينية بالجرأة والصلابة الخليقتين بالمسيحية الحقة ، كتب إلى الإمبراطور يقول إنه (أى الأسقف) لا يستطيع بعد ذلك الوقت أن يقيم القداس فى حضرة الإمبراطور إلا إذا كفر ثيودوسيوس عن جرمه هذا أمام الشعب كله . وأبى الإمبراطور أن يحط من كرامة منصبه بهذا الإذلال العلنى وإن كان فى خبيئة نفسه قد ندم على ما فعل ، وحاول أن يدخل الكنيسة ، ولكن أمبروز نفسه سد عليه الطريق ، ولم يجد الإمبراطور بداً من الخضوع بعد أن قضى عدة أسابيع يحاول فيها عبثاً أن يتخلص من هذا المأزق ، فجرد نفسه من جميع شعائر الإمبراطورية ، ودخل الكنيسة دخول التائب الذليل ، وتوسل إلى الله أن يغفر له خطاياه (٣٩٠) . وكان هذا الحادث نصراً وهزيمة تاريخيين فى الحرب القائمة بين الكنيسة والدولة .

ولما عاد ثيودوسيوس إلى القسطنطينية تبين أن ڤلنتنيان الثانى ، وهو شاب فى العشرين من عمره ، عاجز عن حل المشاكل التى تحيط به . فقد خدعه أعوانه وجمعوا السلطة كلها فى أيديهم المرتشية ، واغتصب أربوجاست Arbogast الفرنجى الوثنى قائد جيشه المرابط السلطة الإمبراطورية فى غالة ، ولما قدم ڤلنتنيان إلى ڤين ليؤكد فيها سيادته قتل غيلة (٣٩٢) . ورفع أربوجاست على عرش الغرب تلميذاً وديعاً سلس القياد يدعى أوچينوس Eugenius وبدأ بعمله هذا سلسلة من البرابرة صانعى الملوك . وكان أوچينوس مسيحياً ، ولكنه كان وثيق الصلة بالأحزاب الوثنية فى إيطاليا إلى حد جعل أمبروز يخشى أن يصبح يوليانا ثانياً . وزحف ثيودوسيوس مرة أخرى نحو الغرب ليعيد إلى تلك الأنحاء السلطة الشرعية ويردها إلى الدين القويم . وكان تحت لوائه جيش من الهون والقوط ، والألانى ، وأهل القوقاز ، وأيبيريا ، وكان من بين قواده جيناس Gainas القوطى الذى استولى فيما بعد على القسطنطينية ، واستلكو الوندالى الذى دافع فى المستقبل عن رومة ، وألريك القوطى الذى نهبها . ودارت بالقرب من أكويليا معركة

دامت يومين ، هزم فيها أربوجاست وأوچنيوس (٣٩٤) ؛ فأما أوچنيوس فقد ذبح بعد أن أسلمه جنوده ، وأما أربوجاست فقد قتل نفسه بيده . واستدعى ثيودوسيوس ابنه هونوريوس Honorius وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ليقيمه إمبراطوراً على الغرب ، ورشح ابنه أركاديوس Arcadius البالغ من العمر ثمانى عشرة سنة ليكون إمبراطوراً معه على الشرق ثم مات بعدئذ فى ميلان منهوكاً من كثرة الحروب (٣٩٥) ولما يتجاوز الخمسين من عمره . وانقسمت بعد موته الإمبراطورية التى طالما وحدها ، ولم يجتمع شملها مرة أخرى بعد ذلك الوقت إلا فى فترة قصيرة تحت حكم چستنيان .

وكان ولدا ثيودوسيوس شخصين ضعيفين مخنثين ، درجا فى مهد الأمن والدعة الموهن للعزيمة ، فلم يكونا خليقين بأن يوجها سفينة الدولة فيما يحيط بها من عواصف ، وإن كانت أخلاقهما لا تقلان طيبة عن نواياهما؛ وسرعان ما أفلت زمام الأمور من أيديهما ، وأسلما أعمال الدولة الإدارية والسياسية — إلى وزيرهما — إلى روفينوس Rufinus المرتشى الشره فى الشرق ، وإلى استلكو القدير المجرد من الضمير فى الغرب . ولم يلبث هذا الشريف الوندالى أن زوج ابنته مارية Maria بهونوريوس فى عام ٣٩٨ راجياً أن يصبح بهذا الزواج جداً لإمبراطور وصهراً لآخر . ولكن هونوريوس أثبت أنه مجرد من العاطفة تجرده من الفطنة ، فكان يقضى وقته فى إطعام الدجاج الإمبراطورى ويحبو هذا الدجاج بحبه وعطفه ، حتى ماتت مارية عذراء بعد أن لبثت زوجة عشر سنين[١٣] .

وكان ثيودوسيوس قد جعل القوط يجنحون إلى السلم باستخدامهم فى الحرب ، وبتقديم معونة سنوية من المال لهم بوصفهم حلفاء له ؛ ولكن خلفه قطع عنهم هذه المعونة ، ولما جاء استلكو سرح جنوده من القوط ؛ وقام المحاربون المتعطلون يطلبون المال والمغامرات وهيأ لهم ألريك زعيمهم الجديد كليهما واستعان على ذلك

بمهارة بزَّ بها الرومان فى الحرب وفى السياسة على السواء ، وقال لأتباعه إنه لا يدرى كيف يخضع القوطُ ذوو الأنفة والرجولة ويعملون أجراء عند الرومان أو اليونان الضعفاء المنهوكين ، بدلاً أن يعتمدوا على بسالتهم وقوة سواعدهم فيقتطعوا من الإمبراطورية المتداعية المحتضرة مملكة لهم ؟ وقاد ألريك فى السنة التى مات فيها ثيودوسيوس قوط تراقيه كلهم تقريباً وزحف بهم على بلاد اليونان ، واجتاز ممر ترموبيلى دون أن يلقى مقاومة ، وذبح كل من لقى فى طريقه من الرجال الذين فى سن العسكرية ، وسبى النساء ، وخرب بلاد البلوبونيز ، ودمر هيكل دمتر فى إليوسيز ، ولم يبق على أثينة إلا بعد أن افتدت نفسها بفدية استنفدت معظم ثروتها غير العقارية (٣٩٦) . وجاء استلكو لينقذها ولكنه وصل إليها بعد فوات الفرصة ، فاستدرج القوط إلى موقع غير حصين ، ولكن ثورة شبت فى إفريقيـــة اضطرته إلى أن يعقد معهم هدنة عاد بعدها إلى الغرب . ثم وقع ألريك ميثاق حلف مع أركاديوس أجاز فيه ثانيهما للأول أن يستقر أتباعه من القوط فى إبيروس ، وبسط السلم لواءه بعدئذ على الإمبراطورية أربع سنين .

وفى هـــذه السنين الأربع ألقى سينيسيوس القورينى ، وهو أسقف نصف مسيحى وفيلسوف نصف وثنى ، خطاباً فى القسطنطينية أمام حاشية أركاديوس المترفة وصف فيها فى وضوح وقوة المشكلة التى تواجهها رومة وبلاد اليونان والتى لا بد لها أن تختار فيها واحدة من اثنتين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة : كيف تستطيع الإمبراطورية البقاء إذا ظل أهلها يتهربون من الخدمة العسكرية ، ويكلون الدفاع عنها إلى الجنود المرتزقة ، تجندهم من الأمم التى تهدد كيانها ؟ وعرض على ولاة الأمور أن يضعوا حداً للترف والنعيم ، وأن يجيشوا جيشاً من أهل البلاد بالتطوع أو التجنيد الإجبارى يدافع عنها وعن حريتها ؛ وأهاب بأركاديوس وهونوريوس أن ينفضا عنهما غبار الخمول وأن يوجها ضربة قاصمة إلى جموع البرابرة الوقحين الذين فى داخـــل الإمبراطورية ، وأن يردوهم إلى مرابضهم

وراء البحر الأسود ونهرى الدانوب والرين . وصفق رجال الحاشية إعجاباً بما حواه خطاب سينيسيوس من عبارات منمقة بليغة ، ثم عادوا من فورهم إلى ولائمهم(١٤) . وكان ألريك فى هذه الأثناء يرغم صناع الأسلحة فى أيبروس على أن يصنعوا لرجاله القوط كل ما هم فى حاجة إليه من الحراب والسيوف والخوذ والدروع .

وفى عام ٤٠١ غزا إيطاليا ، بعد أن نهب كل ما مر به فى طريقه من البلاد ، وهرع آلاف من اللاجئين إلى ميلان وراڤنا ، ثم فروا منهما إلى رومة . واحتمى الزراع فى داخل المدن المسورة ، وجمع الأغنياء كل ما استطاعوا نقله من ثروتهم ، وحاولوا وهم فى شدة الذعر أن يعبروا البحر إلى كورسكا ، وسردينية ، وصقلية . وجرد استلكو ولايات الدولة من حامياتها ليجمع منها جيشاً يستطيع صد تيار القوط الجارف ، وانقض به عليهم فى پولنتيا Pollentia فى صباح يوم عيد القيامة من عام ٤٠٢ حين وقفوا أعمال النهب ليؤدوا الصلاة . ونشبت بين الجيشين معركة لم تكن فاصلة ، ارتد على أثرها ألريك إلى رومة التى لم تكن فيها من يدافع عنها ، ولم يغادر إيطاليا إلا بعد أن نفحه هونوريوس برشوة سخية .

وكان الإمبراطور الوجل قد فكر أثناء زحف ألريك على ميلان أن ينقل عاصمته إلى غالة ، أما الآن فقد أخذ يبحث له عن مكان آخر أعظم منها أمناً ، فوجد ذلك المكان فى راڤنا ، التى تجعلها المناقع والبحيرات الضحلة ، منيعة من البر ، والشواطئ الرقراقة مستعصية على العدو من جهة البحر . ولكن العاصمة الجديدة أخذت ترتجف من الخوف كالعاصمة القديمة حين زحف ردجيسيوس Radagaisus البربرى بجيش تبلغ عدته مائتى ألف مقاتل من الألانى ، والكوادى ، والقوط الشرقيين ، والوندال ، وعبر بهم جبال الألب ، وهاجم مدينة فلورنتيا الناشئة . وفى هذه الساعة العصيبة برهن استلكو مرة أخرى على براعته فى القيادة ، فهزم الجحفل المختلط بجيش أقل منه عدداً ، وساق ردجيسيوس مكبلا بالأغلال أمام هونوريوس . وتنفست إيطاليا الصعداء مرة أخرى ، وعادت

حاشية الإمبراطور ، من أشراف وأميرات ، وأساقفة ، وخصيان ، وطيور داجنة وقواد إلى ما ألفته من ترف ، وفساد ، ودسائس .

وكان أولمپيوس وزير الإمبراطور ، يغار من استلكو ويرتاب في نواياه . فقد ساءه أن يتغاضى القائد العظيم ، كما بدا له ، عن هرب ألريك المرة بعد المرة . وخيل إليه أنه قد كشف ما بين القائد الألماني والغزاة الألمان من عطف كامن . واحتج على الرشا التي نفح بها ألريك أو وعد بها بناء على طلب استلكو . وتردد هونوريوس في إقصاء الرجل الذي لبث ثلاثة وعشرين عاماً يقود جيوش رومة من نصر إلى نصر ، والذي أنجى الغرب مما كان يتهدده من أخطار ؛ فلما أن أقنعه أولمپيوس بأن استلكو يأتمر به ليجلس ابنه هو على العرش ، وافق الشاب الوجل على قتل قائده ، وأرسل أولمپيوس من فوره سرية من الجند لينفذوا قرار الإمبراطور . وأراد أصدقاء استلكو أن يقاوموا ولكنه أمرهم ألا يفعلوا ومد رقبته للسيف (٤٠٨) .

وبعد بضعة أشهر من هذا الحادث عاد ألريك إلى إيطاليا .

الفصل الثالث

ما كان يحدث فى إيطاليا

كانت الدولة الرومانية الغربية فى أواخر القرن الرابع تطالعنا بصورة معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال ، ومن النشاط والعقم الأدبى ، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكرى . وكانت غالة فى هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء ، وتنازع إيطاليا سيادتها فى جميع الميادين ؛ فقد كان عدد الغاليين فى الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من سكانها الذين يقربون من سبعين مليوناً ، فى حين أن الإيطاليين لا يكادون يبلغون ستة ملايين(١٥) ؛ وأما من عدا هؤلاء وأولئك فكانت كثرتهم من الشرقيين الذين يتكلمون اللغة اليونانية . وقد استحالت رومة نفسها منذ بداية القرن الثانى بعد الميلاد مدينة شرقية من حيث الأجناس التى تسكنها . لقد كانت رومة من قبل تعتمد فى حياتها على الشرق كما كانت أوربا الحديثة تعتمد فى حياتها على فتوحها ومستعمراتها إلى أواسط القرن العشرين ؛ وكانت الفيالق الرومانية تستحوذ على غلات ولاياتها التى تزيد على عشر ، وتنتزع منها معادنها الثمينة التى كانت تنساب فى قصور الظافرين وخزائنهم . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد انقضى عهد الفتوح وبدأ عهد التقهقر والتراجع ، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التى اضمحلت اضمحلالا ينذر بأشد الأخطار من جراء تحديد النسل ، والقحط والوباء ، والضرائب الفادحة ، والإتلاف والحرب . ولم تزدهر الصناعة يوماً ما فى شبه الجزيرة الطفيلية ؛ والآن وقد أخذت تفقد أسواقها فى الشرق وفى غالة ، لم يعد فى وسعها أن تعول سكان المدن الذين كانوا يحصلون على الكفاف من العيش بالكدح فى الحوانيت وفى البيوت . وكانت الكليجيا Collegia أو نقابات أصحاب الحرف تعانى الأمرين

من جراء عجز أفرادها عن بيع أصواتهم فى دولة ملكية مطلقة كان التصويت فيها نادراً . وكسدت التجارة الداخلية ، وانتشر قطاع الطرق ، وأخذت الطرق التى كانت من قبل مضرب الأمثال فى العظمة تضمحل وتتحطم وإن ظلت وقتئذ أحسن من أى طريق فى العالم كله قبل القرن التاسع عشر.

وكانت الطبقات الوسطى قبل ذلك الوقت عماد حياة المدن فى إيطاليا ؛ أما الآن فقد ضعفت هى الأخرى من جراء الانحلال الاقتصادى والاستغلال المالى ؛ فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لإعالة بيروقراطية آخذة فى الاتساع ، أهم ما تقوم به من الأعمال هو جباية الضرائب . وكان الهجاءون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون إن « الذين يعيشون على الأموال العامة أكثر عدداً من الذين يمدونهم بهذه الأموال[16] .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبى من الضرائب ؛ وسن ألف قانون وقانون لمقاومة اختلاس إيرادات الحكومة أو أملاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها ، وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء أكثر مما يجب أن يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لأنفسهم ؛ وكان فى وسعهم فى مقابل هذا أن يخففوا الضرائب عن الأغنياء نظير جعل يأخذونه منهم[17] .

وكان الأباطرة يبذلون غاية جهدهم لكى تراعى الأمانة فى جبايتها ؛ من ذلك أن فلنتيان الثانى عين فى كل بلدة موظفاً يسمى « المدافع عن المدينة » ليحمى أهلها من حيل الجباة ، وأعفى هونوريوس المدن التى كانت تعانى الأزمات المالية مما كان متأخراً عليها من الضرائب . ومع هذا فإن بعض سكان المدن — إذا صدقنا قول سلفيان Salvian — كانوا يفرون إلى خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم يتعلموا بعد فن جباية الضرائب كاملا ، فقد بدا لهم أن عمال الخزانة أشد رهبة من العدو »[18]. وكان من أثر هذه الظروف أن قلت الرغبة فى النسل فأخذ عدد السكان فى النقصان ، وبقيت آلاف الأفدنة من الأراضى

الصالحة للزراعة بوراً لا تجد من يفلحها ، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادى اجتمع إلى ما بقى فى المدن من ثروة فأدى إلى اجتذاب البرابرة الذين كانوا فى أشد الحاجة إلى تملك الأرض . ووجد كثيرون من أصحاب الأراضى الزراعية أنهم عاجزون عن أداء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص ، فتخلوا عن أملاكهم لمن هم أكبر منهم من الملاك أو أعظم قوة ، وعملوا عندهم زراعاً (Coloni) ، وأخذوا على أنفسهم أن يقدموا لسادتهم قدراً معيناً من غلة الأرض ومن العمل والوقت ، على أن يضمن لهم أولئك السادة ما يكفيهم من العيش ، ويحموهم فى وقتى السلم والحرب . وبهذا كانت إيطاليا ، التى لم تعرف فيما بعد الإقطاع بمعناه الكامل ، من أوائل الأمم التى أعدت أسس هذا الإقطاع . وكانت خطة شبيهة بهذه تحدث فى مصر وإفريقية وغالة .

وكان الاسترقاق آخذاً فى الزوال على مهل ، وسبب ذلك ألا شىء فى الحضارة الراقية يعدل أجر الرجل الحر أو مرتبه أو مكسبه من حيث هو دافع اقتصادى للعمل والإنتاج . ولم يكن كدح الأرقاء مجزياً من هذه الناحية إلا حين يكثر عددهم ؛ وكانت أعباء الاحتفاظ بهم قليلة ؛ ولكن نفقات الحصول عليهم زادت حين لم تعد الفيالق الرومانية تنقل إلى بلادها ثمار النصر من الآدميين ؛ يضاف إلى هذا أن فرار الأرقاء من سادتهم أصبح الآن أمراً يسيراً بسبب ضعف الحكومة ؛ هذا إلى أنه كان لابد من العناية بهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن . ولما أن زادت تكاليف الأرقاء رأى سادتهم أن يحافظوا على الأموال التى استثمروها فيهم بحسن معاملتهم لهم ؛ ولكن أولئك الأسياد كان لا يزال لهم على عبيدهم حق الحياة والموت ، وإن كان هذا الحق مقيداً ببعض القيود[١٩] ، كما كان فى مقدور السيد أن يستعين بالقانون للقبض على العبد الآبق ، وأن يشبع شهوته الجنسية مع من يهوى منهم رجالا كانوا أو نساء ؛ وهل أدل على هذا من أن بولينوس البلائى Paulinus of Pella كان يفخر بطهارة ذيله فى شبابه

حين « كبحت جماح شهواتى . . . فلم أستجب لعشق امرأة حرة . . . واكتفيت بالإماء اللاتى كن فى بيتى »[٢٠] .

وكان معظم الأغنياء يعيشون الآن فى بيوتهم الريفية بمنجاة من ضجيج المدن وغوغائها ، غير أن الجزء الأكبر من ثروة إيطاليا كان لا يزال ينصب فى رومة ؛ ولم تكن المدينة العظيمة ، كما كانت من قبل ، عاصمة الدولة ، وقلما كانت ترى الإمبراطوار ، ولكنها ظلت مركز الحياة الاجتماعية والذهنية فى الغرب . وفى رومة كانت أعلى درجات الطبقة الأرستقراطية الإيطالية الجديدة . ولم تكن هذه ، كما كانت من قبل ، طبقة وراثية ، بل كانت طائفة يختارها الأباطرة بين الفينة والفينة على أساس الملكية العقارية . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يعيشون بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة وإن كان مجلسهم قد فقد بعض هيبته وكثيراً من سلطانه . وكانوا يشغلون بعض المناصب الإدارية الهامة ويظهرون فيها كثيراً من المقدرة والكفاية ، ويقيمون الألعاب العامة على نفقتهم الخاصة . وكانت بيوتهم غاصة بالخدم مملوءة بالأثاث الغالى الثمن ، وليس أدل على ذلك من أن طنفسة واحد قد كلفت صاحبها ما قيمته أربعمائة ألف ريال أمريكى[٢١] . وتكشف رسائل سماكوس Symmacus وسيدنيوس Sidonius . كما يكشف شعر كلوديان عن الناحية الطيبة من حياة أولئك الأشراف الجدد ، وما تمتاز به من نشاط اجتماعي وثقافى ، وخدمة للدولة وولاء لها ، وما كان بينهم من صداقة ورقة ، وإخلاص متبادل بينهم وبين أزواجهم ، وحب لأبنائهم وعطف عليهم .

لكن قساً من مرسيلية عاش فى القرن الخامس قد صور الحالة فى إيطاليا وغالة بصورة أقل جاذبية من الصورة السابقة . فقد عالج سلفيان Salvian فى كتابه « عن حكومة الله » (حوالى ٤٥٠) نفس المشكلة التى أوحت إلى أوغسطين بكتابه « مدينة الله » وإلى أورسيوس Arosius بكتابه « التاريخ ضد الوثنيين » — وهى كيف يستطاع التوفيق بين الشرور الناجمة من غزوات البرابرة وبين

العناية الإلهية الرحيمة الخيرة ؟ وقد أجاب سلفيان عن هذا السؤال بأن الآلام التى يقاسيها سكان الإمبراطورية إن هى إلا قصاص عادل لما كان متفشياً فى العالم الرومانى من استغلال اقتصادى ، وفساد سياسى ، واستهتار أخلاقى ؛ ويؤكد لنا أنا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء ، لأن قلوب البرابرة أرق من قلوب الرومان ؛ ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضهم وقضيضهم ليعيشوا تحت حكم البرابرة[٢٢] . ويواصل هذا الواعظ الأخلاقى وصفه فيقول إن الأغنياء والفقراء ، والوثنيين والمسيحيين ، فى داخل الإمبراطورية كلهم غارقون فى حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلا ؛ فالزنى ، وشرب الخمر قد أصبحا من الرذائل المألوفة فى هذه الأيام ، كما أضحت الفضيلة والاعتدال مثار السُخرية ومبعث الآلاف من الفكاهات القذرة ؛ وصار اسم المسيح لفظاً تدنسه أفواه الذين يسمونه إلهاً[٢٣] . ويمضى هذا التاستس Tacitus الثانى[*] فيدعونا إلى أن ننظر إلى الفرق بين هذا كله وبين ما يتصف به الألمان من قوة وشجاعة ، ومن مسيحية مليئة بالتقى خالية من التعقيد ، ومن لين فى معاملتهم للرومان المغلوبين ، ومن ولاء متبادل بينهم ، ومن عفة قبل الزواج ، ووفاء بعده . لقد ذهل جيسريك Gaiseric الزعيم الوندالى إذ وجد حين استولى على قرطاجنة المسيحية أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة ، فما كان منه إلا أن أغلق هذه المواخير وخير العاهرات بين الزواج والنفى . وجملة القول أن العالم الرومانى سائر إلى الانحطاط جسمياً ، وقد فقد كل ما كان يتصف به من شجاعة أدبية ، وترك الدفاع عنه إلى الأجانب المأجورين . ويختم سلفيان هذا الوصف بقوله إن الإمبراطورية الرومانية « إما أن تكون قدماتت وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها » ؛ وإذا كنا نراها فى ذروة ترفها وألعابها ، فإنها تضحك حين تموت Moritur et ridet[٢٤] .

(*) أى الذى ينحو منحى تاستس فى تهجمه . (المترجم)

تلك صورة مروعة ، ظاهر فيها الغلو ، لأن البلاغة قلما تصحبها الدقة ، وما من شك فى أن الفضيلة قد توارت حياء فى ذلك الوقت كما تتوارى الآن ، وأفسحت الطريق للرذيلة ، والبؤس ، والسياسة ، والجريمة . ويرسم أوغسطين صورة لا تقل عن هذه الصورة قتاما يهدف بها إلى مثل هذه الغاية الأخلاقية ؛ فهو يشكو من أن الكنائس كثيراً ما تخلو من المصلين لأن البنات الراقصات فى دور التمثيل يجتذبن الناس منها بما يعرضنه من فتنتهن السافرة(٣٥). وكانت الألعاب العامة لا تزال تشهد قتل الأسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة فى أعيادهم . وفى وسعنا أن نتصور ما فى هذه المناظر من قسوة حين نقرأ ما يقوله سماكوس من أنه أنفق ما قيمته ٩٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى فى إقامة حفلة واحدة ، ومن أن المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع الاختيار عليهم ليقاتلوا فى المجتلد قد فوتوا عليه غرضه بأن خنقوا بعضهم بعضاً فانتحروا جميعاً قبل أن تبدأ الألعاب(٣٦). وكان لرومة فى القرن الرابع ١٧٥ عيداً فى العام ، منها عشرة تقام فيها مباريات المجالدين ، وأربعة وستون تعرض فيها ألعاب الوحوش ، وما بقى منها بعد ذلك تعرض فيه مناظر فى دور التمثيل(٣٧) . واغتنم البرابرة فرصة ولع الرومان بهذه المعارك الزائفة فانقضوا على قرطاجنة ، وأنطاكية ، وترير Trier حين كان الأهلون منهمكين فى مشاهدتها فى المدرجات أو حلبات اقتتال الوحوش(٣٨) . وحدث فى عام ٤٠٤ أن أقيمت فى رومة ألعاب للمجالدين احتفالا بذكرى انتصار استلكو فى پولنتيا نصراً مشكوكاً فيه . وحين بدأ الدم يراق قفز راهب شرقى يدعى تلمكس Telemachus من مقاعد النظارة إلى المجتلد ونادى بوقف القتال . ولكن النظارة استشاطوا غضباً فأخذوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ؛ وأثر هذا المنظر فى الإمبراطور هونوريوس فأصدر مرسوماً بإلغاء

ألعاب المجالدين(*) . أما السباق فقد بقى حتى عام ٥٤٩ حين قضى عليه استنزاف الحروب القوطية لثروة المدن .

أما من الناحية الثقافية فلم تشهد رومة منذ أيام پلنى وتاستوس عصراً نشطت فيه الثقافة مثل ما نشطت فى ذلك الوقت . لقد كان كل إنسان مولعاً بالموسيقى حتى لقد شكا أميانوس[٢٩] من أنها قد حلت محل الفلسفة . وأنها قد « حولت دور الكتب إلى مقابر » ؛ وهو يصف لنا أراغن مائية ضخمة ، وقيثارات فى حجم المركبات . وكانت المدارس كثيرة العدد ، ويقول سماكوس إن كل إنسان كان يجد الفرصة سانحة لتنمية ملكاته[٣٠] . وكانت « جامعات » الأساتذة الذين تؤدى لهم الدولة رواتبهم تعلم النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والفلسفة لطلاب جاءوا إليها من جميع الولايات الغربية ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه البرابرة المحيطون بالدولة يدرسون فنون الحرب . إن كل حضارة ثمرة من ثمار شجرة الهمجية الصلبة وهى تسقط حين تسقط عند أبعد نقطة من جزع هذه الشجرة .

وجاء إلى المدينـــة التى يبلغ عدد سكانها مليوناً من الأنفس حوالى عام ٣٦٥ يونانى سورى ، كريم المحتد ، وسيم الخلق ، يدعى أميانوس مرسلينوس الأنطاكى . وكان من قبل جندياً تحت قيادة أرسينوس Ursinus فى أرض الجزيرة ، واشترك بنشاط فى حروب قنسطنطيوس ويوليان ، وجوڤيان . وقد عاش هذا الرجل عيشة الجد والعمل قبل أن يشتغل بالكتابة . ولما عاد السلام إلى ربوع الشرق ارتحل إلى رومة وأخذ على عاتقه إتمام العمل الذى بدأه ليڤى وتاستوس ، وذلك بكتابة تاريخ الإمبراطــورية من عهد نيفا إلى عهد ڤالنز . وكتب بلغة لاتينية عسيرة معقدة ، تشبه اللغة الفرنسية إذا ما كتبها ألمانى ؛ وكان من أسباب هذا العسر والتعقيد فى

(*) ومرجعنا الوحيد فى هذا هو « التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica » (فى المجلد العشرين) تأليف ثيودريت الأنطاكى . وقد تكون هذه القصة من الأكاذيب التى توحى بها التقوى للمؤرخين .

كتاباته كثرة ما قرأه من كتابات تاستوس وطول الزمن الذى كان يتكلم فيه اللغة اليونانية . وكان هذا الرجل وثنياً سافراً ، من المعجبين بيوليان ، ومن الذين يزدرون الترف الذى كان يعزوه إلى أساقفة رومة ؛ ولكنه رغم هذا كله كان بوجه عام منزها عن الهوى فيما كتب ، يمتدح كثيراً من فضائل المسيحية ، ويلوم يوليان على تقييده الحرية العلمية، ويقول إن هذا خطأ يجب « أن يقضى عليه بالسكوت الأبدى »[٣١] . وكان قد حصل من العلم أقصى ما يسمح وقت الجندى له بتحصيله . وكان يؤمن بالشياطين والسحر ، ويقتبس من شيشرون أكبر المعارضين للقدرة على معرفة الغيب ما يؤيد به هذه العقيدة[٣٢] . ولكنه كان إلى حد كبير رجلا شريفاً لا يداجى ولا يجامل ، عادلا مع جميع الناس وجميع الأحزاب ؛ « لا أزين قصتى بالألفاظ الخداعة ، أمين على الحقائق إلى أبعد حدود الأمانة »[٣٣] . وكان يكره الظلم ، والبذخ ، والمظاهر الكاذبة ، ويجهر برأيه فيها أينما وجدت ؛ وكان آخر المؤرخين اليونان والرومان الأقدمين ، وكان كل من جاء بعده فى العالم اللاتينى مجرد إخباريين .

لكن مكروبيوس Macerobius قد وجد فى هذه المدينة نفسها ، أى فى رومة ، التى كانت أخلاقها فى نظر أميانوس وضيعة متعاظمة فاسدة ، مجتمعاً من الناس ، يجملون ثراءهم باللطف والكياسة ، والثقافة ، ومحبة الناس . وكان مكروبيوس هذا فى أول الأمر من رجال العلم مولعاً بالكتب وبالحياة الهادئة ، لكننا نجده فى عام ٣٩٩ يعمل مبعوثاً للإمبراطور فى أسپانيا . وقد أصبح تعليقه على كتاب شيشرون المسمى « أحلام سپيو » الوسيلة التى انتقل بها تصوف الأفلاطونية الجديدة وفلسفتها إلى عامة الشعب . وخير كتبه على الإطلاق هو كتاب الساترناليا Saturnalia أو عيد زحل الذى لا يكاد كتاب تاريخى فى الخمسة عشر قرناً الأخيرة يخلو من مقتبسات منه . وهو مجموعة من (غرائب الأدب) أورد فيه المؤلف ما حصله من معلومات غير متجانسة فى أيام جده ودراسته ،

ولياليه الطوال التي قضاها ينقب في بطون الأسفار . وقد تفوق في كتاباته على ألوس جليوس Oulus Gellius في الوقت الذي كان يسطو عليه ، ذلك بأنه صاغ المادة التي أخذها عنه في صورة حوار خيالي بين رجال حقيقيين هم بريتكستاتوس Proetextatus وسيماخوس Symmachus ، وفلاڤيان ، وسرڤيوس وغيرهم ممن اجتمعوا ليحتفلوا بعيد الساترناليا بالخمر الطيب ، والطعام الشهي ، والنقاش العلمي . وألقيت في هذا النقاش على الطبيب ديزاريوس Disarius أسئلة علمية منها : هل الطعام البسيط خير من الطعام المتعدد الألوان ؟ ولم يندر أن ترى امرأة سكرى ؟ ولم يسكر المسنون من الرجال على الدوام ؟ هل طبيعة الرجال أقل أو أكثر حرارة من طبيعة النساء ؟ . ويدور النقاش حول التقويم ، وفيه تحليل طويل لألفاظ ڤرچيل ، ونحوه ، وأسلوبه ، وفلسفته ، وسرقاته ؛ وفيه فكاهات مأخوذة من جميع العصور ؛ ورسالة عن الولائم الدسمة ، والأطعمة النادرة . وتبحث في المساء مسائل أخف من هذه يتسلى بها هؤلاء العلماء منها : لم تحمر وجوهنا من الخجل وتصفر من الخوف ؟ — ولم يبدأ الصلع من أعلى الرأس ؟ وأيهما أسبق من الآخر الفرخ أو البيضة ؟

ونجد في مواضع متفرقة من هذا الخليط المهوش فقرات سامية كالتي يتحدث فيها بريتكستاتوس عن الرق فيقول :

لن أقدّر الناس بمراكزهم بل بآدابهم وأخلاقهم ، لأن الثانية ثمرة طباعنا أما الأولى فهي نتيجة الصدفة . . وينبغي لك يا إفنجيلوس أن تبحث عن أصدقائك في منزلك لا في السوق العامة ولا في مجلس الشيوخ . عامل عبدك بالرفق والحسنى ، وأشركه في حديثك ، وأدخله أحياناً في مجالسك الخاصة . وقد عمل آباؤنا على محو الكبرياء من نفس السيد والخجل من نفس العبد بأن سموا الأول « والد الأسرة » وسموا الثاني « أحد أفراد الأسرة » وإن عبيدك ليبادرون إلى احترامك أكثر من مبادرتهم إلى خوفك(٣٥) .

وكانت ندوة شبيهة بهذه الندوة هي التي رحبت في عام ٣٩٤ بأن ينضم إليها شاعر شاءت الأقدار أن يتغنى بمجد رومة في ساعة احتضارها . ولد كلوديوس كلوديانوس Claudius Claudianus كما ولد أميانوس ، في بلاد الشرق ، وكانت لغته الأصلية هي اللغة اليونانية . ولكنه تعلم اللاتينية بلا ريب في حداثة سنه ، لأنه كان يكتب بها بأسلوب سلس . وبعد أن أقام في رومة زمناً قصيراً نزح إلى ميلان ، واستطاع أن يجد له مكاناً في أركان حرب استلكو ، ثم صار شاعراً غير رسمي لبلاط الإمبراطور هو نوريوس ، وتزوج سيدة ذات ثراء من أسرة شريفة . وكان كلوديوس يترقب أن تواتيه الفرصة الكبرى ولا يحب أن يموت وهو خامل الذكر . ولذلك كان يمدح استلكو بقصائد عصماء ويهاجم أعداءه بقصائد أخرى حوت أقذع الألفاظ . وعاد إلى رومة في عام ٤٠٠ ولقي منها أعظم آيات الشكر والترحاب حين مدح المدينة الخالدة في قصيدة « عن قنصلية استلكو » لا تقل روعة عن قصائد فرجيل نفسه :

أيا قنصل الناس جميعاً ، ويا من تضارع الآلهة في المنزلة ، وأنت حامي المدينة التي لا تدانيها مدينة يحيط بها الهواء الذي على سطح الأرض ، ولا تبلغ مداها العين ، ولا يتصور جمالها الخيال ، ولا يوفيها صوت مهما علا حقها من الثناء . إنها ترفع هامتها الذهبية تحت ما جاورها من النجوم ، وتحاكي بتلالها السبعة السبع السموات العلى . هي أم الجيوش والشرائع التي عنت لجبروتها الأرض بأجمعها وكانت أقدم مهد للعدالة على ظهر الأرض . تلك هي المدينة التي نشأت نشأة متواضعة ، ولكنها امتدت إلى القطبين وبسطت سلطانها من مكانها الصغير حتى بلغ مداه منتهى ما يصل إليه ضياء الشمس . . . فهي دون غيرها من البلاد قد فتحت صدرها لاستقبال من غلبتهم على أمرهم ، وعاملت الجنس البشري معاملة الأم الرءوم لا معاملة الحاكم المتغطرس ، فحمته وخلعت عليه اسمها ، ودعت من هزمتهم إلى مشاركتها في حقوق المواطنية ، وربطت الشعوب البعيدة برباط

المحبة . وبفضل حكمها السلمى أصبح العالم كله وطناً لنا ، نعيش فيه أينما شئنا ، وأصبح فى مقدورنا أن نزور ثول Thule ونرتاد براريها التى كانت من قبل تقذف الرعب فى القلوب ، والتى أصبح ارتيادها الآن نزهة هينة ، وبفضلها يستطيع كل من أراد أن يشرب من مياه الرون ويعب من مجرى نهر العاصى ، وبفضلها صرنا كلنا شعبا واحداً(٣٦) .

وأراد مجلس الشيوخ أن يعبر لكلوديوس عن شكره واعترافه بفضله فأقام فى سوق تراجان تمثالا « لأجَلّ الشعراء » الذى جمع بين سلاسة فرجيل ، وقوة هومر . وقضى كلوديان بعض الوقت يقرض الشعر فى موضوعات تدر عليه المال ، ثم وجه مواهبه وجهة أخرى فأنشأ قصيدته « اغتصاب برسبرين Brosperine » وقص فيها القصة القديمة وصور البر والبحر وأسبغ على تلك الصورة من رقيق النغم ما يعيد إلى الذاكرة روايات الحب اليونانية فى العصر الذى ظهرت فيه أول مرة . وبلغه فى عام ٤٠٨ أن استلكو قد قتل غيلة ، وأن الكثيرين من أصدقاء هذا القائد قد قبض عليهم وأعدموا . واختفى الرجل بعدئذ من ميدان التاريخ فلم نعرف باقى قصته .

وبقيت فى رومة كما بقيت فى الإسكندرية أقليات وثنية كبيرة العدد ، وكان فيها حتى نهاية القرن الرابع سبعمائة هيكل وثنى(٣٧) . ويبدو أن چوڤيان وڤلنتنيان الأول لم يغلقا الهياكل التى فتحها يوليان ؛ فظل القساوسة الرومان حتى عام ٣٩٤ يجتمعون فى مجامعهم المقدسة ، وظلت أعياد اللوپركاليا يحتفل بها بكل ما فيها من شعائر نصف همجية ، كما ظلت الطريق المقدسة تتردد فيها بين الفينة والفينة أصداء خوار الأثوار التى تساق للضحية .

وكان أعظم الناس إجلالا بين الوثنيين فى رومة فى أيامها الأخيرة هو فتيوس بريتكستاتوس ، زعيم الأقلية الوثنية فى مجلس الشيوخ . وكان الناس جميعا يعترفون بفضائله — باستقامته ، وعلمه ، ووطنيته ، وحياته العائلية اللطيفة . ومن

الناس من يقول إنه يماثل كاتو وسنسناتوس Cincinnatus ؛ ولكن الزمان يذكر أكثر منه صديقه سيماخوس (٣٤٥ — ٤١٠) ، الذى ترسم رسائله صورة رائعة ساحرة للأرستقراطية التى كانت تظن نفسها مخلدة وهى تحتضر . وحتى أسرته نفسها قد بدت أنها من المخلدين : فقد كان جده قنصلا فى عام ٣٦٤ ، وكان هو نفسه حاكماً فى عام ٣٨٤ ، وقنصلا فى عام ٣٩١ . وكان ابنه بريتورا ، وحفيده قنصلا فى عام ٤٨٥ بعد وفاة جده ، وكان اثنان من أحفاد أحفاده قنصلين فى عام ٥٢٢ . وكان سيماخوس ذا ثروة طائلة ؛ فقد كانت له ثلاثة قصور ريفية بالقرب من رومة ، وسبعة أخرى فى لاتيوم ، وخمسة على خليج نابلى ، فضلا عن قصور أخرى مثلها فى أماكن أخرى من إيطاليا ؛ وبفضل هذه القصور «كان فى وسعه أن يسافر من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ثم يأوى إلى منزله فى كل مكان يحل به[٣٨] » . ولا يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الناس كان يحسده على ثرته ، لأنه كان ينفق منها بسخاء وينميها بحياة الدرس ، والخدمة العامة ، والأخلاق الفاضلة ، وأعمال البر والإنسانية ، التى لا تعرف فيها شماله ما تفعل يمينه . وكان من أصدقائه الأوفياء مسيحيون ووثنيون ، وبرابرة ورومان . ولعله كان يضع وثنيته قبل وطنيته ؛ فقد كان يظن أن الثقافة التى يمثلها ويستمتع بها وثيقة الصلة بالدين القديم ، وكان يخشى أن يؤدى سقوط أيهما إلى سقوط كليهما . ويعتقد أن المواطن بإخلاصه للشعائر القديمة يحس أنه حلقة فى سلسلة مترابطة متصلة أعجب اتصال — تمتد من رميولوس إلى فلنتنيان ، وأن هذا الإخلاص يبعث فى نفسه حب المدينة وحب الحضارة التى نشأت بفضل الأجيال المتعاقبة خلال ألف عام . وقد استحق كونتوس أورليوس سيماخوس بفضل خلاله الطيبة أن يختاره مواطنوه ممثلا لهم فى آخر كفاحهم الرائع فى سبيل آلهتهم .

وقد استطاع أمبروز أن يجعل الإمبراطور جراتيان مسيحياً متحمساً لدينه ، وأغراه تحمسه للدين القديم أن يعلن على الملأ أن العقيدة النيقية فريضة واجبة

« على جميع الشعوب الخاضعة لحكمنا الرحيم » ، وأن أتباع غيرها من العقائد « مفتونون مسلوبو العقول »[٣٩] ، وفى عام ٣٨٢ أمر ألا تؤدى خزانة الإمبراطورية أو خزائن البلديات أية إعانات لإقامة الاحتفالات الوثنية ، أو للعذارى الفستية أو الكهنة الوثنيين ، ثم صادر الأراضى التى تملكها الهياكل ، وجماعات الكهنة ، وأمر أتباعه بأن يرفعوا من قاعة مجلس الشيوخ فى رومة تمثال إلهة النصر الذى أقامه فيها أغسطس فى عام ٢٩ ق . م ، والذى ظل اثنا عشر جيلا من الشيوخ يقسمون بين يديه يمين الولاء للإمبراطور ؛ وانتدب مجلس الشيوخ وفدا برياسة سياخوس يشرح لجراتيان قضية تمثال النصر هذا ، ولكن جراتيان أبى أن يستقبل الوفد ، وأمر بنفى سياخوس من رومة (٣٨٢) ؛ وفى عام ٣٨٣ قتل جراتيان وبعث هذا الأمل فى مجلس الشيوخ فأرسل وفداً إلى خليفته على العرش ؛ وكانت الخطبة التى ألقاها سياخوس بين يدى فلنتنيان الثانى آية من آيات الدفاع البليغ ، وكان مما قاله فيها إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يقضى هذا القضاء العاجل المفاجئ على شعائر دينية ظلت طوال ألف عام مرتبطة أشد الارتباط باستقرار النظام الاجتماعى وهيبة الدولة ، ثم قال : « ماذا يهمنا ، فى آخر الأمر ، أى طريق يسلكه إنسان ليصل به إلى الحقيقة ؟ والحق أن فى وسع الناس أن يصلوا إلى معرفة هذا السر العظيم من طريق واحد »[٤٠] .

وتأثر فلنتنيان الشاب بهذا القول ، ويقول أمبروز إن من كان فى المجلس الإمبراطورى من المسيحيين أنفسهم قد أشاروا على الإمبراطور بإعادة تمثال النصر إلى مكانه ، ولكن أمبروز ، وكان فى ذلك الوقت غائبا فى بعثة دبلوماسية للدولة ، تغلب على المجلس برسالة قوية مليئة بالكبرياء والغطرسة أرسلها إلى الإمبراطور . وعدد فيها حجج سياخوس حجة بعد حجة ، ثم دحضها كلها بما وهب من قوة وبلاغة . وقد حوت هذه الرسالة ما يعد فى الواقع تهديداً

للإمبراطور بإخراجهمن حظيرة الدين إذا أجاب الوفد إلى طلبه ، « قد يكون في وسعك أن تدخل الكنيسة ولكنك لن تجد فيها قساً يستقبلك ، أو أنك قد تجدهم فيها ليحرموا عليك دخولها »[٤١] . وكان من أثر ذلك أن رفض فلنتنيان طلب مجلس الشيوخ .

وبذل الوثنيون في إيطاليا مجهوداً آخر في عام ٣٩٣ ، فأعلنوا الثورة وخاطروا في سبيل غايتهم بكل شيء . وكان ثيودوسيوس قد أبى أن يعترف بالإمبراطور يوجنيوس نصف الوثني ، فرأى هذا الإمبراطور أن يستعين بوثني الغرب في دفاعه عن نفسه ، فأعاد تمثال النصر إلى مكانه ، وتباهى بقوله إنه حين يتم له النصر على ثيودسيوس سيربط خيله في الكنائس المسيحية . وسار نقوماكس خوس فلاڤيانوس Nicomachus Flavianns زوج ابنة سياخوس ، على رأس جيش ليساعد به يوجنيوس ، فقاسمه الهزيمة وانتحر . وزحف ثيودوسيوس على رومة ، وأرغم مجلس الشيوخ على أن يعلن إلغاء الوثنية بجميع أشكالها (٣٩٤) . ولما نهب ألريك رومة حسب الوثنيون أن ما أصاب هذه المدينة التي كانت من قبل سيدة العالم من إذلال كان نتيجة غضب الآلهة الذين تخلت عنهم . وفككت حرب الأديان هذه وحدة الشعب ، وحطمت قواه المعنوية ، ولما أن وصل إليهم سيل الغزو الجارف لم يجدوا وسيلة يواجهونه بها إلا تبادل اللعنات والصلوات المتنافرة .

الفصل الرابع

تيار البرابرة الجارف

عقب أولمبيوس على الأمر القاضى بقتل استلكو بأمر آخر يقضى بقتل آلاف من أتباعه ومنهم رؤساء فيالقه البربرية . وكان ألريك يتحين الفرصة السانحة له وراء جبال الألب ، فوجد فى هذا فرصته السانحة ولم يدعها تفلت من يده ؛ فقال إن الأربعة الآلاف من الأرطال الذهبية التى وعد الرومان بأدائها إليه لم تصله بعد ، وقال إنه فى نظير هذا المال يرضى أن يقدم أنبل الشباب القوطى ضماناً لولاته فى مستقبل الأيام . فلما رفض هونوريوس طلبه اجتاز جبال الألب ونهب أكويليا وكرمونا ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من الجنود المرتزقة الذين أغضبهم قتل زعمائهم ، وزحف بطريق فلامنيوس حتى وصل الى أسوار رومة (٤٠٨) . ولم يلق فى هذا الزحف مقاومة اللهم إلا من راهب واحد قال له إنه قاطع طريق ، فرد عليه ألريك بجواب حيره إذ قال له إن الله نفسه قد أمره بهذا الغزو . وارتاع مجلس الشيوخ كما ارتاع فى أيام هنيبال ، ودفعه الروع إلى ارتكاب أعمال وحشية . فقد ظن أن أرملة استلكو كانت تساعد ألريك فأمر بقتلها ، ورد ألريك على هذا بقطع كل الطرق التى يمكن أن يصل منها الطعام إلى العاصمة ، وسرعان ما أخذ الناس يموتون فيها من الجوع ، وشرع الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، والنساء يقتلن أبناءهن ليتخذنهم طعاماً . وسار وفد من أهل المدينة إلى ألريك ليسأله عن شروط الصلح ؛ وهددوه بأن ألف ألف من الرومان على استعداد لمقاومته ، فتبسم ضاحكاً من قولهم وأجابهم «كلما ازداد سمك القش كان حصده أيسر» . ثم رق قلبه فرضى أن ينسحب إذا أعطى كل ما فى المدينة من ذهب وفضة ، وكل ما تحتويه من ثروة منقولة قيمة . ولما سأله المبعوثون : «وأى شىء بعد هذا يبقى لنا ؟»

أجابهم فى ازدراء : « حياتكم » . وآثرت رومة أن تمضى فى المقاومة ؛ ولكن الجوع اضطرها أن تطلب شروطاً جديدة للاستسلام ؛ فقبل ألريك منها ٥٠٠٠ رطل من الذهب وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف قباء من الحرير ، وثلاثة آلاف من جلود الحيوان ، وثلاثة آلاف رطل من الفلفل .

وفى هذا الوقت عينه فر عدد لا يحصى من البرابرة الأرقاء من أسيادهم الرومان وانضموا تحت لواء ألريك . وكأن الأقدار شاءت أن تعوض الرومان عن هذه الخسارة ، ففر من جيش ألريك قائد قوطى يدعى ساروس Sarus وانضم إلى هونوريوس ، وأخذ معه قوة كبيرة من القوط ، وهاجم بها جيش البرابرة الرئيسى . وعد ألريك هذا العمل نقضاً للهدنة التى وقعها الطرفان ، فعاد إلى حصار رومة . وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة للمحاصرين ؛ وتدفق منه القوط ، واستولى العدو على المدينة الكبرى لأول مرة فى ثمانمائة عام (٤١٠) . ولبثت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها أو أهلها اللهم إلا كنيستى القديسين بطرس وبولس فلم يمسسهما أحد بسوء ، وكذلك نجا اللاجئون الذين احتموا فيهما . غير أنه لم يكن من المستطاع السيطرة على من كان فى الجيش البالغ عدده أربعين ألف مقاتل من الهون والأرقاء . فذبح مئات من أغنياء المدينة ، واغتصبت نساؤهم ثم قتلن ، وبلغ من كثرة القتلى أن لم يعد من المستطاع دفن الجثث التى امتلأت بها الشوارع . ووقع فى أيدى الغزاة آلاف من الأسرى بينهم أخت لهونوريوس غير شقيقة تدعى جلا بلاسيديا Galla Placidia . وأخذ الفاتحون كل ما وقع فى أيديهم من الذهب والفضة ؛ وصهرت التحف الفنية للاستيلاء على ما فيها من معادن نفيسة ، وحطم العبيد السابقون روائع فنى النحت والخزف وهم فرحون مغتبطون انتقاماً منهم لما كانوا يعانونه من فقر وكدح ، هما اللذان أثمرا هذا الجمال وهذه الثروة . ثم أعاد ألريك النظام وزحف بجيشه جنوباً ليفتح صقلية ؛ ولكنه أصيب بالحمى فى هذه السنة عينها ومات بها فى كوسنزا Cosenza . وحول الأرقاء

مجرى نهر بوسنتو Busento ليفسحوا مكاناً آمناً رحباً ينشئون فيه قبره ، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلى ، وقتل العبيد الذين قاموا بهذه الأعمال مبالغة فى إخفاء المكان الذى دفن فيه .

واختير أتلف Atilf (أدلف Adolf) صهر ألريك ليخلفه فى ملكه ورضى الملك الجديد أن يسحب جيشه من إيطاليا إذا تزوج بلاسيديا Placidia ، وأعطى القوط بوصفهم أحلاف رومة المتعاهدين معها غالة الجنوبية بما فيه نربونة Narbonne وطلوشة (طولوز) ، وبردو ، ولتكون مملكة لهم يحكمونها مستقلة استقلالا ذاتياً . ورفض هونوريوس الشرط الخاص بالزواج ، لكن بلاسيديا قبلته ، وأعلن الزعيم القوطى أنه لا يبغى تدمير الإمبراطورية ، بل يريد المحافظة عليها وتقويتها ، وسحب جيشه من إيطاليا ، وأنشأ مملكة للقوط الغربيين فى غالة مستعيناً على إنشائها بمزيج من الدهاء السياسى والقوة الحربية . وكانت هذه المملكة من الوجهة النظرية خاضعة للإمبراطورية ، واتخذ طلوشة عاصمة لها (٤١٤) . وقتل الزعيم القوطى بعد سنة واحدة ، واعتزمت بلاسيديا من فرط حبها له أن تعيش من بعده أرملة طول حياتها ولكن هونوريوس وهبها للقائد قنسطنطيوس . ولما مات قنسطنطيوس (٤٢١) وهونوريوس (٤٢٣) أصبحت بلاسيديا وصية على ابنها فلنتنيان الثالث ، وحكمت الإمبراطورية الغربية ثلاثين عاماً حكماً يشرف بنات جنسها .

وكان الوندال حتى فى أيام ناستون ، أمة قوية كثيرة العدد تحتل الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية . وكانوا قبيل حكم قسطنطين قد زحفوا جنوبا إلى بلاد المجر ، ولما بدد القوط الغربيون شملهم فى إحدى الوقائع الحربية ، طلب الباقون منهم أن يؤذن لهم بعبور الدانوب ودخول الإمبراطورية الرومانية . ووافق قسطنطين على طلبهم هذا ، وظلوا سبعين عاماً يتكاثرون ويتضاعف عديدهم فى

بنونيا Pannonia . وأثارت انتصارات ألريك حميتهم ، ولما سحبت الدولة فيالقها من وراء جبال الألب لتدافع بها عن إيطاليا ، تفتحت لهم أبواب الغرب واستهواهم بثروته ، حتى إذا كان عام ٤٠٦ زحفت جموع كبيرة من الوندال ، والألانى ، والسويڤى وعبرت نهر الرين وعاثت فساداً فى بلاد غالة ، ونهبوا مينز Manz وذبحوا كثيراً من أهلها ، ثم تحركوا شمالا إلى بلچيكا ، ونهبوا مدينة تيير Tier العظيمة وأحرقوها . ثم أقاموا الجسور على نهرى الموز Meause والآين Aisne ونهبوا ريمس Reims ، وأمين Amiens ، وأراس Arras ، وتورناى Tournai ، وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش . ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهرى السين Scine واللوار Loire ودخلوا أكوتانيا Aquitaine وصبوا جام غضبهم الوحشى على جميع مدنها تقريباً ما عدا طلوسة ، التى دافع عنها إكسبريوس Exuperius دفاع الأبطال . ورقفوا عند جبال البرانس ، ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة ، وشهدت غالة من التخريب والتدمير الكامل ما لم تشهد له مثيلا من قبل .

وفى عام ٤٠٩ دخلوا أسپانيا وكان عددهم وقتئذ نحو مائة ألف . وكان الحكم الرومانى فى تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب ، وأدخل فيها إدارة منظمة ، وجمع الثروة ضياع واسعة ، وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً ، أو رقيق أرض ، أو أحراراً يعانون ويلات الفقر المدقع . ولكن أسپانيا كانت بفضل ما فيها من استقرار وسلطان للقوانين أعظم ولايات الإمبراطورية رخاء ، وكانت مريدة ، وقرطاجنة ، وقرطبة ، وأشبيليه ، وطركونه Tarragona من أغنى مدائن الإمبراطورية وأعظمها ثقافة . وانقض الوندال والسويڤى والألانى على هذه الشبه الجزيرة التى كانت تبدو آمنة حصينة ، وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينج فيها مكان من جبال البرانس إلى مضيق جبل طارق ، بل إن فتوحهم امتدت إلى سواحل إفريقية الشمالية . وأدرك هونوريوس أنه عاجز عن حماية

لأراضي الرومانية بالجيوش الرومانية ، فأغرى القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا . وقام ملكهم القدير واليا Wallia بهذا العمل بعد عدة وقائع حربية أحكم خططها (٤٢٠) ، فارتد السويفي إلى شمالى أسبانيا ، كما ارتد الوندال إلى إقليم الأندلس (Andalusia) الذى لا يزال يسمى باسمهم حتى اليوم ، وأعاد ولاية أسبانيا إلى حوزة الإمبراطورية ، وكشف بذلك عما فى أخلاق ساسة الرومان من غدر ونكث بالعهود .

وكان الوندال لا يزالون يتوقون إلى الفتح والخبز ، فعبروا البحر إلى أفريقية (٤٢٩) . وإذا جاز لنا أن نصدق بروكپيوس Procopius[٤٣] ، وجوردانيس Jordanes قلنا إنهم جاءوا إليها بدعوة من بنيفاس Boniface حاكم أفريقية الرومانى ليستعين بهم على منافسة إيتيوس Eetius الذى خلف استلكو ، لكن هذه القصة لا تعتمد على مصدر موثوق به . ومهما يكن من أمرها فإن ملك الوندال كان قادراً على خلق هذه الخطة . وكان جيرسيك ملك الوندال ابنا غير شرعى لعبد رقيق ، وكان أعرج لكنه قوى الجسم ، متقشفا زاهداً ، لا يهاب الردى فى القتال ، يتلهب غيظا إذا غضب ، ويقسو أشد القسوة على عدوه ولكنه عبقرى لا يغلب فى شئون الحرب والمفاوضة . ولما نزل إلى أفريقية انضم إلى من كان معه من الوندال ، والآلانى ، من جند ، ونساء ، وأطفال المغاربة الأفريقيين الذى ظلوا عهوداً طوالا حانقين على الحكم الرومانى ، كما انضم إليهم الدناتيون Donatist المارقون الذين كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من المسيحيين أتباع الدين القويم . ورحب هؤلاء وأولئك بالغزاة الفاتحين وبالحكم الجديد . ولم يستطيع بينفاس أن يحشد من سكان شمالى أفريقية الرومانى البالغ عددهم ثمانية ملايين إلا عدداً ضئيلا يساعد جيشه الرومانى . ولما هزمته جحافل جيسريك هزيمة منكرة تقهقر إلى هبو Hippo حيث أثار القديس أوغسطين الطاعن فى السن حمية السكان فهبوا يدافعون عن بلدهم دفاع الأبطال ، وقاست المدينة أهوال الحصار أربعة عشر

شهراً كاملة (٤٣٠ — ٤٣١) ، انسحب بعدها جيسريك ليلقى جيشاً رومانياً آخر ، ولوقع به هزيمة منكرة اضطر على أثرها سفير فلنتنيان إلى أن يوقع شروط هدنة يعترف فيها باستيلاء الوندال على فتوحهم فى أفريقية . وحافظ جيسريك على شروط الهدنة حتى غافل الرومان وانقض على قرطاجنة الغنية واستولى عليها دون أن يلقى أية مقاومة (٤٣٩) . وجرد أشراف المدينة وقساوستها من أملاكهم ونفاهم أو جعلهم أقنان أرض . ثم استولى على كل ما وجده من متاع سواء منه ما كان لرجال الدين أو لغيرهم من الأهلين ، ولم يتردد فى الالتجاء إلى التعذيب للوقوف على مخابئه .

وكان جيسريك لا يزال وقتئذ فى شرخ الشباب ، وكان إدارياً قديراً أعاد تنظيم أفريقية وجعل منها دولة ذات ثراء تدر عليه المال الوفير ، ولكن أسعد أوقاته كان هو الوقت الذى يشتبك فيه فى القتال . وقد أنشأ له أسطولا ضخماً ، نهب به سواحل أسبانيا ، وإيطاليا ، وبلاد اليونان . وكان يفاجئ تلك البلاد حتى لم يكن أحد يدرى أى الشواطئ سترسو فيها سفنه المثقلة بالفرسان ، ولم تنتشر القرصنة فى غرب البحر المتوسط طوال أيام الحكم الرومانى دون أن تلقى مقاومة كما انتشرت فى تلك الأيام . واضطر الإمبراطور فى آخر الأمر أن يعقد الصلح مع ملك البرابرة ليحصل بذلك على القمح الذى تطعم منه رافنا ورومة ، ولم يكتف بذلك بل وعده أن يزوجه إحدى بناته . وكانت رومة فى هذه الأثناء لا تزال تضحك وتلعب لاهية عما سيحل بها بعد قليل من دمار .

وكانت ثلاثة أرباع قرن قد انقضت مذ دفع الهون أمامهم البرابرة الغزاة بعبورهم نهر الفلجا . ثم تباطأ بعد ذلك زحف الهون نحو الغرب فكان هجرة على مهل ، وكان أشبه بانتشار المستعمرين فى القارة الأمريكية منه بفتوح ألريك وجيسريك . وما لبثوا أن استقروا بعدئذ شيئاً فشيئاً فى داخل بلاد المجر ، وبالقرب منها ، وأخضعوا لحكمهم كثيراً من القبائل الألمانية .

ومات روا Rua ملك الهون حوالى عام ٤٣٣ وأورث عرشه بليدا Baleda وأتلا Atilla ابنى أخيه . ثم قتل بليدا — بيد أتلا كما يقول بعضهم — حوالى عام ٤٤٤ ، وتولى أتلا (ومعنى اللفظ باللغة القوطية الأب الصغير) حكم القبائل المختلفة الضاربة شمال نهر الدانوب من الدن إلى الرين . ويصفه جردانس المؤرخ القوطى وصفاً لا نعرف مقدار ما فيه من الدقة فيقول :

هو رجل ولد فى هذا العالم ليزلزل أقدام الأمم ، هو سوط عذاب سلط على الأرض ، روع سكان العالم أجمع بما انتشر حوله من الشائعات فى خارج البلاد ، وكان جباراً متغطرساً فى قوله ، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، يظهر فى حركات جسمه ما تنطوى عليه نفسه من قوة وكبرياء . وكان فى الحق أخا غمرات محباً للقتال ، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال ، وكان عظيما فيما يسدى من نصيح ، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة ، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته . وكان قصير القامة ، عريض الصدر ، كبير الرأس ، صغير العينين ، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب . وكان أفطس الأنف ، أدكن اللون ، تنم ملامحه على أصله[٤٦] .

وكان يختلف عن غيره من البرابرة فى أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة . وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا ، وكان يمهد لانتصاراته بما يذيعــه من القصص المبالغ فيها عن قسوته ، ولعله هو الذى كان ينشئ هذه القصص إنشاء ، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون آخر الأمر « بسوط الله » ، وارتاعوا من ختله ارتياعاً لم ينجهم منه إلا القوط . وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه الفطرى . ولم تكن أخلاقه كأخلاق المتوحشين ، فقد كان ذا شرف ، وكان عادلا ، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرماً وشهامة من الرومان . وكان بسيطاً فى ملبسه ومعيشته ، معتدلاً فى مأكله ومشربه ، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من آنية فضية وذهبية ، وسروج ، وسيوف وأثواب مزركشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم .

وكان لأتلا عدد كبير من أولئك الأزواج ولكنه كان يحتقر ذلك الخليط من وحدة الزواج والدعارة الذى كان منتشراً عند بعض الطوائف فى راڤنا وروما . وكان قصره بيتاً خشبياً ضخماً أرضه وجدرانه من الخشب المسوى بالمسحج ، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت ، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقى بها البرد . وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت فى مكان بودا Buda الحالية ، وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هـــذه المدينة اسم إتزلنبرج Etzelnburg أى مدينة أتلا .

وكان الوقت الذى نتحدث عنه (٤٤٤) أقوى رجل فى أوربا ، وكان ثيودوسيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية ، وڤلنتنيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام ، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أقيالها . ولم يكن أتلا ، وهو القادر على أن ينزل إلى الميدان جيشاً من خمسمائة ألف مقاتل ، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوربا كلها وبلاد الشرق بأجمعها . فى عام ٤٤١ عبر قواده وجنوده نهر الدانوب ، واستولوا على سرميوم Sirmium ، وسنجديونوم Singidiunum (بلغراد) ونيسوس Naissus (نيش) وسرديكا Sardica (صوفيا) ، وهددوا القسطنطينية نفسها . وأرسل ثيودوسيوس الثانى جيشاً لملاقاتهم ، ولكنه هزم ، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بداً من أن تشترى السلم برفع الجزية السنوية من سبعمائة رطل من الذهب إلى ألفى رطل ومائة . وفى عام ٤٤٧ دخل الهون تراقية ، وتساليا ، وسكوذيا ، (جنوبى روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافاً من أهلها أرقاء . وأضيفت السبايا إلى أزواج المنتصرين ، ونشأ من ذلك جيل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملامح المغولية فى الأقاليم الممتدة من الشرق حتى باڤاريا Bavaria ، وخربت غارات الهون بلاد البلقان تخريبا دام أربعة قرون . وأتى على نهر الدانوب

حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسى بين الشرق والغرب ، واضمحلت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه .

ولما أن استنزف أتلا دماء الشرق بالقدر الذى ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتذرع لغزوه بحجة غير عادية . وخلاصة تلك الحجة أن هونوريا Honoria أخت فلنتنيان الثالث كانت قد نفيت إلى القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات فى قصرها . وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفى فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمها إلى أتلا وتستجيره ليساعدها فى محنتها ، واختار الملك الداهية ، الذى كانت له أساليبه الخاصة فى الفكاهة ، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها ، فطالب من فوره بهونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بائنة لها ، ولما احتج وزراء فلنتنيان على الطلب أعلن أتلا الحرب . هذا هو السبب الظاهرى ، أما السبب الحقيقى فهو أن مرسيان Marcian الإمبراطور الجديد فى الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وأن فلنتنيان قد حذا حذوه .

وفى عام ٤٥٠ زحف أتلا ومعه نضف مليون رجل على نهر الرين ، ونهبوا تريير ومتز Metz وأحرقوهما وقتلوا أهلهما . فقذف ذلك الرعب فى قلوب غالة كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندى متمدين كقيصر ، أو مسيحى — ولو كان من أتباع أريوس — مثل ألريك أو جيسريك ، بل كان الزاحف عليهم هو الهونى الرهيب ، سوط الله المبعوث لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء لما هنالك من فوق شاسع بين أقوالهم وأعمالهم . وجاء ثيودريك الأول Theadoric I ملك القوط المعمر لينقذ الإمبراطورية من محنتها ، وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس ، والتقت الجيوش الضخمة فى حقول قطلونيا Catalaunia بالقرب من ترويس ، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هولا ، جرت

فيها الدماء أنهارا ، حتى ليقال إن ١٦٢٫٠٠٠ رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط البطل المغوار ، وانتصر الغرب فى هذه المعركة نصراً غير حاسم ، فقد تقهقر أتلا بانتظام ، وأنهكت الحرب الظافرين ، أو لعلهم كانوا منقسمين على أنفسهم فى خططهم ، فلم يتعقبوا أتلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا فى العام التالى .

وكانت أول مدينة استولى عليها فى زحفه هى أكويليا Aquileia ، وقد دمرها تدميراً قضى عليها قضاء لم تقم لها بعده قائمة حتى اليوم ، أما فرونا Verona وفيسنزا Vicenza فقد عوملتا بشىء من اللين والرحمة واشترت پاڤيا وميلان نفسيهما من الغزاة بتسليم كل ما فيهما من ثروة منقولة . وبعد هذا فتحت الطريق إلى رومة أمام أتلا ، وكان جيش إيتيوس قليل العدد لا يقوى على أية مقاومة جدية ، ولكن أتلا تباطأ عند نهر الپو ، وفر فلنتنيان الثالث إلى رومة ، ثم أرسل إلى ملك الهون وفداً مؤلفاً من البابا ليو الأول واثنين من أعضاء مجلس الشيوخ . وما من أحد يعلم ما جرى حين اجتمع هذا الوفد بأتلا . وكان ليو رجلا مهيب الطلعة ، يعزو إليه المؤرخون معظم ما أحرزه الوفد من نصر لم ترق فيه دماء . وكل ما يذكره التاريخ عن هذا النصر أن أتلا قد ارتد لأن الطاعون فشا بين جنوده ، ولأن مؤونتهم كانت آخذة فى النفاد ، ولأن مرسيان كان يرسل المدد من الشرق (٤٥٢) .

وقاد أتلا جحافله فوق جبال الألب وعاد بها إلى عاصمته فى بلاد المجر ، متوعداً إيطاليا بالعودة إليها فى الربيع التالى إذا لم ترسل إليه هونوريا ، ليتخذها زوجة له . وقد استعاض عنها فى هذه الأثناء بشابة تدعى إلديكو Ildico ضمها إلى نسائه . وكانت هذه الفتاة هى الأساس التاريخى الواهى لقصة Krienhild المسماة نيبل أنجليد Nibelungenlied . واحتفل بزفافها له احتفالا أثقلت فيها الموائد بالطعام والشراب . ولما أصبح الصباح وجد أتلا ميتاً فى فراشه إلى جانب زوجته

الشابة . وكان سبب موته انفجار أحد الأوعية الدموية ، فكتم الدم الذى تدفق منه نفسه وقضى عليه (٤٥٣)[٤٧] . وقسمت مملكته بين أولاده ، ولكنهم عجزوا عن المحافظة عليها ، فقد دبت الغيرة بينهم ورفضت القبائل التى كانت خاضعة لأبيهم أن تظل على ولائها لهؤلاء الزعماء المتنازعين ، ولم تمض إلا بضع سنين حتى تقطعت أوصال الإمبراطورية التى كانت تهدد بإخضاع اليونان والرومان والألمان والغاليين لحكمها ، وتطبع وجه أوربا وروحها بطابع آسية ، ومحيت اليونان من الوجود .

الفصل الخامس

سقوط رومة

توفيت پلاسيديا فى عام ٤٥٠ ، وانفرد ڤلنتنيان بالملك يخبط فيه خبط عشواء ، وكان من أوخم أخطائه عاقبة أن استمع إلى نصيحة پترونيوس مكسموس فقتل إيتيوس الذى وقف زحف أتلا عند ترويس كما استمع هونوريوس إلى أولمپيوس فقتل استلكو الذى وقف زحف ألريك عند پولنتيا . ولم يكن لڤلنتنيان ولد ذكر ولم يرتح إلى رغبة إيتيوس فى أن يزوج ابنه يودوشيا Budocia ابنة ڤلنتنيان . وانتابت الإمبراطور نوبة جنونية من الغضب فأرسل فى طلب إيتيوس ، وذبحه بيده (٤٥٤) . وقال له رجل من رجال الحاشية : « مولاى ، لقد قطعت يمينك بشمالك » ولم تمض على هذا العمل بضعة أشهر حتى استطاع پترونيوس أن يغرى رجلين من أتباع إيتيوس بقتل ڤلنتنيان ، ولم يهتم أحد بتعقب القاتلين لأن القتل كان قد أصبح من عهد بعيد البديل الوحيد للانتخاب . واختار پترونيوس نفسه للجلوس على العرش ، وأرغم يودكسيا Eudoxia أرملة ڤلنتنيان على أن تتزوجه ، كما أرغم يودوشيا على أن تتزوج ابنه پلاديوس . وإذا جازلنا أن نصدق أقوال پروكپيوس[٤٨] ، فإن يودكسيا استعانت بجيسريك ، كما استغاثت هونوريا قبل ذلك بأتلا . وكان لدى جيسريك من الأسباب ما يجعله يلبى هذه الاستغاثة : فقد أصبحت رومة غنية مرة أخرى على الرغم من انتهاب ألريك لها ، ولم يكن الجيش الرومانى بالجيش القوى الذى يستطيع الدفاع عن إيطاليا . وأبحر ملك الوندال بأسطول قوى لا يغلب (٤٥٥) ، ولم يقف أحد بينه وبين أستيا Ostia ورومة إلا البابا أعزل وحده بعض قساوسة رومة . ولم يقو البابا لوون على هذه المرة على

إقناع الفاتح بالارتداد عن رومه ، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة . وأسلمت المدينة أربعة أيام كاملة للجند ينهبون فيها ويسلبون ؛ ونجت الكنائس المسيحية ، ولكن كل ما كان باقياً في المعابد من كنوز نقل إلى سفن الوندال ، وكان من بين هذه الغنائم المناضد الذهبية ، والماثلات ذات الشعب السبع ، وغيرها من الآنية المقدسة التي جاء بها تيتوس Titus من هيكل سليمان إلى رومة منذ أربعة قرون . ونهب كذلك كل ما كان في القصر الإمبراطوري من المعادن الثمينة ، والحلي والأثاث وكل ما كان باقياً في بيوت الأغنياء من أشياء ذات قيمة . واتخذ آلافا من الأسرى عبيداً ، وفرق بين الأزواج وزوجاتهم ، وبين الأبناء وآبائهم ، وأخذ جيسريك الإمبراطورة يودكسيا وابنتيهما معه إلى قرطاجنة ، وزوج يودوسيا ابنه هونريك Huneric ؛ وأرسل الإمبراطورة وپلاسيديا (صغرى ابنتيهما) إلى القسطنطينية استجابة لطلب الإمبراطور ليو الأول . ولم يكن انتهاب رومة على هذا النحو في واقع الأمر تخريبا لا يراعى فيه عرف أو قانون ، بل كان يتفق كل الاتفاق مع الشرائع القديمة للحروب . لقد ثأرت قرطاجنة لنفسها من قسوة رومة عليها في عام ١٤٦ وكانت في انتقامها هذا رقيقة رحيمة .

وضربت الفوضى وقتئذ أطنابها في إيطاليا . ذلك أن خمسين عاما من الغزو والقحط والوباء قد تركت آلاف الضياع مخربة ، وآلاف الأفدنة بورا ؛ ولم يكن هذا لأن تربتها أنهكت من الاستغلال ، بل لأن هذه الأراضي أعوزها الرجال ؛ وأخذ القديس أمبروز (حوالى عام ٤٢٠) يرثى لخراب بولونيا Bologna ومودينا Modena ، وبياسنزا Piacenza ونقص عامرها ، ووصف البابا جلاسيوس Gelassius (حوالى ٤٨٠) أقاليم واسعة في شمالي إيطاليا بأنها تكاد تكون مقفرة من الآدميين .

ونقص سكان رومة نفسها من مليون ونصف إلى ثلثمائة ألف في قرن

واحد [٤٩]، واختص الشرق وقتئذ دون غيره بجميع المدائن الكبرى في الإمبراطورية . وهجر الناس الكمپانيا Campagna المحيطة بروما والتي كانت من قبل ملأى بالضياع الخصبة والقصور الصغيرة ولجأوا إلى المدن المسورة ليحتموا فيها من غارات الأعداء ؛ وانكمشت المدن نفسها فلم تعد تزيد مساحة أرضها على أربعين فداناً أو نحوها كي تكفي موارد أهلها تسويرها وحمايتها من الأعداء ؛ وكثيراً ما كانت الأسوار تبنى على عجل من أنقاض دور التمثيل والباسلقات والهياكل التي كانت من قبل بهجة المدن الإيطالية وسبب رونقها . على أن رومة قد بقي فيها قليل من الثروة حتى بعد جيسريك ، وانتعشت هي وغيرها من المدن الإيطالية فيما بعد تحت حكم ثيودريك واللمبارديين ؛ ولكن الفقر العام الذي حل في عام ٤٧٠ بالحقول والمدن ، وبأعضاء مجلس الشيوخ والعامة على السواء ، سحق أرواح الشعب الذي كان من قبل عظيماً وأذل نفسه ، فملك عليه اليأس والاستسلام قلبه ، وتشكك في الآلهة كلهم عدا پرياپوس Priapus(*) واستولى عليه وجل كوجل الأطفال جعله يهاب تبعات الحياة ، وجبُن غاضب ثائر يندد بكل استسلام ويفر من جميع الواجبات الحربية ، وكان يصحب هذا الانحطاط الاقتصادي والحيوي عفن ينخر سوسه في جميع طبقات الشعب ، في أرستقراطية في وسعها أن تخدم ولكنها عاجزة عن أن تحكم ، وفي رجال الأعمال المنهمكين في مكاسبهم الشخصية إنهماكاً يحول بينهم وبين العمل لإنقاذ شبه الجزيرة ، وفي قواد ينالون بالرشوة أكثر مما يستطيعون نيله بقوة السلاح ، وبيرقراطية متشعبة متضخمة خربت رواتبها خزائن الدولة ، وفسدت فساداً مستعصياً على العلاج وقصارى القول أن جذع هذه الشجرة العظيمة قد تعفن ، وآن لها أن تسقط .

وتوالت على عرش الإمبراطورية في السنين الأخيرة من حياتها طائفة من

(*) من آلهة الأقدمين وكان يمثل قوة التناسل عند الذكور ويقصد المؤلف بقوله هذا أن همهم كله كان في إشباع شهواتهم الجنسية . (المترجم)

الأباطرة ليس فيهم من هو فوق المتوسط . فقد أعلن القوط فى غالة قائداً لهم يدعى أفتوس Avitus إمبراطوراً (٤٥٥) ، ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يقره ، فاستحال أسقفاً ؛ ولم يدخر ماجوريان Magorian (٤٥٦–٤٦١) جهداً فى إعادة النظام ، ولكن رئيس وزرائه رسمر Ricimer القوطى الغربى أنزله عن العرش . وكان سفيروس (٤٦١ — ٤٥٦) آلة صماء فى يد رسمر يفعل به ما يشاء، وكان أنثيميوس Antheimus (٤٦٧–٤٧٢) فيلسوفاً نصف وثنى لا يرضى عنه الغرب، فما كان من رسمر إلا أن ضرب عليه الحصار وقبض عليه وأمر بقتله وحكم أوليبريوس Olybrius برعاية رسمر شهرين (٤٧٢)؛ ثم مات ميتة غريبة فى ذلك الوقت إذ كانت ميتة طبيعية . وسرعان ما خلع جليسريوس (٤٧٣) ، وظلت رومة عامين يحكمها يوليوس نيبوس Julius Nepos . وبينا كانت هذه الأحداث جارية فى ايطاليا ، انقض عليها خليط آخر من البرابرة — الهرولى Heruli ، والاسكيرى Sciri ، والروجى Rugii وغيرهم من القبائل التى كانت من قبل تعترف بحكم أتلا . وقام فى الوقت نفسه بنونيانى Pannonian يدعى أرستيز Orestes فخلع نيبوس ، وأجلس ابنه رميولوس (الملقب أوغسطولس استهزاء به) على العرش (٤٧٥) . وطلب الغزاة الجدد إلى أرستيز أن يعطيهم ثلث إيطاليا ، فلما أبى ذبحوه وأجلسوا قائدهم أدوسر Odoacer على العرش بدل رميولوس (٤٧٦) ولم يكن هذا القائد — وهو ابن إدكون وزير أتلا — مجرداً من الكفايات . وقد بدأ بأن جمع مجلس الشيوخ المرتاع ، وعن طريقه عرض على زينون Zeno الإمبراطور الجديد فى الشرق أن تكون له السيادة على جميع الإمبراطورية على شرط أن يحكم أدوسر إيطاليا بوصفه وزيراً له ، ورضى زينون بهذا العرض وانتهت بذلك سلسلة الأباطرة الغربيين .

ويبدو أن أحداً من الناس لم ير فى هذا الحادث « سقوطاً لرومة » بل بدا لهم على عكس هذا أنه توحيد مبارك للإمبراطورية وعودتها إلى ما كانت عليه .

فى عهد قسطنطين . وقد نظر مجلس الشيوخ فى رومة إلى المسألة هذه النظرة ، وأقام فى رومة تمثالا لزينون ، ذلك أن اصطباغ الجيش ، والحكومة ، والزراع ، فى إيطاليا بالصبغة الألمانية قد ظل يجرى زمناً بلغ من طوله أن بدت معه النتائج السياسية تحولا عديم الشأن على سطح الحياة القومية .

أما الحقيقة التى لا نزاع فيها فهى أن أدوسر كان يحكم إيطاليا بوصفه ملكاً عليها دون أن يعبأ بزينون . ذلك أن الألمان قد فتحوا فى واقع الأمر إيطاليا ، كما فتح جيسريك أفريقية ، وكما فتح القوط الغربيون أسپانيا ، وكما كان الإنجليز والسكسون يفتحون بريطانيا ، والفرنجة يفتحون غالة . ولم يعد للإمبراطورية العظمى فى الغرب وجود .

وترتبت على فتوح البرابرة هذه نتائج لا حصر لها ، لقد كان معناها من الناحية الاقتصادية تحول الحياة من المدن إلى الريف . ذلك أن البرابرة كانوا يعيشون على الحرث ، والرعى ، والصيد ، والحرب ، ولم يكونوا قد تعلموا بعد الأعمال التجارية المعقدة التى تنتعش بها المدن ؛ وكان انتصارهم إيذاناً بالقضاء على الصبغة المدنية للحضارة الغربية قضاء دام سبعة قرون . وأما من الوجهة العنصرية فإن هجرات البرابرة المتعددة أدت إلى امتزاج جديد بين العناصر البشرية — وإلى دخول دم ألمانى غزير فى إيطاليا ، ودم غالى فى أسپانيا ، ودم أسيوى فى روسيا والبلقان وبلاد المجر . ولم يعيد هذا الامتزاج القوة والنشاط إلى الإيطاليين أو الغاليين بطريقة خفية معجزة الدرك ، بل إن ما حدث لم يزد على إفناء الأفراد والسلالات الضعيفة بسبب الحروب وغيرها من ضروب التنافس ، وعلى اضطرار كل إنسان لأن ينمى قوته ، وحيويته ، وشجاعته ، وصفات الرجولة التى طمس معالمها طول الاستسلام إلى الأمن والسلام ؛ وعلى تأثير الفقر فى عودة أساليب للحياة أصح وأكثر بساطة من الأساليب التى ولدها ترف المدن واعتماد الأهلين على الأرزاق التى تقدمها لهم الحكومة .

وأما من الوجهة السياسية فقد أحلت الفتوح صورة دنيا من الملكية محل صورة عليا منها . فقد زادت من سلطان الأفراد وقللت من سلطان القوانين ومن اعتماد الناس عليها لحمايتهم : واشتدت النزعة الفردية وازداد العنف : وفى الناحية التاريخية حطمت الفتوح الهيكل الخارجى لذلك الجسم الذى تعفن من الداخل ، وأزالت من الوجود ، بوحشية يؤسف لها ، نظاما من نظم الحياة ، شاخ ووهن وبلى ، وفقد كل قدرة على التجدد والنماء ، رغم ما كان فيه من فضائل النظام والثقافة ، والقانون ؛ وبهـذا أصبح من المستطاع أن تبدأ حياة جديدة غير متأثرة بالماضى . فانمحت إمبراطورية الغرب ولكن دول أوربا الحديثة قد ولدت — لقد دخل إيطاليا قبل المسيح بألف عام غزاة من الشمال ، أخضعوا أهلها لسلطانهم ، وامتزجوا بهم وأخذوا عنهم حضارتهم ، وبنوا وإياهم فى خلال ثمانية قرون حضارة جديدة . وبعد المسيح بأربعمائة عام تكررت العملية نفسها ، ودارت عجلة التاريخ دورة كاملة ، وكانت البداية هى نفس النهاية ، ولكن النهاية كانت على الدوام بداية ؛

الباب الثالث

تقـــدم المسيحية

٣٦٤ — ٤٥١

احتضنت الكنيسة الحضارة الجديدة وبسطت عليها حمايتها . ذلك بأن جيشاً فذاً من رجال الكنيسة قام ليدافع بنشاط ومهارة عن الاستقرار الذى عاد إلى الوجود ، وعن الحياة الصالحة بعد أن اندكت معالم النظام القديم فى غمار الفساد والجبن والإهمال . وكانت مهمة المسيحية من الناحية التاريخية هى أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع بما تفرضه من مثوبة ومعونة إلهيتين لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعى وإن خالفت أهواءهم أو كان فيها مشقة عليهم وأن تغرس فى نفوس البرابرة الهمج السذج مُثُلاً للسلوك أرق وأجمل من مثلهم الأولى ، عن طريق عقيدة تكونت تكوناً تلقائيا من الأساطير والمعجزات ، ومن الخوف والأمل والحب . لقـــد كان الدين الجديد يجاهد للاستحواذ على عقول الخلق المتوحشين أو المنحلين الفاسدين وأن يُقيم منها دولة دينية عظمى تؤلف بينهم وتجمع ما تفرق من شملهم ، كما كان يجمعهم سحر اليونان أو عظمة الرومان . وإن فى هذا الجهاد لعظمة لا تقل عما نجده فى سير أبطال الملاحم وإن لوثته الخرافة والقسوة ، وليست النظم والعقائد إلا وليدة الحاجات البشرية ؛ فإذا شئنا أن نفهم هذه النظم والعقائد على حقيقتها وجب أن ندرسها فى ضوء هذه الحاجات .

الفصل الأول

تنظيم الكنيسة

إذا كان الفن هو تنظيم المادة فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أروع الآيات الفنية في التاريخ . ذلك أنها قد استطاعت أن تؤلف بين اتباعها المؤمنين برسالتها خلال تسعة عشر قرنا كلها مثقلة بالأزمات الشداد ، وأن تسير وراءهم إلى أطراف العالم وتقوم على خدمتهم ، وتكون عقولهم ، وتشكل أخلاقهم ، وتشجعهم على التكاثر ، وتوثق عقود زواجهم ، وتواسيهم في الملمات والأحزان ، وتسمو بحياتهم الدنيوية القصيرة فتجعل منها مسرحية أبدية ، وتستغل مواهبهم ، وتتغلب على كل ما يقوم في وجهها من زيغ وثورة ، وتعيد بناء كل ما يتحطم من سلطانها في صبر وأناة . ترى كيف نشأ هذا النظام الرائع الجليل ؟

لقد قام هذا النظام على ما كان هناك من خواء روحي يعانيه الرجال والنساء الذين أنهكهم الفقر ، وأضناهم الشقاق والنزاع ، وأرهبتهم الطقوس الخفية التي لا يدركون كنهها ، وتملكهم الخوف من الموت . وقد بعثت الكنيسة في أرواح الملايين من البشر إيماناً وأملا حببا إليهم الموت وجعلاه أمراً مألوفاً لديهم . ولقد أصبح هذا الإيمان أعز شيء عليهم يموتون في سبيله ويقتلون غيرهم من أجله ، وعلى صخرة الأمل هذه قامت الكنيسة . وكانت في بادئ أمرها هيئة بسيطة من المؤمنين تختار لها واحدا أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء ، والسدنة . والشمامسة ، ليساعدوا الكاهن . ولما كثر عدد العابدين ، وتعقدت شئونهم ، اختاروا لهم في كل مدينة قساً سموه إپسكوپس episcopos أي مشرفاً أو أسقفاً لينسق هذه الشئون . ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها ، ولهذا بدأنا نسمع

فى القرن الرابع عن كبار الأساقفة ، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة والمسيطرين على الكنائس فى ولاية بأكلها ؛ وكان يحكم هذا الطبقات من رجال الدين بطارقة يقيمون فى القسطنطينية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وروما . وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطرق أو الإمبراطور فى المجمع المقدس ؛ فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمى مجمع الولاية ، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمى المجمع الكلى ، وإذا ما مثلهما جميعاً كان مجمعاً عاما ، وإذا ما كانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر . وكانت الوحدة الناشئة من هـــذا النظام هى التى أكسبت الكنيسة اسم الكاثوليكية أو العالمية .

وكان هذا النظام الذى تعتمد قوته فى آخر الأمر على العقيدة والهيئة يتطلب شيئاً من تنظيم الحياة الكنسية . ولم يكن يطلب إلى القس فى الثلاثة القرون الأولى من المسيحية أن يظل أعزب ، وكان فى مقدوره أن يحتفظ بزوجته إذا كان قد تزوج بها قبل رسامته ، ولكنه لم يكن يجوز له أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية ، ولم يكن يجوز لرجل تزوج باثنتين أو بأرملة ، أو طلق زوجته أو اتخذ له خليلة ، أن يصبح قسيساً . وكان فى الكنيسة ، كما كان فى معظم الهيئات المنظمة متطرفون يزعجونها بتطرفهم ، من ذلك أن بعض المتحمسين من المسيحيين ، فى ثورتهم على ما كان فى أخلاق الوثنيين من إباحية جنسية ، استنتجوا من فقرة إحدى رسائل القديس بولس أن كل اتصال بين الجنسين خطيئة ، ولذلك كانوا يعارضون فى الزواج بوجه عام ، وتستك مسامعهم من الهلع إذا سمعوا أن قساً تزوج . وقد أعلن مجلس جنجرا Gengra الدينى (حوالى ٣٦٢) أن هذه الآراء لا تتفق مع الدين ، ولكن الكنيسة مع ذلك ظلت تطالب

قساوستها وتلح عليهم إلحاحا متزايداً أن يظلوا بلا زواج . ولقد ظلت الأملاك توهب للكنائس ويزداد مقدارها زيادة مطردة ، وكان يحدث من آن إلى آن أن يوصى لقس متزوج ، وأن ينتقل المال الموصى له إلى ذريته من بعده . وكان زواج رجال الدين يؤدى فى بعض الأحيان إلى الزنى أو غيره من الفضائح ، وإلى انحطاط مكانة القس فى أعين الشعب ، ولهذا فإن مجمعا مقدساً عقد فى عام ٣٨٦ أشار على رجال الدين بالعفة المطلقة ، وبعد عام من ذلك الوقت أمر البابا سريسيوس Siricius بتجريد كل قس يتزوج أو يبقى مع زوجته التى تزوج بها من قبل . وأيد چيروم ، وأمبروز ، وأوغسطين هذا المرسوم بقواتهم الثلاث ، وبعد أن لقى مقاومة متفرقة ، دامت جيلا بعد جيل من الزمان ، نفذ فى الغرب بنجاح قصير الأجل .

وكانت أخطر المشاكل التى لاقتها الكنيسة ، والتى تلى فى خطورتها مشكلة التوفيق بين مثلها العليا وبقائها ، هى الوسيلة التى تمكنها من الحياة مع الدولة ذلك أن قيام نظام كهنوتى إلى جانب موظفى الحكومة كان من شأنه أن يخلق نزاعا على السلطة لا يسود معه سلم إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى ، فأما فى الشرق فقد خضعت الكنيسة ، وأما فى الغرب فقد أخذت تحارب دفاعا عن استقلالها ، ثم أخذت بعدئذ تحارب تأييداً لسيادتها على الدولة . وكان اتحاد الكنيسة والدولة فى كلتا الحالتين يتضمن تعـديلا أساسيا فى المبادئ الأخلاقية المسيحية . من ذلك أن ترتليان Tertullian وأرجن Origen ، ولكتنتيوس Lactantius كانا يعلّمان من قبل أن الحرب غير مشروعة فى جميع الأحوال ، أما الآن فإن الكنيسة ، وقد أصبحت تحت حماية الدولة ، قد رضيت بالحروب التى تراها ضرورية لحماية الدولة أو الكنيسة ، وكانت الكنيسة نفسها عاجزة

عن اصطناع القوة ، ولكنها إذا رأت أن القوة لازمة لها كانت تلجأ إلى القوة الدنيوية لفرض إرادتها . وكانت تتلقى من الدولة ومن الأفراد هبات قيمة من المال ، والمعابد والأراضى ، فأثرت وأصبحت فى حاجة إلى الدولة لتحمى كل ما كان لها من حقوق الملكية ، وظلت تحتفظ بثروتها حتى بعد أن سقطت الدولة . ذلك أن الفاتحين البرابرة ، فمهما كان خروجهم على الدين ومخالفة أوامره قلما كانوا ينهبون الكنائس أو يجردونها من أملاكها لأن سلطان القول أصبح بعد قليل يضارع سلطان السيف ...

الفصل الثانى

المـــارقون

لقد كان أشق الواجبات التى واجهها التنظيم الكنسى هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعاريف العقيدة المسيحية كما قررتها المجالس الدينية . ولم تكد الكنيسة تظفر بالنصر على أعدائها حتى امتنعت عن المناداة بالتسامح ، فكانت تنظر إلى الفردية فى العقيدة بنفس النظرة المعادية التى تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها ، ولم تكن الكنيسة ولا الخارجون عليها يفكرون فى هذا المروق على أنه مسألة دينية خالصة ، وكان المروق فى كثير من الحالات مظهراً فكرياً لثورة محلية تهدف إلى التحرر من سلطان الإمبراطورية فاليعقوبيون Monophsityes كانوا يريدون أن يحرروا سوريا ومصر من سيطرة القسطنطينية وكان الدوناتيون(*) يرجون أن يحرروا أفريقية من نير رومة ، وإذ كانت الكنيسة والدولة قد توحدتا فى ذلك الوقت ، فقد كان الخروج على إحداهما خروجاً على الاثنتين معاً . وكان أصحاب العقيدة الدينية الرسمية يقاومون القومية ، كما كان المارقون يؤيدونها ويدافعون عنها ، وكانت الكنيسة تعمل جاهدة للمركزية وللوحدة ، أما المارقون فكانوا يعملون فى سبيل الاستقلال المحلى والحرية .

وأحرزت الآريوسية نصراً مؤزراً بين البرابرة بعد أن غلبت على أمرها فى داخل الإمبراطورية . وكانت المسيحية قد جاءت إلى القبائل التيوتونية على أيدى

(*) شيعة مسيحية قامت فى أفريقية فى القرنين الرابع والخامس كانت تعارض فى كل ما ينتقص من الاحترام الواجب لشهداء الكنيسة ، وتعامل الخاطئين بمنتهى القسوة ، وتعيد تعميد من يعتنقون مبادئها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية . وهى تنتسب إلى دوناتس Donatus أحد زعمائها . (المترجم)

الأسرى الرومان الذين قبض عليهم القوط أثناء غزوهم آسية الصغرى فى القرن الثالث . ولم يكن « الرسول » ألفلاس Alfilas (٣١١ ؟ — ٣٨١) رسولا بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ ، بل كان من أبناء أسير مسيحى من كبدوكية ، ولد بين القوط الذين كانوا يعيشون فى شمال نهر الدانوب وتربى بين ظهرانيهم . وفى عام ٣٤١ رسمه يوسبيوس مطران نقوميديا الأريوسى أسقفا عليهم . ولما اضطهد أثنريك Athanaric الزعيم القوطى من كان فى أملاكه من المسيحيين أذن قنسطنطيوس الأريوسى لألفلاس أن يعبر بالجالية القوطية المسيحية القليلة العدد نهر الدانوب ، وينزلها فى تراقية ، وأراد أن يعلم معتنقى دينه من القوط أصول هذا الدين ، وأن يكثر عددهم ، فترجم فى صبر وأناة جميع أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ما عدا أسفار الملوك فقد حذفها لأنها فى رأيه ذات نزعة عسكرية خطرة ؛ وإذ لم يكن للقوط وقتئذ حروف هجائية يكتبون بها ، فقد وضع لهم هذه الحروف معتمداً فى وضعها على الحروف اليونانية . وكانت ترجمته هذه أول عمل أدبى فى جميع اللغات التيوتونية . ووثق القوط بحكمة ألفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة ، ثقة حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المسيحية الأريوسية دون مناقشة . وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المسيحية فى القرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم ، فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية ، إلا قليلا منهم ، من الأريوسيين ، كما كانت الممالك الجديدة ، التى أقاموها فى البلقان ، وغالة وأسبانيا ، وإيطاليا ، وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية . ولم يكن الفرق بين دين الغالبين والمغلوبين إلا فرقاً ضئيلا : ذلك أن أتباع الدين القويم كانوا يعتقدون أن المسيح مطابق فى كينونته (homoousios) لله الأب ، أما الأريوسيون فكانوا يعتقدون أنه مشابه لا أكثر ، فى كينونته (homoiousios) لله الأب . ولكن هـــذا الفرق الضئيل أصبح عظيم الأثر فى الشئون السياسية فى القرنين الخامس والسادس . وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غالبيه

الفرنجة أتباعُ الدين القويم القوطَ الغربيين فى غالة ، وفتح بلساريوس Belisarius أفريقية الوندالية ، وإيطاليا القوطية ، وغير ريكارد Recared (٣٨٩) عقيدة القوط الغربيين فى أسبانيا .

وليس فى وسعنا الآن أن نشغل أنفسنا بجميع العقائد الدينية المختلفة التى كانت تضطرب بها الكنيسة فى تلك الفترة من تاريخها — عقائدَ اليونوميين Eunomians والأنوميــين Anomeans والأبليناريين Appollinarians والمقدونيين ، والسبليين Sabellians ، والمساليين Maasalians ، والنوفاتيين Norvatians ، والبرسليانيين Priscillianists ، وكل ما فى وسعنا أن نفعله هو أن نرثى لهذه السخافات التى امتلأت بها حياة الناس ، والتى ستظل تملؤها فى المستقبل . ولكن من واجبنا أن نقول كلمة عن المانية Manicheism تلك العقيدة التى لم تكن مروقا من المسيحية بقدر ما كانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشيطان ، والخير والشر ، والضوء والظلام . وقد حاولت أن توفق بين المسيحية والزردشتية ، ولكن الدينين قاوماها مقاومة شديدة . وقد واجهت هذه العقيدة بصراحة منقطعة النظير مشكلة الشر ، وما فى العالم الذى تسيطر عليه العناية الإلهية من عذاب وآلام كثيرة يبدو أن من ينوءون بها لا يستحقونها ، وشعرت بأن ليس أمامها إلا أن تفترض وجود روح خبيثة ، أزلية ، كالروح الخيرة . واعتنق المانية كثيرون من الناس فى الشرق والغرب ، ولجأ بعض الأباطرة فى مقاومتها إلى وسائل غاية فى القسوة ، وعدها جستنيان من الجرائم الكبرى التى يعاقب عليها بالإعدام ؛ ثم ضعف شأنها شيئاً فشيئاً وأخذت فى الزوال ، إلا أنها تركت بعض آثارها فى بعض الطوائف المارقة المتأخرة كالبوليسية Paulicians ، والبجوميلية Bogomiles ، والألبجنســية Albegensians . وقد اتهم أسقف أسبانى يدعى پرسليان Pricilian فى عام ٣٨٥ بأنه يدعو إلى المانية وإلى العزوبة العامة ، وأنكر الرجل التهمة ، ولكنه

حوكم أمام مكسموس الإمبراطور المغتصب فى ترير ، وكان اللذان اتهماه اثنين من الأساقفة ، وأدين الرجل وحرق هو وعدد من رفاقه فى عام ٣٨٥ بالرغم من احتجاج القديسين أمبروز ومارتن .

وبينما كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المهاجمين ، إذ وجدت نفسها يكاد يغمرها سيل المارقين الدوناتيين فى أفريقية . وتفصيل ذلك أن دوناتوس Donatus ، أسقف قرطاجنة (٣١٥) ، كان قد أنكر ما للعشاء الربانى الذى يقدمه القساوسة من أثر فى الخطيئة ، ولم تشأ الكنيسة أن تنزع من رجالها هذه الميزة الكبيرة فهدتها حكمتها إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة . ولكن هذه العقيدة المارقة أخذت تنتشر على الرغم من هذا انتشاراً سريعاً فى شمالى أفريقية ، وتحمس لها الفقراء من الأهلين ، واستحال هذا الانحراف الدينى إلى ثورة اجتماعية ، وغضب الأباطرة أشد الغضب على هذه الحركة ، وأصدروا المراسيم المتعاقبة ضد من يستمسكون بها ، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة ، وصادروا أملاكهم ، وحرموا على الدوناتيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية ، وأخرجهم جنود الأباطرة من كنائسهم بالقوة ، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع الدين القويم . وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية — شيوعية فى آن واحد — وسميت باسم الجوابين Circumcelliones ، وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق ، فألغت الديون ، وحررت الرقيق ، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التى كان يتمتع بها الإنسان البدائى . وكانوا إذا قابلوا عربة يجرها عبيد ، أركبوا العبيد العربة ، وأرغموا سيدهم على أن يجرها خلفه . وكانوا يقتنعون عادة بالسرقة وقطع الطريق على المارة ، ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يغضبون من المقاومة ، فيعمون أعين أتباع الدين القويم أو أعين الأغنياء بمسحها بالجير ، أو يضربونهم بالعصى الغليظة حتى يموتوا . وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به لأنه يضمن لهم الجنة . واستبد بهم التعصب الدينى آخر الأمر ، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاة

الأمور معترفين بأنهم مارقون من الدين ، ويطالبون بالاستشهاد . وكانوا يعترضون السابلة ، ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ، ولما أن تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز في النيران المتقدة أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية ، أو بالمشي فوق ماء البحر[٢] . وحارب أوغسطين الدوناتيين بكل ما كان لديه من الوسائل ، وبدا في وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم ؛ ولكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر مما كانوا عددا حين جاء الوندال إلى أفريقية ، وسروا أعظم السرور لطرد قساوسة الدين القويم . وبقي الحقد الطائفي يأكل الصدور ، وينتقل من الأبناء إلى الآباء ، وهو أشد ما يكون قوة ، حتى جاء العرب إلى أفريقية في عام ٦٧٠ فلم يجدوا في البلاد قوة متحدة تقف في وجههم .

وكان بلاجيوس Pelagius في هذه الأثناء يثير قارات ثلاثاً بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى ، كما كان نسطوريوس يطلب الاستشهاد بما يجهر به من شكوك في أم المسيح ، وكان نسطوريوس في بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستياني Theodore of Mopsuestia (٣٥٠ ؟ — ٤٢٨ ؟) الذي كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس . وكان من أقوال ثيودور هذا أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة بتعديل من مصادر وثنية ، وأن نشيد الإنشاد إن هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح ؛ وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع ، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية ؛ وأن مريم ليست أم الله ؛ بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع[٣] . ورفع نسطوريوس نفسه إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية (٤٢٨) ، والتفت حوله الجموع لفصاحته وذلاقة لسانه ، ولكنه خلق له أعداء بتعسفه في عقائده ، وأتاح الفرصة لهؤلاء الأعداء بقبوله فكرة ثيودور غير الكريمة في مريم . وكانت كثرة المسيحيين تقول : إذا كان المسيح إلها ، كانت مريم قد حملت في الله theotokos

أى أنها أم الله ، ولكن نسطوريوس يقول إن هذا أكثر مما يطيق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح بل أم طبيعته البشرية ، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح .

وألقى سيريل Cyril ، كبير أساقفة الإسكندرية ، موعظة فى يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩ أعلن فيها العقيدة التى تدين بها كثرة المسيحيين ، وهى أن مريم ليست أم الله الحق بل هى أم كلمة الله ، المشتملة على طبيعتى المسيح الإلهية والبشرية معاً[٤] . واستشاط البابا سلستين Celestine الأول غضباً على أثر رسالة تلقاها من سيريل فعقد مجلساً فى رومة (٤٣٠) ، طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه . فلما رفض نسطوريوس كلا المطلبين اجتمع فى إفسوس (٤٣١) مجلس عام ، لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية ، واحتج على ذلك كثيرون من الأساقفة ، ولكن أهل إفسوس قاموا بمظاهرات صاخبة يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان ، وكانت مظاهرات أحيت بلا ريب ذكريات ديانا — أرتميس . وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى أنطاكية ، ولكنه وهو فيها ظل يدافع عن آرائه ، ويطالب بالعودة إلى منصبه ، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى واحة فى صحراء ليبيا ، بقى فيها سنين كثيرة ، حتى أشفقت عليه حاشية الإمبراطور فى الدولة الشرقية فبعثت إليه بعفو إمبراطورى . فلما جاءه الرسول وجده يحتضر (حوالى ٤٥١) وانتقل أتباعه من بعده إلى شرقى سوريا ، وشادوا لهم كنائس وأنشأوا مدرسة لتعليم مذهبهم فى الرها وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية ، وكان لهم شأن أيما شأن فى تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم . ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس وأنشأوا مدرسة عظيمة الأثر فى نصيبين . وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم ، وتكونت منهم جماعات فى بلخ وسمرقند وفى الهند والصين ، ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة فى آسية ، ولا يزالون ينكرون عبادة مريم .

وكانت آخر الشيع المارقة الكبرى فى ذلك العصر المضطرب وأعظمها أثراً فى تاريخ المسيحية هى التى أنشأها أوتيكيس Eutyches رئيس دير قريب من القسطنطينية . وكان أوتيكيس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية ، بل إن له طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية . ودعا فلافيان Flavian بطريق القسطنطينية مجمعاً محليا مقدساً أنكر هذه البدعة القائلة بالطبيعة الواحدة ، وحرم أوتيكيس من الكنيسة المسيحية . ولجأ الراهب إلى أسقفى الإسكندرية ورومة ، وأقنع ديوسكوراس ، الذى خلف سيريل ، الإمبراطور ثودوسيوس بأن يدعو مجلساً آخر فى إفسوس (٤٤٩) . وكان الدين وقتئذ خاضعاً للسياسة ؛ وكان كرسى الإسكندرية لا يزال يعارض كرسى القسطنطينية ؛ فبرئ أوتيكيس وهوجم فلافيان هجوماً خطابياً عنيفاً قضى على حياته[٥] . وأصدر المجلس قراراً بلعنة كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح . ولم يحضر البابا ليو الأول المجلس ، ولكنه بعث إليه بعدة رسائل يؤيد فيها فلافيان . وارتاع ليو من التقرير الذى أرسله إليه مندوبوه ، فأطلق على هذا المجلس اسم « مجمع اللصوص » وأبى أن يوافق على قراراته ثم عقد مجلس آخر فى خلقيدون Chalcedon عام ٤٥١ أبدى استحسانه لرسائل ليو وسخطه على أوتيكيس ، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح . ولكن القاعدة الثامنة والعشرين من القواعد التى أقرها المجلس أكدت مساواة سلطة أسقف القسطنطينية لسلطة أسقف رومة . وكان ليو قبل ذلك يدافع عن حقه فى أن تكون لكرسيه السلطة العليا لأنه يرى ذلك ضرورياً لوحدة الكنيسة وسلطانها . ولذلك رفض هذه القاعدة وبدأ بذلك نزاع طويل الأمد بين الكرسيين .

وزاد الاضطراب حتى أوفى على غايته حين رفضت كثرة المسيحيين فى سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين فى شخص المسيح المفرد ، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين ، ولما أن عين أسقف لكرسى الإسكندرية من أتباع الدين القويم قتل ومزق جسمه إرباً فى كنيسته فى يوم الجمعة الحزينة[٦] . وأصبحت

اليعقوبية من ذلك الحين الدين القومى لمصر واثيوبيا المسيحيتين ، ولم يحل القرن السادس حتى كانت لها الغلبة فى غربى سوريا ، وأرمينية ، بينا انتشرت النسطورية فيما بين النهرين وشرق سوريا . وكان نجاح الثورة الدينية من أكبر العوامل فى نجاح الثورة السياسية ، ولما تدفق سيل العرب الجارف على مصر والشرق الأدنى فى القرن السابع رحب بهم نصف سكانهما ورأوا فيهم محررين لهم من استبداد العاصمة البيزنطية الدينى والسياسى والمالى .

الفصل الثالث

الغرب المسيحى

(١) رومـــة

لم يظهر أساقفة رومة فى القرن الرابع بالمظهر الذى يشرف الكنيسة ، ويعلى من قدرها . فهاهو ذا سلفستر (٣١٤ — ٣٣٥) يعزى إليه فضل اعتناق قسطنطين المسيحية . ثم تقول الطائفة التقية المتدينة إنه تلقى من قسطنطين هبته المعروفة « بعطية قسطنطين » وهى غرب أوربا بأكمله تقريباً ، ولكنه لم يسلك مسلك من يمتلك نصف عالم الرجل الأبيض . وقد أكد يوليوس الأول (٣٣٧ — ٣٥٢) سلطة كرسى رومة العليا ، ولكن ليبريوس (٣٥٢ — ٣٦٦) خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه إلى أوامر قسطنطين الأريوسية . ولما مات تنازع دماسوس Damasus ويورنسوس Urinsus البابوية ، وانقسم الغوغاء أيضاً فى تأييد المتنازعين بكل ما عرفته تقاليد الدمقراطية الرومانية من عنف يستطيع القارئ أن يتصوره إذا عرف أنه قتل فى يوم واحد وفى كنيسة واحدة ١٣٧ شخصاً فى نزاع قام بين أنصار الرجلين[٧] . وقد أدى هذا إلى أن نفى بريتكستاتوس ، حاكم رومة الوثنى ، يورنسوس منها ، فاستتب الأمر لدماسوس وظل يصرف الشئون الدينية بغير قليل من المتعة والحذق . وكان الرجل من علماء الآثار ، فأخذ يزين قبور الشهداء الرومان بالنقوش الجميلة ، وكان كما يقول بعض الوقحين ، من الذين « يخدشون آذان السيدات » أى أنه كان بارعاً فى جلب الهدايا إلى الكنيسة من نساء رومة الموسرات[٨] .

وجلس ليو الأول ، الملقب بليو الأكبر ، على عرش بطرس خلال جيل (٤٠٠ — ٤٦١) من الأزمات ، استطاع فيه بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد

سلطة الكرسي الرسولي وهيبته . ولما أن رفض هيلاري أسقف بواتييه Hilary of Poitiers أن يذعن لحكمه في نزاع شجر بينه وبين أسقف غالي آخر ، أرسل إليه ليو أوامر حاسمة عاجلة ، أيدها الإمبراطور فلنتنيان الثالث بمرسوم من أهم المراسيم الإمبراطورية يؤكد فيه سلطة أسقف رومة على جميع الكنائس المسيحية ، واعترف أساقفة الغرب بوجه عام بهذه السلطة العليا ، أما أساقفة الشرق فقاوموها . وقال بطارقة القسطنطينية وأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية إن لهم من السلطة ما لكرسي رومة ، وظل الجدل العنيف قائماً بين الكنائس الشرقية ، وكانت في خلاله لا تطيع أوامر أسقف رومة إلا في القليل النادر . واجتمعت صعاب النقل والاتصال مع اختلاف اللغة فزادت الفرقة بين الكنيسة الشرقية والغربية . لكن بابوات الغرب أخذوا يزيدون من نفوذهم حتى في غير الشئون الدينية و لقد كانوا يخضعون في غير الشئون الدينية إلى الدولة الرومانية وإلى حكام رومة ، وظلوا حتى القرن السابع يطلبون إلى الإمبراطور أن يعتمد اختيارهم لمنصبهم الديني . ولكن بعدهم عن أباطرة الشرق وضعف حكام الغرب قد تركا البابا صاحب السلطان الأعلى في رومة ، ولما أن فر أعضاء مجلس الشيوخ وفر الإمبراطور من وجه الغزاة ، وتقوضت دعائم الحكومه المدنية ، وظل البابوات في مناصبهم لم يرهبهم شيء من هذا كله ، لما حدث هذا ارتفعت مكانتهم ارتفاعاً سريعاً ، وزادت هيبتهم . ولما اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية زاد ذلك من سلطة كرسي رومة ونفوذه زيادة كبرى .

ولما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثني واعتنقت المسيحية كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التي جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية ، ولشد ما دهش أميانوس حين وجد أن أسقف رومة يعيش عيشة الأمراء في قصر لاتران Lateran ، ويمشي في المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية[٩] . وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ، ونشأ فيها مجتمع ديني راق اختلط فيه رجال

الدين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات ، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن .

وكانت جمهرة الشعب المسيحى تشترك مع البقية الباقية من الوثنيين فى مشاهدة التمثيل والسباق والألعاب ، ولكن أقلية منهم حاولت أن تحيا حياة تتفق مع ما جاء فى الأناجيل . وكان أثناسيوس قد جاء إلى رومة براهبين مصريين ، وكتب ترجمة لحياة أنطونيوس ، وكان روفينوس Rufinus قد نشر فى الغرب تاريخ الأديرة فى الشرق ، فتأثرت عقول أتقياء المسيحيين بما ذاع عن تدين أنطونيوس ، وشنوده ، وباخوم ، وأنشأ سكستوس الثالث Sextus III (٤٣٢ — ٤٤٠) وليو الأول أديرة فى رومة ، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التى يحياها الرهبان فى الأديرة ؛ وإن ظلت تقيم فى منازلها . وخرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسلا Marcella ، وبولا ، وثلاثة أجيال من أسرة ملانيا عن الجزء الأكبر من مالهن للصـــدقات ، وأنشأن المستشفيات والأديرة ، وحججن إلى رهبان الشرق ، وبلغ من تقشفهن وزهدهن أن مات بعضهن من الحرمان . وأخذت الدوائر الوثنية فى رومة تشكو من أن هذا النوع من المسيحية لا يتفق مع حياة الأسر ، أو مع نظام الزواج ، أو مع القوة التى تحتاجها الدولة ، وثار الجدل الشديد حول آراء زعيم الزاهدين فى الغرب ، وهو فى الوقت نفسه من أكبر العلماء وأنبه الكتاب الذين أنجبتهم الكنيسة المسيحية .

٢ — القديس چيروم

ولد حوالى عام ٣٤٠ فى استريدو Strido القريبة من أكويليا ، وأغلب الظن أنه من أصل دلماشى ، وكأنما كان أهله يتنبئون بما سيكون له من شأن فسموه يوسبيوس هيرونيموس سفرونيوس Eusebius Hieronymus Sophronius « أى الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس » ، ونال قسطاً كبيراً من التعليم فى ترير ورومة ، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة طيبة ، وأحبها حباً وصل

فى ظنه إلى حد الخطيئة . ولكنه مع هذا كان مسيحيا شديد التمسك بدينه ، عاملا بأوامره ، ساعياً إلى خيره ، انضم إلى روفينوس وغيره من أصدقائه فى تكوين جماعة من الإخوان الزهاد فى أكويليا . وكان يعظهم مواعظ يدعوهم فيها إلى الكمال ، حتى لامه أسقفه لقلة صبره على ما فى الطبيعة البشرية من أسباب الضعف . وكان جواب چيروم أن قال للأسقف إنه جاهل ، فظ ، آثم ، خليق بالقطيع العالمى الذى يقوده ، مرشد غير حاذق لسفينة ضالة[١٠] . وترك چيروم وبعض أصدقائه مدينة أكويليا تتردى فى خطاياها ، ورحلوا إلى الشرق الأدنى ودخلوا ديراً فى صحراء خلقيس بالقرب من أنطاكية (٣٧٤) ، ولكنهم لم يحتملوا حرها القاسى غير الصحى فمات اثنان منهم ، وأوشك چيروم هو أيضاً أن يموت . ولكن هذا لم يثنه عما أراده لنفسه ، فغادر الدير ليعيش عيشة النساك فى صومعة فى الصحراء ، وكان يرجع بين الفنية والفينة إلى فرچيل وشيشرون . ذلك أنه جاء معه بمكتبته ، ولم يكن فى وسعه أن يقطع صلته بالشعر والنثر اللذين كان جمالها يستهويه كما يستهوى جمال الفتيات غيره من الرجال . وإن ما يقوله هو نفسه عن هذا ليكشف عن طبيعة الناس فى العصور الوسطى ، فقد رأى فيما يراه النائم أنه مات :

« وجىء بى إلى مجلس القضاء الأعلى ، وطلب إلىّ أن أفصح عن أمرى ، فأجبت بأنى مسيحى . ولكن من كان يرأس الجلسة قال : « إنك لتكذب ، فما أنت بمسيحى ، ولكنك من أتباع شيشرون ، فحيثما يكون كنزك يكون أيضاً قلبك » فعقد لسانى من فورى ولم أحر جوابا ، « ثم شعرت » بضربات السوط لأنه أمر بى أن أجلد . . . وفى آخر الأمر خر من كانوا يشهدون المحاكمة سجدا بين يدى رئيس الجلسة وتوسلوا إليه أن يرحم شبابى ويتيح لى فرصة التوبة من ذنبى ، على أن يصب على أقصى أنواع العذاب إذا ما عدت إلى قراءة كتب المؤلفين غير المسيحيين ... ولم تكن هذه التجربة أضغاث أحلام لذيلة ... بل إنى

لأقر بأن جلد كتفي قد ازرق واسود من شدة الضرب ، وأني لبثت أحس بالرضوض بعد أن صحوت بزمن طويل . . . وأخذت من ذلك الحين أقرأ كتب الله بحماسة أكثر من التي كنت أقرأ بها من قبل كتب بني الإنسان »[١١] .

وعاد إلى أنطاكية في عام ٣٧٩ ورسم فيها قسيساً . وفي عام ٣٨٢ نجده في رومة أميناً للبابا دماسوس الذي كلفه بترجمة العهـــد الجديد إلى اللغة اللاتينية ترجمة خيراً من التراجم الموجودة في ذلك الوقت . وظل في منصبه الجديد يلبس الثوب القاتم والجلباب اللذين كان يلبسهما أيام نسكه ، ويعيش عيشة الزهد في بلاط البابا المترف ، وكانت مرسلا وپولا التقيتان تستقبلانه في بيتيهما الأرستقراطيين وتهتديان بهديه الروحي ، وكان نقاده الوثنيون يظنون أنه يستمتع بصحبة النساء أكثر مما يليق برجل مثله يمدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال ، وبقاء البنات عذارى . وقد رد عليهم بأن وجه إلى المجتمع الروماني في عصره هجاء بألفاظ سيظل يذكرها الناس إلى أبد الدهر قال :

أولئك النسوة اللائي يصبغن خدودهن بالأصباغ الحمراء ، ويكتحلن بالإثمد ويضعن المساحيق على وجوههن ... واللاتي لا تقنعهن السنون مهما طالت بأنهن قد تقدمت بهن السن ، واللائي يكدسن الغدائر المستعارة ، على رءوسهن . ويسلكن أمام أحفادهن مسلك فتيات المدارس اللائي يرتجفن من الخوف . . . إن الأرامل الخارجات على الدين المسيحي يتباهين بأثوابهن الحريرية ، ويتحلين بالجواهر البراقة ، وتفوح منهن رائحـــة المسك . . . ومن النساء من يلبسن ملابس الرجال ، ويقصصن شعرهن . . . ويستحين من أنوثتهن ، ويفضلن أن يظهرن بمظهر الخصيان . . . ومن النساء غير المتزوجات من يستعن بالسوائل لمنع الحمل ، ويقتلن بني الإنسان قبل أن يحملن بهم ، ومنهن من إذا وجدن أنهن قد حلن نتيجة لإثمهن ، يجهضن أنفسهن بما يتعاطين من العقاقير . . . لكن من النساء من

يقلن : « إن كل شيء طاهر عند الطاهرات . . . فلم إذن أحرم على نفسى ما خلقه الله لأستمتع به ؟ »[١٢] .

وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تنم عن تقديره لجمال النساء :

« إن صدرتك مشقوقة عن عمد . . . وثدييك مشدودان بأربطة من التيل ، وصدرك سجين فى منطقة ضيقة . . . وخمارك يسقط أحياناً حتى يترك كتفيك البيضاوين عاريتين ، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد »[١٣] .

ويضيف چيروم إلى تحير الرجل الأخلاقى مغالاة الفنان الأديب الذى يصور عصراً من العصور ، والمحامى الذي يتبسط فى ملخص دعوى . ويذكرنا هجاؤه بهجاء چوڤنال ، أو بما نقرأه من هجاء هذه الأيام . ومن الطريف أن نعرف أن النساء كن على الدوام ذوات سحر ودلال كما هن فى هذه الأيام . ويشبه چيروم چوڤنال فى أنه خبن يطعن فى أمر لا يرضيه يتقصاه بنزاهة وشجاعة . وقد روعه أن يجد التسرى منتشراً حتى بين المسيحيين ، وروعه أكثر من هذا أن وجده يتخفى وراء ستار التعفف من أشق السبل . ومن أقواله فى هذا : ترى من أى مصدر وجد هذا الوباء وباء « الأخت العزيزة المحبوبة » طريقه إلى الكنيسة ؟ ومن أين جاءت هذه الزوجات اللاتى لم يتزوج أحد بهن ؟ هذه السرارى الحديثات ، وهذه العاهرات اللاتى اختص بهن رجل واحد ؟ إنهن يعشن مع أصدقائهن من الذكور فى بيت واحد ويشغلن معهن حجرة واحدة ، وكثيراً ما يشتركن معهم فى فراش واحد ؛ ومع هذا فهم يقولون عنا إننا نسىء بهن الظن إذا رأينا فى هذا عيباً[١٤] » . وهو يهاجم القساوسة الرومان الذين كان فى مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسى البابوية ، ويسخرمن رجال الدين الذين يعقصون شعورهم ، ويعطرون ثيابهم ، ويترددون على المجتمعات الراقية ، والقسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن[١٥] ، ويندد بزواج القساوسة ، وبشذوذهم الجنسي ؛ ويدافع دفاعاً قوياً

عن بقاء رجال الدين بلا زواج ؛ ويقول إن الرهبان وحدهم هم المسيحيون الحقيقيون المبرءون من الملك والشهوات ، والكبرياء ؛ ويدعو چيروم الناس كافة ، ببلاغة لو سمعها كسنوڤا Casanova لتعلق به وصار من أتباعه ، لأن يخرجوا عن كل مالهم ويتبعوا المسيح ؛ ويطالب إلى الأمهات أن يهبن أول أبنائهن إلى الله ، لأن أولئك الأبناء من حقه عليهن حسب نص الشريعة[١٦] ؛ وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى فى بيوتهن إذا تعذر عليهن أن يدخلن الدير . ويكاد چيروم أن يعد الزواج من الخطايا ويقول : « إنى لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتينى بالعذارى[١٧] » . ويريد أن « يقطع بفأس البكورية خشب الزواج »[١٨] ؛ ويفضل يوحنا الرسول الأعزب على بطرس الذى تزوج[١٩] . وأظرف رسائله كلها هى التى كتبها إلى فتاة (٣٨٤) تدعى أوستكيوم Eustochium فى لذة البكورية ، ويقول فيها إنه لا يعارض فى الزواج ، ولكن الذين يتجنبونه ينجون من سدوم Sodom ومن آلام الحمل ، وصراخ الأطفال ، ومتاعب البيوت ، وعذاب الغيرة . وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً ، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة :

« إن فكرة واحدة قد تكفى لضياع البكورية . . . فليكن رفاقك هم صفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم . . . وليكن صومك حادثاً يتكرر فى كل يوم ، اغسلى سريرك ، ورشى مخدعك كل ليلة بالدموع . . . ولتكن عزلة غرفتك هى حارسك على الدوام . . . ودعى الله عريسك هو الذى يلعب معك فى داخلها . . . فإذا غلبك النوم جاءك من خلف الجدار ، ومد يده من خلال الباب ، ومس بها بطنك ، فصحوت من النوم وقمت واقفة وناديته « إنى أهيم بحبك » فتسمعينه يقول : « إن أختى ، حبيبتى ، جنة مغلقة ، وعين ماء غير مفتوحة ، وينبوع مختوم »[٢٠] .

ويقول چيروم إنه لما نشرت هذه الرسالة : « حياها الناس بوابل من

الحجارة » ؛ ولعل بعض قرائها قد أحسوا فى هذه النصائح بلوعة سقيمة فى رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات . ولما ماتت بليسلا Blesilla الفتاة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت (٣٨٤) ، أخذ الكثيرون يندِّدون بالزهد الصارم الذى علمها إياه چيروم ، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان رومة فى نهر التيبر . لكن چيروم لم يندم على ما فعل ، ووجه إلى أمها الثكلى ، التى كاد الحزن أن يذهب بعقلها ، رسالة تعزية وتقريع . ولما توفى البابا دماسوس فى ذلك العام نفسه لم يجدد خلفه تعيين چيروم أميناً لسره ، فخرج من رومة فى عام ٣٨٥ ولم يعد إليها أبداً ، وصحب معه پولا Paula أم بليسلا وأوستكيوم أختها . وأنشأ فى بيت لحم ديراً للرهبان صار هو رئيسه ، وآخر للراهبات تولت رياسته پولا ومن بعدها أوستكيوم ، كما أنشأ كنيسة ليتعبد فيها الرهبان والراهبات مجتمعين ، ومضيفة لحجاج الأراضى المقدسة .

واتخذ له خلوة فى كهف جمع فيها كتبه وأوراقه ، وقضى وقته كله فى الدرس والكتابة ، وتعليم الناس الأسرار القدسية ، وأقام فيها الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من حياته . وكان يجادل بقلمه كريسستوم ، وأمبروز ، وپلاجيوس ، وأوغسطين . وكتب نحو خمسين كتابا فى المشكلات الدينية ، وفى تفسير الكتاب المقدس ، تمتاز كلها بقوة العقيدة التى لاتقبل جدلا ، وكان أعداؤه وأصدقاؤه على السواء يحرصون على قراءة كتبه . وقد أنشأ مدرسة فى بيت لحم ، كان هو نفسه يعلم فيها الأطفال من غير أجر وبتواضع منقطع النظير كثيراً من الموضوعات المختلفة ، منها اللغة اللاتينية واليونانية . والآن وقد أصبح قديساً ثابت العقيدة أحس بأن لاحرج عليه فى أن يقرأ مرة أخرى الكتب القديمة التى حرمها على نفسه فى شبابه . وواصل دراسة اللغة العبرية ، وكان قد بدأ يدرسها حين أقام فى بلاد الشرق أول مرة ، وأخرج بعد ثمانية عشر عاماً من الجلد والدرس تلك الترجمة اللاتينية العظيمة الرائعة للكتاب المقدس ، وهى الترجمة اللاتينية الشائعة

التي تعد حتى الآن أهم الأعمال الأدبية التي تمت فى القرن الرابع وأعظمها أثراً . ولسنا ننكر أن فى الترجمة ، كما فى كل عمل عظيم مثلها ، أخطاء ، وأن فيها « عجمة » وعبارات عامية ينفر منها المدقق الحريص على نقاء اللغة ؛ ولكن لغة الكتاب اللاتينية أضحت هى لغة الدين والأدب طوال العصور الوسطى ، وصبت سيلاً من العواطف والخيالات العبرية فى قوالب لاتينية ، وأدخلت في الأدب آلافا من العبارات الرائعة الفصيحة القوية ، التي تعد من جوامع الكلم(*) وبفضل هذه الترجمة عرف العالم اللاتيني الكتاب المقدس كما لم يعرفوه من قبل .

ولم يكن چيروم قديساً إلا فى أنه كان يحيا حياة الزهد ، وأنه وهب نفسه للكنيسة ، لكننا لا نستطيع أن نعده قديساً فى أخلاقه أو أقواله . ومما يؤسف له أشد الأسف أن يجد الإنسان فى أقوال هذا الرجل العظيم كثيراً من العبارات الدالة على الغيظ والحقد والجدل ، وتحريف القول ، والشراسة فى الجدل ، فهو يلقب يوحنا بطريق بيت المقدس بيهوذا (خائن المسيح) ، وبالشيطان ، ويقول إن الجحيم لا تجد فيها ما يليق به من العقاب[٢١] ؛ ويصف الرجل العظيم أمبروز بأنه « غراب مشوه الخلق »[٢٢]، وقد خلق المتاعب لصديقه القديم روفينوس بأن أخذ ينقب لأرجن Origen بعد وفاته عن أخطاء ، وكان فى عمله هذا عنيفاً إلى حد لم ير معه البابا أنستاسيوس بدًّا من إدانته (٤٠٠) ، ولو أن جيروم قد ارتكب بعض الخطايا المادية لغفرناها له أكثر مما نغتفر هذا الحقد الروحي الشديد .

(*) كانت ترجمة چيروم فى معظم أجزائها من اللغة العبرية أو اليونانية الأصلية مباشرة . لكنه كان فى بعض الأحيان يترجم عن النص اليونانى الذى كتبه أكويلا ، أو سيماكوس أو ثيدوتيون . ولا تزال ترجمته التي روجعت فى عامى ١٥٩٢ ، ١٩٠٧ هى النص المعتمد للكتاب المقدس فى جميع البلاد التي تدين بالمذهب الكاثوليكى الرومانى . و« كتاب دويه Douai المقدس » ، هو النص الإنجليزى لهذه الترجمة اللاتينية .

ولم يتوان نقاده عن أن ينزلوا به أشد القصاص ، فلما رأوه يُعلّم الكتب اليونانية واللاتينية ، اتهموه بالوثنية ؛ ولما رأوه يَدْرس اللغة العبرية على أحد اليهود ، اتهموه بأنه قد ارتد إلى الدين اليهودى ؛ ولما أهدى كتبه للنساء قالوا إن الباعث له على هذا هو الجشع المادى ، أو ما هو أسوأ من الجشع المادى[٢٣] . ولم يكن سعيداً فى شيخوخته ؛ ذلك أن البرابرة انقضوا على بلاد الشرق الأدنى ، واجتاحوا سوريا وفلسطين (٣٩٥) « وكم من أديرة استولوا عليها ، وكم من أنهار خضبت مياهها بالدماء ! » ثم ختم أقواله بهذه العبارة « إن العالم الرومانى يتساقط »[٢٤] . وماتت فى أثناء حياته پولا ومرسالا ، وأوستكيوم وكن اعزيزات عليه . وظل الرجل يواصل العمل فى كتاب بعد كتاب ، وقد ذبل جسمه وضعف صوته من فرط زهده ، وتقوس عوده . وحضرته الوفاة وهو يكتب شرحاً لسفر أرميا . لقد كان رجلا عظيما أكثر مما كان رجلا صالحا ؛ وكان هجاء لاذعاً لا يقل فى ذلك عن جوڤنال ، وكاتب رسائل لا تقل فصاحة عن سنكا ، وعالما مجدا لا ينقطع عن الدرس والتبحر فى الدين .

٣ ـ الجنود المسيحيون

لم يكن چيروم وأوغسطين إلا أعظم الرجلين فى هذا العصر العجيب ، فقد امتاز من « آباء » الكنيسة فى بداية العصور الوسطى ثمانية من علماء الدين : منهم فى الشرق أثناسيوس ، وباسيلى ، وجريجورى ، ونزيانزين ، ويوحنا كريسستوم ، ويوحنا الدمشقى ؛ وفى الغرب أمبروز ، ، وچيروم ، وأوغسطين ، وجريجورى الأكبر .

وتدل سيرة أمبروز (٣٤٠ ؟ — ٣٩٥) على قدرة الكنيسة على أن تجتذب لخدمتها رجالا من الطراز الأول ، لو أنهم وجدوا قبل وقتهم بجيل واحد لكانوا خدما للدولة . وقد ولد أمبروز فى ترير ، وكان أبوه واليا على غالة ، وكانت مخايل الأمور كلها والسوابق بأجمعها توحى بأنه سيكون من رجال السياسة . ولسنا ندهش

حين نسمع بعد ذلك أنه كان والياً على شمالى إيطاليا . وكان بحكم إقامته فى ميلان وثيق الصلة بإمبراطور الغرب ، وقد وجد فيه الإمبراطور الخلال الرومانية القديمة : العقل الراجح ، والقدرة على التنفيذ ، والشجاعة الهادئة . ولما علم أن الأحزاب المتنازعة قد اجتمعت فى الكنيسة لتختار أسقفاً جديداً ، أسرع إلى مكان الاجتماع وقمع بهيبته وقوة عبارته بوادر الفتنة بين المجتمعين . ولما عجزت الأحزاب المتنازعة عن الاتفاق على رجل يختارونه لهذا المنصب الدينى ، اقترح بعضهم أمبروز ، وما كاد يُسمع اسمه حتى اجتمعت كلمة الحاضرين فى حماسة منقطعة النظير ، وأُخِذ الحاكم من فوره رغم احتجاجه فعُمد ، لأنه لم يكن قد عمد بعد ، ورسم شماساً ، ثم قساً ، ثم أسقفاً ، وتم ذلك كله فى أسبوع واحد (٣٧٤)[٢٥] .

وشغل الرجل منصبه الجديد ، بالهيبة والمقدرة الخليقتين بالحاكم القدير ، وبادر بالتخلى عن زخرف المنصب السياسى . وعاش عيشة تعد مضرب المثل فى البساطة ، فوزع أمواله وأملاكه على الفقراء ، وباع الآنية المقدسة فى كنيسته ليفتدى بثمنها أسرى الحرب[٢٦]. وكان عالما متفقها فى الدين دافع بكل قوة عن المبادئ التى أقرها مجمع نيقية ، وكان خطيباً مفوها لمواعظه الفضل فى هدى أوغسطين ، وشاعراً ألف عدداً من أقدم ترانيم الكنيسة وأنبلها ، وقاضياً فضح بعلمه واستقامته مفاسد المحاكم المدنية ، وسياسياً تعهد إليه الكنيسة والدولة بأشق المهام وأعظمها خطراً ، ومنظما دقيقاً كان سنداً قوياً للبابا وإن كان قد غطى عليه وحجبه ، وعالما دينيا أرغم ثيودسيوس العظيم على التوبة ، وكانت له السيطرة على خطط ڤلنتنيان الثالث . وكان سبب هذه السيطرة أن كانت للإمبراطور الشاب أم أريوسية العقيدة تدعى چيستينا Justina ، حاولت أن تحصل على كنيســة فى ميلان لقس أريوسى . ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا فى الكنيسة المحاصرة ليلا ونهارا « معتصمين فيها ، اعتصاماً مقدسا يتحدون أمر الإمبراطورة بتسليم البناء « ومن ثم » كما يقول أوغسطين « نشأت عادة إنشاد الترانيم والأغانى ، تقليداً لعادات الولايات الشرقية

لإنقاذ الشعب من أن يضنيه طول يقظته وحزنه »[٢٧] ، وقاوم أمبروز الإمبراطورة مقاومة عنيفة ذاع صيتها فى الخافقين ونال التعصب على يديه نصراً مؤزراً .

وكان پولينوس Paulinus (٣٥٣ — ٤٣١) يمثل فى نولا Nola بجنوب إيطاليا نوعا من القديسين أرق حاشية وألطف معشراً من أمبروز . وكان پولينوس ينتمى إلى أسرة مثرية عريقة تقطن بردو Bordeaux ، وقد تزوج من سيدة تنتمى إلى أسرة لاتقل عن أسرته فى بكرم المحتد ، ودرس على الشاعر أوسنيوس Ausonius ، وخاض غمار السياسة وارتقى رقيا سريعا . ثم « انقلب » فجأة وتحول عن العالم تحولا تاما : فباع أملاكه ، ووزع ماله كله على الفقراء ؛ ولم يبق لنفسه منه إلا ما يسد ضرورات الحياة ، ورضيت زوجته ثرازيا Therasia أن تعيش معه « أختاً له فى المسيح » طاهرة . ولم تكن حياة الأديرة قد نشأت فى الغرب ولهذا فقد اتخذا من بينهما المتواضع فى نولا ديراً خاصا ، عاشا فيه خمسة وثلاثين عاماً ممتنعين عن اللحم والخمر ، يصومان عددا كثيراً من الأيام فى كل شهر ، وكانا سعيدين لأنهما تخلصا من متاعب الثروة ومشاغلها . واعترض أصدقاء شبابه الوثنيون ، وخاصة أوسنيوس أستاذه القديم ، على ما بدا لهم أنه هروب من واجبات الحياة المدنية ، فكان جوابه أن دعاهم ليشاركوه فى سعادته . وقد احتفظ إلى آخر حياته بروح التسامح فى هذا القرن المليء بالحقد والعنف . ولما مات اشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين فى تشييع جنازته .

وكتب پولينوس شعراً مطرباً ساحراً ، ولكنه لم يكتبه إلا عرضاً ، أما الشاعر الذى كان يمثل النظرة المسيحية إلى الحياة فى ذلك العصر أصدق تمثيل فهو أورليوس پرودنتيوس كلمنز Aurelius Prudentius Clemens الأسپانى (٣٤٨—٤١٠ تقريبا) . فبينا كان كلوديان وأوسنيوس يملآن أشعارهما بالآلهة الموتى ، كان پرودنتيوس يترنم بالأوزان القديمة فى الموضوعات الحية الجديدة : كقصص الشهداء (فى كتاب التيجان) ، ويضع الترانيم لكل ساعة من ساعات اليوم ، ويكتب

بالشعر ردا على دفاع سماكوس عن تمثال النصر . وفى هذه القصيدة الأخيرة وجه إلى هونوريوس تلك الدعوة الحارة الذائعة الصيت ، التى أهاب به فيها أن يمنع معارك المجالدين . ولم يكن يكره الوثنيين ، بل إنا لنجد فى أقواله ألفاظاً طيبة عن سماكوس ، وعن يوليان نفسه ، وكان يرجو أبناء دينه المسيحيين ألا يتلفوا أعمال الوثنيين الفنية . وكان يشارك كلوديان فى إعجابه برومة ، ويثلج صدره أن يستطيع الإنسان التنقل فى معظم أنحاء عالم الرجل الأبيض وهو خاضع لقوانين واحدة آمن على حياته أينما حل ، « نعيش زملاء مواطنين أينما كنا »(٢٨) . وإنا لنجد فى أقوال هذا الشاعر المسيحى آخر أصداء أعمال رومة المجيدة وسيادتها .

ولم يكن أقل مفاخر رومة أن أصبحت لغالة فى ذلك الوقت حضارة من أرقى الحضارات . فقد كان فى القرن الرابع أساقفة عظام لا يقلون شأناً عن أوسنيوس وسيدونيوس فى عالم الأدب ، نذكر منهم هيلارى البواتيرى Hilary of Poitiers وريمى الريمسى Remi of Reims ويفرونيوس الأوتونى Euphaonius of Autun ، ومارتن التورى Martin of Tours . وكان هيلارى (المتوفى حوالى عام ٣٦٧) من أنشط المدافعين على قرارات مجمع نيقية ، وقد كتب رسالة من اثنتى « عشرة مقالة » حاول فيها أن يشرح عقيدة التثليث . ولكننا نراه فى كرسيه المتواضع فى بواتييه يحيا الحياة الصالحة الخليقة بالرجل المسيحى المخلص لدينه — يستيقظ فى الصباح الباكر ، ويستقبل كل قادم عليه ، ويستمع للشكايات ، ويفصل فى الخصومات ، ويتلو القداس ، ويعظ ، ويعلم ، ويملى الكتب والرسائل ، ويستمع فى أثناء وجبات الطعام لقراءات من الكتب الدينية ، ويقوم فى كل يوم ببعض الأعمال اليدوية كزرع الأرض أو نسج الثياب للفقراء(٢٩) وكان بسيرته هذه يمثل رجل الدين الصالح أصدق تمثيل .

وقد خلف القديس مارتن St. Martin شهرة أوسع من شهرة هؤلاء جميعاً . ففى فرنسا الآن ٣٦٧٥ كنيسة و ٤٢٥ قرية تسمى كلها باسمه . وقد ولد فى بنونيا

حوالى عام ٣١٦ ؛ وأراد ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، أن يكون راهباً ، ولكن أباه أرغمه ، وهو فى الخامسة عشرة ، على الانضمام إلى الجيش ؛ فلما فعل كان فيه جندياً غير عادى ، فكان يهب مرتبه للفقراء ، ويساعد البائسين ، ويتحلى بالوداعة والصبر كأنه يريد أن يتخذ من معسكر الجيش ديراً . ونال مارتن أمنيته بعد أن قضى فى الخدمة العسكرية خمس سنين ، فغادر الجيش ليعيش راهباً فى صومعة ، فى إيطاليا أولا ، ثم فى پواتييه بالقرب من هيلارى الذى كان يحبه . وفى عام ٣٧١ خرج أهل تور يطالبون بأن يكون أسقفاً عليهم ، على الرغم من ثيابه الرثة وشعره الأشعث . فوافق على طلبهم ، ولكنه أصر على أن يعيش كما كان عيشة الرهبان . وأنشأ فى مرموتييه Marmoutier على بعد ميلين من تور ديراً جمع فيه ثمانين راهباً ، وعاش معهم عيشة التقشف الخالية من الادعاء والتظاهر . وكان الأسقف فى رأيه رجلا لا يكتفى بالاحتفال بالقداس ، والوعظ ، وتقسيم العشاء الربانى ، وجمع المال ، بل يعمل أيضاً على تقديم الطعام للجياع ، والكساء للعرايا ، وعيادة المرضى ، ومساعدة البائسين . وقد أحبته غالة كلها حباً جعل الناس فى جميع أنحائها يروون القصص عن معجزاته ، ولقد بالغوا فى هذا حتى قالوا إنه أحيا ثلاثة من الأموات(٣٠) . وقد اتخذته فرنسا من قديسيها الشفعاء .

وكان الدير الذى أنشأه مارتن فى پواتييه (٣٦٢) بداية أديرة كثيرة نشأت بعدئذ فى غالة . وإذ كانت فكرة الأديرة قد جاءت إلى رومة عن طريق كتاب أثناسيوس المسمى « حياة أنطونيوس » ، ودعوة چيروم القوية التى أهاب فيها بالناس أن يحيوا حياة الزهد ، فقد كان طراز الرهبنة الذى انتشر فى الغرب هو أشقها وأكثرها عزلة ، وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقسى شعائرها فى جو غير رحيم كما كان يمارسها المصريون فى شمس مصر الدفيئة وجوها المعتدل . فقد عاش الراهب ولفليك Wulfilaich عدة سنين عارى الساقين حافى القدمين فوق

عمود فى تيبر ؛ وكانت أظافر أصابع قدميه تتساقط فى الشتاء ، وتتعلق قطع الجليد بلحيته . وحبس القديس سينوخ نفسه بالقرب من تور فى مكان ضيق بين أربعة جدران لم يستطع فيه أن يحرك النصف الأسفل من جسمه . وعاش على هذا النحو سنين كثيرة ، كان فيها موضعاً لإجلال الشعب(٣١). وأدخل القديس يوحنا كسيان John Cassian فى الرهبنة آراء باخوم ليوازن بها نشوة أنطونيوس الروحية . فقد أوحت إليه بعض مواعظ كريستوم أن ينشئ ديراً للرجال وآخر للنساء فى مرسيلية (٤١٥) ، وأن يضع لهما أول ما وضع فى الغرب من قوانين لحياة الرهبنة . وكان خمسة آلاف راهب فى پروڤانس Provence يعيشون حسب ما وضعه من القواعد قبل أن يموت فى عام ٤٣٥ . وبعد عام ٤٠٠ بقليل أنشأ القديسان هونوراتوس Honoratus وكپراسيوس Caprasius ديراً على جزيرة لبرن Lérins المواجهة لمدينة كان Cannes . وكانت هذه الأديرة تعوّد الناس التعاون فى العمل ، والدرس ، والتبحر فى العلوم ، أكثر مما تعلمهم التعبد فى عزلة ، ولم تلبث أن صارت مدارس لتعليم أصول الدين ، كان لها أبلغ الأثر فى أفكار الغرب . ولما تولى القديس بندكت حكم غالة من الوجهة الدينية فى القرن التالى ، أقام حكمه على تقاليد كاسيان التى كانت من خير النظم الدينية فى التاريخ كله.

الفصل الرابع

الشرق المسيحى

١ – رهبان الشرق

لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بنى الإنسان ، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين ، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة ، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا ، وأن تشاركهم أحياناً فى هذا الاستمتاع ؛ غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى فى النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح ، واعتزمت أن تجد مكانها فى السماء عن طريق الفقر ، والعفة ، والصلاة ، فاعتزلت العالم اعتزالا تاماً . ولربما كان مبشرو أشوكا **Ashoka** (حوالى ٢٥٠ ق . م) قد جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية ؛ ولربما كان النساك الذين وجدوا فى العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس **Serapis** فى مصر أو جماعات الإسينيين فى بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة . وكان الكثيرون من الناس يرون فى الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين ؛ فلم يكن فى الدير ولا فى الصومعة الصحراوية ضرائب ، أو خدمة عسكرية ، أو منازعات حربية ، أو كدح ممل . ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته ، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام .

ويكاد مناخ مصر أن يغرى الناس بحياة الأديرة ، ولهذا غصت

بالرهبان النساك الفرادى والمتجمعين فى الأديرة يعيشون فى عزلة كما كان يعيش أنطونيوس ، أوجماعات كما كان يعيش باخوم فى تابن Tabenne . وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتى النيل ، وكان بعضها يحتوى نحو ثلثمائة من الرهبان والراهبات . وكان أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦) أشهر النساك الفرادى ، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر . وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه ، وبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين . وقلما كان يغتسل ، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمساً من السنين . ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين ، ولكنه سافر إلى الإسكندرية فى سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس . وكان يليه فى شهرته باخوم الذى أنشأ فى عام ٣٢٥ تسعة أديرة للرجال وديراً واحداً للنساء . وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحياناً ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة ، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون ، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون فى المعارك الكنسية — السياسية .

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbé Duchesne بقوله إن مكاريوس الإسكندرى « لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه » ، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير امتنع هو عن أكله سبع سنين ؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو « يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة » . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفاً طوال هذا الصوم ليلا ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب ،

ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها وهى صناعة السلال(٣٢) . ولبث ستة أشهر ينام فى مستنقع ، ويعرض جسمه العريان للذباب السام(٣٣) . ومن الرهبان من أوفوا على الغاية فى أعمال العزلة ؛ من ذلك سرابيون Serapion الذى كان يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج . ولما وصل جيروم وبولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلا لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليـــه إلا خرقة تستر حقويه ، ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر . ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشراف رومة(٣٤) . ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم(٣٥) . ومنهم من تخصصوا فى الصمت وظلوا عددا كبيراً من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة واحدة . ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقالا أينما ذهبوا . ومنهم من كانوا يشدون أعضاءهم بأطواق أو قيود أو سلاسل ؛ ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التى لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة(٣٦) . وكان النساك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام ؛ ومنهم من عمّروا طويلا . ويحدثنا جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشـــعير . ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهـــذا الترف ، وبعث به إلى ناسك آخر ، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميـــع الصحراء — (كما يؤكد لنا روفينس) ، وعاد مرة أخرى كاملا إلى مكاريوس(٣٧) . وكان الحجاج ، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق ، يعزون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل فى غرابتها عن معجزات المسيح ، فكانوا — كما يقولون — يشفون الأمراض ، ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة ؛ وكانوا يروّضون الأفاعى أو الآساد بنظرة

أو دعوة ، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية ، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم .

وكان رئيس الدير يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء ، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم . وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز فى نار مضطرمة فصدع الراهب الجديد بالأمر ، فانشقت النار حتى خرج منها بسلام . وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه فى الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهاراً ، فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا ، حتى رحمه الله فى السنة الثالثة فأزهرت[٣٨] . ويقول چيروم[٣٩] إن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل « لئلا تضلهم الأوهام الخطرة » . فنهم من كان يحرث الأرض ، ومنهم من كان يعنى بالحدائق ، أو ينسج الحصر أو السلال ، أو يصنع أحذية من الخشب ، أو ينسخ المخطوطات . وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة . على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل[٤٠] . ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان ، وقد أبت العذراء سلفيا أن تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان فى أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها . لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى آخر القرن الرابع ، وسخر الأب اسكندر من هـــذا الانحطاط فأخذ يحن إلى تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان « يغسلون وجوههم قط »[٤١] .

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم . فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والراهبات ، وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك ، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود ، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر

من المساكن ، فيقضى حياته فى الطواف فوق الجبال يطعم العشب البرى[٤٢] . ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودى Simeon Stylites (٣٩٠ ؟ — ٤٥٩) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذى يدوم أربعين يوماً . وقد أصر فى عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع فى حظيرة وليس معه إلا قليل من الخبز والماء . وأُخرج من بين الجدران فى يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء . وبنى سمعان لنفسه فى عام ٤٢٢ عموداً عند قلعة سمعان فى شمالى سوريا وعاش فوقه . ثم رأى أن هذا اعتدال فى الحياة يجلله العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمد التى يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه فى أعلاه يزيد على ثلاث أقدام ، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام . وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متوالية معرضاً للمطر والشمس والبرد ، وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود . وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حزّ فى جسمه ، فتعفّن حوله ، ونتن وكثرت فيه الديدان ، فكان يلتقط الدود الذى يتساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول : « كلى مما أعطاك الله ! » . وكان يلقى من منبره العالى مواعظ على الجماهير التى تحضر لمشاهدته ، وكثيراً ما هدى المتبربرين ، وعالج المرضى ، واشترك فى السياسة الكنسية ، وجعل المرابين يستحون فينقصون فوائد ما يقرضون من المال إلى ستة فى المائة بدل اثنى عشر[٤٣] . وكانت تقواه سبباً فى إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة ، وهى الطريقة التى دامت اثنى عشر قرناً ، ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة .

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط فى التقشف ، ولعلها كانت تحس بشىء من الفخر الوحشى فى هذا الإذلال النفسى ، وبشىء من الشراهة الروحية فى هذا الإنكار الذاتى ، وبشىء من الشهوانية الخفية فى هذا الفرار من النساء ومن العالم

كله . وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية ، وصوامعهم تتردد فيها أصداء أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية . وكانوا يعتقدون أن الهواء الذى يحيط بهم غاص بالشياطين التى لا تنفك تهاجمهم ؛ ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة فى العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات المدن . وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله ؛ فها هوذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه فى صومعته امرأة جميلة ، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها ، ثم اختفت من فوزها فى الهواء كما ظن هو . فما كان من الراهب إلا أن خرج هائماً على وجهه ، إلى أقرب قرية له ، وقفز فى فرن حمام عام ليطفئ النار المستعرة فى جسمه . وتروى قصة أخرى عن فتاة استأذنت فى الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها فرضى أن يؤويها وقتاً قصيراً ، ولكن حدث فى تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة ، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التى مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر . وحاول الراهب أن يمسك بها ، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه . ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تغنى وتهلل طرباً وتضحك من سقطته . ويقول روفينس إن الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة ؛ فقد عجز كما عجز بفنوس Paphnuce فى مسرحية تييس Thais لأناتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التى أبصرها أو تخيلها ، فغادر صومعته وانغمس فى حياة المدينة ، وسار وراءه هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم(٤٤) .

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان فى أول الأمر ؛ وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنوتية ، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها ، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم . ولم يكن فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبنة .

نعم إنها كانت تمتدح العزوبة ، والبكورية ، والفقر ، ولكن لم يكن وسعها أن تعد الزواج ، أو الأبوة ، أو الملكية من الخطايا ، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر . وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم ، ويضايقون الناس بإلحافهم فى السؤال . ومنهم من كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة ، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة ، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة ، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية ، أو يدعونهم فى بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا **Hypatia** . ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال الفردية التى يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم . وقد قرر مجلس خلقدون (٤٥١) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة ، وأن الذين يهبون أنفسهم لها لا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها ، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية .

٢ — الأساقفة الشرقيون

لقد نالت المسيحية فى الوقت الذى نتحدث عنه نصراً فى بلاد الشرق يكاد أن يكون تاما ، ففى مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط(*) هم أغلبية السكان ، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكنائس والأديرة . واعترف تسعون أسقفاً مصريا بسلطة بطريق الإسكندرية ، وهى سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة . وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس الذى حرق هيكل سرابيس الوثنى ومكتبته (٣٨٩) . وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس الأب سينسيوس **Sinesius** أسقف بطوليمايس

(*) كلمة **Copt** الأوربية مأخوذة من كلمة قبط العربية وهذه محرفة عن إيچپتوس **Aigyptos** اليونانية ومعناها مصرى .

المتواضع . وكان مولده فى قوريني (حوالى عام ٣٦٥) ، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة فى الإسكندرية على هيباشيا ، وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفى ، وكان يسميها : « الشارحة الحقة للفلسفة الحقة » . ثم زار أثينة ، وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بإمرأة مسيحية فى عام ٤٠٣ ، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكوّن من الواحـــد ، والفكر ، والنفس ، إلى الأب ، والروح ، والابن[٤٥] . وكتب كثيراً من الرسائل البديعة ، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التى لا يوجد بينها شىء ذو قيمة للقارئ فى هذه الأيام ، إذا استثنينا مقاله « فى مدح الصلع » . وفى عام ٤١٠ عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليمايس ، وكان وقتئذ من سراة الريف وممن كان مالهم أكثر من مطامعهم ، فقال إنه غير أهل لهذا المنصب ، وإنه لا يؤمن ببعث الجسم (كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية) وإنه متزوج ، ولا يريد أن يهجر زوجته . ولكن العقائد المقررة كانت فى نظر توفيلس مجرد آلات ، فغض النظر عن هذه المخالفات وعيّن سينسيوس أسقفاً قبل أن يفصل الفيلسوف فى أمره . ومن الحادثات الطريفة التى تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيباشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح[٤٦] .

وعوملت الهياكل الوثنية فى سوريا بالطريقة التى تتفق مع طباع توفيلس ، فقد صدر أمر إمبراطورى يقضى بإغلاقها ؛ وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا آلهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاة . وكان للمسيحية فى آسية زعماء أعظم حكمة من زعمائها فى مصر(*) . فمن هؤلاء باسيلى العظيم الذى تعلم فى حياته القصيرة التى لا تزيد على

(*) شغل القديس نقولا Micholas فى القرن الرابع كرسى أسقفية ميرا Myra فى ليشيا Lycia . وكان جم التواضع لم يدر قط بخلده أنه سيصبح فى يوم من الأيام القديس =

خمسين عاماً (٣٢٩؟ - ٣٧٩) البلاغة على ليبانيوس فى القسطنطينية ، ودرس الفلسفة فى أثينة ، وزار النساك فى مصر وسوريا ، ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم ، ثم صار أسقفاً لقيصرية فى كپدوكيا ، ونظم شئون المسيحية فى بلاده ، فأعاد النظر فى شعائرها ، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التى تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها ، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليونانى الصقلبى . وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية ، وأن يستعيضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع . وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة . ولا يزال الشرق المسيحى حتى الآن يعترف بما له فى المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره .

أما القسطنطينية فلم يكد يبقى فيها أثر للعبادات الوثنية . بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها . فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية ، وكانت بدع دينية خارجة على الدين لا تنقطع عن الظهور ، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصـــة فى الدين . وفى ذلك يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyassa أخو باسيلى : « هذه المدينة ملآى بالصناع والعبيد ، وكلهم من المتفقهين فى الدين الذين يعظون الناس فى الشوارع والحوانيت . فإذا طلبت إلى أحد منهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية ، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الابن والأب ، وإذا سألت عن ثمن رغيف . . . قيل لك إن الابن أقل منزلة من الأب ؛ وإذا سألت هل أعد لك الحمام ، كان الجواب أن الابن قد خلق من لاشىء »[٤٧] . وكان أول دير أنشىء فى العاصمة الجديدة هو الذى أنشأه إسحق السورى فى أيام ثيودوسيوس الأول ، وسرعان ما تضاعف

= راعى روسيا ، وراعى اللصوص ، والأولاد ، والبنات ، ثم يدخل أخيراً باسمه الهولندى — سنتا كلوز Santa Claus فى الأساطير المسيحية المنتشرة فى نصف العالم المسيحى .

عدد الاديرة فيها حتى إذا وافى عام ٤٠٠ كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنشر الرعب في المدينة ، وكان لهم شأن صاحب في النزاع القائم بين هذا البطريق وذاك وبين البطريق والإمبراطور .

وتعلم جريجورى نزيانزين مرارة الحقد الطائفى حين قبل دعوة وجهها إليه مسيحيو القسطنطينية لأن يكون أسقفاً عليهم (٣٧٩) . وكان ڤالنز قد مات تواً ، ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل ، كانوا لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية ، ويقيمون صلواتهم فى كنيسة أياصوفيا . ولذلك اضطر جريجورى أن يصنع مذبحه ويأوى أتباعه فى بيت صديق له ، ولكنه أطلق على كنيسته المتواضعة اسماً يدل على كبير أمله فيها ، فقد سماها أناستازيا Anastasia (البعث) . وكان رجلا أوتى من التقوى بقدر ما أوتى من العلم ، درس فى أثينة مع مواطنه باسيلى ، ولم يكن أحد أفصح منه إلا الرجل الذى جاء بعد خلفه . وزاد أتباعه زيادة مطردة حتى كانوا أكثر من المتعبدين فى الكنائس الرسمية . وفى عشية عيد الفصح من عام ٣٧٩ هجم جماعة من الأريوسيين على كنيسة الأناستازيا ورجموها بالحجارة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من هذا الحادث أخذ الإمبراطور ثيودوسيوس بيد جريجورى ورفعه على عرشه الخليق به فى كنيسة أياصوفيا وسط مظاهر التكريم والنصر العظيم . ولكن السياسة الكهنوتية لم تلبث أن قضت على هدوئه واطمئنانه ، فقام جماعة من شانئيه الأساقفة يعلنون أن تعيينه باطل ، وأمروه أن يدافع عن نفسه أمام مجلس دينى . ورأى جريجورى أنه أكبر من أن يدافع عن كرسيه ، فاعتزل منصبه (٣٨١) ، وعاد إلى نزيانزوس Nazianzus فى كپدوكيا ليقضى فيها الثمانى السنين الباقية من حياته بعيداً عن أعين الخلق فى عزلة وهدوء .

وخلفه فى منصبه رجل خامل غير خليق بالذكر ، ولما مات دعت الحاشية الإمبراطورية إلى كنيسة أياصوفيا قساً من أنطاكية يعرف فى التاريخ باسم

القديس يوحنا كريستوم — أى صاحب الفم الذهبى . وقد ولد حوالى عام ٣٤٥ من أسرة شريفة ، وتلقى فنون البلاغة على ليبانيوس ، وألم بالآداب والفلسفة الوثنية ، وكان الأحبار الشرقيون بوجه عام أغزر علماً وأكثر براعة فى الجدل من أحبار الغرب . وكان يوحنا رجلا قوى الذهن حاد الطبع ، أزعج أتباعه الجدد باصطناع الجد فى المسيحية ، والتنديد بمظالم العصر وفساده الخلقى بأصرح الألفاظ(٤٨) . وصف المسرح بأنه معرض للنساء الفاجرات ، ومدرسة للفسق والغوايات والدسائس . وأخذ يسائل سراة المسيحيين فى العاصمة لمَ ينفقون الكثير من أموالهم فى الخلاعة والمجون ، ولا يهبون الكثير منها إلى الفقراء كما أمرهم المسيح . ويعجب كيف يكون لبعض الناس عشرون قصراً ، وعشرون حماما ، وألف عبد ، وأبواب من العاج ، وأرض من الفسيفساء ، وجدران من الرخام ، وسقف من الذهب ؛ وينذر الأغنياء بعذاب النار لأنهم يحيون ضيوفهم بالبنات الفاسدات الراقصات(٤٩) . وكان يلوم أتباعه من رجال الدين على حياة التبطل والنعيم(٥٠) ، وعلى قيام النساء بخدمتهم فى بيوتهم الكنسيّة مما يحمل الناس على الارتياب فيهم وإساءة الظن بهم . وقد أقال ثلاثة عشر أسقفاً من الخاضعين لسلطته لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين ، وأنب رهبان القسطنطينية لأنهم يقضون فى الشوارع من الوقت أكثر مما يقضونه فى صوامعهم . وكان هو نفسه يضرب أحسن الأمثلة فى العمل بما يعظ به : فلم يكن ينفق إيراد دائرته الدينية فى المظاهر الكاذبة التى كانت من مميزات الأسقفيات الشرقية ، بل كان ينفقها فى بناء المستشفيات ، ومساعدة الفقراء . ولم تسمع القسطنطينية قبله مواعظ تضارع مواعظه قوة ، وبلاغة ، وصراحة ؛ فلم تكن مليئة بالمعنويات الدالة على التقى والورع ، بل كانت سننا مسيحية تطبق تطبيقاً صارماً إلى أقصى حدود الصرامة .

« هل فى الناس من هم أظلم من الملاّك ؟ فأنت إذا نظرت إلى الطريقة التى يعاملون بها مستأجرى أملاكهم رأيتهم أشد وحشية من البرابرة . فهم يفرضون

ضرائب فادحة لا آخر لها على الذين أنهك الجوع والكدح أجسامهم طوال حياتهم ، ثم يفرضون عليهم فوق ذلك خدمات لا طاقة لهم بها . . . يرغمونهم على العمل طوال فصل الشتاء فى البرد والمطر ، ويحرمونهم من النوم ويرسلونهم إلى بيوتهم محرومين من كل شىء . . .

« وإن ما يقاسيه أولئك الرجال على أيدى عمال الملاك من عذاب ، وضرب ، وما يرغمون على أدائه من ضرائب فادحة ، وخدمات خالية من الرحمة ، لأشدّ عليهم من ألم الجوع . ومنْذا الذى يستطيع إحصاء الوسائل التى يلجأ إليها أولئك الوكلاء لاستخدام المستأجرين فى جر المغانم لهم ثم حرمانهم من ثمار كدحهم ؟ فهم يديرون بقوة عضلاتهم ما يمتلكه أولئك الوكلاء من معاصر الزيتون ، ولكنهم لا ينالون نصيباً مهما قلّ من الزيت الذى يرغمون على تعبئته فى الزجاجات لأولئك الوكلاء ظلماً وعدواناً ؛ وهم لا يؤجرون على عملهم هذا إلا أجراً ضئيلا(٥١) » .

وبعد ، فإن جماعة المصلين فى الكنائس يحبون أن يؤنبوا ، ولكنهم لا يحبون أن يقوّموا . ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن ، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة ، وظل رجال الدين منهمكين فى شئونهم النسائية الخاصة ، وبقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة ؛ وسرعان ما وقفت كل طائفة فى المدينة ، عدا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ، تعارض الرجل ذا الفم الذهبى . وكانت الإمبراطورة يودكسيا زوجة أركاديوس تتزعم الطائفة المتنعمة من أهل العاصمة فى حياة الترف . وقد فسرت إحدى العبارات الواردة فى مواعظ يوحنا بأنها تشير إليها هى ، وطلبت إلى زوجها الضعيف أن يعقد مجلساً دينياً لمحاكمة البطريق . وأجابها الإمبراطور إلى طلبها ، وعُقدَ فى عام ٤٠٣ مجلس من أساقفة الشرق فى خلقيدون . ورفض يوحنا المثول أمامه محتجاً بأنه يجب ألا يحاكم أمام أعدائه فقرر المجلس خلعه ؛ وذهب الرجل إلى المنفى فى هدوء ، ولكن

الناس ضجوا بالاحتجاج ضجيجاً أخاف الإمبراطور ، فأرجعه إلى كرسيه .
ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى قام مرة أخرى يندد بالطبقات الغنية ، ويبدى بعض آراء انتقادية على تمثال للإمبراطورة ، فطلبت يودكسيا مرة أخرى طرده ، وقام توفيلس بطريق الإسكندرية ، وهو الرجل المتأهب على الدوام لأن يضعف الكرسى المنافس له ، يذكر أركاديوس بأن قرار خلقيدون القاضى بخلعه لا يزال قائما ، يمكن تطبيقه عليه . وأرسل الجند للقبض على كريسستوم ، ونقل الرجل إلى الضفة الأخرى من البسفور ونفى فى قرية من قرى أرمينية (٤٠٤) . ولما أن سمع أتباعه الأوفياء بهذا النبأ ثاروا ثورة عنيفة ، أحرقت فى أثنائها كنيسة أياصوفيا ومجلس الشيوخ القريب منها . وأرسل كريسستوم من منفاه رسائل استغاثة إلى هونوريوس وإلى أسقف رومة ، فأمر أركاديوس بنقله إلى صحراء پتيوس البعيدة فى پنطس . ولكن الأب المنهوك القوى مات فى الطريق عند بلدة كومانا Comana فى الثانية والستين من عمره (٤٠٧) . وظلت الكنيسة الشرقية من ذلك اليوم حتى الآن — مع استثناء فترات قصيرة — خادمة للدولة خاضعة لأوامرها .

الفصل الخامس

القديس أوغسطين

١ — الآثم

كانت أفريقية الشمالية التى وُلد فيها أوغسطين موطن خليط من الأجناس والعقائد ، امتزج فى أهلها الدم البونى والنوميدى بالدم الرومانى ، ولعلهما امتزجا فى أوغسطين . وكان كثيرون من الناس يتكلمون اللغة البونية — وهى لغة قرطاجنة الفينيقية القديمة ، وقد بلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أوغسطين وهو أسقف ألا يعين من القساوسة إلا من كان يتكلم هذه اللغة . وكانت الدوناتية فيها تتحدى الديانة القويمة ، والمانية تتحداهما جميعاً ، ويلوح أن كثرة الأهلين كانت لا تزال وثنية[٥٢] . وكان مسقط رأس أوغسطين هو بلدة تاجستى Tagaste فى نوميديا . وكانت أمه القديسة منكا Monica مسيحية مخلصة قضت حياتها كلها تقريباً فى العناية بولدها الضال والدعاء له بالهداية . أما والده فكان رجلا قليل المال ، ضعيف المبادئ ، صبرت مونكا على عدم وفائه ليقينها أنه لن يستمر على هذا إلى أبد الدهر .

ولما بلغ الغلام الثانية عشرة من عمره أُرسل إلى المدرسة فى مدورا Madaura ، ولما بلغ السابعة عشرة أُرسل ليتم دراساته العليا فى قرطاجنة . وقد وصف سلفان أفريقية بعد ذلك الوقت بقليل بأنها « بالوعة أقذار العالم » ، كما وصف قرطاجنة بأنها « بالوعة أقذار أفريقية » . ومن أجل هذا كانت النصيحة التى أسدتها مونكا لولدها وقت وداعه هى كما جاءت على لسانه

« لقد أمرتنى ، وحذرتنى فى جد وصرامة من مخالفة أمرها ، وألا أرتكب

الفحشاء ، وخاصة ألا أدنس عرض امرأة متزوجة . وخيل إلى أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة ، وأن من العار على أن أعمل بها ... واندفعت فى غوايتى اندفاع الأعمى ، حتى كنت أخجل وأنا بين لداتى من أن أرتكب ذلك الجرم الشنيع فأكون أقل منهم قحة حين كنت أستمع إليهم يتفاخرون أعظم الفخر بآثامهم ؛ نعم فقد كان تفاخرهم يعظم كلما زادت حيوانيتهم . وكنت أسر من هذه الأعمال الفاضحة ، ولم يكن ذلك لما فيها من لذة فحسب ، بل لما أناله بسببها من المديح . . . فإذا عدمت فرصة ارتكاب عمل من الأعمال الإجرامية ، التى تسلكنى مع السفلة الخاسرين . تظاهرت بأنى قد فعلت ما لم أفعله قط »[٥٤] .

وقد أظهر أوغسطين أنه تلميذ مجد فى اللغة اللاتينية ، وفى العلوم الرياضية ، والموسيقى والفلسفة « وكان عقلى القلق عاكفاً على طلب العلم »[٥٥]. ولم يكن يحب اللغة اليونانية ، ولذلك لم يتقنها أو يتعلم آدابها ، ولكنه افتتن بأفلاطون افتتانا جعله يلقبه « نصف الإله »[٥٦] ، ولم يمتنع عن أن يكون أفلاطونيا بعد أن صار مسيحيا . وقد هيأه مرانه الوثنى فى المنطق والفلسفة لأن يكون أعظم الفقهاء دهاء فى الكنيسة المسيحية .

ولما أتم دراسته أخذ يعلم النحو فى تاجستى ثم البلاغة فى قرطاجنة . وإذ كان قد بلغ وقتئذ السادسة عشرة من عمره فقد « كثر الكلام حول اختيار زوجة لى » . ولكنه فضل أن يتخذ له خليلة — وهى طريقة سهلة ترضاها المبادئ الأخلاقية الوثنية والقوانين الرومانية . وإذ لم يكن أوغسطين قد عمد بعد ، فقد كان فى وسعه أن يستمد مبادئه الخلقية أنى شاء . وكان اتخاذه خليلة له ارتقاء من الناحية الأخلاقية ، فقد انقطع بعدها عن الاختلاط الجنسى الطليق ، ويلوح أنه ظل وفيا لخليلته حتى افترقا فى عام ٣٨٥ . ووجد أوغسطين نفسه فى عام ٣٨٢ وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره أبا لولد ذكر على كره منه ؛ وقد لقب هذا الولد فى وقت من الأوقات « ابن خطيئتى » ، ولكنه كان يسميه عادة أديوداتوس

Adeodatus — أى عطية الله ، وقد أحب الولد فيما بعد حبا شديداً ، ولم يكن يسمح له أن يبتعد عنه قط .

ولما بلغ التاسعة عشرة من العمر غادر قرطاجنة إلى عالم رومة الواسع . وخشيت أمه ألا يعمد فرجته ألا يذهب إلى رومة ، فلما أصر على الذهاب ، توسلت إليه أن يأخذها معه . فتظاهر بموافقتها على توسلها ، ولكنه حين ذهب إلى الميناء تركها تصلى فى معبد صغير وأبحر دون أن يأخذها معه(٥٧) . وقضى عاماً فى رومة يعلم البلاغة ، ولكن تلاميذه لم يؤدوا إليه أجره ، فطلب أن يعين أستاذاً فى ميلان ، وامتحنه سياخوس ووافق على طلبه وأرسله إلى ميلان ببريد الدولة . وهناك لحقت به أمه الشجاعة ، وأقنعته بأن يستمع معها إلى مواعظ أمبروز ، وتأثر هو بهذه المواعظ ، ولكنه تأثر أكثر من هذا بالترنيمة التى ترنم بها المصلون . وأقنعته منكا فى الوقت عينه بأن يتزوج ، ثم خطبت له عروساً بالفعل ، وكان الآن فى الثانية والثلاثين من عمره ، وكانت عروسه بنتاً صغيرة السن عظيمة الثراء ورضى أوغسطين أن ينتظر عامين حتى تبلغ الثانية عشرة . وكان أول ما استعد به لزواجه أن أعاد حظيته إلى أفريقية ، حيث دفنت أحزانها فى دير النساء . وكان امتناعه عن النساء أسابيع قليلة كافياً لأن يسبب له انهيارا فى أعصابه ، فاستبدل بالزواج حظية أخرى ، ودعا الله قائلا : « ارزقنى العفة ، ولكنها لم يحل أوانها بعد »(٥٨) .

وقد وجد فى خلال هذه المشاغل المختلفة وقتاً لدراسة العلوم الدينية . لقد بدأ الرجل حياته بعقيدة أمه البسيطة ، ولكنه نبذها بأنفة وكبرياء حين ذهب إلى المدرسة ، ثم ظل تسع سنين معتنقا عقيدة الأثنينية المانية لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر بلا تمييز بينهما . وقضى بعض الوقت يداعب تشكك المجمع العلمى المتأخر ، ولكن مزاجه الشديد التأثر والانفعال لم يكن يطيق البقاء زمنا طويلا معلق الحكم . ودرس وهو فى رومة وميلان كتب أفلاطون وأفلوطين

وتأثرت فلسفته أشد التأثر بالأفلاطونية الجديدة ، وظلت تسيطر عن طريقه على علوم الدين المسيحية إلى أيام أبيلار Abélard . وكانت هذه الفلسفة سبيل أوغسطين إلى المسيحية . وكان أمبروز قد أشار عليه بأن يقرأ الكتاب المقدس على ضوء ما قاله بولس من أن « الحرفية تقتل ولكن الروح تعمل للحياة » . ووجد أوغسطين أن التفسير الرمزى للكتاب المقدس يزيل ما كان يبدو له فى سفر التكوين من سخف . ولما قرأ رسائل [illegible] شعُر بأنه قد وجد رجلا مرت به مثله آلاف الشكوك ، فلما ثبتت عقيدته آخر الأمر لم يكن عقلا أفلاطونياً مجرداً بل وجد كلمة الله التى أصبحت إنساناً . وبينا كان أوغسطين جالساً فى يوم من الأيام فى إحدى حدائق ميلان مع صديقه أليبيوس ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يطن فى أذنيه ويناديه : « خذ واقرأ ، خذ واقرأ » . ففتح رسائل بولس مرة أخرى وقرأ :

لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد . بل البسوا الرب يسوع المسيح ، ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات(*) .

وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد فى مشاعر أوغسطين وأفكاره

وقد وجد فى هذا الدين العجيب شيئاً أعظم حرارة وأعمق فكراً من كل ما فى منطق الفلسفة ؛ لقد جاءته المسيحية لترضى فيه عاطفته المنفعلة القوية ؛ فلما أن تخلص من التشكك الذهنى وجد لأول مرة فى حياته دافعاً خُلقيًّا قوياً ، وراحة عقلية ، وأقر صديقه أليبيوس أنه هو الآخر مستعد لأن يخضع مثله لهذا الصوت الجديد . وتلقت مُنيكا هذا الاستسلام منهما فعكفت على الصلاة حمداً لله على هذه النعمة .

(*) من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الأصحاح الثالث عشر الآية ، ١٤ . (المترجم)

وفى يوم عيد الفصح من عام ٣٨٧ عمّد أمبروز أوغسطين ، وأليپيوس وأديوداتس ، ووقفت مُنيكا إلى جانبهم أثناء التعميد فرحة مستبشرة . وصمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقية ليعيشوا فيها معيشة الرهبان . ثم ماتت منكا فى أستيا Ostia وهى واثقة من أنها ستجتمع بهم فى الجنة . ولما وصلوا إلى أفريقية باع أوغسطين ما خلفه له أبوه من ميراث صغير ووزع ثمنه على الفقراء ، ثم ألف هو وأليپيوس وطائفة من الأصدقاء جماعة دينية وعاشوا معاً فى تاجستى ، فقراء ، عزاباً ، منقطعين للدرس والصلاة ، وعلى هذا النحو وُجدت الطريقة الأوغسطينية (٣٨٨) ، وهى أقدم أخوة رهبانية فى الغرب كله .

٢ — العالم الدينى

توفى أديوداتس فى عام ٣٨٩ وحزن عليه أوغسطين كأنه لم يزل وقتئذ يشك فيما ينتظره الذين يموتون وهم مؤمنون بالمسيح من سعادة أبدية . وكان عزاؤه الوحيد فى هذا الحزن العميق هو العمل والكتابة ؛ وفى عام ٣٩١ استعان به ڤلريوس أسقف هپو Hpoo (بونة الحالية) على إدارة أبرشيته ، ورسمه قسيساً ليمكنه من القيام بهذا العمل . وكثيراً ما كان ڤلريوس يترك له منبر الخطابة ، فكانت بلاغة أوغسطين تؤثر أبلغ الأثر فى المصلين سواء فهموها أو لم يفهموها . وكانت هپو ثغراً يسكنه نحو أربعين ألفاً من السكان ، وكان للكاثوليك فيه كنيسة ، وللدوناتيين كنيسة أخرى ، وكانت بقية السكان من المانيين(*) ، أو الوثنيين . وكان فرتونانس Fartunatus الأسقف المانى صاحب السيطرة الدينية فى هذه البلدة ، ولهذا انضم الدوناتيون إلى الكاثوليك فى تحريض أوغسطين على أن يقابله فى نقاش دينى ، وقبل أوغسطين هذا الطلب ، ولبث

(*) أتباع مانى وهو من أهل همذان (إكبانانا) عاش فى القرن الثالث وكان يقول : إن كل شىء ينشأ من أصلين رئيسيين النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم)

هذان الخصمان ، أو إن شئت فقل المجالدان الجديدان يومين كاملين فى جدلهم أمام حشد كبير امتلأت به حمامات سوسيوس Socios . وفاز أوغسطين على مناظره ، فغادر فرتوناتس هپو ولم يعد إليها أبداً (٣٩٢) .

وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت طلب ڤليريوس إلى أتباعه أن يختاروا خلفه معللا طلبه هذا بشيخوخته ، فأجمعوا أمرهم على اختيار أوغسطين ، لكنه عارض فى هذا الاختيار وبكى ، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالعودة إلى ديره ، غير أنهم تغلبوا عليه ؛ وظل الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من عمره أسقفاً لهپو .

ومن هذه البقعة الصغيرة كان يحرك العالم . فبدأ عمله باختيار شماس أو شماسين ، وجاء براهبين من ديره ليساعداه فى عمله ، وعاشوا جميعاً عيشة الدير الشيوعية فى مسكنهم الكنسى ، ولذلك استولت بعض الدهشة على أوغسطين حين رأى أحد أعوانه يترك حين وفاته ميراثاً لا بأس به(٥٩) . وكانوا جميعاً يعيشون على الخضر ويبقون اللحم للأضياف والمرضى . وقد وُصف أوغسطين نفسُه بأنه قصير القامة ، نحيل الجسم ، ضعيف البنية على الدوام ؛ وكان يشكو اضطراباً فى الرئة ، وكان شديد التأثر بالبرد . وكان مرهف الأعصاب ، سريع التهيج ، قوى الخيال مكتئبه ، حاد الذهن ، مرن العقل . وما من شك فى أنه كان يتصف بكثير من الخلال المحبوبة رغم تمسكه الشديد بآرائه ، وتعسفه فى أحكامه الدينية ، وعدم تسامحه فى فى بعض الأحيان . وقبل كثيرون ممن جاءوه ليأخذوا عنه فنون البلاغة زعامته الدينية ، وظل أليپيوس من أتباعه إلى آخر حياته .

ولم يكد أوغسطين يجلس على كرسى الأسقفية حتى بدأ كفاحه الذى استمر مدى الحياة ضد الدوناتية . فكان يتحدى زعماءهم ويدعوهم إلى المناقشة العلنية ، ولكن لم يقبل دعوته إلا عدد قليل منهم ؛ ثم دعاهم إلى مؤتمرات حبية ، ولكنهم أجابوه بالصمت ، ثم بالإهانة ، ثم بالعنف ؛ وشنوا هجوماً شديداً على عدد من الأساقفة الكاثوليك فى شمالى أفريقية ؛ ويبدو أن عدة محاولات قد

بذلت لاغتيال أوغسطين نفسه[٦٠] . على أننا لا نستطيع أن نقطع فى هذا برأى حاسم لأنه ليس لدينا ما يقوله الدوناتية فى هذا الشأن ؛ وفى عام ٤١١ اجتمع مجلس دينى فى قرطاجنة استجابة لدعوة الإمبراطور هونوريوس ليضع حداً للنزاع مع الدوناتية ، وأرسل الدوناتيون ٢٧٩ من أساقفتهم ، كما أرسل الكاثوليك ٢٨٦ أسقفاً — لكننا يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لفظ أسقف لم يكن له فى أفريقية معنى أكثر من لفظ قسيس . وبعد أن سمع مرسلينوس Marcellinus مندوب الإمبراطور حجج كل من الفريقين أمر ألا يعقد الدوناتية اجتماعاً عاماً بعد ذلك اليوم ، وأن يسلموا جميع كنائسهم إلى الكاثوليك . ورد الدوناتية على ذلك بأعمال فى منتهى العنف منها ، على ما يقال ، أنهم قتلوا رستيتوتوس Restitutus أحد قساوسة هپو وبتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين ، وألح أوغسطين على الحكومة أن تنفذ قرارها بالقوة[٦١] ، وخرج على آرائه القديمة القائلة بأنه « يجب ألا يرغم أحد على القول بوحدة المسيح . . . وأنه ينبغى لنا ألا نقاتل الناس إلا بقوة الحجة ، وألا نتغلب إلا بقوة العقل »[٦٢] . وختم دعوته بقوله إن الكنيسة هى الأب الروحى لجميع الناس ، ومن ثم يجب أن يكون لها ما للأب من حق فى عقاب الإبن المشاكس لرده إلى ما فيه الخير له[٦٣] ؛ وقد بدا له أن إيقاع الأذى ببعض الدوناتية خير « من أن تنصب اللعنة على الجميع لحاجتهم إلى من يرغمهم »[٦٤] . وكان فى الوقت نفسه يكرر الدعوة إلى موظفى الدولة ألا ينفذوا عقوبة الإعدام على المارقين[٦٥] .

وإذا غضضنا النظر عن هذا النزاع المرير ، وعن المشاغل التى تتطلبها أعمال منصبه الدينى ، حق لنا أن نقول إن أوغسطين كان يعيش فى مملكة العقل وإن معظم عمله كان بقلمه . فقد كان يكتب فى كل يوم تقريباً رسالة لا يزال لها أعظم الأثر فى أصول المذهب الكاثوليكى ؛ وإن مواعظه وحدها لتملأ مجلدات ضخمة . ومع أن بعضها قد أفسدته البلاغة المصطنعة وما فيه من جمل متقابلة متوازنة ؛ ومع

أن الكثير من هذه المواعظ يبحث فى موضوعات محلية ، لا شأن لها بغير الوقت الذى قيلت فيه ، ويبحث فيها بأسلوب بسيط يتفق مع عقلية الجماعات غير المتعلمة التى كانت تستمتع إليه ، ومع هذا كله فإن الكثير من هذه المواعظ يسمو إلى منزلة عليا من الفصاحة منشؤها عاطفته الصوفية القوية ، والعقيدة الثابتة المتأصلة فى أعماق نفسه . ولم يكن فى وسعه أن يحصر عقله فى أعمال أبرشيته لأنه عقل دأب على العمل ومرن على منطق المدارس . وقد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التى كان بعضها يأخذ برقاب بعض فى أن يوفق بين العقل وبين عقائد الكنيسة التى كان يجلها ويرى أنها دعامة النظام والأخلاق الفاضلة فى هذا العالم الحرب المضطرب . وكان يدرك أن التثليث هو العقبة الكؤود فى سبيل هذا التوفيق ، ولهذا قضى خمسة عشر عاما يعمل فى أدق كتبه وأحسنها تنظيما وهو كتاب التثليث De Trinitate — الذى حاول فيه أن يجد فى التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص فى إله واحد . ومما حيره أكثر من هذه المسألة ، وملأ حياته كلها بالدهشة والمجادلة ، مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلى السابق لأعمال الإنسان . فإذا كان علم الله يشمل كل شىء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه ، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير فإن ما لديه من صورة للحوادث التى سوف تقع فى المستقبل يحتم عليها أن تقع وفقاً لهذه الصورة ، فهى إذن مقررة من قبل لا تبديل فيها ولا تغيير . فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حراً فى أعماله ؟ ألا يجب على الإنسان إذن أن يعمل وفق ما هو سابق فى علم الله ؟ وإذ كان الله عليما بكل شىء ، فقد عرف منذ الأزل المصير الأخير لكل روح خلقها ؛ فلم إذن خلق الأرواح التى قدر عليها اللعنة ؟

وكان أوغسطين قد كتب فى السنين الأولى من حياته المسيحية رسالة « فى حرية الإرادة De libero arbitrio » . حاول فيها وقتئذ أن يوفق بين وجود الشر وبين الخير الذى يتصف به الله القادر على كل شىء . وكان الحل الذى

وصل إليه فى هذه المشكلة هو أن الشر نتيجة لحرية الإرادة ؛ ذلك أن الله لا يمكن أن يترك الإنسان حراً ، دون أن يمكنه من أن يعمل الشر كما يعمل الخير . ثم تأثر فيما بعد برسائل بولس فقال إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشرى بوصمة الميل إلى الشر ، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل ، ومحو هذه الوصمة ، والنجاة منها ؛ بل الذى يمكنها من هذا هو النعمة الإلهية التى يهبها الله لكل من أراد . ولقد عرض الله هذه النعمة على الناس جميعاً ولكن الكثيرين منهم رفضوها . وكان الله يعلم أنهم سيرفضونها ، ولكن العقاب الذى قد يحل بهم نتيجة لهذا الرفض هو الثمن الذى يؤدونه لهذه الحرية الأخلاقية التى بغيرها لا يكون الإنسان إنساناً . وعلم الله السابق لا يتعارض مع هذه الحرية ، إذ كل ما فى الأمر أن الله يرى من قبل ما سيختاره الإنسان بمحض حريته(٦٦) .

ولم يبتدع أوغسطين عقيدة الخطيئة الأولى ؛ ذلك أن بولس ، وترتليان ، وسبريان ، وأمبروز كلهم قد علموها الناس ؛ ولكن الخطايا ، التى ارتكبها « والصوت » الذى هداه قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان تنزع من مولده إلى عمل الشر ، وألا شىء يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذى يهبه للناس من غير مقابل . ولم يكن فى مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء ، وحب آدم لها . ويقول أوغسطين إننا ونحن كلنا أبناء آدم ، نشاركه فى إثمه ، بل إننا فى الواقع أبناء هذا الإثم : لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ؛ وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة ، كان الجنس البشرى « جمعاً من الخاسرين » وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من الآدميين . نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ؛ وبشفاعة الأم التى حملت

فيه من غير دنس . « لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة »(٦٧) .

ولقد انحدر أوغسطين أكثر من مرة إلى مبالغات حاول فيها بعد أن يخفف منها ، وكان سبب انحداره إليها كثرة ما كتب وسرعته فى كتابته التى كثيراً ما كان يمليها إملاء كما نظن . فكان فى بعض الأحيان يدعو إلى العقيدة الكلفنية القائلة بأن الله قد اختار بمحض إرادته منذ الأزل « الصفوة » التى سيهبها نعمة النجاة(٦٨) . وقد قامت طائفة كبيرة من النقاد تصب عليه جام غضبها لأخذه بأمثال هذه النظرية ، ولكنه لم يتراجع عن شىء منها بل دافع عن كل نقطة منها إلى آخر أيام حياته . وجاءه من إنجلترا الراهب بلاجيوس Pelagius وهو أقدر معارضيه بدفاع قوى عن حرية الإنسان ، وعن قدرة الأعمال الصالحة على نجاته من العذاب . وكان مما قاله بلاجيوس إن الله فى واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا ، وبما يضربه قديسوه من الأمثلة الصالحة قولا وفعلا ، وبمياه التعميد المطهرة ، وبدم المسيح المنقذ . ولكن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها . فلم تكن ثمة خطيئة أولى ، ولم يكن هناك سقوط للإنسان ، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه ، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه(٦٩) . والله لا يُقَدِّر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار ، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيه ، بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا . ويمضى بلاجيوس فيقول إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقى إنما يلومون الله على خطايا البشر . إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً ، « وإذا كنت مرغماً فإنى قادر » .

وجاء بلاجيوس إلى رومة حوالى عام ٤٠٠ وعاش فيها مع أُسر صالحة ، واشتهر بالتقى والفضيلة . وفى عام ٤٠٩ فرَّ من ألزيك ، وكان فراره إلى قرطاجنة ثم إلى فلسطين ، حيث عاش فى سلام حتى جاء أورسيوس الشاعر الأسبانى من

عند أوغسطين يحذر منه چيروم (٤١٥)؛ وعقد مجمع ديني شرقي ليحاكم الراهب، ولكنه قرر صحة عقائده؛ غير أن مجمعاً أفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض أوغسطين ولجأ إلى البابا إنوسنت Innocent الأول فأعلن أن پلاجيوس مارق من الدين؛ وحينئذ ملأ الأمل صدر أوغسطين فأعلن أن «القضية قد أصبحت مفروغا منها Causa finita est »(*). ثم مات إنوسنت وخلفه زوسموس Zosimus وأعلن أن پلاجيوس برىء. ولجأ أساقفة أفريقية إلى هونوريوس، وسرّ الإمبراطور أن يصحح خطأ البابا؛ وخضع زوسموس للإمبراطور (٤١٨)، وأعلن مجلس إفسوس أن ما يراه پلاجيوس من أن في مقدور الإنسان أن يكون صالحا دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال.

وفي استطاعة الباحث أن يجد في أقوال أوغسطين متناقضات وسخافات بل وقسوة سقيمة في التفكير، ولكن ليس من السهل أن يتغلب عليه لأن الذي يشكل آراءه الدينية في آخر الأمر هو مغامراته الروحية، ومزاجه الجياش بالعاطفة لا تفكيره المنطقي المتسلسل. ولقد كان يعرف ما ينطوي عليه العقل البشري من ضعف، ويدرك أن تجارب الفرد القصيرة هي التي تحكم حكما طائشاً على تجارب الجنس البشري كله ويقول: «كيف تستطيع أربعون عاماً فهم أربعين قرناً؟» وقد كتب إلى صديق له يقول: «لا تعارض بحجج قوية هائجة فيما لايزال عسير الفهم عليك، أو فيما يبدولك في الكتاب المقدس ... من تباين وتناقض، بل أجّل ... في وداعة اليوم الذي تفهمه فيه»[٧١] إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم. لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن، بل آمن لكي تفهم»[٧٢]. «وقوة الأسفار المنزلة أعظم من جميع جهود الذكاء البشري»[٧٣]. لكنه يرى

(*) ليس في مقدورنا أن نجد فيما لدينا من مؤلفات أوغسطين أو في الروايات الموثوق بها عنه تلك الألفاظ التي تعزى له غالبا بهذه المناسبة وهي: «لقد تكلمت رومة وانتهت القضية» (Roma locuta est, Causa finita)

أن ليس من المحتم أن تفهم ألفاظ الكتاب المقدس حرفياً ؛ فقد كتبت أسفاره لكى تفهمها العقول الساذجة ، ولهذا كان لا بد من أن تستخدم فيه ألفاظ خاصة بالجسم للدلالة على الحقائق الروحية[٧٤] . وإذا اختلف الناس فى تفسيرها كان علينا أن نرجع إلى حكم مجالس الكنيسة أى إلى الحكمة الجامعة المستمدة من أعظم رجالها حكمة[٧٥] .

على أن الإيمان نفسه لا يكفى وحده للفهم الصحيح ؛ بل يجب أن يصحبه قلب طاهر يسمح بأن ينفذ فيه ما يحيط بنا من أشعة قدسية . فإذا تطهر الإنسان وتواضع على هذا النحو ارتقى بعد سنين كثيرة إلى الغاية الحقة وإلى جوهر الدين وهو « الاستحواذ على الله الحى » ؛ « إنى أريد أن أعرف الله والنفس ، وهل ثمة شىء أكثر من هذا ؟ لا شىء أكثر من هذا على الإطلاق »[٧٦] . إن أكثر ما تتحدث عنه المسيحية الشرقية هو المسيح ، أما علم أوغسطين فيتحدث عن « الشخص الأول » . يتحدث ويكتب عن الله الأب وإلى الله الأب . وهو لا يخلع على الله أوصافاً ، لأن الله وحده هو الذى يعرف الله حق المعرفة[٧٧] . والراجح أن « الله الحق ليس بذكر ولا بأنثى ، وليس له عمر ولا جسم »[٧٨] ، ولكن فى وسعنا أن نعرف الله ، معرفة أكيدة بمعنى ما ، عن طريق خلقه ، لأن كل شىء فى العالم أعجوبة من أعظم العجائب فى نظامها وفى وظيفتها ، ولا يمكن أن توجد إلا إذا أوجدها عقل خلاق[٧٩] ؛ وإن ما فى الكائنات الحية من نظام ، وتناسب ، واتزان ، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية يتوحد فيها الجمال والحكمة[٨٠] .

ولا شىء يضطرنا إلى الاعتقاد بأن العالم خلق فى ستة « أيام » ؛ وأكبر الظن أن الله قد خلق فى أول الأمر كتلة سديمية (nebulosa species) ، ولكن النظام البذرى ، أو المقدرة الإنتاجية rationes seminales كانت كامنة فى هذا النظام . ومن هذه القدرة الإنتاجية نشأت الأشياء كلها بعلل طبيعية[٨١] .

وكان أوغسطين يرى — كما يرى أفلاطون — أن ما فى العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولا فى عقل الله قبل أن توجد على سطح الأرض « كما يوجد تخطيط البناء فى عقل المهندس قبل أن يقيمه »(٨٢) ، ويتحدث الخلقُ فى الوقت المناسب حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة فى العقل الإلهى .

٣ — الفيلسوف

تُرَى كيف نستطيع فى هذا الحيز الصغير أن نوفى صاحب هذه الشخصية القوية وهذا القلم الخصيب حقه من التمجيد والتكريم ؟ إن هذا الرجل لم يكد يترك مشكلة دينية أو سياسية إلا جهر فيها برأيه وبحثها فى رسائله البالغ عددها ٢٣٠ رسالة ، كتبها بأسلوب يفيض بقوة الشعور الحار وبعبارات خلاّبة استعمل فيها ألفاظاً جديدة صاغها من معينه الذى لا ينضب . فقد بحث فى حياء ودهاء طبيعة الزمن(٨٣) ، وسبق ديكارت إلى قوله : « إنى أفكر ولهذا فأنا موجود » ففند آراء رجال المجمع العلمى الذين يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يكون واثقاً من أى شى ، وقال : « مَنْذا الذى يشك فى أنه حى وأنه يفكر ؟ . . . ذلك بأنه إن شك فهو حى »(٨٤) . وكذلك سبق برجسن Bergeson فى شكواه من أن العقل لطول بحثه فى الأشياء الجسمية قد أصبح مادى النزعة ؛ وأعلن كما أعلن كانت Kant أن الروح هى أكثر الحقائق كلها علماً بنفسها ، وعبر تعبيراً واضحاً عن النزعة المثالية القائلة إنه « لما كانت المادة لا تعرف إلا عن طريق العقل فليس فى مقدورنا من الناحية المنطقية أن نهبط بالعقل فنجعله مادة(٨٥) . وأشار إلى مبحث شوپنهور فى أن الإرادة ، لا العقل ، هى العنصر الأساسى فى الإنسان ، واتفق مع شوپنهور فى أن العالم يصلح إذا وقف كل ما فيه من تناسل(٨٦) .

ومن مؤلفاته كتابان يُعدان من خير كتب الأدب القديم فى العالم كله .

فاعترافاته (حوالى عام ٤٠٠) هى أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة . والكتاب موجه إلى الله مباشرة بوصفه توبة إليه من الذنوب صيغت فى مائة ألف كلمة . ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب فى صباه ، ثم يروى قصة هدايته فى وضوح ، وتتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية . إن الاعترافات كلها ستار للجريمة ، ولكن فى اعترافات أوغسطين بالذات إخلاصاً ذهل منه العالم كله . ولقد قال هو نفسه — بعد أن بلغ الرابعة والستين من عمره وأصبح أسقفا — إن الصورة الشهوانية القديمة ، « لا تزال حية فى ذاكرتى ، تندفع إلى أفكارى . . . فهى تساورنى فى نومى لا لتسرنى فحسب بل قد يبلغ بى الأمر أن أرضى عنها وأوافق عليها وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ »(٨٧) . وتلك صراحة وتحليل نفسانى لا نجدهما عادة فى الأساقفة . وكتابه هذا الذى يعد خير كتبه كلها هو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان والسلام . وإنا لنجد فى سطوره الأولى خلاصة له كله : « لقد خلقتنا يا رب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك » . ولما بلغ هذه المرحلة كانت عقيدته ثابتة لا تتسرب إليها ريبة مؤمنة بما فى خالق الكون من عدالة :

« لقد أحببتك يارب بعدفوات الأوان ، يا إلهى يا ذا الجمال التليد والطارف .. إن السماء والأرض وكل ما فيهما لتوحى إلىّ من جميع نواحىّ أن الواجب علىّ أن أحبك ... فأى شىء أحب الآن حين أحبك يا رب؟ ... لقد سألت الأرض فأجابت لست أنا الذى تحب ... وسألت البحر والأعماق البعيدة وكل ما يدب على الأرض فأجابت كلها : لسنا نحن إلهك ، فابحث عنه من فوقنا . وسألت الرياح العاصفة فأجابنى الهواء بكل ما فيه : لقد كان أنكسيمانس مخدوعاً ، لست أنا الله . وسألت السموات ، والشمس والقمر والنجوم فقالت : لسنا نحن الله الذى تبحث عنه . فأجبتها كلها ... حدثينى عن الله ، إذا لم تكونى أنت

هو فحدثيني عنه . فصاحت كلها بصوت عال : لقد خلقتنا ... وإن الذين لا يجدون السرور فى كل شيء خلقته لقوم فقدوا عقولهم ... وفى رضاك يا إلهى عنا سلامنا(*)(٨٨) .

واعترافات أوغسطين شعر فى صورة نثر ؛ أما كتابه الآخر « مدينة الله » (٤١٣ — ٤٢٦) فهو فلسفة فى صورة تاريخ . وكان الباعث له على كتابته أنه لما ترامت إلى أفريقية أنباء نهب ألريك لرومة ، وما أعقبه من فرار آلاف اللاجئين ثارت نفس أوغسطين ، كما ثارت نفوس چيروم وغيره ، لهذه الفاجعة التى بدت لهم كلهم عملاً شيطانيا لايفعله من أوتى ذرة من العقل . وتساءل الناس قائلين : لم يترك الإله الخير الرحيم تلك المدينة التى أبدع الناس جمالها وأنشأوا قوائمها وظلوا يحاولنها القرون الطوال ، والتى أضحت الآن حصن المسيحية الحصين ، لم يتركها الإله إلى البرابرة يعيثون فيها فساداً ؟ وقال الوثنيون فى كل مكان إن المسيحية هى سبب ما حل بالمدينة من دمار : ذلك أن الآلهة القديمة قد تخلت عن حماية رومة بسبب ما أصاب تلك الآلهة من نهب ، وثل لعروشها ، وتحريم لعبادتها . وكانت هذه المدينة قد نمت وازدهرت وعمها الرخاء مدى ألف عام بفضل هداية هذه الآلهة . وتزعزع إيمان كثيرين من المسيحين بسبب هذه الكارثة . وشعر أوغسطين فى قرارة نفسه بهذا التحدى ، وأدرك أن ذلك الصرح الدينى العظيم الذى شاده لنفسه على مر السنين ، يوشك أن ينهار إذا لم يعمل شيئاً يخفف من هذا الذعر المستولى على النفوس . ولهذا قرر أن يبذل كل ما وهب من عبقرية لإقناع العالم الرومانى أن هـــذه الكارثة وأمثالها لا تعيب المسيحية ولا تزرى بفضلها . وظل ثلاثة عشر عاما يواصل الليل بالنهار فى تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما كان يقوم به من واجبات وما يحيط به من مشاغل تشتت أفكاره . وكان ينشره أجزاء متقطعة فى فترات متباعدة حتى نسى وسطه

(*) انظر قول دانتى فى الجنة Paradiso (٣ : ٨٥) إن إرادته هى سلامنا .

أوّله ولم يدر ما سيكون آخره . ومن أجل هذا كان لابد أن تصبح صفحاته البالغة ١٢٠٠ صفحة سلسلة من المقالات المهوشة فى جميع الموضوعات من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب . ولم يرفعه من الفوضى السارية فيه إلى أعلى مكانة فى أدب الفلسفة المسيحية إلا عمق تفكيره وبراعة أسلوبه .

وكان جواب أوغسطين الأول عما يدور بخلد الناس من أسئلة محيرة أن ما حل برومة لم يكن عقابا لها لاعتناقها الدين الجديد بل كان جزاء لها على ما لا تنفك ترتكبه من آثام ، ثم أخذ يصف ما يمثل على المسرح الوثنى من مفاسد ، ونقل عن سالست وشيشرون ما قالاه عن مفاسد السياسة الرومانية ، وقال إن الرومان كانوا فى وقت من الأوقات أمة من الرواقيين يبعث فيها القوة رجال من أمثال كاتو وسپيو ، وكادت أن تخلق القانون خلقا ، ونشرت لواء السلم والنظام على نصف العالم ، وفى هذه الأيام القديمة أيام النبل والبطولة تجلى الله عليها بوجهه ، وأشرق عليها بنوره ، ولكن بذور الفساد الخُلُقى كانت كامنة فى دين رومة القديم نفسه ، كامنة فى ثنايا تلك الآلهة التى كانت تشجع الغرائز الجنسية بدل أن تقاومها ، تشجع الإله فرچنيوس على أن يحل حزام العذراء ، وسبجوس Subigus على أن يضعها تحت الرجل ، وپريما Prema على أن تتكئ عليها . . . وتشجع پرياپوس Priapus الذى أُمرت العروس الجديدة أن تقوم وتجلس فوق عضوه الضخم الحيوانى[٨٩] . لقد عوقبت رومة ، لأنها كانت تعبد أمثال تلك الآلهة لا لأنها غفلت عن عبادتها . ولقد أبقى البرابرة على الكنائس المسيحية وعلى الذين لجأوا إليها ، ولكنهم لم يرحموا المعابد الوثنية ، فكيف إذن يكون الغزاة صوت عذاب فى أيدى الآلهة الوثنية ؟

وكان رد أوغسطين الثانى ضربا من فلسفة التاريخ — فقد كان محاولة منه لتفسير الحوادث التى وقعت فى أزمنة التاريخ المدون على أساس عام واحد . فقد استمد أوغسطين من فكرة أفلاطون عن الدولة المثالية القائمة

« فى مكان ما فى السماء » ، ومن فكرة القديس بولس عن وجود مجتمع من القديسين الأحياء منهم والأموات[٩٠] ، ومن عقيدة تيكنيوس Tyconius الدوناتى عن وجود مجتمعين أحدهما لله والآخر للشيطان ، استمد من هذا كله الفكرة الأساسية التى قام عليها كتابه وهو أنه قصة مدينتين : مدينة أرضية يسكنها رجال هذه الدنيا المنهمكون فى شئون الأرض ومباهجها، ومدينة إلهية هى مدينة عبادالله الواحد الحق فى الماضى والحاضر والمستقبل . ولماركس أورليوس فى هذا المعنى عبارة ما أعظمها : « فى وسع الشاعر أن يقول لأثينة : أى مدينة سكربس Cecrops الجميلة ! فهلاً قلت أنت للعالم أى مدينة الله الجميلة ؟ » [٩٢] . وكان أورليوس يقصد بقوله هذا الكون المنظم كله . ويقول أوغسطين إن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة وإن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه بسبب الشياطين » . والجنس البشرى منقسم قسمين مختلفين : منهم قسم يعيش طبقاً لسنن الآدميين ، وقسم يعيش طبقاً لسنة الله . ونحن نطلق على هذين القسمين اسمين رمزيين فنسميهما « المدينتين » أو « المجتمعين » . فواحدة منهما قُدِّر لها أن تَحْكُم إلى أبد الدهر مع الله ، وأخرى قد حُكِم عليها أن تعذَّب إلى أبد الدهر مع الشيطان »[٩٣] . وليس حتما أن تنحصر المدينة أو الإمبراطورية الواقعية من جميع نواحيها فى داخل نطاق المدينة الأرضية ؛ فقد تقوم بأعمال طيبة ، فتسنّ الشرائع الحكيمة ، وتصدر الأحكام العادلة ، وتساعد الدين ، كأن هذه الأعمال الصالحة تحدث فى داخل مدينة الله ؛ كذلك ليست المدينة الروحية هى بعينها الكنيسة الكاثوليكية ، فإن الكنيسة أيضاً قد تكون لها مصالح أرضية ، وقد ينحط أتباعها فيعملون لمصلحتهم الخاصة ، ويرتكبون الذنوب ، وينحدرون من إحدى المدينتين إلى الأخرى ، ولن تنفصل المدينتان وتصبح كلتاهما بمعزل عن الأخرى إلا فى يوم الحساب[٩٤] .

وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله ، وإن أوغسطين ليجعلها

كذلك فى بعض الأحيان ، وذلك بأن تتسع عضويتها اتساعاً رمزياً للأرواح السماوية والأزواح الأرضية ، وللصالحين من الناس الذين عاشوا قبل المسيحية وفى أيام المسيحية(٩٥) . وقد احتضنت المسيحية فيما بعد هذه الفكرة القائلة بأنها هى مدينة الله واتخذتها سلاحاً أدبياً استخدمته فى الشئون السياسية ، كما أنها استنتجت استنتاجاً منطقياً من فلسفة أوغسطين عقيدة الدولة الدينية تخضع فيها السلطات الدنيوية المستمدة من البشر إلى السلطة الروحية الممثلة فى الكنيسة والمستمدة من الله . وقد قضى هذا الكتاب على الوثنية بوصفها فلسفة ، كما بدأت به المسيحية من حيث هى فلسفة ، وهو أول صياغة محددة جازمة لعقلية العصور الوسطى .

٤ — البطريق

وكان البطل المؤمن الشيخ لايزال فى منصبه حين هجم الوندال على شمالى أفريقية ، وقد بقى فى صراعه الدينى إلى آخر أيام حياته يقضى على البدع الجديدة ، ويلاقى الناقدين ، ويرد على المعترضين ، ويحل المشاكل . وكان يبحث فى جد هل تبقى النساء نساء فى الدار الآخرة ، وهل يبعث المشوهون ، والمبتورو الأعضاء ، والنحاف والسمان فى تلك الدار كما كانوا فى حياتهم الدنيوية ، وكيف السبيل إلى عودة الذين أكلهم غيرهم فى أيام القحط؟(٩٦)؛ ولكن الشيخوخة أدركته ولحقته معها إهانات محزنة ، وسئل فى ذلك الوقت عن صحته فأجاب : « أما من حيث الروح فأنا سليم . . . وأما من حيث الجسم فأنا طريح الفراش ، لا أقوى على المشى أو الوقوف أو الجلوس لإصابتى بالبواسير المتورمة . . . ومع ذلك فما دام هذا هو الذى ارتضاه لى الله ، فماذا أقول غير أنى فى حالة طيبة ؟ »(٩٧).

وكان قد بذل غاية جهده فى أن يؤجل خروج بنيفاس على رومة ، واشترك فى دعوته إلى الاحتفاظ بولائه لها . ولما تقدم جيسريك فى زحفه استشاره كثيرون

من الأساقفة والقساوسة هل يبقون فى مناصبهم أو يلجأون إلى الفرار ؟ فأمرهم بالبقاء وضرب لهم المثل بنفسه . ولما أن حاصر الوندال مدينة هپوكان أوغسطين يعمل على تقوية الروح المعنوية للأهلين الجياع بمواعظه ودعواته ، وظل كذلك حتى مات فى الشهر الثالث من أشهر الحصار فى السادسة والسبعين من عمره ، ولم يترك وصية لأنه لم يكن يمتلك شيئاً ، ولكنه كتب بنفسه قبريته : « ما الذى يثقل قلب المسيحى ؟ إن الذى يثقله هو أنه حاج مشتاق إلى بلده »(٩٨) .

وقلّ أن نجد فى التاريخ رجلاً يضارعه فى نفوذه وقوة أثره . نعم إن الكنيسة الشرقية لم تشغف بتعاليمه ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنه كان بعيداً كل البعد عن اليونانية فى قلة علمه وفى إخضاعه الفكر للشعور والإرادة ؛ كما يرجع بعضه إلى أن الكنيسة الشرقية قد خضعت قبل أيامه لسلطان الدولة . أما فى الغرب فقد طبع المذهب الكاثوليكى بطابعه الخاص ، وسبق جريجورى السابع وإنسنت الثالث فيما طلبته الكنيسة من أن تكون لها السلطة العليا على عقول الناس وعلى الدولة ، ولم تكن المعارك الكبرى التى شبت بين البابوات والأباطرة والملوك إلا نتيجة سياسية لتفكيره . ولقد ظل حتى القرن الثالث عشر المسيطر على الفلسفة الكاثوليكية ، وصبغها بصبغة الفلسفة الأفلاطونية ، وحتى أكويناس الأرسطوطيلى النزعة قد سار فى ركابه . وكان ويكلف Wyclif ، وهوس Huss ، ولوثر Luther ، يعتقدون أنهم يعودون إلى أوغسطين حين خرجوا على الكنيسة . ولقد أقام كلفن Calvin عقيدته الصارمة على نظريات أوغسطين الخاصة بالصفوة المختارة والطائفة الملعونة . وفى الوقت الذى كان يبعث رجال الفكر على التدبر والتفكير ، كان هو الملهم لمن كانت مسيحيتهم خارجة من القلب أكثر من خروجها من العقل . فكان المتصوفة يحاولون أن يترسموا خطاه وهم يتطلعون إلى رؤية الله ، وكان الرجال والنساء يجدون فى خشوعه ورقة دعواته وصلواته حاجتهم من الغذاء الروحى ومن الألفاظ القوية التى تأخذ

بمجامع القلوب ولعل سر نفوذه وسلطانه على الأجيال التالية أنه ألف بين العناصر الفلسفية والصوفية فى الديانة المسيحية ، وبعث فيها قوة لم تكن لها من قبل ، فمهد بذلك الطريق لتومس أكويناس ولتومس أكمبيس Thomas à Kempis أيضاً .

وكانت عباراته القوية العاطفية التي لا يلجأ بها إلى العقل بل إلى الشعور ، إيذاناً بانتهاء الأدب القديم ، وانتصار أدب العصور الوسطى . وإذا شئنا أن نفهم العصور الوسطى على حقيقتها وجب علينا أن ننسى نزعتنا العقلية الحديثة ، وثقتنا التي نفخر بها بالعقل والعلم ، ودأبنا فى البحث عن الثروة والسلطان والجنة الأرضية ، ثم يجب علينا بعدئذ أن ندرك مزاج أولئك الرجال الذين كانت آمالهم فى هذه المطالب ، والذين وقفوا عند نهاية ألف عام من أعوام النزعة العقلية ، ووجدوا أن جميع ما كانوا يحلمون به من قيام دولة فاضلة خالية من جميع الآلام والآثام قد حطمتها الحرب والفقر والبربرية ، فأخذوا يبحثون عن عزاء لهم فيما يؤملونه من سعادة فى الدار الآخرة ، ووجدوا لهم سلوى وراحة وإلهاماً فى قصة المسيح وفى شخصيته ، فألقوا بأنفسهم تحت رحمة الله ورضوانه ، وعاشوا حياتهم يفكرون فى وجوده السرمدى ، وفى حسابه الذى لا مفر منه ، وفى موت ابنه الذى كفر به عن خطاياهم . ويكشف أوغسطين أكثر من غيره ، حتى فى أيام سماخوس ، وكلوديان ، وأوسنيوس عن هذه النزعة ويعبر عنها أحسن تعبير . وبهذا كان أقوى وأصدق وأفصح صوت ارتفع فى المسيحية فى عصر الإيمان .

الفصل السادس

الكنيسة والعالم

كانت حجج أوغسطين ضد الوثنية آخر رد فى أعظم جدل قام فى التاريخ ، وقد بقيت بعده الوثنية بمعناها الأخلاقى أى بوصفها إطلاقاً ممتعاً للشهوات الغريزية ؛ أما بوصف كونها ديناً فلم تبق إلا فى صورة طقوس قديمة وعادات تغتفرها ، أو تقبلها ، الكنيسة الكثيرة التسامح ثم تعدلها بعد قبولها . ولقد حلت عبادة القديسين المخلصة الواثقة محل شعائر الآلهة الوثنية ، وأرضت نزعة الشرك التى توائم أصحاب العقول الساذجة أو الشعرية . وبُدِّل اسما تماثيل إيزيس وحورس باسمى مريم وعيسى ، وأصبح عيد اللوبركاليا وتطهير إيزيس عيد مولد المسيح[٩٩] ؛ واستبدلت بحفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد ، وبحفلات عيد الزهور حفلات عيد العنصرة ، وبعيد قديم للأموات عيد جميع القديسين[١٠٠] ، وببعث أتيس بعث المسيح[١٠١] . وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين ، وأدخل فى طقوس الكنيسة ما كان يغتبط به الناس فى الشعائر القديمة من بخور ، وأنوار ، وأزهار ، ومواكب ، وملابس ، وترانيم ؛ وتسامت العادة القديمة عادة ذبح الضحية الحية فكانت هى التضحية الروحية فى العشاء الربانى .

وكان أوغسطين قد عارض فى عبادة القديسين ، واحتج على ذلك بعبارات خليقة بأن ينطق بها ڤلتير فى تدشين كنيسته فى فيرنى Ferney . « علينا ألا ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة ، إنا لانريد أن نقلد أولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى ، ولهذا يجب ألا نبنى لهم معابد ، ولا نقيم لهم مذابح ، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحاً إلى الإله الواحد »[١٠٢] . لكن الكنيسة قبلت عن حكمة هذا التجسد

الذى لا بد منه فى دين الشعب . لقد قاومت فى بادئ الأمر(١٠٣) ، عبادة القديسين ومخلفاتهم ، ثم استعانت بعدئذ بها ، ثم أساءت استخدامها . وعارضت فى عبادة التماثيل والصور ، وحذرت المؤمنين من تعظيمها إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزا(١٠٤) لا أكثر ؛ ولكن قوة الشعور العام تغلبت على هذا التحذير ، وأدت إلى ذلك الإسراف الذى أثار مشاعر محطمى الصور والتماثيل الدينية البيزنطيين . كذلك قاومت الكنيسة السحر والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، ولكن آداب العصور الوسطى ، كالآداب القديمة ، ملأى بهذا كله ؛ وما لبث الشعب والقساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد فى طرد الشياطين أو إبعادها . وكانت التعاويذ تقرأ على رأس طالب التعميد ، كما كان يطلب إليه أن يغمره الماء وهو عار من جميع ملابسه حتى لا يختبئ شيطان فى ثوب يلبسه أو حلية يزين بها(١٠٥) . وأضحى العلاج بالأحلام الذى كان يسعى إليه من قبل فى هيكلى ايسكولابيوس Aesculapius موفوراً فى محراب القديسين كزمس Cosmos ودميان فى رومة ، ثم أصبح من المستطاع أن يحصل عليه فى مائة ضريح أخرى ، ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب فى هذه الأمور ، بل إن الشعب هو الذى أقنع رجال الدين بما يريد . ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال ، والحفلات والمعجزات ، والأساطير ، والخوف ، والأمل ؛ فإذا خلا الدين من هذا كله رفضه ، أو عدله حتى يدخله فيه . ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ الشعب الخائف الذى يحيط به الحرب والخراب ، والفقر والمرض ، إلى الأضرحة والكنائس الصغرى والكبرى ، وإلى الأضواء الخفية ، ونغمات الأجراس المطربة ، وإلى المواكب ، والأعياد ، والطقوس الممتعه ليجد فيها سلواه .

واستطاعت الكنيسة بالتجائها إلى هذه الضرورات الشعبية أن تغرس فى قلوب الناس مبادئ أخلاقية جديدة . فقد حاول أمبروز ، وهو الإدارى الرومانى الحازم فى جميع مراحل حياته ، أن يصوغ المبادئ الأخلاقية الرومانية

فى ألفاظ وعبارات رواقية ، وبدّل عبارات شيشرون لكى توافق حاجاته ، وكانت أخلاق عظماء المسيحيين فى العصور الوسطى ، من أوغسطين إلى سفنرولا ، وفضيلتا ضبط النفس والتمسك التام بأهداب الفضيلة وهما من المثل العليا للرواقية ، كانت هذه هى التى شكلت النمط المسيحى للأخلاق ، لكن أخلاق الرجولة لم تكن هى المثل الأعلى عند عامة الشعب ؛ لقد طال عهد الشعب بالرواقيين ، ورأوا فضائل الرجولة تصبغ نصف العالم بالدماء ، وتاقت نفوسهم إلى أساليب أرق وأهدأ من الأساليب السابقة ، يُستطاع بفضلها إقناع الناس بأن يعيشوا مستقرين مسالمين ؛ ولذلك أخذ معلمو الجنس البشرى ينشرون على الناس لأول مرة فى تاريخ أوربا مبادئ الرأفة والحنان ، والطاعة ، والخشوع ، والصبر ، والرحمة ، والطهارة ، والعفة ، والرقة ، وكلها فضائل لعلها مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للكنيسة المسيحية ومن كثرة انتشارها بين النساء ، ولكنها خليقة إلى أعظم حد بأن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية ، وأن تروض أخلاق البرابرة النهابين ، وأن تهدئ من عنف العالم المتداعى الآخذ فى الانهيار .

وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو الخاص بالمسائل الجنسية بين الرجال والنساء . ذلك أن الوثنية قد أجازت الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشاق وحدة الزواج ، فجاءت الكنيسة تشن على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها ، وتطلب إلى الرجل والمرأة أن يلتزما فى زواجهما مستوى واحداً من الوقار لا تفريق فيه بينهما . نعم إنها لم تنجح النجاح كله ؛ فقد رفعت من المستوى الأخلاقى فى البيت ، ولكن البغاء ظل على حاله ، وإن اندفع إلى الخفاء وإلى الدرك الأسفل من الانحطاط . ولعل الأخلاق الجديدة قد أرادت أن تقاوم الغريزة الجنسية التى تحللت من جميع القيود ، فتغالت فى العفة حتى جعلتها شغلها الشاغل ، وجعلت الزواج والأبوة أقل منزلة من العزوبة أو البكورية مدى الحياة ، ورفعت هذه العزوبة أو البكورية إلى مقام المثل العليا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لا بقاء لأى

مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة . على أن من اليسير أن يدرك الإنسان هذا الارتداد إلى التزمت إذا ذكرنا ما كان عليه المسرح الرومانى من فساد خلقى طليق ، وإلى ما كان فى بعض الهياكل اليونانية والرومانية من بغاء ، وإلى انتشار الإجهاض وقتل الأطفال ، وإلى ما كان يرسم على جدران بمبي من الرسوم المخلة بالآداب ، وإلى رذائل الشذوذ الجنسى التى كانت واسعة الانتشار فى بلاد اليونان والرومان ، وإلى الإفراط الشائع عند الأباطرة ، والشهوانية المنتشرة بين الطبقات العليا كما يكشف عنها كاتلوس ومارتيال ، وتاسيتوس ، وجوڤنال . ووصلت الكنيسة فى آخر الأمر إلى آراء أسلم من هذه وأحكم ، ووقفت بعد زمن ما موقفا لينا معتدلا من خطايا الجسم . غير أنه قد أسيء بعض الإساءة إلى فكرة الأبوة والأسرة ، فقد كثر فى هذه القرون الأولى عدد المسيحيين الذين يظنون أن خير ما يؤدونه من خدمات لله سبحانه وتعالى — أو على الأصح أن خير طريقة ينجون بها من عذاب النار — أن يتركوا آباءهم ، أو أزواجهم ، أو أبناءهم ، ويفروا من تبعات الحياة سعيا وراء النجاة بأشخاصهم نجاة قائمة على الأثرة المرذولة ، مع أن الأسرة كانت فى عهد الوثنية وحدة اجتماعية ودينية ؛ وكان من أعظم الخسائر أن أصبح الفرد هو هذه الوحدة فى مسيحية العصور الوسطى .

غير أن الكنيسة قد قوت الأسرة لما أحاطت به الزواج من مراسم جدية رهيبة ورفعته من تعاقد إلى عمل مقـــدس إنها جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل فرفعت بذلك كرامة الزوجة وأمنتها على مركزها . وشجعت على الصبر الذى يولده فقد الأمل . ولقد أصاب منزلة المرأة بعض الأذى القصير الأجل من جراء عقيدة بعض آباء الكنيسة المسيحية القائلة بأن المرأة أصل الخطيئة وأداة الشيطان ، ولكن هذه العقيدة قد خفف من أثرها ما تلقاه أم الإله من تكريم . ولما كانت الكنيسة قد رضيت عن الزواج ، فقد حبذت كثرة النسل وباركته ، وحرمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريما قاطعا ؛ ولعل تحريمها هذا وذاك هو الذى

حدا بعلماء الدين المسيحيين إلى إنزال اللعنة على كل طفل يموت من غير تعميد ، وإلى القول بأن جزاءه فى الدار الآخرة هو السجن فى الظلام السرمدى . وبفضل نفوذ الكنيسة جعل قلنتنيان الأول وأد الأطفال من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام .

ولم تحرم الكنيسة الاسترقاق ، بل كان أتباع الدين القويم والمارقون ، والرومان ، والبرابرة ، كان هؤلاء جميعاً يرون أن الاسترقاق نظام طبيعى لا يمكن القضاء عليه . وقام عدد كبير من الفلاسفة يحتجون على هذا الرأى ، ولكنهم هم أيضاً كان لهم عبيد . والشرائع التى سنها الأباطرة المسيحيون فى هذا الموضوع لا تسمو إلى منزلة شرائع أنطونينس پيوس أو ماركس أورليوس . مثال ذلك أن الشرائع الوثنية كانت تحكم على المرأة الحرة التى تتزوج رقيقاً بأن تكون هى الأخرى جارية ، أما قوانين قسطنطين فكانت تقضى بقتل هذه المرأة ، وإحراق العبد الذى تزوجها حياً . وأصدر الإمبراطور جراتيان مرسوماً يقضى بأن يحرق العبد حياً إذا وجه لسيده أى تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة ، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق فى صحة التهمة(١٠٦) . ولكن الكنيسة ، وإن رضيت بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب ، قد فعلت أكثر من أية هيئة أخرى فى ذلك الوقت لتخفيف شرور الرق . فقد أعلنت مثلا ، على لسان آباء الكنيسة ، المبدأ القائل بأن الناس جميعاً أكفاء ، ولعل المعنى الذى كانت تقصده من هذا اللفظ أنهم أكفاء فى الحقوق القانونية والأدبية ؛ وطبقت هذا المبدأ فرضيت أن يدخل فيها الناس جميعاً من كل الطوائف والطبقات ؛ وكان فى وسع أفقر رجل حر أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية ، وإن لم يكن فى مقدور العبد أن يكون قسيساً . وألغت الكنيسة ما كان فى الشرائع الوثنية من تمييز بين الضرر الذى يلحق بالحر ، والذى يلحق بالعبد . وكانت تشجع عتق العبيد ، فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب ، والاحتفال بحظ يصيب صاحب العبد

والقرب من كرسي القضاء الإلهي . وقد أنفقت أموالاً طائلة فى تحرير المسيحيين أسرى الحروب من الاسترقاق(١٠٧) . لكنّ الاسترقاق ، رغم هذا ، ظل قائما طوال العصور الوسطى ، ولما مات لم يكن لرجال الدين فضل فى موته .

وكان أكبر فضل للكنيسة من الناحية الأخلاقية هو ما وضعته للصدقات من نظام واسع النطاق . وكان الأباطرة الوثنيون قد قرروا إعانات من أموال الدولة للأسر الفقيرة ، كما كان أعيان الوثنيين يعينون « مواليهم » وفقراءهم : ولكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاما لتوزيع الصدقات كالنظام الذى أقامته الكنيسة ؛ فقد كانت تشجع الإيصاء بالمال للفقراء ، على أن توزعه هى عليهم . ولسنا ننكر أن بعض المفاسد والخيانات قد تسربت إلى هذا النظام ، ولكن حرص الإمبراطور يوليان على منافسة الكنيسة فى هذه الناحية يشهد بأنها قد قامت بواجبها على نطاق واسع . فقد كانت تساعد الأرامل ، واليتامى ، والمرضى ، والعجزة ، والمسجونين ، وضحايا الكوارث الطبيعية ؛ وكثيراً ما تدخلت لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال أو الضرائب الباهظة(١٠٨) . وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم كلها للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة . وخصصت كثير من النساء مثل فبيولا Fabiola ، وبولا ، وملانيا ثروات طائلة للأغراض الخيرية ، وقد حذت الكنيسة حذو الوثنيين فى إقامة المصحات والمستشفيات ، فأنشأت أو أنشأ أثرياؤها مستشفيات عامة على نطاق لم يعرف قط من قبل . فأقام باسيلى مستشفى ذائع الصيت ، كما أقام فى قيصرية بكبدوكيا أول مستشفى للمصابين بالجذام . وقامت خانات للاجئين أو أبناء السبيل على طول طرق الحجاج ، وقرر مجمع نيقية أن يقام خان من هذا النوع فى كل مدينة . واستخدمت الكنيسة الأرامل لتوزيع الصدقات فوجدن فى هذا العمل قيمة جديدة لحياة الوحدة . وكان الوثنيون يعجبون بدأب المسيحيين على العناية بالمرضى فى المدن التى يجتاحها القحط أو الوباء(١٠٩) .

هذا ما فعلته الكنيسة فى تلك العهود لأجسام الناس ، فماذا فعلت لعقولهم ؟ لقد كانت المدارس الرومانية لا تزال قائمة فى ذلك الوقت ، ولهذا لم تر من واجبها أن تعمل على ترقية العقول . هذا إلى أنها كانت ترفع الشعور فوق العقل ، وبذلك كانت المسيحية من هذه الناحية بمثابة رد فعل « إبداعى » على الإيمان « الإتباعى » بالعقل والاعتماد عليه ؛ ولم يكن روسو من هذه الناحية إلا أوغسطين مصغرا . ولم يكن يخالج الكنيسة شك فى أن بقاءها يتطلب تنظيمها ، وفى أن هذا التنظيم يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية ، وأن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررة ثابتة ، فحددت من أجل ذلك عقيدتها فى قواعد مقررة لا تبديل فيها ، وجعلت الشك فى هذه القواعد ذنباً ، وتورطت فى نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة . وادعت الكنيسة أنها قد وجدت عن طريق الوحى الإلهى جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق ، وطبيعتهم ، ومصيرهم ، وفى ذلك كتب لكتنيوس (٣٠٧) يقول : « نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته »[١١٠] وكان ترتليان قدقال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان (١٩٧) . وأراد أن يغلق باب الفلسفة أمام الناس[١١١] . وإذ كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة ، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية ، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية ؛ وضحّت بكل ما أنتجه العلم اليونانى من تقدم خلال سبعمائة عام فى سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سفر التكوين .

وبعد فهل أدت المسيحية إلى اضمحلال فى الأدب؟ لسنا ننكر أن معظم آباء الكنيسة كانوا يعادون الآداب الوثنية ؛ لأنها تسرى فيها كأنها عقيدة الشرك الشيطانية ، والفساد الخلقى المزرى بكرامة الإنسان ؛ ولكن أعظم هؤلاء الآباء كانوا على الرغم من هذا يحبون الآداب القديمة ، وكان المسيحيون أمثال فرتناتوس

وپرودنتيوس ، وچيروم ، وسيدنيوس ، وأوسنيوس ، يتطلعون إلى أن يكتبوا شعراً كشعر ڤرچيل ، أو نثراً كنثر شيشرون ؛ وإن كفة جريجورى نزينزين ، وكريسستوم ، وأمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين لترجح ، من الناحية الأدبية نفسها ، على كفة معاصريهم الوثنيين أمثال أميانوس ، وسماخوس ، وكلوديان ، ويوليان . لكن أسلوب النثر تدهور بعد أيام أوغسطين ، وتسربت من اللغة العامية إلى الكتابة اللاتينية المفردات الخشنة غير المصقولة ، وقواعد البناء الخالية من العناية والدقة ، وانحط الشعر اللاتيني فى وقت من الأوقات حتى صار مجرد نظم ركيك ، قبل أن تصاغ الأنماط الجديدة فى الترانيم الدينية الفخمة .

لكن العلة الأساسية فى تدهور الثقافة لم تكن المسيحية بل البربرية ، ولم تكن الدين بل الحروب . ذلك أن تيار البرابرة الجارف قد خرب المدن والأديرة ودور الكتب ، والمدارس ، أو أقفرها ، وجعل حياة طالب العلم أو العالم مستحيلة . ولو أن الكنيسة لم تحتفظ بقدر من النظام فى هذه الحضارة المتداعية لكان الخراب أشد والبلية أعظم ؛ وفى ذلك يقول أمبروز « لقد ظلت الكنيسة ثابتة لا تزعزعها العواصف الهوج وسط ما حل بالعلم من اضطراب ، فالفوضى ضاربة أطنابها فى كل شىء حولها ، أما هى فتقدم لجميع المنكوبين مرفأ هادياً يجدون فيه الأمن والسلامة »(١١٢). ولقد كان هذا شأنها فى معظم الأوقات .

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد رفعت العلم ، والرخاء ، والسلطان ، إلى الذروة التى بلغتها فى العهد القديم ، فلما اضمحلت الإمبراطورية فى الغرب ، وعم الفقر وساد العنف ، تطلب هذا مثلا أعلى جديداً ، وأملا جديداً ، ليكونا للناس سلوى وعزاء مما حل بهم من أرزاء ، وتشجيعاً لهم على الكدح المتواصل : فحل عصر الإيمان محل عصر السلطان . وسارت الحال على هذا المنوال فلم يرفض العقل الإيمان ، ويترك السماء لينشئ المدينة الفاضلة على الأرض ، إلا بعد أن عاد الثراء والكبرياء إلى العالم فى عصر النهضة . ولكن إذا ما خاب العقل وعجز عن حل

المشكلات ، ولم يجد العلم جواباً للأسئلة الكثيرة المحيرة ، بل زاد المعرفة والسلطان من غير أن يصلح ضمائر الناس أو يرقى بأهدافهم ، وإذا ما انهار كل ما تصوره الناس من مدائن فاضلة انهياراً تاماً لاستمرار الأقوياء على الإساءة إلى الضعفاء : إذا ما حدث هذا كله أدرك الناس لماذا ولى أسلافهم ظهورهم فى بربرية القرون المسيحية الأولى نحو العلم ، والمعرفة ، والسلطان والكبرياء ، ولجأوا مدى ألف عام إلى الإيمان ، والأمل ، والصدقات ، وما تستلزمه من تذلل وخشوع .

الباب الرابع

أوربا تتشكل

٣٢٥ – ٥٢٩

الفصل الأول

بريطانيا تصبح إنجلترا

٣٢٥ – ٥٧٧

أثرت جميع الطبقات فى بريطانيا تحت حكم الرومان عدا طبقة ملاك الأراضى الزراعية . ذلك أن الضياع الكبيرة زادت مساحتها بما نقص من مساحة الأملاك الصغرى ، فقد اشترى الملاك الكبار فى كثير من الأحيان أراضى صغار الزراع الأحرار ، وأصبح هؤلاء زراعاً مستأجرين أو من صعاليك المدن ، وأيد كثيرون من الفلاحين الغزاة الإنجليز – السكسون ضد كبار الملاك[1] . وإذا استثنينا هذه الطبقة – طبقة صغار الزراع – استطعنا أن نقول إن بريطانيا الرومانية قد عمها الرخاء ، فقد كثرت المدن ونمت ، وازداد الثراء[2] ، واستمتعت كثير من المنازل بوسائل التدفئة المركزية ، والنوافذ الزجاجية[3] ، وأقام كثير من الكبراء قصوراً ذات حدائق ، وأخذ النساجون البريطانيون من ذلك الوقت البعيد يصدرون المنسوجات الصوفية الممتازة التى لا يزال لها المقام الأول بين أقمشة العالم الصوفية . وكانت بضعة فيالق رومانية تكفى فى القرن الثالث لضمان الأمن الخارجى والسلام الداخلى .

لكن هذا الأمن أصبح فى القرنين الرابع والخامس مهدداً من جميع الجهات : فكان يهدده من الشمال بكت (Picts) كلدونيا ، ومن الشرق والجنوب المغيرون من أهل الشمال ومن السكسون ، ومن الغرب كيلْته Celt ويلز الذين لم يخضعوا للرومان ، والجيل Gaels « والاسكتلنديون » المغامرون أهل أيرلندة . وازدادت غارات « الاسكتلنديين » والسكسون على سواحل بريطانيا بين عامى ٣٦٤ ، ٣٦٧ حتى أصبحت خطراً مروعاً يتهدد البلاد ؛ وصدها الجنود البريطانيون والجيل ، ولكن هذه الغارات لم تنقطع ، واضطر استلكو إلى أن يعيد الكرة عليهم بعد جيل من ذلك الوقت . وسحب مكسموس من بريطانيا فى عام ٣٨١ والمغتصب قسطنطين فى عام ٤٠٧ الفيالق التى كانا فى حاجة إليها ليدافعا بها عن قلب الدولة وعن أغراضهما الشخصية ، ولم يرجع من هذه الفيالق بعدئذ إلى بريطانيا إلا عدد قليل . وبدأ الغزاة يجتاحون التخوم ، وطلبت بريطانيا المعونة من استلكو (٤٠٠) ، ولكنه كان منهمكاً فى صد القوط والهون عن إيطاليا وغالة . ولما استغاثوا مرة أخرى بالإمبراطور هونوريوس أجابهم بأن على البريطانيين أن يعتمدوا على أنفسهم على أحسن وجه يستطيعون(٤) . و « فى عام ٤٠٩ انتهى حكم الرومان فى بريطانيا »(٥) ، كما يقول بيدى Bede .

وألقى الزعيم البريطانى ڤرتجيرن Vortigern نفسه أمام غزوة كبرى يشنها البكت Picts ، فاستغاث ببعض قبائل الجرمان الشمالية(٦) ، فأقبل عليه السكسون من إقليم نهر الإلب Elbe ، والإنجليز من سلزوج Schleswig ، والجوت Jutes من جتلندة Jutland . وتقول بعض الروايات — أو لعلها القصص الخرافية — إن الجوت جاءوا فى عام ٤٤٩ بقيادة أخوين يسميان باسمين يدعوان إلى الريبة ، هما هنجست Hengist وهورسا Horsa ، أى الحصان والفرس . وطرد الجرمان الأشداء البكت « والاسكتلنديين » وكوفئوا على عملهم هذا بمساحات من الأراضى ، وأدركوا ما كانت عليه بريطانيا من الضعف من

الناحية الحربية ، وبعثوا بهذا النبأ السار إلى مواطنيهم فى بلادهم الأصلية[٧] .
وجاءت جموع كبيرة من الجرمان ، ونزلت على سواحل بريطانيا من غير دعوة من أهلها ، وقاومهم الأهلون بشجاعة تفوق ما كان لديهم من مهارة ، وظلوا قرناً كاملا بين كر وفر يحاربونهم حرب العصابات ، وانتهى هذا القتال بأن هزّم التيوتون البريطانيين عند ديرهام Deorham (٥٧٧) ، وأصبحت لهم السيادة على البلاد التى سميت فيما بعد أرض الإنجليز « إنجلند England أو إنجلتر Angletere » . وقبل معظم البريطانيين فيما بعد هذا الفتح ، ومزجوا دماءهم بدماء الفاتحين ، وارتدت أقلية شديدة البأس إلى جبال ويلز وواصلت الحرب ضد الغزاة ، وعبر غيرهم القناة وأطلقوا اسمهم على بريطانى Brittany فى فرنسا الحالية . وخربت مدائن بريطانيا فى خلال هذا النزاع ، واضطربت وسائل النقل ، واضمحلت الصناعة ، وفسد القانون والنظام ، وحل بالفن سبات عميق ، وطغت على مسيحية الجزيرة — وكانت لا تزال فى بداية عهدها — الآلهة الوثنية والعادات الجرمانية . وأصبحت إنجلترا ولغتها تيوتونية ، واختفت منها الشرائع والنظم اليونانية ، وحلت العشائر الفردية محل الهيئات البلدية ، ولكن عنصرا كلتيا ظل باقياً فى دم الإنجليز ، وملامحهم ، وأخلاقهم ، وأدبهم ، وفنهم ؛ وأما اللغة الإنجليزية فلم يبق فيها من هذا العنصر الكلتى إلا القليل الذى لا يكاد يذكر ، وأمست اللغة الإنجليزية فى هذه الأيام مزيجاً من اللغتين الألمانية والفرنسية .

وإذا شئنا أن نعرف ما كان يسود تلك الأيام المريرة من اضطراب وثوران فى النفوس فعلينا أن ننتقل من التاريخ إلى قصص الملك آرثر Arthur وفرسانه ، وما كالوه من الضربات الشداد « لتحطيم الكفرة وتأييد المسيح » . ويحدثنا القديس جلداس St. Gildas وهو راهب من ويلز فى كتاب له عجيب « عن

« تدمير بريطانيا On the Destruction of Britain » (٥٤٦ ؟) خلط فيه التاريخ بالمواعظ ، يحدثنا عن « حصار منزبادنكس Mons Badonicus » في تلك الحروب ، كما يحدثنا مؤرخ بريطاني بعده يدعى ننيوس Nennius (حوالى ٧٩٦) عن اثنتى عشرة معركة حارب فيها الملك آرثر كانت آخرها عند جبل بادون Mt. Dadon بالقرب من باث Bath[٨] . ويورد چفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth (١١٠٠ ؟ — ١١٥٤) تفاصيل روائية يصف فيها : كيف خلف الملك آرثر والده أثر پندراجون Uther Pendragon على عرش بريطانيا ، وكيف قاوم الغزاة السكسون ، وفتح أيرلندة ، وأيسلندة ، والنرويج ، وغالة ، وحاصر باريس فى عام ٥٠٥ وطرد الرومان من بريطانيا ، وقمع فتنة أوقد نارها مدرد Modred ابن أخيه كلفته كثيراً من الخسائر فى الأنفس ، وقتله فى واقعة ونشستر Winchester التى جرح فيها هو جرحاً بليغاً مميتا ، مات من أثره فى السنة الثانية والأربعين بعد الخمسمائة من تجسد إلهنا »[٩] . ويحدثنا كاتب آخر يدعى وليم من أهل ملمزبرى Malmesbury (١٠٩٠ ؟ — ١١٤٣) فيقول :

ولما مات ڤرتمر Vortimer (أخو ڤرتچيرن Vortigern) ، اضمحلت قوة البريطانيين ، ولولا ما قام به أمبروزيوس Ambrosius ، الذى بقى وحده من الرومان ... من صد تيار البرابرة المتغطرسين بفضل ما قدمه له الملك آرثر صاحب البأس الشديد من معونة صادقة ، لولا هذا لهلك البريطانيون على بكرة أبيهم . وقضى آرثر زمناً طويلا يدعم كيان الدولة المنهارة ، ويثير روح مواطنيه المحطمة ويحرضهم على القتال . ثم نازل بمفردة فى آخر الأمر ٩٠٠ من الأعداء معتمداً على صورة للعذراء ثبتها فى درعه ، وبدد شملهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة لا يصدقها العقل[١٠] .

فلنقل مع القائلين أن هذا لا يصدقه العقل . وعلينا أن نقنع بأن آرثر شخصية غامضة ، ولكنه على أية حال شخصية تاريخية اتصفت بأهم الصفات الجوهرية التي يحدثنا عنها الكتاب ، وأنه عاش في القرن السادس ؛ والراجح أنه لم يكن من القديسين، أو من الملوك . أما فيما عدا هذا فلنتركه إلى كرتين Chrétien من أهل تروى ، وإلى ملورى Malory الكاتب المطرب المبدع وإلى تنيسن Tennyson العف الطاهر .

الفصل الثانى

أيرلنـــدة

١٦٠ — ٥٢٩

يقول الأيرلنديون — ولا نستطيع أن نكذبهم فيما يقولون — إن جزيرتهم جزيرة « الضباب والفاكهة الرطبة » قد سكنها فى أول الأمر اليونان والسكوذيون قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر ، وإن زعماءهم الأولين ، كتشلين Cutchalain ، وكونور Conor ، وكونال Conall ، من أبناء الآلهة(١٢) . وقد مس هملكو Himilco المستكشف الفينيقى أرض أيرلندة حوالى عام ٥١٠ ق . م ووصفها بأنها بلاد خصبة كثيرة السكان »(١٣) ولعل جماعة من المغامرين الكلت قد عبروا البحر إلى أيرلندة من غالة أو بريطانيا أو منهما معاً فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وغلبوا الأهلين الأصليين الذين لا نعرف عنهم شيئاً . ويبدو أن قد جاءوا معهم إلى أيرلندة بثقافة عصر الحديد الهولستاتية Hallstatt ، كما جاءوا معهم بنظام قوى من الصلات العائلية يجعل الفرد فخوراً بقبيلته فخراً يمنعه أن يكون دولة مستقرة ؛ وظلت القبائل تحارب بعضها بعضاً ، والممالك تقتتل نحو ألف عام ، فإذا سكتت حرب القبائل أو الممالك فترة من الزمان اقتتل أفراد القبائل فيما بينهم ؛ فإذا ماتوا دفن الأيرلنديون الصالحون قبل أيام القديس باترك Patrick واقفين متأهبين للقتال ، ووجوههم متجهة نحو أعدائهم(١٤) . وقد مات معظم ملوك البلاد فى المعارك الحربية أو اغتيلوا(١٥) .وتقول الروايات الأيرلندية إنه كان من حق هؤلاء الملوك أن يفضوا بكارة كل زوجة قبل أن يسلموها إلى زوجها ، ولعلهم كانوا يفعلون هذا لأنه فريضة تتطلبها الرغبة فى تحسين النسل ، أو لعلهم

كانوا يفعلونها بوصفهم خدام الآلهة الذين يتطلبون أن يجنوا هم أولى الثمار وقد وُجِّه إلى الملك كنكوبار Conchobar أعظم الثناء لحرصه الشديد على أداء هذا الواجب(١٦) . وكانت كل قبيلة تحتفظ بسجل لأفرادها ، ونسبهم ، ولملوكها ووقائعها الحربية ، وتاريخها القديم « منذ بداية العالم »(١٧) .

وفرض الكلت سلطانهم على البلاد بوصفهم الطبقة الحاكمة ، ووزعوا قبائلهم فى خمس ممالك ؛ ألستر Ulster ، ولينستر Leinster الشمالية ، ومونستر Munster ، وكنوت Connaught . وكان كل ملك من هؤلاء الملوك تام السيادة فى مملكته ، ولكن القبائل كلها رضيت أن تكون تارا Tara من أعمال ميث Meath عاصمتها القومية ، فيها يتوج كل ملك من الملوك ، وفيها يجمع فى بداية حكمة الفيس Feis أو مؤتمر أعيان أيرلندة كلها لإقرار التشريعات التى تخضع لها الممالك بأجمعها ، ولتصحيح أنساب القبائل وتدوينها ، ثم تسجيلها فى المحفوظات الأهلية . وشاد الملك كرماك ماك إيرت Cormac Mac Airt فى القرن الثالث بهواً كبيراً لا يزال أساسه باقياً حتى الآن لتعقد فيه جلسات هذا المؤتمر . وكان مجلس إقليمى يدعى الأوناك Aonach يجتمع مرة كل سنة أو كل ثلاث سنين فى عاصمة كل مملكة ، ليسن قوانينها ، ويقر الضرائب التى يجب على أهلها أداؤها ، ويقوم بوظيفة محكمة الإقليم . وكانت الألعاب والمباريات تسير على النمط التقليدى الآتى : الموسيقى ، والغناء ، وألعاب الشعوذة ، والتمثيل الهزلى ، والقصص ، وإنشاد الشعر ، وكانت تعقد فى أثنائها الزيجات فتزيدها بهجة ، وكان عدد كبير من السكان يشتركون فى هذه الحفلات . ويبدو لمن يرجع بفكره من خلال القرون الطوال ، التى تخلع على القديم رواء وسحراً ، إلى هذا التوفيق بين الحكومة المركزية والحرية الإقليمية أنه هو المثل الأعلى للنظم الحكومية . وظل المؤتمر (الفيس feis) قائماً حتى عام ٥٦٠ ، أما المجلس المحلى (الأوناك Aonach) فقد بقى حتى عام ١١٦٨ .

وأول شخصية نستطيع أن نعدها واثقين شخصية تاريخية بحق هى شخصية تواثال Tuathal الذى حكم لينستر Leinster وميث حوالى عام ١٦٠ م . ومن ملوك أيرلندة أيضاً الملك نيال Niall (حوالى ٣٥٨) الذى غزا ويلز وعاد منها بغنائم لا تحصى ، وأغار على غالة ، ثم قتله رجل من أهل أيرلندة عند نهر اللوار . وكان معظم ملوك أيرلندة الذى جاءوا بعده من نسله . وفى السنة الخامسة من حكم ولده ليجير Laeghaire (ليرى Leary) وفد القديس پتريك على أيرلندة . وكان الأيرلنديون قد استنبطوا لهم حروفاً هجائية مكونة من خطوط مستقيمة ؛ وكان لهم أدب واسع من شعر وقصص يأخذه الناس مشافهة بعضهم عن بعض ، وكانت لهم مصنوعات طيبة من الخزف والبرنز والذهب . وكان دينهم من أديان الشرك وعبادة الطبيعة ؛ فكانوا يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من مختلف الأجسام الطبيعية ، وقد أسكنوا بقاعاً لا حصر لها فى أيرلندة بالجن والشياطين والعفاريت . وكانت طائفة من الكهنة ذوى الثياب البيض تتنبأ بالغيب ، وتسيطر فى زعمها على الشمس والرياح بعصى وعجلات سحرية ، وتنزل أمطاراً وتوقد نيراناً سحرية ، وتحفظ أخبار القبائل وأشعارها عن ظهر قلب ، وتلقنها إلى من يأتون بعدها ، وتدرس مواقع النجوم ، وتعلم الشبان ، وتسدى النصح إلى الملوك ، وتجلس للقضاء بين الناس ، وتسن الشرائع ، وتقرب القرابين للآلهة من فوق مذابح قائمة فى الهواء الطلق . وكان من بين أوثانهم المقدسة تمثال مغطى بصفائح الذهب يسمونه كرم كرواك Crom Cruach ؛ وكان هو إله جميع القبائل الأيرلندية ؛ ويلوح أنه كان يُقَرَّب إليه الابن الأول الذى يولد لكل أسرة فى البلاد[١٨] — وربما كان منشأ هذه العادة الرغبة فى الحد من كثرة النسل . وكان الأيرلنديون يؤمنون بتجسد الأرواح بعد الموت ، ولكنهم كانوا يحلمون بوجود جزيرة سماوية وراء البحر ، « ليس فيها عويل أو غدر ، ولا خشونة أو عنف ، بل فيها موسيقى حلوة تشنف الأسماع ، وفيها أرض جميلة عجيبة ذات منظر لا يدانيه شىء آخر فى روعته

ومياته »[١٩] ». وتقول إحدى القصص إن الأمير كونال Conall تأثر بهذا الوصف فأبحر فى قارب من اللؤلؤ ليكشف هذه الجزيرة السعيدة .

وكانت المسيحية قد دخلت إنجلترا قبل قدوم القديس پتريك إليها بنحو جيل أو أكثر من جيل . وقد ورد فى أحد التواريخ الإخبارية ، التى يؤيدها بيدى ، ضمن حوادث عام ٤٣١ أن « البابا سلستينى Celestine قد رسم پلديوس Palladius أسقفاً وأرسله إلى من يؤمنون بالمسيح من الأيرلنديين ليكون أول أسقف لهم » ، لكن پلديوس توفى فى ذلك العام ذاته ونال القديس پتريك راعى أيرلندة وحاميها شرف اعتناق أيرلندة المذهب الكاثوليكى الذى لم تتحول عنه قط .

وكان مولده حوالى عام ٣٨٩ فى قرية بناڤنتا Bonnaventa من قرى غربى إنجلترا ، من أسرة متوسطة الثراء والجاه . وإذ كان الطفل ابن مواطن رومانى فقد سمي باسم رومانى هو پتريكيوس Patricius . ولم ينل من التعليم إلا قسطاً قليلا ، ولهذا كان يعتذر للناس عن خشونته ، ولكنه درس الكتاب المقدس دراسة متقنة يستطيع معها أن يورد منه شواهد من الذاكرة فى كل ما يعرض له من المناسبات . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أسره جماعة من المغيرين « الأسكتلنديين » (أى الأيرلنديين) وجاءوا به إلى أيرلندة ، حيث أقام ست سنين يرعى الخنازير[٢١] . و « تحول » فى هذه الساعات التى كان يقضيها بعيداً عن الخلق فتبدلت حاله من عدم المبالاة بشئون الدين إلى الصلاح البالغ الحد ؛ ويقول هو عن نفسه إنه كان يستيقظ فى كل يوم قبل الفجر ، ثم يخرج للصلاة مهما يكن الجو — سواء كان يتساقط فيه البرد أو المطر أو الثلج . ثم استطاع آخر الأمر أن يفر ، واتخذ سبيله إلى البحر ، وعثر عليه جماعة من الملاحين فى مكان مقفر ، فأخذوه معهم إلى غالة أو لعلهم أخذوه إلى إيطاليا . ثم تمكن من أن يسلك سبيله إلى إنجلترا ، وأن ينضم مرة أخرى إلى أسرته ، وأن يعيش معها بضع سنين .

ولكن شيئاً ما دعاه أن يعود إلى أيرلندة — وقد يكون هذا الشيء هو ذكرى جمالها الريفي ، أو طيبة قلوب أبنائها وحنوهم . وفسر هو هذا الإحساس بأنه رسالة إلهية ، تدعوه إلى نشر المسيحية بين الأيرلنديين . فذهب من ليرنز Lerins وأوكسير Auxerr ودرس اللاهوت ، ورسم قسيساً . ولما وصل إلى أوكسير نبأ وفاة پلديوس ، عين پتريك أسقفاً ، وأعطى بعض مخلفات بطرس وبولس ، وأرسل إلى أيرلندة (٤٣٢) .

ووجد فيها ملكاً وثنياً مستنيراً يدعى ليچير يجلس على عرش تارا . وعجز پتريك عن هداية هذا الملك إلى الدين المسيحي ، ولكنه حصل على عهد منه بأن يكون له مطلق الحرية في التبشير بهذا الدين . وقاومه كهنة البلاد ، وعرضوا على الناس سحرهم . وقابل پتريك عملهم هذا بأن عرض على الأهلين تعاويذ طاردي الأرواح الخبيثة ، وهم طائفة من صغار الكهان جاء بهم معه ليستعينهم على طرد الشياطين . ويحدثنا پتريك في « الاعترافات » التي كتبها حين تقدمت به السن عما تعرض له من الأخطار في عمله فيقول : إن حياته تعرضت للخطر اثنتي عشرة مرة ؛ وإنه هو ورفاقه قبض عليهم في يوم من الأيام ، وظلوا في الأسر أسبوعين ، وهددوا بالقتل ؛ ولكن بعض أصدقائهم أفلحوا في إقناع من قبضوا عليهم بإطلاق سراحهم[٣٢] . وتقص الروايات المتواترة الصادرة عن بعض الأتقياء الصالحين من الكتاب مئات من القصص المدهشة عن معجزات پتريك . من ذلك ما قاله ننيوس Nennius من أنه « رد البصر للعمى والسمع للصم[٣٣] ، وطهر المجذومين ، وأخرج الشياطين ، وأعاد الأسرى ، وأحيا تسعة من الموتى ، وكتب ٣٦٥ كتاباً » . ولكن أغلب الظن أن أخلاق پتريك لا معجزاته هي التي هدت الأيرلنديين إلى الدين المسيحي — هدتهم ثقته التي لا تتزعزع بعقيدته ، ودأبه على عمله وتحمسه له . ولم يكن الصبر من طبعه ، وكان استعداده لأن يصب اللعنات لا يقل عن استعداده لمنح البركات[٣٤] . على أن هذا العمل نفسه كان

يصدر عن إقناع تمليه عليه عقائده الواثق بها والتي لا يقبل فيها جدلا . وكان يعين القساوسة ، ويشيد الكنائس ، وينشىء الأديرة للرجال والنساء ، ويترك حاميات روحية قوية لتقوم بحراسة فتوحه الدينية في كل مكان غزاه ، وجعل الناس يظنون أن قبولهم في دولته الكهنوتية مغامرة من أسمى المغامرات وأجلها خطراً ، وجمع حوله رجالا ونساء من ذوى الشجاعة والإخلاص ، يتحملون جميع ضروب الحرمان ليبشروا الناس بأن الإنسان قد نجا من الخطيئة . على أن پتريك لم يهد أيرلندة كلها ، بل بقيت فيها للوثنية جيوب منعزلة ، كما بقى لها شعرها ، ولا تزال فيها إلى الآن آثار من الدين القديم ، لكنه حين وافته منيته (٤٦١) كان يمكن أن يقال عنه ، ما لا يمكن أن يقال عن رجل غيره . وهو أن رجلا واحداً قد هدى أمة بأجمعها .

وأقرب الناس بعده لقلوب الأيرلنديين امرأة كان لها أكبر الفضل في تثبيت دعائم نصره ، تلك هي القديسة بردچد Brigid . ويقال إنها ابنة عبد ومِلك ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً موثوقاً به قبل أن تترهب في عام ٤٧٦ . وقد استطاعت أن تنشىء «كنيسة شجرة البلوط» . (كل دارا Cill-dara) بعد أن تغلبت على عقبات يخطئها الحصر ، ولا يزال الموضع الذي أقامتها فيه يسمى بهذا الاسم كلدير Kildare حتى اليوم . وسرعان ما استحالت الكنيسة ديراً للرجال وللنساء ، ومدرسة لا تقل شهرة عن المدرسة الأخرى التي قامت في أرماغ Armagh . وتوفيت بردچد في عام ٥٢٥ ، معززة مكرمة من جميع الأيرلنديين ، ولا يزال عشرة آلاف من الأيرلنديات يسمين باسم مارى الجيلية Mary of Gael . ويعد جيل من ذلك الوقت صب القديس روادهان لعنة على تارا ، ثم هجرت الأبهاء القديمة بعد عام ٥٥٨ حين مات الملك ديرمويد Diarmuid ، واعتنق ملوك أيرلندة الدين المسيحي وإن ظلوا مع هذا وثنيين في ثقافتهم .

الفصل الثالث

بداية تاريخ فرنسا

١ — الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة

كانت غالة فى القرنين الرابع والخامس أكثر الولايات الغربية فى الإمبراطورية الرومانية رخاء من الناحية المادية وأعظمها رقياً من الناحية العقلية . فقد كانت تربتها خصبة كريمة ، وصناعاتها اليدوية متقدمة ، وأنهارها وبحارها تعج بالمتاجر وكان فى نربونه وأرليز ، وبردو ، وطولوز (طلوشة) ، وليون ، ومرسيلية ، وبواتيه ، وتربيه جامعات مزدهرة تنفق عليها الدولة ، وكان للمدرسين ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء منزلة لا ينالها فى العادة إلا رجال السياسة والملاكون . وفى أيام أوسنيوس وسيدنيوس عقد لغالة لواء الزعامة الأدبية فى أوربا كلها .

وكان ديسموس مجنوس أوسنيوس Deecimus Magnus Ausonius شاعر العصر الفضى فى غالة ، وفيه تتمثل روح هذا العصر . وقد ولد فى بردو حوالى عام ٣١٠ ، وكان والده كبير أطبائها ، وفيها تلقى علومه ، وقد حدث العالم فيما بعد فى شعر كريم سداسى الأوتاد عن فضائل معلميه ، ذكر فيه بسماتهم وأغفل ضرباتهم(٢٥). وسارت حياته بعدئذ سيراً هادئاً مطمئناً حتى عين أستاذاً فى بردو وظل يعلم « النحو » (وكان يقصد به وقتئذ الأدب) و« البلاغة » (أى الخطابة والفلسفة) نحو ثلاثين عاماً ، وكان مربياً للإمبراطور جراتيان قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية . وإن فيما كتبه عن والديه وأعمامه وأخواله ، وزوجته ، وأبنائه وتلاميذه ما يوحى بأن حياته فى البيت وفى خارجه كانت شبيهة بحياة المدن الجامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر . وهو يصف بعبارات جذابة البيت والحقول التى ورثها عن أبيه ، ويحدثنا عن المكان الذى يرجو أن

يقضى فيها أخريات أيامه ، ويقول لزوجته فى سنى زواجهما الأولى :
« فلنعش على الدوام كما نعيش الآن ، ولنحتفظ بالاسمين اللذين سمى بهما
كلانا الآخر فى بداية حبنا . . . ويجب أن يبقى كلانا فى سن الشباب ،
وستكونين على الدوام جميلة فى عينى ، وعلينا ألا نحسب حسابا لمر
السنين »[٢٦] . على أنهما سرعان ما فقدا أول طفل رزقه منها ، وقد كتب
يحيى ذكراه بعبارات تفيض بالحب فقال : « لن أتركك دون أبكيك يا بكر
أبنائى وياسمى . لقد اختطفك الموت منا فى الوقت الذى كنت تحاول فيه أن تبدل
لغطك إلى أولى كلمات الطفولة ... إنك الآن ترقد على صدر والد جدك الذى
تشاركه قبره »[٢٧] . وماتت زوجته ولما يمض على زواجهما الموفق إلا زمن
قليل ، وتركت له ابنا وبنتاً ؛ وقد بلغ من حبه ووفائه لها أنه لم يتزوج
قط بعدها ؛ ووصف فى شيخوخته ألمه لفقدها ولوعته التى لم يخففها مر
السنين ، كما وصف السكون المحزن المخيم على بيتهما الذى طالما عرف
عناية يديها وأحس بنغم وقع قدميها .

وكان الناس فى أيامه يحبون قصائده لما فيها من عواطف رقيقة ،
وصور ريفية جميلة ، وللغتها اللاتينية الخالصة ، ولشعرها الذى لا يكاد يقل
فى رقته عن شعر فرچيل .

وكان پولينس ، الذى أصبح فيما بعد من القديسين ، يشبه نثره بنثر
شيشرون ، وكان سماخوس يقول إنه لا يستطيع أن يجد فى شعر فرچيل
شيئاً أجمل من قصيدة موزلا Mosella التى وصف فيها أوسنيوس نهر
الموزل . وكان الشاعر قد أولع بذلك النهر حين كان مع جراتيان
فى تربيه . ويقول فى وصفه إنه يجرى وسط جنة حقة من الكروم ،
والبساتين والقصور الصغيرة ذات الحدائق ، والمزارع الفاخرة الغنية .
ونكاد نحس فى وقت ما بخضرة شواطئه ، وموسيقى جريانه . ثم لا يلبث
أن يتدلى من هذا المستوى الرفيع فيصف فى عبارات تتكرر مراراً ما فى
مجرى النهر من سمك لطيف . وتذكرنا هذه الرغبة الجامحة فى ذكر الأقارب

والمدرسين ، والتلاميذ ، والسمك بكتابات هوتمان Whitman ولكنها ينقصها شعور هوتمان الفياض وفلسفته القوية اللذين يخففان من سآمتها . وسببه ذلك النقض أن أوسنيوس بعد أن ظل ثلاثين عاما يعلم النحو كان يصعب عليه أن يضمن عباراته شيئاً غير العاطفة الأدبية . فقصائده مسبحة صداقة ، وأوراد مدح ، ولكن اللذين لم يعرفوا منا أمثال أولئك الأعمام والأخوال اللذين نفتتن بحبهم ، أو الأساتذة الذين يُغرونا بتمجيدهم قلما يتأثرون بهذا المديح .

ولما توفى ڤلنتنيان الأول (٣٧٥) ، وجلس جراتيان على عرش الإمبراطورية استدعى إليه معلمه القديم ، وأفاض عليه وعلى من معه كثيراً من المنح السياسية . فعين أوسنيوس حاكما على إليركم Illyricum ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغالة ، واحدة بعد واحدة فى فترة قصيرة ، ثم عين آخر الأمر قنصلا وهو فى سن التاسعة والستين ، وبفضل مشورته أصدر جراتيان مراسيم تفرض إعانات من الدولة لشئون التعليم ، وللشعراء ، والأطباء ، ولحماية روائع الفن القديم . وبفضل نفوذه أيضاً عين سماكس حاكما على رومة ، وپولينس والياً على إحدى الولايات وحزن أوسنيوس حين اعتزل پولينس شئون الدنيا وانقطع للدين ، لأن الإمبراطورية المهددة من جميع نواحيها كانت فى حاجة إلى أمثاله . نعم إن أوسنيوس نفسه كان أيضاً مسيحياً ، ولكنه لم يكن جاداً كل الجد فى مسيحيته ، فقد كانت ميوله ، وموضوعات شعره ، وأوزانه ، وما فيه من أساطير كلها وثنية سارة مطربة .

ولما بلغ الشاعر الشيخ سن السبعين عاد إلى بردو حيث عاش عشرين سنة أخرى . وكان وقتئذ حيا ، فى وسعه أن يوفق فى قصائد البنوة التى نظمها فى شبابه وبين حب الأجداد لأحفادهم حين يبلغ هؤلاء الأجداد الشيخوخة . انظر إليه وهو يقول لحفيده : « لا تخف ، وإن كان صدى الضربات الكثيرة يتردد فى المدرسة ، وإن تجهم وجه المدرس ، ولا ترتعد فرقاً إذا سمعت فى أثناء ساعات الصباح صراخاً أو طرق أذنيك صوت العصا ، فإذا كان المدرس يتخذ العصا

صولجاناً يهزه بيده ، وإذا رأيت لديه مجموعة كاملة من العصي ... فليس هذا وذاك إلا مظهراً خارجياً يبعث به الخوف الكاذب في النفوس . لقد مر أبوك وأمك بهذا كله في أيامهما ، ثم عاشا بعدهما ليخففا عني في شيخوختي الهادئة الصافية عبء السنين »[٢٨] . وما أسعد حظ أوسنيوس إذ عاش ومات قبل أن يجتاح البلاد تيار البرابرة الجارف .

وكانت منزلة أبلينارس سيدونيوس Appollinaris Sidonius في النثر الغالي أثناء القرن الخامس كمنزلة أوسنيوس في الشعر الغالي في القرن الرابع : لقد خرج سيدونيوس على العالم فجأة من مدينة ليون (٤٣٢) حيث كان يقيم أبوه حاكم غالة . وكان جده قد شغل هذا المنصب نفسه قبل أبيه ، وكانت أمه من أقارب أفتوس Avitus الذي يجلس على عرش الإمبراطورية في عام ٤٥٥ . والذي تزوج سيدونيوس بابنته عام ٤٥٢ . وكانت كل هذه سبلا ممهدة يصعب على الإنسان أن يجد خيراً منها . وجاءت إليه بيانلا بابنته هي قصر ريفي مترف بالقرب من كليرمنت Clermont ؛ وقد قضى عدداً من سني حياته في الذهاب لزيارة أصدقائه من النبلاء والعودة من هذه الزيارات . وكان أولئك الأصدقاء أناساً ذوي ثقافة ورقة يميلون إلى الدعة والمغامرة[٢٩] ، يعيشون في بيوتهم الريفية ، وقلما يغمسون أيديهم في رجس السياسة . وكان في وسعهم أن يحموا حياتهم الناعمة المترفة من الغزاة القوط ؛ ولم يكونوا يهتمون بحياة المدن ، فقد أخذ ذوو الثراء الواسع من الإنجليز والفرنسيين من ذلك العهد يرون ما في حياة الريف من متع لا توجد في المدن . وقد جمعت هذه البيوت الريفية المنبسطة ذات الحدائق كل وسائل الراحة وأسباب الجمال ، من أرض مرصوفة بالفسيفساء ، وأبهاء ذات عمد ، وجدران منقوشة عليها مناظر طبيعية ، وتماثيل من الرخام أو البرنز ومواقد فخمة ، وحمامات ، وحدائق وملاعب للتنس[٣٠] ، ومن حولها غياض يستطيع الرجال والسيدات أن يصيدوا فيها ويطلقوا البزاة . وكان بعضها يحتوى ١٢٥ حجرة ، وفي كل منها

إلا القليل النادر مكتبة عامرة بالكتب ، فيها كتب الوثنيين القديمة وبعض النصوص المسيحية الجليلة[٣١] . وكان بعض أصدقاء سودونيوس نفسه من هواة جمع الكتب ، ولا ريب فى أنه كان فى غالة كما كان فى رومة كثير من الأثرياء الذين يقدرون تجليد الكتب الجميل أكثر مما يقدرون محتوياتها وحدها ، ويقنعون بالثقافة التى يستطيعون أن يحصلوا عليها من جلود كتبهم .

ويضرب لنا سيدونيوس أحسن مثل لهذه الحياة اللطيفة — حياة حسن الضيافة والمجاملة ، والبهجة ، والآداب الراقية ، وما فيها من شعر جيـــد الصقل ، ونثر حلو النغم . ولما ذهب أفتوس إلى رومة ليجلس على عرش الإمبراطورية ، صحبه سودونيوس ، واختير ليلقى بين يديه خطاب الترحيب (٤٥٦) ؛ ثم عاد إلى غالة بعد سنة من ذلك الوقت مع أفتوس المخلوع ؛ ولكننا نجده فى رومة مرة أخرى فى عام ٤٦٨ يشغل منصب حافظ المدينة حين كانت الدولة فى آخر مرحلة من مراحل الانهيار . وكان الرجل يسير مطمئنا وسط هذه الفوضى ، فاستطاع بذلك أن يصف المجتمعات العليا فى غالة ورومة فى رسائل من طراز رسائل بلنى وسياخوس ، ولا تقل عن رسائلهما مباهاة وظرفا .

ولم يكن الأدب فى ذلك الوقت يجد ما يتحدث عنه إلا القليل ، وقد بُذل فى هذا القليل من العناية ما أبقى على شكل هذا الأدب وسحر ألفاظه بعد أن ذهب كل ما عداهما ، وخير ما يمكن أن يقال عن هذه الرسائل أنها حوت ما فى طبيعة الرجل المهذب المتعلم من تسامح وظرف وتفاهم وتعاطف . وهى الصفات التى ازدان بها أدب فرنسا منذ تلك الأيام التى لم يكن فيها أدبا فرنسيا . وقد جاء سيدونيوس إلى غالة بما يمتاز به الرومان من حب الحديث الممتع اللطيف الذى بدأ بشيشرون وسنكا وانتقل عن طريق بلنى وسياخوس ، ومكروبيوس ، وسيدونيوس إلى منتانى ومنتسيكو ، وفلتير ، ورينان ، وسانت بيف ، وأناتول فرانس ، وهؤلاء يكونون سلسلة متصلة الحلقات ، ومن نعم الله أنهم

يكادون يكونون كلهم ذوى عقلية واحدة .

وإذ كنا لا نحب أن نعطى القارئ صورة غير صادقة لسودونيوس ، فلابد لنا أن نضيف هنا أنه كان مسيحيا صالحاً ، وأسقفاً شجاعاً . وقد وجد الرجل نفسه ، على حين غفلة ، وعلى كره منه ، يندفع من منزلته المدنية العلمانية إلى أسقفية كليرمنت . وكان على الأسقف فى تلك الأيام أن يكون حاكما إداريا وهادياً روحيا فى آن واحد . وقد كان ذوو التجارب والثراء أمثال أمبروز وسيدونيوس يمتازون بمؤهلات أقوى أثراً وأعظم نفعاً فى مناصبهم الجديدة من علوم الدين مهما تعمقوا فيها . وإذا كان سيدونيوس لم يحصّل من هذه العلوم إلا القليل ، فإنه لم يكن يصبّ اللعنات الدينية إلا على القليلين ، وكان بدل أن يشغل نفسه بهذا يعطى صحافه الفضية للفقراء ، ويغفر ذنوب الناس بسرعة روّعت الكثيرين من رجال الدين . ونتبين من إحدى رسائله أنه كان فى بعض الأحيان يقطع صلوات المصلين فى كنيسته حتى يتناولوا بعض المرطبات(٣٢) . ثم حطمت الحقيقة المرة هذه الحياة الممتعة حين قرر أوريك Euric ملك القوط الغربيين أن يضم أوفرنى Auvergne إلى البلاد الخاضعة لحكمه . وظل القوط يحاصرون كليرمنت عاصمة هــذه الولاية كلما حل فصل الصيف أربع سنين متوالية . وكان سيدونيوس يقاتلهم بالسياسة وبالصلوات ، ولكنه عجز عن صدهم . ولما سقطت المدينة آخر الأمر ، أسر ، وسجن فى حصن بالقرب من كاركسن Carcassonne (٤٧٥) ، ثم أطلق سراحه بعد عامين وأعيد إلى كرسيه . ولسنا نعرف كم من الزمن عاش بعدئذ ، ولكنا نعلم أنه قبل أن يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يتمنى أن « يتخلص من آلام الحياة الحاضرة ومتاعبها بأن يعجل الله بمنيته »(٣٣) . ذلك أنه كان قد فقد إيمانه بالإمبراطورية الرومانية ، وبنى كل آماله فى تقدم الحضارة على الكنيسة الرومانية . وقد غفرت له الكنيسة ما فى شعره من نزعة وثنية وضمته إلى جماعة القديسين .

٢ - الفرنجة

٣٤٠ - ٥١١

أرخى ليل الهمجية سدوله على غالة بعد موت سيدونيوس . على أننا ليس من حقنا أن نبالغ فى ظلام هذا الليل . فقد ظل الناس فى خلاله يحتفظون بمهارتهم فى الشئون الاقتصادية ، فكانوا يتجرون ، ويسكون النقود ، ويقرضون الشعر ، ويشتغلون بالفن ؛ وقد بلغت مملكة القوط الغربيين فى جنوبى غالة الغربى أيام ملكيها أوريك Euric (٤٦٦ — ٤٨٤) وألريك الثانى (٤٨٤ — ٥٠٧) درجة من النظام ، والحضارة ، والرقى ، أطلقت لسان سيدونيوس نفسه بالثناء عليها[٣٤] . وفى عام ٥٠٦ نشر ألريك الثانى موجزاً من القوانين لمملكته ، وكان دستوراً مستنيراً بالنسبة لغيره من دساتير ذلك الوقت ، فقد كان يقرر العلاقة بين السكان الرومان الغالين والفاتحين على قواعد ثابتة قائمة على العقل . وسن ملوك برغندية فى عام ٥١٠ دستوراً شبيهاً بهذا ، وكان هؤلاء الملوك قد أسكنوا شعبهم فى جنوبى غالة الشرقى وبسطوا سلطانهم على هـذا الإقليم بطريق السلم . وظلت أوربا اللاتينية تحكمها الشرائع القوطية والبرغندية وشرائع الفرنجة التى لا تختلف عنهما كثيراً ، حتى عادت الشرائع الرومانية إلى الوجود فى بولونيا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ويبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة فى عام ٢٤٠ حين هزمهم الإمبراطور أورليان بالقرب من مينز . واستقر الفرنجة الربواريون Ripuarian (أى الشاطئيون) فى بداية القرن الخامس على منحدرات الرين الغربية ، واستولوا على كولونى (٤٦٣) ، واتخذوها عاصمة لهم ، وبسطوا سلطانهم على وادى الرين من آخن Aechen إلى متز . وبقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة النهر الشرقية وأطلقوا اسمهم على فرنكونيا Franconia . وربما كان الفرنجة الساليون The Salic Franks

قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala (المعروف الآن باسم إجسل Ijssel الذى يجرى فى الأرض الوطيئة . ثم تحركوا من هذا الإقليم نحو الجنوب والغرب ، واحتلوا حوالى عام ٣٥٦ الإقليم الواقع بين نهر الموز Meuse والمحيط ونهر السوم Somme . وكان أكثر انتشارهم بطريق الهجرة السلمية ، بل إن الرومان أنفسهم كانوا يدعونهم أحيانا إلى أن يعمروا الأراضى القليلة السكان . وبهذه الوسائل المختلفة أصبحت غالة الشمالية نصف فرنجية قبل أن يحل عام ٤٣٠ . وقد جاء الفرنجة معهم بلغتهم الألمانية وعقيدتهم الوثنية ، وكان من أثر هذا أن اللغة اللاتينية لم تعد اللغة التى يتحدث بها المقيمون على مجرى الرين الأدنى ، كما لم تعد المسيحية دين هؤلاء الأقوام .

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم فى مقدمة « قانونهم السالى » بأنهم « الشعب المجيد ، الحكيم فى مجالسه ، النبيل فى جسمه ، الذى تشع منه الصحة والعافية ، الممتاز بجماله ، الجرىء ، السريع ، الذى لا تلين له قناة ... هذا هو الشعب الذى ألقى عن عاتقه نير الطغاة الرومان »[٣٥] . ولم يكونوا يعدون أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون إنهم رجال أحرار انتزعوا حريتهم بأيديهم ، ومعنى لفظ فرنجة Franks هو الحر ، الذى نال حقوقه السياسية . وكانوا طوال القامة ، شقر الوجوه ، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤوسهم ، ثم يتركونه يسقط منها وهو أشبه ما يكون بذيل الحصان ، وكانوا يطيلون شواربهم ، ويحلقون لحاهم ، ويشدون قباءهم على وسطهم بأحزمة من الجلد مغطاة فى بعض أجزائها بقطع من الحديد المطلى بالميناء . وفى هذه المنطقة يعلق السيف ، والبلطة الحربية ، وبعض أدوات الزينة كالمقصات والأمشاط[٣٦] ؛ وكان الرجال كالنساء مولعين بالحلى ، يتزينون بالخواتم ، والأساور وعقود الخرز . وكان كل رجل قوى الجسم جندياً محارباً ، يتعلم منذ صباه الجرى ، والقفز ، والسباحة ، وإصابة الهدف بالحربة أو البلطة . وكانت الشجاعة عندهم أسمى الفضائل كلها ، من أجلها يغتفر

القتل ، والنهب ، والاغتصاب ، ولكن التاريخ ، بما يلقيه من ضوء ساطع على بعض الحوادث دون بعضها الآخر ، يخطئ فى تصوير الفرنجة إذ يدخل فى روعنا أنهم أقوام محاربون لا غير . والحق أن فتوحهم ووقائعهم الحربية لم تكن أكثر من فتوحنا نحن ووقائعنا ، كما كانت أقل منها اتساعاً وتخريباً . ويستدل من شرائعهم على أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعات اليدوية ، وأنهم أنشأوا فى شمالى غالة الشرقى مجتمعاً ريفياً مزدهراً يتمتع عادة بالسلام .

وقننت الشرائع السالية فى بداية القرن السادس ، وأكبر الظن أن ذلك كان فى نفس الجيل الذى شهد آخر مرحلة من مراحل تطور قوانين جستنيان الرومانية . ويقولون إن « أربعة من الزعماء الموقرين » هم الذين كتبوه ، وإن ثلاثة جمعيات شعبية متتالية قد بحثته وأقرته[٣٧] . وكانت الطريقة المتبعة فى محاكمة المتهمين هى طريقة التحكيم الإلهى والاستعانة بالشهود الذين يقسمون أن المتهم برىء . فإذا شهد عدد كان من الشهود الصالحين لهذه الشهادة أن المدعى عليه طيب الخلق ، برئ من أية تهمة لا يوجد دليل قاطع على أنه ارتكبها . وكان عدد الشهود يختلف تبعاً لجسامة الجرم المنسوب إلى المتهم : فسبعة وسبعون شاهداً يكفون لتبرئة المتهم بالقتل ، ولكن لما أن اتهمت إحدى ملكات فرنسا فى عفتها تطلب الأمر ثلثمائة من النبلاء يشهدون بصحة انتساب ابنها إلى أبيه[٣٨] . فإذا ظل الأمر بعد هذا موضعاً للشك اتبع قانون التحكيم الإلهى . من ذلك أن المتهم كانت تربط يداه وقدماه ويلقى فى النهر ، فإذا غطس كان بريئاً ، وإذا طفا كان مذنباً (وذلك لأن الماء كانت تقرأ عليه رقى خاصة فى حفل دينى تجعله يرفض الشخص المذنب)[٣٩] ؛ أو كان يطلب إلى المتهم أن يمشى حافى القدمين فى نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة ؛ أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية إلى هذه الدرجة ويظل قابضاً عليها مدة محددة من الزمن ؛ أو يضع ذراعه عارية فى وعاء به ماء يغلى ويخرج شيئاً من قاع الإناء ؛ أو يقف

المدعى والمدعى عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظلان كذلك حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب ؛ أو يأخذ المتهم ماء القربان المقدس ، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحل به نقمة الله . وكانت المبارزة تفصل أحياناً فى النزاع بين حزبين إذا بقى بعد إيراد الأدلة القانونية مجال للشك المعقول . وتدل الأبستاق على أن التحكيم الإلهى بالماء المغلى كان من الوسائل التى يستخدمها الفرس الأقدمون . وقد ورد فى قوانين مانو Mnau (قبل عام ١٠٠ م) شىء عن التحكيم الإلهى عند الهنود بالإغراق فى الماء ، كما ورد ذكر التحكيم الإلهى بطريق النار أو الحديد المحمى فى مسرحية أنتيجون لسفكليز[٤٠] . أما الساميون فكانوا يرون أن هذا التحكيم يأباه الدين ولذلك كانوا يرفضونه ، وكان الرومان يرون أنه خرافة ، أما الألمان فقد ساروا فيه إلى آخر مراحله ؛ وقبلته الكنيسة المسيحية وهى كارهة ، وأحاطته بمراسم دينية ، وأيمان مغلظة .

والمحاكمة بالاقتتال قديمة قدم التحكيم الإلهى . ويصـــفه ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus ، بأنه كان إجبارياً فى الدنمرقة فى القرن الأول الميلادى ؛ وتدل شرائع الإنجليز ، والسكسون ، والفرنجة ، والبرغنديين ، واللمبارد على أنه كان شائعاً بينهم ، وقد وجده القديس پتريك فى أيرلندة ، ولما أن شكا مسيحى رومانى إلى جندوباد Gondobad ملك برغانديا وقال له إن هذا التحكيم لا يحكم على الجريمة بل على المهارة ، أجابه الملك بقوله : « أليس حقاً أن نتائج الحروب والمبارزات إنما تتقرر بقضاء الله ، وأن العناية الإلهية تؤيد بنصرها القضية العادلة ؟ »[٤١]. وكان كل ما حدث فى هذا الأمر بعد أن اعتنق البرابرة الدين المسيحى أن تبدل اسم الإله الذى يحكمونه فيما بينهم . وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه العادات أو نفهمها إلا إذا وضعنا أنفسنا فى مكان قوم يؤمنون إيماناً لا يقبل الجدل بأن الله هو الذى يسبب الحوادث جميعها ، وأنه لا يرضى عن أى حكم غير عادل . وأمام هذه التجربة المرعبة كان المدعون الذين لا يثقون

من عدالة قضاياهم أو من قوة بيناتهم يترددون كثيراً قبل أن يشغلوا المحاكم بقضاياهم وشكاياتهم ؛ كما أن المتهمين المجرمين كانوا يتهربون من التحكيم الإلهي ويعرضون أن يؤدوا بدلا منه تعويضاً للمدعين .

ذلك أنه كان لكل جريمة ثمنها ، وكان فى وسع المتهم عادة أن يفتدى نفسه بأن يؤدى التعويض المقرن للجريمة المتهم بها على أن يكون ثلثه للحكومة ، وثلثاه لمن وقعت عليه الجريمة أو لأسرته . وكان المبلغ المفروض يختلف باختلاف منزلة من وقعت عليه الجريمة ، ولهذا كان المجرم الملم بالشئون الاقتصادية يدخل فى حسابه عدداً كبيراً من الحقائق . فإذا لطم رجل يد امرأة فى غير حياء فرضت عليه غرامة مقدارها خمسة عشر ديناراً(*) (نحو دولارين أمريكيين وربع دولار) ؛ وإذا لطم عضدها غرم خمسة وثلاثين ديناراً (٥,٢٥ دولارات) ، فإذا مس صدرها بغير رضاها غرم خمسة وأربعين ديناراً (٦,٧٥ دولارات)[٤٢] . ولم يكن هذا التقدير باهظاً إذا قيس بغيره من الغرامات : فقد كان جزاء اعتداء رومانى على فرنجى أو سرقته بإكراه غرامة قدرها ٢٥٠٠ دينار (٣٧٥ دولاراً) ؛ وتنخفض هذه الغرامة إلى ١٤٠٠ دينار إذا اعتدى فرنجى على رومانى أو سرقه ؛ وإذا قتل رومانى فرنجياً غرم القاتل ٨٠٠٠ دينار تنخفض إلى أربعة آلاف[٤٣] إذا كان المقتول رومانياً ؛ إلى هذه الدرجة انحطت منزلة الرومانى العظيم فى أعين الفاتحين . وإذا لم ينل المعتدى عليه أو أقاربه التعويض الكافى ، كان من حقهم أن ينتقموا لأنفسهم من المعتدى ؛ وبهذه الطريقة كانت سلسلة الانتقام وسفك الدماء تدوم بين الخصوم عدة أجيال ؛ وكانت الغرامات والمبارزات القضائية خير الوسائل التى

(*) يقدر القانون السالى (فى المادة الرابعة عشرة) الدينار بجزء من أربعين جزءا من السوليدوس Solidus الذى كان وقتئذ يحتوى على سدس أوقية من الذهب أو ٥,٨٣ من دولارات الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ . لكن قلة الذهب والنقد فى العصور الوسطى كانت تجعل للمبالغ الواردة فى النص قيمة فى الشراء أو العقاب أعظم كثيراً من قيمتها فى هذه الأيام .

استطاع الألمان البدائيون ابتكارها لكبح جماح غريزة الانتقام وإحلال القانون محلها .

ونصت أهم مادة في القانون السالي على أنه « لا يجوز أن ترث امرأة شيئاً من الأراضي السالية (المادة السادسة) . واعتمدت فرنسا على هذه المادة في القرن الرابع عشر فرفضت ادعاء الملك إدورد الثالث ملك إنجلترا حقه في عرش فرنسا الذي يرثه عن طريق أمه إزابل Esabelle ؛ وأدى هذا الرفض إلى نشوب حرب السنين المائة . وكانت هذه المادة مقصورة على الأملاك الثابتة (العقار) ، التي يفترض أنها تحتاج في حمايتها إلى قوة الرجال العسكرية ، ويمكن القول بوجه عام إن القانون السالي لم يكن يرفع من شأن النساء . نعم إن دية المرأة كانت ضعفي دية الرجل[٤٤] ، لأنهم كانوا يدخلون في تقديرها أنها قد تكون أما للكثيرين من الرجال ، ولكنه يفعل بهن ما يفعله القانون الروماني في أوائل عهده ، فيضعهن على الدوام تحت وصاية آبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن . وقد جعل القتل عقاب الزوجة الزانية ، ولكنه لم يكن يعاقب الزاني[٤٥] ، وكان يبيح الطلاق للرجل متى شاء هواه[٤٦] . وكانت العادة تبيح للملوك الفرنجة أن يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإن لم يبح ذلك القانون نفسه .

وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين باسمهم هو كلوديو Chlodio الذي هاجم كولوني في عام ٤٣١ ؛ ولقد هزمه إيتيوس Aetius ، ولكن كلوديو نجح في احتلال غالة من شرقيها إلى نهر السوم في الغرب ، واتخاذ تورناي عاصمة له ؛ وخلفه على العرش ملك آخر يدعى مروفك Merovech (ابن البحر) — وقد يكون هذا مجرد خرافة — وهو الذي سميت باسمه الأسرة الميروفنجية Merovingian التي حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١ . وأغوى ابنه كلدريك Childeric باسينا Basina زوجة أحد الملوك الثورنجيين Thuringian ، فجاءت إليه لتكون ملكته ، وقالت : إنها لا تعرف رجلا أخصف منه عقلا ، أو أقوى منه جسما ؛

أو أجل منه خلقاً . وولدت له كلوفيس Clovis ، الذى أنشأ فرنسا والذى تسمى باسمه ثمانية عشر من الملوك الفرنسيين(*) .

وورث كلوفيس عرش المروفنجيين فى عام ٤٨١ ، وكان وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمره : ولم تكن مملكته تشغل وقتئذ إلا ركناً من أركان غالة ، فقد كانت قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض الرين ، وكانت مملكتا القوط الغربيين والبرغنديين القائمتان جنوبى غالة قد استقلتا استقلالا تاماً بعد سقوط رومة . وكان الطرف الشمالى الغربى من غالة ، الخاضع بالاسم لحكم رومة حتى ذلك الوقت ، ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه ، فغزاه كلوفيس ، واستولى على كثير من مدنه وعلى عدد من أكابر رجاله ، ثم قبل الفدية منهم ، وباع الغنائم ، وابتاع الجند والمؤن ، والأسلحة ، وزحف على سواسون Soissons وهزم جيشا « رومانيا » (٤٨٦) . ثم وسع فتوحه فى السنين التالية حتى لامست حدود شبه جزيرة بريطانى ، ونهر اللوار . وضم إلى جانبه السكان الغاليين بأن ترك لهم أراضيهم ، كما ضم إليه رجال الدين المسيحيين بأن احترم دينهم وأبقى لهم ثروتهم . وفى عام ٤٩٣ تزوج مسيحية تدعى كلوتيلد Clothilde ؛ وما لبث أن اعتنق بتأثيرها الدين المسيحى على أساس العقائد النيقية ، وعمده ريمى الأسقف والقسيس فى ريمز أمام حشد من رجال الدين والأعيان دعوا لهذا الغرض والحكمة لا تخفى ، من جميع أنحاء غالة ، ثم تقدم كلوفيس إلى ميدان القتال يتبعه ثلاثة آلاف جندى . وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط ، وأنه كان يرى أن مَلِك فرنسا خليق بأن يعتنق من أجله هذا الدين . وأخذ أتباع الدين القويم فى غالة القوط الغربيين ، وغالة البرغنديين ، ينظرون إلى حكامهم شزراً ، وأصبحوا من ذلك الحين حلفاء الملك الفرنجى المشاتين فى السر أو فى العلن .

(*) كلدفج ، ولدفج ، وكلوفيس ، ولويس Chlodwig, Ludwig, Clovis, Louis كلها اسم واحد .

ورأى ألريك الثانى بداية هذا التيار الجارف ؛ وحاول أن يصده بالكلام المعسول ، فدعا كلوڤيس إلى الاجتماع به ، واجتمعا بالفعل فى أمبواز Amboise ، وعقدا ميثاق الصداقة الدائمة . ولكن ألريك قبض على جماعة من الأساقفة أتباع الدين الأصيل بعد عودته إلى طولوز ، لتآمرهم مع الفرنجة ، فدعا كلوڤيس جمعيته الحربية وخطبها قائلا : « يعز على نفسى أرى هؤلاء الأريوسيين يمتلكون جزءاً من غالة ، فلنخرج لطردهم منها بمعونة الله»[٤٧] . ودافع ألريك عن نفسه بكل ما وسعه الدفاع ومعه شعب منقسم على نفسه ؛ ولكنه هزم فى ڤوييه Vouillé القريبة من پواتييه (٥٠٧) ، وقتله كلوڤيس بيده . « وبعد أن قضى كلوڤيس فصل الشتاء فى بردو » ، كما يقول جريجورى التورى Gregory of Tours واستولى على جميع كنوز ألريك التى كانت فى طولوز ، زحف لحصار أنجوليم Angoulême . ومن الله عليه بفضله فتساقطت أسوار المدينة من تلقاء نفسها » . وها نحن أولاء نرى منذ ذلك الزمن[٤٨] نغمة المؤرخ الإخبارى التى تمتاز بها العصور الوسطى . وكان سجيبرت الشيخ ملك الفرنجة الربواريين حليفا لكلوڤيس من زمن بعيد : والآن أوحى كلوڤيس إلى ابن سجيبرت بالميزات التى ينالها بعد موت أبيه . فقتل الابن والده وأرسل كلوڤيس إلى القاتل شعائر الود والصداقة ومعها عماله ليقتلوه . فلما تم ذلك لكلوڤيس زحف على كولونى وأقنع زعماء الربواريين بأن يرتضوه ملكا عليهم . ويقول جريجورى فى ذلك « وجعل الله أعداءه يخرون فى كل يوم صرعى تحت قدميه . . . لأنه كان يسير أمام الله بقلب سليم ، ولأنه كان يفعل ما تقر به عين الله »[٤٩] .

وسرعان مااعتنق الأريوسيون المغلوبون المذهب الصحيح ، وسمح لقساوستهم أن يحتفظوا بمناصبهم الدينية بعد أن تخلوا عن الفارق بين المذهبين وهو فارق ليس ذا شأن كبير : ونقل كلوڤيس عاصمته إلى باريس وسار إليها مثقلا بالأسرى والعبيد ، والدعوات الصالحات ، ومات فيها بعد أربع سنين فى سن الخامسة

والأربعين. وجاءت الملكة كلوثيلد ، التى كان لمعونتها بعض الفضل فى إنشاء فرنسا الغالية ، « إلى تور بعد موت زوجها ، وأدت الصلاة فى كنيسة القديس مارتن ، وعاشت فى ذلك المكان عفيفة رحيمة طول أيام حياتها »(٥٠) .

٣ — المروڤنچيون

٥١١ — ٦١٤

كان كلوڤيس يتوق إلى أن يكون له أبناء ذكور ، وقد كان له قبل وفاته أكثر مما كان يحب ، ولهذا قسم مملكته بينهم لكى يتجنب نشوب حرب للوراثة بعد وفاته . فأعطى كلدبرت Childebert الإقليم المحيط بباريس ، وولى كلودمر Chlodemer إقليم أورلين Orleans ، وأعطى كلوتار Chlotar إقليم سواسون Soissons وثيودريك إقليم متز وريمز وواصل الأبناء بهمتهم البربرية السياسة المؤدية إلى توحيد فرنسا عن طريق الفتح ، فاستولوا على ثوررنجيا فى عام ٥٣٠ ، وعلى برغندية فى ٥٣٤ ، وعلى پروڤانس فى ٥٣٦ ، وعلى باڤاريا وسوابيا فى ٥٥٥ . وعاش كلوتار بعد أن مات إخوته جميعا فورث ممالكهم ، وكانت غالة تحت حكمه أوسع رقعة من فرنسا فى العهود المستقبلة . وقبيل موته فى عام ٥٦١ قسم غالة مرة أخرى ثلاثة أقسام : إقليم ريمز ومتز المعروف بأستراسيا Austrasia (أى الشرق) وخص به ابنه سجيبرت Sigebert ، وبرغندية وأعطاها إلى جنترام Gunthram ، وأعطى إقليم سواسون المعروف بنوستريا Neustria (أى القسم الثانى الغربى) إلى كلپريك Chilperic .

ولقد كان تاريخ فرنسا منذ زواج كلوڤيس إلى وقتنا هذا مزيجاً من الرجولة والأنوثة جامعاً بين الحب والحرب . من ذلك أن سجيبرت أرسل هدايا غالية إلى أثاناجلد Athanagild ملك أسبانيا من القوط الغربيين ، وطلب إليه أن يزوجه ابنته برنهلدا Brunhilda ، ووافق أثاناجلد على هذا الزواج لخوفه من الفرنجة

وإن أرسلوا الهدايا ، وأقبلت برنهلدا لتزدان بها أبهاء متز وريمز (٥٦٦). ودب الحسد في قلب كلبريك ، لأنه لم يكن له إلا زوجة ساذجة تدعى أودوفيرا Audovera وعشيقة فظة تدعى فردجندا Fredegunda ؛ فطلب إلى أثاناجلد أن يزوجه أخت برنهلدا ؛ وجاءت جلزونثا Galswintha إلى سواسون وأحبها كلبريك لأنها جاءت معها بكنوز عظيمة ، ولكنها كانت أكبر سناً من أختها ؛ فعاد كلبريك إلى أحضان فردجندا . وطلبت جلزونثا أن تعود إلى أسبانيا ، فأمر كلبريك بقتلها خنقا (٥٦٧) ، وأعلن سجيبرت الحرب على كلبريك وهزمه ، ولكن فردجندا بعثت إليه بعبدين قتلا سجيبرت ، وقبض على برنهلدا ولكنها استطاعت الفرار وتوجت ابنها الشاب كلدبرت الثاني ، وحكمت البلاد باسمه حكما أظهرت فيه كثيراً من الحزم والكفاية .

ويصف المؤرخون كلبريك كأنه نيرون ذلك الوقت وهيروده ، يصفونه بأنه غليظ القلب ، سفاك للدماء ، شهواني نهم شره ، في جمع الذهب . ويفسر جريجوري التوري ، وهو عمدتنا الوحيد في هذه المعلومات ، تلك الصفات إلى حد ما بأن يصوره كأنه فردريك الثاني في عصره ، فيقول إن كلبريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص في إله واحد ، وبتصوير الله كأنه إنسان ، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية ، ويحتج على ثروة الكنيسة الطائلة ، وعلى نشاط الأساقفة السياسي ، وألغى الوصايا التي يترك بها الناس ما لهم للكنائس ، وكان يبيع كراسي الأساقفة لمن يؤدي أكثر الأثمان ، وحاول أن يخلع جريجوري نفسه من كرسي تور[٥١] . ويصف الشاعر فرتناتوس هذا الملك نفسه بأنه جامع الفضائل ، فهو حاكم عادل لطيف ، شيشرون زمانه في الفصاحة ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن كلبريك قد أجاز فرتناتوس على شعره .

ومات كلبريك بطعنة خنجر في عام ٥٨٤ ، وربما كان طاعنه مسلطا عليه من برنهلدا ، وترك وراءه ولداً رضيعاً هو كلوتار الثاني فحكمت فردجندا نستريا

بالنيابة عنه ، بمهارة ، وغدر ، وقسوة لا تقل عن مثيلاتها فى أى رجل من رجال ذلك الوقت . من ذلك أنها جاءت بشاب من رجال الدين ليقتل برنهلدا ، ولما عاد دون أن يؤدى مهمته أمرت بقطع يديه وقدميه . لكن مرجعنا فى هذه الأخبار هو أيضاً جريجورى(٥٣). وكان أعيان أستراسيا فى هذا الوقت لا ينقطعون عن الثورة على برنهلدا المتغطرسة ، يشجعهم على هذا كلوتار الثانى ؛ وكانت تخمد هذه الثورات بقدر ما تستطيع وتستعين على ذلك بالختل والاغتيال ؛ ولكنهم أفلحوا آخر الأمر فى خلعها وهى فى الثمانين من عمرها ، وظلوا يعذبونها ثلاثة أيام كاملة ، ثم ربطوها من شعرها وإحدى يديها وقدميها فى ذيل حصان وضربوه بالسياط (٦١٤) . وورث كلوتار الثانى الممالك الثلاث وتوحدت مرة أخرى دولة الفرنجة .

وقد يحملنا هذا السجل الملطخ بالدماء على أن نبالغ فى الهمجية التى كانت تخيم على غالة ولما يكد يمضى على موت سيدونيوس المتحضر المثقف قرن من الزمان ، ولكن الناس لا بد لهم أن يجدوا وسيلة يستخدمونها إذا أعوزتهم الانتخابات . ولقد أفسد خلفاء كلوڤيس ما بذله من جهود لتوحيد البلاد كما فعل خلفاء شارلمان بمُلكه بعده . على أن أقل ما يقال فى هذا الثناء على هذا العهد أن الحكومة قد ظلت تؤدى واجباتها ، وأن غالة لم تكن كلها تطيق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم ، وأن ما يبدو من استبداد الملوك كان محدداً بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم ، وكان الملك يكافئهم على ما يؤدون له من خدمات فى الإدارة والحرب بأن يهبهم ضياعاً يكادون يكونون فيها سادة مستقلين ؛ وفى هـــذه الأملاك الواسعة بدأ نظام الإقطاع الذى حارب الملكية الفرنسية ألف عام . وكثر أرقاء الأرض ، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة أخرى بسبب الحروب الجديدة . وانتقلت الصناعات من المدن إلى بيوت الريف ، فضاقت رقعة المدن ، وخضعت لســيطرة السادة الإقطاعيين ؛ وكانت التجارة لا تزال

نشيطة ، ولكنها كان يقف فى سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطّاع الطرق ، وارتفاع الضرائب الإقطاعيـة . وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوّج زعماء الفرنجة بمن بقى من نساء طبقة أعضاء الشيوخ الغاليين ـ الرومان ، ونشأ من هذا التزاوج أشراف فرنسا . وكانوا فى ذلك الوقت أشرافاً يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة ، وأثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء . ولسنا نجد فى التاريخ طبقة عليا لا تعبأ بالمبادئ الأخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة ؛ ولم يكن لاعتناقها المسيحية أثر فيها على الإطلاق ، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدئة الشعب ؛ ولما « انتصرت البربرية وانتصر الدين » كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون . وكان الاغتيال ، وقتل الآباء ، والإخوة ، والتعذيب ، وبتر الأعضاء ، والغدر ، والزنى ، ومضاجعة المحارم ؛ كان هذا كله هو الوسيلة التي يخففون بها ملل الحكم . فقد قيل إن كلبريك أمر بأن يكوى كل مفصل من مفاصل سجيلا Sigila القوطي بالحديد المحمى ، وأن ينزع كل عضو من أعضائه من موضعه[٥٤] ، وكان لكاريبرت Charibert عشيقتان أختان وإحداهما راهبة ، وجمع دجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) بين ثلاث زوجات فى وقت واحد . وربما كان الإفراط الجنسي هو السبب فيما أصاب المروفنجيين من عقم منقطع النظير : ومن أمثلة هذا العقم أن واحداً لا أكثر من أبناء كلوفيس الأربعة وهو كلوتار كان له أبناء ، وأن واحداً من أبناء كلوتار الأربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون فى الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوّتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين[٥٥] . ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت المروفنجيين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لأن يخلى مكانه لغيره .

وفى غمار هذه الفوضى لم يكد يكون للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفاً لا يتمتع به إلا رجال الدين . أما العلوم الطبيعية فقد امحت أو كادت . وبقى الطب ، لأنا نسمع عن وجود أطباء فى حاشية الملوك ، أما بين الشعب فقد كان السحر والصلاة فى نظرهم خيراً من الدواء . وقد ندد جريجورى أسقف تور (٥٣٨ ؟ — ٥٩٤) بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات فى علاج المرضى ، وقال : إن هذا إثم يعذبهم عليه الله . ولما مرض هو أرسل يدعو إليه طبيباً ، ولكنه سرعان ما صرفه لأنه لم ينفعه بشىء ، ثم شرب قدحا من الماء ممزوجاً بتراب جىء به من قبر القديس مارتن شفى على أثره شفاء تاما[٥٦] . وكان جريجورى هذا أشهر كتاب النثر فى أيامه ، وكان يعرف كثيرين من الملوك الميروفنجيين معرفة شخصية ، وكثيرا ما كانوا يستخدمونه فى بعثات لهم . وقد روى فى كتابه تاريخ الفرنجة قصة العصر الميروفنجى المتأخر بطريقة فجة ، مضطربة قائمة على الهوى والخرافة ، ولكنه روى هذه القصة بأسلوب واضح ، وكانت حوادثها مما شاهده بنفسه ، ولغته اللاتينية فاسدة ، قوية ، خالية من الالتواء . وهو يعتذر عن أغلاطه النحوية ، ويرجو ألا يعاقبه الله فى يوم الحساب على ما ارتكبه من إثم بسبب هذه الأخطاء[٥٧] . وهو يؤمن بالمعجزات وخوارق العادات ، ويتصورها تصور الطفل الذى لا يخالجه فيها أدنى ريب أو يؤمن بها إيمان الأسقف الحصيف الماكر اللطيف ويقول : وسنمزج فى قصتنا معجزات القديسين بمذابح الأمم »[٥٨] . ثم يمضى فيؤكد أن الأفاعى سقطت من السماء فى عام ٥٨٧ ، وأن قرية قد اختفت فجأة بجميع مبانيها وسكانها[٥٩] . وهو يشهر بكل شىء فى أى إنسان لا يؤمن بالله أو يعمل ما يضر بالكنيسة ، ولكنه يقبل ما يرتكبه أبناء الكنيسة المؤمنون من أعمال وحشية ، وغدر ، وخيانة ، وفساد خلقى ، ولا يجد فى هذا ما تشمئز منه

نفسه . وهو صريح فى تحيزه وعدم نزاهته ، ومن اليسير علينا أن نتغاضى عن بعض عيوبه ، والصورة الأخيرة التى لا تنطبع فى ذهننا عنه هى أنه رجل ساذج محبوب .

وأصبحت آداب غالة بعده تغلب عليها الصبغة الدينية فى موضوعاتها ، والصبغة البربرية فى لغتها وأسلوبها إلا فى حالة واحدة دون غيرها ، تلك هى كتابات ڤنانتيوس فرتناتوس Vanantius Fortunatus (حوالى ٥٣٠ — ٦١٠) البليغة . وقد ولد هذا الكاتب فى إيطاليا ، وتعلم فى رافنا ، ثم انتقل إلى غالة فى الثلاثين من عمره ، وكتب يمدح أساقفتها وملكاتها ، وأحب ردجندا زوجة كلوتار الأول حباً عذرياً أفلاطونياً . ولما أنشأت هى ديراً صار فرتناتوس قسيساً ، ودخل فى خدمتها ، وما زال يرقى فى الدرجات الكهنوتية حتى أصبح أسقف پواتييه ؛ وكتب قصائد جميلة يمدح بها الأحبار ، والقديسين ، منها تسع وعشرون قصيدة فى مدح جريجورى التورى وحده ؛ ثم كتب ترجمة شعرية للقديس مارتن . وكان أحسن ما كتبه بعض ترانيم حلوة النغم منها واحدة تدعى Pange lingua أوحت إلى تومس أكويناس بقصيدة تشبهها فى موضوعها وتعلو عليها فى أسلوبها ؛ ومنها قصيدة أخرى تدعى Vexilla regis أصبحت هى الجزء الأخير من القداس الكاثوليكى . وقد برع فى مزج الإحساس القوى بالشعر البليغ ، وإذا ما قرأنا أبياته الدائمة الجدة ، اللطيفة الأسلوب ، تبينا ما كان ينطوى عليه قلبه من رحمة ، وإخلاص ، وعواطف رقيقة وسط ما كان يتصف به عصر المروفنجيين من وحشية وجرائم يرتكبها الملوك .

الفصل الثالث

أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

٤٥٦ — ٧١١

سبق القول إن القوط الغربيين حكام غالة استردوا أسبانيا من الوندال فى عام ٤٢٠ ، وعادوا بعدئذ إلى رومة ، ولكن رومة كانت عاجزة عن حماية أسبانيا ، ولهذا فإن السويڤى Suevi خرجوا من معاقلهم فى التلال الواقعة فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة واجتاحوها كلها ، فانقض عليها القوط الغربيون مرة أخرى بقيادة ثيودريك الثانى (٤٥٦) وأوريك (٤٦٦) بعد أن عبروا جبال البرانس ، وفتحوا معظم أسبانيا واحتفظوا بالبلاد فى هذه المرة وضموها إلى أملاكهم ، وحكمت أسبانيا من ذلك الوقت أسرة من القوط الغربيين وظلت على عرشها حتى جاءها المسلمون .

وأنشأت الملكية الجديدة ، فى بلدة طيطلة عاصمة فخمة ، وجمعت فيها حاشية موفورة الثراء . وكان أثاناجلد Athanagild (٥٦٣ — ٥٦٧) وليوڤيجلد Leovigild (٥٦٨ — ٥٨٦) ملكين قويين ، هزما الغزاة الفرنجة فى الشمال وجيوش بيزنطية فى الجنوب ؛ وكانت ثروة أثاناجلد هى التى أكسبت ابنتيه ميزة فذة هى أنهما قتلتا وهما ملكتان لملكين من الفرنجة . وحدث فى عام ٥٨٩ أن غير ريكارد Recared مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين فى أسبانيا من الأريوسية إلى المسيحية الأصيلة . ولعل سبب هـذا التغيير أنه قرأ من قبل تاريخ ألريك الثانى . ومن ذلك الحين أصبح الأساقفة أكبر المؤيدين للملكية وأقوى سلطة فى الدولة ؛ فقد سيطروا بفضل تفوقهم فى العلم ودقة النظام على

الأشراف الذين كانوا يجتمعون معهم فى مجالس الحكم فى طليطلة ؛ ومع أن سلطة الملك كانت سلطة مطلقة من الوجهة النظرية ، ومع أنه كان هو الذى يختار الأساقفة ، فإن هذه المجالس كانت هى التى تختاره ، وتأخذ عليه قبل أن يباشر الحكم المواثيق بشأن السياسة التى تريد منه أن يتبعها ، ووضعت بإرشاد رجال الدين طائفة من القوانين (٦٣٤) ، كانت أوفى جميع شرائع البرابرة وأقلها تسامحاً . وقد أصلحت من شأن الإجراءات القضائية بأن عمدت إلى تقدير شهادة الشهود فى تقدير أخلاق المتهمين بدل شهادات الأصدقاء ، وطبقت قوانين واحدة على الرومان والقوط الغربيين ، فوضعت بذلك مبدأ المساواة أمام القانون[٦٠] . ولكنها لم تأخذ بمبدأ حرية العبادة ، وحتمت على جميع السكان أن يعتنقوا المسيحية الصحيحة ، وأقرت اضطهاد يهود أسبانيا الذى دام طويلا ، وارتكبت فيه أشد ضروب القسوة .

ونسى القوط الغربيون قبل أن ينقضى قرن على فتحهم أسبانيا لغتهم الألمانية بتأثير نفوذ الكنيسة التى ظلت تستخدم اللغة اللاتينية فى مواعظها وطقوسها الدينية ، وأفسدوا اللاتينية المستعملة فى شبه الجزيرة بأن أدخلوا عليها قوة الرجولة والجمال النسوى اللذين تمتاز بهما اللغة الأسبانية الحاضرة ، وكانت المدارس الملحقة بالأديرة والأسقفيات هى التى تقوم بالتعليم ، وكان معظمه تعليما كنسياً ، ولكنه كان يشمل شيئاً من دراسة الكتب القديمة ، وأنشئت مجامع علمية فى بقلارا Vaclara وطليطلة ، وسرقسطة ، وأشبيلية . وكان الشعر يلقى تشجيعاً كبيراً ، أما التمثيل فكان يقاوم لما فيه من فحش وبذاءة .

ولم يحفظ التاريخ من أسماء الأدباء فى أسبانيا القوطية إلا اسم إزدور Isidore الأشبيلى (حوالى ٥٦٠ — ٦٣٦) . وتروى إحدى الأقاصيص الطريفة كيف هرب غلام أسبانى من بيته غضبا من تأنيبه من أجل كسله ، وأخذ يطوف بالبلاد حتى أنهكه التعب ، فجلس إلى جانب بئر . فاستلفت نظره شق عميق فى

حجر مجاور لحافة البئر . ومرت به فى ذلك الوقت فتاة فقالت له إن هذا الشق من أثر احتكاك الحبل الذى ينزل الدلو فى البئر ويرفعها . فلما سمعها إزدور قال فى نفسه : « إذ كان فى إستطاعة هذا الحبل اللين بدأ به على العمل فى كل يوم أن يشق الحجر ، فما من شك فى أن المثابرة يمكن أن تتغلب على بلادة عقلى » . ثم عاد من فوره إلى بيت أبيه وواصل الدرس حتى أصبح أسقف أشبيلية المتبحر فى العلم[٦١] . ولسنا نعلم إلا القليل عن حياته ، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه وجد بين مشاغله الدينية الكثيرة ، التى كان يقوم بها بما يرضى ضميره ، متسعا من الوقت يكتب فيه ستة كتب . ولعله أراد أن يعين ذاكرته فجمع فى خلال عدد كبير من السنين فقرات مختلفة فى جميع الموضوعات نقلها من كتب المؤلفين الوثنيين والمسيحيين واستحثه صديقه بروليو Broulio أسقف سرقسطة على أن ينشر هذه المختارات ، فأجابه إلى طلبه ، وحورها حتى أضحت من أقوى كتب العصور الوسطى أثراً وسماها « **عشرون كتابا فى الإشتقاقات والأصول** » ويضمها الآن مجلد ضخم يحتوى على ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو موسوعة علمية ولكنها غير مرتبة على الحروف الهجائية ؛ وتبحث على التوالى فى المجموعة الثلاثية من العلوم القديمة وهى النحو ، والبلاغة ، والمنطق ؛ ثم فى الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك وهى المجموعة الرباعية عند الأقدمين ؛ ثم تبحث فى الطب ، والقانون ، والتواريخ ، والدين ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم الحيوان ، وعلم الكون ، والجغرافية الطبيعية ، والهندسة المعارية ، والمساحة ، والتعدين ، والزراعة والحرب ، والألعاب الرياضية ، والسفن ، والملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية ، ... وكلما انتقل المؤلف إلى موضوع من هذه الموضوعات عرف مصطلحاته الأساسية ، وبحث عن منشأها . مثال ذلك أنه يقول إن الإنسان يسمى باللاتينية (هومو Homo) لأن الله قد خلقه من التراب (هومس Humus) ، والركبتان تسميان genus ، لأنهما يكونان مقابل الجبين genae) فى الجنين[٦٢] . وكان إزدور

عالماً مجداً وإن لم يعن بالتفرقة بين موضوعات درسه ؛ وكان واسع الاطلاع على اللغة اليونانية ، يعرف الكثير من كتابات لكريتيوس Lukretius (وهو الذى لا يذكر إلا فى العصور الوسطى) ، وقد حفظ لنا قطعاً مختارة من فقرات كثيرة من الآداب الوثنية لولاه لضاعت عن آخرها . وبحوثه خليط من الاشتقاق الغريب ، والمعجزات التى لا يقبلها عقل ، ومن تفسيرات مجازية خيالية للكتاب المقدس ؛ ومن العلوم الطبيعية والتاريخ حورت لكى تثبت مبادئ أخلاقية ، وأخطاء فى الحقائق يكفى القليل من الملاحظة لتصحيحها . وكتابه هذا أثر خالد يدل على ما كان فاشياً فى هذا العهد من جهالة .

ولا يكاد يبقى شىء من الفنون التى كانت فى أسبانيا فى عهد القوط الغربيين . ويلوح أن طليطلة ، وإبطالكا ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومديرا وغيرها من المدن كانت تحتوى على كنائس ، وقصور ، ومبان عامة جميلة المنظر ، أقيمت على الطرز القديمة ، ولكنها ميزت عنها بالرموز المسيحية ، والنقوش البيزنطية[٦٣] . ويقول المؤرخون المسلمون إن العرب الفاتحين وجدوا فى قصور طليطلة وكنيستها الكبيرة خمسة وعشرين تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ، وكتاباً مزخرفاً للتراتيل الدينية مكتوباً على ورقة من الذهب بمداد مصنوع من الياقوت المصهور ، وأقمشة منسوجة بخيوط من الذهب والفضة ، ودروعاً ، وسيوفاً ، وخناجر مرصعة بالجواهر ، ومزهريات مملوءة بها ، ومنضدة من الزمرد مطعمة بالفضة والذهب — وكانت هذه المنضدة إحدى الهدايا الكثيرة الغالية التى أهداها أغنياء الغربيين إلى كنيستهم التى تحميهم وترد الأذى عنهم .

وظل استغلال الأقوياء والمهرة للبائسين والسذج يجرى مجراه فى عهد القوط الغربيين كما كان يجرى فى عهد سائر الحكومات القديمة . فكان الأمراء والأحبار يجتمعون فى حفلات دينية أو دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم ، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر

الجماهير ويهدئوا أفكارهم . وتركزت الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد ، وكانت الثغرة الواسعة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء ، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة ؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهرا شيئاً من الاهتمام بفقرهم وسامتهم كثيراً من أنواع الاضطهاد الدينى .

ولما مات وتيزا Witiza ملك أسبانيا الضعيف فى عام ٧٠٨ لم يقبل الأشراف أن يخلفه على العرش أحد من أبنائه ، بل أجلسوا عليه ردريك (لزريق) Roderick ، ففر أبناء وتيزا إلى أفريقية ، واستغاثوا بزعماء المسلمين . وقام المسلمون ببضع غارات تمهيدية على السواحل الأسبانية ، عرفوا بها أن أسبانيا منقسمة على نفسها ، وأنها تكاد تكون مجردة من وسائل الدفاع ، فجاءوا إليها فى عام ٧١١ بقوة أكبر من قوتهم السابقة . والتقت جيوش طارق ولزريق فى معركة على سواحل بحيرة يندا Janda فى ولاية قادس ، انضمت فيها قوة من القوط إلى العرب ، واختفى لزريق من المعركة . وتقدم المسلمون المنتصرون إلى أشبيلية ، وقرطبة ، وطليطلة ؛ وفتحت كثير من المدائن الأسبانية أبوابها للغزاة . وأقام قائد العرب موسى ابن نصير فى العاصمة الأسبانية (٧١٣) ، وأعلن أن أسبانيا أصبحت من ذلك الوقت ملكا للمسلمين وللخليفة الأموى فى دمشق .

الفصل الخامس

إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين ٤٩٣ - ٥٣٦

١ - ثيودريك

لما تصدعت أركان مملكة أتلا بعد وفاته فى عام ٤٥٣ استعاد القوط الشرقيون استقلالهم ، وكان قد أخضعهم من قبل لحكمه . وكان البيزنطيون يرشونهم ليصدوا غيرهم من البرابرة الألمان نحو الغرب ، وكافئوهم على عملهم هذا بأن أقطعوهم ولاية پنونيا ، وأخذوا ثيودريك ابن ملكهم ثيودمير - ولم يكن قد جاوز السابعة من عمره - رهينة فى أيديهم إلى القسطنطينية ليضمنوا بذلك ولاء القوط الشرقيين لهم . وقضى ثيودريك فى بلاط إمبراطور القسطنطينية أحد عشر عاماً اكتسب فيها فطنة وذكاء ، وإن لم يتلق فيها تعليما ؛ وحذق فنون الحرب والحكم ، ولكن يبدو أنه لم يتعلم قط الكتابة[٦٤] ؛ وأعجب به الإمبراطور ليو الأول ، فلما مات ثيودمير (٤٧٣) ، اعترف ليو بثيودريك ملكاً على القوط الشرقيين .

وخشى زينون الذى خلف ليو على عرش الإمبراطورية الشرقية أن يسبب ثيودريك المتاعب لبيزنطية ، فأشار عليه أن يفتح إيطاليا . وكان أدوكر قد اعترف اسمياً بخضوعه للإمبراطور الشرق ولكنه كان يتجاهله فعلا ، وكان زينون يأمل أن يعيد ثيودريك إيطاليا إلى حكم بيزنطية ؛ وسواء تم هذا أو لم يتم فإن زعيمى القبائل الألمانية الخطرة سيبلى أحدهما الآخر ويتركان زينون يدرس الدين على مهل . وأعجب ثيودريك بهذه الفكرة - ويقول بعضهم إنه هو صاحبها . وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون ، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب ،

وعبر بهم جبال الألب (٤٨٨) . وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسى وإن كانوا هم من أتباع الدين الصحيح لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر ، ولأن ثيودريك فى رأيهم يمثل إمبراطوراً يكاد يكون من أتباع الدين القويم . وبفضل هذه المساعدة استطاع ثيودريك أن يحطم مقاومة أدوكر الشديدة بعد حرب طاحنة دامت خمس سنين ، وأقنعه على أن يعقد معه صلحاً ينزل فيها كلاهما عن مطالبه . ثم دعا أدوكر وابنه إلى الطعام معه فى رافنا ، وبعد أن أكرم وفادتهما قتلهما بيده (٤٩٣) . وبهذا الغدر بدأ عهد من أكثر العهود استنارة فى التاريخ .

وكانت بضع حملات عسكرية كافية لأن تخضع لحكم ثيودريك غربى البلقان ، وجنوبى إيطاليا ، وصقلية . وظل ثيودريك خاضعاً خضوعاً اسمياً إلى بيزنطية ، وضرب النقود باسم الإمبراطور ، وكان يكتب الرسائل إلى مجلس الشيوخ ، الذى ظل يعقد جلساته فى رومة ، بما يليق به من التوقير واتخذ لنفسه لقب ركس rex أى الملك . وكان هذا اللفظ فى الزمن القديم من أبغض الألفاظ إلى الرومان ، ولكنه كان وقتئذ لقباً عاماً لحكام الأقاليم التى تعترف بسيادة بيزنطية عليها . وقبل قوانين الإمبراطورية الغربية التى زالت من الوجود ونظمها ، وحرص أشد الحرص على الدفاع عن آثارها وأشكالها ، ووهب كل ما أوتى من جد ونشاط لإعادة الحكم المنظم إلى البلاد والرخاء الاقتصادى إلى الشعب الذى أخضعه لحكمه . وقصر عمل القوط الذين جاءوا معه على وظائف الشرطة والخدمة العسكرية ، وسكن تذمرهم بما كان يؤديه لهم من الأجور العالية . أما مناصب الإدارة والقضاء فقد ظلت فى أيدى الرومان ، وترك ثلثى أرض إيطاليا الزراعية للرومان أنفسهم ووزع الثلث الباقى على القوط ، ومع هذا فقد بقيت بعض الأراضى الصالحة للزراعة فى إيطاليا من غير أن تفلح . وافتدى ثيودريك الرومان الذين وقعوا فى أسر الأمم الأخرى ، وأسكنهم إيطاليا ، وأقطعهم فيها أرضاً يزرعونها ؛

وجفف المستنقعات البنتية ، وأعادها أرضاً صالحة للزراعة غير مضرة بالصحة . وكان ثيودريك يؤمن بضرورة تنظيم الحالة الاقتصادية وإخضاعها لسيطرة الحكومة ، فأصدر « مرسوماً خاصاً بالأثمان التي يجب أن تكون في رافنا » . ولسنا نعرف كيف كانت هذه الأثمان ، وكل ما يقال لنا هو أن نفقات الطعام في حكم ثيودريك كانت أقل مما كانت عليه قبل بمقدار ثلثها . وأنقص عدد موظفي الحكومة ومرتباتهم ، ومنع الإعانات التي كانت تعطى للكنيسة ، وخفض الضرائب . ومع هذا فقد كانت إيرادات الدولة تكفي لإصلاح كثير من الضرر الذي ألحقه الغزاة بروما وإيطاليا ، ولإقامة قصر متواضع في رافنا وكنيستي سنتا أبليناري Sant' Appollinare وسان ڤيتال San Vitale . وفي أيامه استعادت ڤيرونا ، وبافيا ، ونابلي ، واسپوليتو Spoleto وغيرها من مدن إيطاليا ما كان بها في أيام عزها من مبان فخمة . وبسط ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصيل من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي ؛ وصاغ وزيره كسيودوروس Cassiodorus الكاثوليكي المذهب سياسة الحرية الدينية في تلك العبارة الخالدة ! « ليس في مقدورنا أن نسيطر على الدين ، لأننا لا نستطيع أن نرغم أحداً على أن يؤمن بما لا يريد أن يؤمن به »(*)(٦٦) . وكتب مؤرخ بيزنطي يدعى پروكپيوس Procopius من مؤرخي الجيل التالي يثني على الملك « البربري » ثناء ليس فيه شيء من المحاباة فقال :

لقد كان ثيودور شديد الحرص على مراعاة العدالة . . . وبلغ أعلى درجات الحكمة والرجولة . . . . ومع أنه كان من الناحية الاسمية مغتصباً للملك ، فقد كان في واقع الأمر إمبراطوراً بحق ، لا يقل في ذلك عن أي إمبراطور ممن ميزوا أنفسهم في هذا المنصب الخطير منذ بداية التاريخ . وكان القوط والرومان جميعاً

(*) يذكرنا هذا بقول الله عز وجل يخاطب نبيه الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . (المترجم)

يحبونه أعظم الحب ... ولم يكن كل ما تركه قبل وفاته هو الرعب الذى قذفه فى قلوب أعدائه ، بل إنه ترك فوق ذلك فى قلوب رعاياه شعوراً قوياً بالخسارة والحرمان(٦٧) .

٢ – بؤيثيوس

وفى هذه البيئة التى عمها السلم والأمن بلغ الأدب اللاتينى آخر مرحلة من مراحل الرقى والازدهار . ومن أشهر أدباء ذلك العصر فلافيوش ماجنوس أورليوس كسيودورس Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus (٤٨٠ ؟ – ٥٧٣) الذى كان أمين سر أدوكر وثيودريك . وقد ألّف ، بناء على إشارة ثيودريك ، تاريخ القوط(٦٨) . وكان يهدف إلى أن يظهر للرومان المتشامخين أن للقوط أيضاً أبناء نبلاء وأعمالا مجيدة . ولعل أكثر من هذا موضوعية تاريخه الإخبارى الذى أرّخ فيه العالم كله من آدم إلى ثيودريك ، ونشر فى أواخر حياته السياسية مجموعة من رسائله وأوراقه المتعلقة بشئون الدولة ، بعضها سخيف بعض السخف ، وبعضها كثير المبالغة والتباهى ، وبعضها يكشف عن مستوى أخلاقى رفيع ومقدرة إدارية عظيمة كان يتصف بهما الوزير ومليكه . ولما شهد فى عام ٥٤٠ اضمحلال الحكومة التى خدمها ثم سقوطها اعتزل منصبه وآوى إلى ضيعته فى اسكويلاس Squillace بكلبريا Calabria ، وأنشأ هناك ديرين ، وعاش فيها عيشة وسطاً بين عيشة الرهبان والعظماء حتى وافته المنية فى سن الثالثة والتسعين . وقد علم زملاءه الرهبان أن ينسخوا المخطوطات ، الوثنية منها والمسيحية ، وأعد لهذا العمل حجرة خاصة . وحذت بعض المعاهد الدينية الأخرى حذوه ، ولهذا فإن كثيراً مما لدينا من الكنوز الحديثة المنقولة عن الأدب القديم هو ثمرة من ثمار أعمال النسخ التى تمت فى الأديرة ، والتى بدأها كسيودورس وزملاؤه الرهبان . وألّف فى أواخر سنى حياته كتاباً مدرسيا سماه : منهجا فى

الدين والدراسات غير الدينية دافع فيه دفاعاً جريئاً عن قراءة الآداب الوثنية ، واتبع فيه منهج الدراسة المدرسي الذى وضعه مريانوس كابلا Mariatus Capella والذى قسم فيه العلوم إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية ، وهو التقسيم الذى ظل متبعاً فى التعليم طوال العصور الوسطى .

وكانت حياة أنيسيوس مانليوس سفرينوس بوئيثيوس Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٧٥ ؟ — ٥٢٤) شبيهة بحياة كسيودورس فى كل شىء إلا فى قصر مدتها . فكلاهما من أبناء الأسر الرومانية الغنية ، وكلاهما كان وزيراً لثيودريك ، وكلاهما بذل جهداً كبيراً لسد الثغرة التى تفصل الوثنية عن المسيحية ، وكتب كتباً مملة ظلت ألف عام تقرأ وتعد من الذخائر القيمة . وكان والد بوئيثيوس قنصلا فى عام ٤٨٣ ، وكان والد زوجته سياخوس الأصغر من نسل سياخوس الذى دافع عن مذبح الحرية . وتعلم أحسن تعليم تستطيع رومة أن تقدمه لأبنائها ، ثم قضى بعدئذ ثمانية عشر عاماً فى مدارس أثينة عاد بعدها إلى قصوره الريفية فى إيطاليا ، وانهمك فى الدرس ، واعتزم أن ينقذ عناصر الثقافة اليونانية واللاتينية القديمة التى رآها آخذة فى الزوال ، فوهب وقته كله — وهو أكبر ما يعتز به العالم المجد — فى تلخيص كتب إقليدس فى الهندسة النظرية ونقوماخوس فى الحساب ، وأرخميديز فى علم الحيل (الميكانيكا) وبطليموس فى الفلك . . . وكانت ترجمته لرسالة أرسطو فى المنطق (Organon) وكتاب برفيرى Porhyry المعروف باسم مقدمة لمقولات أرسطو هى التى استمد منها علم المنطق فى السبعة القرون التالية أهم نصوصه وأفكاره ، وهى التى مهدت السبيل للجدل الطويل بين الواقعية والاعتبارية . وحاول بوئيثيوس أن يكتب أيضاً فى اللاهوت : فألف رسالة فى التثليث دافع فيها عن النظرية المسيحية السائدة ، ووضع المبدأ القائل إنه إذا اختلف الدين والعقل وجب اتباع الدين . وليس فى

هذه المؤلفات كلها ما هو خليق بالقراءة فى هذه الأيام ، ولكننا مهما أطنبنا فى وصف آثارها فى التفكير فى العصور الوسطى فإنا لا يمكن أن نتهم بالمبالغة فى هذا الوصف .

وأوحت إليه تقاليد أسرته أن يتنحى عن هذه الأعمال المغلقة على الأفهام ، وأن ينزل إلى خضم الحياة السياسية . وارتقى فى هذه الحياة رقيا سريعاً ، فكان قنصلا ، ثم وزيراً ، ثم سيد المناصب — أى رئيس الوزراء (٥٢٢) . وامتاز فى هذه المناصب كلها بحبه للإنسانية وبفصاحته ، وكان الناس يشبهونه بدمستين وشيشرون . لكن العظمة تخلق للعظيم أعداء ، فقد ساء الموظفين القوط فى بلاط الملك ما رأوه من عطفه على السكان الرومان والكاثوليك ، وأثاروا شكوك الملوك فيه ، وكان ثيودريك وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل لا يدرى كيف ينقل إلى خليفته حكما مستقراً تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان ، وثمانية أعشارها كاثوليك . وكان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن الكنيسة والأشراف يناصبانه العداء ، وأنهما يترقبان موته بفارغ الصبر . وكان مما قوى هذه الشكوك أن جستنيان نائب الإمبراطور فى بيزنطية أصدر مرسوماً يقضى بنفى جميع المانيين من الإمبراطورية ، وتحريم جميع المناصب المدنيـــة والعسكرية على جميع الوثنيين والمارقين — بما فيهم جميع الأريوسيين ما عدا القوط . وظن ثيودريك أن هذا الاستثناء لا يقصد به إلا إضعاف حجته ، وأن جستنيان سيرجع فيه عند أول فرصة ، ورأى أن هذا المرسوم جزاء غير عادل للحريات التى منحها أتباع العقيدة الكنسية الأصيلة فى الغرب . ألم يرفع إلى أعلى مناصب الدولة بوئيتيوس الذى كتب رسالة عن التثليث يعارض فيها العقيدة الأريوسية ؟ وفى تلك السنة نفسها سنة ٥٢٣ أهدى إلى كنيسة القديس بطرس مائلتين فخمتين من الفضة المصمتة دليلا على مجاملته للبابا . لكنه مع هذا قد أغضب طائفة كبيرة من

السكان بحمايته لليهود ، ذلك أنه حين دمر الغوغاء معابدهم فى ميلان ، وجنوى ، ورومة أعاد بناءها من الأموال العامة :

وفى هذه الظروف ترامى إلى ثيودريك أن مجلس الشيوخ يأتمر به ليخلعه . وقيل له إن زعيم المؤامرة هو ألبينوس Albinus رئيس مجلس الشيوخ وصديق بؤيثيوس . فما كان من العالم الكريم إلا أن أسرع إلى ثيودريك وأكد له براءة ألبينوس وقال له : « إذا كان ألبينوس مذنباً فإنى أنا ومجلس الشيوخ كله لا تقل عنه جرما » . وقام ثلاثة رجال ذوى سمعة سيئة يتهمون بؤيثيوس بالاشتراك فى المؤامرة ، وقدموا وثيقة عليها توقيع بؤيثيوس ، موجهة إلى إمبراطور بيرنطية تدعوه إلى فتح إيطاليا . وأنكر بؤيثيوس هذه التهم كلها ، وقال إن الوثيقة مزورة ، لكنه اعترف فيما بعد بأنه : « لو كان هناك أمل فى أن يوصلنا ذلك إلى الحرية لما ترددت فيه ، ولو أننى عرفت أن هناك مؤامرة على الملك . . . لما عرفتم نبأها منى » [٧٠] . فلما قال هذا قبض عليه (٥٢٣) .

وسعى ثيودريك لأن يتفاهم مع الإمبراطور ، وكتب إلى جستين رسالة خليقة بالملك الفيلسوف قال فيها :

« إن من يدعى لنفسه حق السيطرة على الضمائر يغتصب حق الله وحده على عباده ، أما سلطان الملوك فهو بطبيعة الأشياء مقصور على الحكومة السياسية ، وليس من حقهم أن يعاقبوا إنساناً إلا إذا عكر صفو السلم العام . وليس ثمة أشد خطورة من مروق الملك الذى يفصل نفسه عن قسم من رعاياه لأنهم لا يؤمنون بما يؤمن هو به »[٧١] .

ورد عليه جستين بقوله : إن من حقه أن يحرم من مناصب الدولة من لا يثق بولائهم له ، وإن نظام المجتمع يتطلب وحدة العقيدة . وطلب الأريوسيون فى الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم ، فطلب إلى البابا يوحنا الأول أن يسافر إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور فى أمر الأريوسيين

المفصولين من وظائفهم . ورد عليه البابا بأن هذه رسالة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضى على الزيغ والضلال ، ولكن ثيودريك أصر على طلبه . وقوبل يوحنا فى القسطنطينية بحفاوة بالغة ، ثم عاد صفر اليدين ، فاتهمه ثيودريك بالخيانة ، وألقاه فى السجن ، حيث مات بعد سنة واحدة[٧٢] .

وفى هذه الأثناء كان ألبينوس وبوئيثيوس قد حوكما أمام الملك وأدينا وحكم عليهما بالإعدام . وروع هذا الحكم مجلس الشيوخ فأصدر مراسيم يتبرأ فيها منهما ويصادر أملاكهما، ويقر العقوبة التى حكم بها عليهما . وقام سيماخورس يدافع عن زوج ابنته فاعتقل . وألف بوئيثيوس وهو فى السجن كتاباً من أشهر ما ألف من الكتب فى العصور الوسطى وهو كتاب سلوى الفلاسفة Consolatione Pphilosopniae ، وجمع فيه بين النثر العادى والشعر البديع الساحر ، لم يذرف فيه دمعه ، بل كان كل ما يحتويه هو تسليم كتسليم الرواقيين بتصرفات الأقدار التى تخبط خبط عشواء ، ومحاولة صادقة للتوفيق بين مصائب الأبرار وما يتصف به المولى سبحانه وتعالى من حب للخير ، وقدرة على كل شىء ، وعلم سابق بما يقع فى الكون من أحداث . ويذكر بوئيثيوس نفسه بجميع النعم التى توالت عليه فى حياته — من ثراء وحسب نبيل ، وزوجة طاهرة ، وأبناء بررة . ويتذكر المناصب العليا التى شغلها ، والساعة العظيمة التى هز فيها بفصاحة لسانه مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ حين كان ولداه القنصلان هما رئيسيه . ويقول لنفسه إن هذه السعادة لايمكن أن تدوم إلى أبد الدهر ، بل لابد أن توجه الأقدار بين الفينة والفينة لمن ينعم بها ضربة تطهره وتزكيه . وتلك السعادة العظيمة خليقة بأن تذهب تلك الجائحة القاصمة[٧٣] . ومع هذا فإن ذكرى تلك السعادة الماضية من شأنها أن تزيد من حدة الألم . وفى ذلك يقول بوئيثيوس فى بيت من الشعر يردد دانتى صداه على لسان فرنسسكا Francesca : « إن أعظم ما يشقى به

الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم . من سعادة »[٧٤]
وهو يسأل السيد الفلسفة — بعد أن ينزلها منزلة العقلاء كما كان يفعل أهل
العصور الوسطى — عن موضع الفلسفة الحقة ، ويتبين أنها لا تكون فى المال
أو المجد ، ولا فى اللذة أو السلطان ؛ ومن ثم يرى أنه لا توجد سعادة حقة
أو دائمة إلا فى الاتصال بالله ، ويقول إن « النعمة الحقة هى الاتصال
بالله »[٧٥] . ومن أغرب الأشياء أنه ليس فى الكتاب كله سطر واحد يشير
إلى فساد الأخلاق الشخصية ، وليس فيه أية إشارة إلى المسيحية أو أية عقيدة
من عقائدها ، ولا سطر واحد غير خليق بأن يكتبه زينون ، أو أبيقور ،
أو أورليوس . ومن ثم فإن آخر كتاب فى الفلسفة الوثنية قد كتبه مسيحى
تذكر فى ساعة موته أثينة لا جلجوتا Golgotha .

ودخل عليه الجلاد فى اليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر من عام
٥٢٤ ، ثم ربطوا عنقه بحبل وشدوه حتى جحظت مقلتاه وخرجتا من
وقبيهما ، ثم انهالا عليه ضرباً بالعصى الغليظة حتى قضى نحبه . وقتل
سماخوس بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . ويقول بروكبيوس[٧٦] إن
ثيودريك بكى لما ارتكبه من ظلم فى حق بوئثيوس وسماخوس ، وفى
عام ٥٢٦ لحق ضحيته إلى القبر . .

ولم تبق مملكته طويلا بعد موته ، وكان قبل وفاته قد اختار حفيده أثلريك
Athalric ليخلفه على العرش ؛ ولم يكن حفيده هذا قد تجاوز العاشرة من عمره
ولذلك حكمت أمه أمالاسنثا Amalasuntha ، وكانت امرأة نالت قسطاً كبيراً
من التعليم والتثقيف ، وكانت صديقة لكسيدورس أو لعلها كانت تلميذة له ؛
فلما شرعت تحكم البلاد باسم ولدها دخل فى خدمتها كما كان من قبل فى خدمة
أبيها ؛ ولكنها كانت تميل كل الميل إلى الأساليب الرومانية ، فأغضبت بذلك
رعاياها القوط ، ولم يكونوا راضين عن الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة التى

كانت تضعف بها ، كما يرون ، مليكهم الصغير . لهذا أسلمت ابنها إلى مربين من القوط ، وأطلق الصبي العنان لشهواته الجنسية ، ومات في الثامنة عشرة من عمره . وأجلست أمالاسنثا ابن عمها ثيوداهاد Theodahad معها على العرش بعد أن أخذت عليه المواثيق بأن يترك لها شئون الحكم . ولكنه لم يلبث أن خلعها وألقاها في السجن ، فطلبت إلى جستنيان ، الذي أصبح وقتئذ إمبراطور الدولة البيزنطية ، أن يخف لمعونتها ، فجاءها بلساريوس Belisarius .

الباب الخامس

جستنيان

٥٢٧ – ٥٦٥

الفصل الأول

الإمبراطور

توفى أركاديوس فى عام ٤٠٨ وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثانى ، إمبراطوراً على الشرق ولما يتجاوز السابعة من العمر . وقامت بلشيريا Pulcheria ، وكانت تكبره بعامين ، بتربيته ، وكانت طوال المدة التى أشرفت فيها على تربيته تظهر من الجزع والإشفاق عليه ما جعله غير أهل للحكم ، ولهذا ترك شئون الدولة لرئيس الحرس ولمجلس الشيوخ ، وانهمك هو فى نسخ المخطوطات القديمة وتزيينها ، ويبدو أنه لم يقرأ قط كتاب القوانين الذى خلد اسمه . وفى عام ٤١٤ أصبحت بلشيريا وصية على العرش وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، وظلت تصرف شئون الإمبراطورية ثلاثاً وثلاثين سنة ، ونذرت هى وأختاها أنفسهن بأن يظللن عذارى . ويبدو أنهن قد أوفين بالنذر ، فقد كن يلبسن ملابس بسيطة تنم عن الزهد والتقشف ، ويؤلفن وينشدن الترانيم الدينية ، ويصلين ، وينشئن المستشفيات ، والكنائس ، والأديرة ، ويغدقن عليها العطايا . واستحال القصر ديراً ، وحرم دخوله إلا على النساء وعدد قليـــل من رجال الدين . وفى وسط هذه المظاهر الدينية حكمت بلشيريا ، ويودسيا زوجة أخيها ، ووزراؤهما ، البلاد حكماً صالحاً ، وهب الإمبراطورية الشرقية فى خلال نيابتهما عن ثيودسيوس التى

دامت اثنتين وأربعين سنة هدوءاً لم تعهده من زمن بعيد ، بينا كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى الغرب . وكان أهم حوادث ذلك العهد التى لم يمح ذكراها من صفحات التاريخ نشر شرائع ثيودوسيوس (٤٣٨) . فقد عهد فى عام ٤٢٩ إلى طائفة من فقهاء القانون بأن يجمعوا كل ما سن فى الإمبراطورية من قوانين مذ جلس قسطنطين على العرش ؛ ونفذت الشرائع الجديدة فى الشرق والغرب على السواء ، وظلت هى الشرائع المعمول بها فى الإمبراطورية حتى نشرت شرائع جستنيان التى كانت أعظم منها وأوسع .

وحكم الإمبراطورية الشرقية بين ثيودوسيوس الثانى وجستنيان الأول حكام كثيرون ، كان الناس يلهجون بذكرهم فى أيامهم ، أما الآن فلا يكاد يعرف عنهم أكثر من أسمائهم . إن سير العظماء كلها لتذكرنا بأن الخلود قصير الأجل ! وحسبنا أن نذكر من هؤلاء الحكام ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) الذى أرسل لمحاربة جيسريك (٤٦٧) أكبر أسطول حشدته حكومة رومانية ؛ ولكن هذا الأسطول هزم ودمر . وأحدث زينون الإصورى Zenothe Isaurian زوج ابنته شقاقاً خطراً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية بسبب رغبته فى تهدئة ثائرة اليعقوبيين ، وذلك حين قرر فى رسالته « التوحيدية » المعروفة باسم الهنوتيكون Henoticon أن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، وكان أناستاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) رجلا قديراً ، شجاعاً ، محباً للخير ؛ دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة ، وخفض الضرائب ، وألغى صراع الآدميين مع الوحوش فى الحفلات والألعاب ، وجعل القسطنطينية أمنع من عقاب الجو بإنشاء « الأسوار الطويلة » ، التى كانت تمتد أربعين ميلا من بحر مرمرة إلى البحر الأسود ، وأنفق الكثير من أموال الدولة فى غير هذه من الأعمال العامة الكثيرة ، وترك فى خزائنها ٣٢٠,٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤,٤٠٠,٩٠٠ ريال أمريكى) هى التى مهدت السبيل لفتوح جستنيان . لكن الشعب لم يعجبه اقتصاده وميوله

اليعقوبية ، فحاصر الغوغاء قصره ، وقتلوا ثلاثة من أعوانه . ثم أشرف عليهم تعلوه مهابة الشيخوخة التي قاربت الثمانين ، وعرض عليهم أن ينزل عن العرش إذا اتفق الشعب على من يختاره خليفة له . وكان هذا شرطاً مستحيل التنفيذ ، انتهى الأمر بعده بأن طلبت إليه الجماهير الثائرة أن يحتفظ بالتاج . ولما توفى بعد قليل من ذلك الوقت اغتصب الملك جستين ، وهو شيخ أمى (٥١٨ – ٥٢٧) ، يحب الراحة التي يميل إليها ابن السبعين ، ولذلك ترك حكم الإمبراطورية إلى جستنيان نائبه وابن أخيه .

ولم يكن هذا الاختيار ليروق فيما بعد "من يوم أن ولد جستنيان نفسه ، في عين پركپيوس مؤرخه وعدوه . ذلك بأن الإمبراطور قد ولد في عام ٤٨٣ من أبوين مزارعين من أصل إليرى – أو لعله صقلبي[١] – يقيمان بالقرب من سرديكا Sardica وهي مدينة صوفيا الحالية . وجاء به عمه جستين إلى القسطنطينية ورباه تربية صالحة . ولما أصبح جستنيان ضابطاً في الجيش ولبث تسع سنين ياوراً ومساعداً لجستين ، أظهر في عمله براعة عظيمة . ولما مات عمه (٥٢٧) خلفه على عرش الإمبراطورية ، وكان وقتئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، متوسط القامة والبنية ، حليق الذقن ، متورد الوجه ، متجعد الشعر ، رقيق الحاشية ، تعلو ثغره ابتسامة تكنى لأن تخفي وراءها ما لا يحصى من الأغراض ، وكان متقشفاً في طعامه وشرابه تقشف الزهاد ، لا يأكل إلا قليلا ، ويعيش معظم أيامه على الخضر[٢] . وكثيراً ما كان يصوم حتى تكاد تخور قواه . وكان في أثناء صيامه لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ مبكراً ، وتصريف شئون الدولة « من مطلع الفجر إلى الظهيرة ، وإلى غسق الليل » ، وكثيراً ما كان يظن أعوانه أنه قد آوى إلى مضجعه ، بينا كان هو منهمكا في الدرس ،"يبذل جهده ليكون موسيقياً ومهندساً معمارياً ، وشاعراً ومشترعاً ، وفقيهاً في الدين وفيلسوفاً ، وإمبراطوراً يجيد تصريف شئون الإمبراطورية . ولكنه رغم هذا كله لم يتخل عن خرافات

عصره . وكان ذا عقل نشيط على الدوام ، عظيم الإلمام بالشئون الكبرى والتفاصيل الصغرى . ولم يكن قوى الجسم أو شجاعاً ، وقد حدثه نفسه بالتخلى عن الملك فى أثناء المتاعب التى قامت فى بداية حكمه ، ولم ينزل قط إلى الميدان فى حروبه الكثيرة . ولعل من عيوبه الناشئة من دماثة خلقه ورقة طبعه ، أن كان من السهل على أصدقائه أن يؤثروا فيه ، ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب فى سياسته . ويخضع فى أحكامه لزوجته . وقد خص پروكپيوس جستنيان بمجلد كامل من تاريخه ، يصفه بأنه « عديم الإخلاص ، مخادع ، منافق ، يخفى عن الناس غضبه ، يظهر غير ما يبطن ، حاذق ، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأى الذى يدعى أنه يعتنقه ، بل إنه يستطيع فى كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه . . . إذا اقتضت الظروف ذلك »[٣] . وغير أن هذا كله يصح أن يكون وصفاً للدبلوماسى القدير . ويواصل پروكپيوس وصفه فيقول : « وكان صديقاً متقلباً فى صداقته ، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده ، حريصاً كل الحرص على الاغتيال والنهب » . ويلوح أنه كان يتصف بهذا كله فى بعض الأوقات ، ولكنه كان يستطيع أن يكون كريماً رحيما . من ذلك أن قائداً يدعى پروبوس Probus قد اتهم بسببه ، فجىء به ليحاكم بتهمة الخيانة ، ولما عرض التقرير الذى وضع عن محاكمته على جستنيان قام من مقعده وأرسل رسالة إلى پروبوس يقول فيها : « إنى أغفر لك ما ارتكبته من ذنب فى حقى ، وأدعو الله أيضاً أن يسامحك »[٤] . وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه « وكان هذا الرجل الظالم » ، الذى رزئ بمؤرخه « أسهل منالا من أى إنسان آخر فى العالم ، وكان أحقرُ الناس فى الدولة ، ومن لا شأن لهم فيها على الإطلاق ، يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا إليه ليتحدثوا معه »[٥] .

ومع هذا فقد عمل على أن يجعل ما كان يقام فى بلاط الإمبراطور من مراسم وحفلات غاية فى الأبهة والفخامة ، حتى فاقت ما كان يحدث منها فى أيام دقلديانوس .

وقسطنطين . وكان كناپليون يعوزه التأييد الذى يناله المليك الشرعى ، وذلك لأنه ورث الملك من مغتصب له . ولم يكن مهيباً فى مظهره أو منشئه ؛ ومن أجل هذا عمد إلى طقوس ومراسم تبعث الرعب فى القلوب كلما ظهر أمام الجماهير أو السفراء الأجانب . ولهذا السبب عينه شجع فكرة الملكية المقدسة ، واستخدم لفظ مقدس فى وصف شخصه ومُلكه ؛ وكان يطلب إلى من يمثلون أمامه أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الأرجوانى ، أو أصابع قدميه من فوق حذاءيه(*) . وعمل على أن يعمده ويتوجه بطريق القسطنطينية ، ولبس قلادة من اللؤلؤ . وقصارى القول أنه ما من حكومة قد عملت ما عملته الحكومة البيزنطية لتنال إجلال الشعب لها عن طريق المراسم الفخمة . ولقد كان لهذه السياسة أثرها إلى حد كبير ؛ ولسنا ننكر أنه قد حدثت انقلابات كثيرة فى تاريخ بيزنطية ولكنها كانت فى معظم الأحوال انقلابات مفاجئة قام بها موظفو القصر ، لأن الحاشية نفسها لم تكن ترهبها ما وضعته لنفسها من مراسم وطقوس .

وكانت أكبر فتنة قامت فى عهد جستنيان هى التى حدثت فى بدايته (٥٣٢) وكادت أن تقضى على حياته . وكان سببها أن الخضر والزرق — وهم الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل القسطنطينية حسب الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق المحببون — قد بلغت الخصومة بينهم حد العنف ، حتى أصبحت شوارع العاصمة غير مأمونة ، وحتى اضطر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بذلك من طعنات الخناجر فى الليل . وانقضت الحكومة آخر الأمر على الطائفتين المتنازعتين ، وقبضت على عدد كبير من زعمائهما ، فما كان من هذين الحزبين إلا أن ضما صفوفهما وقاما بفتنة مسلحة ضد الحكومة ، وأكبر

(*) لقد كان الرداء الأرجوانى من زمن بعيد الثوب الخاص الذى يميز الإمبراطور من غيره من رجال الدولة . وكانت عبارة « ارتداء الثياب الأرجوانية » فى ذلك الوقت مرادفة للجلوس على العرش .

الظن أن بعض الشيوخ قد اشتركوا فى هذه الفتنة ؛ وحاول رعاع المدن أن يقلبوها ثورة عارمة ، فهجموا على السجون ، وأطلقوا سراح المسجونين ، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة والموظفين ، وأشعلت النار فى بعض المبانى ، وحرقت كنيسة أياصوفيا وأجزاء من قصر الإمبراطور . وهتفت الجماهير قائلة « Niha » أي النصر — وبذلك أطلق هذا الاسم على تلك الفتنة . وأفقد هذا النصر الشعب وعيه ، فطالب بإبعاد اثنين من أعضاء مجلس جستنيان ، لم يكن يحبهما ، ولعل سبب ذلك أنهما كانا من ظلمة الحكام ؛ ووافق الإمبراطور على هذا الطلب ، فازداد العصاة جرأة وأقنعوا هيپاشيوش Hypatius ، أحد الشيوخ ، بأن يقبل التاج ؛ فقبله على الرغم من معارضة زوجته وتوسلها إليه ألا يقبله ، وخرج بين هتاف الجماهير ليجلس على مقعد الإمبراطور فى الألعاب التى كانت قائمة على قدم وساق فى الميدان الكبير . واختبأ جستنيان أثناء ذلك فى القصر ، وأخذ يدبر أمر الهرب . ولكن الإمبراطورة ثيودورا أقنعته بالعدول عن هذه الفكرة ، وأشارت عليه بالمقاومة . وتعهد بلساريوس قائد الجيش أن يقوم بهذا العمل ، واختار من بين جنوده عدداً من القوط ، وسار على رأسهم إلى ميدان الألعاب ، وقتل ثلاثين ألفاً من العامة ، وقبض على هيپاشيوس ، وأمر بقتله فى السجن . وأعاد جستنيان الموظفين المفصولين إلى عملهما ، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ ، ورد إلى أبناء هيپاشيوس ما صودر من أملاكهم[٦] . وظل جستنيان بعد هذه الفتنة آمناً على نفسه وملكه خلال الثلاثين عاماً التالية ، ولكن يبدو أن إنساناً واحداً لا أكثر هو الذى كان يحبه .

الفصل الثانى

ثيودورا

وصف پروكپيوس فى كتاب له عن فن البناء تمثالا لزوجة چستنيان فقال : « إنه جميل ، ولكن جماله أقل من جمال الإمبراطورة ؛ ذلك بأن التعبير عن جمالها بالقول ، أو إبرازه فى تمثال عمل لا يستطيعه مخلوق من البشر »(٧) . ولسنا نجد فى كل ما كتب هذا المؤرخ — وهو أعظم المؤرخين البيزنطيين على بكرة أبيهم — إلا الثناء على ثيودورا ، إذا استثنينا موضعاً واحداً لا أكثر من هذا التعميم . ولكن پروكپيوس قد كشف فى كتاب له لم ينشر فى أثناء حياته — ولهذا سمى الأنكدوتا Anecdota « أى الذى لم يخرج » — عن فضيحة للملكة قبل زواجها . وقد بلغت هذه القصة من الشناعة حداً بعث على الشك فيها وجعلها مثاراً للجدل مدى ثلاثة عشر قرناً . وهذا « التاريخ السرى » موجز لما كان فى صدر المؤرخ من حقد دفين صريح ، وقد كتبه من وجهة نظر واحدة ، وخصه كله بتسوئه سمعة چستنيان وثيودورا ، وبليساريوس بعد وفاتهم . وإذ كان پروكپيوس هو أهم المراجع التى نعتمد عليها فى تأريخ ذلك العصر ، وإذ كان هو نفسه يبدو فى مؤلفاته الأخرى دقيقاً نزيهاً ، فإنا لا نستطيع أن نرفض الأنكدوتا ونعدها كلها تزييفاً وافتراء ، وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هو أنها انتقام عمد إليه رجل غاضب من رجال الحاشية لم تتحقق مطامعه . وهاهو ذا چون الإفسوسى ، الذى كان يعرف الإمبراطورة حق المعرفة ، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها : « ثيودورة العاهر »(٨) . وفيما عدا هذا فإنا قلما نجد فى أقوال المؤرخين المعاصرين ما يؤيد التهم التى رماها بها پروكپيوس . نعم إن كثيرين من رجال الدين ينددون بمروقها ، ولكن ما من أحد منهم يذكر شيئاً عن فجورها — وهو كرم منهم

لا يقبله العقل إذا كانت فاجرة بحق . وقد يكون فى مقدورنا أن نستنتج من كل ما يقال عن ثيودورا أنها بدأت حياتها سيدة غير مكملة ، واختتمتها ملكة متصفة بجميع صفات الملوك الطيبة .

ويقول پروكپيوس قول الواثق إنها ابنة مدرب دببه ، وإنها نشأت فى جو حلبة ألعاب الوحوش ، ثم صارت ممثلة ومومسا ، تثير مشاعر أهل القسطنطينية ، وتدخل البهجة على قلوبهم بتمثيل المسرحيات الصامتة الخليعة . ونجحت أكثر من مرة فى إجهاض نفسها ، ولكنها ولدت ابناً غير شرعى ، وصارت عشيقة رجل سورى يدعى هسبولوس Hecebolus ، ثم هجرها هذا العشيق ، واختفت عن الأعين فترة من الزمان فى الإسكندرية ، عادت بعدها إلى الظهور فى القسطنطينية فقيرة ولكنها عفيفة شريفة ، تكسب قوتها بغزل الصوف . ثم أحبها جستنيان ، فاتخذها عشيقة له ، ثم تزوج بها وجعلها ملكة[٩] . وليس فى وسعنا الآن أن نعرف على وجه التحقيق ما فى هذه الأقوال من صدق وكذب ؛ ولكن الذى نستطيع أن نقوله إذا كانت هذه المقدمات لم تقلق بال إمبراطور فهى خليقة بألا نقف عندها طويلا . وتوج جستنيان فى كنيسة القديسة صوفيا بعد أن تزوجها بزمن قليل ، وتوجت ثيودورا إمبراطورة إلى جانبه ، ويقول پروكپيوس إنه « ما من قسيس أظهر غضبه لهذا الإجرام الشنيع »[١٠] .

وأيا كان منشأ ثيودورا فإنها أضحت بعد زواجها بالإمبراطور سيدة لا يستطيع أحد أن يتهمها فى عفافها . وكانت تحب المال والسلطان حبا جماً ، وتثور فى بعض الأحيان ثورة جامحة ، وتدبر المؤامرات لتصل بها إلى أغراضها التى لا تتفق مع أغراض جستنيان . وكانت نؤوما ، تكثر من الطعام والشراب ، وتحب الترف ، والحلى ، والمظاهر ، وتقضى عدداً كبيراً من أشهر السنة فى قصورها القائمة على شاطئ البحر . لكن جستنيان ظل طول حياته يحبها رغم هذه الصفات ، ويصبر صبر الفلاسفة على تدخلها فى خططه وأعماله . لقد خلع عليها وهو كلف بها حلة

من السيادة لاتقل من الوجهة النظرية عن سيادته هو ، ولم يكن فى مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة . وقد اشتركت اشتراكاً فعلياً فى السياسة الخارجية والشئون الكنسية ، وكانت تنصب البابوات والبطارقة وتخلعهم ، وتعزل أعداءها من مناصبهم . وكانت فى بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها ، وكثيراً ما كانت أوامرها هى فى صالح الدولة ، ذلك أن ذكاءها كان يتناسب مع سلطانها . ويتهمها پروكپيوس بقسوتها على معارضيها ، وبأنها ألقت بعضهم فى الجب وقتلت عدداً قليلا منهم . وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يختفون دون أن يقف لهم أحد على أثر ؛ وكانت تسير فى هذا على المبادئ الأخلاقية السائدة بيننا فى هذا القرن الذى نعيش فيه . لكنها لم يخل قلبها من الرحمة ، من ذلك أنها بسطت حمايتها على البطريق أنثميوس الذى أمر چستنيان بنفيه لمروقه من الدين ، وأخفته فى جناحها عامين كاملين . ولعلها كانت لينة فوق ما ينبغى مع زوجة بليساريوس التى عرفت بالزنى . ولكنها كفرت عن هذا بإقامة « دير للتوبة » جميل تلجأ إليه العاهرات التائبات . على أن بعض التائبات قد تبن من توبتهن ، وألقين بأنفسهن من النوافذ لأنهن ضقن ذرعاً بالدير وفضلن عليه الموت[١٢] . وكانت تعنى عناية الجدات بزواج صديقاتها ، وكان لها هى الفضل فى ترتيب هذه الزيجات ، وكثيراً ما كانت تجعل الزواج شرطاً أساسياً للرقى فى بلاطها . ولقد صارت فى شيخوختها حارسة قوية الشكيمة للأخلاق الكريمة وهو ما ينتظره الإنسان من أمثالها .

ثم وجهت عنايتها فى آخر حياتها لدراسة الدين ، وكانت تناقش زوجها فى طبيعة المسيح . فقد كان چستنيان يبذل غاية جهده ليوحد الكنيستين الشرقية والغربية لاعتقاده أن الوحدة الدينية لا بد منها لوحدة الإمبراطورية . غير أن ثيودورا لم تكن تستطيع أن تفهم وجود طبيعتين فى المسيح ، وإن لم تجد صعوبة ما فى وجود ثلاثة أقانيم فى الله . ومن أجل هذا اعتنقت مذهب اليعاقبة ،

وهى تعلم أن الشرق لا يمكن أن يخضع للغرب فى هذه العقيدة . لكنها كانت ترى أن قوة الإمبراطورية ومستقبلها إنما يعتمدان على ولاياتها الغنية فى آسية ، وسوريا ، ومصر ، لا على ولاياتها الغربية التى خربها البرابرة وأهلكتها الحروب . وكان لها الفضل فى تخفيف حدة تعصب جستنيان للمذهب الدينى الأصيل ، وبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب ، وتحدت البابوية ، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة فى الشرق ؛ ولم تتردد فى سبيل تحقيق هذه الغايات فى أن تعارض بكل ما تستطيع من قوة الإمبراطور والبابا على السواء ؛

الفصل الثالث

بليساريوس

فى وسعنا أن نغتفر لجستنيان شغفه العظيم بالوحدة ، لأن هذا الشغف من أعظم ما يولع به الفلاسفة ورجال الحكم على السواء ؛ ولقد اقتضاهم فى بعض الأحيان أكثر مما اقتضتهم الحرب . ولم تكن استعادة أفريقية من الوندال ، وإيطاليا من القوط الشرقيين ، وأسبانيا من القوط الغربيين ، وغالة من الفرنجة ، وبريطانيا من السكسون ؛ ولم يكن طرد البرابرة إلى مرابضهم ، وإعادة الحضارة الرومانية إلى جميع ميادينها القديمة ، ونشر الشريعة الرومانية مرة أخرى فى جميع بقاع الرجل الأبيض من الفرات إلى سور هدريان ، لم تكن هذه المطامع كلها مطامع غير نبيلة ، وإن كانت قد أنهكت المنقذين ومن أريد إنقادهم على السواء . وكان من الوسائل التى اتبعها جستنيان لبلوغ هذا الغرض أن أزال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من نزاع حول مسألة البابوية ، وكان من أكبر أمانيه أن يرد الأريوسيين واليعاقبة وغيرها من الخارجين على الدين إلى حظيرته ، ولم يكن أحد قد فكر فى هذا كله منذ أيام قسطنطين .

ولقد كان من حسن حظ جستنيان أن وهب قادة عظماء ، ومن سوء حظه أنه كانت موارده المالية قليلة — فلقد كان شعبه غير راغب فى الحروب التى يريد أن يخوض غمارها ، وغير قادر على أداء ما تتطلبه من نفقات . وسرعان ما استنفد الثلثمائة والعشرين ألف رطل من الذهب التى تركها أسلاف جستين فى خزانة الدولة ، واضطر بعد استنفادها أن يلجأ إلى الضرائب التى نفرت منه قلوب الشعب ، وإلى ضروب الاقتصاد التى عرقلت أعمال قواده . وكانت الخدمة العسكرية الإجبارية العامة قد امتنعت قبل عهده بنحو مائة عام ، وأصبح جيش

الإمبراطورية يتألف كله تقريباً من جنود مرتزقة من البرابرة يؤتى بهم من مائة قبيلة ودولة ، ويعيشون على النهب والسلب ، ويحلمون بالثراء والاغتصاب ؛ وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة فى أشد أزمات القتال ، وكثيراً ما فقدوا ثمار النصر لاشتغالهم بجمع الغنائم والأسلاب ، ولم يكن شىء يجمعهم ويؤلف بينهم ، أو يشحذ هممهم إلا أداء أجورهم بانتظام أو خضوعهم لقواد عظام .

وكان بليساريوس ، كما كان جستنيان ، منحدراً من أسرة من الفلاحين الإليريين ، ويذكرنا بالأباطرة البلقانيين — أورليوس ، وپروبوس ، ودقلديانوس — الذين أنجوا الإمبراطورية فى القرن الثالث . ولسنا نعرف من أيام قيصر قائداً قبل بليساريوس انتصر فى وقائع كالتى انتصر فيها هذا القائد بمثل موارده القليلة من الرجال والمال . وما أقل من تفوقوا عليه فى رسم الخطط الحربية أو الحركات العسكرية ، وفى حب رجاله له وشفقته على أعدائه . ولعل مما يجدر ذكره فى هذا المقام أن أعظم القواد — كالإسكندر ، وقيصر ، وبليساريوس ، وصلاح الدين ، ونابليون — قد وجدوا أن الرحمة من أقوى أسلحة الحروب ؛ ولقد كان بليساريوس ، كما كان أولئك القواد ، ذا إحساس مرهف وقلب رقيق يجعلان من الجندى محباً والهاً بمجرد فراغه من واجباته الدموية . ومصداق هذا أن بليساريوس كان يشغف بحب أنطونينا كما كان الإمبراطور يشغف بحب ثيودورا . وكان هذا القائد يتحمل خيانتها له ، ولا يلبث أن ينسى غضبه من هذه الخيانة ، وكان يصحبها معه فى حروبه لكثير من الأسباب .

وكان أول ما نال من النصر فى حربه مع الفرس . ذلك أن الحرب قد تجددت بين الإمبراطوريتين بسبب المنافسة القديمة بينهما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى أواسط آسية وبلاد الهند ، وبعد أن جنحتا للسلم مدى مائة وخمسين عاماً . وبينما كان بليساريوس يتابع انتصاراته المجيدة إذ استدعى فجأة إلى القسطنطينية . وكان سبب استدعائه أن جستنيان عقد الصلح مع

بلاد الفرس (٥٣٢) بأن أدى إلى كسرى أنوشروان ١١٠٠٠ رطل من الذهب ، ثم أرسل قائده ليسترد أفريقية من الوندال . وكان جستنيان قد استقر رأيه على أنه لا يستطيع الاحتفاظ بفتوح دائمة فى بلاد الشرق لأسباب كثيرة : منها أن السكان سيظلون معادين له ، وأن الحدود يصعب عليه أن يدافع منها . أما الغرب ففيه أمم اعتادت الحكم الرومانى من عدة قرون ، وهى تبغض سادتها البرابرة الخارجين على الدين ، وتمد يد المساعدة للدولة الرومانية بالتعاون معها عليهم فى الحرب وبأداء الضرائب لها فى السلم . ومن أفريقية يستطاع أخذ الحبوب التى تسد أفواه أهل العاصمة فيسكتون عن توجيه اللوم للإمبراطور .

وكان جيسريك قد توفى بعد حكم دام تسعة وثلاثين عاماً (٤٧٧) ، وعادت أفريقية الوندالية بعد موته إلى معظم أساليبها الرومانية . فكانت اللاتينية لغتها الرسمية ، وكان الشعراء يكتبون بها شعراً ميتاً ليكرموا به الملوك المنسيين . وأعيد بناء دار التمثيل فى قرطاجنة ، وعاد الأهلون يمثلون المسرحيات اليونانية[١٤] ، ويعظمون آثار الفن القديم ، ويقيمون مبانى جديدة فخمة . ويصف پروكپيوس الطبقات الحاكمة بأنها من رجال مهذبين متحضرين ، تظهر عليهم فى بعض الأحيان مسحة من البربرية ولكنهم فى الأغلب الأعم قد أهملوا فنون الحرب ، وأخذوا يضعفون ويضمحلون شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس[١٥] .

واجتمعت فى البسفور فى شهر يونية من عام ٥٣٣ خمسمائة سفينة نقالة ، وتسع وتسعون بارجة حربية ، وتلقت أوامر الإمبراطور ، وبركات البطريق ، وأبحرت إلى قرطاجنة . وكان پروكپيوس من الذين صحبوا بليساريوس ، وكتب وصفاً رائعاً «لحروب الوندال» . ونزل بليساريوس فى أفريقية بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان ، واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجنة ، ولم تمض أكثر من بضعة أشهر حتى قضى على قوة الوندال . وعجل جستنيان فدعاه إلى

احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية ، فانقض المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية ، وأسرع بليساريوس بالعودة فى الوقت المناسب للقضاء على فتنة قامت بين جنوده ، وقادهم بعدها للنصر ، وبقيت أفريقية القرطاجنة من ذلك الحين خاضعة للحكم الرومانى إلى أن جاءها العرب فاتحين .

وكان جستنيان قد هداه دهاؤه السياسى إلى عقد حلف مع القوط الشرقيين حين كان بليساريوس يهاجم أفريقية ؛ فلما تم هذا الفتح أغرى الفرنجة بأن يعقدوا معه حلفاً آخر ، فى الوقت الذى أمر فيه بليساريوس بفتح إيطاليا التى كانت فى أيدى القوط الشرقيين . واتخذ بليساريوس بلاد تونس قاعدة له ، هاجم منها صقلية ، ولم يجد صعوبة فى الاستيلاء عليها ، ثم عبر البحر منها إلى إيطاليا فى عام ٥٣٦ ، واستولى على نابلى بأن أمر بعض جنوده أن يدخلوا المدينة زحفاً فى قنوات المياه المغطاة . وكانت قوات القوط الشرقيين ضعيفة منقسمة على نفسها ، ورحب سكان رومة ببليساريوس وحيوه تحية المحرر المنقذ ، كما رحب به رجال الدين لأنه من القائلين بالتثليث ، فدخل رومة دون أن يلقى مقاومة . وأمر ثيوداهاد Theadahad بقتل أمالاثنسا Amalathunsa ، فخلع القوط الشرقيون ثيوداهاد واختاروا وتجيس Wittigis ملكاً عليهم . وحشد وتجيس جيشاً مؤلفاً من ١٠٥٫٠٠٠ رجل حاصر به بليساريوس فى رومة . ولما اضطر أهلها إلى الاقتصاد فى الزاد والماء ، والامتناع عن الاستحمام فى كل يوم ، بدءوا يتذمرون من بليساريوس الذى لم يكن معه إلا خمسة آلاف رجل مسلح ، دافع بهم عن المدينة بمهارة وشجاعة ، اضطر معهما وتجيس أن يعود إلى رافنا بعد ما بذل من الجهد الكبير مدة عام كامل . وظل بليساريوس ثلاث سنين يلح على جستنيان بأن يمده بعدد آخر من الجند ، حتى أرسلهم آخر الأمر ولكنه عقد لواءهم لقواد معادين لبليساريوس . وعرض القوط الشرقيون المحاصرون فى رافنا ، والذين أوشكوا على الهلاك جوعاً ، أن يسلموا المدينة إذا رضى بليساريوس أن يكون

ملكاً عليهم . وتظاهر بليساريوس بالقبول حتى استولى على المدينة ، ثم أسلمها إلى جستنيان (٥٤٠) .

وشكر له الإمبراطور حسن صنيعه وداخلته فيه الريبة . ذلك أن بليساريوس قد كافأ نفسه على عمله بالاستيلاء على قدر كبير من الغنائم ، هذا إلى أنه كسب ولاء جنوده إلى حد أزعج الإمبراطور وأنه قد عرضت عليه مملكة كاملة ؛ فهل يستبعد عليه مع هذا كله أن يتطلع إلى الاستيلاء على العرش من ابن أخى رجل اغتصبه من صاحبه الشرعى ؟ لهذا استدعاه جستنيان ، وشاهد وهو قلق مرتاب حاشية القائد العظيم ومظهرها الفخم . ويقول پروكپيوس « إن سكان بيزنطية كانوا يبتهجون حين يشهدون بليساريوس يخرج من بيته كل يوم . . . ذلك بأن خروجه منه وسيره فى الطريق كان شبيهاً بموكب فى عيد احتشد فيه كثير من الخلق ، لأنه كان يصحبه عدد كبير من الوندال ، والقوط ، والمغاربة . يضاف إلى هذا أنه كان بهى الطلعة ، طويل القامة ، جميل الوجه ؛ ولكنه كان وديعاً رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، حتى لقد كان يبدو كأنه رجل فقير لا يعرفه أحد »[١٦] .

ولم يعن القواد الذين خلفوه فى إيطاليا بنظام الجند ، وتنازعوا فيما بينهم ، فكسبوا لأنفسهم احتقار القوط ، فنادوا برجل قوطى ، جم النشاط ، موفور العقل ، رابط الجأش ، ملكاً على الشعب المغلوب . وجمع توتيلا Totila الملك الجديد مجندين ذوى بأس شديد من البرابرة الجوالين الذين لا مأوى لهم فى إيطاليا واستولى بهم على نابلى (٥٤٣) وتيبور وضرب الحصار على رومة . وقد أدهش الناس برحمته ووفائه بوعده ، وعامل الأسرى معاملة طيبة انضووا بفضلها تحت لوائه ، واستمسك بما قطعه على نفسه من العهود التى استسلمت بها نابلى ، حتى بدأ الناس يتساءلون من هو البربرى ومن هو اليونانى المتحضر . ولما وقعت زوجات بعض أعضاء مجلس الشيوخ أسيرات فى يده عاملهن بلطف وشهامة وأطلق سراحهن ، وأما البرابرة الذين فى خدمة الإمبراطور فلم يظهروا مثل هذه

الرقة فى المعاملة ؛ بل أخذوا يعيثون فى البلاد فساداً لأن جستنيان لم يؤد إليهم أجورهم لنفاد ما كان فى خزائنه من المال ، حتى أخذ السكان يتذكرون فى أسى وحنان حكم ثيودريك وما كان يسوده من عدل ونظام[١٧] .

وأمر بليساريوس أن يعود لإنقاذ الموقف . فلما عاد إلى إيطاليا تسلل وحده إلى رومة المحاصرة مخترقاً صفوف توتيلا . لكنه وصلها بعد فوات الوقت ، فقد فقدت الحامية اليونانية روحها المعنوية ، لأن ضباطها كانوا جبناء عاجزين ؛ وفتح بعض الخونة أبواب المدينة ، ودخلها جنود توتيلا البالغ عددهم عشرة آلاف رجل (٥٤٦) . وبعث بليساريوس وهو خارج منها رسالة إلى توتيلا يطلب إليه ألا يدمر المدينة التاريخية . وسمح توتيلا لجنوده الجياع الذين لم ينالوا أجورهم أن ينهبوها ، ولكنه منعهم من إيذاء السكان وحمى النساء من شهوات الجنود الجامحة ثم أخطأ إذ غادر رومة ليحاصر رافنا . فلما غاب عنها استردها بليساريوس ، ولما عاد توتيلا وحاصرها مرة أخرى عجز عن أن يخرج منها القائد اليونانى الموهوب . وظن جستنيان أن الغرب قد خضع له فأعلن الحرب على بلاد الفرس ، واستدعى بليساريوس ليذهب إلى الشرق . فلما ذهب استولى توتيلا على رومة من جديد (٥٤٩) ومن بعدها صقلية ، وكورسكا ، وسردينية ، وشبه الجزيرة كلها تقريباً وأخيراً أعطى جستنيان قائداً من الخصيان يدعى نارسيز « Narses » مبلغاً كبيراً جداً من المال ، وأمره أن يحشد جيشاً جديداً يطرد به القوط من إيطاليا . وأدى نارسيز هذه المهمة بمهارة وسرعة ، فهزم توتيلا ، وقتل فى أثناء فراره ، وسمح لمن بقى من القوط أن يخرجوا من إيطاليا سالمين ، وانتهت بذلك « الحرب القوطية » بعد أن دامت ثمانية عشر عاماً (٥٥٣) .

وأتمت هذه السنون خراب إيطاليا . ذلك أن رومة قد وقعت فى أيدى الجيوش المحاربة خمس مرات متوالية ، وحوصرت ثلاث مرات ، ونفد منها الطعام ، وتعرضت للنهب والسلب . ونقص عدد سكانها من مليون إلى أربعين

ألفا[١٨] ، نصفهم تقريبا من المعدمين الذين يعيشون على الصدقات البابوية ، ودمرت ميلان وقتل أهلها على بكرة أبيهم . وتدهورت مئات من المدن والقرى إلى هوة الإفلاس بسبب اغتصاب الحكام ونهب الجنود ، وبارت كثير من الأراضي التي كانت من قبل خصبة وهجرها السكان ، ونقصت موارد الطعام . ويقول الرواة إن خمسين ألفا ماتوا من الجوع في پيسينوم Picenum وحدها في خلال هذه الأعوام الثمانية عشر[١٩] . وتحطم كيان الأشراف ، فقد قتل كثيرون منهم في المعارك الحربية وفي أعمال النهب ، وفر عدد كبير منهم إلى خارج البلاد حتى لم يبق منهم من يكفي لقيام مجلس شيوخ رومة ، فلم نعد نسمع عنه شيئا ما بعد عام ٥٧٩[٢٠] . وتهدمت قنوات مياه الشرب التي أصلحها ثيودريك من قبل وأهملت ، واستحالت الكمپانيا مرة أخرى مناقع واسعة تتفشى فيها الملاريا ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا . وبطل استعمال الحمامات الفخمة التي كانت تمدها هذه القنوات بالماء وتهدمت ، وحطمت مئات من التماثيل التي نجت من عبث ألريك وجيسريك ، أو صهرت لتصنع من معادنها قذائف وعدد حربية في أثناء الحصار . وكانت آثار الخراب والدمار هي كل ما يشهد بما كان لرومة القديمة عاصمة نصف العالم من عظمة وجلال . ولبث الإمبرطور الشرقي زمنا قليلا حاكما على إيطالية بعد هذا الخراب ، ولكن ما ناله من النصر كان نصراً عديم القيمة كلفه الكثير من المال والرجال والعناء ، ولم تنج رومة من آثار هذا النصر حتى عصر النهضة .

الفصل الرابع

قانون چستنيان

لقد نسى التاريخ حروب چستنيان ، وحق له أن ينساها ، ولا يذكر اسمه إلا مقترناً بقوانينه . وكان قد مضى قرن من الزمان منذ نشر قانون ثيودوسيوس ، وأضحت كثير من أصوله عتيقة لا تطبق لتغير الظروف التي شرعت فيها ، وسنت قوانين جديدة كثيرة اختلطت بعضها ببعض فى كتب القوانين ، ووجد تناقض كثير بين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية . يضاف إلى هذا أن تأثير المسيحية قد بدّل كثيراً من الشرائع وغيّر تفسيرها . ثم إن قوانين رومة المدنية كثيراً ما كانت تتعارض مع قوانين الأمم التى تتألف منها الإمبراطورية ، وإن كثيراً من التشريعات لم تكن تتفق مع تقاليد الشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية . وقصارى القول أن شريعة رومة كلها أضحت أكداساً من المواد القانونية التجريبية لا قانوناً منطقيا واحداً .

ولم يكن چستنيان ، وهو صاحب النزعة القوية إلى الوحدة ، ليرضى عن هذه الفوضى كما لم يكن يرضى عن تمزيق أوصال الإمبراطورية . ولهذا عين فى عام ٥٢٨ عشرة من فقهاء القانون لينظموا قوانين الدولة ، ويوضحوها ، ويصلحوها . وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة نشاطاً ونفوذاً هو الكوسترتريبونيان Tribonian الذى ظل إلى أن مات أشهر الموحين بخطط چستنيان التشريعية ، والناصحين له ، والمنفذين لآرائه ، وذلك رغم حرصه الشديد على المال ومظنة الكفر بالله . وأتمت اللجنة الجزء الأول من عملها بسرعة أكثر مما كان خليقاً بها ، وأصدرته فى عام ٥٢٩ باسم القانون الدستورى ، وأعلن الإمبراطور أنه هو قانون

الإمبراطورية ، وأنه يلغى جميع ما سبقه من التشريعات إلا ما تضمنه منها . وصُدِّر بهذه العبارة الجميلة :

إلى الشبان الراغبين فى دراسة القانون : يجب أن يسلح جلالة الإمبراطور بالقانون كما يجب أن يعلو مجده بقوة السلاح ، حتى يسود بذلك الحكم الصالح فى الحرب والسلم على السواء ، وحتى يتبين للناس أن الحاكم . . . لا تقل عنايته بالعدالة عن عنايته بالنصر على أعدائه(٢١)

ثم انتقل أعضاء اللجنة إلى القسم الثانى من مهمتهم ، وهى أن يضموا فى مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومان ، التى رأوا أنها لا تزال خليقة بأن تكون لها قوة القانون ، ونشرت هذه الآراء باسم مجموعة القوانين والفتاوى المدنية (٥٣٣) ؛ وقالت اللجنة إن آراء الفقهاء والشروح التى وردت فى هذه المجموعة ستصبح من ذلك الحين واجبة الطاعة على جميع القضاة ، وإن جميع ما عداها من الآراء قد فقدت ما كان لها من قوة شرعية ، وامتنع من ذلك الحين نسخ ما عدا هذه من آراء فقهاء القانون واختفى معظمها ، ويستدل مما بقى منها على أن المحررين قد حذفوا ما كان فيها من آراء مناصرة للحرية ، وأنهم عمدوا إلى الغش والتزوير فبدلوا بعض أحكام فقهاء القانون الأقدمين حتى تكون أكثر ملاءمة للحكم المطلق .

وبينما كانت اللجنة تقوم بهذا العمل الكبير أصدر تريبونيان Tribonian واثنان من زملائه كتاباً موجزاً فى القانون المدنى سمياه القانون Institutiones (٥٣٣) . وكان هذا الكتاب فى جوهره عبارة عن شروح جايوس Gius معدلة ، ومصححة حتى تلائم روح ذلك العصر . وكان جايوس هذا قد لخص فى القرن الثانى بعد الميلاد القوانين المدنية المعمول بها فى أيامه . وأظهر فى هذا العمل من البراعة ما يثير الإعجاب . وكان جستنيان فى هذه الأثناء يصدر قوانين

جديده . فلما كان عام ٥٣٤ ضم تريبونيان وأربعة من مساعديه هذه القوانين إلى النسخة الجديدة المعدلة من كتاب القوانين . وبعد صدورها أصبحت النسخة الأولى غير ذات موضوع ، ولم يعثر عليها بعدئذ . ولما مات جستنيان نشر ما سنّه من قوانين جديدة باسم التشريعات الجديدة . ولم تنشر هذه باللغة اللاتينية كما كانت تنشر الكتب السابقة بل نشرت باللغة اليونانية ، وكانت هي آخر ما صدر باللاتينية من كتب القانون فى الإمبراطورية البيزنطية . وقد أطلق على هذه المؤلفات كلها فيما بعد اسم مجموعة القوانين المدنية . وكان يشار إليها فى غير دقة باسم قانون جستنيان .

وجرى هذا القانون على ما جرى به قانون ثيودوسيان فجعل الشريعة المسيحية الأصلية قانون الدولة . وقد بدأ بتقرير التثليث وصب اللعنات على نسطوريوس ، وأوتيكيس ، وأبوليناريس . واعترف بالزعامة الدينية للكنيسة الرومانية وأمر كل الهيئات المسيحية بالخضوع إلى سلطانها . لكن الفصول التى جاءت بعد المقدمة أعلنت سلطة الإمبراطور على الكنيسة فقالت إن جميع القوانين الكنسية كجميع القوانين المدنية تصدر عن العرش ، ثم مضى كتاب القانون يذكر القوانين الخاصة بالمطارنة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والرهبان ، ويحدد العقوبات التى توقع على القساوسة الذين يقامرون ، أو يرتادون دور التمثيل أو يشهدون الألعاب[٢٢] . وجعل عقوبة المانيين والمارقين المرتدّين هى الإعدام . أما الدوناتيون ، والمنتانيون ، واليعقوبيون وغيرهم من الطوائف المنشقة فكان عقابهم أن تصادر أملاكهم ، وأن يحكم عليهم بأنهم غير أهل لأن يبيعوا أو يشتروا ، أو يرثوا أو يُورّثوا . وحرمت عليهم الوظائف العامة ، والاجتماعات ، كما حرموا من حق مقاضاة المسيحيين أتباع الدين القويم للحصول على ما لديهم قِبَلهم من الديون . وأباح القانون فى بعض مواده الرحيمة للأساقفة أن يزوروا السجون ، ليحموا المسجونين من سوء استعمال القانون

وبدل القانون الميزات القديمة التى كانت تتمتع بها بعض الطبقات . من ذلك أن المعاتيق لم يعودوا يعاملون على أنهم طائفة خاصة قائمة بنفسها ؛ بل أصبحوا يتمتعون من ساعة تحريرهم بجميع ميزات الأحرار ، فيباح لهم أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ وأن يكونوا أباطرة . وقسم الأحرار جميعاً إلى طبقة ذوى الشرف أو المرتبة ، وإلى طبقة عامة . وأقر القانون نظام الطبقات الذى نشأ منذ أيام دقلديانوس فقسمها إلى أشراف patricii ، وممتازين illustres ومحترمين specabites (وهى التى أخذت منها لفظ respecable أى محترم الإنجليزية) ، وأصفياء Clarissimi ، وأمجاد Gloriosi ولقد كان فى هذا القانون الرومانى كثير من العناصر الشرقية .

وظهرت فيما ورد فى هذه الشرائع من قوانين خاصة بالرق بعض آثار المسيحية أو الرواقية . مثال ذلك أن اغتصاب أمة كان عقابه الإعدام كاغتصاب الحرة سواء بسواء ؛ كذلك كان يحق للعبد أن يتزوج من حرة إذا وافق سيده على هذا الزواج. وكان جستنيان يشجع العتق كما تشجعه الكنيسة ، لكن القانون كان يجيز بيع الطفل حين يولد فى سوق الرقيق إذا كان أبواه معدمين[٢٣] ; وكان فى قانون جستنيان فقرات تشجع استرقاق رقيق الأرض، وتمهد السبيل لنظام الإقطاع . مثال ذلك أن الرجل الحر إذا زرع قطعة من الأرض ثلاثين عاماً كان يطلب إليه أن يبقى هو وأبناؤه إلى أبد الدهر مرتبطين بهذه الأرض[٢٤] . وكان القانون يبرر هذا بأن يمنع الزراع من من ترك الأراضى ؛ وإذا هرب رقيق الأرض أو صار من رجال الدين من غير رضاء سيده ، جاز لهذا السيد أن يطالب به كما يطالب السيد بعبده .

ورفع هذا القانون من منزلة المرأة إلى حد ما . وكان إخضاعها للوصاية عليها طول حياتها قد انتهى فى القرن الرابع ، وبطل المبدأ القديم القاضى بأن الأبناء الذكور هم وحدهم الذين يحق لهم أن يرثوا آباءهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً

كبيرة لتأييد المبدأ الجديد لأن كثيرات من النساء كن يوصين لها بأملاكهن . وحاول جستنيان أن ينفذ آراء الكنيسة الخاصة بالطلاق ، وحرمه إلا إذا أراد أحد الزوجين أن يدخل ديراً للنساء أو الرجال . غير أن هذا العمل كان خروجاً متطرفاً على العادات والقوانين القائمة وقتئذ ، ولذلك عارضه كثيرون من الشعب بحجة أنه سيزيد من حوادث التسميم ، وذكرت فيما سن بعدئذ من القوانين فى الإمبراطورية الرومانية حالات كثيرة مختلفة يباح فيها الطلاق ، وظلت هذه معمولا بها ، فى الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣ فيما عدا فترات منقطعة (٢٥) . ومحى من القانون ما فرضه أغسطس من عقوبات على العزوبة والعقم . وكان قسطنطين قد جعل الزنى من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وإن لم ينفذ هذا العقاب إلا فى حالات نادرة ، أما جستنيان فقد احتفظ بعقوبة الإعدام للزانى من الرجال ، أما الزانية فقد جعل عقابها الإقامة فى دير للنساء . وأباح القانون للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا وجدها فى منزله أو شاهدها تتحدث معه فى حانة بعد إنذارها ثلاث مرات أمام شهود . كذلك فرض القانون عقوبات صارمة على من يزنى بامرأة غير متزوجة أو بأرملة إلا إذا كانت حظية أو عاهراً . وكان هتك العرض غصباً يعاقب عليه بالإعدام ومصادرة الأملاك ، وكان ثمن هذه الأملاك المصادرة يعطى للمرأة المغتصبة . ولم يكتف جستنيان بتقرير عقوبة الإعدام للواط ، بل كان فى كثير من الأحيان يضيف إليها التعذيب ، وبتر الأعضاء ، وعرض المذنبين على الجماهير فى الشوارع قبل إعدامهما ، وإنا لنحس فى هذا التشريع الصارم ضد الشذوذ الجنسى بأثر المسيحية التى روعتها آثام الحضارة الوثنية فدفعتها إلى هذا التزمت الوحشى .

وغير جستنيان قانون الملكية تغييراً أساسيا . من ذلك أنه ألغى ما كان ينص عليه القانون القديم من حق الأقارب من العصب أن يرثوا من يموت دون أن يترك وصية ، وجعل حق الميراث لأبناء الميت وأحفاده الخ من الظهور والبطون ،

وشجع القانون الهبات والوصايا لجهات البر ؛ وأعلن أنه لا يجوز النزول عن شيء من أملاك الكنيسة ، سواء كانت ثابتة أو منقولة ، أو كانت أجور أملاك ، أو رقيق أرض ، أو عبيد ؛ فلم يكن يحق لأى رجل من رجال الدين أو غير رجال الدين ولا لأية جماعة دينية أو غير دينية النزول عن أى شيء تمتلكه الكنيسة أو بيعه أو الإيصاء به . وأضحت هذه القوانين التي وضعها ليو الأول وأنثميوس وأيدها قانون جستنيان هي الأساس الشرعي لثروة الكنيسة المتزايدة . فقد كانت أملاك غير رجال الدين تنقسم وتتفرق ، أما أملاك الكنيسة فظلت تتراكم وتزداد جيلا بعد جيل . وحاولت الكنيسة أن تحرم الربا ، ولكنها عجزت عن تحريمه ؛ وأجاز القانون القبض على المدينين الذين يتخلفون عن جلسات المحاكمة ، ولكنه أجاز إطلاق سراحهم بالكفالة أو إذا أقسموا أن يعودوا حين يطلبون للمحاكمة .

وحرم القانون سجن أى شخص إلا بأمر أحد كبار القضاة ، وحدد الزمن الذى يمكن أن ينقضى بين القبض عليه ومحاكمته تحديداً دقيقاً لا يتعداه . وبلغ عدد المحامين من الكثرة حداً جعل جستنيان يشيد لهم باسلقا خاصة نستطيع أن نتصور مساحتها إذا عرفنا أن مكتبتها كانت تضم ١٥٠٫٠٠٠ مجلد أو ملف . وكان المتهم يحاكم أمام قاض يعينه الإمبراطور ، غير أنه كان من المستطاع تحويل القضية إلى محكمة الأسقف إذا رغب في ذلك الطرفان المتقاضيان . وكانت نسخة من الكتاب المقدس توضع أمام القاضى فى كل جلسة . وكان وكيلا الطرفين يقسمان على الكتاب أنهما سيبذلان كل ما فى وسعهما للدفاع عن موكليهما بذمة وأمانة ، ولكنهما يتخليان عن القضية إذا وجداها مما يخل بالشرف والأمانة . وكان المدعى والمدعى عليه يلزمان أيضاً بأن يقسم كل منهما على الكتاب المقدس أن قضيته عادلة . وكانت العقوبات التى ينص عليها القانون صارمة ولكنها قلما كانت ملزمة فقد كان فى وسع القاضى مثلا أن يخفف العقاب عن النساء ، والقُصّر ،

والسكارى الذين يقدمون للقضاء . وكان السجن يستخدم للمحافظة على المتهمين حتى يحاكموا ، ولكنه قلما كان يستخدم لعقاب المذنبين .

وقد أجاز قانون جستنيان عقاب المجرم ببتر أعضائه ، فكان هذا أكثر رجعية من قانونى هدريان وأنطونينوس بيوس . مثال ذلك أن جباة الضرائب الذين يزورون فى حساباتهم ، والذين ينسخون الآداب الدينية اليعقوبية كان يجوز عقابهم بقطع يدهم ، اتباعا للنظرية القائلة بأن العضو الذى اقترف ذنباً يجب أن يجازى بما اقترفه . وكثيراً ما يذكر القانون عقوبة جدع الأنف أو قطع الرقبة ، وأضافت القوانين البيزنطية إليهما سلم العينين ، وأكثر ما يكون ذلك لتشويه وجه الوارثين للعرش أو المتطلعين له . وكانت عقوبة الإعدام تنفذ فى الأحرار بقطع رءوسهم ، وفى بعض الأرقاء بصلبهم ؛ وكان السحرة والفارون من الجيش يحرقون أحياء ؛ وكان فى وسع المواطن المحكوم عليه أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، ثم إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الإمبراطور نفسه آخر الأمر .

وإنا لنعجب بقانون جستنيان إذا نظرنا إليه فى مجموعه أكثر مما نعجب به لو نظرنا إلى كل جزء من أجزائه على انفراد . وأكثر ما يختلف فيه عن القوانين التى صدرت قبله هو تشدده فى اتباع المبادئ والسنن المقررة ، وسد الطريق على التعديل والإصلاح ، وما يسرى فيه من ميل إلى القسوة فى الانتقام ، حتى لقد كان فى وسع الرومانى المتعلم أن يجد الحياة فى حكم الأنطونيين أكثر حضارة منها فى حكم جستنيان . وكان سبب هذه العيوب أن الإمبراطور لم يكن يستطيع التخلص من البيئة التى يعيش فيها والزمن الذى وجد فيه ، وقد اضطرته رغبته الملحة فى أن يوحد كل شىء على أن يقنن ما فى عصره من الخرافات والوحشية كما يقنن ما فيه من عدالة ورحمة . وكان القانون شديد التمسك بالقديم والمحافظة عليه ، شأنه فى هذا شأن كل ما هو بيزنطى ، وكان مواءماً كل المواءمة لحضارة

خيل إلى أهلها أنها لن تموت أبداً . لكنه سرعان ما نقص الخاضعون له فلم يتعدوا أهل مملكة صغيرة آخذة فى النقصان . ذلك أن الشرقيين الخارجين على الدين والذين أذاقهم هذا القانون أشد العذاب قد فتحوا صدورهم للمسلمين وكانوا أكثر رخاء فى ظل القرآن منهم فى ظل هذا القانون . وأغفلت إيطاليا تحت حكم اللمبارد ، وغالة تحت حكم الفرنجة ، وإنجلترا تحت حكم الأنجليسكسون ، وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين — أغفلت هذه البلاد كلها أوامر جستنيان . لكن هذا القانون بالرغم من هذا كله ، ظل بضعة أجيال يبسط النظام والأمن على خليط من الشعوب ، وبفضله استطاع الناس أن يجتازوا حدود كثير من الأمم وينتقلوا فى شوارع مدنها وهم أكثر أمناً وأعظم حرية مما يستمتع به الذين ينتقلون فى ذلك الأقليم نفسه فى هذه الأيام . ولقد ظل هو قانون الإمبراطورية البيزنطية إلى آخر أيامها ، ولقد أحيا سننه مشترعو بولونيا بعد خمسة قرون من اختفائه فى الغرب ، وعمل به الأباطرة والبابوات ، وسرى فى نظم كثير من الدول الحديثة ، فكان هو الهيكل الذى قام عليه نظامها .

الفصل الخامس

الفقيه الديني الإمبراطوري

لم يبق بعدئذ أمام جستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية ، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة تتخذها وسيلة للحكم . وأكبر الظن أن جستنيان كان مخلصاً فى عقيدته الدينية ، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب ، فقد كان هو نفسه يعيش فى قصره عيشة الراهب فى ديره على قدر ما تسمح له بذلك ثيودورا ، يصوم ، ويصلى ، وينكب على دراسة المؤلفات الدينية ، ويناقش دقائق العقائد الدينية مع الفلاسفة ، والبطارقة ، والبابوات . وينقل بروكبيوس فى هذا المعنى قول أحد المتآمرين على جستنيان دون أن يخفى موافقته التامة على ما ينقله : « إن من أوتى أقل قسط من عزة النفس لا يليق به أن يرفض العمل على قتل جستنيان ؛ وخليق به ألا يداخله أقل خوف من رجل يجلس على الدوام فى ردهة قصره من غير حرس ويقضى الجزء الأكبر من الليل يقلب صفحات الكتب المسيحية المقدسة هو وجماعة من القساوسة الطاعنين فى السن »[٢٦] . ويكاد يكون من أول الأعمال التى استعان فيها جستنيان بسلطته وهو نائب عن جستين أنه رتق الفتق الذى اتسع بين الكنيستين الشرقية والغربية على أثر نشر رسالة الإمبراطور زينون المعروفة باسم هنوتوكون Henotucon . وقد استطاع جستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصيل ضد القوط ، وإخوانهم فى الشرق ضد اليعقوبيين ، بقبوله وجهـة نظر البابوية فى المسائل التى كانت موضوع الخلاف .

وكانت هذه الشيعة الأخيرة التى تقول بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة قد كثر عددها فى مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك . وبلغ من كثرتهم فى

الإسكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به . وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينا كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل . ولما أن أجلست قوات الإمبراطور المسلحة أسقفاً كاثوليكياً فى كرسى أثناسيوس كانت أول تحية حياه بها المصلون أن رجموه بوابل من الحجارة ، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه . وبينا كانت الكثلكة تسيطر على أسقفية الإسكندرية ، كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة فى ريف مصر ، فكان الفلاحون لا يأبهون بقرارات البطريق أو بأوامر الإمبراطور ، وكانت مصر قد خرجت عن طاعة الإمبراطورية أو أوشكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها العرب بقرن كامل .

وتغلبت ثيودورا بثباتها على چستنيان المتردد فى هذه المسألة كما تغلبت عليه فى كثير من المسائل الأخرى ، فأخذت تأتمر مع شماس رومانى يدعى ڤيجليوس Vigilius وتعرض عليه أن تنصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين . وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها ، فأخرج بليساريوس البابا سلڤريوس من رومة (٥٣٧) ونفى إلى جزيرة پلماريا Palmaria حيث مات مما لقيه من قسوة ، ونصب ڤيجليوس بابا فى مكانه بأمر الإمبراطور . وقبل چستنيان فى آخر الأمر رأى ثيودورا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه ، فحاول أن يسترضى أتباعه فى وثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم الفصول الثلاثة . ثم استدعى ڤيجليوس إلى القسطنطينية وألح عليه بأن يوافق على هذه الوثيقة . وأجابه ڤيجليوس إلى طلبه على كره منه ، فما كان من رجال الدين الكاثوليك فى أفريقية إلا أن أعلنوا طرده من الكنيسة وتجريده من رتبة الكهنوتية (٥٥٠) . وحينئذ قام چستنيان بمحاولة سافرة للسيطرة على البابوية لم يقم بها إمبراطور غيره من قبله . ذلك أنه دعا مجلساً عاماً للاجتماع فى القسطنطينية (٥٥٣) ، لم يكد يحضره أحد

من أساقفة الغرب ، ووافق المجلس على المبادئ التى وضعها جستنيان ، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها ، وعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى ما كان عليه من قبل ، ولم يخمد لظاه مدة قرن من الزمان .

وتغلب الموت آخر الأمر على كل هذا الجدل ، فقد توفيت ثيودورا فى عام ٥٤٨ ، وكانت وفاتها أشد الضربات التى حطمت شجاعة جستنيان ، وصفاء ذهنه ، وقوة بدنه . وكان وقتئذ فى الخامسة والستين من عمره ، وكان قد أضعفه نسكه وما حل به من أزمات متعاقبة . فترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع التى بذل غاية جهده لإقامتها ، وانهمك فى البحوث الدينية ، وحلت بالبلاد كوارث لا حصر لها نغصت عليه حياته فى السبعة عشر عاماً التى عاشها على حافة القبر . فقد امتاز حكمه بكثرة ما حدث فيه من الزلازل التى دمرت اثنتى عشرة مدينة وكادت تمحو آثارها من الوجود ، ونضب معين خزانة الدولة من جراء النفقات التى تطلبتها إعادة بنائها ؛ وفشا الطاعون فى البلاد فى عام ٥٤٢ ، وجاء بعده القحط فى عام ٥٥٦ ، وعاد الطاعون مرة أخرى فى عام ٥٥٨ . وفى عام ٥٥٩ اجتاز الهون الكتريجور Kutrigur Huns نهر الدانوب ، وهتكوا أعراض الأمهات والعذارى والراهبات ، وألقوا إلى الكلاب بالأطفال الذين ولدتهم السبايا اللائى أخذوهن معهم فى زحفهم ، وتقدموا حتى بلغوا أسوار القسطنطينية . واستغاث الإمبراطور فى هلعه الشديد بالقائد العظيم الذى طالما أنجاه من الكوارث من قبل . وكان بليساريوس وقتئذ ضعيفاً منهوك القوى ، ولكنه انتضى سيفه ولبس درعه ، وجمع ثلثمائة من جنوده المحنكين الذين حاربوا معه فى إيطاليا ، وضم إليهم بضع مئين من الجنود غير المدربين ، وسار بهم ليلاقى الهون البالغ عددهم سبعة آلاف رجل . ووزع قواه بما تعوّد من حذق وبُعد نظر ، فأخفى مائتين من خيرة جنوده فى غابات قريبة من ميدان القتال ، فلما أن تقدم الهون لقتاله انقض هؤلاء على جناحهم ، بينا كان بليساريوس يتلقى هجوم أعدائه على رأس جيشه الصغير .

وارتد البرابرة على أعقابهم وولوا الأدبار قبل أن يصاب رومانى واحد بجرح خطير . وغضبت الجماهير فى العاصمة لأن بليساريوس لم يقتف أثر العدو ويقبض على قائد الهون ويأت به أسيراً . ودبت الغيرة فى قلب الإمبراطور فاستمع إلى وشاية الواشين بقائده الكبير ، واتهمه بالتآمر عليه ، وأمره بأن يسرح جنوده المسلحين . ولما مات بليساريوس فى عام ٥٦٥ صادر جستنيان نصف ممتلكاته .

وعاش الإمبراطور بعد قائده ثمانية أشهر . وأثمرت دراسته للدين فى سنيه الأخيرة ثمرة عجيبة ! وهل أعجب من أن يخرج على الدين حامى حمى الدين . فقد أعلن جستنيان أن جسد المسيح غير قابل للدنس ، وأن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض فى يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لشىء من مساوئه . وأنذره رجال الدين بأنه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الآبدين »[٢٧] . ولكنه مات قبل أن يتوب من ذنبه (٥٥٦) ، بعد حياة دامت ثلاثة وثمانين عاماً ، جلس منها على العرش ثمانية وثلاثين .

وكان موت جستنيان نقطة أخرى من النقاط التى يمكن أن تعدّ خاتمة التاريخ القديم . لقد كان فى حياته إمبراطوراً رومانيا بحق ، يفكر فى جميع شئون الإمبراطورية شرقيها وغربيها على السواء ، ويبذل كل ما وسعه من جهد ليصد عنها البرابرة ، وليعيد إلى الإمبراطورية الواسعة حكما منظما وشرائع متجانسة . ولقد أفلح فى تحقيق جانب كبير من هذا الغرض : فقد استرد أفريقية ، ودلماشيا ، وإيطاليا ، وقورسقة ، وسردينيا ، وصقلية ، وبعض أسبانيا ، وطرد الفرس من سوريا ، وتضاعفت رقعة الإمبراطورية فى عهده ضعفين . وتمثل شريعته بما فيها من وحدة ، ووضوح ، واتساع فى الأفق ، ذروة فى تاريخ القانون . ولسنا ننكر أن إدراته لشئون الإمبراطورية قد لوثها فساد الموظفين ، ورشوة الحكام ، وفدح الضرائب ، وتدخل الأهواء ، والنزوات فى العفو والعقاب ؛ ولكنها مع ذلك

كانت تمتاز بالعمل المتواصل على تنظيم أداة حكم الإمبراطورية وشئونها الاقتصادية ، ولقد أفلحت فى إقامة صرح من النظام إن يكن معادياً للحرية فإنه قد حفظ كيان الحضارة فى ركن من أركان أوربا فى الوقت الذى غرقت فيه سائر القارة فى ظلمات العصور المظلمة . هذا إلى أنه قد خلد اسمه فى تاريخ الصناعة والفن كما يشهد بذلك جامع أياصوفيا الذى هو أثر من آثاره . وما من شك فى أن أشياعه من معاصريه قد بدا لهم أن الإمبراطورية استطاعت مرة أخرى أن تصد تيار التدهور وأن تبعد عنها يد الردى إلى حين .

غير أن الذى يؤسف له أن ذلك لم يكن أكثر من مهلة جد قصيرة . فقد ترك جستنيان خزائن الدولة خاوية ، وكان قد وجدها عامرة ، وكانت شرائعه القاسية الخالية من التسامح الدينى ، وكان جباته اللصوص ، سبباً فى نفور الأمم التى استولت جيوشه على بلادها ، فلم يطل ولاؤها له ، وكانت هذه الجيوش قد ضعفت مرتها ، وتبدد شملها ، ولم تنل أجورها ، فلم يكن فى وسعها أن يطول دفاعها عن البلاد التى افتتحتها وأحلت بها الخراب والدمار . وسرعان ما تركت أفريقية للبربر ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، ثم أفريقية وأسپانيا للعرب ، وإيطاليا للمبارد . وقبل أن ينقضى قرن واحد على موت جستنيان خسرت الإمبراطورية أكثر مما كسبه هو لها . وإذا ما عدنا ببصرنا إلى الماضى أدركنا من خلال ثناياه ، وامتلأت نفوسنا زهواً بهذا الإدراك ، ما كان فى نظام حكم الإمبراطورية من أخطاء . وبدا لنا أنه كان من الخير كل الخير أن تجمع القوميات والمذاهب الدينية الناشئة فى نظام اتحادى ، وأن تمديد الصداقة إلى القوط الشرقيين الذين حكموا إيطاليا حكماً صالحاً إلى حد كبير ، وأن تكون الدولة أداة لحفظ الثقافة القديمة من الضياع ومَعِيناً غزيراً تستمد منه الدول الجديدة أسباب حضارتها ورفاهيتها .

وليس ثمة مايضطرنا إلى قبول حكم پروكپيوس على جستنيان ، فقد كفانا

بروكبيوس نفسه مؤونة دحض هذا الحكم[٢٨] : لقد كان الإمبراطور حاكما عظيما ، نشأت أخطاؤه من إخلاصه لعقيدته وجريه فيها على سنن المنطق : فنشأ اضطهاده من ثقته ، ونشأت حروبه من نزعته الرومانية ، ومصادرته للأملاك من هذه الحروب . فنحن نأسف أشد الأسف لضيق أفقه وعنف أساليبه ، ونطرب لتحقيقه أغراضه . لقد كان هو وبليساريوس ، لابنياس وإيتيوس ، آخر الرومان .

الباب السادس

الحضارة البيزنطية

٣٣٦ – ٥٦٥

الفصل الأول

العمل والثروة

كان الاقتصاد البيزنطي مزيجاً من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومي ، والصناعات المؤممة ، شبيهاً بما يجرى به العمل فى هذه الأيام . وكان امتلاك الفلاحين للأراضى التى يزرعونها لا يزال فى عهد جستنيان هو القاعدة المعمول بها فى الزراعة ؛ ولكن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، وكان كثير من الزراع يضطرون شيئاً فشيئاً إلى الخضوع الإقطاعى لكبار الملاك ؛ وكان الذى يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضان ، والتنافس ، والعجز عن فلح الأرض ، والضرائب ، والحروب . وكانت الموارد المعدنية التى فى باطن الأرض ملكاً للدولة ولكن معظمها كانت تستغله الهيئات الخاصة التى تستأجره من الحكومة . وكانت مناجم بلاد اليونان قد نضب معينها ، ولكن مناجم قديمة وجديدة كانت تستغل فى تراقية ، وبنطس ، وبلاد البلقان . وكان معظم عمال الصناعة « أحراراً » أى أنهم لم يكن يرغمهم على العمل إلا عدم رغبتهم فى الموت جوعاً ؛ ولم يكن للاسترقاق المباشر فى خارج الخدمة المنزلية وصناعة النسيج إلا شأن ضئيل ، ولكن الدولة كانت تلجأ إلى السخرة فى سوريا ، وفى مصر وشمالى أفريقية على الأرجح المحافظة على قنوات الرى الكبرى[1] . وكانت الحكومة تنتج فى مصانعها معظم

ما يحتاجه الجيش والموظفون ، والحاشية من البضائع[٢] .

وأثار جماعة من الرهبان النساطرة من أواسط آسية حوالى عام ٥٥٢ اهتمام الإمبراطور جستنيان بصناعة الحرير ، إذ عرضوا عليه أن يمدوا الإمبراطورية بموارد منه مستقلة عن غيرها من البلاد . وإذا ذكرنا كثرة الحروب التي شبت نارها بين بلاد اليونان والرومان من جهة وبلاد الفرس من جهة أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الصين والهند ، ولاحظنا اسم « طريق الحرير » الذى كان يطلق على الممرات الشمالية الموصلة إلى بلاد الشرق الأقصى ، واسم « سريكا Serica » (أرض الحرير) الذى كان الرومان يطلقونه على بلاد الصين واسم « سرنديا Serindia » الذى كانوا يطلقونه على الإقليم الواقع بين الصين والهند ، إذا ذكرنا هذا كله أدركنا سبب قبول جستنيان لهذا الاقتراح والتحمس له . وعاد الرهبان إلى أواسط آسية ثم جاءوا إليه ومعهم بويضات دود القز ، وأكبر الظن أنهم جاءوا معهم أيضاً ببذور شجر التوت[٣] . وكانت صناعة الحرير قائمة قبل ذلك فى بلاد اليونان ، ولكنها كانت قائمة فى نطاق ضيق ، وكانت تعتمد على دود القز البرى الذى يعيش على أوراق أشجار البلوط والدردار والسرو . وكانت نتيجة هذا الاقتراح أن قامت صناعة الحرير فى نطاق واسع فى بلاد الإمبراطورية وخاصة فى سوريا وبلاد اليونان ، وتقدمت فى بلاد البلوبونيز تقدماً أكسب شبه الجزيرة اسم موريا Morea — أى أرض شجر التوت Morus Alba .

وكانت الدولة تحتكر صناعة بعض أنواع من المنسوجات الحريرية والصبغات الأرجوانية فى مدينة القسطنطينية ، وكانت هاتان الصناعتان تقومان فى حوانيت داخل القصر الإمبراطورى أو قريبة منه[٤] . ولم يكن يسمح بارتداء الثياب الحريرية المصبوغة الغالية إلا لكبار موظفى الحكومة ، وكان أغلاها كلها لا يسمح به لغير أفراد الأسرة الإمبراطورية . ولما أخرجت المشروعات الفردية خفية منسوجات حريرية تماثل منسوجات الحكومة وباعتها لغير الطبقات الممتازة

قضى جستنيان على هذه « السوق السوداء » بأن أزال معظم القيود المفروضة على لبس الحرير الغالى والملابس ذات الصبغة الغالية ، وأغرق الحوانيت بالمنسوجات الحكومية ، وباعها لها بأثمان لا تستطيع المصانع الخاصة مجاراتها ؛ ولما قضى بهذه الطريقة على المنافسة عادت الحكومة فرفعت الأثمان مرة أخرى [٥] . وحذا جستنيان حذو دقلديانوس فعمل على بسط السيطرة الحكومية على جميع الأثمان والأجور . وحدث بعد انتشار الطاعون فى عام ٥٤٢ أن نقصت الأيدى العاملة ، وارتفعت أجور العمال ، وتضاعفت أثمان السلع . وعمل جستنيان ما عمله البرلمان الإنجليزى فى عام ١٣٥١ بعد طاعون ١٣٤٨ ، فأراد أن يساعد أصحاب الأعمال والمستهلكين بمرسوم يحدد الأثمان والأجور جاء فيه :

لقد وصل إلى علمنا أن التجار ، والصناع ، والزراع ، والبحارة قد تغلبت عليهم ، بعد أن حل بنا غضب الله ، روح الجشع ، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً تعادل ضعفى ما كانوا ينالونه قبل أو ثلاثة أضعافه . . . . المللك نحرم على هؤلاء جميعاً وأمثالهم أن يطلبوا أثماناً أو أجوراً أكثر مما كانوا يطلبونه من قبل . كذلك نحرم على متعهدى البناء ، أو الأعمال الزراعية أو غيرهما أن يؤدوا للعمال أعلى مما جرت العادة بأدائه فى الأيام الماضية [٦] .

وليس لدينا ما يدلنا على ما كان لهذا المرسوم من أثر .

وراجت التجارة الداخلية والخارجية فى الإمبراطورية البيزنطية من عهد قسطنطين إلى أواخر حكم جستنيان . وكان ما فيها من الطرق والجسور الرومانية يتعهد ويصلح بانتظام ، ودفع الحرص الشديد على الكسب وما يبعثه من إبداع وإنشاء إلى بناء أساطيل بحرية ربطت العاصمة بمئات الثغور فى الشرق والغرب . وظلت القسطنطينية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر أعظم الأسواق التجارية ومراكز النقل البحرى فى العالم كله ، وانحطت الإسكندرية التى كانت لها السيادة فى هذه الناحية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، فأصبحت منزلتها فى

التجارة بعد أنطاكية[٧] . وكانت سوريا كلها تعج بالمتاجر والمصانع ، ويرجع هذا إلى موقعها بين بلاد الفرس والقسطنطينية ، وبين القسطنطينية ومصر ، وإلى ما اتصف به تجارها من حذق وحب للمغامرة بحيث لم يكن ينافسهم فى انتشار تجارتهم ودهائهم إلا اليونان الذين لا يجارونهم فى المثابرة والجلد ، كما يرجع إلى انتشارهم هم أنفسهم فى جميع بلاد الإمبراطورية ، فكانوا بذلك عاملا فى إيجاد ذلك الطابع الأخلاقى والفنى الذى طبعت به الحضارة البيزنطية .

وإذا كان الطريق التجارى القديم بين سوريا وأواسط آسية يخترق بلاد الفرس المعادية للدولة البيزنطية ، فقد أراد جستنيان أن ينشئ طريقاً جديداً بإقامة صلات ودية بينه وبين الحميريين المقيمين فى الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب ، وملوك الحبشة ، وكان هؤلاء أولئك يسيطرون على أبواب البحر الأحمر الجنوبية . وكانت السفن التجارية البيزنطية تخترق هذه المضايق والمحيط الهندى فى طريقها إلى الهند ؛ ولكن الفرس الذين كانوا يسيطرون على ثغور الهند كانوا يفرضون على هذه التجارة رسوماً عالية كأنها تمر ببلاد إيران نفسها . فلما خاب رجاء جستنيان فى هذا الطريق شجع إنشاء المرافئ البحرية على البحر الأسود ، فكانت المتاجر ترد إلى هذه المرافئ ثم تنقل فى السفن إلى خلقيس Colchis ومنها بطرق القوافل إلى سجدياناا Sogdiana ، حيث يلتقى تجار الصين وتجار الغرب ويتساومون دون أن يتدخل الفرس فيما بينهم . وبفضل هذه التجارة الناشطة التى كانت تسير فى هذا الطريق الشمالى ارتفعت سمرنديا إلى أعلى درجات الثروة والفن فى العصور الوسطى . وظلت التجارة اليونانية فى هذه الأثناء محتفظة بمنافذها القديمة فى الغرب .

وكان من أكبر العوامل فى هذا النشاط الاقتصادى الكبير النقد الإمبراطورى الذى كان عملة مقبولة فى جميع أنحاء العالم تقريباً لثباته وسلامته . وكان قسطنطين قد سك نقداً جديداً ليحل محل الأوريوس Aurues الذى سكه

قيصر . وكانت هذه القطعة النقدية الجديدة المعروفة باسم صوليدوس Solidus أو بيزنت Bezant تزن ٤٫٥٥ جرامات أو جزءاً من ستة أجزاء من الأوقية الإنجليزية من الذهب ، وتعادل قيمته ٥٫٨٣ من الدولارات فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٦ . وإن تدهور الصوليدوس فى قيمته المعدنية والاقتصادية حتى صار هو الصلدى ليدل أوضح دلالة على ارتفاع الأثمان خلال عصور التاريخ المختلفة ، وعلى انحطاط قيمة النقد ، ويوحى بأن الادخار فضيلة تتطلب ممارستها كثيراً من الدقة والحصافة . وارتقت أعمال المصارف كثيراً فى ذلك الوقت ، وفى وسعنا أن نعرف ما كان يسود الإمبراطورية البيزنطية من رخاء عند ما ارتقى جستنيان العرش إذا عرفنا أنه حدد سعر الفائدة بما لا يزيد على أربعة فى المائة لقروض الفلاحين ، وستة فى المائة للقروض التجارية ، واثنى عشر فى المائة للنقود المستثمرة فى المشروعات البحرية[٨] . ولم تكن فوائد القروض منخفضة هذا الانخفاض فى ذلك الوقت فى أى بلد آخر من بلاد العالم .

وكان أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثراء عظيم و بمظاهر من الترف قلما استمتع بهما أمثالهم قبلهم فى رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الأولون من أراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية فى أقطار نائية تتناسب أرباحها مع ما كانت تتعرض له أموالهم من الخطر . وكان الأشراف فى الشرق أرق ذوقاً من نظائرهم فى رومة فى أيام شيشرون وجوفنال . فلم يكن أفراد هذه الطبقة يتخمون بطونهم بالأطعمة الغريبة يحضرونها من البلاد النائية ، وكان الطلاق عندهم أقل منه فى رومة ، وكانوا أكثر منهم إخلاصاً وجداً فى خدمة الدولة ، وكان أكثر ما يسرفون فيه هو الملابس المزركشة ، والأثواب ذات الأهداب ، المغطاة بالفراء والأصباغ البراقة ، والجلابيب الحريرية المصبوغة بصبغات غالية والمطرزة بخيوط الذهب والمنقوشة عليها مناظر مستمدة من الطبيعة أو من التاريخ .

وكان بعض الناس أشبه « بجدران مصورة متحركة » . من ذلك أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد صورت على ثوبه قصة المسيح من أولها إلى آخرها[٩] ، وكان تحت هذه الطبقة ذات الغشاء الذهبي طبقة وسطى ترزح تحت أعباء الضرائب ، وطبقة أخرى كادحة من موظفى الدولة ، وخليط من الرهبان الذين لا ينقطعون عن التدخل فى شئون الناس ، وأمشاج من صعاليك المدن كانوا ضحية نظام الأثمان ، لا يخفف عنهم أعباء الحياة إلا ما يتلقونه من الدولة من إعانات .

ولم تكن المبادئ الخلقية من الناحيتين التجارية والجنسية تختلف اختلافاً بيناً عن أمثالها فى الثقافات الأخرى فى نفس هذه المرحلة من التطور الاقتصادى . لقد كان كريستوم يندد بالرقص ويقول إنه يثير الشهوات ، ولكن القسطنطينية لم تنقطع عن الرقص رغم تنديد كريسستوم ، وظلت الكنيسة ترفض تعميد الممثلين ، ولكن المسرح البيزنطى ظل يعرض تمثيلياته الصامتة الإيحائية ، لأن الناس يجب أن يجدوا ما يخفف عنهم متاعب وحدة الزواج وملل الحياة الرتيبة . ويقول پروكپيوس فى كتابه التاريخ السرى ، وهو الذى لا يوثق به قط ، إن النساء فى وقته « كن جميعهن تقريباً فاسدات »[١٠] . وكانت وسائل منع الحمل من الموضوعات التى لا ينفك الناس عن دراستها والبحث فيها . وقد أفرد لها أريباسيوس Oribasius أشهر أطباء القرن الرابع فصلا خاصاً فى كتابه الموجز فى الطب . وأوصى كاتب آخر فى الطب يدعى إيتيوس Aetius من رجال القرن السادس باستخدام الخل وماء البحر ، أو الامتناع عن الجماع فى بداية فترة الحيض ونهايتها[١١]. وحاول جستنيان وحاولت ثيودورا أن يقللا من الدعارة بنفى القوادات وأصحاب المواخير من القسطنطينية . ولكن نتيجة العمل لم تدم طويلا . وكانت منزلة المرأة بوجه عام عالية ، ولم تكن النساء فى أى عصر من العصور السابقة أقل تقيداً بالقوانين والعادات أو أعظم نفوذاً فى الحكومة منهن فى ذلك العصر .

الفصل الثاني

العلم والفلسفة

٣٦٤ – ٥٦٥

ترى ماذا كان حظ التربية والتعليم ، والأدب ، والعلوم والفلسفة في هذا المجتمع الذي يبدو في ظاهره مجتمعاً دينياً ؟

لقد ظل التعليم الابتدائي في أيدي مدرسين خصوصيين يؤدي لهم الآباء أجورهم قدراً معيناً عن كل تلميذ في فترة محددة من الزمن . أما التعليم العالي فقد ظل إلى أيام ثيودوسيوس الثاني يقوم به محاضرون ليس لغيرهم سلطان عليهم ، وأساتذة تؤدي لهم المدينة أو الدولة أجورهم . ويشكو ليبانيوس من ضآلة أجور هؤلاء الأساتذة ويقول إنهم كانوا يتوقون من شدة الجوع إلى الذهاب إلى الخباز ، ولكنهم يمتنعون عن الذهاب إليه خشية أن يطالبهم بأداء ما عليهم من الديون[١٢] . غير أننا مع ذلك نقرأ عن مدرسين أمثال يومانيوس يتقاضون ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس (٣٠ر٠٠٠ ريال أمريكي ؟) في كل عام[١٣] . وكان أحسن الأفراد في هذه المهنة وأسوأهم يتناولون أجوراً أكثر مما يستحقون ، أما من عداهم فإنهم يتقاضون أقل مما يجب أن يتقاضوه . وعمل يوليان على نشر الوثنية بأن جعل الامتحانات التي تقوم بها الدولة والتعيين من قبلها هو القاعدة المتبعة في تعيين أساتذة الجامعات كلهم[١٤] . وجاء ثيودوسيوس الثاني ، لأسباب عكس هذا لسبب السابق ، فجعل الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جناية ، وما لبث هذا الترخيص أن اقتصر على أتباع الدين الرسمي للدولة .

وكان مقر الجامعات الكبرى في الدولة في الإسكندرية ، وأثينة ،

والقسطنطينية ، وأنطاكية ؛ وكانت هذه الجامعات تتخصص على التوالى فى تعليم الطب ، والفلسفة ، والأدب ، والبلاغة . وجمع أرِيباسيوس Oribasius البرجومى (حوالى عام ٣٢٥ — ٤٠٣) طبيب يوليان موسوعة طبية مؤلفة من سبعين « كتاباً » ؛ وألف إيتيوس الأميدى Aëtius of Amida طبيب البلاط فى عهد جستنيان موسوعة أخرى شبيهة بهذه الموسوعة تمتاز بأحسن ما فى الطب القديم من تحليل لأمراض العين ، والأذن ، والأنف ، والفم ، والأسنان ؛ وبفصول شيقة فى تضخم الغدة الدرقية والصرع ، والعمليات الجراحية من استئصال اللوز إلى جراحة البواسير . وكان الإسكندر الترالبسى Alexander of Tralles (حوالى عام ٥٢٥ — ٦٠٥) أكثر مؤلفى الطب ابتكاراً فى ذلك العهد : فقد وضع أسماء لكثير من الطفيليات المعوية المختلفة ، ووصف اضطربات القناة الهضمية وصفاً دقيقاً ؛ وبحث فى أمراض الرئتين وعلاجها بحثاً وافيا لا نظير له فيا سبقه من البحوث . وترجم كتابه المدرسى فى علم الأمراض الباطنية وطبائعها ، وفى الطب العلاجى ، إلى اللغات السريانية ، والعربية ، والعبرية ، واللاتينية ، وكان له فى العالم المسيحى أثر لا يعلو عليه إلا أثر كتب أبقراط ، وجالينوس ، وسورانوس[١٥] : ويقول أوغسطين إن تشريح الأجسام الآدمية كان مألوفا فى القرن الخامس[١٦] . ثم طغت الخرافات على الطب شيئاً فشيئاً ، فآمن معظم الأطباء بالتنجيم ، وأشار بعضهم باستخدام طرق فى العلاج تختلف باختلاف مواقع الكواكب[١٧] . وكان مما أشار به إيتيوس لمنع الحمل أن تضع المرأة بالقرب من شرجها سن طفل[١٨] ، وسبق مارسلوس فى كتابه فى الطب De medicamentis (٣٩٥) المحدثين فأشار بلبس قدم أرنب[١٩] . وكان للبغال حظ أحسن من حظ الآدميين ؛ ذلك أن أحسن كتاب علمى فى ذلك العهد هو كتاب فلافيوس الفجتيوسى Flavius Vegitius (٣٨٣ — ٤٥٠) المعروف باسم : Digestorum artis mulomedicinae libri IV ، ويكاد هذا الكتاب أن يكون هو الأساس

الذى قام عليه الطب البيطرى ، وقد ظل هو المرجع الذى يعتمد عليه حتى عصر النهضة .

وسارت الكيمياء والكيمياء الكاذبة جنباً إلى جنب . وكانت الإسكندرية مركزهما جميعاً . وكان الباحثون فى الكيمياء الكاذبة بوجه عام مخلصين فى بحثهم ، يستخدمون الطرق التجريبية بأمانة أكثر مما يستخدمها غيرهم من العلماء الأقدمين . وقد كان لهم الفضل فى تقدم كيمياء المعادن والسبائك تقدما كبيراً ؛ ولسنا واثقين من أن المستقبل لن يحقق ما كانوا يسعون إليه من أغراض . كذلك كان للتنجيم أساس صحيح شريف ؛ فقد كان الناس جميعا يؤمنون إيماناً لا يقبل الشك بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، تؤثر كلها فيما يقع على الأرض من أحداث ، ولكن الدجالين أقاموا على هذه الأسس صرحاً عجيباً من السحر ، والتنبؤ بالغيب والتمائم والرقى المستمدة من أسماء الكواكب . وكان استطلاع الأبراج السماوية لمعرفة مستقبل الناس أكثر انتشاراً فى مدائن العصور الوسطى منه فى نيويورك أو باريس فى هذه الأيام . وشاهد ذلك أن القديس أوغسطين يحدثنا عن صديقين كانا يرصدان بعناية مواقع النجوم وقت مولد حيواناتهما المستأنسة[٢٠] . ولقد كان كثير مما عند العرب من سخافات فى التنجيم والكيمياء الكاذبة مما ورثه المسلمون عن اليونان الأقدمين .

وكانت أظرف شخصية فى علوم ذلك العصر هى شخصية هيپاشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية ، وكان والدها ثيون Theon هو آخر من سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية . وقد كتب شرحاً لكتاب Syntaxis لبطليموس أقر فيه بما كان لابنته من نصيب فى تأليفه . ويقول سويداس إن هيپاشيا كتبت شروحاً لكتاب **القوانين الفلكية** لبطليموس ، وكتاب **المخروطات** لأپلونيوس البرجى [٢١] ، لكن مؤلفاتها كلها لم يبق منها شىء .

ثم انتقلت من الرياضيات إلى الفلسفة ، وسلكت فى بحوثها على هدى أفلاطون وأفلوطين ، و « بزت جميع فلاسفة زمانها » (على حد قول سقراط المؤرخ المسيحى)[٢٢] . ولما عينت أستاذة للفلسفة فى متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية . وهام بعض الطلاب بحبها ، ولكن يبدو أنها لم تتزوج قط . ويحاول سويداس أن يقنعنا بأنها تزوجت ، وبأنها رغم زواجها بقيت عذراء طول حياتها[٢٣] . وينقل لنا هو نفسه قصة أخرى ، لعل أعداءها هم مخترعوها مضمونها أن شاباً ضايقها بإلحاحه حتى عيل صبرها فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها وقالت له : « إن الذى تحبه هو هذا الذى يرمز إلى التناسل القذر وليس هو شيئاً جميلاً قط »[٢٤] . وقد بلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف فى الشوارع وتشرح لكل من يسألها النقط الصعبة فى كتب أفلاطون أو أرسطو . ويقول سقراط المؤرخ إنه « قد بلغ من رباطة جأشها ودماثة أخلاقها الناشئتين من عقلها المهذب المثقف أن كانت فى كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد وهى فى حضرة الرجال مسلكها المتواضع المهيب الذى امتازت به عن غيرها ، والذى أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها » .

لكن هذا الإعجاب لم يكن فى واقع الأمر يشمل الناس جميعاً ، فما من شك فى أن مسيحيى الإسكندرية كانوا ينظرون إليها شزراً ، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب ، بل كانت إلى ذلك صديقة وفية لأرستيز Arestes حاكم المدينة الوثنى . ولما أن حرض سيريل Cyril كبير الأساقفة أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرستيز إلى ثيودوسيوس الثانى تقريراً عن الحادث بعيداً عن النزاهة بعداً استاء منه كبير الأساقفة ورجاله أشد الاستياء . وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة ، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه حتى مات (٤١٥) . واتهم أنصار سيريل هيباشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرستيز ، وقالوا إنها هى

وحدها التى تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق . وفى ذات يوم هجم عليها جماعة من المتعصبين يتزعمهم « قارئ » أى كاتب صغير من موظفى سيريل ، وأنزلوها من عربتها ، وجروها إلى إحدى الكنائس ، وجردوها من ملابسها ، وأخذوا يرجمونها بقطع القرميد حتى قضوا على حياتها ، ثم قطعوا جسمها إرباً ، ودفنوا ما بقى منه فى مرح وحشى شنيع (٤١٥)[٢٥]. ولم يعاقب أحد من المجرمين واكتفى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بأن قيد حرية الرهبان فى الظهور أمام الجماهير ، (سبتمبر عام ٤١٦) ، وحرم المناصب العامة على الوثنيين (ديسمبر عام ٤١٦) . وبذلك كان انتصار سيريل انتصاراً كاملا .

ورحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت هيپاشيا إلى أثينة ليتقوا فيها الأذى ، وكان التعليم غير المسيحى لايزال حراً نسبياً ولا يزال معلموه آمن على أنفسهم من غيرهم فى المدن الأخرى . وكانت حياة الطلاب فيها لا تزال نشيطة يسودها معظم ما يسود الحياة العلمية الراقية من ضروب السلوى — من تآخ بين الطلاب ، وأثواب تميزهم من غيرهم ، وعقاب يفرض عليهم فى صورة عمل إضافى ، ومرح عام وبهجة[٢٧] . وكانت المدرستان الرواقية والأبيقورية قد اختفتا من المدينة ، ولكن المجمع العلمى الأفلاطونى كان يتدهور ذلك التدهور الرائع الذى آل إليه أمره فى عهد ثمستيوس وپرسكوس Priscus وبركلوس Proclus . وكان لثمستيوس (حوالى ٣٨٠) بما كتبه من شروح على كتب أرسطو أثر كبير فى ابن رشـــد وغيره من زعماء الفكر فى العصور الوسطى . وكان پرسكسوس فى فترة من الزمن صديق يوليان ومشيره ، وقد قبض عليه ڤالنز وفلنتنيان الأول واتهماه باستخدام السحر لكى تصيبهما الحمى ، ثم عاد بعد ذلك إلى أثينة وظل يعلم فيها حتى توفى عام ٣٩٥ وهو فى سن التسعين . واتخذ پركلوس (٤١٠ — ٤٨٥) الرياضيات طريقاً إلى الفلسفة كما يفعل الأفلاطونيون الحقيقيون . وكان هذا الفيلسوف رجل صبر وجلد ، فرتب آراء الفلسفة اليونانية كلها فى نظام واحد ،

وخلع عليها صورة علمية سطحية . ولكنه إلى هذا كان يتصف أيضاً بشيء من المزاج الصوفى للفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكان يظن أن فى وسع الإنسان بفضل صومه وتطهير نفسه أن يكون على صلة بالكائنات غير البشرية(٢٨) . وكانت مدارس أثينة قد فقدت حيويتها بعد أن أغلقها چستنيان فى عام ٥٢٩ ، واقتصر عملها على ترديد نظريات المعلمين الأقدمين وإعادتها مراراً وتكراراً ؛ وكان التراث العظيم الذى آل إليها قد أثقلها حتى كاد يقضى عليها ، ولم تخرج عليه إلا إلى نزعة تصوفية تستعير مادتها من المذاهب المسيحية البعيدة عن الدين الأصيل . ثم أغلق چستنيان مدارس علماء البلاغة كما أغلق مدارس الفلاسفة ؛ وصادر أملاكها وحرم الاشتغال بالتعليم على جميع الوثنيين ؛ وبذلك انقضى عهد الفلسفة اليونانية بعد حياة دامت أحد عشر قرناً من الزمان .

ويبدو الانتقال من الفلسفة إلى الدين ، ومن أفلاطون إلى المسيح ، واضحاً جلياً فى بعض الكتابات اليونانية العجيبة التى يعزوها مفكرو العصور الوسطى عن ثقة ويقين إلى ديونيسيوس الأريوباجى Dionysius the Areopagite ، وهو رجل من أهل أثينة اعتنق تعاليم بولس . وأهم مؤلفات هذا الكاتب أربعة هى : فى السلطة الكهنوتية السماوية ، وفى السلطة الأكليروسية ، وفى الأسماء القدسية ، وفى اللاهوت الصوفى .

ولسنا نعرف من هو ديونيسيوس صاحب هذه المؤلفات ، ولا متى أُلفت أو أين أُلفت . وتدل محتوياتها على أنها كتبت بين القرنين الرابع والسادس ، وكل الذى نعرفه أنه قلما كان لغيرها من الكتب ما لها من أثر عميق فى علم اللاهوت المسيحى . وقد ترجم يوحنا اسكوتوس أرچينا John Scotus Erigena واحداً منها وبنى عليه تعاليمه . وكان ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus وتومس أكويناس يجلانها ، وكان

مائة من المتصوفة اليهود ، والمسلمين ، والمسيحيين على السواء يستمدون آراءهم منها ، وكان فنانو العصور الوسطى ورجال الدين الشعبيون يتخذونها مرشداً هادياً معصوما من الزلل يصل بهم إلى الكائنات العليا وطبقات الصديقين الأبرار . وكان غرضها العام أن تجمع بين الأفلاطونية الحديثة وعلوم الكون المسيحيه . ومن تعاليمها : أن الله موجود في جميع الكائنات ، وأنه مصدر حياتها جميعاً ، وإن كان جلاله فوق مدارك العقل ، وأن بين الله والبشر ثلاث طبقات ثلاثية من الكائنات غير البشرية هي : السيرافيم ، والشيروبيم ، وحملة العرش ، والقوى المسيطرة ، والفضائل ، والسلطات ؛ ثم الملائكة العليا وكبار الملائكة ، والملائكة (وليذكر القارئ كيف رتب دانتي هذه الطوائف التسع حول عرش الله ، وكيف جمع ملتن بعض أسمائها في بيت له طنان رنان) . وتقول هذه الكتب إن الخلق هو عملية انبعاث : أي أن الأشياء جميعها تنبعث من الله عن طريق تلك الطبقات من الملائكة ، ثم تنعكس الآية فتقود هذه الطبقات التسع من الهيئة السماوية العليا بني الإنسان وجميع المخلوقات وتعود بهم إلى الله .

الفصل الثالث

الأدب

٣٦٤ — ٥٦٥

أعاد ثيودوسيوس الثانى ، والنائبون عنه فى عام ٤٢٥ تنظيم التعليم العالى فى القسطنطينية وقرروا رسمياً إنشاء جامعة مؤلفة من واحد وثلاثين مدرساً ، منهم واحد للفلسفة ، واثنان للقانون ، وثمانية وعشرون « لنحو » اللغة اليونانية واللاتينية وبلاغتها . وكان العلمان الأخيران يشملان دراسة آداب اللغتين ، وتوحى كثرة عدد المدرسين المخصصين لهذه الآداب بما كان يوجه إلى الأدب من عناية كبيرة . وقد وضع أحد أولئك الأساتذة واسمه پرسكيان Priscian حوالى عام ٥٢٦ كتاباً ضخماً فى نحو اللغتين اللاتينية واليونانية أصبح من أهم الكتب الدراسية فى العصور الوسطى . ويبدو أن الكنيسة الشرقية لم تكن تعترض وقتئذ على نسخ الآداب الوثنية[٢٩] . وقد ظلت مدرسة القسطنطينية ، حتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، تنقل بأمانة روائع الأدب القديم رغم احتجاج عدد قليل من القديسين . وحوالى عام ٤٥٠ أنشأ موسايوس Musaeus ؛ وهو رجل لا يُعرَف موطنه الأصلى ، قصيدته الذائعة الصيت ، هيرو وليندر Hero & Leander ، ذكر فيها كيف حاول ليندر كما حاول بيرن Byron من بعده أن يعبر مضيق الهلسپنت سباحة لكى يصل إلى حبيبته هيرو ، وكيف غرق أثناء هذه المحاولة ، وكيف أبصرته هيرو يقذف به الموج ميتاً أسفل برجها « فألقت بنفسها من فوق الصخرة الوعرة الشاهقة تطلب لنفسها مع حبيبها الميت جدثاً لها بين الأمواج »[٣٠] .

وكان المسيحيون المهذبون من رجال الحاشية البيزنطية هم الذين وضعوا آخر ما تحتويه السجلات اليونانية القديمة من قصائد غزلية جميلة ، كتبت بالأوزان

والروح القديمة وبعبارات تشير إلى الآلهة الوثنية . وها هي ذي أغنية منقولة عن أجاثياس Agasthias (حوالى ٥٥٠) لعلها قد أعانت بن چنسن Ben Jonson على كتابة إحدى روائع مسرحياته :

«لا أحب الخمر ، ولكن إن شئت أن تبدلي بالفرح أحزان رجل حزين، فارتشفي منها الرشفة الأولى ، ثم قدمي لي الكأس أتناولها من يدك . فإذا مسّتها شفتاك فلن أبقى بعدئذ صابراً جاسياً أتجنب الكأس الحلوة ، لأنها تحمل إلى قبلتك وتحدثني عما نالته من الابتهاج بك» .

وأهم ما كتب من أدب ذلك العصر هو ما كتبه المؤرخون . فقد كتب أونابيوس السرديسي Eunapius of Sardis *تاريخاً عاماً* لذلك العصر من عام ٢٧٠ إلى ٤٠٠ جعل بطله چستنيان ، وترجم لثلاثة وعشرين من السوفسطائيين ورجال الأفلاطونية الحديثة ترجمة لا تخرج عما كان يدور على الألسنة من سيرهم . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يبق له أثر . وكتب سقراط ، وهو مسيحي من أهل القسطنطينية ومن أتباع الدين الرسمي فيها ، *تاريخ الكنيسة* من عام ٣٠٩ إلى ٤٣٩ وهو كتاب دقيق نزيه إلى حد كبير كما يدلنا على ذلك ما كتبه عن هيباشيا . ولكن المؤلف يحشو قصته بالخرافات والأقاصيص والمعجزات ويتحدث كثيراً عن نفسه كأنه يصعب عليه أن يفرق بين نفسه وبين العالم الذي يكتب عنه . ويختم كتابه بحجة طريفة يدعو بها إلى قيام السلام بين الشيع المختلفة ، فيقول إنه إذا ساد السلام فلن يجد المؤرخون حسب ظنه شيئاً يكتبون عنه ، فتنقرض لهذا السبب تلك الطائفة من كتاب المآسي(٣٢) . ومن الكتب الأخرى التي أُلفت في ذلك العصر كتاب *التاريخ الكنسي* Ecclesiastical History لسوزومن Sozomen ومعظمه منقول من سقراط . وكان سوزمن هذا رجلا فلسطينياً اعتنق الدين المسيحي ، وكان كمن نقل عنه محامياً في العاصمة . ويبدو أن دراسة القانون لم تحل

بينه وبين الإيمان بالخرافات . وألف سوزموس Sozimus القسطنطيني حوالى عام ٤٧٥ كتابا فى *تاريخ الإمبراطورية البيزنطية* . وكان سوزموس هذا رجلا وثنيا ، ولكنه لم يخضع لما خضع له منافسوه المسيحيون من الأوهام والسخافات. وأشار ديونيسيوس إجزجيوس Dionysius Exiguus — أو دنس القصير — حوالى عام ٥٢٥ باتباع طريقة جديدة فى تأريخ الحوادث تبدأ من السنة التى قيل إن المسيح وُلد فيها . غير أن الكنيسة اللاتينية لم تقبل هذه الطريقة إلا فى القرن العاشر ، وظل البيزنطيون إلى آخر أيام دولتهم يؤرخون سنيهم من بدء خلق الدنيا . ألا ما أكثر الأشياء التى كانت معروفة فى بواكير حضارتنا والتى خفيت عنا نحن فى هذه الأيام !

وكان پروكپيوس هو المؤرخ العظيم الوحيد فى ذلك العهد . وقد ولد هذا الكاتب فى قيصرية من أعمال فلسطين (٤٩٠) ، ودرس القانون ، ثم انتقل إلى القسطنطينية وعين أميناً ومستشاراً لبليساريوس . وصحب ذلك القائد فى حروبه فى سوريا ، وأفريقية ، وإيطاليا ، ثم عاد معه إلى العاصمة . ونشر فى عام ٥٥٠ *كتب الحروب* . وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور عظمة أول الرجلين ، وبخل ثانيهما ، فقد خلع على بليساريوس ثوب البطولة البرّاق وترك چستنيان منزوياً فى الظلام . وقابل الجمهور كتابه أحسن قبول ، وسكت عنه الإمبراطور . وكتب پروكپيوس بعدئذ كتابه المعروف باسم *الأنكدوتا أو التاريخ السرى* ، ولكنه أفلح فى أن يبقيه دون أن ينشره أو يذيع ما فيه حتى طلب إليه چستنيان فى عام ٥٥٤ أن يكتب شيئا عن الأبنية التى أنشئت أثناء حكمه . فأصدر پروكپيوس فى عام ٥٦٠ كتابه المسمى « *الصروح* De Aedificirs » وأسرف فيـــه فى الثناء على الإمبراطور إسرافا يحملنا على الظن بأن الإمبراطور قد شك فى إخلاصه أو حسبه يسخر منه ، ولم ينشر *التاريخ السرى* إلا بعـــد وفاة

جستنيان — وربما بعد وفاة بروكبيوس نفسه أيضا . وهو كتاب شيق ممتع يحتوى على فضائح شبيهة بما تكتب عن جيراننا ، وإن كان التشنيع الأدبى على من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمراً غير مستحب ، وإن كان كل مؤرخ يجهد نفسه فى إثبات بحث من البحوث لا يسعه إلا أن يمسخ الحقائق .

ولا تخلو كتب بروكبيوس من أخطاء فى الأمور البعيدة عن تجاربه فقد كان فى الأحيان ينقل ما كتبه هيرودوت عن أخلاق معاصريه وفلسفتهم . وفى البعض الآخر ينقل خطب توكيديدز وحصار المدن فى أيامه ، وكان يشارك أبناء عصره فى خرافاتهم ، وسود صحف كتبه بأخبار النذر ، والتنبؤات ، والمعجزات ، والأحلام . أما حين يكتب عما يشاهده فقد أثبتت الأيام صدقه : وكان شجاعا فيما أقدم عليه من عمل عظيم ، منطقيا فى ترتيب مادته ، يستحوذ على لب القارئ وانتباهه فى قصصه ، ولغته اليونانية واضحة خالية من الالتواء والتعقيد ، وهى فصيحة لا تكاد تقل فى فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين .

وبعد فهل كان بروكبيوس مسيحيا ؟ أما فى الظاهر فنعم ، غير أننا نراه يردد أصداء من ينسج على منوالهم ، كما تتبين فى كتاباته جبرية الرواقية ، وتشكك الأكاديمية . وهو يتحدث عن « طبيعة الحظ المعوجة المتمردة وإرادته التى لا ضابط لها . واعتقادى أن هذه أشياء لم يدركها عقل الإنسان فى الماضى ولن يدركها قط فى المستقبل . ومع هذا فالناس لا ينفكون يتحدثون كثيراً عن هذه الموضوعات ولا ينقطعون عن تبادل الآراء فيها ... لأن كل واحد منها يبحث عما يدارى به جهله ... وأرى أن من الحماقة والجنون أن نبحث فى طبيعة الله ... ولهذا سأكون حصيف الرأى فألزم الصمت فى مثل هذه الموضوعات ، وكل ما أبغيه من هذا ألا أزعزع إيمان الناس بما يجلونه من العقائد القديمة » (٣٣) .

الفصل الرابع

الفن البيزنطى

٣٢٦ — ٥٦٥

١ — الانتقال من الوثنية

كانت أعظم مآثر الحضارة البيزنطيـــة هى الإدارة الحكومية وفن الزخرفة : فقد أقاموا دولة دامت أحد عشر قرناً من الزمان ، وأنشئوا أياصوفيا القائمة فى هذه الأيام .

وكان الفن الوثنى قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبيل عهد جستنيان ، وكان نصف ما خلفه من الآثار قد شُوِّه أو هدم . فقد بدأ تخريب البرابرة ، وانتهاب الأباطرة ، وتدمير الأتقياء ورجال الدين ، بدأ عمل هؤلاء وهؤلاء عهداً من الإتلاف المتعمد والإهمال دام حتى قام بترارك فى القرن الرابع عشر يدافع عما بقى منه فى أيامه . وكان من العوامل التى زادت أعمال التخريب اعتقاد الجماهير أن الآلهة الوثنية شياطين ، وأن الهياكل مأواها . وأياً كانت عقيدة أهل ذلك الوقت فقد كانوا يشعرون أن مواد هذه الآثار الفنية يمكن أن ينتفع بها على خير وجه فى تشييد الكنائس المسيحية أو أسوار المنازل ، وكثيراً ما كان الوثنيون أنفسهم يشاركون المسيحيين فى أعمال التدمير . وقد بذل بعض الأباطرة ، وخاصة هونوريوس وثيودوسيوس الثانى ، كل ما فى وسعهم لحماية المنشئات القديمة(٣٤) ، وأبقى المستنيرون من رجال الدين على البارثنون ، وهيكل ثسيوس ، والبارثينون ، وغيرها من الصروح بأن أعادوا تدشينها بوصفها أضرحة مسيحية .

وكانت المسيحية فى بادئ الأمر ترتاب فى الفن وتراه عماداً للوثنية ، وعبادة

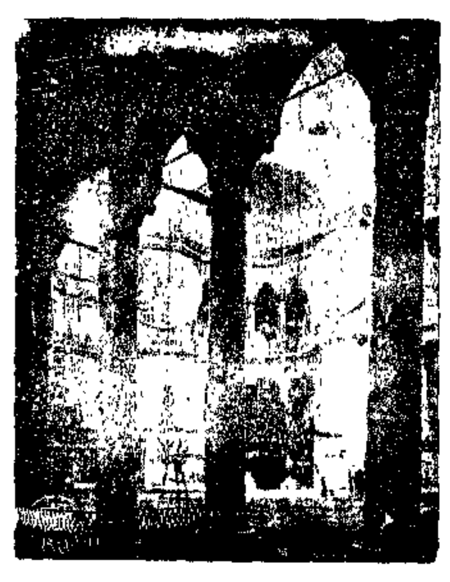
الأصنام ، وفساد الأخلاق ؛ وترى أن هذه التماثيل العارية لا تتفق مع ما يجب أن تحاط به البكورة والعزوبة من إجلال . ولما خيل إلى الناس أن الجسم أداة الشيطان ، وأصبح الراهب مثل الرجولة الأعلى بدل الرجل الرياضي ، اختفت من الفن دراسة التشريح ، ولم يبق فى فنى النحت والتصوير إلا وجوه كئيبة وثياب لا شكل لها . فلما انتصرت المسيحية على الوثنية واحتاجت إلى صروح ضخمة تأوى عبادها المتزايدين ، أخذت تقاليد الفن المحلية والقومية تثبت وجودها مرة أخرى ، وارتفع فن البناء فوق الأنقاض . يضاف إلى هذا أن تلك الصروح الرحبة كانت تلح فى طلب الزخرفة والزينة ، وكان العابدون فى حاجة إلى تماثيل للمسيح ومريم يقوى بها خيالهم ، وإلى صور تحدث السذج الأميين عن قصة إلههم المصلوب ؛ وهكذا ولدت فنون النحت والفسيفساء والتصوير من جديد .

ولم يكن الفن الجديد فى رومة يختلف إلا اختلافاً قليلا عن الفن القديم . فقد انتقلت من الوثنية إلى المسيحية متانة البناء ، وبساطة الشكل ، وطرز الباسلقا المعمدة . ومثال ذلك أن مهندسى قسطنطين خططوا كنيسة القديس بطرس الأولى بالقرب من ساحة الألعاب الحيوانية التى أنشأها نيرون على تل الفاتيكان ، وجعلوا طولها ٣٨٠ قدماً وعرضها ٢١٢ . وقد ظلت هذه الكنيسة مدى اثنى عشر قرناً أعظم كنائس المسيحية اللاتينية حتى هدمها برامنتى ليقيم فى مكانها كنيسة أكبر منها هى كنيسة القديس بطرس الحالية . وأعاد فلنتنيان الثانى وثيودوسيوس الأول بناء الكنيسة التى أقامها قسطنطين « للقديس بولس خارج الأسوار San Paolo fuori le mura » فى المكان الذى قيل إن الرسول استشهد فيه . وهذه الكنيسة أقل اتساعاً من كنيسة القديس بطرس ، فقد كان طولها أربعمائة قدم وعرضها مائتين(*) . ولا تزال كنيسة القديسة قنسطنزا Santa Constanza التى أقامها

(*) وقد دمرتها النيران فى عام ١٨٢٣ ولكنها أعيدت على الطراز القديم فى ١٨٥٤ — ١٨٧٠ . وفيها المحكمة وأعمدتها الفخمة تجعلها من أعظم الصروح التى شاهدها بنو الإنسان .



صورة رقم ٢
داخل كنيسة سانتا ماريا مجيوري بروما



صورة رقم ٣
داخل كنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية



صورة رقم ٤
داخل كنيسة سان فيتالي د رافنا



صورة رقم ٥

نقش بارز على الصخر . طاق البستان

أقامها قسطنطين لتكون ضريحا لأخته قنسطنطيا فى معظم أجزائها بالصورة التى كانت عليها وقت بنائها فى ٣٢٦ — ٣٣٠ ، وأعيد بناء كنائس سان چيوفنى San Oeovanni فى لترانا Latrana وسانتا ماريا فى ترستڤيرى Trastevre « وسان لورنزو خارج الأسوار » فى خلال قرن بعد أن بدأها قسطنطين ، وأعيد بناؤها مراراً كثيرة من ذلك الحين . وأنشئت كنيسة سانتا ماريا مجيورى Santa Maria Maggiore فى عام ٤٣٢ على غرار أحد الهياكل الوثنية . ولا يزال صحنها فى جوهره كما كان منذ إنشائها إذا استثنينا ما حلى به من النقوش فى أيام النهضة .

ولا يزال طراز الباسلقا من ذلك الوقت حتى الآن الطراز المحبب فى الكنائس المسيحية ؛ ذلك بأن اعتدال نفقاته وجلال بساطته ، وتناسق بنائه ، وعظيم متانته قد جعلته محببا إلى الناس فى جميع الأجيال . ولكنه لم يتقبل فى يسر ما يراد إدخاله عليه من التطور والتغيير ، ولهذا بدأ البناءون الأوربيون يتلفتون حولهم ليبحثوا عن آراء هندسية جديدة حتى وجدوها فى بلاد الشرق ، بل وجدوها أيضا فى اسپالاتو Spalato المركز الأدرياوى الأمامى لبلاد الشرق . ففى هذا المكان القائم على ساحل دلماشيا أطلق دقلديانوس كامل الحرية لفنانيه ، وعهد إليهم أن يجربوا كافة الوسائل التى تمكنهم من أن يقيموا له قصراً يلجأ إليه إذا أراد الاستجمام من عناء الحكم ؛ وفيه أحدث أولئك الفنانون انقلاباً كبيراً فى العمارة الأوروبية . ففيه كانت الأقواس ترفع مباشرة من تيجان الأعمدة ، وليس بينها وبين تلك التيجان عوارض ؛ وهكذا مهدت السبيل بخطوة واحدة إلى الطرز البزنطية ، والرومانية ، والقوطية . وفى هذا القصر أيضاً استبدلت بالأفاريز ذات الصور والتماثيل زخرفة عجيبة من الخطوط المتعرجة ، التى تنفر منها عيون الأقدمين والتى ألفها الشرق من زمن بعيد . وبذلك كانت اسپلاتو هى النذير الأول بأنه

أوربا لن يغلبها على أمرها دين شرقى فحسب ، بل سيغلبها كذلك فن شرقى إن لم يكن فى جميع أنحائها فو. العالم البيزنطى على الأقل

٢ – الفنانون البيزنطيون

ترى من أين جاء إلى القسطنطينية ذلك الفن ذو اللون الفذ ، الراق المقبض الذى نسميه الفن البيزنطى؟ ذلك سؤال ثار فيه الجدل بين علماء الآثار بقوة لاتكاد تنقص عن قوة الجنود المسيحيين فى حروبهم ، وكان النصر النهائى فى هذه المعركة الكبرى لبلاد الشرق . وتفصيل ذلك أنه حين قويت سوريا وآسية الصغرى بفضل ما حدث فيهما من تقدم صناعى ، وحين ضعفت رومة بسبب الغزو الأجنبى ، ارتد التيار الهلنستى الذى اندفع نحو الشرق إثر فتوح الإسكندر من آسية إلى أوربا ، وتلاقت فى بيزنطية مؤثرات الفن الشرقى المنصبة من فارس الساسانية ، وسوريا النسطورية ، ومصر القبطية ، ووصلت هذه المؤثرات إلى إيطاليا ، بل تعدتها إلى غالة ، وتخلى الفن اليونانى الممثل للطبيعة عن مكانه إلى الفن الشرقى ذى الزخارف الرمزية . وكان الشرق يفضل الألوان عن الخطوط والأقواس والقباب عن السقف الخشبى ، والزينة الكثيرة عن البساطة الصارمة ، والأثواب الحريرية الفخمة عن الجبة التى لا شكل لها . وكما أن دقلديانوس وقسطنطين قد اتخذا فى نظم الحكم أشكال الملكية الفارسية ، فكذلك شرع فن القسطنطينية يغض النظر شيئاً فشيئاً عن الغرب الذى ألقى الآن بنفسه فى أحضان البربرية ، وأخذ يرنو ببصره إلى آسية الصغرى وأرمينية ، وفارس ، وسوريا ، ومصر ولعل انتصار جيوش الفرس فى عهد شابور الثانى وكسرى أنوشروان قد عجل خطوات البواعث والأساليب الشرقية . وكانت الرها ونصيبين فى ذلك الوقت مركزين مزدهرين من مراكز ثقافة ما بين النهرين ، وهى الثقافة التى

مزجت العناصر الإيرانية ، والأرمينية ، والكبدوكية والسورية[٣٥] ، ونقلها التجار ، والرهبان ، والفنانون إلى أنطاكية ، والإسكندرية ، وإفسوس ، والقسطنطينية ، ثم نقلوها أخيراً إلى رافنا ورومة ؛ فكادت النظم اليونانية والرومانية القديمة تفقد قيمتها فى هذا العالم المعمارى الجديد ، عالم العقود والأقواس ، والقباب .

ولما اتخذ الفن البيزنطى هذه الصورة الجديدة عمل على نشر العقائد المسيحية وإظهار مجد الدولة . فأخذ يقص على الثياب والقماش المزركش ، وفى نقوش الفسيفساء ورسوم الجدران ، حياة المسيح وأحزان مريم ، وأعمال الرسل أو الشهداء الذين تضم الكنائس عظامهم ؛ أو دخل بلاط الأباطرة ، وزين قصر الإمبراطور ، وغطى ملابس الموظفين بصورة رمزية أو رسوم تاريخية ، وخطف أبصار رعاياه بالمناظر الزاهية الكثيرة الألوان ، وانتهى أمره بأن صور المسيح ومريم فى صورتى إمبراطور وملكة . ذلك أن الفن البيزنطى لم يكن له كثير من المؤيدين يختار من بينهم من يناصره ، ولهذا لم يكن له مجال واسع يختار منه موضوعه وطرازه ، فكان الإمبراطور أو البطرق هو الذى يحدد له ما يعمل ويبين له طريق العمل ، وكان الفنانون يعملون جماعات ، ولهذا قلما يذكر التاريخ أسماء فنانين أفراداً ، ولكنهم أتوا بالمعجزات فى بهاء الألوان ؛ وكان الفنان يرفع من شأن الناس أو يحط من قدرهم بمستحدثاته الرائعة ؛ ولكن هذه المنزلة اقتضته استمساكاً بالأشكال والأنماط المتبعة ، وضيقاً فى المجال ، وجموداً فى خدمة ملك مطلق التصرف ودين لا يقبل التغيير .

وكان تحت تصرفه موادّ كثيرة يستخدمها فى عمله ؛ كانت لديه محاجر الرخام فى بروكنسوس Proconnesus ، وأتكا ، وإيطاليا ؛ وكانت لديه عمد وتيجان ينتهبها من كل هيكل وثنى قائم ، وكان لديه الآجر يكاد ينمو كالنبات فى الأرض التى تجففها الشمس . وكان أكثر ما يعمل فيه الآجر المثبت بالملاط ؛ ذلك أنه

كان يسهل استخدامه فى الأشكال المنحنية التى فرضتها عليه الأنماط الشرقية . وكثيراً ما كان يقنع بالشكل الصليبي — شكل الباسلقا ذات الجناحين التى تستطيل حتى تنتهى بقباء . وكان فى بعض الأحيان يقطعُ الباسلقا فيجعلها مثمنة الجوانب كما فعل فى كنيستى القديسين سرجيوس وباخــوس فى القسطنطينية ، أو فى كنيسة القديس ڤيتالى فى راڤنا . ولكن الطراز الذى برع فيه وبز فيه جميع الفنانين الذين سبقوه أو جاءوا بعده هو القبة المستديرة المقامة على هيكل كثير الأضلاع . وكانت الطريقة التى اتبعها للوصول إلى هذه الغاية هى إنشاء قوس أو نصف دائرة من الآجر فوق كل ضلع من أضلاع السطح المتعدد الزوايا والأضلاع ، ثم إقامة مثلث دائرى من الآجر متجه إلى أعلى وإلى الداخل بين كل نصف دائرة ، ثم بناء قبة فوق الحلقة المستديرة الناشئة من هذا كله . وكانت المثلثات الدائرية تبدو متدلية من حافة القبة إلى قمة المضلع ، وبهذا ربعت الدائرة من الوجهة المعمارية ، وبعد هذا كاد طراز الباسلقا أن يختفى من الشرق :

وقد أفاء البنّاء البيزنطى على هذا البناء من الداخل ما أسعفته به عشرات الفنون المختلفة . وقلما كان يستخدم التماثيل لهذا الغرض ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يصور رجالا ونساء ، بل كان يعمل لخلق جمال مجرد من الصور الرمزية . ولكن المثالين البيزنطيين كانوا رغم هذا القيد عمالا يمتازون بالكفاية والصبر وسعة الحيلة . وقد نحتوا التاج « الثيودوسى » للعمد بأن جمعوا بين « آذان » النمط الأيونى ، وأوراق النمط الكورنثى ؛ وكأنهم أرادوا أن يجعلوا هذه الوفرة من الطرز أشمل وأعم ، فحفروا على هذا التاج المركب أجمة من النبات والحيوان . وإذ كانت نتيجة هذا لا تتناسب مع الجدران أو الأقواس فقد وضعوا بينها وبين التاج عصابة مربعة وعريضة من أعلاها ، ومستطيلة وضيقة نوعاً ما عند قاعدتها ، ثم حفروا على توالى الأيام أزهاراً على هذه العصابات نفسها . وهنا أيضاً كانت الغلبة للفُرس على اليونان ، كما كانت للأولين الغلبة فى مربع القبة . ثم طلب إلى

المصورين أن يزينوا الجدران بصور تثبت عقيدة الناس أو ترهبهم ؛ ووضع عمال الفسيفساء مكعباتهم المتخذة من الحجر أو الزجاج الملون البراق فوق أرضية زرقاء أو ذهبية ، وزينت الأرض والجدران ، أومذابح الكنائس ، أوما بين العقود ، أوأى جزء من البناء لاتطيق عين الشرقى أن تراه خالياً من الزخرف . وكان الصناع يزينون الملابس ، والمذابح ، والعمد ، والجدران بالجواهر والأحجار الكريمة ؛ وصناع المعادن يضعون فيها صفائح الذهب والفضة ؛ وصناع الخشب ينقشون المنابر وأسوار المحاريب ، والنساجون يعلقون الأنسجة المزخرفة على الجدران ويفرشون الأرض بالطنافس ، ويغطون المذابح والمنابر بالأقمشة المطرزة وبالحرير . ولم يذكر التاريخ قبل ذلك العهد فناً أوتى ما أوتيه الفن البيزنطى من وفرة الألوان ، ودقة الرموز ، وغزارة الزينة ؛ وقدرة على تهدئة الذهن وتنبيه الروح .

٣ ــ أياصوفيا

ولم تكن العناصر اليونانية والرومانية ، والشرقية ، والمسيحية قد أتمت امتزاجها ليكون منها الفن البيزنطى قبل عهد جستنيان . فلقد أتاحت له فتنة نيقا Nika ، كما أتاح حريق رومة لنيرون من قبل ، فرصة بناء عاصمته من جديد ؛ ذلك أن الغوغاء فى لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا دار مجلس الشيوخ ، وحمامات زيوكسبوس Zeuxippus وأروقة الأوغسطيوم ، وجناحا من أجنحة القصر الإمبراطورى ، وأياصوفيا كنيسة البطريق الكبرى ، وكان فى وسع جستنيان أن يعيد بناء هذه كلها حسب تخطيطها القديم فلايتطلب هذا منه أكثر من عام أوعامين . لكنه لم يفعل هذا وصمم على أن ينفق فى بنائها مزيداً من الوقت والمال ، وأن يستخدم فى هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال ، وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من رومة ، وأن يقيم فيها كنيسة لايدانيها صرح آخر

فى العالم كله . وكانت بداية عمله أن وضع فى ذلك الوقت منهجاً للأبنية أوسع وأعظم من أى منهج آخر وضع لها فى التاريخ : وكان هذا المنهج يشمل حصوناً ، وقصوراً وأديرة ، وكنائس ، وأروقة معمدة ، وأبواباً أقيمت فى جميع أنحاء الإمبراطورية . فنى القسطنطينية أعاد بناء مجلس الشيوخ من الرخام الأبيض ، وشاد حمامات زيوكسيپوس من الرخام المتعدد الألوان ، وبنى رواقاً معمداً من الرخام ، ومتنزهاً فى الأوغسطيوم ، ونقل الماء العذب إلى المدينة فى قناة مبنية جديدة تضارع أحسن ما وجد من القنوات فى إيطاليا . أما قصره فلم يكن يعلو عليه قصر آخر فى البهاء والترف . فقد كانت أرضه وجدرانه من الرخام ، وسُقُفه تقص بالفسيفساء البراقة ما ناله من النصر فى أيام حكمه ، وتصور الشيوخ فى حفلاتهم يقدمون للإمبراطور مظاهر الإجلال والتعظيم التى « لا تكاد تقل عما يقدم منها لله »[٣٦] ؛ وبنى على الجانب الآخر من البسفور ، بالقرب من خلقيدون مسكناً صيفياً لتيودورا وحاشيتها هو قصر هريون الذى كان له مرفؤه ، وسوقه ، وكنيسته وحماماته الخاصة به .

وبعد أربعين يوماً من خمود نار فتنة نيقا بدأ يبنى كنيسة أياصوفيا الجديدة . ولم يقمها إلى قديسة تحمل ذلك الاسم ، بل أقامها إلى المقدسة صوفيا **Hagia Sophia** أو الحكمة القدسية ، أو العقل الخلاق ، أو إلى الله نفسه . واستدعى لهذا الغرض من تراليس فى آسية الصغرى ، ومن ميليتس الأيونية ، أنثميوس وأزدور أعظم المهندسين الأحياء ، ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده . ولم يتبع المهندسان شكل الباسلقا الذى جرت عليه التقاليد ، بل وضعا للبناء تصميما تكون صرتا قبة واسعة لا ترتكز على جدران بل على أكتاف ضخمة ، وتسندها نصفا قبتين من كلا الجانبين . واستخدم فى العمل عشرة آلاف عامل ، وأنفق عليه ٣٢٠٫٠٠٠ رطل من الذهب (١٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) وهو كل ما كان فى خزانة الدولة ، وأمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقى من

المخلفات القديمة ، وجيء بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار وصبت فى النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب ، والفضة ، والعاج ، والحجارة الكريمة . واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً فى تخطيط البناء وإقامته ، وكان له نصيب غير قليل (كما يقول المؤرخ المداهن الساخر) فى حل ما يعترض العمل من المشاكل الفنية . فكان يتردد عليه فى كل يوم وعليه ثياب بيض ، وفى يده عصا طويلة ، وعلى رأسه منديل ، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه فى موعده المقرر. وتم بناء الصرح العظيم فى خمس سنين وعشرة أشهر ؛ وفى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٥٣٧ أقبل الإمبراطور والبطريق ميناس يتقدمان موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتلألئة الفخمة . وسار جستنيان بمفرده إلى المنبر ورفع يديه إلى السماء ونادى قائلا : « الحمد لله الذى رآنى خليقاً بأن أتم هذا العمل الجليل ! أى سليمان ! لقد انتصرت عليك ! » .

وقد خطّ البناء على شكل صليب يونانى طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥ ، وغطى كل طرف من أطرافه بقبّة صغرى ، وقامت القبة الوسطى على المربّع (البالغ ١٠٠ قدم × ١٠٠) والمكون من الضلعين المتقاطعين ، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة قدم وثمانين قدما وقطرها مائة قدم — أى أقل من قطر قبة البنثيون فى رومة باثنتين وثلاثين قدماً . وكانت هذه القبة الثانية قد صبت من الأسمنت المسلح قطعة واحدة مصمتة ، أما قبة أياصوفيا فقد بنيت من الآجر فى ثلاثين سطحاً تلتقى كلها فى نقطة واحدة — وهو طراز أضعف من الطراز الأول[*] . وليست ميزة هذه القبة فى حجمها بل فى دعائمها : فهى لا تقوم على بناء دائرى كما تقوم قبة البنثيون بل على أربطة من أعلاها ، وعلى عقود

(*) حدث فى عام ٥٥٨ زلزال صدع القبة الوسطى فانهارت فى صحن الكنيسة ، وأعاد بناءها إزدور بن إزدور المتوفى ، وقوى دعائمها ، ورفعها خمساً وعشرين قدماً فوق ما كانت عليه . وفى هذه القبة شروخ تنذر بأنها تحيا الآن حياة مزعزعة .

بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة . ولم تحلّ هذه المشكلة المعمارية قبل ذلك الوقت حلا أكثر توفيقاً من هذا . وقد وصف بروكپيوس القبة بأنها « عمل مجيد يبعث الروعة فى النفوس . . . وهى لا تبدو قائمة على ما تحتها من البناء بل تبدو كأنها معلقة بسلسلة من الذهب فى أبراج السماء »(٣٧) .

وأما من الداخل فكانت الكنيسة صورة رائعة من الزخرف البرّاق . فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان : أبيض ، وأخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وأرجوانى ، وذهبى . وأقيم منه كذلك طابقان من العمد يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار . وكانت تيجان العمد ، والعقود وما بينهما ، والأفاريز ، والطنف مغطاة بنقوش على الحجارة مكونة من أوراق الأكنثوس والكرم . وكان يطلّ من الجدران والقباب فسيفساء لا مثيل لها فى روعتها وسعتها . وكانت تضيؤها أربعون مائة من الفضة معلقة من حافة القبة تضاف إلى ما فيها من النوافذ الكثيرة . وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها فى نفسه أجنحتها الطويلة ، وبناؤها الرئيسى ، والفضاء الخالى من العمد تحت القبة الوسطى ؛ وما فى حظارها الفضى المواجه للقباء من زخارف معدنية ، والحظار المعدنى الجميل الذى فى الإيوان الأعلى ، والمنبر الموصع بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ؛ وعرش البطريق المصنوع من الفضه المصمتة ، والسجف المنسوجة من خيوط الحرير والفضة ، والتى ترتفع فوق المذبح وعليها صورتا الإمبراطور والإمبراطورة تتلقيان بركات المسيح ومريم ؛ والمذبح الذهبى اللون المصنوع من الرخام النادر الوجود وعليه الأوانى المقدسة من الفضة والذهب — وهو بعض ما فى الكنيسة من زخرف وزينة — ليجل عن الوصف . ولو أن چستنيان قد تباهى بما تباهى به أباطرة المغول من بعده ، وهو أنهم كانوا يبنون كما يبنى الجبابرة ، ويزينون مبانيهم كما يزينها الصياغ ، لكان على حق فى مباهاته .

وكانت أياصوفيا بداية الطراز المعمارى البيزنطى وخاتمته فى آن واحد .

وكان الناس فى كل مكان يسمونها « الكنيسة الكبرى » وحتى بروكپيوس المتشكك نفسه تحدّث عنها حديث الرجل المرتاع فقال : « إذا دخل الإنسان هذه الكنيسة للصلاة ، أحس بأنها ليست من أعمال القوى البشرية . . . ذلك أن الروح حين ترقى إلى السماء تدرك أن الله هنا قريب منها ، وأنه يبتهج بهذا البيت ، بيته المختار »(*) .

٤ — من القسطنطينية إلى راڤنا

كانت أياصوفيا أجلّ ما قام به چستنيان من الأعمال ، وكانت أبقى على الدهر من فتوحه أو قوانينه ، ولكن پروكپيوس يصف أربعاً وعشرين كنيسة أخرى بناها چستنيان أو أعاد بناءها فى عاصمة ملكه . ويقول : « لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الإمبراطور لم يبنِ كنيسة سواها بل قضى سنى حكمه جميعها فى بنائها وحدها »(٣) . وظلت حمى البناء منتشرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية طوال حياة چستنيان ، حتى كان القرن السادس وهو بداية العصور المظلمة فى الغرب من أكثر العصور ازدهاراً فى تاريخ العمارة فى الشرق . فكانت ألف كنيسة فى إفسوس ، وأنطاكية ، وغزة ، وبيت المقدس ، والإسكندرية ، وسلانيك ، وراڤنا ، ورومة ، والبلاد الممتدة من كرش فى بلاد القرم إلى صفاقس فى شمالى أفريقية ، تحتفل بانتصار المسيحية على الوثنية ، وبالطراز الشرقى — البيزنطى على الطراز اليونانى — الرومانى . وحلّت العقود والقباب محل الأعمدة الخارجية ، والعوارض ، والقواصر ، والطنف . وازدهرت فى سوريا

(*) لما استولى الأتراك على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ غطوا فسيفساء أياصوفيا بالجص ، لكراهيتهم ما عليها من صور منحوتة ، يعدونها من عبادة الأصنام . ولكن الحكومة التركية قد أذنت منذ قليل إلى طائفة من العمال من المعهد البيزنطى ببسطن بولاية مسشوستس أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التى لا تسمو عليها نماذج أخرى فى العالم كله . وكاد الفاتحون الأتراك يكفرون عما فعلوه بهذه الكنيسة بإقامة أربع مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب .

نهضة حقة فى القرن الرابع ، والخامس ، والسادس ؛ فكانت مدارسها القائمة فى أنطاكية ، وبيروت ، والرها ، ونصيبين ، تخرج العدد الجم من الخطباء ، والمحامين ، والمؤرخين ، والخارجين على الدين . وبرع صنّاعها فى أعمال الفسيفساء ، والنسيج ، وجميع الفنون الزخرفية ، وشاد مهندسوها مائة كنيسة زيّنها مثّالوها بما لا حصر له من النقوش البارزة .

وكانت الإسكندرية المدينة الوحيدة فى الإمبراطورية التى كان ازدهارها متصلا لم ينقطع أبداً . ذلك أن مؤسسها قد اختارلها مكاناً يكاد يرغم عالم البحر المتوسط على استعمال مرافئها وزيادة تجارتها .. ولم تبق الأيام على شىء مما أقيم فيها من عمائر فى تاريخها القديم أو فى أوائل العصور الوسطى ، ولكن ما بقى من أعمالها فى المعادن ، والعاج ، والخشب ، والتصوير ، متفرقاً فى أماكن مختلفة يوحى بأن أهلها قد بزوا غيرهم فى الشهوانية ، والحمية الدينية . وكان الطراز الشرقى فى عهد جستنيان هو الطراز الغالب فى فن العمارة القبطى الذى يدأ بالباسلقا الرومانية .

ويدأ مجد رافنا المعمارى بعد أن اتخذها هونوريوس عاصمة الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٠٤ بزمن قليل . وعم الرخاء المدينة فى الفترة الطويلة التى كانت فيها جلا پلاسيديا Galla Placidia نائبة عن الإمبراطور ، وكانت صلتها الوثيقة بالقسطنطينية سبباً فى قدوم الصنّاع الشرقيين ، واختلاطهم بالمهندسين الإيطاليين ، وفى دخول الأنماط الشرقية وامتزاجها بالأشكال الإيطالية . وظهر فيها الطراز الهندسى الشرقى المؤلف من قبة مقامة على قاعدة ذات شكل صليبى منذ عام ٤٥٠ فى الضريح الذى لقيت فيه پلاسيديا ربها ؛ ولا يزال فى وسعنا أن نرى فيه النقش الفسيفسائى الذائع الصيت الذى يمثل المسيح فى صورة الراعى الصالح . وفى عام ٤٥٨ أضاف الأسقف نيون Neon إلى مكان التعميد المقبب فى باسلقا أرسيانا Basilica Ursiana سلسلة من قطع الفسيفساء من بينها صورة مفردة

للرسل . وشاد ثيودريك حوالى عام ٥٠٠ كنيسة كبرى سماها باسم القديس ابلينارس الذى يقال إنه مؤسس العشيرة المسيحية فى راڤنا . وهنا يظهر على الفسيفساء التى طبقت شهرته آفاق العالم القديسيون ذوو الثياب البيض فى وقارهم الشديد الذى ينبئ ببداية الطراز البيزنطى .

وكان استيلاء بليساريوس على راڤنا من الأسباب التى عجلت بانتصار الفن البيزنطى فى إيطاليا . وسرعان ما تمت كنيسة سان ڤيتالى San Vitale (٥٤٧) فى عهد چستنيان وثيودورا ، اللذين وهباها المال اللازم لتزيينها ، كما وهباها أيضاً وجهيهما غير الجذابين لينقشا على جدرانها . وما من شك فى أن الإمبراطور والإمبراطورة قد أوتيا حظا كبيراً من الشجاعة إذ أجازا أن تنقل صورتاهما إلى الخلف . ومواقف أولئك الحكام ، والقساوسة ، والخصيان تنبئ كلها عن صلابة وحدة فى الطباع ، وإن مظهرها الأمامى الجامد ليعد انقلاباً فى الصور التى كنا نشهدها قبل عصور اليونان والرومان الأقدمين . وأثواب النساء كثيرة الزركشة تعلن انتصار نقوش الفسيفساء ؛ ولكننا لا نجد هنا رشاقة مواكب البارثنون المرحة السعيدة ، أو نصب السلام لأغسطس أو ما نشاهده فى الصور المنقوشة على أبواب شارترز وريمز من نبل ورقة .

وبعد عامين من افتتاح كنيسة سان ڤيتال افتتح أسقف راڤنا كنيسة سانت أبلينارى فى كلاس Classe وهى ثانى كنيسة أقيمت لهذا القديس راعى المدينة ؛ وكان موضعها فى ضاحيتها التى على شاطئ البحر ، والتى كانت فى وقت ما قاعدة الأسطول الرومانى على البحر الأدرياوى . ونشاهد فيها التصميم الباسلقى الرومانى القديم ، ولكن تيجان الأعمدة المختلطة الأشكال تظهر عليها مسحة بيزنطية تنم عنها أوراق الأقنتا(*) الملفوفة الملتوية على خلاف ما كان يظهر فى الأنماط اليونانية والرومانية القديمة ، كأنما هبت عليها ريح شرقية . وإن ما فى هذه الكنيسة من

(*) Acanthus ويسمى أيضا الكنكر ، وشوك الجمل ، وشوك اليهود .

صفوف الأعمدة الكاملة الطويلة ، وفى حليات العقود والمثلثات المحصورة بينها من فسيفساء زاهية (من القرن السابع) ، وما فى وضع المرنمين من لوحات جميلة من المصيص ، وما فى الصليب القائم فى القبا من الجواهر مرصعة بها أرضية من النجوم فى الفسيفاء ، إن فى هذا كله ما يجعل هذه الكنيسة من أشهر كنائس شبه الجزيرة التى تكاد تكون كلها معرضا عظيما للفنون الجميلة .

٥ - الفنون البيزنطية

لقد كان فن العمارة أروع ما خلفه الفنان البيزنطى ، ولكنه كان فى ثناياه أو من حوله فنون أخرى كثيرة نبغ فيها نبوغا خليقا بالتنويه . نعم إنه لم يكن يعى بالنحت المجسم ، وأن مزاج العصر كان يفضل الألوان على الخطوط ، ولكن بروكبيوس يثنى على المثالين فى ذلك العصر ، وأكبر الظن أنه يعنى بهم أصحاب النقش البارز ، ويقول إنهم لا يقلون مهارة عن فدياس وبركستليز ؛ وإنا لنجد على بعض التوابيت الحجرية المصنوعة فى القرن الرابع والخامس والسادس صوراً آدمية منحوتة برشاقة تكاد تضارع الرشاقة الهلينية ، مختلطة بها كثير من نقوش الزينة الآسيوية . وكان النقش على العاج من الفنون المحببة إلى البيزنطيين ، وكانوا يصنعون منه ألواحا ذات طيتين أو ثلاث طيات ، ويجلدون به الكتب ، ويصنعون منه العلب ، وصناديق العطور ، والتماثيل الصغيرة ، ويطعمون به التحف ويزينون به ما لا يحصى من الأشياء . وقد بقيت الفنون الهلنستية فى هذه الصناعة لم يمسسها سوء ، وكل ما حدث فيها أنها استبدلت المسيح والقديسين بالآلهة والأبطال . وإن الكرسى العاجى الذى كان يجلس عليه الأسقف مكسميان فى الباسلقا أرسيا Basilica Ursiana (حوالى ٥٥٠) ليعد تحفة عظيمة فى فن من الفنون الصغرى .

وبينا كان الشرق الأقصى يجرى التجارب على الرسم بألوان الزيت[٤٠] ،

كان التصوير البيزنطى لا يزال مستمسكا بالأساليب اليونانية التقليدية كتثبيت ألوان الرسوم بالحرارة — بحرق الألوان فى سطوح الخشب ، والخيش ، ونسيج التل ؛ وكالمظلمات يصنعونها بخلط الألوان بالجير ووضعها على سطوح من الجبس المبلل ، ومزج اللون بمحلول الماء والصمغ أو الغراء وبزلال البيض ثم وضعها على المربعات الخشبية أو على الجبس بعد أن يجف. وقد عرف الرسام البيزنطى كيف يمثل البعد والعمق ، ولكنه كان يهرب عادة من صعاب النظور بأن يملأ خلفية الصورة بالمبانى والسجف . وقد أخرج عدداً كبيراً من اللوحات المصورة ، ولكنها لم يبق منها إلا القليل . وكانت جدران الكنائس تزدان بالرسوم . وتدل القطع الباقية منها على الواقعية غير المتقنة كالأيدى العديمة الشكل ، والأجسام الصغيرة ، والوجوه الشاحبة ، والشعر المصفف تصفيفا غير معقول .

وقد برع الفنان البيزنطى فى الأشياء الدقيقة وأظهر فيها مرحه وظرفه . وليست روائع التصوير الباقية إلى هذا اليوم من أعماله هى رسوم الجدران أو اللوحات الكثيرة ، بل هى الرسوم الصغرى ذات الألوان البراقة التى كان يزين بها ما ينشر من الكتب فى عصره . ذلك أن الكتب كانت كثيرة النفقات فى ذلك العصر ، ولهذا كانت تحلى كما يحلى غيرها من الأشياء النفيسة . وكان الفنان يبدأ عمله هذا برسم ما يريده من الحليات على البردى أو الرق أو الجلد بفرشاة دقيقة أو قلم ، ثم يضع أرضية تكون عادة ذات لون ذهبى أو أزرق ، ثم يضع ما يريده من الألوان ، ثم يزين الأرضية والحواشى بأشكال رشيقة دقيقة . وكان فى بادئ الأمر يقتصر على تحسين الحرف الأول من كل فصل أو صفحة ؛ وكان يحاول فى بعض الأحيان أن يرسم صورة للمؤلف ، ثم انتقل بعدئذ إلى توضيح النصوص بالصور ؛ فلما تقدم فنه آخر الأمر كاد ينسى النص ويملأ الكتاب بالزخارف ويبنيها على أساس هندسى أو رمز دينى يكرره بأشكال مختلفة يخططها

الحصر ، حتى تصبح الصفحة كلها وكأنها صورة واحدة بديعة من الألوان والخطوط كأن النص دخيل عليها من عالم أكثر منها خشونة .

وكانت زخرفة المخطوطات مألوفة فى مصر أيام الفراعنة والبطالمة ، ثم انتقلت منها إلى بلاد اليونان الهلنستية ورومة . وتحتفظ الفاتيكان بإنياذة ، والمكتبة الأمبروزية ` ميلان بإلياذة ، تعزى كلتاهما إلى القرن الرابع ؛ وهما مزدانتان زينة يونانية ورومانية قديمة ، ويبدو الانتقال من الزخرفة الوثنية إلى المسيحية واضحا فى **الطبواغرافية المسيحية** لصاحبها كزماس انديكبلوستيز Cosmas Indicoplenstes (حوالى ٥٤٧) . وقد نال لقبـــه هذا « إنديكبلوستيز » لأنه سافر إلى الهند بحراً ، كما نال شهرته لأنه حاول أن يثبت أن الأرض مستوية . وأقدم كتاب دينى مزخرف باق إلى هذا اليوم هو سفر التكوين المكتوب من القرن الخامس والمحفوظ الآن فى مكتبة فينا . والنص مكتوب بحروف من الفضة والذهب على أربع وعشرين « ورقة » من الجلد الأرجوانى الرقيق . ويحتوى على أربعة وعشرين زخرفا بيضاء وخضراء ، وبنفسجية ، وحمراء ، وسوداء ، تصور قصة الإنسان من سقوط آدم حتى موت يعقوب . ولا يقل عنه جمالا **الملف الصغير لكتاب يوشع** المحفوظ فى الفاتيكان **وكتاب الأناجيل** الذى زخرفه الراهب رابولا Rabula فى أرض الجزيرة فى عام ٥٨٦ . ومن أرض الجزيرة وسوريا جاءت الصور والرموز التى كانت لها الغلبة فى الكتابة التصويرية التى ذاعت فى العالم البيزنطى . وقد تكررت هذه الكتابة فى الفنون الصغرى واتخذت لها ألف شكل وشكل حتى ثبتت وأصبحت تقليداً وعرفاً متبعاً ، وكان لها نصيب موفور فى جمود الفن البيزنطى .

وإذا كان المصور البيزنطى مولعاً بالتصوير البراق الدائم فقد اتخذ الفسيفساء وسيلته إلى هذين الفرضين . ومن أجل هذا اختار لأرض حجراته مربعات من

الرخام الملون كما كان يفعل المصريون واليونان والرمان من قبل . أما السطوح الأخرى فكان يستخدم فيها مكعبات من الزجاج أو الميناء من جميع الألوان ومختلف الحجوم ، ولكن سطحها فى العادة كان يبلغ ⅛ بوصة مربعة . وكانت الحجارة الثمينة تختلط أحيانا بالمكعبات ، وكثيراً ما كانت الفسيفساء تستخدم فى صنع الصور الصغيرة والنصمات(*) التى توضع فى الكنائس أو البيوت . أو تحمل فى الأسفار عوناً لأصحابها على الزمن ودليلا على التقى والخشوع . غير أن صانع الفسيفساء كان يفضل على هذه الصور الصغرى مجالا أوسع هو جدران الكنائس والقصور . فكان فى مرسمه يجرب وضع المكعبات على قطعة من الخيش عليها رسم ملون . وهنا كان يجهد عبقريته الفنية ليضع تحت يده الألوان المدرجة الذائبة بعضها فى بعض كما يجب أن يراها الناظر من بعيد . وفى هذه الأثناء كانت طبقة من الأسمنت الغليظ ، ثم طبقة أخرى من الأسمنت الرقيق توضعان على السطح المراد تغطيته . ثم يأتى صانع الفسيفساء ويضغط مكعباته فى هذا القالب على غرار النموذج الذى وضعه لنفسه فوق خيشه ، وقد جرت عادته على أن يضع حافاتها المقطوعة إلى الأمام لكى يقع عليها الضوء . وكان يفضل السطوح المنحنية كسطوح القباب ، وأنصاف القباب الشبيهة بالأصداف لأنها تمتص فى أوقات مختلفة وبزواياها المختلفة أنواعا عدة من الأضواء المظللة . ومن هذا الفن الشاق الذى يتطلب المهارة والجلد ألهم الفن القوطى فى مستقبل الأيام غير قليل من فن تلوين الزجاج .

وقد ورد ذكر هذا الزجاج الملوّن فى النصوص الباقية من القرن الخامس ، ولكن شيئاً منه لم يبق حتى الآن ، ويبدو أن صبغته كانت من خارجه لم تمزج فيه مزجاً (٤١). وكان صنع الزجاج بالنفخ وتقطيعه قد مضى عليهما الآن ألف عام ،

(*) النصمة الصورة تعبد وقد ترجمنا بها كلمة icon . (المترجم)

وكانت سوريا ، أقدم مواطن الصناعتين ، لا تزال مركزاً من مراكزهما . وكان فن الحفر على المعادن الثمينة والحجارة الكريمة قد انحط بعد أيام أورليوس ، ولهذا نرى الجواهر ، والنقود ، والأختام البيزنطية غير دقيقة الشكل والصناعة . لكن الصناع مع هذا كانوا يبيعون منتجاتهم لكل طبقة من الطبقات تقريباً ، لأن البيزنطيين كانوا مولعين أشد الولع بالحلى . وكانت محال صنع التحف الذهبية والفضية كثيرة العدد فى العاصمة ، كما كانت الحقاق ، والأقداح ، وعلب المخلفات المصنوعة كلها من الذهب تزدان بها كثير من مذابح الكنائس ، وكانت الصحاف الفضية تغطى موائد ذوى اليسار .

وكان فى كل بيت ، بل يكاد يكون لدى كل شخص ، شىء من النسيج الرقيق ؛ وكانت لمصر الزعامة فى هذا الميدان بما كان فيها من منسوجات رقيقة ، متعددة الألوان ، مزدانة بالصور ، تصنع منها الثياب ، والستر ، وأغطية الفراش ، وكان قبط مصر سادة هذه الميادين . وتكاد بعض الأقمشة المصرية التى كانت تزدان بها الجدران فى تلك الأيام تضارع من الناحية الفنية أقمشة الجوبلين Goblins[٤٢] . وكان النساجون البيزنطيون ينسجون الحرير المطرز ، والثياب المطرزة ، بل والأكفان المطرزة أيضاً — فقد كانت المنسوجات التيلية تصور عليها بالفعل ملامح الموتى . وكان الناس فى القسطنطينية يعرفون بما يلبسونه من الثياب ، ذلك أن كل طبقة من أهلها كانت تعتز بنوع خاص من الثياب يميزها من غيرها وتدافع عنه أقوى دفاع ؛ وما من شك فى أن أية جماعة بيزنطية كانت تبدو للناظر براقة كذيل الطاووس .

وكانت الموسيقى محببة لجميع الطبقات منتشرة بينها ، وكان لها شأن متزايد فى طقوس الكنيسة ، وقد أعانت على مزج العاطفة بالعقيدة . وقد كتب ألبيوس Alypius فى القرن الرابع مقدمة موسيقية بقيت منها حتى الآن أجزاء هى أهم ما نسترشد به فى قراءة العلامات الموسيقية اليونانية . وقد استبدلت فى ذلك القرن

بالحروف الهجائية التى كانت تمثل بها الأنغام علامات رمزية ؛ ويبدو أن أمبروز هو الذى جاء بهذه العلامات إلى ميلان ، وأن هيلارى Hilary هو الذى أدخلها فى غالة ، وجيروم فى رومة . وألف رومانس Romanus ، الراهب اليونانى فى أواخر القرن الخامس ألفاظ الترانيم التى لا تزال حتى الآن جزءاً من الطقوس الدينية اليونانية ولحنها ؛ وليس ثمة ما يضارع هذه الترانيم فى عمق الشعور وقوة التعبير . وكتب بؤيثيوس مقالا فى الموسيقى لخص فيه نظريات فيثاغورس وارستكسنوس Aristoxenus وبطليموس ؛ وقد ظلت هذه الرسالة تدرس فى جامعتى أكسفورد ، وكمبردج يوم كنا نحن طلاباً (٤٣) .

وبعد ، فإن من واجب الإنسان أن يكون شرقيا إذا شاء أن يفهم الفن الشرقى على حقيقته . وإن المعنى الجوهرى الذى يدركه العقل الغربى من النزعة البزنطية هو أن الشرق قد سرى فى قلوب اليونان وتغلغل فى أفئدتهم : فى الحكومة الأتوقراطية ، وفى الطبقات المتدرجة الثابتة ، وفى ركود العلم والفلسفة ، وفى الكنيسة الخاضعة لسلطان الدولة ، والشعب الخاضع لسلطان الدين ، وفى الثياب الفخمة والحفلات العظيمة ، والطقوس الدينية ذات الألفظ الطنانة الرنانة والمناظر الرائعة ، والنغمات الموسيقية الساحرة المتكررة التى تستحوذ على النفوس ؛ وتغمر الحواس بفيض من الألوان البراقة ؛ وأخضع الطبيعة للخيال ، والفن التمثيلى للفن الزخرفى . ولقد كان من شأن الروح اليونانى القديم أن يجد هذا كله غريباً عنه لا يطيقه ، ولكن بلاد اليونان نفسها قد أضحت وقتئذ جزءاً من الشرق . وغلبت على العالم اليونانى كلالة أسيوية فيه فى الوقت الذى كانت فيه بلاد الفرس المتجددة الحيوية ، وكانت قوة الإسلام العظيمة التى لا يكاد العقل يُدرك مداها ، نقول فى الوقت الذى كانت فيه هذه وتلك تنازعانها حياتها نفسها .

الباب السابع

الفــرس

٣٣٤ — ٦٤١

الفصل الأول

المجتمع الساسانى

ومن وراء نهر الفرات أو دجلة كانت تقوم طوال تاريخ اليونان وروما تلك الإمبراطورية التى تكاد تكون خافية على العالم الغربى ، والتى لبثت ألف عام تصد أوروبا المتوسعة وجحافل آسية الهمجية ، لا تنسى قط ما ورثته من مجد الأكيمينيين ، وتنتعش على مهل مما أصابها فى حروب البارثيين ؛ وتحتفظ فى زهو وخيــلاء بثقافتها الأرستقراطية الفذة تحت حكم ملوكها الساسانيين الأشداء الشجعان ، احتفاظا أمكنها به أن تحوّل فتح المسلمين لإيران إلى نهضة فارسية جليلة الشأن .

وكان لفظ إيران فى القرن الثالث الميلادى أوسع معنى من لفظ إيران أوفارس فى هذه الأيام . فقد كانت ، كما يدل اسمها أرض « الآريين » ، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان ، وسنجديانا ، وبلخ والعراق . ولم تكن فارس ، وهى الاسم القديم لإحدى الولايات الحديثة ، إلا جزءاً صغيراً يقع فى الجنوب الشرقى من هذه الإمبراطورية ، ولكن اليونان والرومان الذين لم يكونوا يعنون بشئون « البرابرة » أطلقوا اسم الجزء على الكل . وكان يخترق إيران فى وسطها من الجنوب الشرقى بجبال هملايا إلى الشمال الغربى بجبال القفقاس حاجز جبلى

يقسم البلاد قسمين ، فى الشرق منه هضبة عالية جدباء ، وفى الغرب وديان خضراء يسقيها النهران التوأمان ، ويجرى ماء فيضانهما الموسمى فى شبكة من القنوات تكسب البلاد الخصب والنماء فتنتج أرضها القمح ، والبلح ، والعنب ، والفاكهة . وكان بين النهرين ، وعلى ضفافهما ، وفى ثنايا التلال ، وواحات الصحراء ، عدد لا حصر له من القرى وعشرات المئات من البلدان وعشرات من المدائن الكبيرة : منها إكباتانا ، والرى ، وموصـــل ، واصطخر (برسپوليس القديمة) ، والسوس ، وسلوقية ، وطيسفون (المدائن) العظيمة عاصمة الملوك الساسانيين .

ويصف أميانوس الفرس فى ذلك الوقت بأنهم « يكادون كلهم يكونون نحاف الأجسام ، سمر البشرة إلى حدما . . . لهم لحى على جانب من الظرافة ، وشعر طويل أشعث »(١) . غير أن الطبقات العليا لم تكن ذات شعر أشعث ، ولم يكن أفرادها نحاف الأجسام على الدوام ، وكان يغلب عليهم الجمال ، وكانوا ذوى أنفة وكبرياء ، ودماثة فى الأخلاق ، يميلون إلى الرياضة الشاقة الخطرة ، والثياب الفخمـــة . وكان رجالهم يلبسون العمائم على رءوسهم ، والسراويل المنتفخة فى سيقانهم ، والصنادل أو الأحذية ذات الأربطة فى أقدامهم . وكان أغنياؤهم يلبسون معاطف أو جلابيب من الصوف والحرير ويتمنطقون بمناطق يعلقون فيها السيوف . أما الفقراء فكانوا يقنعون بأثواب من نسيج القطن ، أو الشعر ، أو الجلد . وكان النساء يلبسن أحذية طويلة ، وسراويل قصيرة ، وقصاناً واسعة ، وعباءات أو أثواباً مهفهفة ، ويعقصن شعرهن الأسود من الأمام فى غديرة يتركنها تنوس خلفهن ويزينها بالأزهار . وكانت جميع الطبقات مولعة بالزينة والألوان الجميلة . وكان الكهنة والزرادشتيون المتحمسون يلبسون ثياب القطن الأبيض يرمزون به إلى الطهارة ؛ أما قواد الجند فكانوا يفضلون اللون الأحمر ، وكان الملوك يميزون أنفسهم من سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء ، والسراويل الزرقاء ، وأغطية للرءوس تعلوها كرات منتفخة أو رءوس حيوانات

أو طيور . وكانت الملابس فى بلاد الفرس ، كما كانت في جميع المجتمعات المتحضرة ، تكون نصف الرجل أو أكثر قليلا من نصف المرأة .

وكان الرجل الفارسى العادى المتعلم سريع الانفعال كالرجل الغالى ، شديد التحمس ، كثير التقلب ؛ يغلب عليه الخمول ، ولكنه سريع التيقظ ، يميل بطبعه إلى « الحديث الجنونى ، يسرف فيه إسرافاً ... أميل إلى الدهاء منه إلى الشجاعة ، لا يخافه إلا البعيدون عنه »[٢] — أى حيث يكون أعداء الفرس . وكان فقراؤهم يشربون الجعة ، ولكن الطبقات كلها تقريبا ، بما فيها الآلهة ، كانوا يفضلون النبيذ ؛ فقد كان أتقياء الفرس والمقتصدون منهم يصبونه حسب الطقوس الدينية ، وينتظرون حتى تأتى الآلهة لتشربه ، ثم يشربون هم بعدها الشراب المقدس[٣] . ويصف المؤرخون الفرس فى عصر الساسانيين بأنهم أغلظ أخلاقا مما كانوا فى عهد الأكيمينيين ، وأرق منهم فى عهد البارثيين[٤] ، ولكن قصص بروكپيوس تحملنا على الاعتقاد بأن الفرس ظلوا طوال العهود أحسن أخلاقا من اليونان[٥] . ولقد أخذ أباطرة الروم عن البلاط الفارسى نظم حفلاتهم وطرائقهم الدپلوماسية . وكان ملوكهم المتنافسون يخاطب بعضهم بعضاً بلفظ « الأخ » . ويضمنون للدپلوماسيين الأجانب سلامتهم من الاعتداء ومرورهم سالمين بأرضهم ، ويعفونهم من التفتيش الجمركى والعوائد[٦] . وفى وسعنا أن نرجع التقاليد الدبلوماسية المتبعة فى أوروبا وأمريكا إلى الأساليب التى كانت متبعة فى بلاط ملوك الفرس .

ويقول أميانوس إن « معظم الفرس يسرفون فى الجماع »[٧] ، ولكنه يعترف مع ذلك بأن اللواط والدعارة كانا أقل انتشاراً بينهم مما كانا بين اليونان . وقد امتدح تماليل الفرس لثلاث صفات فيهم فقال : « هم معتدلون فى الطعام ، قنوعون فى علاقاتهم الخاصة وفى العلاقات الزوجية »[٨] . وكانوا يستخدمون كل الوسائل لتشجيع الزواج وزيادة المواليد ، حتى يكون لهم من الأبناء مايسد مطالب الحرب

ولهذا كان إله الحب عندهم هو المريخ لافينوس . وكان الدين يأمر بالزواج ، ويحتفل به احتفالا مصحوبا بطقوس رهيبة ، ومن تعاليمه أن الإخصاب يقوى أهورا مزدا إله النور فى صراعه العالمى مع أهرمان وهو الشيطان فى الديانة الزرادشتية[٩] . وكان رب البيت يعبد أسلافه حول نار الأسرة ، ويطلب الأبناء لكى يضمن لنفسه العناية به وعبادته فيما بعد ، فإذا لم يولد له أبناء من صلبه تبنى ولداً من أبناء غيره . وكان الآباء هم الذين ينظمون عادة زواج أبنائهم يساعدهم فى هذا غالباً موثق رسمى لعقود الزواج ، ولكن المرأة كان فى وسعها أن تتزوج على خلاف رغبة والديها . وكانت الباثنات والهبات تقوم بنفقات الزواج المبكر والأبوة المبكرة . وكان يسمح للرجال بتعدد الزوجات ، وكان يُوصى به إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً . وكان الزنى منتشراً[١٠] . وكان فى وسع الزوج أن يطلق زوجته إذا خانته ، كما كان فى وسع الزوجة أن تطلق زوجها إذا هجرها أو قسا عليها . وكان التسرى مباحا . وكان لهؤلاء المحظيات كما كان لنظائرهن عند اليونان ، الهتايراى hetairai ، الحرية الكاملة فى أن يسرن أمام الجماهير وأن يحضرن مآدب الرجال[١١] . أما الزوجات الشرعيات فكن فى العادة يقين فى أجنحة خاصة بهن فى البيوت[١٢] ، وقد ورث المسلمون عن الفرس هذه العادة القديمة . وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع ، ولعله كان من الصواب أن يمنع الرجال من الاختلاط بهن . والنساء فى شاهنامة الفردوسى هن اللائى يبدأن بخطبة الرجال وإغوائهن ، وكانت مفاتن النساء تتغلب على قوانين الرجال .

وكان يستعان على تربية الأبناء بالعقيدة الدينية ، ويبدو أن هذه كان لابد منها لتدعيم سلطان الأبوين . وكانوا يسلون أنفسهم بألعاب الكرة ، والرياضة البدنية ، والشطرنج[١٣] ، ويشتركون منذ نعومة أظفارهم فى وسائل التسلية التى يمارسها الكبار كالضرب بالنبال ، وسباق الخيل ، وحجف الكرة ، والصيد . وكان كل ساسانى يرى فى الموسيقى عونا لابد منه فى شئون الدين ، والحب ،

والحرب . وفى هذا يقول الفردوسى إن الموسيقى وأغانى النساء الجميلات كانت تلازم المآدب وحفلات الاستقبال الملكية[١٤] . وكانت القيثارة ، والناى ، والمزمار ، والقرن ، والطبلة ، وغيرها من الآلات الموسيقية كثيرة عندهم . وتؤكد الرواية المأثورة أن برباد مغنى كسرى أبرويز ألف ٣٦٠ أغنية ، ظل يغنى فى كل ليلة واحدة منها لسيده عاما كاملا[١٥] . وكان للموسيقى كذلك شأن كبير فى التعليم ؛ فقد كان مقر المدارس الابتدائية هو أبنية الهياكل ، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالتعليم فيها . أما التعليم العالى فى الآداب ، والطب ، والعلوم ، والفلسفة فكان يتلقى فى دار المجمع العلمى الشهير فى غنديسابور فى سوريانا . وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون فى الغالب بالقرب من الملوك ، وكانوا يتلقون العلم مع أمراء الأسرة المالكة فى مدارس كبرى متصلة بالبلاط[١٦] .

وظلت اللغة الفهلوية الهندى — أوروبية لغة فارس البارثية هى المستعملة فى البلاد . ولم يبق مما كتب بها فى ذلك العهد إلا نحو ٦٠٠٫٠٠٠ كلمة كلها تقريبا تبحث فى شئون الدين . لكننا نعلم أنها كانت لغة واسعة[١٧] ؛ غير أن الكهنة كانوا هم حفظتها وناقليها ، ولذلك تركوا الكثير مما كتب بها فى غير الدين يفنى على مر الزمان (ولعلنا قد خُدِعنا بخطة شبيهة بهذه الخدعة فظننا أن الكثرة الغالبة مما كتب من أدب العصور الوسطى فى العالم المسيحى كان أدبا دينيا) . وكان الملوك الساسانيون ملوكا مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة ، وكان أكثرهم مناصرة لها كسرى أنوشروان ، فقد أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية ، وبتدريس هذه الكتب فى غنديسابور ، بل قرأها هو نفسه . وقد كتب فى عهده كثير من المؤلفات التاريخية لم يبق منها كلها إلا الكرنماكى — أرتخشتر أو أعمال أردشير وهو مزيج من التاريخ والقصص كان هو الأساس الذى استمد منه الفردوسى كتاب الشاهنامة . ولما أغلق جستنيان مدارس أثينة فر سبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا لهم فى بلاط كسرى ملجأ أمينا .

ولكنهم حنوا فيما بعد إلى أوطانهم ، فاشترط الملك « البربرى » فى المعاهدة التى عقدها مع چستنيان عام ٥٣٣ أن يسمح للحكماء اليونان بالعودة إلى أوطانهم وألا يمسهم أى أذى .

وفى عهد هذا الملك المستنير أصبحت كلية غنديسابور التى أنشئت فى القرن الرابع أو الخامس « أعظم المراكز الثقافية فى ذلك العهد[١٨] » ، ويهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم . وكان يؤمها النساطرة المسيحيون ، الذين جاءوا معهم بتراجم سريانية لكتب الطب والفلسفة اليونانية . وجاء إليها أتباع الأفلاطونية الجديدة وبذروا فيها بذور العقائد الصوفية ، وامتزجت فيها علوم الطب الهندية ، والفارسية ، والسورية ، واليونانية ، ونتج عنها مدرسة للعلاج مزدهرة ناجحة[١٩] . وكان المرض حسب النظرية الفارسية ينتج إذا دنس أو تلوث ركن أو أكثر من الأركان أو العناصر الأربعة — النار ، والماء ، والتراب ، والهواء . ويقول أطباء الفرس وكهنتهم إن الصحة العامة تتطلب إحراق كل المواد المتعفنة ، وإن صحة الأفراد تتطلب الطاعة التامة لقانون الطهارة الزرداشتى[٢٠] .

ولسنا نعرف عن علم الفلك عند الفرس فى ذلك الوقت أكثر من أنه قد احتفظ لهم بتقويم منظم ، وأن سنتهم كانت تنقسم إلى اثنى عشر شهراً فى كل منها ثلاثون يوماً ، وأن الشهر كان ينقسم إلى أربعة أسابيع ، اثنان منها يحتوى كل منهما على سبعة أيام واثنان فى كل منهما ثمانية ، وأنهم كانوا يضيفون خمسة أيام فى آخر العام[٢١] . وكان التنجيم والسحر منتشرين فى البلاد ، فلم يكونوا يقدمون على عمل هام دون الرجوع إلى أبراج النجوم ، وكانو يعتقدون أن جميع مصائر الناس على هذه الأرض تحددها النجوم الطيبة والخبيثة التى تحترب فى السماء — كما تحترب الملائكة والشياطين فى النفس البشرية — حرب أهورا مزدا وأهرمان القديمة .

وأعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرادشتي ما كان له من سلطان ورونق . فوهبت الأراضي والعشور إلى الكهنة ، وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال في أوربا ، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية ، التي كانت تشرف على جميع نواحي الحياة الذهنية في فارس إلا القليل منها ، وكانت تنذر كل من تحدثه نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم في الجحيم ؛ وظلت تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون(٢٢) . وكانوا من حين إلى حين يحمون الأهلين من عسف الجباة والفقراء من استبداد الحكام(٢٣) . وقد بلغ من ثراء هذه الجماعة أن كان الملوك أنفسهم يستدينون أموالا طائلة من خزائن الهياكل . وكان في كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفىء أبداً وترمز إلى إله النور . وكانوا يعلمون الناس أن حياة الفضيلة الطاهرة وحدها هي التي تنجي الروح من أهرمان ؛ وكان لا بد للروح في حربها القائمة على الشيطان من أن تستعين بكهنة المجوس وبما يعرفونه عن الغيب ، وبرقاهم وسحرهم ، ودعواتهم . فإذا ما نالت الروح هذه المعونة سمت إلى درجة القداسة والطهارة ، وخرجت سالمة من محكمة يوم الحساب الرهيبة ، واستمتعت بالنعيم المقيم في الجنة .

وكانت أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمي تجد لها مكاناً حوله . فكان مثراس إله الشمس المحبب للپارثيين يعبد بين عدد قليل من أفراد الشعب بوصفه مساعداً لأهورا مزدا . ولكن الكهنة الزرداشتيين كانوا يعدون الخروج على الدين القومي ، كما يعده المسيحيون ، والمسلمون ، واليهود جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وشاهد ذلك ما حدث حين قام ماني Mani (حوالي ٢١٦ — ٢٧٦) يدعي أنه رسول رابع مكمل لبوذا ، وزرادشت ، ويسوع ، ويدعو إلى دين قوامه العزوبة ، والسلام ، والهدوء ، إذ صلب بناء على طلب

المجوس ذوى النزعة الحربية القومية ، واضطر أتباعه إلى العمل على نشر دينهم فى خارج البلاد . أما اليهودية والمسيحية فكانتا بوجه عام تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيراً من التسامح ، كما كان البابوات أكثر تسامحاً مع اليهود منهم مع المارقين من الدين المسيحى . وقد وجد كثير من اليهود ملجأ لهم فى الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية . وكانت المسيحية قد ثبتت دعائمها فى تلك الولايات حين جلس الساسانيون على العرش ، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أضحت الدين الرسمى لعدوّى الفرس القديمين وهما بلاد اليونان ورومة ؛ فلما أن اشترك قساوستها اشتراكاً فعلياً فى الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثانى ، كما حدث عند نصيبين عام ٣٣٨ ، شرع ملوك الفرس يضطهدونها[٢٤] ، وبدأ المسيحيون فى فارس يجهرون بآمالهم الطبيعية فى انتصار الدولة البيزنطية . وأمر شابور فى عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين فى الإمبراطورية ، ولما أن رأى أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين ، والرهبان ، والراهبات ؛ ولكن ١٦٫٠٠٠ مسيحى قد هلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذى دام حتى موت شابور (٣٧٩) . ولما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ — ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية ، وساعدهم على بناء كنائسهم ، حتى إذا كان عام ٤٢٢ قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيتين اليونانية والرومانية .

وفى داخل هذا الإطار المكون من العبادات والمنازعات الدينية ، والمراسيم والأزمات الحكومية والحروب الداخلية والخارجية ، فى داخل هذا الإطار كان الناس يمدون الدولة والكنيسة بمقومات حياتهما — يفلحون الأرض ، ويرعون الماشية والضأن ، ويمارسون الصناعات اليدوية ، ويتبادلون التجارة . وكانت الزراعة عندهم من الواجبات الدينية ؛ فكان الشعب يُعَلَّم أن تنظيف

الفلوات من الأشجار والأعشاب ، وزرع الأرض ، والقضاء على الآفات ، واستئصال الأعشاب الضارة بالنبات ، وإصلاح الأراضي البور ، وتسخير مجاري الماء لري الأرض — كان الشعب يعلم أن هذه الأعمال المجيدة كلها تضمن انتصار أهورا مزدا في آخر الأمر على أهرمان . وكان الفلاح الفارسي في مسيس الحاجة إلى كثير من أسباب السلوى الروحية ، لأنه كان يعمل عادة بوصفه مستأجراً لأرض الأمير الإقطاعي ، ويؤدي ضرائب ورسوماً أخرى قدراً من المحصول يتراوح بين سدسه وثلثه . ونقل الفرس عن الهند حوالي عام ٥٤٠ استخراج السكر من القصب حتى لقد وجد الإمبراطور الشرقي هرقل مخازن ملأى بالسكر في القصر الملكي بطيسفون (المدائن) (٦٢٧) ؛ ولما فتح العرب بلاد الفرس بعد أربعة عشر عاماً من ذلك الوقت ، عرفوا من فورهم كيف يزرعون القصب ، وأدخلوا زراعته في مصر وصقلية ، ومراكش ، وأسبانيا ومنها انتشرت في أوربا[٣٦] . وكانت تربية الحيوانات من أهم الأعمال في بلاد الفرس ، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة في تسلسل أنسابها ، وجرأتها ، وجمالها ، وسرعتها . وكان لكل فارسي جواد يعزه كما يعز رستم راكوش ، وقد قدس الفرس الكلب لعظيم نفعه في حراسة قطعان الماشية والبيوت ، وكان للقطة الفارسية شأن عظيم في كافة أنحاء البلاد

وتطورت الصناعة في عهد الساسانيين فانتقلت من المنازل إلى الحوانيت في المدن . وكثرت نقابات الحرف ، ووجدت في بعض البلدان جماعات ثورية من الصعاليك[٢٧] ، وأدخل نسج الحرير من الصين ، وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة وتقدمت حتى كان الحرير الساساني يطلب في كل مكان ، وكان نموذجاً يحتذيه فن النسيج في بيزنطية ، والصين ، واليابان ؛ وكان تجار الصين يفدون إلى إيران ليبيعوها حريرهم الخام ويشتروا منها الطنافس ، والجواهر ، والأصباغ الحمراء ؛ وعمل الأرمن ، والسوريون ، واليهود على ربط بلاد الفرس ، وبيزنطية ، وروما

فى سلسلة من التبادل التجارى البطىء . وأعانت الطرق والجسور الصالحة ، التى كانت تتعهدها الدولة بعنايتها ، على إنشاء طائفة من المراكز ، وطرق القوافل التجارية التى ربطت طيسفون بسائر ولايات الدولة ؛ وأنشئت المرافئ فى الخليج الفارسى ، لتيسير التجارة مع الهند . وكانت الأنظمة الحكومية تحدد أثمان الحبوب ، والأدوية وغيرهما من ضروريات الحياة ، وتمنع تخزينها لرفع أثمانها ، واحتكارها[٢٨] . وفى وسعنا أن نقدر ثراء الطبقات العليا من قصة الشريف الذى دعا ألف ضيف إلى وليمة ، فلما جاءوا وجد أنه لا يملك من الصحاف ما يكفى لأكثر من خمسمائة ، فاستطاع أن يستعير الخمسمائة الباقية من جيرانه[٢٩] .

ونظم أمراء الإقطاع ، الذين كانوا يعيشون فى الغالب فى ضياعهم ، طريقة استغلال الأرض ومن عليها ، وألفوا الفيالق من مستأجرى أرضهم ليحاربوا حروب الأمة . وكانوا يتدربون على الحرب بمطاردة الصيد بحماسة وشجاعة ، فكانوا لذلك ضباطاً فى سلاح الفرسان ذوى شهامة ؛ وكانوا هم وجيادهم مسلحين كما كانت جيوش الإقطاع مسلحة فى أوربا فيما بعد ؛ ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه الرومان فى فرض النظام على جنودهم ، أو فى استخدام ما عرف فيما بعد من فنون هندسة الحصار والدفاع . وكان يعلو عليهم فى المنزلة الاجتماعية عظماء الأشراف الذين كانوا يتولون حكم الولايات ويرأسون المصالح الحكومية . وما من شك فى أن الإدارة الحكومية كانت حازمة قديرة إلى حد بعيد ؛ وشاهد ذلك أن الخزانة الفارسية كانت فى أغلب الأوقات أكثر عمراناً بالمال من خزائن أباطرة الرومان ، وإن كانت الضرائب فى الدولة الفارسية أقل إرهاقاً مما كانت عليه فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الغربية . ولقد كان فى خزائن كسرى أبرويز فى عام ٦٢٦ ما قيمته ٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى[٣٠] ، وكان دخله السنوى يقدر بنحو ١٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار — وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء فى العصور الوسطى .

وكان سن القوانين من عمل الملوك ، ومستشاريهم ، والمجوس ؛ وكانوا يعتمدون في سنها على قوانين الأبستاق القديمة ، وكان يترك للكهنة تفسير هذه القوانين وتنفيذها . ووصف أميانوس ، الذي كان يحارب الفرس ، قضاتهم بأنهم كانوا « رجالا عدولا ، ذوى تجربة ، وعلم بالقوانين[٣١] » . وكان المعروف عن الفرس بوجه عام أنهم يحافظون على الوعد ، وكانت الأيمان التي يقسمونها في المحاكم تحاط بهالة من التقديس ، وكان الحنث في اليمين يلقى أشد العقاب في هذا العالم بحكم القانون ، ويعاقب صاحبه في الدار الآخرة بوابل من السهام ، والبلط والحجارة . وكان التحكيم الإلهى من الوسائل التي يلجأ إليها لكشف الجرائم ، فكان يطلب إلى المتهمين أن يمشوا على مواد تحمى في النار حتى تحمر ، أو يخوضوا اللهب ، أو يطعموا الطعام المسموم . وكان وأد الأطفال وإسقاط الأجنة محرمين يعاقب من يرتكبهما بالإعدام ؛ وكان الزانى إذا عرف ينفى من البلاد والزانية يجدع أنفها وتصلم أذناها ؛ وكان في وسع المتقاضين أن يستأنفوا الأحكام أمام محاكم عليا ؛ ولم يكن الحكم بالإعدام ينفذ إلا إذا نظر فيه الملك وأقره .

وكان الملك يقول إنه يستمد سلطانه من الآلهة ، وإنه وليهم في الأرض ، وإنه يضارعهم في قوة أحكامهم ، وكان يلقب نفسه حين تسمح الظروف « ملك الملوك ، وملك الآريين وغير الآريين ، وسيد الكون ، وابن الآلهة[٣٢] » . وأضاف شابور الثاني إلى هذه الألقاب : « أخا الشمس والقمر ، ورفيق النجوم » وكان الملك الساساني مطلق السلطان من الوجهة النظرية ، ولكنه كان يعمل في العادة بمشورة وزرائه الذين كانوا يؤلفون مجلساً للدولة . وقد أثنى المسعودي المؤرخ المسلم على ما كان للملوك الساسانيين من إدارة ممتازة ، وعلى سياستهم الحسنة النظام ، وعنايتهم برعاياهم ورخاء بلادهم[٣٣] . ويقول كسرى أنوشروان ، كما جاء في كتاب ابن خلدون « لولا الجيش لما كان الملك ، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش ، ولولا الضرائب ما كانت الموارد ؛ ولولا الزراعة ما كانت الضرائب ؛

ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة(٣٤) » . وكانت الملكية فى الأوقات العادية وراثية ، ولكن كان فى وسع الملك أن يختار غير ابنه الأكبر ليخلفه على العرش . وجلست ملكتان على العرش فى زمنين مختلفين ؛ وإذا لم يترك الملك من بعده ولياً للعهد من نسله اختار الأشراف ورجال الدين حاكماً على البلاد ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يختاروا أحداً من غير الأسرة المالكة .

وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التى لا آخر لها . فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف ، وكان يخرج إليه فى هودج مزركش تجره عشرة من الجمال ، وعليه ثيابه الملكية . وكانت سبعة جمال تحمل عرشه ، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين . وقد يكون فى ركابه عشرة آلاف من الفرسان ؛ ولكنا إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا إنه كان ينبغى له آخر الأمر أن يمتطى صهوة جواد ، ويواجه بنفسه وعلا ، أو غزالا ، أو رئما ، أو جاموساً برياً ، أو نمراً ، أو أسداً ، أو غيرها من الوحوش التى جمعت فى حديقة الملك أو « جنته » . فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة ، وسط ألف من الحشم وفى حفلات لا آخر لها . وكان عليه أن يرتدى ثياباً مثقلة بالجواهر ، وأن يجلس على عرش من الذهب ، ويضع على رأسه تاجاً يبلغ من الثقل حداً لا بد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة ، لا يمكن رؤيتها ، من رأسه الذى لا يستطيع تحريكه . وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء ، والأضياف ، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة ، ويصدر الأحكام ، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقريرات . وكان على الذين يدخلون عليه أن يخروا سجداً أمامه ، ويقبلوا الأرض بين يديه ، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف ، ولا يتحدثوا إليه إلا وفى فمهم منديل خشية أن تعدى أنفاسهم الملك أو تدنسه . فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا .

الفصل الثانى

الملكية الساسانية

تقول الرواية الفارسية إن ساسان كان كاهناً فى پرسپوليس (اصطخر) ، وإن ابنه پاپاك Papak كان أميراً صغيراً فى خور ، وإن پاپاك قتل جوزهر ، حاكم الولاية الفارسى ، وأعلن نفسه ملكاً على تلك الولاية ، وأورث سلطانه ابنه شابور ، وإن شابور مات نتيجة لحادثة وقعت فى الوقت المناسب ، فخلفه ابنه أردشير . وأبى أرطبانوس الخامس آخر ملوك الفرس الأرساسيين أو البارثيين أن يعترف بهذه الأسرة المحلية الجديدة ؛ فحاربه أردشير وهزمه (٢٢٤) ، وصار ملك الملوك (٢٢٦) . فلما تم له هذا استبدل بحكم الأرساسيين الإقطاعى المفكك حكماً ملكياً قوياً أداته بيروقراطية مركزة كثيرة الفروع ؛ وكسب تأييد رجال الدين بأن أعاد العقيدة الزرادشتية وأعاد إلى كهنتها سابق سلطانهم ، وأثار كبرياء الشعب بأن أعلن أنه سيقضى على النفوذ الهلنستى فى فارس ، ويثأر لدارا الثانى من ورثة الإسكندر ، ويستعيد كل الأقاليم التى كانت فيما مضى تحت حكم الملوك الأكمينيين . والحق أنه قد بر بوعده هذا أو كاد . فقد قام بحملات خاطفة مدت حدود بلاد الفرس فى الشمال إلى نهر جيحون ، وفى الغرب إلى نهر الفرات ، ووضع التاج قبل أن تدركه المنية فى عام ٢٤١ على رأس ابنه شابور ، وأمره أن يلقى باليونان والرومان فى البحر .

وورث شابور الأول عن أبيه قوته ودهاءه ، وتمثله النقوش التى على الصخور بهى الطلعة ، نبيل الملامح ، ولكن هذه النقوش كانت بلا ريب تحيات من صانعيها جرى العرف بأن تكون على هذه الصورة . وقد تلقى شابور تعليما طيباً ،

ونشأ على حب العلم ، ويقال إنه أعجب بحديث أوسطاثيوس Eustathius السوفسطائى سفير اليونان إعجاباً جعله يفكر فى اعتزال الملك ليتفرغ للفلسفة[٣٥] وخالف سميه السابق بأن أطلق الحرية الكاملة لجميع الأديان ، وسمح لمانى بأن يلقى مواعظه الدينية فى بلاطه ؛ وأعلن أن « المجوس ، والمانيين ، واليهود ، والنصارى ، والناس جميعاً أياًكان دينهم يجب أن يتركوا وشأنهم فى جميع أنحاء إمبراطوريته[٣٦] . وواصل ما بدأه أردشير من تنقيح الأبستاق ، فأقنع الكهنة بأن يضموا إلى كتابهم المقدس أبواباً فى غير شئون الدين تشمل علوم ما بعد الطبيعة والفلك ، والطب ، معظمها مأخوذ من بلاد الهند واليونان . وكان سخياً فى مناصرة الفنون ، ولم يبلغ ما بلغه شابور الثانى ، أو كسرى الأول والثانى ، من براعة فى قيادة الجند ، ولكنه كان أقدر الملوك الساسانيين جميعاً فى الشئون الإدارية . وأنشأ له عاصمة جديدة فى شاه بور لا تزال آثارها تحمل اسمه حتى الآن ، وأقام عند ششتار على نهر قارون سداً يعد من أكبر الأعمال الهندسية فى التاريخ القديم ؛ وقد بنى هذا السد من كتل ضخمة من الحجر الأعبل (الجرانيت) ، تكون منها جسر طوله ١٧١٠ قدم ، وعرضه عشرون قدماً . وحول مجرى النهر مؤقتاً لكى يستطاع إقامة البناء ؛ ورصف قاع المجرى عنده رصفاً متيناً ، وأنشئت فيه بوابات لتنظم تصريف المياه . وتقول الرواية المتواترة إن شابور استخدم فى تخطيط السد وبنائه مهندسين وأسرى من الرومان . وقد ظل هذا السد يؤدى الغرض منه حتى هذا القرن[٣٧]. ثم حول شابور اهتمامه على كره منه إلى الحرب والقتال ، فغزا سوريا ، ووصل فى حملته إلى أنطاكية ، ولكنه هزم فى معركة مع جيش رومانى فعقد مع رومة صلحاً (٢٤٤) ، استردت بمقتضاه جميع ما كان قد استولى عليه فى حروبه . غير أنه حقد على أرمينية أن تعاونت عليه مع رومة ، فزحف على تلك البلاد ، وأقام فيها أسرة صديقة لفارس (٢٥٢) ؛ وما حمى بذلك جناحه الأيمن ، عاد إلى قتال رومة ، فهزم الإمبراطور فليريان وأسره (٢٦٠) ،

ونهب أنطاكية ، واستولى على آلاف من الأسرى سخرهم للعمل فى إيران (٢٦٠) . ثم انضم أدناثوس حاكم تدمر إلى رومة ، فاضطر شابور مرة أخرى إلى الاكتفاء بأن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس والرومان .

وخلفه على العرش فيما بين ٢٧٢ و٣٠٢ ملوك لم يرق أحد منهم إلى ما فوق الدرجة الوسطى من الكفاية . ويأتى بعد هـذا هرمزد الثانى (٣٠٢ — ٣٠٩) الذى يشيد التاريخ بحكمه القصير الأجل ، والذى بدأ فيه طائفة من الأعمال النافعة وبسط على البلاد لواء السلم والرخاء . وبذل الملك عناية كبيرة فى ترميم الأبنية العامة ، والمساكن الخاصة ، موجهاً أكبر اهتمامه إلى مساكن الفقراء ، وكان ينفق على هذه الأعمال كلها من أموال الدولة . وأنشأ محكمة جديدة خصها بسماع شكاوى الفقراء ضد الأغنياء ، وكثيراً ما كان يتولى رياستها بنفسه : ولسنا نعرف هل كانت هذه العادات الغريبة هى التى حرمت ابنه من وراثة العرش ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد حدث على أثر وفاة هورمزد أن زج النبلاء بابنه فى السجن ، وأعطوا الملك لابنه الذى لم يولد بعد ، ولقبوه فى ثقة واطمئنان بشابور الثانى ، وأرادوا ألا يتركوا فى الأمر مجالا للشك فتوجوا الجنين بأن علقوا التاج الملكى على رحم أمه[٣٨] .

وبهذه البداية الطيبة حكم شابور الثانى أطول حكم فى تاريخ آسية (٣٠٩ — ٣٧٩) . وقد درب منذ طفولته على الفنون الحربية ، فقوى جسمه وإرادته ، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره تولى شئون الملك ونزل إلى ميدان القتال ، فغزا شرق جزيرة العرب وخرب حوالى عشرين قرية ، وقتل آلافاً من الأسرى ، وقاد آلافاً غيرهم إلى الأسر فى حبال ربطها بجروحهم . وفى عام ٣٣٧ شن الحرب على رومة للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشرق الأقصى ، وواصلها حتى وفاته تقريباً إذا استثنينا فترات من السلم قصيرة . وكان اعتناق رومة وأرمينية للدين المسيحى سبباً فى ازدياد نيران الحرب شدة على شدتها

كأن الآلهة هي الأخرى قد نزلت إلى الميدان ، وجاءت معها بكل ما يحدثه هومر من وحشية فى القتال . وظل شابور أربعين عاما يقاتل طائفة كبيرة من أباطرة الروم واحداً بعد واحد ، فصده يوليان إلى طيسفون ، ولكنه ارتد بعدئذ ارتداداً غير شريف ، واضطر جوفيان أمام تفوق عدوه عليه فى الفنون العسكرية أن يعقد مع شابور صلحا نزل له بمقتضاه عن الولايات الرومانية الممتدة على نهر دجلة وعن أرمينية كلها . ولما مات شابور الثانى كانت بلاد الفرس قد بلغت ذروة سلطانها وهيبتها ، وكانت مائة ألف فدان من أرضها قد أصلحت واستخدم فى إصلاحها الأسرى من الأعداء .

وانتقل ميدان الحرب فى القرن التالى إلى حدود الفرس الشرقية : فقد حدث حوالى عام ٤٢٥ أن استولت على الإقليم المحصور بين نهرى سيحون وجيحون جماعات طورانية يطلق عليها اليونان اسم الإفثاليين Ephthalites ، ويلقبون خطأ باسم « الهون البيض » ، استولوا على الإقليم المحصور بين نهرى سيحون وجيحون وحاربهم الملك بهرام الخامس الساسانى (٤٢٠ — ٤٣٨) ، المعروف باسم الغور — أى « الحمار الوحشى » — لجرأته فى أعمال الصيد ، وانتصر عليهم ، ولكنهم بعد وفاته أخذوا ينتشرون فى الإقليم لكثرة تناسلهم وتفوقهم فى القتال ، وأنشأوا لهم إمبراطورية امتدت من بحر الخزر إلى نهر السند ، وجعلوا عاصمتها جرجان ، وكانت أشهر مدنها بلخ ، وهزموا فيروزشاه وقتلوه (٤٥٩ — ٤٨٤) ، وأرغموا الشاه الذى خلفه على أداء الجزية .

وبينما كان الخطر يهدد فارس من جهة الشرق ، إذ ضربت الفوضى أطنابها البلاد ، نتيجة لاضطرار الملكية إلى الكفاح للمحافظة على سلطانها ضد الأشراف ورجال الدين . وفكر كقاذه الأول (٤٨٨ — ٥٣١) فى أن يضعف أولئك الأعداء بمناصرة إحدى الحركات الشيوعية ، التى كانت تتخذهم الهدف الأول لهجماتها . وتفصيل ذلك أن أحد رجال الدين الزرادشتيين المدعو مزدق قد

أعلن فى عام ٤٩٠ أنه مرسل من عند الله للدعوة إلى عقيدة قديمة مضمونها أن الناس جميعاً يولدون أكفاء ، وأن ليس لأحد من الناس حق طبيعى فى أن يمتلك أكثر مما يمتلكه غيره ، وأن الملكية والزواج من البدع التى ابتدعها البشر ، وأنها أخطاء عاقبتها البؤس والشقاء ، وأن السلع جميعها والنساء كلهن يجب أن تكون ملكا مشاعا لجميع الرجال . ويقول عنه أعداؤه إنه كان يجيز السرقة ، والزنى ومضاجعة المحارم ، ويتخذ هذه الأعمال وسيلته الطبيعية لمقاومة الملكية والزواج ، ويقول إنها الطرق المشروعة للوصول إلى المدينة الفاضلة . واستمع إليه الفقراء وبعض الطوائف الأخرى مغتبطين ، ولكن أكبر الظن أن مزدق نفسه قد أدهشه أن يجد ملكا يوافق على آرائه . وبدأ أتباعه ينهبون بيوت الأغنياء ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسبون نساءهم أيضاً ، ويأخذون أثمن ما فى هذه البيوت ومن فيها من جوار ومحظيات حسان . وثارت ثائرة الأشراف فزجوا كفاده فى السجن وأجلسوا أخاه چامسپ على العرش . وقضى كفاده فى « قلعة النسيان » ثلاث سنين فر بعدها من السجن ، وهرب إلى الإفثاليين . ورأى هؤلاء الفرصة سانحة لأن يكون حاكم بلاد الفرس خاضعا لسلطانهم ، فأمدوه بجيش وساعدوه على أخذ طيسفون عنوة . ونزل چامسپ عن العرش ، وفر الأشراف إلى ضياعهم بالريف ، وأصبح كفاده مرة أخرى ملك الملوك (٤٩٩) . ولما استتب له الأمر غدر بالشيوعيين ، وقتل مزدق وآلافا من أتباعه[٣٩] . ولعل هذه الحركة قد رفعت من شأن العمل اليدوى ، لأن قرارات مجلس الدولة بعدئذ لم يكن يوقعها الأمراء ورجال الدين وحدهم ، بل كان يوقعها معهم رؤساء نقابات الحرف[٤٠] . وحكم كفاده بعد ذلك جيلا آخر ؛ وحارب أصدقاءه الإفثاليين وانتصر عليهم ، وحارب رومة حربا غير حاسمة ، ثم مات وترك العرش لابنه الثانى كسرى أعظم ملوك الساسانيين جميعا .

كان خسرو الأول (« أى صاحب المجد التقى » ٥٣١ — ٥٧٩) يعرف عند اليونان باسم كسروس Chosroes وعند العرب باسم كسرى ؛ ولقبه الفرس

أنوشروان (« الروح الخالدة ») ؛ ولما أن ائتمر به إخوته الأكبر منه سناً بخلعوه قتل إخوته جميعاً ، وقتل جميع أبنائهم عدا واحداً منهم . ولقبه رعاياه بالعادل » ، ولعله يستحق هذا اللقب إذا فرقنا بين العدالة والرحمة . ويصفه روكپيوس بأنه كان « بارعاً إلى أقصى حد فى تصنع التقى » وفى نكث العهد(٤١) لكن پروكپيوس من ألد أعدائه . ويثنى الطبرى المؤرخ الفارسى الأصل على نفاذ بصيرته ، وعلمه ، وذكائه ، وشجاعته ، وحصافة رأيه » وينطقه بخطبة ألقاها أول ما جلس على العرش ، وهى خطبة قد أحسن المؤرخ اختراعها إن لم يكن صادقاً فى نسبتها إليه(٤٢) . ونظم كسرى الحكومة كلها على أساس جديد واختار أعوانه لكفايتهم بصرف النظر عن طبقتهم ، ورفع منزلة بزرجمهر مربى ولده فجعله من كبار وزرائه ، وقد طبقت شهرة هذا الوزير الآفاق . واستبدل بجنود الإقطاع غير المدربين جيشاً نظامياً دائماً حسن النظام كامل العدة ، وأنشأ نظاماً عادلا للضرائب ، وجمع القوانين الفارسية ونظمها ، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الرى ومد المدن بالماء ، وأصلح الأراضى البور بأن أمد أصحابها بالماشية ، والآلات والبذور . وشجع التجارة ووسع نطاقها ، بإنشاء الجديد من الطرق والجسور ، وإصلاح ما كان قائماً منها وتعهده ، وقصارى القول أنه بذل جهوده العظيمة كلها فى خدمة الشعب والدولة . وشجع الزواج — أو أرغم الناس عليه إرغاماً — لاعتقاده أن بلاد الفرس فى حاجة إلى المزيد من الناس لحرث أرضها وحماية تخومها . وحمل العزاب على الزواج بأن وهب البائنات للزوجات ، وأمر بتعليم أبنائهم على نفقة الدولة(٤٣) . وكان يربى الأطفال اليتامى والفقراء ويعلمهم وينفق عليهم من الأموال العامة ، ويعاقب المرتدين عن الدين بالإعدام ، ولكنه كان يسمح بانتشار المسيحية حتى بين حريمه . وقد قرب إليه الفلاسفة ، والأطباء ، والعلماء ، من بلاد الهند واليونان ، وكان يسره أن يبحث معهم مشاكل الحياة ، والحكم ، والموت . وكان من الموضوعات التى دار حولها البحث ذلك السؤال :

« ما هو أشد أنواع البؤس ؟ » . وأجاب أحد الفلاسفة اليونان عن هذا السؤال بقوله : « هو الشيخوخة المصحوبة بالفقر والبلاهة » ، وأجاب فيلسوف هندى بل هو « العقل القلق فى الجسم السقيم » . وكسب وزير كسرى ثناء جميع المجلس بحق حين قال « أما أنا فاعتقد أن أشقى الشقاء أن يرى الإنسان آخرته تقترب منه من غير أن يكون قد مارس الفضيلة »[٤٤] . وكان كسرى يناصر الآداب ، والعلوم ، ويعين العلماء على متابعة الدرس بالهبات القيمة ، ويمد بالمال المترجمين والمؤرخين . وبلغت جامعة غنديسابور فى أيامه ذروة مجدها . وكان يحرص كل الحرص على حماية الأجانب فى بلاده فكان بلاطه لهذا السبب غاصاً على الدوام بكبار الزائرين من البلاد الأجنبية .

ولما جلس على العرش جهر برغبته فى أن يعقد الصلح مع رومة . ووافق جستنيان على هذه الرغبة لأنه كان يعد العدة لغزو أفريقية وإيطاليا ؛ ووقع « الأخوان » فى عام ٥٣٢ « صلحاً دائماً » . ولما أن سقطت أفريقية وإيطاليا فى يد جستنيان طالب كسرى متفكهاً بقسط من الغنيمة ، وحجته أن بيزنطية لم تكن لتصل إلى هذا النصر لو أن فارس لم تعقد معها الصلح ، فبعث إليه جستنيان ببعض الهدايا القيمة[٤٥] . وفى عام ٥٣٩ أعلن كسرى الحرب على « رومة » بحجة أن جستنيان قد أخل بشروط الصلح ، ويؤيد بروكبيوس هذه التهمة . لكن أكبر الظن أن كسرى قد رأى أن من الحكمة أن يبادر بالهجوم على جستنيان وجيوشه لاتزال مشغولة فى الغرب ، فذلك فى رأيه خير له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطية ثم توجه قوتها كلها ضد فارس . يضاف إلى هذا أن كسرى قد بدا له ألا بد لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب فى طربزون ، وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود . ولهذا زحف على سوريا ، وحاصر هيرابوليس ، وأباميا ، وحلب ، وتركها وشأنها بعد أن افتدت أنفسها بكثير من المال ، وسرعان ما وقف أمام أنطاكية . ولم يبال أهلها به وبقوته فحيوه من فوق

الأسوار بوابل من السهام وقذائف المنجنيقات ، وبوابل آخر من ألفاظ السخرية الوقحة التي اشتهرت بها هذه المدينة في كافة أنحاء العالم(٤٦). واستشاط المليك غضباً فهجم على المدينة واستولى عليها عنوة ، ونهب كنوزها ، وأحرق جميع مبانيها عدا كنيستها الكبرى ، وذبح عدداً كبيراً من أهلها ، وساق من بقي منهم ليعمروا « أنطاكية » أخرى في بلاد الفرس ، ثم نزل مبتهجاً ليستحم في البحر المتوسط الذي كان في وقت من الأوقات حد دولة الفرس الغربي . وأرسل جستنيان قائده بليساريوس لينقذ بلاده ، ولكن كسرى عبر الفرات على مهل مثقلا بالغنائم ، وفضل القائد الحصيف ألا يتبعه (٥٤١) . وما من شك في أن انتهاء الحروب التي قامت بين الفرس والرومان إلى نهاية غير حاسمة إنما يرجع بعضه إلى تعذر إقامة حامية قوية على ناحية العدو من الصحراء السورية أو جبال طوروس ، وإن كان ما أدخل حديثاً من تحسين على وسائل النقل والاتصال قد جعل الحروب الكبيرة في أمثال تلك الأصقاع مستطاعة في هذه الأيام . وقام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على آسية الرومانية زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً ، وحاصر عدداً من مدنها ، وأخذ منها الفداء والأسرى ، ونهب ريفها ، ثم ارتد عنها في أمان (٥٤٢ — ٥٤٣) وأدى له جستنيان عام ٥٤٢ ألفي رطل من الذهب (نحو ٨٤٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) ثمناً لهدنة تدوم خمسة أعوام على أن يؤدى إليه بعد انتهائها ٢٦٠٠ رطل أخرى نظير امتدادها خمسة أعوام جديدة وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين في السن جيلا من من الزمان تعهد آخر الأمر (٥٦٢) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً ، وتعهد جستنيان بأن يؤدي للفرس ثلاثين ألف قطعة من الذهب في كل عام (٧ر٥٠٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) ، ونزل كسرى عن حقه في جميع الأقاليم المتنازع عليها في بلاد القوقاز والبحر الأسود .

ولكن كسرى لم يفرغ بهذا من حروبه كلها . فقد أرسل حوالي عام ٥٧٠ بناء على طلب الحميريين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب جيشاً من

عنده ليخلصهم من الأحباش الذين فتحوا بلادهم . فلما أنجى الفرس الحميريين من الغزاة ، وجد هؤلاء أن بلادهم قد أضحت ولاية فارسية . وكان جستنيان قد عقد حلفاً مع بلاد الحبشة ، ورأى خلفه جستين الثانى أن طرد الفرس للأحباش من جزيرة العرب عمل عدائى موجه له . هذا إلى أن الترك الضاربين على الحدود الشرقية لبلاد الفرس قد اتفقوا سراً أن ينضموا إلى من يهاجمون كسرى . وأعلن جستين الحرب فى عام ٥٧٢ . ونزل كسرى إلى الميدان بنفسه على الرغم من كبر سنه ، واستولى على مدينة دارا الواقعة على الحدود الرومانية ؛ ولكن صحته خانته فهزم لأول مرة حياته (٥٧٨) ، وارتد إلى طيسفون حيث وافته منيته فى عام ٥٧٩ ، ولسنا نعرف سنه بالضبط حين وفاته . وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة ؛ ووسع حدود إمبراطوريته فى جميع جهاتها ، وجعل بلاد الفرس أقوى منها فى أى عهد آخر بعد عهد دارا الأول ؛ ووهبها نظاماً من الحكم بلغ من شأنه أن العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظاماً لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييراً يستحق الذكر . ويكاد كسرى أن يكون معاصراً لجستنيان ؛ ولكن معاصريهما مجمعون على أنه أعظم الملكين ، ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم فى تاريخها كله وأعظمهم شأناً .

وحكم بعده ابنه هرمز الرابع (٥٧٩ - ٥٨٩) ولكن قائده بهرام قوبين خلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثانى ابن هرمز (٥٨٩) ، ثم أعلن نفسه ملكا بعد عام واحد من ذلك الوقت . ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه ؛ فرفض بهرام طلبه ، ففر كسرى إلى هيرابوليس فى سوريا الرومانية ؛ وعرض عليه الإمبراطور اليونانى موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية . ووافق كسرى على هذا الطلب ؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ منظر جيش رومانى يجلس على العرش ملكا فارسياً (٥٩٦) .

وبلغ كسرى أبرويز (الظافر) درجة من السلطان لم يبلغها ملك آخر من ملوك الفرس منذ أيام خشيارشاى ، ومهد السبيل لسقوط دولته ؛ ذلك أنه لما قتل فوفاس موريس وجلس مكانه على العرش أعلن أبرويز الحرب على المغتصب (٦٠٣) انتقاما لصديقه ؛ ولكن الواقع أن الحرب لم تكن إلا تجديدا للنزاع القديم . وكانت الدولة البيزنطية قد مزقها الشقاق والتحزب ، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة فى الاستيلاء على دارا ، وآميدا ، والرها ، وهيرابوليس ، وحلب ، وأباميا ، ودمشق (٦٠٥ — ٦١٣) . وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين ، وانضم ٢٦٫٠٠٠ من اليهود إلى جيشه ، ونهبت جيوشه المتحدة فى عام ٦١٤ أورشليم ، وقتلت ٩٠٫٠٠٠ من المسيحيين(٤٧) ، وأحرقت كثيراً من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس ، وأخذ الصليب الحق ، وهو أعز أثر على المسيحيين ، إلى بلاد الفرس . وأرسل أبرويز إلى هرقل Heraclius الإمبراطور الجديد رسالة دينية قال فيها : « من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى هرقل عبده الغبي الذليل : إنك تقول انك تعتمد على إلهك ، فلم إذن لم ينقذ أوشليم من يدى ؟ »(٤٨) . واستولى جيش فارس على الإسكندرية فى عام ٦١٦ ، ولم يحل عام ٦١٩ حتى دخلت مصر كلها فى حوزة ملك الملوك ، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا الثانى . وفى هذه الأثناء كان جيش فارسى آخر يجتاح آسية الصغرى ويستولى على خلقيدون (٦١٧) ؛ ولبثت تلك المدينة فى أيدى الفرس عشر سنين وهى التى لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور . وكان أبرويز فى هذه السنين العشر يدمر الكنائس ، وينقل ما فيها من الآثار الفنية والكنوز إلى بلاد الفرس ويفرض على آسية الغربية من الضرائب الفادحة ما نضب منه معينها وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذى لم يكن بينها وبينه وقتئذ إلا نحو جيل من الزمان .

ثم ترك كسرى تصريف الحرب لقواده ، وعاد ليتقلب فى اللهو والترف

فى قصره بدستجرد (على بعد نحو ستين ميلا من طيسفون) ، وقضى وقته بين الفن والحب : وجمع المهندسين ، والمثالين ، والمصورين ، ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأناً من عاصمته القديمة ، ولينحت صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهن إلى قلبه . وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية ، وادعى بعضهم أنها قد أدخلت الملك فى دينها ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد سمح لها والحرب الدينية دائرة رحاها أن تنشئ كثيراً من الكنائس والأديرة . ولكن بلاد الفرس التى عمها الرخاء لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء ، كان فى وسعها أن تغفر لمليكها لهوه وترفه ، وفنه ، وتسامحه الدينى ، وترحب بفتوحه وترى فيها النصر النهائى على بلاد اليونان والرومان ، ولأهورامزدا على المسيح . لقد جوزى الإسكندر أخيراً على فعلته ، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم فى مرثون ، وسلاميس ، وبلاتية ، وأربيلا .

ولم يكن باقياً للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الأسيوية وقليل من أرض إيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد اليونان ، وأسطول لم يهزم بعد ، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس . ولبث هرقل عشر سنين ينشئ جيشاً جديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة . فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون بل تجنب ذلك العمل الكثير النفقة والمشقة ، وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من خلفها ، ودمر كلورومية Clorumia مسقط رأس زرادشت كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم ، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة (٦٢٤) . وسير إليه كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضا ، ولكن هرقل هزمها جميعا ، ولما تقدم اليونان فر كسرى إلى طيسفون . وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات فانضموا إلى النبلاء وخلعوه ، ثم سجنوه ولم يطعموه إلا الخبز القفار والماء ، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيه ، وانتهى أمره بأن قتله ابن آخر من أبنائه يدعى شيروى (٦٢٨) .

الفصل الثالث

الفن الساسانى

لم يبق من الآثار ما يدل على ثراء ملوك ساسان ومجدهم إلا بقايا الفن الساسانى ، ولكن هذه البقايا تكفى وحدها لأن تزيد إعجابنا بقدرة الفن الفارسى على البقاء من عهد دارا الأكبر واصطخر إلى عهد الشاه عباس وإصفهان ، وبقدرته على التكيف لمواءمة ما يحيط به من الظروف .

فأما ما بقى من العمارة الساسانية فكله غير دينى ، فقد اختفت من الوجود هياكل النار المقدسة ، ولم يبق قائماً إلا القصور الملكية ، وحتى هذه ليست إلا « هياكل ضخمة »(٤٩) قد تجردت من زمن طويل مما كانت تزدان به واجهاتها من حلى مصنوعة من الجص . وأقدم هذه الخربات كلها ما يسمونه قصر أردشير الأول فى فيروزباد القائمة إلى الجنوب الشرق من شيراز . ولا يعرف أحد تاريخ بنائه ، ويختلف ظن المؤرخين بين ٣٤٠ ق . م ، ٤٦٠ م . ولا تزال قبة هذا البناء الضخمة بعد أن مضى عليها خمسة عشر قرناً تقلب عليها فى خلالها الحر والبرد ، والسرقات والحروب ، لا تزال هذه القبة باقية إلى الآن تغطى بهواً فسيحاً ، تعلو فى الجو مائة قدم ؛ ويبلغ عرضها خمسا وخمسين قدماً . وثمة مدخل ذو قوس يبلغ ارتفاعه تسعا وثمانين قدماً ، وعرضه اثنتين وأربعين ، يقسم المواجهة التى طولها ١٧٠ قدماً قسمين ، وقد تهدمت هذه الواجهة فى هذه الأيام ، وكانت أقواس صغيرة تؤدى من قطرى البهو المستطيل الأوسط إلى قبة دائرية . وقد ابتدعت طريقة فذة ظريفة لحمل ضغط القبة ، فأقيم جدار مزدوج أجوف ربط إطاره الداخلى والخارجى بعقد دائرى وبذلك زاد الجدار الخارجى من قوة الجدار الداخلى ، ثم زيدت قوة الجدار المزدوج مرة أخرى بدعامات من الخارج مكونة

من أنصاف عمد مربعة مسندة من الحجارة الثقيلة وملتصقة بالبناء . ذلك طراز معمارى يختلف كل الاختلاف عن الطراز القديم ذى العمد الذى كان فى برسبوليس — وهو طراز فج سمج غير ظريف ولكنه قد استخدمت منه أشكال بلغت كمالها فى كنيسة أياصوفيا التى أقامها جستنيان .

وهناك غير بعيد من هذا الأثر عند سروستان أثر آخر شبيه به وهو مثله لا يعرف تاريخه ويتكون من واجهة ذات ثلاثة أقواس ، وبهو أوسط كبير ، وحجرات واسعة تعلوها قباب بيضية الشكل ، وأقواس دائرية ، وأنصاف قباب لتقوية البناء . وليس ببعيد أن تكون الدعامات الهيكلية التى يسميها المهندسون بالدعامات « الطائرة » المعروفة فى الهندسة القوطية قد تطورت من هذه الأنصاف القباب بأن أزيل منها الهيكل الخارجى الذى تستند إليه[٥١] .

وإلى الشمال الغربى من مدينة السوس توجد بقايا قصر خرب آخر يعرف بالإيوانى خارقه ، وهو أقدم مثل معروف للعقود المستعرضة ذات أضلاع تخترقه من جانب إلى آخر[٥٢] . لكن أروع الآثار الساسانية كلها وأعظمها تأثيراً فى النفس ، أثر بعث لضخامته الرهبة فى قلوب العرب الفاتحين وهو القصر الملكى فى طيسفون وهو الذى يسميه العرب طاق كسرى (الأول) . وربما كان هو البناء الذى وصفه فى عام ٦٣٨ مؤرخ يونانى قال عنه إن جستنيان « بعث إلى كسرى برخام يونانى وصناع مهرة شادوا له قصراً على الطراز الرومانى غير بعيد من طيسفون »[٥٣] . وقد تهدم جناحه الشمالى فى عام ١٨٨٨ ؛ وزالت منه القبة ؛ لكن جدرانه الثلاثة الضخمة ترتفع إلى مائة قدم وخمس أقدام ، وتنقسم واجهة البناء أفقياً إلى خمس بوائك مسدودة . وفى البناء عقد عال أوسط — وهو أعلى العقود الأهليلجية المعروفة وأوسعها ، إذ يبلغ ارتفاعه ٨٥ قدماً وعرضه ٧٢ — يؤدى إلى بهو طوله ١١٥ قدماً وعرضه ٧٥ ، لقد كان الملوك الساسانيون مولعين بالحجرات الواسعة . وهذه الواجهات المخرّبة تحاكى الواجهات الرومانية التى لا تبلغ درجة كبرى من

الرشاقة أمثال ملهى مرسلس Marcellus ، وتؤثر فى الناظر إليها بروعتها أكثر مما تبهره بجمالها . لكننا لا نستطيع أن نحكم على الجمال الماضى بالخربات القائمة فى هذه الأيام .

وليس أعظم ما يستهوى الإنسان من الآثار الساسانية هو قصور اللبن المحطمة بل هو النقوش المحفورة على جوانب الجبال الفارسية . وقد تطورت هذه الأشكال الضخمة من النقوش الأكيدينية ، وتراها فى بعض الأحيان مجاورة لها فى مكان واحد ، كأن أصحابها قد أرادوا أن يؤكدوا استمرار قوة الفرس وتكافؤ الملوك الساسانيين والأكيمينيين . وأقدم هذه النقوش الساسانية تمثل أردشير يطأ بقدمه عدوا له مطروحا على الأرض وربما كان هذا العدو آخر الأرساسيين . وأجمل من هذا نقشى رستم القريب من اصطخر الذى يخلد ذكرى أردشير ، وشابور الأول ، وبهرام الثانى . وقد صور فيه الملوك كبار الأجسام ولكن أجسامهم كأجسام معظم الملوك والسوقة ، يصعب عليهـــا أن تنافس أجسام الحيوانات رشاقتها وتناسب أعضائها وشبيه بهـــذا نقشى — رجب ، ونقش آخر عند شابور ، فيهما صور حجرية قوية لشابور الأول ، وبهرام الأول والثانى . وفى طاق البستان القريب من كرمنشاه نرى قوسين قائمين على عمودين محفورين حفراً قليل البروز فى الصخور ، ونقوشاً على وجهى الأقواس من الداخل والخارج تمثل شابور الثانى وكسرى أبرويز يصيدان الوحوش . ونرى الفيلة السمينة ، والخنازير البرية تبعث الحياة فى هذا الحجر الأصم ، وقد بذلت فى تصوير أوراق الأشجار عناية كبيرة ، وحفرت تيجان الأعمدة حفراً جميلا . ولسنا ننكر أننا لا نرى فى هذه النقوش ما نراه فى الحركات اليونانية من رشاقة أو فى الخطوط اليونانية من يسر ونعومة ، وأنا لانجد فيها حرصاً شديداً على الفردية ، ولا عناية بفن المنظور ، كما أنها ليس فيها إلا القليل من مجاراة النماذج المألوفة ؛ ولكنها مع هذا لا تقل عن معظم النقوش الكبرى فى رومة الإمبراطورية عظمة وفخامة ، وقوة وحيوية ورجولة .

ويبدو أن هذه النقوش المنحوتة فى الصخر كانت ملونة ، شأنها فى ذلك شأن كثير من زينات القصور ، ولكن هذه الألوان لم يبق منها إلا آثار قليلة . بيد أن أدب الفرس لا يترك مجالا للشك فى أن فن التصوير قد ازدهر فى عصر الساسانيين ؛ ويقول الكتاب إن النبي مانى أنشأ مدرسة للتصوير ؛ ويحدثنا الفردوسى عن كبار رجال الفرس الذين يزينون قصورهم بصور الأبطال الإيرانيين(٥٤) ؛ ويصف الشاعر البحترى ما كان على جدران قصر المدائن من صور ملونة(٥٥) . وكان من عادتهم أنه إذا مات ملك من ملوك الساسانيين استدعى أعظم مصور فى زمانه لرسم صورة له تضم إلى مجموعة الصور المحفوظة فى الخزانة الملكية(٥٦) .

واشتركت فى فنون التصوير ، والنحت ، والخزف وغيرها من فنون الزينة مع فن المنسوجات الساسانية فى نقوشها ؛ فقد كانت الأقمشة الحريرية ، والمطرزات ، والمنسوجات الموشاة ، والدمقس المشجر ، والأنسجة المزركشة المعلقة على الجدران ، وأغطية الكراسى ، والسرادقات ، والخيام ، والطنافس ، كانت هذه كلها تنسج بمنتهى الصبر والمهارة ، وتصبغ بصبغات ساخنة صفراء ، وزرقاء ، وخضراء . وكان كل فارسى ، عدا الفلاح والكاهن ، يأمل أن يلبس أحسن مما تمكنه طبقته من لبسه ، وكثيراً ما كانت الهدايا تتخذ شكل أثواب فخمة ، وكانت الطنافس الزاهية الألوان من مستلزمات الثراء فى الشرق من أيام الأشوريين الأقدمين . وقطع النسيج الساسانية التى تزيد على العشرين قطعة ، والتى هى كل ما نجا من عوادى الدهر ، هى أغلى قطع النسيج الباقية فى العالم فى هذه الأيام . ولقد كان العالم القديم كله من مصر إلى اليابان حتى فى عصر المنسوجات الساسانية يعجب بها ويسعى لمحاكاتها ؛ وكانت هذه المنسوجات الوثنية فى أيام الحروب الصليبية تفضل على غيرها من المنسوجات لتلف بها مخلفات القديسين المسيحيين . ولما أن استولى هرقل على قصر كسرى أبرويز فى دستجرد كان من أثمن غنائمه أقمشة مطرزة .

رقيقة ، وطنفسة كبيرة[٥٨] . ومن التحف الذائعة الصيت « طنفسة الشتاء » لكسرى أنوشروان . وقد نقشت هذه الطنفسة لتنسيه نقوشها التي تمثل مناظر الربيع والصيف برد الشتاء . كان فيها أزهار وفاكهة منسوجة من الياقوت ، وكانت فيها ماسات تنمو بجوار جدران من الفضة ، وجداول من اللؤلؤ فوق أرضية من الذهب[٥٩] ، وكان مما يفخر به هارون الرشيد طنفسة ساسانية كبيرة مرصعة بالجواهر[٦٠]. وقد بلغ من مهارة الفرس أن كانوا يكتبون قصائد الحب على طنافسهم[٦١] .

ولم يبق من الفخار الساساني إلا قطع قليلة من ذات الفائدة المادية ، لكن فن الخزف كان فناً راقياً في أيام الملوك الإكيمينيين ، وما من شك في أنه لم يمح كله من الوجود في أيام الساسانيين ، لأنه بلغ ذروة الكمال في إيران الإسلامية . ويظن إيرنست فنلوز Ernest Fenellosa أن بلاد الفرس قد تكون هي المركز الذي انتشر منه فن الميناء حتى في بلاد الشرق الأقصى[٦٢] ، ولا يزال مورخو الفن يتجادلون هل فارس الساسانية ، أو سوريا ، أو بيزنطية هي التي أنشأت فن الخزف البراق ذي الطلاء الذهبي أو الفضي أو النحاسي ، وفن الميناء ذي الحواجز من خيوط معدنية . وكان صناع المعادن الساسانيون يصنعون جراراً ، وأباريق ، وأقداحاً كأنهم يصنعونها إلى جيل من الجبابرة ؛ وكانوا يديرونها على مخارط ، وينقشونها بالإزميل ، أو يحدثون عليها رسوماً بارزة بطرقها من الداخل ، ويتخذون لها أيادي وأفواهاً على شكل حيوانات تختلف من الديكة إلى الآساد . وفي دار الكتب الأهلية بباريس قدح فارسي ذائع الصيت هو « قدح كسرى » ، له رصيعة من البلور المطعم في شبكة من الذهب المطروق . وتقول الرواية المتواترة إن هذا القدح كان من الهدايا التي بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان . وليس ببعيد أن يكون القوط قد أخذوا هـذا الفن عن الفرس ونقلوه إلى بلاد الغرب[٦٤] .

وكان صانعو الفضة يصنعون صحافاً قيمة ، ويساعدون الصياغ على صنع الحلى للخاصة والسوقة على السواء رجالا كانوا أو نساء . وقد بقيت حتى الآن عدة صحاف من عهد الساسانيين فى المتحف البريطانى وفى لنينغراد ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف الفنى بنيويورك ، وتحمل كلها صور ملوك أو نبلاء فى الصيد ، وحيوانات أكثر إتقاناً من الآدميين . وكانت النقود الساسانية تنافس فى بعض الأحيان النقود الرومانية فى جمال منظرها ، كما تشهد بذلك عملة شابور الأول(٦٥) . والكتب الساسانية نفسها يمكن أن تعد من التحف الفنية . وتصف الروايات المتواترة كيف كان الذهب والفضة يجريان من جلود كتب مانى حين أحرقت فى الميادين العامة(٦٦) . وكانت المواد الثمينة تستخدم أيضاً فى أثاث الساسانيين ، يدل على ذلك أن كسرى الأول كانت له منضدة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ، وأن كسرى الثانى أرسل إلى منقذه ، الإمبراطور موريس (أو موريق) ، منضدة من الكهرمان ، قطرها خمس أقدام ، ذات قوائم من الذهب ، ومغلفة بالجواهر(٦٧) .

وملاك القول أن الفن الساسانى يكشف عن جهود كبرى بذلت لإنعاشه بعد أن ظل أربعة قرون آخذاً فى الاضمحلال فى عهد البارثيين . وإذا جاز لنا أن نحكم عليه من بقاياه ، قلنا فى شىء من التردد إنه لا يضارع الفن الإكيمينى فى نبله وفخامته ، أو الفن الفارسى الإسلامى فى قوة ابتكاره ورقته وحسن ذوقه ، ولكنه احتفظ فى النقوش البارزة بكثير مما كان له فى الزمن القديم من قوة تبشر بما بلغته موضوعات التحلية من خصوبة فى مستقبل الأيام . وكان هذا الفن يرحب بالأفكار والأنماط الجديدة ، وقد أوتى كسرى الأول من الحكمة ما جعله يستقدم فنانين ومهندسين من اليونان فى الوقت الذى كان يهزم فيه قواد اليونان العسكريين . وقد وفى الفن الساسانى بما عليه من الدين ، فكان يصدر أشكاله وتحفه شرقاً إلى بلاد الهند ، وإلى التركستان والصين ، وغرباً إلى سوريا وآسية

الصغرى ، والقسطنطينية ، والبلقان ، ومصر ، وأسبانيا . ولعل تأثير هذا الفن كان من العوامل التي حولت اهتمام الفن اليوناني من الصور القديمة إلى الحلى البيزنطية ، واهتمام الفن اللاتيني المسيحي من السقف الخشبية إلى العقود والقباب والجدران المسندة المقامة من الآجر أو الحجر . وانتقلت البواكي وأنصاف القباب العظيمة من العمارة الساسانية إلى المساجد الإسلامية وإلى القصور والأضرحة المغولية . ذلك أن التاريخ لا يضيع فيه شيء : فكل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلا أو آجلا فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور ، وتضيف لونها الجديد إلى شعلة الحياة المتقدة .

الفصل الرابع

فتح العرب

قتل شروى أباه وتوّج من بعده ملكاً باسم كفاده الثانى ، ثم عقد الصلح مع هرقل ونزل له عن مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وغربى الجزيرة ، وأعاد الأسرى الذين أخذهم الفرس إلى بلادهم ، وردّ إلى أورشليم بقايا الصليب المقدس . وابتهج هرقل — وحق له أن يبتهج — بهذا النصر المؤزر ، ولكنه ، لم يكن يعرف أنه فى اليوم الذى أعاد فيه الصليب المقدس إلى موضعه فى الضريح عام ٦٢٩ قد هاجمت سرية من العرب حامية يونانية بالقرب من نهر الأردن . وفى ذلك العام نفسه فشا وباء فاتك فى بلاد الفرس ، أودى بحياة آلاف من أهلها ومنهم الملك نفسه . وعلى أثر موته نودى بابنه أردشير الثالث — ولم يكن قد جاوز السابعة من العمر — ملكاً على الفرس . لكن قائداً يدعى شهر براز قتل الغلام واغتصب العرش ؛ ثم قُتِل شهربراز نفسه بأيدى جنوده ، وجرّ أولئك الجنود جثته فى شوارع المدائن وهم يصيحون : « هذا مصير كل من جلس على عرش بلاد الفرس ولم يكن يجرى فى عروقه الدم الملكى » ، ذلك أن الجماهير أكثر ملكية من الملوك . وسادت وقتئذ الفوضى فى تلك البلاد التى أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاماً ، وفشا فى الدولة التفكك الاجتماعى بعد أن عمها الفساد الأخلاقى بتأثير الثروة التى جاءت فى أعقاب النصر الحربى[٦٨] ، وقام تسعة من الحكام يتنازعون عرش البلاد فى خلال أربع سنوات ، ثم اختفوا كلهم مقتولين أو هاربين أو ميتين ميتة طبيعية شاذة . وأعلنت بعض الولايات ، بل بعض المدن نفسها ، استقلالها عن الحكومة المركزية بعد أن عجزت هذه الحكومة عن بسط سلطانها على البلاد . ووضع

التاج فى عام ٦٣٤ على رأس يزدجرد الثالث سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية[٦٩] .

وفى عام ٦٣٢ توفى محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أنشأ دولة عربية جديدة ، وتلقّى عُمر خليفته الثانى ، رسالة من المثنى قائده فى سوريا ، يبلغه فيها أن الفوضى ضاربة أطنابها فى بلاد الفرس وأنه قد آن الأوان للاستيلاء عليها[٧٠] . وعهد عمر هذا العمل إلى خالد بن الوليد أعظم قواده جميعاً . وزحف خالد بإزاء الساحل الجنوبى للخليج الفارسى على رأس قوة من العرب البدو الذين ضرستهم الحروب والراغبين أشد الرغبة فى الغنائم(*) ، ثم أرسل رسالة إلى هورمزد حاكم الولاية القائمة على الحدود الفارسية يقول له فيها : « أسلم تسلم » .

ودعاه هورمزد إلى المبارزة وقبل خالد دعوته وقتله . وتغلب المسلمون[٧١] على كل ما واجهوه من مقاومة حتى وصلوا إلى نهر الفرات ؛ ثم استدعى خالد لينقذ جيشاً عربياً فى جبهة أخرى ، وتولى المثنى قيادة العرب ، وعبر النهر على جسر من القوارب . وعهد يزدجرد ، وكان لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من العمر ، بالقيادة العليا إلى رستم والى خراسان ، وأمره أن يجند قوة ضخمة ينقذ بها الإمبراطورية . والتقى الفرس بالعرب فى موقعة الجسر وهزموهم وأخذوا يطاردونهم مطاردة فيها كثير من التهور . وأعاد المثنى تنظيم صفوفه وهزم فى واقعة البويب الجيش الفارسى المختل النظام وأفناه عن آخره تقريباً (٦٢٤) . وكانت خسائر المسلمين فى هذه المعركة فادحة ، فقد مات المثنى متأثراً بجراحه ، ولكن الخليفة أرسل قائداً آخر أقدر منه يدعى سعد بن أبى وقاص على رأس جيش جديد قوامه ثلاثون ألف رجل . ورد يزدجرد على هذا بأن أنزل إلى الميدان جيشاً مؤلفاً من ١٢٠٫٠٠٠ من الفرس . وعبر بهم رستم نهر الفرات وعسكر عند القادسية

(*) وكان حقاً على المؤلف أن يضيف إلى ذلك قوله : والعامرة قلوبهم بالدين والراغبين فى الاستشهاد فى سبيله . (المترجم)

حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة فى تاريخ آسية وأشدها هولا ، دامت أربعة أيام . وهبت فى اليوم الرابع عاصفة رملية فى وجوه الفرس ، واغتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة ، قتل فيها رستم ومزق جيشه شر ممزق (٦٣٦) . وزحف سعد بجنوده دون أن يلقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نهر دجلة ، واجتازوه ودخل المدائن .

وذهل العرب السذج الأشداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكى وأدهشتهم عقوده الفخمة ، وبهوه الرخامى العظيم ، وطنافسه الكبيرة ، وعرشه المطعم بالجواهر ، وقضوا أربعة أيام يحاولون فيها جمع غنائمهم . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله نهى عمر سعداً عن متابعة الزحف نحو الشرق وقال له إن فى العراق ما يكفى[٧٢]. ووافق سعد على أمر الخليفة وقضى الثلاث السنين التالية يوطد دعائم حكم العرب فى أرض الجزيرة . وكان يزدجرد فى هذه الأثناء ينشئ فى ولاياته الشمالية جيشاً جديداً قوامه ١٥٠ر٠٠٠ مقاتل . وبعث عمر لملاقاته ٣٠ر٠٠٠ من رجاله ، والتقى الجيشان عند نهاوند ، وهزم العرب الفرس بفضل مهارتهم فى الفنون العسكرية فى معركة « فتح الفتوح » وقتل من الفرس فى هذه المعركة ١٠٠ر٠٠٠ ضيق عليهم العرب فى مضيق بين جبلين (٦٤١) ؛ وسرعان ما سقطت بلاد الفرس كلها فى أيدى العرب ، وفر يزدجرد إلى بلخ وطلب إلى الصين أن تمد له يد المعونة ؛ ولكن الصين لم تجبه إلى طلبه ، ثم عاد فطلبها إلى الترك ، فأمدوه بقوة صغيرة ، لكن الجنود الترك قتلوه طمعاً فى جواهره حين هم بالزحف ليبدأ الحرب من جديد (٦٥٢) ؛ وبذلك انتهى عهد الساسانيين فى فارس .

المراجع مجملة

Abbott, G. F., Israel in Egypt, London, 1907.
Abbott, Nabia, Two Queens of Baghdad, Univ. of Chicago Press. 1946.
*Abélaed, P., Historia Calamitatum, St Paul, Minn, 1922.
Ouvrages inédits, ed. V. Cousin, Paris, 1836.
Abrahams, J., Chapters on Jewish Literature, Phila., 1899.
Jewish Life in the Middle Ages, Phila., 1896.
Abu Bekr ibn Tufail, The History of Hay ibn Yaqkzan tr. Ockley. N.Y., n.d
Ackerman, Phyllis, Tapestry, the Mirror of Civilization, Oxford Univ. Pres, 1938
Adams, B.. Law of Civlisation and Decay, N. Y., 1921
*Adams, H , Mont St. Mjchel and Charlres, Boston, 1926.
Addison, J. D., Arts and Crafts in the Middle Ages, Boston, 1908.
Ali, Maulana Muhammad, The Religion of islam, Lahore 1936,
Al Tabari, The Book of Religion and Empire, N., Y., 1922.
Ameer Ali, Syed, The Spirit of Islam, Calcutta, 1900.
Ammianus Marcellinus, Works, Loeb Lib., 1935. 2v.
Andrae, Tor, Mohammed, tr. Menzel N. Y., 1936.
Anglo-Saxou Chronicle. tr. Ingram, Everyman Lib.
Anglo-Savon Poetry, ed. R. K. Gordon Everyman Lib.
Archer, T. A., and Kingsford, C.L., The Crusade, N. Y., 1895.
*Aristotle, Politics' tr. Ellis, Everyman Lib.
Armstrong, Sir Walter, Art in Great Britain and Ireland, London, 1919.
Arnold, M., Essays in Criticism, First Series, N. Y., n. d. Home Lib.
Arnold, Sir T. W., Painting in Islam, Oxford 1928.
The Preaching of Islam, N. Y., 1913,
and Guillaume, A. . The Legacy of Islam, Oxford, 1931.
Ashley, W. J., Introduction to English Economic History and Theory, N.Y., 1894f, 2v.
Asiny Palacios, M., Islam and the Divine Comedy, London, 1926
Asser of St. David's, Annals of the Reign of Alfred the Great, in Giles, J.A.
*Aucassin And Nicolette, tr. Mason, Everyman Lib.
Augustne. St.,.The City of God, tr. Healey, London, 1934.
* Confessions, Loeb Lid. 2v.
Letters, Loeb Lib.
Ausonius, Poems, Loeb Lib. 2v.
Averroës, A Decisive Discourse on . . . the Relation Between Religion and Philosophy, and An Exposition of the Methods of Argument Comcerning the Doctrines of Faith, Baroda, n. d.
Avicenna, Canon Medicinae, Venice, 1908.

Bacon, Rager, Opus majus, tr. Burke, Univ. of Penn. Press, 1928. 2v,
Bader, G., Jewish Spiritual Heroes, N. Y., 1940. 3v.
Boedeker, K., Northern Italy, London, 1913.
A - Baladhuri, Abu-l Abbas Ahmad, Origins of the Islamic State; tr. Hitti, Columbia Univ. Press, 1916.
Barnes, H E., Ecomic History of the Westeu World N. Y., 1942.
History of Western Civilization, N. Y 1935. 2v.
Baron, S. W., Social and Religious History of the Jews, Columbia Univ. Pres, 1937. 8v.
ed , Essays on Maimonides, Columbia Univ. Press, 1941.
Beard, Miriam, History of the Business Man, N. Y., 1938.
Bebel, A., Woman under Socialism, N. Y., 1938.
Becker, C. H., Christianity and Islam, London, 1909
Bede, Ven , Ecclesiastical History of England, ed. King, Loeb Lib.
Beer M., Social Struggles in the Middle Ages, London, 1924.
Belloc, H., Paris, N. Y., 1907.
Benjamin of Tudela, Travels; cf. Komroff, M., Contemporaries of Marco Polo.
Bevan, E.R., and Singer. C., The Legacy of Israel, Oxford, 1927.
Bieber, M., History of the Greek and Roman Theater, Princeton Univ. Press, 1939.
Al - Biruni, Chronology of ancient Nations, tr. Sachau, London, 1879.
India, London, 1910. 2v.
Blok, P. J., History of the People of the Netherlands, N. Y., 1898. 3v.
Boer, T. J. de, History of Philosophy in Islam, London, 1903.
*Boethius, Consolation of Philosophy, Loeb Lib.
Boissier, G. La fin du paganisme, Paris, 1913. 2v.
Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, N. Y., 1927.
Bonaventure, St., Life of St. Francis, in Little Flowers of St. Francis, Everyman Lib.
Bond, Fr., Gothic Architecture in England. London 1906.
Wood Carving in English Churches, London, 1190 2v.
Bouchier, E. S., Life and Letters in Roman Africa, Oxford 1913.
Brehaut, E., An Encyclopedist of the Dark Ages. N. Y., 1912.
Bridges, J. H , Life and Work of Roger Bacon, London, 1914.
Briffault, R., The Mother, N. Y., 1927. 3v.
Bright, W., Age of the Fathers, N. Y., 1903. 2v.
Brittain, A., Women of Early Chistianity, Phila., 1907.
Broglie, Duc, de, St. Ambrose, London, 1899.
Brown, P. Hume, History of Scotland, Cambridge Univ. Press, 1929, 3v.
Browne, Lewis, ed., The Wisdom of Israel N. Y., 1946.
Bryce, Jas., The Holy Roman Empire, N. Y , 1921.

Bukhsh, S. K., The Orient under the Caliphs, translated from A. Von Kremer's *Kulturgeschichte des Orients,* Calutta, 1920.

Studies : Indian and Islamic, London, 1227.

Bulletin of The Iranian Institute, N.Y.

Burton, Sir R. F., The Jew, the Gypsy, and El Islam, Chicago, 1898.

Personal Narrative of a Pilgrimage to al - Madinah and Meccah, London, 1893, 2v.

Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

History of the Later Roman Empire, London, 1923. 2v.

Life of St. Patrick, London, 1905.

Butler, P., Women of Medieval France, Phila., 1908.

Calvert, A. F., Cordova, London, 1907.

Moorish Remains in Spain, N Y., 1906.

Seville, London, 1907.

Cambridge AncientHistory, N. Y., 1924. 12v.

Cambrice Medieval History, N.Y., 1924I 8v.

Campbell, D., Arabian Medicine, London 1926. 2v.

Capes, W.W , University Life in Ancient Athens, N. Y., 1922.

Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory in the West, Edinburgh, 1928 5v.

Carlyle Th., Past and Present, in Works, Collier ed., N. Y. 1901. 20v.

Carter, T.F., The Invention of Printing in China, N.Y., 1925.

Cassiodorus, Letters, ed. Hodgkin, London, 1886.

Castiglione, A., History of Medicine, N. Y., 1941.

Cotholic Encyclopedia , N.Y.. 1912. 16v.

Chambers, E. K., The Medieval Stage, Oxford, 1903. 2v.

Chapman, C. E., History of Spain, founded on the *Historia de Espana* Rofael Altamira, N.Y., 1930.

Chardin, Sir J., Travels in Persia, London, 1927.

Chateaubriand, Vicomte de, The Genius of Christianity, Baltimore, n.d.

Clapham, J. H., and Power, Eileen, Cambridge Economic History of Europe, Vol. I, Camb. Univ Press, 1944.

Chrétien de Troys, Arthurian Romances, London, Everyman Lib.

Claudian, Poems, Loeb Lib. 2v.

Clayvijo, Gonalez de, Embassy to Tamberlane, 1403-6. N.Y., 1928.

Clayton, J., Pope Innocent III and His Times, Milwoukee, 1941.

Collingwood, R. G., and Myres, J. L., Roman Britain, Oxford 1937.

Connick, C. J., Adventures in Light and Color N. Y. 1937.

Coulton, G. G., Chaucer and His England, London, 1921.

Five Centuries of Relgion, Camb. Univ. Press, 1923. 3v.

From St. Francis to Dante : a tr. of the Chronicle of Salimbene, London, 1908

The Inquisition. N.Y., 1929.

Inquisition and Liberty, London 1938.
Life in the Middle ages. Camb. Univ. Press, 1930. 4v.
Medieval Panorama. N. Y., 1944.
The Medieval Science, Camb. Univ. Press, 1930.
The Medieval Village. Camb. Univ. Press, 1925.
Social Life in Britain from the Conquest to the Reformation, Camb Univ. Press. 1938.

Cram, R.A., The Substance of Gothic, Boston, 1938.

Creswell., K.A , Early Muslim Architecture, Oxford, 1932. 2v.

Cronyn, G., The Fool of Venus : the Story of Peire Vidal, N.Y., 1934.

Crump, C.G., and Jacob, E.F., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.

Cunningham, W., The Growth of Eglish Industry and Commerce, Camb. Univ. Press. 1806.

Cuts. E. L , St. Jerome, London, S.P.C.K , n.d.

Dalton, O.M., Byzantine Art and Archeology, Oxford, 1911.

Dante, Eleven Letters, tr. Latham, Boston, 1891.
De Monarchia, tr. Henry, Boston, 1904.
Il Eourvito, tr. Sayer, London, 1887.
La Commedia, ed. Toynbee, London! 1900.
La Vita Nuova, tr. D. G. Rossetti, Portland, Mc., 1898.
The Vision of (The Divine Comedy). tr. Cary, Everyman Lib.

'D'Arcy, M.C , Thomas Aquinas, London, 1930.

Dasent, G., tr., Story of Burnt Njal, Evryman Lib.

Davis, H. W. C., ed., Medieval England, Oxford, 1928.

Davis Wm. S , Life on a Medieval Baroy, N. Y., 1928.
and West, W. M., Readings in Ancient History, Boston, 1912 2v

Dawson, Christopher, The Making of Europe, N.Y., 1932.

Day, Clive, A History of Commerce, London, 1926.

Dennis, G., Cities and Cemeteries of Etruria, Everyman Lib, 2v.

De Vaux, Baron Caron Carra, Les penseurs de l'Islam, Paris 1921. 5v.

De Wulf, M., History of Medieval Philosophy, London, 1925. 2v.
Philosophy and Civilization in the Middle Ages, Princetion Univ Press. 1922.

Dhalla, M. N., Zoroastrian Civilization, Oxorord, 1922.

Diehl, C., Byzantine Portrait, N.Y., 1926.
Manuel d'art Byzantin, Paris, 1910.

Diesendruck, Levi Maimonides and Thomas aquinas, in N.Y. Public Library Pamphlets, v. 372.

Dieulafoy, M. Art in Spain and Portugal, N.Y. 1913.

Dill, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Ages, London 1926.
Romou Society in the Last Century of the Western Empire, London, 1906.

Dillon, E., Glass, N. Y., 1907.
Dimand, M. S., Handbook of Muhammedan Art. N. Y., 1944.
Dopsch, A., Economic and Social Foundetions of European Civilization, N. Y., 1937.
*Doughty, Chas. M. Travels in Arabia Deseria, N. Y., 1923. 2v.
Dozy, R., Spanish Islam, N. Y., 1913.
Draper, J. W., History of the Intellectual Development of Europe, N. Y., 2v.
Druck, D., Yehuda Halevy, N. Y., 1941.
Dubnow, S.M., History of the Jews in Russia and Poland, Phila., 1916. 3v.
DuChaillu, P., The Viking Age, N. Y., 1889. 2v.
Duchesne, L., Early History of the Christian Church, London. 1933. 3v.
Dudden, F. H , Gregory the Great, London, 1905. 2v.
Duhem, P., Le systeme du monde, Paris, 1913. 5v.
Eginhard, Life of Charlemagne, N. Y, 1880.
Encyclopaedia Britannica, 14th ed.
Erigena, John Scotus, On the Division of Nature, Book I, Annapolis, Md., 1940.
Eunapius, Lives of the Sophists, in Philostratus, Everyman Lib.
Farmer, H. G , History of Arabian Music, London, 1929.
Faure, E, History of Art. N. Y., 1921. 4v. Vol. III : Medieval Art.
Fenollosa, E. F., Epochs of Chinese and Iapanese Art. N. Y., 1921. 2v.
Fergusson, J., History of Architecure in All Countries, London, 1874. 2v.
Fiedler. H, G., ed., Das Oxforder Buch Deutscher Dichunh, Oxford, 1936.
Figgis, J.N., Political Aspects of Str. Augustine's City of God, London, 1921.
Finlay, G., Greece under the Romans, Everyman Lib.
History of Grece, Oxford, 1877. 7v.
Firdousi, Epic of the Kings, retold by Helen Zimmern, N. Y., 1883.
Shah Nameh, in Gottheil, R., Literature of Persia, N.Y., Vol.I.
Fisher, H. L., The Medieval Empire, London, 1898. 2v.
Foakes-Jackson, F. and Lake, K., Beginning of Christianity, London, 1920. 3v.
Erancke, K , History of German Literature, N. Y. 1901.
Frank, T., ed., Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore, 1933f. 5v.
Frazer, Sir J., Adonis, Attis, Osiris, London, 1907.
The Magic Art, N. Y., 1935. 2v.
Freeman, E. A., Historical Essays, First Series, London. 1896.
History of the Norman Conquest of England, Lonpon 1870. 4v.
French Classics, ed. Perier, Paris, Librairie Hatier, n. d.
Friedänder, L. Roman Life and Manners under the Early Empire. London. n. d. 4v.

Funk, F. X., Manual of Church History, London, 1910, 2v.
Gabirol, Solomou Ibn, The Improvement of the Moral Qualities, tr. and introd. by Stephen S. Wise, N. Y., 1902.
Selected Religious Poems, tr. Israel Zangwill, Phila. 1923.
Gardiner, E. N., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.
Gardner, Alice, Julian, Philosopher and Emperor, N. Y., 1895.
Garrison, F., History of Medicine, Phila., 1929.
Gasquet, A., Cardinal, Monastic Life in the Middle Ages, London, 1922.
Geoffrey of Monmouth, British History, in Giles, Six Chronicles.
Gest, A. P., Roman Engineering, N. Y., 1930.
Gesta Francorum, ed. Brehier, Paris, 1924.
Al-Ghazali, Abu Hamid, The Alchemy of Happiness, tr. Field, London, 1910.
Some Religious and Moral Teachings, tr. Nawab Ali, Baroda, 1920.
Gibbon, Ed., Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman Library, 6v. ed. J. B. Bury, London, 1900. 7v.
Gildas, Works, in Giles, Six Chronicles.
Giles, J. A., Six Old English Chronicles, London, 1848.
Gilson, E., La philosophie au moyen âge, Paris, 1922. 2v.
La hilosophie au moyen âge, Paris, 1947.
Philosophy of St. Bonaventure, N. Y., 1938.
Reason and Revelation in the Middle Ages, N. Y., 1938.
Giraldus Cambrensis, Itinerary through Wales, and Description of Wales, Everyman Lib.
Glover, T. R., Life and Letters in the Fourth Century, N. Y., 1924.
Gordon, R. K., ed., see Anglo - Saxon Poetry.
Gottheil., R J., ed., Literature of Persia, N. Y., 1900. 2v.
Grabmann, M., Thomas Aquinas, N. Y., 1928.
Graetz, H., History of the Jews, tr. Bella Löwy, Phila., 1891f. 6v.
Green. J. R., Conquest of England, London, 1884.
The Making of England, London, 1882.
Short History of the English People, London, 1898. 3v.
Gregory oj Tours, History of the Franks, tr. Brehaut, N. Y., 1916.
Grousset, R., Civilizations of the East, London, 1931 ; Vol. I : The Near and Middle Eeast.
Grov's Dictionary of Music and Musicians, N. Y., 1928 5v.
Gruuebaum, G. von, Medieval Islam Univ. of Chicago Press, 1946.
Gruner, O.C., Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna, London, 1930.
Guibert of Nogent, Autobiography, London, 1925.
Guignebert, C., Christianity Past and Present, N. Y., 1927.
Guillaume, A., The Traditions of Islam, Oxford, 1924.
Guizot, F., History of Civilization, London, 1898. 3v.
History of Frace, London, 1872. 8v.

Halevi, J., Kitab alKhazari, tr. Hirschfeld, London 1931.

Selected Poems, tr. Nina Salaman, Phila., 1928.

Hammerton, J. A., ed., Universal History of the World, London, n.d. 8v.

Haskins, C. H., The Normans in Eurppean History, Boston, 1916.

The Renaissance of the Twelfth Century, Harvard Univ. Press, 1928.

Studies in Medieval Culture, Oxford, 1929.

Hastings, J., ed., Encyclopedia of Religion and Ethics, N. Y., 1928. 12v.

Haverfield, F., Roman Occupation of Britain, Oxford, 1924.

Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, London, 1900. 2v.

Headlam, C., Story of Chartres, London, 1908.

Story of Nuremberg, London, 1911.

Hearnshaw, F., Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers, N. Y., 1923.

Medieval Contributions to Modern Civilization, N. Y., 1922.

Heath, Sir Thos., History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2x.

Hebraic Literature, translations from the Talmud, Midrashim, and Cabala, London 1901.

Hebrew Literature, ed. Epiphanius Wilson. N. Y., 1901.

Hefele, C. J., History of the Christian Councils, Edinburgh, 1894. 5v.

Heitland, W., Agricola, Comb. Univ. Press, 1921.

Hell, Jos, The Arab Civilization, Camb. Univ. Press, 1926.

Higham, T., and Bowra, C, Oxford Book of Greek Verse, Oxford, 1930.

Himes, N., Medical History of Contaaception, Baltimore, 1936.

Hitler., A., Mein Kampf, N. Y., 1939.

Hitti, P. K., History of the Arabs, London 1937.

Hodgkin, T., Italy and Her Invaderr, Oxford, 1892. 7v.

Charlemagne, N. Y., 1902.

Holinshed, Chronicle, Everyman Lib.

Home, G. Roman London, 1926.

Hoover, H., and Gibbons, H.A., Conditions of a Lasting Peace, N.Y.,1939.

Hopkins, C. Edward, The Share of Thomas Aquinas in the Growth of the Witchcraft Delusion, Univ. of Penn., 1940.

Horn, F. W., History of the Literature of the Scandinavian North, Chicago, 1895.

Houtsma, M., ed., Encyclopedia of Islam, London, 1908 - 24.

Howard, C., Sex Worship, Chigago, 1909.

Hulme, E. M., The Midble Ages, N. Y., 1938.

Hume, David, History of England, N. Y., 1891. 6v.

Hume, Martin, The Spanish People, N. Y., 1911.

Hurgrönje, C., Mohammedanism, N. Y., 1916.

Husik, I., History of Medieval Jewish Philosophy, N. V., 1930.

Hyde, Douglas, Literary History of Ireland, London, 1899.

Iacopo de Voragine, The Golden Legend, tr. Wm. Caxton, Cambridge Univ. Press, 1914.

Ibn Khaldoun, Les prolégomènes, tr. en français par M. de Slane, Paris. 1984. 8v,

Ibn Khallikan, M., Biographical Dictionary, tr. M. de Slane, Paris 1843, 2v

Inge, W. R., Philosophy of Plotinus, London, 1929 2v.

Irving, W., Alhambra, N. Y., 1925,

. Life of Mahomet, Everyman Lib.

Jackson, Sir T., Byzantine and Romanesque Architecture, Camb. Univ. Press, 1920. 2v,

Gothic Architecture in France, England, and Italy, Camb. Univ. Press, 1915. 2v,

Jalal ud - Din Rumi, Selected Poems, ed, & tr, R. A. Nicholson, Camb. Univ. Press, 1898.

James, B., Women of England, Phila, 1908.

Jenks, Edw., Law and Politics in the Middle Ages, N. Y., 1898.

Jerome, St., Select Letters, tr. Wright. Loeb Lib.

*Joinville' Jean de, Chronicle of the Crusade of St. Louis, Everyman Lib.

Jordanes, Gothic History Princeton Univ. Press, 1915.

Jörgensen, J., St. Francis of Assis, N. Y., 1940.

Joseph Ben Joshua Ben Meir, Chronicles, London, 1858, 2v.

Joyce, P., Short History of Ireland, London, 1924.

Julian, Works, Loeb Lib. 3v.

Jusserand, J. J, English Wayfaring Life in the Middle Ages, London, 1891.

Justiniani Institutionum Libri Quattuor, ed. Moyle, Oxford Univ. Press, 1888, 2v.

Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931.

Kellogg, J. H., Rational Hydrotherapy, Battle Creek, Mich., 1928.

Ker, W. P., Epic and Romance, London, 1897.

Kirstein, L., Dance : a Short History, N. Y., 1953.

Klausner, J. From Jesus to Paul, N. Y., 1948,

Kluchevsky, V , History of Russia, London, 1912, 3v.

Komoff, M , Contemporaries of Marco Polo, N. Y., 1937,

Kroeger, A., The Minnesinger of Germany. N. Y., 1873.

Lacroix, Paul, Arts of the Middle Ages, London, n. d.

History of Prostitution, N. Y., 1931, 2v.

Manners, Customs, and Dress during the Middle Ages, N. Y., 1876.

Military and Religious Life in the Middle Ages, London, n.d.

Science and Literature in the Miedle Ages, London, n.d.

Lanciani. R., Ancient Rome, Boston, 1889.

Lane, Edw., Arabian Society in the Middle Ages, London, 1883.

Lane - Poole, S., Art of the Sarracens in Egypt, London, 1886.

Cairo, London, 1895.

Saladin, London, 1920
Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed London, 1852.
Story of he Moors in Spaint, N.Y., 1889.
Studies in a Mosque. London, 1883.
Lange, P. H., Music in Western Civilization, N.Y., 1941. A model of scholarship and style.
Lavisse, E., Histoire de France, Paris. 1900f. 18v.
Lea, H.C., Historical Sketch of Sacerdodal Celibacy, Boston, 1884.
History of the Auricular Confession, Phila. 1886, 3v.
History of the Inqnisition in the Middle Ages, N.Y., 1888, 8v.
History of the Inquisition in Spain. N.Y., 1906, 4v.
Superstition and Force, Phila., 1892.
Lecky, W.E., History of European Morals, N.Y., 1926. 2v.
Le Stange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.
Palestine under the Moslems, Boston, 1890.
Lethaby, W. Medieval Art, London, 1904.
Lonnrot, E., Kalevala, Everyman Lib. 2v.
Little, A. G., ed., Roger Bacon Essays' Oxford 914.
Little Flowers of St Francis, Everman Lib.
Lorris, W., and Jean Clopinel de Meung, The Romance of the Rose, London, 1931. 3v.
Lot, F., The End of the Ancient World. N.Y. 1931.
Louis, Paul, Ancient Romeot Work, N Y., 1927.
Lowie, R., Are We Civilized?. N.Y., 1929.
Lützow, Count von, Bohemia, an Historical Sketch, Everyman Lib.
Lyra Graeca, ed. and tr. by J.M. Edmonds, Loeb Lib. 3v.

Mabinogion, tr. Lady Charlotte Guest, Everyman Lib.
Macdonald, D. B., Aspects of Islam, N.Y., 1911.
Development of Muslim Theology, Jurisprudene, and Constitutional Theory, N.Y., 1903.
Religious Attitude and Life in Islam. Chicago, 1909.
MacLaurin, C., Mere Mortals, N.Y., 1925, 2v.
Macrobii, Opera accedunt integra, London, 1694.
Mahaffy, J.P., Old Greek Education, N.Y., n.d.
Maimondides, Guide to the Perplexed, tr. Friedländer, London, 1885. 3v.
Mishneh Torah; Book I, tr. Hyamson, N.Y., 1937.
Maine, Sir H., Ancient Low, Everyman Lib.
Maitland, S.R.. Dark Ages, London, 1890.
Al-Makkari, Ahmed, History of the Mohammedan Dynasties in Spain, tr. de Gayangos London 1840, 2v.
Mâle, É., L'art religieux du XIIIme siècle en France Paris, 1902.
Malter, H., Saadia Gaon, Phila., 1921.
Mantzius, K., History of Theatrical Art, London, 1903f. 6v.

Marcus Aurelius, Meditations, tr. Long. Boston, 1876.
Marcus, J., The Jew in the Medieval World, Cincinnati, 1938.
Margoliouth, D. S., Cairo, Jerusalem, and Damascus, N.Y., 1907.
Mohammed and the Rise of Islam, N Y., 1905.
Maritain, I., The Angelic Doctor, N.Y., 1940.
Al-Masudi, Abu-l-Hasan, Meadows of Gold and Mines of Gems, tr. Sprenger, London, 1841.
Matthews, B., Development of the Drama, N. Y., 1921.
Movor, J., Economic History of Russia, London, 1925. 2v.
May, Sir T., Democracy in Europe, London, 1877. 2v.
McCobe, J., Crises in the History of the Papacy, N.Y., 1961.
Empresses of Constantinople, Boston, n.d.
St. Augustine and His Ages, N.Y., 1903.
Story of Religious Controversy, Boston, 1929.
McKinney, H., and Anderson, W., Music in History, Cincinnati, 1940.
Michelet, J., de, History of France, N.Y., 1880. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmans, Paris, 1922. 2v.
Migeon, G., Les arts musulmans, Paris, 1922. 2v.
Milman, H., History of Lain Christianity, N. Y., 1860. 8v.
Mirror of Perfection, in Little Flowers of St. Francis.
Molmenti, P., Venice, London, 1906. 6v.
Mommsen, Th., Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.
Monroe, P., Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period, N. Y., 1932.
Montalembert. Count de, The Monks of the West, Boston, n.d. 2v.
*Montesquieu, Chas, Boron de, Spirit of Laws, N.Y., 1899. 2v.
Moore, C. H., Development and Character of Gothic Architecture, London, 1889.
Moore, G. F., Judaism in the First Centuries of the Christian Era, Cambridge, Mass , 1932. 2v.
Morey, Chas, Medieval Art, N. Y., 1294.
Muir, Sir W., The Caliphate, London, 1891.
Life of Mohammed, Edinburgh, 1912.
Müller-Lyer, F., Evolution of Modern Marriage, N.Y., 1930.
Mumford, Lewis, Technics and Civilization, N.Y., 1934.
Munk, S., Mélanges de philosophie juive et arabe, Paris, 1859.
Munro, D. C. and Sellery, G.C., Medieval Civilization, N.Y , 1926.
Murray, A. S., History of Greek Sculpture, London, 1890. 2v.

Nennius, History of the Britons, in Giles, Six Chronicles.
Neuman, A. A., The Jews in Spain, Phila, 1942. 2v.
*Newman, Louis, and Spitz, S., The Talmudic Anthology, N.Y., 1945.
Nicholson, R. A., Literary History of the Arabs, Camb. Univ. Press, 1930.
The Mystics of Islam, Camb. Univ. Press, 1922.
Studies in Islamic Mysticism, Camb. Univ. Press, 1921.
Studies in Islamic Poetry Camb. Univ. Press, 1921.

Translations of Eastern Poetry and Prose, Camb. Univ. Press, 1922.

Nickerson, H., The Inquisition, Boston, 1923.

Nietzsche, F., Beyond Good and Evil, N Y., 1923.

Nöldeke, Th., Sketches from Eastern History, London, 1802.

Nun's Rule, being the Ancren Riwle modernized, by Jas. Morton, London, 1296.

Oesterley, W., and Box, G., Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism, London, 1920.

Ogg, F., Source Book of Medieval History, N.Y., 1907.

O'Leary DeLacy, Arabic Thought and Its Place in History, London, 1922.

OMAN, C.W., The Byzantine Empire, London, 1802.

Oxford History of Music Oxford 1929f. 7v.

Paetow, L., J., Guide to the Study of Medieval History, N.Y., 1931.

Palmer, E.H., The Caliph Haroun Alraschid, N.Y., n.d.

Panofsky, Erwin, Abbot Suger, Princeton, 1948.

Paris, Matthew, English History from the Year 1235 to 1273, tr. Giles, London, 1852. 3v.

Paul The Deacon, History of the Longobards. tr. Foulke, Univ. of Penn., 1907.

Pauphilet, A., ed., Jeux et sapience du moyen âge, Paris, 1940.

Persian Art. Souvenir of the Exibition at Burlington House, London, 1931.

Philby, H. St. John, A Pilgrim in Arabia Golden Cockerel Press, n.d.

Pickthall, Marmaduke, The Meaning of the Glorious Koran N. Y , 1930.

Pirenne, H , Economic and Social History of Medieval Europe, N.Y., n.d.
History of Europe from the Invasions to the Sixteenth Century, N. Y. 1939.
Medieval Cities, Princeton. 1939.
Mohammed and Charlemagne. N.Y , 1930.

Pirennne, J , Les grands courants de l'histoire universelle, Neuchâtel 1964. 3v.

Pliny The Elder, Natural History, London, 1855. 6v.

Plummer, C., Life and Times of Alfred the Great, Oxford, 1902.

Pokrovsky, M , History of Russia, N.Y., 1931.

Pollock, F., and Maitland, F., History of English Law before Edward I, Camb, Univ, 1895. 2v.

•Polo, Marco, Travels, ed Komoroff. N.Y. 1026.

Poole, R. L., Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning, N.Y. 1920.

Pope, A.U., Introduction to Persian Art, London, 1930.
Iranian and Armenian Contribution to the Beginnings of Gothic Architecture, Bulletin of the Asia institue, N.Y. 1946.
Masterpieces of Persian Art, N.Y. 1945.
Survery of Persian Art. Oxford Univ. Press. 1298. 6v.

Porter, A. K., Medieval Architecture, N.Y., 1909. 2v.

Power, Eileen, Medieval People, Boston, 1924.

and Power, Rhada, Cities and Their Stories, Boston, 1927.

Prestage, E., Chivaly, N.Y. 1928.

Procopius, Anecdota, or Secret History' Loeb Lib.

Buildings, Loeb Lib.

History of the Wars, Loeb Lib. 5v.

Psellus, M., Chronographia, French tr. by Emile Ranauld, Paris. n.d.

Quennell, M., Everyday Life in Roman Britain, N.Y. 1925.

Raby, F. J., History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages. Oxford, 1927.

History of Secular Latin Poetry in the Middle ages, Oxford, 1934. 2v.

Rambaud, A., History of Russia, Boston, 1889. 3v.

Rapaport. S., Tales and Maxims from the Talmud, London, 1910.

Rashdalli, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, revised by F. M. Powicke and A. B. Emden. 3v.

Rawlinson, G., The Seventh Great Oriental Monarchy, London, 1876.

Reese, G., Music in the Middle Ages, N.Y., 1940.

Rémusat, C. De, Abélard, Paris, 1845. 2v.

Renan, E., Averroès et l'averroïsme, Paris, n.d.

The Christian Church, London, n.d.

Marc Aurèle, Paris, n.d.

Poetry of the Celtic Races, in Harvard Classics, Vol. 38, N. Y., 1938.

Renard, G., Guilds of the Middle Ages, London. 1918.

Richard, E. History of German Civilization, N.Y., 1911.

Rickard, T., Man and Metals, N.Y., 1932. 2v.

Riefstahl, R., The Parish - Wastson Collection of Mohammedan Potteries, N.Y., 1922.

Rihani, The Quatrains of Abu-l-Ala, London, 1904.

Rivoira, G., Lombardic Architecture, London, 1910. 2v.

Moslem Architecture, Oxford, 1918.

Robertson, J. M., Short History of Free Thought, London, 1914. 2v.

Robillard, M., Chartres, Grenoble, n.d.

Rogers, J. E. T. Six Centuries of Work and Wages, N.Y., 1890.

Rostovizeff, M., History of the Ancient World, Oxford, 1928. Vol. II : Rome

Social and Economic History of the Roman Empire, Oxfor, 1926.

Roth, Leou, Spinoza, Descartes, and Mainides, 1924.

Rowbotham, J., The Troubadours and Courts of Love, London, 1895.

Ruskin, J., Stones of Venice, Everyman Lib. 3v.

Russell, B., History of Western Philosphy, N. Y., 1945.
Russell, C. E., Charlemagne, 1930.

Sabatier, P., Life of St. Francis of Assisi, N. Y., 1909.
Sa'di, The Gulistan, in Gottheil, R., Literature of Persia, Vol. II.
The Rose Graden (Gulistan), tr. by L. Cranmer-Byng, London, 1919.
Saladin, H., et Migeon O., Manuel d'art musulman, Paris, 1907. 2v.
Saliba, D , Étude sur la métaphysique d'Avicenne, Paris, 1926.
Salzman, L., English Industries of the Middle Ages, Oxford, 1923.
Sandys, Sir J., Companion to Latin Studies, Cambridge, 1925.
Sanger, W., History of Prostitution, N. Y., *1910.*
Sarre, F., Die Kunts des alten Persien, Berlin. *1925.*
Sarton, G., Introduction to the History of Science, Baltimore, *1930* 3v.in 5.
A masterpiece of painstaking scholarship.
Saunders, O. E., History of English Art in the Middle Ages, Oxford, *1932.*
Saxo Grammaticus, Danish History, London, n d. 2v.
Schechter, S , Studies in Judaism, N. Y , *1920.* 3v.
Schevill, F., Siena, N. Y., *1909.*
Schneider, H., The History of World Civilization, N. Y., *1931.* 2v.
Schoenfeld, H., Women of the Teutonic Nations. Phila., *1908.*
Schoenhof, J., History of Money and Prices, N. Y., *1896.*
*Scott-Moncrieff, C. K., The Letters of Abélard and Hèloïse, N. Y., *1926.*
Sedgwick, H. D., Italy in the Thirteenth Century, Boston, *1912.* 2v.
Seebohm, F., The English Village Community, London, *1896.*
Seignobos, C., The Feudal Regime, N. Y., *1920.*
Short, E. H., The Painter in History, London. *1929.*
Shotwell, J. T., and Loomis, L. R., The See of Peter, Columbia Univ. Press, *1927.*

Sidonius Apollinaris, Poems and Letters, Loeb Lib. 2v.
Sigfusson, Saemund, The Elder Edda, London, *1907.*
Sihle, E. G., From Augustus to Augustine, Camb. Univ. Press, *1923.*
Singer, C., ed., Studies in the History and Method of Science, Oxford, *19171.* 2v.

Smith, Margaret, ed., The Persian Mystics : Attar, London, *1932.*
Smith, Toulmin, English Gilds : the Original Ordinance, London, *1870.*
Socrates, Ecclesiastical History, London, *1892.*
Sozomen, Ecclesiastical History, London, *1855.*
Speculum, A Journal of Medieval Studies, Cambridge, Mass.
Spencer, H., Principles of Sociology, N. Y., *1910.* 3v.
*Spengler, O., Decline of the West, N. Y., 1928. 2v.
Stephence, W. R., Hildebrand and His Times, London, 1914.

Sterling, M. B. The Story of Parzival. N. 1911
Stevens, C. E., Sidonius Apollinaris, Oxford, 1933.
Street, G. E., Gothic Architeure in Spain. London 1869.
Stryygowski, Origin of Christian Church Art, Oxford, 1923.
Stubbs, Wm., Constitutional History of England, Oxford, 1903. 3v.
Sturluson, Snorri, Heimskringla. The Norse Sagas, Everyman Lib.
Heimskringla : The Olaf Sagas, Everyman Lib.
The Younger Edda, in Sigfusson, S.
Sumner, W. G., Folkways, Boston, 1906.
Sykes, Sir P., History of Persia, London, 1921. 2v.
Symonds, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
Introduction to the Study of Dante, London, 1899.
AL - Tabari, Chroniqe, Fr. tr. by Zotenberg, Paris, 1867.
Tagore, Sir R., Gitanjali, N. Y., 1928.
Taine, H., Ancient Regime, N. Y., 1891.
Itay : Florence and Venice. N. Y., 1869.
Talmud, Babylonian, Eng. tr, London, 1935f. 24v.
Tarn, W , Hellenistic Civilization. London, 1927.
Taylor H. O. The Classical Heritage of the Middle Ages, N. Y., 1911.
The Medi val Mind, London, 1927. 2v.
Thatcher. O., and McNeal, E., Source Book for Medieval History, N. Y., 1905.
Thierry, A., History of the Conquest of England by Normans, London, 1847. 2v.
Thomas Aquinas, St., Summa contra Gentiles London, 1024. 4v.
Summa theologica. tr. by Dominican Fathers, London, 1920. 22v.
Thompson, Sir E, Introduction to Greek and Latin Palaeography. Oxford, 1921.
Thompson, J. W., Economic and Social History of the Middle ages, 300 - 1800, N. Y., 1928.
Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, N. Y., 1931.
Fendal Germany, Chicago, 1828.
The Middle ages, N. Y., 1931. 2v.
*Thorndike, Lynn, History of Magic and Experimental Science, N. Y., 1929f.
A work of magnificent scholarship, which illuminates every subject that it touches.
Short History of Civilization. N. Y., 1926.
Tisdall, W., Original Sources of the Qur'an.
Tornay, S C., Averroës' Doctrine of the Mind, Philadelphia Review, May, 1943.
*Toynbee, A. J., A Study of History, Ovford, 1935f. 6v.
Traill, H. D, Social England, N. Y., 1902. 6v.

Ueberweg, F., History of Philosophy, N. Y., 1871: 2v.
Usher, A. P., History of Mechanical Inventions, N. Y., 1929.
Al-Utbi, Abul-Nasr, Memoirs of the Emir Sabaktagin and Mahmud of Ghazna, tr. Reynolds, London, 1858.

Vacandard, E., The Inquistion, N. Y., 1908.
*Van Doren, Mark, An Anthology of World Poetry' N. Y., 1928. The best work of its kind.
Vasari, G., Lives of the Painters, Everman Lib, 3v.
Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, Madison, Wis, 1929. 2v.
Vernadsky, G., Kievan Russia, Yale Nniv. Press, 1948.
Villari, P., The Two First Centuries of Florentine History, London, 1908.
*Villehardouin, G. de, Chronicle of the Fourth Crusade, Everyman Lib.
Vinogradoff, P., English Society in the Eleventh Century, Oxford, 1908.
Voltaire, Essay in the Manners and Morals of Europe, in Works, Vol. XIII, N. Y., 1901.
Vossler, K., Medieval Culture : an Introduction to Dante and His Times, N. Y., 1929. 2v.

*Waddell, Helin, Medieval Latin Lyrics, N. Y., 1942.
* The Wandering Scholers, London, 1927.
* Peter Abélard, N. Y., 1938.
Waren, C., Medieval Sicily, London, 1910.
Walker Trust Report, The Great Palace of the Byzantine Empsrors, Oxford, 1947.
Walsh, J. J., The Popes and Science, N. Y., 1913.
The Thirteenth the Greatest of Centuries. Catholic Summer Shool Press, 1920.
Walther von der Vogelweide, I saw the World, tr. Colvin, London, 1938.
Songs and Sayings, tr. Betts, London, n.d.
Waxman, M., History of Jewish Literature, N. Y., 1930.
Weigall, A., The Paganism in Our Christianity, N. Y., 1930.
Weir, T.H., Omar Khayam the Poet, N. Y., 1928.
Welch, Alice, of Six Medieval Women, London, 1913.
West, A. F., Alcuin, N.Y., 1916.
Westermarck, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London, 1917f. 2v.
Short History of Marriage, N. Y., 1926.
Wherry, E. M., Commentary of the Qur'an, with Sale's tr. and notes, London, 1896. 4v.
White, E. M., Woman in World History, London, n.d.
Wicksteed, P. H., Dante and Aquina, 1913.

William of Malmesbury, Chronicle of the Kings of England, London, 1883.
William of Tyre, Godeffory of Bologne, or the Siege and Conqueste of Jerusalem, tr. Caxton, London, 1893.
Willoughby, W. W., Social Justice, N. Y., 1900.
Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1850, 2v.
Wolfram von Eschenbach, Parzival, tr. Weston, London, 1894, 2v.
Wright, Th., ed., The Book of the Knight of La Tour-Landry, London, 1868.
A History of Domestic Manners and Sentiments in England during the Middle Ages, London, 1902.

Yellin, D., and Abrahams, I., Maimonides, 1903.

Zeitlin, S., Maimonides, N.Y., 1935.
Zimmern, H., The Hansa Towns, N. Y., 1889.

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد وتتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم «الكتاب» أى الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآيه فى القرآن أو الكتاب المقدس

CHAPTER I

1. Ammianus Marcellinus, xxi, 16.
2. Philostorgius, ii, 9, in Cibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, II, 78.
3. Sozomen, *Ecclesiastical History*, ii, 3.
4. Lot, Ferdinand, *End of the Ancient World* 71 ; Bury, J. B., *Histroy of the Later Roman Empire*, 1, 67.
5. *Cambridge Medieval History*, IV, 748.
6. Ibid., 1, 598.
7. Munro and Sellery *Medieval Civilization*, 87, says 30,000: Bury, op. cit, says 70,000.
8. Dudden, F. H., *Gregery the Great*, I, 129.
9. Duchesne, L., *Early Histary of the Christian Church*, II, 127.
10. Socrates, *Ecclesiastical Histary*, i 37-8.
11. Idid., ii, 7 - 11.
12. Boissier, G., *La Fin du paganisme*, I, 68; Duchesne, II, 250
13. Boissier, op. cit., I, 87.
14. Eunapius *Lives of the Sophhists*,
15. Capds, W. W., *University Life in Ancient Athens*, 66.
16. Boissie, I, 178.
17. Wright, W. C., Introd to Eunapius, I, 11.
18. Cf. Inge, W. R., *Philosopby of Plotinus*, I, 11.
19. In Murray, A. S., *History of Greek Sculpture*, I, 96.
20. In Bo'ssier, I, 96.
21. Ammianus, xxii, 5 ; Duchesne. II, 262.
22. Boissier, I, 102.
23. Socrates, iii, 1.
24. Julian, *Letter to the Athenians*, 278D- 280 C : Ammianus, xvi, 11 - 12.
25. Ammianus, xvi, xvi, 53 ; Duchesne, II, 199.
26. Ammianus xviii, 1,
27. Ibid., xvi, 10.
28. Boissier, I, 107.
29. Ammianus, xxv 4.
30. Julian, *Misopogon*, 338B.
31. Socrates, iii, 1;Ammianus,xxii, 4.
32. *Misopogon*, 304B.
33. Ammianus, xvi, 1.
34. Gardner, Alice, *Julian, Philosopher and Emperor 260*.
35. Ammianus, vxii, 7.
36. Eunapius, 477.
37. Julian, Letter 441, in *Works* III.
38. Julian, *To Edicius*, 23, in *Works*, III.
39. Julian, *Against the Galileans*, 89 A-94A, 106DE, 168B, 351D, 238A, 399D.
40. Julian, *To the Cynic Herakleios*, 205 C.
41. Ibid., 217B.
42. Ibid., 237B.
43. Ammianus xxii, 12.
44. Lucalin, *Panegyric* in Boissier, I, 140.
45. Julian, *Letter to a Priest* 305B; *To Arsacius*.
46. Julian *To the High Pries Theodorus*, 16.
47. *Letter to o Priest* 260, D.
48. Ammianus, xxii, 10.

49. Sozomen, v, 5, 18 ;Julian *Works*, III, 41n.
50. In Boissier, I, 922.
51. Julian, Letter 10 ; Boissier, I, 127.
52. Julin, *Misopgon*, 368C.
53. Ammianus, xxii, 13.
54. Sozomen, vi 2.
55. Ammianus, xxv. 3.
56. Milman, H. H., *History of Latin Christianity* I, 112 : Sihler, E G., *From Agustus to Agusutine*, 217.
57 Theoderet iii, 28, in Lecky, W. E H., *History of European Morlas*, II, 261.
58. Duchesne, II, 269.

CHAPTER II

1. Dopsch, A. *Economics and Social Fourdation of European Civilization*. 89.
2. Williamof Malmesbnry, *Chronicle of the Kings of England*, i, 4.
3. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 451.
4. Boissier, II, 180.
5. Rotovizeff, M., *Social and Economic History of the Roman*
6. Dill, S., *Roman Empire*. 297.
7. Jordanes, *Gotbic History*, // 247.
8. In Tbompon. J. W., *Economic and Social History of the Middle, Ages*, 106.
9. Jordanes, // 26; Gibbon; III, 38.
10. Ammianus, iv, 31.
11. Socrates, iv, 31.
12. Broglie, Duc de *St. Ambrose*, 120-4.
13 Gibbon, III, 168.
14. Bury, J. B., *History of the Later Roman Empire* I, 129 ; Gibbon, III, 175.
15. Pirenne, H., *Medieval Cities* 36.
16. Lonis, Paul. *Ancient Rome at Work*, 281.
17. Boissier, I, 417 ; Dill, op. cit, 228, 272.
18. Salvianus, *DeGubernotione Dei*, v, 28, in T., Frank, *Economic Survey of Ancient Rome*, III, 260.
19. Boissier, II, 416.
20. Ibid.
21. Louis, Paul, 295.
22. In Hodgkin, T.; *Italy and Her. Invaders*, I, 428.
23. Augustine, Ep. 232.
24. Salvian, iv 16; vii, *passim*, and excerpts in Heitland, W. E., *Agricola* 423 Boissier II 410, 420, and Bury *Later Román Empire*; 307.
25. In Dill; 56
26. Symmachus. Ep. vi 42 ; ii 46 ; in Dill, 150.
Friedländer, L., *RomanLife and Manners under the Empire*, II, 19 II, 29.
28. Lot, 178 ; Dill 58 ; Friedländer,
29. Ammianus, xiv, 6.
30. Symmachus Ep. iii 43.
31. Ammianus xxii 10.
32. Ibid, xxi, 1 ; Thorndike, L., *History Of Magic and Experiment Science*, I, 285.
33. Ammianus, xvi I.
34 Macrobius, *Opera accedunt integrae* Saturnalia *ad fin*.
35. Ibid., i, 11.
36. Claudian; *Poems*, On the consulate of Stilicho" iii 130.
37 Ibid., 107, 158.
38. Boissier, II, 66.
39. erome, Ep. exxv, 11.
40. Lecky, II, 115.
41. Ibid., 109.
42. Sozomen, vi, 33.
43. Lecky, II, 110; Noldeke, Th., *Sketches from Eastern History*, 212f.
44. Lecky, II. 118.
45. Taylor, H. O., *Clahsical Heritage of Middle Ages*, 78.
46. Ibid ; Glove. T. R., *Life and Letters in the Fouth Century*, 349.
47. In Gibbon, III 76.
48. Socrates, vi, 3.
49. Bury, *Later Roman Empire*, I, 183-9.

50. Socrates, vi, 4-5.
51. In Clapham and Power, 116.
52. McCabe, J., *St. Augustine and His Age*, 228.
53. Ibid., 35.
54. Augustine, *City of God*, ii, 14.
57. *Confession*, v, 8.
58. Encylopaedia Britannica, II, 682,
59. McCabe *Angustime*, 254.
60. Catholic Encylopedia, II, 88; Augngustine, *Letters*, introd., xvi xviii.
61. Augustine, Ep, 86.
62. Ep. 93.
63. Ep. 173.
64. Ep. 204.
65. Eps, 103, 133.
66. *City of God*, v, 9; vi. 22, 27.
67. Sermon 259.
68. Sermon 165.
69. Duchesne, III, 143.
70. Sermon 131.
71. Ep. 181 A.
72. Comment. in Joah. Evang. xxix, 6; Sermon 43.
73. In *Cambridge Medieval History*, I, 581.
74. *De Trinitate*, i, 1.
75. *De vera religione*, xviv, 45.
76. Solil. I. 7.
77. *Confessions*, xiii, 16.
78. *City of God*, iv. 27.
80. *De libero arbitrio*, ii, 16.
81. *De Gen. ad litt*, vii 28; De Wulf. *History of Medieval philosophy*, 1, 118; Catholic Encylodedia, I, 90.
82. In De Wulf, I, 117. *Confessions*, Book xi.
84. De *Trin*.. x, 10.
85. bid, viii, 6; *Confessions*, x, 6.
86. *De bano conjugali*, x; Figgis J. N., *political Aspects of* St *Augustinès City of God*, 76 Lea, H. C., *Sacerdotal Celibacy*, 47.
87. *Confessions*, x, 30.
88. Ibid. vii. 14; x. 6, 22; xiii, 9.
89. *City of God*, vi, 9.
90. Phippians, iii, 20; Ephesians, ii, 19.
91. Figgis, 46.
92. Marcus Aurelius, *Meditations*. iv, 19.
93. *City of God*, xv, I.
94. Ibid., i, 34.
95. Ibid., xix, 7; xx, 9.
96. Boissier, II, 331.
97. Augustine, *Lettres*, p. 38.
98. Comm. on Psalm cxxii.
99. Funk, F.X., *Manual of Church*
100. Frazer, Sir J. G., *Adonis, Attis, Osiris*, 315
101. Ibid., 306.
102. In Boissier, II, 118.
103. Renan, E., *Marc Auréle*, 629.
104. Duchesne, III, 11.
105. Ibid., 16.
106. Ledky, *Morris*, II, 61.
107. Ibid., 72.
108. Ibid., 83.
109. Ibid.
110. Fisher, H.L., *The Medieval Empire*, I, 14.
111. Guignebert, C., *Christianity Past and Present*, 161.
112. Ambrose, Ep. 2, in Boissisr, II,

CHAPTER IV

1. *Cambridge Ancient History*, XII
2. Haverfield, F., *The Roman Occ-upation of Britain*, 220; Home, G., *Roman Britain*, 104.
3. Quennell, M., *Everyday Life in Roman Britain*, 103.
4. Mommsen, Th., *Provinces of the Roman Empire*, I, 211.
5. Bede, *Ecclesiastical History*, v, 24.
6. Gildas, *Chronicle*, xxxiii; *Anglo-Saxon Chronicle*, p. 25.
7. Bede, i, 15; *Anglo-Saxon Chronicle*, 26
8. Collingwood, R. G., and Myres, J., *Roman Britain*, 320.
9. Geoffrey of Monmouth, *British History*, vii-xi.

10. William of Malmesbury, *Chronicle*, 11.
11. Collingwood, 324.
12. Joyce, p. W., *Short History of Ireland*, 77.
13. Hxde, 19.
14. Lecky, *Morals*, II. 253.
15. Joyce, 123.
16. Briffault, R., *The Mothers*, III, 280, quoting De Jubainville, *Le Droit du roi dans l'époche irlandaise*, in *révue archélogique*, XLIII, 332f.
17. Hyde, 71.
18. Ibid., 88.
19. From the seventh-century "Voyage of Brand," in Hyde, 69f.
20. Bede, i, 13 ; Bury, J. B., *Life of St. Patrick*. 54.
21. Duchesne, III, 425.
22. Bury, *Patrick*.
23. Nennius, *History of the Britons*, 11, in Giles, *Six Old English Chronicles*. p. 410.
24. Bury, *Potrick*, 172.
25. Ausonius, *Poems, Commemoratio Professorum Burdigalensium*
26. Waddell, H., *Medival Latin* 32.
27. Ausonius, *Peems, Porentalia*, x.
28. Ibid., Ep. xxii, 23f.
29. Stevens, *Sidonius Apollinaris*, 68-9.
30. Guizot, *History of Civilization*, I, 343.
31. Dill, *Last Century*, 206.
32. Stevens, 134-8.
33. Ibid., 160f.
34. Sidonius Apollinatis, *Pome and. Letters*, Ep. i, 2.
35. In Francke, *K. History, of German Literature*, 10
36. Sidonius in Lacroix, P., *Manners, Customs, and Dress*, 514.
37. Gibbon, IV, 65.
38. Gregory of Tours, viii, 9.
39. Lea, *Superstition and Force*, 318.
40. Sophocles, *Antigone*, 11, 276-7.
41. Gibbon, IV, 70.
42. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 41 ; Dill, *Roman Society in the Merovingian Age*, 47.
43. Salic law xiv and xli, in Ogg, F., *Source Book of Medieval History*, 63-5.
44. Schoenfeld, 40.
45. Brittain, A., *Women of Early Christiamity* 203.
46. Lot 397.
47. Gregory of Tours ii, 37.
48. Ibid.
49. Id., ii, 40.
50. II, 43.
51. V, 132-6 ; 165.
52. Dill, *Merovingian Age*, 279.
53. Gregory of Tours, vii, 178 ; x, 246.
54. Id., iv, 100.
55. Michelet, J., *History of France*, I, 107.
56. Gregory, introd., p. xxii.
57. Gregory, i 5.
58. II prologue.
59. Gregory, intord., p. xxiv.
60. Guizot, *History of Civilization*, I, 58.
61. Lecky, *Morals*, II. 204.
62. Isidore of seville, *Etymologies*. in Brehaur E., *An Encylopedist of the Dark Ages*, 215.
63. Dieulafory, M., *Art in Spain and Portugal*, 45.
64. Mahaffy, J. P., *Old Greek Education*, 52.
65. Thompson, J.W., *Economic History of the Middle Ages*, 120.
66. Cassiodorus, *Letters, of Variae*, ii, 27.
67. Procopius, v. 1.26.
68. This survives only as a crude abbreviation by Jordanes.
69. Milman, I, 433.

70. Ibid., 439.
71. In Cassiodorus, *Variae*, ii, 28.
72. Milman, I, 442.
78. Boethius, *Consolation of Philosophy*, ii, 3.
74. Ibid., 4.
75. Ibid., iii, 10.
76. Procopius, v.1.

CHAPTER V

1. *Justiniani Institutionum Libri quattuor*, Introd., I, 63.
   Procopius, *Buildings*, i, 7.
2. Procopius, *Anecdota*, viii, 24.
4. John Malalas in Bury, *later Roman Empire*, II, 24.
5. Procopius, *Anecdota*, xv, 11.
6. Id., *History of the Wars*, i, 24.
7. Id., *Buildings*, i, 11.
8. Diehl, C, *Byzantine Portraits*,58
9. Procopius, *Anecdota*, xi,
10. ibid., ix, 50.
11. Bury, *Later Roman Empire*, II,29.
12. Procopius, *Anecdota*, xvit, 5.
18. Diehl, *Portraits*, 70.
14. Bouchier, E., *Life and Letters in Romrn Africa*, 107.
15. Procopius, *History of the Wars*, iv, 6.
16. Ibid., vii, 1.
17. Ibid., 5-8.
18. Lot, 267.
19. Gibbon, IV, 359.
20. Lot. 267.
21. *Justiniani Inst.*, Proemium.
22. Cod. I, xiv, 34.
23. Cod. IV, xliii, 21.
24. Cod. XI, xiviii, 21 ; lxix, 4.
25. Bury, *Later Roman Empire*, II, 406 ; Milman, I, 501.
26. Procopius, *History of the Wors*, vii, 32.
27. In Gibbon, V, 43.
28. Procopius, *Buildings*, i, 1.

CHAPTER IV

1. Frank, *Economic Survy of Ancient Rome*, IV, 152.
2. Rostovtzeff, M., *History of the Ancient World*, II, 353-4.
3. Procopius, *History* viii, 17.
4. Lopez, R. S., in *Speculum*, XX, i, 3, 7, 19.
5. Ibid., 10-12.
6. Novella 122 in Bury *Later Roman Empire*, II, 356.
7. Dalton O.M., *Byzantine Art*, 60
8. Bury, 357.
9. Diehl, C., *Manuel d'art Byzantin*, 92-6.
10. Hrocopius, *Anecdota*, xvii, 24.
11. Himes, N, *Medical History of Contraception*, 92-6.
12. Boissier, *La fin du paganisme*, I, 168.
13. Gibbon, I 382.
14. Schueicer, H., *History of World Civilization*, II, 640.
15. Castiglione, A, *History of Medicine*, 252 ; Garrisou, F.H., *History of Medciine*, 132.
16. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*. I. 147
17. O'Leary, E., *Arabic Thought*,53. 53.
18. Himes, 95.
19. Thorndike, I, 584.
20. Huguetine, *Confessions*, vii, 6.
21. Heath, Sir T., *History of Greek Mathematics*, II, 528.
22. Socrates, vii, 15.
23. Lecky, *Morals*, II, 815.
24. Bury, *Later Roman Empire*,I,217.
25. Duchesne, III. 210.
26. Socrares, vii, 15.
27. Gregory Nazianzen, *Panegyric on St. Basil*, in Monroe, P., *Source Book of the History of Educetion for the Greek and Rrman Period* 305.
28. Bury, *Later Roman Empire*,I,877.
29. Diehl, *Manuel*, 218.
03. Higham and Bowra, *Oxford Book of Greek Verse*, 654.
31. Ibid., 665.
32. Socrates, vii, 48.

33. Procopius, *History*, viii,32; v,3.
34. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 350-1; Finlay, G., *Greece under the Romans*, 195.
35. Strzygowski, J., *Origin of Christian Church Art*, 4-6.
36. Procopius, *Buildings*, i, 10.
37. Ibid., i, 1.
38. Ibid.
39. Ibid., i, 8.
40. Dalton, 258.
41. Lot, 143.
42. Diehl, *Manuel*, 249; Dalton, 579; Lot, 146.
43. Boethius, ix.

CHAPTER VII

1. Ammianus, xxii, 6.
2. Ibid.
3. Dhalla, M. N., *Zoroastrian Civilization*, 371.
4. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 29.
5. Procopius, *Persian War*, ix, 19.
6. Bury, *Later Roman Empire*, I, 92.
7. Ammianus, xxiii, 6.
8. Talmud, Berachoth, 8b.
9. Dahlla, 301f.
10. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 188.
11. Macrobius, *Saturnalia*, vii, 1.
12. Gottheil, R. J., *Literature of Persia*, I, 159.
13. Firdousi, *Epic of the Kings*, retold by Helen Zimmern, 191; Sykes, Sir P., *History of Persia*,
14. Gottheil, 166.
15. Dhalla, 377.
16. Ibid., 305.
17. Browne, E.G., *Literary History of Persia*, I, 107.
18. Sarton, G., *Introd to the History of Science*, I, 435.
19. Browne, E.G., *Arabian Medicine*, 23.
20. Dhalla, 364.
21. Ibid., 362.
22. Ibid., 274; Bury, *Later Roman Empire*, I, 91.
23. Rawlinson, G., *Seventh Great Oriental Monarchy*, 686.
24. Bright, W., *Age of the Fathers*, I, 202.
25. Skes, I, 414.
26. Lowie, R.H., *Are We Civilized?*, 37.
27. Pope, A. U., *Survey of Persian Art* I, 755.
28. Dhalla, 356.
29. Pope, 761.
30. Baron, S.W., *Social and Religious History of the Jews*, I, 266.
31. Ammianus, xxiii, 6.
32. Pope, 716.
33. Browne, *Literary History*, I, 127.
34. Ibn Khaldun, *Prolègomènes*, I,80. Rawlinson, 61, attributes this saying to Ardashir I.
35. Eunapius, // 466.
36. *Cambridge Ancient History*, XII, 112.
37. Sykes, I, 408.
38. Rawlinson, 141.
39. Browne, *Literary History*, I, 171 Sykes, I, 449, places this massacre in the early years of Khosru I.
40. Pope, 755.
41. Procopius, *History of the Wars* ii, 9.
42. Nöldeke, Th., *Geschichte der Perser . . . aus Tabari*, 160, in De Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*. I, 92.
43. Rawlinson, 446.
44. Sykes, I, 460.
45. Procopius, *History*, i, 26.
46. Mommsen, *Provinces*, II, 47.
47. Graetz. H., *History of the Jews* III, 18.
48. Sykes, I, 480f.
49. Pope, 524.
50. Creswell, K. A., *Early Muslim Architecuture*, I, 101.
51. Dieulafoy, *Art in Spain*, 13. Ibid., Pope, A. U., *Iranian and Armenian Contributions to the*

Beginnings of Gothic Architecture, 130.

53. Theophylactus Simocatta in Rivoira, G.T., *Moslem Architecture* 114. Herzfeld thought the Ctesiphon palace the work of Shapur. I.
54. Gottheil I, 167.
55. Arnold, Sir T., *Painting in Islam*, 62.
56. Pope, *Survey*, I, 717, Dieulafoy, 21.
57. Ackerman, P., in *Bulletin of the Iranian Institute*, Dec., 1946, p. 42.
58. Pope, A. U., *Introd. to Persian Art*, 144, 168.
59. Sykes, I, 465.
60. Pope, A. U., *Masterpieces of Persian Art*, 182.
61. Pope, *Introd.*, 64.
62. Fenollosa, E., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, I, 21.
63. Riefstahl, R. M., *The Parish-Waston Collection of Mohammedan Potteries*, p. viii, Pope, *Survey*, I, 779, Lot, 141.
64. Sir Percy Sykes in Hammerton, J. A., *Universal History of the World*, IV, 2318.
65. Examples in Sarre, F., *Die Kunst des alten Persien*, 134.
66. Pope, *Introd.*, 100.
67. Pope, *Survey*, I, 775.
68. Dhalla, 278.
69. Sykes, I, 490.
70. Browne, *Literary History*, I, 194.
71. Sykes, I, 490.
72. Ibid., 498.

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

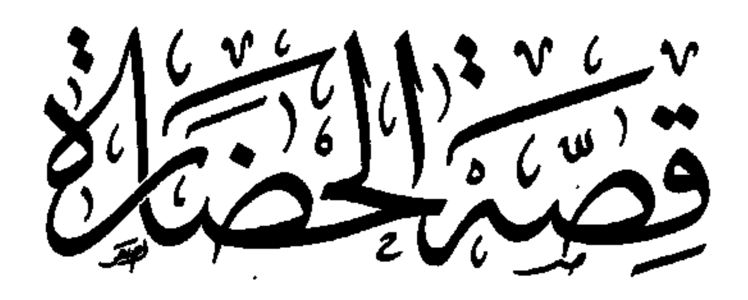
(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الرابع



(١٣)



تونس



بيروت

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

٥٦٩ – ١٢٥٨

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة
فى الكتاب الثانى

٥٧٠ – ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليه وسلم)
٦١٠ : الوحى .
٦٢٢ : هجرة النبى إلى المدينة .
٦٣٠ : فتح مكة .
٦٣٢ – ٦٣٤ : خلافة أبى بكر .
٦٣٤ – ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .
٦٣٥ : استيلاء المسلمين على دمشق .
٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن .
٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر
٦٤١ : إنشاء الفسطاط .
٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو فى الفسطاط .
٦٤٤ – ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .
٦٥٦ – ٦٦٠ : خلافة على بن أبى طالب
٦٦٠ – ٦٨٠ : خلافة معاوية بن أبى سفيان .
٦٦٠ – ٧٥٠ : الخلافة الأموية فى دمشق .
٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية فى الشام .
٦٨٠ : مقتل الحسين فى كربلاء
٦٨٠ – ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول .
٦٨٧ – ٦٨٤ : خلافة معاوية الثانى .
٦٨٥ – ٧٠٥ : خلافة عبد الملك ابن مروان .

٦٩١ – ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى بيت المقدس
٦٩٣ – ٨٦٢ : حكم المسلمين فى أرمينية
٦٩٨ : استيلاء المسلمين على قرطاجنة .
٧٠٥ – ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .
٧٠٥ وما بعدها – بناء الجامع العظيم فى دمشق
٧١١ : دخول المسلمين أسپانيا
٧١٥ – ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .
٧١٧ – ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز
٧٢٠ – ٧٢٤ : خلافة يزيد الثانى .
٧٢٤ – ٧٤٣ : خلافة هشام بن عبد الملك .
٧٣١ : واقعة تور وارتداد المسلمين .
٧٤٣ – ٧٤٤ : خلافة الوليد الثانى .
٧٥٠ : أبو العباس السفاح يؤسس الدولة العباسية
٧٥٤ – ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ بغداد عاصمة .
٧٥٥ – ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير قرطبة .
٧٥٧ – ٨٤٧ : فلاسفة المعتزلة .
٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعلية
٧٧٥ – ٧٨٦ : خلافة المهدى .
٧٨٦ : الجامع الأزرق فى قرطبة

٧٨٦ — ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .
٧٨٩ — ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة فى فاس .
٨٠٣ : نكبة البرامكة .
٨٠٣ وما بعدها : الكندى الفيلسوف .
٨٠٨ — ٩٠٩ : بنو الأغلب فى القيروان
٨٠٩ — ٨١٠ : استيلاء المسلمين على ورسقة وسردانية .
٨٠٩ — ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .
٨١٣ — ٨٣٣ : خلافة المأمون .
٨٢٠ — ٨٧٢ : بنو طاهر فى فارس .
٨٢٢ — ٨٥٢ : عبد الرحمن الثانى أمير قرطبة .
٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على صقلية .
٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة فى بغداد .
٨٣٠ : وضع الخوارزمى علم الجبر
٨٤٤ — ٩٢٦ : الرازى ، الطبيب .
٨٤٦ : هجوم المسلمين على رومة .
٨٧٠ — ٩٥٠ : الفارابى ، الفيلسوف .
٨٧٢ — ٩٠٣ : الصفاريون فى فارس .
٨٧٣ — ٩٣٥ : الأشعرى الفقية .
٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون فى القطائع
٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية فى القيروان .
٩١٢ — ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة فى قرطبة .
٩١٥ وما بعدها : الطبرى المؤرخ .
٩١٥ — ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

٩٣٤ — ١٠٢٠ : الفردوسى الشاعر .
٩٤٠ — ٩٩٨ : أبو الوفا العالم الرياضى .
٩٤٥ — ١٠٥٨ : سيادة بنى بويه على بغداد .
٩٥١ : وفاة المسعودى الجغرافى .
٩٥٢ — ٩٧٧ : أشوط الثالث : عصر أرمينية الذهبى
٩٩٠ — ١٠٢٠ : كاجيك الأول فى العصور الوسطى .
٩٦١ — ٩٧٦ : خلافة الحكم فى قرطبة .
٩٦٥ — ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم فى الطبيعة .
٩٦٧ — ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر الصوفى .
٩٩٩ — ١١٧١ : الأسرة الفاطمية فى مصر .
٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر فى القاهرة .
٩٧٣ — ١٠٤٨ : البيرونى ، العالم .
٩٧٣ — ١٠٥٨ : المعرى ، الشاعر .
٩٧٦ — ١٠١٠ : خلافة هشام فى قرطبة .
٩٧٨ — ١٠٠٢ : المنصور الوزير فى قرطبة .
٩٨٠ — ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف
٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .
٩٩٠ — ١٠١٢ : بناء جامع الحاكم فى القاهرة .
٩٩٨ — ١٠٣٠ : السلطان محمود الغزنوى .
١٠١٢ : ثورة البربر فى قرطبة
١٠١٧ — ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك
١٠٣١ : خاتمة الخلافة فى قرطبة

١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يغزون بلاد الشام .
١٠٣٨ — ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام .
١٠٤٠ — ١٠٩٥ : المعتمد الأمير والشاعر .
١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة على بغداد .
١٠٥٨ — ١١١١ : الإمام الغزالى .
١٠٥٩ — ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان فى بغداد .
١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة على أرمينية .
١٠٦٣ — ١٠٧٢ : السلطان ألب أرسلان .
١٠٧١ : الأتراك يهزمون اليونان فى ملازكرت
١٠٧٢ — ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه
١٠٧٧ — ١٣٢٧ : سلطنة الروم فى آسية الصغرى .
١٠٨٨ وما بعدها : المسجد الجامع فى إصفهان .
١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين
١٠٩٠ — ١١٤٧ : أسرة المرابطين فى الأندلس .
١٠٩١ — ١١٦٢ : ابن زهر الطبيب .
١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين على بيت المقدس .
١١٠٠ — ١٠٦٦ : الإدريسى الجغرافى
١١٠٦ وما بعدها : محمد ابن باجة الفيلسوف .
١١٠٧ — ١١٨٥ : ابن طفيل الفيلسوف
١١١٧ — ١١٥١ : سنجر سلطان السلاجقة .
١١٢٦ — ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف
١١٣٠ — ١٢٦٩ : أسرة الموحدين فى مراكش .
١١٣٨ — ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبى

١١٤٨ — ١٢٤٨ : أسرة الموحدين فى أسبانيا .
١١٦٢ — ١٢٢٧ : جنكيز خان .
١١٧٥ — ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية .
١١٧٩ — ١٢٢٠ : ياقوت الجغرافى .
١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية .
١١٤٨ — ١٢٩١ : السعدى ، الشاعر .
١١٨٧ : صلاح الدين يهزم الصليبيين فى حطين ويستولى على بيت المقدس .
١١٨٨ : مجد النظامى الشاعر
١٢٩٦ : برج الخرلدة فى أشبيلية .
١٢٠١ — ١٢٧٣ : جلال الدين الرومى ، الشاعر .
١٢١١ — ١٢٨٢ : ابن خلكان كاتب السير .
١٢١٢ : المسيحيون يهزمون المسلمين فى واقعة العقاب عند طليطلة
١٢١٨ — ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان مصر .
١٢١٩ : جنكيز خان يغزو ما وراء جيحون .
١٢٤٠ : استيلاء المغول على بيت المقدس .
١٢٤٨ وما بعدها : قصر الحمراء .
١٢٥٠ — ١٥١٧ : حكم المماليك فى مصر
١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس فى غرناطة
١٢٥٨ : المغول ينهبون بغداد ويقضون على الخلافة العباسية .
١٢٦٠ : المماليك يصدون المغول فى واقعة عين جالوت .
١٢٦٠ — ١٢٧٧ : بيبرس سلطان المماليك

الباب الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥٧٠ – ٦٣٢

الفصل الأول

جزيرة العرب(*)

توفى جستنيان فى عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) فى أسرة فقيرة فى إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

(*) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين فى العصر الحديث لمن أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء فى القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان فى ذلك القرن يعد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف فى أعوام ١٧٦١ – ١٧٦٤ حين اخترق كارستن نايبهر Carsten Neibehr شبه الجزيرة برعاية حكومة الدنمرقة . وكان كتابه الذى نشره فى عام ١٧٧٢ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفى عام ١٨٠٧ تزيى دمنجو باديا أى ليبلتش Domingo Badia Y. Leblich الأسبانى بزى المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسك الحج . وفى عام ١٨١٤ – ١٨١٥ قضى جوهان لدفج بيركهاردت John Ludwig Burckhardt ، وهو رجل سويسرى تزيى بزى المسلمين ، عدة أشهر فى مكة والمدينة وقد أيد الرحالة الذين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء فى تقاريره الوافية من معلومات كثيرة . وفى عام ١٨٥٣ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن Richard Burton وهو رجل إنجليزى تزيى بزى حاج أفغانى ، ثم وصف رحلته الشاقة الخطرة فى مجلدين ممتعين .

وفى عام ١٨٦٩ – ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفيى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع ممالك المعينيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجده فى تلك المواضع من نقوش على الصخور .

وفى عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتجيو دوتن Charles Montague Doughton الإنجليزى من دمشق مع قافلة الحجاج ونشر ما وقع له فى كتابه بلاد العرب الصحراوية . –

مجدية قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لاتكاد تكفى إنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضى قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية فى آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالى أفريقية ، وساروا فى طريقهم إلى أسبانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذى تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذى أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد فى ربوعه ، لهـــو أعجب الظواهر الاجتماعية فى العصور الوسطى .

وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر فى العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عروضها ١٢٥٠ ميلا ، وهى من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوى الرملى الذى يمتد إلى صحراء جوبى مخترقا بلاد الفرس : ومعنى « عرب » قحل(*) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢٫٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا فى أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسى . وفى وسط الجزيرة عدد من الواحات الكلئة ، والقرى ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال فى جميع الجهات . ويسقط الثلج فى تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣° ، أما شمس النهار فتلفح الوجوه وتغلى الدم فى العروق ، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال ،

— Arabia Deserta (١٨٨٨) التى يعد من روائع النثر الإنجليزى .

وفيما بين ١٨٨٢ — ١٨٨٨ قام ا . جلازر E. Glaser النمساوى بثلاث رحلات شاقة خطرة فى قلب الجزيرة نقل فى خلالها ١٠٣٢ نقشا هى الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد العرب قبل الاسلام .

(*) ورد فى القاموس المحيط : تعرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله إن عرب معناه قحل (المترجم) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر » وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء « يشبه النبيذ البراق » » ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربى فى بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفى الطرف الجنوبى الغربى من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلى (يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٤٠٠ ق م) : هزيمة لحقت بملك ماجان(*) على يد نارام سن الحاكم البابلى : وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التى كانت قائمة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب . وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق . م . وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق . م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد فى هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هى مملكة سبأ فى بلاد اليمن . ومن سبأ أو من مستعمراتها فى القسم الشمالى من بلاد العرب — لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين — « ذهبت » ملكة سبأ إلى سليمان حوالى عام ٩٥٠ ق . م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسدود مأرب (التى لا تزال آثارها باقية إلى الآن) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية ، واتخذوا الدين وسيلة للحكم(٢) . والنقوش التى خلفوها — والتى لا ترجع فى أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق . م — منحوتة نحتا جميلا بحروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما شأن أيما شأن فى الشعائر الدينية الأسيوية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبى

(*) لعل ماجان التى وردت فى النقوش البابلية هى بعينها معين التى تنتسب إلى المملكة المعينية والتى اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعنى ينبوع . (المترجم) .

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة . وحدث حوالى عام ١١٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى فى الجنوب الغربى من بلاد العرب هى مملكة الحميريين ، فهاجمت مملكة سبأ ، وغلبتها على أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون ؛ وفى عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة المتبادلة بين مصر والهند فسير جيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء على مأرب. وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض، وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح فى الاستيلاء على عدن ، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة. (وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه فى الوقت الحاضر) .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر . واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج ، كما أدخلوا فيها كثيراً من الدم السامى(*) . وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية الدين المسيحى والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب(٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة تقر بالسيادة للنجاشى(**) .

(*) يطلق اسم الساميين على الشعوب التى تنتسب إلى سام بن نوح ما هو وارد فى سفر التكوين (١٠ : ١) . وليس فى استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هى هذه الشعوب السامية ، ولكنا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض النهرين ، وبلاد العرب ، والسكان العرب فى أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات سامية ، كما نستطيع أن نسمى السكان الأقدمين فى آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس : وأهل فارس ، وشمال الهند ، ومعظم أوربا وجميع سكان أمريكا اللهن من أصل أوربى « هندوربيين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

(**) جبن Gibbon اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها Decline aud Fall of the Roman Empire طبعة Everman's Library المجلد الرابع ص ٣٢٢ . ولقد كان من مفاخر جبن أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه السياسى كتابة تنم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطعى النظير .

هذا فى الحبشة أما فى بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذى نواس ، واعتنقوا الدين اليهودى ، واندفع ذونواس فى حماسته الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، فاستغاث هؤلاء ببنى دينهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين (٥٢٢ م) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردوا الأحباش ، وأقاموا فى بلاد اليمن حكما فارسيا (٥٧٥) انتهى بعد ستين عاما أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهرت بعض الممالك العربية الصغرى فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة ، ولكنها لم تدم طويلا . فقد ظل مشايخ بنى غسان يحكمون الجزء الشمالى الغربى والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية . وأنشأ ملوك بنى لخم فى الحيرة القريبة من بابل فى هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسى ، وتثقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاهات وشعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالا فى سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسى السائد فى بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى فى الجنوب والشمال ، هو النظام البدائى الذى يقوم على رابطة القرابة والذى تجتمع الأسر بمقتضاه فى عشائر وقبائل . بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلى . وكانت القبيلة تسمى باسم أب لها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلا كانوا يعتقدون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبى إلا فى مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين فى شبه الجزيرة باسم السركنوى Sarakenoi ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزى Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً فى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تتناسب تناسباً عكسيا مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو « عنصره » ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويموت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد بثرائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال فى القرى ينتزعون بعض الحب والخضر من التربة الضنينة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الجياد الكريمة ، ولكنهم كانوا يجدون أن زراعة بساتين النخل ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعني بزراعة النباتات العطرة كالكندر ، والسعتر ، والياسمين ، والخزامى ، وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المر أو البلسم . وربما كان جزء من اثنى عشر جزءاً من السكان يعيشون فى المدن القائمة على الساحل الغربى أو بالقرب منه . وكان فى هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر . وفى داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م ، وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدما عن الاتجار مع مصر . وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى ، وكان

يجتمع فى سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين. والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاهرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلا ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . والبدوى يحب الخيل ، ولكن الجمل أعز أصدقائه فى الصحراء ، فهو يسير ويهتز فى وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال فى الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصبر على الماء خمسة أيام طوال فى الصيف ، وخمسة وعشرين يوما فى الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الجمل مفيد فى تقوية الشعر(*) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقودا ، وإذا ذبح أكل لحمه ، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . وبهذه المقومات المختلفة الأنواع كان فى وسع البدوى أن يواجه حياة الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، فى وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللبن ، وكان يستخرج من البلح نفسه خمرا يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء . وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب ، وكان يسرع كما يسرع الأسبانى (الذى ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضى جزءا كبيراً من حياته فى الحرب التى تستعر نارها بين القبائل المختلفة ، ولما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه فى غارات النهب التى كان يشنها فى أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض فى هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما فى غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

(*) يقول دوتى Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات » . . . ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها فى غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدى له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن نهب أموال هذا المعتدى ليس إلا ضريبة تجبى منه بأهون السبل . وكان يحتقر حياة الحضر ، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حريته ، وكان البدوى رحيما وسفاكا للدماء ، كريماً وبخيلا ، غادرا وأمينا ، حذرا وشجاعا ، ومهما يكن فقره ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوى أمر لا يقبل فيه جدلا ، ذلك هو جمال نسائه الذى لا يدانيه فى نظره جمال . لقد كان جمالا أسمر ، قويا ، يفتن اللب ، خليقا بأن يتغزل فيه بعشرات المئات من الأغانى الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوى فى جو الصحراء القائظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبى تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكدح طوال ما بقى من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلا(*) . وكان فى وسع أبيها أن يئدها حين مولدها إذا رغب فى هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلا من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأى شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدى للعروس ثمنها(**) . وكان حبيبها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

(*) سنجد فى فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسلام فى رفع منزلة المرأة إلى درجة لم تسم إليها فى كثير من البلدان ؛ وسيذكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاتى كان لهن أعظم شأن فى الحياة العامة العلمية والسياسية والاجتماعية . (المترجم) .

(**) يريد مهرها .

هؤلاء العشاق المتيمين إلى إسبانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجبها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن فى كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان فى وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتنها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربى قبل الإسلام أميا ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيل والنساء والخمر . ولم يكن بين العرب فى الجاهلية علماء أو مؤرخون(*) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة فى تصريفها ، غنية بمفرداتها ، دقيقة فى الفروق بين ألفاظها ، قادرة فى ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بقدم لغتهم وكمالها ، يولعون بترديد مقاطعها العذبة فى خطبهم الرنانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم فى القرى والمدن ، وفى مخيمات الصحراء أو الأسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم فى الحب أو الحرب فى قصائد طوال من الشعر الموزون المقفى . وكان الشاعر العربى مؤرخ العرب ، وجامع أنسابهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعيهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر جائزة فى إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التى كانت تعقد من آن إلى

(*) من الحق أن العرب فى جاهليتهم لم يعنوا بالعلوم كما عنى بها غيرهم من الأمم كأهل مصر والهند والفرس واليونان ، ولكن كان منهم من عنى بنوع من العلوم الضرورية كالطب المبنى على التجربة وأحوال الكواكب والنجوم . (ى)

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج. وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام فى سوق عكاظ ، حيث كانت تتنافس القبائل فى كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها . ولم يكن فى السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التى تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له(*) . وكانت أحسن القصائد التى تقال فى هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمذهبات » ، وكان يحتفظ بها فى خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيما . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها — كما تقول القصص المتواترة — قد كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة فى مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التى قيلت فى الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى ، وهى قصائد طوال من الشعر المقفى المعقد الأوزان ، وموضوعها فى العادة هو الحب أو الحرب. وتقص إحداها وهى معلقة لبيد قصة جندى عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرته الزوجة مع رجل غيره ؛ ويصف لبيد منظر هـذا البيت الخالى بحنان لا يقل عن حنان جولدسميث(**) . ويزيد عليه فى فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفى معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الديار
ضرباً بكل بتـار
نحن بنات طارق لا نثنى لوامق

(*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا مجنة وذو المجاز وكان فيها أحياناً محكمون من ذوى المكانة . (المترجم)

(**) آثرنا أن نبقى هذا التعبير كما هو ، وإن كان لا يقرب المعنى لقارئ العربى ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمتين مختلفتين وهى فى رأينا مفاضلة فيها كثير من الفائدة . (المترجم)

نمشى على النمارق	المسك فى المفارق
والدر فى المخانق	إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق	أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق(*)

وفى معلقة لامرئ القيس أبيات تنم عن حب شهوانى سافر :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا	على حراصا لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت	تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة	وما أن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا	على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى	بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فمايلت	على هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى	بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش	إذا هى نضته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم	أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا	تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل مخصر	وساق كأنبوب السقى المذلل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها	نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
وتعطو برخص غير شثن كأنه	أساريع ظبي أو مساويك أسحل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها	منارة ممسى راهب متبتل

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ليس من المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة تحرض قومها على القتال فى يوم أحد . (المترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى فى صورة واحدة . وكان الناى ، والمزهر ، والدف أحب الآلات الموسيقية إليهم ، وكثيرا ما كانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسلية الأضياف فى الولائم ، وكان فى مجال الشراب عدد منهن ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهم متاعب الملك ؛ ولما خرج أهل مكة لقتال النبى فى عام ٦٢٤ أخذوا معهم سربا من القيان ليسلينهم ويشجعنهم على القتال ، وكانت الأغانى العربية حتى فى أيام الجاهلية أناشيد مشجية حزينة ، لا تستخدم فيها إلا ألفاظ قليلة نغمتها على الدوام فى الدرجات العليا من السلم الموسيقى ، وتكفى فيها أبيات قليلة لتشغل المغنى ساعة كاملة .

وكان للعربى ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بداثيته ؛ فكان يهاب ويعبد أربابا لا حصر لها فى النجوم ، والقمر ، وفى أطباق الأرض ؛ وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة ، ولكنه لم يكن فى الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجن المحيطين به ، ولا يرى أملا فى استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجبرية والاستسلام ، فإذا دعاهم دعاهم فى رجولة ولم يطل الدعاء ؛ ويستهزئ بالأبدية ولا يعبأ بها ؛ ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيراً فى الحياة بعد الموت ، على أنه كان فى بعض الأحيان يطلب أن يربط جمله بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل فى الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه فى الجنة ، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كما كان فى بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام ؛ ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة فى موضعها الذى قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلك أن الجبال الجرداء التى تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لا يطاق . وكان الوادى الذى تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد فى البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها فى منتصف ساحل البلاد الغربى ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التى تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض ، والتى كانت تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزى Cube (مكعب)(*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات ، فقد بناها فى فجر التاريخ ملائكة السماء ، وبناها فى المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفى المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها فى المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر . . . وبناها فى المرة السابعة قصى زعيم قبيلة قريش ، وبناها فى المرة الثامنة كبار قريش فى حياة محمد (٦٠٥) ، وبناها المرتين التاسعة والعاشرة زعماء المسلمين عامى ٦٨١ و٦٩٦ . والكعبة كما بنيت فى المرة العاشرة هى كعبة هذه الأيام فى معظم أجزائها . وهى مقامة فى داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهى بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفى ركنها الجنوبى الشرقى ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قاتم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء — ولعله كان صاعقة ؛ ويقول معظمهم

(*) فى المحيط الكعبة البيت الحرام زاده الله تشريفاً وكل بيت مربع . (المترجم)

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذى نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش : ويؤيدون قولهم هذا بما جاء فى المزمور الثامن عشر بعد المائة فى الآيتين ٢٢ و٢٣ « الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية » ، وفى الآيتين ٤٢ و٤٣ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن فى وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح(*) .

وكان فى الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب . منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفى وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللاَّت) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمرة الأولى من نتاج قطعانهم . وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية . وكانت أقلية أرستقراطية منهم هم بنو قصى يتولون زمام الحكومة المدنية فى مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الخير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

(*) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من التسامح والرحمة فإن التاريخ لا يعرف كالمسلمين فى تراحمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والخلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة فى الدين الإسلامى ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم فى تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفى هاشم خلفه فى زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب — وفى عام ٥٦٨ تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهى أيضاً من قصى ، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها فى بعثة تجارية ، ومات فى المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (٥٦٩) ولدت آمنة أعظم شخصية فى تاريخ العصور الوسطى(*) .

(*) وفى التاريخ كله .

الفصل الثانى

محمد فى مكة

٥٦٩ — ٦٢٢

[نكرر هنا ما ذكرناه فى مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التى يتحدث فيها المؤلف عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامى كما أوردها حرصاً منا على الأمانة فى الترجمة من جهة ولكى يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولا يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبى وتمجيد للإسلام يصح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤلف لا يعنى مطلقاً أننا نوافقه عليها . وقد ذكر وهو مسيحى فى كلامه على المسيحية ما لا يوافقه عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافقه عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا يغفل القراء التعليقات التى أثبتناها فى هوامش هذه الفصول] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته فى طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات فى التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو فى السادسة من عمره وكفله أولا جده وكان وقتئذ فى السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقى منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب فى ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن فى قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرءون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجىء بأشهر(*) وأبلغ كتاب

(*) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل من عند الله . (المترجم)

فى اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرق الناس تعليماً .

ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو فى الثانية عشرة من عمره فى قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعيد أن يكون قد عرف فى هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى فى تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية ، ثم نراه فى الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهى وقتئذ فى الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب فى ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً فى حالتهما . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كما رزق بولدين توفيا فى طفولتهما . وقد وجد سلواه فى تبنى(*) على بن أبى طالب الذى مات عنه والده . وكانت خديجة سيدة طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد فى صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نسائه كلهن .

ويصف على زوج فاطمة محمداً وهو فى سن الخامسة والأربعين بقوله :

لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط ، كان جعداً رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

(*) لم يكن هذا تبنيا بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى عليا وكفله فى تربيته تخفيفا عن أبيه فى الأزمة الشديدة التى أصابت قريشا — راجع سيرة بن هشام .
(المترجم)

المشربة ، أجود شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفت التفت معا ، . . . . أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته «لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم» .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلا ، قادرا على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالا إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله(*) ، ولكنه كان يعرف متى يهدئ من انفعاله ، وكان فى وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب .

وكان فى بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل فى مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذى كان مطلعا على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة . وكثيرا ما كان محمد يزور المدينة التى مات فيها والده ، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما فى دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكلتيهما كتابا مقدسا تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقى ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسى ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

(*) كان النبى يغضب أحياناً لله ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يتهيج لأن التهيج صفة لا تليق بمصلح فضلا عن رسول الله رب العالمين وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ويقول عنه «وإنك لعلى خلق عظيم» و «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» . (ى)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين جديد ، لعله أحس بالحاجة إلى دين يؤلف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لاينازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » فى بلاد العرب فى بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التى يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجىء رسول من عند الله »

وكانت فى البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين(*) .

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح فى دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكا فى شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان(**) — وهو من الأشهر الحرم — آوى وحده أو جمع أسرته فى بعض الأحيان إلى غار فى جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالى فى الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبينما هو فى ذلك الكهف بمفرده فى ليلة من ليالى عام ٦١٠ م . إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذى يدور

(*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمر بن نفيل ، وكانوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشىء فتفرقوا فى البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ى)

(**) الذى فى سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور فى حراء من كل سنة شهرا » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان فى السنة التى بعث فيها صلى الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق اشهر من كتب سيرة النبي إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : أقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ .فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ؟ فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : أقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى.، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبي(*) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحى صادق من السماء ، وشجعته على أن يعلن للناس رسالته .

وتكرر الوحى بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ما كان يحدث فى أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصبب العرق من جبينه ، وحتى الجمل الذى كان يركبه كان يتأثر ويضطرب فى مشيه . وقد قال محمد فيما بعد إن مشيه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحى قال : إن القرآن كله محفوظ فى السماء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

(*) راجع ابن هشام (ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها) حيث يروى الحادث كله .
(المترجم)

على لسان جبريل ، وإذا سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال : إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة(*) . ولم يكن المحيطون بالنبي فى هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه فى بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عض فى خلالها لسانه أو حدث ارتخاء فى عضلاته كما يحدث عادة فى نوبات الصرع . وليس فى تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التى يؤدى إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة فى الجسم والروح والزعامة ، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أنا لا نجد دليلا قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع . ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أى مسلم متمسك بدينه(**) .

وأخذ محمد فى خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبى الله

(*) فى صحيحى البخارى ومسلم ذكر لبدء الوحى إلى الرسول وبيان لكيفيته ، ويروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ليتابع جبريل فأنزل الله تعالى قوله «لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه» ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحى استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل .

راجع التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدى ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٢٥ هـ ، ج ١ ص ٤ — ٦ ، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقى طبع دار إحياء الكتب العربية الحلبى بمصر سنة ١٩٤٩ م ، ج ١ ص ٣٥ — ٣٨ .

(**) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النبى كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحى ، وإنما الأمر أنه كان يكون فى حالة إجهاد عقلى وجسمى ، والله تعالى يقول فى سورة الحشر «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله» . (ى)

المبعوث لهداية العرب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى فى سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلا ، وأن محمداً كان يعيش فى مجتمع تجارى متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يفدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعِد به المؤمنون من النجاة فى الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة . وكان محمد يستقبل فى داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحماسته وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسالته زوجته المسنة السيدة خديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه على ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية فى قريش . واعتنق الدين الجديد بتأثير أبى بكر خمسة من زعماء مكة(*) ، كونوا معه «صحابة» محمد الستة . وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية فى الدين الإسلامى . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد(*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالا وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طبيب يرجى أن يشفيه من جنونه ، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التى يقومون بها فى الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن

(*) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥) . أما أصحاب الرسول الذين أخذت عنهم سنته فليسوا هؤلاء الخمسة مع أبى بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . (ى)

(*) كان الرسول يتعرض للوافدين إلى مكة للحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . (ى)

مورد رزقهم (*) ، وكادوا يوقعون به أذى جسيما لولا أن حماه منهم عمه أبوطالب . ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد ، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمى كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان فى وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلا بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم فى السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالا إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس . ومنعوا عنهم الماء (**) وكان أبوبكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ؛ فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥٠٠٠ منها فى تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويسّر محمد الأمر بقوله إن المرتد المكره لاعقاب عليه (+). وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل فى الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة حداً لم يسمع النبى معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحى وأكرم وفادتهم (٦١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن فى تاريخ

(*) كانوا يدفعون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمه أبى طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا أو أن تخلى بيننا وبينه » سيرة بن هشام جزءا : ١٧٠ . (ى)

(**) يقول ابن إسحق فى سيرته « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم (جـ ١ ص ٢٠٢)

(+) عملا بقوله تعالى فى سورة النحل الآية ١٠٦ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس فى تاريخ المسيحية . تلك هى اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدهم عنفاً فى مناهضته . وكان عمر رجلا قوى الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير . وبعث إسلامه الثقة فى قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهى ثقة ما كان أحوجهم إليها فى ذلك الوقت كما كان سبباً فى دخول كثيرين من العرب فى الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة فى الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سراً فى بيوتهم . واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بنى هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزل فى مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسوهم بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة فى مكة ، ولكن ثلاثة خطوب ألمت بمحمد فى عام ٦١٩ ، فقد توفيت فى ذلك العام السيدة خديجه أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذى كان ينصره ويدافع عنه . وأحس محمد أنه لا يأمن على نفسه فى مكة ، وآلمه بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠) ، وهى بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلا إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يغضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد فى الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقيه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعى سودة(*) ، ثم خطب وهو فى سن الخمسين عائشة بنت أبى بكر وكانت

(*) هى سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

وقتئذ فتاة حسناء فى السابعة من العمر(*) :

ولم ينقطع عنه الوحى فى هذه الأثناء ، وخيل إليه فى ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى فى انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُراق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبى نفسه بمعجزة أخرى آمنا فى فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين(**) :

وفى عام ٦٢٠ أخذ محمد يبث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورحب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفى عام ٦٢٢ أقبل على محمد فى مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلا من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدهم واتخاذها موطنا له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوه عما يجزون به إذا قتلوا فى أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة :

وفى ذلك الوقت أصبح أبو سفيان حفيد أمية زعيم قريش فى مكة ، وكان قد نشأ فى جو من الكراهية لبنى هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

(*) تزوج الرسول عائشة رضى الله عنها بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ، وفى البخارى أنه تزوجها وهى بنت ست ثم بنى بها وهى بنت تسع . (ى)

(**) عنى المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج فنهم من يقول إن الإسراء كان بجسده وروحه ومنهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ى)

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة ، وخشي أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة . وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبي بكر لهما بجملين (*) فركباهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي ، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٦٢٢ ، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي .

(*) في حديث الهجرة لا نرى ذكرا صريحا لأبناء أبي بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتين ليركباها في هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشترى راحلتين ويعدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أسماء بنت أبي بكر تقدم لهما طعاما في جراب تربطه بقطعة من نطاقها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبي بكر في قريش بالنهار يسمع ما يقولون في شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيهما في المساء ليخبرهما الخبر . (ى)

الفصل الثالث

محمد فى المدينة

٦٢٢ — ٦٣٠

تقع يثرب ، التى سميت فيما بعد « مدينة النبى » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة فى أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية ، وكان جوابه غاية فى حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلا إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذى يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف . وبنى محمد فى المكان الذى وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلات القرابة ، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلات الدم صلات الأخوة الدينية فى الدولة الجديدة ، كما أراد أن يقضى على أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة — وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت فى ذلك الوقت — فآخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيها أن تصلى فى المسجد مع أختها . وفى أول احتفال أقيم فى المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمى الدين الجديد بالإسلام أى « الاستسلام » و « السلم » ، وسمى أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة فى الصلاة سواء كانوا فى مسجد ، أو ضاربين فى الصحراء ، أو فى بلد غريب لا مسجد فيه . وتنتهى(*) الصلاة بخطبة كانت فى زمن النبى خبراً عن وحى وتوجيها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبى كان ينشئ حكومة مدنية فى المدينة ، واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشئون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشئون كلها فى يد الزعيم الدينى كما كانت الحال عند اليهود .

فكان محمد فى المدينة الرسول الدينى والحاكم السياسى جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحريتهم ، وأنه كان يزج بهم فى الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش فى مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة ، وبنو الحارث ، وبنو جشم ،

(*) الصحيح أن الخطبة تكون قبل الصلاة أيام الجمع وبعدها أيام العيدين ، وفى غير الجمع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ى)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(*) :

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود فى المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفى أهلها من الطعام : وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينــــة ، متبعاً فى ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية فى ذلك الوقت(**) : فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقى للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد فى هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخذوا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت فى آخر يوم من شهر رجب أحد

(*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام فى سيرته على طوله . (ى)

(**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملا يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رحل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفي عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة . وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها ، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلا جنوبي المدينة . ولو أن محمداً هزم في هذه الغزوة لقضى عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأنذر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورثائهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب. من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجته في شعرها فتسلل عمير ، وهو مسلم ضرير إلى بيتها وطعنها وهي نائمة بسيفه في صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفي اليوم التالي سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابه ، يا رسول الله إني قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله ياعمير» ، فقال عمير : «هل على شيء من شأنها يارسول الله ؟» فأجابه بقوله إن هذا أمر «لا ينتطح فيه عنزان» . ومنها أن رجلا ممن اعتنقوا الدين اليهودي يدعى أبا عفك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيبه بنسائهم ، فقال النبي « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هى إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام(*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذى بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشر به آباؤهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان(**) . وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينا هى جالسة

(*) هى عصماء بنت مروان وقاتلها عمير بن عدى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصماء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتحرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » .

وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدوا لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسموع الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقى المسلمون أذى كثيراً من غدر اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخل فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو معروف . (ى)

(**) وفى ذلك نزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

فى حانوت صائغ إذ شبك يهودى خبيث قيصها من وراء ظهرها فى أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بنى قينقاع فى حيهم خمسة عشر يوما ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم فى ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبى سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملا قبل أن يقدم على قتال محمد . وفى أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبى سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة ودعوتهن إياهم إلى الانتقام » .

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون فى هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل فى المعركة حمزة عم النبى ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبى سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعا فى غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أباها ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتصراً إلى مكة(*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شفى النبى واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشا على

(*) الذى تذكره كتب السيرة « أن قريشاً خرجوا معهم بالظعن (أى نسائهم) التماساً الحفيظة وألا يفروا » (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر ومن بينهن زوجة أبى سفيان لا زوجاته وهى هند بنت عتبة ، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهيأ للقتال فى سبعمائة رجل فقط (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩) : (ى)

المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه : وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقي منها على المهاجرين(*) . لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه .

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جدية . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوما ، حتى فت في عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ، فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسيا محنكا ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرهم في مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة ، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

(*) هاجم الرسول بني النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان في منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بني النضير كان في ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبي أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم الفيء فقد اتبع فيه النبي قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام (ج ٢ ص ١٧٨) عن أموال بني النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (ى)

وفى عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدى شعائر الحج فى موسمه . وأجاب زعماء قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر فى مساكنهم الواقعة فى الشمال الشرقى من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم فى أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلا ، ثم سلم الباقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء فى أماكنهم يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبلة إلى الفاتحين : ولم يمس أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قطع رأساهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت صفية وهى فتاة يهودية فى السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة(**) ، إلى نساء النبى .

(*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أتى رسول الله فقال له : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل الرسول تذهب بها آمنة للملوك ورؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من الزمان . (ى)

(**) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدى العداوة للمسلمين يتربصون بهم الدوائر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبى بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده مال لبنى النضير وجحده حين سئل عنه ، والمسلمون فى أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ، ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أى أنه قتله قصاصا بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلة فترجع إلى أنهم هم أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجه فصالحهم الرسول على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأعمر لها . (ى)

وفى عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالمين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطاف محمد وأتباعه فى أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون « لا إله إلا الله » . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر فى نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صارا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبى أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه فى القتال ، ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة .

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠)(*) ، فجمع النبى عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة . وكان جواب محمد جوابا كريما ، فقد أعلن عفوا عاما عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التى كانت فى داخل الكعبة وحولها ، ولكنه ترك الحجر الأسود فى مكانه وأجاز تقبيله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذى هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا فى حياتها .

(*) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت بالسلاح بنى بكر — وكانوا قد دخلوا فى عهد قريش — على بنى خزاعة الذين دخلوا فى عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة فى صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للسير إلى مكة لفتحها . (ى)

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته فى المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت فى دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب فى ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي ببعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ؛ وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء فى مديح النبي أجازه عليها ببردته(*) ، وعاهد النبي المسيحيين فى بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا فى ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة ، ولكنه نهاهم عن الربا ؛ ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(**) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرته على الدولتين من خراب ؛ ولكن يبدو أنه لم يفكر قط فى توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+) ؛

(*) وبيعت بعدئذ لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ فى بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

(**) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جميلا مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر فى الأمر مثل « المقوقس » حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبلة ابن الأيهم الغسانى . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبى لم يفكر فى توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفى أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول فى دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة فى شئون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدنى ، والدينى ، والحزبى . وحتى التقويم نفسه قد عنى بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثنى عشر شهراً قريا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكى تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبى أن تكون السنة الإسلامية اثنى عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون على التوالى ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامى سنة كاملة عن التقويم الجريجورى كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبى مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا فى القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شىء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن(*) ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض فى بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته

(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا فى القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصوصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبينا لهـــذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى فى سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسببه أن التشريعات الواردة فى القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رحمة من الله تنزل متدرجة تبعاً للحالات ، فيكون من الطبيعى أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان فى حالات قليلة معدودة . (ى) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة(*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشئون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أمورا لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جميعاً من موت ووقوع فى الخطأ .

ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحى فى الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين أنزل الوحى مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه(**) . وتزوج النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين فى العصر القديم وفى بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، فى نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجبا أخلاقيا ؛ وكان تعدد الزوجات فى نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك فى صحته يقول فيه « حبب إلىّ من

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبى لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبى لم يُفصِّح بشىء من ناحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك فى مواضع عنه فى أخرى تبعاً للغاية التى يريدها الله ، وإن كان جميعه فى أعلى درجات البلاغة التى لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مدانأتها . (ى)

(**) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتى عقد عليهن النبى فكن ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بذكر سبب زواج كل واحدة منهن وبذكر شىء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٨ . (ى)

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة »(*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلا . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيمات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين رزقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة ، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط ، ولكن إبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيرا ما ضايقه نساؤه بمنازعتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبى أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضى ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته(**) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليما حليما » .

وكانت حياة النبي فيما عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

(*) تكلم في شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلوني .

(**) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة . (ى)

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنى عشرة أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عنزة البيت فى فنائه ، ويبتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلعق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسى التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف فى بعض الأحيان .

ولم يتعاط الخمر التى حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العظماء ، بشوشاً فى أوجه الضعفاء ، عظيما مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك فى تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شىء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من الفىء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصى ويقضى فى تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبى المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد

قال مرة لأبى هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرغباً تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً(*) ، وقاضيا عادلا فى وسعه أن يقسو ويغلدر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو رَبط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤه يحبونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره بعد قصه ، أو الماء الذى يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن فى هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم .

وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب(**) ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم فى اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته فى ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات(†) ، ويدعو الله لهم جهرة ، ويهنئهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث فى إحدى الليالى أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت هى قبله ، فتحظى بأن يدفنها رسول الله ، فأجابته بحديثها المعهود ، أنه حين يعود من دفنها سيأتى بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

(*) كان النبى رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن الرسول شخصى أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذى ارتضاه للناس جميعاً وعملوا ما فى وسعهم لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصروا على عدوانهم .

(**) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ى)

(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول فى أوائل مرضه الذى توفى فيه « إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلا واستغفر لهم . (راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ى)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يؤم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته . وفى اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة .

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كلمتها ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلا واضحاً قويا ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة ، وفى قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم .

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة فى أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لايعادله فى آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبى فى أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته(*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى فى ذلك ترتيب زمنى أو منطقى ، ولم تجمع هذه الآيات كلها فى كتابٍ واحد فى حياة النبى ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحى أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها ، فجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء فى تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) فى مدن العالم الإسلامى الآخذ فى الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدى إلى غرض واضح مفهوم — فهى إما أن تقرر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل فى قراءته بعض الاختلاف لأسباب منها الخلو من النقط والشكل المعتاد فى كتابتنا فى هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتاج إلى شىء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد فى تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه فى كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبى بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمع ما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله فى صحف حفظته كاملا ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول المؤلف ، والثالثة كانت فى أيام عثمان بن عفان وفيها رتبت سوره بعضها فى إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفى هذه المرة التى كانت فى أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سوره أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لهؤلاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ جـ ١ ص ٦١ . (ى)

على مبدإ أخلاقى ، أو تضع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية(*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها فى كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه فى وقت بعينه(**) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهى مرتبة حسب طولها ، لا بحسب نزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهى بالقصار ، وإذ كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب(†) . فالسور المدنية وهى التى يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها بعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعى فى كتاب سماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التى ذكرها لا يخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » (الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً فى موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو ينتقل معه فى فنون مختلفة من العلوم والمعارف التى لا يكاد يحصرها العدّ . (ى)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله فى مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعى هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شىء جديد ، إلا أنه قد كتب كله فى عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع فى كتاب واحد ولم ترتب سوره . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حينُ كتابته فى مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ى)

(†) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه =

عملية فى أغراضها عادية فى أسلوبها ، أما السور المكية فهى شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب . وخليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته(*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبى أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هى الطريقة التى سار عليها أنبياء بنى إسرائيل ؛ وهى التى نراها فى كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقى يمكن أن يقع فى النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسى الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان فى

= ولم يراع فى هـذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، ولذلك لا يمكن القول إن القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طوالها بوجه عام .

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سوره وآياته ، مسألة عنى بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً فى هذا على رأى واحد . (راجع مثلا « الإتقان » للسيوطى ج ١ ص ٩ وما بعدها و « مقدمتين فى علوم القرآن » نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعا فى مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م ص ٨ وما بعدها .

(*) لايمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لايمكن القول إن أسلوب السور المدنية التى يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف فى موضع آخر إن لغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى وإنه غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطاع تبينه من التراجم نفسها فضلا عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سوره سهلا لما عجز العرب فى عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو ببعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتعابيره وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله فى أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان بشىء قريب منه ؛ وكفى أنه تنزيل من رب العالمين . (ى)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة ؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوي لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامي . ولغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لا تواثم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، في الأدب النثري العربي .

الفصل الثاني

العقائد(*)

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين أن يكون سبيلا إلى الحكم الأخلاقي ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أي حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره في التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شئونه — أي الإيمان بأنه مهما يكن في هذا الكون من شر ، فإن عقلا خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيِّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التي أعانت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة . وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هي السورة الثانية عشرة بعد المائة :

(*) سنذكر في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير في المتن أحياناً ، وفي الهامش على الدوام ، أنهما أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مئذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ — ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . . . « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول فى آية الكرسى الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبى لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار ، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شىء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦)) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضى ، وإذن فكل الأشياء سابقة فى

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذا الذى ينجو من العذاب وهو الذى « يضل من يشاء ويهـــدى من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا فى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك فى أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان . . . . غير أنه مع ذلك قول عنيف فى أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القوة التى يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة فى التفكير الإسلامى(*)، وقد استعان بها النبى وغيره من الزعماء لبث الشجاعة فى قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التى عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم فى القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجان مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة فى أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية فى أعماله ما يجعله عدلا مسئولا عنها ، وليست الجبريه مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم فى تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذى تدور عليه المبادئ الأخلاقية فى القرآن ، كما هى الحال فى كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب فى الحياة الآخرة ، « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شىء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شىء ينتهى عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إن هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣ — ٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتمنى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات فى الصور ، ففى النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتدك الجبال والمبانى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لهبا (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفى النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها — الملائكة والجن والبشر — إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ فى الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول الغزالى فى إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط — وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف — المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله(*) . ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار فى الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات فى كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذى ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التى تشوى الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها) ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التى وصفها فى ملهاته فى القرآن .

وتختلف صورة الجنة فى القرآن عن صورتها فى ملهاة دانتى فهى فى القرآن واضحة وضوح صورة النار . والجنة هى مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون فى سبيل الله ،

— من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ — جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التى بها يقوم الموتى للحشر والحساب . راجع قوله تعالى فى سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفختين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذى يثاب عليه الإنسان فى الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ى)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة فى السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهى حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحتها الأنهار وتظللها الأشجار الضليلة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجواهر ، ويتكئون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطئ أغصانها لهم يملئوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة فى الدنيا) فى أكواب وأباريق وكأس من معين لايصدعون عنها ولاينزفون « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا » (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات(*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفى الجنة غير هذه المتعة الجسمية مُتَع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيتجلى لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذا الذى يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور فى الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التى لها قيمتها فى هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمعناها الحرفى بل يجب أن نأخذها على أنها تقريب للأذهان لما يستمتع به الصالحون فى الجنة من نعيم روحى . (المترجم)

الفصل الثالث

القرآن والأخـــلاق

القانون والأخلاق فى القرآن ، كما هما فى التلمود ، شىء واحد ، فالسلوك الدينى فى كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوى ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشمل قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدَّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلم .

ولم يكن محمد يحتقر التجارة ، فقد كان هو نفسه فى صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان فى بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء فى الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفى الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدى للعامل أجره قبل أن يجف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٨و٩) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما فى وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من مقام المرأة فى بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً فى خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التى أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم(*) . وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة فى المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل فى أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة فى الإجراءات القضائية والاستقلال المالى ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف فى مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . وجعل نصيب الأنثى فى الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفى القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهى عن التبرج ، ويروى أن النبى أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحا رجلا كان أو امرة . وهذا أيضاً شأن العقاب فى الدار الآخرة . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً فى آيات أخرى . ويقول جل شأنه فى سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات فى أيام النبى وفى القرن الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التى تؤثر فى الأخلاق الفردية ، ولعل حرارة الجو فى بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشىء فيما نراه من نزعات الرجال فى هذه الناحية فى البلاد التى يطول فيها فصل الحر — ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبى بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامى رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة فى سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب فى الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبى ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أيضاً حضاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد فى كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ ج ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً فى النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه فالمعنى عام فيه وفى غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به إلا فيما خصه الله به دون أمته » راجع فى هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربى ج ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٨٨ — ٨٩ . (ى)

(**) وحتمه بعد الزواج بطبيعة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » معناه إن على الذين لا يجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى يرزقهم الله الغنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن لهذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف نفسه فى غير هذا الموضع . (المترجم)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجيز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج فى الإسلام ، كما هو فى الدين اليهودى ، إثم ، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث فى البلاد الحارة من نقص سريع فى قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع وإن كان النبى نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التسرى (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٢١)(**) .

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعا حلالا حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور(†)) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولى فى حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين والشافعى يحتم وجود الولى فى حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذى يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٢٣ و ٢٤١) .

والزواج لابد فيه من مهر لايشترط أداؤه فعلا ليتم عقد الزواج ، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) . (ى)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً فى كل حال بل المعروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع فى الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروها إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) . (ى)

(†) عقوبة الزانى هى الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هى الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلا عن هذا عن رمى المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحا له فى أيام الجاهلية(*) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ولكى يرغم الزوج على أن يطيل التفكير فى إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته فى المحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » فى ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن ينجب أبناء ، وينبغى للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها فى الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح فى هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه فى هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلقته ثلاثاً إلا بعقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بآخر ودخل بها وانقضت عدتها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة(*) .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ، ورقة قلوبهن ، ومفاتنهن ، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله . وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله . فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي . فقيل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبي بهذا فأثار ضحكه . وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أثمن شيء في العالم . ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً(**) ، ويروى عن النبي أنه قال ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق لله ولبني الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ى)

(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ؛ ويقول في سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرهاً ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ى)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كلّ كلّ — أي بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أي الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهي لا تنمي التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولد النبي بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التي أنشأها . فلما تم له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل ، وإن لم يكن في مقدوره(*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفي

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت في عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التي يشير إليها الكاتب هي السرايا التي كان يرسلها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن في مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحري رضاء الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه في القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة فى قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهى لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين(*) « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر فى آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال فى الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه فى الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبى فقد أمر بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسبنا فى الدليل على هذا قوله جل شأنه فى سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ى)

سبيلهم إن الله غفور رحيم » — « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ، «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (سورة التوبة ٥ و ٦) . ومن وصايا أبى بكر لجيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك فى الجهاد « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبى « والذى نفس محمد بيده لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . و « لمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة » .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست فى واقع الأمر تحريضاً على القتال « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة ١٩٠) . وكان محمد يتبع قوانين الحرب التى كان يتبعها المسيحيون فى أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثانى Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلوح أن الثغرة التى لابد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق فى الإسلام منها فى سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات(**) ، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

(*) رواه أحمد والطبرانى . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة » .

(**) لقد بينا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجتماعية هامة تنبه إليها كثيرون من الغربيين فى هذه الأيام ، وليس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشعوب . (ى)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ بالثأر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*). فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء فى العهد القديم ، فهى تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس فى التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح فى هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت الذى نادى بمبادئ نتشه قبل وجود نتشه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبذلوا فى سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذى يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو المحور الذى يدور عليه تعليمهم والذروة التى ينتهى بها هذا التعليم . وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً فى ذاكرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث فى النفوس

(*) لم يجئ الإسلام ليساير العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن فى غير ذلة لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التى آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً وكان مما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه فى سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .. (ى)

الساذجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم فى الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر فى كل عصر من العصور الماضية وفى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الواضحة التى يتقبلها الجميع . (ى)

الباب العاشر

سيف الإسلام

٦٣٢ – ١٠٥٨

الفصل الأول

الخلفاء الراشدون

٦٣٢ – ٦٦٠

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٥٧٣ – ٦٣٤) ليؤم المسلمين فى مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم(*) .

ولم يكن لفظ خليفة فى بادئ الأمر لقباً لأبى بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعة أبى بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبي وعلى . ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامى .

وكان أبو بكر وقتئذ فى التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الجسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرته للنبى وقوة أخلاقه والتضحية فى سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

فى معيشته ، متقشفاً ، رحيا فى حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلها وصغيرها على السواء ، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلا عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومنهم من اعتنقه كارها ، فقد ارتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التى فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً فى ليلة واحدة ، وقاده بنفسه فى مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٦٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشا ، لقتال المرتدين فى جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التى أدت إلى فتح العرب غربى آسية ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة فى بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم فى حرب خارجية ؛ وكان العرب — كما نعلم — قوماً ألفوا الحروب ، فلبوا نداء أبى بكر لخوض غمارها وقد بدت فى أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيما مضى يضحون بحياتهم فى سبيل نصرة الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فمن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية فى القرن السابق لظهور النبى قد أدى

إلى انهيار نظم الرى فى جزيرة العرب[1] ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعى من العوامل التى دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح[2] . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب ، وما حل بكلتيهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما ، ولقد كانت الضرائب فى ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شئون الحكم وحماية الأهلين ، كذلك كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل فى هذا التوسع . فقد كان فى الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة فى قبولها حكم العرب الغزاة أولا ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقبة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداها إلى بعض الحاميات الإمبراطورية . ولما سار الفتح فى طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبى المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوا فى قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت فى الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها فى هذه الفتوح : ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبنة قد أضعفتا فى بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذى كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفىء ؛ لقد كان فى وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر فى الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكونوا فى حروبهم همجاً متوحشين ، انظر إلى ما أوصاهم

به أبو بكر : « أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا للمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون قوما قد محضوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . . . اندفعوا باسم الله الخ »[٣] .

ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيرا أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديدا ، حتى أصبحت الفتوح العربية — التى كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية — أعظم الأعمال إثارة للدهشة فى التاريخ الحربى كله .

وحدث فى أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعته إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها فى محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخمسمائة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلا ، وانضم إليهم ألفان وخمسمائة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من الغنم

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقالته الشهيرة : « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ »[٤] . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير فى تفكير الظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيدة منها تدعى كرامة إلى جندى عربى قال إن النبى قد وعده بها » فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريتها ما وقعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك[٥] .

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره فى الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق فى ذلك الوقت شقة من الصحراء الجدباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر فى خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ، وكان الجند فى أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربى الرئيسى المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلا إلى الجنوب الشرقى من دمشق كانت تلك المؤن قد نفدت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٤٠,٠٠٠ (٢٥,٠٠٠ ؟) من العرب ٢٤٠,٠٠٠ (٥٠,٠٠٠ ؟) من الروم فى إحدى المعارك الفاصلة التى لا حصر لها فى التاريخ (٦٣٤) . وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها فى معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة للدولة العربية الآخذة فى الاتساع .

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر فى هذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبى بكر ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبى عبيدة . وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (٥٨٢ — ٦٤٤) أكبر معين لأبى بكر وأعظم مشير به ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبى بكر كل الاختلاف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا فى بساطته وتقشفه ، وفى أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدوياً من غير حق ثم ألح عليه — دون جدوى — أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو له . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يحيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين[٦] . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر[٧] . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قميص واحد ، وجلباب واحد رقعه عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر ، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرب . ويقال إن أحد ولاة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها .

وكان السبب الذى من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملؤها الشهامة ، وما هو أجمل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف أبى عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوتى أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد فى شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب فرساناً مهرة لا يضارعهم فى مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن فى أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية المحيرة ، أو سرعة كرهم وفرهم ؛ وكانوا يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضى المستوية التى توائم حركات الفرسان . واستولى العرب فى عام ٦٣٥ على دمشق ، واستولوا على أنطاكية فى عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس فى عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت بلاد الشام فى أيدى المسلمين ، وقبل أن يختتم عام ٦٤١ كانوا قد أتموا فتح بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر هذا الشرط ، وجاء من المدينة فى بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم المفهفهة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء فى وجوههم ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه فى ذلك الزى . وقابل سفرونيوس مقابلة ملؤها اللطف والمجاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق ببيت المقدس ، واختار فى العشرة الأيام التى أقامها فيها موضع المسجد الذى سمى فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين فى بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا يهاجرون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبيهة

بهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التى غزتها هذه القبائل ، وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب فى بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤ . ونهى عمر الفاتحين عن شراء الأرض وفلحها ؛ وكان يرجو أن يبقوا فى خارج جزيرة العرب طبقة عسكرية ، تمدهم الدولة بما يكفيهم ، لكى يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير أن أوامره فى هذا قد أغفلت بعد موته ، بل إنها كاد يقضى عليها سخاؤه فى أثناء حياته ؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس الفىء على الجيش ، ويخص بيت مال المسلمين بالخمس الباقى . ولم تلبث أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الآخذة فى النماء ، وأخذ أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة فى مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت فى عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد ؛ وكان عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعمائة ألف دينار (٠٠٠ر٩١٢ر١ دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا الترف الذى أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسى وهو يؤم الصلاة فى المسجد (٦٤٤) ، ولم يستطع عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده فعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم عثمان . وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ، أعاد بناء مسجد المدينة وجمله ، وأعان بماله جيوش المسلمين التى نشرت الإسلام فى هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفى ربوع آسية الصغرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف بنى أمية الذين كانوا فى أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبى ، فأقبل بنو أمية على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن فى وسعه أن يقاوم مطالبهم . ولم يلبث أن تولى بعض المناصب المجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهى المدن الإسلامية الآخذة فى النماء السريع ، وبنو هاشم أهل النبى وعلى رأسهم على ضد بنى أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبى سفيان ألد أعداء النبى فى بداية الدعوة . وفى عام ٦٥٤ أخذ رجل يهودى ممن اعتنقوا الإسلام يدعو فى البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبى سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أحق الناس بالخلافة ، وأن عثمان لا حق له فيها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبى حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٦٥٦) .

وفر زعماء بنى أمية من المدينة وبايع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين . وكان على فى شبابه مثلا أعلى للتواضع ، والتقوى ، والنشاط ، والإخلاص للدين . وكان وقت أن بويع بالخلافة فى الخامسة والخمسين من عمره ، أصلع الرأس ، ممتلئ الجسم ، لطيف المعشر ، محسناً ، كثير التفكير ، متحفظاً فى قوله ؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التى عدت فيها السياسة على الدين ، وحلت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين . وطلب إليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار ؛ وطالب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم ، فأبى معظمهم ؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر فى دمشق قميص عثمان الملطخ بالدماء ، وأصابع زوجته التى قطعت وهى تحاول الدفاع عنه . وظاهرت قريش معاوية ، وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها ، وخرج على علىّ

طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباهما أيضاً بالخلافة . وخرجت عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضرسين فى القتال ، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتقى الجيشان فى جنوبى العراق فى واقعة الجمل — وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل علىّ العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجهز معاوية فى دمشق قوة أخرى لقتال على . وكان معاوية خبيراً بشئون الدنيا غير متزمت فى الدين ، وكان يرى فى الدين بديلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التى يبتغيها بمحاربة على أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبى . وأعاد علىّ تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٦٥٧) . وكاد النصر يتم لعلى لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم « كتاب الله » ، ولعله كان يعنى بهذا اتباع الأوامر الواردة فى القرآن (الكريم) . ورضى علىّ بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لها ستة أشهر يفصلان خلالها فى النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال على خرجوا عليه فى ذلك الوقت ، وألفوا منهم جيشاً مستقلا وسموا بالخوارج ، وقالوا إن الخليفة يجب أن يختاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضويين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله[٩] وكانوا كلهم ينددون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول علىّ أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ، ثم استحالت تقواهم تعصباً ، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب ، ويشتت شملهم . واتفق الحكمان فى الوقت المحدد لها على أن يتنحى على ومعاوية عن الخلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفى هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على علىّ بالقرب من الكوفة وطعنه فى رأسه بسيف مسموم (٦٦١) . وأصبح المكان الذى مات فيه علىّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التى تقدسه أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون فى العراق الحسن بن على بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات فى الخامسة والأربعين من عمره (٦٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامى والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشية على الهاشميين آل بيت النبى ، واستحالت « الجمهورية » الدينية ، وهى الحكومة التى كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية . وحل حكم الساميين فى غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وطهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التى ظلت قائمة فيها ألف عام ؛ وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمالى أفريقية بالشكل الذى احتفظت به فى جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثاني

الخلافة الأموية

٦٦١ — ٧٥٠

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بتزعمه للثورة التى أوقد نارها مقتل عثمان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : « إذا مدوها خليتها وإن خلوها مددتها »[١٠] .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسراً حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه فى هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، الذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد فى أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغته الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذى لابد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدى إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدل به النظام الوراثى ، فنادى بابنه يزيد ولياً للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية .

ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش ، كما اشتعلت فى بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن على يعدونه بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له . ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلا فى شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسما ابن أخى الحسين وهو غلام فى العاشرة من عمره ، فمات بين ذراعى عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسين وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلع وقتئذ على النساء ؛ ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكثه بالقضيب ؛ فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه »[11] (٦٨٠) . وأقام الشيعة فى كربلاء حيث قتل الحسين مشهدا عظيما تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون فى كل عام مأساة قتله ، ويظهرون فى ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى على وولديه الحسن والحسين .

كذلك ثار على يزيد عبدالله بن الزبير ، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه فى مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم فى فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار فى الكعبة نفسها ، والتهمتها عن آخرها (٦٨٣) . ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش فى دمشق . وأعقبت موته سنتان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء بعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

هذا الاضطراب وأخمد الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكمة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ فى الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، لكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ، وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٦٩٢) . وفى سنى السلم التى أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناصر الأدب ، ويعنى بشئون بيته ، ويربى أبناءه الخمسة عشر ، وقد تولى الخلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التى قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥) . فنى عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ فى عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى فى عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسبانيا فى عام ٧١١ ، وسمرقند فى ٧١٢ . وفى الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما لجأ إليه فى هذا الحكم من قسوة : فقد جفف المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضى وأعدها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الرى وأصلحها . ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً فى طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب ، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلا طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات — ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية — وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ فى دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، ويضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقيين ، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة[١٣] .

وخلفه أخوه سليمان (٧١٥ — ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال فى محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر فى خلافته عن جميع ضروب الفساد التى ارتكبها أسلافه من خلفاء بنى أمية . فجعل حياته كلها وقفاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتقشف فى لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلى النفيسة فصدعت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقنه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والخطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون فى معيشتهم على بلاط الخلفاء ، بل قرب إليه أتقى العلماء فى الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذى كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التى كانت قائمة فى المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبينما كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين فى بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، واليهود ، والزردشتيين على اعتناقه ، ولما شكا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقر بيت المال أجابهم بقوله : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا »[١٤] .

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول فى الإسلام بأن حتموا الختان على معتنقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل ، فأمرهم بالاستغناء

عن الختان . ثم فرض قيوداً شديدة علي من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثانى (٧٢٠ — ٧٢٤) يختلف كل الاختلاف فى أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها فى شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليمان ، وكان هو الخليفة فى ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلما ولى الخلافة سألته زوجته هل بقى له شئ فى العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هى فى مجاهل الحريم . ويروى أنه بينا هو يلهو مع حبيبة فى يوم من الأيام إذ ألقى أثناء لهوه ببذرة عنب فى فمها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ — ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلا سادت فيه السلم ، وأصلح فى خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً فى القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نقع الفتنة فى الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التى كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جللوا بالعار تلك الأسرة التى امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شئون الحكم . فكان الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً فى الشهوات البدنية ولما سمع بنبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى ، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ، وهباته التى لاحد

لها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح فى بركة من الخمر ، ويشفى منها غلته وهو سابح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال(*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن ، وتولى الخلافة ستة أشهر ومات فى عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلفه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثانى ، وحكم ست سنين مليئة بالمآسى ، وكان هو آخر الخلفاء من بنى أمية فى الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بنى أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام . فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد . وإذا ما استثنينا بعض فترات مشئومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظما حرا . لكن نظام الملكية المطلقة الوراثية أدى إلى ما يؤدى إليه عادة فى جميع البلاد ، فتولى الخلافة فى القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية ، التى حالت فى أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضا ، كأن أواشج القربى بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت فى أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ، وأخذ الفرس يدعون أنهم أرقى من العرب ، وأنهم لذلك لا يطيقون أن تحكمهم بلاد الشام ، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبى أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بنى أمية الذين كان منهم أشد

(*) وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر   فقل لله مزقنى الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين ، ولعلهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقذهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توحد صفوفها وتنطقها بمطالبها . وقيض لها هذا الزعيم فى شخص أبى العباس السفاح حفيد حفيد أحد أعمام النبي ، فتولى قيادتها من مكمن لها فى فلسطين ، ونظم الثورة في الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة فى بلاد الفرس فأيدوه أشد التأييد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة فى الكوفة . والتقى جيش مروان الثانى بالثوار يقودهم عبد الله عم أبى العباس على نهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بعدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبى العباس ، ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أى سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بنى أمية ويقتلوا أينما وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذى عين واليا على الشام ، هذا الأمر ، فى يسر وسرعة ، فأعلن عفواً عاما عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة . وبينا هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده فى مخبئهم ، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة . واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموتى . وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بنى أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التى كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها فى الريح[١٥] .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية
(٧٥٠ — ١٠٥٨)

١ — هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكما لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى ، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربى من الهند) ، وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ، وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ، ومصر ، وشمالى أفريقية . ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه ، وخرجت بلاد السند عن طاعته فى السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه فى مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة فى شمال الكوفة . وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً فى ثقافتهم وأصولهم . وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشىء من الرقة ودماثة الأخلاق الفارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة فى مناصرة الفنون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد الفرس وهى فى ذلة الخضوع غلبت غالبيها .

ومات السفاح بالجدرى فى عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب بالمنصور ؛ وكانت أمه جارية من البربر ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم جوارى . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين . وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الدمقراطى ، ومصائر الحب والحرب . وكان الخليفة الجديد فى سن الأربعين ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، ملتحياً ، أسمر البشرة ، شديداً فى معاملاته . ولم يكن أسيراً لجمال النساء ، أو مدمناً للخمر ، أو مولعاً بالغناء ، ولكنه كان يناصر الآداب ، والعلوم ، والفنون ؛ ويمتاز بعظيم قدرته ، وحزمه ، وشدة بطشه . وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح . وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية ، وبنى مدينة فخمة هى مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة ، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش فى صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة ؛ وكان يشرف بنفسه على كل إدارة فى دولاب الحكومة ، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات ، وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين – ومنهم أخوه نفسه – على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة . وكان يراعى جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد فى إنفاق الأموال العامة ، حتى نفر منه الأصدقاء ، وأطلق عليه لشحه لقب « أبى الدوانق »[16]. وقد أنشأ فى بداية حكمه نظام الوزارة الذى أخذه عن الفرس ، وكان له شأن عظيم فى تاريخ العباسيين ؛ وكان أول من شغل منصب الوزير فى عهده هو خالد ابن برمك . وقد اضطلع بواجب خطير فى حكم الدولة ، وكان له شأن فيما وقع فى أيام الدولة العباسية من أحداث جسام . وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد .

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن فى وسع ابنه المهدى (٧٧٥ – ٧٨٥) إلا أن يسلك فى حكمه سبيل الخير . وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة ، وأنفق الأموال الطائلة فى تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر فى حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التى فتحها العرب فى آسية الصغرى ، فسير عليها المهدى جيشاً بقيادة ابنه هرون لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ، وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينة[*] Irene أن تعقد معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار (٨٣٢,٠٠٠ دولار) (٧٨٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدى على ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه الهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى الهادى أن ينزل عن حقه لأخيه الأصغر . وكان الهادى وقتئذ يقود جيشاً فى بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطيع أمره بالعودة إلى بغداد . فخرج المهدى وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدى توفى فى الطريق ، وكان حين وفاته فى الثالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكى أن يبايع الهادى بالخلافة ، على أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان فى وسع عشرة من الدراويش أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها كما يقول السعدى[١٧] فى كتابه : فلم يعترف الهادى لأخيه بولاية العهد ، وسجن يحيى ، ونادى بابنه ولياً لعهده . ثم مات الهادى بعد زمن قصير (٧٨٦) ، وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتمت أنفاسه بوسادة وضعتها على فمه . وارتقى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر حكم فى تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص — وخاصة قصص ألف ليلة وليلة — هرون الرشيد فى صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنير ، العنيف فى بعض الأوقات ، الكريم الرحيم فى أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ

(*) هكذا يسميها المؤرخون العرب . (المترجم)

بها فى ديوان محفوظات الدولة[١٨] . وتبدو هذه الصفات كلها فيا كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مرحه ، ولعل السبب فى ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولا وقبل كل شيء فى صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة[١٩] . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه[٢٠] . ويقال إنه تزوج من سبع نساء[*] وكان له عدد من السرارى رزق منهن بأحد عشر ولداً ، وأربع عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابنه من الأميرة زبيدة . وكان كريماً سمحاً فى أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده المأمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله ثمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر[٢١] ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله فى بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذى يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار)[**] ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً[٢٢] . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبى نواس لسفهه وسوء سيرته ، ولكنه كان فى كل مرة يصفح عنه بلجودة شعره . وقد جمع حوله فى بغداد عدداً عظيما من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحويين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم ، ويجزيهم عليها بسخاء ،

(*) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)

(**) يقصد المؤلف بقطعة الذهب فى هذه الفصول الدينار ويقدره بأربعة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوه الشرائية للدينار فى تلك الأيام . (المترجم)

ويتلقى فى نظير ذلك الاف القصائد فى مديحه والتغنى بجوده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً . قويا[٢٣] . ولسنا نعلم فى التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة النابهين . وكان يعاصره فى غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة فى القسطنطينية ، والملك شارلمان فى فرنسا ، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً فى الثراء ، والسلطان ، وأبهة الملك ، والتقدم الثقافى الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكا فعلياً فى تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله فى قضائه ، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٨ دينار — على الرغم من أبهة الملك والهبات التى لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه فى ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكى وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه[٢٤] . وكان هذا إفراطاً خطيراً فى ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التى آل أمرها إليه ، وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومربياً له يدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن فى سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام فى تاريخ العالم كله . لقد كان رجلا بشوشاً ، دمث الأخلاق ، جواداً حكيما ، مجداً لا يمل من العمل ، رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والخانات ، واحتفر قنوات الرى ، فمم

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملأ بها خزانة الخليفة وخزانته هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حذا حذو سيده في مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر في منصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا منهما ثراء عظيما ، فأنشآ القصور ، وجمعا حولها طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية[٢٥] .

ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقي هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير[٢٦] .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد في الجري وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفاياته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب ، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحبب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحبت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي يجري في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لها الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا في حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا

السر ، وأفضت به إلى هرون . فبعث فى طلب مسرور كبير الجلادين وأمره بقتل العباسة ودفنها فى قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر . ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتى إليه برأسه ، ونفذ مسرور أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلا إلى الطفلين الوسيمين ، وأبدى إعجابه بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن يحيى والفضل ، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمهما ، ولكنه لم يطلق سراحهما . ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد خمسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (١٤٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ؛ ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التى وعدت إيرينة بأدائها ، وجرؤ على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله : « باسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يابن الكافرة ، وسيكون الجواب ما تراه عيناك لا ما تسمعه أذناك والسلام »[٢٧] . وسار إلى ميدان القتال من فوره ، واتخذ مقامه فى الرقة ذات الموقع الحربى المنيع على حدوده الشمالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها آسية الصغرى ، وقذفت الرعب فى قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (٨٠٦) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور الروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلا بالهدايا منها فيل وساعة مائية معقدة التركيب ؛

ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فإن ولديه الأمين والمأمون شرعا يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة فى شرق

نهر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقى من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدا به : ولكن حدث فى ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء فى خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرها ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاماً شديدة فى معدته . فلما بلغ بلدة طوس فى شرقى إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجىء له وهو يحتضر بياشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يؤنب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينيه تنفيذ أمره (٢٩) . وفى اليوم الثانى توفى هرون الرشيد فى سن الخامسة والأربعين (٨٠٩) .

٢ — اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وطالب المأمون بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميرا ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جريا على تلك العادة التى أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئذ فى مرو فأمر بالمناداة به خليفة (٨١٣) ، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا فى عام ٨١٨ .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بنى العباس . نعم ، إن المأمون لم ينج من الخلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع ، جمع فى مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى فى البلاد كلها

— من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابئين ، وزردشتيين — وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتا ما هي السنة المألوفة فى بلاط الخليفة . ويصف المسعودى مجلساً من المجالس العلمية التى كان يعقدها المأمون فى آخر النهار فيقول :

«كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون»[٣٠] .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها فى عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له فى عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ؛ وأنشأ مجمعاً علمياً فى بغداد ومرصدين فيها وفى تدمر . وكان الأطباء ، والفقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان فى القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب فى ذلك الوقت .

ومات المأمون فى سن مبكرة — فى الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) — وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأى فى الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد

أصحاب السنة ؛ وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذى تولى الخلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله فى عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس البريتورى الذى أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام فى بغداد ، كما أصبح الحرس البريتورى فى رومة ، صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبنى لنفسه قصرا فى سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ ثمانية من الخلفاء(*) هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين عامى ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فيها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتى نهر دجلة قصوراً فخمة ، ومساجد ، وحذا حذوهم كبار موظفى الدولة ، فشيدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساقى والحدائق والحمامات . وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٧٠٠,٠٠٠ دينار (٣,٣٢٥,٠٠٠ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق مايقرب من هذا المبلغ فى تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية(**) أقام بها قصراً يعرف «بقصر اللؤلؤة» وأحاطها كلها بالبساتين والجداول . وقد جمع مايحتاجه من المال لهذه المبانى وما يتصل بها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

(*) المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) ، والواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) ، والمنتصر (٨٦١ — ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ — ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ — ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ — ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢) ، وقد عاد المعتمد قبيل وفاته إلى بغداد .

(**) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجعفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى (جزء ١١ فى أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدى أكبر ثمن لها ، وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عليها ، وحرض ابنه حرسه التركي على قتله ، وتولى الخلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله ؛

وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضى عليها القوى الخارجية : فقد أنهك قوى الخلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم فى الشهوات ، واللهو ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر فى طبقة الحكام ما كان لها فى الخلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التى كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم يكن العرب ، والفرس ، والسوريون ، والبربر ، والمسيحيون ، واليهود ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعا يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضا ، وزاد الطين بلة أن الدين الذى كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هى المعبرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهمال وسائل الرى أثر كبير فى ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الرى هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التى تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهملتها ، قلت موارد الطعام عن مجاراة نسبة ازدياد السكان ، وكان لابد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لهما شأن عظيم فى تاريخ العالم . غير أن ما حل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن فى معظم الأوقات ليغل أيدى جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم . فكان

الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد فى وسع الحكام أن يؤدوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن الترك قد حلوا محل العرب فى القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان فى جيوش رومة ، وكان رؤساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويأمرونهم ، ويغتالونهم . وأصبحت قصور الخلفاء فى بغداد مباءة للدسائس الدنيئة ، والاغتيالات وسفك الدماء ، مما جعل الخلافة العباسية فى آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكراها .

وكان ضعف النشاط السياسى والقوة الحربية فى عاصمة الدولة سبباً فى تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء فى العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطانا اسمياً غير ذى بال ؛ وأخذوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناؤهم . وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية فى عام ٧٥٦ ، وحذت حذوها مراكش فى عام ٧٨٨ ، وتونس فى ٨٠١ ومصر فى ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكما على خراسان وجعل ولايتها وراثية فى أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالى حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (٨٧٢ — ٩٠٣) ، وفيما بين عامى ٩٢٩ ، ٩٤٤ استولت أسرة من الشيعة هى أسرة بنى حمدان على شمالى الجزيرة والشام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية فى

العالم الإسلامى . وكان سيف الدولة الحمدانى (٩٤٤ — ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع فى بلاطه بحاب الفيلسوف الفارابى ، والشاعر العظيم المتنبى أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخزر على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها فى عام ٩٤٥ . وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأتمرون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بينما كان الأمير البويهى الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها فى النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بنى بويه (٩٤٩ — ٩٨٣) عاصمته إلى شيراز وهى مدينة من أجمل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد فى أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد فى أيام هرون الرشيد .

وفى عام ٨٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفى عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعده ذا شأن عظيم فى تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ؛ وأهدى الرازى أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه المنصورى وهو كتاب جامع ضخم فى الطب . ثم استولى الأتراك فى عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا فى عام ٩٩٩ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون فى ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فيما بعد

ليقفوا تيار المغول الجارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدى من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ .

وفى عام ٩٦٢ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة غزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ — ٩٩٧) ، وكان أولا مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ — ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسى إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتخمه النهب ، وضاق ذرعا بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده ، أخذ ينفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، فى تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذى يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتبى — أبو النصر محمد فى كتاب اليمينى أو الرسالة اليمينية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف(*) متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر فى علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فهم من يهمهم جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه فى أمن من ابتذال العيون اللوامح واعتراض الرجال

(*) فى الأصل الإنجليزى ستة آلاف . والنص الوارد هنا منقول من تاريخ اليمينى — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطالح فيركب إليه على وقور سكينة وشمول طمأنينة[٣١] » .
واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيرونى ، وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسى صاحب الشاهنامة أعظم قصيدة فى الأدب الفارسى ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محمود فى ذلك الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع سنين من وفاته إلى أيدى الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطئ إذا صورنا الترك فى صورة أقوام همج ، فمن حقهم علينا أن نقول إنهم حين أغاروا على بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأنهم فى هذا شأن الفيالق الألمانية التى غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية . لقد أخذ الأتراك الساكنون فى شمالى آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد نظموا أنفسهم فى القرن السادس الميلادى جماعات يتزعم كلا منها خان أو شاغان . وكانوا يصهرون الحديد الذى يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التى لم تكن تكتفى بجعل الإعدام جزاء الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضا عقاباً على الزنى والجبن . وكان خصب نسائهم يفوق قتلى حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوى أن فى مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء سلجوق وسجنه فى الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت فى عضد السلاجقة بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك المحنك الشديد البأس واستولوا على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام ؛ وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بنى بويه ، فأرسل

إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبى طغرل الدعوة فأقبل فى عام ١٠٥٥ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بابنة أخى طغرل وخلع عليه لقب « ملك الشرق والغرب » (١٠٨٥) . وأخذت الأسر الصغيرة فى غربى آسية الإسلامى تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بعثوا فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، فهم لم يخربوا البلاد التى فتحوها ، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التى أقبلوا عليها ، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة إمبراطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذى نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفصل الرابع

أرمينيـــة

(٣٢٥ — ١٠٦٠)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية فى عام ١٠٦٠ م

لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طوالا مطمعاً للإمبراطوريات الكبيرة المتنافسة التى أنشبت فيها مخالبها ، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع عن نفسها ، بينما كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر الأسود . واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها فى التجارة والحرب ، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف ، واحتربت من أجلها رومة وفارس وبيزنطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا . ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط الخارجى أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادى قوى فى التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافى أثمر فيها دينها الخاص وآدابها وفنونها : وكانت هى أولى الأمم التى جعلت المسيحية دين الدولة الرسمى (٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة فى الجدل الذى قام حول طبيعة المسيح ، وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم البشرى . وانفصل الأساقفة الأرمن فى عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمنية مستقلة لها رئيسها الخاص . وظلت الآداب الأرمنية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى اللغة الأرمنية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرمنى غزير معظمه أدب دينى وتاريخى .

وظلت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السياة على نفسها مستمسكة بمسيحيتها . وأقامت أسرة البجرتونى Bagrtuni فى القرن التاسع الميلادى أسرة حاكمة اتخذ رئيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة فى آنى Ani ، وظلت البلاد فى عهدها أجيالاعدة تنعم بالتقدم والسلام النسبى . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ — ٩٧٧) أميراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته فى عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن) ؛ فقد كثرت فيها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها آنى . وكان فى هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالى عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسى والبيزنطى ؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة فى أعاليها ، إلى غير هذه من الخصائص التى دخلت فيما بعد فى الفن القوطى . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية فى عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيزنطية إلى تاردات Tardat مهندس كنيسة آنى أن أعيد بناؤها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة[٣٢]

الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ – ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل — ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته. فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهياكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة ، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعى يرعى قطعانه ويربيها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرثها ، ويزرعها ، ويحصد غلاتها ، ويعنى بالحدائق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ؛ والمرأة تنهمك فى مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل ينقب عن المعادن فى باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتج السلع والأدوات ، والبائع الجائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم المزعزعة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ؛ ويسطون على عسل النحل ، ولبن الإبل ، والمعز ، والبقر ؛ وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند فى وقت ما خلال القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوها فى بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية[1] . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروهما فى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم[2] ؛ وكان العرب أول من زرع القطن فى أوروبا[3] ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الرى المنظم ، ولم يجر الخلفاء فى الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التى هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد فى أثناء القرن العاشر « إحدى الجنات الأرضية الأربع » — وكانت الثلاث الأخرى هى جنوبى فارس ، وجنوبى العراق ، والإقليم المحيط بدمشق فى بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق ، والإثمد ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسى ؛ واستخدم

العربُ النفط والقار فى بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدما فى حرق جثة جعفر[٤] .
وكانت الصناعة لا تزال فى مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت ، وينتظمون فى طوائف . وقل أن تعثر فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلا واضحاً على ارتقاء الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين فى فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لا نجد أثراً لها فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين[٥] . وكان العربُ على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب[٦] . وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فنا . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصناع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » ؛ ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » ؛ وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج فى رقته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر[٧] .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أثمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابى « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفة العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها »[٨] . ومن أجل هذا كان الجمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تتشعع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فشيزار ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضايف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية[٦] . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسما بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغيرها من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار ، والبائعين ، والمشترين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسپانيا في الطرف الآخر ، وتمر في طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت في نهر الفلجا Volga من أستراخان إلى نوفجرود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسي إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصيني إلى خنفو (كنتون) ، واستقرت في هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية في القرن الثامن الميلادي[١٠] ؛ ووصل هذا النشاط التجاري الذي بعث الحياة قوية في جميع أنحاء البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوربا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقت آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff[*]

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في عام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) اللفظان الأولان من أصل عربي وهما التعريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسي . (المترجم)

هى الدينار وأخرى من الفضة هى الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالى ٩٧٥) صكا كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدراً إلى تاجر فى مراكش ؛ وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ؛ وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم فى الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم فى الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها فى هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوربيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرا رغم هذا التحريم ؛ ولم يكد يمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا فى ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء[١١] ؛ ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكى) ثمناً لصندوق للآلئ مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التى يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار[*] (٩٤,٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى) من الجواهر والعطور[١٢] . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد.

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى ديناريوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . أو ١٣٥ و من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن فى هذا الباب تقديراً تقريبياً بـ ٤,٧٥ دولارات . أما كلمة درهم فهى مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو $\frac{8}{10}$ من الدولار الأمريكى . ولما كان مقدار ما فى الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرنا لقيمته تقريبى بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى[١٣] . ولما أن صادر المقتدر ١٦،٠٠٠،٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجصاص ، بقيت لهذا الصائغ الشهير بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن ٤،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار يملكون بيوتاً تتراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (١٤٢،٥٠٠ دولار)[١٤] .

وكان مركز العبيد فى الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادى . ولربما كان عددهم فى الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه فى المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحلون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم ١١،٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض فى إفريقية على ٣٠٠،٠٠٠ أسير ، وفى أسبانيا على ٣٠،٠٠٠ « عذراء » وباع الجميع فى أسواق الرقيق ؛ وإن قتيبة قبض فى سجديانا على ١٠٠،٠٠٠ أسير . وخليق بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هى عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هى وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون فى الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز فى الدين المسيحى أن يسترق المسيحى) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليهم فى الغارات — كالزنوج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من الروسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان فى العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه[١٥] ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا فى المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التى لا تحتاج إلى مهارة فى المدن . وكانوا يعملون خدماً فى البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار فى الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناؤهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم فى الحياة العقلية والسياسية فى العالم الإسلامى ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوى والمماليك فى مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال فى بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه فى البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفى لابتياع خرقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين فى البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولا يزال الكثيرون منهم مخادعين مدعين ؛ ولكن الأسيوى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته فى العمل البطىء ، وقل أن يوجد فى الناس من يضارعه فى تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان فى وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام فى أحسن بناء فى المدينة — وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جمرتها قط ، وكان لهيبها يندلع من آن إلى آن فى البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) فى ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا فى البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسى الشيوعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أى « العلم الأحمر »[١٦] ؛ وقام فى عام ٧٧٢ رجل فى خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل فى جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التى أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخرانى الفتنة نفسها فى عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آزربيجان ، وظلت فى قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة جيوش ، وقتل (على حد قول الطبرى) ٢٢٥,٥٠٠ جندى وأسير قبل أن يهزم ؛ وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به فى مدنها[١٩] ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء ...

وكانت أهم « حروب الأرقاء » فى الشرق هى التى أثار عجاجها رجل عربى اسمه على(*) ادعى أنه من نسل على بن أبى طالب زوج فاطمة بنت النبى . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون فى كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ على هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتحرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التى سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يؤدوا لعلى خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى ؛ وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفدت مؤونتهم هاجموا بلدة الأبلة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوها وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبى إيران والعراق

(*) اسمه على بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام فى العاصمة : وفى عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم — إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت فى خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ، وعرض على من يفرون من صفوف الثوّار المال والعفو ، فخرج على علىّ كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقى منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ، وهى مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (٨٨٣)[٢٠] . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية فى البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية :

الفصل الثانى

الإيمـــان

يلى المال والنساء فى شهوات الإنسان رغبته فى النجاة من العذاب فى الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحى « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن فى شىء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفى ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً فى زمان النبى لما تركه يطأ الأرض بقدمه المباركة ولحمله على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد فى القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً فى القرآن . كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبى أو الصحابة وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها فى القرن الأول من الهجرة(*) : وأنشأوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة فى الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول فى القرن الأول الهجرى ، والحق أنه كان من الصحابة من لايرى تدوين الحديث لكى تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدئ منذ فجر الإسلام فى القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء فى صحيح البخارى أن الرسول أمر فكتبت خطبته التى خطبها يوم فتح مكة ، وفى هذا الباب أيضا نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ منى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أكثر منى رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ولم أكن أكتب . وفى سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق » وأومأ بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبى داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثا قيما فى ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ٥٣ وما بعدها . (ى)

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجمارا اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث فى عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة فى عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧٥ ونشرها فى صحيحة منسوبة فى سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبى نفسه .

تُلقى الكثير من أحاديث النبى ضوءا جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتى بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفى شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مَسّ ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شُفِىَ المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

وتحث بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد فى هذه الناحية أشد من آراء المسيح . وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل(*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبى بخير ما نجده فى المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبى الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم فى الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها فى صيغة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هى التى تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات ... الخ »

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذ كانت الصلاة تؤدى خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق : فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدإ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين : وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ؛ ويحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ؛ أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين(*)(سورة المائدة ٦) وعلى الجُنُب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله فى سكون الليل ، وما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة فى الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال الروحي الجليل . فنى هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم فى جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة والكعبة ويقيم الصلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التي يؤديها بها غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة فى حركتها الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدى الصلاة ، والمساجد تظل فى العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلى أو يستريح . وهناك تحت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون فى الخصومات ، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا فى كل ما يعنيهم ، ويستمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا فى الأعمال التجارية والمالية فى بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام للمجتمع كله . وفى يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلى على النبي ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعو

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب فى هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل المجيء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا فى المسجد (**) .

وقد جرت العادة أن تبقى النساء فى بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحذيتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس فى صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين ؛ ولهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهنا كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين فى المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلا ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه فى أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الأذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح والتكبير والشهادة . (ى)

(**) ليس على المسلم أن يتوضأ فى المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة فى البيت أو فى المسجد على حد سواء .

(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفى الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة . (المترجم)

«المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية» ، وتألفت قلوبهم من حيث لا يشعرون باشتراكهم فى هذه الشعائر العامة .

والواجب الثانى المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبى ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه فى أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال فى المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف فى المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء(*) . وكان فى الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق فى بناء المساجد ، وفى أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتى بالغنائم التى تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن على مثلا يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان . ونقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن لذيذ يحتوى على لحم محرم ، فقال

(*) فرضت الزكاة بالمدينة حقا وفى السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لا تسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينميه حقا .

أما المقدار الذى ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف فى المائة فهو زكاة للمال النقدي ، وفى سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخرى محددة معروفة فى كتب الفقه . (ى)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا[*] » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهبنة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ، ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام في المدينة بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوى فأمر أتباعه أن يحذوا حذوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوما في بعض السنين وثلاثون في بعضها الآخر أمسك المسلمون في أثناء النهار عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلات الجنسية . وأبيح الإفطار للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات والمراضع ، ولما فرض الصيام في أول الأمر كان شهر رمضان في فصل الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع في فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ في حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه شيء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجماهير ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم في أيام الصوم ، أما الأغنياء ففي وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم في أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بجبنة في غزاة فقال : أين صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطعنوا فيها بسكين ، واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبزار والطبرانى ، وواضح هنا أن ذلك كان لضرورة وهى الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي فى إحدى هذه الليالى ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذ كانوا لا يعرفون أى الليالى العشر هي ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، ويهنئ به بعضهم بعضا ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة فى بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون فى يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعنى مرة فى العمر . ولما أن انتشر الإسلام فى أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفى مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه فى روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهى تجتاز الصحراء فى حر الشمس اللافح ، ولهيب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة فى العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدى الفريضة من يستطيع ، أى من تمكنه من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهوادج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحنى بأجسامها فى كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة فى كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده فى اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا فى اليوم ، وخمسين ميلا فى بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفى هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون(*) تنهشهم السباع المترصدة فى الطريق ، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل ، ويزور الحجاج فى المدينة قبر النبى ، ويشهدون قبر أبى بكر وقبر عمر فى مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن فى جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواباً بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم فى أحياء المدينة(**) . ويفرض عليهم طوال إقامتهم فى مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام(†) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك فى أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج فى هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والطرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)

(**) يحتاج هذا الوصف إلى شىء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لايمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت — وأمكنة معينة معروفة لايجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآتى منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام للقاضى منلا خسرو الحنفى ج ١ ص ٢١٨) . (ى)

(†) ليس فرضا على الحجاج الامتناع عن الصلات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون ما دام محرما فقط ، كما هو معروف فى كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن المحرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين فى جميع الأوقات . (ى)

المقدسة فى أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة فى مناسك الحج وفى الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلتهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التى فوق الجدران ، وعما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التى يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومها يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى إلى وطنه ليشرب منه فى بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهى بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصابيح من الفضة معلقة فى سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفى أحد أركانه الحجر الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحنى تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها فى داخل المسجد غير عابئين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطته يتحدثون ، ويصلون ويفكرون فى دهشة ونشوة فى الغرض الذى جاءوا من أجله .

وفى اليوم الثانى(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما فى خارج المدينة ، إحياء لذكرى هاجر وهى تبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفى اليوم السابع يخرج من يبغون « الحج الأكبر » إلى جبل عرفات الذى يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشىء منه فى عودته إلى بلده ولكنا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون فى اليوم الثانى من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافه بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طوافه القدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق جـ ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤) . (ى)

بكة مسيرة سبع ساعات — وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات(*) ، ثم يقفون وهم عائدون فى منتصف الطريق ويقضون ليلة فى المزدلفة . وفى اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبح ولده . . . وفى اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرهما من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات(**) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبى نفسه فى مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون فى جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح فى هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يحلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا فى الرمال ، وبذلك ينتهى الحج الأكبر ، ولكنّ الحجاج فى العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدأون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنى البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفى الجماعى بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها فى هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التى

(*) يخطب الإمام فى موسم الحج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامى وسيرة الرسول ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية فى اليوم الثامن من ذى الحجة بل تكون فى اليوم العاشر أى يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية — يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام .
وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يبتسم حين يرى أمثال هذه العادة في الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحين في إحدى شعائرهم « يأكلون الله » . فالمسلمون لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجي لصلة روحية وغذاء روحي . وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين(*) يؤمنون بالسحر(**) ، وقلما يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء الحسد . ومنهم من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هي المحور الذي تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح في كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين[٣] كما يلبس نصف المسيحيين تمائم لترد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها ليست من الدين بل هي من الخرافات التي لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)
(**) أصح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن به الجهال في كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحس ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم فى مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده .

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الدمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، والجبرية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شىء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها . وحسبنا أن نُحَيِّى فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة . ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل علىّ وولده الحسين وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولا ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمين فهم الذين انقسموا شيعاً ، أما الدين نفسه فينهى عن هذه التفرقة « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » . (المترجم)

مغتصبون لا حق لهم في الخلافة . وقد اغتبطوا حين ولي علي الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح علي والحسين بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضريحيهما تعظيما لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس — أي تجسد القديسين مراراً بعد موتهم — فقالت إن أبناء علي هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهي ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذي يقوم ضريحه في مشهد بشمالي فارس ، هو « مجد العالم الشيعي » . وقد حدث في عام ٨٧٣ أن اختفى الإمام الثاني عشر محمد بن حسن وهو في الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يمت ، ولكنه سيعود في الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة .

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء(*) يفوق عداءها لمن يعيش في البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها في هذا شأن الفرق المختلفة في سائر الأديان(**). ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء فرضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٫٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعفى منها الرهبان

(*) إذا كان العداء قد استحكم في يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التي يصفه بها المؤلف ، ومهما يكن هذا العداء في الماضي فإنها الآن تعيش في وئام وقلما يعرف الرجل العادي إلى أي الفرق ينتمي زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداءها للكفرة الذين يعيشون في البلاد الإسلامية . (ى)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمي والشديدو الفقر . وكان الذميون يعفون فى نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها — ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف فى المائة من الدخل السنوى ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم فى المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتى يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضاتهم وقوانينهم ، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان الخلفاء الراشدون أشداء عليهم(*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه عام ، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقدسة ، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقده ، قد أغفل العمل به ، وظلت الكنائس المسيحية فى مصر تتمتع فى أيام هذا الخليفة بالميزات التى منحتها إياها الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربى .

وكان اليهود فى بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين ، إلا أنهم فى عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة الذميين الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لهؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا فى الدين ما داموا مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبى بكر الصديق بغير المسلمين من أهل الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل للفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعيالهم من بيت المال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا ينعمون فى عهد الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام ، ومعروف أن الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحيانا لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (ى)

مع المسيحين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية فى حياتهم وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس . وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين . وكان المسيحيون فى بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علنا ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا يمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا فى الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضى البور ، وكانوا يتذوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة ، ويستمتعون فى أسفارهم بضيافتها ، وبلغت العلاقة بين الدينين فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين . وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود . فقد كان سرجيوس والد القديس

يوحنا الدمشقي خازن بيت المال فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عددا قليلا جداً منهم ، وكثيرون من اليهود فى آسية ، ومصر وشمالى أفريقية . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى ، فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراكش ، والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليونا من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب فى عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، فى نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ؛ يدعون إليها فى أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقى فى زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربى يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان فى بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلى، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدى. غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن فى زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، فى أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون فى سراويل منتفخة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوى بجلبابه الفضفاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبى عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصديرياتهن ، ومناطقهن البراقة ، ونُقبهن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبى رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) النقب جمع النقبة وهى ثوب كالإزار تجعل له حجزة مطيفة وهى skirt بالإنجليزية . (المترجم)

غدائر تنوس على ظهورهن ؛ وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفى أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخلن بعد عام ٧١٥ يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام ، وبهذا كان فى وسع كل امرأة أن تكون فاتنة جذابة ؛ لأن عينى المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسبيان العقول . والفتاة العربية تبلغ الحلم فى سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً فى سن الأربعين ، وهى بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء ؛ وحدود الزواج أوسع فى الإسلام منها فى كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء فى أيام النبى والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير فى حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذ كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور فى البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباه[٤٢] . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر فى كثير من الأحيان عن اللواط[٤٣] . ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء فى ثيابهم وعاداتهم ، يضفرون شعورهم ، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع[٤٤] . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان فى مكة من المخنثين ، وأبصر الهادى امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور(٤٥) . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث فى بلاط هرون الرشيد ، وفى قصائد شاعره المحبوب أبى نواس ولما يمض على زمن المادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبها أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط فى البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على الدوام ، وقد ثاروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزى لهـا بإثارة الشكوك التى يثيرها الذكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن(٤٦) ، ولكن المسلمين فى القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران فى الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً فى المساجد(٤٧) . وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب فى ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »(٤٨) . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان فى أيام الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء فى بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل فى الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن فى البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن فى الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان فى وسعهن أن تتزاورن ، ولكن ذلك كان فى العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال فى

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للأثاث ، وأنه ضرورى لمن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وقفاً على الذكور دون الإناث . وكان أشد من هذا قسوة عليهن منعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها ، فكن يبعثن إليها من يقضى حاجاتهن ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهن فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائه ، وأقاربه الأدنين ؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن . وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإنا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سرية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزاجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لهن (٥٠) ؛ وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان .

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلاً من سور القرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليما متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات (٥١) . وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن من تبحرن فى العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن فى أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الخفر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجئن فى الحمام أسرعن بتغطية وجوههن(*) ؛ وكن يدهشهن عدم احتشام الأوربيات اللاتى يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذى يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن(٥٢) .

وكانت شئون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها فى معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يزوجن فى العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن فى سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة فى سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج فى حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قصير ، ويصحبه فى بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذى هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زجته الخاصة ، ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول « باسم الله الرحمن الرحيم »(٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان فى وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هى ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(*) لاشك أن هذه إحدى الفكاهات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع . (المترجم)

فى الإسلام فى أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة منهن الأخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهن فى وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء[٥٤] . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ فى بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعمائة زوجة[٥٦] . وكان فى وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أى يكون له أى عدد من الجوارى ، وكان لهرون الرشيد عدد كبير منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرون[٥٧] ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكى) [٥٨] . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن فى أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار[٥٩] ؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع نظام الحريم وجود الخصيان ، وإن كان هذا محرماً فى الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحيون واليهود فى استيرادهم أو تهيئتهم ، وكان الخلفاء والوزراء ، والكبراء يبتاعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى الكفاية . وكان من النتائج التى ترتبت على نظام الحريم فى القرون الأولى التى تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذى كانوا فى حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره فى قوة أقدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المـأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، ولم يكن فى وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هى فكان عقابها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبته النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب فى معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما فى العالم من ثراء[٦٠] . وأمثال هذا القول كثيرة وهى فى بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة فى بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هى أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه فى شىء من أملاكها . وكانت فى داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدير بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية فى المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفى ذلك يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »[٦١] . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار فى داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها . وقد أفرد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٤) فى أحد كتبه فصلا لموانع الحمل ، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية[٦٢] . وأورد ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) فى كتاب القانون الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل .

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحى فى النواحى الخلقية الخارجة عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلا يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعا (سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلا باقيين فى كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة فى أعمال الحكم والقضاء فى بلاد الإسلام فى بعض العصور كما كانا منتشرين فى البلاد المسيحية . ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحى فى خلقه التجارى[٦٣] ، وفى وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التى يعقدها مع غيره[٦٤] ؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك فى الحروب الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ، إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو إدخال السرور على زوجة ، أو خدعة فى الحرب لأعداء الدين[٦٥] . والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة فى التأدب . والمسلمون كاليهود يحيي بعضهم بعضا ، وينحنى الواحد منهم لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة ، والدين الإسلامى يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر بالدخل ، فالفقراء يهملونها حتى تتراكم الأقذار على أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليفون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون . والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها فى القرآن ، لأنها فى رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة ، وكان الأولاد يختتنون فى سن الخامسة

أو السادسة[٦٦] . وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال كثيرة فى البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت فى القرن العاشر الميلادى تحتوى على ٢٧٫٠٠٠ حمام[٦٧] . وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان فى كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة للشعب وبخاصة فى فارس ، وكانت تضفى على الحياة بهجة ومتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هى وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ؛ وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الحبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) . . . . ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم فى القرن العاشر الميلادى كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرمى بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمثاقفة ، وركوب الخيل ، والجحف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب[٦٨] . وإذ كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ؛ وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبى قد نهى عن صنع قطعه فى صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشراً ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة فى سباق . وقد ظل صيد الحيوان مقصوراً على

(*) الجحف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو فى هذه الأيام . (المترجم)

أرق طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه فى أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربى أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ، وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحى بعد ، وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التى كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد فى مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروفنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . ولما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه فى رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم فى رقاب أربعمائة من الروم ، أسِرُوا حديثاً فى إحدى الحروب ، وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعمائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر(٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى فى السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشىء من الاحتقار ، ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛ فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ، منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقى على هذه الحال يعانى أشد الآلام حتى مات(٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المألوف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان ، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ؛ يجد الرضا فى البساطة ، ويصبر على بلواه فى هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ، وشمم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه المنسوج من الكتان ، استعداداً منه فى أى وقت للقاء ربه ، فإذا أنهكه المرض والتعب وهو سائر فى الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه فى كفنه ، ونام فى الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه الرمال السافية(٧١) .

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية فى الثلاثين السنة التى تلت وفاة النبى جمهورية دمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذى كان مفهوما من هذه العبارة فى الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين فى اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شىء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون فى ذكائهم وفى ضمائرهم ، ولهذا فإن الدمقراطية فى أحسن صورها لابد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الأبجركية فى المجتمعات التى لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتى تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والدمقراطية لا تجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع فى اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسة الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة فى عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبا سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شىء رئيس مجتمع دينى هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن فى مقدوره أن يصدر قرارات جديدة فى الشئون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده — وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء(*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية : ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشريفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فيمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ؛ وكان يلى الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاشك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لاقوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية فى عنادهم وشذتهم ، وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومى لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام فى عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (نحو ٤٢,٤٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) فضلا عما أضيف إليه فى ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها(٧٢) . ولم يكن ثمة دَيْن قومى ، بل حدث عكس هذا فى عام ٧٨٦ إذ كان فى الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان فى عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحمام يدرب ويستخدم فى نقل الرسائل — وكان هذا أول استخدام له معروف فى التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان فى بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة فى بلاد العرب ، كما كانوا فى بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء فى بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد فى أحد الأحاديث أن النبي نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون فى النار(٧٣) .

وكان المفروض أن الشريعة التى تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها فى القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامى(*) ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا اليهود وأحكامهما(٧٤) . وكانت الزيادة المطردة فى هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء فى البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأيدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت فى البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبى حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً فى الشريعة الإسلامية باتباع مبدإ العباس فى تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذى سن فى أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعى أو حضرى . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلل فى فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبى حنيفة فى هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهى تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التى أوجدتها(٧٥) .
وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية فى التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ — ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت فى المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذى يجب أن يؤخذ به فى تفسير الحديث والقرآن .
ويرى محمد الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) الذى عاش فى بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع فى كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغى ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلى فى الفلسفة ، وألقى به المأمون فى السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بآرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التى يعترف بها أهل السنة فى الإسلام ، من الاتفاق فى التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف فى المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذى ظل قائماً مائة عام . فهى كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشرى الذى لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهى كلها تسرف فى وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافا لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودى ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصفيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد فى القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة الصحيحة التى يأكله بها(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامى ، ولكن اختلاف الآراء فى القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته فى بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبى حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هى النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكاً يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير(*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم — مع هذه التحفظات — بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله . ولقد كان فى مقدورهم أن يصادروا كل شىء ، أو أن يخربوا كل شىء ، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر(٧٧) . وفى زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامى صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء ، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

فى أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقى فى عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى فى عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

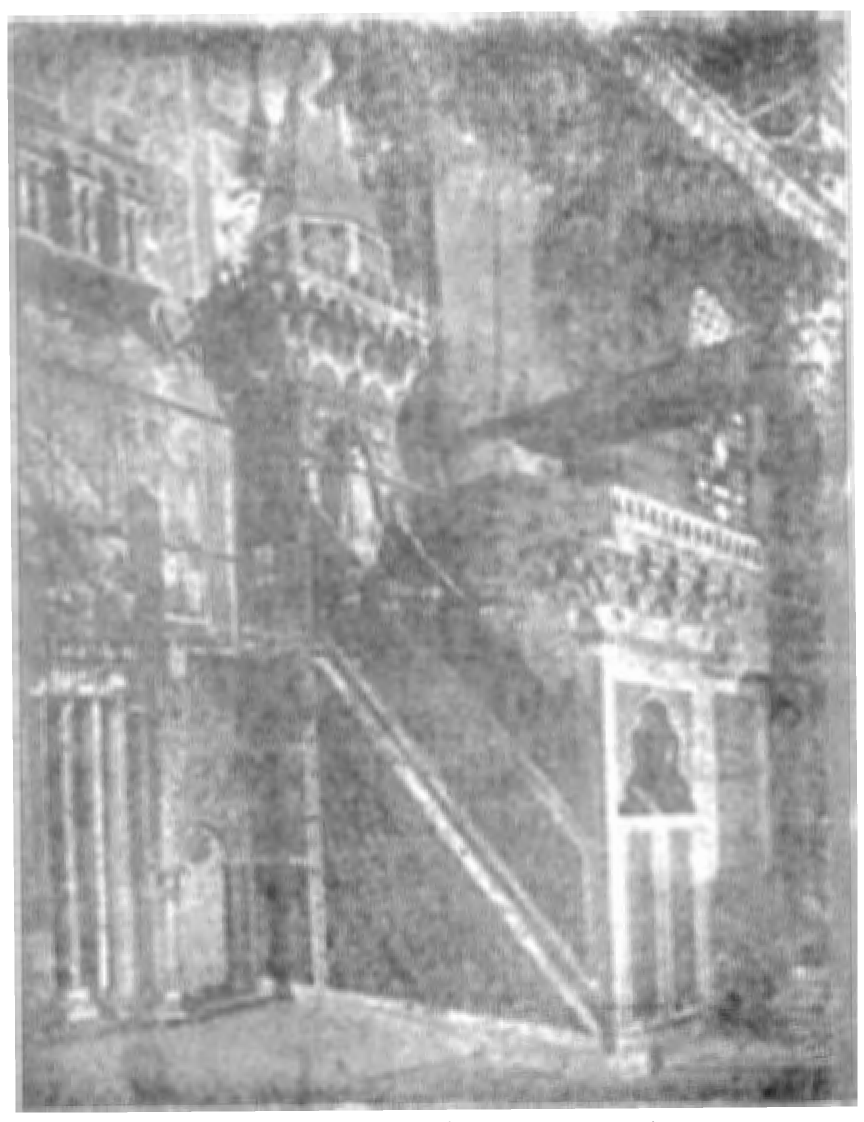
الفصل الخامس

المـــدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية في أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية في صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس في المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريباً غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون في رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالجص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها ، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن في أولاهما الكعبة التي كان العرب يقدسونها في الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخما ذا روعة وجمال ؛ وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفي نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملا من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكا المسلمون من أن مسجد



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من الخشب

خراج مصر فى تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد فى الطرف الجنوبى من المدينة (٦٩١ — ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد فى عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه فى عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيا بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لاتزال كما كانت فى أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلقا چستنيان التى كانت قائمة فى أورشليم . ويرى المقدسى أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموى العظيم المقام فى دمشق ، ويقول المسلمون إن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التى يعتقد بنو إسرائيل أنها سرة الدنيا) والتى أراد إبراهيم أن يضحى عندها بإسحق(*) ، والتى تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتى شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبى صعد عندها إلى السماء ، وأن الإنسان لو أوتى إيماناً قوياً لأبصر فى الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة فى عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخى (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطى — السوورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامى » (والثلاث الأخرى هى مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء فى أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدماً ، وهى قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٥٢٨ قدما . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) الذى يعتقده المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة — عتباتها مصفحة بالبرنز — تؤدى إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمد المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمنة الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقل فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمد الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمد بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

« فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة»[٨٠].

وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار ، ووصف اليعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

بارزة فى البحر ، ويقول ناصرخسرو فى عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أو ست ، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً فى أسواقها النظيفة[٨١] . وكان لطرابلس القائمة فى شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم فى عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ! . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلا » [٨٢](*) .

ويصف اليعقوبى بعلبك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسى إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها فى عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما فى بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبحدائقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل فى كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم فى عام ٩٦٥ ، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل . ويصفها المقدسى بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدى كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان فى هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته . وكان بالقرب منه خمس مدارس ، وبيمارستان ، وست كنائس مسيحية . وكتب

(*) هذه هى ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما جاء فى كتاب معجم البلدان لياقوت فهو « . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » .
(المترجم)

اليعقوبى فى عام ٨٩١ يقول إن حمص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسى إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة[٨٣] .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق روئى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها فى موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم — وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقى عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذى من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان[٨٤] ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذى يبلغ طوله اثنى عشر ميلا وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسى إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصبا ، وأوفرها مالا وأكثرها جنداً[٨٥](*) » .

وفى قلب هذه المدينـــة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتلألأ فى أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء ، والذى تلطف جوه الفساق والشلالات التى يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجدها العظيم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسمائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من دمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . وبها ضياع كالمدن » ولم يقل الإدريسى إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه فى ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد فى أى مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة .
ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد فى كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت مختنقا ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض فى الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجيء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم فى بنائه من العمال اثنى عشر ألف عامل ، أتموه فى ثمان سنين . والرحالة المسلمون مجمعون على أنه أفخم بناء فى بلاد المسلمين ، ويرى المهدى والمأمون من الخلفاء العباسيين — وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق — أنه لا يضارعه بناء غيره فى جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، فى داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه فى الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن — منها واحدة هى أقدم ما شيد من المآذن فى الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الرومانى ، وما من شك فى أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبة — ويبلغ طول قطرها خمسين قدما — مكفتين بصفائح الرصاص . أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثية الطراز مكفتة بصفائح الذهب ؛ ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس ؛

وهذا الطرز الثانى من العقود أول ما أقيم من نوعه فى بلاد الإسلام(*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشانى المطعم بالميناء ، وفى داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفى أحد جدرانه المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثنى عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى »(**) .

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا »(†) .

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد فى هيكل فى كهف ببلدة نازك فى الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز فى كنيسة مسيحية شيدت فى نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

(**) هذا من قول المقدسى وفى الأصل الإنجليزى « مائة سنة » ولكن المقدسى يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم فى عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكد يبقى منه شىء فى عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً فى عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفى وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذى كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذى لم يمحه المسلمون . ونص هذا النقش هو « مملكتك أيها المسيح مملكة خالدة ، وسلطانك باق إلى أبد الدهر »(٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها فى اتجاه الشمال الشرقى أيضاً تقع مدينة تبريز التى بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذى نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (وكانت لا تزال وقتئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها — فى شرق بحر الخزر — تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة فى القرن العاشر الميلادى قاعدة إحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كلهم شمس المعالى قابوس ، الشاعر العالم الذى استضاف ابن سيناء فى بلاطه ، والذى ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخم يعلو فى الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذى بقى حتى الآن من تلك المدينة التى بلغت فى أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التى لا يزال الناس يرددون اسمها فى شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التى كانت فى وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند — وكانتا فى العادة بعيدتين عن منال أيدى الجباة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة ، ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التى تطاول قمر السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذى شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغروب فى القرن الحادى عشر التقى بنحو اثنتى عشرة مدينة زاهرة فى إيران — هيراة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمذان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التقى فى العراق بمدينتى البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان السائح يشاهد فى كل مكان يمر به قبابا براقة ، ومآذن متلألئة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبيمارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التي يتغنى بها الشاعر الأنورى فى شعر فارسى يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التي لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس فى جمالها قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذى يبعث الحياة فى الأجسام ، وأحجارها تضارع فى تلألؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وجناتها المليئة بالحور العين لتعدل فى ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس فى الهواء(٥٩) .

وكان فى موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر فى عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر . وازدهرت المدينة القديمة فى عهد الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامى عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة . ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو فى الصيف ، خال من البعوض الذى يكثر فى البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا فى ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك الثوريين ؛ وما من شك فى أنه وجد فى موقعها هذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين فى داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائى بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسى وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله » اسما جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال فى بناء أربعة قصور عظيمة من الآجر له ولأهله ولدواوين الحكومة ؛ وكان يقوم فى وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبي » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة ؛ ثم شاد المنصور فى خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم فى هذا القصر معظم أيامه . وكان فى وسع من يقيم فى هذين القصرين أن يرى من نوافذها مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التى جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفى عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على ضفة النهر الشرقية الفارسية لكى يستطيع ولده المهدى أن يتخذ له فى القصر مسكناً مستقلا . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هى ضاحية الرصافة(*) التى كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون فى هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها فى اتساعها وثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقى الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة — فهذا حى بائعى العطور ، وذاك حى صانعى السلال ، وهنا حى صانعى الأسلاك ، وهناك حى الصيارفة مستبدلى النقود ، وذاك حى البزازين ، وهذا حى الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبقى ما بقى صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده ؛ وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠٫٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين[٩٠] ؛ ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ؛ وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتهد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته ؛ وما من شك فى أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم فى حياتهم الشاقة بأملهم فى نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا فى بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التى تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت فى الداخل « لازوردا وذهبا » . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبى الفداء لا يكاد يصدقه العقل يقول فيه إن قصر الخليفة فى بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢٫٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانه ٣٨٫٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و١٢٫٥٠٠ قطعة من الحرير[٩١] ؛ وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل فى المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع(*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكى هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه فى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ، وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم فى « القصر الجعفرى » إلى آخر أيام حياته . ولما أخلت قصـــور المنصور

(*) أى أكثر من ستمائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت فى مكانها قصور أخرى : وقد أنفق المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠,٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ١,٩٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) : وفى وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان فى اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال[٩٢] : وشاد المكتفى بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان فى البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية . وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى بناء قصر المعزية . وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة :

وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأثمان ، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل فى فتاة إن رنين خلاخيلها قد سلبه عقله[٩٣] . ولم تكن النساء فى العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسمار الفكهون ، وما من شك فى أنهم كانوا يتحدثون عن الحب ؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفى المجتمعات التى كانت أكثر من هذه أدباً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنيين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية[*] ؛ ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئ ، وزردشتى . ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادئ الذى يمتاز بالأدب والمجاملة[**][٩٤] . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى ؛ وما من شك فى أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج قد فاق الغرب فى الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء .

ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكدحهم .

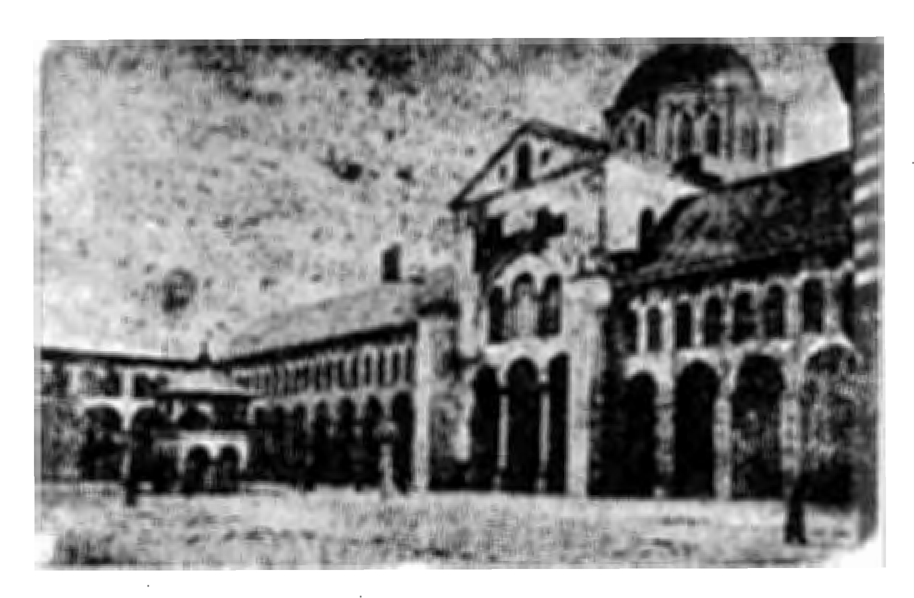
(*) أتباع مانى وهو رجل من أهل إكباتانا (همذان) (٢١٥ — ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .

(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن فى كتابيه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينا كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين فى الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورائحتها ، وكان الناس فى أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون فى تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون فى صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ فى جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الخراج الذى كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان فى قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .



(شكل ١) قبة الصخرة فى المسجد الأقصى



(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق



(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

الباب الثاني عشر
الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية

٦٣٢ — ١٠٥٨

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء »[1] .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية في بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا في بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد ، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء . وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالمجان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافها يستطيع أداءه جميع الناس ؛ فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق في بلاد الإسلام فى بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدما فى بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده فى مكة سنة ٧٠٧ ، وفى مصر سنة ٨٠٠ ، وفى أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفى القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفى صقلية سنة ١١٠٢ ، وفى إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفى ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفى إنجلترا سنة ١٣٠٩[٧] . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبى إنه كان فى بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلا عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع فى القرن العاشر الميلادى عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثمانا عالية للمخطوطات النادرة[٨] . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شىء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون فى معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت فى معظم المساجد مكتبات ، كما كان فى معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان فى مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التى اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافى فى مكتبتى مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التى يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٩] ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقيم في بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعمائة جمل لينقل عليها كتبه[١٠] ؛ ولما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة »[١٢] . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم — اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج — ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . ففي هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التي فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم في العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هؤلاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التي جمعت كثيراً من أشتات الآداب والعلوم

لولاها لخسرها العالم ، وبمؤلفاتهم فى النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخى ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التى لولاهم لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمپليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبى ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربى منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا — إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة فى سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشترعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحت إليه أن يجعل نصيب الدين الذى ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذى يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين فى كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم فى عام ٩٨٧ كتابه « *فهرست العلوم* » أرخ فيه لكل كتاب ظهر فى اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، فى كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفى وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامى فى أيامه إذا عرف أن الكتب التى ذكرها — على ما نعلم — لم يبق منها الآن واحد فى الألف[١٣] .

وشبيه بليفى فى الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (٨٣٨ — ٩٢٣) عند المسلمين[١٤] . وكان أبو جعفر من أصل فارسى كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد فى طبارستان الواقعة فى جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف فى بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر فى بغداد واشتغل بالقضاء . ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب *أخبار الأمم والملوك* قص فيهَ تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقى إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقى . ويرى الطبرى ، كما يرى بوسويه Boussuet ، يد الله فى كل حادثة تقع فى العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « فى امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض[١٦] . ونهج الطبرى نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ فى كمها)[١٧] . وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثانى فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس فى عهد الساسانيين قصصاً مقبولا حياً ، ذا روعة فى بعض المواضع . ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهى فى العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت فى أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعنى بذكر المصادر ؛ ولكن الطبرى لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداساً من ثمار الجهد المضنى لا عملا من أعمال الفن .

ويرى المسعودى ، وهو أعظم من جاء بعد الطبرى من المؤرخين ، أن الطبرى أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودى من أصل عربى فى بغداد، وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين : وقد جمع ثمار رحلاته هذه فى موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ، رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما يطيقون ؛ ثم نشر موجزاً لما كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة مثل ما يجده هو منه ليصرفه فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذى نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب « **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ». ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحى الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ، كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، فكان فى العالم الإسلامى كما كان پلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يحاجز نفسه عن أن يروى بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشىء فى الدين ، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه : وقد لخص فى آخر سنة من حياته آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب **الاستذكار لما مر فى سائر الأعمار** ، وكتاب **ذخائر العلوم وما فى سائر الدهور** . وقد أشار إلى تطور الكائنات من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان(١٨) . ولعل هذه الآراء قد جرته إلى المشاكل مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه(١٩) .

ووافته المنية فى القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم فى اتساع دائرة جهودهم ، ونواحى نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً ، وأنهم لا يفوتهم شىء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين فى العالم المسيحى . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون فى دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ، وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التى تتحكم فى الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداساً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة — عن الأمم ، والحادثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً(*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمساكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلا قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم فى بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلىء بالنذر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن فى وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جبن Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلا موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمد . على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربى أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيسهم بمؤرخى القرن العشرين . (المترجم)

على الشرق حكماً صحيحاً نزيها ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها فى الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التى تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهى التى تبدو ذات روعة وجمال لبنى أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثانى

العلوم (*)

لم يدخر المسلمون فى هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً فى العمل على إيجاد هذا التفاهم الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق : فاقد أدرك الخلفاء تأخر العرب فى العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة فى بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة فى الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بنى أمية وبنى العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية — وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين — يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس فى الهندسة إلى أيدى المسلمين . وأنشأ المأمون فى بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمى ، ومرصد فلكى ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب عن العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى چورج سارتن Geroge Sarton صاحب كتاب « المدخل فى تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال فى تاريخ البحث العلمى فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء فى كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار (نحو ٩٥٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . ويقول ابن خلدون[٢٠] إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التى اهتزت بها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون — نقول إنها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى :

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفى هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمة طبيب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) : وقد ترجم وحده — كما يقول هو نفسه — إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيماوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقراط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التى ترجمها ذهباً . ولما ولى الخلافة المتوكل عينه طبيبا لبلاطه ، ولكنه زج به سنة فى السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه فى أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفى تولد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسى ، وهو كتاب كان له أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة فى علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس فى الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من المخروطات لأبولونيوس البرجاوى Apollonius of Perga وكتاب الحيل لهيرو الإسكندرى وكتاب الخصائص الآلية للهواء والغازات لفيلون البيزنطى . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون فى ركاب الفرس فى هذه النواحى من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا فى ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدى المسلمين إلا فى الصورة التى أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها بورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة فى صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش فى القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكد العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة فى كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التى كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان فى صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقة إلى أيدى المسلمين إلا ما كان منها فى المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام فى الشرق وفى أسبانيا ، ومنها إلى شمالى أوربا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأناً فى تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية فى بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتنفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد فى الحكم . وكان الراهب سفيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالى الفرات يكتب باليونانية رسائل فى الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية فى خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند فى هذا فى المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . فى عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة السدهنتا وهى رسائل هندية فى علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هى الوسيلة التى وصلت بها الأرقام « العربية »(*) والصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام[٢١] . فى عام ٨١٣ إستخدم الخوارزمى الأرقام الهندية فى جداوله الرياضية ؛ ثم نشر فى عام ٨٢٥ رسالة تعرف فى اللاتينيه باسم Algoritmi de numero Indorum « أى الخوارزمى عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العدّية العشرية . وفى عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد فى مفاتيح العلوم إنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم فى مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف[٢٢] . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher ، وحور العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ — ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر . وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ — ٩٠١) ، فضلا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ — ٩٢٩) وهو رجل صابئى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هپارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هپارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التى نستخدمها الآن فى جوهرها .

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكى ، ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار فى وقت واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل — وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا فى الوقت الحاضر . ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل . ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية ، وكانوا يسيرون فى بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم —الفرغانى من أهل فرغانة وهى ولا يةوراء جيحون (حوالى عام ٨٦٠) — كتاباً فى الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوربا وغربى آسية سبعمائة عام . وأوسع منه شهرة البتانى الذى ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات » الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام — منها تقديره زيوح الاعتدالين(*) بـ ٥٤،٥" فى العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥' ٢٣° (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذى كان يعمل تحت رعاية سلاطين بنى بويه الأولين حكام بغداد والذى كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهى Tycho Brahe بستمائة عام(٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التى كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدما ، وآلات سدس نصف قطرها ثمانون قدما . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

(*) Procession of the Equinoxes

ووصل منهم إلى أوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة فى أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر — الذى عاش حوالى عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحلات ماركو پولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاما . وفى ذلك القرن نفسه كتب ابن خرداذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته فى تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد اليعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان فى عام ٨٩١ **كتاب البلدان** الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلاً عن بلاد الأندلس ، ولاقى فى أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ **كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، وهو أعظم كتاب فى جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفا ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعرا ، وعالماً فى الطبيعيات — وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليبنتز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشى ، عند

الغربيين : وقد ولد كما ولد الخوارزمي بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه: كما تمثل فى الخوارزمى زعامة موطنه فى غرب بحر قزوين من الناحية العلمية فى هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التى بلغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً فى بلاطهم . وسمع محمود الغزنوى بكثرة من كان فى خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيرونى ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيرونى ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة فى بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البيرونى قد دخل الهند فى ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف فى الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذى لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلا من شمالى آسية زار محموداً ووصف له إقليما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه فى السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيرونى إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحا أقنع به الملك وأنجى الزائر(٣٦) . وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ ينفح البيرونى بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيرونى نفسه يردها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم *الآثار الباقية* فى التقاويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزردشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيرونى يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

يقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان في العهد الساساني من حضارة عظيمة[٢٧] . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد في البحث العلمي ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذي الضمير الحي في أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال في مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن في بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشباه ذلك . . . . . وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد » .

وبينما كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيروني يقضي السنين الطوال في دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذي نشره في عام ١٠٣٠ والذي يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً في التاريخ[٢٨] . ولم يخص تاريخ الهند السياسي إلا بحيز صغير في كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلا من فصوله وخص أديانها بأحد عشر .

وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافاد جيتا وأدرك ما بين تصوف الفدانتا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكري الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام[٢٩] . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفي بدينه للهند

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس والمجسطي لبطليموس .

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث في العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، ودائرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك في كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل يوم ، وحول الشمس مرة في كل عام ، بنفس السهولة التي تفسر بها إذا افترضنا العكس[٣٠] . وقال إن وادي نهر السند ربما كان في وقت من الأوقات قاع بحر[٣١] ، وألف كتاباً ضخما في الحجارة وصف فيه عدداً عظيما من الأحجار والمعادن من النواحي الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيغه[٣٢] . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الإلتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث في القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمل . ووضع في الهندسة حلولا لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف موسوعة في الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرقة[٣٣] . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخا لخوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته في الجيل الذي ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسي لتدل على أن الفترة الواقعة في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر هي التي بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهي التي وصل فيها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها فى الميدان الذى اقتصر فيه اليونان — على ما نعلم — على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلا كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات فى الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التى تميل إليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئات منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذى أخذه المسلمون من مصر هو الذى أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مئات الكشوف التى تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التى جروا عليها فى اشتغالهم بهذا العلم وهى أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين فى ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع فى نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذى يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الخسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة — يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها — إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحرى[٣٦] . وكان الاعتقاد السائد أن الذى يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر فى مؤلف إيطالى ظهر فى القرن التاسع أو العاشر(٣٥) الميلادى ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تطلى به الحواجب .

يطيل حياته . وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ — ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر . وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا . وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثمائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر ، ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر[٣٧] . وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان[٣٨] . واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله[٣٩] .

الفصل الثالث

الطب

وما فتئ الناس فى هذه الأثناء يحبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة فى تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الافتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت فى الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية .أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء فى كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالمكى ، والمر ، وأدخلوا فى الأدوية مستحضرات طبية جديدة ــ منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة فى علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس فى دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحميات[٤٦] ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق فى بعض العمليات الجراحية[٤٧] ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق[٣] ، ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت[٤٤] ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمى والمستشفى الفارسى الذى كان فى جنديسابور ، وأنشئ أول بيمارستان معروف لنا فى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى فى القرن العاشر الميلادى ؛ ويحدثنا المؤرخون فى عام ٩١٨ عن مدير لها فى بغداد[٤٥] ؛ وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذى أنشئ دمشق عام ٧٠٦ ؛ وفى عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير — الطبيب — هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون فى مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ؛ وكان أطباء يذهبون فى كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق فى معظم الأماكن ما هى خليقة به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت فى أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

وكان فى بغداد وحدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً[٤٦] . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو ٧٫١٠٤٫٠٠٠ دولار أمريكى) ؛ ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلا كل نصف عام[٤٧] . وقد نجح فى علاج الشلل الهستيرى فى جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) ، الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب **العشر مقالات في العين** ، وهو أقدم كتاب دراسي منظم في طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه **تذكرة الكحالين** يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٨٤٤ — ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده في بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعيها ، والطب في بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب **الحاوى** وهو كتاب في عشرين مجلداً ، ويبحث في كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber cntinens ، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤[٤٨] . وكانت رسالته في الجدرى والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامى ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى **كتاب المنصورى**

أهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريموني إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولا فى أيدى طلاب الطب فى أوربا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهدأ من تحمس الأطباء لتحليل البول فى عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه فى بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس فى الوسع » ورسالته الأخرى « العلة التى من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء فى المدن فى علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب فى ذلك » . ولقد كان الرازى بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريرى (الكلينيكى) فى العصور الوسطى[٤٩] . ومات الرجل فقيراً فى الثانية والثمانين من عمره .

وقد علقت فى مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما : الرازى وابن سينا . وكان أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التى كتبها بيده — وذلك النوع من السير نادر فى الأدب العربى — بكثرة ما كان يحدث فى العصور الوسطى من تقلب فى حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد الصيارفة فى بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوى عليه عقله العلمى من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشىء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة »[٥٠] .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذ وهو شاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالا فى مكتبة السلطان الضخمة : ولما قضى على سلطان السامانيين فى أواخر القرن العاشر الميلادى لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيرا من الصعاب ، وفيها عين فى منصب فى بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوى فى بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همذان ، وشفى الأمير على يديه فاتخذه وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ فى بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى مخبئه يؤلف كتبه التى كانت سبباً فى شهرته . وبينا هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به فى السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى فى زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ فى بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورحب به الأمير وكرمه ، وهنا التف حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التى وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة ‏ ‏ واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ‏ ‏ ماء الحياة يراق في الأرحام

وأثرت حياة الكدح في صحته فمات في السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .

ولقد وجد ابن سينا في صروف حياته ، في مناصبه أو في سجنه ، متسعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريبا من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلقت واحدة منها إلى رباعيات عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية في النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ‏ ‏ ورقاء ذات تعزز وتمنع(*)

ولا يزال الطلاب في بلاد الشرق الإسلامي حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس في الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات مبتكرة في الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة النوعية . وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجا للوضوح في العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما يحدث في أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التي تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة في أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

محجوبة عن كل مقلة عارف ‏ ‏ وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ‏ ‏ كرهت فراقك وهي ذات تفجع

لكنهما تتركان صخور النوع الثانى على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية فى كثير من الجبال يدل على أن المياه هى أهم الأسباب التى أحدثت هذه النتائج(٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولها كتاب الشفاء (شفاء النفس) ، وهو موسوعة فى ثمانية عشر مجلداً فى العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ؛ وثانيهما كتاب القانون فى الطب ، وهو بحث ضخم فى وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة فى البلاغة ، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتمييز يصبح عنده آفة لايجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لايشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب(٥٢ ا) هذا الكتاب الذى يحتوى ألف ألف كلمة . والطب فى رأيه هو فن إزالة العقبات التى تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولا فى الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفى الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكي ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر — واللهاة . ويلخص الكتاب الثانى ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث فى بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والدُّبيلة(*) ، والنزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الذبيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأمبييما أى تجمع الصديد فى جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات ، وفى الجراحة ، وأدهان التجميل ، ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفى الكتاب الرابع — الخاص بعلم العقاقير الطبية — تعليمات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير . وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر محل كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه فى دراسة الطب فى المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه فى جامعتى منپلييه ولوڤان إلى أواسط القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب فى الطب فى العصور الوسطى ، وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيرونى أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم أعظم علمائها فى البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحى فى الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا فى معرفة تاريخ العصور الوسطى ؛ وليس فى وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوثت بالأوهام شأنها فى هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التى تجمعت لديها أكثر من تفوقها فى الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما يكن قصورها فى هذه الناحية قد نمت فى علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية ، وهى أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوربا بعد أن أعلنها جابر بخمسمائة عام كان الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين فى الشرق .

الفصل الرابع

الفلســـفة

لقد استعار الإسلام فى الفلسفة ، كما استعار فى الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هى التى أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للآراء الزردشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر فى الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل فى بلاد الشرق الأدنى فى صفات الله ، وفى طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفى الجبرية والقدرية ، والوحى والعقل . لكن العامل الذى كان له أكبر الأثر فى التفكير الإسلامى فى آسية — كما كان له أكبر الأثر فى إيطاليا أيام النهضة — هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف — وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك فى صحتها — إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه فى كل شىء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هــذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التى لا تستند إلى قانون من قوانين العقــل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوراً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه فى عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتتن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أورغانون (الآلة الفكرية) لأرسطو وبعد أن أتيح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ، وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار ، كما انهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية فلتير اللاذعة .

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان »[٥٣] ، وعقيدة المسيحيين العارفين[*] وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة — كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التى يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة فى القرآن والتى تقول إن لله يدين وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعرى ، إذا كان يتفق مع أغراض النبى الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنيرون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدرة تقديراً كاملا من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيثاب ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التى يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سرًّا فى بادئ الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التى تلقى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمى . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بألا يعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته . وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون فى عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته فى أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقى فى السجن ، ولكنه أصبح فى أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التى مهدت السبيل للانتقاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت فى ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الذى ولد فى الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفى بغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة فى بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله فى مجد الإسلام الفكرى فى عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شىء ، وكتب ٢٦٥ رسالة فى كل شىء — فى الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس فى وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالما فى الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء فى كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر فى

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندى العالم الإسلامى برسالته فى الدفاع عن المسيحية)[٥٥](*) واشترك هو وزميل له فى ترجمة كتاب أرسطو فى الإلهيات (أو ثولوجيا) . وتأثر الكندى أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندى نفسه هى الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التى هى فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندى قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة ، ولكنه أخذ عن أرسطو[٥٦] التفرقة بين العقل الفاعل أى العقل الإلهى ، وعقل الإنسان المنفعل الذى لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذى أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردى . وانتهى الكندى بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذى يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى فى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعى نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التى طغى عليها الفتح العربى

(*) ليس للكندى الفيلسوف رسالة فى الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمى يدعوه فيها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى . (المترجم)

وهى الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيوعية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل فى القرآن ، وجهر شاعر فارسى بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (٧٨٤)(٥٧) ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة فى هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائى لأهل السنة : وهذه العوامل هى وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركى ، وولاء الناس الطبيعى لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة فى عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثى العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبين عن الفكر اليونانى ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التى ترمى إلى نصرة الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التى جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة فى الأدب والفلسفة ، وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلى غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين فى كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزو إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذى وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم ، وألا يركبوا غير البغال والحمير ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً فى المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحى أو يهودى أن يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية .

واتخذ رد الفعل فى الجيل التالى صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا فى شجاعة بقبول حكم المنطق فى الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهؤلاء المتكلمون (المناطقة) فى الإســلام يشبهون الفلاسفة المدرسيين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك فى القرن الثانى عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس فى القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين فى البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوى كان له أكبر الأثر فى انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدإ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علّتها كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس فى ذلك خطأ قط(٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ، ونادى كثيرون منهم بمبدإ « بلا كيف » أى أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان(٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل فى الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون فى التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بداءة يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة فى بغداد ، ولكنها ثارت فى الوقت نفسه فى العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابى بيتا فى بغداد ، وكان الفارابى أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك . كان مولده فى فاراب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق فى بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب النفس مائتي مرة ، وزمى بالزندقة فى بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن »[٦١] .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابى إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بقى من مؤلفات الفارابى تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص فى كتابه إحصاء العلوم علم عصره فى الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلا عن الجزئى ؟ وقد خدع كما خدع غيره بإلهيات أرسطو فبدل الاصطاغيرى العنيد(*) إلى رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان فى شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة[٦٢] ، ثم خطا فى مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلا للخالق[٦٣] مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها فى النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛ وسلسلة من الحركات يتطلب محركاً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود فى اصطاغيرا وهى مدينة أيونية على بحر إيجة . (المترجم)

وإن الهدف النهائى للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملا ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعنى به كتاب المدينة الفاضلة . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساخرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نتشة : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النتشيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وثرائها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لابد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلى ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

النزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام[٦٤] . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية[٦٥] .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابى فى بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء — معروفة لنا باسم موطن منشئها — الجمعية السجستانية(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هـــذه الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو مللهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة فى البحوث العلمية والعقلية لم تخب جذوتها فى عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأنا ، أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها فى واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت فى مدينة البصرة عام ٩٨٣، ونعنى بها جمعية إخوان الصفا(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحى الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامى ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتى فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفى اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردى . ولهذا كانوا يجتمعون فى السر ويبحثون فى حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشئ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد » . (المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة فى آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمي الأندلس أثناء تجواله فى بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل فجمعها واحتفظ بها .

ونجد فى هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولا صريحاً كاملا للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجدها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملا ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه : ويجب علينا فى سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن ننهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج علىّ فى نبله وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلا مجازياً[٦٦] . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ؛ ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدى ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية — نشاهده فى كتابات الغزالى وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليفى[٦٧] ؛ وبتأثر بها كذلك المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر فى ذلك الرجل الذى بز فى حياته القصيرة ما فى رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة فى الأفق وعمقاً فى التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة فى العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت فى الطب ؛ وما من شك فى أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب *ما بعد الطبيعة* لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه(*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابى عليه ، سر لهذا سروراً عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات[٦٨] . وبقى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه فى كتاب *القانون* بالفيلسوف وهو اللفظ الذى أصبح فى اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته فى كتاب *الشفاء* ثم أوجزها فى كتاب *النجاة* . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقى ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذى شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو : هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » فى عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفى الأشياء بالصورة التى تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معانى مجردة فى العقل البشرى . ولكن الكليات لا توجد فى العالم الطبيعى منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذى قاله ابن سينا هو « قرأت كتاب السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أنى محتاج إلى قراءته » . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتي عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فى الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابى فى المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة — كثرة الأشياء الفانية — أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذى لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر فى حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشراً فى العالم السماوى ، والمادى ، والبشرى ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة فى التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلا وسطا كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتياً لازمانياً ، أى فى المرتبة والجوهر والعلة ؛ فوجود العالم يعتمد فى كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهى الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أى واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده هو عين ماهيته فهو واجب الوجود . ولولاه لما كان شىء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ، واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان فى المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون فى خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شىء — الماضى والحاضر والمستقبل — لا فى وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمني . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائي داخلي — أي أن لها أغراضا ومصائر في ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذي نؤديه نظير ما لنا من حرية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل[٦٩] .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخلي المباشر. والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالا واضحاً عن أعضائنا . وهي مبدأ الحركة الذاتية والنماء في الجسم ؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدإ الحياة العام[٧٠] ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلا ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التي تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلي ، وفي هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين[٧١] .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب في القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالي في القرن الذي بعده يريد أن يقضي على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحي في ضوء قوانين الطبيعة[٧٢] ، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق في صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبي رسول الله لأنه يضع الأسس التي يقوم عليها النظام الأخلاقي والاجتماعي[٧٣] . ومن أجل هذا كان النبي ينادي ببعث الأجسام ، وكان في بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ، والفيلسوف ، وإن كان يشك في خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبي

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم[٧٤] .

وكتابا الشفاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا نجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السآمة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسيين ، وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا فى فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روجربيكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو »[٧٥] . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذى يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كمألوف عادته حين يتحدث عن عظماء الرجال[*] .

وكاد أجل الفلسفة العربية فى الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياع رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالى الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ — ١٠٥٠) التى ازدهر فيها التفكير الإسلامى ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية فى العلوم ، والآداب ، والفلسفة لا تزال مخبوءة فى مكتبات العالم الإسلامى . ففى إسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفى القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها[**] ؛ وفى الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

(*) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجرى وأقيم له قبر رائع فى همذان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات فى مكتبات العالم الإسلامى ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها فى تلك المكتبات ، وهى جادة فى هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف فى الدول الإسلامية بنصيبها فيه ؛ فإنه فى اعتقادنا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية فى العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة[٧٧] ؛ وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى فى تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً مما بقى من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم ؛ وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام فى الشرق بين العصور الذهبية فى تاريخ العقل البشرى .

الفصل الخامس

التصوف والإلحـاد

يلتقى الدين والفلسفة فى أعلى درجاتهما فى معنى وحدة الكون وفى تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون فى وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها فى النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهائية خاسئاً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفانى فى العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء فى الكل إفناء كاملا .

ويرجع التصوف الإسلامى إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين فى جميع بلاد المسلمين . وقد وجدت فى العالم الإسلامى ، كما وجدت فى العالم المسيحى ، أقلية تقية تعارض فى تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادى ومصالحه ؛ فكانوا يندِّدون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبى بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التى تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية . فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف فى بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت فى جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التى وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس فى عام ٥٢٩ . وكلمة صوفى التى تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التى كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة فى قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله(٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه فى العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو حفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له(٧٩).

والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شىء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه(٨٠) . وعلى هذا فكل نفس هى الله ؛ والصوفى الكامل يجهر فى غير مواربة بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالى عام ٩٠٠) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى »(٨١)(**) . ويقول الحسين

(*) فى كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى فصل قيم فى سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع فى هذا البحث . (المترجم)

(**) يقول الأستاذ نيكلسون إن فى نسبة هذه الأقوال إلى أبى يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق »[٨٢](*)

وقبض على الحلاج لمغالاته في عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط وألقى في النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من الصوفية وليهم وحاميهم .

ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكي ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير يكون بضروب من التفاني في الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبر ، والصلاة ، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفى مع الله . والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة في ثواب ولا خوفاً من عقاب . وفي ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية[٨٣] . والصوفى عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلا إلى الاتحاد مع ذات الله . ومن فنيت نفسه فناء تاما في هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل[٨٤] . ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفي ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف . (المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فتتجه نحو وجه الحبيب(٨٥) .

وظل الصوفية يعيشون فى الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفى ذلك يقول أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى الله لحظة واحدة(٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشىء سوى بساطة حياتهم ، وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ؛ وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة . وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام . ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ – ٨٠١) . وكانت فى شبابها جارية اشتريت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسئلت فى يوم من الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى

من مشاهدة وجهك ؛ إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأني لا أسعى إلا إليك وحدك »[٨٧](*) .

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبي الخير (٩٦٧ — ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل في ميهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال في هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو[٨٨] . وقد أولع في صباه بالأدب البذيء ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع في يوم من الأيام درساً لأبي علي يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح في قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن في بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرار لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلا محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفي عن نفسه في حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قميصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحفر في جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان في بعض الليالي يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه في بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض — هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للعطار » ، والذي أورده المؤلف هو الجزء الثاني ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقذار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلطخون وجوههم بروث حماره لتحل عليهم بركته[٨٩] . وقد ترك أثره فى التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة فى القرن الذى بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لا أعمال العبد الصالحة ، هى سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحى ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتى بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول فى نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شىء وأن كل شىء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق فى قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعدك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعدانى فى الشر . . . وهذا قد أحسن إلىّ — كل هذا شرك بالله ، فليس شىء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شىء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول[٩٠] .

وتظهر هذه العقيدة الهندية — الإمرسونية(*) فى بعض الأقوال المنسوبة إلى أبى سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكا فيها !

(*) أى التى هى مزيج من عقائد الهند وإمرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لاموجود سواى ؛ أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ، والعينان اللتان تريان[٩١] ».

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة ، ولم يحل القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت **Leigh Hunt** فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم **Abou ben Adhem** . ويعزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرءون الأفكار ، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالغون فى مقدرتهم فيقولون إن فى وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك أذى ، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويجتازوا المسافات الشاسعة فى غمضة عين . ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها فى هذه الأيام[٩٢] . وهكذا يحدث على توالى الأيام أن الدين(*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد الذى يجيء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقده عامة الشعب .

وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالا كبيراً فى عقائدهم وأقوالهم : ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التى تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية . ومن بين هذه الطوائف الثورية التى مزجت فى عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » : ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء على إلى الجيل الثانى عشر إماماً أو زعيما ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه فى هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالى عام ٧٦٠) : ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة فى بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول فى الطائفة أن يقسم بألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة فى كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهرى . وكان يقال لمن يدخل فى مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شىء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفى المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شىء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده[٩٣] ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر فى وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهدا من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوى . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم فى الإسلام سيطرت فى وقت من الأوقات على شمالى إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت فى أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح فى عام ٨٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقى اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس فى آسية يسمون أتباعها فى وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه . وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ، وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية فى تلك الحركة التى كانت فى ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء[٩٤] ، وقد نظموا العمال فى طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة[٩٥] . وبلغ من أمرهم أن أقاموا فى عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربى للخليج الفارسى ، وهزموا جيش الخليفة فى عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندى واحد . وفى عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفى عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفى عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والحجر الأسود[*] . غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التى كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت فى القرن التالى إلى إسماعيلية ألموت[**] ، وهم المعروفون بالحشاشين .

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة فى عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمى المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان فى الحياة والدين فى الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامى فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ، فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ، ولم يكن فى وسع من يهتمون بنتاج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التى يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذى لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبى البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها فى حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس فى القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية فى القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتى ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى .

يحدثنا المسعودى (المتوفى عام ٩٥٧) فى *مروج الذهب* عن كتاب فارسى يدعى *هزار أفسانة* أو *ألف قصة* وعن ترجمته العربية *ألف ليلة وليلة* ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب *ألف ليلة وليلة* . وخطة الكتاب كما يصفها المسعودى هى الخطة التى نجدها فى كتاب *ألف ليلة وليلة* العربى . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن فى بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولا فى العالم الشرق ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف فى محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة فى المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التى تحتويها المجموعة التى يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بذاءة ، فأصدر فى باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب فى العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى)(*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته — وهى قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

آفاق أوفى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ؛ وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر — كما كانت الحال عند طبقة السموراى فى بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غيره ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له فى ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً فى ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافى فى الشعر العربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوربى .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور — لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين فى أيام لى پو ، ودوفو ، ولا حضارة ڤيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » — الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية فى عدد شعرائها وثرائهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهانى (٨٩٧ — ٩٦٧) فى أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم فى كتاب « الأغانى » . وحسبنا دليلا على غنى الشعر العربى وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والناس يخشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يبتاعون مديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاما أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل فى طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكملها ، فلما أنشدها لهشام أجازه بجاريتين وبخمسين ألف دينار(٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربى ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفا ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خاليا من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة(٩٨) ؛

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلما كان شعر العرب صوفى النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربى يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة — شعرها العطر ، وعينيها الشبيهتين بالدرتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت فى الصحراوات وفى المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب فى عرف الفلاسفة والشعراء يعنى آداب الحب وسلوك المحبين . وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسبانيا ، ومنهما إلى إيطاليا وپروڤانس Provence فى فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هانئ باسم أبى نواس — لغدائره التى كانت تنوس على كتفيه . وكان مولده فى بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الحظوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه فى واحدة أو اثنتين من المغامرات التى تعزى إليهما فى كتاب ألف ليلة وليلة . وكان أبو نواس مولعاً بالخمر والنساء والغناء ؛

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غنني ومن الراح فاسقني
فإذا ما دارت الزجا جة خذها واعطني
ما ترى الصبح قد بدا في إزار مُبَيّن
عاطني كأس سلوة عن أذان المؤذن[٩٩]

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفوراً
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا[١٠٠]

وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم — فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبي — أي مدعي النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن[١٠١] ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ، وأراد المتنبي أن يصدق فعله قوله ؛ فحارب ومات مثخناً بجراحه (٩٦٥)[١٠٢] .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد فى معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعرى أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء بصره فى سن الرابعة على أثر إصابته بالجدرى ، ولكنه جد فى طلب العلم ، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التى وجدها فى دور الكتب ، وطاف بأنحاء العالم الإسلامى ليستمع إلى المشهورين من العلماء ، ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أى ما يعادل اثنى عشر ريالا أمريكيا فى الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته فى العالم الإسلامى ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبى أن يلجأ إلى المديح . وزار بغداد فى عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله تأثر فى العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهى الآثار التى تتخلل بعض قصائده . وعاد منها إلى المعرة فى عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر النعيم . وكان المعرى نباتيا إلى أقصى حد ، لا يكتفى بالامتناع عن لحم الحيوان والطير بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا السبب أيضا أبى أن يتخذ شيئا من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء لبس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية[١٠٣] . ومات المعرى فى الرابعة والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً ساروا فى جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره[١٠٤] .

وأعظم ما يشهر به فى بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢

قصيدة والمعروفة باللزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء فى هذه القصائد عن النساء والحروب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد فى جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية فى الحياة : هل نتبع الوحى أو العقل ؟ — وهل الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان ؟ — هل ثمة حياة بعد الموت ؟ — هل يوجد إله ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ، ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذى لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتى   وإن قلت اليقين أطلت همسى[١٠٥]

وهو يعيب فى أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً   شطراً وإن تفعل فأنت مغرر[١٠٦]

والمعرى بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحى :

يرتجى الناس أن يقــوم إمام   ناطق فى الكتيبة الخرســاء

كذب الظن لا إمام سوى العــقل مشيراً فى صبحه والمساء

. . . .

هل صح قول من الحاكى فنقبله   أم كل ذاك أباطيل وأسمار

أما العقول فآلت أنه كذب   والعقل غرس له بالصدق إثمار(*)

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبى العلاء ، وقال فى سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحانى المسمى The Quatraines of Abu el'Ala'. وقد بحثنا أولا فيما لدينا من كتب أبى العلاء : اللزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نعثر على هذه الأبيات ، وقد وجدنا فى كتاب أمين الريحانى الأبيات التى أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن اللزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعثر على الأبيات فى هذه الطبعة . وأخيرا وجدنا الأبيات التى نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها فى كتاب أمين الريحانى وجدناها فى شعر محيى الدين بن عربى وهى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى   إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

فأصبح قلبى قابلا كل صورة   فرعى لغزلان وبيت لأوثان

ودير لرهبان وكعبــة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت   ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو يندد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ، والذين يملؤون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا فى مسلكهم خيراً من الذين يحتسون الخمر فى الحانات على نغمات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم   إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب   لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كذب يقال على المنابر دائماً   أفلا يميد لما يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً   ويشربها على عمد مساء
يحساها فمن مزج وصرف   يعل كأنما ورد الحساء

طلب الحسائس وارتقى فى منبر   يصف الخساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة   أضحى يمثل فى النفوس ذهولها(١٠٨)

ومن أقواله أن أحط الناس فى وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة فى مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أى إثم فى سبيل المال ، وينصح مستمعيه بألا يضيعوا أوقاتهم فى الحج(١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحد .

وفى بطحاء مكة شر قوم   وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها   إذا راحت لكعبتها الجمارى
قيام يدفعون الناس(*) شفعاً   إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم   وإن كانوا اليهود أو النصارى

— والأبيات الإنجليزية التى أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحانى ، تكاد تكون ترجمة حرفية لهذه الأبيات . (المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد . (المترجم)

وما حجى إلى أحجـار بيت   كؤوس الخمر تشرب فى ذراها

وما الركن فى قول ناس لست أذكرهم   إلا بقيـة أوثان وأنصاب

لاحس للجسم بعد الروح نعلمه   فهل تحس إذا بانت عن الجسد (١١٠)

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا (*)
تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك (١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جُعلت بحكم الله فى خزف   يقضى الطهور فإنى شاكر راضى (١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شىء ، ويعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبى للطبيب يلحد فى الخا   لق من بعد درسه التشريحا (١١٣)

لكنه حتى فى هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا   ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها   واللوم يلحقنى وأهل نحاسى
عنب وخمر فى الإناء وشارب   فمن الملوم أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية ڤلتير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم   ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما (١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما   دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا   وبادوا وماتت سنة اللؤماء (١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحـ   ـك لدينا بل ما يهيج انتحابا (المترجم)

وساءة ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاؤم ، فكان عند المسلمين شبيها بتيمن الأثينى(*) : يرى أن لا أمل فى إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشقاء على الفتى فى عيشه ‏ وليبلغن قضـــاءه المحتوما

فما أذنب الدهر الذى أنت لائم ‏ ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا(١١٦)

رب متى أرحل عن عالمى ‏ فأنت بالنـاس خبير عليم

رب متى أرحل عن هذه الدنيـا ‏ فقد أطلت المقام

ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلتى إلا صديقا واحداً أو اثنين ، وأن يحيا كما يحيا الحيوان الوديع بعيداً عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام(١١٧) :

وما العيش إلا علة برؤها الردى ‏ فخلى سبيلى أنصرف لطياتى

والعيش داء وموت المرء عافية ‏ إن داوه يتوارى شخصه حسما

والعيش سقم للفتى منصب ‏ والموت يأتى بشفاء السقام

على الموت يجتاز المعاشر كلهم ‏ مقيم بأهليه ومن يتغرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغى ‏ فتأكل من هذا الأنام وتشرب

كأن هلالا لاح للطعن فيهم ‏ حناه الردى وهو السنان المجرب

كأن ضياء الفجر سيف يسله ‏ عليهم صباح فى المنايا ملرب

وليس فى وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن فى وسعنا أن نفوت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثينى فى مسرحية شيكسبير المعروفة بهذا الاسم ، أو فى قصته كما رواها تشارلس لام مترجمة فى كتابنا «قصص من شيكسبير» . (المترجم)

غرضه بألا نلد له أطفالا . وفي ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبنهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر(*)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهي أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هــذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد(**)(١١٩)

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعري في تشككه ؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدي بنا هذا إلى الاستخفاف بما كان في العصور الوسطى من تشكك في العالم الإسلامي كما حدث في العالم المسيحي . وبلغ الشعر العربي عند المتنبي والمعري ذروتهما ، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصبغ هذا وذاك الشعر العربي صبغة جديدة تتسم بعدم الإخلاص ، وتَصَنُّع العاطفة ، وتكلف الأناقة اللفظية في قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفي هذا الوقت عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفتى عبئاً عليه لقد سعد الذي أمسى عقيما
أما شاهدت كل أبي وليد يؤم طريق حتف مستقيما
فإما أن يربيه عدوا وإما أن يخلفه يتيما

أرى النسل ذنباً للفتى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف في إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة في ثبت المراجع وهي جميعاً كتب مفيدة ممتعة يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن روعة الشعر الإسلامي وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج ، وتعود كما كانت لغة الحكم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافى فى عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائرة فى هذا الطريق حتى أضحت هى اللغة الفارسية الجديدة فى هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربى الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظيم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شعر الغزل المثنوىّ أو الشعر القصصى والرباعيات . وما لبث كل شىء فى فارس — من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح — أن عبّر عنه الشعر .

وبدأت هذه النهضة بالرودكى (المتوفى عام ٩٥٤) الذى كان يرتجل الشعر وينشد الأغانى ، ويعزف على القيثار فى بلاط السامانيين ببخارى . وفى هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقى أن يصوغ *الخداينامة* أو *كتاب الملوك* شعراً . وكان دانشوار (حوالى عام ٦٥١) قد جمع فى هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقى يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسى بالعمل بعده وأتمه وأصبح هومر بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) فى مدينة طوس (قرب مشهد) حوالى عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً فى بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً فى بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه فى البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب *الخداينامة* انتباهه فاعتزم أن يحوّل هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه *الشاهنامة* ، أى كتاب الملوك ، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسى ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسى ملحمته فى صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافر بها إلى غزنة (٩٩٩ ؟) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان فى غزنة « أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء فى سبيل الفردوسى ، ولكنه مع هذا أفلح فى استرعاء اهتمام الوزير فجاءه بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيأ للشاعر مسكناً مريحاً فى قصره ، وأمده بقدر ضخم من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التى وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٤ر٧٠ دولارات) نظير كل بيت من القصيدة فى صورتها الجديدة . وظل الفردوسى يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٫٠٠٠ بيت وجىء بها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسى المبلغ الموعود ، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسى زنديق شيعى ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضى (٣٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختفى ستة أشهر فى حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم بلجأ الفردوسى إلى شهريار أمير شيرزاد(*) فى طبرستان ، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لاذعاً . وخشى شهريار غضب

(*) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا فى رواية محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى حواشى جهار مقاله إذ يقول إنه وجد فى أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهريار . انظر مقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب عزام فى هذا وفى قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل واف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمى قيم فى هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح فى فارس فى العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هى قصة **يوسف وزليخا** ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً فى السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (١٠٢٠ ؟) .

وتعد الشاهنامة من أعظم الأعمال فى الآداب العالمية فى حجمها إن لم تكن فى غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده فى ١٢٠٫٠٠٠ بيت من الشعر — فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين . فهاهو ذا شيخ طاعن فى السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة فى الأبستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذى حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذى سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف فى أيامه موت ولا حزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان فى رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمط نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكى يعبدها الناس »[١٢١] . ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع فى تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال فى هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاهما الجواد الأصيل من كل فارسى . وفى الشاهنامة قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما فى شعر شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال — منها صورة للملكة سوذابة التى كانت تحتجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتى كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب[١٢٢] . ولكن الحب ليس له شأن كبير فى حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقعاً فى النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة فى حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تختفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، ويحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن فى حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقية أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبى الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدو جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته فى منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجأر جهد الحزين   وينتابها الغشى فى كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا   فأجرت من الناس دمعاً سكوبا

وخرت على الأرض جمراً خمد · كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع تحنانها · وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر · إلى زينـــة الزمن الناضر
فلزت إلى رأسه صدرها · يرى الناس فى عجب أمرها
وجاءت لحلته فى كمد · تعانقها كابنها المفتقـــد(*)

والقصة كلها غاية فى الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدتها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب فى كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التى توفر عليهم أوقاتهم ، لا نجد متسعاً من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيه كل ملوكها ، ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقلمسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على هضمها . أما نحن فبعد أن نقرأ مائتى صفحة من صفحات الشاهنامة نمل من قراءة أخبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسى الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلثمائة قرية فى ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمدين فى آسية وأوربا والأمريكتين فى عام ١٩٣٤ بالعيد الألفى للشاعر الذى ظل كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيرانى مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة من الترجمة العربية للشاهنامة من الفصل الذى أغفله الفتح بن على البندارى وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل السابع

الفن(*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعر ، ويقال إن النبي حرم فن النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان — كما نهى عن الموسيقى ، ولبس الحرير الثمين ، والتحلي بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئاً فشيئاً من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامى فى ذلك العهد الأول كان ينحصر فى فنون العمارة ، والخزف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترفون بقصورهم فى هذا الميدان ، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة فى بيزنطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعدلوها بما يوائم طبيعتهم ، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصخرة فى بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثانى فى دمشق كانت بيزنطية خالصة . وفيما يلى هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التى كانت متبعة فى بلاد أشور وبابل القديمة ، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ؛ وبعد أن دمر المسلمون فى بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد ، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة فى الفن الفارسى » Survey of Persian Art الذى نشره آرثر أبهام پوپ Arthur Uphan Pope ، وبخاصة الفصول التى كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم فى هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه ، والذى يضارع فى عظمته ما عمله چيمس هنرى برستد فى تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية فى أجل مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التى أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربى المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامى الذى انتشر من قصر الحمراء فى الأندلس إلى التاج محال فى الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبّر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شىء من نوعها حتّى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة فى عصر الإيمان ، أن يكون كله فنا دينيا خالصا . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساق ، ومخزانات لمياه الرى ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معماريون ، كان الكثيرون منهم فى القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مبانى حربية ممتازة فى حلب ، وبعلبك ، وغيرها من مدن الإسلام فى الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التى أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء فى قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بنى أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقى بيت ريفى فى قصير عمرة بالصحراء الواقعة فى شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياه عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلات ، ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

فى شيراز كان يحتوى على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخى الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب فى أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه[١٢٤] . ولسنا نشك فى أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف يصور ما كانت عليه فخامة النقوش فى داخل القصور أصدق تصوير[١٢٥] . وكان لأغنياء المسلمين بيوت فى الريف وقصور فى المدن . وكانت لهم فى المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم فى الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة — فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأزهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاكهة ونُقل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . وكان الدين فى فارس دين أزهار ؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورود ذوات المائة من الأوراق من الهدايا التى يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك[١٢٦] .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هى الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلى مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة فى بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا حوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سراً[١٢٧] .

وكان فى كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها فى بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذى يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفى الطابق الثانى منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تدخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من بالخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هى النماذج التى صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التى ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة فى جدرانه ، بل كان يدفأ بموقد نحاسى متنقل يحرق فيه الفحم الخشبى : وكانت الحجرات تجصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسى أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران فى ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد . ولم تكن فى هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى فى أثناء النهار وتوضع فى مكان خاص كما يفعل أهل اليابان فى هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب فى بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التقى الفقير أن يكون المسجد جميلا ، وكان ينفق فى تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطنفسة بين يدى الله ، وكان فى وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه فى بعض الأحيان من المبانى المجاورة له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم من الآجر المطلى بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذى أقيم من أجله : فكان يتألف من بهو رباعى الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكى لوقاية المصلين وإظلالهم ، وليتلقوا فيها الدروس ، وفى ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلى ، وهو فى العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعى يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً متراصة متجهين أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى فى جميع الأحوال من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالجص لإخفاء هذا البروز[١٢٨] . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القبة المستديرة يتم كما يتم فى العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما فى القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المئذنة ، والراجح أن المسلمين فى بلاد الشام قد أخذوا فكرة المئذنة من الزجورات - الصرح - البابلى وبرج الجرس فى الكنائس المسيحية ، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطوانى من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية فى تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة[١٢٩] . وليس يبعيد أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة فى المساحة التى أقيم عليها الهيكل القديم فى دمشق ، ذات أثر فى شكل المئذنة[١٣٠] ، وكانت فى هذا العهد الأول بسيطة خالية فى أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا فى القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة المشة ،

والبواكي الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التي أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله »(١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذي الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابيحه ؛ وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف ؛ وبالنقوش الجميلة في الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن في الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبذل أعظم العناية في نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهي جزء داخل في جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا في الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم في تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به في الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشاني والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والنقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشاني .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان في الفن ! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان في أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية في الأشكال الهندسية — الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبى ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشنين . والكُنْكُر ، وخوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربى الذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هى الكتابة العربية . ذلك أنه عمد فى العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نمقها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشىء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعا جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالا من الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا فى مخيلته . واستطاع بفطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن — الفسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش فى كل حالة تقريبا تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسى ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقى . ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشانى — أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما فى خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصينى نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفى فأقامت فى جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت فى هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة فى خارجها ، والرشاقة والرقة فى داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومكة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر فى بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا فى حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر فى القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة فى القيروان ، والمسجد الأزرق فى قرطبة — وليس فى مقدورنا إلا أن نكتفى بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التى بنيت فى ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف فى العصر الحديث فى بلاد الفرس وحدها — وهى جزء صغير من بلاد الإسلام — عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد فى تلك البـــلاد ، وكان كشف آثارها من الحادثات الكبرى فى إزاحة الستار عن الماضى المجهول(*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ، لأن كثيراً من روائع العمارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام أن المقدسى يصف فى فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمد الرخامية ، والصفائح الذهبيـــة ، والجدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ، وإنه لم يكن فى خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع فى جماله مسجد هيراة[١٣٢] . وفى وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) فى عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذى جلس بعدئذ على عرش فارس ، إلى آرثر أبهام بوب Arthur Upham Pope بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكى يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيما كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسى وروعته.

العمارة الفارسية فى القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الجصية البارزة ، والعمد والتيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد تاين الجامع المخرب ، والمئذنتين الجميلتين الباقيتين فى دمغان . وقد بقى من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التى تجلت فيما بعد فى العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة(١٣٣) . وكانت المادة التى شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هى الآجر ، شأنها فى ذلك شأن المبانى القديمة فى بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنيران ؛ لكن الفنان الفارسى قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد كسا الخزاف الفارسى الآجر فى أماكن خاصة ، كمداخل المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من الفسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهى البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادى عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشانى الملون اللامع . وهكذا خدم المسجد كل فن فى بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأتقن نحت الحجارة ، وشكل الجص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالا كثيرة مختلفة ؛ وقد بقى أنموذج رائع من هذه العمائر ، وهو القصر الشتوى الذى بدأه الوليد الثانى عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربي . وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين في عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يجملون النوافذ ، والأبواب ، والستر الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسي المصاحف ، والمنابر ، والمحاريب ، ويبدعون في نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه في لوحة وجدت في تكريت ونقلت إلى المتحف الفني في نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويجملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلي بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذي أهداه هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي[١٣٤] . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ، وصبوها في صور الآساد ، والأفاعي ، وآباء الهول ، والطواويس ، واليمام ، ونقشوا عليها في بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلا منها في المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أي المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ في مدينتهم[١٣٥] . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا في هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتوح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة وأخذوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة في هذا

الفن هي التقاليد المصرية ، والإغريقية — والرومانية ، والعراقية ، والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف فى سر من رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصينى الرقيق ؛ وكانت الأوانى الفارسية — الإسلامية فى عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار فى بغداد وسامرا(*)، والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادى حتى كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا الخزف الصينى ، ويصنعونه فى أشكال لا حصر لها تبدأ من المباصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التى تتسع فى القليل لأحد « اللصوص الأربعين »[١٣٦] ، ويتبين الإنسان فى خير المصنوعات الفخارية الفارسية دقة فى التصوير ، وبراعة فى التلوين ، وحذقا فى الصناعة لا تسمو عليها إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها صناعة أخرى فى جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة الپامير وغربها[١٣٧] ؛ وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ، وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبى العلاء المعرى وعمر الخيام تشبيهات واستعارات فى أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت فى القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التى كانت تزدان بها المائدة[١٣٨] .

وقد امتاز صانعو الفخار فى سامرا وبغداد فى ذلك القرن بصنع الفخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعا . وكانت النقوش التى تحليه ترسم بأكسيد معدنى على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهى سُرَّ من رأى وتسمى أيضاً سُرّاء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصناع أوانى ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع القرميد التى كانت تستخدم للزينة فى فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة النظير . وورث المسلمون فى صناعة الزجاج — وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار — كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصائع والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ، ولعلل أهل الشام قد ابتدعوا فى ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالميناء ، وهو الفن الذى بلغ ذروة مجده فى القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فنى التصوير والنحت فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهى التى لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا فى الوقت نفسه أهمية هذين الفنين فى نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما فى الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛ غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبى قد نهى أيضاً عنه[١٣٩] . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعا . ولهذ التحريم نظير فى الوصية الثانية وفى التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون فى هذا فيجيزون تصوير الجماد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيوان أو الإنسان على

الأشياء التي لا تستعمل إلا فى الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بنى أمية لا يعبئون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيفى فى قصير عمره حوالى عام ٧١٢ بمظلات هلنستية جصور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو نجالس فوق عرشه يشاهد هذا كله[١٤٠] . وكان خلفاء بنى العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت فى حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره فى سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذى كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلات مظلما آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية[١٤١] .

وزين محمود الغزنوى قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وغطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة عن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره فى هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهوانى الفارسى أو الهندى[١٤٢] . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذا يتباريان فى بيت أحد الوزراء فى التصوير الواقعى ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من باطن الجدار ، وعرض الثانى أن يقوم بعمل أشق من هذا — وهو أن يصورها بحيث تبدو وهى تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما فى إبراز فكرته نجاحا حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنية ويهبهما كثيرا من الذهب[١٤٣] . وفى وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إنا نجد فى بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسى مصورة بكثرة يطرب لها الرائى ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامى ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ؛

ولم يبق من صور الجدران فى ذلك العصر إلا صور قصير عمرة ، وهى تكشف عن خليط غريب مجدب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلو عليها درجة أخرى فى التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثا متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعنى بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزيين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة فى العصور الوسطى فناً اختصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه فى هذا شأن موسيقى الحجرات فى أوربا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التى تتطلب كثيراً من الجد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانه ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذه أنموذجا له ، فكان يعمد إلى موضوع أو شكل مركزى — قد يكون شكلا هندسياً أو زهرة واحدة — ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما فى ذلك إطارها تمتلئ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً . وكان فى وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، فى مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها فى بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذى يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربى الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولسنا نجد مثالا آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخيهما على هذا النحو إلا فى بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية فى موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفى إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال فى تزيين المبانى نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسخ فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفى ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقى المتعرج كان هذان فى حد ذاتهما وسيلة للزينة فى غنى عن الإضافات الأخرى . وليس فى خطوط العالم كله سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط فى جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفى فى تزيين المبانى أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التى وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت فى حد ذاتها من الأعمال الصالحة التى يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكا لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينا كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعا يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم فى جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الملوك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان فى البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجى ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ ؛ وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة ، وأنه قد بذل فى تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان فى كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر هى أجمل ما رأته العين من الكتب فى العالم كله . وهل منا من يطمع فى أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها فى تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل فى المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ، وأقيمت على مداخل المبانى والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذى تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناسج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله فى هذا كمثل صانع الفخار سواء بسواء ؛ ولكنه كان فى بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أحلامه ، فى الأثواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والحرير المشجر ، يخرجه ليبقى عدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة فى بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التى نهى النبى عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أثمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يؤدى له خدمة جليلة ، وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير فى العالم كله فى العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تبتاع لملابس السيدات فى أوربا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الهوادج ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ما كان منها فى القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها . وقد وجدت فى المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠,٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير »[144] .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أول الأمر محرمة فى الإسلام تعدّ من الآثام ، شأنها فى ذلك شأن النحت(١٤٥) . نعم إنه لم ينص على تحريمها فى القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً فى صحته يعزو إلى النبى أنه لخوفه من عاقبة أغانى النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً فى ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم فى مسلكهم منهم فى عقائدهم ، فكان يجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما »(١٤٦) . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالى العربية بأغانى الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفى ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قولا خليقا بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التى بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن فى تاريخ أى بلد آخر(١٤٧) » . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية — ونعنى بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما فى تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هى من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطا ، محزنا مملا ، غريبا مستهجنا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربى ناقصة فى عدد نغماتها ،

وفى دقة هذه النغمات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذى لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما فى الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر فى نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يغنى بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر فى كبد السماء[١٤٨] . ويصف الغزالى النشوة بأنها الحالة التى يبعثها الاستماع إلى الموسيقى[١٤٩] . وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلا فى كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش فى أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها فى أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاباب مطولة فى هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابى فى الموسيقى أشهر ما ألف فى العصور الوسطى فى النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »[١٥٠] . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً فى أوربا قبل عام ١١٩٠)[١٥١] ــ وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذى تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها[١٥٢] .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عداً أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناى ، يقويها فى بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الاثنى عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute ؛ وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لا تضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام[١٥٢] . وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له . وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أو خمس في وقت واحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فرق موسيقية كبيرة العدد[١٥٣] ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضيب[١٥٤] ؛

وكانت منزلة الموسيقيين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهوري الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون . وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذي يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقى في بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشترعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل في المحكمة[١٥٥] . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجواري يدربن عليه ويستأجرن له ؛ وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفي كثير منها فنياً . وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنّين : ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقيين عندهم ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين في أيامهم ؛ فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠٫٠٠٠ دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقيين في مكة . وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها ٣٠٠٫٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠٫٠٠٠ دولار أمريكي)[١٥٦] ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق . وقد دعا المهدي إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلي وأعطاه ١٥٠٫٠٠٠ درهم (٧٥٫٠٠٠ دولار أمريكي) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووهبه ١٠٠٫٠٠٠ نظير أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدى — على الرغم من تقاليد طبقته — لأن إبراهيم كان له صوت غاية فى القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضاءل فى خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية فى الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإتباعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلى . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩) .

والقصة الآتية التى يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلى تصور لنا المجتمع الإسلامى بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوى فى نفس المسلم ؛ ولسنا فى حاجة إلى تصديقها لكى نحس بمغزاها ، قال :

تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم ، فقيل له : كيف ذلك؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين ؛ قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركونى ؛ فخرجت أتمشى وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ، ورأيت معها زنبيلا فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمانة بدرهم وكمثراية بدرهم وانصرفت. فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدتى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتماً قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب ، وقد ذهب عقلى ، ونزلت علىّ الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى. وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت. فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها وغنت ، فشربوا وطربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

وطربوا وهى تلحظنى وتشك فىّ ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق : ثم غنت صوتاً ثالثا فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه . فاستدعيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولا ، فقاموا إلىّ وقبلوا رأسى . (قال الراوى) وكان مخارق أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا . ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا بالله من أنت يا سيدى ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى أصلحكم الله ، وأخبرتهم بخبرى ، فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟ قالا : بلى . قال : هى له . قال صديقاه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فلكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التى أهدوها إلىّ) ، وكلما مررت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول لها : يا مولاتى : أعيدى كلامك ؛ فتستحى منى فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظا شديداً) ، فدخلت عليه ويدى فى يدها فلما رآنى سبّنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف(١٦٠)(*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب **Arabian Society in the Middle Ages** (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) تأليف إدورد لين **Edward Lane** ونقلها لين عن كتاب حلبة الكميت . ونقلناها نحن من الكتاب الأخير وهى مطابقة فى جملتها لما ورد فى كتاب لين عدا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود فى حلبة الكميت ، والجزء الثانى غير موجود فى الأصل الإنجليزى ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر فيما كافأ به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فمؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفا ، ومخارقاً مائة ألف . أما صاحب حلبة الكميت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولمخارق بعشرة آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء فى أول القصة الذى لم ينقله المؤلف . (المترجم)

الباب الثالث عشر

الإسلام فى الغرب

٦٤١ – ١٠٨٦

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامى ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعونى ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسبانيا فى عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة فى تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المُغُل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينا كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبى بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة فى فلسطين واستولى على بلوز(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب فى حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب فى حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب فى شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة فى مصر قد قاسوا

(*) أو بلوزيوم ويسميها العرب الفرما . (المترجم)

الأمرّين من جراء اضطهاد بزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية(*) ، ولما سقطت تلك المدينة فى يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك »(**)(١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن فى وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت فى كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ — ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين(٢) ؛ ثم أوردها بتفصيل أوفى بار هبريوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ — ١٢٨٦) وهو مسيحى يهودى الأصل من شرق بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبى الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء فى روايته لهذه القصة أن رجلا من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومى (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما فى المكتبة من مخطوطات ؛

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطلر فى كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التى تنقضها . اقرأ هذا فى الترجمة العربية لهذا الكتاب فى هامش ص ٢٥٧ .

(**) فى الأصل الإنجليزى أربعمائة حمام ولكن رجّح نقلا عن ابن الحكم والدكتور بطلر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه فى هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ماذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنـا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطورى فى أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بار هبريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردى والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف فى هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون فى عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢[٣] ، (٢) وأن ما بقى فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضا « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ »[٤] ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم فى الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس Eutychius كبير أساقفة الإسكندرية فى عام ٩٣٣[*] قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير[٥] . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئا فشيئا من المآسى الكبرى فى تاريخ العالم ، وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوى على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس ، وسفكل ، وپوليبيوس ، وليفى ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوى على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهى النصوص التى لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات فى تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفى العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكما صالحا ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة(*) لتطهير قنوات الرى وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذى كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذى يبلغ طوله ثمانين ميلا . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى(٦) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى فى عام ٧٣٢ وأهمل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر فى الموضع الذى أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، وهى كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة ؛ وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ — ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد ؛

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدودا جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربى من قيرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل مخترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة . وغرس قائد المسلمين رمحه فى الرمل جنوبى مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلا ، وأقام فى هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلاميـــة ـ وهى مدينة القيروان — « المحطة »(**) . وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم فى الدفاع عن المدينة ؛ فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا فى عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التى كانت باهظة فى أيام الرومان لأن المعروف أن عمرا خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلا . (المترجم)

(**) الذى فى قاموس الفيروزبادى أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقية أن تخضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطى : واقتنع البربر — بشروطهم هم أنفسهم تقريبا — بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين فى إفريقية إداريا إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها الفسطاط ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ، ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة فى فاس (٩٧٤) ، وأسرة بنى الأغلب (٨٠٠ — ٩٠٩) تحكم فى القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ — ٩٠٥) فى مصر . ولم تعد مصر — هرى العالم القديم — نهبا للحكام الأجانب ، ودخلت فى نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ — ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحى الفسطاط) وشجع العلوم والفنون ، وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بيمارستاناً ، ومسجداً عظيما لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه خماريه (٨٨٤ — ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشىء لنفسه بركة من الزئبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم : وخلفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاما أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ — ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لابد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماستها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجودد .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياتها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام فى بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدى ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره فى أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِلَ بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء فى أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين فى عنفوان شبابهم فى القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور فى الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبتة ، وطنجه ؛ وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرابيشها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون فى عام ٩٦٩ مصر من بنى الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمى عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع فى جهة الشمال الشرقى كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط فى نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفى عهد المعز (٩٥٣ — ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس — وهو يهودى من بغداد اعتنق الإسلام — تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار (١٢٫٨٢٥٫٠٠٠ دولار أمريكي) ، و١٢٫٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة آلاف مزهرية فضية ، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخماً من الجواهر(٧) . ولكن لا شيء يسقط كالنجاح ، وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (٩٩٦– ١٠٢١) جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ، واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور كلجيولا ، فنادى بنفسه إلهاً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ؛ فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يختص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوربا وآسية ، وازداد عدد السفن التي ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي ، والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينا زاد سلطان القاهرة وثراؤها . وقد زار ناصري خسرو العاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧ وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس طبقات أو ست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقمشة المطرزة ، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس(٨) فيه : وكانت الشوارع الكبرى مظللة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمه(٩) . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثيرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحى ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصيبت فيها البلاد بالقحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازى ثلاثين مليون دولار أمريكى[١٠] . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين فى بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيّراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع فى رخائه وثقافته أى عهد آخر فى تاريخ مصر[١١] .

وأخذ حكم الفاطميين فى الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً(*) يقضى فيه أوقات متعته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق فى الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم فى مكة)[١٢] . وثار عليه جنوده الأتراك فى عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيماً من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريهم . ولما توفى المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذى كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثارت عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين فى عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التى حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس فى الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية فى إفريقية

كان الأمراء والخلفاء فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً فى إقامة المبانى ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقى من المخطوطات من ذلك الوقت فى شمالى إفريقية مخبوء الآن فى دور الكتب التى لم يبدأ علماء الغرب فى ارتيادها إلا منذ وقت قريب(*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . ففى القيروان مسجد سيدى عقبة الذى أنشئ أولا فى عام ٦٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذى يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومنبره آية رائعة من آيات النحت الخشبى ، ومحرابه من الرخام السماقى والقاشانى ؛ ومئذنته المربعة الضخمة — وهى أقدم مئذنة فى العالم[١٣] — أصبحت هى الطراز السورى الذى أقيمت على مثاله مآذن الغرب . وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها فى الروعة والفخامة إلا قليلا .

وكانت المساجد فى القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولاتزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلثمائة من هذه المساجد . ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ، وقد بدئ بإنشائه فى عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه فى القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية فى البحث عن هذه المخطوطات فى هذه البلاد وفى غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى فى هذه الأيام إلا عمده الكورنثية التى أنقذها العرب بحكمتهم من الخرائب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلى ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفى داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هى أقدم ما يوجد من نوعها فى مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) — وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوربا القوطية عن طريق صقلية والنورمان[١٤] ؛ وفى مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجى) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفى القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهى إحدى المظاهر الإسلامية التى لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامى . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثمائة عمود ، فلما علم أن هذه العمد لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العمائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر[١٥] ، وربما كان هذا الطراز من العمد قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطى . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبابيك الجصية(*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفى ٩٧٠ — ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى — وهو عبد مسيحى اعتنق الإسلام وكان القائد الذى فتح مصر للفاطميين ؛ ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد فى مكانها ، وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماقى . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ؛ وفى وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة فى العصور الوسطى بالنظر إلى نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات الكوفية الجميلة التى يزدان بها إفريزه . وقد كانت هذه المساجد ، التى تبدو الآن معاقل أشبه بالقلاع — وما من شك فى أنها قد صممت لتكون قلاعاً أيضاً — تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ، والمحاريب المطعمة ، والقناديل التى أضحت الآن تحفاً نادرة فى المتاحف ؛ وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨٫٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج المطلى بالميناء المختلف الألوان[16] .

وكانت الفنون الصغرى شائعة فى إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون بما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشانى البراق يشاهد فى جامع القيروان ، وقد وصف ناصرى خسرو (١٠٥٠) الخزف الذى كان يصنع فى القاهرة بأنه رقيق بلغ من شفيفه أن اليد إذا وضعت فى خارجه تستطاع رؤيتها من داخله[17] . واحتفظ الزجاج المصرى السورى بكل ما كان له من جمال فى العهود القديمة ، وتحتفظ متاحف البندقية وفلورنس واللوفر بالآنية المصنوعة من البلور الصخرى فى عهد الفاطميين ، وكان ناحتو الخشب يدخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ، والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية — كالمحابر ، وقطع الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار الكريمة . . . [18] ، وكان من بين ما انتهبوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛ ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوربا على أيدى الصليبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة . وكان التجار الأوربيون يقدرون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التى تبلغ من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر فى خاتم الإصبع[١٩] . ويحدثنا المؤرخون عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من المخمل ، والساتان ، والدمقس ، والحرير ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازورى وزير المستنصر عمل فيها مائة وخمسون صانعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار (١٤٢,٠٠٠ دورلار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف من أنواع الحيوان فى العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب »[*] . غير أن الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلات فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمى فى مصر ؛ لكن المقريزى الذى كتب فى القرن الخامس عشر تاريخا للتصوير — يقول إن مكتبة الخلفاء الفاطميين تحتوى على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة من بينها ٢,٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة فى عهد الحاكم بأمر الله تحتوى مائة ألف من المجلدات ؛ وكان بها فى عهد المستنصر ٢٠٠,٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفى عام ٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة وثلاثين طالباً فى الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما تمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلابا من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلابا من جميع أنحاء أوربا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر ٠٠٠ر١٠ طالب وعدد الأساتذة ثلثمائة[٢٠] . ومن أجمل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم يجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء[*] ؛ وكان كبار العلماء الذائعي الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية ؛ ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ؛ وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مثبط للآداب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم في القاهرة « دار الحكمة » ؛ وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال علي بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكمية » التي توضح حركات الكواكب ، ومواقيتها ، وحدد بدقة أكثر من ذي قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما في الوقت الحاضر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام في أرقى المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد فى البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه فى الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيـــل السنوى فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة ؛ وافتتن الرجل ، كما افتتن جميع المفكرين فى العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو فى ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شيء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر فى البصريات وهو فى أغلب الظن أعظم مؤلف فى العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى فى طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره فى الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة قرباجعل روجر بيكن Roger Bacon ، وويتلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعد ثلثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر و المرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى الجسم المرئى ، وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف — أى العدسة[٢١] . ولاحظ أثر الجو فى ازدياد الحجم الظاهرى للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ؛ وأثبت أن انكسار الأشعة فى الجو يجعل ضوء الشمس يصـــل إلينا حتى بعد أن يختفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء فى أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة فى دراسة فعل

الضوء فى المرايا الكرية ، والتى فى شكل القطع المكافئ ، وعند مروره فى العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشمس المماثلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير فى مصراع شباك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التى يعتمد عليها التصوير الشمسى بكافة أنواعه . وليس فى وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ فى بيان أثره فى العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكن ؛ وهاهو ذا روجر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة فى ذلك الجزء الذى يبحث فى البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعى ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كبلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التى أسفر عنها فتح العرب لشمالى إفريقية هو اختفاء المسيحية من هـــذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك فى أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل فى هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يؤدون الفرضة ، التى أعفى منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربى على أهل البلاد هذا الإعفاء عام ٧٤٤ اعتنق الإسلام ٢٤٫٠٠٠ من المسيحيين(٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذى وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ولكنه شـــديد ، قد أثر فى كثيرين من المصريين فحملهم على الدخول فى دين الحكام . غير أن أقلية قبطية فى مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ؛ أى أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملا بأوامر الدين الإسلامى نفسه وسياسة معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدى فيها مناسكها سراً(*) ، ولا تزال باقية فى تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وقرطاجنة ، وإفريقية ، التى كانت تزدحم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتتداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وخبت نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدوناتيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية فى جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضاءها فى التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر فى أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التى قامت فى العالم الغربى كما كان لها أكبر الأثر أيضا فى طقوسها وملابسها .. وترى رجل الأعمال الأمريكى بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسى ومسجده الإسلامى(**) .

(*) لم يكن أقباط مصر فى حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سراً بل كانوا يمارسونها جهراً حتى فى أكثر العصور استبداداً . (المترجم)

(**) فى هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بثيابهم ويؤدون الصلاة فى المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام فى بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ — ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس فى مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة فى عام ٨٠٩ وسردينية فى عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) فى ٨٢٣ ، ومالطة فى ٨٧٠ ؛ وبدأ فى عام ٨٢٧ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهراق ؛ فسقطت پالرم فى عام ٨٣١ ، ومسينا فى ٨٤١ ، وسرقوسة فى ٨٧٨ ، وتارمينا فى ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغالبة (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبي والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفى عهدها بلغت الحضارة الإسلامية فى صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة فى جنوبى إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل فى نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم فى أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية فى القرن التاسع الميلادى . فاستولى المسلمون فى عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى فى الجنوب الشرقى من إيطاليا ، وفى العام التالى انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لبارد دوق بنفنتو Benevento ليساعدوه على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتلفوا الحقول وخربوا الأديرة . وفى عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين فى أستيا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحى المدينة وكنيستى القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملفى Amalfi ، ونابلى ، وجيتا Gaeta ومد سلسلة فى عرض نهر التيبر ليمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب فى عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية فى الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالى المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفائيل منظر الواقعة فى قصر الفاتيكان ، وفى عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثانى من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبى إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة ؛

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلا من الزمان يغشاها جو من الخوف والفزع فى كل يوم من أيام حياتها . ففى عام ٨٧٦ أغاروا على كمپانيا ونهبوها ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدى لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٠٠٠ منقوص (حوالى ٢٥٠٠٠ر٦ دولار أمريكى) حتى يكفوا عن الإغارة عليها[٢٣] . وفى عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها وادى نهر الأنيو Anio . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطورى

بيزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية فى إيطاليا ، وهو العهد الذى دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت فى قبضتهم لزحفوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ترى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول فى أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط فى شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عادين فى عواطفهم ، وشعرهم ، وجرائمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالى عام ٩٧٠ نحو ثلثمائة مسجد ، وثلثمائة من معلمى المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون — كما يقول العالم الجغرافى — من قلة الذكاء وخفة الأحلام[٣٤] . هذا وإذ كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية فى الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيما بين أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن فى بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتلألئة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة فى الجزيرة تسير سيراً هادئاً فى غير عجلة ولكن فى غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلى ابن حمديس (١٠٥٥ — ١١٣٢) الساعات التى يقضيها الشاب البالرمى فى متعته ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء فى الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الهموم ، وعن

الفتيات المغنيات اللاتى يدغدغن العود بأصابعهن اللطيفة ، ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة[٢٥] .

وكان فى الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاهة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلى كان يمدهم بموضوعات جمة مثيرة للخيال . وكان فى الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ، وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامى الصقلى قد أثر تأثيراً ذا بال فى مدرسة سالرنو الطبية[٢٦] . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدها العربى الزاهر ، وتراثاً شرقياً من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فنية راغبة فى أن تتلقى العلم على أى جنس وأى دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ — ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين فى صقلية ، وهاهو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التى بذل المسلمون فى إقامتها أعظم الفنون وأعجبها »[٢٧] : ولكن الطراز المعمارى الإسلامى خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كابلا پلاتينا Capella Polatina ، ففى هذا المعبد القائم فى قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحى بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام فى أسپانيا

٧١١ — ١٠٨٦

١ — الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسپانيا أولا بل الذين فتحوها هم المغاربة، فقد كان طارق من البربر ، وكان فى جيشه سبعة آلاف من بنى جنسه، مقابل ثلاثة آلاف من العرب، وقد خلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التى نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى چبرولتر Gibraltar . وكان الذى سير طارقا إلى فتح أسپانيا هو موسى بن نصير والى شمال إفريقية العربى . ثم عبر موسى البحر فى عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٫٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقا لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه فى السجن ؛ ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ؛ ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب فى نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجىء برأسه إلى سليمان فى دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن[٢٨] . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التى تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضى الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به أسبانيا إلا فى أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز المسلمين فى أسبانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين تورز وبواتييه على بعد ألف ميل شمالى جبل طارق جيش متحد مؤلف من قوى يوديس Eudes دوق أكوتين ، وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها فى واقعة من أهم الوقائع الحاسمة فى التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت مصادفات الحرب مرة أخرى الدين الذى يتبعه الملايين التى لا يحصى عديدها من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة فى عام ٧٣٥ واستولوا على أرليس Arles ، ثم فتحوا أفنيون Avignon فى عام ٧٣٧ وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفى عام ٧٥٩ أخرجهم بيين القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبى فرنسا ؛ ولكن الأربعين عاماً التى تنقلوا خلالها فى ذلك الإقليم كانت فى أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرح كثير ومن حب لأغانى الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية روائية نزلت فى أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى فى عروقها من الدم الملكى ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تقل فى مجدها وثرائها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس فى عام ٧٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراكش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة فى أسپانيا . وكان فى تلك البلاد طائفة من العرب مخلصة للأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها فى تملك الأراضى التى وهبها لهم ولاة بنى أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينتزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور فى مكة .

ولعل هذه الحوادث هى التى منعت انتشار الدين الإسلامى فى أوربا : ذلك أن أسپانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالى أسپانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحى ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا **Coimbra** ماراً بسرقسطة ومحاذيا لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبى الإسلامى بعد أن بسط فيه لواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثانى بثمار هذا الرخاء ؛ فقد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقمعه للثورات التى كان يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التى كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء ؛ وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعى .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بنى أمية فى أسپانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو فى الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب حبل الأمن ، ومساعي أشبيلية وطليطلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دماثه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة ، وأخضع أشراف العرب الذين أرادوا أن يحذوا حذو معاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالا من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شئون الحكم ؛ وعقد المحالفات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون في هذه الناحية ؛ وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكو صاحب نبره Sancho of Navarra، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى في أثناء حكمه . ولما رأى في عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أي حاكم في زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسي في بغداد قد أصبح ألعوبة في أيدي الحرس التركي ، اتخذ لنفسه لقب خليفة — وأمير المؤمنين ، وحامي حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة مذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجد والنعم ، فاحترمني الملوك وخافوني وحسدوني وحباني الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها »(*)[٢٩] .

(*) من كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب المقري . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكم الثانى (٩٦١ — ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التى حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتى لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ؛ وكان فى أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجى ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ؛ وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيمارستانات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء[٣٠] ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم فى زمانه ؛ وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرى المؤرخ الإسلامى :

وكان (الخليفة الحكم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر . . وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . وبعث فى طلب كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى — وكان نسبه فى بنى أمية — وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق[*] .

وبينما كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودى القدير حسداى ابن شبروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيحية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقى فهو محمد بن أبى عامر

(*) النص منقول عن نفح الطيب . (المترجم)

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالبه إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً فى ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره فى عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجده وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديرا لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخيا على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والخيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما اؤتمن عليه من المال ، وعرف ابن أبى عامر أن المال الذى فى عهدته سيكون ناقصا فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوى ، وواجه به من اتهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبى عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦–١٠٠٩) و (١٠١٠ – ١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة[٣٢] .

وكان هشام الثانى رجلا ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبى عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامى ؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسيرون فى ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هى مدينة الزاهرة فى شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة . أما الخليفة الذى عنى بتدريبه على الانهماك فى الفلسفة فقد بقى مهملا يكاد يكون سجيناً فى القصر الملكى القديم . وأراد ابن أبى عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه فى بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاغتيال فى الوقت المناسب ، ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الرومانى لا يترك محسناً إلا أثابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال فى قرطبة أعظم أمناً فى وقت من الأوقات مما كانتا فى أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته ، ومثابرته ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث فى يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم فى ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يفض المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . ويقول المقرى : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق(*)(٢٣). وكان مما فعله أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجد

(*) هذا هو النص ننقله عن المقرى : « إن المنصور كان به داء فى رجله واحتاج إلى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر

قرطبة واستخدم فى توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه فى أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسَجَّته(*) ، ومنشاره . وأدرك أن الحاكم الذى ينتصر فى الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلة ؛ ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان فى ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكللا بالنصر . من ذلك أنه لما استولى فى عام ٩٩٧ على مدينة سنتياجو ده كمپستيلا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس جيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم فى موكب نصره حتى دخل قرطبة[٣٤] . (وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كمپستيلا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له فى بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان فى الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسما وفعلا ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . ففى عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكما مطلقاً . وكان يرغب فى أن يموت فى ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفنه . وقد غزا قشتالة فى عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ فى الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض فى طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

= وينهى ، ويُقرى القرى فى أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)

(*) المِسَجَّة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستنهار بعد قليل(٣٥) . وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فلم يكن أمراؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيراً ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء فى الدولة التى أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ؛ فثاروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستغَلُّون يحقدون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبى عامر التى كادت فى عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك فى عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلا مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر فى شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدى زعماء الثورة فنهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفى عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطردوا النصف الباقى منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التى تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذى يتطلبه البناء والتعمير . ففى أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها فى ضياعهم . لكن من بقى فى قرطبة من العرب أخلدوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن الخامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكفى أحد زعمائهم (١٠٢٣) . وعين محمد أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبى ، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى وبايعت بالخلافة هشاما الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛ وعقد مجلس من أصحاب الرأى فى المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ، وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جهور رئيساً لهذا المجلس فحكم الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هذا جاء بعد فوات الأوان ، أى بعد أن اضمحلت السلطة السياسية وقضى على الزعامة الثقافية فى قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففروا من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلتهم الدسائس والمنازعات فيما بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت فى حكم الحاخام صمويل هليفى Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم إسماعيل بن نغرلة . واستقلت طليطلة عن قرطبة فى عام ١٠٣٥ . ثم خضعت لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة وأجمل منها ؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها فى عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضى قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثانى فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بلنسية ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضى القضاة الداهية أسرة بنى عباد القصيرة الأجل . ولما مات فى عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدى له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ — ١٠٩١) وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه مطامعه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقيين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسدهم على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار[٣٦] . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذه وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديدا ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات فى قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التى أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعتها لأشبيلية . وحمل الملك — الشاعر مدنى بجيل كامل ملىء بالقلاقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد فى أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة فى عهد المنصور .

٢ - الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب »[٣٧] . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحى عظيم[*] قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً . لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التى يرى ميكفلى أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار فى جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانه آخر الأمر[٣٨] . ولكن المقرى يورد فى مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودماثة أخلاقهم[٣٩] : وهم لا يقلون فى هذه الصفات عن أباطرة الروم فى زمانهم ، وما من شك فى أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة فى العالم الغربى ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون فى معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين منهم[٤٠] . وكان فى المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك فى فترات منظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استاذلى لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين فى أسپانيا » .
(المترجم)

الإيرادات فى أيام عبد الرحمن الثالث ٠٠٠ر٥٤٥ر١٢ دينار ذهبى (أى ما يعادل ٧٥٠ر٢١٣ر٥٧ دولار أمريكى) — وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة[41] . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة[42] .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التى كبرت فوق ما يجب ، والتى كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع[43] . ولكن القوى التى كانت فى هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها فى أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته فى فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضى ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدى المسلمين معاملة أحسن قليلا من التى كانوا يلقونها على أيدى سادتهم الأولين[44] . وكان فى مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب فى معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب فى علومها ؛ وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم فى أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته فى أوربا المسيحية[45] . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التى كانت تستخدم حتى ذلك الوقت فى جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيل . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التى كان يمتطيها فرسان العرب وكبليرو Caballero (فرسان) الأسبان ؛ ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والرمان ، والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ، والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندى ، والخوخ ، ونخيل البلح ، والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير[٤٦] . وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكبرى فى بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامى يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة مساحات من الأندلس — وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية — جنات على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التى فتحها العرب فى القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التى سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية فى البلاد تقدما عظيما ، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشبهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ، وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذى يستخدمه الحذاءون فى أوربا المعروفون باسم Cordwainer نسبة إلى « الجلد القرطبي Cordovan » . وكان فى قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون فى كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو فى ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للخيل ، والماشية ، والدجاج ؛ والكعك المصنوع من دقيقه طعام شهى على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيمه الصغيرة طعاماً شهياً ويسميه ابن سينا اسفرغس وهو بالإنجليزية Asparagus (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرى[٤٨] إن ابن فرناس القرطبي اخترع في القرن التاسع الميلادى النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول تجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر وثغر تزدحم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها — الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفلس النحاسي ، — بثباتها واستقرارها النسبي ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحي اللاتيني في أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هي الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادي في هذه البلاد سيرته في البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يعتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون في الريف في بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الخصيان ، والضباط والحراس الصقالبة ، والعبيد خدم البيوت . وأحس الخلفاء في قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادي من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوفقوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لمعونة الفقراء[٤٩] .

وكان استمساك الطبقات المتعلمة بدينها وتشددها في عقائدها سبباً في زيادة سلطان الفقهاء أي علماء الشريعة الإسلامية ، وكان العامة ينفرون من كل جديد

فى العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين(*) يخفون رؤوسهم فى معظم الأحوال ، ويتزوون فى البيوت أو يلجأون إلى الغموض فى الأقوال . وكمت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بآراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالا ذوى آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين فى مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون فى بعض الأحيان إلى الفقهاء فى التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين فى فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثانى عشر مع المسلمين الفاتحين فى أمن ووئام ، وأثروا ، وبرعوا فى العلوم والمعارف ، وارتقوا فى بعض الأحيان إلى مناصب عالية فى الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم فى سبيل الرقى فى مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون الذكور ، كالذكور من سائر الأديان ، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هـــذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم[٥٠] . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة(**) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها فى العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالا أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثنى عشر درهماً لمن يعمل بيده[٥١] . وكان المسلمون

(*) لا ندرى كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد فى بلاد الأندلس نفسها . ولسنا نشك فى أن المؤلف قد جانبه التوفيق فى هذا الحكم . (المترجم)

(**) فى الأصل الإنجليزى ضريبة الأراضى الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشتركون من حين إلى حين فى الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً [٥٢] ؛ وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحريم » أو مارسوا اللواط [٥٣] ، وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلابا للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . . . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون فى نهم على دراسة كتب العرب ، ويملؤون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالا طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب [٥٤] » . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامى من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف ، كلهم ماعدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام [٥٥] . وكثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين [٥٦] .

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ يزداد وقتا ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحرارا . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابى فى مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحق دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد : وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين فى الدين ، وكان القساوسة المسيحيون يتعرضون أحيانا للشتائم من المسلمين فى الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل فى الدين المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفى هذه العلاقات المتوترة قد تؤدى أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة ، مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفى أبوها المسلم اعتزمت أن تعتنق الدين المسيحى ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن أخاها قبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضى بضربها وإن كان فى مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحى حيث التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً . وبينما كانت الفتاة مختبئة فى أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى پرفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم فى حق النبى محمد أمام بعض المسلمين ، وقد وعدوه بألا يشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور . وكان فى وسع پروفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضى قوله إن محمداً كان « خادماً للشيطان » ؛ فما كان من القاضى إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ؛ ولكنه لم ينصلح ، وتمادى فى أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشنقة

بسب النبي ، ويقول : إنه « مدع ، زان ، ولدته جهنم »(*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠)(**)(٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد فى قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولجيوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضى وعرض عليه رغبته فى اعتناق الإسلام ، وسر القاضى من هذا وبدأ يشرح له مبادىء الدين الإسلامى ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخدعكم ؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم » ! فزجره القاضى وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إنى مالك لقواى فاحكم علىّ بالإعدام » فأمر القاضى بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثانى بأن يخرجه على أن بعقله خبالا ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة فى حرس القصر على سب النبي علناً ؛ فكان جزاؤه الإعدام . وفى يوم الأحد التالى وقف ستة من الرهبان أمام القاضى وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ؛ وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هى رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكى يقدر القارئ شناعة الجرم الذى ارتكبه قائلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذى سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالا فخما مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين — من رجال الدين وغير رجال الدين — لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا . فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ »[٥٩] ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولچيوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالجبن .

وزادت هذه الحركة من تحمس فلورا ، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي . . . وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضي بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولچيوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولچيوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعدموا[*] (٨٥٢) ، وأعدم يولچيوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامي ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في أسپانيا[٦٠] .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم في أثناء هذه الحركة ، وعدم التجائهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطعنوا في الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية في هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجماعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقبض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم في السجن وتستأصل الفتنة من جذورها . وخليق بنا أن نشير إلى ما اتبعه الإسپانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسپانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعذيب همجي وعمل متواصل لمحو جميع الآثار الإسلامية في العلوم والفنون والآداب .

(المترجم).

أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحماسة الدينية بازدياد الثراء ، وظهرت في القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ، ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ، بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمت نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة من اللاأدريين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نؤكدها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا تسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها[٦١] . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ، كان انتعاشهم فى عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

ولكن القباب المتلألئة والمآذن المذهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى أعظم البلاد المتحضرة فى أوربا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما يقول المقرى ٢٠٠,٠٧٧ منزلا ، و ٦٠,٣٠٠ قصر ، ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام[٦٢] عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان فى وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ، ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر فى الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى[٦٣] . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادى الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشئات عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساقى والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمتنزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ فى قرطبة بستاناً عظيما شبيهاً بالقصر الريفى الذى قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد فى هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج(*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذى يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع فى جمالها وترفها قصور نيرون فى رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التى لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامى وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها فى افتداء من عساهم يكونون فى الأسر من

(*) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرستق ، والبديع . (المترجم)

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده فى الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال فى بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ — ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكى الذى يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربى . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعها العقلية . وأقام المنصور فى الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصراً آخر يضارعه (٩٧٨) سمى بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظماء ، وبيوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران فى أثناء الثورة التى تأجج لهيبها فى عام ١٠١٠ .

وكان الناس فى العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتا لله تفوق قصورهم فى الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا فى قرطبة هيكلا ليانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد فى مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة فى عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظ فى الحروب. وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته فى سنيه الكدرة ، فغادر بيته الريفى إلى قصره فى المدينة ليشرف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره.

حتى يؤم المصلين فى المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفى فى عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته فى أيام المنصور ٧٤٢ قدما فى ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منيع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق فى حجمها وجمالها كل مآذن تلك الأيام ، حتى عدت هى الأخرى من « عجائب الدنيا » التى لا يحصى لها عدد(٦٩) . وكان للمسجد تسعة عشر بابا تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها فى الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدى إلى مكان الوضوء الفسيح الذى يسمى الآن بهو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفى هذا البهو الرباعى الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها فى المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوى على أجمة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع — بعضها نصف دائرى ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولمعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمد من حجر اليشب ، والحجر السماقى ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين فى أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحى إليه بأن المسجد لا ينتهى عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبى آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمده من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هى الأخرى من السقف ، أما الأرض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلى بالميناء ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر فى جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشانى المطلية بالميناء ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بساتر من الخشب محلاة بأبدع النقوش . وفى داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهبه من خلق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفا سباعى الأضلاع محاطا بالذهب ومزدانا بالفسيفساء المطلية بالميناء ، ومزخرفا بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والعقود المزدانة بأزها الكُرَة(*) لا يفوقها فى الجمال شىء مما أبدع الفن القوطى . وكان المنبر يعد أجمل منابر العالم طُرًّا ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة — كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضبا بدمه الذى جرى عليه عند مقتله . ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس بدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافا كبيراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين(**) . ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

(*) حلية معمارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن وسط صاحبتها (المترجم)

حكمه يناقض هذا الحكم ؛ فالمقرى (١٥٩١ — ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر فى سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد القائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة[٦٥] ، ولا يزال البناء حتى فى شكله المسيحى المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية فى العالم كله »[٦٦] .

وكان من الأقوال المتداولة فى بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية »[٦٧](*) : ذلك أن قرطبة كانت فى القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء فى العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ؛ ويملأ المقرى بأسمائهم ستين صحيفة[٦٨] . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات فى الأدب والفن[٦٩] ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم فى المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتى لم يكن يفوقها فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبيهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً فى غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس[٧٠]

(*) قيل هذا فى مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان فى الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمى أحد العلماء رأى فى مزاد بقرطبة رجلا آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذى اقتناه فى ذلك قال إن فى مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتياظ ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له »(٧١)(*) .

وكانت للعلماء فى الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم فى شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات ؛ أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد ؛ وكان أبو محمد على بن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) من جهابذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين؛ ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (**) الذى يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملا هو « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » للإمام أبى محمد على ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وأما كتاب « الملل والنحل » فللإمام أبى الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفِصَل الواردة فى بدء اسم الكتاب الأول جمع فصلة بالكسر كقصعة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتثمر . هذا ولم نعثر على الفقرة الواردة هنا بنصها فى كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزى الذى نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بدا من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم فى الفصل الذى تكلم فيه على النصارى . (المترجم)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون فى علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية فى العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أوهام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفى وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس إلها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر[٧٢] .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت فى القرآن حق بنصها ومعناها[٧٣] .

وكان من أشد العوائق فى سبيل تقدم العلم والفلسفة فى بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثرا فى إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فمن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى فى عام ١٠٠٧) والذى عدل أزياج الخوارزمى الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التى تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التى حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة — وهى التجربة التى استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالى (١٠٢٩ — ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيق فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها فى زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة فى التاريخ حركة الأوج الشمسى بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لأبى القاسم الزهراوى (٩٣٦ — ١٠١٣) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة فى العالم المسيحى ، ويعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis ، وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب فى الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى فى الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة فى ذلك الوقت المدينة التى يلجأ إليها الأوربيون لتجرى لهم الجراحات . وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطببين الدجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحرانى أعلن عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجة منه للسذج من ذوى المال بخمسين ديناراً (٢٣٧٫٥ ريال أمريكى) .

ويقول المقرى : « وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا فى أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر »[٧٥] . وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة فى عام ١٠٨٧) ، والتى كان بيتها فى قرطبة ندوة حقة شبيهة بندوات عهد الاستنارة فى فرنسا : فكان يلتف حولها الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحبت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكمييه Mme Récamier لارتاعت لها . ولقد بزتها صديقتها مهجة القرطبية فى جمال الجسم وخلاعة الشعر[*] . وكاد كل إنسان فى الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطارح الشعر المرتجل مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك فى هذه المطارحات الشعرية ، وقلما كان يوجد فى البلاد أمير مسلم ليس فى بلاطه شاعر يكرم ويخصص له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشر كما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيــه

(*) يصفها المقرى بقوله إنها من أجمل نساء زمانها ولازمت ناديها وكانت من أخف النساء روحا . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهوانى والعذرى؛ وقد استبق الشعراء فى أسبانيا وفى الشرق الإسلامى أساليب شعراء الغزل فى عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم[٧٦] .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودى ابن صاحب الشرطة بقرطبة[*] . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ، يتصف بجميع الصفات التى تجعله فى نظر المسلمين سميذعا أى سيداً كاملا بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعا ، بهى الطلعة ، فصيح اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف ، والرمح ، والرمى بالقوس[٧٧] . ولم يكن يدرى فى أى وقت من الأوقات أيهما أحب إليه — الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف ، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر بحب دائم لاينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزلين أشد ما يكون حين تندر رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة وجهها إلى جيجان التى لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة ليست هى اللذة . ومن أقواله فى هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودى ، وترجمته فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله فى جيجان :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى	فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روحى عن تذكرها	هــذا ولم أرها يوما ولم ترنى
كأنــنى واسمها والدمع منسكب	من مقلتى راهب صــلى إلى وثن

ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الخجل وأطرقت بعينها فقال :

أمائلة الألحاظ عــنى إلى الأرض	أهذا الذى تبدين ويحك عن بغض
فإن كان بغضاً لست واقه أهله	ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض

(المترجم)

لا شيء أملح . . . . . ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جموح فى الصبا طلقا وما خرجت لصرف الدهر عن طلق
ولا انثنيت لداعى الموت يوم دعا ولا انثنيت وحبل الحب فى عنقى[٧٨]

وكان زملاؤه فى الجندية يغضبون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ، وقد قبض عليه فى يوم ما أحد الضباط فى بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقى شاعر آخر أعظم منه وأنبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار فى بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدى الجزية إلى الفنسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة يشترى بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام . ولكن الرشا تترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشى متى طلب إليه الأداء . واستخدم ألفنسو المال الذى يأتيه من ضحيته فى الانقضاض على طليطلة فى عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هى أسرة المرابطين وقد (اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين فى الشمال الغربى من إفريقية) . وكان الأساس الذى قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك الشديد بالدين ، ولم يكد يبقى فيها رجل غير جندى من جنود الله ؛ ولم تجد جيوشها صعوبة فى الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى فى ذلك الوقت مليكها يوسف بن تاشفين — وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء — دعوة من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحى الضارى : فعبر يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ،

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدجوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عيد عندنا ، ولهذا فإنى أقترح أن تدور المعركة فى يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين فى يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد فى الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذى كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد ، والتقى يوسف بالمسيحيين فى مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . ورحب به الفقهاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه فى نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمه . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التى لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المتعتمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينيه ولده يقتل فى الدفاع عنها ، فحزن لموته حزنا هد ركنه واستسلم للمحاصرين(*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقطة فى يدى يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية .

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنهما قتلا غيلة وله فى رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام المرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياتا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ؛ ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا فى ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قلتها(*) . ثم نقل المتعمد إلى أغمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلا بالأغلال ، فقيراً معدما ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل فى التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب(*)

(*) الحصرى هو صاحب «زهر الآداب» وهو الذى استجدى ابن عباد فى منفاه ، وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : «إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف» وقد قال المعتمد نفسه فى هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة اللخمية طى الحشا لحكاهم فى المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين) (المترجم)

(*) هذه هى أقرب أبيات وجدناها فى أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون فى الترجمة الإنجليزية بعض التصرف الذى تحتمه ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .
(المترجم)

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

١٠٥٨ — ١٢٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامى

١٠٥٨ — ١٢٥٠

لما توفى طغرل بك فى عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولهما أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لاتقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلا ، كريما بوجه عام ، لايتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضى جزءا كبيرا من وقته فى دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التى تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم[1] .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه — « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس ،

محتل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه فى معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجىء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة[٢] ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينا كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفى نظام الملك على البلاد فى عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد فى أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم فى المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ؛

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد فى عام ١٠١٧ ، على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا فيما بين عامى ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب — سياسة نامه أى كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه فى الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيما فى حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفى عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً فى طائفة من أعجب الطوائف فى التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية — وهو الحسن بن الصباح الذى تجمع إحدى القصص المشكوك فى صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك — استولى على حصن ألموت (عش النسر) فى الجزء الشمالى من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذى يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتنقيها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة فى كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية . وكانت فى الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » ؛ وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤساؤهم من الأوامر ؛ ويقول ماركو بولو Marco Polo الذى مر بألموت نفسها فى عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما فى الجنة — على حسب ما يعتقده عامة المسلمين — من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جىء بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم فى الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ، فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التى كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا فى خدمته[٤]. وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أى الذين يشربون الحشيش — ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجى الذى يطلق على المغتال . وظل حسن يحكم ألموت خمسا وثلاثين سنة ، وأحالها مركزاً للاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هى التى قتلت كنراد المنتفرانى Conrad of Monteferrat بتحريض رتشرد قلب الأسد[٥]. وفى عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره . ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسالمين خليقين بالاحترام ؛ وفي الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم[٦] .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون في أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة في أثناء حكمه الذي دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت في أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام في الموصل أحد مماليك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكي وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) في عام ١١٢٧ ، وهي الأسرة التي حاربت الصليبيين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ — ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكماً عادلا حازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التي أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بني بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعضع الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر في دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء في اللهو والشهوات بين نسائهم اللاتي لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدهم الترف والانغماس في الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث في

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين(*) من القواد . واستعان أحدهما وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه فى الوزارة ابن أخيه الذى صار فيا بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin .

وقد ولد صلاح الدين فى تكريت الواقعة فى أعالى نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية – غير سامية . وكان أبوه أيوب قد ارتقى فى مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك فى أيام عماد الدين زنكى ، ثم والياً على دمشق فى أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين فى هاتين المدينتين فى بيت من بيوت الإمارة ، وتعلم فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة فى المعيشة لاتكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين . وكان خير أثوابه ثوبا من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ، وكان مضرب المثل فى اعتداله فى العلاقات الجنسية ، وبلغ فى ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيا نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكما على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة فى عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو فى سن الثلاثين ، فبذل جهده فى إعادة المذهب السنى إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمى الشيعى اسم الخليفة العباسى السنى فى خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسى فى ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية فى بغداد . وكان الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين فى ذلك الوقت ، مريضاً فى قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب.

(*) هما شاور وضرغام . (المترجم)

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنباؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نحبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عظماء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشىء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده . وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاة الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان . واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكا وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحريص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبيمارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشئات العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكمه ، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط فى أحوال الأسر المحلية التى اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم الدولة الأيوبية فى بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما فى مصر فقد ظل مزدهراً حتى عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده فى عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) صديق فردريك الثانى . وفى آسية الصغرى أقام السلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها فى أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التى كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل فى صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت فى الزمن القديم عاصمة الحيثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ — ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسى . وفى هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسى أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الأسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى فى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله فى الشعر ، والعلم ، والفلسفة ، وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen فى الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة — طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر — من أقدر الحكام فى العصور الوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ، ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين فى رد الصليبيين . ولكن هذه الجهود ستأتى فى موضعها من الأجزاء الأخرى (المترجم) .

أقل شأناً من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين فى مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد فى بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامى ، والسعدى ، وجلال الدين الرومى ؛ وبلغت العمارة فى أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين(*) ، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين(٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً فى عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتئذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالا . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متلألىء ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد فى الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثاني

المسلمون فى الغرب

١٠٨٦ - ١٣٠٠

توفى الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين فى عام ١٢٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون فى القاهرة أن يوفقوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها فى الملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هى الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله فى الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك ضرباً بالقباقيب . وكان أيبك قد عاش من العمر ما يكفى لإنشاء أسرة المماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم فى العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بنى أيوب يستخدمونهم فى حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً فى رومة وبغداد ؛ وظل المماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ - ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال فى عاصمة ملكهم ، ولكنهم جملوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم فى واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردوا آخر محارب مسيحى من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) .

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاؤه وبسالته إلى منصب القيادة فى الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظير تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلا ، عفيفا ، عادلا بين شعبه ، رحيما برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشا وأسطولا قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى آخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان المنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليونا من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام ، ورُفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ، واحتفر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ المماليك ، إذ نحر عشرين ألفا من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخضر يطيبها الخصيب ليستمد منها حاجته كل يوم[٩] . وأقفرت خزانة

الدولة الرومانية فى أيامه ، وكان سببا فى ضعف خلفائه ضعفاً حازت له فيا بعد قوة المماليك .

وبعد فإن سلاطين المماليك لايقعون فى نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم إنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء فى مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية فى تاريخ العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة فى عهدهم (١٢٥٠ — ١٣٠٠) أغنى مدن العالم الممتد فى غرب نهر السند[١٠] ، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة فى جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تختفى بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها فى الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلى أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم[*] ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة فى القاهرة جديرة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجد فى القاهرة كما فى سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل أفيون إنجليزى » لدكونسى . (المترجم)

وفيها نساء يثرثرن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلسة من وراء النوافذ ، والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ، والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتنزهين ، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب النزهة . هذه هى القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى(*) .

لله بستان وما قضيت فيه من المآرب
لهفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقنى والجو منه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحائب
والطل فى أغصانه يحكى عقوداً فى ترائب
وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنباته ثمر كأذناب الثعالب
وكأنما آصاله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبية لى فى الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسر كان لها هى الأخرى شأن عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ — ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ — ١٥٣٤) حكام تونس ، والحموديون (١١٣٠ — ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون (١٠٥٦ — ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ — ١٢٦٩) أمراء مراكش . وفى

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Cairo تأليف استانلى لين پول Stanley Lane Poole ونقلها لين پول عن پالمر . وقد رجعنا إلى كتاب پالمر بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة كل الدقة وهى فى صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالمر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التى كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتنهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع فى الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذى بلغ درجة عالية من الكفاية فى أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ — ١١٠٦) ، أن اختل فى أيام ابنه على (١١٠٦ — ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتنم ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت فى تلك البلاد فى عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة فى العيش وفى العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن فى آخر الأمر أنه هو المهدى المنتظر والمنقذ الذى يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة فى أن يفعلوا مثل هذا الفعل فى الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش فى عهد عبد المؤمن (١١٤٥ — ١١٦٣) وأبى يعقوب يوسف (١١٦٣—١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة : لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ — ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلى عن الفلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس فى الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدى قوات المسيحيين المتحدة فى واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة — قرطبة فى عام ١٢٣٦ ، وبلنسية فى ١٢٣٨ ، وإشبيلية فى ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقتهم جبال سيارا نفادا أو الحاجز الثلجى بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هى والبلدان التابعة لها — شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة — وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هى البقية الباقية فى أوربا من تلك الثقافة التى جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالا من مفاخر بنى الإنسان .

الفصل الثالث

نظرات خاطفة فى الفن الإسلامى

١٠٥٨ - ١٢٥٠

فى هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء فى غرناطة والقصر والخرلدة فى إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعمارى الجديد بالطراز المراكشى morisco ظناً أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهى أيضاً من مميزات التاج محال فى الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامى وما أكثر غناه ! وقد كان الفن فى ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما فى مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل يهدف إلى الرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً فى العمارة ، وقد شادوا أولا بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذى كان يحرس الوادى الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصناً وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذى وضع تصميمه لأبى يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالونى المهندس القرطبى ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب لملوك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه پدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٥٢٦) . . . وإزبلا (١٨٣٣) تعديلا فى بنائه ، أو رمموه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً فى بنائه ، ولكنه يغلب عليه فى نمطه وصنعه الطراز الإسلامى أو الإسلامى — المسيحى .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد فى عام ١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شىء فى هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس فى عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (١٢٣٥) ؛ ثم هدمت هذه الكنيسة فى عام ١٤٠١ ، وأقيمت فى مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم فى بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الاثنتان والثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلثان الأعليان من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر ، وفى أعلاها تمثال من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الدينى غير المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا — أى الذى يدور — الأسبانى من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون فى مدينتى مراكش (١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفى غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ — ١٢٧٣) فى عام ١٢٤٨ بتشييد أعظم صرح فى الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Darro والجنيل Genil . وقد وجد الأمير فى هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة Acazaba يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى ، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلي أجزاء أخرى فى فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدى المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقصر كئيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذى لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذى فى داخل السور ليكون أولا حصنا يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً فى هذا مبدأ العمارة الحربية التى نمت وتطورت فى بلاد الإسلام الشرقية(١٢) ؛ لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلا إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبهاء والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة فى الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتى تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت فى بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفى داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينا كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجرى من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتعس حظ من من خسر هذا كله ! »(١٣) وفى الفناء الرئيسى للقصر المعروف ببهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما فى البواكى المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان فى صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أطفأ بريقها كر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية فى الطراز الإسلامى الأندلسى . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا فى فنهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هى والروح تملان حتى الجمال والحذق . وهذه الدقة فى الزخرف تبعث فى النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن تشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفى كله تقريباً قد عاش بعد اثنى عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساقى ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامى الأندلسى من العظمة ، كما توحى فى نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف فى الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبحاسة الجمال المرهفة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسى الإسلامى فى القرن الثانى عشر من أسپانيا إلى شمالى إفريقية ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التى تبهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما فى مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامى بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه فى الجنوب الشرقى من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا فى بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلهم حذوا فى طرازها حذو القلاع التى شادها الفرنجة فى بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون فى حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا فى دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث فى هذه الأثناء انقلاب فى فن العمارة حول فى جميع بلاد الشرق الإسلامى الطراز القديم فى عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذى المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز الجديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون فى وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة فى التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقي أي من مكان الصلاة - الذي كان يعلوه في ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة - امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة في أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت في صراحة : إن ذلك يتيح للفرصـــة لوجود مذهب منها في القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب في العمارة في عهد المماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيئها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتلألأ فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة في الجص الملون ، وقطع القرميد التي قاومت حتى الآن عوادي الزمان والتي لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد في المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آني في أرمينية ، والمدخل الضخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمدخل الكهفي ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز في جامع سرتجيلي ؛ ونذكر منها في بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر في بغداد ؛ وفي فارس برج طغرل بك في الري وقبر سنجر في مرو ، والمحراب المتلألئ في مسجد همذان ، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة في المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والمحراب في جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التي بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق في العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع في إصفهان الذي لا يدانيه في بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا في مشهد والذي أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها في عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد فى قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده فى عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا فى عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب — ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً — مزينة بالقاشانى والفسيفساء الذى لا يكاد يوجد له نظير فى تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعامات ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شىء من نوعها فى بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قوماً همجا ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام فى التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم فى عصر الإيمان الذى يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المبانى السلجوقية الضخمة الجريئة فى وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معمارى جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز فى الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطى فى فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التى جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة فى ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألئة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح ، وضمت أجزاءه جميعها فى وحدة ؛ وفى هذا الوقت بالذات اجتمع فى البناء العقد المستدق ، والقبو ، والقبة أحسن اجتماع[١٤] .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها فى هذا العصر العجيب عصر العظمة

والاضمحلال . فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التي لا غنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه في ذلك الوقت من تنوع في الشكل وجمال[١٥] . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشاني ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصيني ، وخاصة ما كان منها متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين في الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسي مع هذا بقي طوال القرون الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لايفوقه فخار آخر في العالم كله — فقد كان في تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه في العالم كله[١٦] .

ولم تكن الفنون الصغرى في بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التي تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق في هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية في هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها(*) . وكانت كنوز الفاطميين التي فرقها صلاح الدين تحتوي على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقراني ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون في هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشوري القديم في مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رتشيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالميناء بمبلغ ١٣,٦٥٠ ريالا أمريكيا .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية فى القرن الخامس عشر[١٨] .
وكان النحاس ، والبرنز ، والشبّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصوان ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثريات ، ومقالم ، ومحابر ، ومدافئ ، ومباخر ، وتماثيل للحيوانات ، وصناديق للمصاحف ، ومساند للمواقد ، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات . . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة فى كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب ، والأبواب ، أو القبور . وفى متحف الفنون الجميلة ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول ، وإوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجه الفن الفارسى فى العهود الإسلامية من تحف فضية ، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة[١٩] .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو إحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير . غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسى المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبابيك الشعرية ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شعرية أو يكدح فى عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير ، والأطلس ، والحرير المشجر ، والأقمشة المطرزة ، والمخمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التي كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو پولو في آسـيـة الصغرى حين زارها في عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس في العالم كله »[٢٠]. ويقول جون سنجر سارچنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى في قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت »[٢١] ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذي برزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التي نسجت في عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن في وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منقطعي النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة في العصر المغولي .

وكان التصوير في الإسلام من الفنون الكبرى في الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى في الرسم على الجدران ، وفي الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمي الآمر (١١٠٤ — ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ابرسموا له في حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت[٢٢] ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له في سالف الأيام . وقد بلغ التصوير في عهد السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى في المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوّجه في عصر المغول الذي تلا ذلك العصر في بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالا للشك في ازدهاره في ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدي الصناع تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقـة والأيوبيين والماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ في

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم فى استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل فى بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملا لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التى لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعدّ أثمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف فى رسم أو نص . وفى ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذى يتيحه للعقل منظر خط متقن الرسم »[٢٣] .

الفصل الرابع

عصر عمر الخيام ١٠٣٨ - ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء فى ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبعلبك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان فى بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها فى سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء فى المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالمجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان فى المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالمجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن فى بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأنا نسمع عن وجود شيخة - أى أستاذة - يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسپازيا Aspasia وهيپاشيا Hypatia . (١١٧٨)[24] .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت فى أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان فى الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفورى العدد والثراء ، وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتقنة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى فى عام ١٢٤٨) ترجم لأربعمائة

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ؛ ويبز محمد بن خلكان (١٢١١ — ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه وفيات الأعيان الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه »(*) وحلل محمد الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل (١١٢٨) المشهورَ من أديان العالم وفلسفاته ، ولخص تواريخها ؛ ولم يكن فى مقدور أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ — ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات الوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتجديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجمل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح　　　الذى لا يبيح　　　وصال المليح
إذا ما سمح
وجل فى المحال　　　ولو بالمحـــال　　　ودع ما يقال
وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسبانيا(٣٦) . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التطيلى(**) جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان　　　سافر عن در
ضاق عنه الزمان　　　وحواه صدرى(٣٧)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرءوها ؛ وفى القاهرة ظل البها زهير يغنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلامى كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الآداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية . 　(المترجم)

(**) أبو العباس التطيلى . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون فى حديثه عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بقى موشحته وتبعه الباقون » . 　(المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسفى إذلا أجد نصيراً خليقا بمديحى
وما أشد أسفى إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلى ![٢٨]

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ — ١١٨٥) ، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعرا يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه :

أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسدى إليك نصيحة لا أقتضيك عليها أجراً :

لا تهجون أسن منك فربما ‌‌ ‌ ‌ تهجو أباك وأنت لا تدرى(*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ؛ وتضعه بلاد فارس بين علمائها الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلا لهواً عارضاً كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى »[٣٠] . وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز Baker ، والفخرانى Potter ، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين(**) فى الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى الخوارزمى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أبا العلاء صاعداً الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .
(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه « ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية في العصور الوسطى »[٣١] ومنها كتاب آخر في الجبر (وهو كتاب مخطوط في مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعاريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء في عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسي ، وكانت نتيجة عملهم تقويما لا يخطئ إلا في يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً — أي أنه أدق قليلا من تقويمنا الحاضر الذي يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاما[٣٢] . وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التي تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامي كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجري . ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكي من شهرة واسعة تلك القصة التي يرويها عنه نظامي عروضي الذي عرفه في نيسابور :

في شتاء سنة ٥٠٨ هـ[*] في مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه في طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام — وكان ينزل داره — أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع في هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة[٣٣] .

والرباعيات في أصلها الفارسي قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا . وتعبر كل منها عن فكرة كاملة في شعر جامع محكم . ولسنا

(*) أو ١١١٤ – ١١١٥ م .

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام بوقت طويل . ولم يكن هذا الشعر فى الأدب الفارسى جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها[٣٤] . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك فى أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسى لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل ؛ ويحتوى على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجديا[٣٥] . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيام — بعضها إلى أبى سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا[٣٧] . وإن من الصعب ، إلا فى حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التى تعزى إلى الخيام من أقواله حقا[٣٨] .

ولقد كان المستشرق الألمانى فون همر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربى إلى رباعيات الخيام فى عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فتزجرلد Edward Fitzgerald فى عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً فى نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت فى تعديل الصورة التى كانت فى عقول الناس عن العالم الرياضى الفارسى حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر فى العالم . ويرى العارفون بالأصل الذى ترجمه فتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التى ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسى تعبيراً صادقا أمينا ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها فى أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثر فتزجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لانجد لها أصلا فى أى نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فتزجرلد نفسه ، وقد استبعدها هو فى الطبعة الثانية[٣٩].
ولسنا نجد فى رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فتزجرلد[٤٠] وهى التى تقول :

إنى أدعوك يا من أنجبا   من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما   كيفما زل امرؤ أو أجرما
فاحبه وأساله غفران الأثام(*)

أما فيما عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فتزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسى تتجلى فيها على الدوام روح عمر . وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فتزجرلد الدروينية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام بقرن واحد لا أكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فتزجرلد ، فرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادى تعس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لا نظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه ؛ ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سيء الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لها الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفيــة

(*) من ترجمة المرحوم محمد السباعى .

الخفية ، ولكن الصوفى نجم الدين الرازى يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين فى أيامه[٤١] .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر فى هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبى العلاء المعرى[٤٢]. وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل فى حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى فى الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتى بعدها من المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربى وعالمين وليا عن غاربى
ما عادلى بالشر إما حاق بى شأن ولا خيرهما إن ضاق بى
ودعها يا قلب عند ضارب بأكرة يرسلها لضارب
تجد أخاك نائما كشارب سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجملا
أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا
واعقله من كل شىء سلا بين سماك نافر وهلا(*)

(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفى السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون فى مدح الغيبوبة أقوالا شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفة من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دريني خشبة مشكوراً فترجمهما شعرا . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع فى عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الخيام ؛ وما من شك فى أنها لم يكن لها إلا شأن قليل فى الخمسة والثمانين عاما التى امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ، لا فى صورة السكير الذى يستلقى مخمورا فى الطرقات ، بل فى صوة العالم المسن العاكف فى هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلأ كالنجوم . ويبدو أنه كان يحب الأزهار كحب المحصورين فى أرض جدباء ، وإذا أخذنا بقول النظامى العروضى فإنه قد نال بغيته فى أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير . قال النظامى :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ — ١٣م) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد ، وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع . وظننته يقول مستحيلا ولكننى كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥م) فقيل لى بأن ذلك الرجل العظيم قد مات ؛ وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة ، وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ ، وغشينى الحزن ، وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له ندا بين الرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدى(*) ١١٥٠ – ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده فى المدينة المعروفة الآن بفيروزاباد بالقرب من تفليس . وكأن الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبى محمد الذى عرف بعدئذ باسم نظامى وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية فى أبشع صورها فجعلته يستمسك فى حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلى والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص(**) الغرامية فى الشعر الفارسى . وخلاصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباها أرغمها على أن تتزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة فى قيس وأفقدته عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلى أمامه . ولما ترملت ليلى جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رميو نفسه عند قبر جوليت . وليس فى مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسى من قوة فى التعبير وجمال فى النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التى يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف فى عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدى الشيرازى . (المترجم)

(**) نظم المرحوم أحمد شوقى هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتى ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منطق الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفيا) يعتزمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويجتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردى) . وتصل ثلاثة من الطيور الوادى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المختفى . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون ترابا ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب فى صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شىء واحد . ويفنون من هذا الوقت فى سيمرغ كما تفنى الظلال فى ضوء الشمس . ويعبر العطار فى كتبه الأخرى عن عقيدته فى وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة فى كل شىء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس فى مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح[٤٥] . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعدونه بدعة وضلالا ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذى نادى به فيما بعد معلماً له ، والذى فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومى (١٢٠١ – ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته فى قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفى عجيب هو شمس تبريزى

ليخطب فى أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين فى حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها فى ديوانه ؛ وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الدينى من عهد المزامير . وكتابه المثنوى المأنوى غرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق فى حجمها كل ما خلفه هوميروس : وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر . وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دقَّ إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَن الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لى ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم فى عزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودقَّ الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَن الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب[٤٦] .

* * *

ونظرت حولى أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثى نحو الكعبة ، ولكننى لم أجده فى هذا المكان الذى يلجأ إليه الشبان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبى ؛ وفيه وجدته ، ولم يوجد فى مكان سواه[٤٧] .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها فى العالم اللامكانى ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رأيته ، او قول حكيم سمعته — فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظنن أن الماء سيفرغ فعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لتفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر جمادا ، ثم استحلت بعدئذ نباتا ، ثم صرت حيواناً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ، وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بحراً . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك[٤٨] .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقى أطول من هذا — فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فمنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣[٤٩] ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١[٥٠] ، ومنهم من يحددهما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١[٥١] . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هو نفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة[٥٢] . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) ، بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقين الأدنى والأوسط — الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالى إفريقية . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه[٥٣] . وكشف وهو فى الهند عن جهاز فى صنم قيل عنه إنه يأتى بالمعجزات، وقتل الدعى البرهمى المختفى فيه والذى كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى فى شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على المحتال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط فى أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجما بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون[٥٤] » .

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداه ليعبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذات الجمال قيد فى قدمى صاحب العقل »[٥٥]. ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه فى سلسلة أخرى ، ولما ماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة فى حديقة بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البيرنامه وهو كتاب فى الحكمة ، وربزاز وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدى فى كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمى الفلسفى ، تتخلله فى بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف فى حياتى أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبتى لما أن ضممتها إلى

صدرى فى تلك الليلة. ونظرت إلى عينيها يكاد يغلبهما النعاس : « أى حبيبتى يا غصن بان لقد آن أوان النوم . نم يا بلبلى ! وافتحى فاك كما تتفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » . ونظرت إلىّ حبيبتى وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظنى من نومى ؟ » .

. . . وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك . . . وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقلّ حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعبهما بيديك ؟ . . . يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العنادليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك(٥٦) .

والجلستان وحديقة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سأل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أى شىء أفضل من الصلاة ؟ فأجابه الولى بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار ، فلا تؤذى أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت »(٥٧) .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد ، ولكن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها(٥٨) .

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب القناعة(٥٩) .

إن رجل الدين الذى يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل(٦٠) .

لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان فى مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال(٦١) .

لو كان فيك فضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير فضيلتك الوحيدة(٦٢) .

لا تعجل . . . وتعلّم الأناة . فإن الجواد العربى يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره(٦٣) .

حصّل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقده لأن علمه فى حد ذاته معين للثراء لا ينضب(٦٤)

إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب(٦٥)

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل »(*)(٦٦)

إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة(٦٧) .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب فى وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهى تفهم ما فى الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما فى الحياة الحنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما فى ملهاة الحياة البشرية من مآس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز(٦٨) « إنى كنت وصديقى كحبتين فى قشرة لوزة »(٦٩) ، « لو أن قرص الشمس كان فى جُبُّة » هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بحظهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة »[٧٠] . وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة . وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب :

لقد قدّر علىّ ألا أضم حبيبتى إلى صدرى

وألا أنسى بعدى الطويل فى قبلة أطبعها على شفتيها الحلوتين

وسأختلس منها ذلك الشراك الذى تقتنص به ضحاياها فى طول البلاد وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالمجىء إلى جانبى

ولكننى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرفة فى الجرأة

فكم فى هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور فى الأقفاص

أنا عبد لهذا القد المياس الذى يبدو فى نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة تفصيلا كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافا من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة الآس ونضرة الورد البرى

احكمى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر ونبيل

وامشى فوق الياسمين والأزهار

ولا تعجبى إذا أيقظت فى زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى بينما الأزهار الصغيرة تبتسم ، وكل هذا يا حبيبتى من أجلك

وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة فى بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك

سوى أننى جننت بحبك وجن الناس بفنائى فى حبك[٧١] »

الفصل السادس

علوم المسلمين

١٠٥٧ — ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب فى العصور الوسطى طبقتين — طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ، ووضعوا فى الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك فى اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله فى العالم ؛ أما الطبقة الثانية — وخير من تشملهم الصينيون والأتراك — ، فهى أشبه بالحيوان منها بالإنسان(٧٢) . وأكبر خطأ فى هـذا التقسيم هو وضع الصينيين فى الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون فى العصر الذى نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع فى العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم فى علم الرياضة فى مراكش وأذربيجان ، ففيهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقى عظيم : فى مدينة مراكش نشر حسن المراكشى فى عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيوب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المماسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسى أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلا بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقى كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس فى هذا الميدان حتى نشر رجيـــومنتانس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذى ظهر عند الصينيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عربى النشأة(٧٣) .

وأشهر ما ظهر من الكتب فى العلوم الطبيعية فى ذلك العهد هو كتاب *ميزان الحكمة* الذى ألفه فى عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفى هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شىء نحو مركز الأرض[٧٤] . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقى التى كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقى ترفع الماء من نهر العاصى فأدخلوها فى ألمانيا[٧٥] . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس[٧٦] ؛ ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه فى البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبتاً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائى إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسسه أذى[٧٧] .

وفى عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلى أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة فى التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٨١٫٥ بوصة) ؛ وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها[٧٨] . وكانت خرلدة أشبيلة منارة ومرصداً فى وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التى نشرها فى كتابه *إصلاح المجسطى* (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات أبى إسحق البطروجى القرطبى (المعروف عند علماء الغرب باسم البتراجيوس Alpetragius) والذى مهد السبيل لكوبرنيق بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز وهى التى حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالمين فى تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله فى العصور الوسطى ، ونعنى بهما الإدريسى وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسى فقد ولد فى سبتة عام ١١٠٠ وتلقى العلم فى قرطبة ، وكتب فى بلرم إجابة لطلب روجر الثانى ملك صقلية ، كتابه المسمى *كتاب روجارى*. وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط فى العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلا . وكان الإدريسى يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من العلماء المسلمين بكروية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية فى العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ — ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسر فى الحرب وبيع فى سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادى الذى ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولا للتجارة ، ثم سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفى الأجناس ، وبلباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة فى مرو تحتوى إحداها على ١٢٫٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتى كتاب إلى حجرته دفعة واحدة . وما من شك فى أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى فى عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ، ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعانى آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله فى نسخ الكتب كتابه الشهير *معجم البلدان* (١٢٢٨)

— وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة — من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ، هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدى المسلمين فى ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوفراسطوس ؛ فقد وضع الإدريسى كتابا فى النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعا مختلفا منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبى العباس الإشبيلى (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التى تنمو بين المحيط الأطلنطى والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار المالقى (١١٩٠—١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون فى علم النبات فى موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هى المرجع المعترف به فى هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيادلة فى العصور الوسطى[٧٩] . ومن أهم ما ظهر من الكتب فى العلوم الزراعية كتاب الفلاحة الذى وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلى أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعا من أنواع النبات ، وخمسين نوعا من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث فى علم الفلاحة فى العصور الوسطى جميعها[٨٠] .

وأنجب المسلمون فى هذا العصر ، كما أنجبوا فى غيره من العصور أعظم الأطباء فى آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم مانبغوا فيه علم الرمد ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار فى بلاد الشرق الأدنى ، فى هذه البلاد كان الناس يبذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العدسة (سادّة العين أو الكترَكتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبى المحاسن الحلبى (١٢٥٦) بحذقه فى هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور(٨١) . ووضع ابن البيطار فى كتاب الجامع تاريخ الطب النباتى . فقد وصف فى هذا الكتاب ألفا وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائى ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها فى علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ — ١١٦٢) الأشبيلى المعروف فى عالم الطب الغربى باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعى الصيت متصلى النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب فى أيامه ، وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذى كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكى ، وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب التامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومى(٨٢) . وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر فى الطب الأوربى .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله فى إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيمارستان الذى أنشأه نور الدين فى دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ، ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة(٨٣) . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد فى عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيمارستانها العظيم الذى كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذى كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن[٨٤](*) . وفى القاهرة بدأ السلطان قلاون فى عام ١٢٨٥ تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد أقام فى داخل فضاء واسع مسور مربع مبانى أربعة يتوسطها فناء يزدان بالبواكي ، وتلطف حرارته الفساق والجداول . وكان يحتوى على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ، وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسر العين . وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالا كانوا أو نساء ، أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أو أحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون فى بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة[٨٥] . وكان فى جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير فى وصف هذا البيمارستان : « وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالى والنهضة الدينية

وبينما كانت العلوم تسير قدماً فى طريق الرقى كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعلمة وإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذى قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين فى عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالى المفكرين المسلمين ثلاث طوائف : كلها فى نظره كافرة وهى المؤلهة ، والربوبية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المؤلهة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً(*) . وقامت حركة أخرى على شىء من النظام هى حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشىء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعى هذا المذهب إصبهان بن قرة الذى قال فى يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبة ينبت وينمو ثم يحصد لكى يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب(٨٦) .

وكان رد الفعل الذى نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبى حامد الغزالى أعظم علماء الدين المسلمين ، الذى جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . وولد أبو حامد الغزالى فى طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه فى صغره فكفله صديق له متصوف. ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

فى المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ، وسرعان ما أعجب العالم الإسلامى بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته فى الجدل . وبعد أن قضى فى هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ، وكان شلل لسانه يشوه منطقه فى بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه فى الأصل مرض عقلى . ولقد أقر الغزالى فى ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامى ، وأنه لم يكن يطيق ما فى دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد فى عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد فى العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير فى العالم الخارجى إلى تأمل العالم الداخلى ، معتقداً أنه سيجد فى هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهى القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات — وهو عماد النزعة المادية وأساسها ، وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً من الأرض ، وإلا لتعذرت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلا إلى الحقيقة . وأما العقل فهو فى رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد فى النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالى بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة فى تأمل الصوفية الباطنى : فالصوفى يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ، وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل فى معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتامل من داخل نفسه ، وحتى تختفي النفس ذاتها في رؤية الواحد[٨٧] .

وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالى أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى به كتاب تهافت الفلاسفة واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ، فاستخدم الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لايقل دقة عن جدل كانت Kant ليثبت أن العقل يؤدى بالإنسان إلى التشكك فى كل شيء ، وإلى الإفلاس الذهنى ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالى العقل – قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون – إلى مبدأ العلية ، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع ا على الدوام ولا ندرك أن ا هى علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لاقيام بغيرهما لأى نظام أخلاقى ، وهو النظام الذى لاقيام لأية حضارة إلا به[٨٨] .

وعاد الغزالى فى آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ماكان يساوره فى شبابه من مخاوف وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه وتنذرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة[٨٩] ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث ، وقد شرح فى كتابه إحياء علوم الدين هذه العودة إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له فى شبابه من قوة وحماسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى فى عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ، بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه فى كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، فى أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل(*) .

وكان اعتناق الغزالى لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا فى عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس فى المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك فى العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة العائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيهما لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التسامى بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء فى روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فنهم من كانت وسيلته إلى هذا التسامى هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية فى المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محيى الدين بن العربى (١١٦٥ — ١٢٤٠) — وهو مسلم أندلسى أقام فى دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلية الله نفسه ، والجحيم مقام موقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحبوب ، والمحب الصادق يجد فى أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه . ولعل محيي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام چيروم فأخذ يعلم الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم[٩٠] .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالى عام ١٧٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين فى الجسم ولكنهم متحدون فى الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر لهما أن يعودا إلى هذا العالم[*] .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الدينى ، وعادت إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التى يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب . فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا الخيل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هى التى تتطور وتتبدل على مر الأيام بل الذى يتطور هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين فى شىء وبعضها مخالف له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله وهو ما لا يقره الدين .   (المترجم)

جديدة وإن أجيز لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يُظهروا الصليب فى خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون فى المدارس الإسلامية ، ولكن كان فى وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام . ولا تزال هذه هى النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هى المعمول بها على الدوام[٩٢](*) . ومع هذا فقد كان فى بغداد وحدها فى القرن العاشر ٤٥٫٠٠٠ مسيحى[٩٣] ، وكانت جنائز المسيحيين تسير فى الشوارع دون أن يتعرض لها أحد[٩٤] ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، فى سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته فى النفوس من أحقاد ، كريماً رحيماً بمن فى دولته من المسيحيين .

---

(١) لا ندرى من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هى النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية ، فلسنا نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين فى بعض العهود ، وضعها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة ، وليست من الدين فى شىء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلا على تسامح المسلمين فى أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (المترجم)

الفصل الثامن

ابن رشـــد

عاشت الفلسفة وقتاً ما فى أسبانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحذر من الآراء التى تتفق مع الدين بين محاولات النقد المبين غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعزعة فى بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سراً بالبحوث التى يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذى ولد فى تلك المدينة حوالى عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له . وكان ابن باجة ، أو أفمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال فى شبابه ، مرتبة عليا غير عادية فى العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية فى كلا حذاءيه . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى المسيحيين ، فر الوزير — العالم — الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونه بالكفر ، ومات ابن باجة فى سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعد رسالته فى الموسيقى التى لم نقف لها على أثر خير ما كتب فى هذا الموضوع الدقيق فى الآداب الإسلامية فى الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب *مرشد الحيران* الذى جدد فيه البحث فى أحد الموضوعات الأساسية فى الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشرى يتكون من جزأين : العقل المادى الذى يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعال أو العقل الكونى غير البشرى الذى يوجد فى الناس كلهم ، وهو وحده الذى

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله . ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت فى صمت . والرجل العاقل يعيش فى عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛ أو لعل عدداً قليلا من الفلاسفة يؤلفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة فى رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه(٩٥) .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين) (١١٠٧ ؟ - ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو الآخر عالما ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة أبى يعقوب يوسف فى مدينة مراكش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن يقضى معظم ساعات يقظته فى المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة فلسفية فى أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن سينا ولعلها هى التى أوحت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلى Ockley إلى الإنجليزية فى عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حى بن يقظان ، الذى سميت القصة باسمه ألقى وهو طفل فى جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ، وشب الفتى متوقد الذكاء عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل فى هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء(٩٦) . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شىء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا

بالعقل الفعال[٩٧] . وأصبح حى بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس . وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع فى سعيه إلى الوحدة أن يلتى بنفسه على الجزيرة ، فالتقى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحى بما فى عقائد الناس الدينية فى الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنذروا به عن عقاب النار . واعتزم حى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم فى السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أولم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعى إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديعة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

وقدم ابن طفيل إلى أبى يعقوب يوسف حوالى عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطبيباً يعرفه المسلمون باسم أبى الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون فى العصور الوسطى باسم أفروس (Averroës) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً فى العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود فى بنى الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة فى قرطبة ، وقد هيأا له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هـــذه الفقرة التى يقولون إنها هى التى وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه فى السموات ، هل هى أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف المسكين واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة . وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه فى الموضوع ، ويعيد على مسامعه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع فى شىء من هذا إلا إلى ذاكرته مما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمأن الأمير الفيلسوف وامتحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشىء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن[٩٨] .

وعين ابن رشد فى عام ١١٦٩ قاضيا للقضاة فى إشبيلية وفى عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة فى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفى عام ١١٩٤ نفى ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش فى عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته فى العام التالى ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً فى تلك المدينة .

وكاد كتابه فى الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة فى الفلسفة ؛ ولكنه كان فى الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدرى يكتسب الحصانة من هذا الداء[٩٩] . وكانت موسوعته الطبية المسماة كتاب الكليات فى الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار فى الجامعات المسيحية . وأبدى الأمير أبو يعقوب فى ذلك الوقت رغبته فى أن يكتب له أحد العلماء شرحا واضحا لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت فى آراء الفيلسوف اليونانى ، وأن كل ما تحتاجه

لكي تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر(*) . واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة فى أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولا للطلبة المتقدمين فى الدرس — وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة فى الصعوبة مألوفة فى الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته فى أوربا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه فى المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو فى المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، ورداً على تهافت الفلاسفة للغزالى سماه تهافت التهافت . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدى إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة(١٠٠) بمعناها الحرفى ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة فى عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفى لغير التفكير العارض ، السطحى ، الخطر فى مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظا يعارض الدين(١٠١) ؛ ومن حق الفيلسوف فى مقابل هذا أن يترك حرا يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد

(*) وأبدى سنتيانا Santayana فى كتابه حياة العقل The Life of Reason هذا الرأى نفسه .

إلى الدعاوة لآرائه بين العامة[١٠٢] . وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة[١٠٣] . ولقد ظل هذا التفسير الرمزى للنصوص المقدسة المبنى على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين . وابن رشد لا يقول صراحة بالنظرية التى يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهى أن قضية من القضايا قد تكون صادقة فى الفلسفة (بين المتعلمين) ، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) فى الدين (والأخلاق)[١٠٤] ، وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى . ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد فى رسائله الصغرى التى وضعها لجمهور الطلاب ، بل فى شروحه لأرسطو التى هى أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر .

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث فى معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان[١٠٥] ويقول إن العالم أزلى ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ؛ وإن القول بالخلق خرافة ، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشىء كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج فى إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصور هو الذى جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة فى هذه الأيام يقولون إن الشىء قد ينشأ من لا شىء[١٠٦] . . . والحركة أزلية ودائمة ؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس فى وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية[١٠٧] .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعنى بهذا القول أن العالم موجود فى أى وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر فى كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرة الله الفعالة[١٠٨] ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلى يكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك . ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتى العقل الفعال الذى يدخل فى جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنسانى مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبى ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله . ، وهو الذى يبعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يفنى[١٠٩] .
ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوؤها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان[١١٠] . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه[١١١] . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدى بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفسانى على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن الجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس[١١٢] .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos ncus poietikos) مرجعها كتاب النفس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندرى ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية جديدة ؛ ولكن

بينا كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدى معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفى بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد فى المسيحية أعظم منه فى بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيحى فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينيـــة كانت من أكبر البواعث على نزعة ســـيجر ده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بلدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذى بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التى اتبعها ابن رشد فى شروحه وفى كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفى قوله إن المادة هى منشأ الفروق بين الكائنات ، وفى تفسيره الرمزى للنصوص الخاصة بالتجسيد فى الكتاب المقدس، وفى قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفى رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان[١١٣] . وقد وضع روچر بيكن ابن رشد فى المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التى هى من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد فى هذه الأيام (حوالى عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء »[١١٤] ؛

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفى عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلا عدداً قليلا منها

فى التاريخ الطبيعى ، وحرم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا فى النار جميع كتبها أينما وجدت . . وبادر العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوؤهم ويحز فى نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذى كان عند بعضهم أعز سلوى لهم فى حياتهم المضنية النكدة . وفى هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة(١١٥) ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظرى . ولما أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلامى ، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدها هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كبتها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففى أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفى عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدميراً .

الفصل التاسع

غارة المغـول

١٢١٩ – ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغرى الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة(*) . وكان السلاجقة قد بعثوا فى بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتى حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الدينى والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصابيين .

وفى هذه الأثناء كان المغول الضاربون فى شمالى آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا يعيشون فى الخيام أو فى العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك المون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين فى استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم چيوڤنى ده بيانو كربينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه »[١١٦] ، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمئزاز أعظم الناس ثقافة فى هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان – أى الملك

(*) انظر مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

العظيم — أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينا كان جنكيز خان غائباً عن حاضرة ملكه فى كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلفا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقمع جنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه فى أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب جنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ؛ فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها محلوقى اللحى ، فلم يكن من جنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٦٠,٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چجتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقها عن آخرها ، وسبى آلافاً من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابهما ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب . ينعق فيها البوم . وزحف تولوى بن جنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هـــذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة

عشر يوما هلك فيها ٠٠٠ر٣٠٠ر١ نسمة[١١٧] . وقاومت نيسابور الغزاة ببسالة زمناً طويلا ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة ؛ وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين[١١٨] . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر إلى دهلى . ولما خرجت هراة على واليها المغولى كان جزاؤها ذبح ستين ألفاً من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة .

وعاد چنكيزخان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ، ومات فى فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاى جيشا من ٠٠٠ر٣٠٠ للقبض على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشا جديداً فى ديار بكر . وهزم جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً فى أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول أن فتنة قامت فى إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد چنكيزخان بجيش مغولى اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن الحشاشين فى ألموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المشرق من جلة العلماء ، وكبار الخطاطين ، وكان مثال الرقة ودماثة الأخلاق ، شديد الاهتمام بأمور الدين ، وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . واتهم المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ، وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات بإباء وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخدع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك فى هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت فى أسبوع واحد المكاتب والكنوز التى أنفقت فى جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران ، وأرغم الخليفة والمراد أسرته على أن يكشفوا عن مخابئ ثرواتهم ، ثم قتلوا(١١٩) . وهكذا قضى على الخلافة العباسية فى آسية .

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبقى جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام وفى أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع ؛ ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات فى التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائى ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدى المغول . لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان فى استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتى بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكنون فى قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التى يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا فى

أربعين عاما لا أكثر ، ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . واجتمع الانغماس الأبيقورى فى الملذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها وائتلفت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كله — لاتبدل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مذقعاً ، وخرابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانيه فى الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود(*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانيه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تعمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الغزاة المتوحشون أن يقضوا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ما كان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الخالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ما كان يطوقها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقيننا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه السبيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحى

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى فى التاريخ. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله فى القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى ، والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفى العمارة أسلم مكانته الأولى فى القرن الثانى عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطى منافساً له فى بلاد الإسلام التى كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامى فقد أفنى قوّته فى الزخرفة ، وعانى الشىء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه فى داخل هذا النطاق الذى فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة فى بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان فى مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية فى خلال تلك القرون ، وإن لم يكن فى كليهما حظ مختار . غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة فى البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية فى نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً أبطيئاً ، فى حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة فى تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ فى البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا فى عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية

والانتشار — حاشاً أن نقول في الإسلام ، بل نقول في حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالا أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون . واحتفظ الدين الإسلامي ، وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي ، بشعائره أبسط ، وأنقى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي ، وأقل منه قبولا لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتي في احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لها من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية في تصويره الجنة)(*) . وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية .

ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت في الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير(١٢٠) .

أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، و الأدوية ،

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، نقلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد في وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل على أنه تقريب لمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم).

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ، والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep, elixir, jar azure, arabesque, mattress, sofa muslin, satin, fustian, bazaar, caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, risk, sloop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه في العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ، والشربات ، والجلاّب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش العربي ، والحشية (واللفظ الإنجليزي مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجليزي مشتق من الصُّفّة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق ، والقافلة ، والشاه مات . والتعريفة ، وحركة المرور ، والديوان ، والمخزن ، والخطر ، والقارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت لها في طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلا مأخوذ من عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى پروڤانس في فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية للرحلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب في الملهاة الإلهية The Divine Comedy لدانتي . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوربا في زيها العربي أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra للجبر ، Zero و Cipher للصفر ، Azimuth السُّمُوت و Alembic للأنبيق ، و Zenith للسمت ، و Almanac للتقويم وهى مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سيناء وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسيين الذين كانوا ينقلون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويثقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوربا[١٢١] ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ، وأبراج نواقيسها مدينة بالشىء الكثير إلى مآذن المساجد[١٢٢] ، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة[١٢٣] . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية[١٢٤] . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح فى أسپانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين[١٢٥] ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوربا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التى جاء منها هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التى ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التى قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية(١٣٦) — ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين »(١٣٧) ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين فى أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة فى عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبقى على الاعتقاد بكرية الأرض(١٣٨) .

لكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاستدانة العلمية . ذلك أن لا شىء بعد الخبز أعز على بنى الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذى يبعث فى قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظا على من يهدده فى قوته أو عقيدته ؛ ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحى فى إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحيا بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدى المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة(*) ؛ وأمست المعركة المرتقبة فى آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان فى الحروب الصليبية ، وقتل خيرُ ما فى الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامى لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من الكتابيين أهل الكتاب . (المترجم)

خيرٌ ما في الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملا فعّالا في تاريخ العصور الوسطى كله ، مضفاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودى قائما بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتيهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ، فقد طرد كل مسيحى محارب من الأرض المقدسة ، ولكن المسلمين ، وقد استنزف النصر البطىء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضجه ما بذل من جهود ، فنسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقى . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وفيون Villon ، وسار تحدوه العزة إلى عصر النهضة .

وبعد فإن القارئ العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هى التى أنجب فيها المجتمع ، فى مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام فى الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلألئ مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة فى الحُكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ، ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى أشور بلاد أشور بانيبال ، وإلى بابل حورابى ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم . وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهرية في الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث في الشعب الناشيء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء في مجتمع ، والأجيال لحظات في تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات في كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهي مراحل في حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهي نتاج تعاوني لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالِم وإن كان مواطناً في بلده يحبه لما يربطه به من صلات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل ، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حل معه في أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله :

المراجـــع مفصلة

.أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع مجملة فى الجزء الأول ؛ والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل، أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii
2. Hell, J., *The Arab Civilization*,
7. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
3. Encyclopaedia Britannica, II, 184
4. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
5. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nö-dek, *Shetches*, 7.
6. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 98.
7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
8. Ibid.
9. القرآن الكريم tr. and ed. Pickthall, *The Meaning of the Glorious Koran*. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur' an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, iii, 8.
12. الطبرى — المقدمة

Margoliouth, *Mohammed*, 59, Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.
13. Browne, E. G, *Literary History of Persia*, I, 261.
14. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
15. Pickthall, p. 2.
16. Browne, *Literary History*, I, 247.
17. Tisdall, W. S., *Original Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed* xxiv.
18. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
19. Muir, *Life*, 51.
20. القرآن الكريم
21. II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Rilegious Attitude and Life in Islm*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Sale in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit ofIslam*. 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

23. Ibid., 286.
33. Ibid., 238, quoting traditions.
34. Ibid.
35. Andrae, Tor, *Mohammed*, 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.
36. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 58f.
37. Muir. 252f.
38. البلاذرى
39. المصدر عينه
40. Amer Ali, 94.
41. Andrae, 288.
42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris-prudence, and Constitutional Theory* 69;
43. القرآن
44. القرآن
45. Andrea, 267.
46. القرآن
47. Muir, 77, 244.
48. القرآن
49. Muir. 201.
50. Bukhsh, S. K., *Studies, Indian and Islamic*, 6.
51. Muir, 511.
52. Lane-Pool, *Speeches*, xxx.
53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
54. Bukhsh, *Studies*, 6.
55. Irving. W. *Life of Mahomet*, 238
56. Margoliouth, 105: Irving, 231.
57. القرآن
58. الجلستان للسعدى
59. Margoliouth, 458.
60. Gibbon, V, 254.
61. Margoleiouth, 466.

CHAPTER IX

1. سورة الرحمن
2. Lane-Poole, *Speeches*, 180.
3. القرآن الكريم
4. القرآن الكريم
5. القرآن الكريم
6. القرآن الكريم
7. Margoliouth, 69.
8. القرآن الكريم Lane-Poole, 157
9. Ibid.' 158.
10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam*, 587.
11. Lane-Poole, 161, 163.
12. Ibid., 162.
13. Ibid.
14. Ali, Maulana. 890.
15. القرآن
16. Ali, Maulana, 655.
17. القرآن
18. Ali, 602.
19. القرآن الكريم
20. القرآن الكريم
21. Pickthall, p. 594 n.
22. Lane-Poale, 161.
23. القرآن الكريم
24. Ameer Ali, 183.
52. Lane-Poole, 167.
26. Quoted in Muir, *Life*; 520.
27. Lane-Poole, 159.
28. Ibid.
29. Sale in Wherry, I, 122.
30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7 ; Songs, ii, 8, xxi, John xvi, 12-13.
31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
32. Nöldeke, *Sketches*, 44.
33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke. 31.
34. Lane-Poole, xi.
35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel*, 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs*. 125.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 335 - 7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2. Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finaly, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. Ibid., 57.
6. Ibid., 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 539.
12. Hell, J., 59 - 60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 229.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 265
16. Nöldeke, 132.
17. الجلستان
18. Burton, Sir R.F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 80, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmar, 221.
24. Ibid., 85, Abbott, 118.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.
28. Eginhard, *Life of Charlemagne* xvi, 3.
29. Palmer, 121. البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.
31. المتبى : الكتاب اليمنى
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, G., *Palestime under the Moslems*, quoting Masudi, ii, 48.8
2. Hitti, 351,
3. Milman, H. H., *History of Lain Christiainty*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*, I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, *III*.
8. Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 118.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 873.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. Ibid., 318.
19. Browne, I, 228; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-75.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Christianity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I. 172.
30. Ali, Maulana, 730.
31. Philby, H., *A Pilgrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 522.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 88 ; Sale in Wherry, I, 186.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 67 ; Hitti, 284.
37. Lestrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., *The Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S, W., *History*, I. 219.
39. Guillaume, 132.
40. Catholic Encyclopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32,
42. Hitti, 685 ; Sarton, G., *Introduction to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kulturgeschichte des Orients unter den Khalifen*, 52.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 390.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects of Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. Ibid., 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*. 353.
55. Lane E. W. *Arabian Society*,221
56. Ibid., 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 137, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الغزالي ، كيمياء السعادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I,94.
66. Sale in Wherry, I, 168.
67. Hitt. 388.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Persia*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. Ibid., 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 326.
73. Hurgronje, 98.
74. Macdonald, *Muslim Theology*, 84 · Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. Lestrange, *Palestine*, 94.
79. Hitti, 236 f.
80. In Lestrange, 120.
81. Ibid., 342.
82. Ibid 301.
83. Ibid., 295-301, 312, 348, 353, 361 377.
84. Ibid., 265.
85. Ibid., 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I,137;Rivoiria G. T., *Moslem Architecture 110*.
87. Yaqub, II, 587, in Lestrange,
88. Lane, *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islanm*, 389.
90. Baron, I, 320.

91. أبو الفدا ق
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham , J.E.; 16n.
92. Lestrange, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
93. Lane, E. W., *Arabiam Society*, 203.
94. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.

CHAPTER XII

1. In Ameer Ali, *Spirt of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S.. *Cairo*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*,
6. Bakhsh, *Studis* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, introdution and p. 85; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes,
8. Bukhsh.· 49.50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1,275.
12. Pope, *Mosterpices of Persian Art*. 151.
13. Sarton, I, 663.
14. Gibbon. V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sarton, I, 637.
19. De Vaux, I· 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول
21. Sarton, I. 530.
22. Arnold and Gullisume, *Legoey* 385.
23. Sarton, I. 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78.
27. البيروني ٧٨
28. البيروني
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*. 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guillaume, 895.
31. البيروني
32. Bukah, 181.
33. Sarton, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabian Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثاني
37. Thompson. J. W., *Economic and Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medival Islam*, 381.
39. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg. J. H. *Rational Hydrotherapy* 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History af Medicine*, 1929· 137.
44. Arnold and Guillaume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 661.
49. Sarton, I 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٣
52. In Draper. J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I. 411.
53. John. I, 1-8.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer. 101; Arnold and Guillaume, 255.
56. Aristotle *De Anima*, iii, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

Hitti, 958 ; Muir *Caliphate*, 521.
59. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 408.
60. Dawson, 155.
61. ابن خلدون
62. O'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History*, 153,
63. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 412.
64. De Vaux, IV, 12 - 18.
65. Boer 128.
66. Ibid., 811.
67. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, xxxix.
68. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenne*, 21.
69. Ibid., 106, 114, 121, 151 ; Hastings *Encycloped of Religion and Ethics*, XI, 275-6 ; Boer, 186.
70. Salibu, 170 ; Gruner, O. C. *Tpeatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, introd., p. 9.
71. Boer, 138 - 42.
72. Salibu, 208.
73. In Ameer Ali, 395.
74. Boer, 144.
75. البلاذرى ج ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Maius*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.
76. Salibu, 27.
77. Arnold and Guillaume, 311.
78. قانون ابن سينا ص ١١٨
79. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, 7.
80. ابن خلدون
81. Browne, *Literary*, I, 425.
82 Hitti, 435.
83. Nicholson, R. A., *Studies in Mysticism*, 4 - 5.
84. Macdonald, *Religious Attitude*, 169 - 21.
Nicholson, *Studies in Mysticism*, 78.
85. Ibid., 25.
86. Arnold and Guillaume, 219.
87. Hitti, 438.
88. Browne, II, 268.
89. Nicholson, *Studies in Mysticism*, 6-21.
90. Id., *Translations of Eastern* 98-100.
91. In Browne, II, 265.
92. Nicholson, *Mysticism*, 28-31, 38.
93. Browne, I, 404 ; Dawson, 158.
94. Hitti. 443.
96. مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية ج ٤ ص ٨٩
97. Lane-Poole, *Cairo*, 154.
98. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, 48.
99. Id., *Translations*. 38.
100. Nicholson, R. A: *Literary History of the Arabs*, 295 ; ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٢
101. De Vaux, IV. 252.
102. Browne, I, 369.
103. Nicholson, *Islamic Poetry*, 183-7
104. Rihani, A. F., *The Quatrains of Abu'l Ala* (al-Ma'arri), vii.
105. Nicholson, *Literary*, 319.
106. Id., *Islamic Poetry*, 148.
107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.
108. Nicholson, *Islamic Poetry*, 108.
109. Ibid., 191-2.
110. Ibid., 121.
111. Id., *Translations*, 102.
112. Id., *Islamic Poetry*, 150.
113. Ibid., 160.
114. Ibid., 161-5.
115. Id., *Translations*, 102.
116. Id., *Islamic Poetry*, 119.
117. Ibid., 127.
118. Id., *Translations*, 102.

119. Id., *Islamic History*, 140
120. In Browne, II, 120.
121. الفردوسى الشاهنامة
122. الفردوسى الشاهنامة
123. نفس المرجع ترجمة اتكنسن وقد ترجمه ماثيو آرنلد فى سهراب ورستم
124. In Pope, *Survey of Persian Art*, II, 975.
125. Cf. "The Nazarene Broker's Story" in Burton, *Thousand Nights and a Night*, I, 270.
126. Pope, *Survey*, II, 1439.
127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
128. Lane *Arabin Society*, 54-61.
129. Pope, II, 927 ; Hell, 109.
130. Creswell, I' 239.
131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
132. Pope, II, 975.
133. Pope, IV 317-28.
134. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 200.
135. Arnold and Guilaume, 117.
136. Pope, II, 1447.
137. Fenollosa, F. F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, I, 21; Pope, *Survey* I, 2.
138. Pope, II, 1468.
139. Guillaume, 128.
140. Encylopeadia Britannica, XV, 654.
141. Ibid.; Hitti, 420.
142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
143. Ibid., 21.
144. Lane, *Arabian Society*, 117.
145. Ibid.' 15.
146. Hitti, 274.
147. Farmer, H. G., in Arnold and Guillaume. 358.
148. الملستان
149. In Arnold and Guillaume. 859.
150. Farmer in Aronld and Guillaume, 867.
151. Ibid., 372.
152. Ibid., 361; Farmer, H.G., *History of Arabian Music*, 154.
153. Farmer in Arnold and G., 359.
154. Hitti, 214.
155. Farmer, 31.
156. Ibid., 112.
157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*, 156.
158. Farmer, 120.
159. Ibid., 124.
160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.

CHAPTER XIII

1. Gibbon, V, 344.
2. Sarton, I, 466; II (ii). 599.
3. Ueberweg, I, 409.
4. Tarn W.W., *Hellenistic Civilization*, 217 Sarton, I, 466.
5. Gibbon, V, 346.
6. Munro, D. C., and Sellery, G., *Medieval Civilization*, 170.
7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
8. Browne, II, 228.
9. Hitti, 625.
10. Browne, II, 223, Margoliouth, D.S., *Cairo, Jerusalem, and Damascus*, 46.
11. Nöldeke, 8.
12. Hitti, 626.
13. Arnold and Gullillaune, 168.
14. Pope, Arther U., *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture*, 287.
15. Lane, *Arabian Society*. 541.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
17. Pope, II, 1488.
18. Arnold and Guilaume, 116.
19. Dimand, M. S., *Handbook of Muhammadan Art*, 255; Arnold, *Paining in Islam*, 127.
20. Margoliouth, *Cairo*, 69.
21. Arnold and Guillaume, 333.
22. Arnold, Sir T.W., *The Preaching of Islam*, 109.

23. Pirenne, Henri, *Mohammed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 606.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Cicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25.
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرى فى نفح الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرى
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522; Calvert, A.F., *Seville* 11
37. Lane - Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 688, 689:
39. المقرى
40. Dozy, 284.
41. Gibbon, V, 376.
42. Chapman.C.,F., *History of Spain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Lane-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham, J. H., Power, E., *Cambridge Economic History, of Europe*, 136; Barnes, *Economic Hisory*, 114.
46. Clapham, 354-5, Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
48. *Cambridge Medeival History*, III, 482.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universelle*, II, 117.
50. Ibid , 19.
51. Arnold. *Preaching*, 184; Dozy, 235.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 285, Lane-Poole, *Moors*, 47
57. Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 584.
62. المقرى
63. Thompson. J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرى
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرى
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرى
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرى
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II. 176.
2. Ibid., 177; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 180.
4. Marco Polo, *Travels*, i, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 313.
6. Hitti, 446.
7. Thompseom, J.W., *Economic and Social History*, 391; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli inLane-Poole, *Cairo*, 84.
9. Hitti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 41.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1048,
15. Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art : Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time* Magazine, Jan. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 375.
29. Ibid., 392.
30. Sarton, I, 759.
31. Ibid., II (I), 6.
32. Ibid., I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the Poet*, 21.
36. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Bromne, II, 108.
38. Ibid , 256.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encyclopepia of Islam*, III, (ii), 988.
40. Weir, 16; Nicholson, *Islamic Poetry*,5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 86.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith.Margaret,ed., *The Persian Mystics : Attar*, 20 - 7.
46. جلال الدين الرومى : مختارات من ديوان شمس تبريزى
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sarton, II (ii), 872.
50. Browne, II, 521.
51. السعدى
52. السعدى فى الجلستان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 530.
55. الجلستان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizations of the East, Vol. I : The Near and Midple East*,272.
57. الجلستان ١٢
58. ٢ — ٣
59. ٢ — ٢٧
60. ٢ — ٤٠
61. ٤ —٧
62. ٥ — ٥
63. ٥ — ٤
64. ٧ — ٢٠
65. ٧ — ٤
66. ٨ — ٣١
67. ٨ — ٣٨
68. ١ — ٤
69. ٧ — ٨
70. ٣ — ٢٠

71. Browne. II, 534.
72. Grumebrum, 39.
73. Sartone, II (i), 12.
74. Ibid., 216.
75. Ibid., 27; II (ii), 632.
76. Ibid., II (i), 31.
77. Margoliourth, *Cairo*, 220.
78. Sarton, II, (II), 1014.
79. Ibid., II (i), 51; II (ii), 668.
80. Ibid, II (i), 424.
81. Hitti, 686.
82. Sarton, II (i), 282.
83. Carrison, 136.
84. Lestrange, *Baghdad*, 104.
85. Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, *Cairo*, 34, Margoliouth, *Cairo*, 124-9, Hitti, 677.
86. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 112
87. الغزالى
88. الغزالى (التهافت)
89. Macdonald, *Muslim, Theology*, 230.
90. Asin y Palacios, Mihuel, *Islam, and the Divine Comedy*, 273-5.
91. السعدى — الجلستان
92. Muir *Caliphate*, 146.
93. Arnold, *Painting*, 54.
94. Becker, 81.
95. Boer, 175; Duhem, P., *Le systèmedu monde*, IV, 522, 526; Macdonald, *Muslim Theology*, 250.
96. أبو بكر بن طفيل — حى بن يقظان
97. المصدر عينه
97. In Renan, E., *Averroès et l'averroïsme*, 16.
99. Sarton, II (i), 305.
100. ابن رشد
101. المصدر عينه
102. ابن رشد Gilson, E., *Reason and Revelation in the Middle Ages*, 40f.
103. ابن رشد
104. Sarton. II (i), 358.
105. ابن رشد
106. Commentary on Aristotle's *Metaphysics*, xii, in Renan, 108.
107. Commentary on Aristotle's *Physics*, viii, in Renan, 112; Duhem, IV, 549.
108. De Vaux, IV, 70.
109. Commentary on Aristotle's *De Anima*, bk. iii, in Renan, 122; Duhem, IV, 573.
110. التهافت in Renan, 187n.
111. In Renan, 143.
112. Ibid., 146.
113. Arnold and Gullaume, 277-9; Tornay, S. C., *Averroës' Doctrine of the Mind*. *Philosophical Review*, May, 1948, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.
114. Racon, R., *Opus maius*, i, 6; De Vaux, IV 87.
115. Renan, 32.
116. In Browne, II, 440.
117. Ibid., 489.
118. Pope, *Survey*, II, 1542.
119. Lestrange, *Baghdad*, 850; Browne, II, 460.
120. Cf. Arnold, *Painting*, 99.
121. Pope, *Survey*, II, 1044.
122. Burton, *Personal, Narrative*, 90-2
123. Arnold and Gullaume, 166.
124. Encyclopaedia Britannica, XVIII, 389.
125. Arnold and Guillaume, 121; Pope, *Introduction*, 241; Encyclopaedia Britannica, XV, 657.
126. Dennis, Geo., *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 37.
127. Brone, II, 432.
128. Arnold and Guillaume, 98.

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

الفهـــرس

الكتاب الثانى – الحضـارة الإسلامية

الموضوع الصفحة

الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية

الباب الثانى عشر : الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

الباب الثالث عشر : الإسلام فى الغرب

الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم

الموضوع	الصفحة

فهرس الصور والخرائط

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (وبعد) فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة الحضارة ، وهو المجلد المسمى « عصر الإيمان » ، وقد عانينا فى ترجمته من الصعاب ما لم نعانه فى سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ عددها نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع. ذلك أن المؤلف قد نقل الشيء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ، والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس فى الكتاب صفحة تخلو من نص منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون فى الصفحة الواحدة ما لا يقل عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء مؤلفاتهم ، وبلدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ، والوزراء الذى اتصلوا بهم ؛ وكان لابد لنا أن نرجع هذا كله إلى المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التى نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولا ثم عن النصوص بعدئذ .

على أن هذا ليس هو كل شىء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً محرفة تحريفا يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكم من نص نسب إلى غير قائله خطأ فى المراجع التى نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التى يعزوها نقلا عن أمين الريحانى لأبى العلاء المعرى وليست هى له بل من أقوال محيي الدين بن عربى ، والتى كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة

من كتاب « رباعيات أبى العلاء » ، لأمين الريحانى لأننا لم نجده فى مصر .
وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل فى كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين للكتب العربيـــة ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من كتاب نفح الطيب للمقرى باسم « تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس » ، وكتاب « اليمينى » أو « السيرة اليمينية » باسم « تاريخ الأمير سبكتجين ومحمود الغزنوى » الذى لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة فى دار الكتب ، تتطلب قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد ، وترجمة « تذكرة الكحالين » باسم « رسالة فى الرمد » الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تذليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، واهتدينا إلى النصوص من مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التى وقع فيها المؤلف كخلطه بين الكندى الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحاق الكندى الذى كتب رسالة فى الدفاع عن المسيحية عزاها المؤلف إلى الكندى الفيلسوف . وقد عاوننا فى ذلك غير قليل من العلماء والأصـــدقاء نذكرهم هنا اعترافا بفضلهم السيد الحاخام الأكبر الذى ساعدنا فى تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية فى هذا الجزء والجزء الذى يليه والذى اغترفنا من بحر علمه ما روى غلتنا فى هذا الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلانى الحجة فى أبى العلاء الذى هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ دريني خشبة الذى ترجم لنا شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم نجدهما فى التراجم المطبوعة فضلا عما استخرجه لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والأستاذ أمين الشريف الذى وفر علينا كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وأصدقاؤنا فى دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية الذين يسروا لنـــا

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير . فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسي وعن القراء . وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإنا نعتذر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لنتداركه فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسيرى القارئ أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتذر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعثها عليه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

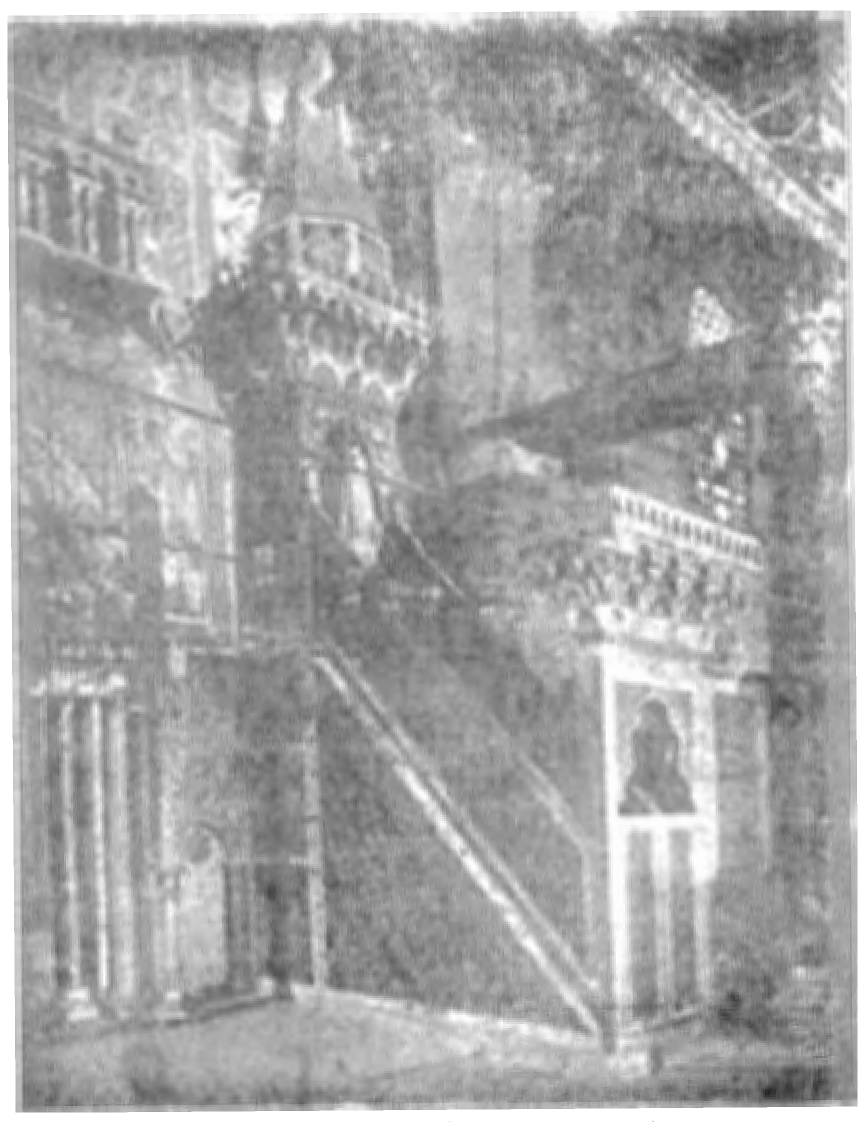
وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ، ونرجو أن نكون قد سلكنا فى هذا الطريق الصحيح .

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام فى مصر والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد فى هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الخير ، وهدانا الصراط المستقيم .

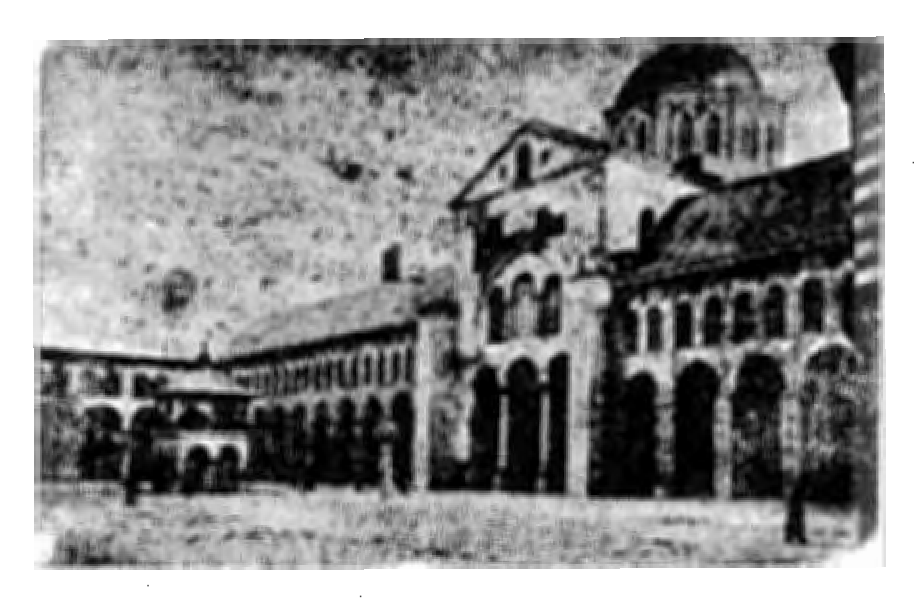
محمد بدران



(شكل ١) قبة الصخرة فى المسجد الأقصى



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من الخشب



(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق



(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام



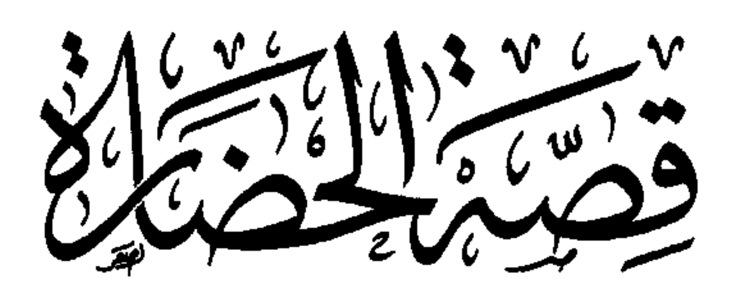
(شكل ٥) صحن الجامع الأزهر بالقاهره



(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة



(شكل ٧) بهو السباع فى قصر الحمراء بغرناطه



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الرابع







تونس بيروت

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

١٣٥ — ١٣٠٠

الحوادث التاريخية فى الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

١ — ٢٢٠	التنايم .
١٨٩	يهودا هنسيا .
٢٢٩	المجمع العلمى اليهودى فى سورا .
٢٢٠ — ٥٠٠	الأموراثم .
٢٨٠ — ٥٠٠	جمع التلمود .
٣٥٩	هلل الثانى يجدد التقويم اليهودى .
٥٠٠ — ٦٥٠	السبورايم .
٦٥٨ — ١٠٤٠	الجادنيم فى بابل .
٨١٥	وفاة ما شاء الله الفلكى .
٧٥٥ — ٩٥٥	إسحق إسرائيلى ، الفيلسوف .
٨٩٢ — ٩٤٢	سعديا جاؤن ، الفيلسوف .
٩١٥ — ٩٧٠	حسداى بن شبروط ، الوزير .
١٠٠٠	مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم .
١٠٢١ — ١٠٧٠	ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف .
١٠٣٨ — ١٠٥٥	شموئيل بن نجدلا ، الوزير .
١٠٤٠ — ١١٠٥	شلومة بن يتزحاق (راشى) شارح التلمود .
١٠٥٥ — ١٠٦٦	يوسف بن نجدلا .
١٠٦٥ — ١١٣٦	إبرهام بارحيا (العالم فى الرياضيات) .
١٠٧٠ — ١١٣٩	موسى بن عزرا الشاعر .
١٠٨٦ — ١١٤٧	يهودا هليفى ، الشاعر .
١٠٩٣ — ١١٦٨	إبراهام بن عزرا ، الشاعر .
١٠٩٦	مذابح الحرب الصليبية الأولى .
١١١٠ — ١١٨٠	إبراهام بن داود ، الفيلسوف .
١١٣٥ — ١٢٠٤	ابن ميمون .
١١٤٧	مذابح الحرب الصليبية الثانية .
١١٦٠	داڤيد الروئى المسيح الكذاب .
١١٦٠ — ١١٧٣	رحلات بنيامين التطيلى .
١١٧٠	مشنة التوراة لابن ميمون .
١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦	اليهود يطردون من فرنسا .

١١٩٠	دلالة الحائرين .
١١٩٠	نشأة القبلة .
١١٩٠	المذابح في إنجلترا .
١٢١٥	مجلس اللاتران الرابع يأمر بأن يكون لليهود شارة .
١٢٣٤	إحراق كتب ابن ميمون في منبلييه .
١٢٤٢	إحراق التلمود في باريس .
١٢٩٠	اليهود يطردون من إنجلترا .
١٢٩٥	سفر زوهر لموسى الليوني .

الباب الخامس عشر

التلمـــود

الفصل الأول

النفى ١٣٥ - ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ فى خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزيه ويلهمه دينه الخاص ، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماؤه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل البذور الخصبة بين عالمين متعادين .

ولم تكن فتنة باركوزيبة Bar Cocheba (١٣٢ — ١٣٥) آخر الجهود التى بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التى قضى عليها پمپى وتيتس Titus . فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها فى عهد أنطونينس بيوس Antoninus Pius (١٣٥ — ١٦١) وأخفقوا فى محاولتهم وحرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا فى يوم تلك الذكرى المؤلمة ، ذكرى تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التى خرب من مدائنها فى فتنة باركوزيبة ٩٨٥ مدينة حتى محيت من الوجود ، وقتل من أهلها ٥٨٠,٠٠٠ رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وانحط الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكد يمضى على فتنة باركوزيبة جيل واحد حتى أنشئ فى طبرية بيت الدين ، أى المجلس اليهودى القومى — وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأحبار والمشترعين — وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى فى النفوس .

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التى يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة ، وحرم على المسيحيين أن يتصلوا بهم[1] . ونفى قسطنطين أحبارهم (٣٣٧) وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام[2] . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى فى عام ٣٣٢ وأخمدت ثورتهم ودكت صبورى دكاً ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلاف آخرون . وبلغت حال اليهودى الفلسطينى وقتئذ (٣٥٩) درجة من الانحطاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطر معهما حاخامهم هلل الثانى أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق فى أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصدر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذى أصدره هلل معمولا به إلى اليوم لدى اليهود فى جميع أنحاء العالم .

فلما ارتقى يوليان عرش الإمبراطورية أنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب . فقد خفض هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم ، وألغى القوانين التى تجعلهم أقل منزلة من غيرهم ، وأطرى الصدقات العبرانية ، واعترف بأن يهوه « إله عظيم » . وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ؛ فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا فى هيكل أورشليم أمر أن

بعاد بناء الهيكل من مال الدولة[٣] . وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بحليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد[٤] ، وفي وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائتي عام يدعون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (٣٦٢) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهيب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل[٥] . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد — فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى — ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية — فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له ؛ ثم مات يوليان فجاءة ، فحبست عنهم أموال الدولة ، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل ، وحرم على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى فقرهم ، وفقرهم ، وصلواتهم . وكتب چيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود « لا يزيدون على عُشر ما كانوا عليه من قبل »[٦] . وفي عام ٤٢٥ ألغى ثيودوسيوس الثاني الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم اليهودي .

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالهم أحسن من هذه الحال في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها . فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقووا العنصر اليهودي البابلي الذي لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث في عام ٥٩٧ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود في بلاد الفرس أيضاً ، ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلا على اليهود أنفسهم[٧] . وقد حاقت باليهود فى تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها فى غير تلك البلاد ، وكانت الحكومة فى الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أى زعيم الطائفة اليهودية ويجلونه . وكانت أرض العراق وقتئذ خصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أضحى من فيها من اليهود زراعا أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائعى الصيت أثرت من عصر الجمعة[٨] . وتضاعف عدد الجالية اليهودية فى بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج . وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التى كانت تبيحها الشريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونحان أثناء تجوالها يعلنان فى كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما فى زوجات موقوتات ، لكى يضربا بذلك مثلا لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبعداهم على الحياة الإباحية[٩] . وفى نحرديا Nehardea ، وسورة ، وبمبديثا أنشئت مدارس للتعليم العالى ، أضحى علماؤها ، وأضحت قرارات كواهنها الدينية ، موضع الإجلال فى جميع أنحاء البلاد التى تشتت فيها اليهود .

وظل اليهود فى أثناء ذلك الوقت ينتشرون فى جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط ، فنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية فى بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية ، رغم عداء أباطرة الروم وبطارقتهم ، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا فى سلام وحرية دينية مع بنى جنسهم الساميين ، واحتلوا فى تلك البلاد أقاليم برمتها مثل خيبر ، وكاد عددهم فى يثرب (المدينة) يكون مساويا لعدد العرب أنفسهم ، واستمالوا إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهيئوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل إنهم بلغوا

فى عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد[١٠] . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم فى تلك المدينة السريعة التأثر والاهتياج مما زاد من حدة العداء الدينى .

وانتشرت جاليات يهودية فى جميع مدائن أفريقية الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً فى إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم فى العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والبابوات يشددون عليهم النكير فى بعض الأحيان . وكان فى أسبانيا جاليات يهودية قبل يوليوس قيصر ، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا فى عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد الميئس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (٥٦٨ — ٦٠١) عقائد مؤتمر نيقية . ولسنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد فى غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (فى عامى ٥٣٨ و٥٤١) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحى المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجيل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيساً يهودياً حوالى عام ٥٦٠ ، وطلب اليهود إلى جنثرام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك فى مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنثرام هذا الطلب صاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أيها المليك وما أعجب حكمتك ! »[١١] .

وكان اليهود فى البلاد التى انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب ، فكانوا يعيدون بناء معابدهم فى صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدحون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية فى بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما فى العادة الكنيس نفسه ، وكان يشار على العلماء ألا يعيشوا فى بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هى اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومى العادى فكانت الأرامية فى بلاد الشرق ، واليونانية فى مصر وفى بلاد أوربا الشرقية ؛ أما فى غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذى يدور حوله التعليم اليهودى ، أما الثقافة غير الدينية فكادت فى ذلك الوقت أن تهمل إهمالا تاماً : ذلك أن اليهود المشتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيانهم جسمياً وروحياً إلا عن طريق شريعتهم ، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها . وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين اللذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم رجاؤه على الإيمان بالله .

الفصل الثاني

منشئو التلمود

كان الكهنة ورجال الدين المقيمون فى المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطيني والتلمود البابلي . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة ، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووضحوا فيها جيلا بعد جيل . وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هي الأخرى من عند الله فهي لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التي استمسك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا مجازاً هي كيانهم وقوام حياتهم . وإن القصة التي تروى تلك العملية الطويلة التي استغرقت ألف عام ، والتي تجمعت فى خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ، والقرون الثمانية التي تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هي الجمارتين أو شروح المشنا ؛ وانضمام المشنا إلى أقصر هاتين الجمارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطيني ، وإلى أطولها ليتألف منهما التلمــود البابلي — إن القصة التي تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة فى تاريخ العقل البشرى . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .

وذلك أن أحكام الشريعة الواردة فى الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ، ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج فلسطين ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن ثم كانت مهمة علماء السنهدرين قبل التشتت ، والأحبار بعده ، هى تفسير الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان منه . وتوارث المعلمون جيلا بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية والأغلبية فى موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم تدون ، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة قابلة للتعديل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على استظهارها . فكان فى وسع الأحبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان الأحبار فى الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنائم Tennaim » أى « معلمى الشريعة » وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أحبار فلسطين وأحبار اليهود «المشتتين أرستقراطية فذة لامثيل لها فى التاريخ . ذلك أن هؤلاء الأحبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ، وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التى نتحدث عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء وكان الأثرياء

يجعلونهم فى بعض الأحيان شركاء غير عاملين فى مشروعاتهم المالية والتجارية ، أو يأوونهم فى بيوتهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم . ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من المنزلة الرفيعة بين أبناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الخلق يغضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون فى النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لابد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالم بحق رجل متواضع ، لأن الحكيم يرى الجزء فى ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، ويروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمتهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يجلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلهم شعب آخر فى العالم كله .

ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أضبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة . ولذلك حاول هلل وعقيبا Akiba ومإير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب فى نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصا مروعا ، وكان مما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة فى أقطار نائية . وحوالى عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسيا Jehuda Hanasi فى قرية صبورة(*) بفلسطين عمل عقيبا ومإير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هى « مشنا الحبر يهودا »(**) وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

(*) قرية على بحيرة طبرية فى فلسطين . (المترجم)

(**) ويرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفوياً من جيل إلى جيل حتى القرن الثامن الميلادى . ومن شاء معرفة رأى الأغلبية فليرجع إلى =

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا ، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .

والمشنا (أى التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هى الصورة النهائية لطبعات مختلفة كثيرة وحواشي متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدمجة محكمة ، وضعت لكى تحفظ عن ظاهر قلب بكثرة التكرار ؛ ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه فى نفسه من الأمانى الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين ، ولكن كل مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى ، وجمعت ستة أجيال (٢٢٠ — ٥٠٠ م) من أحبار الأمورائم (الشراح) هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجمارا الفلسطينية والبابلية ، كما اشتركت من قبل ستة أجيال (١٠ — ٢٢٠ م) من الأحبار التنائم فى صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهودا ما فعله التنائم بالعهد القديم : فتناقشوا فى النص ، وحللوه ، وفسروه ، وعدلوه ، ووضحوه لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين شروطها وصاغتها فى الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب آشي رئيس جامعة سورا حوالى ذلك الوقت فى تقنين الجمارا البابلية وظل يواصل العمل فى ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ربينا الثانى بار (ابن) شمويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٩٩) .

— كتاب ج . ف . مور المسمى « اليهودية فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى Judaism in the First Centuries of the Christian Esra طبعة جامعة كيمبردج بولاية مسشوستس عام ١٩٣٢ المجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوسترلى W. O. Oesterley و . ج . ه . بكس G. H. Box, المسمى نظرة قصيرة فى الآداب الدينية اليهودية فى العصور الوسطى Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism.

وإذا ذكرنا أن الجارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبورائم (المناطقة) مائة وخمسين سنة أخرى (٥٠٠ — ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، ويصقلون التلمود البابلى الصقل الأخير .

بقى أن نقول إن لفظ التلمود يعنى التعليم . ولم يكن الأمورائم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعمال الحديث فهو يشمل المشنا والجارا . . والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الجارا أو الشروح فهى فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى (*) .

ولغة الجارا البابلية والجارا الفلسطينية هى الآرامية ، أما لغة المشنا فهى اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتمتاز المشنا

(*) يشتمل التلمود البابلى على ٢٠٤٩ ورقة من القطع الكبير أى نحو ٦٠٠٠ صفحة فى كل منها ٤٠٠ كلمة . وتنقسم المشنا إلى ستة سدريات sedarim (ست فصائل) وينقسم كل سدريم إلى عدد من المسكتات Masechtoth (المقالات) يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين مسكتة وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من البرقيمات (الفصول) وكل برقيم إلى مسنيوتات (تعاليم) . وتشتمل الطبعات الحديثة من التلمود عادة على : (١) شروح راشى Rashi (١٠٤٠ — ١١٠٥) وهذه تظهر على الهامش الداخلى لصفحات النصوص و (٢) توسافوتات Tcssphoths . (إضافات) وهى مناقشات فى التلمود للأحبار الفرنسيين والألمان من رجال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهذه تظهر على الهامش الخارجى لصفحات النصوص . وتضيف عدة طبعات إلى هذه وتلك توسفتات Tosefta (تكلات) — وهى بقايا من الشريعة الشفوية التى تخلو منها مشنا يهودا هنسيا .

وسنتقل فى هذا الفصل فضلا عن ذلك من المدرش (التفسير) وهى خطب ألقاها — على حد قولهم — التنايم أو الأمورائم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المحصورة بين القرنين الرابع والثانى عشر ، وتشرح فى أسلوب شعبى سهل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيمات (التفاسير) الكبرى تفسير جنثيز رباه Rabbah' لسفر التكوين ، وويقرا رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفات (مجلوتات Megilloth) — تشرح إستير ، ونشيد الأنشاد ، والمراثى ، وسفر الجامعة : وتشرح المكيلتا Nschilta سفر الخروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفرى Sifre يشرح سفرى الأعداد والتثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس(١٢) .

بالإيجاز ، فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، .أما الجماريان فتتبسطان عن قصد وتعمد ، وتذكران مختلف آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التى قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات . ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هَلَـكا) ، أما الجماريان فبعضهما هلكا — إعادة نص قانون أو بحثه — وبعضها هَجَدَة (قصص) . وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هلكا فى التلمود . وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجيم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشريعة ، وكثيراً ما تروج الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتى :

بينما كان رب أمى ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما رأى ذلك ضرب لهما هذا المثل : « إن مثلى معكما كمثل رجل تزوج باثنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع »[١٣] .

الفصل الثالث

الشريعة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصوّر باختصار مخل كريه ، بعض مناحى هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

الناحية الدينية

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعة مسطورة وشفوية ، ومن حِكَمهم المأثورة فى هذا المعنى قولهم : «إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل »[١٤] . و« إن من واجب الإنسان وهو منهمك فى دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم : « كأنا فى هذا اليوم قد تلقيناها من طور سيناء »[١٥] ، وليست الدراسات الأخرى بعد ذلك واجبة ؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا فى تلك الساعة التى ليست ليلاً ولا نهاراً[١٦] . ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفى لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمة موحى بها من عند الله — لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة(*) [١٧] . وإذ كان انعدام الشريعة تعقبه حتما الفوضى الأخلاقية فإن

(*) ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف رمزى لاتحاد المسيح بالكنيسة زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم « فى صدر الله أو عقله »(*) ، وكان إنزالها على موسى لا شىء غير حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزؤه الذى يبحث فى الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ، وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى شفويا ثم علّمها موسى لخلفائه ، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهى واجبة الطاعة تستوى فى هذا مع كل ما جاء فى الكتاب المقدس(**) . ومن أحبار اليهود من يجعلون المشنا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة معدلة جاءت متأخرة عنها[١٨] . وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها[١٩] . وكان يهود ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البديهية فى التلمود ، كما أن من المبادئ البديهية فى الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شىء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال اليشع بن أبويا العالم الذى اتخذه الكوهن مئير صديقا له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بآرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ؛ فهو يحب ويبغض ويغضب[٢٠] ويضحك[٢١] ويبكى[٢٢] . ويحس بوخز الضمير ،

(*) قارن بذلك ما يعتقده الصينيون الأقدمون من أن حركة العالم وبقاءه إنما يعتمدان على القانون الأخلاقى ؛ وتشبيه هرقليطس حيود الكواكب السيارة بالذنوب ؛ و « أفكار » أفلاطون النموذجية الأصلية المقدسة . وأصل هذه النظرية يرجع إلى الآية الثانية والعشرين من الأصحاح الثامن من سفر الأمثال . وقبل أقر المسيح بأزلية الشريعة (الآية ٧ من الأصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا ، والآية الثامنة عشرة من الأصحاح الخامس من إنجيل متى) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن القرآن أيضاً أزلى .

(**) لم يقر أى مجمع يهودى رسمى هذا الرأى التلمودى الخاص بالتلمود ؛ واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه .

ويلبس التمائم[٢٤] ، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفى الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات فى كل يوم[٢٥]. ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : « إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه »[٢٦] ، وإذا لم يكن فى مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمده بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه فى وقت واحد ، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالّة فى كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسُّكينا (السّكَن) تكون حقيقية بنوع خاص فى الأشخاص المقدسين وفى الأماكن والأشياء المقدسة ، وفى ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شىء رغم هذا إله واحد . وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة ، واليهود لا يفتئون يجهرون بوحدانية الله فى حماسة قوية ويندددون بشرك الوثنية وبما يبدو فى الثالوث المسيحى من تثليث . وهم يجهرون بهذه الوحدانية فى أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعى يا إسرائيل ، الله إلهنا ، الله واحد » (شمع يسرائيل أدوناى إلوهينا أدوناى أحد)[٢٧] . وليس ثمة مكان بجواره فى هيكله أو عبادته إلى مسيح ، أو نبى ، أو قديس . وقد نهى أحبار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا فى أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكى يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعى يهوه كانوا يذكرون بدلا منه لفظ أدوناى أى الرب ، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل : « الواحد المقدس » « الواحد الرحيم » « السماوات » « أبينا الذى فى السماء » . وفى اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلا ، وخاصة على أيدى كبار الأحبار ؛ ولكن يجب ألا يظن أن هذه

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين إلا إرادة الله ؛

وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب : « فقد خلق الله القوقعة لمداواة الجرب ، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداواة عضة الأفعى ، والأفعى لعلاج الاحتقان[٢٨] ، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ؛ وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظريه لاتخفى عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجد بها الذات الإلهية أو يغضبها . والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن « الإنسان قد خلق أولا وله ذنب كذنب الحيوان[٢٩] و « كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القردة »[٣٠] . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ، وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الخطيئة . أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجم من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان[٣١] . بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أو تناسل . وتقول إحدى الفقرات الظريفة « تعال نعز الخير لآبائنا ، فإنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا »[٣٢] .

والخطيئة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكابها ليس موروثاً ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة سقوط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية . فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الذنوب ، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى ، تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة . ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقيبا أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء[٣٣] . أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ، وغير الآثم بحق لا يموت أبداً[٣٤] . فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكائن مإير فيقول :

بينما كان الكوهن مإير يلقى موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة فى منزله . فغطتهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندبهما فى اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن مإير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرهما فى الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو الهبدلة (وهى دعاء يختتم به السبت) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : « لدى سؤال أريد أن أسألك إياه . ائتمنى أحد الأصدقاء فى يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردها إليه ؟ » فأجابها الكوهن مإير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ؛ فأمسكت زوجته حينئذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه الغطاء . فأخذ الكوهن مإير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته » .

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير فى آراء الأحبار الدينية . فقد صوروا النار على أنها جهنم Ge Hinnom أو شاول[*]، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج فى درجات العذاب . ولا يدخلها من المختتنين إلا أخبثهم[٣٦] ، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقون فى النار يخرجون منها مرة أخرى إلا فئات ثلاثا : الزانى ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره »[٣٧]. أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Eden ، وكانوا يصورونها فى صورة حديقة تحوى جميع المسرات الجسمية والروحية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

(*) كان وادى هنم كومة من الأقذار فى خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة . أما شاول فقد كانت فى رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات .

الستة الأيام التي خلق فيها العالم ، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر[٣٨] .

وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شتتوا في أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها في ظنهم عقل ، وأخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو أبوهم ، وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة يأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطر معه أحبارهم الذين سموا بهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا في ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذي نشأت فيه أمتهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان ، ويقولون « إن من يمشي أربع أذرع في فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش في فلسطين يطهر من الذنوب »[٣٩] . « وحديث من يسكنون فلسطين في حد ذاته توراة »[٤٠] ، وأهم قسم في الصلوات اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات الثماني عشرة) تحوي دعاء بمجيء ابن داود ، الملك المسيح الذي يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله في هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة

٢ ـ الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب في عصر الإيمان الذي نتحدث عنه ، والذي يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتتون ، هو عقيدتهم الدينية بل شعائرهم ، لم يكن هو العقيدة التي لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتي قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن في مقدور

شعب غير هذا الشعب امتكبر ، السريع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تنشد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر . وفى ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكى تؤدب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها »(٤١) .

ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شيء هي قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحي الحيوانية القرابين والصلوات ، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين فى المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها فى الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة فى الهيكل محرمة فى المعابد . وفى هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد تكشف الدينان الساميّان عن تقوى قاتمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قاتم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها فى كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تتلى من قلقطيرات (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاما دون أن يتلوا دعاء قصيرا قبله وصلاة للشكر طويلة فى نهايته . على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً فى القيام بأعمال واحدة ، وكان أحبار اليهود يحاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن « الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها فى الكنيس »(٤٢) . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو « الشمونة عسرا » ، « والشمع يسرائيل » ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس ، وعلى « قديس Kaddish » (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ثم دعاء ختامى . ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التى تقام فى المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة البدنية أو طقوس الطهارة . فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين على سلامة الروح[٤٣] . ولهذا كانوا يحرمون على بنى دينهم أن يعيشوا فى مدينة ليس بها حمّام[٤٤] ، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية كقولهم : « إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل الحديد الذى يحمى فى تنور ثم لا يوضع بعدئذ فى ماء بارد »[٤٥] ، فمثل الجسم كمثل الحديد يجب أن يُسقى ويُقسَّى . ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام[٤٦] . كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسى ، والحيض ، والولادة ، والحشرات ، والخنازير ، والجذام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ، وثمانين يوماً إذا كانت المولودة أنثى[٤٧] . ويجب وفقاً لما ورد فى الكتاب المقدس (فى الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين) أن تجرى عملية الختان للمولود الذكر فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده ؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين ، والأحباش ، والفينيقيين ، والسوريين ، والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحيا يحتمه الجو الذى يساعد على النضوج والاهتياج الجنسى المبكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يحتمه أحبار اليهود على بنى دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثنى عشر شهراً دون ختان[٤٨] .

ولقد يخيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط فى الطب المنزلى أكثر مما هو كتاب فى الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الخرافات والحيل الطبية التى تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبى والخرافى إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجد فى أحبار البابلية وصفا غاية الجودة للمرىء والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئتين وتليف الكبد ، والحَرَض الجَبَنى وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبته الأحبار أن الذباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى[٤٩] ، كما أثبتوا أن التَّدْمام (أى الاستهداف للنزف) داء وراثى يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت بها رقى سحرية لطرد الأرواح الخبيثة التى يحسبونها سبباً فى الأمراض .

ولقد كان أحبار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبراء فى التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه فى رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها[٥٠] لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماه القوة »[٥١] . وهم يمتدحون الخضر والفاكهة ما عدا البلح ويوصون بأكلها . أما اللحم فمن مواد الترف التى يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين[٥٢] . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض . ويجب ألا يجمع فى الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التى يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر فى المطبخ[٥٣] . ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر[٥٤] . ويجب الامتناع عن تناول الطعام فى غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كالدجاج »[٥٥] . و« الذين يموتون من الإفراط فى الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »[٥٦] . « والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »[٥٧] ؛ والاعتدال فى الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً ، فكثيراً ما يكون الخمر دواء نافعاً[٥٨] ، و« ليس ثمة سرور إلا به »[٥٩] . وقد أراد أحبار اليهود أن يسيروا فى موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث فى المرحاض يطل عمره » وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة(*)[٦٠] .

وكانوا يقاومون التنسك وينصحون بنى دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم[٦١] . وقد فرض عليهم الصيام فى مواسم معينة وفى بعض الأيام المقدسة ، ولكن لعل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد ويقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغمات الحزن والأسى التى كانت تسمع منهم حتى فى أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور فى العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهيء لهم ثياباً جديدة[٦٢] . ويبدو أن السبت — وهو أعظم ما ابتدعه اليهود — كان عبئاً ثقيلا عليهم فى أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودى التقى أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار فى منزله ، وأن يقضى الساعات عاكفاً على الصلاة فى الكنيس . وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

(*) أى كلما ذهب إلى المرحاض .

الوافى الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز فى السبت . ولكن فتاوى الأحبار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها . وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقنعة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله فى يوم الراحة .. يضاف إلى هذا أن اليهودى الصالح كان يجد سعادة خفية فى التمسك بشعائر السبت القديمة : فكان يبدؤه بقداس قصير . كان وهو محوط بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التى يحلو فيها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مملوءة بالخمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه ، ويحمد الله « الذى يخرج الخبز من الأرض » ، ويعطى بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن فى السبت .

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو للراحة المحببة . فمنها عيد الفصح اليهودى الذى يبدأ فى الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيى فيها ذكرى فرار اليهود من مصر . وكانوا فى الأيام الأولى من العهد الذى أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الفطير ، لأن اليهود قد فروا ومعهم العجين الذى يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى فى أيام التلمود عيد المرور ، لأن يهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد « مر » بالبيوت التى رش من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها[٦٣] . وكان اليهود يحتفلون فى اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدر) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعة عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكرهم بأيام موسى البئيسة ، ينقل فى خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفى عيد العنصرة ، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود فى عيد شيوعوت بحصاد القمح وتجلى الله لموسى على الجبل فى سيناء . وفى اليوم الأول من

تشرين — وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية — وهو يتفق بوجه عام مع الإعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، وينفخون في قرن الحمل (الشفار أي الصفارة) إحياء لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم . ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء اليهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون . فإذا جاء اليوم العاشر المسمى يوم هاكيريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتذوا نعالا أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بل كانوا يقضون النهار كله في الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب بني دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه . وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكوت أو عيد المظلات . وكان المفروض أن يقضي اليهود هذا العيد في أخصاص إحياء لذكرى الخيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما التي قضوها في البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعابا جمة في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصح أن يرمز به للمسكن . وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حَنُكة أو التكريس ، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين (١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانز Antiochuc Epiphanes ؛ وفي الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد پوريم الذي أنجى فيه موردكي وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان . وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون

فيها الخمر . وفى ذلك يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب فى ذلك اليوم حتى لا يستطيع التميز بين قولهم « ملعون هامان » و « ملعون موردكى »[٦٤] .

وليس من حقنا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون فى التشاؤم يحز فى نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعاصير العقائد المتباينة ، يهيمون فى بيداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التشتت والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية ، ويتذوقون لذة العمل والكفاح فى سبيل الحياة ، ويستمتعون بما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جمال قصير الأجل وما فى الأرض والسماء من جلال مقيم . وفى ذلك يقول كوهنهم ماير : « يجب أن ينطق الإنسان فى كل يوم بمائة دعوة صالحة »[٦٥] . ويقول كوهن آخر قولا ما أجدرنا كلنا أن نعمل به « إذا مشى إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطئ فيها رأسه أغضب الله ؛ ألم يرد فى الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض »[٦٦] .

٣ — المبادئ الأخلاقية فى التلمود

ليس التلمود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل هو فوق هذا كله رسالة فى الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة[٦٧] ، وشئون المال ، والضرائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفى هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولا أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيؤه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأى ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة فى الإلمام بأحكام هذا الكتاب فى الميادين المختلفة السالفة الذكر .

وأول ما نذكره أن التلمود أولا وقبل كل شيء قانون أخلاقى ، وأن هذا القانون

الأخلاق شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقي المسيحي وعظيم الشبه بالقانون الإسلامي ، حتى لتكفي نظرة خاطفة إليه لدحض الرأي السائد في العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية في تلك العصور . إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة في أن المبادئ الأخلاقية الفطرية — غير الدينية — تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ، وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق بخوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقي على مبادئ رئيسية واحدة : أن لله عيناً تبصر كل شيء ، ويداً تسجل كل شيء ، وأن القانون الأخلاقي منزل من عند الله ، وأن الفضيلة تتفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب . ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين تجيز التفرقة بين الجريمة والخطيئة ، أو بين الشر والشريعة الكنسية ، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته ولاسمه جل جلاله .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاً عن هذا في بعض قواعد الأخلاق : تتفق في حرمة الأسرة والمسكن ، وفيما يجب للآباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفي حب الأبناء ورعايتهم ، وفي عمل الخير لجميع الناس . وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآثام الكبرى في اليهودية كما هو في الإسلام[٦٨] ؛ وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين[٦٩] ، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة ؛ وفي ذلك يقول أحد المعلمين اليهود[٧٠] « إن من لا ولد له يعد من الأموات » ؛ ويتفق اليهودي ، والمسيحي ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها أوامر الدين التي تقضي بوجوب إنجاب الأبناء . على أن أحبار اليهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة في

بعض الأحوال ، ويفضلون أن تكون السبيل إلى هذا هي منع الحمل ، وفى ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ؛ كيلا تكون النتيجة هى الإجهاض ، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل »(٧١) .

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذى يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقبره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تتزوج فى بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تتم تربيتها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى رزقوا الأبناء ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، أعزوهم وأدبوهم تأديباً ممزوجاً بالحب وفى ذلك يقول أحد أحبارهم : « إذا كان لا بد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حذاء »(٧٢) . ويقول آخر «إذا امتنع الإنسان عن عقاب طفل ، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق»(٧٣) . وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أى تثقيف العقل ، وتقويم الخلق بدراسة « الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس »(٧٤) . فالسكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى فى وجوههم ، وفى نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما فى وسعه وفى جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التى لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم ممن يقدم كل القرابين»(٧٥) . ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب فى هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم فى هذه الناحية أن اضطر أحبارهم إلى أن ينهوهم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات ؛ ومع هذا فقد وجد عند

موفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم[٧٦] . « لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية ؛ ذلك بأنه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق فى ركن حجرة استشارته يستطيع من كان فى مقدوره أداء شىء من المال أن يضع فيه ما يرغب فى أدائه ... وحتى لا يعترى الخجل من يعجز عن أداء شىء منه »[٧٧] . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان فى حاجة فليدخل ويطعم »[٧٨] . وكان شاما بن إلعى Châma ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده فى كيس نقوده كلما سار فى خارج داره حتى لا يحجم أحد عن سؤاله[٧٩] . ولكن التلمود كاد يؤنب التظاهر بالبذل ويشير بأن يكون سراً ويقول « إن من يعطى الصدقات سراً أعظم من موسى »[٨٠] .

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج الذى كان هو والدين الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبذلوا جهدهم فى كبح جماحها . فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقل المنى »[٨١] ، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المجهد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة »[٨٢] . وعلى الإنسان أن يبتعد عن كل المواقف التى تثير شهوته ، فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى فى الطريق خلف امرأة ولو كانت زوجته ... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة »[٨٣] وتظهر فكاهة أحبار اليهود المبهجة مرة أخرى فى قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لغواية الشيطان ؛ وأخذ يقاوم طبيعته راجيا أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعد أن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه ؛ وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه اليشع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمائة ميل لكي يحول بينه وبين إهلاك نفسه(٨٤) .

ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البكورية لا بأس بها ، ولكن البكورية الدائمة هي بعنيها وقف النماء الطبيعي ، ويعتقدون أن كمال المرأة في كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يمهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتهما . وكانوا يشيرون بالزواج المبكر – في الرابعة عشرة للبنت وفي الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد في الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادي قبل أن يقدم على الزواج : « على الرجل أولا أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج »(٨٥) . – ولكن هذا الرأى هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالي المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب بألا يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أمًّا صالحة(٨٦) ، ويقولون « اهبط درجة في اختيار الزوجة ، وأرق درجة في اختيار الصديق »(٨٧) ، ومن يختر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره .

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ؛ ومن أقوال أحد الأحبار في هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية في مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق[٨٨] . ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب اليهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ، وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأحبار للرجل إشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزنى بعينيه »[٨٩] ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثماً في قلبه »[٩٠] . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ يقول : « يجد الإنسان في كتاب سيئاته يوم الحشر كل شيء رآه بعينيه وأبى أن يستمتع به[٩١] .

وأبيح الطلاق برضا الطرفين ، فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيما عشر سنين بعد الزواج[٩٢] . ولم تكن مدرسة شماى تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلل فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « شيئاً معيباً » ، وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأى هلل ، وقد ذهب فيه عقيبا إلى حد بعيد فقال إن « في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها »[٩٣] . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة اليهودية ، بأن سارت أمام الناس عارية الرأس ، أو غزلت الخيط في الطريق العام ، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو « إذا كانت عالية الصوت أي إذا كانت تتحدث في بيتها ويستطيع جيرانها سماع ما تقول »[٩٤] ولم يكن عليه في هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه[٩٥] ، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنينا ، أو أبى أن يؤدى الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التى تليق بها[٩٦] ، أو كان مشوهاً أو نتناً[٩٧] . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا فى سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون فى جميع الأحوال — إلا القليل النادر منها — استيلاء الزوجة على البائنة والمهر ؛ ويقول الحاخام إلْعِزَر Eleazar « إن المذبح نفسه ليذرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه »[٩٨] .

وجملة القول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تحابى الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت فى نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل »[٩٩] ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها فى الرجل[١٠٠] . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة : « لقد نزلت على العالم عشرة مكاييل من الكلام ؛ أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحداً »[١٠١] . ونددوا بانهماكها فى السحر وما إليه من الفنون الخفية[١٠٢] ، وفى الأصباغ والكحل[١٠٣] . ولم يكونوا يرون بأساً فى أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبـــون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال[١٠٤] . وفى القضاء — على حد قول أحد الأحبار — « تعدل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد »[١٠٥] ؛ وكانت حقوق النساء الملكية محددة فى التلمود بالقدر الذى كانت محددة به فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ؛ فكاسبهن وما يؤول إليهن من ملك لمن حق لأزواجهن[١٠٦] ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة فى « عصر المسيح الثانى ستلد

طفلاً فى كل يوم »[١٠٧] وإن « الرجل الذى له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم »[١٠٨] ، ويقول عقيبا من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذى له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة[١٠٩] : ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شىء يصدر عن المرأة[١١٠] » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما فى البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة ، ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحذر الرجال من أن يبكوا المرأة ، فإن الله يعدّ دموعها »[١١١] .

ولقد جمع ناشر غير معروف فى أبهج جزء من أجزاء التلمود ، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقى أبوث Pirke Aboth (الأصول السياسية) ، حكم كبار الأحبار الذين عاشوا فى القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له . وكثير من هـذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها !

قال بن زوما : من هو الحكيم ؟ هو الذى يتعلم من كل إنسان ... من هو القوى ؟ هو الذى يخضع ميوله (الخبيثة) ... من يسيطر على روحه خير ممن يستولى على مدينة . من هو الغنى ؟ هو الذى يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذى يكرم بنى جنسه[١١٢] . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ؛ فليس ثمة إنسان ليست له ساعته ، وليس ثمة شىء ليس له مكانه[١١٣] . . . لقد نشأت طول عمرى بين الحكماء ، ولقد وجدت أن لا شىء أحسن للإنسان من الصمت . . .[١١٤] .

وقد اعتاد الكوهن إلعيزر أن يقول : مثل من تزيد أفعاله على حكمته ، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها ، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها . . . أما من تزد حكمته على أفعاله فمثله كمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحتها من مكانها[١١٥] .

الفصل الرابع

الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها فى مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى مائة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك فى أن كثيراً من المقالات قد وضعت فى غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع فى غير المقالات التى يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعة . وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما تترك النقط المتعارضة دون أن تحل وتفسر . وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرنا من الزمان لننصت إلى نقاش أشد المدارس إخلاصا ونستمع إلى عقيبا ومإير ويهودا هنسيا ورب فى أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها فى نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده فى هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلا من الخيالات والأوهام ، والغرور الذى يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة .

وإذا ما اشمأزت نفوسنا من قسوة هذه القوانين ، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من يخرقها من شدة وبطش ، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجد ، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم يطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يغضون أبصارهم عما يجدونه فى كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التى تدعو إلى الكمال ، وبين ما فى الطبيعة البشرية من ضعف خفى . وفى ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد لجاء ابن داود من فوره »(١١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل ، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التى جاءت بها الشريعة .

ويهتم التلمود اهتماما كبيراً بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلى عن شريعتهم . ولقــد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعفو قط عنهم . وإنا لنجد فى مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقد على المسيحية ، ولكنها حقد على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادت عن مبدإ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذى لا يتبدل . وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائك الطويل ، مئات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها فى بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفى الذى تراه فى العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودى من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هــذا الدرس الطويل . انظر مثلا إلى ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التى يلقى فيها عقيبا دروسه ، وجلس فى الصف الأخير ، ودهش من

كثرة القوانين التى استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتى لم يحلم بها قط كاتبها[117] .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أساس التربية اليهودية وجوهرها . وكان الشاب العبرانى ينكب عليه سبع ساعات فى كل يوم مدى سبع سنين ، يتلوه ويثبته فى ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذى يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر فى عقولهم من معرفة ، شأنه فى هذا شأن كتابات كنفوشيوس التى كان يستظهرها الصينيون كما يستظهر اليهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبين التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف . وقد أفادت هذه الطريقة حدة فى الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره فى كثير من الميادين التى تتطلب الوضوح ، وتركيز الذهن ، والمثابرة ، والدقة ، وإن كانت فى الوقت نفسه قد عملت على تضييق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة اليهودى الثائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعته الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ؛ ولربما كان « نير الشريعة » عبئاً ثقيلا على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب فى نجاة اليهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس فى ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذى أبقى على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يتهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود فى تشتتهم الواسع ما فعله أنبياؤهم للاحتفاظ بالروح اليهودية فى الأسر البابلى . فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا فى قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتهما

المحن الطوال[١١٨] . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرض أصول التقاليد اليهودية فى صدر اليهودى بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال فى أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال ؛ ولقد كان التلمود على حد قول هينى Heine وطناً متنقلا لليهود يحملونه معهم أينما ساروا . فحيثما وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة فى أرض الغربة ، كان فى وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى فى عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذى نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتانى Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحب يصل إلى درجة الجنون ، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا فى القرون المتأخرة أموالا طائلة لطبعه كاملا ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات ، والمجالس النيابية تحرم تلاوته ، أو تصادره ، أو تحرقه ؛ وابتهجوا حين رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، وعدوه فى أيامنا هذه أثمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأ وسلوى ، وسجناً للروح اليهودية .

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفى ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين فى الدفاع عنها ، فلما سقطت فى أيدى الصليبيين سيق من بقى فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم[1] ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع فى عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا فى عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نحمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود[2] ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرى العدد فى سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه فى بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحت لهم فى ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا فى شئونهم الداخلية ،

كما كانوا فى عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتى تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود فى المهجر) ومديرى المجامع الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك فى كل من بلاد بابل ،وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلى إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين فى حضرة أمير الأسر ، وأن يحيوه باحترام »[٣] . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً فى أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو المجامع العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية فى سورا Sura وپمبديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود فى بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود فى البلاد المسيحية . وحدث فى عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم فى الدين والعلم البابليين[٤] . ولما ازدادت موارد كلية پمبديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود فى جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم فى المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث فى الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى فى الشرق وزلزلت له أركانه — أو لعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية فى ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، ولكن زعماء سورا وپمبديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حنانيا أخا عنن الأصغر إجزلاركا فى مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن فى الجاوثنين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبيها بما ينادى به بعض الشيعة فى الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به البروتستنت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر فى أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسوية وما يحاولونه فى تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة فى أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء فى الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمى أتباعه بالقرائين(*) — أى « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب فى نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب فى تطهير الدين اليهودى وتدعيمه(٥) . وكثر اليهود القراءون فى فلسطين ، ومصر ، وأسپانيا ، ثم نقص فى القرن الثانى عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة فى الانقراض فى تركيا وجنوبى الروسيا ؛ وبلاد العرب . ونبذ القراءون فى القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء فى الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلهم فى قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامى قرا أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ . ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله » يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقى ، بل إن بعضهم قد تغالى فى هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته[٦] . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبى البلخى Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة[٧] . فى هذه البيئة التى تمتاز بالرخاء الاقتصادى ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت فى العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف فى قرية من قرى الفيوم فى عام ٨٩٢ . وشب فى مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين فى عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك فى أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب فى السادسة والثلاثين من عمره جاؤنا أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع فى الدين اليهودى القديم ، فآلى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى — فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا فى حياته القصيرة التى لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات — معظمها — لا يماثلها فى سجل التفكير اليهودى فى العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجرون » وهو معجم آرامى للغة العبرية يعد أساسا للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب فى نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التى يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس فى جميع العصور[٨] » ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات» (٩٣٣) أعظم رد فى الدين اليهودى على الخارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أي بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ، ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائما فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هـــذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقومون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالا خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق ؟[٩] ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود »[١٠] .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلا فظا إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجز يلارك داود بن زكاى قد أضر بيهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود فى عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود . ولما مات داود فى عام ٩٤٠ نـصَّب سعديا إجزيلاركاً جديداً ، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن فى النبى محمد . فما كان من سعديا إلا أن عيّن ابن القتيل خلفاً ، وقُتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود بعد أن فت فى عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذى دام سبعة قرون . وكان تفكك الخلافة العباسية فى بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة فى مصر ، وشمالى أفريقية ، وأسبانيا سبباً فى ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام فى الشرق من ضعف اقتصادى بعد القرن العاشر الميلادى ، فأغلقت كلية سورا أبوابها فى عام ١٠٣٤ وحلت حلوها بمبديثا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاوئية فى عام ١٠٤٠ ؛ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما خرب المغول بغداد فى عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفى من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمالى أفريقية وأوربا ؛ فكان فى سيلان ٢٣٫٠٠٠ عبرانى فى عام ١١٦٥[١١] ، وبقيت فى بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبى ؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر فى عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن فى الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود « أهل الذمة » . ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتى فى شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية فى حكومات الدول الإسلامية[١٢] . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من بارى Bari فى إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع الحبر موسى وابنه حنوخ فى قرطبة ، وبيع سحرية فى الإسكندرية ، وبيع الحبر هوسيل فى القيروان . ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأحبار ، كما تقول الرواية ، وأنشأ فى المدينة التى بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ، وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية فى آسية آخذة فى الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها فى مصر وأسبانيا .

الفصل الثانى

الجماعات اليهودية فى أوربا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد الروسيا فى العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود فى تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النكد من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر . وكان فى بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة فى طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالا إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحازاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى بولندة فى القرن العاشر لأن اليهود كانوا فى ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان فى متز Metz ، واسپير Speyer ، وميتز Mainz ، وورمز Worms ، واسترسبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraokfort ، وكولونى جاليات يهودية كبيرة فى القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير فى تاريخ اليهود الثقافى . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ — ١٠٢٧) مجمعاً علمياً للأحبار فى مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل فى شريعة التلمود بدل أن يستفتوا فى ذلك جاأونيم بابل .

وكان فى إنجلترا يهود فى عام ٦٩١[١٣] ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح Will‧am the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون فى أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رءوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة فى لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاة الأمور المحليين فى شئونها القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التحمائية الهوة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التى حدثت فى القرن الثانى عشر .

وكان فى غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية فى جميع المدن الكبرى فى غالة ؛ واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحى على بكرة أبيهم وإلا فقأ أعينهم (٥٨١)[١٤] ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهوديا ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أبقى على القوانين التى تحرم اليهود من بعض الحقوق التى يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها إنه استقدم فى عام ٧٨٧ أسرة قلونيموس Kalo ıyn os من لكا Lucca إلى ميتز ليشجع الدراسات اليهودية فى دول الفرنجة ، ثم أرسل فى عام ٧٩٧ يهوديا مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقى Louis the Pious يميل إلى اليهود لعملهم فى تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع اليهود فى فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، ومايفرض عليهم من القيود القانونية ، ومايصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل[١٥]. وكانت فى إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من ترانى Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين فى بلدوا بنوع خاص ، ولعلهم كان لهم أثر فى نشر فلسفة ابن رشد فى جامعتها . وكان فى سالرنو Salerno ، حيث أنشئت فى البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب فى

العصور الوسطى ، ستمائة يهودى[١٦] . منهم عدد من مشهوري الأطباء . وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ، وعين البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب الكبرى فى بيته[١٧] ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجورى التاسع فى اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية[*] ؛ ولما اعتنق الملك ريكارد Recared الدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية فى مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحيين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذى خلفه على العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد فى عام ٦٣٣ أصدر قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ؛ وحرم الملك إجيكا Egica على اليهود امتلاك الأراضى كما حرم كل عمل مالى وتجارى بين أى مسيحى ويهودى (٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهودُ العرب حين جاءوا أسبانيا فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sepharad فى سفر عبدية (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك نابوخذ نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسبانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم لا نتسابهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفر التكوين ، الأصحاح العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية[١٨] ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود فى أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا فى جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بنى عمومتهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء فى بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ — ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ما كانه نظام الملك فى القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى فى أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم فى قرطبة ، وداوى الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة فى الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه فى الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة فى حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد فى منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون واليهود فى تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره فى أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففى أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكى، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخاماً أكبر لكل المجامع اليهودية فيها[١٩] ؛ وفى غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجـــدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط فى سلطانه وحكمته وفاقه فى علمه . وقد ولد شمويل فى قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربى ، وجمع بين هذين وبين الاتجار فى التوابل . ولما أن سقطت قرطبة فى أيدى البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحبه إلى غرناطة ، وأسكنه فى قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشىء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به[٢٠] . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل فى عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير فى دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسرهذا الأمر فى غرناطة أكثر منه فى أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة فى القرن الحادى عشر كانوا يهوداً[٢٠] . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت فى عهد شمويل من النواحى المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، ونابغة فى الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعاً منها ؛ وقد ألّف عشرين رسالة فى النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات فى الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقتسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبيرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية فى قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاخاماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته — اعترافاً منهم

بفضله — بالنجيذ — الأمير (فى إسرائيل) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه فى الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة — العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر — هى العصر الذهبى ليهود أسپانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبرى الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من بارى) من الأسر فى قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعاً علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله فى أليسانة ، وطليطلة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؛ وبينا كادت المدارس اليهودية فى الشرق تقصر نشاطها على التعليم الدينى ، كانت هذه المدارس الأسپانية تعلّم فيا تعلّمه الأدب ، والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة[٢١] . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسپانيا فى ذلك الوقت سعة وعمقاً فى الثقافة والظرف لم ينلهما إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسربل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسى بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر[٢٢] . ونشأت فى ذلك الوقت أرستقراطية يهودية تزدان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت فى الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسپانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد — ونصفهم من المسلمين الأندلسيين — يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها فى يده ، وتشبه بالملك فى لباسه ، وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر فى عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحماسة الدينية ومتمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدومهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر فى ذلك الوقت مسيحهم المنقذ المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهى بالحساب الهجرى فى عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة [٢٣] . ولما خلف الموحدون المرابطين فى حكم مراكش وبلاد الاندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالى أسبانيا .

وهنا وجد اليهود فى بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلاهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) فى طليطلة ، حيث كان ٧٢٫٠٠٠ يهودى ، قمعها بصرامة[٢٤] . وحدث فى أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك چيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن[٢٥] . وكانت لهم فى برشلونة السيطرة على التجارة فى القرن الثانى عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية[٢٦] . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال فى شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا فى الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال فى بناء المعابد اليهودية[٢٧] ، وكان فى وسع الإنسان أن يجد بين عامى ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى فى دول أسبانيا المسيحية . منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً[٢٨] . واشترك رجال الدين المسيحيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى هذه الألفة المسيحية[٢٩] .

وكانت بداية عدم التسامح الدينى بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفنسو السابع ملك ليون وقشتالة وجه فى عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين فى طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر[٣٠] . ودخل بعض الصليبيين أسبانيا فى عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا فى أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم[٣١] ، وأدخل ألفنسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المجحفة باليهود فى قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ؛ وكان ألفنسو فى ذلك الوقت يستخدم طبيباً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجد المسلمين ليجعلوها معابد لهم[٣٢] ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطر الملك

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتيز Cortes (١٢٨٣) بألا يعين بعد ذلك الوقت أى يهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الدينى حين أصدر مجلس زمورا Zamora الدينى (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شـــارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون(٣٢) .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية فى البلاد المسيحية

١ - الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية فى العصور الوسطى - إذا استثنينا بالرم وقليلا ن المدن الأسبانية - أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا فى العادة يعيشون فى عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهلين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدتهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدحمت المساكن حوله ازدحاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية فى أسبانيا تحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قذرة ، أما فى غيرها من بلاد أوربا فكادت المساكن أن تكون أحياء قذرة وبيئة مزدحمة بالسكان(٣٤) .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه دمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر فى الانتخابات وفى الاختيار للوظائف فى جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحبار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكوّن بيت الدين أو المحكمة الشعبية ؛ وهذه المحكمة هى التى كانت تجبى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على الدوام . وكان من حقها

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الدينى أو النفى ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر فى احتفال فخم مرعب توجّه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحى . وكان اليهود يسرفون فى استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيون — كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون — يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم فى حالات نادرة[٣٥].

ولم تكن الجماعات اليهودية فى الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك ، تؤدى إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تؤدى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتى بشؤنهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك ، كانوا يخضعون لقوانين الدولة ، وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة ؛ وقد ورد فى التامود أن « قانون البلد شريعة »[٣٦] ، وتقول إحدى فقراته : « صلوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً »[٣٧] .

وكانت الدولة تجبى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الرؤس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ، فضلا عن التبرعات « الاختيارية » للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو « مقدمهم » أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القرن الثانى عشر ½ ٪ فى المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن[٣٨] . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين فى فلسطين . وكان الملك فى أى وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعه بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ فى بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة[٣٩] . من ذلك مافعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجريف برندنبرج Margrave of Brandenburg فى عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألمانى جديد « يجوز له ، عملا بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »[٤٠] ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود فى القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك »[٤١] .

٢ — الشئون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا فى أوقات مختلفة فى العصور الوسطى يمتلكون أراضى واسعة فى بلاد الأندلس الإسلامية وأسبانيا المسيحية ، وفى صقلية ، وسيليزيا ، وبولندة ،

وإنجلترا ، وفرنسا[٤٢] ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح[٤٣] . ولما حكم القوط الغربيون أسبانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأمم » الملك إجيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكا للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأرضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثبطت همة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوبى أوربا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا يعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ؛ وكان اليهود فى تلك الجزيرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصياغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوول إلى عام ١٢٩٠[٤٤] . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوربا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوربا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وحذائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق[٤٥] ، وابتياع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعارا يدل على ثاقب فكره : « تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغللت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح »[٤٦] . وكان البائع اليهودى الجائل معروفا فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفا فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملا تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحمالهم ، وقوافلهم ، وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقالبة والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق[٤٧] ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطيلى أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسبانية ، والصقلبية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين[٤٨] . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية[٤٩] . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic League موانيها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية[٥٠] ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحى الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع[٥١] .

ـ فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرها الملوك الجشعون ، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ، فعمدوا أولا إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إقراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى(٥٢) والتلمود(٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى . ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحا نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضا المال عن طريق وسيط مسيحى(٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكا موصيا(*) فى المشروع وأرباحه — وهى وسيلة أجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين(٥٥) . وإذ كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادرى الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقترضين المسلمين والمسيحيين — ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنائس والأديرة(٥٦) — كان هؤلاء المقترضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلا على هذا أن هارون اللنكلنى Aaron of Lincoln هو الذى قدم ما يلزم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولبنز St. Albans(٥٧) العظيم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان فى القرن الثالث عشر ، واستعانوا بالوسائل التى أوجدها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابى المسيحى أقل صرامة » من مرابى اليهودى « وإن لم يكن أولهما فى حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذى يحتاجه الثانى من خطر القتل والسلب والنهب »(٥٨) فكان كلاهما يشدد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذى يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف فى مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة فى سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكى يسمحوا له بالحصول على ما ماله[٥٩] . وحدث فى عام ١١٩٨ حين كانت أوربا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التى يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين[٦٠] ؛ وأعفى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكى « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »[٦١] . وكان ملوك الإنجليز فى بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء — يلغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما — لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدوّنوا فى سجلاتهم المبالغ التى حصلوا عليها نظير وساطتهم فى هذا البر بالإنسانية[٦٢] . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه العقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودى عن أداء الضرائب أو المطالب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأنذرت مدينيه بأن يؤدوا إليها هى لا إليه ما عليهم من الديون[٦٣] . ولما أن فرض هنرى الثانى على سكان إنجلترا ضريبة خاصة فى عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها[٦٤] . وكان اليهود فى بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة »[٦٥] . وأمر الملك يوحنا فى عام ١٢١٠ أن يزجّ فى السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم — رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا — ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦,٠٠٠ مارك[٦٦] .

وعذّب الذين ظنوا أنهم لم يبوحوا بكل ما كان لديهم من أموال مكنوزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقروا بحقيقة مدخراتهم(٦٧) . وفى عام ١٢٣٠ اتهم هنرى الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يملكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت فى عام ١٢٣١ ؛ وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠٫٠٠٠ مارك فضى ، ثم انتزع منهم فى عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك(*) — وهو مبلغ يوازى مجموع إيرادات التاج البريطانى السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كورنوول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه(٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامى ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بدأ من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يلق قبولا(٦٩) . وحرم إدورد الأول فى عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذ كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ؛ وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم . أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم فى شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم فى المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة(٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود فى الفترات القلقة التى تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته فى هذه الأيام خمسين مرة (٨٫٤٠ دولار أمريكى) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بيوتاً فخمة ، فكانت تلك البيوت فى إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول إلعزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله — النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء »[٧١] . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم ينددوا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا فى رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والائتمار على التحكم فى الأسعار بميسم الخطايا[٧٢] ، وحرموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة[٧٣] ؛ وكانوا يراقبون الموازين والمقاييس ، ويحددون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم فى البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب فى السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ — الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الثراء من واجبات اجتماعية ، ولعلهم أيضاً قد خافوا ثورة الفقراء أو لعنهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش فى بيئة يهودية[٧٥] . ومن بداية القرن الثانى المسيحى كان مشرفون رسميون يفرضون فى فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتتب بشىء من ماله « لصندوق العشيرة » الذى يعنى بالشيوخ ، والفقراء ، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالمجان وبخاصة للعلماء الجائلين . وفى

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية فى بيوت الأفراد اليهود . وزاد عدد الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجئ للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين فى السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدى أموال الفداء للمسجونين ، وبائنات للعرائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر(٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود(٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر فى ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفى مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون فى العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود فى أسبانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما حذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر فى إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجمل فى الملبس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب . ولما أن سألهم الملك فى ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء(٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم بفاخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصبح سبباً للطلاق ، وأمر اليهودى ألا يصلى فى حضرة امرأة يرى الناس شعرها(٨٠) .

وكانت نواحي التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام فى أحياء المدن ، فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد ، كلها وسائل وقت اليهود شر الأمراض المنتشرة فى البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان[٨١] . مثال ذلك أن الجذام كان منتشراً بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين[٨٢] . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء رومة القذرة الموبوءة بالبعوض من مناقع كمبانيا Campagna .

وكانت حياة اليهودي تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقي والقيود التي يفرضها عليه الأوربيون ، ففي كل مناحي الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله لجأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقي به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون في كل حين أن « خداع غير اليهودي شر من خداع اليهودي نفسه[٨٣] » ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة[٨٤] ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينيهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة[٨٥] ، ولكن كثرة استخدام اليهود في المناصب المالية الكبرى توحي بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف — كالقتل ، والسطو ، والسلب — ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية .

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدإ تعدد

الزوجات ، وكانوا أقل ميـلا للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل(*) . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجدات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بنى الإنسان[٨٦] . وكان العزاب نادرى الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التى وضعها الحاخام آشير بن يحيال أن من حق الحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً فى دراسة الشريعة[٨٧] . وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان يندر وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » فى هذه الناحية[٨٨] . ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين[٨٩] . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهى صغيرة السن حتى وإن كانت فى السادسة من عمرها ، ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شاءت[٩٠] . وكانت الخطبة إجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفرقة بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجتَنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذى لم يكن يقل عن مائتى زوزا Zuza (وهو قدر يكفى لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعذراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفا لانرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود — وهم شرقيون فى الأصل — بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشارا عند بعض الشعوب الشرقية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنّة جرى عليها أغنياء اليهود فى البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم فى البلاد المسيحية[٩١] . وتشير الآداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جاخام مينز فى عام ١٠٠٠ م أمراً بحرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود فى جميع أنحاء أوربا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيما بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هى للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية[٩٢] ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه — قرار جرشم — ما كان للزوج قديما من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ، وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود فى العصور الوسطى كان أقل منه فى أمريكا فى هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »[٩٤] . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته فى العمل ، وفى السرّاء والضرّاء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءا من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أبا وكبر أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له فى تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . ويكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائنات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البداهة عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله فى

السنين الأولى من حياتهم وحياتهن الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسى الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه فى بيت أبيها — وقلما كان ذلك سببا فى ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر فى البيت سلطانا مطلقا لايكاد يقل فى ذلك عن سلطانه فى رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينيا ، وأن يضرب زوجته ضربا غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشيرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان فى العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغى قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عاليا من الناحية الأخلاقية . ولكن الرجل اليهودى يحمد الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك فى تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذى خلقنى كما أراد »[٩٥] . وكان للنساء فى المعبد موضع منعزل فى الرواق أو خلف الرجال — وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التى تلهى العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسبن فى العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغانى التى يمتدح بها جمال المرأة تعد عملا غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها[٩٦] . أما التغازل — إذا وجد — فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء — حتى بين الزوجين — أمام الناس[٩٧] ، وقد أبيح الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل[٩٨] .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا مات حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، ورثة أبيهم الطبيعيين ؛ فى أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوى ، وقلما كان يخيب فيهم

وجلاهن[٩٩] . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ، فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديد الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوتهن ، فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة — وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين[١٠٠] . ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هي خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير »[١٠١] .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العادي من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه اليمين ،ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية(*)، ومعناها الشهادة أو البيّنة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له في العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقى الإجلال الذي يليق بزائر قدم من السماء ، ومن ملَك تجسد ؛ وكان الأب يلقى من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخصيتان . (المترجم)

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف بذلك من واجبات الآباء .

٤ — الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية في كل ناحية من نواحي القانون الأخلاق . لا ريب إنه كانت في الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكي تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التي لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودي في العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعاته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه في جميع مناحي الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التي لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة في البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أي ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم في الصلاة ، وفي القراءة من الكتب الدينية ، والأغاني المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنية الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادي عشر) تذكر اليهودي أن إلهه « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين فى نفسه فى أكثر السنين تأثيراً فى تكوينه .

ولم يكن الكنيس معبداً دينيا فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفى للفظ سناجوج ، وإكليزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود : الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه فى عهد التشتت عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر فى كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وأن يجبى الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر فى شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل موعده حتى يستطيع من له حقوق فى هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان فى بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجمل المبانى فى الحى اليهودى ، وكان فى بعض الأحيان وبخاصة فى أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العمارة ، مزداناً أعظم زينة وأجملها ، وكثيراً ما كان ولاة الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية فى المدينة ، وأمر البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف فى بورج Bourges[١٠٣] .

وكان فى أشبيلية فى القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفى طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد فى قرطبة عام ١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومى .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرس Beth ha midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين[١٠٤] وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين — قبل مطلع الفجر فى الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، ويناموا ؛ وكذلك كانت حياة الغلام اليهودى حياة جدية شاقة[١٠٥] .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودى هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفى الثالثة عشرة يأخذ فى دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثـــة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلا من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود[١٠٦] . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها[١٠٧] . أما التعليم العالى فكان مكانه اليشيبة أو المجمع العلمى ، وكان خريج هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أى عالما بالشريعة ؛ وكان يعفى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتما من الأحبار الرسميين[١٠٨] .

أما الحبر الرسمى فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان فى العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التى لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلما كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكا لوعاظ متنقلين (مجديم)

يدربون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرنانة .
وكان فى مقدور كل فرد من المصلين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس ، ويعظ ، ولكن هذا الشرف كان يختص به فى العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولى فى الصدقات والأعمال الخيرية .
وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلى رأسه دليلا على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته علباً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات ١ — ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت فى أطراف ثيابه أهدابا نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لابد منها لتذكر اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمائم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تختم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع فى تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود فى المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى فى الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية ، ولقـد عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق الشعر ، ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعى كالأبيات المتجانسة أولى حروفها أو التى إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التى أضحت عند اليهودى وطنية ودينا معاً . ولا تزال ترانيم إلعزر بن قلير (من القرن الثامن) الفجة القوية

تجد لها مكاناً فى طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند يهود أسبانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشققت التلال عن أناشيد .
وضحكت الجزائر متهللة لأنها تنتسب إلى الله .
وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك .
حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادت بك ملكاً متوجاً عليها(١٠٩) .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (البيوطيم) فى الصلوات التى تقام فى المعابد ، كان ينشدها مرتل القداس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها فى كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم نغماته ارتجالا ، ولكنها تتبع فى بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعة للترانيم المسيحية(١١٠) . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة الصيت المعروفة باسم كل نيدرى Kol Nidre (جميع الأيمان)(١١١) ، قد أخذت من مدرسة ديرسنت جول St. Gall الغنائية بسويسرا فى وقت ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل فى قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى الحلول ، بل ظل أمله فى أن يقدم القربان ليهوه فى يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح الكذاب » فى مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث فى عام ٢٠حين أعلن شيريم Sereme وهو رجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيترحلة لانتزاع فلسطين من المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم فى بابل وأسبانيا ليشتركوا فى هذه المغامرة ، ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجماهير على أنه مهرج دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهانى ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبسلوا فى الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى فى المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلا تمييز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود(١١٢) ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفى عام ١١٦٠ أثار داقيد الروى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهو نائم . ثم ظهر مسيح آخر فى جنوبى جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون « رسالة إلى الجنوب » ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكّر يهود العرب بما أعقب هـــذه المحاولات الطائشة فى ماضى الأيام من هلاك ودمار(١١٣) ، ولكنه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية فى تشتتهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة اليهودية(١١٤) .

الفصل الرابع

كراهيـــة اليهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟

لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ، ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً فى زيادة المنافسات الاقتصادية وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام.أن يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد من يهود أورشليم فى آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف حل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائى كن يلطمن وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع الذين « كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحى ذكراها حين تتلى على المسيحيين قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت نيران الحقد تضطرم فى قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل فى تلك الأيام يحبسون أنفسهم فى أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس فتؤدى إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسى من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات

من أسباب الريبة والعداء . وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشيء من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلّت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد في الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية(١١٥) . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما . وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودي بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحي بغيضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم ، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتميّز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان في قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ، وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد فصح قريب قرباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خمراً عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها(١١٦) ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات(١١٧) . وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة — التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل — بأن اليهود يرون أن كل شيء مسيحي نجس ؛ ويَرُد على هذا بأن الإسرائيلي نفسه لم يكن في أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم فى السر قرباناً لإله المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون فى القرن الثانى عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه فى صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسممون الآبار التى يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح[١١٨] . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودى على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها فى أيدى اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان[١١٩] . ورد اليهود على هذه الأقاصيص بأخرى مثلها عن المسيحيين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود[١٢٠] ، وكان بحيا Bahya يثنى على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبى محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال[١٢١] ، ولكن اليهودى العادى لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بحقد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ، فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التى تحرم هذا الاختلاط ، وكانوا أحياناً يتزاوجون وبخاصة فى أسبانيا وجنوبى أوربا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولى Anatoli ، ودانتى مع عمونيل[١٢٢] ؛ وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفى مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية[١٢٣] . وبُدّل يوم السوق فى ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ؛ ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع فى الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها فى بعض الأوقات ، وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك فى بعض الأحيان أنها لم يعد فى مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان(١٢٤) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . ففى إيطاليا كانت تحمى اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهودا أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيرا ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد فى عملها هذا على ما لها من سلطان عام : من ذلك أن قانون ثيوذوسيوس Thedosian Code (٤٣٩)، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود فى المناصب التى من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم فى المناصب العامة . وحرم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير Beziers (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ، وردّ مجلس أفنيون Avigon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنبهم لنجاستهم (١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ، وأحرق شماس فى عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج بيهودية[١٢٦] . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من بائنها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما[١٢٧] . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين — ذكوراً كانوا أو إناثاً — فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص — ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهن . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان چيوڤنى داكپسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاة الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحى رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنية الرومانية فى البلاد الخاضعة لحكمه[١٢٨] ، ولما أن استولى الأساقفة فى طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكى ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة[١٢٩] ، وكتب إلى أسقف نابلى يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود فى أداء صلواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة فى مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد »[١٣٠] . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التى تحرم استخدام اليهود فى المناصب ؛ ولما قدم إنچنيوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار فى موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التى كانت وقتئذ فى الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك[١٣١] . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم فى إدارة شئونه المالية[١٣٢] ؛ وتزعم إنوسنت Innocent الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى[١٣٣] ، ثم كرر فى ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التى تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحى أن يؤذى اليهود فى أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب فى إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم[١٣٤] . وأعفى جريجورى التاسع منشئ محكمة التفتيش(*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا تهديد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا[١٣٥] ،

(*) أو ديوان التحقيق Inqusition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

ونبذ إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف ... أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلا ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم فى يوم عيد الفصح اليهودى ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم فى حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلا على اليهود ، فينهبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التى يذكرها الإنسان . وإذ كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فإنا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردُّوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم فى المستقبل(١٣٧) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٢ أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استجابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً .فقرر ألا تقبل شهادة مسيحى على يهودى إلا إذا عززها يهودى . وإن ما أصدره البابوات بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جذوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين فى دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

فى الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالهم بحال بنى دينهم فى غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردوا قط من رومة أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا فى أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفى ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقى لليهود وجود فى أوربا بعد العصور الوسطى »(١٣٩) .

وكان اضطهاد اليهود بقوة فى أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتى عام على خطة العسف التى جرى عليها چستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما فى وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فمن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أحرقوا أنفسهم فى معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧ — ٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية يميناً مذلة ظلت باقية فى أوربا حتى القرن التاسع عشر(١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك فى أورشليم ؛ فلما قبل جدفرى البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس فى أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين(١٤٢) . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود فى أوربا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسى فى إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جيدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودجر الأسپيرى Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ، وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ، وأصدر الإمبراطور هنرى الرابع فى عام ١٠٩٥ عهداً مماثلا لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين فى مملكته[١٤٣] ؛ لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية ، والطريق الذى قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم ، ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسپير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف چوهنسن Johannsen . فلم يكتف هذا الأسقف بحمايتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا فى مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من ترير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن فى نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة ١٠٩٦) . وفى ميتز خبأ روثارد Ruthard كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودى فى سراديبه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلا منهم بإخفائهم فى الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود ميتز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولونى Cologne . خبأ المسيحيون اليهود فى منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحى اليهودى ، وقتلوا من وقع فى أيديهم من اليهود القلائل ، فما كان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سراً من مخابئهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين فى الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم فى القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا فى إحدى القرى مائتى يهودى ، وحاصر الغوغاء اليهود فى أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هذا على التعميد ، وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال فى أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفى وورمز أخذ الأسقف ألبرانشز Allebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحر كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد فى وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ، وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلا منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ، وبلغ مجموع من قتل فى مذبحة وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها فى متز Metz ورنجزبرج Regensburg وبراهة Prague[١٤٤] .

وأنذرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلونى Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين ، وقال له : « لست أطالبك بأن تقتل أولئك الخلائق الملاعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قابيل قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هواناً أقسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت »[١٤٥] .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطئ للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسي يدعي رودلف من ديره بغير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود فى ألمانيا . وفى كولونى قُتل شمعون « التّقى » وبتّرت أطرافه ، وفى اسپير عذبت امرأة على العذراء لكي يقنعوها باعتناق المسيحية . وبذل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما فى وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كولونى قصراً حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من فى أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنرى كبير أساقفة ميتز فى بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوهم أمام عينيه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً فى أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة فى ورزبرج Wurzburg ، اتّهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابتهم جروح فى هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى فى حديقته[١٤٦] . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية فى بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود فى كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلى Sully . وفى بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما فى وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية[١٤٧] .

وكانت هذه المذابح إيذانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت فى بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحة منهم ؛ وفى عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً[١٤٨] . وفى عام ١٢٨٣ أثيرت فى مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين فى بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفى عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهوديًّا إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهوديا فى أبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحى ؛ وفى عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى فى روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية فى ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهوديا فى نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيسا يهودياً[١٤٩] . وملأ اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز ، وورمز ، واسپير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش فى بلاد المسلمين . وإذ كانت بولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة فى شرق أوربا .

وأضحى اليهود فى إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناع . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسلح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم فى نظير هذا المال ربع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحى غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه . وحدث فى عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلا ، واتهم اليهود بقتله لاستعمال دمه ، وهوجم الحى اليهودى فى المدينة ونهب وأحرق[١٥٠] . وحمى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٫٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم فى سبع سنين . وحدثت فى الاحتفال بتتويج رتشرد الأول فى إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود[١٥١] ، فتطورت إلى مذبحة امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، ولن Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم فى مدينة يورك فى العام نفسه وكان يقودهم رتشرد ده ملابستيا Richard de Malabestia ، وكان مستغرقاً فى الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك يتزعمهم الحبر توم طوب Tom Tob بقتل أنفسهم[١٥٢] . وفى عام ١٢١١ غادر ثلثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة فى فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفى عام ١٢٥٥ راجت شائعة فى أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه فى الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشنق منهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل(*)[١٥٤] .

وأفلتت الجماهير من أيدى ولاة الأمور فى أثناء الحرب الأهلية التى نشرت الاضطراب فى إنجلترا بين عامى ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربرى Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchtester ، وورسستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فنهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفاتج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لايملكون شروى نقير[١٥٥] . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقترضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين فى فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا فى غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدورد الأول من كان باقياً فى إنجلترا من اليهود وكانوا حوالى ١٦٠٠٠ يهودى أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم فى القناة الإنجليزية التى أرادوا أن يعبروها فى قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١[١٥٦] .

وفى فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها فى الماضى « لهيو الصغير » مصحوبة بالعبارة الآتية : « إن فى القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على صحتها ، وإن وجود قصص مثلها فى إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحقد الناشئ من التعصب على اليهود فى العصور الوسطى ، والخرافة المنتشرة وقتئذ ، والتى لا يصدقها أحد قط فى هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشعائر الدينية فى عيد الفصح اليهودى . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الغوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأتراك فى آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian فى لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس؛ وكان من الشعائر المعتادة فى بزيير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى اليهودى ، وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين فى عام ١١٦٠ بالكف عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة خاصة فى أحد السعف من كل عام[١٥٧] . وفى طلوشه (طولوز) أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة فى يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفعة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية[١٥٨] . وفى عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود فى بلوا Blois بحجة استخدامهم دماً مسيحيا فى شعائر عيد الفصح اليهودى[١٥٩] . ورأى الملك فليب أغسطس الفرصة سانحة ليبتز منهم المال محتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من فى مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين[١٦٠] ، ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ؛ غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفى عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا فى أورنج Orange لأن ولاة الأمور فى المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد اليهود[١٦١] ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم المصرفية تنظيما يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة[١٦٢] . وفى عام ١٢٣٦ دخل الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية فى أنجو Anjou وبواتو Poitou — وبخاصة ما كان منها فى بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulème — وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم[١٦٣] . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ، ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه بألا يجادلوا اليهود فى أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه فى بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه[١٦٤] . وفى عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إياها ، وردَّ إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدراً أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته[١٦٥] .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتى عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود فى پروڤانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسپانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مُرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه فى ساعة الاستشهاد[١٦٦] . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا بسو الشارة الصفراء يقابلون فى الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز فى نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودّة ، ويترك فى أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاما لحادث صلب وحيد !

الباب السابع عشر

عقل اليهودى وقلبه

٥٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

١- الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقده العلم ، يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راشى العظيم وهو يشرح التلمود[1] . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة وثرائهم العقلى إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠[2] . وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوغ أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثاروا

عقل العالم الغربى المسيحى بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود فى بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية فى حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا فى شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفى البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون فى آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم فى اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتى Masoretic (الذى قدسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح فى الهوامش ؛ وبفضل هذا العمل أصبح فى مقدور كل يهودى بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية .

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبرى والمعجمات العبرية . وألفت شعر مناشة بن سروق (٩١٠ — ٩٧٠) وعلمه نظر حسداى بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود حيوج (حوالى عام ١٠٠٠ م) النحو العبرى على أساس علمى ، فى ثلاثة كتب باللغة العربية فى لغة الكتاب المقدس . وبزه فى هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (٩٩٥ — ١٠٥٠) السرقسطى حين وضع بالعربية كتابه فى النقد الذى تقدم به النحو العبرى والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية ؛ وتقدم أبراهام الفاسى (حوالى عام ٩٨٠) اليهودى

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجما أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز ناثان بن يحيل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجما للتلمود . وفى نربونة ظل يوسف قمحى وولداه موسى وداود (١١٦٠ — ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال فى هذه الميادين ؛ وظل محلول أو موجز Michlol داود قروناً عدة المرجع المعترف به فى النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمى الملك جيمس للكتاب المقدس[٣] . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودى من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج فى أسپانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين فى عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف فى العالم المسيحى باسم الفيلسوف أفسبرون Avicebron . وقد هيأته مآساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هينى فى مالقة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فنشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقوتيايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً فى دولة — مدينة سرقسطة الإسلامية . وفى هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والمناعة إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقوتيايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه فى بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلا ، هزيلا إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملنى » . وأولاه صموئيل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه فى غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟
لقد عقدت معها عهداً .
فهى أمى وأنا أعز أبنائها ؛
لقد طوقت عنقى بجواهرها . . . :
وستظل روحى تصبوا إلى
مراقيها السماوية ، ما دمت حيا . . .
ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها(٥) ؛

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ، وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ، حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطؤها الأقدام .
إنه مخلوق كريه ، يفيض مكراً وخداعاً ،
إنه زهرة ذواية ، تذبل إذا مسها الحر(٦) .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتئبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،
وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ؛
ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،
يا من نسكن إليه .
وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاباً .
أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .
فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .
هاهنا مجدك يا رباه(٧) .

وخير كتبه كلها هو كيتير ملخوت (التاج الملكى) الذى ينادى فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألجأ إليه ؛ وفى ظلك
أختبىء من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلىّ وترثى لى ،
ولن أفك قبضتى
حتى تهبط علىّ نعمتك(٨) .

وقد اجتمع فى أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحى ؛ وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رياسة شمويل بن نجدلا فى بلاط الملك ؛ وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونبغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا فى هذا الجو العلمى ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً فى التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا (١٠٧٠ — ١١٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوّجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه فى بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشى ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد يمتصه غيرى ، وتنفسى بالند يستنشقه سواى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكونى أنت وفية لى . إن قلبى ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو على وينأى عنى »(٩) . ووجّه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغانى الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفى .

وكان أبراهام بن مابر بن عزرا — الذى يمجّده براونج Browning

للعبر عن فلسفة العصر الفكتورى — يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد فى طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف فى شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم فى كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ فى كل مهنة وكل مدينة ، وقال فى هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو اتجرت فى الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران مجتازاً مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينا كان عائداً إلى أسپانيا فى الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيّته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التى طاف بها — ألف فى العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفى الفلسفة ، والدين ؛ وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ فى صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما فى عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman بهذه الترنيمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد !
لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما فى الإنسان من ضياء قدسى . . .
إن أيامى بين يديك ، وأنت تعرف الخير لى
وتهبنى بقوتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف
وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى
ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك(١٠)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعدّه اسپنوزا واضع أساس النقد العقلي للكتاب المقدس(١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليفي (١٠٨٦ — ١١٤٧) . وقد ولد في طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً في كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً في أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه في غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابني عزرا في منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع في جميع الأوساط اليهودية في أسپانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروفنساليين ، وبكل ما في نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت « حديقة بهجته » مقطوعة من الشعر الملتهب حماسة تعد أمرح الفقرات في هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، لِمَ تتوانى عن أن تطعم بين حدائقها ؟
انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .
إن تفاحتي صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرهما ،
وهي تخبيء لك في قلائدها ثماراً شهية تتلألأ كالنور . . . .
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء(١٢)

وترك هليفي ضيافة ابني عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في المجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة ، فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير النابهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ماكان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته فى فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبى فى الشرق ، وإن كنت مقيما فى الغرب[١٣] .

ولم يكن يهود أسبانيا المنعمون فيما يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هليفى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينة عام ١١٤١ ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشتهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدى الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتا ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خرَّ راكعا ، وقبّل الأرض ، فداسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته[١٤] . ولكننا لا نعرف هل وصل حقا إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى يعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله[١٥] :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعثى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحييك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامى تنساب من صوتى النغمات حلوة شجية كنغمات القيثارة المعلقة على شاطئ نهر بابل . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصبّ روحى حيث صبت روح الله فى أبنائك القديسين فى الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه أبناؤك من قبل ؟

• • •

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلالهم على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك وأستريح من تجوالى ؟

سأولى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ، وأنهارك تفيض بالعسل المصفى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجىء إلى معابدك المخربة عارياً حافى القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى المخابئ المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ، وكانت أفراحك بهجتها ومسراتها ، وها هى ذى الآن تبكى فى منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ، وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب وأنعم عليه بالراحة فى داخل أبهائك :

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملا صافياً من سماء المشرق :

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين ، ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به فى قديم الزمان[١٦] .

الفصل الثانى

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبى فى أسبانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدى التمسك بالدين كما كان شعراؤهم فى سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسياً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفق فى ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليونانى . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون فى دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية ، وازدهرت المجامع العلمية اليهودية فى ظل التسامح المسيحى فى طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم فى فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسبانيا ؛ فقد كانوا يزدحمون فى أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبذلون خير مواهبهم فى دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط فى أصوله ، بل انهمكوا فى دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمى الذى أنشأه جرشوم فى ميتز من أوسع المدارس نفوذاً فى ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم فى نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكدحون فى هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل فى فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق (١٠٤٠ — ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشى تدليلا له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشى فى تروى من أعمال شمبانيا ، وتعلم فى المدارس اليهودية فى ورمز ، وميتز ، واسپير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمور ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجمعاً علمياً فى تروى مع أنه لم يكن حاخاما رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد فى النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر علمه الصافى الخضم ، بلغ من تقدير بنى دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعوه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية فى جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه فى المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته فى شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء مإير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه «خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف»(١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ، ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم — يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث فى عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء ، وتحريض على الغش والخداع فى معاملة المسيحيين . وما من شك فى أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب فى جدهم المتواصل قد عظموا التمائم والأمورائم تعظيما جعلهم يضمون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفى أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودي[١٨] . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لا يمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحي ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التي أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحي يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجوري إلا أن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود في فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، ثم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعثر فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكنا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب في نقاش علني أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسيين — وليم الأوفرني William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus[١٩] . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ، وشفع ولتر كرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجيء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت في النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوي في عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود في فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية في جميع أنحاء فرنسا عدا پرڤانس .

وحدث مثل هذا النقاش في برشلونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند البنيافورتي

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات في اللغة العبرية في معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده في هــــذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحى Paul the Christian ؛ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحى واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام چيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك في أثنائها مبتهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفي عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما في أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن في الدين المسيحى ثم ردت الكتب إلى أصحابها[٢٠] ، وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحى في تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية في أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين[٢١] ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن چيمس لم يحرك ساكناً إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فنفى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر في فلسطين بعد عام من نفيه .

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودى كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود فى بابل فى القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور « كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمرى والشمسى بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتاسعة عشرة فى كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود فى الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقى الذى يبدأ فى عام ٣١٢ ق . م . أما فى أوربا فقد اتخذوا فى القرن التاسع « التاريخ اليهودى » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi والذى يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون فى عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودى لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن(*) .

(*) يريد التقويم المسيحى . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود فى بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالى عام ٨١٥) . وقد ترجم چيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحى : ورسالته فى الأثمان هى أقدم مؤلف علمى موجود الآن باللغة العربية : وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر[٢٣] هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى (١٠٦٥ — ١١٣٦) فى الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيبورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية فى أوربا ووسعت نطاق حياتها الذهنيـــة إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة فى الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا فى أوربا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلى (٨٥٥ — ٩٥٥ ؟) فى طب العيون بمصر ذيوعاً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة فى القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية فى أوربا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة فى سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعمائة عام ، فيما كتبه عن تشريح السوداء (١٦٢١) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه عازب عنيد فى

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ؛ ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛ ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارفى Harvey [٢٣] إلى كشف الدورة الدموية بأكملها :

وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥) الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة فى الرمد فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟) كتاباً فى الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى : وكان الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية إحدى المسالك التى انتقل بها الطب العربى إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ — ٩٧٠) المعروف باسم ونولو والمولود أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب العربى فى پالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته فى إيطاليا . ودرس بنقنوتس جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منبلييه وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين . وقد اختيرت هذه الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدربوا فى منبلييه على إقامة مدرسة منبلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منپلييه أن تغلق أبوابها فى وجه اليهود (١٣٠١) ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفى من اليهود من فرنسا فى عام ١٣٠٦ . غير أن الطب المسيحى كان فى ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التى تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتى تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ، فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود فى داخل بيوت المسيحيين ، فقد كانت ترتاب فى أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى تأثيرهم فى العقول المريضة . وفى عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود ؛ وفى عام ١٢٦٧ حرم مجلس ڤينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface الثامن حين مرض بعينيه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاى[٢٤] ؛ وكان ريمند للى Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا يهوديا ، وهال مبعوث بابوى أن يجد أن هذه هى الحال أيضا فى كثير من أديرة النساء ؛ وكذلك ظل ملوك أسپانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنڤنيست Sheshet Benvenisie البرشلونى طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (١٢٣١ — ١٢٧٦) أهم رسالة فى أمراض النساء فى زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية فى البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية فى القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاحيا الراتسبونى Petschya of Ratisbon وبنيمين التطيلى ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل ببرشلونة ، ومرسيلية ، وجنوا ، وپيزا ، وروما ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأترنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيجية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصقلية ، وإيطاليا ومنها براً إلى أسپانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً ، ولاتزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود[٢٥] .

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس ، أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقي والتقدم ، وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كليتها ، ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقل في الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التي اقتسمت فيما بينها حضارة البيض في العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأيناه أكثر انطباقا على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء في بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى مصدران هما الدين العبراني ، والتفكير الإسلامي . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان في محتوياتهما ونتيجتهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذي يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة فى بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعرى وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية فى الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذى غادر مصر إلى بابل فى نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعرى من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبرانى بطول جداله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها[٢٦] .

وكان لانتصار سعديا من الأثر فى الدين اليهودى ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالى فى الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى ، على خنق روح الفلسفة العبرانية فى الشرق . وكملت القصة فى أفريقية وأسبانيا ، ففى القيروان وجد إسحق إسرائيلى بين مشاغله فى الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة فى التعاريف أفاد منها منطق المدرسين مصطلحات جمة ، وعرّفت رسالته فى العناصر التفكير العبرانى بكتاب أرسطو فى الطبيعة ، وأحل كتابه فى النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهى التقدمى من الله إلى العالم المادى ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت فى سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبّلة اليهودية .

وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسين كانوا ينقلون أقواله فى هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk فى عام ١٨٤٦[٢٧] . وكاد ابن جبيرول نفسه أن يبرئ .. قول الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته فى مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلا من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلئ لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : «كيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة»(٢٨) . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته فى إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبيرول كما يلوح وهو فى سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب فى الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية فى السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع فى عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية(٢٩) .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس فى أهم كتبه كلها وهو كتاب «مقور حايم» من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله فى ترجمته اللاتينية المسماة «منبع الحياة Fous Vitae» عظيم الأثر فى العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبيرول فى هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى فى الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبيرول فى كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهيولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة فى أى شىء على الإطلاق ؛ ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون فى زمان معين ، بل هو ينساب فى فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شىء فى الكون ، ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا فى الفكر وحده[٣٠]. وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هى المادية المقنعة ، ولكن الكسندر الهاليسى Alexander of Hales ، والقديس بونافنتور St. Bonaventure ودنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأوّلية الإرادة . وقال وليم الأوفرونى عن ابن جبيرول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليفى فقد رفض كل تفكير فلسفى وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالى أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك فى عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودى ، وتسرُّب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب فى الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعنى به كتاب الخزرى (١١٤٠ ؟) الذى عرض فيه آراءه فى صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودى . وكان من حسن حظ هليفى أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفا ، وملاً ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحى من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقى الكوهن اليهودى ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكا مطواعا مختتناً أصول الدين اليهودى وشعائره . ويقول التلميذ الملكى لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار »[٣١] . ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليفى من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقى ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لايعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه فى الصغر . . والعاقل (وليس حتما أن يكون متعلماً) هو الذى يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التى جاءه بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلى ببساطة الطفل[٣٢] .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقى على الرغم من هليفى ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودى . فلقد كان أبراهام بن داود (١١١٠ — ١١٨٠) مستمسكا بدينه استمساك هليفى ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود فى الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذى يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليفى فى طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليفى فى كتابه العربى **كتاب العقيدة الرفيعة** بمثل ما رد به أكويناس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمى عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب الحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن يعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل (١١٢٦ — ١١٩٨) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ — ١٢٠٤) ؛ والقديس تومس أكويناس بعده بمائة عام (١٢٢٤ — ١٢٧٤) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابي وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس تومس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلي المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هي الخالدة(٣٣) . وهنا كان يحق لهليفي أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، .فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هي ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلي الذى وقفه ابن داود ، ويواجه فى شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل فى صراعه مع الدين .

الفصل الخامس

ابن ميمون ١١٣٥ – ١٢٠٤

ولد أعظم عظماء اليهود فى العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضى ميمون بن يوسف. وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميمونى . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعى الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رمبم ، وعبر العالم المسيحى عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التى يغلب على الظن أنها من الخرافات الذائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذى خاب فيه رجاؤه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن[٣٤] . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثانى فى آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والهيئة ، والفلسفة . وكان ثانى اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه فى علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا فى مدينة واحدة ولم يكن بين مولدها إلا تسع سنين لم يجتمع أحدها بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه[٣٥] .

واستولى البربر على قرطبة فى عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفى ؛ فغادر ابن ميمون أسبانية فى عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا فى فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون[٣٦] ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر فى مراكش بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم يعرفون أنهم غير مخلصين فى النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصبين[٣٧] . لكن كبير أحبار اليهود فى فاس لم يوافقه على هذا القول ، وكان جزاؤه أن قتل فى ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلقى هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (١١٦٥) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منيته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه ، فاختير طبيباً خاصاً لنورالدين على أكبر أبناء صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل البيسانى وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون نفوذه فى بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد[٣٨] . وفى عام ١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيما لليهود فى القاهرة ، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة القتل التى هى جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل الذى أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق[٣٩] .

وفى سنى العمل المتواصل التى أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن هذه المؤلفات عشرة كتب فى الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازى وابن سينا . وقد اختصر فى كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه فى أوربا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة فى تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ ومقالة أخرى فى الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقى الدين أبى سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها فى موضوع واحد منها مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة فى الربو(**) ، وأخرى فى البواسير ، ورابعة فى السوداء — ومقالة جامعة فى شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الخصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً [٤١] ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة فى مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والمجاملة فى الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال فى النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء [٤٢] . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج [٤٣] . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال [٤٤] ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلقى وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر [٤٥] .

وبدأ ابن ميمون فى الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا ، وظل يكدح فى هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح فى القاهرة عام ١١٥٨ باسم كتاب السراج رفع ابن ميمون من فوره — وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره — إلى منزلة بين شراح التلمود لاتسمو عليها إلا منزلة راشى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلية لأنها موجهة إلى القاضى الفاضل . (المترجم)

(**) وضعت لمريض نبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام ؛ وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستثير آ مشنا التوراة ، وقد رتب فيه فى نظام منطقى ، وإيجاز واضح ، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول فى مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة (تكرار الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار الخمسة) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج فى ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »[٤٦]، وقد أغفل فيه بعض ماورد فى التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والتمائم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم[٤٧] . وقد قسم الأوامر الواردة فى الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسما وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلى كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو : دلالة الحائرين ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ فى أسفار موسى الخمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل[٤٨]. ولعله كان يشعر بأن اليهود لايستطيعون أن يكون اعتقادهم فى الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضا كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد فى قدسية أصل القانون

الأخلاق . وكان ابن ميمون وطنيا شديد الحب لوطنه لا يقبل فى عقيدته جدلا « يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود »[٤٩] . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين فى أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودى المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو التركمادا ؛ ويقول إن اليهود الذين ينبذون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و « من رأيى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا »[٥٠] . وقد استبق أكويناس فى الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هى رحمة بالعالم »[٥١] ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت[٥٢] . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها ، نقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة فى أوربا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً فى أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية فى هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر : « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل »[٥٣] .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالِم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ، فقد أيد فى هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم (بالشريعة) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات فى كل يوم لكسب العيش وتسعا لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بألا يتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلا[٥٥] ، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة فى هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدى الواجب الزوجى فى ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا فى حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة فى ذلك الوقت[٥٦] » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذى :

« يتصف بالتواضع الجم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . . يتجنب المبالغة والتصنع فى الحديث ، يعدل فى حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء[٥٧] » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا فى بيته ومن مائدته »[٥٨] . وهو يدرس التوراة فى كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « تفنى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر »(٥٩) .

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقلما كان فى وسع أحد منهم أن يعفو عما يرمى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما فى هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزى إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً فى عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس فى جيل من الزمان أن الجاؤنية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالى ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجّه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودى من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين فى مصر ، وفلسطين ، وشمالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهودى بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : *دلالة الحائرين* (١١٩٠) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : *مورة نبوخيم* ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية فى القرن الثالث عشر .

ويقول فى مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة فى الكتب المتنبئة ، أى فى العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة : حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفى كان عقبة كؤوداً فى سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يخيروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذ كان العقل قد غرسه الله فى الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحى الإلهى ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا — فى رأى ابن ميمون — أننا نأخذ بمعناها الحرفى بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التى هى من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً ... ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء[٦١] .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث فى الذات الإلهية فيستنتج مما فى الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلا سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان[٦٢] ، فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شىء غيره ممكن الوجود » . وإذ كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره . و « الشىء الذى يحتوى فى ذاته على ضرورة وجـوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت(*) »[٦٣] . وإذ كان الله عاقلا ، فلابد أن يكون غير ذى جسم ؛ وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شىء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون (ولعله يحلو فى قوله هذا حذو المعتزلة) ، أننا لا نستطيع

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس توماس أكويناس ثم كيفها اسبنوزا حتى تتواءم فكرة الهيولى الذاتى الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها — كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة — كلها من نوع الجناس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس في وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أي نوع كان . فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو الملائك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هي تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء » ، وهي فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم ، وعلينا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً[٦٤] « ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق »[٦٥] . وهذا الإلهام التنبوئي في مقدور أي إنسان إذا نمّى مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشري إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم في زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلي ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يحتار فيه العقل ؛ فليس في وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بخلقه[٦٦] ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزيا : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هي المادة المنفعلة وهي مصدر كل شر ، والأفعى هي الخيال[٦٧] . ولكن الشر ليس له وجود ذاتي موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ، وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية في كل شر ما هو خير للكل أو ما هو في

حاجة إليه(٦٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التي تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »(٦٩) .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب » أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى مشنا التوراة فكرة بعث الجسم وسخر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقوريا ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلا لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم(٧١) . وأضاف فى دلالة الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم(٧٢)(*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادية التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب دلالة الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإسلامى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها »(٧٣) . وكان صلاح الدين وقتئذ منهمكا فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

(*) وقد استمد أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى «أصل الانفرادية» !

الدين ، وكان فى هذا الوقت ، بنوع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه فى أى وقت آخر لأن الإلحاد فى ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون فى حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر فى عام ١١٩١ بإعدام السهروردى ، وهو صوفى زنديق ، ونشر ابن ميمون فى الشهر نفسه مقالة فى بعث الموتى عبّر فيها مرة أخرى عن تشككه فى عقيدة الخلود الجسمى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب.

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين ، وانصرف هو إلى عمله الطبى وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم *دلالة الحائرين* إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب فى زيارته حذره من أن يظن أنه سيحدثه فى أى موضوع علمى ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : « فأنا أقيم فى الفسطاط بينما يقيم السلطان فى القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت(*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتى نحو نائب السلطان جد ثقيلة ، فعلى أن أزوره فى كل يوم فى الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل حريمه ، منحرف المزاج ، فلن أجرؤ على مغادرة القاهرة بل على أن أقيم معظم النهار فى القصر . . . ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتى ، وأغسل يدى ، وأرجو مرضاى أن يصبروا على حتى أتناول بعض المرطبات — وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

(*) مسيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهى التى يصرح لليهودى أن يمشيها فى يوم السبت وتعادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت (الآية الرابعة من الأصحاح الثالث من سفر يشوع) . (المترجم) .

وقد أستمر على ذلك فى بعض الأحيان حتى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهرى من فرط التعب ، حتى إذا جن الليل تكون قواى قد خارت حتى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيلى أن يجتمع بى على انفراد إلا فى يوم السبت . فى ذلك اليوم يقبل علىّ جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا علىّ بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتى الظهر ثم نفترق[٧٤] .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طلب إليه رتشرد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه .

وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفى عام ١٢٠٤ فى التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائماً فى طبرية .

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامى والعالم المسيحى بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودى ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون **دلالة الحائرين** بإشراف معلمين من اليهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس فى جامعتى منبلييه وپدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسى ووليم الأوفرنى يقتبسان منه فى جامعة باريس . واقتفى ألبرتس ماجنس أثر ابن ميمون فى كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر فى آراء الحبر موسى ليفندها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازى للكتاب المقدس الذى يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »[٧٥] ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله[٧٦] .

أما فى الدين اليهودى نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى فى منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام فى زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون فى الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة فى تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقيل مثلا إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزى وحقيقة رمزية(٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودى كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطينى ، وأبراهام بن داود البسكويبرى of Posqières ، ومإير بن تادرس هليفى أبو العافيـــة الطليطلى ، ودون أستروك اللونلى Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام جيروندى الأسبانى ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التى تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون فى عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازى لايحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين ودنسوا قبر ابن ميمون(٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية فى جنوبى فرنسا فى الوقت الذى أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد فى الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييـــه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرســـون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً — ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمى جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامة داود قمحى ، ويعقوب بن مخير تبون بأن أقنعوا يهود لونل ، وبزيير ونربونة فى بروفانس ، ويهود سرقسطة فى أسبانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجرأ من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش فى منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التى أمكن الحصول عليها فى احتفال عام فى منبلييه عام ١٢٣٤ وفى باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرق التلمود نفسه فى باريس بعد أربعين يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حنق أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايعين لسليمان فى منبلييـــه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل[٧٩] . وندم الكوهن جناح على اشتراكه فى إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً فى كنيسها ، وحج تائباً إلى قبر موسى بن ميمون ؛ ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده فى هذا ابن نحمان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرؤ على دراسة شىء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ؛ وكان رد أحرار منبلييه أن حرموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية[٨٠] . ولم يكن لكلا القرارين أثر فى دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود فى أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة . غير أن ما كان لأردوط وأشر فى أسبانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف فى جميع أنحاء أوربا الخاضعة وقتئذ لمحاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هي المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الدينى والعداء الشامل ، توارت هذه الروح فى الصوفية والتقوى الدينية .

الفصل السابع

القبـــلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقى والتمائم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا فى الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودى قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثنينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهى بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة فى سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك فى صحتها (الأپوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة فى الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة فى عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة فى سفر التكوين وفى الأصحاحين الأول والعاشر من سفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حرًّا طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هي أداة الله الخالقة للكون مثلا سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسينيين كتابات سرية ، يحرصون على كتمانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالا خفية عن خلق العالم ، وجعلت أسماء يهوه التي لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه الأربعة — التترجرام — تهمس في الآذان على أن لها معنى خفيا ، وتأثيراً معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوي الأفهام الناضجة . وكان عقيبا يقول إن أداة الله في خلق العالم هي التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفيا وقوة خفية . وكان بعض الجأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة . وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض — أي القوى العجيبة التي يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين . وكان لاستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتمائم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها في الحياة المسيحية : وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم ، فكانت النجوم في هذه الكتب حروفاً هجائية وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها [٨١] .

وظهر في وقت ما في القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الخفية في بابل يعرف باسم سيفر يصيرا — أي كتاب الخلق . وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفي يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه . ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بوساطة عشرة سفروتات Sefiroth — أعداد أو أصول هي : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هى التى حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التى يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالى عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وبروفانس ، وأسبانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر بهاهير أو كتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا فى هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الربانى الواردة فى سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهى بوصفه ثالوثاً يهودياً[٨٢] . وعرض العزر من يهود ورمز (١١٧٦ — ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ — ١٢٩١) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدما فى وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهوانى والزواج التى كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية فى جميع مظاهرها ونتائجها . وفى عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب المجد وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثانى ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر :

وقد جمعت فى الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شيء الذى لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه — التتراجوامتون — ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التى إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة الكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن تحمل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليونى عمله حين جعل شمعون بن يوحاى يشير إلى خسوف حدث فى رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل القرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ، ولكنه لم يخدع زوجته ، وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى فى شمعون خدعة مالية بارعة[٨٣] . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل *الزوهر* وقتاً ما كتابا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، مفرط فى التقطيع المنطقى ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نحمان العالم النحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوربا[٨٤] . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ فى مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبى فى سخف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتتن

بها بعض مفكريهم ، فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully (١٢٣٥ ؟ — ١٣١٥) أسرار الأعداد والحروف فى كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) أنه قد وجد فى القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح[٨٥] ، واغتذى براسلسس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجريا Agrippa ، وربرت فلد Robert Fludd وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر يوهانس روشلين Johonnes Reuchlin (١٤٥٥ — ١٥٢٢) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme (١٥٧٥ — ١٦٢٤) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى فى الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نابها لليهود ، وأرغمتهم فى سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، والبائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه :

الفصل الثامن

العتق

لقد وجد يهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقذ المنتظر ، ومما كان ينتابهم من الاضطهاد حينا بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التى تذكرهم بتاريخهم ، وبخطوبهم ، وبمجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التى كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المتقرضون يحتفلون بالسبت فى البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليبقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ، وكانوا يغتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهرون فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد دينى . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلا ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعى حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملا ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر فى طريقهما النقل والقمح ، وتنثر فوقهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ، وكانت الأغانى والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفى أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتهن يستأجر ليتم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج فى بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة ، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلل الظريف : « إن كل زوجة جميلة »[٨٦]

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويبتهج بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ فى صور رمبرانت Rembrandt : نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس فى صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذى يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التى تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وها هى ذى وصية إلعزر (١٣٣٧) من أهل مينز تقول : « لا تتكلم فى أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وها هى ذى آخر وصايا اليهودى :

غسلونى ، ومشطوا شعرى ، وقلموا أظافرى ، كما كنت أفعل فى حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلا فإنى واثق من أنه يحبنى حبا يجعله يفسح لى مكاناً بجانبه[٨٧] .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف فى قماش التيل النقى النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً فى جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بآخر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسيرون فى الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تابوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .



الكتاب الرابع

العصور المظلمة

٥٦٦ — ١٠٩٥

الحوادث التاريخية فى الكتاب الرابع

٤٨٦ — ٧٥١	: الأسرة المروفنجية فى غالة .
٤٩٠ - ٥٤٣	: القديس بندكت .
٥٢٠ — ٥٦٠	: نشأة المجامع العلمية الأيرلندية .
٥٢١ — ٥٩٨	: القديس كولمبا .
٥٤٣ — ٦١٥	: القديس كولمبان .
٥٦٨ — ٧٧٤	: مملكة اللمبارد فى إيطاليا .
٥٦٨ وما بعدها	: تأسيس مدينة البندقية .
٥٨٢ — ٦٠٢	: موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
٥٩٠ — ٦٠٤	: البابا جريجورى الأول العظيم .
٥٩٠ — ٦١٦	: إثلبرت ملك كنت .
٥٩٧	: أوغسطين ينشر المسيحية فى إنجلترا .
٦٠٠ — ١١٠٠	: الترنيمة الجريجورية .
٦٠٢ — ٦١٠	: اغتصاب فوقاس .
٦١٠ — ٦٤١	: هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
٦٢٥ — ٦٩٠	: بولس الإيجينى ، الطبيب .
٦٢٩ — ٦٣٨	: دجوبرت ملك الفرنجة .
٦٤٠	: الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .
حوالى ٦٥٠	: بيوولف ؛ كيدمون ، الشاعر
٦٥١	: تأسيس أوتل ديه (فندق الله) فى باريس .
٦٧٣ — ٧٣٥	: بيد الموقر ، المؤرخ .
٦٨٠ — ٧٥٤	: بنيفاس ، رسول إلى ألمانيا .
٦٨٧ — ٧١٤	: پپين الأصغر يحكم الفرنجة .
٦٩٧	: الدوج الأول فى البندقية .
٧١٣ — ٧١٦	: أناستيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية .
٧١٧ — ٧٤١	: ليو الثالث الإسورى ، إمبراطور الشرق .
٧٢٦ وما بعدها	: حركة محطمى الصور فى بيزنطية .
٧٣٥	: مدرسة يورك .
٧٣٥ — ٨٠٤	: الكوين ، المربى .
٧٥١ — ٧٦٨	: پپين القصير يحكم الفرنجة .
٧٥١ — ٩٨٧	: أسرة كرولنجيه من ملوك الفرنجة .
٧٥٦	: هبة پپين تثبت قوة البابوات الزمنية .
٧٦٨ — ٨١٤	: شارلمان ملك الفرنجة .

٧٧٢ — ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
٧٧٤ : شارلمان يضم تاج لمباردية .
٧٧٤ — ١٢٠٠ : الطراز المعماري الروماني .
٧٧٦ — ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المربي .
٧٧٨ : شارلمان في أسبانيا ؛ رولان في رنسفال .
٧٨٠ — ٧٩٠ : إيريني وصية على العرش في القسطنطينية .
٧٨٧ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
٧٩٥ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندة .
٧٩٧ — ٨٠٢ : إيريني « إمبراطور » الشرق .
٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
٨١٣ — ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمني .
٨١٤ — ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التقي .
٨١٥ — ٨٧٧ : جون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .
حوالي ٨٢٠ : الفرياجيون يدخلون الروسيا .
٨٢٩ : إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكسونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
٨٢٩ — ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
٨٤١ — ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفج يصبح أول ملوك ألمانيا .
٨٤٥ — ٨٨٢ : هنكمار أسقف ريمس .
٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
حوالي ٨٥٠ : كتاب كل ؛ ليو السالونيكي ، العالم الرياضي .
٨٥٢ — ٨٨٨ : بوريس الخان والقديس البلغاري .
٨٥٧ — ٨٩١ : فوثيوس بطريق القسطنطينية .
٨٥٨ — ٨٦٧ : البابا نقولاس الأول .
٨٥٩ : روريك أمير الروسيا العظيم .
٨٦٠ — ٩٣٣ : هرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
٨٦٢ : الفيجاريون في نوفجورود .
٨٦٣ : بعثة سيريل ومثوديوس إلى المورافيين .
٨٦٧ — ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
٨٧١ — ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندة .
٨٧٥ — ٨٧٧ : شارل الأصلع ، إمبراطور الغرب .
٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
٨٨٦ — ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزى – السكسونى
٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
٨٩٣ – ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
٨٩٩ – ٩٤٣ : المجر يعيثون فى أوروبا فساداً .
٩٠٥ : سانكو الأول يؤسس مملكة نبرة .
٩١٠ : تأسيس دير كلونى .
٩١١ : كنراد الأول ملك ألمانيا ، رُولو دوق نورمنديا .
٩١٢ – ٩٥٠ : قسطنطين السابع بورفيرو جنتيوس .
حوالى ٩١٧ : الديوان اليونانى .
٩١٩ – ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .
٩٢٥ – ٩٨٨ : القديس دنستان .
٩٢٨ – ٩٣٥ : فنسسلاس الأول ملك بوهيميا .
٩٣٠ : تأسيس الألثنج الأيسلندى .
٩٣٤ – ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
٩٣٦ – ٩٧٣ : أتو الأول ملك ألمانيا .
٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية فى العصور الوسطى .
٩٥٥ : أتو يهزم المجر على وادى لك .
٩٦١ : دير القديس لافرا على جبل أثوس .
٩٦٢ : أتو الأول إمبراطوراً على الغرب .
٩٦٣ : أتو يخلع البابا يوحنا الثانى عشر .
٩٦٣ – ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبراطور الشرق .
٩٦٥ – ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
٩٦٨ : هرسويزا ، المؤلف المسرحى .
٩٧٣ – ٩٨٣ : أتو الثانى إمبراطور ألمانيا .
٩٧٥ – ١٠٣٥ : سانكو العظيم ملك نبره .
٩٧٦ : معجم سويداس .
٩٧٦ – ١٠١٤ : بريان بورمها ملك منستر .
٩٧٦ – ١٠٢٦ : باسيل الثانى إمبراطور الشرق .
٩٧٦ – ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس فى البندقية .
٩٨٠ – ١٠١٥ : فلادمير الأول ملك كيف .
٩٨٣ – ١٠٠٢ : أتو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٨٧ – ٩٩٦ : هيوكابت يؤسس الأسرة الكابتية من ملوك فرنسا .
٩٨٩ : الروسيا تعتنق المسيحية .
٩٩٢ – ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك بولندة .
٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلونى للأديرة .

٩٩٧ — ١٠٣٨ : القديس استيفن ملك المجر .
٩٩٩ — ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثانى (جربرت) .
١٠٠٠ : ليف إركسون فى « فنلندة » .
١٠٠٢ — ١٠٢٤ : هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا .
١٠٠٧ — ١٠٢٨ : فلبرت أسقف شارتر .
١٠٠٩ — ١٢٠٠ : الطراز الرومانسى الألمانى .
١٠١٣ : سوين الدنمرقى يفتح إنجلترا .
١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين فى كلنتارف .
١٠١٥ — ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .
١٠١٦ — ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .
١٠١٨ — ١٠٨٠ : ميخائيل پسلوس ، المؤرخ .
١٠٢٢ — ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقى ، المترجم .
١٠٢٤ — ١٠٣٩ : كنراد الثانى إمبراطور ألمانيا .
١٠٢٨ — ١٠٥٠ : زوئى وثيودورا يحكمان الدولة الشرقية .
١٠٣٣ — ١١٠٩ : القديس أنسلم .
١٠٣٤ — ١٠٤٠ : دنكان الأول ملك اسكتلندة .
١٠٣٥ — ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .
١٠٣٩ — ١٠٥٦ : هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا .
١٠٤٠ — ١٠٥٧ : ماكبث المغتصب ملك اسكتلندة .
١٠٤٠ — ١٠٩٩ : ردريجو ديار السيد .
١٠٤٣ — ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .
١٠٤٦ — ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز فى ميلان .
١٠٤٨ وما بعدها : دير چومييج .
١٠٤٩ — ١٠٥٤ : البابا ليو التاسع .
١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السياسى .
١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .
١٠٥٥ — ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .
١٠٥٦ — ١١٠٦ : هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا .
١٠٥٧ — ١٠٥٩ : إسحق كمنينوس إمبراطور الشرق .
١٠٥٧ — ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .
١٠٥٨ : ملكلم الثالث ملك اسكتلندة يخلع مكبث .
١٠٥٩ — ١٠٦١ : البابا نقولاس الثانى ؛ تأسيس مجمع الكرادلة .
١٠٦٠ : ربرت جوسكارد دوق أپوليا .
١٠٦١ — ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .

١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيزا الكبرى .

١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقعة هيستنجس ؛ فتح النورمان لإنجلترا .

١٠٧٣ — ١٠٨٥ : البابا جريجورى السابع هلدبراند .

١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنرى الرابع .

١٠٧٧ : هنرى الرابع فى كنوسا .

١٠٨١ — ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .

١٠٨٥ : نهب ربرت جوسكارد لرومة .

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطى

٥٦٥ — ١٠٩٥

الفصل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن نظرنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها محنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات فى الخارج . فقد كان الآفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى فى عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة فى عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والفنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التى واجهتهم لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ؛ ولم تكد الآلهة تضن على تيبريوس الثانى بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلا من التأييد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم فوقاس الذى عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامة على الأشراف والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ؛ وأبى الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل ابنها هى به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب ، وألقيت جثثهم فى البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً فى العادة بضروب من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت ألسنتهم من أفواهم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التى تكررت فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثانى من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطى كله إلى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه فى كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار على جميع الأراضى الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلا منها ، دون أن يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليونانى ، ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجى أملاكهم . لكنه اعتذر محتجا بكبر سنه ، وأرسل إليهم ابنه . وجهز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور ،

وخلع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ، ونودى به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليقاً باسمه ولقبه ، فقد شرع بعزيمة سميه هرقل الأسطورى بعيد تنظيم الدولة المحطمة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض للزراع على شريطة أن يؤدى أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية : وفى هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون (٦١٥) ؛ ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوربا إلا الأسطول البيزنطى . ولم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبى ، وأغاروا على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء . وكانت نتيجة خسارة الأراضى الخصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين (٦١٨) ، وفكر هرقل فى يأس أن ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منها استرجاع مصر . ولكن الأهلين والقساوسة منعوه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة ، يمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم(٣) . ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التى أعقبت هذا الزحف آيات فى التفكير والتنفيذ . فقد واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ، وحاصر فى أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والبلغار والصقالبة مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ؛ فسير هرقل جيشاً هزم الفرس فى خلقدون ، ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثانى ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .

ولم يكن هرقل خليقاً بمصيره الذى جلله العار فى سن الشيخوخة . فبينا هو يبذل ما بقى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هد المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينا كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم فى أيام قنسطانس Constans الثانى (٦٤٢ — ٦٦٨) ؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، فقضى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع پجنونوتس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ — ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النارُ الإغريقية » التى ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذى يعزى اختراعه إلى كلسنيوس Calcinius السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة فى هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلقى على سفن العدو أو جيوشه فى سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقذف فى صورة كرات من الحديد مغطاة بالكتان ونسالته المغموسة فى الزيت ، أو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية فى الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثما دينياً ؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » فى حرب الصليبين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس فى العصور الوسطى فى العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى فى عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب فى الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية فى هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو « الإسورى » Leo The Isaurian ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطى بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار فى كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكد تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليونانى على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثانى

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauria فى قليقية ، ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد فى هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ، ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربى الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثانى . وأصبح ليو فيما بعد جنديا فى حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ، وكان ليو رجلا طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ، وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ، كما كان بعد ذلك سياسيا محنكا ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضى على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر فى القوانين ، ووضعها على أساس إنشائى حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطى .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو فى صباه بآسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكاهاتذم عكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم فى صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تمثالا منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض .... الخ » . وكانت الكنيسة فى أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثنى الذى يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر فى القسطنطينية والشرق الهلنستى ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التى يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب — حتى لقد أصبح الصليب فى نظر ذوى العقول الساذجة طلسما ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفى . وفى البلاد التى تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، فى كل مكان — فى الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والحوانيت — ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخلت المدن التى تتهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على من فيها من الأولياء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هى تذكر بها فحسب[٤] ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط فى التدين من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز فى نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فعقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم فى عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن الرهبان وصغار القساوسة احتجوا عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار فى بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزج زعماء معارضيه فى السجون . وفى إيطاليا ، التى لم تنمح منها فى يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريبا على معارضة المرسوم ، وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، ورومة عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجورى الثانى وصب اللعنة على محطمى الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ؛ فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رأفة الإمبراطور فى تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته فى عام ٧٤١ محتفظ بظلاتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق فى القسطنطينية (٧٥٤) ، حرم عبادة الصور والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « ممقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولعن « الفنان الجاهل الذى يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بتلويهم »(٥) ، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقتلعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ؛ وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسيبه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين (٧٦٣ — ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضعيفة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ — ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيرينى وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيرينى الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ؛ فأنهت فى هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين فى العالم المسيحى إلى مجمع نيقية الثانى (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوبى البابا ، تعظيم الصور المقدسة — لا عبادتها — وقالوا إنها تعبـــير مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد فى عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب فى أن تتخلى له عن سلطانها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه فى حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقء عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شئون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وجملت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها في عام ٨٠٢ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بنقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت إيريني لمصيرها في هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالحياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعتها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة فى أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ — ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً تطلّب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات — ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور ، والثورات ، والاغتيالات ، بل نقصد سياستهم ، وتشريعاتهم ، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين فى الجنوب ، والصقالبة والبلغار فى الشمال . وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة : فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها ، وتقلباته ، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص ، على القسط الأكبر من التراث اليونانى : احتفظت بالنظام الاقتصادى ثابتاً متصلا ، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس ، ودقلديانوس وقسطنطين . هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فهى صورة مؤسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسيهم ، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم ، ولمظاهر الأبهة والترف ، والعيون المسمولة ، والأنوف المجدوعة ، والبخور والتقى والغدر ، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقرروا هل تحكمُ الإمبراطوريةَ القوةُ أو الأساطيرُ ، السيف أو الكلام . وهكذا نمرّ بنقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد ، وميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه ، وليو الخامس الأرمنى (٨١٣ — ٨٢٠) الذى حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذى اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة ، وميخائيل

الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) الأمى « المتلجلج » الذى عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها(٧) ، وثيوفيلس (٨٢٩ — ٨٤٢) المشرّع المصلح ، والملك البناء ، والإدارى الحى الضمير الذى أحيا سنّة اضطهاد محطمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ — ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكّير » (٨٤٢ — ٨٦٧) الذى أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولا ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عـــدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدونى (٨٦٢ ؟) بالقرب من هدريانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع . وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب فى البلاد التى كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فرمنهم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده فى بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلفت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور فى خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريفات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقته ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التى ظلت فى خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته ، ولكن المقدونى ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل بارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزله ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هـذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى الكفاية حتى فى عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأمى غير المثقف بتذلله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهدا ، وبدأ حكما دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والخزانة الغاصة بالمال ، وببناء الكنائس والقصور الجديدة فى المدينة التى استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) مكملا لما فى أبيه من نقص : كان متعلما ، كثير القراءة ، ميالا لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم » بشعره ولا برسالته فى الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمى والكنسى ، وصياغة القوانين البيزنطية ، وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذا للبطريق العالم فوتيوس Photius معجبا به ، وكان هو نفسه خاشعاً تقيا ، فقد هز مشاعر رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجبا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ليو على رأيه ، وتوّجت زوى Zoe زوجته الرابعة إصراره بولد .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٨) البرفيروجنتس — « المولود

الأرجون » — أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبنه كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما كتاب فى الامتيازات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقتها المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ — ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نقفور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلا القائد تزيميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نقفور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذى خلفه على العرش من أقوى الشخصيات فى تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثانى لرومانوس وثيوفانو فى عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو فى الثامنة عشرة من عمره حكما منفرداً دام خمسين عاما . واكتنفته فى بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتآمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Sclerus قائد جيش الشرق ، فأخمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيميسيس فى بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار فى عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥,٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عينا واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة فى عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتونوس Bulgaroctonus) ولعـل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على « الذين أثروا على حساب الفقراء » . فحاول بما سنه من القوانين فى عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين فى صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو فى الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغته فى

فى أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ما كان لها فى عهده من القوة .

ودب الضعف مرة أخرى فى جسم الإمبراطورية فى عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ – ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجيروس **Romanus Argyros** أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحكمت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ – ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ – ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٥) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصلح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد فى الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٫٢٢٦٫٠٠ ريال أمريكى) كان قد خبأها فى حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد فى حجراته مخبأ يحتوى مائة ألف رطل من الفضة (٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى)[٩] . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين فى أعلى محكمة فى الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى فى نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهى الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها فى تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشىء القليل من جمالها الظاهرى ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتى بعشيقته اسكلرينا لتعيش معه فى القصر الإمبراطورى . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده[١٠] . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للراهبات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختار لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها فى الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ فى الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت فى عام ١٠٥٦ ميتة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها فى البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمنينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمنينوس العاصمة فى عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعتزل إسحق كمنينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما توفى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزماً ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية يجلله العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك يموت من جروحه التى لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمنينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمنينوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسية الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان Cuman تقترب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية فى البحر الأدرياوى . وكان الجيش والحكومة يفت فى عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجبن . وواجه ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجّه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا فيها الفتن ، ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر فى عدة معارك بفضل مهارته فى الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥ لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحى ، وعرض فى مجلس بياسنزا أن تعود الكنيستان اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ، وكانت هذه الاستغاثة هى وغيرها من العوامل التى أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتى قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة فى بيزنطية (٥٦٦ – ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية اليونانية مرة أخرى فى بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة فى أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، ورودس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبى إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستُردّت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار من نقود هذه الأيام[11] .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزها ، تفوق رومة القديمة والإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرقة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس[12] من الأسيويين والصقالبة — الأرمن ، والكبدوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطليان ، والمسلمين ؛ وتغشيهم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذى تدور فيه الحياة المنتجة الخصيبة فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل — ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب — ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق غاصة بحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة فى أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الجديد ، وقصر نقفور فوقاس الريفى المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمرة ؛ وكنائس « بعدد ما فى السنة من أيام « كما يقول أحد الرحالة » ، بعضها تحف فنية غاية فى الإبداع ، ومذابح تضم أثمن ما فى العالم المسيحى من مخلفات وأكثرها تعظيما وإجلالا ؛ وأديرة لا يستحى من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقديسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التى نجدد زينتها على الدوام ، تتلألأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد فى جنباتها الترانيم الرنانة التى لا تترك شكا فى النفوس .

وكان فى داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المقامة فى مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التى لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصى من الفضة ، وأقمشة مصورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ؛ فى هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطى ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحرير ابحميل اللون الموشى بالمخرمات ، لاينقصن فى رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساى فى عهد آل بوربون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أبهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أثمن أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة فى القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التى يتطلبها تعطير الملكات والأميرات(١٤) . ولم تكن الحياة فى أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكا بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها فى ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون فى أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا فى بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا فى الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يبالون بالراجلين الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله فى آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية فى ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثى ثروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلى « من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك »(١٥) .

ووصفها أحد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن فى ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً فى رذائلها »(١٦) . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكانا فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفى نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً فى بيوت الحريم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التى لا تنقطع . وكانت جماهير

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ، والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ، تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشـوها الدولة بوجبات الطعام المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسليها سباق الخيل ، ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيليات الصامتة الفاحشة البذيئة في الملاهي ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع . وكانت قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهرات توجد في كل شارع ، بل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس »[١٧] . واشتهرت نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والاتصال بالشياطين ، والتمائم ذات القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعيضوا عنها إلا بالألفاظ الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع المتطرف في دينه وشهواته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون بعد لهو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال الدنيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والعجزة ، ونزل المسافرين المجانية[١٨] . وكانت طبقة الأشراف ، التي يخيل إلى الناس أن الترف والراحة ديدنها وشغلها الشاغل كل يوم ، تضم مئات من الرجال يقبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع في الكسب والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقذوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحى فى العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التى أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت فى مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة فى إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكرى (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامى . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتى وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً فى النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينا كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطى . وبينا كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينا كان غرب أوربا يتعثر فى فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الهمجية ، كان العالم البيزنطى يعض بالنواجذ على تراث جستنيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين جستين الثانى Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التى سنها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التى نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كيفت مجموعات قوانين جستنيان كى تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية فى الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياع ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون فى القسطنطينية فى القرن الحادى عشر المركز الثقافى للشئون غير الدينية فى العالم المسيحى . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة — ألا وهو

القانون الرومانى — خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثا جديداً فى بولونيا Bologna فى القرن الثانى عشر أحدث انقلابا عظيما فى القانون المدنى لأوربا اللاتينية والقانون الكنسى للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحرى البيزنطى الذى سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لرودس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ؛ وقد أصبح فى القرن الحادى عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه فى جمهوريتى ترانى Trani وأملفى Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانونى فى عالمنا الحاضر .

أما القانون الريفى فكان محاولة صادقة جديرة بالثناء للوقوف فى وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم فى داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم فى خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط فى تراقية وإليريا ، واللمبارد فى پانونيا ، والصقالبة فى تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كان الجنس الصقلبى هو الجنس الغالب فى الپلوپونيز ، وحتى كثر عدد الصقالبة فى أتكا وتساليا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين ينضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد فى القسطنطينية مقصوراً فى الواقع على العمل فى المنازل ، أما فى غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تفترق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن ينفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوي dynatoi أي « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالي ، والحراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير وشر في قصة السيدة دنيلس Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثمائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحسوبها الإمبراطوري هدايا أثمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطي : منها أربعمائة شاب ، ومائة خصي ، ومائة عذراء . ومنها أربعمائة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تخلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لديها منها إلى ابن باسيل ، ووجد ليو السادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمنسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد[١٩] .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطانا ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شـــديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ — ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التى ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن المجزى » ، وأجاز لكل من باع أرضه أن يشترى فى خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذى باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى فى مجراه ، وزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن — إلى القسطنطينية إن استطاعوا — وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثانى النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر فى عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد فى أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذى باعه به ، وألغى عقود الأراضى التى استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضى من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك فى الشرق البيزنطى فى أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت فى ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه فى العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة فى تلك البلاد .

واصطبغت الإمبراطورية الشرقية فى ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوربا اللاتينية الواقعة فى شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد فى الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها — أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، ورراجوسا ، وپتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهدريانوبل ، وهرقلية ، وسليمبريا — تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحلى ، وطارقى المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصباغين ، والنساجين ، والفخرانيين ، وصانعى الفسيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فى القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع فى سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر فى هذه الأيام . وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تتزعم العالم الأبيض فى إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ، ويليها فى هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاً أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصنّاعها ، وفنّانيها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها فى جماعات نقابية — سستماتا Sytemata — تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة فى الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعتها ، وشروط البيع ، وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين فى بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردى . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالا ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة[٢٠] .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعضيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموانئ وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتشن حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوربا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل فى جميع الأعمال التجارية — فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات[٢١] . وكادت هى تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها فى سيادتها التجارية القديمة على بحر إيجة والبحر الأسود بسماحها إلى التجار الأجانب — الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والأملفيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنويين ، واليهود ، والروس ، والقطلانيين — بنقل

معظم بضائعها هى ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة فى العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة باثنى عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر فى المائة ، أو بأقل من ذلك فى بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرى العدد ، ولعل المرابين فى القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل[٣٢] ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون فى القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الرومانى . فأضحت اللغة اليونانية فى الشرق البيزنطى من أيام هرقل هى لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومى . وأصبح التعليم كله يونانيا ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدراً ما من التعليم ؛ وأحيا قيصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التى تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات فى عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج فى فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ،والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثنى ولوشيان الكافر كانا متعنمين . وكان التعليم فى العادة من غير أجر للطلاب ذوى المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت فى البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التى جر عليها النسيان ذيوله فى الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليونانى فى هذا النطاق الواسع منبها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقوياً للتفكير وموسعاً لمداه ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الديني . ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن تواثم النساء المثقفات ذوات الفراغ ، والرجال المثقفين الذين لايعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ، ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحله الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصراً آخر من عصور النهضة العلمية شبيها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب المجملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الديوان اليوناني . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالى ٨١٤) وليو الشماس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجيني Paul of Aegina (٨١٥ — ٨٩٠) موسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام حار[٢٣] .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكي (حوالى ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك فى نقاش مسائل هندسية فى قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو فى ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف فى الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلّمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل فى الهندسة والهيئة وسُرّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألفى رطل من الذهب إذ أعاره ليو إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة سـلانيك لكى يبعده عن متناول يد المأمون[٢٤] .

وكان ليو ، وفوتيوس Photius ، وپسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى فى خلال ستة أيام من رجل عادى إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الدينى ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ — ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، فى وسعه أن يبهر الناس فى كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش دينى وكل ثورة فى القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلّم الفلسفة فى جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهدأ من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة فى السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازى التى حدثت فى مائة عام (٩٧٦ — ١٠٧٨) بصراحة ، وحماسة وكبرياء (فقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »[٣٥]) . وها هى ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ نضربها مثلا لما قلناه :

وكان كل (جندى فى الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حربية ، وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حربة . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصح ولجأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوها ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوها جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظماؤهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم[٣٦] .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس فى زمانه ؛ وكانت ملحه الخبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الجم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتيوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبرابانى Rabani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون فى الغرب فى أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحى النهضة البيزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها فى الأولى.. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررته من الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونبهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزيينها. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ، والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات الحقول وفاكهتها ، وما يجرى فى البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل الأول فى قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد قول كاتب معاصر « باللآلئ الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ، والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه »[٢٧] .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التى أزيح عنها الستار حديثاً فى كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى فى عام ٩٧٥ بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتى تمثل المسيح جالساً على قوس قزح ، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء فى عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما تنبعث فى الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها البرنزية التى وضعت فيها عام ٨٣٨ بجمالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن يأمرون بأن تصنع فى القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte Casino ، وكنيسة أملفى ، وباسلقا سان بولو القائمة فى خارج أسوار رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع فى القسطنطينية عام ١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصَلاَّه مجموعة متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة المنعزلة ، والحدائق ، والدهاليز ذات العمد ، والأبهاء . وقلما جلس إمبراطور على العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً . وخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكنكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكوّن ثلاثة من جوانبها — وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد في الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفي الجهة الجنوبية منها عدة من البلياقا Beliaka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهي حجرات ذوات سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية في الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالا ونساء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذي تحسبه مرجاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنورا Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبي المقعد الملكي حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه ؛ فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبي قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزأرت ، وغنت الطيور أغاني آلية[٢٨] . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذي ينفق في تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية في الدولة . ولكن ما بقي من هذا المال كان يكفي لتزيين عواصم الولايات زينة أقلّ من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففي القرن العاشر أنشئ دير لفرا Lavra ودير إفرون Iviron في آثوس Athos وفي القرن الحادي عشر أقيم دير دافني Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفساؤه التي لا تكاد تفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطي

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى فى هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المبانى العامة فى أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت فى بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمض على انتصارات هرقل إلا قليل ؛ وفى مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة فى حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حذق فى أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شىء . وأخرج اضطهاد محطمى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى فى بارى ، وأترنتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، وروما نفسها . وظلت رافنا يونانية فى فنها ، وأخرجت فى القرن السابع الفسيفساء الضخمة التى نشاهدها فى سانت أپوليناريس St. Appolinaris فى كلاس Classe . وظلت سلانيك بيزنطية ، وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الذين صوّرهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية فى جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت فى العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية فى الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ، أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ؛ وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهداه الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجبب الدلماشية(*) التى تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطى . وكانت « عباءة شارلمان » فى كنيسة متز والحرير الرقيق الذى وجد بآخن Aachen فى تابوت ذلك الملك من هذا الطراز .

وكان مصدر نصف الفخامة التى تحيط بالإمبراطور البيزنطى ، وكثير من الرهبة التى ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التى تكسو « المُخَلِّص » والعذراء والشهداء فى شعائر الكنيسة ، كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التى أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفنى حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس بالبندقية مليئة بثمار فنهم .

ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التى وجدت فى كنيسة القديس لوقا والمحفوظة فى كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes فى باريس ، ورأس المسيح المتوهج المنقوش فى فسيفساء ديسز فى كنيسة أياصوفيا ، والفسيفساء الكبيرة الحجم التى تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتى استخرجت فى اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٢٩). ولما خفت حدة محطمى الأصنام ، وفى الأماكن التى لم تصل إليها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائى الفردى ، والتى تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالميناء أو الجواهر . وليس فى تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التى يحتويها مجلد من عظات جريجورى نزيانزين محفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس(٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعمائة التى يحتويها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ فى الفاتكان (حوالى

(*) نوع من الجبب يلبسها شمامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتق من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدرياوى . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود فى كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠) . نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوى البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجم المؤتلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساق ، والعقود والإيوانات — فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودببة ترقص ، ووعول وعجول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الخبيثة يمثل بها الحرف الأول من جملة دينية[٣١] .

ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنيا إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقا ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ المخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرابين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علبة لحفظ المخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين برفيروجنتس محفوظة الآن فى لمبورج Lemburg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الموفورة .

وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد فى عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها »[٣٢] . ومن ثم كانت النزعة الجدية المكتئبة لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميقه ولألائه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحنى له إجلالا وتكريما . ولقد كان فى أشكاله السورية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فنها على صورة فن القسطنطينية ، كما حذا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق فلادمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر هى السائدة فى أوربا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى . تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاريبها وقصورها من ذهب ورخام هو

عرق العمال الذين يكدحون فى الأرض قد تبدل وتجسم . وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها فى زمانها ، قاسية؛ وكان فى وسع الرجل الذى يخر راكعاً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عينى أبيهم . وكان فى هذه الثقافة شيء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطى بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف(*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ؛ ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب فى الأدب البيزنطى آثار خيال بنى الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليونانى فى العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذى انحدر إليه من الأيام الخالية ، وسجن فى المتاهة الدينية التى فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعاً لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى فى كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لانزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ؛ ترى ما هى الموارد الخفية ، وما هى القوة الحيوية الكامنة ، التى أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس فى آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التى أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب فى شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته فى فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية فى عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية ثلاثة أباطرة فى وقت واحد ليتفق هذا مع الثالوث الدينى(٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبها التبديل .
وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة بهيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل
منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام فى الداخل ، ونظمت
اقتصادياتها ، وجبيت الضرائب التى أمكنت الإمبراطورية من أن توسع
رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن
موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت
أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام
الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء
بحاجات الدولة ، سبباً فى تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين
أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت
ألف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية فى
المشرق ، وثانيها أنها احتفظت فى أمانة بالنصوص التى أعيد فيها تسجيل
آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوربا
حيث بقيت حتى نهبها الصليبيون فى عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان الفارون
من وجه محطمى الصور والتماثيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبى
إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر
الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على
السواء ، واستقروا أحياناً فى إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب
القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاما بعد عام تستكشف بلاد اليونان من
جديد ، وظل الناس يغترفون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا .
وثالثها وآخرها أن بيزنطية هى التى أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير
الهمجية إلى المسيحية ، وضمت قوة الجسم الصقلبى التى لا حد لها إلى روح
أوربا وحياتها ومصائرها .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨ — ١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر فى شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة الهون تتراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبى الروسيا (٥٥٨) واسترقّوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا اللمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا فى بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحى منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم فى وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية فى عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم فى عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئا .

وكان البلغار ، وهم فى أصلهم خليط من الدم الهونى ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون فى الروسيا ؛ وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Attila مملكة لهم — « بلغاريا القديمة » — على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار فى القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم فى القرن الخامس نحو الجنوب الغربى إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة اليونجر Uiigurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية فى موئيزيا

Moesia واسترقّوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلبي . وبلغت الدولة الجديدة أوّجها فى عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية – إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية – ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكال له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق پلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليونانى فى كمين نصبه له فى أحد ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية فى عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التى غزتها فى عام ١٩١٣ . وبينا هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية فى عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ – ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر ڤلادمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simeon (٨٩٣ – ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومى لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياوى ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكما مطلقا لجميع البلغار واليونان » ، وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمّل عاصمته فى أقاليم الدانوب بروائع الفن اليونانى . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، « مليئة » بالقصور والكنائس الشامخة « الكثيرة الزخرف » ، ولقد كانت فى القرن الثالث عشر أكبر مدينة

فى بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوعيين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها فى عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تزيمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية اليونانية فى عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثانى بلغاريا الغربية فى عام ١٠١٤ ، وبذلك أضحت بلغاريا (١٠١٨ — ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفى أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التى يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتى كانت تضرب فى البلاد المصاقبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هونى وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتى الفين (أهل فنلندة) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا فى القرن التاسع الميلادى من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضى المجاورة لنهرى الدن والدنيبر Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض فى الصيف ، وصيد السمك فى الشتاء ، واقتناص الصقالبة وبيعهم عبيداً إلى اليونان فى جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا فى أكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى فى اتجاه الغرب . وكانت أوربا وقتئذ فى الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف فى وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسرابيا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) فى عام ٨٨٩ ، وشرعوا فى عام ٨٩٥ فى فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرپاد Arpad . وفى عام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا پاڤيا Pavia وكنائسها الثلاث والأربعين

جميعها ، وذبحوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملا يعيثون فى شبه الجزيرة فساداً ، ثم فتحوا بنونيا Pannonia ، وأغاروا على بافاريا Bavaria (٩٠٠ — ٩٠٧) ، وحربوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على موراڤيا Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thüringia ، وسوابيا Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ، وانقضوا فجاءة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر اللك Lech أحد روافد الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالقهم بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ، ولاح أن العالم المسيحى مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزِموا عند جوثا Gotha فى عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا إيطاليا مرة أخرى فى عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا فى عام ٩٥٥ . وانتهى الأمر فى ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أتو Otto الأول فى معركة حاسمة فى لكفلد Lechfeld أو وادى اللّك بالقرب من مدينة أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت فى قرن واحد (٨٤١ — ٩٥٥) النورمان فى الشمال ، والمسلمين فى الجنوب ، والمجر فى الشرق .

وبعد أن خضع المجر أضحت أوربا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين المسيحى (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا فى الإمبراطورية البيزنطية التى عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب المسيحى اللاتينى لكى يسالمه الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنه استيفن من جزيلا Gisela ابنة هنرى الثانى دوق بافاريا . وأمسى استيفن الأول (٩٩٧ — ١٠٣٨) شفيعاً لهنغاريا وراعيها وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شئون المجر على غرار النظام الإقطاعى الألمانى ، وقوى الأساس الدينى الذى أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثانى (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليباً إلى صديق لها ألمانى كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندى أوربى يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تجتاح بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرَقُّون ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التى لم ينطفئ لها سعير . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطارَدُون ويُدفعون إلى المناقع والغابات التى يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤمرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذ كانوا يعيشون فى أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذى يحرم الخمور(٣٤) . وكانت أبرز عيوبهم هى السكر ، والقذارة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبى القلوب ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعماؤهم كثيرى الازواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

— اللاتى يشترين بالمال أو يؤسرن فى الحروب ليتخذن زوجات — وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن[٣٥] . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى فى عشائر ثم تنتظم العشائر فى قبائل . ولربما كان للعشائر أملاك مشتركة فى مراحل الرعى الأولى[٣٦] ، ولكن قيام الزراعة — التى تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية فى التربة المختلفة الخصوبة : ثماراً غير متساوية — أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والوندبشية Wendish ، والتشكية ، والسلوفاكية فى الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبلغارية فى الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانية Rurhenian & Ukrainian) فى الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قدظلوا يفهمون كل واحدة منها ؛ وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً فى ازدياد قوة الصقالبة الآخذة فى الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوبا وغربا فى هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان فى شمالى ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غربا وعبروا نهر الفستيولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ؛ وكانوا فى هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث فى أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبيا غزيراً امتزج بالدم الهليني . وجاءت حوالى عام ٦٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتى قربى هما الصربى Srbi ،

والكزوباتى Chrobati ، واستوطنتا بانونيا وإليركم Illyricum من جديد .
واعتنق الصرب المذهب اليونانى المسيحى ، واعتنق الكروات المذهب
الرومانى . وأضعف هذا الانقسام الدينى ، الذى عاق الوحدة الجنسية
واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين
الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان
عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربى ، وأسره ،
ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ،
على أن يكون فيها أميراً من قبل ڤلدمير . ذلك هو موضوع أقدم الروايات
القصصية الصربية فلدمير وكسارا التى ألفت فى القرن الثالث عشر . واحتفظت
المدن الساحلية فى دلماشيا القديمة — زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا
Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأضحت
صقلبية . وحرر الأمير ڤواسلاف صربياً فى عام ١٠٤٢ ولكنها عادت
فاعترفت بسيادة بيزنطية فى القرن الثانى عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجيبة تمامها فى أواخر القرن
الثامن أمست أوربا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً
تصطدم أمواجه بحدود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد الروسيا (٥٠٩ — ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون فى تربة الروسيا الخصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ، ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعاقل الطبيعية التى تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدباً أى على شاطئ البحر الأسود الغربى والشمالى نحو عشرين بلدة — ألبيا Albia ، وتانيس Tanais ، وثيودوسيا Theodocia ، وپنتيكپيوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوذيين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقوام — وأكبر الظن أنهم من أصل إيرانى — بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف — أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م — قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت فى القرن الثانى قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هى قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوذيين وسكنت ديارهم ؛ واضمحلت المستعمرات اليونانية فى هذا الاضطراب . ودخل البلادَ القوطُ من الغرب فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو — هم البلغار ، والآفار ، والصقالبة ، والخزر ، والمجر ، والپتزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا فى القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبى الروسيا ، وأنشأوا

مُلكاً منظماً امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر)، وشيدوا عاصمة لهم هي مدينة إتيل Itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودى. وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية، ولكنهم فضلوا فى أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر، وأطلقوا فى الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس — اثنتان للمسلمين، واثنتان للمسيحيين، واثنتان لليهود، وواحدة للكفرة الوثنيين. وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى(٣٧). واجتمع التجار على اختلاف أديانهم فى مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة، فنشأت هناك من ذلك تجارة منتعشة بين البحر البلطى وبحر قزوين، وأصبحت إتيل فى القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية. وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria فى القرن التاسع، وعجزت الحكومة عن أن تحمى مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة، وذابت مملكة الخزر فى القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التى نشأت منها.

وجاءت من جبال الكربات فى القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليط الضارب فى روسيا الجنوبية والوسطى. واستقرت هذه القبائل فى وادى الدنيبر والدن، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen فى الشمال، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون، وهم فى كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات، ويقتلون الوحوش البرية، وينشئون بلاد أكرانيا. وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشرى لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون. ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقرّ لهم قرار — يهاجرون إلى بلاد القفقاس والتركستان، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا، ولا تزال

عملية الاستعمار هذه فى مجراها فى هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلبى العجاج يدخل كل عام فى خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلبى فى بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان فى وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونهما من هجماتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطى ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يحموا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة فى طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية اسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعى . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم[٣٨] ؛ ولم يكد ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الجديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلوا إلى كيف فى الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التى كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهى كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التى تخترق البلاد البحرين الأبيض فى الشمال والأسود فى الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحو الجنوب . وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم فى القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحت التجارة على أنهار الدنيبر ، والفلخوف Volkhov ، ودوينا الغربى أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والخمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفى اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقى دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واضمحلت مرسيليا ، وجنوا وپيزا فى القرنين التاسع والعاشر ، وازدهرت فى مقابل هذا فى الروسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبزنطية .

وخلع السجل القديم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : وخلاصتها أن السكان الفنلنديين والصقالبة فى نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتلون فيما بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكما أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة — روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروڤور Truvor — وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنيا لفتح نفجورود على يد الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن هذين الشماليين وقفا فى طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنا استقلالهما عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف فى عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ، وأخفقت الحملة فى مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفى وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين — أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم نفجورود — هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ، وأبلجا Oelga — الأميرة القديرة أرملة أولج — وابنها المحارب اسفياتسلاف Sivatoslav (٩٦٢ — ٩٧٢) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوائها القبائل الصقلبية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامى ٨٦٠ ، ١٠٤٣ ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم ڤلديمير الخامس (٩٧٢ — ١٠١٥) « دوق كيف الأكبر » ، الدين المسيحى (٩٨٩) . وتزوج ڤلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثانى ، وظلت الروسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية فى دينها ، وحروفها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان لڤلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع فى تثبيت النظام الاجتماعى واستقرار الملكية المطلقة[٣٩] . وبلغت دولة كيف أوج عزها فى عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ — ١٠٥٤) بن ڤلاديمير ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتـــدة من بحيرة لدوجا Ladoga والبحر البلطى إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبى إليها من هذه البلاد . وامتصت فى جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبى واللغة الصقلبية . وكان نظامها الاجتماعى أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبـــلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكى dietski أو الأوتروكى Otroki أى الخدم أو الأتباع . ويلى هؤلاء فى المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پراڤدا Raskaya Pravda أو الحق الروسي ، الثأر الشخصي والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على أيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدي اثني عشر محلفين من المواطنين(٤٠) . وأنشأ ڤلاديمير مدرسة للأولاد في كيف ، وأنشأ ياروسلاف مدرسة أخرى في نفجورود . وكانت كيف وهي ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودڤينا ، ودنيبر الأدنى تجبي الضرائب على جميع المتاجر المارة بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعمائة كنيسة ، وكاتدرائية كبيرة — تضارع أياصوفيا — على الطراز البيزنطي . وجيء بالفنانين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصرة الأغاني الروسية الجماعية . وأخذت الروسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبني القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة في بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

٥٦٦ — ١٠٦٦

بينا كان الإسلام يشق طريقه فى أنحاء العالم ، وبينا كانت بيزنطية تفيق من الضربات التى بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوربا تكافح للخروج من دياجير « العصور المظلمة » . وهذا تعبير غير دقيق فى وسع كل إنسان أن يعرّفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقصره تعسفاً منا على أوربا غير البيزنطية فى الفترة الواقعة بين موت بوئيثيوس Boethius عام ٥٢٤ ومولد أبيلار Abelard فى عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرته الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوربا الغربية فكانت فى القرن السادس الميلادى مسرحاً لفوضى الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقى فيها ، وإن كان معظمه صامتاً مخبوءاً فى عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التى يقوم عليها النظام الاجتماعى كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصبها ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية فى البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب . وعجلت فى القرنين التاسع والعاشر سيطرةُ المسلمين على البحر المتوسط ، وغارات النورمان ،

والمجر ، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص فى أساليب الحياة. ووسائل الدفاع وبداءة الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوربا الشرقية ملتقى تيارات متعارضة من الهجرات ، واسكنديناوة معششاً للقراصنة ، وبريطانيا تجتاحها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجوت ، والدنمرقيين ؛ وغالة يهاجمها الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسبانيا يتنازعها القوط الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التى دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين ؛ وظلت البلاد التى وهبت نصف العالم الأمن والنظام تعانى خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال فى الأخلاق والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ، وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛ وأحيت إرجينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره، نشاط التعليم ، وأدخل جربرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛ وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعثا فيها القوة ، ونشأ فى فن العمارة طراز الزخرف الرومانى ؛ وبدأت أوربا فى القرن الحادى عشر رقيها البطىء إلى ما وصلت إليه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أى إلى أعظم ما بلغته فى العصور الوسطى بأجمعها :

الفصل الأول

إيطـاليا

١ - اللمبارد : ٥٦٨ - ٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن پولس الشماس - وهو واحد منهم - أن اللمبارد أو اللنجوباردى Longobardi قد سموا بهذا الاسم لطول لحاهم[١] ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلى كان فى اسكنديناوة[٢] ، ولهذا فإن دانتى ، وهو من نسلهم[٣] ، يوجه الخطاب إليهم بهـذا الوصف[٤] . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى فى القرن الأول الميلادى ، وعلى ضفاف الدنواب فى القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses فى حروبه الإيطالية التى دارت رحاها عام ٥٥٢ ، ثم يعيدهم إلى پانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشمال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم فى عناء - رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ومتاعهم - ويعبرون جبال الألب إلى « لمبارديا » سهول اليو الخصيبة . ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجلله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والفرس ؛ ولم يكن لديها من المال ما تنفقه فى أعمال البطولة التى يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ٥٧٣ حتى استولى اللمبارد على ڤيرونا ، وميلان ، وفلورنس، وپاڤيا - وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفى عام ٦٠١ استولوا على پدوا ، وفى ٦٠٣

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفى ٦٤٠ على جنوا . وانتزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (٧١٢ – ٧٤٤) راڤنا فى شرقى إيطاليا ، واسپوليتو Spoleto فى وسطها ، وبنفنتو فى جنوبها ، وكان يطمع إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جريجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هؤلاء راڤنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتبراند بُدّاً من أن يقنع بحكم شمالى إيطاليا ووسطها أصلح حكم مرّ عليهما منذ أيام ثيودريك القوطى ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة(٥) .

وأنشأ اللمبارد حضارة خطت فى مدارج الرقى . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير فى شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية . ونشر مليكهم راثارى Rathari (٦٤٣) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جزاء للقتل ؛ وأرادت أن تحمى الفقراء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك ، والأريوسيين ، والوثنيين على السواء(٦) . وامتص الدم الإيطالى الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، واتخذوا اللسان اللاتينى لغة لهم ، وترك اللمبارد آثارهم فى أماكن متفرقة : فى العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفى قليل من الكلمات التيوتونية فى اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة – وهى العمل الطبيعى فى وادى نهر البو – سيرتها الأولى ؛ ولم يكد ينتهى عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شمالى إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون وخوض الحروب عندما بلغت ذروتها فى العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ، فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً ذا شأن – هو كتاب تاريخ اللمبارد لبولس الشماس (حوالى عام ٧٤٨) ؛

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة . ولكن لمباردیا طبعت اسمها على فن العمارة وشئون المال ؛ وكانت حرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لإحدى الجماعات ، وهي جماعة سادة كومو ، السبق في صياغة طراز « لمباردی » في العمارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيما بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسي .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك إيستلف Aistulf على رافنا في عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولي المقيم في رافنا فإن أيستلف طالب بحقه في ضم رومة إلى مملكته الآخذة في الاتساع . واستغاث البابا استيفن الثاني بقسطنطين كبرونيموس فبعث الإمبراطور اليوناني بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم تقف عند حد . ولاح لبيبين الأمل في بناء إمبراطورية له فعبر جبال الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة الشرق ؛ أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاء نهائيا . وقد حاول دسيدريوس Desiderius الملك اللمباردي التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها ؛ ولكن البابا هدريان الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديداً ، وانقض شارلمان على بافيا ، وأرسل دسيدريوس إلى أحد الأديرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

٢ ـ النورمان فى إيطاليا (١٠٣٦ ـ ١٠٨٥)

وتركت إيطاليا الآن تعانى الانقسام والحكم الأجنبى مدى ألف عام ؛ لن نعنى بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا فى ١٠٣٦ يفتحون إيطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البيزنطية . ذلك أنه كان من عادة أشراف نورمنديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوى كما يفعل الفرنسيون فى هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون فى نورمنديا أن تجزأت أملاك الأسر فى العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين أن نتيجته فى فرنسا هى وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين فى حياة الفقر الهادئة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجّر بعض شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ، وأظهروا ضروباً من البسالة فى حروبهم إلى جانب بنفنتو ، وسلرنو ، ونابلى ، وكپوا ، وإلى جانب أعدائها ، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa جزاء لهم على أعمالهم . وترامى إلى مسامع غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن الأراضى تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمنديا إلى إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل لحسابها ، ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجرأهم ربرت جوسكارد Robert Guiscard (أى العاقل أو الماكر) مملكة نورمندية فى إيطاليا الجنوبية . وكان ربرت هذا يتصف بكل الصفات التى تخلعها الأساطير على الأبطال . كان أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل المحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب نثراً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، وباسلا على الدوام .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والخداع ، فاجتاح كلبريا Calabria واستولى على بنفنتو ، وكاد يمشى إليها على جثة البابا ليو التاسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثانى ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدى له الجزية ، وأقطعه نقولا فى نظير ذلك كلبريا ، وأپوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك ربرت أخاه الأصغر روچر ليفتح صقلية ، واستولى هو على بارى Bari (١٠٧١) وطرد البيزنطيين من أپوليا . واغتاظ إذ وجد البحر الأدرياوى يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى فى واقعة بحرية بالقرب من درزو (١٠٨١) ؛ واستغاثت بيزنطية بالبندقية ، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياوى ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة فى ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية فى عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن ربرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليونانى ، واخترق إپيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينا هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنرى الرابع . فما كان من ربرت إلا أن ترك جيشه فى تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطليان ، والمسلمين أنقذ به البابا ، وانتزع رومة من الألمان ، وأخمد ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجيش الحانق يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لايجاريه فيه تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (١٠٨٤) وعاد فى هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذى كان فى بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شر ممزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu (١٠٨٤) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أو بالسم ، فى سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص فى إيطاليا (الكندتيرى Conedottieri) .

٣ — البندقية : (٤٥١ — ١٠٩٥)

وبينا كانت هذه الأحداث تجرى فى مجراها إذ ولدت دولة جديدة فى الطرف الشمالى من شبه الجزيرة ، قدرلها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن سكان أكويليا Aquileia ، وبدوا ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre وغيرها من المدن فروا فى أثناء غارات القبائل الهمجية فى القرن الخامس والسادس — وبخاصة فى أثناء غارة اللمبارد فى عام ٥٦٨ — لينجوا بأنفسهم من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين فى الجزائر الصغيرة التى كونها نهرا البياف Piav والأديج Adige فى الطرف الشمالى من البحر الأدرياوى . وبقى بعض هؤلاء اللاجئين فى هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجرادو Grado ، وليدو Lido . . . وريفو ألتو Rivo Alto (النهر العميق) . وقد أضحت هذه المحلة الأخيرة التى سميت فيها بعد ريالتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة (٨١١) . وكانت قبيلة من الفنيتى Veneti قد احتلت شمالى إيطاليا قبل عهد يوليوس قيصر بزمن طويل ؛ وأطلق اسم فنيزيا Venezia فى القرن الثالث عشر على المدينة الفذة التى نشأت حيث كان يقيم اللاجئون .

وكانت الحياة فيها شاقة فى بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على الماء العذب ، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر . وأرغمت الظروف البنادقة — أهل فنيزيا — لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

تجارة أوربا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق الثغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الجديد بسيادة بيزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان والمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع فى مياهها الضحلة وتعذر الهجوم عليها براً أو بحراً لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالا غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تربيوناً — يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثنى عشرة الكبيرة — يصرفون شئون الحكم حتى عام ٦٩٧ حين أحست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة ، فاختارت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشه . ودافع الدوج أجنلو بدور Agnello Badoer (٨٠٩ — ٨٢٧) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأدواق فيما بعد يُختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثأرت البندقية لنفسها فى عهد أرسلو Orsello الثانى (٩٩١ — ١٠٠٨) من غارات القراصنة الدلماشيين بأن هاجمت معاقلهم واستولت على دلماشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياوى . وشرع البنادقة فى عام ٩٩٨ يحتفلون فى عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحرى وبهذه السيادة الاحتفال الرمزى المعروف عندهم باسم اسپوزالزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف فى البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادى باللغة اللاتينية : « إنا نتزوجك أيها البحر ، دليلا على سلطاننا الحق الدائم »[٧] . وسَرَّ بيزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلا ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية فى القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث فى عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية في ذلك الحين قد أصبحت تلقب « بالذهبية » (ڤنيسيا أوريا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين فى الكسب ، ماهرين ، دهاة ، شجعاناً ، ميالين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ ، يبيعون العبيد المسيحيين للمسلمين[٨] ، وينفقون بعض مكاسبهم فى بناء الأضرحة للقديسين . وكان فى حوانيت ريالتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعى ؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسير فى قنواتها ؛ هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ ، وكانت موانئ الجزائر تحملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوربا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسماليين تموّل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين فى المائة فى الأحوال العادية[٩] . واتسعت الهوة بين الأغنياء (المجيورى) والفقراء (المينورى) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلا . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصيب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم فى الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضاء الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى فى العالم اللاتينى ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، التى شيدت أول مرة فى عام ٨١٤ واحترقت فى عام ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذى هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامى والصورة التى هى من مميزات عصر النهضة .

وحدث فى عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذلك القديس شفيعاً لها وحامياً ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقس الأولى عام ٨٣٠ ثم دمرتها النار فى عام ٩٧٦ تدميراً رأى معه أرسيولو Orseolo الثانى أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس فى القسطنطينية — ذات سبع قباب فوق بناء صليبى . وظل العمل فيها جاريا نحو قرن من الزمان ؛ وتم البناء الرئيسى بشكله الحاضر تقريباً فى عام ١٠٧١ ، ودشن فى عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار فى الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدها قداستها ، اتفق على أن يجمع المصلون فى الكنيسة فى يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات ، وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس[١٠] . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقلما مرت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التى نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجوهر لألف عام ؛ فقد أضيفت فى القرن الثانى عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ، وجيء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ؛ وقام الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياد برنزية من القسطنطينية حين استولى البنادقة عليها فى عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية ؛ وأضاف الفنانون القوط فى القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ، وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة فى القرن السابع عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب فى خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته —

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً ، منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لولبية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطنف منحوتة ، وقباب بصلية الشكل . وهو من الداخل يحوى متاهة من العمد الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلات قائمة ، وخمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ فى القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعمائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسى منذ عام ١١٠٥.. وقد عدت الرغبة الجامحة فى الزخرف طورها فى كنيسة القديس مرقس كما عدته فى كنيسة أياصوفيا ، فرأت أن تكرم الله بالرخام والحلى ، وأن تروع الإنسان ، وتؤدبه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقى حتى ملك عليهم مشاعرهم .

٤ - الحضارة الإيطالية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية فى ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة - عناصرها لغة جديدة ، ودين جديد ، وفن جديد . ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هى اللاتينية الخشنة التى كانت تتكلم بها الجماهير فى العهد القديم ، وقد استحالت على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة ، وشرك عاطفى من القديسين الحماة المحليين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات . وكان الفن الإيطالى يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلقا ، (البناء الرومانى المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر فى عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع فى إيطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة فى عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة فى الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها فى حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعمائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان ، ولم يكن فى وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قذرة يخفف من قذارتها بعض الشيء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن فى وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين . وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وبينا كان التربيونون — محامو الشعب — والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والحراب ، أضحى النظام الاجتماعى يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المريبة يضربها آلاف الرهبان المختلفى الأمم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلة ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسى فى الحمامات العامة ، وهجر الناس الأبهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثنى . وخُرِّبت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التيبر[11] ؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكلسيوم Collosseum ذواتا الذكريات الدموية ، وأخذت السوق العامة تعود فى القر

السابع مراعى للبقر كما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكبتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمبانى العامة ليؤخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط[١٢] ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر فى الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التى تهب الفقر خيالا ورواء ؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين فى سلرنو فى القرن التاسع الميلادى ، فكانت هى التى سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثغرة التى قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقراط التى كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يونانى وآخر مسلم ، وثالث يهودى[١٣] . وجاء قسطنطين « الأفريقى » وهو مواطن يونانى درس الطب فى مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد — إلى مونتى كسينو Monte Cassino (التى أصبح فيها راهباً) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية ؛ وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية فى الطب وغيره من الميادين فى إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية فى بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون فى هذا العصر هو ابتداع الطراز الرومانسكى Romanesque فى العمارة (٧٧٤ — ١٢٠٠) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثى التقاليد الرومانية فى الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلقا ، وأنشأوا

فى الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعامات من أبراج أوعمد متلاصقة ، وأقاموا العقود التى يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسى الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لجسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز فى الطراز الرومانسى الأول — والصحن والدهليز فى الطراز الرومانسى المتأخر — تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الخارج خالياً فى العادة من الزخرف ومبنياً من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذى يميز الطراز البيزنطى وإن كان يزدان بقسط غير كبير من الفسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنحوتة . وفيما عدا هذا كان الطراز الرومانسى رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطى والرشاقة القوطية ؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدئ لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا فى هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسى : إحداهما كنيسة أمبرجيو Ambrogio المتواضعة فى ميلان ، والثانية الكتدرائية الضخمة فى بيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون فى عام ٧٨٩ البناء الذى منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جيدو Guido كبير الأساقفة طرازه بين عامى ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملا فبدله من باسلقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهليزها وصحنها قبل أيامه من الخشب ، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة فى السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفوسها « أضلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » فى أوربا كلها .

ويخيل إلى الرائى أن واجهة كنيسة أمبرجيو تختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية پيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة .
وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من پالرم (١٠٦٣) ؛ إذ طلبت المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليوناني ؟) ورينلدو Rinaldo أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العذراء ، بأن يقيما معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبيها . وقد شيد البناء كله تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبوائك مفتوحة تقوم في عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل لهذه المداخل فيما بعد (١٦٠٦) أبواب فخمة من البرنز . وكان في الداخل طائفة كبيرة من العمد الرشيقة — وهي غنائم مختلفة الأصول — تقسم الكنيسة إلى صحن ودهليزين ؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها قبة إهليلجية غير جميلة الشكل . وكانت هذه أولى الكتدرائيات الكبرى في إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان في العصور الوسطى .

الفصل الثانى

أسبانيا المسيحية (٧١١ — ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية فى هذه الفترة إلا حربا صليبية طويلة الأمد منشأها تصميمها المتزايد على إخراج المسلمين منها . وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضى الخصبة ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضنينة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوربا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدى أهلها المسيحيين ذوى العواطف الثائرة أكثر مما أريق منها على أيدى المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها فى عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط ، والسويفى Suevi ، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحى ، والكلت من سكان شبه الجزيرة ، دفعت هؤلاء إلى جبال الكنتبريان فى الشمال الغربى من أسبانيا وطاردهم المسلمون فى هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت پلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادنجا Covadonga (٧١٨) ، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكا على أستورياس ، وأسس الملكية الأسبانية . واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٩ — ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين فى تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكايا Biscaya . وضم حفيده ألفنسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢) ولاية ليون ، واتخذ أويدو حاضرة لمملكته .

وفى عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث فى تاريخ أسبانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم — كما تقول الرواية — حتى

وجد فى الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوى على بقايا « الرسول يوحنا » أخى المسيح . وأقيم ضريح فى المكان الذى وجد فيه التابوت ، ثم شيدت فى مكان هذا الضريح كتدرائية فخمة فيما بعد ، وأضحى سنتياجو ده كمبستيلا Sontoagio de Compostela — « يوحنا قديس ميدان النجم » كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها فى قداستها إلا بيت المقدس وروما ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر فى إثارة الروح المعنوية عند الأسبان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين . وصار القديس يوحنا شفيع أسبانيا وحاميها . وأذاع اسم سنتياجو فى قارات ثلاث . وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ، والأخطاء هى التى يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

وإلى شرق استوريا ، وفى جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلاسلة البشكنس ، وهم فى أغلب الظن خليط من كلت أسبانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا فى حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجة ، والأسبان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancabo Garacia مملكة نبرة واتخذ بمبلونا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب « العظيم » (٩٩٤ — ١٠٣٥) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسبانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونه ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين فى الجنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة فى الشمال (١٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٠٩٥ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسبانيا الشمالى . وفتح شارلمان فى عام ٧٨٨ مقاطعة قطلونيا — فى شمالى أسبانيا الشرقى حول برشلونة ؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حدوداً أسبانية » ؛ وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية پروڤنسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة فى الشمال

الغربى تاريخها « بسانكو السمين Sancho the Fat » الذى بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا متكئاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب اليهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون يميس كما يميس دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩)[١٤] . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضى حياتها تتأهب للحرب . وفى عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طائعين لملوك أستورياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها . وضم فرننده الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥) ليون وجليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؛ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسبانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبقى الفقر الزراعى والتمزق السياسى أسبانيا المسيحيه متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين فى الجنوب ومنافسيها الفرنجة فى الشمال فى نعم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى فى داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنقشع ؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا فى أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم فى الحرب ، ويتجاهلون البابوات فى العادة ، ويحكمون المسيحيين الأسبان حكما يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ فى مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب . وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الذاتى ، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

فى أوربا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسپانية هذا الحكم الذاتى نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماستها وكسب أموالها فى الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت دمقراطية حضرية محدودة فى وسط النظام الإقطاعى الأسپانى ، وتحت سلطان الملكية الأسپانية .

ويشهد تاريخ ردريجو (راى) دياز Roderigo (Rey) Diaz بما كانت عليه أسپانيا المسيحية فى القرن الحادى عشر من بسالة ، وفروسية ، وفوضى . وردريجو هذا يعرف عندنا باللقب الذى حباه به المسلمون وهو السيد أى الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحى وهو الكمپيدور El Campeador أى المهاجم أو البطل . وكان مولده فى بيڤار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالى عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينما وجد سبب للقتال يدرّ المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته فى القتال ، وموضع ريبتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين فى صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين فى صف المسلمين ؛ ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء . وأرسله ألفنسو السادس ملك قشتالة ليأتى بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أمير أشبيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنفى من قشتالة (١٠٨١) وانضم إلى قطاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين ، وباع خدماته إلى من يشتريها من الحكام المسيحيين والمسلمين . فقد ظل ثمانى سنين فى خدمة أمير سرقسطة ووسع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفى عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية ، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبى . وفى عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن افتدى بثمانين ألف دينار . ولما وجد بعد رجوعه من تلك

الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملا ؛ فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التي ألقت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضي قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضي القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل[١٥] . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التي يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفّر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلا ، وجعلها حصناً منيعاً في وجه جيوش المرابطين المسلمين . وحكمت زوجته يمينة jimena (١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة في إعادة أسبانيا إلى المسيح . ويعظم الناس رفاته في برغوس تعظيمهم للقديسين[١٦] .

ولم تستطع أسبانيا المسيحية ، وهي على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر في التمزق والفوضى : وكان سقوط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفنسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش) ، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين المغلوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية في أسبانيا المسيحية .

الفصل الثالث

فرنسا (٦١٤ — ١٠٦٠)

مجيء الكارولنجيين : ٦١٤ ، ٧٦٨

لما جلس كلوتير Clotaire الثانى على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المروفنجية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته فى الاتساع والوحدة ؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشراف أستراسيا وبرغندية ؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو پيپن Pepin الأول الأكبر ليكون « ناظراً للقصر » . وكان ناظر القصر فى بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المروفنجيون على الدعارة والدسائس ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحدّ الملك داجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاما « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخبارى ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً(١٧) » . غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الحظايا » كما كان « عبداً لشهواته(١٨) » . وعادت السلطة فى عهد خلفائه — الملوك الذين لا يفعلون شيئاً — إلى ناظر القصر . وهزم پيپن الثانى الأصغر منافسيه فى واقعة تسترى Testry (٦٨٧) ، واستبدل بلقب « ناظر القصر » لقب دوق الفرنجة وكبيرهم ، وحكم غالة جميعها ما عدا أكتين

Aquitaine . وحكم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذى كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (٧١٧ — ٧١٩) . وهو الذى صد بعزيمته غارات الغاليين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذى صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضى الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جيوشه فى الأديرة : وقطع عنق راهب بروتستنتى[١٩] ، وحُكِم عليه فى مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيپن الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يأثم إذا خلع الإمعة الميروڤنجى وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ فى حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللمبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأثم . فلما تلقى پيپن الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة فى سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك الميروڤنجيين البلداء وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثانى فى عام ٧٥٤ إلى دير القديس دنيس St, Denis فى أرباض باريس ، ومسح پيپن « ملكاً بنعمة الله » : وهكذا انتهت الأسرة الميروڤنجية (٤٨٦ — ٧٥١) وبدأت الأسرة الكارولنجية (٧٥١ — ٩٨٧) .

وكان پيپن الثالث « القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، محبا للسلم ، لا يغلب فى الحرب ، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر فى غالة فى تلك القرون . وكان پيپن هو الذى مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ؛ وفى خلال حكمهما الذى دام ثلاثا وستين سنة (٧٥١ — ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك پيپن ما فى الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتيازاتها

وحصاناتها ، وجاء إلى فرنسا بالمخلفات المقدسة ، وحملها على كتفيه فى موكب فخم ، وأنقذ البابوية من الملوك اللمبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة فى عهده المعروف باسم « عطية پيپين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال فى نظير هذا لقب « النبيل الرومانى » وتحذيراً من البابا للفرنجة بألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى پيپين فى عنفوان قوّته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثانى وشارل الذى أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

٣ — شارلمان : ٧٦٨ — ٨١٤

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٢ فى مكان غير معروف . وكان يجرى فى عروقه الدم الألمانى وينطق باللسان الألمانى ، ويشترك مع قومه فى بعض الصفات — قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الخشنة التى تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلا ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول فى شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح فى ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان يفهم اللغة اليونانية(٣٠) .

ولما مات كارلون الثانى فى عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هدريان الثانى بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردى الذى كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية . ولبى شارلمان الدعوة وحاصر پاڤيا واستولى عليها ، ولبس تاج لمباردى ، وأيد عطية پيپين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة فى جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته فى آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون — قادها كلها تقريباً بنفسه — يهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح باڤاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيتين ، والقضاء على الآثار المشاغبين المتعبين ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف فى وجه مسلمى أسپانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها . وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنيين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية فى رأى شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانى عشرة حملة (٧٧٢ — ٨٠٤) ، قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية . فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رقاب ٤٥٠٠ منهم فى يوم واحد[٢١] ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونفيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان فى پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى حاكم برشلونة المسلم فى عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة بمپلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحيى أسپانيا الشمالية الذين لا يحصى عديدهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها . غير أن الفتن الإسلامية التى وعد ابن العربى بإثارتها على الخليفة والتى كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وترامى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق بهم فى صف طويل رفيع ممرات جبال البرانس . وبينا كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسڤال Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس ، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهنالك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذى أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنية رولاند Chançon de Roland . وسير شارلمان فى عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق فى شمالى أسپانيا

الشرق وضمه إلى فرنسيا Francia . واستسلمت له برشلونة ، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان فى هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠ — ٨٠٥) ، ثم أخلد فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام .

والحق أنه كان على الدوام يحب شئون الإدارة والحكم أكثر مما يحب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوربا الغربية التى مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة الحكم والعقيدة .

وكان فى أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة بين نهر الفستيولا Vistula والمحيط الأطلنطى ، وبين البحر البلطى وجبال البرانس ، وإيطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف؟ الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على عاتقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب على النفس من هذا كله وهو ائتمار أبنائه به ليقتلوه . وكان فى دمائه دم أو تعاليم پيپين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذى لا يرحم ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل . وقد وسع أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكرى قوى الدعائم ، وسندها بما أفاء عليها من ظل الدين وشعائره . وكان فى وسعه أن يضع لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهيئ الوسائل ويبتغى الغايات . وكان فى مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ، ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحريم .

وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من الأملاك ، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعى لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت المحلى ، وكان كل عامل نبيل مسئولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يؤيدها كل عامل نفسانى تخلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذى باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطد الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين — رئيس خدم البيت ، وقاضى القضاة وقضاة حاشية القصر ، ومائة من العلماء ، والخدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه فى الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشئون الحربية أو غيرها فى مدن ورمز ، وڤلنسين ، وآخن ، وچنيف ، وپادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة فى الهواء الطلق . وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ، فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم ، وكان يحدث فى بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأنين أو القباع الجماعى . وقد نقل إلينا هنكمار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان فى أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان « يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإدارى أن يبلغ الملك فى هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت فى إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكمار إلى أقواله السابقة أن « الملك كان يرغب فى أن يعرف هل الأهلون فى أى ركن من أركان مملكته قلقون مستاءون ، وما سبب قلقهم واستيائهم »[٣٢] . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة »

معززة بالأيمان عما فى الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها الضرائب ، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين . وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الأيمان تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم . وقد نشأ من هذه الجماعات ، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز ، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة ، وفى الشئون الدنيوية قومس Comes (رفيق للملك) أو كونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث مرات كل سنة فى عاصمة كل مقاطعة لتبدى رأيها فى حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استئناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أومار جريف margrave ، أو مرخرزوج Markherzog ، فكان رولان المرسستفالى Roland of Marcesvalles مثلا حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici — الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعون على أعمالهم ، وأحكامهم ، وحساباتهم ، ويمنعون الرشا ، والاغتصاب ، والمحاباة ، واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون « الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان العهد الذى عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون . ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا Istria ، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه

الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعوض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التي تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام اللذين عرفتهم أوربا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى . فهي لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هي توسيع للقوانين « الهمجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقها على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردي : فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهي ، والمحاكمة بالاقتتال ، والعقاب ببتر الأعضاء[٢٤] ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير — وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة[٢٥] . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء في إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واتباع أوامره ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان في أخلاقه الخاصة »[٢٦] . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ؛ ولكن القوانين والنصائح في مجموعها تنم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق . وكان حكمه في فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية جنوبي فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط . وفى هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن فى وسعهم أن يسيروا لوحا فوق البحر[٢٧] ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربى أوربا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية فى الاضطراب . وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعاديين من البلاد التى كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة فى أوربا الخاضعة لحكم الصقالبة وبيزنطية ، وفى شمالها التيوتونى . كذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال يموجان بالمتاجر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعتها فى هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلداً زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك فى الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع فى فرنسا هبات شارلمان الأراضى وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ فى الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكارولنجيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التى كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضى إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد أصدر للعناية بهذه الأراضى قانوناً زاعيا مفصلا أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة فى بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها . وكانت الغابات والأراضى البور ، والطرق العامة ، والموانى وجميع ما فى الأرض من معادن ملكا للدولة[٢٨] . وشجع ما بقى فى البلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووُضع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُففت المكوس . ومُنعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها ، وأُنشئت الطرق والجسور أو أُصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على ثبات النقد ، ولكن قلة الذهب فى فرنسا واضمحلال التجارة أديا إلى استبدال الجنيه الفضى بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعنايته إلى كل ناحية من نواحى الحياة ، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التى تعرف بها الآن ، ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون[٢٩] . وهاله انتشار الأمية فى أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتى إليه من منتى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلما فى المدرسة التى أنشأها شارلمان فى القصر الملكى بآخن . وكان ألكوين هذا (٧٣٥ — ٨٠٤) رجلا سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم فى مدرسة الكتدرائية وهى المدرسة التى أنشأها الأسقف إجبرت فى تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندة فى القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين فى بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان « الدنمرقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى »[٣٠] ، فآثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد فى طلب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية إصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Oisela ، وأمين سره اجنهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة « وكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع فى أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف . ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلا من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود فى آخر سنى حياته »[٣١] . ودرس اللاتينية بنهم شديد ، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً فى نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألمانى القديم .

ولما ألح ألكوين على شارلمان ، بعد أن قضى فى مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التى قام بها چيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتينية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ . وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة فى القرن التاسع الميلادى ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنجى بما لدينا من الشعر اللاتينى كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus ، وبروپرتيوس P opertius ، وبما لدينا من النثر اللاتينى كله تقريباً ما عدا كتابات ڤارو Varro ، وتاستس Tacitus ، وأپوليوس Apuleius[٣٢] . وكانت كثير من المخطوطات الكارولنجية جميلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التى أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « ڤينا » التى كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تتويجهم .

وأصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها « توجيهات للدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الفظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى فى عام ٧٨٩ يدعو فيها مديرى هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو ، والموسيقى ، والحساب » . وفى عام ٨٠٥ صدرت تعليمات أخرى تهيء لهذه المدارس تعليم الطب ، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية . ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشىء فى فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس فى الكنائس والأديرة ؛ فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس فى كل أبرشية من أسقفيته ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً [٣٣] ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجانى فى التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، فى خلال القرن التاسع فى تور ، وأوكسير Auxer ، وباڤيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ghent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندة ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت فى المستقبل الجامعات الأوربية .

على أننا يجب ألا نغالى فى تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البعث المدرسى أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافى الذى كان قائما وقتئذ فى القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يثمر هذا البعث كتاباً كباراً من

أى نوع كان . وكتابات ألكوين الشكلية مملة ، مقبضة ، خانقة ؛ وليس فيها ما ينفى عنه تهمة التحذلق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقى ؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفى ذاك إلا بعض رسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً فى أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التى فيها قدر كاف من الجمال على طريقتها الضعيفة الخاصة بها . غير أن الأثر الأدبى الخالد الوحيد الذى خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التى كتبها اجنهارد . وهى تحلو حذو كتاب سوتنيوس Seutonius حياة القياصرة Lives of the Caesars ، بل إن الكتاب الأول ليقتطف بعض فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شىء للمؤلف الذى يصف نفسه فى تواضع جم بأنه « همجى ، لا يعرف إلا قليلا من لسان الرومان »(٣٤) ، وما من شك رغم هذا الاعتراف فى أنه رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينه أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتخذه صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العمائر فى حكمه الإنسانى العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصـــور للإمبراطور فى أنجلهيم Ingelheim ونجمجين Nijmegen ، وأقام فى آخن عاصمته المحببة القصر والكنيسة الصغيرة الذائعى الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان ڤيتال San Vitale برافنا وهى التى أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة فى الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثمن قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصابيح من الذهب والفضة ، وحظار ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جىء بها من رومة ورافنا »(٣٥) ، وبنقش فسيفسائى ذائع الصيت فى القبة .

وكان شارلمان سخيا غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما فى أقواله من القوة لينفى عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين فى البلاد الأجنبية ، وكان يصر فى مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة فى معاملة رعاياهم المسيحيين(٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير فى مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإدارى ، ولكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد فى أن يصدر أوامره لهم ، حتى فى المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد فى أبرشيته ، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما يحدث فى الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع « الدعارة ، والسكر ، والشره » بين الراهبات . سأل القساوسة فى أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدى لهذه الأغراض نفسها ، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين » . على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة ، وأمر بأن يؤدى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثلثى ضياعه لأسقفيات

مملكته[٣٧] ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات » قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجلّ الأفكار فى تاريخ الحكم : ألا وهى استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تستند إلى كل ما كان لرومة الإمبراطورية والبابوية من هيبة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التى لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً . ولسنا نعرف من الذى لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو منذا الذى وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن ألكوين ، وثيودلف، وغيرهما من المثقفين حوله قد تناقشوا فى إمكانه ، ولعلهم هم الذين خطوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشارى البابا هم الذين فكروا فى هذا الأمر . وقامت فى سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الرومانى ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب ، ولم يكن للكنيسة حق معترف به فى حل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً فى إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين فى الشرق وإخوانهم فى الغرب ، حرب تترك أوربا الخربة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قد يسره بعض التيسير أن إيرينى جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧) ؛ فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبرطور روما ، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريئة قام مرة أخرى إمبراطور رومانى فى الغرب ، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد ، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما فى اللقب الإمبراطورى من رهبة وسحر يمكن

أوربا المسيحية من أن تعود أدراجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتنشر المسيحية في ربوعه .

وحدث في السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ؛ ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يتهمه بعدة فعال خبيثة ، ثم هاجمه العامة في الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه في دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان في پادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعاده إلى رومة مع حرس مسلح ، وأمر البابا ومتهميه أن يمثلوا أمامه في تلك المدينة في العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠ ، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والرومان ، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد . فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين ، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك . ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحي شارل الأفخم ، الذي توجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام ! » . ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التي ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقي منذ عام ٤٧٦ .

وإذا جاز لنا أن نصدق اجنهارد ، فإن شارلمان قد قال له إنه ما كان ليدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليو ينوي تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التي تمت بها والظروف المخجلة

بها وقت إتمامها ، ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من بابا ، فيفتح بقبوله منه باباً للنزاع الذى دام قروناً طوالا بين البابا والإمبراطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخذ العطية ، ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية فى المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسوا الجرح الذى أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلا لا ينتفع بلقبه الجديد ، حتى كان عام ٨٠٢ فعرض الزواج على إيرينى ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبيهما المشكوك فيهما شرعيين[٣٩] ؛ ولكن سقوط إيرينى عن عرشها أفسد هذه الخطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودى مع هارون الرشيد ، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة فى بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرقى على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد ، وانتهى الأمر فى عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية .

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ٨٠٠ لجريجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيما على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته وليا لله فى أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهى فى الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاهما لم تكن ترغب فى الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية . ولقد كان استمرار شارلمان فى اتخاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشمالية ، ومن الشعوب اللاتينية إلى التيوتون . وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عملي وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة ، على أن الصبغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا فى عهد أتو Otto الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حين ضم فردريك باربرسا Frederik Barbarossa لفظ مقدس sacrum إلى ألقابه فى عام ١١٥٥ . وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت — على الرغم من تهديدها للعقول وللمواطنين — فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من براثن الهمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور فى المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبّلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطيه وما أخذته بيزنطية عن طيسفون . غير أن إجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه — إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً — لم تكن تختلف إلا قليلا عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قميص من التيل ، وسروال قصير لاشىء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قباء من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير ، وجورب طويل مربوط بشريطين يغطى ساقيه ، وحذاءين من الجلد فى قدميه ؛ وكان يضيف إليها فى الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء(*) أو الفنك(**) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لايفارقه أبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنيته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شَقَذ العينين(†) ، أشم الأنف ،

(*) أو سمّور الماء وهو حيوان يعيش فى البر والبحر معاً وله من أصابع رجليه جلدة تعاونه على السباحة Otter (عن معجم الدكتور شرف) .

(**) أو ثعلب الصحراء marten (عن معجم الدكتور شرف) .

(†) يقال رجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين . (عن الفراء) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام »[٤٠] . وكان معتدلا فى طعامه وشرابه ، يمقت السكْر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسى من الصعاب . وكثيراً ما كان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يحب الاستحمام فى عيون آخن الدفيئة . وقلما كان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب فى أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم فى الصباح وهو يرتدى ثيابه أو يلبس حذاءيه ».

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يسخّر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التى تربى على نصف المائة قوّته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسوؤه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ؛ وكان يزدرى الخرافات ، ويحرّم أعمال المتنبئين أو العرّافين ، ولكنه صدّق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ فى مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السذاجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان فى تفكيره وحديثه صراحة ونُبل قلّما نراهما فى رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ما كانت قسوته فيما بذله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان ، وفياً مخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدريان . ويرسم لنا ثيودلف فى قصيدة له عنوانها « حكم شارل » صورة لطيفة للإمبراطور فى بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبناؤه ، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته ، ويأخذ ابنه لويس سيفه ، وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالخبز ، والخمر ، والتفاح ، والأزهار ، ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقترب منه ألكوين ليبحث معه ما لديه من الرسائل ، ويهرول إجنهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كأنه نملة ، ويأتيه بكتب ضخمة[41] . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهن ، ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتماء فى أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين[42] . وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء ، وكانت نساؤه يؤثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر بمفردها . وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون[43] . وغض من فى حاشيته ومن فى رومة من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحى مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتئذ على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البزنطية لا يعلو عليها فى عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين ؛ ولكن كل توسع فى حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد حاولت أوربا الغربية أن تحمى نفسها من الألمان بإدماجهم فى حضارتها ؛ غير أن ألمانيا كان عليها فى هذا الوقت أن تحمى نفسها من أهل الشمال ومن الصقالبة ، وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشأوا لهم مملكة فى جتلنده Jutland قبل عام ٨٠٠ م وأخذوا يغيرون على سواحل فريزيا Frisia . وأسرع إليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ والأنهار ، وأقام حاميات فى الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك جتلندة على فريزيا عام ٨١٠ صُدَّ عنها ، ولكن شارلمان هاله أن يشهد من قصره فى نربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفن القراصنة الدنمرقيين فى خليج ليون .

ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة فى حاجة إلى الدفاع السريع عنها فى عدة مواضع فى وقت واحد ، فقسمها فى عام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة — پيپين ، ولويس ، وشارل . ولكن پيپين توفى فى عام ٨١٠ ، وشارل فى عام ٨١١ ؛ ولم يبق من هؤلاء الأبناء إلا لويس ، وكان منهمكا فى العبادة انهماكا بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتفال مهيب فى عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا : « حمداً لك يا إلهى إذا أنعمت على بأن أرى بعينى ولدى يجلس على عرشى »[44] .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء فى آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه بالاقتصار على السوائل ؛ ولكنه توفى بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثنين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة كتدرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أسماه كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse أو شارلمان Charlemagne (أى شارل العظيم) ؛ ولما حل عام ١١٦٥ وعا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة التى أحسن إليها الإحسان كله فى زمرة الصالحين المنعمين .

٣ — اضمحلال الكارولنجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة فى العصور المظلمة ، ولولا ما اتصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضى هذه الفترات قبل مجىء أبلارد بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين التى أدى إليها هذا النزاع الأخرق . لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ؛ ولقد اضطرته أسباب حربية وإدارية أن يمنح المحاكم والبارونات فى الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيه ومناجمه من إيراد غير كبير ، ولم يكن فى وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكد يمضى على وفاته جيل واحد حتى أقيل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه فى الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألقى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية . وملاك القول أن حكم شارلمان كان عملا جليلا من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسى فى عصر وفى رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادى .

وإن الألقاب التى أطلقها المعاصرون لخلفائه عليهم لتكفى وحدها لأن تقص علينا قصتهم : لويس التقى Louis the Pious ، وشارل الأصلع Charles the Bald ؛ ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين Charles

وشارل الساذج Charles the Simple . فأما لويس « التقى »(*) the Fat ،
(٨١٤ — ٨٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، بهى الطلعة ، وكان متواضعاً ،
رقيق الحاشية ، خيّراً كريماً ، مفرطاً فى اللين إفراط يوليوس قيصر .
وكان قد تربى على أيدى القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ
الأخلاقية التى كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا
زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه
وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن فى أديرة
الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيوا
الحياة التى توجبها عليهم قواعد البندكتين ، وحاول أن يقضى على المظالم
والاستغلال أينما وجدا ، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل . وقد أعجب
الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء فى جميع الأحوال .

وأحس لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها
إلى ممالك يحكمها أبناؤه — پيپن ، ولوثير Lothaire ، ولويس « الألمانى »
(وسنسميه للتمييز فيما بعد) . وقد رزق لويس من يوديث Juidith زوجته
الثانية ابناً رابعاً يعرف فى التاريخ باسم شارل الأصلع ؛ وكان لويس
يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسطاً
من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذى عمله فى عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده
الثلاثة الكبار عارضوا فى هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت
ثمانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت
عليه القلة التى ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال فى رُتفلد Rothfeld
(القريبة من كلمار Colmar) والتى عرفت فيما بعـــد باسم لوچنفلد
Lügenfeld أى ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بقى من
أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

(*) وكلمة Pious الإنجليزية (ومثلها تقى العربية) ترجمة خاطئة أيدها طول الزمن
لكلمة pius اللاتينية التى تعنى موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعانى الأخرى .

(٨٣٣) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير في دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علناً عما فعل . وجيء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفاً ، وأرغم في حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهرة اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة في أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارولنجية المتفككة .

واشمأز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ، واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الخلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپن ولدفج أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعادا يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثأر لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپن (٨٣٨) قسمت الدولة تقسيماً جديداً لم يرض عنه لدفج ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهايم Ingelheim (٨٤٠) . وكان من آخر الألفاظ التي نطق بها رسالة يصفح بها عن لدفج ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، أن يحمي يوديث وشارل .

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفج منزلة الأتباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناي Fonteney (٨٤١) ، وأقسما عند استراسبرج يمين الولاء المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير في عام ٨٤٣ معاهدة فردون ، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا الحالية . فاختص لدفج بالأراضي المحصورة بين نهري الرين والإلب ، واختص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسپانية ، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساءون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندة إلى بروڤانس باسم لوثير — فكانت أرض لوثير ، أو لوثرنجيا Lutheringia . أو لوثرنجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقت فيهما الدماء أنهاراً .

وفي خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتي أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ، والروح المعنوية في أوربا الغربية ، غزت القبائل الإسكنديناوية في سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكتسحتها بموجة همجية واصلت وأتمت الخراب والذعر اللذين جاءا في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبينا كان أهل السويد يتسربون إلى الروسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم في أيرلندة ، والدنمرقيون يفتحون إنجلترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، في وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال ، يغيرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التقي حملات قوية تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة ، يسيرها ملاحون محاربون . وقاست فرنسا في القرنين التاسع والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجمات الشمالية ؛ ونهب المغيرون في عام ٨٤٠ مدينـــة رون Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهجمات على نورماندى ؛ وفي عام ٨٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفي عام ٨٤٤ صعدوا في نهر الجارون Garonne إلى طلوشة Toulouse . وفي عام ٨٤٥ صعدوا في نهر السين إلى باريس ، ولكنهم تركوا المدينة وشأنها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة .

وبينا كان المسلمون يهاجمون رومة استولى أهل الشمال على فريزيا فى عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordrecht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux فى عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا الكرة عليها فى عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها فى هذه المرة ، ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفى العام الذى تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوفيه Beauvais وبايو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفى وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نهبت فى أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ٨٦٢ ، ٨٧٢ ، و ٨٨٦ ، و ٩٠٣ ، و ٩١٩[٤٥] ، وإن باريس نهبت عامى ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرقت فى عام ٨٦٥ . وجهز الأساقفة فى أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (٨٥٥) ؛ ولكن القراصنة الدنمرقيين خربوا أورليان فى عام ٨٥٦ . وفى عام ٨٥٩ اخترق أسطول شمالى مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة ڤالنس Valence شمالا ، ثم عبر خليج جنوا ، ونهب پيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة فى أماكن متفرقة فى طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنوز الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل فى بعض الأحيان . وكان الناس فى تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم فى صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال »[٤٦] ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية فى عام ٨١٠ ، ونهبوا ساحل الرڤيرا الفرنسى فى عام ٨٢٠ ، وخربوا أرل Arles فى ٨٤٢ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقى فى أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

ترى ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون فى أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعى . وأما الملوك فكانوا فى شغل شاغل بحروبهم فى سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين فى غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث فى عام ٨٥٩ أن اتهم هنكمار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلع علناً بالإهمال فى الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بين ٨٧٧ و٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً — لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتيحت للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نجممجن Nijmegen وأحرقوها فى عام ٨٨٠ ، واتخذوا من كورتراى Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفى عام ٨٨١ أحرقوا لياج Liége ، وكولونى ، وبن Bonn وپروم Prüm ، وآخن ؛ وفى عام ٨٨٢ استولوا على ترير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذى قاد المدافعين عنها ؛ وفى السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغموا هنكمار على أن يقاتل ويموت . وفى عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثنى عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفى عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا فى النهر صعداً إلى باريس فى سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أوأود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنى عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشماليين ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا فى نهر السين صعداً ويقضوا الشتاء فى برغندية التى نهبوها نهباً

ترتضيه نفوسهم . ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختير أودو ملكا على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمى شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش (٨٩٥ — ٩٢٣) إقليم السين والساءون من المغيرين ، ولكنه لم يرفع يده ضد غارات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أو رولو Rollo أحد زعماء النورمان فى عام ٩١١ أقاليم رون ، ولبزيو Lisienx ، وإفرو Evreux . وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل . ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يســخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعَمَّد ، وحذا رجاله حذوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمنديا بأن كانت ولاية فى فرنسا فتحها أهل الشمال .

ولقد وجد الملك الساذج حلا لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ؛ ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما فى غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين ، فنهبت تشارتر فى عام ٩١١ ، وأنجير Angers فى عام ٩١٩ ، ونهبت أكتين Aquitaine ، وأوفرنى فى عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه فى ٩٢٤ . وفى هذا الوقت نفسه تقريباً دخل المجر برغندية فى عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبى ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (٩٣٧) ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (٩٥١) وأحرقوا ضواحى كورتراى ، وليون ، وريمس (٩٥٤) ، ونهبوا برغندية على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعى فى فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التى كالها اه الشماليون والهون . وفى ذلك يقول أحد المجامع الدينية المقدسة فى عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت البلاد في عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . . فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً في نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم ملىء بالعنف والقسوة على الفقراء ، وأملاك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك في البحر(٤٧) .

وكان آخر الملوك الكارولنجيين — لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس الخامس ملوكاً حسني النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة نظام دائم من ذلك الخراب الشامل . ولما مات لويس الخامس ولم يكن له أبناء (٩٨٧) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غير الكارولنجيين ، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى Robert the Strong (المتوفى عام ٩٦٦) . وكان أودو منقذ باريس ابن هذا المركيز ، وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفى عام ٩٥٦) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا ، والسين ، واللوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيو كابت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ، وورث ، كما يلوح ، العزيمة التي كسبتهما . وعرض أدلبرو Adalbero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فاختير لهذا المنصب بالإجماع (٩٨٧) وبدأت بذلك الأسرة الكابتية التي حكمت ابناً أو أباً أو حكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى .

٤ — الآداب والفنون ٨١٤ — ١٠٦٦

لعلنا قد غالينا فى وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار ، ذلك أن حشدها كلها فى حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة فى تلك الأوقات قاتمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام ؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الرهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مدينة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ؛ وسيطرت كولونى وميز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت فى فلاندرز مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل Lille ، ودويه ، وآراس Arras ، وتورناى Tournai ، وديناں Dinant ، وكمبريه ، ولييج ، وفلنسين .

وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة فى كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس التى أنشئت فيها مدارس عملا بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت فى الأديرة أو الكنائس القائمة فى فلدا ، ولورسن Lorsch ، وريشنو Reichenau ، وميز ، وترير ، وكولونى ، ولييج ، ولأون Laon ، وريمس ، وكوربى Corbie ، وفلِرى Fleury ، وسانت دنيس ، وتور ، وببيو Bobbio ، ومونتى كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر دير البندكتيين فى سانت جول بمن كان فيه من الكتّاب ، كما اشتهر بمدرسته وكتبها ، وفيه كتب نتكر بلبولوس Notker Balbulus — الألكن — (٨٤٠ — ٩١٢) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سانت جول ، وفيه ترجم نتكر لبيئو Notker Labeo — الغليظ الشفة — (٩٥٠ — ١٠٢٣) كتب بوئيثيوس ، وأرسطو وغيرها من الكتب القديمة

إلى اللغة الألمانية ، وأعانت هذه التراجم — وهى من أول ما كتب بالنثر الألمانى — على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى فى فرنسا الجريحة كانت مدارس الأديرة تضىء حلكة هذه العصور المظلمة . فقد افتتح ريمى الأوكسيرى Remy of Auxerre مدرسة عامة فى باريس عام ٩٠٠ ، وأنشئت فى القرن العاشر مدارس أخرى فى أوكسير وكوربى ، وريمس ، ولييج . وأسس الأسقف فلبير Fulbert (٩٦٠ — ١٠٢٨) بمدينة تشارتر حوالى ١٠٠٦ مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المبجل — كما كان تلاميذه يسمونه — قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان فلبير هذا رجلا كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج فى مدرسته — قبل ختام القرن الحادى عشر — علماء أمثال چون السلزبورى John of Salisbury ، ووليم الكنشى William of Conches ، وبرنجار التورى Berengar of Tours ، وجلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porréa . وفى هذه الأثناء وصلت مدرســة القصر التى أنشأها شارلمان أوّج مجدها فى كمپينى Compiègne تارة وفى لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصلع من عون وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر فى عام ٨٤٣ علماء أيرلنديين وإنجليز فى مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة فى العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده فى ذلك الوقت الشك فى صواب استبقاء اسم « العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، بله غيره من القرون .

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاعفاً ، فهو چوهان أسكوتس إريوچينا Johannes Scotus Eriugina أى چون الأيرلندى المولود فى إرين Erin . وسنسميه نحن إرچينا Erigena وكفى . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ، ولكنه كان رجلا متبحراً فى العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرماً بأفلاطون والآداب القديمة ، حلو الفكاهة إلى حد ما . وتحدثنا إحدى القصص — التى يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء — أن شارل الأصلع ، كان يطعم معه فى يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندى quid distat inter sottum et Scottum ؟ فأجابه چون — كما تروى القصة — : « المنضدة »[٤٨] . ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حبا جما ، وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إلحاده . ويفسر چون العشاء الربانى فى كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزى ، ويتضمن هذا ارتيابه فى وجود المسيح بحق فى الخبز والخمر المقدسين . ولما أخذ الراهب الألمانى جتسشولك Gottschalk ينادى بمبدإ الجبرية المطلقة وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة فى الإنسان ، طلب هنكمار كبير الأساقفة إلى إرچينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب رسالته المسماة الجبرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالى عام ٨٥١) . وقد بدأها بإطراء الفلسفة إطراء عظيما فقال : « من يشأ أن يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة فى العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب فى واقع الأمر مبدأ الجبرية ، ويقول الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشىء ، ولو عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرچينا أكثر إلحاداً من أقوال جتسشولك ، وأنكره مجلسان من مجالس الكنيسة فى عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع جتسشولك فى دير قضى فيه بقية حياته ، أما إرچينا فقد حماه الملك .

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التقى فى عام ٨٢٤ مخطوطا يونانيا لكتاب يسمى الحكومة الكنونية السماوية . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس « الأريوباجى » Disnysius the "Areopagite" . وأحال لويس التقى المخطوط إلى دير سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام إرچينا بهذه المهمة إجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التى ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله فى مراحل مختلفة أو درجات من الكمال آخذة فى النقصان ، والذى يعود ببطء وبدرجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هى الفكرة الرئيسية التى يدور حولها أعظم مؤلفات چون التقسيم الطبيعى (٨٦٧) . فنى هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعاوم الدين والوحى إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقرّ چون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه فى كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضى بتفسيره حسبما يمليه العقل — ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات . ويقول إرچينا فى هذا : « إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان ، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أيا كان نوعه لأنه يستند إلى قوته »[٤٩] . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان لا للعقل »[٥٠] . فهاهو ذا عصر العقل يتحرك فى أرحام عصر الإيمان .

ويعرف چون الطبيعة بأنها : « اسم عام يطلق على جميع الأشياء التى

تكون وغير التى تكون » أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات :

(١) ذاك الذى يَخلُق ولكنه لا يُخلَق — أى الله . (٢) ذلك الذى يُخلَق ويَخلُق — أى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ؛ وهى التى يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذى يُخلَق ولا يَخلُق — أى عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذى لا يَخلُق ولا يُخلَق — أى الله بوصفه الغاية النهائية التى تستوعب كل شىء . فالله هو كل شىء كائن بحق ، لأنه يكوِّن الأشياء جميعها ويتكوّن من الأشياء جميعها » . وليس ثمة عملية خلق فى وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً فى الله . « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شىء ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال فى كل شىء — أى يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء »[٥١] . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنون لكل شىء والذى خلقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذى نراه هو الأعراض لا الجواهر »[٥٢] — أى صور الأشياء التى تدركها الحواس والعقول لا حقائقها التى لا تعرف ولا يمكن معرفتها — كما يقول كانت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة فى الأشياء متأصلة فى الأشياء نفسها ، وإنما تتكوّن من الأشكال التى ندركها بها . « فإذا قيل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا فى أن حقيقته وقوّته اللتين لا يستطاع وصفهما يُعبَّر عنهما بمعان تتفق معنا فى طبيعتها » — أى موائمة لطبيعتنا ، « حتى لا يجد المسيحى الحق التقى ما يقوله عن الخالق ، فلا يقول شيئا عنه ليعلم به النفوس الساذجة »[٥٣] . ولمثل هذا الغرض لا الشىء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك[٥٤] . فإذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن »

على أنه الحكمة الإلهية التى تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ؛ والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق ، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر فى الله على أنه ثالوث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هى الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هى السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التى تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقية(٥٥) . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هى حالة كهذه من حالات النفس(٥٦) . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذى انبعثت منه(٥٧) . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها فى آخر الأمر إلى الله .

لقد وجدت فلسفات شر من هذه الفلسفة وفى عصور النور ، ولكن الكنيسة حسبتها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع فى عام ٨٦٥ إما أن يبعث بجون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر ، « حتى لا يستمر فى تسميم الذين يسعون لطلب الخبز »(٥٨) . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن إنجليزياً من أهل مالمزبرى Malmsbury يروى « أن جوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ، وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يَشُكُّونه بأقلامهم الحديدية » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه القصة حلم من أحلام تلميذ كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بإرچينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لابوريه على غير علم منهم ، غير أنه بوجه عام قد نسى فى غمار الفوضى الضاربة أطنابها فى ذلك العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابه فى القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (١٢٢٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخه" جميعها إلى رومة وأن تحرق فيها .

ووقف الفن الفرنسي في هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك ، فقد ظل الفرنسيون يشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفي عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء فلبيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورماني . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورماني والرومانسي ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذي بنى دير جوميج Jumiéges الكنسي (١٠٤٥ — ١٠٦٧) ؛ وفي عام ١٠٤٢ دخل رجل إيطالي آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورماني في بك Bec ، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً ، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل . ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال في جان Abbaye aux Hommes at Gaen (١٠٧٧ — ١٠٨١) لا يزال قائماً إلى اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسي الذي تطور في نورماندي على أيدي لانفرانك ومن جاء بعده .

وشيدت في القرن الحادي عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز ، زينها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل . وكان شارلمان قد أمر بأن يطلي داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأبهاؤها بالمظلمات ، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور . وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن في عام ١٩٤٤ ، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية في كنيسة سان جرمان St. Germain في أوكسير . ولا تختلف هذه النقوش في شكلها عن النقوش التي تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها .

وقد كتب رهبان مدينة تور فى عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ، ولا تزال هذه النسخة محفوظة فى قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجمل من هذا المخطوط إنجيل « لوثر » الذى كتبه فى ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس فى هذا القرن التاسع كتاب تراتيل « أوترخت Utrecht » الذائعة الصيت — ويتألف هذا المخطوط من ١٠٨ ورقة من الجلد الرقيق ويحتوى على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صــور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعدد لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة يدلت فن التصوير الدقيق الذى كان من قبل جامداً مستمسكا بالتقاليد .

٥ — نشأة الأدواق : ٩٨٧ — ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التى كان يحكمها هيوكابت (٩٨٧ — ٩٩٦) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوربا الغربية الوحدة التى وهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة فى أيام نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التى كانت فى أيام هيوكابت لم تكن فرنسا القائمة فى أيامنا هذه ؛ فقد كانت أكتين وبرغندية دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا . وكانت فرنسا فى ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان فى دمها عنصر ألمانى كبير ؛ وكان سكان نورماندى من الشماليين ، وكانت بريطانى كلتيه غير ذات صلة بسائر البلاد ، يسيطر عليها لاجئون من بريطانيا ؛ أما پروڤانس فكانت فى جنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غالية . كذلك كانت فرنسا المجاورة

بجبال البرانس قوطية ، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضا كما يدل على ذلك اسمها « قطالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين فى الثقافات واللغات . وكان العمل الذى اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ؛ ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لوراثة للعرش منظمة ، فتوج ابنه ربرت ملكا معه فى السنة الأولى من حكمه . ويُعَد « ربرت التقى » (٩٩٦ — ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير المبرزين[٦٠] ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب . مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى اتفاق سلمى . وكان ربرت رءوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله فى هذا كمثل لويس التاسع ؛ وهنرى الرابع ، ولويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزيناً إلى آخر أيام حياته ؛ ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته[٦١] ، وشبت نار حرب للوراثة بين ولديه ، انتصر فيها هنرى الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندى . ولما انتهى هذا الصراع الطويل (١٠٣١ — ١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر فى المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين .

وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هى أكتين ، وطلوشة ، وبرغندية ، وأنجو ،

وشمبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندية . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات فى جميع الحالات تقريباً ورثة زعمـاء أو قواد منحهم الملوك الميروفنجيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء فى تجييش الجيوش وحماية ولايات الحدود ؛ ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجبى منها الضرائب ؛ بل كان الأذواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون فى القضايا ويعاقبون ، ويكادون يكونون سادة مستقلين فى ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمى ، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود . واقتصرت سلطة الملك فى وضع القوانين ، والفصل فى القضايا ، وفى الشئون المالية ، على ضياعه الملكية الخاصة ، وهى التى سميت فيا بعد جزيرة فرنسا Ile de France وتشمل إقليمى الساءون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوفيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندية دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالا نسبياً بأن نمت نمواً سريعاً إلى أقصى حدود السرعة فى قوتها وسلطانها ، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة — ولعل السبب فى ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس . وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شـباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقيـة ولا يرعون فى الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوناً من الغاليين والفرنجة ، والشماليين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ — ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقا لنورمندية حين وقعت عينه فى عام ١٠٢٦ على هارلت Harlette ابنة

دباغ فى فالىز Falaise ؛ فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جرياً على إحدى السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعنـدنا نحن باسم وليم الفاتح Wiliam the Conqueror . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمندية فى عام ١٠٣٥ ليحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

« أقسم بدينى ألى ان أترككم دون أن أولى عليكم سيداً ؛ إن لى ابنا نغلا سيكبر بفضل الله ، وإنى لقوى الرجاء فى أن يكون من أحسن الناس صفات ، ورجائى أن تقبلوه سيداً عليكم ؛ وليس يهمكم قط أنه لم يولد من زواج شرعى فهذا لن يؤثر فى قدرته على الحكم . . . أو فى توزيع العدالة بين الناس . وهأنذا أعيّنه وارثاً لعرشى ، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمندية بأكملها »[٦٢] .

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعه أخمدها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلا يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصدر رحب ، وكان من حين إلى حين يمضى بعض ما يكتب باسم وليم النغل Guilelmus Nothus ؛ ولكنه حين حاصر ألنسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع فى يديه من الأسرى وأرجلهم ، وفقأ أعينهم ، وقذف المدينة من مجانيقه بهذه الأعضاء . وأعجبت نورمندية بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف للفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين بواجباته الدينية ، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماتلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin كونت فلاندرز ، ولم يؤثر فيه أن لها والدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلا عنها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت « إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تتزوج بنغل »(٦٣) ، ولكنه لم يزجع عن حبها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ، وترتب على ذلك أن جرّد الأسقف مالجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذما هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بك . ثم أقنع لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبنى في جانن دير الرجال النورمندى الذائع الصيت ، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ، وكان قد وقع قبل ذلك الوقت في عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حمى جناحيه بهاتين الوسيلتين وزينهما شرع وهو في التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا .

الباب العشرون

نهضة الشمال

٥٦٦ – ١٠٦٦

الفصل الأول

إنجلترا (٥٧٧ – ١٠٦٦)

---

١ – ألفرد والدنمرقيون (٥٧٧ – ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ؛ فأقام الجوت مملكة فى كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك فى مرسـيـة ، ونورثمبرلاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى فى وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسسكس Sussex أى فى سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هى التى تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل فى مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة – مملكة الإنجليز –

بدأت غزوات الدنمرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني : « جاءت في عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين — وكانت هذه أولى سفن الدنمرقيين التي جاءت تطلب أرض شعب الإنجليز » . وأغارت على نوثمبرلند Northumberland في عام ٧٩٣ حملة دنمرقية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفي عام ٧٩٤ دخل الدنمرقيون نهر وير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وجرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفي عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفي عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة في نهر التامز ، بينما كان بحارته ينهبون كنتربرى Canterbury ولندن . وفي عام ٨٦٧ — فتحت قوة من الدنمرقيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت الآلاف من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهي البلدة التي حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التامز خاضعا للمغيرين . واتجه جيش دنمرقي بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمرقيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مرتن Merton وولى الإنجليز الأدبار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو في الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمياً illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللغة اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصابا

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه ؛ ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته في الحكمة والمهارة الحربية ؛ فلما مضى شهر على تتويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمرقيين الذين كانوا عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ بذلك عرشه ؛ غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتن Edington الحالية) في عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمرقي القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ؛ أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالي إنجلترا الشرقي في البلاد التي سميت فيما بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسر وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد نهبها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ؛ ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكي يقاوم بها الدنمرقيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيما جديداً ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً لممالكه الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلداناً جديدة ، وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أبهاء وغرفاً ملكية » ، لموظفي حكومته الآخذين في الازدياد[٢] . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ في ردنج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس غاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق » بفعل الدنمرقيين ؛ أما الآن : « فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته

أن عدداً قليلا جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية »[٣] . وقد بعث إلى البلاد الخارجية في طلب العلماء — بعث في طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم — ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلا من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذا فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة فى القراءة ، ولكنه كان « يأمر رجالا يقرأون له ليلا ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسه فى ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosphy لبوئثيوس Boetius ، وكتاب العناية بالرعى Pastoral Care لجريجورى ، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسيوس Orosius وتاريخ إنجلترا الكنسى Ecclesiastical History of England لبيد Bede ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغانى شعبه ، وعلمها أولاده ؛ وشارك المغنين فى بلاطه فى إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت فى عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالمدد ، وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، اللذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفا مع الدنمرقيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمرقى (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس فى وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التى كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، ولكنه ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية — تقواه ، واستقامته الخالية من التباهى ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم — ضرب لها بهذه الصفات مثلا ، وبعث فيها روحا ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به ڤلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان فى العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »[4] .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا فى أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الڤيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجفسون Olaf Tryggvesson على سواحل انجلترا فى عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٣) (الملقب بردلس Redeless أى غير المتصبح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنفح الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠٫٠٠٠ ، ١٦٫٠٠٠ ، ٢٤٫٠٠٠ ، ٣٦٫٠٠٠ ، ٤٨٫٠٠٠ رطل من الفضة جمعتها دينجلد Danegeld الخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندية فى عقد حلف معه ، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمرقيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتناجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من فى الجزيرة من الدنمرقيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا فى انجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمرقة ، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلها ، فغزا إنجلترا فى عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بجميع قواه فى عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندية ، وأصبح سوين ملك إنجلترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠١٤) ، وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد فى لندن وهى محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمرقيين فتح إنجلترا .

٣ — الحضارة الإنجليزية — السكسونية ٥٧٧ — ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها فى إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطاع معه فهم نظام الحكم فى البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت فى أثناء الفترات الخالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس فى التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الدمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزى السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى[٥] ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفى أثناء الغزو الدنمرقى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم فى نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك[٦] . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » ، « واجتماعات المائة » وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاطعة . ولكن لم يكن يسمح بحضورها إلا للملاك الأراضى . وأخذت هذه ال[illegible]

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويحل محل معظمها محاكم النبلاء فى ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا فى يد الويتناجموت Witenagemot القومى — « مجلس العقلاء » — وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجليزى يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قيراطا إلى مزارعه الخاصة التى كان يستمد منها إيراده المستديم ، ولم يكن فى وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائياً ، أو يشن حرباً ، أو يعقد صلحا إلا بموافقته (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمى . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندى وبعده كانت تعتمد على رجال الدين فى كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعى ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبرى Glastonbury كبير مستشارى الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ — ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ — ٩٥٥) ، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئاً فى نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig (٩٥٥ — ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) إليها ، وهو الذى وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ — ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس فى جلاستنبرى ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفى وهو كبير أساقفة كنتربرى فى عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء فى هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت فى القانون الألمانى القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت فى هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه برىء ، كما بقيت فيه الدية ،

والتحكيم الإلهى ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ؛ وكانت الدية فى القانون الإنجيلى (الإنجليزى) تختلف اختلافا له دلالته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas (نحو ١٣٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، ودية الأسقف ١٥٫٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسونى يقضى بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب فى جرح إنسان جرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفى لابتياع خروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزانى بأن يؤدى إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى[٨] . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودى به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية فى بعض الحالات ؛ وكانت توقع بدلا منها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلْد ، والإخصاء ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدع الأنف ، أو صلم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه فى الماء ، أو إلقائه فى هوة سحيقة[٩] .

وكان النظام الاقتصادى شبيها بالقانون فى بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه فى بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت فى تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال فى القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية — الدببة ، والخلاليف ، والذئاب — لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق فى بعض الحالات مآل المذنبين أو المجرمين ؛ وكان فى وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان جميع أبناء الأمة أرقاء ولو كان آباؤهم من الأحرار . وكان فى مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت ديته القليلة إلى مالكه ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطاع جلده حتى يموت[١٠] وكانت أهم تجارة فى برستل Bristol هى تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كفورا ، والمدن بالدنا غير كبيرة[*] فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، ونشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، وونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس فى عام ٦٠١ ليعظ فى لندن لم يجد إلا « عدداً قليلامن السكان الوثنيين »[١١] ، فى البلدة التى كانت إحدى الحواضر فى أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء فى القرن الثامن بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ، غير أن صناعتى النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدما من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا فى ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهات ؛ وكانت أربعة شلنات فى إنجلترا فى القرن العاشر تكفى لشراء بقرة وتكفى ستة لشراء ثور[١٢] . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون فى أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(*) وقد احتفظ ... من المدن الإنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية فى بدايتها — tun (town) بلدة ، ham (home) وطن ، Wick (house) منزل أو خور ، Thorp (قرية) ، burh (...) .

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدفئون أجسامهم بالفراء ، ويجملون أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت فى بعض العصور المتأخرة من تاريخ انجلترا ، فنحن نسمع الشيء الكثير عن الخشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقة وغيرها من العادات المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على انجلترا فى عام ١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلقى والثقافى عند ضحاياهم . وكان جو انجلترا الرطب يغرى الإنجليز — السكسون بالإفراط فى الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجعة » عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز فى القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة »(١٣) ، وكتب فى عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذركم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهتك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز — السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد ندد مجمع هرتفورد Hertford

الدينى (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن فى بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم فى الكتب ، ولكن لم يجدن فى ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن فى الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامخات ، ويستشيرون زوجاتهم فى السياسة العامة[١٥] . وقدظلت إثافلد ابنة ألفرد ، وهى ملكة ونائبة عن الملك ، جيلا من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحا ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانتزعت من الدنمرقيين دربى ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها وليم من أهل مالمزبرى إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدى بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة »[١٦] . وكانت تعيش فى مرسية وقتئذ (حوالى ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذى اشتهرت به فيا بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال فى كوفنترى Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شىء سواه ، الأمَرَّين من جراء الفتح الإنجليزى — السكسونى ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة فى ديرويرزموث Wearsmouth حوالى عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من خريجيها ؛ وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوى فى انجلترا ، وأضحت انجلترا فى النصف الثانى من

(*) وقد ورد فى هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعفى المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت هى إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم فى أوربا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم فى شخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ - ٧٣٥) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم فى ويرزموث وجرو . وإذ كنت قد ولدت فى إقليم ذلك الدير فقد أدخلنى أهلى فيه وأنا فى السابعة من عمرى لأربى على يدى رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتى كلها بعد ذلك الوقت فى هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية فى الكنيسة ؛ وكنت أستمتع على الدوام بتلقى العلم أو بالتدريس أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً فى التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً فى سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . . (١٧) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل فى النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه فى *التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية* (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة فى أنه ليس سجلاجافاً للحوادث ؛ وربما كان فى الجزء الأخير منه مثقلا فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسذاجته البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك فى وصفه للفتح الأنجليسكسونى[١٨]. وكان بيد رجلاً مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « لست أريد أن يقرأ أبنائى أكذوبة واحدة »[١٩] ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه السمائة الذين علمهم .. وقد توفى بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكر بيد أن الناس فى زمانه كانوا يتحدثون فى إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمرقيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجليسكسونى جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه فى تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية فى إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالى أوربا التى كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حياتهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذي كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجليسكسوني — وهي شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما في الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروي خروج آدم من الجنة . وهنا تسري في الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصوّر في صورة الثائر المنفعل المتحدي ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بني عليها وصفه للشيطان في قصيدته . ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مراث ؛ فقصيدة « الجائل » مثلا تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية في قصور الأشراف ؛ أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « وأكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة »[٢٠] ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثني من ذلك شعر دانتي نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهي حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالي ١٠٠٠) لا ترى في هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ؛ والمحارب القديم برهتود Byrhtood ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » في قلوب السكسون حين أحدق العدو بهم بعبارات كعبارات مالوري Malory وتسبقها في الزمن :

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فلتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذي يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بي السنون ، ولكنني لن أبرح هذا المكان ؛ إني أريد أن أرقد إلى جانب مولاي ، إلى جانب الرجل الذي أعزه[٢١] .

ونظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبلها قد ،

أنشئت فى القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن فى المتحف البريطانى . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هى القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ فى لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها فى هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) فى جنوبى السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التنين جرندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلا مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً فى أرض القيط ، فيهاجمه بيولف ، ويصاب فى هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتنين الذى تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البرى الذى يكمن فى الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفى وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش فى تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزائها ، كأنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع فى أجزاء متفرقة منها سطراً يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثنى خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هى التى يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف فى بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرقى كما يدفن قراصنة الشمال فى قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثنى المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التى أقيمت فى بهو هرنجار . وفى وسعنا أن نلمح فى ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثار :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته فى أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المجيدة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رأفة ورحمة ، وأرفقهم فى معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب التاريخ الكنسى[٢٣] أنه كان فى دير هوتبى Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره فى الغناء. وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكا قد جاءه وقال له : « غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؛ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ؛ ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعراً « صاغه » كما يقول بيد « بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن فى بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجيء النثر الأدبى فى جميع الآداب بعد الشعر فى الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً ، وهم لا يعرفون ، قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية فى نثر إنجلترا الأدبى هى شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضفى عليها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة ، وهو الذى بذل من الجهد فى نشر « ملف الأسقف Bishop's Roll » الذى كان محفوظا عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليسكسونى أول كتاب قيم فى النثر الإنجليزى . وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذى كتب الجزء الأكبر من حياة ألفرد ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالى عام ٩٧٤) ؛ ومهما يكن من شأنها فهى مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية فى الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية التى كانت لا تزال تستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة « العامية » .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعانى ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلنى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحذقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبه الكثيرة » كما يقول أسر « عن أن يعلّم عماله فى صناعة الذهب وصناعه فى جميع الحِرف »[٢٥]. ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس بجد صناعتى الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقيا بارعا ، صنع لكنيسة جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول Ruthwell وبيو كاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتط صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ، والأقمشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية الدقة[٢٦] . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللمباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التى أقامها فى ويرزموث عام ٦٧٤ ؛ وأعادت كنتربرى فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ، « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلا لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسعه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التى لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً »[٢٧] . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم ، والدنمرقيون لم يبدءوها ، وأصبح البناءون الذين كانوا من قبل يبنون

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التى تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعى الزجاج ، وصائغى الذهب ، وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثالين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسته التى شادها فى هكسهام Hexham فى القرن السابع ، وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالى عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجىء الدنمرقيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت فى إنجلترا على أساس مكين .

٣ — بين فتحين ١٠١٦ — ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكما قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund Ironside وأمر بذبح أخى إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء فى رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هى وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندية أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة فى المستقبل ، ووهبها اثنى عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحى ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارياً

فى أسندون Assandun إحياء للذكرى الأنجليسكسون والدنمرقيين الذين حاربوا فى ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين انجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التى أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشارى التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل فى جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ؛ وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجى الدنمرقة وانجلترا ، ثم أصبح فى عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدنمرقى حلقة فى سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفى الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى . فقد امتزجت دماء الكلت والغاليين ، والإنجليز والسكسون والجوت ، والدنمرقيين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد فى زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبث الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين فى القرون التالية . ولقد جاء الدنمرقيون إلى انجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار فى أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة على البلاد ، وقف فى أثنائها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٩٥٠ ؛ كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التى شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته فى غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شارلمان المجيدة .

ولو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التى أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلما مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمرقيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذى عينه قبل موته ولياً لعهده أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمرقة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ؛ ثم مات ؛ وحكمها هارثكنوت عامين توفى بعدها سنة ١٠٤٢ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثرل وإما الباقى على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسونى غير الشقيق وارثاً لعرش انجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ — ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أى دنمرقى آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمندية وهو فى العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً فى بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدى أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجد إلى انجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفى الدولة ورؤسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا فى انجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم يخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندى قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم فى التأثير فى الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول فى عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت . وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيما ، داهية فى الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بارعاً فى الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين فى التاريخ

الإنجليزى . وقد رفعت تجاريه فى شئون الحكم منزلته فوق منزلة الملك نفسه . وأضحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك . ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون بهذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف (١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبى الغربى وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفا معاً إلى أعالى نهر التاميز ، وثار الشعب فى لندن على حكامه واستقبل الغزاة بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتناجور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ، واسترد جدون سلطانه السياسى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر .

وعُيِّن هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوىّ البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شن حملة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Gruffydd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولثام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التى نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذى لا يفترق فى شىء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث فى عهد إدورد من الناحية المعارية هو الشروع فى بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) : وكان الملك قد ألِفَ الطراز المعارى النورمندى أثناء حياته فى رُوَن Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذى أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندى الرومانسى على نسق كنيسة الدير العظيمة التى بدئ فى تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر فى چوميج Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيذانا ببداية نهضة معارية أوجدت فى إنجلترا أجمل المبانى الرومانسية فى أوربا بأجمعها .

وفى مقبرة وستمنستر دفن إدورد فى بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث الجسام . واجتمع الويتناجور فى السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده فى عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته فى نورمندية ثلاثين عاما . ويخيل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً[٢٨] ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد — كما يقول وليم — قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له فى رون (فى تاريخ لا نعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده فى المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد[٢٩] ولكن قَسَمَه أيا كان لم يكن من شأنه فى هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشىء ،

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثانى بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى فى عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس فى داخل ماسة[٣٠] . وقد سَرَّ هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات فى عروش الملوك وفى خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هنرى الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن ثمة صعوبة فى استخدامها مع الملك چون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم فى دعوة أهل نورمندية — أو على الأصح أهل جميع الأقطار — لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد فى كهولته الخيرة جزاء ما ارتكبه فى شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذى نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً فى شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعده فى نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينا كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من ١٤٠٠ سفينة تقلع من نورمندية إذ أغار تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة يورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (فى ٢٥ سبتمبر) ، وقتل فى هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف فى وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالتريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمى الأرض التى خربها هو من قبل والتى أصبح

يخبها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجس Hastings (١٤ اكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد في ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ، وأعقبت هذه الهزيمة مذبحة وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التي كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها في كنيسة ولتام التي بناها في حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا في يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦..

الفصل الثانى

ويلز ٥٢٥ — ١٠٦٦

فتح فرنتينس Frontinus وأجركولا Agricola بلاد ويلز وضماها إلى رومة فى عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربى ويلز مستعمرون أيرلنديون فى القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذى لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas — « الأجانب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون فى ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم. وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعى كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم فى هذا شأن معظم الشعوب الكلتية — البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنوول الحالية » ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالى إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتياب فى كل شخص أو شعب يجرى فى عروقه الدم الأجنبى . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم. ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عرافى شعبهم ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ، وقد عاش كلاهما فى القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرهما ، وعبرت القصص التى نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانى ، ووصلت فى صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زمرتهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضـوعات التى يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بينوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم(٣١) . ولا ترجع هذه القصص فى صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنيه تشهد بأن الأهلين كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النفى ، والهزيمة ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف اللذين نشهدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنليد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التى تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسموا أن « يقضوا على الوثنيين ويقيموا دين المسيح » .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت دافد وكنيسته فى مقاطعة بمبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ — ٨٧٨) وأنشأ فى الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحّد الملك هيول لصالح Hywel The Good (٩١٠ — ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد آب ليولين Gruffydd ab Llywelyn (١٣٠٩— ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ - ١٠٦٦

كانت أيرلندة في الفترة الواقعة بين موت القديس پاترك والقرن الحادي عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث في ألصتر Ulster ، أما الباقية فهي كنوت Connought ، وليئستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً في أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots — ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندى معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلا بهذه الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب في أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراك في القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل في جوهرة قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons — وهم قضاة من رجال القانون مدربون أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلّمون في مدارس الحقوق ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic[٣٣] .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتوح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الرومانى وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوما من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلى ، ولم تفلح قط في

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، واتخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها الـ أو O' (حفيد) للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلا تقول إنها تنسب إلى نيال جلندبه Mial Glundubh ملك أيرلندة في عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أي ابن . وكانت معظم الأراضي في القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العمائر[٣٤] ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية[٣٥] ؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجري الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين[٣٦] . وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد (٤٦١ — ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا في أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التي تسكن في شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق العلماء الغاليين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغاليين ، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ، منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايعين لوطنهم[٣٧]) ، ومدارس أخرى فى كلنماكنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثنى عشر عاماً تؤدى إلى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وتشمل دراسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون[٣٨]. وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولوهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضنون بأى بذل فى سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفى من أوربا الغربية بزمن طويل . وقد درس ألكوين فى مدرسة كلنماكنويس ، وفى أيرلندة تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليونانى الذى جعله موضع إعجاب شارل الأصلع فى فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية فى أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكى ، وفرجيل Fergil العالم فى الهندسة النظرية الذى علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dicuil العالم الجغرافى الذى أعلن كشف أيسلندة على أيدى الرهبان الأيرلنديين فى عام ٧٩٥ ؛ والذى أوضح شدة الضوء فى منتصف ليالى الصيف الأيرلندى بقوله إن فى وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قيصه[٣٩] . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكفى سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض فى أيرلندة كان فى ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه فى أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم فى المجتمع منزلة عالية ،

بوكانوا فى العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون فى مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية فى البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد فى العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين[٤٠] . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac Lonain ، وكنث Kenneth ، وآهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid 'Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذى اتخذه الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

واتخذت قصص أيرلندة فى ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولا قبل أيام پتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويا ثم صيغت وقتئذ قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائى ، وما من شك فى أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها فى قالبها الأدبى ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فمنها طائفة « فينية » Fenian أو « أسيانية » Ossianic تقص فى شعر حماسى مثير مغامرات البطل الخرافى فن ماك — كمهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنيين Finians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذى عاش ، كما تقول الروايات ، ثلثمائة عام ومات أيام القديس پتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثنى . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذى نشهده فى مائة منظر داعر من مغامرات الحروب والحب . وأجمل قصة فى هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من النكبات لبلادها ألصتر ، ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتذبح » ، ولكن الملك كونور يحميها من غضب الشعب ، ويربيها ، ويعتزم الزواج بها . وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى نأويز Naoise الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدى وهو مبتهج » . وتؤثر هذه الحادثة في عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتي الرقيقة ، إذا كنت تحبين لى الحياة ، فاحملى منى رسالة إليه ، وقولى له أن يأتى ليتحدث إلىّ سرًّا فى هذه الليلة » . ويقبل نأويز ويغترف من حبها حتى يسكر ، ثم يأتى إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan فى الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة فى شعاب الجبال ، ثم يبعث الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إيرين Erin . ويوافق نأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتنذره بأن الملك سيغدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود كونور ، ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ، ويطير لُب ديردر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينا كان أعيان البا Alba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون ويمرحون

إذ طبع نأويز فى السر قُبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدمها خشف ،
ثم أقبل علينا زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبي بنار الغيرة ،
ودفعت زورقي الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدّر لي أن أحيا أو أموت .
ونزلا إلى الماء في إثرى
إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بي مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لي ناأويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسّ وجهي مرة أخرى
حتى يذهب من عندي إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت في هذه الليلة
أن ناأويز مسجى في التراب
إذن لزرفت الدمع مدرارا
ولبكيت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية في سذاجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها »[11] .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة في أيرلندة ، شأنهما في غيرها من البلاد في حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلن

أو يحلبن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسيرون إلى ميدان القتال ، والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعيهم ، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وتراً ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التمبان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق فى الكتف وتنفخ بالفم ؛ ووصف جيرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٨٥) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين ، وهو إطراء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أجمل ما أثمره الفن الأيرلندى فى ذلك العصر كأس آرداغ Ardagh الذائعة الصيت (حوالى عام ١٠٠٠) التى اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجمل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة فى القرن التاسع على الرق بأيدى رهبان أيرلنديين فى بلدة كلز من أعمال ميث Meath أو فى جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتى Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطى والإسلامى إلى أيرلندة عن طريق الاتصال البطىء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال فى فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان فى تزيين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله فى هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية فى هذا الفن هى أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرف واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطى الصفحة بتمامها فى نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس فى المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

جرلد Girld من كتاب ويلز - وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة - بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر[٤٢] .

وإذ كان هذا العصر الذهبى فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئات السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وانجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدنمرقة - وكانوا لا يزالون وثنيين - أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا ديرى بنجور Bangor وموفيل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة باسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ مليكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پتريك عاصمة لملكه الوثنى ، وتوّج زوجه الوثنيـة على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونماكنيوس[٤٣] . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . وقد قبض ملاخى Melachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأمراء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثاني عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون فى خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشتتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقى فنه المعتاد فى تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندى قديم[٤٤] .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ — ١٠٩٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دلجاس Dalgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمرقياً بالقرب من تبريرى Tipperary (٩٦٨) ومزقاه شر ممزق ، ولم يرحما فلوله المنهزمة ؛ ثم استوليا على لمرك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك — ملوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناڤان ملك هاى كاربيرى Donavan of Hy Carbery — خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمرقيين ، واختطفا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثانية بالدنمرقيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد فى اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمرقيين مالكى دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودى به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويقر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذوو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم الملكية » قصة كثيراً ما نراها فى غير هذه المناسبة ،

فقالوا إنه كان فى مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف فى أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة فى هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن فى السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن فى يوم الجمعة الحزينة فى الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل فى أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه فى خيمته .

وحلّت السلم — وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون — فى البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد فى القرن الحادى عشر ، وظهر فى خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان فى جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير فى مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها فى الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا فى عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » — وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ – ١٠٦٦

هاجرت فى أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتى Scotti الجبليين من شمالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبى الغربى من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلابة الواقع فى شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك « كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجليز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية فى لغتها ، مسيحية فى دينها ، نارية فى مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الخيال ككل كلتى » .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القربى ، ولا يرغبون فى أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات فى شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدريان الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسور انطونينس بيوس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سبتميوس سفيرس Septimius Severus (٢٠٨) أو ثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً فى القضاء

على الغزوات المتكررة التى كان يشنها البكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفى عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورثبريا على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ، وفى عام ٨٤٤ ضم كنث ماك ألبين Kenneth Mac-Alpin البكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفى ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفى ١٠١٨ استولى ملكولم الثانى على لوثيان Lothian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة البكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمرقيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبى اسكتلندة ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسونى قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ — ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها — البكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون — وكون منها مملكة واحدة هى مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت حفيدة كنث الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامى ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة فى تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركنى Orkney ؛ وفارو Faroes ، وشتلندة Shetlnd ، وهبريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بنى جنسهم فى أنحاء العالم الغربى

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨٠٠ — ١٠٦٦

١ — قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا فى البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شبيه باللابلانديين والإسكيمو(٤٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتى Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة — ومعناها منقع دان أو ولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التى وصفها تاستس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها فى اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفى اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالى . وأصبح لفظ اسكانى Scané وهو الاسم الذى أطلقه پلنى Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia فى اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناوه Scandinavia الذى يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة فى دمائها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال فى الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجرينلندة ؛ وأهل السويد الروسيا ؛ والدنمرقيون إنجلترا وفرنسا .

ولا يسمنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر فى هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm (٨٦٠ — ٩٣٥) وهب دنمرقة وحدتها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ —٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛ وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ — ١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skotlconung (٩٩٤ — ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة ملكه . وكانت بلاد النرويج فى عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ، تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاربين ، وظلت كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد هؤلاء الزعماء من عاصمته ترندهيم Trondheim وأخضع لحكمه معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ — ٩٣٣) الزعماء المتمردون ، ورفضت جيدا Gyda التى خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح ، وأتمه بالفعل فى عشر سنين ، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له — « صاحب الشعر الأشقر »[46] . وحكم هاكون الصالح Haakon the Good (٩٣٥ — ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن « السلم طالت حتى أصبحت أخشى أن توافيني منيتى فى شيخوختى وأنا على فراشى فى عقر دارى »[47] .

وحكم هاكون آخر - الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاما (٩٦٥ - ٩٩٥) ، ولكنه أغضب الزراع الأحرار فى شيخوخته باتخاذه بناتهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزاع الأحرار أولاف ترجفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارالد ذا الشعر الأشقر ؛ وكان « رجلاً شديد المرح والمجون » - كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland - طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً فى لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة فى الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال »[٤٨]. وكان فى مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون ، ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين فى وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة »[٤٩] . وكان كثير المنازعات والمغامرات ، وقد اعتنق المسيحيـة وهو فى الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاتها قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصروا على أن يقرّب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحى . ولما استمسك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثنى ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً فى حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته[٥٠] . وخطب أولاف لنفسه سجريد Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثنى ، فما

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه فى وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أتخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجفريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدنمرقة ، وإيرل إرك النرويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزماه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلا صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلا ، سخياً ، ولكنه شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسرارى[٥١] . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عينى زارع آخر[٥٢] . وائتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا ، فسيرا عليه خمسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (١٠٢٨) ؛ ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكره ، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ — ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين عادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيــده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ — ١٠٦٦) حكماً عادلا خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة ، ولم يسوءهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم فى ضبابها وفيوردانها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة فى عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها فى جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجها thing أو جمعيتها ، ثم أنشئ فى عام ٩٣٠ ثنجها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات فى تاريخ الحكم النيابى ، وبفضله كانت أيسلندة فى ذلك الوقت هى الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية فى العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً فى الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابى فيها ، أضعفا من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم فى ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهى فى أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا فى أيسلندة المنازعات التى جعلت بلاد النرويج شوكة فى جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمى للبلاد فى عام ١٠٠٠ ؛ ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويئدون أطفالهم . ولعل طول ليالى الشتاء وشدة بردها كانا السبب فى نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التى تروى فى أرض الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد أحد ربابنة السفن النرويجيين ويدعى جنبجورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة وأنشأفيها ثورولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بجرن هرجلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador فى عام ٩٨٦ ، وفى عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية .

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند Newfoundland ، أم رأس كد Cod ؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء فى « ڤنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ؛ وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثورووالد هو وثلاثون رجلا عاماً كاملا فى ڤنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترجفسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ — ١٢٤١) قصة خمس حملات مختلفة شنها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرستفر كولمبس Christopher Columbous ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة[٥٣].

٣ — الحضارة الڤيكنجية (حضارة القراصنة الشماليين)(*)

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لا شىء يقضى على وشائج القربى عند صاحب البصيرة »[٥٤]. وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب ؛ ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتفى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

(*) لفظ ڤيكنج مشتق من لفظ ڤيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . ويظهر لفظ ڤيك بهذا المعنى نفسه فى نارڤيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجاڤيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ ڤيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وسنعنى « الحضارة الڤيكنجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الأسكنديناوية فى « عصر الڤيكنج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ الميلادى .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلا صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله فى حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون فى المنزل ، وكان منها عصر الجعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشى على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجذيف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرمى بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان فى وسع بعض النرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا فى الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد(٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهى عادة القيثارة . ونقرأ فى إلدر أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعى .

وظل أغنياؤهم متعددى الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الشراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب(٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوها . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقى عقاباً — أى دون أن يثير خصاماً دموياً — أى رجل يضبطه فى علاقة غير شريفة بزوجته[٥٧] . وكان النساء يكدحن ولكنهن بقى لديهن من الأناقة ما يكفى لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان فى الحياة العامة أذلاء كما هى العادة فى بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة فى اسكنديناوة الوثنية كانت أعلى منها فى اسكنديناوة المسيحية[٥٨] . فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث — وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها — فى كل ما يكسبه زوجها من مال ، وكان يستشيرها فى أعماله المالية ، وكانت تختلط فى بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب ؛ وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارئ ما استلزمه من كدح وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة وفلحها ، وليست حقول القمح فى منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذللها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ، حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد فى كثرة عــدد ملاكها من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله » منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالى تقريباً ذا حرفة ، وكان بارعاً بنوع خاص فى النجارة ، غير أن الرجل الشمالى كان متأخراً فى استخدام الحديد الذى لم يدخل بلادهم إلا فى القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من البرنز ، والفضة ، والذهب[٥٩] ، وكثيراً ما كانت الدروع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناءو السفن الشماليون يبنون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية القاع لتزيدها ثباتاً ، محددة في جؤجؤها لتدمر . من العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف في معظم الأحيان — ويبلغ عددها في الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أو ستة عشر ، أو ستين مجدافاً . وهذه السفن الساذجة هي التي حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال في أنهار الروسيا منحدرة فيها إلى بحر الخزر والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطي إلى أيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الجارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم في صراحة (كما يفعل الحراس في جمهورية أفلاطون) أن انتماء كل إنسان إلى طبقته أمر قررته الآلهة لا يجرؤ على تبديله إلا غير المؤمنين[٦٠] . وكان الملوك يختارون ممن يجرى في عروقهم الدم الملكى ، وولاة الأقاليم من طبقة الجارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام دمقراطى عجيب يجعل من ملاك الأراضى مشترعين وقضاة في جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد في الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام القضائية هي القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى في عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردى ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطؤه الخيل حتّى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حى معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران فى اتجاهين متضادين حتّى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتّى يقضى نحبه[٦١] . ولعل فى هذا العقاب الوحشى دليلا على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتّى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ، وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League[٦٢]. وقد كتبت قوانين النرويج فى عهد مجنس الصالح (١٠٣٥ – ١٠٤٧) على رق سمى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » ! ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين[٦٣] .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالا وثيقا بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها وروعها قد خولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقواهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلها ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ، وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ،

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرّافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا فى أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألمانى) أبو الآلهة كلهم ، الذى كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق) Azov فى أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة فى تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شىء ؛ فقد عنفه لوكى Loki أشد التعنيف[٦٤] ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ يذرع الأرض فى طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهى حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه فى تسعة أماكن من جسمه ، فمات ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلهاً .

وكان ثور فى أيسلندة أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداوين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقته يلقى بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت البعيد يتشككون فى آلهتهم تشكك هومر فى آلهته ، وكانوا يتمثلونه فى جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريبا كان يختصب اسمه — ثورلف Thorolf ، ثوروالد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . .

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيما فى القصص وأقل مقاماً من أودين وثور

فيما يلقاه من العبادة : كان « ذا بهاء فى صورته وغلامه ... ، وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً(٦٥) ؛ وكادت هذه الصفات تغرى المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجا ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسة أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المجيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك فى جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس »(*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذى إنساناً ما . فما كان من لُكِيى الوقح المحب للوقيعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج فى جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نب Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة(٦٦) .

وكان الفلكيرى — الذين يختارون القتلى — هم الذين يحق لهم أن يحددوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون فى ممالك هل Hel ، إلهة الموتى ؛ أما الذين يموتون فى ميدان القتال فيأخذهم الفلكيرى إلى فلهلا — Valhalla « بهو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الجوتون — شياطين الاضطراب والدمار الزمهرية — الحرب على الآلهة ، وقاتلتها قتالاً هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفى هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهدم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل فى النهاية الفلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؛ ولم يبق إلا الأمل وحده — الأمل فى أن مر الوقت البطىء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التى كالها المليكان أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون فى آلهتهم ويواورنهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها فى جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هى صورتها فى تلك القصائد العجيبة التى سميت خطأ باسم الإدا Edda(*) . وخلاصة قصتها أن راهباً كشف فى عام ١٦٤٣ فى مكتبة كبنهاجن الملكية مخطوطاً يحتوى عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب فى خطإ مزدوج فسماها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالى عام ١٠٥٦ — ١١٣٣) وهو عالم أيسلندى من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها فى النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهى فى معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان ؛ وفيها نلتقى لأول مرة بسيجورد الفلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت فى جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتعنى فى هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجى وأن استعملها بهذا المعنى استرى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هى المعروفة لدينا باسم الإدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا فى الفولسنجساجا Volungasaga والنيبلنجنليد Nibelungenlied. وأعظم قصائد الإدا قوة هى قصيدة الفولسپا Voluspa التى تصف فيها البنية فولفا فى صورة فخمة قاتمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه فى آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة فى الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التى يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقى بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمثال الخليقة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ؛ قبل أن تعدّ الجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون[٦٧] . . . خير أنواع السكْر هو الذى يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية[٦٨] . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست فى صدورهن[٦٩] ؛ . . . هذا ما حدث لى حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً[٧٠] . . . النهار يمدح فى المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها[٧١] . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التى يتحدث بها إلى غيره[٧٢] . . . واللسان هو سم الرأس[٧٣] . تجنب النزاع مع مَن هو شر منك واو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضرب به شرهما[٧٤] . . . يجب أن يكون الإنسان حكيما فى اعتدال وألا يسرف فى الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلما يبتهج قلبه[٧٦] (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيرا[٧٧] . . . وخير المناظر منظر مصطلى الإنسان ومنظر الشمس[٧٨] .

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويا حتى

(*) شبيه بهذا المعنى قول الشاعر العربى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهـالة بالشقاوة ينعم (المترجم)

القرن الثانى عشر ، ثم دونت فى ذلك القرن . وكانت الحروف المجالية فى عصر الفيكنج هى حروف أوربا الشمالية كما كانت هى حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرف « الأسرار الخفية ») الأربع والعشرون تكوّن أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية المائلة . وكان فى وسع الأدب فى ذلك العصر أن يستغنى عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا فى هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذى بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغانى ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سجفات ثوردارسون Sigvat Thordarson الذى كان شاعراً ومستشاراً صريحا فى بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إجيل اسكلاجرمسون Egil Skallagrimsson (٩٠٠ — ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه فى أيسلندة — كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردى النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . وقد فقد فى كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه الحزن لولا أن أقنعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التى يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ، ثم يرضى بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية فى مجالس بلاده[٧٩] .

وما من شك فى أن آداب ذلك العصر تغالى فى وصف ما كان يسود مجتمع الفيكنج من عنف ، شأنها فى ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخدعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويهملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التى كانت تعيش فيها اسكنديناوة فى الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية فى سبيل العيش لا يبقى فيها إلا أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة فى البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقى على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التى لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لى أى دين تؤمن به ؟ » فأجابه بقوله « إنى أومن بقوتى » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش النرويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكّر فى أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه »[٨١] . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجدون فى القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتريهم وجد ونشوة فى القتال تعرف عندهم باسم برسركس جانجر berserksgangr أى « طريقة برسرك » . وكان البرسركيون — أو أصحاب قمصان الدببة — مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم[٨٢] . وكانت الفلهالا محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت فى القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياه .

وهكذا تعوّد « رجال الفيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا فى سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك فى الروسيا ، وبمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندية ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنات متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرماً ، وكل قوة عملا صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فنهم رولو Rollo الذى وهب نورمنديا نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذى وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثانى منشئه فى صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالى الجديد بدماء الشعوب التى أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نُفَايات الزروع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

الفصل السادس

ألمـانيا : ٥٦٦ ـ ١١٠٦

١ – تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة فى غارات البرابرة التى تدفقت من ألمـانيا قبل الوقت الذى نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوربا الغربية ، وخليق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمـان الذين بقوا فى ألمـانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة — القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللمبارد — إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطى ليملأوا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسى ، كما هو الآن الحد السياسى ، بين العالم الصقلبي والعالم الغربى . فقد كان فى غرب الإلب والسال Saale من بقى من القبائل الألمـانية : السكسون فى شمالى ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون فى حوض الرين الأدنى ، والثورنجيون بين هؤلاء وأولئك ، والباڤاريون Bavarians (الذين كانوا يسمون المركونيين من قبل) فى حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السويفيين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلين وفيما بينهما ، وعلى طول جبال چورا Jura الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن فى أوربا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشئوها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنچية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلى والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدى إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذى يعانى الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) فى واقع الأمر لويس أولدفج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات ميتز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لويس حاكما وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعى لكارلومان Carloman ابن لويس ، ملكا على « فرنسيا الشرقية Fast Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » (٨٩٩ — ٩١١) الذى خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحوا باڤاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وألمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلى عن التاج ، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كنراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ — ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا فى أن يكون لهم هم حق اختيار الملك . وأنهك كنراد قواه فى النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الونд الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد المجر ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣) شارلمان ألمانيا ، ولم تكن سنه حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره ومخبره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ؛ وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحاز الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشئون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاما قومياً بحتا لاترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوق پولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعى . وكان يطمع فى أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التى وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ، فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألمانى (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألمانى إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كنراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم فى غزوهم ؛ وقطع أتو دابر الفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالمجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ، أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية — فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء فى تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، وتوجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب فى عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسرخسية(*) براڤنا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم سابينا ، واندمجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية فى إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألمانى . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً فى الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقى ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ،فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثانى إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثانى إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفى أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام فى هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) جهوده فى ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات فى هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣—١٠٠٢) وقتئذ طفلا فى الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين , وأدخلت ثيافانو فى أثناء نفوذها الذى دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألمانى ، وبثت روح النهضة التى بدأها أتو فى الآداب والفنون .

(*) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسرخس Exarch . والإكسرخس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور فى إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦) شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك فى حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولمباردية وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بيزنطى ألمانى فى إيطاليا ، ولهذا وقفوا فى وجه أتو ، وأقاموا فى البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا فى عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التى لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التى دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحذافيرها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع فى حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى فى عروقه أخذ يبكى ويندم ، حتى قضى نحبه فى ڤيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره[٨٣] .

وبذل هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته فى إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لها . وبدأ بكنراد الثانى (١٠٢٤ — ١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكنونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو آرليس Arles . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنبه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و « كاد يفلح فى أن يبر بقسمه »[٨٤] . وبلغت الإمبراطورية فى عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض فى « يوم الغفران » من عام ١٠٤٣ فى كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة فى الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة — وبفضل سلطانه فى أغلب الظن — فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « المدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبى قصير الأجل على أوربا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوربا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه اندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف لهنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى فى الرابعة من عمره حين توج ملكا فى آخن وفى السادسة حين توفى أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو فى الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفيلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه فى خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضى التاج التى يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة عشر عاما (١٠٧٢ — ١٠٨٨) ؛ ولما أن هزمهم فى عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين لأن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفى تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين فى تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقا فى أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا فى تاريخ العصور الوسطى. وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استلمهم الملوك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس ميتز بهنرى الخامس ملكا فى عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات فى لييج فى السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ؛ ولم يجد البابا باسكال Paschl الثانى من حقه أن يمنح رجلا محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل لييج تحدوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع فى موكب ملكى فخم وواروه التراب فى كنيستهم الكبرى .

٢ – الحضارة الألمانية ٥٦٦ – ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا فى هذا التقطيع ، ودام الكفاح فى سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التى تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناقع التى تنشر الأوبئة — دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا فى القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيـــلا بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البرارى القاحلة ، ويذللون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجعة . وكان المعدنون يستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة فى الضياع ، والأديرة ، والمنازل ، تقرن الحذق الرومانى إلى الألمانى ؛ والتجارة تنمو ويطرد نشاطها فى الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى : وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة فى شرائع البلاد وفى دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التى كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبلية ونهضة القرن العاشر التى بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت ألمانيا فيا بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوربا رخاء ، لا يضارعها فى هذه الناحية إلا شمالى إيطاليا التى أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال ترير ، وميز ، وكولونى تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفـــة فى اسپير ، ومجدبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالى عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها فى ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس — أو بالأحرى كليات فى أديرة فُلدا ، وتجرنسى Tegernse ، وريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ، وهيلدسهايم Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ — ٨٥٦) رئيساً لدير فلدا العظيم فى بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية ألكوين فى تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها فى جميع أنحاء أوربا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ؛ وندد بالخرافات التى كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية[٨٥] . ونمت دار الكتب فى فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة فى أوربا ؛ وهى التى أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وتاستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس Ammaianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو إلى ربانوس أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التى تنشد وقت

تدشين البابوات والأساقفة والملوك(٨٦) ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً إمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريبا من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مربياً لشارل الأصلع فى قصر لويس التقى بآخن . وقد وجد له فى يوديث الحسناء الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رياسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البساتين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربيها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويذا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزن فى ذلك العصر بثقافتهن ورقتهن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتيين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويذا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى خلدت ذكرها هى ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حذت فيها حذو ترنس Terence ·

وتقول هي إن الغرض الذى كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التى حباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلا تحمد به الله »[٨٧] . وتقول إنه يحزنها ما فى المسالى اللاتينية من بذاءة وثنية ، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلا منها مسالى مسيحية ؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هى مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحى صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتفى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه فى خجل ، ويدور بينهما حوار شعرى رقيق يقنعها به أن تقلع عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتهما . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقوسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساخر » الممثلين الجائلين الصامتة .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز . ويكاد برنولد Bernewald الذى كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التى يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كؤوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن[٨٨] ؛ وكانت الأبواب الذائعة الصيت التي صنعها فنانوه لكنيسته أولى الأبواب المعدنية في العصور الوسطى التي صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بلغت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التي ازدانت بها المدن الألمانية في عصر النهضة ؛ غير أن مباني الكنائس قد أخذت في ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم ، ولورسخ ، وومز ، وميتز ، وترير واسپير ، وكولونى . وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الربنى — الرومانسى من سقوف خشبية مستوية ، وإفراط في الزخارف الخارجية ، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما في الخلق الألمانى من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

الباب الحادى والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ — ١٠٨٥)

الفصل الأول

النديس بنلبكت حوالى ٤٨٠ ـ ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتى كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة فى المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشوء بندكت النرسيائى Benedict of Nursia فى بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة فى الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجنسى ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح فى حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سبياكو Subiaco فى التلال السبينية ، واتخذ له صومعة فى كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين فى عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكراها إلى قلبه ، وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح فى حال يرثى لها ، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه » .

وبعد أن عاش فى هذه البرية الموحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزهوه وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزدهم ذلك إلا اصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم فى النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فلم يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حماسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التى تبعد عن كپوا أربعين ميلا جهة الشمال الغربى . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ فى مكانه (حوالى ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتدت به فيما بعد معظم الأديرة فى بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حذوا حذو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقا عليهم مثبطا لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ، فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعيا لا فرديا ، خاليا من التنافس والتظاهر ، يخضع فى كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء فى الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ، ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابى بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه فى احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم فى جميع الشئون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئا « سواء كان كتابا ، أو لوحاً ، أو قلماً — أو شيئا على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكا مشاعا »[٣] . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد فى الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عمن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً : . . لأن الله لا يعظم الأشخاص [٤] .

ويجب على من فى الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه »[٥] ؛

ومن واجب كل راهب أن يعمل — فى الحقول أو الحوانيت ، وفى المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئا حتى منتصف النهار ، وفى أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا فى الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة فى اليوم ، وفى أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرما عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » — أى ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا فى الساعة الثانية صباحا ، ويذهبوا إلى المعبد القائم فى الدير ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسبيحة الليل » وهى قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسبيحة الصباح » . وفى الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة — صلاة الساعة الأولى ؛ وفى التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفى منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ؛ وفى الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفى الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهى الصلاة الختامية ؛ وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعى وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون[٦] .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التى يتبعها الرجل الكامل المسيحية :

١ — يجب أولا أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل قوته »

٢ — وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل . . . . وألا يزنى . . . أو يسرق . . . أو يطمع . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه أن يعظم الناس جميعاً . . . . (١١) وأن يطهر جسمه . . . . (١٣) وأن

يحب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب فى الأذى وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يحب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب فى أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه أن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله(٢) . . .

وكان دير البندكتيين ملجأ يواسى المنكوبين فى عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبريائكم وحريتكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين فى جميع أنحاء أوربا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهى بمثابة جزائر شيوعية فى بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول فى العصور الوسطى . وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللمبارد الهمج فى عام ٥٨٩ ؛ فلما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٨٨٤ ؛ فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون فى عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض فى عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثاني

جريجوري الأكبر ٥٤٠ ؟ — ٦٠٤

بينا كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين في مونتي كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ — ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية في المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق في رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثي الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لايتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذي عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسي ، ولهذا أصدر جستنيان في عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار *الأساقفة والرجال المشهورون* في كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية »(٨) ولكن جثة جستنيان لم تكد تبرد في مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالي إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسي وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها في إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلا ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم .

ولد جريجوري في رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمي إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه في قصر جميل على سفح تل كثيليا Caelian . ولما توفي أبوه ورث عنه ثروة طائلة ، وارتقى بسرعة في سلم المناصب السياسية فكان في الثالثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

فى نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التى يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت[٩] ، أنفق معظم ثروته فى إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقى منها صدقات للفقراء ، وتخلى عن جميع مظاهر طبقته ، وحول قصره إلى دير للقديس أندر St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم فى معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذى يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة : غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التى قضاها فى الدير ويقول إنها أسعد سنى حياته :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابعاً » فى خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثانى سفيراً له فى البلاط الإمبراطورى بالقسطنطينية . وظل بين ألاعيب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب فى عاداته ، وطعامه وصلواته[١٠] ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا فى عام ٥٩٠ طاعون دملى مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجورى ليخلفه ، وكان يعز على جريجورى أن يترك ديره فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينا كان جريجورى يعد العدة للهرب ، ألقى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجورى آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا[١١] .

وكان وقتئذ فى الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع فى رأسه فى هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أقنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصدأه ، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضى العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش فى القصر البابوى كما كان يعيش فى الدير — يلبس ثوب الرهبان الخشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين فى حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه فى معظم أوقاته فى مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر فى يوم من الأيام شاعراً جوالا على باب قصره ومعـــه أرغن وقرد . فأمر جريجورى الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب[١٣] . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة فى تشييد صروح جديدة بل أنفقها فى الصدقات ، وفى الهبات للمعاهد الدينية فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وفى افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة فى رومة كل شهر قدراً من الحبوب ، والنبيذ ، والجبن ، والزيت والسمك ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ فى كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية فى الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل فى أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يؤنبها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ ، راعياً يعنى بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق فى أن يؤلف كتابه المسمى Liber Pastoralis curae (٥٩٠) ، وهى كتاب موجز فى النصائح يسلمها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه فى تصريف الشئون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه فى أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خدم الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة فى قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القداس ولعله كانت له يد فى نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقمع ما كان قائماً فى ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضى التى كان يهبها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان فى هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم فى الشئون السياسية ، يغلبهم فى معظم الأحيان ويغلبونه فى بعضها ، ولكنه ترك فى آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية فى إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسپليتو مدينة رومة — وكان فى حرب مع نائب الإمبراطور فى رافنا — عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير فى ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر اللمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى فى تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها فى الشئون الدنيوية ، ويعتذر لجماعات المصلين لعجزه عن أن يلقى عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التى

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيح له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل فى أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكى السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكى ، وكسب انجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع فى أحد أسواق الرقيق فى رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جيء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلا . . . واأسفاه ! إنى ليحزننى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالية من الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم بهذا الاسم(*) لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخليق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات[١٥] » .

ثم تقول القصة بعدئذ — وهى أطرف من أن تصدق — إن جريجورى استأذن البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى انجلترا ، فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جرادة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ، فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » — أى أقم فى مكانك[١٦] .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان فى دير القديس أندرو. فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنبه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فأتم بالسلم فى عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب فى تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر فى عقلية الناس فى العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقلية أصدق تعبير ، ولهذا فإن كتابات أوغسطين وجيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً فى الدين تواثم عقلية الجماهير ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدرى هل كان يؤمن هذا الإدارى العظيم حقا بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت — وهى فى واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير . وخير تراثه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته فى مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن رؤى رجال الدين فى إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارئ عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات ، وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر فى هذه المحاورات ذكر المخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التى قيل إن بطرس وبولس قد قيدا بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمد : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات »(١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم محاضراته فى ميدان الدين هى كتابه Magna Moralia — وهو شرح لسفر أيوب فى ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى فى كل سطر من سطوره ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث فى كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقوله إنه يجد فى سفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان ، وأنه فى حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس فى رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ فى لغة شعبية تصويرية ، ولهذا فهى فى حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهى الأمينة على التقاليد المقدسة هى وحدها التى يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التى تسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه » . وليس في مقدور أفهامنا أن تعرف الله ، وكل ما فى وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه »[١٩] ولهذا لايحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن فى وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير فى النفس البشرية : أليست هى القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . فى هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها »[٢٠] . ومأساة الإنسان الكبرى هى أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فمالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هى هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهى نار لا ينطفئ لظاها مجسمة ، ولكن فى مقدورها رغم ذلك أن تطهر الأرواح والأجسام ؛ وهى أبدية ولكنها لا تفنى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم فى كل لحظة يقضونها متألمين رعبهم مما ينتظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقيه أحباؤهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء[٢١] . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة فى نجاتهم ، وهى قوة فى متناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها فوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها فى عام ٥٩٩ يقول « قضيت أحد

عشر شهراً قلما غادرت فيها فراشي ، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم . . .
إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت » ، وكتب في عام ٦٠٠ مرة
أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بي الألم إلى حد
أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها
بالقداس . وأنا أحس في كل يوم بأنني على حافة القبر وأني في كل يوم
أرد عنه » . وكتب في عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه
الفراش ، وما أعظم اشتياقي إلى الموت »[٢٢] . وجاءه الموت في عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجوري المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان
جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو
عنه إلا أثر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجوري من
رجال العلم ولا من المتبحرين في الدين . ولكن هذه البساطة هي التي
جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهتدي
بهديه في تواضع فاتن جذاب : أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول
من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل[٢٣] ، فبينا كانت
يده تدير شئون إمبراطورية مشتتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة
البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى
نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينية المرعبة
التي ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات
الواردة في القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ،
وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحري ؛ ويعيش في عالم ملىء بالملائكة ،
والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً
قائماً على أساس العقل ، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون ، وكان
الدين الرهيب هو وحده الذي بقي فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت
بعدُ هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هي الأساس المؤسس الذي بنيت عليه الحملة الإلهية .

ولكن هذا الرجل بعينه الذي يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ، والذي حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان في قوة إرادته وفي قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا ينثني عن قصده ، صارماً في أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ، وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلتا الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه في العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف بفضله وقدسه من جاء بعـــده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به « جريجوري العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ — ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ؛ بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب اليعقوبى — القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، — وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر فى عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر »(٢٤) . ولكن رجال الدين فى الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كنستانس Constans الثانى منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يقبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفى إلى شبه جزيرة القرم ، وبقى بها إلى أن مات فى عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكونى السادس الذى اجتمع فى القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحابى الخارجين على الدين(٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التى آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التي تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة في سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق ، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أو راقنا عن أن تحمي الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللمبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة . وخشي البابا استيفن الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) أن يستولي اللمبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية في الخطر . فقد لبي پيپين القصير نداءه ، وأخضع اللمبارد ، ونفح البابوية « بهبة پيپين » التي أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريجوري الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة في بادئ الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعاتهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك في ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكا واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سلطات

إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهى مجموعة الأحكام التى قوت فيا بعد سلطان البابوية ، والتى كانت تهدف فى بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة فى أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت فى مدينة متز عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسى تسمى باسم إزدورس مركاتور Isdorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية فى البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول (٩١ — ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiades (٣١١ — ٣١٤) . وكان الغرض الذى تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بألا يخلع أى أسقف من منصبه ، وألا يدعى أى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفصل فى أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمى المطلق بوصفهم خلفاء المسيح فى الأرض . وكان البابا سلفستر الأول (٣٢٤ — ٣٣٥) يوصف فى هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوربا الغربية ، وأن « هبة پيپين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع فى أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان فى وسع كل من أوتى قدراً من العـــلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمى كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التى تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، . ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم(*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً فى تاريخ البابوية ، تلك هى شخصية نقولاس Nicholas الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليما عالياً فذا فى قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرب على مهام منصبه السامى بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثانى العظيمين فى قوة الإرادة ، ويفوقها فى سعة مطامعه ونجاحه

الوصول إليها . وقد أقام منطقه على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد فى تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين — حكاماً كانوا أو محكومين — فى شئون الدين والأخلاق إن لم تكن فى جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد فى البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها محمل الجد أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثانى ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزو فلا فى عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالا للشك ، عما فى هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة فى هذه الأيام على أن هذه الوثائق التى كانت مثاراً للجدل وثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثبرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الرؤساء الدينيون ملكته رغبته ، فلجأت ثيوثبرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى متز لينظروا فى الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تريير وكولونى هذا القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكمار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين فى أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من منصبه ، فلجأ الأسقف إلى نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر فى قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ؛ ولما تردد هنكمار فى تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات فى جميع كنائسها . واستشاط هنكمار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التى أصدرها البابا كانت كلها تقريباً فى جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذى أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين فى ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها فى أقاليم أوسع رقعة من التى كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن فى وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم فى مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الدينى المطلق فى العالم المسيحى الشرقى إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التى يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما فى الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وتتلذ فى القسطنطينية - بل فى بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة فى القسطنطينية وحدها يفوق عددها فى الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون فى كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون فى طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً فى اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات فى أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعفى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتحزبهم ، وشرههم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ — ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion في القسطنطينية مثلا أعلى في التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته في طفولته إلى الكنيسة ، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهنئ والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت في الغرب ؛ ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة في الشئون الكنسية . وقد نفي أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل في منفاه يقاوم محطمى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين في هذه القرون من اختلاف في اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما في هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم في المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآنية ، والزخارف المقدسة في الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مثيلاتها فى الغرب . فكان ذراعا الصليب اليونانى مثلا متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ، وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمروهم فى الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها إرسالا يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين فى الشئون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا فى أمور الدين ؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً فى بلاد الشرق الذى ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالى عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التى نادى بها بردسانس Bardesanes فى بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الربانى ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا برمزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بذور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن فى طوائف الملخانى Molokhani ، والخليستى Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك فى أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التى أدخلت على العقائد النيقية فى طليطلة عام ٥٨٩ ، والتى تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتى لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذى ينبعث من الأب » ex patre procedit ، وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث فى عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى طليطلة فجعله ex patri filioque procedit أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً فى المذهب اللاتينى إلا فى القرن الحادى عشر .

وقام فى هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ، فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه محطمى الأصنام راهب يدعى إجناثيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب فى عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلا تقياً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشرة أرملة ابنه المحرمة عليه طرده إجناثيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفى إجناثيوس ، ورفع إلى عرش البطريقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهذيباً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ؛ وكانت محاضراته التى يلقيها فى جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريقية قد تم موسوعة فى مائتين وثمانين بابا استعرض فى كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر فى بقائه مرتبطاً برباط الود

والصداقة مع أمير كريت . واستاء رجال الدين فى القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجاءة من بين العلمانيين إلى مقام البطريقية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا فى الأمر ، وقرر فى رسائله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها فى أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكر عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التى وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجنائيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد برداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ؛ ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ، ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم نحرق الكنائس فى ضواحى القسطنطينية ؛ وبينا يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق باراباس Barabbas وتقتل المسيح[٢٧] » :

ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هـذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى فى الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا العزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الربانى . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاده مجلس كنسى إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قد مات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوربا (٥٢٩ - ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث فى التاريخ الدينى لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية فى الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكا به ، انتزعها منه فى يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا فى كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ؛ ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحى لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لافرا المقدس الذى أقيم على جبل آثوس Mt, Athos فى عام ٩٦١ يضارع فى عظمته البارثنون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية فى القرن التاسع الميلادى عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها فى عام ٧١١ قد خرج من أيدى المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها فى آسية وأفريقية وواصلت فتوحها فى أوربا .

(*) فى هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها فى بعض مبادئها وحسبنا دليلا على هذا قول الله سبحانه وتعالى لنبيه : « وجادلهم بالتى هى أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع فى أيدى المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليونانى واللاتينى ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزيدورس (١٠٥٨ — ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية ببابين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف فى المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج فى النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية فى الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل فى بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفى رومة لم تشأ الكنيسة فى عهـــد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة فى التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بناءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن البانثيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واســتحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المخلّص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ — ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجىء الحجاج إلى تلك المبانى ، نمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المروفنچية لم يكونوا يرتابون فى قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ؛ فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضى والأموال . وكانت الكنيسة فى فرنسا كما كانت فى غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد قليل . وكان من سخريات التاريخ أن رجال الدين فى غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالى الرومانى ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحى يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم فى الحروب(٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة فى غالة ، وأحسنهم تعليما ، وأقلهم فساداً فى الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صادقة مخلصة فى تعليم الشعب الذى كان يعانى الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفى تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست فى الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية فى أبرشياتهم ، وكانت محاكمهم الملجأ المفضل للمتقاضين فى الشئون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينما وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعدمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشىء المستشفيات فى كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu — « نزل الله » — الذى افتتح فى باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان چرمان St. Germain ، أسقف باريس فى النصف الثانى من القرن السادس فى جميع أنحاء أوربا بما بذله من الجهود فى جمع الأموال — وإنفاق ماله الخاص — لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف ميتز جسور الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ — ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً فى التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكمة بالمبارزة أو التحكيم الإلهى ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما فى محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء »(٢٩) . وكان هنكمار الأرستقراطى كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ — ٨٨٢) رئيساً لنحو

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصلع ، وكاد ينشئ حكومة دينية فى فرنسا .

واتصفت المسيحية فى كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت فى أيرلنـدة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخيال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلى فى البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة — حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثنى عشر راهباً يقيمون فى أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشئونها ومنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجى من أى نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون فى صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر — « الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين » — خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج فى المدارس الأيرلندية فى القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعى الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة فى عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة »[٣٠] . وهكذا انعكست الآية واستُرِدّ الدَّين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون يلقون بأنفسهم على فاتحى إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ،

والنرويجيين ، والدنمرقيين ، وعلى المسيحيين الأميين نصف الممج فى غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضى بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هى التى أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلألأت كما لم تتلألأ من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التى كتبها له (حوالى عام ٦٧٩) أدمنان Adamnan أحد خلفائه فى أيونا Iona . وقد ولد كولمبا فى دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى فى عروقه دم الملوك ؛ وكان كما كان بوذا قديساً فى وسعه أن يكون ملكا . وبدا عليه وهو طالب فى مدرسة موفيل Moville من الورع ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أى عماد الكنيسة . وأنشأ مذ كان فى الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها فى درى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت »(٣١) ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك ديرمويد Diarmuid ؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهدى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل فى معركة كولدرفنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ فى جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندة الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل فى جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلندة ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافا من الوثنيين إلى الدين المسيحى وزخرف ثلثمائة « كتاب نبيل » مات وهو يصلى عند المذبح فى الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به فى روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود فى لينستر Leinster حوالى عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة فى جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه فى لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلى كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفى مجتمع متألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع . . . . ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق[٢٣] .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالجلد : ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى ، وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك فى نزاع ، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة[٢٣] . ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابى ، فقد كان فى ديرمكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرثون الأرض ، ويزرعون ويحصدون ، ويصومون ويصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع laux perennis » فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلا ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين[٢٤] . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة فى العصور الوسطى .

ولم يكن المزاج الصارم الذى وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألفى كولمبان ، الذى يحرم النزاع ، نفسه فى نزاع متكرر مع الأساقفة الذين

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمنيين الذين لا يقبل تدخلهم فى الشئون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة فى بادئ الأمر ولكنها غيرته فى عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولمبان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين فى الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب »[٣٥] . ثم طرد الأيرلندى المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشهيره بآثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندة ، ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ، وعبر كولمبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل بافاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولمبان كان فى حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم فى اطمئنان على كتفيه وتدخل فى قلنسوته وتخرج منها[٣٦] . ثم ترك زميلا له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوثار St Gothard Pass بعد أن عانى فى سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير بيبو Bobbio فى لمباورديا عام ٦١٣ حيث توفى بعد عامين فى صومعته المنعزلة التى كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين فى بريطانيا فى عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا فى عام ٤٢٩ ليقضى فيها على الزنادقة البلاجيين[٣٧] . ويؤكد لنا وليم الملمزبري William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمداً لله » فى وجوههم[٣٨] . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولمبا نورثمبرلند فى آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك فى أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثنى تزوج برثا Bertha الأميرة الميروفنجية المسيحية . واستمع إثلبرت فى لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهيأ له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن فى كنتربرى . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وحذا حذوهما كثير من رعاياهما . وفى عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتربرى الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى فى إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران فى يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله »[٣٩] ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إيطالى آخر يدعى پولينوس Paulinus المسيحية إلى نورثمبرلند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبرلند دعا رهبان أيونا إلى المجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ؛ وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فمنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديراً خلد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كثبرت St. Cuthbert (٦٣٥ ؟ — ٦٨٧) ووراءه فى دير ملروز Melrose ذكريات طيبة لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المتنصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وتتلذ فى انجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدحهم المتواصل فى الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا فى فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة فى كفاحه ضد المناقع والآجام ،وكما تزعموه فى كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره . وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن لأشراف قد أسرفوا فى إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب ، وأن أراضى الكنيسة المعفاة من الضرائب قداستغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ، وإنلىرالبلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو[٤٠] . وسرعان ما أثبت الدنمرقيون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره فى شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون فى جنوبى انجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانيــة والتقويم الرومانى ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندى والشعائر الأيرلندية فى الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته فى مجمع هوتبى Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع — وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح — فى صالح رومة . وقبل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسى فى تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبرى الذى تلقى تعليمه فى أيرلندة اجتازهو واثنا عشرمن أعوانه المغامرين بحرالشمال فى عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى ولبرورد يد پيپين الأصغر حاميه ونصيره ، ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثواهم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه[41] .

وواصل رجل أقوى من ولبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ — ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقّبه خلفاؤه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعيّن بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذى بدأه ولبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا رومة على أيدى المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوربا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية فى عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما مثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشآ فى سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلما لغة الصقالبة . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقالبة ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون فى كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلبية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التى دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E فى الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلبية للأصوات التى لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل بهذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاهما أن تستحوذ على الصقالبة ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما مثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلبية ، ثم حرمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهى التى تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وبولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلبية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ؛ وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وفرض الملك هارولد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحى على الدنمرقة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبراطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل ڤلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثانى إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها [٤٢] وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليونانى .

وكان الجنود المظفرون فى هذا الفتح المسيحى لأوربا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن الممرضات فى هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضى البور وزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ، ولقد أقاموا فى البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ، ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبثــوا النظام الأخلاقى وروح الشجاعة والطمأنينة فى نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنيانى يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ من إخلاصه فى هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلا مثلا عليا للفضيلة ، والخشوع ، والجد ، وكان لابد من قيام

حملة فى كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التى شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون فى نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماستهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نذوراً جىء بهم إلى الأديرة وهم أطفال ٬ سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جىء بهم وهم رُضَّع فى المهد ؛ وقد ظلت هذه النذور حرمات لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية فى عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره[٤٣] . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام فى الأديرة الفرنسية فدعا فى عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان فى آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنيانى أن يقرر السير فى جميع أديرة بلاده على القواعد التى وضعها القديس بندكت النورسيائى St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الجديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته فى عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى فى دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجههم فى العالم غير الدينى ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة فى خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيرادها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذى لا يستحق الذكر منها ، فى أوربا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلونى (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين فى الأديرة وفى خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء فى ساحاته نفسها ، بل فى تلك البيوت التى أنشأها المؤمنون الخاشعون لكى تكون ملاذا للعفة والطهارة فى حرمها المسور ،

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى »[٤٤] . ومن دير كلونى جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثنى عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام عام ٩١٠ ديرا فى هذا المكان بين تلال برغندية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا . وفى عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر فى قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : فمنع التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الجعة والنبيذ ؛ ولكنه شدد فى الاستمساك بالأيمان القديمة التى يلتزم بها الرهبان الفقر ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غراره فى أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذى لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلى أو سيد من الأشرف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلونى يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلونى وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ — ٩٩٤) ، وأدوياو Odilo (٩٩٤ — ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ — ١١٠٩) حركة تآخى الأديرة من فرنسا إلى انجلترا ، وألمانيا ، وبولندة ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلونى » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفى دير تعترف بأن دير كلونى أبوها وحاكمها .

وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً فى يد البابوية تسيطر به على رجال الدين فى خارج الأديرة ، ويسرت فى الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدى الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوى على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان فى الأديرة من اضطراب ، وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاق ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسى فى أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير مونتى كسينو نفسه[٤٥] .

الفصل السادس

البابوية فى الحضيض (٨٦٧ ــ ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التى وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى فى الوقت الذى كان فيه النسر الإمبراطورى يقبض بمخلبيه على الفيالقَ الضخمة يسيرها أينما شاء . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء فى أيدى أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون فى خلفاء المسيح فى الأرض رجالا مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية فى اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوربا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بألا يختار البابا بغير رضاء رجال الدين فى رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا فى عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا فى المدينة يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية فى القرن العاشرِ إلى أحط مستوى وصلت إليه فى تاريخها كله .

من ذلك أنه فى عام ٨٧٨ دخل لامبر Lambert دوق اسپوليتومدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفى عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ — ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلقى فى نهر التيبر[٤٦] . وثارت فى العام نفسه ثورة سياسية فى رومة خلع على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل فى السجن خنقاً[٤٧] . وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء ، وبقيت أسرة ثيوفيلاكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين فى قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح فى اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ — ٩١١)[٤٨] ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا فى تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ — ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع[٤٩] ؛ وما من شك فى أنه كان زعيما ممتازاً فى الشئون الزمنية ، لأنه هو الذى عقد الحلف الذى رد زحف المسلمين على رومة فى عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيدو Guido دوق تسكانيا ، وأخذا يأتمران لخلع يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا فى السجن حيث مات بعد أشهر قلية ميتة لا تُعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا فى عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ — ٩٣٥) إلى كرسى البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث[٥٠] . وفى عام ٩٣٢ سجن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا فى قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثانى . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثانى عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة فى قصر لاتيران Lateran[٥١] .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً فى عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسى . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسى البابوية ، وكان هذا المرشح الذى أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ — ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطورى فى رومة وبتر أعضاءهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسى البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤)[٥٢] . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسى البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة فى أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أى بابا فى المستقبل[*] . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ — ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ — ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو فرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفســه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجا على البابوية ، ولا ترى لأعماله أو قراراته قيمة ما .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ — ٩٨٤) ؛ وجلس على كرسى البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة فى فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلا . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعى كنيسته الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ — ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به فى شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (٩٩٨)[٥٣] . وعاد جريجورى إلى كرسى البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، فى أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو فى مكانه رجلا أصبح من أنبه البابوات جميعا .

ولد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسبانيا عملا بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت برشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاما فى التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه فى ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق فى مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ - ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون[٥٤] . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ، واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار[٥٥] . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية[٥٦] .

ولما توفي أدلبيرو (٩٨٥) سمي جلبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف يأتمر بهيو أصدر مجلس كنسي قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أقنع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه . فما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم ، وهيأ عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة رافنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جربرت باسم سلفستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلفسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحد العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جربرت ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سممته استفانيا Stephania عينها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولهما ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهي في العام المتمم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل[٥٧] ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتأثم ، وتصلي ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام ١٠٠٠ بل إننا لا نجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة[٥٨] .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ — ١٠٢٤) الذي رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلا ذكياً قويا ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ — ١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش[٥٩] ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجوري السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب . وأدهش جريجوري رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذي دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها ممن كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنرى الثالث ليقضى على هذه المهازل ، فجاء إلى استرى Sutri القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستر فى السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية . وأقنع هنرى المجلس بألا سبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور ، واختير لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت Clement الثانى (١٠٤٦–١٠٤٧) ، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس Damasus الثانى (١٠٤٧ – ١٠٤٨) الملاريا التى كانت وقتئذ تنتشر باستمرار من مناقع كمبانيا التى لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر فى ليو التاسع (١٠٤٩–١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ، واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

الفصل السابع

إصلاح الـكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت : وهي المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسى لما يعاصره من فساد في الشئون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم أنفسهم مصدراً لهـذه المتاجرة ، مثال ذلك أن أم جويبرت النوجنتي Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة في أن تهبه للكنيسة ، فقدمت المال لرؤسائها لكي يجعلوه قساً في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من عمره . وإذ كان الأساقفة في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون الشئون الروحية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً في بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزمنيين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان الشرهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مأثم للحصول على هذه الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة في نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدي[61] ؛ وأن فيليب الأول ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة يواسيه في إخفاقه يقول : « أتركني أجنى المال من منافسك ، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتياع منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك »[62] . وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنها شارلمان فيعينون هم بانتظام أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourges ، أما في

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم[٦٣] ، وأضحت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه[٦٤] . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يبتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم[٦٥] . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغمضون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية[٦٦] ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى ناربن إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه[٦٧] . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفا يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسى قد استحوذ على الكنيسة[٦٨] .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا ، وكان البابا هدريان الثانى نفسه متزوجاً[٦٩] ؛ وكتب راثريوس Ratherius أسقف ڤيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة[٧٠] . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم يتفق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان[٧١] ،

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى — بل إن الرأى العام كان يتسامح فى التسرى نفسه أى فى اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون بحياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان فى أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالهم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary فى عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطى « للشرهين من غير رجال الدين ، وللزانين من القسيسين »[٧٢] ، وأن بعض الشمامسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس »[٧٣] ، وقد اتهم بيد الموقر فى هذا القرن بعينه « بعض أساقفة » إنجلترا بأنهم « يضحكون ، ويهزلون ، ويروون الأقاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون و . . . يحيون حياة الملذات والفسق »[٧٤] . وكثرت هذه التهم وأمثالها فى أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ؛ فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله فى فسادهم الخلقى ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ — ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالاة التى يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ؛ وفى هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعية » . ويطالب داميان فى هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه فى منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدى إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين فى أوربا تشبه مثيلتها فى بلاد الهند ، وأن ما يضفيه هذا السلطان الاقتصادى على القساوسة ذوى الأملاك يزيد فى قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبنى الإنسان ، وأن مستواه الأخلاق يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واحد منها — هو الذى عقد فى بافيا عام ١٠١٨ — قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين(٧٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية والملتمسات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاما لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضطلع بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة فى عام ١٠٤٩ ، معتزما أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس فى مدائن أوربا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيبته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى فى قلوب الناس من إجلال ، فأخفت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جدفرى اللوريني الذى نهب الكنائس وتحدى الملوك حين أصدر البابا قراراً بحرمانه ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها فى فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل فى إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية فى كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألمانى . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة فى ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاب أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة فى البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياه ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنبهم ليو أشد التأنيب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علنا عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسراريهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلا عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد فى مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، إصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات فى ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا فى عام ١٠٥٠ ورأس مجلس فرشلى Vercelli وحرم فيه آراء برنير التورى Beregner of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالى أوربا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألمانى رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات فى سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى فى ألمانيا وفرنسا فى عامى ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة فى ورمز وأخرى فى مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنرى الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن پندلف Pandulf

دوق كبوا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألمانى يساعده على طرد بنداف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، وكاد فرسانهم وحدهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة فى الحروب . وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه فى الصلاة . وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت فى كنيسة القديس بطرس . وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء العرج ، والبكم ، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر فى الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى عهد جلوس سانت ليو على كرسى البابوية . وبينما كانت أوربا الغربية تتخبط فى ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهالتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ - ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها فى جنوبى إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب فى حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان دينى مطلق على العالم المسيحى . وكان اليونان فى ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين . وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطى ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا ، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية - كانت هذه الحادثات السياسية التى تحز فى النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هى التى شطرت العالم المسيحى شطرين أحدهما شرقى والآخر غربى .

فى عام ١٠٤٣ عين ميخائيل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلا من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان فى الأصل راهباً ولكن الذى رفع من شأنه

هو تاريخه السياسى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريقية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع فى عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً فى القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغلق كرولاريوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها . وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولاريوس ، يطلب أن يعترف البطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان »[٧٦] . ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلا إلى القسطنطينية ليناقشوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاريوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل . ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولايوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها »[٧٧] . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين ،

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات فى تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألمانى يوحي بأن صاحبه من أصل ألمـــانى ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه الشعلة الخالصة . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة فى قرية سوڤانو Sovano الواقعة فى مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه فى دير سانت مارى القائم على تل الأفنتين فى رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا فى عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند فى منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد فى السنة التى قضاها فى كولونى الشىء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له فى الصراع الذى نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره فى الوقت نفسه مندوباً للبابا فى فرنسا ؛ وفى وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية فى الشئون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا ڤكتور الثانى (١٠٥٥ - ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يستخدمانه فى المهام الكبرى ؛ ولما ارتقى نقولاس الثانى عرش البابوية فى عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل فى ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذى لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران فى عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بحمايته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ؛ ولقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، ولكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل — جريجوري .

وكان قصير القامة ، عادى الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشحذ همته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولى غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوربا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندية وسافوى ، وإلى الإمبراطور هنرى الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندية فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال تزعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حروب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنعقد برياسة نقولاس الثانى وهلدبراند في عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يدافعون عن مبدإ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الربانى الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين[٧٨] . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمعٌ دينى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوربا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ؛ وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعل عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلى عن مناصبهم على التخلى عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يحبذ آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعفى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أدواق سوابيا وكارنثيا ، وغيرهمَ من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ، وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم[٧٩] . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن إربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكستوس Calixtus الثانى أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لاتران برياسة إنوسنت الثانى قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زاوج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتفى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها — وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فا دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبوهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلا — حسب قوانين الإقطاع — أن يكون أولئك الرؤساء الدينيون — أو الأساقفة منهم فى القليل — مدينين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدينين بها فى غير تذمر فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضى الألمانية — التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة — عن سلطان الدولة[٨٠] ، وعما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وارتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة اللمبارد المنتمون إلى أصل ألمانى والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك[٨١] ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التى وهبها الملوك لهم[٨٢] ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضى الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين فى المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاسد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس فى الشرور الدنيوية ، والفساد الخلقى وهى الآثام التى ظهرت فى الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلا للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخى صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوربا وتحكمها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعى . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم — قبل حركة الإصلاح الدينى بزمن طويل — أن ينساب الذهب فى شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس — من ألمانيا إلى إيطاليا[٨٣] ؛ وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينية لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التى تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتونية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة فى الشئون الروحية ، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة فى الشئون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو فى نظر جريجورى ثنائية مختلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشئون المادية كما تعلو الشمس على القمر[٨٤] ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة — أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله — فى جميع المسائل التى لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمنياً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يمسحهم

البابوات أو يثبتوهم فى مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله فى أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال(٨٥) ؛ وقد تساءل جريجورى فى رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذا الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون فى الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم فى حكم من لا يقلون عنهم — أى الشعب — جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ »(٨٦) وقد بدا لجريجورى ، من نظرته إلى ما ساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذى خيم عليها دهراً طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية فى القليل ، إن لم تكن عالمية .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه(٨٧) . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Châlon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه فى عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك فى حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية فى فرنسا إذ أبى فليب أن يصلح شأنه(٨٨) . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون فى المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم فى ألمانيا نفسها .

واجتمع فى فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان فى رومة برياسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج رجال الدين ، وتعيين غيرهم فى المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف أسقفى بافيا وتورين ، وخلع أسقف بياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه جريجورى دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يرشح شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد رجال حاشيته المقربين بل إنه خلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن ينتظر موافقة البابا — وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ، فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن يجعل رفضه مطالب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو — وهى بلدان قريبة كل القرب من مقر البابا — وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى فى شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى هنرى ، وأمر حامليها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية ينذرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس. فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان فى ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون منهم ، وتخلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى كرسى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقـــة . وكان مما شجع الإمبراطور على المضى فى خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت فى سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد فى بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مذيلا بهذه الحاشية المنتقاة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا »[٨٩] . وسلمت الرسالة إلى جريجورى فى مجمع مقدس بروما (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ؛ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ؛ وحرم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعفى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الحانث » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوربا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان فى ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان فى هذه الظروف فرصة سانحة لم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا فى تريبور Tribur (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فإنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبى البابا فى

تريبور أن يجتمع مجلس فى أوجزبرج فى اليوم الثانى من فبراير عام ١٠٧٧ برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .

ولجأ هنرى إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسل إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتى هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزمع أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى فى رومة . وبينا كان البابا فى طريقه إلى تلك المدينة استضافته فى مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقته ومؤيدته ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فلجأ إلى قصر ماتلدا الحصين فى كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأپنين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك فى الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفى يوم من أيام الشتاء الذى لم تشهد إيطاليا مثيلا له فى برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذى بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسه إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى فى حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة »[٩٠] .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنرى دون أن يستشير الأمراء الألمان ، وكان يعرف أنه إذا خرج هنرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحى أن يفهم كيف يأبى خليفة

المسيح أن يعفو عن هذا التائب الذليل . وكان هـذا الحادث نصراً روحياً لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دبلوماسياً بارعاً لهنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شىء إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدا أن سياسة هنرى قد أخفقت . لكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لقى عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيا عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية .وظل جريجورى يتذبذب طويلا ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحيين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه (مارس سنة ١٠٨٠)[١٩] .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى ميتز مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ؛ وخلع المجلس جريجورى ، وأيد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، ونادى بجيبير Guibert كبير أساقفة رافنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى سكسونيا (١٥ أكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل فى المعركة . وبينا كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش وهو يخترقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه إنجلترا وأيد هذا الفتح ، ولكن وليم لم يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حجته الملكية . ودافع أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلو سانتا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ؛ وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملا .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦٫٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاة هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى مونتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فإنى أموت منفياً » . ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهد قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطرساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالا من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تعلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثانى زعيما لأوربا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .

الباب الثاني والعشرون

الإقطاع والفروسية

٦٠٠ – ١٢٠٠

الفصل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت فى الستة القرون التى أعقبت موت جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطىء فى التغير الأساسى الذى حدث فى الحيـــاة الاقتصادية فى عالم أوربا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التى أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسرمن « الموالى » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التى تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة فى بلاد الريف قيام الأديرة التى كان رهبانها يفلحون الأرض ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية ؛ ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان فى الريف بسبب العقبات القائمة فى سبيل التجارة أن تسعى للاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التى كانت تشترى من المدن تصنع فى الضياع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادى . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس فى القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرستقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة[1] وجيوشها[2] ولا يختلفون عن البارونات فى العهود المقبلة إلا فى قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التى مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هى بعينها التى أقامته بين القرنين السادس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك الميروفنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعادت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمانية التى حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذ كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ فى فرنسا ، وانجلترا فى عهد النورمان ، وفى أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت فى رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامة . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكرى يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التى قد تنقض عليهم فى أى وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدير الحصين ،

ولم يترددوا فى تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخليق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهاهم أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطلبون إليه فى نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون فى هذه الأحوال أن يقطع « رجُلَه » مساحة من الأرض يحتفظ بها بعقد يستطيع واهبها أن يلغيه فى أى وقت يشاء ، وقد أضحى هذا التملك المزعزع الصورة المألوفة لامتلاك رقيق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عدا فى مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه فى إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث فى فرنسا . ولعله بدأ فى بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدى الفاتحين الأنجليسكسون[٣] ، ولكن معظم خواصه فى تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمدية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل فى شمالى إيطاليا أو فى أسپانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك فى الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدا فى الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوربا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية فى بلاد البلقان ، وشرق إيطاليا ، وأسپانيا ؛ وزراع الكروم فى غربى ألمانيا ، وجنوبى فرنسا ؛ والزراع الأشداء فى السويد والنرويج ؛ وطلائع التيوتون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكربات ،

والألب ، والأبنين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة كأوربا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف فى طبيعة أرضها وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتّى فى داخل نظام الإقطاع نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملاك ، والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

الفصل الثانى

التنظيم الإقطاعى

١ — العبيد

كان المجتمع فى تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورقيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشىء على الإطلاق ، لأى سيد إقطاعى ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدى . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة فى المائة من الزراع بإنجلترا فى القرن الحادى عشر ، وكانوا أكثر من هذا عدداً فى غربى ألمانيا ، وشمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع فى أوربا الغربية(٤) .

ونقص عدد العبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد فى ألمانيا فى القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتحرجون أو يؤنبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة فى الضياع الألمانية ، أو ليبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين أو اليونان من الأراضى الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسية الغربية ، وإفريقية الشمالية ، ليبيعوهم للعمل فى الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خصياناً ، أو سرارى ، أو عاهرات فى بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد فى إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أنّ منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان فى وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد خيل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذى ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدى لا غنى عنه . ولسنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعتق اثنين من عبيده ، ونطق فى هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعى فى الحرية[٦] ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد فى الضياع البابوية[٧] ، ويوافق على القوانين التى تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر[٨] . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحى . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً فى أراضى الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر[٩] ، وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضى الكنيسة فى بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمنى سواء بسواء ؛ وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ، وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يؤول إلى الكنيسة[١٠] ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة فى عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بزيير Béziers[١١] : وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية فى عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم[١٢] . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة فى الكنيسة والتى تنص على أن أملاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة فى السوق[١٣] ، كانت هذه القاعدة شراً على

عبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء فى بعض الأحيان أصعب فى أملاك الكنيسة منه فى أملاك غيرها[١٤] . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة فى تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين فى الوقت الذى كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذى يؤدى إليه القسر الجسمانى المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذى يكون الحافز عليه هو الرغبة فى التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة Servus اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة serf لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة villein ومعناها رقيق الأرض فأصبحت villain ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة Slav ومعناها صقلبى إلى كلمة Slave أى العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذى يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

٢ – رقيق الأرض

الأصل فى رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يؤجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدى له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان فى وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء[١٥] ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك فى فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالى ٤٠٠ ؟ ريال أمريكى) ، وكان مالكه أحياناً يبيعه (أى أن يبيع عمله) مجزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ، وكان فى وسع هذا الرقيق فى فرنسا أن يحل العقد الإقطاعى إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ، أما فى إنجلترا فقد حرم من هذا الحق — حق مغادرة الأرض — وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض فى العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التى يعاد بها القبض على العبيد فى هذه الأيام.

وكانت الواجبات الإقطاعية التى يؤديها رقيق الأرض لمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك فى أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء. (١) كان يؤدى فى العام ثلاث ضرائب نقدية . (ا) فرضة (ضريبة الرؤوس) وهى ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المـالك (ب) وإيجاراً قليلا (جـ) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدى إليه مرة أو أكثر من مرة فى العام (٢) وكان يؤدى للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيته ، تبلغ عادة عشرها . (٣) وكان عليه أن يعمل عند للمالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤدون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع فى معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع فى موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤدون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور فى كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه فى مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدى له فى نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلا (٥) وكان يؤدى أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البرى ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف فى أراضى المالك (٦) وكان عليه أن يرفع قضاياه أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدى فى نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية (٧) وكان عليه أن يلبى دعوة المالك فى الانضمام

إلى فيلقه إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشترك في أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك في تقديم الهدايا القيمة المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدى للمالك ضريبة عن كل ما يحمله من الغلات ليبيعه في السوق أو المعرض (١١) ولم يكن من حقه أن يبيع جعته أوخمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع فيهما هو جعته وخمره (١٢) وكان عليه في كثير من الأحيان أن يبتاع قدراً معيناً من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها في الوقت المناسب (كما تقول إحدى مواد قانون الضيعة) « صب المالك قدراً من الخمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدى ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما »[١٦] . (١٣) وكان عليه أن يؤدى غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليما عالياً أووهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدى ضريبة ، ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلهم ، وكان لا بد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة في بعض المزارع في كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع في حالات فردية عن « حق الليلة الأولى » أي حق السيد في أن يقضي مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى » عروسه بأجر يؤديه للسيد[١٨] ؛ وقد بقي حق الليلة الأولى بصورته هذه في بافاريا حتى القرن الثامن عشر[١٩] . وكان المالك في بعض الضياع الإنجليزية يفرض غرامة على الفلاح الذى تأثم ابنته ؛ وفي بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة الفلاح التي يحكم عليها في جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب الأرض[٢٠] (١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة في أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبقى الأرض إلا إذا تزوجت رجلا يقيم فى الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى فى صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية في بعض الحالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه[٢١]. ولم تكن رسوم الوفاة تحصل فى فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه فى بيته . (١٧) وكان عليه فى بعض الضياع وبخاصة فى ضياع الكنيسة أن يؤدى ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذى ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس فى وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهى رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت فى ألمانيا فى خلال العصور الوسطى بثلثى محصولاته[٢١] ؛ وكانت قوة العادة ، التى هى ذات السلطان الأكبر فى الأنظمة الزراعية ، فى صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التى يؤديها نقداً وعيناً تنزع إلى الثبات كما هى على مر القرون[٢٢] رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التى تثقل كاهل الرقيق فى العصور الوسطى يخففها أو يلغيها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان[٢٣] . ولعل ما يوصف به رقيق الأرض فى العصور الوسطى من بؤس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التى تنتزع منه بديلا من الإيجار النقدى الواجب أداؤه للمالك ؛ وضرائب تؤدى للمجتمع لتمكنه من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التى نؤديها نحن فى هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة[٢٤]،(*) . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط فى القرن الثامن عشر مماثلة

(*) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التي يزرعونها في الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان في عهد أغسطس[٢٥] . ذلك أن المالك في ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلا ، بل كان يعمل بجد في المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب في كثير من الأحيان ؛ وكانوا إذا ترمل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة[٢٦] . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية في التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس .

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب الهش الرقيق ، ويسقف عادة بالقش والعشب المتلبد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ؛ ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت في أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ في كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتنور ، ووعاء للعجين ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنيـــة ، ومجمرة ، ومرجل ، وحبالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسوطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطارق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدفئ بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض في الجحيم لأنه لا يطيق رائحتهم[٢٧] . وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والأبقار ، وقد يكون فيه أحياناً خلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات .

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .

وكان الفلاح يرتدى قيصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وسترة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفاً أو عالياً ، وما من شك فى أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا فى هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره فى صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ؛ وإذ كان لهؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية فى المزرعة فقد كانت تكثر منهن ؛ لكننا مع هذا نقرأ فى أقوال بلاجيوس الفرنسيسى (حوالى ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا »[٢٨] .

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً — يتألف من منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتظرفين يرثون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود — أى المصنوع من الدقيق غير المنخول[٢٩] . وكان يشترك فى حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متع ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن فى وجود رقيق الأرض التى يعرفها إساءة إلى سيده الأمى . وكان يجهل كل شىء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرته أحوال أوربا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفى الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شرهاً ، ولخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدى إليها عشورها ، ويهمل فى مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتييه ده كوانسى Gautier de Coincy (فى القرن الثالث عشر) من أن رقيق الأرض « ليس فى قلبه من خشية الله أكثر مما فى قلب الشاة ولا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة »[٣٠] . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان فى حقله وفى بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضيع جهوده فى الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعى النزعة ، يدرك تصاريف الأقدار التى لاهوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جدب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعا . وقد حدث بين عامى ٩٧٠ و١١٠٠ ستون قحطاً حصدت الأهلين زرافات فى فرنسا ، ولم يكن فى وسع أى فلاح بريطانى أن ينسى ما حدث من القحط فى عامى ١٠٨٦ و١١٢٥ فى انجلترا المرحة الطروب ؛ وقد روع أسقف ترييه فى القرن الثانى عشر حين رأى الفلاحين يذبحون جواده ويأكلون لحمه[٣١] . ثم زاد الفيضان والوباء والزلزال الطين بلة وأحالت المسلاة آخر الأمر مأساة .

٣ - مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يتراوح عددهم بين خمسين وخمسمائة يتألفون من أرقاء الأرض، ونصف الأحرار، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعى فى الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن فى قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذى يعين الكثرة الغالبة من موظفيها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أورثيساً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعي . وكانوا يجتمعون في السوق في فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة في هذه الضيعة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفي ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابغ الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناءون ، وصانعو السروج ، والحذاؤون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون في القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته في إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعي قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة في فرنسا وإنجلترا في القرن الحادي عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانيها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجليزي أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع في كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين يقومون في الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلا لنصيب غيره من الأراضي غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية بدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية في هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدي ما عليه من الواجبات الإقطاعيـــة بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلأ الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكلأ المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفى من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة فى البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان فى عهد كولمبلا Columbella أو عند المسلمين فى بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق فى الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار(*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد فى ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون Rouen يلقى أقذار اسطبلاته فى نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها فى دفيل Deville ، وكان الفلاحون يشتركون فى جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان فى إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً إذا اتخذ طعاماً . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق فى عنق الحصان أمكنه أن يحرث فى اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذ كانت سرعة الحرث مهمة فى الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان فى القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب(٣٢) . ودخلت السواقى أوربا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك بزمن طويل فى بلاد الشرق الإسلامية(٣٣) .

(*) المارل ويسمى أيضاً بالشمن وهو نوع من الطين الخزفى غنى بكربونات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التي كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثماً من الآثام . وفي ذلك يقول الفلاحون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهي لذلك تأبى أن تعمل في ذلك اليوم »[٣٤] . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة في ذلك اليوم يغني ويرقص ، وينسى في ضحكه الريفي العالي أعباء الوعظ والمزرعة الثقال . وكانت الجعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حراً طليقاً بذيئاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التي تروى عن القديسين . وكانت ألعاب عنيفة ككرة القدم ، والهوكي ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيري الحدوث ، وكان تحمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصي الغليظة أن يقتلا إوزة أوخنزيرا داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاحون في بعض الليالي يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويحتسون الخمر ، وكانوا في العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا حل الشتاء بليله الطويل تأوي الماشية في الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاحون في أوربا يطعمون أنفسهم ، وسادتهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهم الصامتة ، لا بما تبعثه في نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقيمون الجسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويطهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوربا الحديثة لمن خلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لا نستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التى دامت عدة قرون ، والتى حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتى سخرت المواد الغفل التى تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات فى تلك الحرب العوان ، فقد كان خصبهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتا ما ، ولم يكونوا فى حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية فى القفار ، وأنشأوا من الفوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى فى البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوربا فى نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها فى بداية تلك العصور أرضين غير مزروعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبل نصر ، وأعظم عمل تم فى عصر الإيمان .

٤ — المالك

فى كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على الجهاد . وكان المسيطر على الرجال فى أوربا الإقطاعية هو السيد المالك — وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيه وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة فى تلك الأراضى ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه فى الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، والغارات ، والنهب ، والحروب — لم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام

إلا باستقلاله المحلي وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفلح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعي .

وكان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذي يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزي أرقاءه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقوله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التي تتطلب جهودهم العضلية قدراً قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة — بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة[٣٥] . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء في أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التي يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدي العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشتري به حاجاتها . وكان يأتي إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربيها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله في بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له في أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ، ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال — يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان فى مقدور كل رقيق يجد فى نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه فى محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون فى أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التى قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان فى وسع السيد الإقطاعى أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين فى هذه الحالة وكيلا له يشرف على أملاكه أى على ضياعه كلها ، وكان له فى كل منها ناظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها فى مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين فى كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعى يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الرومانى الريفى المحصن أو إلى حصن الزعيم الألمانى (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتى تلقى فى الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه عُمد مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلى يؤدى إلى باب حديدى كبير أو باب آخر شبكى قبله ، يحمى مدخلا ضخماً فى سور الحصن . وكان فى داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم فى وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو فى معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثانى عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلا دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذى قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجباً ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ؛ قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريع الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلاً عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم ينامون فى هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطلى بالجير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ، وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ، وكان الدخان يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة » يستطيع السيد وأسرته وضيفه أن يستريحوا فيها ويستمتعوا بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه فى الحجرات ، فقد كان فى هذه المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطى الكتفين وغير مشدودة يستطاع رفعها فوق الرأس ، وسروالا تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ، وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقته جراب وسيف ، وتتدلى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوى الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر فى الحرب الصليبية الأولى[٣٦] ، أخذوا عن المسلمين عادة[٣٧] تمييز أرديتهم ، وحللهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية[*] . ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ فى مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ليتبين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

(*) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود ، والبنفسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبى ، والفضى ، والسماوى ، والوردى ، والنباتى ، والرملى ، والأرجوانى . وكان الأزرق السماوى لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسمائه « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون يزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة بن الفرو — تصبغ عادة باللون الأحمر — (واللفظ الإنجليزى الذى يسمى به هذا اللون وهو gules مشتق من لفظ جولا اللاتينى ومعناه حلق) . وكانت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه الرموز فى القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة فى الكنيسة ، ثم « يتغدى » فى الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه فى بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابرى السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته فى الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه فى الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير فى بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلة إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملا . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربيهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ المخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والجبن ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل فى تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الحياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التى تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هى بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمده بحاجاته المالية فى أثناء حروبه ؛ فإذا وقع فى الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد تؤول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هى سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تتزوج مرة أخرى بعد زمن قليل لكى يؤدى للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحماية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان فى مقدورها أن تصبح فى داخل قصرها مسترجلة أو صخابة ، وتبادل زوجها لطمة بلطمة : وكانت فى ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحتذى حذاءين

لطيفين ، وتغطى رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلى المتلألئة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب فى قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليما يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن فى كثير من الحالات يبذل أى مجهود فى سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يحتقرون المعارف العقلية ، فقد تعلم جسكلين Guesclin مثلا ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجو بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ الأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا فى إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً فى بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ، فكن يحللن دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأتين له بالثياب التحتية والفوقية ، والعطور ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطَعين أو الأتباع . فأما المُقْطَع فكان رجلا ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة — وهى فى العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفى هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذى يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدى مراسم « الولاء » لشريف إقطاعى : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه فى يدى الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلا حراً) ، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملزماً بحماية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ، وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين فى العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى ابنته أو زوجته[٣٩] ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقى القفاز » علامة على التحدى ، أى أنه أصبح خارجاً عن الولاء له — ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطَع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطَع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هى نفس العلاقة والتبعات التى بين المقطع الأصيل والسيد . وكان فى وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط » وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل » وخدمة كاملة فى السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكا أو إقطاعية ، وقد يكون مقطعاً — أى مالكا لإقطاعية — من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

(*) وهى بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة feudum اللاتينية ، وهذه مأخوذة من كلمة faihu الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهى ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مثلها معنى ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى فى هذه الصلات المعقدة هى الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هى الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصى ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الوجهة النظرية نظاماً عظيما تتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

٥ — الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة فى بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؛ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التى تجبى من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوى وتلك الأموال فى حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية . وتراكمت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى ، وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوربا ؛ فقد كان دير فلدا مثلا يمتلك ١٥٫٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان ديرسانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض[٤٠] ؛ وكان ألكوين فى تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض[٤١]. وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعى . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحراب من المناظر المألوفة

فى ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنوول فى عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه لخلو إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية »[٤٣]. وهكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى ، فألفت نفسها منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحربية لا منظمة دينية وكفى . وكانت أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة فى القرن الثانى عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمنى الإقطاعى يتطلب لكى يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع السادة الزمنيين ، أى أنه كان فى حاجة إلى ملك . وكان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهى ، بمعنى أن الله أجاز له أن يحكم ، ومن ثم فوضه فى أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالا من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم الموروث بقوة الخُلق أو السلاح ؛ ولكن ملوك أوربا الإقطاعية لم يكونوا عادة حكاما لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقيال التابعين لهم ؛ فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً فى أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛ أما فى غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقلما كان يدين بهذا الولاء للملك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتيت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجمات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجمات هؤلاء الأقوام عنفاً . ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ، لايعلو عمن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلا ، ولكنه كان من الناحية العملية شبيهاً « بأشراف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلم على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتمار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هؤلاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه القضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضى الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا مالكاً من كبار الملاك ، ولم يكن حتما أكبرهم ، ولم تكن أملاكه فى يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً فى نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التى يتطلبها النظام الاقتصادى التجارى ، كان هذا العجز سبباً فى إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تحمس الأشراف فى المنازعات الحربية فى أوربا الإقطاعية يلقى بهم فى غمار الحروب الخاصة والعامة حتى امتصت دماءهم-الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التى اختتمت بها هذه الحروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق ينهبون ويقتلون كما يشاءون ؛ وتطلبت المساوئ التى نشأت من الإفراط فى الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام فى جميع أنحاء المملكة ؛ وأوجدت التجارة والصناعة فى خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ؛ ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة فى النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ؛ وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يجدون أن اتصالهم بالملك أيسر من اتصالهم بالأشراف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تؤيدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ؛ وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلا من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما فى القانون الرومانى الذى عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك فى أن يبسط سلطانه القضائى على كل من فى مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون يمين الولاء لمليكهم لا لسيدهم الإقطاعى . وبهذا كان لفليب الجميل فى آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشراف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشراف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات فى بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص فى سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يؤلفون حاشية الملك Curia regia ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها فى مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفى غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليخدموا الملكة بأن يكونوا خدما خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هي حفلة تتويج ملك فرنسا في ريمس أو إمبراطور ألمانيا فى آخن أو فرانكفورت ، فنى هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون فى أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما فى شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا عد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذى أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

الفصل الثالث

شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع فى الغالب شيئاً واحداً فى نظام الحكم الإقطاعى حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدنى عادة أميين . فإذا ما ثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة فى هذه المشكلة أيام شبابهم ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسى للقوانين . نعم إنه كان فى مقـــدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جهرة أوصمتاً(٤٣) . وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلا منه فى الجنوب ، فقد احتفظت فى الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً فى القرن الثالث عشر ، أضحى تغييرها ، الذى كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعى قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعى بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف. و(٣) الإيجار – وهو الذى تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذى يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمى الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعى للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث فى أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها[٤٤] . وكانت العادة المألوفة أن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التى لم تكن معروفة فى القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موائمة لظروف النظام الإقطاعى ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادى فى يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلا . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى فى أراضى غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعى ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وقسوة فى عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التى تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أمعاؤه ، وتلف حول القطع الذى أحدثه » ؛ وكان فى وستفاليا قانون ظل معمولا به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن فى الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بخير وسيلة يستطيعها »[٤٦] .

وكانت الإجراءات القضائية فى القانون الإقطاعى تتبع فى الأغلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثأر الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، « ومدن الالتجاء » تمنح حق الأماكن الحرم ، وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون فى الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التى تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التى تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا فى المنزلة عن الشاكى نفسه[٤٧] ، وأن يكونوا تابعين للإقطاعية نفسها ، وممن يجلسون معه فى بهو إقطاعى واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر فى قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يحبسان حتى يصدر الحكم فى قضيتهما . وكان المدعى الذى يخسر القضية المرفوعة أيا كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التى توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة فى جميع المحاكم[٤٨] .

وظل التحكيم الإلهى معمولا به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث فى عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمى على بعض الخارجين على الدين فى كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التى يشد إليها من يحرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة فى خلال القرن الثانى عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الرومانى ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهى » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع فى عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنرى الثالث هذا الإلغاء فى القانون الإنجليزى (١٢١٩) ، كما أدخله فردريك الثانى فى قانون نابلى (١٢٣١) ؛ أما فى ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولا بها حتى القرن الرابع عشر ؛ وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهى بالنار عام ١٤٩٨ فى فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود فى محاكمة الساحرات فى القرن السادس عشر[٤٩] .

وشجع نظام الإقطاع السنّة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنّة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلا من الثأر الفردى من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنة إلى بريطانيا بعد أن أهملت فى عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة فى سجل القانون الإنجليزى حتى القرن التاسع عشر[٥٠] . ومما يذكر فى هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاى Guy بالاشتراك فى اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good ملك فلاندرز ؛ فلما أنكر جاى التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده وخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة التهمة بانتزاع خصيتى جاى من جسمه ، ويموت جاى بتأثير هذا الانتزاع[٥١] . ولعل الإقطاعيين قد استحوا من هذه العادات الهمجية ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان فى غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرقيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سليماً ، أو ابن غير شرعى أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له فى مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن أن يختاروا « أبطالا » — أى مبارزين بارعين — ينوبون عنهم فى المبارزة . والذلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال مأجورين يحلون محل الذكور المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى فى الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثة بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون[٥٢] ، وكذلك لجأ ألفنسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الرومانى فى

مملكته[٥٣] وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسى يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون فى الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ؛ وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضى ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه فى العصور الوسطى أن يلقى قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعداده للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهى فى تاجه[٥٤] .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمته الطبقات الوسطى الناشئة فى التشريعات العامة ، واستبدلت به فى القرن الثالث عشر القانون الرومانى فى أوربا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثانى من أملاكه فى نابلى ؛ وألغاه لويس التاسع فى الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) فى جميع أنحاء فرنسا .. هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائى بقدر ما تستمده من حق الناس القديم فى أن يثأروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنبين ، ولكن السجن كان فى حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان فى حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع[٥٥] ؛ وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالخناك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرجم بالحجارة ؛ وكان كرسى الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسى يربط برافعة طويلة ثم يغرق بهم الكرسى فى مجرى مائى أو بركة . وكان الأشداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل فى السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذى لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التجديف فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً — يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث فى الأيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى . وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من الوسائل التى لجأ إليها وليم الفاتح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يداه ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بقى شىء من جسمه كان ذلك الشىء الباقى دليلا على جميع جرائمه وجوره »[٥٦] . وقلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة[٥٧] . ويمكن عقاب الحيوان الذى يقتل آدميا بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت جنفييف St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لهن على السرقة[٥٨] : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون فى العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هى التى يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هى التى يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

الفصل الرابع

الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكريا لمجتمع زراعي غير مطمئن على نفسه ، وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدربوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا في كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعي وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ؛ فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان Knights أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأتباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms — الجيش المرابط في المقاطعات أو القرى — يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعي ، كما نراه في الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets يتبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريحون المعذبين ممن يسقطون في حومة الوغى ، والجرحى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة(٥٩) . ولكن الجيش الإقطاعي كان في جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هدريانوبل (٣٧٨) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا في القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Chevalier ، Cavalier مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب فى عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ، والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم « المبتهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوساً طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوساً متقاطعة يشد وترها فى محز بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زند فى إطلاقها ، وتنطلق منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ، أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) فى حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب العسكرى فى انجلترا كما كانت من أهم العناصر فى ألعاب الفروسية . وكان تطور القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعى من الناحية العسكرية ، ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التى لا تتفق وطبيعته . ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع فى القرن الرابع عشر بعد اختراع البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من مسافة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعى جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة فى القرن الثانى عشر يغطى جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبتيه — تستره شبكة ذات أكمام للذراعيه ، وقلنسوة من الحديد تغطى كل رأسه عدا عينيه ، وأنفه ، وفمه ؛ وكانت ساقاه وقدماه تغطى بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان فى الحرب غطى رأسه فضلا عن غطائه السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت فى

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحماية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقيتا حتى القرن السابع عشر ، ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق فى عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة فى سطحه الداخلى ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان فى وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس فى العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هى أهم وسائل الدفاع وأجداها فى الحروب الإقطاعية . فكان فى وسع الجيش الذى يهزم فى ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان فى وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار فى العصور الوسطى لأن ما يلزم لدك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمز والجندى الملغم ظل باقيا فى تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل فى عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين — تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاذيف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون فى العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممتزجة بالشمع — بيضاء أو قرمزية أو زرقاء فى لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يذهّبون جؤجؤها وأسيجتها ، ويقيمون فى مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجوانى ، وبعضها ذهبى ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه .

وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة فى كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً فى أن يعمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضى غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثانى عشر لم تكن فيه حرب فى جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية فى سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب فى « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » فى الفراش[٦٠] ، ولقد شكا برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة »[٦١] ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule (١١١٩) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يحاربون »[٦٢] ، وقد أسر أربعمائة فارس فى معركة تنشبريه Tinchebrai (١١٠٦) ، التى كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورمندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفى واقعة بوڤين Bouvine (١٢١٤) وهى من الوقائع الحاسمة التى كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والخمسمائة الذين اشتركوا فى القتال[٦٣] . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة فى الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسار

Froissart يحزنه أن قتل فى إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن يجنى من افتدائهم ٤٠٠,٠٠٠ فرنك[٦٤] » : وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ؛ وقلما كان فارس يحنث فى هذا الوعد[٦٥] . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء فى حروب الإقطاع . وكان كل جيش فى فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضى أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية فى داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرون محاريثهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعا لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية فى فترات بين الحروب ، ونجح فى هذه المحاولات الأدواق النورمنديون فى نورمندية ، وإنجلترا ، وصقلية ؛ وكونت فلاندرز فى بلاده ، وكونت برشلونة فى قطلونية ، ونجح هنرى الثالث مدى جيل من الزمان فى ألمانيا ، وفيما عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل فى تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية فى فرنسا بين عامى ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأنذرت كل من يستخدم العنف فى الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام فى عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها فى تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر Fulbert of Chartres (٩٦٠ ؟ — ١٠٢٨) يحمد الله فى ترنيمة ذائعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضى خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحي قد وافقوا على برنامج السلام[٦٦] ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها في هذا كانت تذكر تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفي موسم الحصاد وقطاف الكروم (من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر) ؛ وفي أعياد محددة ؛ وفي جزء من كل أسبوع — كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة في صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً في السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، فقضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكري في الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله في القرن الثاني عشر جزءاً من القانون المدني والقانون الكنسي في أوربا الغربية ، وحرم مجلس لاتران الثاني (١١٣٩) استخدام العدد الحربية ضد الناس[٦٧] ، واقترح جرهوه الريخرزبرجي Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوي[٦٨] . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذي قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم في القرن الثالث عشر ، وهم يحركون البيادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة .

الفصل الخامس

الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعليم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد — أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضا . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » (أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ، فالأبناء غير الابن الأكبر — عدا أبناء الملوك — لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارسا يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفا عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المناقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهيبة يبدؤها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان

القتال جزاء عاجلا لهم على بسالتهم . وكان يرتدى فى هذا الاحتفال قميصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذى قد يسفكه فى سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذى يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملا ثم يقضى ليلة يصلى فى الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الربانى ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد فى خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذى يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأى غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك فى نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية فى الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفى ذراعيه ، وقفازين من زرد فى يديه ، ومهمازين فى حذاءيه(*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لطمة أخرى على خده ، وهى كلها رموز لآخر الإهانات التى يستطيع أن يتلقاها دون أن يثأر لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقديس ميخائيل ، والقديس جورج أجعلك

(*) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذ قيل عن إنسان إنه « كسب مهمازيه » (الذهبيين) كان معنى هذا أنه بلغ رتبة الفروسية .

فارساً » . ثم يتسلم الفارس الجديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حقوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته فى البرجاس الذى يتدرب فيه أكثر من ذى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس فى القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر فى فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة مليك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات ليحلوه هو وجواده بالحلل الجميلة ، والمرابون لافتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتفالا بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حد لها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوما واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، وخصص يوما الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوقة فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغمات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوقة الواقفين فى الميدان ، فكان هؤلاء يتلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحى ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان فى حللهم وعددهم الفاخرة متباهين فى خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها فى بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللائى سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ، ولفاعة أو قناعا ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعته السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجواديهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ، أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى فى وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختتم باقتتال حتى يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالا حقيقياً ،

وإن كان يدور فى العادة بأسلحة مثلمة ؛ وقد أدى قتال من هذا النوع دار فى نيوسن Neuss (١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً : وفى أمثال هذه المباريات كان يؤسر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث فى الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه ؛ وقد ورد فى مجموعة الأقاصيص الفرنسية التى كتبت فى فرنسا بين منتصف القرن الثانى عشر وآخر القرن الثالث عشر(*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمه من الوسيلة الوحيدة التى يكسب بها عيشه(٦٩) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة فى حفل ليلى تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغانى التى تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلا ، وسميذعاً(**) ، وقديساً ، وإذ كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت نظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية . فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً فى القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمى الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم فى ولايته ، ويقاتل الكفرة . وكان مديناً لسيده الإقطاعى بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ، ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهن ، وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يبادلهم المجاملة وضروب المساعدة . وقد

(*) هى المعروفة باسم Fabliax ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها تهكمى . (المترجم)

(**) ورد فى القاموس المحيط للفيروزبادى : السميذع : السيد ، الكريم ، الشريف ، السخى ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد وردت فى بعض أشعار المتنبى . (المترجم)

يحدث فى إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسروا فى كريسى Crécy وپواتييه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان فى ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفيهم فى الولائم والألعاب ، وظلوا كذلك حتى افتدوا[٧٠] . ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطى ومطالب النبل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة — فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعى ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد فى خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذى كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوربا التى توالت عليها الهجمات من كل ناحية فى مسيس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به فى حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التى ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذاك ، فهذا البطل الذى قاتل يوماً ما ببسالة فى ألعاب البرجاس أو فى ميدان القتال قد يكون فى يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التى فى خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلا فى الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدق بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوى الذى يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملؤها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

فى كثير من الأحيان وبوحشية فى بعضها[٧١] . وقد يستمع إلى الصلاة فى الصباح ، ويسطو على كنيسة فى آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه فى المساء . وهذا ما وصف به جلداس Gildas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم فى القرن السادس ، وهو القرن الذى يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة المستديرة » كانوا يعيشون فى خلاله[٧٢] . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينا كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا ينقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البريئين[٧٣] . ولقد دهش المسلمون من فظاظة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة[٧٤] . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن ننتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر ، والمجر من إيطاليا وألمانيا ، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على شفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعنى بهما النساء والمسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حدما فى تحويل تيار الخصام فى الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون فى هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخففت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللائى يعشن على ظهر الأرض ، واللائى لهن تأثير كبير فى الحواس وفى الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء فى تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرها ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلا أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلا كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجمل أغانيهم إلى السيدات اللاتى لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين المحب وحبيبه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الجياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشببون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت فو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير ڤيدال Peire Vidal بعد أن تغزل ثم بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها(٧٥) — وإن كانت هــذه درجة من المجاملة لا يضح للشعراء عادة أن يجرؤوا عليها . وكان الشاعر المحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبقيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتى التّقى نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر[٧٦] . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتى يعرضن عليهم حبهن العذرى[٧٧] . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التى كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى[*] Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التى كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التى أعطته لونها[**] ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبها . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو « الجزاء » الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال حربية مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التى لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتى كن من الوجهة

(*) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحى منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . (المترجم)

(**) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . (المترجم)

النظرية مقيدات فى حبهن بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن فى الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاق . وأخذت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ، ونودى بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلا عليا لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى فى الوقت الذى كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل فى تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها فى أيام أوفد بكل ما يتصف به الأخلاقيون من تدقيق وإتقان . وحدث فى وقت ما بين عامى ١١٧٤ و١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو — رسالة فى الحب ودوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذرى ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياء إنه هو هيام فارس هياماً محرما بزوجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هى الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التى يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التى كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الخاصة بالحب العذرى . وكانت زعيمة السيدات فى هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هى الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هى أمها . وأكثر النساء فتنة فى المجتمع الإقطاعى هى إليانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التى كانت فى وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هى وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب فى مدينة بواتييه فى بعض القضايا[٧٩] وكان أندرو يعرف مارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصا بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها فى الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشراف بواتييه الغلاظ قد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التى كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية — كونتة نربونة Narbonne وكونتة فلاندرز وغيرهما — فى پيير فو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا[٨٠] . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل فى القضايا التى تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضة رجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول أندرو) فى السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى فى سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقى بين الأشخاص المتزوجين؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها فى ذلك أن « المحبين يعطون كل شىء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغمهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجه »[٨١] . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها (١) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . (٣) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين فى وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص (٥) المنة التى يسديها صاحبها مرغما منة تافهة (١١) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتى لا يحببن إلا بقصد الزواج . . . (١٤) إن السهولة المفرطة فى نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التى تعترض الحب فإنها ... ترفع من قدره ... (١٩) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود ...(٢١) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . (٢٣) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا (٢٦) المحب لا يضن بشىء على حبيبه[٨٢] .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفى ذلك يقول ﭭلانى Villani شاعر فلورنس (١٢٨٠ ؟ — ١٣٤٨) « تكون فى فلورنس فى شهر يونية من عام ١٢٨٣ فى عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم غرام الحب . وقد نظمت هـــذه الجماعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، ويقيمون الولائم فى منتصف النهار وفى الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها فى تسكانيا »[٨٣] .

نشأت الفروسية فى القرن العاشر ، وبلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التى بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز فى حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها فى وسط الأحقاد التى أثارتها الحروب الدينية فى القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة فى أوربا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحى الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية . وازداد عـــدد طبقات الفروسية — ربطة الساق ، والحمام ، والجزة الذهبية — وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة فى بريطانيا ، وفرنسا ، وألمـــانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Eton ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين مثل الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » فى جهودها الموفقة فى تاريخ التربية لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، فى حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى ؛ وليست المجاملات والرقة فى الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربى من أغنية رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع الفروسية ؛ وكان الكشف الثانى لنظام الفروسية من العناصر الفعالة فى الحركة الأدبية الإبداعية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن فى آداب الفروسية الخلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .

وهكذا نرى أن الصورة التى رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون صورة للاسترقاق فى الأرض ، وللأمية ، وللاستغلال ، والعنف ؛ بل كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء فى لغتهم ، وحبهم ، وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون إلى خدمتهم ، يجدون فى طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم فى طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساء صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء فى قرى الفلاحين ؛ وسيدات من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء بالحرية الجريئــة فى التغنى بالشعر الشهوانى والحب العذرى — ولعل الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية فى رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسى والاقتصادى إلى أوربا

بعد أن توالت عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام . ولقد أفلحت فى غرضها هذا ، ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وتراثها مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ وازدراء . ذلك أنه لم يعد فى وســعه أن يشهر بما كان فيها من جهل وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من هذا أن يعجب كيف استطاعت أوربا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى كالها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والمجر ، والشماليون ، واحتفظت فى وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب والأساليب الفنية القديمة . ولا يسعه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفرد ، وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛ كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولمبا ، وألكوين ، وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنُّوا فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة والكنيسة أن تبدءا عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أختها التى شادت شارتر ، وأمين ، وريمس فى الزمن الحديث ، أو هدأت حمى دانتى الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

المراجـــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XV

1. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 266; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, iii; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-18, in Baron, I. 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, Gershom *Jewish Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Raman Life and Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b.
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judiasm in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Menachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
22. Chagiga, 3b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuoth, 65a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xlviii, 8.
37. Babo Metzia, 58b.
38. Berochoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabbob, 34. in Newman, 108.

41. Bereshit Rabbah, 44,1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A.,*Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 20b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a,
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b,
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257,
50. Pesachim, 113a,
51. Shebuoth, 152,
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21,
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a ; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b; Baron, I,277-8.
68. Berachoth, 10a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 29.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 77.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, i, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation form the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 336.
75. Baba Bathra, 9a,
76. Ketuboth, 50a, 67,
77. Taanith, 22.
78. Ibid., 20b.
79. Graetz., II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota, 44a
86. Taanith, iv, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xiv, 1 ; 64b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179,
96. Ketuboth, 77a ; Neuman, A.{A., *The Jews in Spain*, Philadelphio, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Beader,III, 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49b.
102. Yoma. 83b.
103. Mikvaoth, 9b, in Cohen,A., 17
104. Hai Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.
Ketubcth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rahbah, xvii, 7·
111· Harris, M: H· *Hebraic Literature* 340·
112. Pirke Aboth, iv, 1.
113. Ibid., iv, 3.
114. Ibid., i, 17.
115. Ibid., iii, 17.
116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 897.
117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
118. Renan, E., *Origins of Christianity : The Christian Chruch*, 131 ; Baron, I, 305-6.

CHAPTER XVI

1. Graetz, III, 308.
2. Abrahams, Israel *Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
3. Benjaman of Tudela, *Travels*, in Komroff, M., ed., *Contemporaries of Marco Polo*, 290.
4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589 : cf. Oesterley and Box, 209.
5. Graez, III, 188.
6. Ibid., 148.
7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 66.
8. Baron' I, 859.
9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 85. 42f.
10. Malter, H., *Saadia Gaon*, 279, 291
11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
12. Baron, I, 318.
13. Friedländer, III, 181.
14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the MerovenglanAge*, 246
15. Groetz, III, 143, 161, 241, 889.
16. Benj. of Tudela, in Komroff, 260.
17. Ibid., 257.
18. Ameer Ali, Sayed, *The Spirit of Islam*, 260.
19. Druck, 26.
20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 697f.
21. Abbott, G. F., 71.
22· Abrbhams, *Jewish Life*, 866.
23. Dozy, 721.
24. Graetz, III, 617.
25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I, 5,
26. Ibid., 164.
27. Ibid., II, 184.
28. Ibid., II, 221 ; Graetz. III, 281.
29. Neuman, II, 221.
30. Graetz, III, 360f.
31. Baron II, 37 ; Graetz, III, 506.
32. Neuman, II, 149.
33. Ibid.. 247.
34. Abrahams, *Jewish Life*, 67.
35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
36. Baba Kama, 113a.
37. Pirke Aboth, iii, 2.
38. Baron, II, 17.
39. Ibid., 26.
40. Ibid.
41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24
42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, 1, 466.
43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
47. Graetz, III, 229.
48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
49. Pirenne, H., *Medieval Cities*, 258.
50. Baron, II, 6f.
51. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
[illegible]. Deut. xxiii, 20.
53. Baba Metzia, v, 1-2, 11.
54. Abrahams, *Jewish Life*, 110

55. Baron. II. 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manners Customs and Dress during the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*. 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Cambridge Medieval History*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Hasik, 508.
69. Abbott, 126; Graetz, III, 583.
70. Abbott, 158; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., *Beginnings of Chlristianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Baron, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 319, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 357.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 331.
83. Baba Kama, 118b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid, 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddusigin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
94. Burton, *The Jew*, 43.
95. White, F. M., *Woman in World History*, 175.
96. Abrahams, 165.
97. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
98. White, 189.
99. Neuman, II, 229.
100. White, 185.
101. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 313.
102. Abrahams, 89.
103. Neuman, II, 153.
104. Baron, I, 988; II, 97.
105. Abrahams, 126.
106. Brittain, 12.
107 Moore, I, 316.
108. Maimonder, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Moses, Hayamson, 63a.
109. In Waxman, M., *History of Jewish Leterature*, I, 214.
110. Jewish Encyclopedia, IX, 122.
111. *Oxford Histor of Music* introd. volume, 60.
112. Jewish Encyclopedia, III, 453.
112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44
113. Baron, II, 88.
114. Lacroix, *Manners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Deut. vii, 3; Nehemiah xiii, 25.
118. Klausner, J., *From Jesus to Paul*, 515.
119. Baron, II, 56.
120. Gittin. 61.
121. Abrahams, 418-4.
122. Ibid., 418.
123. Ibid., 424; Baron, II, 40.
124. Baron, II, 36.
125. Abbott, 93.
126. Coulton, *Panorama*, 352.
127. Ibid.
128. Graetz, IV, 33.
129. Gregory I, Epistle ii, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 156.
130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155
131. Belloc, H., *Paris*, 170.
132. Graetz, III, 421.
133. Coulton, *Panorama*, 352.
134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.
135. Lea, H.C., *History of the Inquisition in the Middle Ages*, II, 63.
136. Graetz, III, 563.
137. Ibid., 583.
138. Marcus, 151.
139. Baron, II, 85.
140. Abbott, 51; Jewish Encyclopedia III, 453.
141. *Camb. Med. H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.
142. Graetz, III, 299.
143. Ibid., 300.
144. Ibid., 301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.
145. Greatz III, 350; Abbot, 88.
146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.
147. Graetz, III, 356.
148. *Cambridge Medieval Hirtory*, VII, 648.
149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.
150. Abbott, 144.
151. Coulton, Panorama, 359.
152. Cuninggham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.
153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
154. Lacroix, *Manners*, 447.
155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.
156. Abbott, 131.
157. Ibid., 68.
158. Lacroix, *Manners*, 447.
159. Abbot. 68.
160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.
161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.
162. Marcus, 24.
163. Graetz, III, 570.
164. Villehardonin, G. de, *Chronicles of the Crusades*, 148.
165. Abbott. 118.
166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the History of Socience*, II (i), 295.
3. Abrhams, I., *Chap ers on Jewish Literature*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S.ibn, *Selected Religious Poems*, tr. Israel Zangwill, 62.
7. Ibd., 80.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E, ed. *Hebrew Leterature*, 283.
11. Sarton, II, (I), 188.
12. Halevi, J., *Selected Poems*, tr. Nina Salaman, 58.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid., 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*, 365-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, 105.

18. Graetz, III, 673.
19. Sarton, II (II), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Graetz, III, 604.
22. Sarton, II, (I), 145.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (I), 145.
25. Cf. Komroff M. *The Contemporaries of Marco Polo*.
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 158.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, I, 3, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazari*, tr. H. Hirschfeld, I, 116.
32. Ibid., III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11; Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeilin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trah*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneh Torah*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perplexed* tr. M., Friedländer, II, xii.
51. Ibid., III, 36, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii, xli; Deut. xxiii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishneh Torah*, 40b.
54. Ibid., 59a.
55. Ibid, 54a.
56. Ibid., 53a.
57. Ibid., 58ab.
58. Ibid., 52b.,
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zetlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. Ibid., II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
46. Ibid., xxxvi-xlxi.
65. III, xxii.
66. II, xviii.
67. II, xxx.
98. III, x, xii.
69. III, lxx.
70. Zeitlin, 151.
71. Ibid., 103; Baron, *Essays*, 148.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essys*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
79. Roth, L., *Spinoza Descares, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7

77. Husik, 302 ; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 681-
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118 ; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 457, 479.
82. Sarton, II, (1), 366.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish, Life*, 143, 157, 198.
87. In Marcus, 314.

CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 289.
4. Ibid., IV, 6 ; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Moneul*, 335.
6. *Cambridge Medieval History*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 169 ; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Empresses of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 108; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 56.
12. *Cambridge Medieval Hitory*, IV, 750.
13. Diehl, *Portraits*, 286.
14. *Cambridge Medieval History*, IV. 745.
15. Komroff, *Contemporaries of Xarco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medival History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 158 ; Gibbon V, 458; Brittain, *Women of, Early Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol' XX, No.1, pp. 17-18: Boissonnade, 46-7; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 50.
22. Ibid., 51.
23. Castiglione, 264.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 436; Grunebaum, *medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manuel*, 405.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Manuel*, 580.
31. Diehl, 590.
32. Ibid., 881.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson.J.W., *FeudalGermany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46; Thompson, *Feudal Germany*, 466.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of*
2. *the Longobards*, 1, 9.
3. Munro and Sellery, 538.
4. Dante, *Elleven Letters*, 185.
5. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, I, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I', 65.
11. Lanciane, R., *Ancient Rome*, 57.
12. Ibid., 275.
13. Castiglone, 801.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *FiveCentruies of Religion*, I, 174.
16. Hume, M., *The Spanish People*, 129; *Spain*, 191; Encyclopedia Britannica, V., 699.
17. In Guizot, *History, of France*, I, 171.
18. Ibid., 168.
19. Pirenne, *Cities*, 248; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E.A., *HistoricalEssays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f; Guizot, *Bisory, of Civilization*, II, 193-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117, Barnes, H.E., *History, of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstition and Force*, 469,
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, //3, in Guizot *Civilization*, II. 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 156.
28. Ibid., 58; *Cambridge Medeival History*, II, 657.
29. *Cambridge*, *Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, i, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61,
32. Hodkin, T., *Charlemagne* 812.
33. West, A F., *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. Ibid., 62.
36. Ibid., 64.
37. Capitulay of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 83.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318,
40. Eginhard, 56-8.
41. Raby, F. J. *History of Secular Latin Poetry in the MiddleAges*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. Ibid., 48; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R., *Medieval Art*, 207.
46. Ibid., 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J.S. *De divisione naturae*, I, 69.
50. In Guizot, *Civilization*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. Ibid., // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 388.
59. William of Malmesbury, II, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. Ibid., 311.
62. Ibid., 329.
63. Ibid., 336.

CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 51.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory I's *Cura patoralis,* in Ogg, *Source Book of Medieval History,* 191.
4. Voltaire, *Works,* XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in Medieval Europe,* 88.
6. Green, R., *Conquest of England* 185, 329, 859-60.
7. Stubbs, W., *Constitutional History of England,* I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England,* I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coulton, G.G., *Social Life in Britain* 20 : Green, J. R., *Making of England,* 192.
11. Traill, H. D., *Socal England,* I, 204.
12. Hume. D., *History of England* I, 188.
13. Briffault R., *The Mothers,* II,419.
14. William of Malmesbury, i, 4.
15. ibid , i, 2.
16. Ibid., ii, 5.
17. Bede, v, 24.
18. Ibid., i, 15.
19. Ibid., Introd., xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo - Saxon Poetry,* 81-2.
21. In Ker, W.P., *Epic and Romace,* 68.
22. *Beowulf,* xxxvii and xliii, in Gordon, *Anglo-Saxon Poetry,* 60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of Alfred the Great,* 14.
25. In Addison, J., *Arst and Crafts in the Midlle Ages,* 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison, 199.
27. Bede, iv, 18.
28. Freeman, E.A., *Norman Conquest* II, 298.
29. William of Malmesbury, iii,238; Ordericus Vitalis, *Historia Ecclesiastica,* 492A ; Freeman, *Norman Conquest,* II, 244.
30. Guizot, *France,* I,345; Freeman, *Norman Conquest,* III, 320.
31. *Mabinogion,* 14.
32. Hyde, *Litary History of Ireland* 238.
33. Joyce. *Short History of Ireland,* 39-46,
34. Thompson, J. W., *Economic History,* 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. Ibid , 168.
38. Ibid., 155, 158.
39. Hyde, 222.
40. Ibid., 239.
41. Ibid., 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to Greek and Latin Palaeography,* 374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W , *Literature of the Scandinavian North,* 13, Cambridg *Medieval History,* II, 481
46. Surluson, S., *Heimskringla*
47. Ibid., Haakon the Good, ch. 23.
48. Ibid., Olaf Tryggveson, ch. 7.
49. Ibid., ch. 99.
50. Ibid., ch. 87.
51. Ibid., St. Olaf, ch. 56, 181.
52. Ibid., ch. 74.

53. Ibid., Appendix to Olaf Tryggveson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
54. *Beowulf*. xxxv.
55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Chaillu, II, 370-379.
56. Saxo Grammaticus, *Danish History*, *I*, 23.
57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
58. DuDhaillu, II, I.
59. Haskins, *Normans in European History*, 36.
60. DuChaillu, I, 486.
61. Saxo, 25.
62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 327.
63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
64. Sigfusson, Saemud, *The Elder Edda*, 22-56.
65. Ibid., 23.
66. 59.
67. 66.
68. 14.
69. 84.
70. 102.
71. 81.
72. 65.
73. 73.
74. 121.
75. 68.
76. 55-6.
77. 86.
78. 68.
79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's saga, ch. 9.
2. Sturluson, Yaglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 154; Saxo, 44.
83. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility
84. *Cambridge Medieval History*, 270.
85. West, *Alcuin*, 127.
86. Rab, F. J. E. *Histoy of Christian Latin Poetry in the Middle Ages* 188.
87. Welch, Alice K., Of Six *Medieval Women*, 5.
88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.

CHAPTER XXI

1. *Cambridge Medieval History*, I, 586.
2. In Russell, B., *History of Western Philosodhy*, 879.
3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
4. Ch. 7.
5. Ch. 63.
6. Dudden, I, 111.
7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196-8.
8. In Dudden, I, 58.
9. Ibid., 289.
10. Bede, ii, 1.
11. Gregory of Tours, 227.
12. Dudden, I, 215.
13. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story of Religious Controvery*. 307.
15. Bede, ii, 1.
16. Ibid., 198.
17. Gregory I, Ep. xiii, 45, in Dudden, I, 278.
18. In Abélard, *Ouvrages inédits*, *Quaestio*, 1a.
19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 313.
20. *Dialogues*, iv, 7, in Dudden, I, 380.
21. Dudden, II, 484f.
22. Ibid., 38.
23. Thompson, J.W. *Middle Ages*, I, 178.

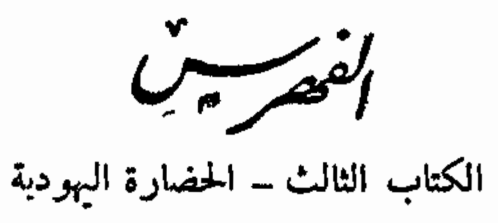
24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 690.
26. Funk, I, 287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. Ibid.
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 553.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113-9: Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, 2.
39. Bede, I. 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centu ies o Redigion*, I, 222.
44. Ibid., 352.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. Ibid., III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Millman, III, 160; McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. Ibid., 131, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171: *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. Ibid., 185f.
54. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincent of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Sscience* I. 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.G., *Life in the Middle Ages*., I, 1: Sarton. I, 734.
59. Funk, I, 262.
60. Stephens. W.R. W. *Hildebrand*, 14: Milman. III. 230: McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II. 2.
64. Ibid.
65. Carlyle R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Cecturies of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *History of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. Ibid., 272.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 226.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medeival History* V, 99.
82. Thompsn, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 65
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 169.
91. *Cambringe Medieval History*, V· 74f.

CHAPTER XXII

1. Lot., *End of the Ancient World* 196.
2. Dopsch, 288.
3. Seebohm, F., *English Village Community*, 126f, 179.
4. Seignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, Iv, 2.
7. Coulton, G.G., *Medieval Village* 161.
8. McCabe, *Story of Religous Controversy*, 325.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*, 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 260.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sarton, II (ii). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley. *Introd. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermark, E., *Short History of Marriage*, 14: Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14: Coulton, *Medieval Village*. 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Midd e Ages*, III, 123-5.
21a. *Cambridge Medieval History*. VII. 22.
22. Seignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*. 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic* 181.
25. Lynn White. Jr. in *Speculum*. Apr. 1940. p. 151.
26. Taine. H. *Ancient Regmie*. 9, Carlyle,
27. Barnes. *Economic History* 145
28. *Cambriage Medieval History*. VII. 741.
29. Coulton. *Medieval Village* 311-18.
30. Ibid., 21. 243
31. Coulton. *Panorama*. 92.
32. *Speculum*. Apr. 1940.
33. Ibid., 155.
34. Chrteoubriand. Vicomte de, *The Genius of Christianity*.iv.1.4
35. Coulton *Medievol Village*, 119.

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Age*. 166.
37. Hitti. *History of the Arabs*. 663; Hrnold *Legacy of Islam* 181.
38. Lacroix.Pahl. *Science and Literature in the Middle Ages*. 299f.
39. Beaumonoir in Seinobos. 55.
40. Coulton. *Panorama*. 60.
41. Voltaire. *Works*. XIII., 181.
42. Thompson. *Feudal Germany*.301
43. Carlyle. R.W. *Medieval Polotical Theory*. 463.
44. Pollock and Maitland. II. 242.
45. Maine. Sir H. *Ancient Law*. 185.
46. Coulton *Medieval Village*. 528.
47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages*. 23.
48. Coulton *Medieval Village*. 187.
49. Lea. *Superstition and Force*. 286, 297, 314.
50. Coulton, *Panorama* 379.
51. Lea. *Superstition*. 178.
52. Ibid., 140f, 179.
53. Seignobos. 79.
55. Sumner W.G.*Folkwavs*. 522.
56. Barnes. *Western Civilization*. I. 798.
57. Seignobos. 81.
58. Coulton. *Medieval Village*. 248.
59. Lacroix. *Military Life*, 49.
60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony*. 176.
61. Coulton. *From St. Francis to Dante*. 20.
62. Seignobos. 74.
63. Coulton, *Chaucer and His England*. 199.
64. Coulton, *Panorama*. 247.
65. Prestage, F., *Chivalry*. 72.
66. *Speculum*. Apr. 1930. 189.
67. Thornpike, *Magic and Soclence*. II. 31.
68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace*29.
69. Prestage. 75.
70. Coulton. *Panorama*. 289.
71. Traill. I. 379.
72. In Brif'ault. *Mothers*, III. 383,
73. Bebel. 63.
74. Prestage, 9.
75. Rowbotham, 283.
76. Prestage, 89.
77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.
78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind*, II, 562.
79. Miss Amy Kelly in *Speculum*, 1937, 5.
80. Rombotham, 224, 235.
81. Ibid., 249.
82. Ibid., 245.



الكتاب الثالث ــ الحضارة اليهودية

الموضوع | الصفحة

الباب الخامس عشر : التلمود

الباب السادس عشر : يهود العصور الوسطى

الباب السابع عشر : عقل اليهودى وقلبه

الكتاب الرابع – العصور المظلمة

الباب الثامن عشر : العالم البيزنطى

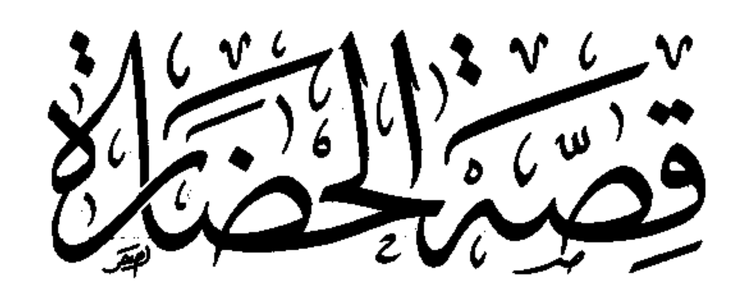
الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب ٢٠٦

الباب العشرون : نهضة الشمال

الباب الحادى والعشرون : صراع المسيحية

الباب الثانى والعشرون : الإقطاع والفروسية

فهـــرس الصور



وِل وَايرِيل ديورَانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمّد بدران

الجزء الرّابع من المجلّد الرّابع

(١٥)





بيروت		تونس

الكتاب الخامس

المسيحية فى عنفوانها

١٠٩٥ – ١٣٠٠

ثبت مسلسل بالحوادث الواردة
فى الكتاب الخامس

٧٥٠ – ١١٠٠ : إدا الكبير .
٨٤٢ : يمين أستوسبورج تستخدم فيها اللغة الوطنية .
حوالى ١٠٠٠ : نشأة الموسيقى المتعددة النغم .
١٠٢٠ : العهد الاشتراكى الأول (لمدينة ليون) .
١٠٤٠ : التجسيد الموسيقى لجيدو الأرززووى .
١٠٥٠ – ١١٢٢ : روسلان ، الفيلسوف .
١٠٥٦ – ١١١٤ : نسطور والسجل الروسى .
١٠٥٦ – ١١٣٣ : هلدبرت التورى ، الشاعر .
١٠٦٦ – ١٠٨٧ : وليم الأول ملك إنجلترا .
١٠٦٦ – ١٢٠٠ : هندسة النورمان المعمارية فى إنجلترا .
١٠٧٦ – ١١٨٥ : جلبرت ده لابوريه ، الفيلسوف .
١٠٧٩ – ١١٤٢ : أبلار ، الفيلسوف
١٠٨٠ : القناصل فى لكا ؛ نشأة المدن ذات الحكومات الذاتية فى إيطاليا (الكرمونات) .
١٠٨٠ – ١١٥٤ : وليم الكونشيسى ، الفيلسوف .
١٠٨١ – ١١٥١ : سوجر ، رئيس دير سانت دنيس .
١٠٨٣ – ١١٤٨ : أنا كومنينا ، المؤرخة .
١٠٨٥ : كتاب يوم الحشر الإنجليزى .
١٠٨٦ – ١١٢٧ : وليم العاشر ، دوق أكتين ، أول من عرف من شعراء الفروسية الغزلين .
١٠٨٨ وما بعدها : إرنريوس والقانون الرومانى فى بولونيا .
١٠٨٨ – ١٠٩٩ : البابا إربان الثانى .
١٠٨٩ – ١١٣١ : دير كلونى .
١٠٩٠ – ١١٥٣ : سان برنار .
١٠٩٣ – ١١٠٩ : أنسلم كبير أساقفة كنتربرى .
١٠٩٣ – ١١٧٥ : كنيسة درهام الكبرى .
حوالى ١٠٩٥ : أغنية رولان .
١٠٩٥ : الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى .
١٠٩٥ – ١١٥٤ : روجر الثانى صاحب صقلية .

١٠٩٨ : تأسيس النظام السسترسي .

١٠٩٨ — ١١٢٥ : هنري الخامس ملك ألمانيا .

١٠٩٩ : استيلاء الصليبيين على بيت المقدس .

١٠٩٩ — ١١١٨ : البابا باسكال الثاني .

١٠٩٩ — ١١٤٣ : مملكة أورشليم اللاتينية .

١٠٩٩ — ١١٧٩ : سانت هلد جارد .

حوالي ١١٠٠ : الأرقام الهندية (العربية) في أوربا ، الورق يصنع في القسطنطينية .

١١٠٠ — ١١٣٥ : هنري الأول ملك إنجلترا .

١١٠٠ — ١١٥٥ : أرنلد البرشياني ، المصلح .

١١٠٤ — ١١٩٤ : النمط الانتقالي في المعمار .

١١٠٥ : كتاب الأسئلة الطبيعية لأدلارد .

١١١٠ : جامعة باريس تتشكل .

١١١٣ : الأمير مونوماخ يهدئ الثورة في كييف .

١١١٤ — ١١٥٨ : أتو الفريزنجي ، المؤرخ .

١١١٤ — ١١٨٧ : جرارد الكريموني ، المترجم .

١١١٧ : أبلار يعلم هلوائيز .

١١١٧ — ١١٨٠ : يوحنا السلزبوري الفيلسوف .

حوالي ١١٢٠ : نشأة رهبان فرسان مالطة .

١١٢١ : الحكم على أبلار في سواسون .

١١٢٢ : اتفاقية وورمز .

١١٢٢ — ١٢٠٤ : إليانور صاحبة أكتين .

١١٢٣ : مجلس لاتران الأول .

١١٢٤ — ١١٥٣ : داود الأول ملك اسكتلندة .

١١٢٧ : نشأة فرسان المعبد .

١١٣٢ وما بعدها : دير سانت‌دنيس يعاد بناؤه على الطراز القوطي .

١١٣٥ — ١١٥٤ : استيفن ملك إنجلترا .

١١٣٧ : الكوروتيز الأول ؛ كتاب تاريخ بريتوموم لجفري المنموثي .

١١٣٧ — ١١٩٦ : ولتر ماپ (س) الهجاء .

١١٣٨ : كنراد الثالث يؤسس أسرة هوهنستاوفن .

١١٣٩ — ١١٨٥ : ألفنسو الأول أنريكيز أول ملوك البرتغال .

١١٤٠ : أبلار يحكم عليه في سان .

١١٤٠ — ١١٩١ : كريتين (المسيحي (ده ترويه) .

١١٤٠ — ١٢٢٧ : الشعراء الجلياريون .

١١٤٢ : نشأة حزبي الجولف والجبلين .

١١٤٢ : دكريتوم جراتيان .

١١٤٥ – ١٢٠٢ : يواقيم الفلوراقي .
١١٤٦ – ١١٤٧ : ثورة أرنلد البرشيائي .
١١٤٧ – ١٢٢٣ : جيرالدس كبرنسس الجغرافي .
حوالي ١١٥٠ : النيبلنجنليد .
١١٥٠ : السنتنتيا لبطرس المبارد ، تماثيل مواساك ، الدبالة المتحركة تستخدم في نوايون .
١١٥٠ – ١٢٥٠ : مجد الفرنسيين شعراء الفروسية الغزليين .
١١٥٢ – ١١٩٠ : فردريك الأول بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .
١١٥٤ – ١١٥٩ : البابا هدريان الرابع .
١١٥٤ – ١١٨٩ : هنري الثاني يؤسس أسرة بلانتجنت .
١١٥٤ – ١٢٠٦ : يورك منستر .
١١٥٦ : تأسيس مسكو .
١١٥٧ : مصرف البندقية يصور صكوكا حكومية .
١١٥٧ – ١٢١٧ : اسكندر نكهام ، العالم الطبيعي .
١١٥٩ – ١١٨١ : البابا اسكندر الثالث .
حوالي ١١٦٠ : السيد .
١١٦٠ – ١٢١٣ : جوفري ده فيلهاردون ، المؤرخ .
١١٦٣ – ١٢٣٥ : كنيسة نوتردام في باريس .
١١٦٥ – ١٢٢٠ : ولفرام فون اشنباخ ، الشاعر .
١١٦٥؟ – ١٢٢٠ : ولتر فون در فوجلفيد ، الشاعر .
١١٦٧ : تكوين العصبة اللمباردية ؛ نشأة جامعة أكسفورد .
١١٦٧ – ١٢١٥ : بيرفيدال شاعر الفروسية الغزلي .
١١٧٠ : مقتل توماس آبكت ؛ استرنجبو ، غزو الفرس القوى ، بدأ فتح أيرلندة ؛ بطرس ولدو في ليون .
١١٧٠ – ١٢٢١ : سانت دمنيك .
١١٧٠ – ١٢٤٥ : اسكندر الهالسي الفيلسوف .
١١٧٢ وما بعدها : قصر الدوج .
١١٧٤ – ١٢٤٢ : كنيسة ولز الكبرى .
١١٧٥ – ١٢٣٤ : ميخائيل أسكت
١١٧٥ – ١٢٨٠ : الطراز الإنجليزي القوطي الأول .
١١٧٥ وما بعدها : كنيسة كنتربري الكبرى .
١١٧٦ : إنشاء جامعة كارتوزيا ، هزيمة فردريك بربروسا في لنيانو .
١١٧٨ وما بعدها : الملحدون الألبجنسيون ؛ كنيسة بيتربرو .
١١٧٨ – ١٢٤١ : اسنوري استرلسون ، المؤرخ .
١١٧٩ : مجلس لاتران الثالث .
١١٨٠؟ : إنشاء جامعة مونبلييه ؛ ماري ده فرانس الشاعرة .

١١٨٠ — ١٢٢٣ : فليب الثانى أغسطس ملك فرنسا .
١١٨٠ — ١٢٥٠ : ليوناردوده فيبوناتشى ، العالم الرياضى .
١١٨٠؟—١٢٥٣ : روبرت جرسيتستى ، العالم الطبيعى .
١١٨٢ — ١٢٢٦ : القديس فرانسس الأسيسى .
١١٨٥ — ١٢١٩ : أرمينية الصغرى تزدهر تحت حكم لبو الثالث .
١١٨٥ — ١٢٣٧ : كنيسة بامبرج .
١١٨٩ — ١١٩٢ : الحرب الصليبية الثالثة .
١١٨٩ — ١١٩٩ : رتشرد الأول قلب الأسد .
١١٩٠ : نشأة طبقة الفرسان التيوتون .
١١٩٠ — ١١٩٧ : هنرى السادس ملك ألمانيا .
١١٩٢ — ١٢٣٠ : أوتاكار الأول ملك بوهيميا .
١١٩٢ — ١٢٨٠ : لنكولن منستر .
١١٩٣ — ١٢٠٥ : أندريكو دندولو دوج البندقية .
١١٩٣ — ١٢٨٠ : ألبرتس ماجنس .
١١٩٤ — ١٢٤٠ : لويلين الأكبر ملك ويلز .
١١٩٤ — ١٢٥٠ : فردرك الثانى ملك صقلية .
١١٩٥ — ١٢٣١ : سانت أنتونى فى پدوا .
١١٩٥ — ١٣٩٠ : كنيسة بورج .
١١٩٨ — ١٢١٦ : البابا إنوسنت الثالث .
١١٩٩ — ١٢١٦ : چون ملك إنجلترا .
١٢٠٠؟ : داڤد الديناتى الفيلسوف .
١٢٠٠ — ١٣٠٤ : بهو القماش فى إيپرس .
١٢٠٠ — ١٢٥٩ : ماثيو باريس المؤرخ .
١٢٠٠ — ١٢٦٤ : ڤنسنت عالم بوڤيه ، من رجال الموسوعات .
١٢٠١ : الألمان يفتحون ليڤونيا .
١٢٠١ — ١٥٠٠ : كنيسة رون .
١٢٠٢ — ١٢٠٤ : الحرب الصليبية الرابعة .
١٢٠٢ — ١٢٠٥ : فليب الثانى ملك فرنسا يستولى على نورمنديا ، وأنچو ، ومين ، وبريطانى من إنجلترا .
١٢٠٢ — ١٢٤١ : ڤلمدير الثانى ملك الدنمرقة .
١٢٠٤ — ١٢٢٩ : الحرب الصليبية الألبجنسية .
١٢٠٤ — ١٢٥٠ : معجزة جبل القديس ميخائيل .
١٢٠٤ — ١٢٦١ : مملكة القسطنطينية اللاتينية .
١٢٠٥ : أقدم إشارة مسيحية إلى البوصلة المغنطيسية ، مسرحية هارتمان فن أوى Denarme Heinrich .
١٢٠٥ — ١٣٠٣ : كنيسة ليون .

١٢٠٦ – ١٢٢٢ : ثيودور لسكاريس إمبراطور الشرق .
١٢٠٧ – ١٢٢٨ : استيفن لانجتون كبير أساقفة كنتربرى .
١٢٠٨ : القديس فرنسس يؤسس نظام الرهبان الصغار ؛ إنوسنت الثالث يصدر قرار الحرمان على إنجلترا .
١٢٠٩ : تأسيس جامعة كبردج .
١٢١٠ : تحريم كتب أرسطو فى باريس ؛ ترستران لجتفرايد الأستوسبورجى
١٢١١ – ١٤٢٧ : كنيسة ريمس .
١٢١٢ : حرب الأطفال الصليبية ، سانتا كلارا يؤسس نظام كلارا الفقيرات .
١٢١٣ – ١٢٧٦ : چيمس الأول ملك أرغونة .
١٢١٤ : فليب الثانى ينتصر فى بوڤيه .
١٢١٤ – ١٢٩٢ : روچر بيكن .
١٢١٥ : العهد الأعظم ؛ مجلس لاتران الرابع ، تأسيس نظام الدومنيك .
١٢١٦ – ١٢٢٧ : البابا هونوريوس الثالث .
١٢١٦ – ١٢٧٢ : هنرى الثالث ملك إنجلترا .
١٢١٧ : الحرب الصليبية الخامسة .
١٢١٧ – ١٢٥٢ : فرديناند الثالث ملك قشتالة .
١٢١٧ – ١٢٦٣ : هاكون الرابع ملك النرويج .
١٢٢٠ – ١٢٤٥ : كنيسة سلزبرى .
١٢٢٠ – ١٢٨٨ : كنيسة أمين .
١٢٢١ – ١٢٧٤ : سانت بوناڤنتير .
١٢٢١ – ١٥٦٧ : كنيسة برجوس .
١٢٢٤ : إنشاء جامعة نابلى .
١٢٢٤ – ١٣١٧ : چان ده چوانڤيل ، المؤرخ .
١٢٢٥ : قوانين الشاحسنسپيجل .
١٢٢٥ – ١٢٧٤ : القديس تومس أكويناس ، الفيلسوف .
١٢٢٥ – ١٢٧٨ : نيقولو بيزانو ، المثال .
١٢٢٦ – ١٢٣٥ : بلانش القشتالية نائبة الملك .
١٢٢٦ – ١٢٧٠ : لويس التاسع ملك فرنسا .
١٢٢٧ : تأسيس جامعة سلمنقة ، بداية محكمة التفتيش البابوية .
١٢٢٧ – ١٢٤١ : البابا جريجورى التاسع .
١٢٢٧ – ١٤٩٣ : كنيسة طليطلة .
١٢٢٧ – ١٥٠٢ : كنيسة بوڤيه .
١٢٢٨ وما بعدها : كنيسة سان فرانسسكو فى أسيسى .
١٢٢٨ : الحرب الصليبية السادسة ، فردريك الثانى يتوّج نفسه فى بيت المقدس .
١٢٢٩ – ١٢٤٨ : كنيسة سينا .

١٢٣٠ وما بعدها : كنيسة أستراسبورج .
١٢٣٠ — ١٢٧٥ : جيلو جنزلى .
١٢٣٢ — ١٣٠٠ : أرتلفو دى كمبيو ، الفنان .
١٢٣٢ — ١٣١٥ : ريمندلى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٢٨١ : سيجر البرابنتى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٣١١ : آرنلد الفلانوفى ، الطبيب .
١٢٣٧ : المغول يغيرون على الروسيا ؛ رواية الوردة لوليم اللوريس .
١٢٤٠ : انتصار اسكندر نفسكى على نهر النيفا .
١٢٣٠؟ : أوكسين ونيقولتى .
١٢٤٠ — ١٣٠٢ : سيمابيو .
١٢٤٠ — ١٣٢٠ : جيوفنى بيزانو ، الفنان .
١٢٤١ : المغول يهزمون الألمان عند ليجنتز ، ويقتحمون كراكاو ويعيثون فساداً فى بلاد المجر .
١٢٤٣ — ١٢٥٤ : البابا إنوسنت الرابع .
١٢٤٤ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس .
١٢٤٥ : مجلس ليون الأول يخلع فردريك الثانى .
١٢٤٥ : جيوفنى ده بيانو كربينى يزور بلاد المغول .
١٢٤٥ — ١٢٤٨ : سانتى شابل .
١٢٤٥ — ١٢٧٢ : دير وستمنستر .
١٢٤٨ : القديس لويس يقود الحملة الصليبية السابعة .
١٢٤٨ — ١٣٥٤ : قصر الحمراء .
١٢٤٨ — ١٨٨٥ : كنيسة كولونى .
١٢٥٠ : أسر القديس لويس ، موت فردريك الثانى ، كتاب براكتن .
١٢٥٢ — ١٢٦٢ : تكوين عصبة مدن هانسيا .
١٢٥٢ — ١٢٨٢ : ألفنسو العاشر الحكيم ملك قشتالة .
١٢٥٣ — ١٢٧٨ : أتوكار الثانى ملك بوهيميا .
١٢٥٤ — ١٢٦١ : البابا اسكندر الرابع .
١٢٥٥ — ١٣١٩ : دلتشيو السينائى ، المصور .
١٢٥٨ : هاكون الرابع ملك النرويج يفتح أيسلندة .
١٢٥٨ — ١٢٦٦ : مانفرد ملك صقلية .
١٢٥٨ — ١٣٠٠ : جيدو كفلكنتى .
١٢٦٠؟ : فلاجلنتس .
١٢٦٠ — ١٣٢٠ : هنرى ده منديل ، الجراح .
١٢٦١ : ميخائيل الثامن باليكاجس يعيد الدولة الشرقية فى القسطنطينية .
١٢٦٥ : برلمان سيمون ده منتفورت .
١٢٦٥ — ١٣٠٨ : دنز اسكوتس ، الفيلسوف .

١٢٦٥ – ١٣٢١ : دانتي .
١٢٦٦ : كتاب روجر بيكن Opus Maius .
١٢٦٦ – ١٢٨٥ : تشارلس أمير أنجو ملك صقلية .
١٢٦٦ – ١٣٣٧ : جيتو .
١٢٦٨ : هزيمة كرارين ، ونهاية أسرة هوهنستوفن .
١٢٦٩ : الظاهر بيبرس يستولى على يافا وأنطاكية .
١٢٧٠ : لويس التاسع يقود الحملة الصليبية الثامنة .
١٢٧١ – ١٢٩٥ : ماركو پولو فى آسية .
١٢٧٢ – ١٣٠٧ : إدورد الأول ملك إنجلترا .
١٢٧٣ – ١٢٩١ : رودلف الهپسبرجى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .
١٢٧٤ : مجلس ليون الثانى .
١٢٧٩ – ١٣٢٥ : دنيز ملك البرتغال .
١٢٨٠ – ١٣٨٠ : الطراز القوطى الإنجليزى المزخرف .
١٢٨٢ : صلوات الغروب الصقلية ؛ بدرو الثالث صاحب أرغونة يستولى على صقلية .
١٢٨٣ : إدورد الثالث يعيد فتح ويلز .
١٢٨٤ : بلفرى صاحب بروج .
١٢٨٥ – ١٣١٤ : فليب الرابع الجميل ملك فرنسا .
١٢٩٠؟ : القصة الذهبية تأليف يوقوبو ده فراچين ، رواية الوردة Roman de la Rose تأليف جان منج .
١٢٩٠ – ١٣٣٠ : كنيسة أورفيتو .
١٢٩١ : استيلاء المماليك على عكا ، نهاية الحروب الصليبية ، حصنة المقاطعات السويسرية .
١٢٩٢ – ١٣١٥ : جون بليول ملك اسكتلندة .
١٢٩٤ : لانفرنى ينشئ فن الجراحة الفرنسى .
١٢٩٤ : كنيسة سانت كروس (الصليب المقدس) فى فلورنس .
١٢٩٤ – ١٣٠٣ : البابا بنيفاس الثامن .
١٢٩٤ – ١٤٣٦ : كنيسة سانتا ماريا ده فيورى فى فلورنس .
١٢٩٥ : البرلمان النموذجى الذى أنشأه إدورد الأول .
١٢٩٦ : القرار البابوى لبنيفاس .
١٢٩٨ : هزيمة ولاس فى فلكيرك ، قصر فيتشيو والعميد فى فلورنس .
١٢٩٨ وما بعدها : كنيسة برشلونة .

١٣٠٢ : الفلمنكيون يهزمون الفرنسيين عند كورتراى ، القرار البابوى لبنيفاس ، فليب الرابع يدعو مجلس الولايات إلى الاجتماع .

١٣٠٥ — ١٣١٦ : البابا كلمنت الرابع .

١٣٠٨ — ١٣١٣ : هنرى السابع إمبراطور الغرب .

١٣٠٩ : البابا ينقل البابوية إلى أفنيون .

١٣١٠ — ١٣١٢ : حل نظام فرسان المعبد فى فرنسا .

١٣١٤ : اسكتلندة تحصل على استقلالها فى بنكبيرن .

١٣١٥ : السويسريون يهزمون جيش آل هبسبرج فى مورجارتن ، وينشئون الاتحاد السويسرى .

الباب الثالث والعشرون

الحروب الصليبية

١٠٩٥ - ١٢٩١

الفصل الأول

أسبابها

كانت الحروب الصليبية هي الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى؛ ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان - المسيحية والإسلام - ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى الفيصل الأخير فيما يشجر بين بني الإنسان من نزاع ، ونعني به محكمة الحرب العليا ؛ وفيها بلغ كل تطور في العصور الوسطى ، وكل توسع في الشئون التجارية والديانة المسيحية ، وكل تحمس في العقيدة الدينية ، وكل ما في الإقطاع من قوة ، وفي الفروسية من فتنة وبهجة ، وبلغ هذا كله غايته في حرب دامت مائتي عام في سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية(*) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى ؛ وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحا رحيما ؛ استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها إذا استثنينا بعض فترات

(*) الاسم الإنجليزي Crusade مشتق من اللفظ الأسباني Cruzada أي عليه علامة الصليب .

قصيرة قليلة : نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الضريح المقدس (١٠١٠) ؛ ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها[١] ، وقد وصفها الرحالة المسلم ناصري خسرو بأنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص ، بذل في بنائها أعظم ما يستطاع من الحذق والمهارة ، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البيزنطي المطرز بخيوط الذهب ، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار[٢] ؛ وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة ، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ؛ وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار في أوربا يلتقي بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة في شكل الصليب من خوص النخل (*) جاءوا به من فلسطين ؛ ويوصف هؤلاء في كتاب بيرز بلاومان Piers Plowman بأنه « كان من حقهم أن يكذبوا ويخادعوا ما بقي من حياتهم[٣] » . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠ ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير . وتقول قصة قديمة لا نجد ما يؤيدها ، إن أحد هؤلاء الحجاج وهو بطرس الناسك حمل إلى إربان الثاني Urban II من سمعان بطريق أورشليم رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم (١٠٨٨) .

وكان السبب المباشر الثاني من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة . لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف في ملتقى الطرق المارة بين أوربا وآسية ، تصد جيوش آسية وجحافل

(*) وكان هؤلاء يسمون Palmers من كلمة palm أي النخلة ومن معاني كلمة Palmer غشاش أو مخادع في اللعب . (المترجم)

السهوب . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن اضطراب شئونها الداخلية ، وشيعها الخارجة على الدين ، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدى رسالتها التاريخية . وبينا كان البلغار ، والبشناق Patznaks ، والكومان Comans ، والروس يدقون أبوابها فى أوربا ، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية ، وكاد الجيش البيزنطى أن يقضى عليه عند ملازكرت فى عام ١٠٧١ ، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥)، وطرسوس ، ونيقية ذات الماضى التاريخى الدينى ، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها ، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسية الصغرى بعقد صلح مذل ، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التى توالت بعدئذ على أملاكه . ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ فى أيدى الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرق أوربا كله ، ولـمّا بقى لمعركة تور (٧٣٢) أثر ما . وبعث ألكسيوس برسله إلى إربان الثانى وإلى مجلس بياسنزا Piacenza يستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الترك ؛ وكان من أقواله « إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية .

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية — بيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملفى Amalfi — فى توسيع ميدان سلطانها التجارى الآخذ فى الازدياد . ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ — ١٠٩١) ، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من أسپانيا (١٠٨٥ ومابعدها)، أصبح البحر المتوسط الغربى حراً للتجارة المسيحية ؛ وأثرت المدن الإيطالية وقويت لأنها هى الثغور التى تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب ، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين فى الجزء

الشرق من البحر المتوسط وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غربى أوربا . ولسنا نعلم إلى أى حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا .

وصدر القرار النهائى من إربان نفسه ، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة . فقد دعا جربرت Gerbert ، حينما أصبح البابا سلفستر الثانى Sylvester II ، العالم المسيحى لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخفقة فى بلاد الشام (حوالى ١٠٠١) ؛ ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجورى السابع وهنرى الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : « إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله »[٤] . وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس إربان مجلس بياسنزا فى مارس من عام ١٠٩٥ ؛ وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلا للعالم المسيحى ، وتبحث فى شن الحرب على المسلمين . ولعل الذى دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر فى مغامرة فى هذا الميدان البعيد غير مؤكد ؛ وما من شك فى أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحى والكنيسة المسيحية إلى أبعد حد ؛ وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما فى طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة ، تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطية . ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحيا عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الدينى ، ورومة تعود حاضرة للعالم ؛ وكان هذا تفكيراً أملته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة .

وظل البابا بعدئذ بين شهرى مارس واكتوبر من عام ١٠٩٥ يطوف بشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه . واجتمع المجلس التاريخى بمدينة كلير مونت Clermont فى مقاطعة أوفرنى ، وهرع

إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع لم يقف فى سبيلهم برد نوفبر القارس . ونصب القادمون خيامهم فى الأراضى المكشوفة ، وعقدوا اجتماعاً كبير لا يتسع له بهو ، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة فى وسطهم مواطنهم إربان الفرنسى وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً فى تاريخ العصور الوسطى :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! . . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ، قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب . وهم يهدمون المذابح فى الكنائس ، بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم — أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال ، وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رءوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم — أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ... لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث ، وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى فى ملكوت السموات(٥) »

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة : « تلك إرادة الله Dieu li volt » وردّد إربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم فى الحرب ، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم ويقول وليم مالمزبرى William Malmsbury : « وتقدم بعض النبلاء من فورهم ، وخروا راكعين بين يدى البابا ، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله »(٦) وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب ، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ لا بمعناه المجازى . وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى — إلى تور ، وبوردو ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes ؛ وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية . ولما بلغ رومة بعد أن غاب عنها سنتين ، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحى تقوى ؛ وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التى تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين . ولم يلق فى عمله هذا مقاومة جدية ؛ فحرر رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده ؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم . وأمر

بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين - وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا ، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعى ؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد فى تاريخها كله ، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى - من الوجهة النظرية على الأقل - لملوك أوربا على بكرة أبيهم . وسرَت روح الحماسة فى أوربا كما لم تسر فيها من قبل فى أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة .

الفصل الثاني

الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٥ – ١٠٩٩

وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة : منها أن كل من يخر صريعاً فى الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه ، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضى التى كانوا مرتبطين بها ، وأعفى سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل ، وتوسع البابا فى سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم فى فلسطين ، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة ؛ وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضى التى ولد فيها المسيح ومات ، منهم رجال سئموا الفقر الذى كانوا يعانونه ، والذى ظنوا أن لانجاة لهم منه ، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع فى مغامرات جريئة فى بلاد الشرق ، ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات فى تلك البلاد ، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم ، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة . ونشطت الدعاوة المألوفة فى الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذى يلقاه المسيحيون فى فلسطين ، والمعاملات الوحشية التى يلقونها على أيدى المسلمين ، والأكاذيب عما فى العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال ؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالا للنبي محمد(٧) ؛ وأخذ الثرثارون « الأتقياء » يقولون : إن النبي قد

أصابته نوبة صرع النهمته فى أثنائها الخنازير البرية(٨) . ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق، وعن الغانيات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل(٩).

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن تجمتع من أجلها جموع متجانسة يستطاع إخضاعها لنظام عسكرى . وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا فى كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ليقوم النساء بخدمة أزواجهن، والأبناء بخدمة آبائهن ، ولعلهم كانوا على حق فى هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين. وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد ، فسار جحفل منهم عدته نحو اثنى عشر ألفا (لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان) وبدأ رحلته من فرنسا فى شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ، وولتر المفلس Walter the penniless (Gautar Sans-Avoir) ، وقام جحفل آخر — ربما كانت عدته ٥٠٠ من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك Gattschalck ، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو اللينِنچينى Count Emico of Le iningen — . وكانت هذه الجموع غير النظامية هى التى قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا وبوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان المجندون قد جاءوا معهم ببعض المال ، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذى لا يغنى من الطعام ، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم ، وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم فى لهفة — أليست هذه أورشليم ؟ ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما فى طريقهم من الحقول والبيوت ،

وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب[١١] . وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها فى وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل ، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفدت أموالهم ، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون ، والجذام ، والحمى ، والمعارك التى خاضوا غمارها فى الطريق ، رحب بهم ألكسيوس ، ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا فى أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس ، والمنازل ، والقصور . وأراد ألكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التى أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر . فأمدها بالسفن التى عبرت بها البسفور ، وأرسل إليها المؤن ، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً . ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر ، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم ونفاد صبرهم ، فزحفوا على نيقية . وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك ، كلها من مهرة الرماة ، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقى على أحد منها . وكان ولتر المفلس من بين القتلى ؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التى لا تخضع لقيادة ، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥ .

وبينا كانت هذه الحوادث تجرى فى مجراها كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله فى إقليمه . ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك ، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثانى ملك إنجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا ، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان إربان الثانى يدعو إلى الحرب الصليبية ، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريبا من الفرنسيين أو الفرنجة . وبهذا كانت الحرب الصليبية الأولى فى الأغلب الأعم مغامرة فرنسية ، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذكر غربى أوربا سماه بلاد الفرنجة (الأفرنج) ، وكان

الدوق جدفرى Godfrey سيدبويون Bouillon (وهى مقاطعة صغيرة فى بلجيكا) يجمع بين صفات الجندى والراهب - كان شجاعاً محنكا فى الحرب ، ورعاً إلى حد التعصب فى الدين ؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو Tarantô ابن روبرت جسكارد Robert Guiscard قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته ، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة فى الشرق الأدنى . وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلى Tancred of Hauteville الذى شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة Jeusalem Delivered لتاسو Tasso . وكان بهى الطلعة ، شجاعاً لا يهاب الردى ، شهماً ، كريماً ، يحب المجد والمال ، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحى . وكان ريموند Reymond كونت طولوز (طلوشة) قد حارب المسلمين من قبل فى أسبانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع ، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله ، ودنس بخله تقواه .

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة ؛ وعرض بوهمند على جدفرى أن يستوليا على المدينة ، فرفض جدفرى هذا العرض لأنه لم يأت ، على حد قوله ، إلا لقتال الكفرة[١٢] ، ولكن هذه الفكرة لم تمت . وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتقرون سادة الشرق المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون من الدين ، مخنثون ، مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التى كانت تملأ صدور منقذيه ، وكان ما لاقاه فى قتال جحافل الفلاحين (وقد لامه الغرب على هزيمته إياهم) مما دعاه إلى اصطناع الحذر ، وإن شئت فقل إلى النفاق . نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك ، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته ، ولم

يكن واثقاً قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون فى أورشليم بقدر ما يطمعون فى القسطنطينية ، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أىَّ إقليم ينتزعونه من الأتراك ، وكان من قبل من أملاك الدولة البيزنطية . ولهذا عرض على الصليبيين المؤن ، والأموال ، ووسائل النقل ، والمعونة الحربية ، وعرض على زعمائهم رشا سخية[١٣] ، وطلب إليهم فى نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعى ، وأن تكون كل الأراضى التى يستولون عليها إقطاعيات لهم منه . وأثرت الفضة فى نفوس النبلاء ورققت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة .

وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين فى عام ١٠٧٩ ، وكانت لا تزال موزعة القيادة . وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساما على أنفسهم من المسيحيين ، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين فى أسبانيا ، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم فى شمالى إفريقية ؛ وكان الخلفاء الفاطميون فى الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية ، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزءها الشمالى والقسم الأكبر من آسية الصغرى . وخرجت أرمينية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة . وزحفت جيوش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية . واستسلمت الحامية التركية فى المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها (١٩ يونية سنة ١٠٩٧) ، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطورى على حصنها ، وحمى المدينة من النهب ، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية ، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأترك . واستراح الصليبيون فى المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية ، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركى تحت قيادة قلج أرسلان ، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء (أول يوليه سنة ١٠٩٧) ، واخترقوا آسية الصغرى دون أن يلقوا فيها عدوا غير قلة الماء والطعام ، والحر الشديد الذى لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله . ومات الرجال والنساء ، والخيل

والكلاب ، من العطش فى أثناء هذا الزحف الشاق الذى اجتازوا فيه خمسمائة ميل ؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسى ليفتحوا لأنفسهم فتوحا خاصة بهم — فسار ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى إلى أرمينية ؛ وسار تنكرد وبولدوين (أخو جدفرى) إلى الرها حيث أسس بلدوين بالختل والغدر[١٤] أولى الإمارات اللاتينية فى الشرق (١٠٩٨) . وأخذت قوات الصليبين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير ؛ فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على أنطاكية .

ويصف المؤرخ الإخبارى صاحب چستا فرنكورم **Gesta Francorum** أنطاكية بأنها « مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن »[١٥] . وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر ، مات فى خلالها كثير من الصليبين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع ، وقد وجد بعضهم غذاء جديداً بامتصاص « أعواد حلوة سموها زكرا Zucra » (وهى كلمة مشتقة من لفظ السكر العربى) ، ففيها ذاق « الفرنجة » طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة[١٦] . وقدمت العاهرات للغزاة متعا أشد خطراً من السكر ، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهر سورية[١٧] . وجاءت الأنباء فى شهر مايو من عام ١٠٩٨ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية ، لكن هذه المدينة سقطت فى أيدى الصليبين (٣ يونية ١٠٩٨) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام . وخشى كثيرون من الصليبين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة ، فركبوا السفن فى نهر العاصى ، وفروا هاربين . وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم ، ولكن جماعة من الفارين غرروا به ، فأدخلوا فى روعه أن المسيحيين هزموا ، فعاد أدراجه ليدافع عن آسية الصغرى ، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة . وأراد قسيس من مرسيلية يدعى بطرس بارثلميو **Peter Bartholomew** أن

يبعث الشجاعة من جديد فى قلوب الصليبيين ، فادعى أنه عثر على الحربة التى نفذت فى جنب المسيح ، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس ، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال فى ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوى أدهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس ، وثيودور ، وچورچ . وبعث ذلك فى قلوب الصليبيين روحا جديدة ، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً . ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية ، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه . وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة فى حزم من الحطب ، وخرج سالما فى الظاهر ، ولكنه توفى فى اليوم الثانى من أثر الحروق أو من الإجهاد الذى لم يحتمله قلبه ، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبى[١٨] .

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير أنطاكية اعترافاً بفضله ، وكان يمتلك هذا الإقليم فى ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعيا خاضعاً لألكسيوس ، لكنه فى الواقع كان يحكمه بوصفه حاكما مستقلا ؛ وقال زعماء الصليبيين إن عجز ألكسيوس عن أن يخف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاء التى أقسموها له . وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم ، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم . وبعد حروب دامت ثلاث سنين ، نقص فيها عددهم إلى ١٢٫٠٠٠ من المحاربين وقفوا فى اليوم السابع من شهر يونية عام ١٠٩٩ وهم مبتهجون متعبون أمام أسوار المدينة . وكان من سخريات التاريخ أن الأتراك الذين جاءوا ليقاتلوهم قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام ، وكان مخرجوهم هم الفاطميين . وعرض الخليفة الفاطمى على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح مشترطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة . ولكن بوهمند وجدفرى طلبا التسليم بغير قيد أو شرط ، وقاومت حامية الفاطميين

المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوما ، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليه قاد جدفرى وتانكرد رجالها وتسلقوا أسوار المدينة ، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا فى سبيله الأمرين . وفى هذا يقول القس ريمند الإجيلى شاهد العيان :

وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل[١٩] .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ، يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم[٢٠] ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء ، واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر ، وبتحرير المدينة ، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز !

الفصل الثالث

مملكة أورشليم اللاتينية ١٠٩٩ — ١١٤٣

اختير جدفرى البويونى الذى اعترف له آخر الأمر بالصلاح ، والتقى المنقطع النظير حاكما على دمشق على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو « حامى الضريح المقدس » ولم يدع الحاكم الجديد أنه خاضع لألكسيوس لأن الحكم البيزنطى لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٣٦٥ عاماً ، ولهذا أصبحت مملكة أورشليم اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة . وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسى الشرق ، وفرّ البطريق اليونانى إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الإيطالى والحكم البابوى .

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها . وهذا هو الثمن الذى كان على المحررين العظام أن يؤدوه ؛ فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا التحرير جيش مصرى يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة فى أديان كثيرة وهزم جدفرى هذا الجيش القادم ، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة (١١٠٠) وخلفه أخوه بولدوين وهو أقل منه كفاية (١١٠٠ — ١١١٨) ، واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك . وشملت المملكة الجديدة فى عهد الملك فلك Fulk كونت أنجو (١١٣١ — ١١٤٣) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا ، ولكن المسلمين ظلوا مالكين حلب ، ودمشق ، وحمص . وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية ، تتركز على التوالى حول أورشليم ، وأنطاكية والرها ، وطرابلس ؛ ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعيات تكاد كل منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وكان سادتها المتحاسدون يشنون الحروب بعضهم على

بعض ، ويسكون العملة ، ويحاكون الملوك المستقلين فى هذه وغيرها من الشئون . وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك ، وتقيده سلطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه . وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور : يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان — إلى البندقية ، وبيزا ، وجنوى ، نظير ما تقدمه للمملكة الجديدة من معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من مؤن . أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهما المحاكم العليا فى أورشليم — وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الإقطاعى من الوجهة القانونية . وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها ، وأنزلوا ملاكها السابقين — سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين — منزلة أرقاء الأرض ، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ فى أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد (٢١) .

وكان فى المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف ، ولكنها كانت تتلقى معونة فذة من نظام من الرهبان الحربيين . ذلك أن تجار أملفى Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ على إذن ببناء مستشفى فى بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج . ثم نظم ريمند دو پى Raymond du Puy موظفى هذا المعهد تنظيما جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرس حياتها للعفة ، والفقر ، والطاعة ، وحماية المسيحيين فى فلسطين بالدفاع عنهم دفاعا عسكريا ؛ ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل الهيئات الخيرية فى العالم المسيحى . وحدث حوالى ذلك الوقت نفسه (١١١٩) أن نذر هيوده پايان Hugh de Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة ، وخدمة المسيحيين العسكرية ، وأن حصلوا من بلدوين الثانى على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذى كان فيه هيكل سليمان ، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد . ووضع

لهم القديس برنار نظاما صارما ، لم يطيعوه زمنا طويلا ؛ وكان مما أثنى عليهم به أنهم « أكثر الناس علما بفن الحرب » ، وأمرهم « ألا يغتسلوا إلا نادراً » وأن يقصوا شعر رءوسهم[٢٢] . وكتب برنار إلى فرسان المعبد يقول « إن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا قُتِل هو نفسه ، وإن المسيحى ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهـذا الموت »[٢٣] ؛ ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر فى الحروب . وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أسود اللون ، على كمه الأيسر صليب ، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يلبس مئزراً أبيض على « حرملته » صليب أحمر . وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً مبعثه الدين . وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين ؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة ، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالى ١١٨٠[٢٤] ، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر فى معارك الحروب الصليبية ؛ وذاعت شهرتهم الحربية . وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال ، فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة ، ومن الأغنياء والفقراء على السواء ؛ فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك فى أوربا ضياعا واسعة تشمل أديرة ، وقرى ، وبلدانا . وأدهشت كلتاهما المسيحيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة فى بلاد الشام ، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين ، وسط متاعب الحروب وكدحها ، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر[٢٥] . وفى عام ١١٩٠ أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيوتون بمعونة عدد قليل من الألمان فى بلادهم الأصلية ، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا .

وعاد معظم الصليبيين إلى أوربا بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فنقص بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعزعة الأركان نقصاً يعرضها

للخطر الشديد . ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقى فيها عدد منهم للقتال . وكان الروم فى الشمال يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة أنطاكية والرها وغيرهما من المدن التى كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية ؛ وأخذ المسلمون فى الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات المسيحية . وكان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التى أعقبت سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين . واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدى الكفرة النجسة[٣٦] . وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء ، ولكن عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى ولد عبداً رقيقاً لبى الدعوة ، وزحف جيشه الحسن القيادة فى عام ١١٤٤ وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجى الشرقى ، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام . واغتيل زنكى وخلفه ابنه نور الدين ، وكان يماثله فى شجاعته ، ويفوقه فى قدرته . وكانت أخبار هذه الحوادث هى التى أثارت أوربا ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

الفصل الرابع

الحرب الصليبية الثانية : ١١٤٦ — ١١٤٨

واستغاث القديس برنار بالبابا يوجنيوس الثالث لينادى مرة أخرى بحمل السلاح . وكان يوجنيوس وقتئذ فى صراع مع الخارجين على الدين فى رومة نفسها ، فطلب إلى برنار أن يقوم هو نفسه بالدعوى . وكانت هذه فكرة سديدة لأن القديس كان أعظم شأناً من الرجل الذى نصبه هو بابا . فلما أن خرج من صومعته فى كليرڤو Clairvaux ليدعو الفرنسيين إلى الحرب خفتت أصوات الشك التى كانت مستكنة فى صدور المؤمنين ، وزالت المخاوف التى نشرتها القصص التى كانت تروى عن الحروب الصليبية الأولى . واتخذ برنار سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع وأقنعه بأن يحمل الصليب ، ثم وقف والملك إلى جانبه وأخذ يخطب الجمع الحاشد فى ڤيزلاى Vézelay (١١٤٦) ؛ ولم يكد يتم خطبته حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح ، وتبين أن ما كان معداً من الصلبان لا يكفيهم ؛ فمزق برنار مئزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات ، وكتب إلى البابا يقول إن « المدائن والحصون قد خلت من سكانها ، ولم يبق إلا رجل واحد لكل سبع نساء ، وترى فى كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء » . ولما أن ضم إليه فرنسا على هذا النحو انتقل إلى ألمانيا ، واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كنراد الثالث بأن الحرب الصليبية هى القضية الوحيدة التى يستطاع بها توحيد حزبى الجلف Guelf والههنستوفن Hohenstaufen اللذين كان نزاعهما يمزق الدولة تمزيقاً . وانضوى كثيرون من النبلاء تحت لواء كنراد ، من بينهم الشاب فردريك السوابى Frederick of Swabfa الذى

أصبح فيما بعد بربروسا Barbarossa والذى مات فى الحرب الصليبية الثالثة .

وبدأ كنراد والألمان سيرهما فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ ، وتبعهما الفرنسيون فى يوم عيد العنصرة ، وكانوا يسيرون فى حذر على مسافة منهم ، لأنهم لم يكونوا واثقين أيهما أشد عداء لهم : الألمان أو الأتراك . وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين الأتراك واليونان ؛ وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التى نهبت فى طريق الزاحفين أن أغلقت كثير منها أبوابها فى وجوههم ، ولم تقدم لهم إلا قليلا من المؤن أنزلتها فى سلات من فوق الأسوار . وعرض عليهم مانول كمنينوس Manuel Comnenus إمبراطور الرومان فى ذلك الوقت فى رقة ولطف أن تعبر الجيوش النبيلة مضيق الهلسپنت عند ستسوس Sestos ، بدل أن تخترق القسطنطينية ، ولكن كنراد ولويس رفضا هذا العرض ، وقامت طائفة فى مجلس لويس تدعوه إلى الاستيلاء على القسطنطينية وضمها إلى فرنسا ، ولكنه لم يستجب لهذه الدعوة . على أنه لا يبعد أن تكون أنباؤها قد ترامت إلى اليونان ؛ هذا إلى أن هؤلاء قد توجسوا خيفة من قامة فرسان الغرب ودروعهم ، وإن سرتهم حاشيتهم النسائية . فقد كانت اليانور المتعبة تصاحب زوجها لويس ، وكان الشعراء يصحبون الملكة ، ونبلاء فلاندرز وطلوشة يصطحبون معهم أزواجهم ، وكانت وسائل النقل التى مع الفرنسيين مثقلة بالحقائب والصناديق الملأى بالثياب ، ومواد التجميل ، يراد بها المحافظة على جمال تلك السيدات فى الجواء المتقلبة وفى صروف الدهر والحرب . وعجل مانويل بنقل الجيشين فى مضيق البسفور ، وأمد اليونان بالنقود المخفضة القيمة ليتعاملوا بها مع الصليبيين . وكثيراً ما أدى نقص المؤن فى آسية ، وارتفاع الأثمان التى يطالب بها اليونان ، إلى النزاع بين المنقذين ومن يريدون إنقاذهم من أعدائهم ، وكان مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة « الكفار » . وأصر كنراد على أن يسير فى الطريق الذى سارت فيه الحملة

الصليبية الأولى مخالفاً بذلك نصيحة مانويل . وتخبط الألمان فى سيرهم على الرغم من مرشديهم ، أو لعل ذلك كان بفعل مرشديهم ، فاجتازوا بطاحاً بعد بطاح خالية من موارد الطعام ، ووقعوا فى كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون ، ودب فى قلوبهم اليأس لكثرة من هلك منهم . والتقى جيش كنراد عند دورليوم ، حيث هزمت الحملة الأولى جيش قلج أرسلان ، بقوة المسلمين الرئيسية ، ومنى فيها بهزيمة ساحقة ، لم ينج فيها من جيش المسيحيين أكثر من واحد من كل عشرة . وخدع الجيش الفرنسى الذى كان متأخراً وراء الألمان بمسافة طويلة بما جاءه من أخبار عن انتصار الألمان ، فتقدم فى غير حذر ، وقضى على الكثيرين من رجاله الجوع وهجمات المسلمين . ولما وصل إلى أضاليا أخذ لويس يساوم رؤساء بحارة السفن اليونانية على نقل جيشه بطريق البحر إلى طرسوس أو أنطاكية المسيحيتين ، وطالب أولئك الرؤساء بأجور باهظة عن كل شخص تحمله السفن ، فقبل لويس وطائفة من النبلاء ، وإليانور ، وسرب من السيدات الانتقال ، وتركوا بقية الجيش الفرنسى فى أضاليا ، وانقضت جيوش المسلمين على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين (١١٤٨) .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ومعه النساء وليس معه جيش ، كما وصل إليها كنراد بفلول الجيش الذى غادر به راتسبون . وحشد الملكان من هذه الفلول وممن كان فى العاصمة من الجنود جيشاً مرتجلا ، وزحفا به على دمشق ؛ وكانت قيادته موزعة بين كنراد ، ولويس ، وبولدوين الثالث (١١٤٣ — ١١٦٢) . وشجر النزاع فى أثناء الحصار بين النبلاء على الطائفة التى تحكم المدينة بعد سقوطها ، وتسرب عمال المسلمين إلى الجيش المسيحى ، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان[٢٧] . ولما أن ترامت الأنباء بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير لفك الحصار عن دمشق تغلب دعاة الانسحاب ، فانقسم الجيش المسيحى إلى جماعات قليلة فرت إلى أنطاكية أو عكا ، أو بيت

المقدس . . وهزم كنراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلا بالعار إلى ألمانيا ، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا ، أما لويس فقد بقى فى فلسطين عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وارتاعت أوربا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جل جلاله أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير ، وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالى متهور ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم ، وقام فى أماكن متفرقة بعض المتشككة الجريئين يجادلون فى القواعد الأساسية للدين المسيحى . ورد عليهم برنار بقوله إن أساليب الله سبحانه لاتدركها عقول البشر ، وإن الوبال الذى حل بالمسيحيين ربما كان عقابا لهم على ما ارتكبوا من ذنوب . ولكن الشكوك الفلسفية التى أشاعها أبلار Abelard (المتوفى عام ١١٤٢) أخذت من ذلك الوقت تجد من يعبر عنها حتى بين جمهرة الشعب نفسه ، وسرعانما خبت جذوة التحمس للحرب الصليبية ، وتأهب عصر الإيمان للدفاع عن نفسه بالسيف والنار ضد الأديان الغريبة أو عدم الإيمان بأديان على الإطلاق .

الفصل الخامس

صلاح الدين

وكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت فى سوريا وفلسطين المسيحيتين . ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين منذ عام ١٠٩٩ قد تزيوا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان مناخ تلك البلاد ذات الشمس والرمال ؛ وزاد اتصالهم بمن يعيشون فى تلك المملكة من المسلمين ، فقل بذلك مابين الجنسين من تنافر وعداء ، فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم البلدان المسيحية ويبيعون أهلها بضاعتهم ، وكان المرضى من المسيحيين يفضلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين[٢٨] ، وأجاز رجال الدين المسيحيون إلى المسلمين أن يؤموا المساجد للعبادة ، وأخذ المسلمون يعلمون أبناءهم القرآن فى المدارس الإسلامية القائمة فى أنطاكية وطرابلس المسيحيتين ، وتعهدت الدول المسيحية والإسلامية بأن تضمن سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون من إحداهما إلى الأخرى . وإذ كان الصليبيون لم يأتوا معهم إلا بعدد قليل من زوجاتهم فقد اتخذ كثيرون ممن أقاموا منهم فى الدول المسيحية لهم زوجات سوريات ؛ وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الدول الجديدة ، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب اليومى العامة للسكان ، وعقد الأمراء المسيحيون أحلافاً مع الأمراء المسلمين ضد منافسيهم من المسيحيين ، كما كان الأمراء المسلمون فى بعض الأحيان يستعينون « بالمشركين » فى شئون السياسة والحرب ، ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين والمسلمين . وقد وصف الرحالة ابن جبير الذى طاف بسوريا المسيحية فى عام ١١٨٣ بنى دينه المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلقون معاملة حسنة على يد الفرنجة . وكان مما

ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ، ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التى وفدوا إليها والتى هى أرق من حضارتهم(٢٩) .

وظلت مملكة أورشليم اللاتينية فى سنى السلم الأربعين التى أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية ، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة . فقد مدّ نور الدين سلطانه من حلب إلى دمشق (١١٧٥) ، ولما مات أخضع صلاح الدين لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية (١١٧٥) ؛ ونشر تجار جنوى ، والبندقية ، وبيزا الاضطراب فى الثغور الشرقية بمنافساتهم القاتلة . وفى أورشليم أخذ الفرسان يتنازعون للاستيلاء على العرش . ولما استطاع جاى ده لوزينان أن يشق إليه طريقه بالختل (١١٨٦) ، استاءت لذلك طبقة الأشراف ، حتى قال أخوه جوفرى : « إن يكن جاى هذا ملكا فأنا خليق بأن أكون إلهاً » . ونصب ريجلند أمير شاتيون Reginald of Chatillon نفسه أميراً مستقلا فى قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن ، على حدود بلاد العرب ، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتينى وصلاح الدين ، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ، ويهدم قبر النبى فى المدينة ، ويدك أبنية الكعبة فى مكة(٣٠) . وأبحرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين فى البحر الأحمر ، واتجهت نحو المدينة ؛ ولكن سرية مصرية باغتتها ، وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلا فروا مع ريجلند ، وبعض الأسرى الذين سيقوا إلى مكة ، وذبحوا فى يوم عيد النحر (١١٨٣) .

وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء قد قنع بشن بعض الغارات الصغيرة على فلسطين ؛ فلما رأى ما فعله ريجلند ثارت حميته الدينية ، فأخذ ينظم من جديد جيشه الذى فتح به دمشق ، والتقى بقوات المملكة اللاتينية فى معركة غير حاسمة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية (١١٨٣) ، ثم هاجم ريجلند عند

الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت ، ولكنه لم يستطع دخول القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ وقع مع المملكة اللاتينية هدنة تدوم أربع سنين ؛ ولكن ريجنلد مل فترة السلم الطويلة ، فاعترض فى عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ، ونهب كثيرا من متاعها وأسر عدداً من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريجنلد : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . ولم يأت محمد ؛ ولكن صلاح الدين ثارت ثائرته ، فأعلن الجهاد على المسيحيين ، وأقسم ليقتلن ريجنلد بيده .

ونشبت المعركة الفاصلة فى الحروب الصليبية كلها عند حطين بالقرب من طبرية فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء ؛ ودخل المسيحيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول فى حر منتصف الصيف المحرق . وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين ، فأشعلوا النار فى الأعشاب البرية ، وحملت الريح الدخان فزاد متاعب الصليبيين . وفى هذا الاضطراب الأعمى انفصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ، وقتلوا عن آخرهم ؛ وبعد أن ظل الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح ، والدخان ، والظمأ خروا منهوكى القوى ، فقتل منهم من قتل وأسر الباقون . ولم تظهر جيوش المسلمين شيئاً من الرأفة بفرسان المعبد أو المستشفى ، وأمر صلاح الدين أن يؤتى له بالملك جاى واللورد ريجنلد ، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلا على أنه قد عفا عنه ، أما ريجنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة النبى ، فلما رفض قتله . وكان مما غنمه المسلمون فى هذه المعركة الصليب الذى كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم فى المعركة ، ويحمله فيها أحد القساوسة ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد . ولما رأى صلاح الدين أنه لم يبق أمامه جيش يخشى بأسه ، زحف لتحرير عكا ، وأطلق فيها سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وكافأ جنوده بما غنمه

من ثروة هذا المرفأ الكثير المتاجر ، وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت فى قبضة يده بضعة أشهر .

ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح ، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله ، وإنه لا يرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها . وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة فى تحصينها ، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلا دون أن يقف أحد فى سبيلهم ، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة ، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملا فى إنقاذهم ، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة ، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة ، أما إذا لم يكن لهم أمل فى هذه المعونة ، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، وتعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم(*) . ورفض المندوبون هذا العرض ، وقالوا إنهم لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منقذ الخلق[٣١] . ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثنى عشر يوما ، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب (٥٠ر٤٧ ؟ ريالا أمريكيا) عن كل رجل ، وخمس قطع عن كل امرأة ، وقطعة واحدة عن كل طفل ، أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت (٠٠٠ر٢٧٠ ؟ ريال أمريكى) التى بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ؛ وقبلت المدينة هذه الشروط « بالشكر والنحيب » على حد قول أحد الإخباريين المسيحيين ، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى فى عام ١٠٩٩ . وطلب العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء ، فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً ؛ وطلب بليان Balian زعيم المقاومين

(*) ألا ما أعظم هذا النبل !   (المترجم)

المسيحيين هدية مثلها ، وأجيب إلى ما طلب ، وأعتق ألفاً آخرين ، وحذا حذوه المطران المسيحي وفعل ما فعل صاحبه ، وقال صلاح الدين إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه ، وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسهما ، وإنه يفعل فعلهما ، ثم أعتق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن ؛ ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفا من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير فداء فكانوا أرقاء ؛ وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا فى واقعة حطين ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن (ومن بينهم جاى) أما « النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة »[٣٢](*) ذلك ما يقوله إرنول Ernoul مولى باليان .

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة أخرى ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن فى طربلس وأنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من يمينهما المغلظة ، وأخذا يدبران الخطط للثأر من صلاح الدين[٣٣] . وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى فى بيت المقدس ، وأعطى المسيحيين حق دخولها ، على أن يكونوا غير مسلحين ، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم[٣٤] ؛ وطهرت قبة الصخرة التى حولها المسيحيون إلى كنيسة بأن رشت بماء الورد ، وأزيل منها الصليب الذهبي الذى كان يعلوها ، بين تهليل المسلمين وأنين المسيحيين ؛ وسار صلاح الدين على رأس جيشه لحصار عكا ، ولما وجدها أمنع من عقاب الجو سرح الجزء الأكبر من جنده وانسحب وهو مريض متعب إلى دمشق (١١٨٨) فى الخمسين من عمره ؛

(*) يالها من شهادة منقطعة النظير . (المترجم)

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة

١١٨٩ - ١١٩٢

وكان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور أنطاكية ، وطرابلس مما ترك فى قلوبهم أثارة من الأمل . وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين إذا أدوا لها أجورها . وعاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا ، وأخذ يروى فى الاجتماعات التى تعقد فى إيطاليا ، وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربرسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو فى سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من فوره (١١٨٩) ، وحياه العالم المسيحى كله وخلع عليه اسم موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة . ولما عبر الجيش الجديد مضيق الهلسپنت عند غاليبولى ، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً ، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها ؛ واقتفت أثره العصابات التركية وأزعجته ، وقطعت عنه المؤن ، فمات مئات من رجاله جوعاً ، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق فى نهر سالف الصغير فى قليقية (١١٩٠) ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وكان رتشرد الأول (الأنكتار) الملقب « قلب الأسد » قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، فصمم هذا الملك على أن يجرب حظه مع المسلمين . وإذ كان يخشى أن يغير الفرنسيون فى أثناء غيابه على الأملاك الإنجليزية فى فرنسا ، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس ، ووافق الملك الفرنسى ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والعشرين

من عمره ، وتلقى الملكان الشابان الصليب من وليم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب فى فيزلاى ، وأبحر جيش رتشرد المؤنف من النورمان (لأن الإنجليز لم يشترك منهم فى الحروب الصليبية إلا القليل) من مرسيليا ، وأبحر جيش فليب من جنوى على أن يلتقى الجيشان فى صقلية (١١٩٠) ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا فى نزاعهما ولهوهما نصف عام . وأغضب تانكرد ملك صقلية رتشرد ، فانتزع هذا منه مسينا « بأسرع مما يتطلبه من القس ترتيل صلاة السحر » ، ثم ردها إليه نظير أربعين ألف أوقية من الذهب ؛ فلما توفر له المال بهذه الطريقة أبحر بجيشه إلى فلسطين . وتحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص ، وقبض حاكمها اليونانى على بحارة السفن وزجهم فى السجون ، فوقف رتشرد عندها بعض الوقت ، وفتح الجزيرة ، وأعطاها إلى جاى ده لوزينان ملك بيت المقدس المشرد . وبلغ عكا فى يونيه من عام ١١٩١ بعد عام من مغادرته فيزلاى ، وكان فليب قد سبقه إليها . وكان حصار المسيحيين لعكا قد دام تسعة عشر شهراً ، وهلك فيه منهم عدة آلاف ، ثم استسلم المسلمون بعد أسابيع قليلة من وصول رتشرد ؛ وطلب المنتصرون من المغلوبين مائتى ألف قطعة لن الذهب (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأن يسلموا إليهم ١٦٠٠ أسيراً من صفوة أهل المدينة ، وأن يردوا إليهم الصليب الحق . ووعدهم أهل المدينة أن يجيبوهم إلى ما طلبوا ؛ وأيد صلاح الدين هذا الاتفاق ، وسمح للمسلمين من سكان عكا ما عدا الألف والستمائة السالفى الذكر أن يغادروا المدينة ومعهم من المؤن ما يستطيعون حمله . ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية مؤلفة من ١٠٫٥٠٠ رجل ، وأصبح رتشرد القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة .

وبدأت وقتئذ طائفة من الوقائع المشوشة الفذة ، تعاقبت فيها الضربات والمعارك مع التحيات والمجاملات ، وأظهر فيها الملك الإنجليزى والسلطان الكردى

بعض ما تتصف به حضارتاهما ودیناهما من أنبل الصفات وأظرفها . ولیس معنى هذا أن کلا الرجلین کان من أولیاء الله الصالحین ، فقد کان فی وسع صلاح الدین أن یکیل بکل ما لدیه من بأس الضربات الممیتة لعدوه إذا بدا له أن أهدافه الحربیة تتطلب هذا ؛ وکذلك سمح رتشرد ذو النزعة الروائیة الشعریة لنفسه أن یفعل ما لا یتفق مع حیاته النبیلة . من ذلك أنه لما تباطأ زعماء عکا المحاصرة فی تنفیذ شروط الاتفاق المعقود بینهم ، أمر رتشرد أن تضرب رءوس ٢٫٥٠٠ من الأسرى المسلمین أمام أسوار المدینة لینبه بذلك الأهلین إلى وجوب الإسراع فی تنفیذ الشروط[٣٥] ؛ فلما بلغ هذا النبأ صلاح الدین ، أمر بأن یعدم کل من یقع بعدئذ فی الأسر أثناء المعارك مع الملك الإنجلیزى . ثم بدل رتشرد نغمته ، فعرض أن ینهى الحروب الصلیبیة بأن یزوج أخته چوان للعادل أخى صلاح الدین ، ولکن الکنیسة عارضت هذه الفکرة فتخلى رتشرد عنها .

وأیقن رتشرد أن صلاح الدین لن یصبر على الهزیمة ، فأعاد تنظیم قوته ، وتأهب للسیر ستین میلا نحو الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر لیفك الحصار عن یافا التى کانت وقتئذ فی أیدى المسیحیین ویحاصرها المسلمون ، ورفض کثیر من النبلاء أن یسیروا معه ، وفضلوا أن یتخلفوا فی عکا ، ویحیکوا الدسائس للاستیلاء على عرش فلسطین ، لأنهم کانوا واثقین من أن رتشرد سیستولى علیها . وعاد الجنود الألمان إلى بلادهم ، وکثیرا ما کان الجنود الفرنسیون یعصون أمر الملك الإنجلیزى ویفسدون علیه خططه الحربیة ؛ کذلك لم یکن العامة مستعدین لبذل جهود جدیدة فی سبیل فلسطین . ویقول المؤرخ الإخبارى المسیحى لحملة رتشرد الصلیبیة إن المسیحیین المتصبرین بعد هذا الحصار الطویل :

استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن یغادروا المدینة الملیئة بأسباب النعیم — أحسن أنواع الخمور ، وأجمل الغانیات . وأطلق الکثیرون منهم لشهواتهم العنان

فانحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم ، حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم ونهمهم[٣٦] .

وزاد الطين بلة أن رتشرد أمر ألا يصحب الجيش من النساء إلا الغسالات ممن لا يغرين الجند بالإثم . وعوض رتشرد عيوب جنوده بمقدرته الفذة على القيادة ، وحذقه فى الهندسة العسكرية ، وشجاعته الملهمة فى الميدان . وكان فى هذه الصفات كلها متفوقاً على صلاح الدين وعلى سائر قادة الحروب الصليبية المسيحيين .

والتقى جيشه بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم (١١٩١) ، وطلب مواصلة القتال ، ولكن رتشرد سحب جنوده إلى داخل أسوار يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح ؛ وبينا كانت المفاوضات دائرة بين القائدين اتصل كنراد مركيز منفرات Conrad Marquis of Montferrat ، الذى كان يتولى أمر صور ، فى مفاوضات مستقلة مع صلاح الدين ، وعرض عليه أن يصبح حليفه ، وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين ، إذا وافق صلاح الدين على أن يتملك هو صيدا وبيروت . ولكن صلاح الدين أجاز لأخيه ، على الرغم من هذا العرض ، أن يعقد مع رتشرد صلحاً يترك للمسيحيين جميع ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ، ونصف بيت المقدس . وبلغ من سرور رتشرد بهذه الشروط أن خلع على ابن السفير المسلم لقب فارس (١١٩٢) ؛ لكنه حين سمع بعد قليل من الوقت أن صلاح الدين يواجه بعض المتاعب فى الشرق ، رفض شروطه ، وحاصر داروم واستولى عليها ، وتقدم حتى أصبح على بعد اثنى عشر ميلا من بيت المقدس . ودعا صلاح الدين جنوده إلى حمل السلاح ، وكان قد سرحهم ليستريحوا فى فصل الشتاء ، وحدث الشقاق فى هذه الأثناء فى معسكر المسيحيين ، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التى فى طريق بيت المقدس قد سممت ، وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب ،

وعقدوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه ، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة البعيدة عنهم بنحو ٢٥٠ ميلا . وكان رتشرد قد سئمت نفسه هذه الفعال ، وعافها ، وملأ اليأس قلبه ، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر فى العودة إلى إنجلترا .

ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا ، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر ، أبى عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه ، وبعث فى نفسه روحا جديدة ، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود . ولما وصل إلى الميناء نادى بأعلى صوته « الويل للقاعد ! » وقفز إلى وسطه فى البحر ، وأخذ يلوح ببلطته الدنمرقية الشهيرة ويقتل كل من يقف فى سبيله ، ثم قاد جنوده إلى داخل المدينة ، وأخرج منها جميع الجنود المسلمين . كل هذا ولم يكد صلاح الدين يعرف ما حصل (١١٩٢) . فلما عرفه استدعى القسم الرئيسى من جيشه لإنقاذ المدينة ، وكان عدد رجاله يربو كثيراً على عدد جنود رتشرد الثلاثة الآلاف ، ولكن شجاعة الملك وجرأته أكسبتاه النصر . ولما رأى صلاح الدين أن رتشرد راجلا بعث إليه بجواد من عنده ، وقال إن من العار أن يقاتل هذا الرجل الشهم راجلا . وغضب جنود صلاح الدين من هذا العمل وأمثاله فلم يعودوا يطيقون صبراً عليه ، وأخذوا يلومونه على أن ترك جنود حامية يافا أحياء ليقاتلوه فيها مرة أخرى . ثم سار رتشرد آخر الأمر — إذا جاز لنا أن نصدق رواة القصة المسيحيين — أمام جيش المسلمين وحربته مدلاة إلى جانبه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته[٣٧] .

ثم تبدلت الحال فى اليوم الثانى ، وجاءت الأمداد إلى صلاح الدين ، واستولى الملل مرة أخرى على رتشرد ، وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم ، فأرسل يطلب الصلح من جديد . واشتدت عليه الحمى فطلب فاكهة وشرابا بارداً ،

فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج . وبطبيبه الخاص . وفى اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ وقع البطلان شروط صلح يدوم ثلاث سنين ، وقسمت فلسطين قسمين ؛ فاحتفظ رتشرد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا ؛ وسمح للمسلمين والمسيحيين بحرية الانتقال من أحد القسمين إلى الآخر ، وتعهد السلطان بحماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين (ولعل التجار الإيطاليين الذين يهمهم قبل كل شىء أن يسيطروا على الثغور البحرية ، قد أقنعوا رتشرد بالتخلى عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على المدن الساحلية) . وأقيمت المآدب والألعاب احتفالا بالصلح ؛ ويقول صاحب سيرة رتشرد فى هذا : « والله وحده يعلم مقدار السرور الذى ملأ قلوب الشعبين ، وهو سرور يجل عن الوصف »[٣٨] . وزالت إلى حين الأحقاد من الصدور ؛ ولما ركب سفينته إلى إنجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ، ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولى على بيت المقدس . وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها رتشرد (الأنكتار) لا أى رجل سواه[٣٩] .

وبعد فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله قد غلبت بهاء رتشرد ، وشجاعته ، ومهارته الحربية ؛ كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والإخلاص فى المقصد ؛ وكان قصر خط التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت الفضائل والأخطاء المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى ؛ فقد كان صلاح الدين مستمسكاً بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ؛ ولكنه كان فى العادة شفيقاً على الضعفاء ، رحيما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموا

جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى « الخاطئ » فى ظنهم رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا[٤٠] ، وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية[*] :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ؛ وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ؛ وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر . فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ؛ ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ؛ واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم[**] » .

ومات فى عام ١١٩٣ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين .

(*) الحق أن عظمة صلاح الدين منشؤها استمساكه بأوامر دينه واتصافه بفضائل هذا الدين . . (المترجم)

(**) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الوصية عن كتاب « صلاح الدين » لاستانلى لين پول ونقلناها نحن عن سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تأليف القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . (المترجم)

الفصل السابع

الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ — ١٢٠٤

أفلحت الحملة الصليبية الثالثة فى أخذ عكا ولكنها لم تفلح فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميئسة لحملة اشترك فيها أعظم ملوك أوربا . وكان غرق بربرسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق رتشرد ، ودسائس الفرسان المسيحيين فى الأرض المقدسة التى لم يرعوا فيها واجباً أو ضميراً ، أو النزاع الذى قام بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، كل هذا قد حطم كبرياء أوربا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحى بها . ولكن موت صلاح الدين المبكر ، وانقسام دولته بعد وفاته ، بعث فى قلوب العالم المسيحى آمالا جديدة ، فلم يكد إنوسنت الثالث Innocent III يجلس على عرش البابوية (١١٩٨ — ١٢١٦) ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحى ببذل مجهود جديد ، وقام فلك ده نوبى Fnlk de Neuilly ، وهوقس ساذج ، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة . وكانت نتيجة الدعوة ميئسة ؛ فقد كان الإمبراطور فردريك الثانى طفلا فى سن الرابعة ؛ وكان فليب أغسطس يرى أن حملة صليبية واحدة تكفيه طوال حياته ، ونسى رتشرد كلماته الأخيرة لصلاح الدين فأخذ يسخر من دعوة فلك ، ويقول له : « إنك تدعونى إلى التخلى عن بناتى الثلاث — الكبرياء ، والبخل ، والانغماس فى الملاذ ، فدونك هى لأجدر الناس بها : كبريائى لفرسان المعبد ، وبخلى لرهبان سيتو Citeaux ، وانغماسى فى الملاذ إلى المطارنة »[٤٢] . ولكن إنوسنت واصل دعوته ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الخصبة قاعدة للزحف

على بيت المقدس : ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل ٤٥٠٠ من الفرسان والخيول ، و ٩٠٠٠ من أتباعهم ، وعشرين ألفاً من المشاة ، وما يكفي هذه القوة من المؤن تسعة شهور ، كل هذا في نظير ٨٥٫٠٠٠ مارك من الفضة (نحو ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) . ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية(٤٣) . على أن البنادقة لم يكن في عزمهم أن يهاجموا مصر ، فقد كانوا يكسبون منها الملايين في كل عام بما يصدرونه إليها من الخشب ، والحديد والسلاح ، وباستيراد العبيد ؛ ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياع هذه التجارة بالاشتراك في الحرب ، أو باقتسامها مع بيزا وجنوى . ولهذا فإنهم وهم يفاوضون لجنة من الصليبيين عقدوا حلفا سريا مع سلطان مصر يضمنون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو (١٢٠١)(٤٤) . ويقول إرنول Ernoul المؤرخ الإخباري المعاصر إن البندقية حصلت على رشوة كبيرة نظير تحويل الحملة الصليبية عن فلسطين(٤٥) .

وتجمعت الجيوش الجديدة في مدينة البندقية في صيف ١٢٠٢ . وكان من أبرز رجالها المركيز بنغاس من منت فرات ، والكونت لويس من بلوا Bliois ، والكونت بلدوين من فلاندرز ، وسيمون ده منت‌فورت الذي يستمد شهرته من الألبجنسيين ، وكان من بين أعيانها الكثيرين چيوفروا ده ڤيلهاردون Geoffroi de Villehardouin (١١٦٠ — ١٢١٣) ، مارشال شمپانيا الذي لم يقتصر عمله على ما اضطلع به من دور رئيسي في الأعمال السياسية والحربية المتصلة بالحرب الصليبية ، بل إنه سجل تاريخها المعيب في مذكرات سترت معايبها ، وكانت بداية النثر الفرنسي الأدبي . وجاء معظم الصليبيين من فرنسا جرت بذلك عادتها ؛ وكان قد طلب إلى كل رجل أن يأتي معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ الـ ٨٥٫٠٠٠ مارك التي لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها : ونقص المبلغ المتجمع عن الواجب أداؤه

بأربعة وثلاثين ألف مارك ، وحينئذ عرض إنريكو دندولو Enrico Dandolo الدوج الذى لا يكاد يبصر « ذو القلب العظيم » ، مدفوعاً إلى ما عرضه بكل ما أمدته به من تقى وقداسة سنوه الأربع والتسعون ، عرض هذا الدوج أن ينزل عن المبلغ الباقى إذا ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا Zara ، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدرياوى بعد البندقية نفسها ؛ وكانت البندقية قد استولت عليها فى عام ٩٩٨ ، وكثيراً ما خرجت عليها وأخضعت لها ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه من أملاك المجر ، ومنفذها الوحيد إلى البحر . وكانت ثروتها وقوتها آخذتين فى النماء ، ولهذا كانت البندقية تخشى منافستها لها فى تجارة البحر الأدرياوى . ووصف إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنىء ، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان ، غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب ، وهاجم الأسطولان المتحدان زارا ، واستوليا عليها بعد خمسة أيام ، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم ؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة ، فغفر لهم ، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة ؛ فشكروا له غفران الخطيئة ، واحتفظوا بالغنيمة ؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان ، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحملات الصليبية . ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر ، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم ؛ فقد استردت الجزء الأكبر من آسية الصغرى ، وكانت تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى ما حل من الضعف بالغرب وبالإسلام فى كفاحهما للاستيلاء على فلسطين . وكان الإمبراطور مانيول Manuel قد ألقى القبض على آلاف من البنادقة من القسطنطينية وألغى إلى حين ما للبندقية فى تلك المدينة من امتيازات تجارية (١١٧١)[٤٦] ، ولم يستنكف إيزاك أنجيلوس Isaac Angelus

أن يتحالف مع المسلمين[٤٧]، وفى عام ١١٩٥ خلعه أخوه ألكسيوس الثالث Alexius III وسجنه وفقأ عينيه ؛ وفر ابن إسحق واسمه أيضاً ألكسيوس إلى ألمانيا، ثم جاء إلى البندقية فى عام ١٢٠٢، واستغاث بمجلس شيوخها و بالصليبيين أن ينقذوا أباه ويعيدوه إلى عرشه ، ووعدهم فى نظير هذا العمل أن تساعدهم بيزنطية فى حربهم على الإسلام . وعقد دندولو والأشراف الفرنسيون مع الأمير الشاب اتفاقا عظيم الفائدة لهم : فقد أقنعوه أن يتعهد بأداء مائتى ألف مارك فضى إلى الصليبيين، وأن يجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل للخدمة فى فلسطين ، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للبابا فى رومة[٤٨] . ولكن البابا إنوسنت الثالث نهى الصليبيين على الرغم من هذه المنح السخية عن مهاجمة القسطنطينية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا ؛ ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا فى الحملة ، ورأى قسم من الجيش أنه فى حل من يمينه التى أقسمها بالاشتراك فى الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانه ، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا ظلت مستحوذة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها ، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة أقلع فى أول يوم من شهر أكتوبر عام ١٢٠٢ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينا كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus[٤٩] ، ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٣ . ويقول فيل هاردون فى وصفها :

وأؤكد لكم أن أولئك الذين لم يروا القسطنطينية من قبل قد فتحوا عيونهم واسعة ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن فى العالم كله مدينة فى مثل هذا الثراء ، حين أبصروا الأسوار الشامخة ، والأبراج الضخمة التى تتألف منها ، والقصور المنيفة ، والكنائس العالية التى لا يحصى عددها ، ولا يعتقد إنسان بوجودها إلا إذا كان قد رآها بعينيه ، وعرف ما بلغته هذه المدينة سيدة المدن

كلها من الطول والعرض . واعلموا أنه لم يكن بيننا رجل مهما بلغ من الشجاعة ، إلا اقشعر بدنه حين شاهدها ؛ وليس فى هذا شيء من العجب ، لأن أحداً من الناس لم يقم منذ بداية العالم بعمل يضارع فى جلاله هجومنا على تلك المدينة(٥٠) .

وأرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى ألكسيوس طلبوا فيه : أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير ، الذى كان يصحب الأسطول المغير ؛ فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر ، بعد مقاومة ضعيفة ، أمام أسوار المدينة ، وكان دندولو الشيخ المسن أول من وطئت قدماه الأرض . وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا ، وأخرج الأشراف اليون إسحق أنجيلوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش ، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه . وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من إسحق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده دخل ندولو والأشراف المدينة ، وتوج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه . ولما عرف اليونان الثمن الذى اشترى به هذا النصر انقلبوا عليه غاضبين ساخرين ؛ فأما العامة فقد أخذوا يحسبون مقدار ما يجب عليهم أداؤه من الضرائب لجمع ما وعد به منقذيه من المال ، وأما الأشراف فقد ساءهم وجود أرستقراطية غربية وقوة أجنبية فى المدينة ، وأما رجال الدين فقد رفضوا فى غضب وحنق أن يخضعوا لرومة . وحدث فى هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية ، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار فى المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً . وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع ، وأعاد إسحق إنجيلوس إلى السجن ، وجلس على العرش وتسمى باسم ألكسيوس الخامس دوكاس

Alexius V. Ducas ، وأخذ يعد جيشاً يطرد به اللاتين من معسكرهم فى غلطة . ولكن اليونان كانوا قد قضوا دهراً طويلا وهم آمنون وراء أسوارهم ، فلم يحتفظوا بشيء من الفضائل المتصلة باسمهم الرومانى ، فاستسلموا بعد شهر من الحصار ؛ وفر ألكسيوس الخامس ، وأخذ اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم (١٢٠٤) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة ، فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومة نفسها على أيدى الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل فى هذه الحوادث كثيرون من اليونان — فلعل عدد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ؛ واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والحوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ؛ ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ فى أوربا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة أياصوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣[٥١] ، فقد قطع مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه[٥٢] . وكان البنادقة ، وهم الذين يألفون المدينة التى كثيراً ما رحبت بهم تجاراً ، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها ، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص ، وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقمشة ، والأرقاء ، والجواهر ؛ ونقلت الأربعة الجياد البرنزية التى كانت تطل على المدينة اليونانية ، وجمل بها ميدان القديس مرقس Piazza di San Marco ؛ وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس[٥٣] . وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن

إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ؛ فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين[٥٤] . وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل ، فضاعت مسرحيات سفكليز ويوربيديز التى ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

ولما خفت حدة الاضطراب والنهب اختار أعيان اللاتين بلدوين أمير فلاندرز ملكا لمملكة القسطنطينية اللاتينية (١٠٢٤) ، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية . وقسمت الإمبراطورية البزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلا منها أمير نبيل إقطاعى . وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة فاستولت على هدريانوبل ، وإبيروس ، وأكارنانيا Acarnania ، والجزائر الأيونية ، وجزء من البلوپونيز ، وجزيرة عوبية ، وجزائر الأرخبيل ، وغاليبولى ، وثلاثة أثمان القسطنطينية . وانتزعت من أهل جنوى « المصانع » البزنطية ، والمعاقل الخارجية ، واختار دندولو لنفسه ، وكان وقتئذ يترنح فى ثيابه الإمبراطورية ، لقب « دوج البندقية ، وسيد ربع الإمبراطورية الرومانية وثمنها »[٨٥] . ولم يطل عمره بعد هذا فقد مات فى زهو هذا النصر الذى ناله بفعال أثيمة لم يؤنبه عليها ضميره . واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين ، ووافق إنوسنت الثالث على الاتحاد الرسمى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية عن رضا

وطيب خاطر ، وإن ظل يحتج على الهجوم . وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم فى الأملاك الجديدة ، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة ، لم تعمل فيها عملا ما . ولعل الصليبيين قد ظنوا أن القسطنطينية بعد استيلائهم عليها ، ستكون قاعدة ضد الأتراك أقوى مما كانت وهى بيزنطية ، ولكن النزاع بين اللاتين واليونان الذى دام أجيالا طوالا أنهك قوى العالم اليونانى ولم تفق الإمبراطورية البيزنطية من هذه الضربة القاصمة ، ومهد استيلاء اللاتين على القسطنطينية إلى استيلاء الأتراك عليها بعد مائتى عام من ذلك الوقت .

الفصل الثامن

إخفاق الحملات الصليبية

١٢١١ — ١٢٩١

لقد كانت فضائح الحملة الصليبية الرابعة ، مضافة فى نحو عشر سنين إلى إخفاق الحملة الثالثة ، مما لا يرتاح له الدين المسيحى الذى واجه بعد زمن قليل بعث فلسفة أرسطو ، وفلسفة ابن رشد الدقيقة القائمة على تحكيم العقل . وأخذ المفكرون يجهدون عقولهم ليفسروا للناس كيف رضى الله أن يهزم ناصروه فى تلك القضية المقدسة ، ولم يهب النصر إلا للبنادقة الأدنياء . ولاح لذوى النفوس الساذجة فى خلال هذه الشكوك أن لا سبيل إلى استرداد حصن المسيح الحصين إلا بالطهر والتجرد من الذنوب . ولهذا قام فى عام ١٢١٢ شاب ألمانى لايعرف التاريخ من ماضيه إلا أن اسمه نقولاس Nicholas ، وأعلن أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال . وعارضه فى ذلك رجال الدين وغير رجال الدين ، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً فى عصر تسوده أكثر مما تسود سائر العصور موجات الحماسة العاطفية . وحاول الآباء بكل ما وسعهم من الجهد أن يمنعوا أبناءهم من الاستجابة لدعوته ، ولكن آلافاً من الغلمان (وبعض البنات فى ثياب الغلمان) لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة تسللوا من بيوتهم وساروا وراء نقولاس ، ولعلهم قد سرهم أن ينجوا من استبداد البيت إلى حرية الطريق . وخرج القسم الأكبر من هذا الحشد المؤلف من ثلاثين ألف طفل ، من مدينة كولونى ، وساروا بإزاء نهر الرين ، وفوق جبال الألب . وأهلك الجوع عدداً كبيرا منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين ، واختلط اللصوص بالزاحفين وسرقوا ثيابهم وطعامهم ؛ ووصل من نجا منهم إلى

جنوى حيث سخر منهم الإيطاليون عبدة المصالح الدنيوية ؛ ولم يجدوا سفناً تقلهم إلى فلسطين ؛ فلما استغاثوا بإنوسنت الثالث أجابهم بلطف أن يعودوا إلى أوطانهم ، فنهم من سمعوا النصيحة وقفلوا راجعين وهم حزانى مكتئبون ، فعبروا جبال الألب ، ومنهم من استقروا فى جنوى ، وتعلموا فيها أساليب العالم التجارية .

هذا ما حدث فى ألمانيا ، أما فى فرنسا فقد قدم إلى فليب أغسطس فى ذلك العام نفسه راع فى الثانية عشرة من عمره يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره الملك أن يعود إلى غنمه ، ولكن عشرين ألفاً من الغلمان اجتمعوا رغم هذا وساروا وراء استيفن ، واجتازوا فرنسا إلى مرسيليا ، وكان استيفن قد وعدهم أن البحر سينشق عند هذه المدينة ليمكنهم من الوصول إلى فلسطين راجلين ، ولم ينشق لهم البحر ، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا عليهم أن ينقلاهم إلى حيث يقصدون دون أن يتقاضوا منهم أجراً . فازدحم الأطفال فى سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر . وتحطمت اثنتان من هذه السفن بالقرب من سردانية وغرق كل من كانوا فيها ، وجيء بالباقين من الأطفال إلى تونس أو مصر حيث بيعوا فى أسواق الرقيق ، وشنق صاحبا السفن التى أقلتهم بأمر فردريك الثانى (٥٦) .

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه إنوسنت الثالث فى أثناء انعقاد مجلس لاتران الرابع دعوة أخرى إلى أوربا لاستعادة الأراضى المقدسة ، وعاد إلى الخطة التى حالت البندقية دون تنفيذها — خطة الهجوم على مصر . وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا ، والنمسا ، والمجر فى عام ١٢١٧ بقيادة أندرو Andrew ملك المجر ، وأفلحت فى الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقى . وسقطت المدينة فى أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملا ، وعرض عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ، ويعيد الصليب الحق . وطلب

الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربيه ، ولكن الكامل رفض هذا الطلب ، وبدأت الحرب من جديد ، ولكنها لم تجر كما يشتهى الصليبيون ، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ، ثم عقدت هدنة تدوم ثمانى سنين رد إلى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق ، ولكن دمياط أعيدت إلى المسلمين ، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر .

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وإيطاليا الشاب ؛ ذلك أنه أقسم يمين الصليبيين فى عام ١٢١٥ ، ووعد أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ فى إيطاليا ، مضافاً إليها فى أغلب الظن ضعف إيمانه ، لم يمكناه من أن يبر بقسمه ووعده ؛ فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين ، على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية . فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا أرسل رسله إلى الملك الكامل ، وكان يقود جيش المسلمين فى نابلس ، ورد عليه الكامل رداً جميلا ، وأعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب ، وآدابهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء ، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا فى عام ١٢٢٩ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا ، ويافا ، وصيدا ، والناصرة ، وبيت لحم ، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين . وأجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم فى موضع هيكل سليمان ، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق فى بيت لحم . ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأسرى من الطرفين المتعاقدين ، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور (٥٧) . وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز

عنه المسيحيون فى مائة عام كاملة ، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان ، تحترم كلتاهما الأخرى ، ووجدتا أن فى وسعهما أن يعيشا معاً فى صفاء ووئام . واغتبط سكان الأرض المقدسة المسيحيون ، ولكن جريجورى التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحى ، وأبى أن يقرها . ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون فى فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفا بين القوة المسيحية فى آسية ، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (١٢٤٤) . واستنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم ، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها . وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين فى غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين (أكتوبر سنة ١٢٤٤) .

وبينا كان إنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فردريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور فى إيطاليا نفس المنح والمزايا التى يمنحها من يخدمون فى الأراضى المقدسة ، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة . ذلك أنه لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط أورشليم ، وأقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه ؛ ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثوابا غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب . وبذل الملك جهده للتوفيق بين إنوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوربا متحدة . لكن إنوسنت رفض وساطته ، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهبا يدعى چيوفنى ده پيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك . ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول . فلما حل عام ١٢٤٨ سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم چانسيد چوانفيل الذى روى أعمال الملك فى تاريخه الذائع الصيت . ووصلت الحملة إلى دمياط ، واستولت عليها بعد

قليل من وصولها ، ولكن فيضان النيل السنوى الذى لم يحسب الصليبيون حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ فى وقت وصول الصليبيين ، وغمر البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم فى دمياط مدة نصف عام . على أنهم لم يندموا لما أصابهم لأن « الأشراف » كما يقول چوانفيل « أخذوا يولمون الولائم ... كما أخذ العامة يصاحبون النساء الفاجرات »[٥٨] . ولما واصل الجيش زحفه ، كان الجوع والمرض ، والفرار ، قد أنهكت قوته وأنقصت عدده ، وأضعفه اختلال نظامه ، فنى بهزيمة ساحقة عند المنصورة رغم استبساله فى الدفاع عن نفسه ، وتبدد شمله وولى الجنود الأدبار ، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم لويس نفسه ، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (١٢٥٠) . وعالجه من مرضه طبيب عربى ، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدى نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسى (٣٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما أن قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها ، وقبل نصف الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدى إليه النصف الآخر[٥٩] . وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا ، وأقام فيها أربع سنين ، يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضم إليه فى حرب جديدة . وبعث فى هذه الأثناء وليم الربركوازى Wlliam of Rubruquois إلى خان المغول يعرض عليه للمرة الثانية دعوة إنوسنت — ولكنه لم يلق منه غير ما لقى فى الدعوة الأولى : ثم عاد فى عام ١٢٥٤ إلى فرنسا .

وكانت السنون التى قضاها فى الشرق قد هدأت ما كان بين المسيحيين فيه من شقاق ، فلما غادره عاد هذا الشقاق سيرته الأولى ؛ فقامت بين أهل البندقية وجنوى بين عامى ١٢٥٦ و ١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، انضمت فيها

جميع الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك ، وأنهكت قوى المسيحين فى فلسطين . واغتنم بيبرس أحد السلاطين المماليك فى مصر هذه الفرصة فزجف بجيشه على الساحل واستولى على المدن المسيحية بمدينة فى إثر مدينة : قيصرية (١٢٦٥) ، وصفد (١٢٦٦) ، ويافا (١٢٦٧) ، وأنطاكية (١٢٦٨) . وقتل من وقع فى الأسر من المسيحيين أو استرقوا ، وقاست أنطاكية من النهب والحرق ما لم تفق منه قط فيما بعد .

وثارت حمية لويس من جديد فى شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى (١٢٦٧) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا إنها مخافة بلهاء ، وأبوا أن ينضموا إليه ؛ وحتى چوانڤيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك فى الحملة الصليبية التالية . ونزل الملك — الحصيف فى حكمه ، الأخرق فى حربه — بقواته القليلة فى بلاد تونس ؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أمرها على اعتناق الدين المسيحى ، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب . ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض إفريقية حتى « أصيب بنزلة معوية شديدة »[٦٠] ومات وهو يردد لفظ « بيت المقدس » (١٢٧٠) . وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدورد ، ولى عهد إنجلترا فى عكا ، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها ، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزى .

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين فى بلاد الشام ، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية . وطلب السلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء ، ولم يجب إلى طلبه ، فلم يسعه إلا أن يزحف على عكا أقوى المعاقل الأمامية المسـيحية فى فلسطين ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً . فلما سقطت فى

يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (١٢٩١) . وسرعان ما سقطت بعدئذ فى أيدى المسلمين مدائن صور ، وصيدا ، وحيفا ، وبيروت . وبقى شبح مملكة أورشليم اللاتينية ماثلا إلى حين فى ألقاب بعض الزعماء ، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية « ليواصلوا السجال العظيم » ، ولكن أوربا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها .

الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التى دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس فى أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم . يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التى كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق فى أيدى المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التى انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية ، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية فى رقتها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها وأساليبها الحربية . يضاف إلى هذا كله أن الجهود الكبيرة التى بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوربا بتوجيهها إلى غرض واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية ، وحروب البابوات « الصليبية » على الأباطرة .

ولم يفق الإقطاع مما أصابه من إخفاق فى الحروب الصليبية إلا بأشد الصعاب . ذلك أن الذى كان يوائم النظام الإقطاعى هو المغامرات والبطولة الفردية فى أضيق نطاق ، ولهذا لم تعرف كيف توفق بين أساليبها الخاصة وبين مناخ الشرق والحرب فى الميادين النائية ، وأخطأت خطأ لا يغتفر لها فى حل مشكلة التموين فى خط مواصلاتها الطويل ؛ ثم إنها قد استنفدت فى تلك الحروب ما لديها من عتاد ، وفقدت روحها المعنوية حين لم تقو على فتح بيت المقدس المسلمة بل فتحت بزنطية المسيحية . وكان كثيرون من الفرسان قد باعوا أملاكهم أو رهنوها للمرابين

أو الكنيسة أو الملوك ليحصلوا على المال اللازم للحروب ؛ وتخلوا من أجل المال عما كان لهم من حقوق فى كثير من المدن القائمة فى أملاكهم ، وأعفوا كثيرين من الفلاحين من الضرائب والالتزامات الإقطاعية المستقبلة بأثمان عاجلة ، وأفاد آلاف من أرقاء الأرض من الامتيازات التى هيأتها لهم الحروب الصليبية بأن تركوا الأراضى التى كانوا يعملون فيها ، ولم يرجع آلاف منهم إلى الضياع . وبينا كانت الثروة الإقطاعية والأسلحة الإقطاعية تتحول نحو الشرق ، كان سلطان الملوك الفرنسيين يقوى وثراؤهم يزداد ، فكانت هذه القوة والزيادة من أهم آثار الحروب الصليبية . وضعفت فى الوقت عينه قوة الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية : فقد ضاعت هيبة أباطرة الغرب لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التى أعلت شأنها الحروب الصليبية . أما الدولة الشرقية ، فلم تستعد قط ما كان لها فى سابق عهدها من قوة وشهرة ، رغم مولدها الجديد فى عام ١٢٦١ . لكن الحروب الصليبية قد أفادت العالم الغربى هذه الفائدة : وهى أنه لولاها لاستولى الأتراك على القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣ بزمن طويل ، ذلك أنها أضعفت قوة المسلمين أنفسهم وجعلتهم أقل مقاومة لتيار المغول الجارف .

وحلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية . من هذا أن فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحة عكا فروا إلى قبرص ، وانتزعوا فى عام ١٣١٠ رودس من المسلمين ، واستبدلوا باسمهم القديم اسم فرسان رودس ، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها الأتراك فى عام ١٥٢٢ ، فانتقلوا منها إلى مالطة وأصبحوا فرسان مالطة ، وظلوا باقين حتى حل نظامهم فى عام ١٧٩٩ . أما الفرسان التيوتون فقد نقلوا مقرهم الرئيسى بعد سقوط عكا إلى مارينبورج **Marienburg** فى بروسيا التى انتزعوها من الصقالبة وضموها إلى ألمانيا . وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم فى فرنسا بعد أن أخرجوا من آسية ؛ وإذ كانت لهم أملاك واسعة غنية فى جميع أنحاء

أوربا ، فقد أخذوا يستمتعون بما تدره عليهم هذه الأملاك ؛ وإذ كانت أملاكهم معفاة من الضرائب فقد كان فى وسعهم أن يقرضوا المال بفوائد أقل من التى يتقاضاها اللمبارد واليهود ، وجمعوا بعملهم هذا ثروة طائلة ؛ هذا إلى أنهم لم يكونوا كفرسان المعبد ينشئون المستشفيات والمدارس أويقدمون المعونة للفقراء ؛ وأثارت أموالهم الطائلة المكنوزة ، ودولتهم المسلحة فى داخل الدولة ، وعدم خضوعهم لسلطان الملوك أثارت هذه كلها حسد فليب الرابع الجميل لهم وخوفه منهم وغضبه عليهم ؛ فقبض فى الثانى عشر من شهر أكتوبر عام ١٣١٠ على جميع من كان فى فرنسا من فرسان المعبد دون سابق إنذار لهم ووضع الخاتم الملكى على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحى لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم ينكرون المسيح ويبصقون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويحالفون المسلمين سراً ، وأنهم طالما خانوا القضية المسيحية ؛ وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فأنكروا التهم الموجهة إليهم ، وعذبوا لكى يعترفوا ، فنهم من علقوا من معاصمهم وكانوا يرفعون وينزلون فجاءة ، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية أمام النيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقتلع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقت أوزان ثقيلة فى أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتا بطيئاً من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السالفة الذكر تستخدم مع أولئك الفرسان فى كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جىء بهم ليعاد استجوابهم كانوا ضعافا موشكين على الموت . وأظهر واحـــد منهم العظام التى سقطت من قدميه المحروقتين ؛ واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التى وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم إنهم قد تلقوا وعداً مختوما بخاتم الملك أن يؤمنوا على حياتهم وترد لهم أملاكهم إذا أقروا بارتكاب التهم التى توجهها لهم الحكومة ، ومات بعضهم فى السجون ، وانتحر البعض الآخر ؛ وشد تسعة وخمسون على

قوائم خشبية وأحرقوا بالنيران (١٣١٠) ، وظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجهرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاى Du Molay رئيس الطائفة الأكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب ، فسيق إلى قائمة الإحراق ، فعاد إلى الإنكار ، واقترح محاكموه أن تعاد محاكمته ؛ ولكن فليب لم يرضه هذا التأخير ، وأمر بحرقه على الفور ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك فى فرنسا ، واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الأعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الملك فى أعماله ، وامتنع البابا عن المقاومة وكان فى واقع الأمر سجينا فى أفنيون ، وأعلن بإيعاز فليب إلغاء نظام فرسان المعبد (١٣١٢) . وصادر إدورد الثانى هو الآخر أملاك فرسان المعبد فى إنجلترا ليسد بها حاجته إلى المال . وأعطى فليب وإدورد الكنيسة بعض هذه الأموال المصادرة ، ووهبا بعضها الآخر لأنصارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعا واسعة ، وأعانوا بها الملوك على الأشراف الإقطاعيين القدامى .

وربما كان بعض الصليبيين قد تعلموا فى الشرق أن يتغاضوا من جديد عن الشذوذ(*)، وفى وسعنا أن نضم هذا ، والعودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة فى الغرب ، إلى ما أسفرت عنه الحروب الصليبية من نتائج وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا إلى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحى نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الإسلامية[٦١] ، ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية فى أوربا ، وتهيأ لها مظهر جديد فى اللغات القومية الناشئة . وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع فى بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التى أدت إلى تحسين الزجاج الملون الذى نشاهده

(*) لقد وصف المؤلف فى المجلدات السابقة انتشار الشذوذ الجنسى فى بلاد أوربا ومنها بلاد اليونان والرومان ، وذكر فى هذا الفصل نفسه تهم الشذوذ الجنسى التى وجهت إلى الهيئات الصليبية المحاربة .   (المترجم)

فى الكنائس القوطية[٦٢] . وكانت البوصلة ، والطباعة ، والبارود معروفة فى بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ، ولعلها انتقلت إلى أوربا فى أعقاب تلك الحروب . ويلوح أن الأوربيين كانوا أشد جهلا من أن يعنوا بالشعر ، والعلوم ، والفلسفة « العربية » ؛ ولهذا فإن تأثر الغرب بهذه المؤثرات الإسلامية جاء عن طريق أسپانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب . كذلك تأثر الغرب بالثقافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثر أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة كورنثة الفلمنكى أمد تومس أكويناس بتراجم لكتب أرسطو عن أصولها اليونانية مباشرة . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين المسيحى قد يكونون مثلهم خلائق متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، أو يفوقونهم فى هذه الصفات ، إن ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب بعض العقول على التفكير ، وكان سبباً فى إضعاف العقائد الدينية المقررة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب فى بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون فى الحملة الصليبية الأولى لهزهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم[٦٣] .

وعظم سلطان الكنيسة الرومانية وعلت مكانتها إلى أبعد حد بسبب الحملة الصليبية الأولى ، ثم أخذت تضعف بالتدريج بسبب الحملات التى تلتها . وكان منظر الشعوب المختلفة ، والأشراف العظام ، والفرسان ذوى الكبرياء ، والأباطرة والملوك فى بعض الأحيان ، متحدين جميعاً للدفاع عن قضية دينية بزعامة الكنيسة ، كان هذا المنظر سبباً فى رفع مكانة البابوية وعلو شأنها . فقد كان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وكل أبرشية ، يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون لها الأموال ، وكان سلطانهم يزاحم سلطان رجال الدين فى تلك الأقطار والأبرشيات ويطغى عليه فى بعض الأحيان ؛ وبفضلهم أصبح

المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا . وأضحى جمع المال على هذا النحو سنة متبعة ، وسرعان ما استخدمت الأموال المجموعة فى أغراض أخرى غير الحملات الصليبية ؛ وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك ، وأن يحول إلى رومة مبالغ كبيرة من المال ، لولا هذا لذهبت إلى خزائن الملوك واستخدمت فى الحاجات المحلية ؛ وأثار هذا بلا ريب غضب الملوك ومقاومتهم . وكان توزيع صكوك الغفران على من يقوم بالخدمة فى فلسطين أربعين يوما عملا مشروعا فى العرف العسكرى ، وكان منح هذه الصكوك الغفرانية نفسها لمن يتكفلون بنفقات محارب من الصليبيين يبدو كذلك من الأعمال التى يمكن التسامح فيها ، أما التوسع فى منح تلك الصكوك ، إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، أو الذين يحاربون حروب البابا فى أوربا ضد فردريك ، ومانفرد Manfread وكنراد فقد كان مصدراً جديداً من مصادر غضب الملوك واستيائهم ، ومبعثاً لفكاهة الناقدين وسخريتهم . وحدث فى عام ١٢٤١ أن أمر جريجورى التاسع مندوبه فى بلاد المجر أن يعفى الذين أقسموا بالتطوع فى الحرب الصليبية من أيمانهم إذا أدوا إليه قدراً من المال ، ثم استخدم ما جمعه من الأموال بهذه الطريقة فى كفاحه المرير ضد فردريك الثانى[٦٤]. وقام الشعراء الجوالون أهل پروفنسال ينتقدون الكنيسة لتحويلها تيار الحرب الصليبية من فلسطين إلى فرنسا ، وذلك بعرضها صكوك الغفران نفسها على من يتطوعون لمحاربة المارقين الألبجنسيين فى فرنسا[٦٥] . ويقول ماثيو باريس Mathew Paris فى التعليق على هذا العمل : « ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار »[٦٦] . وكان كثيرون من ملاك الأراضى قد باعوا أرضهم للكنائس أو الأديرة أو رهنوها لها ليحصلوا بذلك على ما يلزمهم من المال فى الحروب الصليبية ، وأصبح للأديرة بفضل هذا ضياع واسعة . ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب

الصليبية أضحت ثروتها هدفا واضحاً لحسد الملوك ، وغضب الشعب وتأنيب النقاد . ومن الناس من كان يعزو الكوارث التي أصابت لويس التاسع في عام ١٢٥٠ إلى الحرب التي شنها في الوقت نفسه إنوسنت الرابع على فردريك الثاني . وقام المتشككون الجريئون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله في أرضه . ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى ، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم ، لأن محمداً في رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح[٦٧] .

وكان أثر الحروب الصليبية الذي يلي في أهميته إضعاف العقيدة الدينية المسيحية هو بث روح النشاط في الحياة المدنية الأوربية لمعرفة الأوربيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية . ذلك أن الحرب تسدى إلى الناس خيراً واحداً وهو أنها تعلمهم علم تقويم البلدان . فقد عرف التجار الإيطاليون الذين أثروا بفضل الحروب الصليبية كيف يرسمون خرائط للبحر المتوسط ، وتلقى المؤرخون الإخباريون الرهبان الذين رافقوا الفرسان آراء جديدة عن اتساع بلاد آسية واختلاف أصقاعها ونقلوا هذه الآراء إلى غيرهم من الناس ، وبهذا تحركت في القلوب الرغبة في الكشف والارتياد ، وظهرت كتب في وصف الأقاليم والبلدان ترشد الحجاج إلى البلاد المقدسة وإلى داخل البلاد المقدسة ، وأخذ الأطباء المسيحيون العلم عن الأطباء اليهود والمسلمين ، وتقدم علم الجراحة بفضل الحروب الصليبية .

وسارت التجارة وراء الصليب ، أو لعل التجارة هي التي قادت الصليب . لقد خسر الفرسان فلسطين ، ولكن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تنتزع السيطرة على البحر المتوسط من أيدي المسلمين وحدهم بل انتزعتها كذلك من أيدي البيزنطيين . نعم إن مدائن البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفي ،

ومرسيليا ، وبرشلونة كانت قبل الحروب الصليبية تتجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخترق مضيق البسفور والبحر الأسود ، ولكن الحروب الصليبية قد وسعت نطاق هذه التجارة إلى أبعد حد . وكان لاستيلاء البنادقة على القسطنطينية ، ونقلهم الحجاج والمحاربين إلى فلسطين ، وتوريدهم المؤن إلى المسيحيين وغير المسيحيين فى بلاد الشرق ، واستيرادهم المحاصيل الشرقية إلى أوربا – كان لهذا كله أكبر الأثر فى انتعاش التجارة والنقل البحرى انتعاشاً لم يكن له نظير منذ أيام مجد رومة الإمبراطورية ، وجاءت إلى أوربا بكميات موفورة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والقرفة – وكانت كلها من مواد الترف النادرة فى أوربا فى القرن الحادى عشر . وانتقلت من الشرق إلى الغرب بكميات كبيرة نباتات ومحاصيل وأشجار عرفتها أوربا من قبل من بلاد الأندلس الإسلامية . ومن هذه الذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطيخ ، والخوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح . وسمى البصل الصغير المعروف باسم الشالوت والعسقلانى من اسم عسقلان الثغر الذى كان ينقل منه على ظهور السفن من الشرق إلى الغرب ، وظل المشمش يسمى « برقوق دمشق » زمناً طويلا[٦٨] . وجاء من بلاد الإسلام الدمقس، والموصلين ، والساتان ، والمخمل ، والأقمشة المزركشة ، والطنافس ، والأصباغ ، والمساحيق ، والعطور ، والجواهر لتزدان بها بيوت أمراء الإقطاع وأهل الطبقات الوسطى ويتحلى بها رجالهم ونساؤهم[٦٩] . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول ، وأخذت أوربا عن الشرق صناعة تكرير السكر والزجاج « البندقى » .

ونمت الصناعة الفلمنكية بوجود أسواق جديدة لها فى بلاد الشرق ، وساعد

هذا النماء على قيام البلدان ونشأة الطبقة الوسطى ، وأدخلت من بلاد بيزنطية والإسلام فنون للأعمال المصرفية أحسن مما كان موجوداً فيها قبل ، فظهرت أشكال ووسائل جديدة للائتمان ، وازداد تداول النقود والآراء كما ازداد عدد الرجال . لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعى زراعى ، نفخت فيه روح البربرية الألمانية الممتزجة بالعاطفة الدينية ؛ واختتمت بقيام الصناعة ، واتساع نطاق التجارة ، فى عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة وأمدته بالمال .

الباب الرابع والعشرون

الثورة الاقتصادية

١٠٦٦ – ١٣٠٠

الفصل الأول

انتعاش التجارة

كل ازدهار التجارة يمد جذوره فى اتساع نطاق التجارة والصناعة ، ويستمد غذاءه من هذا الاتساع . وكان استيلاء المسلمين على ثغور البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط وجنوبه ، وعلى تجارة هذين القسمين ، وغارات المسلمين وأهل الشمال والمجر على بلاد أوربا ، وما حل بها من الاضطراب أيام خلفاء شارلمان ، كان هذا كله سبباً فى انحطاط الحياة الأوربية الاقتصادية والعقلية فى القرنين التاسع والعاشر إلى الدرك الأسفل ؛ فلما أن حمى الإقطاع الزراعة وأعاد تنظيمها ، وروض قراصنة الشمال فأصبحوا الزراع والتجار النورمان ، وصد الهون واعتنقوا الدين المسيحى ؛ واستعادت التجارة الإيطالية معظم ثُغور البحر المتوسط ، وأعاد الصليبيون فتح البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واستيقظ الغرب فى أثر اتصاله بحضارتين أرقى من حضارته هما حضارتا الإسلام وبيزنطية ، لما حدث هذا كله أتيحت الفرصة فى القرن الثانى عشر لانتعاش أوربا ، ووجد الحافز القوى لهذا الانتعاش ، والوسائل المادية لازدهار الثقافة فى القرن الثانى عشر ، وواصلت هذا الانتعاش حتى منتصف القرن الثالث عشر أى إلى بداية نهاية العصور الوسطى .

وكان شعار الفرد والمجتمع فى ذلك العهد هو : يجب أن يتقدم الطعام على الفلسفة والثراء على الفن Primum est edere, deinde philosophari .

وكانت الخطوة الأولى فى الانتعاش الاقتصادى هى إزالة القيود التى كانت تعطل التجارة الداخلية . ذلك أن الحكومات القصيرة النظر كانت تفرض مائة ضريبة وضريبة على نقل البضائع وبيعها — تفرضها على دخول الثغور ، وعبور القناطر ، واستخدام الطرق أو الأنهار ، أو القنوات ، وعرض البضائع على المشترين فى الأسواق والموالد . وكان سادة الإقطاع يرون أن من حقهم أن يجبوا الضرائب على البضائع المارة بأملاكهم كما تفعل الدول فى هذه الأيام ، وكان منهم من يبسط حماية حقة وخدمات صادقة للتجار إذ يمدونهم بالحراسة المسلحة وكرم الضيافة التى تيسر لهم القيام بأعمالهم(*) . ولكن تدخل الدول وسادة الإقطاع فى شئون التجارة أدى إلى وجود اثنتين وستين محطة لجباية المكوس على طول نهر الإلب ، وسبع وسبعين على نهر الدانوب . . ؛ وكان التاجر يؤدى ستين فى المائة من بضاعته نظير نقلها فى نهر الرين أو على شاطئيه[٢١] . وتعرض التجار والمسافرون لأشد الأخطار فى الطرق البرية والمسالك المائية الموبوءة بالحروب الإقطاعية ، والجنود غير النظاميين ، والأشراف اللصوص ، والقرصان المنتشرين فى الأنهار والبحار . غير أن « هدنة الله » و « سلم الله » يسرتا التجارة البرية بتحديدهما فترات للسفر آمنة أماناً نسبياً ؛ كما أن ازدياد قوة الملوك قلل بعض الشيء من السرقات ، وأوجد نظاما موحداً للمقاييس والموازين ، وحدد العوائد والمكوس ونظمها ؛ ومنعها منعاً باتاً من بعض الطرق والأسواق فى أيام الموالد الكبرى .

(*) كان بعض سادة الإقطاع يعلقون دروعهم ، أو يعلقون شعارهم الحربى ، عند مداخل قصورهم علامة على استعدادهم لاستضافة الغرباء . وهذا هو السبب فى قيام النزل على جانبى الطرق تحمل أسماء مثل : « النسر الأحمر » ، و « السبع الذهبى » ، و « الدب الأزرق » .

وكانت هذه الموالد عصب الحياة التجارية فى العصور الوسطى . نعم إن البائعين الجوالين كانوا بطبيعة الحال يترددون ببضائعهم الصغيرة على الأبواب ، والصناع يبيعون مصنوعاتهم فى حوانيتهم ، والبائعين والمشترين يجتمعون فى المدن أيام الأسواق ، والأشراف يقيمون الأسواق قريبة من قصورهم ، والكنائس تسمح بإقامتها فى أفنيتها ، والملوك يديرونها فى مخازن فى عاصمة ملكهم . نعم إن هذا كله كان يحدث ، ولكن تجارة الجملة ، والتجارة الدولية كانتا تتركزان فى المواسم الإقليمية التى كانت تقام فى أوقات معينة فى لندن واستوربردج Stourbridge بإنجلترا ؛ وفى باريس ، وليون ، وريمس ، وإقليم شمبانيا بفرنسا ؛ وفى ليل ، وإيبر Ypres ودويه Douai ، وبروج Bruge بفلاندرز ، وفى كولونى ، وفرانكفورت ، وليبزج ، ولوبك Lübeck بألمانيا ، وجنيفا بسويسرا ؛ ونفجورود بروسيا . . . وكانت أشهر هذه الأسواق كلها وأحبها إلى الجماهير ماكان يقام منها بمقاطعة شمبانيا فى لانى Lagny ، إذا حل شهر يناير ، وفى بار — على — الأوب Bar-sur-Aube أيام عيد الفصح ، وفى پروفن Provins فى شهرى مايو وسبتمبر ، وفى تروای Troyes فى شهرى سبتمبر ونوفمبر . وكان كل موسم من هذه المواسم يدوم ستة أسابيع أو سبعة ، وكان تعاقبها على هذا النحو بمثابة سوق دولية تدوم معظم أيام السنة . وكانت أماكنها مما ييسر اجتماع المتاجر والتجار القادمين من فرنسا والأراضى الوطيئة ، ووادى نهر الرين ، بالقادمين من پروڤانس ، وأسپانيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد الشرق ؛ وكانت هذه المواسم مصدراً كبيرا للثراء والسلطان لفرنسا فى القرن الثانى عشر . ونشأت هذه المواسم فى مدينة تروای فى القرن الخامس الميلادى ، ثم اضمحل شأنها حين انتزع فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) شمبانيا من أمرائها المستنيرين ففرض عليها من المكوس والنظم ما أفقرها ؛ فلما كان القرن الثالث عشر حلت محلها الثغور والتجارة البحرية .

وكان بناء السفن والملاحة قد تحسنا تحسناً بطيئاً منذ أيام الرومان ، فقد كان لمئات من المدن الساحلية منارات حسنة لإرشاد السفن ، وكان لكثير منها — كالقسطنطينية ، والبندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة — أحواض واسعة . وكانت السفن فى العادة ذات سطح واحد أو لا سطح لها على الإطلاق ، وكانت حمولتها حوالى ثلاثين طنا ؛ وكان فى مقدورها لصغر حجمها وقلة حمولتها أن تسير صعداً فى الأنهار مسافات بعيدة ؛ ولهذا كان فى مقدور سفن المحيطات أن تصل إلى أمثال مدائن نربونه Narbonne ، وبوردو ، ونانت Nantes ، وروِن ، وبروج ، وبرمن ، وإن كانت بعيدة بعض البعد عن البحار ؛ ولهذا أضحت هذه المدن ثغوراً مزدهرة . وكانت بعض سفائن البحر المتوسط أكبر حجما من السفن السالفة الذكر ، تحمل سمائة طن وتتسع لألف وخمسمائة راكب[٢] . وقد أهدت البندقية إلى لويس التاسع سفية يبلغ طولها مائة قدم وثمانى أقدام ، وعدد بحارتها مائة وعشرة . وكان الطراز السائد لايزال هو الطراز القديم ذا الكوثل المزخرف ، والسارية أو الساريتين ، والشراع أو الشراعين ، والهيكل المنخفض ذى الصفين أو الثلاثة الصفوف من المجاذيف ، وقد يصل عددها إلى مائتى مجذاف . وكان معظم المجذفين رجالا أحراراً متطوعين لأن البحارة العبيد كانوا قليلى العدد فى العصور الوسطى[٣] . وتقدم فن إدارة الشراع إلى الريح الذى كان معروفاً فى القرن السادس تقدماً بطيئاً حتى القرن الثانى عشر حين أضيفت إلى الشراع المربع القديم أشرعة أمامية وخلفية[٤] ، ولكن القوة المحركة الرئيسية ظلت هى المجاذيف كما كانت قبل . وظهرت البوصلة البحرية ، التى لا تعرف بدايتها على وجه التحقيق(*) ، فى سفن المسيحيين حوالى عام ١٢٠٠ . وجعل الملاحون الصقليون استعمالها مستطاعاً فى المياه الهائجة بتثبيت

(*) ربما كانت نشأتها فى أوربا ؛ انظر مجلة اسيكيولوم Speculum عدد إبريل سنة ١٩٤٠ ص ١٤٦ .

الإبرة الممغطسة فوق قطب متحرك[٥] ، ومع هذا فقد مرت مائة عام بعد هذا الاختراع قبل أن يجرؤ الملاحون — عدا أهل الشمال — على الابتعاد عن الأرض وتسيير السفن وسط البحار الواسعة . وكانت الملاحة المحيطية من ١١ فبراير إلى ٢٢ نوفمبر عملا اثتنائياً ، فقد كانت محرمة على سفن العصبة الهانسية Hansetic League ، وكانت سفائن البحرين المتوسط والأسود تقف فى هذه الفترة . وظلت الأسفار البحرية بطيئة كما كانت فى الزمن القديم ، فكان اجتياز المسافة من مرسيليا إلى عكا يتطلب خمسة عشر يوماً ، ولم تكن الأسفار البحرية توصف لشفاء الأمراض، وكانت البحار موبوءة بالقرصان ، وكثيراً ما كانت السفن تتحطم أثناء سفرها ، ولم تكن أقوى البطون تنجو من الاضطراب ؛ ويحدثنا فروسار Froissart أن سير هرڤيه ده ليون Sir Hervé de Léon ظل يتخبط على ظهر السفينة خمسة عشر يوماً بين سوثمبتن Southampton وهارفلير Harflur ، وأنه اعتل إلى حد لم يستطع بعده أن يستعيد صحته[٦] . وكان يعوض المسافرين عن هذه المتاعب بعض التعويض أن أجور السفر كانت قليلة ، فقد كان أجر عبور القناة الإنجليزية (بحر المانش) ستة بنسات فى القرن الرابع عشر ، وكانت أجور نقل البضائع والأسفار البعيدة تتناسب مع هذا الأجر القليل ، ولهذا امتاز النقل البحرى على البرى امتيازاً تبدلت بسببه خريطة أوربا السياسية فى القرن الثالث عشر .

ولما استرد الصليبيون سردانيه (١٠٢٢) وقورسقة (١٠٩١) من المسلمين فتح مضيق مسينا ، والبحر المتوسط للملاحة الأوربية ، كما استردت الحرب الصليبية الأولى جميع الثغور الجنوبية الواقعة على هذا البحر إلا القليل منها . فلما تحررت التجارة من هذه القيود ربطت أوربا بشبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على اتصالها بالمسيحيين فى آسية ، بل شملت كذلك اتصالها ببلاد المسلمين فى أفريقية وآسية ،ثم امتدت إلى أبعد من هذا ، إلى بلاد الهند والشرق

الأقصى . فقد كانت المتاجر تحمل من الصين أو الهند ، وتجتاز التركستان ، وفارس ، والشام إلى موانى سوريا وفلسطين ؛ أو تخترق بلاد المغول إلى بحر الخزر ونهر الفلجا ؛ أو تنقلها إلى الخليج الفارسى ، ثم تسير صعدا فى نهر الفرات أو دجلة ، ثم تجتاز الجبال والصحراوات إلى البحر الأسود ، أو بحرر الخزر ، أو البحر المتوسط ؛ أو تسير السفن فى البحر الأحمر ثم تنقل بالقنوات أو القوافل إلى القاهرة أو الإسكندرية . وكانت التجارة — ومعظمها فى القرن الثالث عشر تجارة مسيحية — تنتشر من ثغور أفريقية الإسلامية إلى آسية الصغرى وبيزنطية ، أو إلى جزائر قبرص ، ورودس ، وكريت (إقريطش) ؛ أو إلى ثغور سلانيك ، وبيرية ، وكورنثة ، وبتراس ؛ أو إلى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وأسپانيا . وكانت القسطنطينية تضيف بضائعها الكمالية إلى هذا التيار الجارف ، وتغذى التجارة الصاعدة فى نهر الدانوب والدنيبر إلى أوربا الوسطى ، والروسيا ، ودول البحر البلطى . واستولت مدائن البندقية ، وپيزا ، وجنوى على التجارة الغربية البيزنطية ، وحاربت كما يحارب المتوحشون لكى تكون للمسيحيين السيادة على البحار .

وكان مركز إيطاليا بين الشرق والغرب ، موغلة فى البحر المتوسط ، وثغورها المتجهة إلى البحر فى ثلاث جهات مختلفة ، وبلدانها المشرفة على ممرات جبال الألب ، مما يسر لها الاستفادة أكثر من سائر الأقطار من تجارة أوربا مع بيزنطية ، وفلسطين ، وبلاد المسلمين . فقد كان لها على البحر الأدرياوى مدائن البندقية ، ورافنا ، وريمينى ، وأنكونا ، وبارى ، وبرنديزى ، وتارنتو ؛ وكان لها فى الجنوب كروتون (أقروطونة) ؛ وكان لها على الساحل الغربى رچيو ، وسلرنو ، وأملفى ، ونابلى ، وأستيا ، وپيزا ، ولوكا ، وكانت هذه تنقل تجارة غنية واسعة ؛ وكانت فلورنس المركز المصرفى لهذه التجارة تسيطر على شئونها المالية . وكان نهر الأرنو والپو ينقلان بعض هذه التجارة فى داخل البلاد إلى مدائن پدوا ،

وفرارا ، وكرمونا ، وبياسنزا ، وبافيا . وكانت رومة تستولى على الإتاوات والعشور من سكان أوربا الأتقياء إلى كنائسها وأضرحتها ؛ وكانت سينا Siena ، وبولونيا تقعان عند ملتقى الطرق الداخلية الكبرى الكثيرة الإنتاج ؛ وكانت ميلان ،وكومو ، وبريشيا ، وفيرونا ،والبندقية تجمع فى أحجارها ثمار التجارة تنتقل فوق جبال الألب من حوضى الدانوب والرين ؛ وكانت جنوى تسيطر على البحر الترهينى ، كما كانت البندقية تتحكم فى البحر الأدرياوى . وكان أسطول جنوى التجارى يتألف من مائتى سفينة عليها عشرون ألفاً من البحارة ، وكانت ثغورها التجارية تمتد من قورسقه إلى طربزون . وكانت جنوى تتجر بكامل حريتها مع بلاد المسلمين كما تتجر معها البندقية وبيزا ؛ كانت البندقية تتجر مع مصر ، وبيزا مع بلاد تونس ، وجنوى مع أفريقية وأسبانيا الإسلاميتين ؛ وكانت كثير من هذه المدن الإيطالية تبيع الأسلحة للمسلمين فى أيام الحروب الصليبية ، وكان البابوات الأقوياء أمثال إنوسنت الثالث يندون بالتجارة أيا كانت مع المسلمين ؛ ولكن الذهب كان أقوى أثراً من الدين أو الدم المراق ، ولهذا ظلت « التجارة المحرمة » تجرى فى مجراها العادى[٧] .

واضمحلت جنوى من جراء حروبها مع البندقيـــة ، وتطلعت ثغور فرنسا الجنوبية وأسبانيا الغربية إلى نصيب من تجارة البحر المتوسط ؛ واستعادت مرسيليا إلى حين ما كان لها فى سابق أيامها من تفوق بعد أن كسدت تجارتها أيام سلطان المسلمين ، ولكن منبلييه أخذت فى خلال القرن الثانى عشر تنافسها فى أن تكون باب فرنسا الجنوبى مدفوعة فى هذه المنافسة بسكانها المختلفى الأجناس وثقافتها المتعددة الأصول — غالية ، وإسلامية ، ويهودية . وأفادت برشلونة من أهلها الذين ينتمى بعضهم إلى الأسر التجارية اليهودية القديمة التى بقيت فيها بعد أن استردت من المسلمين . وإذا كانت جبال البرانس تفصل أسبانيا المسيحية عن سائر أوربا فقد وجدت فى هذه المدينة وفى بلنسية وسيلة

للاتصال بعالم البحر المتوسط . وكانت ثغور قادس ، وبوردو ، ولاروشل ، ونانت ترسل سفنها لتسير بإزاء ساحل المحيط الأطلنطى إلى رون ، ولندن ، وبروج ، كما كانت جنوى فى القرن الثالث عشر ، والبندقية فى عام ١٣١٧ ترسلان سفنهما إلى هذه الثغور الأطلنطية كلها مخترقة مضيق جبل طارق ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت التجارة التى تعبر جبال الألب قد نقصت ، وأخذت تجارة المحيط الأطلنطى تسمو بأم هذا المحيط إلى تلك الزعامة التى ضمنها لها كولمبس فيما بعد .

وأثرت فرنسا من أنهارها وهى الحبال السائلة التى تربط بها التجارة الأقاليم الواقعة على شطآنها وتوحدها . وبفضل هذه الأنهار — الرون ، والجارون ، واللوار ، والساؤون ، والسين ، والواز Oise ، والموزل ازدهرت تجارتها وأخصبت حقولها ، ولم يكن فى وسع بريطانيا وقتئذ أن تنافسها ، ولكن الثغور الخمسة الواقعة على القناة الإنجليزية كانت ترحب بالسفن والبضائع الأجنبية . وكان نهر التامز عند لندن محاطاً منذ ذلك العهد البعيد بأحواض السفن المتجاورة الممتدة على شاطئيه ، وكانت تصدر منها المنسوجات ، والصوف ، والقصدير لتستورد بأثمانها التوابل من بلاد العرب ، والحرير من الصين ، والفراء من الروسيا ، والخمور من فرنسا . وكان أنشط من هذه كلها وأنشط من أى ثغر فى أوربا الشمالية مدينة بروج العاصمة التجارية والمنفذ الخارجى لبلاد فلاندرز بغلاتها الزراعية والصناعية . وعند هذه المدينة كان يتقاطع محورا التجارة الأوربية المحور الشرقى الغربى والمحور الشمالى الجنوبى ، كما كانا يتقاطعان عند البندقية وجنوى . وكان موقعها القريب من شاطئ بحر الشمال والمقابل لإنجلترا ، مما يسر لها استيراد الصوف الإنجليزى لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية . وكانت إلى هذا بعيدة فى الداخل بعداً يجعل ثغرها مأوى أميناً للسفن . ولهذا اجتذبت إليها أساطيل جنوى والبندقية وفرنسا القريبة ، وسمحت لهذه المدن بأن توزع بضائعها بمائة طريق وطريق على الثغور

الأصغر منها . ولما أن ازداد النقل البحرى أمناً ورخصاً ، اضمحلت التجارة البرية ، وحلت بروج محل المدن ذات المواسم التجارية ، فأضحت السوق التى تلتقى فيها التجارة الأوربية ؛ فكانت حركة النقل الثقيل على أنهار الموز Meuse ، والشلد Scheldt والرين تحمل إلى بروج بضائع ألمانيا الغربية وفرنسا الشرقية لتصدر منهما إلى الروسيا ، واسكنديناوة ، وإنجلترا ، وأسپانيا . وانتعشت بلدان أخرى بفضل هذه التجارة النهرية نذكر منها ڤلنسين Valencienne ، وكمبريه Cambrai ، وثورنيه Tonrai ، وغنت Gnent ، وأنتورب (أنفرس) Antwerp الواقعة على نهر الشلد ؛ ودينان Dinant ، ولييج Liége ، ومسترخت Maestricht على نهر الموز .

وكانت بروج أشهر مدائن القسم الغربى من العصبة الهانسية ، وكان منشأ هذه العصبة وأمثالها أن المدائن التجارية فى أوربا الشمالية ألفت من بينها فى القرن الثانى عشر أحلافاً مختلفة سماها الألمان هانسات Hanses أى اتحادات أو نقابات ، تهدف إلى تشجيع التعاون الدولى ضد المنافسة الخارجية ، وإقامة هيئات متجانسة من التجار البعيدين عن أوطانهم ، وحماية أنفسهم من القراصنة ، وقطاع الطرق ، وتقلب العملة ، والمدينين المماطلين ، وجباة الضرائب ، والمكوس الإقطاعية .

وكونت لندن ، وبروج ، وإيبر ، وترواى ، وعشرون مدينة أخرى « اتحاد لندن » ؛ وانضمت لوبك ، التى أسست فى عام ١١٥٨ لتكون مرقباً خارجيا للحرب والتجارة الألمانيتين مع اسكنديناوة ، إلى هامبرج (١٢١٠ ، وبروج (١٢٥٢)[*] فى اتحاد مشابه لهذا ، انضمت إليه فيما بعد دانزج ، وبرمن ، ونفجورود ، ودوربات Dorpat ، ومجدبرج ، وثورن Thorn ، وبرلين ، وڤزبى Visby ، واستوكهولم ، وبرجن Bergen ، ولندن ؛

(*) ربما كان هذا التاريخ هو بداية العصبة الهانسية ، وإن كان هذا الاسم لم يطلق عليها إلا فى عام ١٢٧٠ .

وبلغ هذا الاتحاد عنفوانه فى القرن الرابع عشر ، وكان يضم وقتئذ اثنتين وخمسين بلدة ، ويشرف على مصاب جميع الأنهار الكبرى — الرين ، والويزر Weser ، والإلب ، والأودر ، والفستيولا — التى تنقل غلات أوربا الوسطى إلى بحر الشمال والبحر البلطى ؛ وكان هذا الحلف يسيطر على تجارة أوربا الشمالية من رون إلى نفجورود ؛ وظل مدة طويلة يحتكر مصايد الرنجة فى البحر البلطى وتجارة القارة الأوربية مع إنجلترا . ولقد أنشأ الحلف محاكم للفصل فيما يشجر بين أعضائه من نزاع ، والدفاع عنهم فيما يقام عليهم من قضايا من البلدان الخارجة عنه ، وكان فى بعض الأحيان يحارب بوصفه سلطة مستقلة . وقد سن الحلف قوانين لتنظيم العمليات التجارية بل والسلوك الأخلاقى بين أعضائه مدناً كانوا أو رجالا ؛ وكان يحمى التجار المنظمين إليه من الشرائع الاستبدادية ، والضرائب والغرامات غير القانونية ؛ ويفرض على أعضائه مقاطعة المدن التى تسيء إليه ، ويعاقب المماطلين فى الدفع ، والمخلين بالأمانة ، والمشترين بضائع مسروقة . وأنشأ محطة تجارية فى كل مدينة منضمة إليه ، وجعل تجاره خاضعين لقوانينه الألمانية أينما ذهبوا ، وحرم عليهم الزواج من الأجنبيات .

وظلت العصبة الهانسية قرناً من الزمان عاملا من عوامل الحضارة ، فقد طهرت البحر البلطى وبحر الشمال من القراصنة ، ونظفت المجارى المائية ؛ وعدلتها فجعلتها مستقيمة ، ورسمت خرائط للتيارات البحرية والمد والجزر ، وأبانت عليها موضع القنوات ، وأنشأت المنارات البحرية ، والثغور ، والقنوات ، وسنت القوانين البحرية وجمعتها فى كتب ؛ وجملة القول أنها أحلت النظام مكان الفوضى فى تجارة أوربا الشمالية . ولقد ضمت هذه العصبة طبقة التجار ، وألفت منهم هيئة قوية فحمت بذلك الطبقة الوسطى من الأشراف ، وعملت على تحرير المدن من سادة الإقطاع ؛ وليس أدل على قوتها من أنها قاضت ملك فرنسا لأن جنوده أتلفوا بضائع العصبة ، وأرغمت ملك إنجلترا على أن يؤدى ما يلزم من النفقات

لإقامة الصلوات طلباً لنجاة أرواح تجار العصبة الهانسية الذين أغرقهم الإنجليز[٨] . وبفضل هذه العصبة انتشرت تجارة الألمان ولغتهم وثقافتهم نحو الشرق إلى بروسيا ، وليفونيا Livonia ، وإستونيا Estonia ، ورفعت بلدان كونجزبرج Königsburg ، وليباو Libau ، وميمل Memel ، وريجا Riga إلى مصاف المدن الكبرى . وكانت العصبة تتحكم فى أثمان البضائع التى يتجر فيها أعضاؤها وأوصافها ، وبلغ اشتهار أعضائها بالاستقامة أن استخدم الإنجليز لفظ Easterlings أى (رجال الشرق) بمعنى « نقى أوصاف » وأن أضيف بهذا المعنى إلى لفظى فضة أو ذهب بمعنى موثوق به أو صادق .

ولكن العصبة الهانسية أضحت على مر الزمن عاملا من عوامل الاستبداد والحماية معاً ؛ فقد أسرفت فى فرض القيود الاستبدادية على استقلال أعضائها ، وأرغمت المدن على الانضمام إليها باستخدام سلاح المقاطعة تارة وبالعنف تارة أخرى ، وقاومت المدن والأحلاف المنافسة لها بجميع الوسائل الطيبة منها والخبيثة ، ولم تتورع عن استئجار القراصنة للإضرار بتجارة أولئك المنافسين ؛ وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة ، وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول ؛ وبذلت كل ما فى وسعها للضغط على طبقة الصناع التى تستمد منها بضائعها وظلم هذه الطبقة ، ولهذا أصبح الكثيرون من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها ، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة فى أى وقت من الأوقات . ولما أن ثار العمال فى إنجلترا عام ١٣٨١ طاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانسية ، واقتفوا آثارهم فى أماكن العبادة داخل الكنائس ، وقتلوا كل من لم يستطيعوا النطق بلفظى Cheese Bread (الخبز والجبن) بلهجة إنجليزية[٩] .

واستولت العصبة فى عام ١١٦٠ على جزيرة جتلاند Gotland التابعة

للسويد واتخذت فزبى قاعدة وحصنا لتجارة البحر البلطى ، وأخذت بعدئذ عقداً بعد عقد ، تبسط سيطرتها على تجارة الدنمرقة ، وپولندا ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندة ، والروسيا . وعلى سياسة تلك البلاد ، حتى قال آدم البرمنى Adam of Bremen : إن تجار العصبة الهانسية فى القرن الثالث عشر « بلغوا من الكثرة مبلغ روث البهائم . . . وكانوا يبذلون من الجهد للحصول على جلد طير الغطاس كأن فى هذا الجلد نجاتهم إلى أبد الدهر »[١٠] . واتخذ هؤلاء التجار مقرهم فى نفجورود القائمة على نهر فلخوف Volkhov ، وأقاموا فيها بوصفهم حامية تجارية مسلحة ، واتخذوا كنيسة القديس بطرس مخزناً لبضائعهم ، وأحاطوا مذبحها بدنان الخمر ، وأقاموا على هذه المخازن حراسة أشبه بحراسة الكلاب المتوحشة ، وعنوا فى أثناء ذلك بأداء جميع ما يتطلبه التقى والصلاح من الشعائر الدينية[١١] .

ولم تقنع العصبة بهذا بل وجهت أفكارها نحو السيطرة على تجارة نهر الرين ، وأرغمت كولونى على الخضوع لها مع أنها كانت صاحبة عصبة مستقلة . أما فى جنوب تلك المدينة فقد وقفت فى وجهها عصبة الرين المؤلفة فى عام ١٢٥٤ من كولونى ، وميتز ، واسپير Speyer ، وورمز ، واسترسبرج ، وبازل . وفى جنوب هذه المدائن كانت أجزبرج Augsburg ، وألم Ulm ، ونورمبرج Nuremberg تقوم بالتجارة الآتية من إيطاليا ، ولا نزال حتى اليوم نرى فى البندقية مستوع هذه التجارة المسمى Fondaco de Fedeschi القائم على القناة الكبرى . وقامت رجنزبرج Regensburg وقيناً على الطرف الغربى لنهر الدانوب ، ذلك الشريان العظيم الذى كان يحمل غلات الأجزاء الداخلية من ألمانيا إلى بحر إيجة عن طريق سلانيك ، أو إلى القسطنطينية والروسيا والبلاد الإسلامية وبلاد الشرق عن طريق البحر الأسود . وهكذا دارت التجارة الأوربية الداخلية دورة كاملة ، وعمت التجارة الخارجية فى العصور الوسطى كل مكان .

ترى أى صنف من الناس كان أولئك التجار الذين كانوا يرسلون بضائعهم فى هذه الطرق مجتازة أرضين كثيرة متباينة يسكنها أقوام ذوو وجوه مرتابة ولغات غريبة وعقائد متحاسدة متباغضة ؟ لقد كان أولئك التجار ينتمون إلى شعوب مختلفة ويأتون من بلاد كثيرة متباينة ، ولكن عدداً كبيراً منهم كان من الشوام ، واليهود ، والأرمن ، واليونان . وقلما كانوا من صنف رجال الأعمال الذين نعرفهم اليوم رجالا آمنين جالسين خلف مكاتبهم فى مدنهم ؛ بل كانوا فى العادة ينتقلون فى البلدان مع بضائعهم ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون مسافات طويلة ليبتاعوا بأرخص الأثمان ما يحتاجونه من البضائع من الأماكن التى تكثر فيها ، ثم يعودون ليبيعوها غالية فى البلدان التى يندر فيها وجودها . وكانوا فى العادة يشترون ويبيعون بالجملة en gross كما يقول الفرنسيون . وقد ترجم الإنجليز لفظ grosser إلى groccr ثم أطلقوا اللفظ بهذه الصيغة grocer على من يبيع التوابل بالجملة[١٢] . وكان التجار خلائق مغامرين ، ومرتادين ؛ وفرسانُ القوافل مسلحين بالخناجر والرشا ، متأهبين للقاء قطاع الطرق ، والقراصنة ، وآلاف مؤلفة من البلايا والمحن .

وربما كان أشد ما يضايقهم هو اختلاف الشرائع وتعدد جهات التقاضى ، وكان من أهم أعمالهم وضع قانون دولى للتجارة والملاحة يتقدم على مر الأيام . لقد كان التاجر إذا سافر برا يخضع إلى قضاء محكمة جديدة ، وربما خضع إلى قوانين مختلفة فى أملاك كل سيد إقطاعى ، وكان من حق هذا السيد أن يستولى على بضائعه إذا سقطت على الأرض فى الطريق ، وإذا جنحت سفينته أصبحت بمقتضى « قانون التحطيم » من حق السيد الذى جنحت عند ساحل أرضه ؛ وكان مما يفتخر به أحد السادة البريطانيين أن صخرة خطرة فى ساحل بلاده كانت أثمن درة فى تاجه[١٣] . وظل التجار يقاومون هذا الظلم الصارخ عدة قرون حتى بدءوا يلغونه تدريجا فى القرن الثانى عشر . وكان التجار اليهود

الدوليون قد جمعوا فى هذه الأثناء طائفة من القوانين التجارية يسيرون على هديها ؛ وأصبحت هذه النظم فيما بعد أساس القانون التجارى فى القرن الحادى عشر(١٤) . وأخذ هذا القانون التجارى ينمو عاماً بعد عام بما يضاف إليه من الأوامر التى يصدرها النبلاء أو الملوك لحماية التجار أو الزوار القادمين من الدول الأجنبية ؛ وأنشئت محاكم خاصة لتنفيذ القانون التجارى ؛ ومما هو خليق بالذكر أن هذه المحاكم قد أغفلت ضروب الإثبات والمحاكمات القديمة كالتعذيب ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى .

وكان التجار الأجانب قد حصلوا منذ القرن السادس الميلادى بمقتضى قوانين القوط الغربيين على حقهم فى أن يحاكموا فى المنازعات الخاصة بهم وحدهم أمام مندوبين من بلادهم ؛ وهكذا بدأ النظام القنصلى الذى تقيم الأمة التجارية حسب نصوصه « قناصل » لها فى خارج بلادها أى مستشارين لحماية مواطنيها ومساعدتهم . ولقد أنشأت جنوى قنصلية لها من هذا النوع فى عكا عام ١١٨٠ ، وحذت المدن الفرنسية حذوها فى هذا العمل فى أثناء القرن الثانى عشر ، وكان ما عقد من الاتفاقات لتبادل هذه الحقوق القنصلية من خير المصادر التى استمد منها القانون الدولى فى العصور الوسطى .

وكان قدر من القانون البحرى قد ظل قائماً من العهود القديمة ؛ فلم يمح هذا القانون قط بين تجار رودس المستنيرين ، بل كان من أقدم الشرائع البحرية « قانون أهل رودس » الصادر فى عام ١١٦٧ . وأصدرت قوانين أوليرون Lois d'Olèron فى أواخر القرن الثانى عشر جزيرة فى البحر قرب ساحل بوردو لتنظيم تجارة الخمور ثم أخذتها عنها فرنسا وفلاندرز ، وإنجلترا . ونشرت العصبة الهانسية قانونا مفصلا فى القواعد والنظم البحرية يسير عليه أعضاؤها : وقد نص فيه على ما يجب اتخاذه من الاحتياطات لضمان سلامة الركاب والبضائع ، وعلى الحقوق التى يتمتع بها الناجون ومن ينجونهم وواجبات ربابنة السفن وملاحيها

وأجورهم ، والشروط التى يصح للسفينة التجارية أو يجب عليها بمقتضاها أن تتحول إلى سفينة حربية . وكانت العقوبات المقررة فى هذه القوانين صارمة ، ولكن يلوح أن هذه الصرامة كانت واجبة لتثبيت التقاليد والعادات الخاصة بالأنظمة البحرية ، وبث الثقة بها والاعتماد عليها فى قلوب الخاضعين لها : ذلك أن العصور الوسطى قد ظلت تؤدب الناس عشرة قرون ليظل أهل هذا الزمن الحديث أحراراً أربعمائة عام .

الفصل الثانى

تقدم الصناعة

تقدمت الصناعة بنفس الخطا التى اتسع بها نطاق التجارة ؛ ذلك أن اتساع الأسواق زاد الإنتاج ، وزيادة الإنتاج أنعشت التجارة .

غير أن وسائل النقل كانت أقل العوامل تقدما ، فقد كانت معظم الطرق الرئيسية فى العصور الوسطى مليئة بالأتربة ، والأقذار ، والأوحال ؛ ولم تكن هناك قنوات أو برابخ تنقل الماء من الطرق ، ولهذا كثرت فيها الحفر والبرك ؛ وكانت المخاضات كثيرة والقناطر قليلة ؛ وكانت الأحمال تنقل على ظهور البغال أو الخيل ولا تنقل فى العربات لأن العربات يصعب عليها تجنب الحفر كما تتجنبها دواب الحمل . وكانت عربات الركوب كبيرة سمجة عجلاتها ذات إطار من حديد غير ذات مرونة(١٥) ؛ ولهذا كانت هذه العربات غير مريحة مهما تكن زينتها ، ومن أجل ذلك فإن الناس رجالا كانوا أو نساء كانوا يفضلون ركوب الخيل منفرجة سيقانهم ذكوراً وإناثاً على الجانبين . وقد ظلت العناية بالطرق حتى القرن الثانى عشر موكولة إلى أصحاب الأملاك المجاورة لها ، ولم يكن هؤلاء الملاك يدركون كيف يطلب إليهم أن ينفقوا المال على إصلاح الطرق التى ينتفع المارون بها أكثر مما ينتفع بها سواهم . وحذا فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر حذو المسلمين والبيزنطيين فأمر بإصلاح طرق صقلية وجنوبى إيطاليا ، وأنشئت فى هذا الوقت عينه أولى « الطرق الكبرى الملكية » بتثبيت مكعبات حجرية فى الثرى المفكك أو الرمال ، وشرعت المدن فى هذا القرن نفسه ترصف شوارعها الرئيسية ، وأنشأت مدائن فلورنس ، وباريس ، ولندن ، والمدن الفلمنكية قناطر غاية فى الجودة ، كذلك نظمت الكنيسة فى القرن الثانى عشر هيئات أخوية دينية لإصلاح

القناطر وتشييدها ، وعرضت على من يشتركون فى هذا العمل الغفران من الذنوب . وكان إخوان الجسور Frères pontifs هم الذين أنشأوا جسر أڤنيون الذى لا يزال محتفظا بأربع عقود من صنع أيديهم . وبذلت بعض طوائف الرهبان لا سيما الرهبان البندكتيين جهوداً كبيرة للمحافظة على الطرق والجسور ؛ وظل ملك إنجلترا ورجال الدين فيها ومواطنوها فيما بين عامى ١١٧٦ و ١٢٠٩ يقدمون أموالهم أو جهودهم الجسمية لإنشاء جسر لندن ، وقامت فوق هذا الجسر بيوت وكنيسة صغيرة ، وكان الجسر يقوم فوق عشرين عقداً من الحجر يعبر عليها نهر التاميز ؛ وأقيمت فى بداية القرن الثالث عشر أولى القناطر المعلقة المعروفة فوق خانق فى ممر سان چوثار St. Gothard بجبال الألب .

وكانت المسالك المائية أكثر ما يستخدمه الناس فى النقل ، فأصبحت لذلك ذات شأن عظيم فى نقل البضائع لأن الطرق البرية كانت كثيرة المتاعب ، فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ما تحمله خمسمائة دابة ، وكانت إلى هذا أقل نفقة من الدواب ، ومن أجل ذلك كانت أنهار أوربا المنتشرة من نهر التاجه Tagus إلى الڤلجا Volga من أهم مسالكها العامة ، وكان اتجاه هذه الأنهار ومصابها العامل الرئيسى فى انتشار السكان ، ونمو المدن ، بل والسياسة العسكرية للأمم فى كثير الأحيان . وكانت القنوات لا حصر لها وإن كانت الأحواض غير معروفة .

وكان السفر بالبر والبحر على السواء شاقا بطيئاً ، فكان انتقال الأسقف من كنتربرى إلى رومة يتطلب تسعة وعشرين يوماً . وكان فى وسع حملة الرسائل إذا استبدلوا الخيل فى مراحل الطريق أن يجتازوا مائة ميل فى اليوم الواحد ؛ ولكن الرسل الخصوصيين كانوا يكلفون كثيراً ، ولهذا كان البريد (الذى أعيد فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر) مقصوراً فى العادة على الأعمال الحكومية ، وكانت عربات عامة حافلة تسير بانتظام فى أماكن متفرقة من القارة كالعربات التى كانت تسير بين لندن وونشستر . وكانت الأخبار بطيئة الانتقال شأنها فى هذا

شأن الرجال ؛ مثال ذلك أن نبأ موت بربرسا فى قليقية لم يصل إلى ألمانيا إلا بعد أربعة أشهر[١٦] . ولهذا كان فى وسع الرجل فى العصور الوسطى أن يتناول فطوره من غير أن تزعجه مصائب العالم التى يجد الناس فى جمعها ؛ وكان من حسن حظه أن ما يصله من أخبار هذه المصائب قد بلغ من قدم العهد حداً لا يستطاع معه علاجه .

وخطا الناس بعض خطوات فى تسخير القوى الطبيعية واستخدامها لمنفعتهم . وشاهد ذلك أن « كتاب يوم الحشر » يسجل وجود خمسة آلاف طاحونة مائية فى إنجلترا فى عام ١٠٨٦ ، وثمة رسم باق من عام ١١٦٩ يصوّر عجلة مائية يضاعف دوراتها البطيئة ويزيد سرعتها عدد من التروس المتعاقبة المدرجة فى الصغر[١٧] . وبفضل هذا الازدياد فى السرعة أضحت العجلة المائية أداة رئيسية من أدوات الصناعة ، وأخذت تنتشر فى بلاد أوربا المختلفة ، فظهرت فى ألمانيا عام ١٢٤٥ آلة مائية لنشر الخشب تدار بالماء[١٨] ؛ وكانت آلة أخرى فى دويه Douoi (١٣١٣) تستخدم لصنع الآلات الحادة ؛ وانتشرت الطواحين الهوائية ، التى عرفت لأول مرة فى أوربا الغربية عام ١١٠٥ ، انتشاراً سريعاً بعد أن شاهد المسيحيون سعة انتشارها فى بلاد الإسلام[١٩] ، فقد كان فى إيبر Ypres وحدها مائة وعشرون من هذه الطواحين فى القرن الثالث عشر .

وكان تحسن أدوات العمل وازدياد حاجات الناس عاملا هاما فى تشجيع أعمال التعدين التى نهضت وقتئذ نهضة فجائية عظيمة . من ذلك أن حاجة التجارة إلى عملة ذهبية موثوق بها ، وقدرة الناس المتزايدة على إشباع شهوتهم فى لبس الحلى قد أديا إلى تجدد العمل فى استخراج التبر بغسل طين الأنهار ، ومن العروق المعدنيـــة فى إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، والمجر ، ومن ألمانيا بنوع خاص . وكشف حوالى عام ١١٧٥ عروق غنية للنحاس الأحمر ، والفضة ، والذهب فى إرز جبيرج Erz Oebirge (أى جبال المعدن) ؛ وعلى أثر هذا الكشف هرع الناس

إلى فرايبرج Freiberg ، وجسلار Goslar ، وأنابرج Annaberg كما هرعوا إلى أمريكا بعد كشفها ، وأطلق اسم بلدة يواقيمثالر Joachimsthaler الصغيرة على النقود التي تسك فيها ، ثم اختصر هذا اللفظ اختصاراً تحتمه كثرة الاستعمال واشتق منه كلمة ثالر thaler الألمانية وكلمة دولار Dollar الإنجليزية[٢٠] ، وأضحت ألمانيا بعدئذ أكبر مورد للمعادن الثمنية إلى أوربا ، وكانت مناجمها هي الأساس الذي قامت عليه قوتها السياسية ، كما كانت تجارتها هي الإطار الذي حدد هذه القوة . فقد كان الحديد يستخرج من جبال هارز Harz ومن وستفاليا Westphalia ، والأراضي الوطيئة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وصقلية ، وعاد الناس مرة أخرى إلى استخراجه من جزيرة إلبا . وكان الرصاص يستخرج من دربي شير Derbyshire ، والقصدير من ديفون ، وكورنوول ، وبوهيميا ، والزئبق والفضة من أسبانيا ، والكبريت والشب من إيطاليا ، واشتق اسم سلزبرج Salzburg من طبقاتها الملحية العظيمة . وعاد الإنجليز في القرن الثاني عشر إلى استخراج الفحم الذي كان يستخدم في بلادهم أيام الرومان ثم أهمل — كما يلوح — في عهد السكسون ، ومما يدل على كثرة استخراجه أن الملكة إليانور غادرت قصر نتنجهام في عام ١٢٣٧ لكثرة الدخان المتصاعد من الفحم الذي يحرق في المدينة القائمة عند أسفله ، وأن لندن حرمت استعمال الفحم لأن الدخان كان يسمم المدينة — ذلك مثل من العصور الوسطى لإحدى المصائب التي يظن الناس أنها من مصائب العصر الحديث[٢١] .

وكان امتلاك الرواسب المعدنية منشأ كثير من الاضطراب في القوانين . فلما أن كانت يد الإقطاع قوية في البلاد كان السيد الإقطاعي يدعي أن المعادن الموجودة في أرضه من حقه وحده ، وكان يستخرج رواسبها بأيدي رقيق أرضه . وكانت الهيئات الكنسية تدعي لنفسها مثل هذه الدعوى ، وتستخدم أرقاء الأرض ، أو العمال المأجورين في استخراج الرواسب القيمة من أراضيها . وأصدر

فردريك بربرسا قراراً ينص على أن الملك وحده صاحب جميع المعادن التى فى بلاده ، وأن هذه المعادن لا يمكن استخراجها إلا على أيدى شركات تعمل تحت إشراف الدولة[٢٢] . فلما عاد هذا الحق الملكى الذى كان متبعاً أيام أباطرة الرومان أصبح هو القانون السائد فى ألمانيا فى العصور الوسطى ؛ وسار على هذه السنة نفسها ملوك إنجلترا فادعى الملك لنفسه ملكية جميع رواسب الفضة والذهب ، أما المعادن الدنيئة فكان فى استطاعة صاحب الأرض أن يستخرجها بشرط أن يدفع عن ذلك إتاوة للملك[٢٣] .

وكان فحم الخشب هو الذى يستعمل فى صهر المعادن ، وكان كثير من الخشب يستخدم فى أفران ظلت حتى ذلك الوقت بحالتها البدائية ؛ ولكن النحاسين كانوا على الرغم من هذا يخرجون أدوات جميلة من الشَّبَه ، كما كان صناع الأدوات الحديدية فى لييج ، ونورمبرج ، وميلان ، وبرشلونة ، وطليطلة يصنعون أسلحة وأدوات حديدية ممتازة . واشتهرت أشبيلية بصلبها الجيد ، وأخذ الحديد الزهر (المصهور فى درجة ١٥٣٥° مئوية) يحل محل الحديد المطاوع الملين فى درجة ٨٠٠ مئوية) . وكانت الأدوات الحديدية كلها تقريباً تصنع قبل هذا التغيير « بالطرق » — Smiting ومن هذا اللفظ اشتق لفظ اسمث smith السكسونى أى الطارق للحداد . وكان صب الأجراس من الصناعات الهامة لأن الكنائس الكبرى وأبراج المدن كانت تتنافس فى أوزان أجراسها ، وارتفاع أصواتها ، وحسن نغماتها . وكان النحاسون يصنعون أغطية النيران Curfews أى (Couvre feus) التى يضعها الناس على نيرانهم إذا دقت أجراس المساء Curfew . واشتهرت بلاد سكسونيا بما فيها من مصاهر البرنز ، كما اشتهرت إنجلترا « بالتنك » Pewter وهو مزيج من النحاس ، والبزموت ، والأنتيمون (الإثمد) والقصدير . وكان الحديد المطاوع يستخدم فى صنع قوائم حديدية رشيقة للنوافذ ، وأخرى من الحديد المشغول لأمكنة المرتلين فى الكنائس ،

والمفصلات الضخمة ذات الأشكال المختلفة التي كانت تنتشر على الأبواب تقويها وتزينها . وكان الحدادون والصائغون كثيري العدد ؛ وذلك لأن الذهب والفضة لم يكن يستخدمهما الناس للمباهات بمكانتهم أو لإخفائها فحسب ، بل كانا يستخدمان فوق ذلك لوقاية صاحبهما من العملة المتقصة ، وإعطائه في الأزمات نوعا من الثروة يستطيع تحويله إلى طعام أو سلع .

واتسع نطاق صناعة المنسوجات في القرن الثالث عشر اتساعا عظيما في فلاندرز وإيطاليا ، وكانت مؤسسات شبه رأسمالية ينتج فيها آلاف من الصناع سلعاً للسوق العامة ويجمعون المكاسب للمستثمرين الذين لا تقع عليهم أعينهم ، وكان لنقابة الصوف في فلورنس مصانع كبيرة يشتغل فيها تحت سقف واحد غسالون ، وقصارون ، وقزازن ، وغزالون ، وناسجون ، ومفنشون وكتبة يعملون بأدوات ، وآلات ، وأنوال لا يمتلكونها وليست لهم أية سيطرة عليها[٢٤] .

وكان المتجرون بالجملة في الأقمشة ينظمون المصانع ، ويقدمون ما يلزمها من الأدوات ، ويمدونها بالعمال ورؤوس الأموال ، ويحددون الأجور والأثمان ، وينظمون عمليتي التوزيع والبيع ، ويتحملون أخطار المغامرة ، وما ينتج عن الإخفاق من خسـائر ، ويجنون ما يثمره النجاح من مكاسب[٢٥] . وكان غيرهم من أصحاب الأعمال يفضلون أن يحصلوا على المواد الغفل التي يحتاجها الأفراد أو الأسر ، ثم توزعها تلك الأسر أو هؤلاء الأفراد على التجار نظير أجر أو ثمن ، وبهذه الطريقة انضم آلاف من الرجال والنساء في إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا إلى المهن الصناعية[٢٦] ؛ ولهذا أصبحت مدائن أمين ، وبوفيه ، وليل ، ولاؤن ، وسان كنتان ، وپروفن Provins ، وريمس ، وترواى ، وكمبريه ، وتورنيه ، ولييج ، ولوفان Louvain مركزا عظيما لأعمال الوساطة السالفة الذكر — وفاقتها في ذلك غنت ، وبروج ، وإيبر ، ودويه واشتهرت كلها بأذواقها الفنية وثوراتها ، وأعارت لاؤن اسمها إلى شاش البطانات Lawn كما أعارت كمبريه اسمها إلى التيل

الرفيع « الكمبريك » Cambric واشتق الطراز المضلع فى النسيج diaper من اسم مدينة إيبر[٢٧] . وكان فى غنت ٢٣٠٠ نساج يعملون على الأنوال ؛ وكان فى پروفن فى القرن الثالث عشر ثلاثة آلاف ومائتان[٢٨] . وكانت لأكثر من عشر مدائن فى إيطالية صناعاتها الخاصة فى النسيج . وتخصصت نقابة الصوف فى فلورنس فى القرن الثانى عشر فى إنتاج البضائع الصوفية المصبوغة ، كما نظمت نقابة الأقمشة فى بداية القرن الثالث عشر أعمالا واسعة النطاق لاستيراد الصوف وتصدير منسوجاته ، وقبل أن يحل عام ١٣٠٦ كان فى فلورنس ٣٠٠ مصنع للنسيج كما كان فيها قبل عام ١٣٣٦ ثلاثون ألف نساج[٢٩] . وكانت جنوى تنسج المخمل اللطيف والحرير ذا الخيوط الذهبية . وأخذت ڤينا فى أواخر القرن الثالث عشر تستورد النساجين الفلمنكيين ، وسرعان ما نشأت فيها صناعة للنسيج خاصة بها . وكادت إنجلترا تحتكر إنتاج الصوف فى شمالى أوربا ؛ وكانت ترسل معظم منسوجاتها منه إلى فلاندرز . ومن أجل هذا ارتبطت هذه البلاد بعجلتها فى شئون السياسة والحرب واشتقت من اسم وورستد Worstead أسماء لأنواع مختلفة من الأقمشة الصوفية . وكانت أسبانيا تنتج نوعاً جيداً من الصوف ، وكانت أغنام المرينو التى بها مصدراً من مصادر دخلها القومى .

وكان العرب قد أدخلوا إنتاج الحرير ونسجه فى أسبانيا فى القرن الثامن كما أدخلوها فى إيطاليا فى القرن التاسع ، وواصلت مدائن بلنسية ، وقرطاجنة ، وأشبيلية ، ولشبونة ، وپالرمة ، ذلك الفن بعد أن أضحت بلاداً مسيحية ، واستقدم روجر الثانى النساجين اليونان واليهود من كورنثة وطيبة اليونانيتين إلى پالرمه فى عام ١١٤٧ ، وأسكنها أحد قصورها ، وبفضل هؤلاء الرجال وأبنائهم انتشرت تربية دودة القز فى جميع أنحاء إيطاليا ؛ ونظمت لوكا صناعة الحرير على نطاق رأسمالى واسع ، كانت تنافسها فيها مدائن فلورنس ، وميلان ، وجنوى ، ومودينا ،

وبولونيا ، والبندقية ، وتخطت هذه الصناعة جبال الألب وأنتجت صناعاً مهرة فى زيورخ ، وباريس ، وكولونى .

وكان فى ميدان صناعات العصور الوسطى مئات من مختلف الحرف الأخرى منها حرفة طلاء الآنية الخزفية بطبقة زجاجية وذلك برش سطوحها وهى مبللة بالرصاص ثم حرقها فى نار غير شديدة ؛ فإذا أرادوا أن يكون لون سطحها الأملس البراق أخضر لا أصفر أضافوا النحاس أو البرنز إلى الرصاص . ولما أضحت المبانى والنيران كثيرة الأكلاف فى مدن القرن الثالث عشر المطردة النماء حلت قطع القرميد محل السقف المصنوعة من القش ، وفرضت مدينة لندن هذا التغيير على سكانها فى عام ١٢١٢ . وما من شك فى أن الحرف المتصلة بالبناء كانت متقدمة لأن طائفة من أمتن المبانى الباقية فى أوربا الآن يرجع تاريخها إلى هذا العهد . وكان الزجاج يصنع للمرايا ، والنوافذ ، والأوانى ، ولكنه كان يصنع فى نطاق ضيق إذا قيس إلى غيره من المصنوعات ، وكانت الكنائس تحتوى على أحسن ما صنع من أنواع الزجاج أما البيوت فلم يكن فيها شىء منه . وكانت صناعة الزجاج بالنفخ معروفة فى أوربا الغربية منذ القرن الحادى عشر إن لم يكن قبله ، ولعل هذا الفن لم يختف قط من إيطاليا منذ أن بلغ ذروة مجده فى أيام الدولة الرومانية . أما الورق فقد ظل حتى القرن الثانى عشر يستورد من بلاد الشرق الإسلامية أو من أسبانيا ، ولكن مصنعاً للورق افتتح فى رافنزبرج Ravensburg بألمانيا فى عام ١١٩٠ ، وبدأت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع الورق من النيل . وكانت الجلود من أهم السلع فى التجارة الدولية ، كما كان دبغها منتشراً فى كافة الأنحاء . وكان صناع القفازات والسروج ، وأكياس النقود ، والأحذية والأساكفة من أبرز الناس وأكثرهم تنافساً . وكانت الفراء تستورد إلى داخل أوربا من الشمال والشرق ، وكانت من ملابس الملوك والأشراف والطبقة الوسطى . وكانت الخمر والجعة تستخدمان بدل وسائل التدفئة المركزية ، وكانت

كثير من المدن تجنى أرباحا طائلة من احتكار البلديات لصناعة عصر الخمور ، وكانت ألمانيا فى ذلك العهد قد تزعمت العالم فى الصناعة القديمة .

ويرجع معظم رخاء مدينة همبورج فى القرن الرابع عشر إلى معاصرها الخمسمائة وإلى بيع منتجاتها ، وبقيت الصناعات بوجه عام ، إذا استثنينا منها صناعة النسيج ، فى مرحلة الصناعات اليدوية ، فكان الصناع الذين يعملون للسوق المحلية — كالخبازين ، والأساكفة ، والحدادين ، والنجارين ومن إليهم — هم المالكين لأدواتهم وثمار عملهم ، وظلوا أحرارا من الناحية الفردية . وكانت معظم الصناعات لا تزال تقوم فى بيوت العمال أو الحوانيت الملاصقة لبيوتهم ؛ وكانت كثير من الأسر تؤدى لنفسها كثيراً من الأعمال التى توكل الآن للحوانيت أو المصانع — كانت تصنع خبزها ، وتنسج ثيابها ، وتخصف نعالها ؛ وكانت خطى التقدم فى هذه الصناعة المنزلية بطيئة ؛ وكانت الأدوات ساذجة ، والآلات قليلة ، ولم تكن دوافع المنافسة والكسب مما يحفز الناس على الإنتاج أو على استبدال القوة الآلية بالمهارة البشرية ؛ ومع هذا فلربما كان هذا النظام هو أحسن صورة من التنظيم الصناعى فى التاريخ كله . نعم إن إنتاجه كان بطيئاً ، ولكن أكبر الظن أن ما كان يبعثه فى نفوس الصناع من رضا وقناعة كان عاليا إذا قيس بغيره من العصور . فقد بقى العامل قريباً من أسرته ، وكان هو الذى يحدد ساعات عمله ويحدد بقدر ما ثمن ما يصنع ؛ وكان إعجابه بمهارته يسمو بخلقه ويبعث فيه الثقة بنفسه ؛ وكان فناناً وصانعاً معاً ؛ وكان يغتبط اغتباط الفنان حين يرى الشىء الكامل الذى يصنعه يتشكل شيئاً فشيئاً بين يديه ؛

الفصل الثالث

النقـــود

وأحدث هذا التوسع العظيم فى التجارة والصناعة انقلابا كبيراً فى الأعمال المالية ، فأما التجارة فلم يكن فى مقدورها أن تتقدم ما دامت قائمة على المبادلة ، بل أضحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم ، وواسطة للتبادل سهلة ، ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار الأموال .

وكان من حق سادة الإقطاع وكبار رجال الدين فى القارة الأوربية فى عهد الإقطاع أن يسكوا النقود ، ولهذا عانى الاقتصاد الأوربى الأمرين من جراء الفوضى النقدية التى كانت أسوأ من فوضى هذه الأيام ؛ وزادت هذه الفوضى بفعل مزيفى العملة وقارضيها ، وكان الملوك يأمرون بأن تقطع أطراف من يرتكبون هذه الأعمال أو أعضاؤهم التناسلية أو أن تقلى أجسامهم وهم أحياء[٣٠] ، ولكن الملوك أنفسهم كثيراً ما كانوا يخفضون قيمة نقدهم(*) . وقل وجود الذهب بعد غارات القبائل الهمجية ، واختفى اختفاء تاماً من أوربا الغربية بعد أن فتح المسلمون بلاد الشرق ، فكان النقد بأجمعه بين القرنين الثامن والثالث عشر يصنع من الفضة أو المعادن الخسيسة ، ذلك أن الذهب والحضارة يتلازمان كثرة وقلة(**) .

(*) جاء فى السجل الإنجليزى السكسونى عن سنة ١١٢٥ : « وأمر الملك هنرى أن تقطع من كل الذى يضرب العملة (يقصـــد من يزيفها) . . . يده اليمنى وخصيتاه من تحته »[٣١] .

(**) هذا حكم من المؤلف غريب لا نعتقد أنه يصدق فى كل الأزمنة أو فى كل البلاد . (المترجم)

على أن العملة الذهبية ظلت تضرب فى الإمبراطورية البيزنطية طوال العصور الوسطى ، ولما أن كثر الاتصال بين الغرب والشرق أخذت النقود البيزنطية الذهبية المعروفة بالبيزانط bezants فى بلاد الغرب ، أخذت هذه النقود يتعامل بها فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لها من الاحترام فى العالم المسيحى أكثر ما لسائر النقود . ولما رأى فردريك الثانى ما للعملة الذهبية المستقرة فى بلاد الشرق الأدنى من أثر طيب فى تلك البلاد سك فى إيطاليا أولى العملات الذهبية فى أوربا الغربية . وسمى هذه العملة أوغسطالس Augustales مقلداً بهذا فى صراحة نقــد أغسطس ومكانته : والحق أنها كانت خليقة بهذه التسمية ، لأنها ، وإن كانت تقليداً لعملة الشرق ، كانت ذات طابع فخم . وسمت من فورها إلى أعلى مستوى فى فن المسكوكات فى العصور الوسطى ؛ وأصدرت جنوى وفلورنس فى عام ١٢٥٣ مسكوكات ذهبيــة ؛ وكان الفلورين الفلورنسى ، الذى تعادل قيمته زنة رطل من الفضة أجمل وأبقى هذه المسكوكات ، وكان يقبل فى جميع أنحاء أوربا ؛ ولم يحل عام ١٢٨٤ حتى كان لجميع دول أوربا الكبرى ، ما عدا إنجلترا ، عملة ذهبية يوثق بها — وذلك جهد عظيم مشكور ضحى به فى الفوضى الضاربة أطنابها فى القرن العشرين .

وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر كان ملوك فرنسا قد ابتاعوا أو صادروا كل ما لسادة الإقطاع من حقوق تخول لهم سك العملة إلا القليل الذى لا يكاد يستحق الذكر من هذه الحقوق ، وظل نظام النقد الفرنسى حتى عام ١٧٨٩ محتفظا بالمصطلحات التى وضعها له شارلمان ، وإن لم يحافظ على قيمتها ؛ فكان فيه الليرا (Livra) أو الجنيه الفضى ، والصلدى (sou) وهو $\frac{1}{٢٠}$ من الجنيه ، والدينار (denier) وهو $\frac{1}{١٢}$ من الصلدى . وأدخلت غارة الرومان هذا النظام النقدى فى إنجلترا ، وفيها أيضاً كان الجنيه الإنجليزى يقسم عشرين قسما يسمى واحدها

شلنا ، ويقسم كل منها اثنى عشر قسما — هى البنسات. وأخذ الإنجليز ألفاظ pound ، shilling ، penny من الأسماء الألمانية pfund ، schilling ، pfennig ولكنهم أخذوا الرموز الدالة عليها من اللغة اللاتينية L من لبرا Libra ، s من سليدس solidus ، d من ديناريوس denarius ، ولم يكن لإنجلترا عملة ذهبية إلا فى عام ١٣٤٣ ، غير أن عملتها الفضية التى قررها هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) ظلت أكثر العملات استقراراً فى أوربا . وضرب المارك الفضى فى ألمانيا فى القرن العاشر ، وجعلت قيمته نصف قيمة الجنيه الفرنسى أو البريطانى .

ولكن النقد فى العصور الوسطى ، رغم هذا التطور كله ، قد لاقى الأمرين من جزاء تقلب قيمته ، وعدم ثبات نسبة الفضة إلى الذهب ، وحق الملوك والمدن — والأشراف ورجال الدين فى بعض الأحيان — فى جمع النقود كلها فى أى وقت ، وتقاضى أجر على إعادة سكها ، وإصدار عملة جديدة مخفضة تزداد فيها نسبة المعدن الخسيس . وتأثر النقد الأوربى كله لما أصابه من انحطاط فى فترات غير منتظمة لعدم أمانة دور الضرب ، وازدياد مقدار الذهب أسرع من ازدياد مقدار السلع ، وسهولة أداء الديون الوطنية بالعملة المخفضة . ولنضرب لذلك مثلا الجنيه الفرنسى فلم تكن قيمته فى عام ١٧٨٩ تزيد على ١ر٢ فى المائة مما كانت عليه أيام شارلمان[٣٦] . وفى وسعنا أن نحكم على مقدار انخفاض قيمة النقد من ذكر أثمان بعض السلع التى تعد نموذجا لغيرها : من ذلك أن الاثنتى عشرة بيضة كان ثمنها فى راقنا عام ١٢٨٦ « بنسا » واحدا ؛ وكان ثمن الخنزير فى لندن عام ١٣٢٨ أربعة شلنات ، وثمن الثور خمسة عشر شلناً[٣٣] ؛ وكان رأس الضأن فى فرنسا فى القرن الثالث عشر يشترى بثلاثة فرنكات ، والخنزير

يشترى بستة[٣٤] ؛ فالنقد يزداد تضخما على مر العصور(*) .

بقى أن نعرف مصدر النقود اللازمة لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها . لقد كان أهم مصدر منفرد لهذا المال هو الكنيسة ، وذلك بفضل ما كان لها فى جمع المال من نظام لا يدانيه نظام سواه ، وكان لديها على الدوام رأس مال سائل تستطيع توجيهه فى جميع الأوقات لأى غرض تشاء . وكانت الكنيسة أعظم قوة مالية فى العالم المسيحى ، ويضاف إلى هذا أن كثيرين من الأفراد كانوا يودعون أموالهم أمانات فى الكنائس والأديرة . وكانت الكنيسة تقرض من أموالها الأفراد والهيئات فى أوقات الشدة ، وكان أكثر من يقترضون المال هم القرويين الذين يرغبون فى إصلاح ضياعهم ، وكانت الكنائس والأديرة بمثابة مصارف عقارية ، وكان لها فضل فى تكوين طبقة الزراع الأحرار[٣٦] ، وكانت منذ عام ١٠٧٠ تقرض المال للملاك المجاورين لها نظير حصة من ريع أملاكهم[٣٧] ، وقد أصبحت الأديرة بهذه القروض المضمونة برهون أولى هيئات الإقراض فى العصور الوسطى . وكان دير سانت أندريه St. André فى فرنسا يقوم بعمل مصرفى بلغ من اتساع نطاقه أن كان يستأجر المرابين اليهود ليؤدوا له عملياته المالية[٣٨] . وكان رهبان المعبد يقرضون المال بفوائد للملوك والأمراء ، والأشراف ، والفرسان ، والكنائس ، والمطارنة ؛ وربما كانت أعمال الرهن التى يقوم بها هؤلاء الفرسان أوسع الأعمال المالية التى من هذا النوع فى القرن الثالث عشر .

غير أن هذه القروض التى تقدمها الهيئات الكنسية كانت فى العادة تستخدم

(*) يقدر كولتن Coulton ، أكبر علماء العصور الوسطى من الإنجليز ، قيمة العملة الإنجليزية فى عام ١٢٠٥ بقدر قيمتها فى عام ١٩٣٠ أربعين مرة[٣٥] ؛ أما هذا المجلد فتقدر فيه قيمة النقود فى العصور الوسطى بقدر قيمة الوحدات المقابلة لها من النقود أو المعادن الثمينة فى عام ١٩٤٩ خمسين مرة ، ولقد صرفنا النظر فى هذا التقدير عما حدث فى النقد من تقلبات فى تلك العصور .

فى الاستهلاك أو فى الأغراض السياسية ، وقلما كانت تستخدم فى تمويل الصناعة أو التجارة . وبدأ الائتمان التجارى حينما كان الفرد أو الأسرة يستودع التاجر مالا أو يعهد إليه به يستخدمه فى رحلة بحرية معينة أو مشروع معين على أن ينال فى نظير هذا جزءاً من المكسب ، وكان هذا العمل يسمى فى العالم المسيحى إيداعا Commenda . وكان هذا النظام — نظام الشريك « الموصى » طريقة رومانية قديمة أكبر الظن أن العالم المسيحى الغربى عاد فتعلمها من الشرق البيزنطى . وكان من شأن هذه الطريقة النافعة — طريقة الاشتراك فى المكسب دون مخالفة أوامر الكنيسة التى تحرم الربا — أن تنتشر انتشاراً واسعاً ؛ وبذلك استحالت « الكمبانية » (Com-panis) أى الاشتراك فى الخبز ، أو الاستثمار فى داخل نطاق الأسرة شركة soietas تضم عدة أشخاص لا يتحتم أن يكونوا كلهم من ذوى القربى ويمولون طائفة أو سلسلة من الأعمال بدل أن يمولوا عملا واحداً ؛ وظهر هذا النوع من المنظمات المالية فى جنوى والبندقية فى أواخر القرن العاشر ، ووصل إلى درجة عليا من الرقى فى القرن الثامن عشر ، وكان من أكبر أسباب نمو التجارة الإيطالية السريع . وكثيراً ما كانت طوائف الاستثمار هذه توزع ما تتعرض له من الأخطار بأن تشترى « أجزاء » أى أسهماً فى عدد من السفن أو المشروعات فى وقت واحد ، ولما أن أصبحت هذه الأسهم (partes) فى القرن الرابع عشر قابلة للانتقال ، نشأت من هذا الشركة المحاصة joint stock company . وكان أعظم مصدر فردى لرأس المال — أى المال الذى تؤخذ منه نفقات مشروع ما قبل أن يدر دخلا — هو المالى المحترف . وقد بدأ هذا المالى عمله فى الزمن القديم بأن كان صرافا يبدل النقود ثم استحال من زمن بعيد إلى مراب يستثمر ماله ومال غيره فى المشروعات التجارية أو فى إقراضها إلى الكنائس ، أو الأديرة ، أو الأشراف أو الملوك . ومما يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام أن الدور الذى كان يضطلع به اليهود فى إقراض المال قد بولغ فيه كثيراً . لقد كان اليهودى ذوى حول

وطول فى أسبانيا ، ولكنهم ظلوا زمناً ما ضعفاء فى ألمانيا، وكان يفوقهم الماليون المسيحيون فى إيطاليا وفرنسا[٣٩] . وكان أكبر مقرض لملوك إنجلترا هو وليم كيد William Cade ؛ كما كان أكبر المقرضين فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الثالث عشر أسرتى لوشار Louchard وكرسپان Crespin فى أراس[٤٠] ؛ وقد وصف وليم البريطونى William the Breton أراس فى ذلك الوقت بأنها « مكتظة بالمرابين »[٤١] . وكان من مراكز المال فى شمالى أوربا غير المراكز السالفة الذكر مصفق أو بورصة (من bussa أي كيس) أى سوق المال فى بروج . وكان من طوائف المرابين المسيحيين طائفة أكبر من هؤلاء جميعاً نشأت فى كاهور Cahors إحدى مدن فرنسا الجنوبية يقول ماثيو باريس فى وصفها :

وفى تلك الأيام (١٢٣٥) انتشر وباء الكهوريين Cohorisians البغيض، انتشاراً مروعاً لم يكد يبقى معه إنسان فى إنجلترا كلها وبخاصة بين المطارنة إلا وقع فى شباكهم ، ولقد كان الملك نفسه مديناً لهم بمبالغ لا تحصى ، وكانوا يخادعون المعوزين ويحتالون عليهم فى حاجياتهم ، ويغشون ما يقومون به من أعمال الربا بستار الاتجار[٤٢] .

وعهدت البابوية شئونها المالية فى إنجلترا إلى رجال المصارف الكهوريين فترة من الزمان ، ولكن قسوتهم أثارت غضب الإنجليز إلى حد جعلهم يقتلون أحد أفراد تلك الطائفة فى أكسفورد ، ولعنهم روجر أسقف لندن ، ثم نفاهم هنرى الثالث من إنجلترا ، وندد ربرت جروستست Robert Grosseteste أسقف لنكلن وهو على فراش الموت بابتزاز « التجار والصيارفة من رجال مولانا البابا » الذين هم « أغلظ أكباداً من اليهود »[٤٣] .

وكان الإيطاليون هم الذين ارتقوا بالأعمال المصرفية فى القرن الثالث عشر إلى درجة لم يكن لها مثيل من قبل . فقد نشأت أسر مصرفية عظيمة لتمد التجارة

الإيطالية الواسعة النطاق بالمال وهو عصب حياتها : ومن هؤلاء أسرتا بونسنيورى Buonsignori وجلرانى Gallerani فى سينــا Siena وأسر فرسكوبلدى Frescobaldi ، وباردى Bardi ، وپروزى Peruzzi فى فلورنس ، وأسرتا پزانى ، Pisani وتيبولى Tiepoli فى البندقية . . . وقد مدت هذه الأسر أعمالها المالية إلى ما وراء جبال الألب ؛ وكانوا يقرضون ملوك إنجلترا وفرنسا الذين لا تنقطع حاجتهم إلى المال مبالغ طائلة ، كما كانوا يقرضون الأشراف ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والمدن . وكان البابوات والملوك يستخدمون أولئك المرابين لتحصيل إيرادهم ، والإشراف على دور الضرب والشئون المالية ، والاستعانة بآرائهم فى السياسة . وكانوا يشترون الصوف ، والتوابل ، والحلى ، والحرير جملة ، ويمتلكون السفن والنزل فى أقصى أوربا وأدناها(٤٤) . وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر كان هؤلاء « اللمبارد » ، كما كان أهل الشمال يسمون جميع رجال المصارف الإيطاليين ، أعظم رجال المال فى العالم قوة ونشاطا . وكانوا قوما مكروهين فى داخل بلادهم وخارجها لشدتهم فى تحصيل المال ، يحسدهم الناس من أجل ثرائهم ؛ لأن الناس فى كل جيل يقترضون المال وينددون بمن يقرضونه . وكان قيام هذه الطائفة ضربة قاصمة وجهت إلى رجال المصارف الدوليين اليهود ؛ ولم يتورع أفرادها عن أن يشيروا بنفى منافسيهم ذوى الصبر والجلد(٤٥) . وكان أقوى « اللمبارد » جميعاً هم شركات المصارف الفلورنسية ، وفى وسعنا أن نعد منها ثمانين شركة بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٤٧ . وكانت هذه الشركات تمول الحملات السياسية والحربية التى يقوم بها البابوات وتجنى من وراء عملها هذا أرباحا طائلة ، وكانت من حيث هى المصارف التى تمد البابوات بالمال ستاراً نافعاً لتلك العمليات التى قلما كانت تتفق مع آراء الكنيسة عن الربا . وكانت تجنى من الأرباح ما لا يكاد يقل عن أرباح المصارف فى هذه الأيام ؛ مثال ذلك أن شركة پروزى وزعت على المساهمين فيها أرباحا قدرها أربعون فى المائة فى عام ١٣٠٨(٤٦) .

ولكن هذه الشركات الإيطالية كادت تكفر عن نهمها بما كانت تؤديه من الخدمات الحيوية للتجارة والصناعة . ولما أخذ نجمها فى الأفول خلفت وراءها فى جميع اللغات الأوربية تقريباً بعض مصطلحاتها وهى ألفاظ banco ، credito ، debito ، cassa ، conto ، disconto ، conto corrente ، netto ، bilanza ، banca rotta ومعناها على التوالى المصرف ، والدائن ، والمدين ، وصندوق النقد أى الخزانة ، والحساب ، والخصم ، والحساب الجارى ، والرصيد ، والميزان الحسابى ، والإفلاس[٤٨] .

وكانت الشركات المصرفية الكبرى فى البندقية وفلورنس ، وجنوى فى أثناء القرن الثالث عشر أو قبله تقوم بجميع الأعمال التى تقوم بها المصارف فى هذه الأيام كما تدل على ذلك الألفاظ السالفة الذكر . فكانت تقبل الودائع ، وتفتح الحسابات الجارية بين الجماعات التى تقوم بسلسلة من الأعمال المالية لم تصل بعد إلى نهايتها ، وكان مصرف البندقية منذ عام ١١٧١ ينظم تبادل الحسابات بين عملائه بعمليات مقصورة على عمليات إمساك الدفاتر[٤٩] . وكانت تقرض المال ، وتقبل ضمانا له الحلى ، والدروع الغالية الثمن ، والقراطيس المالية الحكومية ، أو حق جباية الضرائب أو تدبير شئون الإيرادات . وكانت تخزن البضائع المعدة للنقل إلى خارج البلاد . وكان فى مقدورها بفضل علاقاتها الدولية أن تصدر خطابات الاعتماد التى يستطاع بها تسليم المال المودع فى بلد ما إلى مودعه أو من ينيبه عنه فى بلد آخر — وهى وسيلة مصرفية كانت معروفة من زمن بعيد عند اليهود والمسلمين وفرسان المعبد[٥٠] . وكانت تقوم أيضاً بعكس هذه العملية فتكتب السفاتج . فكان التاجر إذا أخذ بضاعة أو قرضاً ، يكتب على نفسه صكا بأن يسدد ما عليه إلى الدائن قبل وقت معين فى إحدى الأسواق الموسمية الكبرى أو فى إحدى المصارف الدولية . وكانت هذه الصكوك تسوى بعضها مع بعض فى السوق الموسمية أو المصرف بحيث لا يؤدى نقداً إلا صافى

الحساب بعد التسوية . وبهذه الطريقة أصبحت مئات العمليات المالية والتجارية تسوى من غير أن يكلف المتعاملون أنفسهم مشقة حمل مبالغ طائلة وأثقال كبيرة من النقد أو تبادلها . ولما أصبحت المراكز المصرفية بيوت مقاصة ، وفر رجال المصارف على أنفسهم عناء الذهاب إلى الأسواق الموسميه ، فكان فى وسع التجار المقيمين فى سائر أنحاء أوربا أن يسحبوا الأموال من حساباتهم فى مصارف إيطاليا ثم تسوى حساباتهم بعمليات إمساك الدفاتر بين المصارف المختلفة . وبهذه الطريقة زادت فائدة النقود وزاد تداولها عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل . ولم يكن « نظام الائتمان » — الذى قام على أساس الثقة المتبادلة أقل مظاهر الثورة الاقتصادية شأناً أو أقلها دلالة على الشرف والأمانة .

كذلك كانت بداية نظام التأمين فى القرن الثالث عشر ، فكانت نقابات التجار تؤمن أعضاءها من حوادث الحريق ، وغرق السفن ، وغيرهما من الكوارث والأضرار ، بل تعدت هذا النوع إلى تأمينهم من القضايا التى تقام عليهم بجرائم ارتكبوها — سواء كان هؤلاء الأعضاء مذنبين أو بريئين[٥١] ؛ وكانت أديرة كثيرة تعطى المؤمن مرتباً سنوياً طوال حياته . فإذا قدم لها الشخص مبلغاً معيناً من المال تعهدت بأن تمده بالطعام ، والشراب ، وبالثياب ، والمسكن أحياناً ، طوال حياته الباقية[٥٢] . وقام أحد مصارف بروج منذ القرن الثانى عشر بالتأمين على البضائع ، ويبدو أن شركة قانونية للتأمين قد أسست فى هذا البلد عام ١٣١٠[٥٤] . وكان آل باردى فى فلورنس يؤمنون الأقمشة التى تنقل بطريق البر من الأخطار التى تتعرض لها فى الطريق .

وأصدرت مدينة البدقية أولى السندات الحكومية فى عام ١١٥٧ ، وكان سبب إصدارها أن مطالب الحرب اضطرت هذه الجمهورية أن تطلب قروضاً إجبارية من أهلها ، — وأنشئت إدارة خاصة لتسلم هذه القروض —، ثم تعطى من يقدمونها شهادات تكون بمثابة ضمان من الحكومة بسداد هذه القروض

مضافاً إليها فائدة . وأصبحت هذه السندات الحكومية بعد عام ١٢٠٦ قابلة للتحويل والانتقال من يد إلى يد ، وكان من المستطاع بيعها أو شراؤها أو اتخاذها ضماناً للديون . وكانت شهادات مثلها منصوص فيها على مديونية البلدية تقبل في كومو Como عام ١٢٥٠ على أنها مساوية لقدر معين من النقود المعدنية . وإذ لم تكن أوراق النقد إلا وعداً من الحكومة بالدفع ، فإن هذه الشهادات الذهبية القابلة للتحويل تعد بداية أوراق النقد في أوربا[٥٥] .

وتطلبت العمليات المعقدة الخاصة بأصحاب المصارف ، والبابوات ، والملوك ، نظاما دقيقاً لإمساك الدفاتر . ولذلك امتلأت المحفوظات ، ودفاتر الحسابات ، بسجلات الإيجار ، والضرائب ، والأموال الواردة والمنصرفة ، والديون التي لأصحابها أو عليهم . وقد بقيت طرق المحاسبة ، التي كانت متبعة في رومة في عهد الإمبراطورية ، متبعة في القسطنطينية بعد أن ضاعت منذ القرن السابع في أوربا الغربية ؛ ومن هذه المدينة أخذها العرب ، ثم عادت إلى الوجود في إيطاليا أثناء الحروب الصليبية : وإنا لنجد في الحسابات العامة لمدينة جنوى في عام ١٣٤٠ نظاما كاملا لطريقة الدوبيا — القيد المزدوج — وإن ضياع سجلات جنوى الخاصة بالأعوام المحصورة بين ١٢٧٨ و ٣١٤٠ ليترك لدينا مجالا للترجيح على أن هذا التقدم كان أيضاً من الأعمال المجيدة التي ظهرت في القرن الثالث عشر[٥٦] .

الفصل الرابع

الربا

كانت العقيدة الدينية المسيحية فى الربا أكبر العقبات فى نمو النظام المصرفى وتقدمه . وكان لهذه العقيدة عند المسيحيين ثلاثة مصادر : طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعى إذ هو توليد المال للمال(٥٧)، وطعن المسيح على الربا(٥٨) ، ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية وللربا فى رومة . أما القانون الرومانى فقد شرع الربا وكان « رجال شرفاء »(*) أمثال بروتس يتقاضون رباً فاحشاً على أموالهم . وكان أمبروز Ambrose قد عارض النظرية القائلة إن من حق الإنسان أن يفعل بماله ما يشاء إذ قال :

أتقول « إنه ملكى » ؟ ألا فقل لى ماذا تملك ؟ أى ثروة جئت بها معك حين خرجت من بطن أمك ؟ إن ما تأخذه فوق كفايتك إنما تأخذه بالعنف . فهل الله ظالم إذ لم يوزع وسائل العيش بيننا بالتساوى فتنال أنت منها حظا موفورا ويبقى غيرك محتاجاً فقيراً ؟ أو هل الأصح من هذا أنه أراد أن يحبوك بدلائل حنوه عليك ، فى الوقت الذى وهب غيرك من الناس فضيلة الصبر ؟ وإذن فهل تظن أنت يا من وهبك الله نعمته أنك لا ترتكب الظلم حين تحتفظ لنفسك أنت وحدك بما يمكن أن يكون مصدر الحياة لكثير من الناس ؟ إن الذى تقبض عليه بيدك هو خبز الجياع ، وإن ما تخزنه هو كساء العرايا ، وإن المال الذى تكتنزه لهو الذى ينقذ الفقراء من بؤسهم(٥٩) .

(*) يشير المؤلف بهذه العبارة « رجال شرفاء » إلى خطبة ماركس أنطونيوس ووصفه بروتس وكاسيوس وقتلة قيصر بأنهم كلهم « رجال شرفاء » تهكماً منه عليهم واستهزاء بهم . انظر رواية يوليوس قيصر لشيكسبير . (المترجم)

واقترب غير أمبروز من آباء الكنيسة من الشيوعية ؛ فها هو ذا كلمنت الإسكندرى يقول : « إن الانتفاع بكل ما فى العالم يجب أن يكون حقا مشاعا للناس جميعاً . ولكن الناس يظلم بعضهم بعضاً إذ يقول واحد منهم إن هذا الشىء ملكه ، ويقول الآخر إن ذاك له ، وهكذا حدث الانقسام بين الناس »[٦٠] . وكان چيروم يرى أن الكسب كله حرام ، كما كان أوغسطين يرى أن جميع « الأعمال » المالية إثم لأنها تصرف الناس عن السعى للراحة الحقة ، أعنى الله »[٦١] . وكان البابا ليو الأول قد رفض هذه العقائد المتطرفة ، ولكن الكنيسة ظلت لا تعطف على التجارة ، وترتاب فى جميع أنواع المضاربات والمكاسب ، وتعارض جميع صنوف « الاحتكار » و « الجبء » و « الربا » . وكان هذا اللفظ الأخير يطلق فى العصور الوسطى على فائدة المال أياً كان قدرها ، وفى ذلك يقول أمبروز : « الربا هو كل مال يضاف إلى رأس المال »[٦٢] ، وقد أدخل جراتيان Gratian هذا التعريف الجامد فى القانون الكهنوتى الذى تسير عليه الكنيسة .

وكانت مجامع نيقية (٣٢٥) ، وأورليان (٥٣٨) ، وماسون Maçon ، وكليشى (٦٢٦) قد حرمت على رجال الدين أن يقرضوا المال ليكسبوا بإقراضه ، وتوسعت قوانين شارلمان الصادرة فى عام ٧٨٩ ومجالس الكنيسة التى عقدت فى القرن التاسع ، فى هذا التحريم حتى شمل غير رجال الدين ؛ فلما أن عاد القانون الرومانى إلى الوجود فى القرن الثانى عشر شجعت عودته إرنريوس Irnerius و « الشراح » فى بولونيا على الدفاع عن الربا . وكان فى وسعهم أن يؤيدوا حججهم بما جاء فى قانون جستنيان ، ولكن مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) جدد هذا التحريم وقرر « أن الذين يجهرون بالربا لا يقبلون فى العشاء الربانى ، وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يدفنون دفن المسيحيين ، وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم »[٦٣] . وما من شك فى أن إنوسنت الثالث كان يرى

رأياً أقل صرامة من هذا ، لأنه أشار فى عام ١٢٠٦ بأن « يعهد ببائنة الزوجة فى بعض الحالات إلى تاجر من التجار ، لكى تحصل منها على دخل بطريق الكسب الشريف »[٦٤] . غير أن جريجورى التاسع عاد إلى القول بأن الربا هو كل ما يناله الإنسان من كسب نظير قرض[٦٥] ، وظل هذا الرأى قانون الكنيسة الرومانية حتى عام ١٩١٧ .

وكانت ثروة الكنيسة فى الأرض لا فى التجارة ، فقد كانت تزدرى التجار كما يزدريهم سادة الإقطاع ، أما الأرض والعمل (وتدخل فيه الإدارة) فكان يبدو لها أنهما وحدهما مصدر كل الثروة وكل القيم ، وكانت تنظر بعين السخط إلى سلطان طبقة التجار وثرائها المتزايدين لأن هذه الطبقة لم تكن تميل إلى الملاك الإقطاعين ولا إلى الكنيسة ؛ وقد ظلت قروناً طوالا تظن أن جميع المرابين يهود ، وترى من حقها أن تبدى سخطها على الشروط الصارمة التى يفرضها المرابون على الهيئات والمعاهد الدينية التى تحتاج إلى المال . ويمكن القول بوجه عام إن ما بذلته الكنيسة من جهود للإشراف على طرق الكسب كان عملا مقروناً بالشجاعة يهدف إلى تثبيت قواعد الأخلاق المسيحية ، ويسمو على ما كان يدنس الحياة والشرائع اليونانية والرومانية من سجن المدين أو استرقاقه ، ولسنا واثقين من أن الناس فى هذه الأيام أسعد حالا مما عساهم أن يكونوا لو عملوا برأى الكنيسة فى الربا .

وظل تشريع الحكومات زمناً طويلا يؤيد موقف الكنيسة فى هذه الناحية ، وكانت المحاكم المدنية نفسها تحرم الربا[٦٦] ، ولكن تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم . ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل فى المشروعات النشيطة ، ووجدت الدول فى أثناء الحرب أو الأزمات الطارئة أن الاقتراض أيسر من فرض الضرائب ؛ وكانت النقابات تقرض المال وتقترضه بالربا ، وكان الملاك الذين يرغبون

فى توسيع أملاكهم ، أو يسافرون للاشتراك فى الحروب الصليبية يرحبون بالمرابى ، بل إن الكنائس نفسها والأديرة كانت تتغلب على أزماتها ، أو نفقاتها المتزايدة ، أو حاجتها للمال بالالتجاء إلى « اللمبارد » أو الكهوريين أو اليهود .

واستطاع الناس أن يجدوا بذكائهم منافذ لهم فى هذا القانون ، من ذلك أن المقترض كان يبيع الأرض رخيصة للمقرض ، ويترك له حق الانتفاع بريعها نظير فائدة ماله ، ثم يعود بعدئذ فيشترى الأرض منه (البيع الوفائى) . أو كان المالك يبيع للدائن جزءاً من ريع أرضه أو دخلها ، أو ريعها أو دخلها كلهما . مثال ذلك أنه إذا باع ا إلى ب ريع جزء من أرضه يغل عشر جنيهات بمبلغ مائة جنيه ، فإن ب فى واقع الأمر يقرض ا مائة جنيه بفائدة قدرها عشرة فى المائة . وكانت أديرة كثيرة تستثمر أموالها بهذه الطريقة — وبخاصة فى ألمانيا حيث اشتق اللفظ المقابل للفائدة Zins من اللفظ اللاتينى الذى كان يطلق فى العصور الوسطى على الريع Census [٦٧] . كذلك كانت المدن تقرض المال بأن تبيع المقرض جزءاً من دخلها[٦٨] ، وكان الأفراد والهيئات ومنها الأديرة تقرض المال نظير عطايا تنالها سراً أو بيوع صورية[٦٩] ، حتى لقد شكا البابا ألكسندر الثالث فى عام ١١٦٣ من أن « كثيرين من رجال الدين (وبخاصة فى الأديرة) » يقرضون المال لمن هم فى حاجة إليه ، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له ، ثم يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة مضافة إلى رأس المال المقرض ، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف لأنه محرم تحريماً صريحاً » [٧٠] . وكان بعض المدينين يتعهدون بدفع « تعويضات » تزيد زيادة مطردة عن كل يوم أو شهر يتأخرون فيه عن أداء الدين ، وكان يوم السداد يحدد عمدا فى أجل قريب حتى تصبح هذه الفائدة الخفية محققة لا مفر من أدائها[٧١] . وكان الكهوريون يقرضون بعض الأديرة المال على هذا الأساس

بشروط ترفع سعر الفائدة إلى ستين فى المائة فى السنة(*) . وكانت بعض الشركات المصرفية تقرض المال جهرة بالربا وتدعى الحصانة من القانون ، لأنه فى رأيها لا ينطبق إلا على الأفراد ، ولم تكن مدن إيطاليا ترى أية غضاضة فى دفع فوائد عن سنداتها الحكومية ، وبلغ انتشار الربا حداً جعل إنوسنت الثالث يجهر فى عام ١٢٠٨ بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب ذلك القانون الكنسى ، لوجب إغلاق الكنائس جميعها(٧٣) .

واضطرت الكنيسة على كره منها أن تكيف نفسها وفق الظروف الواقعية ، فتقدم القديس تومس أكويناس حوالى عام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدإ كهنوتى جديد عن الربا قال فيه إن من يستثمر ماله فى مشروع تجارى يحق له شرعا أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا فى التعرض للخسارة(٧٤) ، وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر فى أداء الدين عن تاريخ معين مشروط(٧٥) . وارتضى القديس بونافنتورا St. Bonaventura والبابا إنوسنت الرابع هذا المبدأ وتوسعا فيه حتى قالا بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله(٧٦) . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول فى إصدار سندات ذات فائدة ؛ وأقر البابا مارتن Martin الخامس فى عام ١٤٢٥ شرعية بيع الريع ، ثم ألغت معظم الدول الأوربية بعد عام ١٤٠٠ ما وضعته من القوانين لتحريم الربا ، ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهملا يتفق الناس جميعاً على

(*) لقد كانت هذه الحال وما هو أسوأ منها سائدة فى مصر إلى عهد قريب فقد ، كانت بعض المصارف تقرض المال بفائدة مركبة تؤدى إلى زيادة رأس المال إلى ضعفيه فى عشر سنين وإلى ثلاثة أضعاف فى عشرين . وكان بعض المرابين يقرض الجنيه الإنجليزى (٩٧,٥) بسبعة وعشرين قرشاً ونصف قرش فى ثلاثة أشهر ، ويحتالون على هذا العمل الإجرامى بإضافة الفائدة إلى رأس المال والادعاء بأن مجموعهما هو المال المقترض . ومن طرق الخداع الأخرى البيع الوفائى والرهون العقارية وغيرهما مما أدى إلى ضياع كثير من الأملاك وانتقالها إلى المرابين . (المترجم)

إغفاله . وحاولت الكنيسة أن تجد حلا للمسألة بتشجيعها القديس برنردينو الفلترى St. Bernardino of Feltre وغيره من رجال الدين على أن ينشئوا ابتداء من عام ١٢٥١ ما يسمى « تلال الحب » — montes pietattis — حيث كان في وسع المحتاجين الموثوق بأماناتهم أن يحصلوا على قروض من غير فائدة إذا أودعوا شيئاً ضماناً لهذا القرض . ولكن هذه « التلال » التى كانت مقدمة لمحال الرهون الحاضرة لم تعالج إلا جانباً صغيراً من المشكلة ، وبقيت حاجات التجارة والصناعة كما كانت من قبل ، ووجدت رؤوس الأموال للوفاء بهذه الحاجات .

وكان المرابون المحترفون يتقاضون فوائد باهظة ، ولم يكن هذا لأنهم شياطين لا ضمير لهم ، بل كان سببه أنهم يتعرضون لخسارة مالهم وفقد حياتهم ؛ ذلك أنهم لم يكن فى مقدورهم على الدوام أن يلزموا مدينيهم بأن يوفوا بالتزاماتهم بالتجائهم إلى القانون ، وكانت مكاسبهم عرضة لأن يستولى عليها الملوك أو الأباطرة ، وكانوا معرضين فى أى وقت من الأوقات لخطر النفى من البلاد ، وكانوا فى كل حين مكروهين ملعونين . وما أكثر القروض التى لم ترد لأصحابها ؛ وما أكثر المدينين الذين ماتوا مفلسين ، أو انضموا إلى جيوش الصليبيين ، وأعفوا من أداء الفوائد ، ثم لم يعودوا منها أبداً . وإذا عجز المدينون عن الوفاء ، لم يكن فى وسع الدائنين إلا أن يرفعوا سعر الفائدة على الديون الأخرى ؛ إذ ينبغى أن تتحمل الديون الرابحة خسائر الديون الخاسرة كما تتحمل أثمان السلع التى تشتريها نفقات السلع التى تتلف قبل بيعها . وكان السعر فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الثانى عشر يتراوح بين ٣٣ ١/٣ ٪ و ٤٣ ١/٣ ٪ [٧٧] ، وكان يبلغ فى بعض الأحيان ٨٦ ٪ ؛ وقد انخفض فى إيطاليا فى عهد الرخاء إلى ١٢٫٥ ٪ وإلى ٢٠ ٪ [٧٨] . وحاول فردريك الثانى حوالى عام ١٢٤٠ أن يخفض هذا السعر

إلى ١٠ ٪ ، ولكنه سرعان ما أدى سعراً أعلى من هذا لدائنيه المسيحيين ؛ وكانت حكومة نابلى تجيز أن يكون أعلى سعر قانونى للفائدة ٤٠٪[٢٩] ؛ وكان السعر ينخفض كلما زاد ضمان القروض ، وزادت المنافسة بين المقرضين ؛ وبعد أن تخبط الناس فى ألف من التجارب والأخطاء عرفوا كيف يستخدمون الأدوات المالية الجديدة ، أدوات الاقتصاد النقدى ، وبدأ بذلك عصر المال فى أثناء عصر الإيمان .

الفصل الخامس

النقابات الطائفية

كان فى رومة عدد لا حصر له من الجماعات تطلق عليها أسماء مختلفة : طوائف ، وهيئات ، واتحادات ، ونقابات . كانت فيها جماعات للصناع ، والتجار والمقاولين ، والأندية السياسية ، والإخوة السرية ، والإخوة الدينية . ترى هل بقيت جماعة من هذه الجماعات فنشأت عنها النقابات الطائفية التى كانت قائمة فى العصور الوسطى ؟

لدينا رسالتان من رسائل جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤) تشيران إلى وجود هيئة من صانعى الصابون فى نابولى ، وأخرى من الخبازين فى أترانتو ؛ ونقرأ فى كتاب قوانين الملك بوثارس Botharis اللمباردى (٦٣٦ — ٦٥٢) عن « الرؤساء الكوموسين » ، ويلوح أن هؤلاء كانوا كبار البنائين من كومو Como ويسمى بعضهم بعضاً الزملاء Collegantes — أى الذين يزامل بعضهم بعضا فى جماعة واحدة[٨٠] . وقد ورد ذكر جماعات لعمال النقل كانت قائمة فى رومة فى القرن السابع وفى ورمز فى القرن العاشر[٨١] . وظلت النقابات القديمة قائمة فى الإمبراطورية البيزنطية . ونجد فى السجلات رافنا إشارات إلى كثير من الجماعات الاقتصادية — إلى جماعة الخبازين فى القرن السادس ، وإلى هيئات الموثقين والتجار فى القرن التاسع ، والسماكين فى القرن العاشر ، وإلى موردى الأطعمة فى القرن الحادى عشر . ونسمع عن جماعات الصناع فى البندقية فى القرن التاسع ، وبجماعة البستانيين برومة فى القرن الحادى عشر[٨٢] . وما من شك فى أن الكثرة الغالبة من النقابات والاتحادات فى الغرب قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة ، وما أعقبها من فاقة ، ومن عودة العمال إلى الأعمال الزراعية

ولكن يبدو أن بعضها قد بقى فى لمباردى ، ولما أن عادت التجارة والصناعة إلى الانتعاش فى القرن الحادى عشر ، كانت الظروف التى أوجدت الجماعات القديمة هى التى بعثت النقابات الطائفية بعثاً جديداً .

ومن أجل هذا كانت النقابات الطائفية أقوى ما تكون فى إيطاليا ، حيث بقيت الهيئات والأنظمة الرومانية القديمة حافظة لكيانها على خير وجه . ففى فلورنس مثلا نجد فى القرن الثانى عشر اتحادات للحرف – كالموثقين ، وصناع الملابس ، وتجار الصدف ، وأصحاب المصارف ، والأطباء ، والصيادلة ، والبزازين ، وتجار الفراء ، والدابغين ، وصانعى الأسلحة ، وأصحاب النزل ...(٨٣) ويلوح أن هذه النقابات الطائفية قد أنشئت على غرار نظائرها فى القسطنطينية(٨٤) . ويبدو أن تدمير الاتحادات الطائفية القديمة كان فى شمال جبال الألب أتم منه فى إيطاليا ، ولكننا مع ذلك نجد لها ذكراً فى شرائع دجوبرت Dagobert الأول (٦٣٠) ، وشرائع شارلمان (٧٧٩ – ٧٨٩) ، وأوامر هنكمار كبير أساقفة ريمس (٨٥٢) . وعادت النقابات الطائفية إلى الظهور فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الحادى عشر ، وسرعان ما تضاعف عددها وأطلق عليها اسم « المتصدقين » أو « الإخوة » أو « الشركات » . وتفرعت النقابات الطائفية (الهانز) فى ألمانيا من الجماعات القديمة markgenossenschaften – وهى هيئات محلية لتبادل المعونة ، وأداء الشعائر الدينية ، والاحتفال بالأعياد . واستحال كثير من هذه الجماعات قبل أن يحل القرن الثانى عشر إلى اتحادات للصناعات والحرف ، وقبل أن يحل القرن الثالث عشر بلغت هذه الاتحادات من القوة درجة أمكنها بها أن تنازع المجالس البلدية سلطتها السياسية والاقتصادية(٨٥) ، ولم تكن العصبة الهانسية إلا واحدة من هذه الاتحادات . وورد ذكر النقابات الطائفية الإنجليزية لأول مرة فى قوانين الملك أين Ine (٦٨٨ – ٧٢٦) ، فقد ذكر فيها لفظ « ججلدان » Gegildan – وهى جماعات كان يُساعد بعضها بعضاً

فيما يفرض عليهم من مال « الفداء » . وكانت كلمة جلد gild الإنجليسكسونية (التى اشتقت منها كلمة guild أى النقابة الطائفية فى العصور الوسطى وهى قريبة فى أصلها من كلمة geld الألمانية وكلمتى gold و yield الإنجليزيتين) تعنى فى أول الأمر الاشتراك فى مال عام ، ثم أصبحت تعنى فيما بعد الاشتراك فى الجماعة التى تشرف على هذا المال . ووردت أقدم إشارة إلى النقابات الطائفية الإنجليزية فى عام ١٠٩٣ ، ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان لكل مدينة مهمة فى إنجلترا تقريباً نقابة طائفية أو أكثر من نقابة ، وحتى كان نوع من « الاشتراكية النقابية » البلدية يسيطر على أحوال الناس فى إنجلترا وألمانيا .

وكانت نقابات القرن الحادى عشر الطائفية جميعها تقريباً نقابات للتجار ، ولم تكن تضم إلا التجار المستقلين ورؤساء العمال ، وكانت تحرم من الانضمام إليها جميع من يعتمدون على غيرهم ، وكانت هيئات تعمل صراحة لفرض قيود على التجارة ، فكانت عادة تحمل المدن التى توجد فيها على أن تمنع بالضرائب الجمركية الحامية المرتفعة أو بغيرها من الوسائل دخول السلع التى تنافس ما تصنعه هى ؛ وإذا ما سمح لهذه البضائع الأجنبية بدخول المدينة بيعت بأثمان تحددها النقابة التى يؤثر دخولها فى بضائعها هى . وكثيراً ما كانت إحدى نقابات التجار الطائفية تحصل من المقاطعة أو الملك على ترخيص باحتكار سلعة أو سلع فى الإقليم الذى تعمل فيه أو الدولة كلها . مثال ذلك أن الشركة الباريسية للنقل التجارى المائى كادت تملك نهر السين كله . وكانت النقابة الطائفية ترغم الصناع عادة بأوامر تصدرها المدينة أو بالضغط الاقتصادى على ألا تعمل إلا معها أو برضاها وألا تبيع ما تنتجه إلا للنقابة أو عن طريقها .

وأصبحت أكبر هذه النقابات على مر الزمن هيئات متحدة قوية ، تتجر فى أنواع مختلفة من البضائع ، وتشترى المواد الغفل جملة ، وتؤمن التجارة من الخسائر ، وتنظم توزيع الطعام لمدنها ونقل فضلاتها ، وترصف الشوارع ، وتنشئ

الطرق والأحواض وتعمق المرافئ ، وتؤمن الطرق الرئيسية بتعيين الشرطة فيها ، وتشرف على الأسواق ، وتنظم الأجور ، وساعات العمل وظروفه ، وشروط القرن على الصناعات ، وطرق الإنتاج والبيع ، وأثمان المواد الخام والمصنوعات[٨٧] . وكانت تحدد للسلع أربع مرات أو خمس فى كل عام ، ثمناً عادلا ، تراه حافزاً قوياً للانتاج ومجزياً لجميع المهتمين بها . وكانت تزن وتختبر وتعد جميع ما يشترى ويباع من الحاصلات المتصلة بحرفتها وفى الدائرة التى تعمل فيها ، وتبذل كل ما فى وسعها لتمنع البضائع المغشوشة أو المنحطة من دخول السوق[٨٨] . وكانت النقابات تتخذ لمقاومة اللصوص ، وسادة الإقطاع ، والمكوس ، والعمال المشاكسين ، والحكومات التى تفرض الضرائب الفادحة . وكان لها شأن كبير فى السياسة ، وكانت تسيطر على كثير من المجالس البلدية ، وكثيراً ما أمدت الأقاليم بتأييد قوى فى كفاحها ضد الأشراف والأساقفة والملوك ، ثم تطورت هى آخر الأمر فأصبحت هيئة أرستقراطية من التجار والماليين .

وكان لكل نقابة طائفية فى العادة غرفتها الخاصة ، وكان بعض هذه الغرف فى العصور الوسطى صروحا مزخرفة أحسن زخرف . وكان لها طائفة من الموظفين الكبار ، ومسجلين ، وخزنة للأموال ، ومأمورين ، وشرطة . . . وكانت لها محاكمها الخاصة يحاكم فيها أعضاؤها ، وكانت تحتم على أعضائها أن يعرضوا منازعاتهم على محكمة النقابة الطائفية قبل أن يلجأوا إلى قانون الدولة . وكانت تفرض على أعضائها أن يمدوا بالمعونة زملاءهم النقابيين فى حالات المرض والكوارث ، وأن تنقذهم أو تفتديهم إذا هوجموا أو سجنوا[٨٩] وكانت تشرف على أخلاق أعضائها وآدابهم ، وثيابهم ، وتفرض عقوبة على كل من يحضر اجتماعاتها بغير جورب . وحدث أن اشتبك عضوان من نقابة التجار فى ليستر Leicester فى تلاكم فى سوق بسطن Boston فما كان من زملائهما إلا أن فرضوا عليهما غرامة قدرها برميل من الجعة ، يشربه أعضاء النقابة[٩٠] . وكان لكل نقابة

طائفية عيد سنوى تمجد فيه شفيعها القديس ، يبدأ بصلاة قصيرة يقضون بعدها اليوم كله يدمنون الشراب . وكانت النقابة تشترك فى تمويل كنائس المدينة صغيرها وكبيرها وتزيينها ، وفى إعداد التمثيليات الدينية التى نشأت منهـــا المسرحيات الحديثة وفى تمثيلها . وكان كبار رجالها يمشون فى الاستعراضات البلدية بأثوابهم الزاهية ، رافعين أعلام حرفهم فى مواكب فخمة . وكانت تؤمن أعضاءها من الحريق ، والفيضان ، والسرقة ، والسجن ، والعجز ، والشيخوخة[٩١] . وكانت تنشئ المستشفيات ، وبيوت الصدقات ، وملاجئ الأيتام والمدارس ؛ وتتحمل نفقات جنازات الموتى والصلوات التى تنجى أرواحهم من العذاب فى المطهر ، وقلما كان الأغنياء من أعضائها ينسونها فى وصاياهم .

وكان أرباب الحرف فى كل صناعة ممنوعين عادة من الانضمام إلى نقابات التجار الطائفية ، وإن كانوا خاضعين لنظمها الاقتصادية وسلطانها السياسى ، ولهذا أخذوا فى القرن الثانى عشر يؤلفون فى كل بلدة نقابات طائفية خاصة بهم ، فنجد فى ١٠٩٩ نقابات لطوائف النساجين فى لندن ولنكلن ، وأكسفورد ، وحذا حذوهم بعد قليل من ذلك الوقت القصارون ودابغو الجلود ، والقصابون ، والصياغ . . . وانتشرت هذه النقابات الطائفية فى القرن الثالث عشر فى جميع أنحاء أوربا وسميت فيها بأسماء مختلفة كأرباب الحرف ، والجهات ، فكان فى مدينة البندقية منها ثمان وخمسون ، وفى جنوى ثلاث وثلاثون ، وفى فلورنس إحدى وعشرون ، وفى كولونى ست وعشرون ، وفى باريس مائة . وفى عام ١٢٤٥ أصدر إتين بوالو Etienne Boileau « شهبندر التجار » فى أيام لويس التاسع « كتاباً للحرف » رسمياً أثبت فيه القواعد والنظم الخاصة بمائة نقابة طائفية ونقابة قائمة فى باريس . ومما يثير الدهشة ما يحتويه هذا التثبت من تقسيم للعمل : فكانت فى صناعة الجلد مثلا اتحادات خاصة بعمال السلخ ، والدباغة ، والأساكفة ، وصناع عدد الخيل ، وصناع السروج ، وصناع الأدوات

الجلدية الدقيقة . وكان فى النجارة اتحادات خاصة بكل من عمال الصناديق ، والأثاث ، وبناء السفن ، وصناع العجلات ، والبراميل ، وفاتلى الحبال . كانت كل نقابة طائفية تحرص على أسرار حرفتها ، وتحيط ميدان عملها بسياج يصد عنه من لا ينتمى إليه ، وتشغل نفسها بكثير من المنازعات القضائية الخاصة بهذه الحرفة[٩٢] .

وكانت نقابة الحرف الطائفية تتخذ لها شكلا دينيا ، وقديساً شفيعاً ، وتنزع إلى الاحتكار ؛ وكانت فى هذا كله تساير روح العصر الذى تعيش فيه . ولم يكن فى وسع أحد عادة أن يشتغل بحرفة إلا إذا كان عضواً فى النقابة الخاصة بها[٩٣] وكان جميع المنتمين إلى الحرفة هم الذين يختارون زعماءها مرة فى كل عام ، ولكنهم كانوا كثيراً ما يختارون لأقدميتهم فى النقابة أو لثروتهم . وكانت أنظمة النقابة — بالقدر الذى تسمح به نقابات التجار ، وأوامر البلديات ، والقوانين الاقتصادية — تعين الأحوال التى يعمل فيها أعضاؤها ، والأجور التى يتقاضونها ، والأثمان التى يحددونها . وكانت قواعد النقابات تحدد عدد الرؤساء فى كل منطقة ، وعدد الصبيان الذين يدربون عند كل رئيس ، وتحرم استخدام نساء فى الصناعات عدا زوجة الرئيس ؛ كما كانت تحرم استخدام الرجال بعد الساعة السادسة مساء ، وتعاقب الأعضاء لما يطلبونه من أثمان عالية ، وما عساهم يقدمون عليه من معاملات غير شريفة أو يصنعونه من سلع يستخدمون فيها مواد بالية . وكانت النقابة فى كثير من الأحيان تدمغ منتجاتها بطابعها أو علامتها التجارية ليكون هذا شهادة منها بجودة نوعها ، وكان هذا العمل موضع فخر لها[٩٤] ؛ وقد أخرجت نقابة النسيج فى بروج من المدينة عضواً من أعضاء النقابة زور طابع مدينة بروج على بضاعة رديئة[٩٥] . وكانت النقابة تعارض فى قيام المناقشة بين الرؤساء فى زيادة مقدار الإنتاج أو خفض ثمنه ، خشية أن يتمكن أعظم الرؤساء مهارة أو أكثرهم جداً من أن يزيدوا ثروتهم على حساب غيرهم من الرؤساء ،

ولكنها كانت تشجع المنافسة التى تقوم بين الرؤساء أو بين المدن لتحسين نوع المنتجات . وكانت نقابات الحرف تقوم بما تقوم به نقابات التجار من بناء المستشفيات والمدارس ، وتقوم بالتأمين المختلف الأنواع ، وتقدم المعونة إلى الفقراء من أعضائها ، والبائنات إلى بناتهم ، وتدفن موتاهم ، وتعنى بأراملهم ، وتتبرع بالعمال والمال لبناء الكنائس الصغيرة والكبيرة ، وتصور العمليات التى تؤديها ، وتنقش شاراتها على زجاج الكنائس .

ولم تمنع النزعة الأخوية بين رؤساء نقابات الحرف أن يكون فيها درجات متفاوتة فى العضوية والسلطان ، فكان فى الدرجة السفلى منها صبى التمرين الذى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، يرسله والداه ليعيش مع صانع متمرن مدة من الزمن تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة ، ويقوم بخدمته فى حانوته ومنزله . وكان يمنح فى نظير هذه الخدمة الطعام ، والكساء ، والمأوى ، وتعلم الحرفة ، ويعطى فى السنين الأخيرة من الخدمة أجراً وأدوات ؛ فإذا ما قضى مدة التمرين أعطى منحة من المال يبدأ بها عمله مستقلا ، فإذا هرب من معلمه أعيد إليه وعوقب على هربه ، فإذا داوم على الهرب حرم عليه الاشتغال بالحرفة . وإذا أتم خدمته عين عاملا بالمياومة ، ينتقل من رئيس إلى رئيس ويعمل بأجر يومى . فإذا مر عليه وهو بهذه الحال عامان أو ثلاثة أعوام ، وكان لديه من المال ما يستطيع به فتح حانوت مستقل امتحن لمعرفة كفايته الفنية أمام لجنة من أعضاء نقابته الطائفية ، فإذا اجتاز الامتحان أصبح رئيساً . وكان يطلب إلى الرئيس أحياناً — ولم يكن هذا إلا فى أواخر العصور الوسطى — أن يعرض على رؤساء النقابة عينة من صنعه يرضون عنها .

وكان الصانع الذى تخرج على هذا النحو — أو الرئيس كما كانوا يسمونه — يمتلك أدواته ، وكان فى العادة ينتج سلع الاستهلاك التى يطلبها المستهلك مباشرة ، وكان هذا المستهلك فى بعض الأحيان يقدم له المادة الغفل ، وكان يحق له أن يأتى

أى وقت ليراقب سير العمل . ولم يكن الوسيط فى هذا النظام هو الذى يسيطر على المسالك القائمة بين صانع السلعة والمنتفع بها . وكانت السوق التى ينتج لها الصانع هى التى تحدد ما ينتجه ، وكانت هذه السوق عادة هى البلدة التى يقيم فيها ، ولكنه لم يكن خاضعاً لتقلبات سوق عامة أو لأهواء المستثمرين أو المشترين البعيدين عنه ، ولم يكن يعرف ما يطرأ على السوق من تقلبات اقتصادية جنونية بين رخاء تارة وكساد تارة أخرى . وكانت ساعات عمله كثيرة تختلف من ثمان ساعات إلى ثلاث عشرة ساعة — ولكنه كان يختارها بنفسه ، ويعمل على مهل ، ويستمتع بكثير من الأعياد الدينية ، وكان يأكل الطعام المغذى المفيد ، ويبتاع الأثاث المتين ويلبس الثياب البسيطة الطويلة الأجل ، وكانت له حياة ثقافية لا تقل عن حياة الصانع فى هذه الأيام إن لم تكن خيراً منها . نعم إنه لم يقرأ كثيراً ، وكان لهذا ينجو من كثير من السخف الباطل المضل ، ولكنه كان يشترك اشتراكاً فعلياً فى المغانى ، والمراقص ، والتمثيليات ، والشعائر الدينيه التى تقام فى بيئته .

وظلت النقابات الطائفية طوال القرن الثالث عشر يزداد عددها ، ويعظم سلطانها ، وكانت قيداً دمقراطياً يحد من سلطان نقابات التجار الألجركية . غير أن نقابات الصناع الطائفية أصبحت على مر الزمن أرستقراطية عمال ، تنزع إلى قصر رؤساء الصناع على أبناء الصناع أنفسهم ، وخفض أجور عمال المياومة الذين ثاروا عليها فى القرن الرابع عشر ثورات كثيرة أضعفت سلطانها ، وتضع العقبات المطردة الزيادة فى سبيل من يريدون الانضمام إليها ، أو الدخول فى البلدان التى تقوم فيها[٩٦] . على أنها كانت منظمات ممتازة لعصر صناعى ، كثيراً ما ضيقت صعاب النقل فيه الأسواق التى تصرف فيها السلع وجعلتها مقصورة على المشترين المحليين ، ولم تكن رؤوس الأموال المتجمعة من الكثرة والسيولة بحيث تكفى

لتمويل الأعمال التجارية والصناعية الواسعة النطاق . فلما ظهرت الأموال المتجمعة فقدت النقابات ، سواء كانت نقابات تجار أو أرباب حرف ، ما كان لها من إشراف على السوق ، ومن ثم فقدت ما كان لها من إشراف على ظروف العمل . وقضت الثورة الصناعية على هذه النقابات فى إنجلترا بسبب ما حل بها من نكبات ناشئة من تغير الأحوال الاقتصادية ، ثم ألغتها الثورة الفرنسية إلغاء فجائياً تاماً ، لأنها كانت فى نظر القائمين بهذه الثورة لا تتفق مع حرية العمل وكرامته ، وهما الحرية والكرامة اللتان كفلتهما قبل فى ساعة من ألمع الساعات .

الفصل السادس

الحكومات المحلية (القومونات)(*)

أحدثت الثورة الاقتصادية التى تمخض عنها القرنان الثانى عشر والثالث عشر ثورة أخرى فى المجتمع ونظم الحكم ، شأنها فى هذا شأن الثورتين اللتين تمخض عنهما القرنان الثامن عشر والعشرون . ذلك أن طبقات جديدة نشأت فى عالم السلطتين الاقتصادية والسياسية ، وحققت للمدينة فى العصور الوسطى ذلك الاستقلال القوى الذى نشأ عنه كثير من النزاع والخصام ، والذى بلغ غايته فى عصر النهضة .

هذا وإن الجدل الثائر حول الوراثة والبيئة يمتد أثره إلى نشأة مدن أوربا كما يمتد إلى نشأة نقاباتها ؛ ترى هل نشأت هذه المدن من البلديات الرومانية ، أو أنها أثر من آثار التطور الاقتصادى الذى ظل يجرى فى مجراه زمناً طويلا ؟ الحق أن كثيراً من المدن الرومانية قد حافظت على وجودها المستمر خلال قرون الفوضى والفقر والانحلال ؛ ولكن عدداً قليلا منها فى إيطاليا وفرنسا الجنوبية الشرقية هى التى احتفظت بالنظم الرومانية القديمة ، ولم يحتفظ بالقانون الرومانى القديم إلا أقل من هذا العدد القليل . وأما فى شمال الألب فإن قوانين القبائل الهمجية طغت على التراث الرومانى ؛ وتسربت بعض العادات السياسية السائدة فى القبيلة والقرية الألمانية إلى البلديات القديمة . وكانت الكثرة الغالبة من المدن القائمة فى شمال جبال الألب تابعة للأملاك الإقطاعية يحكمها موظفون معينون من قبل سادة الإقطاع وتتحكم إرادتهم فى شئونها ، ذلك أن النظم البلدية كانت غريبة غير مألوفة عند الفاتحين التيوتون ، أما النظم الإقطاعية فكانت هى الطبيعية

(*) هكذا كان العرب يسمون هذه الحكومات والمدن المستقلة فى إيطاليا فى رسائلهم كما ترى ذلك فى صبح الأعشى . (المترجم)

المألوفة عندهم ، ولهذا نشأت مدنية العصور الوسطى خارج إيطاليا من تطور المراكز والطبقات والسلطات التجارية .

وقامت المدينة الإقطاعية عادة على ربوات عالية ، عند ملتقى الطرق ، أو على ضفاف المجارى المائية الحيوية ، أو عند الحدود . وكانت الصناعات والحرف المتواضعة التى يشتغل بها سكان المدن قد نشأت ببطء حول أسوار القصر الإقطاعى أو الدير المحصن ؛ ولما خفت وطأة غارات الشماليين والمجر اتسع نطاق هذا النشاط القائم خارج الأسوار ، وتكاثر عدد الحوانيت ، واستقر التجار والصناع الذين كانوا من قبل أشخاصاً عابرين وأصبحوا من أهل المدن المقيمين الدائمين . غير أن الخوف وعدم الأمان عادا فى أيام الحرب إلى ما كانا عليه من قبل ، فأنشأ الأهلون المقيمون خارج السور سوراً ثانيا أطول محيطا من الخندق الإقطاعى ليحتموا فى داخله هم وحوانيتهم وبضائعهم . وظل السيد الإقطاعى أو الأسقف يملك ويحكم هذه المدينة التى اتسعت رقعتها بوصفها جزءاً من أملاكه ، ولكن سكانها المتزايدين كان يزداد بينهم العنصر التجارى والدنيوى ، فأخذوا يتبرمون من الفروض والسيطرة الإقطاعية ، ويعملون سراً وعلناً ليستخلصوا للمدينة حريتها .

ونشأت من التقاليد السياسية القديمة والحاجات الإدارية الجديدة جمعية من المواطنين وطائفة من الموظفين ؛ وشرعت هذه الحكومة المحلية — الهيئة السياسية — تأخذ على عاتقها شيئاً فشيئاً تنظيم شئون المدينة — البقعة الجغرافية . واستخدم أفراد هذه الهيئة الذكاء الذى هو من طبيعتهم ليثيروا سيداً على سيد — الشريف على الأسقف ، والفارس على الشريف ، والملك على كل واحد من هؤلاء الثلاثة أو عليهم جميعاً . وسلك أهل المدن سبلا كثيرة مختلفة ليحصلوا بها على حريتهم : منها أن يقسموا أغلظ الأيمان أن يمتنعوا عن أداء المكوس والضرائب التى يفرضها عليهم الشريف أو الأسقف ، ويقاوموا من يريد جبايتها منهم ؛ ومنها أن يعرضوا على السيد الإقطاعى مبلغاً محدوداً من المال جملة واحدة

أو قسطا سنويا يشترون به ميثاقا ينص على حريتهم . ونال أهل المدن التى تدخل فى أملاك الملك الخاصة استقلالهم الذاتى بهبات من المال يؤدونها له أو خدمات يقومون بها فى الحرب . ومن المدن ما أعلنت استقلالها دون مبالاة ، وثارت ثورات عنيفة دفاعاً عن هذا الاستقلال . فقد حاربت مدينة تور مثلا اثنتى عشرة حرباً قبل أن تنال حريتها . وباع عدد من سادة الإقطاع المدينين أو المحتاجين ، وبخاصة من كان يستعد منهم للحروب الصليبية ، مواثيق بالحكم الذاتى للمدن التى يسيطرون عليها إقطاعياً ؛ وكانت هذه هى الطريقة التى نالت بها كثير من المدن الإنجليزية الحكم الذاتى من رتشرد الأول . ومن سادة الإقطاع ، وبخاصة فى فلاندرز ، من أعطوا مواثيق بالحرية الناقصة للمدن التى كان نماؤها الاقتصادى سبباً فى زيادة دخلهم . وقاوم رؤساء الأديرة والأساقفة هذه النزعة الاستقلالية أطول من غيرهم لأن يمينهم التى أقسموها حين تولوا مناصبهم كانت تحتم عليهم ألا ينقصوا موارد أديرتهم أو كراسيهم الأسقفية ، وهى الموارد التى كانوا يعتمدون عليها فى أداء واجباتهم الكثيرة ، ومن أجل هذا كان كفاح المدن ضد حاكميها من رجال الدين شاقاً مريراً إلى أقصى حد .

وكان ملوك أسبانيا يبسطون رعايتهم على الحكومات المحلية ليتخذوها معولا لتقويض سلطان الأشراف المشاكسين ، ولهذا كانت المواثيق التى منحوها للمدن كثيرة بعيدة المدى فى الحرية ، وعلى هذا الأساس نالت ليون Leon عهدها من ملك قشتالة فى عام ١٠٢٠ ونالته برغوس Burgos فى عام ١٠٧٣ ، وناجيرا Najera فى عام ١٠٧٦ ، وطليطلة فى ١٠٨٥ ، ونالته بعدها بزمن قليل ، كمبستيلا Compostela ، وقادس ، وبلنسية ، وبرشلونة . وأفاد الإقطاع فى ألمانيا ، وأفادت المدن فى إيطاليا ، من الضعف الذى حل بالإمبراطورية والبابوية كلتيهما أثناء الحروب التى شبت بينهما بسبب التنازع على المناصب والسلطان وغير ذلك من أسباب الخصام بين الكنيسة والدولة ، وكان للمدن القائمة فى شمالى

إيطاليا من السلطان السياسى ما لا يكاد يعرف له نظير قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكما كانت المجارى المتدفقة من جبال الألب تمد بمائها الأنهار العظيمة فى لمبارديا وتسكانيا ، فتحمل المتاجر وتخصب السهول ، كذلك كانت تجارة أقاليم أوربا الواقعة فى شمال الألب وتجارة آسية الغربية اللتان تلتقيان فى شمالى إيطاليا سبباً فى نشأة طبقة تجارية وسطى استخدمت ثروتها فى تجديد المدن القديمة ، وتشييد مدن جديدة ، وتشجيع الآداب والفنون بالمال الوفير ، وبث روح العزة والإباء التى حطمت بها أغلال الإقطاع .

وأخذ الأشراف يشنون من قصورهم الحصينة فى الريف حربا خاسرة على حركة استقلال المدن والحكم الذاتى فيها ؛ فلما خضعوا لما لا بد من الخضوع له ، انتقلوا إلى الإقامة فى المدن الكبيرة وأقسموا يمين الولاء لحكوماتها المحلية . أما الأساقفة ، الذين ظلوا قروناً طوالا الحكام الحقيقيين والحكام القادرين الحازمين لبلدان لمبارديا ، فقد خضعوا لهذه الحكومات بمساعدة البابوات ، وكانوا قد تجاهلوا هذه السلطة من زمن بعيد . فأخذنا نسمع منذ عام ١٠٨٠ عن « قناصل » يحكمون لوقا Lucca ، ثم نجدهم فى عام ١٠٨٤ فى بيزا ، وفى عام ١٠٩٨ فى أرزو Arezzo ، وفى عام ١٠٩٩ فى جنوى ، وفى ١١٠٥ فى پاڤيا ، وفى ١١٣٨ فى فلورنس . وظلت مدائن شمالى إيطاليا حتى القرن الخامس عشر تعترف بسيادة الإمبراطورية الرسمية وتصدر أوراقها الحكومية باسمها[٩٧] ؛ ولكنها كانت من الوجهة العملية الواقعية حرة مستقلة ، وقد عاد إليها العهد القديم عهد المدينة — الدولة بكل ما فيه من فوضى ومن حافز .

وتطلب تحرير المدن فى فرنسا كفاحا طويلا عنيفا فى كثير من الأحيان ؛ فقد أفلح الأساقفة الحاكمون فى لهمان Le Mans (١٠٦٩) ، وكمبرية (١٠٧٦) وريمس (١١٣٩) ، بما كانوا يصدرونه من أحكام الحرمان تارة وبالقوة تارة أخرى ، أفلحوا فى القضاء على الحكومات المحلية التى أقامها الأهلون ؛ أما فى

نوايون Noyon فقد منح الأسقف البلدة عهداً بحريتها من تلقاء نفسه (١١٠٨) ؛ وحررت سان كنتن St. Quentin نفسها فى عام ١٠٨٠ ، وبوفيه فى ١٠٩٩ ، ومرسيليا فى ١١٠٠ ، وأمين Amiens فى ١١١٣ ، واغتنم أهل لاؤن Laon غياب أسقفهم الفاسد فى عام ١١١٥ فأنشأوا فيها حكومة ذاتية ؛ فلما عاد رشوه بالمال حتى أقسم أن يحميها ، ثم أغرى الملك لويس السادس بعد عام من ذلك الوقت بأن يقضى عليها . ونرى فى وصف الراهب جويبرت النوجنتى Guibert of Nogent لما حدث بعدئذ مثلا من عنف ثورة المدن فى سبيل الحكم الذاتى :

فى اليوم الخامس من أسبوع عيد الفصح . . . علا صخب مضطرب فى جميع أنحاء المدينة ، وأخذ الناس ينادون بأعلى أصواتهم « الحكم الذاتى المحلى » ! ... ودخل أهل المدينة وقتئذ فناء الأسقف ، مشرعة سيوفهم ، وبلطهم الحربية الصغيرة والكبيرة ، وأقواسهم ، وعصيهم الضخمة ، وحرابهم ، وكانوا جماعة جد كبيرة . . . وهرع الأشراف من كل فج ليساعدوا الأسقف . . . فقاوم هو وبعض أعوانه الأهلين بالحجارة والسهام . . . وخبأ نفسه فى برميل . . . وأخذ يتوسل إليهم توسلا يبعث الرحمة والأسى فى النفوس ، ويعدهم بأنه لن يكون أسقفهم بعد ذلك اليوم ، وأنه سيهبهم ثروة لا حد لها ، ويغادر البلاد . وبينا كانوا هم يسخرون منه بقلوبهم المتحجرة ، إذ رفع رجل منهم يدعى برنار بلطته الحربية ، وأطار بها مخ ذلك الرأس المقدس الآثم ؛ وانفلت هو من الأيدى الممسكة به ، ومات قبل أن يصل إلى الأرض إذ عاجلته ضربة أخرى تحت وقب عينه وفوق أنفه . فلما قضى نحبه قطعت ساقاه ، وأثخن بالجراح ؛ وأبصر ثيبوت Thibaut فى إصبع الأسقف خاتماً لم يقو على انتزاعه منها ، فقطعها[٩٨] .

ودام هذا الكفاح مائة عام ؛ وقتل الأهلون فى فيزلاى Vézelay (١١٠٦) أرنود Arnaud رئيس الدير ، وأقاموا فيها حكومة محلية ؛ وثارت أورليان فى عام ١١٣٧ ، ولكن ثورتها لم تفلح . ومنح لويس السابع مدينة سان Sens عهداً

بحريتها فى عام ١١٤٦ ، ولكنه ألغى هذا العهد بعد ثلاث سنين بناء على طلب من رئيس الدير الذى كانت تلك البلدة ضمن أملاكه ؛ ثم قتل أهل المدينة رئيس الدير وابن أخيه ، ولكنهم عجزوا عن إعادة الحكومة المحلية . وواصل أسقف تورناى الحرب الأهلية ست سنين (١١٩٠ — ١١٩٦) ليقضى على حكومتها المحلية ، وأصدر البابا قرار بحرمان جميع أهل المدينة من الكنيسة ؛ وثار أهل رون فى يوم أحد الفصح من عام ١١٩٤ ونهبوا بيوت قساوسة كنيستها الكبرى ، وفى عام ١٢٠٧ أصدر البابا قرارا الحرمان على المدينة . وفى عام ١٢٣٥ استولى العامة على الحجارة التى جىء بها إلى المدينة لبناء كنيستها ، واتخذوها قذائف ومتاريس فى الثورة التى قاموا بها على أكبر رئيس دينى فى غالة ، وولى هو ومن معه من رجال الدين الأدبار ، ولم يعودوا إلا بعد عامين من ذلك الوقت ، لما أن حمل البابا لويس السابع على إلغاء الحكومة المحلية . وعجزت كثير من مدن فرنسا على نيل حريتها إلى أن قامت الثورة الكبرى ، ولكن الكثرة الغالبة من المدن الفرنسية نالت حريتها بين عامى ١٠٨٠ ، و١٢٠٠ ، وبدأت أزهى عصورها بفضل ما بعثته فيها الحرية من روح دافعة قوية . وكانت الحكومات المحلية هى التى أنشأت الكنائس القوطية الكبرى .

وضم الملوك فى إنجلترا المدن إليهم فى كفاحهم ضد الأشراف بأن منحوا هذه المدن عهوداً تحقق لها قسطاً محدوداً من الحكم الذاتى . فقد منح وليم الفاتح مدينة لندن عهداً من هذه العهود ؛ ومنح هنرى الثانى مدائن لنكلن ، ودرهام ، وكارليل Carlisle ، وبرستل ، وأكسفورد ، وسلزبرى ، وسوثمبتن عهوداً شبيهة بهذا العهد ؛ وابتاعت كمبردج فى عام ١٢٠١ لنفسها حقوق الحكم المحلى من الملك يوحنا . ونزل الأشراف الحاكمون فى فلاندرز عن كثير من الحقوق لمدائن غنت ، وبروج ، ودويه ، وتورناى ، وليل . . . ولكنهم تغلبوا على جميع ما بذلته المدن من محاولات للحصول على الاستقلال البلدى التام . وحصلت مدائن ليدن Lyden

وهارلم Haarlem ، ورتردام ، ودرودرخت Drodrecht ، ودلفت Delft وغيرها من المدن الهولندية فى القرن الثالث عشر على عهود بالحكم الذاتى المحلى . أما فى ألمانيا فقد تطلب تحرير مدنها زمناً طويلا ، وكان هذا التحرير فى الغالب بطريق السلم ؛ فقد منح الأساقفة الذين ظلوا عدة قرون يحكمون المدن حكماً إقطاعياً من قبل الأباطرة ، إلى مدائن كولونى ، وترير Trier ، ومتز ، وميتز ، واسبير ، واسترسبورج ، وورمز ، منحوا هذه المدن حق اختيار موظفيها وسن قوانينها .

ولم تطو صحيفة القرن الثالث عشر حتى كانت الثورة القائمة فى سبيل الحكم المحلى قد تم لها النصر فى أوربا الغربية ، فقد خلعت المدن عن عاتقها نير سادتها الإقطاعيين ، وتخلصت من الضرائب والمكوس الإقطاعية أو خفضتها ، وحددت حقوق رجال الدين فى أضيق نطاق ، وإن كانت كثرتها الغالبة لم تنل حريتها كاملة . وحرمت المدن الفلمنكية إنشاء أديرة جديدة ، والإيصاء بالأرض إلى الكنائس ، وضيقت نطاق ما كان لرجال الدين من حق فى أن يحاكموا أمام المحاكم الكنسية ، ونازعتهم حقهم فى أن يشرفوا على المدارس الابتدائية[٩٩] . وكان رجال الطبقة الوسطى من التجار هم المسيطرين على الحياة البلدية والاقتصادية ، واعترف بنقابات التجار الطائفية فى كل الحكومات المحلية تقريباً بأنها هيئات ذات حكم ذاتى . وكانت الحكومة المحلية هى ونقابة التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة ؛ ولكنهما كانتا فى العادة منفصلتين إحداهما عن الأخرى . غير أن الحكومة المحلية قلما كانت تعارض مصالح النقابات الطائفية ؛ وليس أدل على هذا من أن نقابات المدينة الطائفية هى التى كانت تختار عمدة Lord Mayor لندن ؛ ذلك أن امتلاك المال قد أصبح وقتئذ ولأول مرة فى مدى ألف عام ذا سلطان أقوى من سلطان امتلاك الأرض ، وأخذ سلطان المال الآخذ فى الازدياد يتحدى سلطان الأشراف ورجال الدين . ووجهت طبقة التجار الوسطى ثروتها ، ونشاطها ، وقدرتها للحصول على المنافع السياسية ووجهتها بدرجة أعظم مما كانت

توجه فى الزمن القديم ، وإن كان ذلك عظيما فى ذلك الوقت نفسه ؛ فقد حرمت الفقراء فى معظم المدن من المجالس والوظائف العامة ، واستبدت بالفلاح والصانع ، واحتكرت مكاسب التجارة ، وأرهقت الأهلين بالضرائب الفادحة ، وأنفقت معظم إيراد الحكومة المحلية فى المنازعات الداخلية أو الحروب الخارجية التى تبغى بها الاستحواذ على الأسواق والقضاء على المنافسين . وحاولت أن تقضى على هيئات الصناع ، وحرمت عليهم حق الإضراب ، وإلا تعرضوا للإعدام أو النفى ، وكان ما تضعه من القواعد لتحديد الأثمان والأجور يهدف إلى مصالحها هى ، وإلى إلحاق الأذى الشديد بالطبقة العاملة[١٠٠] . وحدث وقتئذ ما حدث فى أيام الثورة الفرنسية ، فكانت هزيمة سادة الإقطاع نصراً لطبقة رجال الأعمال أكثر مما كانت لسائر الطبقات .

غير أن الحكومات المحلية للمدن كانت على الرغم من هذه المساوئ تأكيداً جليلا للحرية الإنسانية ؛ فقد كان سكان المدينة إذا سمعوا دقات الجرس من برجها يسارعون إلى الاجتماع ليختاروا حكامها ، وكان للمدن جيشها الإقليمى الخاص بها ، تدافع به عن نفسها أقوى الدفاع ، حتى استطاعت أن تهزم به جيوش الإمبراطور المدربة فى لنيانو (١١٧٦) ، وحاربت به بعضها بعضها حتى أنهكت قواها جميعاً . نعم إن مجالسها الإدارية لم تلبث أن ضعف نظامها حتى أضحت أرستقراطية من التجار ، ولكن الجمعيات البلدية كانت أولى الحكومات النيابية منذ عهد تيبريوس ، وكانت هى لا العهد الإنجليزى الأعظم Magns Carta مبدأ الدمقراطية الحديثة [١٠١] ؛ وهى التى أحلت مناقشة الشهود مناقشة قانونية منظمة محل البقايا الرجعية للقوانين الإقطاعية والقبلية — الأيمان ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى — واستبدلت بالفداء أو ثمن الدم الغرامات أو السجن أو العقاب البدنى ، وهى التى قللت من المماطلة والتأجيل فى تطبيق القانون ، وأحلت التعاقد القانونى محل العلاقات الإقطاعية والولاء الإقطاعى ، ونشأت فيها

مجموعة كاملة جديدة من القوانين المنظمة لشئون المال والتجارة قامت على أساسها حياة جديدة فى أوربا :

وسرعان ما استحالت هذه الدمقراطية الفتية نظاما اقتصاديا شبه اشتراكى تحت إشراف الدولة . فكانت الحكومة المحلية للمدينة تسك عملتها ، وتنظم الأشغال العامة وتشرف عليها ، وتنشئ الطرق ، والقناطر ، وتشق القنوات ، وترصف بعض شوارع المدينة ، وتنظم توريد المؤن لها ، وتحرم الإجباء(*) ، والاحتكار ، وابتياع السلعة كلها من السوق ، وأوجدت الاتصال المباشر بين البائع والمشترى فى الأسواق والمواسم التجارية ؛ وفحصت عن المكاييل والمقاييس ، وفتشت السلع ، وعاقبت من يغش فيها ، وفرضت الرقابة على الصادرات والواردات ، وخزنت الحبوب للسنين العجاف ، وأمدت السكان بالحبوب بأثمان معتدلة فى أوقات الأزمات ، ونظمت أثمان الأطعمة الأساسية والجعة . وكانت إذا وجدت أن الثمن الذى حددته لسلعة مرغوب فيها منخفض انخفاضاً يقلل إنتاجها ، أجازت لبعض أثمان الجملة أن توازن نفسها بطريق المنافسة ، ولكنها أنشأت محاكم أو « جلسات » للخبز والجعة تعمل على بقاء أثمان الأشتات فى هاتين السلعتين متناسبة تناسبا دائما مع أثمان القمح أو الشعير[١٠٢] . وكانت بين الفينة والفينة تنشر قوائم بالأثمان المعتدلة ، مفترضة أنه لا بد أن يكون لكل سلعة « ثمناً عادلا » يتضمن ثمن المادة المصنوعة منها وأجر العمل اللازم لإنتاجها ، وقد أغفلت هذه النظرية عامل العرض والطلب وما يطرأ على قيمة النقد من تقلبات . واحتكرت بعض الحكومات المحلية — مثل حكومة بال Basel وجنوى تجارة الملح ، كما احتكرت غيرها مثل حكومة نورمبرج صنع خمورها ، ومنها ما كانت تخزن الحبوب فى مخازن البلدية[١٠٣] . وكانت الضرائب الجمركية الحامية التى

(*) أجبأ الزرع باعه قبل بدء صلاحه .   (المترجم)

تفرضها البلديات تحول دون تداول البضائع[١٠٤] ، كما كان يعطل هذا التداول أحياناً إرغام أصحاب التجارة العابرة على أن يعرضوا بضاعتهم للبيع فى المدينة قبل أن تخرج منها[١٠٥] . وكان يحدث فى تلك الأيام ما يحدث فى أيامنا هذه فيحتال بعض المواطنين المتمردين للخروج على هذه القواعد ؛ كما كانت الأسواق السوداء كثيرة العدد[١٠٦] ، وكانت الأضرار الناشئة من بعض هذه القيود أكثر من نفعها ، ولهذا أهملت بعد زمن قليل .

غير أننا يحق لنا أن نقول بوجه عام أن ما قامت بها الحكومات المحلية لمدائن العصور الوسطى من أعمال ينطق بمهارة رجال الأعمال الذين كانوا يشرفون عليها وبشجاعتهم . فقد استمتعت أوربا بفضل توجيههم الحكيم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر برخاء لم تعرف له مثيلا منذ سقوط رومة . وتكاثر سكان أوربا فى عهد هذا النظام تكاثراً لم يكن له نظير منذ ألف عام على الرغم من انتشار الأوبئة والمجاعات والحروب . وكان أولئك السكان قد أخذوا يتناقصون فى القرن الثانى ، وأكبر الظن أنهم وصلوا إلى الحد الأدنى فى القرن التاسع ، ثم أخذ عددهم يزداد مرة أخرى فى الفترة الواقعة بين القرن الحادى عشر والموت الأسواد (١٣٤٩) بفضل انتعاش التجارة والصناعة ؛ ويغلب على الظن أن أهل الإقليم المحصور بين الموزل والرين قد تضاعفوا عشرة أضعاف ، ولعلهم بلغوا فى فرنسا عشرين مليوناً ، أى أنهم لايكادون يقلون عما كانوا عليه فى القرن الثانى عشر[١٠٧] . وقد كان من آثار الثورة الاقتصادية أن أخذ السكان يهاجرون من القرى إلى المدن . نعم إن القسطنطينية البالغ عدد سكانها ٨٠٠٫٠٠٠ ، وقرطبة وبالرم البالغ عدد سكانهما نصف مليون كانتا مزدحمتين بالسكان من زمن بعيد ، ولكن عدداً قليلا من المدن القائمة فى شمال جبال الألب هى التى كان يسكنها قبل عام ١١٠٠ أكثر من ثلاثة آلاف نسمة[١٠٨]

وقبل أن يحل عام ١٢٠٠ كان فى باريس نحو مائة ألف ، وفى كل من دويه ، وليل ، وإبر ، وغنت ، وبروج نحو خمسين ألفاً ؛ وكان فى لندن عشرون ألفاً ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كان فى باريس ١٥٠٫٠٠٠ ألفاً ، وفى البندقية ، وميلان ، وفلورنس مائة ألف[١٠٩] ، وفى سينا Siena ومودينا ٣٠٫٠٠٠[١١٠] ، وفى لوبك ، ونورمبرج ، وكولونى ٢٠٫٠٠٠ ، وفى فرانكفورت ، وبال ، وهمبرج ، ونوروك ، ويورك ١٠٫٠٠٠ . وغنى عن البيان أن هذه الأرقام تقريبية وأنها عرضة إلى الخطأ الكبير .

وكان ازدياد السكان نتيجة من نتائج التطور الاقتصادى وسببا من أسبابه فى آن واحد : فأما أنه نتيجة من نتائج هذا التطور فلأن الناس أصبحوا يأمنون على أنفسهم وأموالهم أكثر من ذى قبل ، وأنهم صاروا أقدر مما كانوا على استغلال مصادر الثروة الطبيعية بفضل تقدم الصناعة ، وأن الأطعمة والسلع قد زاد انتشارها بفضل رواج التجارة وازدياد الثروة . وأما أنه كان سببا من أسبابه فلأنه أوجد أسواقاً مطردة الاتساع للتجارة والصناعة ، للأدب ، والتمثيل ، والموسيقى ، والفن ، وكان تنافس الحكومات المحلية وتفاخرها سبباً فى توجيه ثروتها إلى بناء الكنائس ، وأبهاء المدن ، وأبراج النواقيس ، والفساقى ، والمدارس ، والجامعات ؛ وعبرت الحضارة البحار والجبال فى إثر التجارة ؛ فانتقلت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى إيطاليا ، وأسبانيا ، وتخطت جبال الألب إلى ألمانيا ، وفرنسا ، وفلاندرز ، وبريطانيا . وأصبحت العصور المظلمة إحدى الذكريات الماضية ، وتمخضت أوربا مرة أخرى عن حياة فنية نشيطة .

وليس من حقنا أن ندعى أن مدينة العصور الوسطى هى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه المدن . نعم إنها تبدو للناس فى هذه الأيام فى صورة جميلة ، يتوج تلاً فيها قصر منيع ، ويحيط بها سور ذو أبراج ، فيها بيوت وأكواخ ، وحوانيت ذات سقف من القش أو القرميد تزدحم حول الكنيسة أو القصر الحصين

أو الميدان العام . ولكننا يجب أن نضيف إلى هذه الصورة أن شوارعها كانت أزقة ضيقة ملتوية ، (وتلك أحسن وسيلة للدفاع ومنع وهج الشمس) يسير فيها الناس والماشية على وقع حوافر الدواب وطقطقة الأحذية الخشبية ، وأصوات المارة وهم سائرون فيها على مهل فى ذلك العصر الذى لم تكن فيه آلات تريح عضلاتهم وتبلى أعصابهم . وكانت تحيط بكثير من مساكن المدينة حدائق ، وأخنان الدجاج ، وحظائر الخنازير ، ومراعى البقر ، وأكوام الروث . وكانت لندن من المدن الشديدة على أهلها ، فأمرت «كل من يربى خنزيراً أن يحتفظ به فى بيته» ، أما فى غيرها فقد كانت الخنازير تجوس بملء حريتها خلال أكوام الفضلات المكشوفة[١١١] . وكانت الأمطار تملأ الأنهار من حين إلى حين فتطغى على الحقول والمدن ، حتى كان الناس يسيرون بالقوارب تدفعها المجاذيف إلى قصر وستمنستر[١١٢] . وكانت الشوارع تظل بعد المطر مليئة بالوحل عدة أيام ؛ وكان الرجال وقتئذ يحتذون أحذية طويلة ، وأما النساء فكن يحملن فى عربات وكراسى تتقلب من حفرة إلى حفرة . وقد رصفت بعض المدن شوارعها الرئيسية بالحجارة فى القرن الثالث عشر ، أما الكثرة الغالبة منها فقد ظلت شوارعها غير مرصوفة ، تتعثر فيها الأقدام وتنبعث منها الروائح الكريهة . وكانت للأديرة والقصور الحصينة وسائل صالحة لصرف الفضلات[١١٣] ، أما الأكواخ فلم يكن لها شىء من هذا ، وكانت فى أماكن متفرقة من المدينة ميادين كَنَلِيئة ، بها مضخة يستقى منها الناس وحوض ترتوى منه الحيوانات المارة :

وكانت بيوت المدن القائمة فى شمالى الألب كلها تقريبا من الخشب ، ولم يكن فيها بيوت من الآجر أو الحجارة إلا بيوت أغنى الأشراف والتجار ، وكانت الحرائق كثيرة ، وإذا شبت انتشرت فى معظم الأحيان فى جميع المدينة لا يعوقها

عاثق . ولنضرب لذلك مثلا مدائن رُوَن ، وبوڤيه ، وأراس ، وتروای ، وپروڤن ، وپواتيه ، ومواساك Moissac فقد دمرتها كلها الحرائق فى عام ١١٨٨ ، ودمرت رون النارست مرات بين عامى ١٢٠٠ ، ١٢٢٥[١١٤] ، ولم يعتد الناس صنع السقف من القرميد إلا فى القرن الرابع عشر ، وكانت النار تكافح بالدلاء تستخدمها فرق باسلة عاجزة ، وكان فى المدينة خفراء مسلحون بخطاطيف طويلة يهدمون بها البيت المحترق إذا كان وجوده خطراً على غيره من البيوت . وإذ كان الأهلون جميعاً يرغبون فى السكنى بجوار القصر الحصين ليأمنوا بذلك على أنفسهم وأموالهم ، فقد كانت المبانى ترتفع عدة أطباق تصل أحياناً إلى ستة ، وكانت الأطباق العليا تبرز فى الشارع بروزا يكسبها روعة ويجعلها خطراً يهدد المارة . وكانت المدن تصدر قرارات تحدد بها ارتفاع المبانى .

وكان فى وسع الأهلين أن يستمتعوا بالحياة فى مدينة العصور الوسطى على الرغم من هذه الصعاب التى قلما كان يحس بها الناس ، لأنها كانت تعمهم كلهم تقريباً ، فقد كانت الأسواق مزدحمة بالناس ، وكان حديثهم كثيراً ، وأثوابهم وبضائعهم زاهية جذابة ، وكان البائعون الجائلون ينادون على سلعهم بأعلى أصواتهم ، والصناع لا ينقطعون عن الاشتغال بحرفهم . وربما كان بعض الممثلين الجائلين يقومون بتمثيل مسرحية دينية فى أحد الميادين ، أو موكب دينى يسير أحياناً فى أحد الشوارع يشترك فيه التجار المزهوون ، والصناع الأقوياء ، ورجال الدين بأثوابهم الوقورة ، ورجال الدنيا بثيابهم الزاهية ، وترتل فيها الأناشيد . أو تكون كنيسة فخمة تشاد فى المدينة ، أو تطل فتاة حسناء من شرفة منزل ، أو تدق نواقيس برج المدينة تدعو المواطنين إلى الاجتماع أو إلى امتشاق الحسام . وفى المساء تدق الأجراس تهيب بالأهلين أن يعودوا سراعاً إلى بيوتهم ،

لأن الشوارع كانت محرومة من الأضواء ، ما عدا ضوء الشموع يتراءى من نوافذ البيوت وضوء مصباح هنا وهنا أمام ضريح . فإذا أراد كبير من أهل المدينة أن يسير فيها ليلا سبقه خدمه يحملون المشاعل أو الفوانيس والسلاح لأن رجال الشرطة قلما كان لهم وجود . وكان المواطن الحكيم يبكر فى العودة إلى داره فراراً من ملل الليالى الظلماء ، وعلماً منه بأن الديكة سوف توقظه بصياحها فى مطلع الفجر ، وأن العمل فى انتظاره يطلب إليه أن ينجزه .

الفصل السابع

الثورة الزراعيـــة

وبدّل نمو الصناعة والتجارة ، وانتشار الاقتصاد النقدى ، وازدياد الطلب على العمال فى المدن ، بدّل هذا كله نظام الزراعة تبديلا كبيراً . ذلك أن البلديات لحرصها على أن تظفر بعمال جدد أعلنت أن أى شخص يقيم فى مدينة ٣٦٦ يوماً دون أن يطلبه سيد إقطاعى ، ويتحقق من شخصيته ، ويستولى عليه لأنه من أرقاء أرضه ، أى شخص تنطبق عليه هذه الشروط يصبح من تلقاء نفسه حراً ، يتمتع بحماية قوانين حكومة المدينة وسلطانها . وذهبت فلورنس إلى أبعد من هذا فدعت فى عام ١١٠٦ جميع الفلاحين المقيمين فى القرى المجاورة لها للمجىء إليها والإقامة فيها أحراراً ؛ ودفعت بولونيا Bologna وغيرها من المدن المال إلى سادة الإقطاع لكى يسمحوا لأرقاء أراضيهم بأن ينتقلوا إلى المدن . وفر عدد كبير من أرقاء الأرض أودعوا ليفلحوا أرضين جديدة فى شرق نهر الإلب ، وأصبحوا فيها أحراراً من تلقاء أنفسهم .

أما الذين بقوا فى ضياع سادة الإقطاع فقد أخذوا يعارضون فى أداء الضرائب والرسوم الإقطاعية التى أضحت لطول العهد بأدائها مقررة واجبة الأداء ؛ ونشأت من هذه المعارضة متاعب جمة . وحذا كثير من أرقاء الأرض حذو عمال المدن فأنشأوا لهم جمعيات ريفية ، وأقسموا أن يعملوا مجتمعين للامتناع عن أداء الرسوم والضرائب الإقطاعية ، ثم سرقوا أو أتلفوا ما عند سادتهم من وثائق تسجل استرقاقهم أو التزاماتهم ، وأحرقوا قصور المعاندين من أولئك السادة ، وأنذروهم بأنهم سيغادرون أملاكهم إذا لم يجيبوا مطالبهم . وفى عام ١١٠٠ أعلن أرقاء الأرض فى سانت ميشيل — ده — بوڤيه أنهم سيتزوجون من تلك الساعة

بأية امرأة يرغبون فى زواجها ، وسيزوجون بناتهم من أى شخص يرغبون فيه . وفى عام ١٢٠٢ رفض أرقاء الأرض فى سانت أرنول — ده — كريبى St. Arnoul de - Crépy أن يؤدوا إلى سيدهم رئيس الدير ضريبة الأموات التقليدية أو الغرامة التى تفرض عليهم إذا زوجوا بناتهم خارج أملاك سيدهم . وشبت فتن أخرى من هذا النوع فى أكثر من عشر مدن منتشرة من فلاندرز إلى أسپانيا ، حتى وجد سادة الإقطاع أن من العسير عليهم أن يحصلوا على ربح من استخدام أرقاء الأرض ، وزادت هذه الصعوبة أمامهم على مر الأيام . ذلك أن ضروب المقاومة المتزايدة كانت تتطلب منهم إشرافاً مستمراً كثير النفقة فى كل مرحلة من مراحل العمل ؛ وكان عمل هؤلاء الأرقاء فى حوانيت الضيعة أكثر نفقة وأقل جودة من العمل الحر الذى يخرج السلع نفسها فى المدن .

وأراد سادة الإقطاع أن يستبقوا الفلاحين فى أرضهم ، ويجعلوا عملهم مربحاً لأولئك السادة ، فاستبدلوا بالقروض الإقطاعية القديمة مقادير من المال تؤدى دفعة واحدة ، وباعوا أرقاء الأرض حريتهم بأثمان يؤدونها من مدخراتهم ، وآجروا مساحات متزايدة من أرضهم إلى الفلاحين الأحرار بأجر نقدى ، واستأجروا عمالا أحراراً يعملون فى حوانيت ضياعهم . وحذت أوربا الغربية حذو بلاد الشرق الإسلامية والبيزنطية فشرعت من بداية القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر تنتقل انتقالا يزداد عاما بعد عام من الدفع عيناً فى أكثر الأحوال إلى الدفع نقداً فى معظمها . واشتدت رغبة ملاك الأراضى الإقطاعيين فى الحصول على السلع المصنوعة التى يعرضها التجار عليهم ، فزادت رغبتهم فى المال يبتاعون به هذه السلع ؛ ولما ساروا إلى قتال المسلمين فى الحروب الصليبية كانوا أحوج إلى المال منهم إلى الطعام والبضائع . كذلك كانت الحكومات تطالب بأداء الضرائب نقداً لا عيناً ؛ فلم ير الملاك بدا من الخضوع إلى مقتضيات الظروف ، فباعوا محصولاتهم بالنقود العاجلة بدل أن يستهلكوها بالهجرة الشاقة

المتعبة من قصر ريفي إلى قصر آخر مثله . وكان هذا الانتقال إلى الاقتصاد النقدي كثير النفقة على الملاك الإقطاعيين . ذلك أن إيجار أرضهم والأموال التي كانوا يحصلون عليها من الزراع نظير الرسوم المفروضة عليهم قد أصبح لها من الثبات في العصور الوسطى ما للعادات المألوفة ، ولم يكن في مقدورهم أن يزيدوها بنفس السرعة التي تنخفض بها قيمة النقد ؛ ولذلك اضطر كثيرون من الأشراف إلى بيع أرضهم — وباعوها عادة إلى رجال الطبقة الوسطى الناشئة . وحسبنا دليلا على هذا أن بعض النبلاء قد ماتوا من زمن بعيد أي منذ عام ١٢٥٠ وهم لا يملكون أرضاً ، ومنهم من مات فقيراً معدما[١١٥] . وكان من نتيجة هذه الأحوال أن أعتق فليب الجميل ملك فرنسا جميع أرقاء الأراضي الملكية في أوائل القرن الرابع عشر ، وأن أمر ابنه لويس العاشر في عام ١٣١٥ بتحرير جميع أرقاء الأرض « بشروط عادلة صالحة »[١٦٦] . وأخذ نظام رقيق الأرض يتلاشى شيئاً فشيئاً في عدد من البلاد المختلفة الواقعة غرب نهر الإلب وذلك في أوقات مختلفة من بداية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، وحلت محلها ملكية الفلاحين لأرضهم ، ونقسمت ضياع الإقطاع الكبرى إلى مزارع صغيرة ، وحصل الفلاحون في القرن الثالث عشر على درجة من الحرية والرخاء لم يستمتعوا بمثلها مدى ألف عام . وفقدت المحاكم الإقطاعية ما كان لها من سلطان على الفلاحين ، وأخذ سكان القرى يختارون حكامهم ، ولم يكن هؤلاء يقسمون يمين الولاء لسيد الإقطاع المالك لأرضهم بل للملك نفسه . على أن تحرير رقيق الأرض في أوربا الغربية لم يتم كله قبل عام ١٧٨٩ ، فقد ظل عدد كبير من سادة الإقطاع يطالبون بحقوقهم القديمة من الوجهة القانونية ، ولقد حاولوا في القرن الرابع عشر أن يستعيدوها من الوجهة العملية ؛ غير أن الحركة التي تهدف إلى العمل الحر المتنقل لم يكن يستطاع وقفها طالما كانت التجارة والصناعة آخذتين في النماء .

وكان الحافز الجديد للحرية ، مضافاً إلى اتساع الأسواق الزراعية ، من أسباب تحسن أساليب الزراعة ، وأدواتها ، ومحصولاتها ، كما كان تكاثر سكان المدن ، وازدياد الثراء ، والأساليب الجديدة التي يسرت الأعمال التجارية والمالية ، كل هذا كان سبباً في اتساع نطاق الاقتصاد الريفي وزيادة غناه . وتطلبت الصناعات الجديدة محصولات صناعية غير التي كانت موجودة من قبل — قصب السكر ، وبذر اليانسون ، والكمون ، والكتان ، والعنب الهندى ، والزيوت النباتية والأصباغ . وكان قرب المدن المزدحمة بالسكان مشجعا على تربية الماشية ، وصناعة منتجات الألبان ، وغرس حدائق الخضر . وجرت السفن بالخمور في الأنهار وفي البر والبحر من آلاف الكروم المنتشرة في أودية التيبر ، والآرنو ، والبو ، والوادى الكبير ، والتاجه ، والإبرة ، والرون ، والجروند ، والجارون ، واللوار ، والسين ، والموزل ، والموز ، والرين ، والدانوب ، وجرت السفن بهذه الخمور لتفرج كرب العمال الكادحين في حقول أوربا ، حوانيتها ، وغرف الحاسبين فيها ؛ وحتى إنجلترا نفسها كانت تعصر الخمر في الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن السادس عشر . وخرجت الأساطيل الضخمة في البحر البلطي ، وبحر الشمال لتصيد منهما الرنكة وغيرها من أنواع السمك لتطعم المدن الجائعة التي تكثر فيها أيام الصوم ، ويرتفع فيها ثمن اللحم ؛ فكانت يارموث Yarmouth مدينة بحياتها إلى تجارة الرنكة ، وأقر تجار لوبك بفضلها عليهم بأن نقشوا الرنكة على مقاعدهم في الكنيسة(١١٧) ، واعترف الهولنديون الشرفاء بأنهم « شادوا على الرنكة » مدينة أمستردام الشامخة(١١٨) .

وتحسنت أساليب الزراعة الفنية على مهل ، فلقد تعلم المسيحيون من العرب في أسبانيا ، وصقلية ، وبلاد الشرق ، وأدخل الرهبان البندكتيون والسسترسيون Cistercians(*) الأساليب الرومانية القديمة والإيطالية الحديثة الخاصة بالزراعة ،

(*) فرع من الرهبان البندكتيين نشأ في عام ١٠٩٨ في غابة سستو Cisteaux بفرنسا .

وتربية الماشية ، والاحتفاظ بخصب التربة فى الأقطار الواقعة شمال جبال الألب ؛ وترك الزارع فى الضياع الجديدة يبتكرون ويغامرون كما يشاءون ولم يفرض عليهم تقسيم أراضيهم بين المزروعات المختلفة . وكان الزراع الذين يفلحون فى القرن الثالث عشر حقول فلاندرز المستصلحة من المستنقعات يتبعون الدورة الزراعية الثلاثية ، فكانت الأرض تزرع كل عام ولكن خصبها كان يجدد مرة كل ثلاث سنين بزرع الكلأ الذى يتخذ غذاء للحيوان أو البقول . وكان زوجان من الثيران القوية يجرّان المحاريث ذات السهام الحديدية تتعمق الأرض أكثر من ذى قبل . غير أن الكثرة الغالبة من المحاريث ظلت مع ذلك تصنع من الخشب (١٣٠٠) . ولم يكن يعرف التسميد إلا أصقاع قليلة ، وقلما كانت عجلات العربات تطوق بإطار من حديد . وكانت تربية الماشية من الأعمال الشاقة لطول فترات الجفاف ؛ ولكن القرن الثالث عشر شهد التجارب الأولى فى تهجين السلالات وأقلمتها . ولم تتقدم صناعة مستخرجات الألبان ، فلم تكن البقرة العادية فى القرن الثالث عشر تدرّ إلا قليلا من اللبن ، وقلما كان يصل إلى رطل واحد فى الأسبوع (مع أن البقرة الحسنة التربية تنتج الآن ما بين عشرة أرطال وثلاثين رطلا من الزبد فى الأسبوع الواحد) .

وبينما كان السادة فى أوربا يقاتل بعضهم بعضا ، كان فلاحوها يخوضون معارك أعظم شأناً ، وتتطلب من الشجاعة والبطولة ما يسمو على المعارك الحربية ، ولا يتغنى بمديحهم إنسان ؛ تلك هى معارك الإنسان مع الطبيعة . فقد طغى البحر بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر خمساً وثلاثين مرة على الجسور ، وأغرق الأراضى الوطيئة ، وشق خلجاناً وأجواناً جديدة فى البقاع التى كانت من قبل أرضاً صلبة ، وأهلك مائة ألف من السكان فى مائة عام . ونقل الفلاحون أهل هذه الأقاليم فى خلال الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر بإشراف أمرائهم ورؤساء أديرتهم جلاميد الصخر من اسكنديناوة وألمانيا

وشادوا بها « السور الذهبي » الذى أنشأ البلچيكيون والهولنديون وراءه دولتين من أعظم دول التاريخ كله حضارة ، وانتزعت بذلك آلاف الأفدنة من البحر ، ولم يستهل القرن الثالث عشر حتى كانت شبكة من القنوات تشق الأراضى الوطيئة . واحتفر الإيطاليون بين عامى ١١٧٩ و ١٢٥٧ القناة العظمى Naviglio Grande بين بحيرة مجيورى ونهر البو فأخصبوا بها ٨٦٫٤٨٥ فداناً ، وأحال المهاجرون القادمون من فلاندرز ، وفريزيا Frisia ، وسكسونيا ، وأرض الرين مناقع المورن Mooren الواقعة بين نهر الإلب والأودر حقولا غنية . وقطعت غابات فرنسا الزائدة على الحاجة شيئاً فشيئاً وحلت مكانها الضياع التى ظلت تطعم فرنسا خلال الاضطراب السياسى الذى دام قروناً طوالا . ولعل هذه البطولة الجماعية التى بذلت فى تقطيع الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإرواء الأرض وزراعتها ، لا الانتصارات الحربية أو التجارية ، هى العامل الأساسى الذى أدى آخر الأمر إلى انتصار الحضارة الأوربية فى الأعوام السبعمائة الأخيرة .

الفصل الثامن

حرب الطبقات

لم يكن فى أوربا الغربية فى بداية العصور الوسطى إلا طبقتان : طبقة الألمان الغالبين وطبقة الأهلين المغلوبين . وكانت الكثرة الغالبة من الأشراف الذين وجدوا فيما بعد فى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وشمالى إيطاليا من أبناء الفاتحين ، وظلوا يعتزون بهذه العلاقة العنصرية حتى فى أثناء حروبهم . وكانت الطبقات فى القرن الحادى عشر ثلاثا : هى الأشراف الذين يحاربون ، ورجال الدين الذين يصلون ، والفلاحون الذين يشتغلون . وأصبح هذا التقسيم تقليداً ثابتاً إلى حد ظن الناس معه أنه منزل من عند الله . وكان معظم الفلاحين ، كما كان معظم النبلاء ، يرون من واجب الإنسان أن يبقى فى الطبقة التى ولد فيها قانعاً بها البقاء صابراً عليه .

وأضافت الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثانى عشر طبقة جديدة إلى هذه الطبقات الثلاث — أهل المدن أو الطبقة الوسطى العاملة — وقوامها الخبازون والتجار ، ورؤساء أرباب الحرف من أهل المدن ، ولم تكن هذه الطبقة قد ضمنت وقتئذ أرباب المهن ، وكانت تسمى فى فرنسا الطبقة الثالثة . وقد سيطرت هذه الطبقة على الشئون البلدية ، واستطاعت أن تصل إلى مقاعد البرلمان الإنجليزى ، والديت Diet الألمانى ، والكورتز Cortes الأسبانى ، وإلى الجمعية العامة States General للطبقات وهى مجلس فرنسا القومى النيابى الذى لم يجتمع إلا نادراً ؛ ولكن هذه الطبقة الجديدة قلما كان لهـا أثر فى السياسة القومية قبل القرن الثامن عشر ، فقد ظل الأشراف يحكمون الدولة ويصرفون شئونها الإدارية ، وإن أصبحوا فى ذلك الوقت أقل من غيرهم سلطاناً فى المدن ؛ ذلك

أنهم كانوا يعيشون فى الريف (إلا فى إيطاليا) ، ويحتقرون سكان المدن ، ويخرجون من طبقتهم كل من تزوج من أفراد الطبقة الوسطى ، ولا يشكون فى أن حكم الأشراف لا بديل منه ، إلا حكم رجال الأعمال الأثرياء ، أو رجال الدين أصحاب الأساطير ، أو رجال الحرب الطغاة .

وكان التجار الأغنياء يبرمون من غطرسة الأشراف ، ويحتقرون ريستغلون طبقة الصناع ، ويقيمون فى بيوت مزخرفة ، ويبتاعون الأثاث الجميل ، ويتغذون بالأطعمة المجلوبة من خارج البلاد ، ويلبسون الثياب الغالية . وكانت نساؤهم يغطين أجسامهن الكبيرة بالحرير والفراء والمخمل والجواهر ، وكان مما آلم چين النافارية Jenne of Navarre ملكة فرنسا وحز فى نفسها أن وجدت ستمائة من نساء الطبقة الثالثة فى بروج قد خرجن لاستقبالها فى ثياب لا تقل فخامة عن ثيابها هى . وشكا الأشراف من هذا وأخذوا يطالبون بأن تسن القوانين لوقف تيار هذا التظاهر الوقح ؛ وسنت من حين إلى حين قوانين لهذا الغرض ، ولكن الملوك كانوا فى حاجة إلى تأييد هذه الطبقة وإلى أموالها ، ولهذا لم تنفذ هذه القوانين إلا فى أوقات قليلة متفرقة .

وأفادت الطبقة الجديدة المالكة للعقار فى المدن فائدة كبيرة من زيادة عامرها ، ويسر لها التعطل الناشئ من هذه الزيادة السيطرة على طبقة العمال اليدويين . ذلك أن صعاليك المدن من الخدم ، وتلاميذ الصناعة ، وعمال المياومة لم يكن لهم إلا حظ قليل من التربية ، ولم يكن لهم شىء من القوة السياسية ، وكانوا يعيشون فى درجة من الفاقة أشد فى بعض الأحيان مما كان يعانيه أرقاء الأرض . فقد كان أجر عامل المياومة فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر نحو بنسين اثنين فى اليوم — وتعادل القيمة الشرائية لهذا الأجر حوالى دولارين من نقد الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٤٨ ؛ وكان النجار يتقاضى أربعة بنسات وثمن بنس فى اليوم (١٢ر٤ دولارات) والبناء ٣⅛ دولارات ، والمهندس المعمارى اثنى عشر بنسا

يضاف إليها بدل انتقال وهبات فى بعض الأحيان[١١٩] . لكن الأثمان كانت منخفضة بهذه النسبة عينها : فقد كان الرطل من لحم البقر يباع فى إنجلترا بفارذنج ٢ ١/٢ ج من الدولار) ؛ وكانت الدجاجة تباع ببنس واحد (٨٤/١ ج من الدولار) ، وكان ثمن الكوارتر(*) من القمح خمسة شلنات وتسعة شلنات ونصف بنس (٥٧ر٩٠ دولاراً) [١٢٠] . وكان العامل يبدأ عمله فى مطلع الفجر وينتهى منه فى غسق الليل — إلا فى مساء السبت أو أيام الأعياد فكان ينتهى قبل ذلك . وكان فى السنة ما يقرب من ثلاثين يوما من أيام الأعياد ، لكن الأيام التى كان يستريح فيها العامل من الكدح فى إنجلترا لم تكن تزيد على ستة . وكانت ساعات العمل تزيد قليلا على مثيلاتها فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، ولم تكن الأجور الحقيقية(**) أسوأ منها فى تلك الفترة ، بل إن بعضهم ليقول إنها كانت أعلى منها[١٢١] .

وتطور النزاع بين الطبقات فى أواخر القرن الثالث عشر فأصبح حرباً مسلحة بينها ؛ فكان كل جيل يشهد ثورة يقوم بها الفلاحون وبخاصة فى فرنسا ؛ ففى عام ١٢٥١ ثار الفلاحون فى فرنسا وفلاندرز على من كانوا يستبدون بهم من الملاك سواء كانوا من رجال الدين أو الدنيا . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم الرعاة Pastoureux وشنوا حرباً ثورية شبيهة بالحروب الصليبية بقيادة واعظ غير مرخص معروف بلقب « سيد بلاد المجر » . وزحفوا من فلاندرز واخترقوا أمين إلى باريس ، وانضم إليهم فى طريقهم المتذمرون من الفلاحين وصعاليك المدن حتى بلغ عددهم مائة ألف رجل أو يزيدون ، وكانوا يحملون أعلاماً دينية ، وينادون بولائهم للويس التاسع ، وكان وقتئذ سجيناً عند المسلمين فى مصر ؛ ولكنهم كانوا مسلحين بالهراوات ، والخناجر ، والفؤوس ، والحراب ، والسيوف

(*) الكوارتر مكيال يعادل ٩١٨ر٧ لتر . (المترجم)
(**) يقصد بالأجور الحقيقية قيمتها الشرائية . (المترجم)

فكانوا بذلك جمعاً خطراً يخشى بأسه . وكانوا يندَدون بفساد الحكم ، واستبداد الأغنياء بالفقراء ، ونفاق القساوسة والرهبان وشرههم ؛ وكان العامة يهتفون لهم حين يسمعون منهم هذه الأقوال . وانتحلوا لأنفسهم حق الوعظ الديني ، وأخذوا يغفرون للناس ذنوبهم ، ويعقدون عقود الزواج ، وبلغ من أمرهم أن ذبحوا بعض من عارضوهم من القساوسة . ولما وصلوا فى زحفهم إلى أورليان ذبحوا فيها عشرات من رجال الدين وطلبة الجامعة ، ولكن رجال الشرطة تغلبوا عليهم فى تلك المدينة وفى بوردو ، فقبض على زعمائهم وأعدموا ، ثم صيد البائسون الباقون أحياء كما تصاد الكلاب فى هذا الزحف العديم النفع ، وشتتوا تشتيتاً أدى بهم إلى ضروب من البؤس مختلفة ؛ وفرَّ بعضهم إلى انجلترا ، وقاموا فيها بفتنة صغرى أثارها الفلاحون قلمت أظفارها هى أيضاً .

وثارت نقابات الحرف فى المدن الصناعية الفرنسية فتكرر إضرابها عن العمل وقيامها بثورات مسلحة على احتكار طبقة التجار السياسى والاقتصادى ، وتحكمها فيهم . فى بوفيه هاجم ١٥٠٠ من الغوغاء عمدة المدينة وبعض رجال المصارف وأساءوا معاملتهم (١٢٣٣) . وتمرد عمال النسيج فى رون على تجار الأقمشة وقتلوا عمدة المدينة حين تدخل فى النزاع (١٢٨١) ؛ وفى باريس حل الملك فيليب الجميل اتحادات العمال بحجة أنها تدبر الثورة (١٢٩٥ ، ١٣٠٧) ؛ غير أن نقابات الحرف الطائفية استطاعت مع ذلك أن تكسب حق الاشتراك فى الجمعيات البلدية وفى الوظائف العامة فى مدينة مرسيليا (١٢١٣) ، وأفنيون وآرل Arles (١٢٢٥) ، وأمين ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes . . . وكان أحد رجال الدين ينحاز أحيانا إلى جانب الثائرين ، ويمدهم بالعبارات التى تلوكها ألسنتهم . ومن ذلك ما قاله أحد أساقفة القرن الثالث عشر : « كل الغنى مصدره السرقة ، وكل غنى لص أو وارث لص »[١٢٣] . وقامت فتن من هذا النوع اضطربت بها مدن فلاندرز ، فثار النحاسون فى دينان Dinant عام ١٢٥٥ ، والنساجون فى تورناى عام ١٢٨١ ،

وفى غنت عام ١٢٧٤ ، وفى هينولت Hinault عام ١٢٩٢ ، على الرغم من أن الإعدام أو النفى كان هو العقوبة التى يحكم بها على زعماء حركة الإضراب . وقام عمال إيبر Ypres ، ودويه ، وغنت ، وليل ، وبروج ، بفتنة جامعة عام ١٣٠٢ ، وهزموا جيشاً فرنسياً عند كورتريه ، وحصلوا على حق قبول ممثليهم فى مجالس الحكومات البلدية ووظائفها ، وألغوا القوانين الاستبدادية التى كانت ألجركية التجار تضايق بها أرباب الحرف . ولما أن نال النساجون شيئاً من السلطة إلى حين ، حاولوا أن يحددوا أجور القصارين — بل أن ينقصوها — فانحاز هؤلاء إلى جانب التجار الأغنياء[١٢٤] .

وسيطرت نقابات التجار الطائفية على لندن فى عام ١١٩١ ، وسرعان ما عرضوا بعد ذلك على الملك يوحنا أن يمدوه بقدر من المال فى كل عام ؛ إذا ما ألغى نقابات النساجين ، ووافق الملك على هذا العرض (١٢٠٠)[١٢٥] . وفى عام ١١٩٤ قام رجل يدعى وليم فتزوبرت Fitzobert أو ذو اللحية الطويلة ، وأخذ يخطب فى الفقراء من أهل لندن منادياً بضرورة الثورة ، وأصغى آلاف من الناس إلى ندائه هذا ، وحاول اثنان من أثرياء المدن أن يقتلوه ، ففر منهم إلى إحدى الكنائس ، ولكنه أخرج منها بعد أن سلط عليه الدخان ، وانتحر بأن بقر بطنه بطريقة لا تكاد تفترق فى شىء عن الطريقة اليابانية . وعده أتباعه من القديسين الشهداء وعبدوه ، وقدسوا التراب الذى جرى عليه دمه ، واحتفظوا به[١٢٦] . وإن حب الناس لربن هود الذى يسرق أموال الأشراف ورجال الدين ولكنه يشفق على الفقراء ، وانتشار قصته ، ليوحيان إلينا بما كان عليه شعور الطبقات بعضها نحو بعض فى بريطانيا خلال القرن الثانى عشر .

وكان أشد المنازعات إثارة للأحقاد ما قام منها فى إيطاليا . فقد حدث فى أول الأمر أن انضم العمال إلى نقابات التجار الطائفية وقاموا معاً بسلسلة من الاضطرابات الدموية العنيفة الموجهة ضد الأشراف ؛ وتم النصر للمتحالفين فى هذا

الكفاح قبل أن يختتم القرن الثالث عشر ؛ واشترك عمال الصناعات فى حكم فلورنس إلى حين ، غير أن كبار التجار ورجال المشروعات سرعان ما أصبحت لهم السيطرة فى مجلس المدينة ، ففرضوا على الموظفين نظما استبدادية متعسفة ، أدت فى القرن الرابع عشر إلى دخول النزاع فى مرحلته الثانية — مرحلة الحروب المتقطعة المتباعدة بين رجال الصناعة الأغنياء وعمال المصانع . وكانت هذه المشاهد — مشاهد النزاع الداخلى — هى التى قام فيها القديس فرانسس ينادى بإنجيل الفقر ، ويذكر الأغنياء الأشرار بأن المسيح لم يكن له قط ملكا خاصاً (١٢٧) .

واضمحلت الحكومات المحلية كما اضمحلت النقابات الطائفية فى القرن الرابع عشر بسبب اتساع نطاق اقتصاد البلديات وتحوله إلى اقتصاد قومى وأسواق وقفت قواعدهما واحتكارهما حجر عثرة فى سبيل تقدم الاختراع ، والصناعة ، والتجارة . وكان من أسباب اضمحلالها فوق ذلك ماكان فيها من منازعات داخلية أشاعت فيها الفوضى ، واستغلال قاس شديد الوطأة للريف المحيط بها ، ووطنيتها الضيقة المقصورة على حدود المدينة ، وسياستها وعملتها المضطربة غير المستقرة ، وحروبها التافهة الحقيرة بعضها على بعض فى فلاندرز وإيطاليا ، وعجزها عن أن تنتظم فى اتحاد يشمل عدة مدائن ذات حكم ذاتى ، كان يمكن أن يبقى بعد أن قوى سلطان الملوك . وليس أدل على ضعف هذه الحكومات المحلية من أن عدداً منها فى فرنسا التمس من الملك فى عام ١٣٠٠ أن يتولى هو حكمها .

ومع هذا كله فإن الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثالث عشر هى التى خلقت أوربا الحديثة ، فهى التى قضت آخر الأمر على الإقطاع الذى أدى مهمة الحماية الزراعية والتنظيم الزراعى ، وأصبح حجر عثرة فى سبيل اتساع نطاق المشروعات الاقتصادية . وهى التى حولت ثروة الإقطاع الجامدة إلى موارد سائلة متداولة يستخدمها الاقتصاد العالمى . وهى التى أمدت الأعمال الصناعية والتجارية بالآلات اللازمة لتقدمها ، وما نشأ عن هذا التقدم من زيادة كبيرة فى سلطان

الرجل الأوربى ، ووسائل راحته ، وفى معلوماته . وبفضلها عم أوربا رخاء استطاعت به أن تبنى فى قرنين من الزمان مائة كنيسة كبرى تتطلب كل واحدة منها وفرة عجيبة من المهارات والأموال . وكان ما تنتجه للأسواق المطردة الاتساع هو الذى هيأ السبيل للنظم الاقتصادية القومية التى قامت عليها الدول الحديثة ، ولعل حرب الطبقات نفسها التى أطلقتها الثورة الاقتصادية من عقالها كانت هى الأخرى حافزاً إضافياً لعقول الناس ونشاطهم . ولما هدأت عاصفة الانتقال كان صرح أوربا الاقتصادى والسياسى قد تبدل ، وكان تيار الصناعة والتجارة الجارف قد اكتسح العقبات المتأصلة من طريق التطور البشرى ، ودفع الناس إلى الأمام من مجد الكنائس الكبرى المشتت إلى مرجل النهضة الشامل .

الباب الخامس والعشرون

أوربا تفيق من رقدتها

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

بيزنطية

اختتم ألكسيوس الأول كمنينوس Alexius I Comnenus حكمه الطويل (١١٠٨ – ١١١٨) على أثر مؤامرة من طراز المؤامرات التي اختصت بها بيزنطية ، وذلك بعد أن قاد سفينة الإمبراطورية بنجاح في حروب الترك والنورمان ، وفي الحرب الصليبية الأولى . وكانت ابنته الكبرى أنا كمنينا Anna Comnena مضرب المثل في العلم ، كما كانت ملمة بخلاصة الفلسفة ، وكانت شاعرة موهوبة ، وسياسية ذات دهاء ، ومؤرخة مهذبة تميل في كتابتها إلى الكذب والاختلاق . ولما خطبت إلى ابن الإمبراطور ميخائيل السابع حسبت أنها بحكم مولدها وبفضل جمالها ومواهبها الذهنية قد اختارتها الأقدار للتربع على عرش الإمبراطورية ؛ ولم تكن تغفر قط لأخيها چون John أنه ولد وارث العرش ، فدبرت مؤامرة لاغتياله ، ولكن تدبيرها افتضح وعفي عنها ، وآوت إلى أحد الأديرة ، وكتبت سيرة أبيها في قصة نثرية تدعى ألكسياد Alexiad . وأدهش چون كمنينوس (١١١٨ – ١١٤٣) أوربا بالتمسك بالفضائل الشخصية ، وبكفايته الإدارية ، وبانتصاره في حروبه ضد أعدائه من الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ، وخيل إلى الناس حيناً من الدهر أنه سيعيد الدولة إلى ما كانت عليه من مجد وسعة رقعة ، ولكن خدشا من سهم مسموم في كنانته قضى على حياته وأحلامه .

وكان ابنه مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ — ١١٨٠) إله الحرب مجسما ، وهب نفسه للحرب ومتعتها ؛ يسير على الدوام فى طليعة جنوده ؛ ويرحب بالمبارزة الفردية ، وقد انتصر فى كل واقعة خاض غمارها إلا الأخيرة من هذه المواقع . وكان فى ميدان القتال رواقيا فى مبادئه ، أما فى قصره فكان أبيقوريا ، مترفاً فى طعامه ولباسه ، سعيداً فى عشقه الحرام لابنة أخيه . وعادت الآداب والعلوم إلى سابق ازدهارها بفضل ترفه ومناصرته ؛ وكانت سيدات البلاط يشجعن المؤلفين ، وقد نزلن هن أيضا من عليائهن ليقرضن الشعر ؛ وجمع زناراس Zanaras فى أيامه كتابه الضخم الذى أسماه موجز التاريخ . وشاد مانويل لنفسه قصراً جديداً هو قصر البلاشرنى Blachernae على شاطئ البحر عند طرف القرن الذهبى ؛ وكان أودم الدويلى Odom of Deuil يظنه « أجمل بناء فى العالم ، فقد كانت عمده وجدرانه مغطاة إلى نصفها بالذهب ، ومرصعة بالجواهر التى كانت تتلألأ حتى فى ظلام الليل »[١] . لقد كانت القسطنطينية فى القرن الثانى عشر صورة أخرى من النهضة الإيطالية .

وتطلبت فخامة العاصمة ، والحروب الكثيرة التى شنتها الإمبراطورية العجوز لتصد عنها الموت ، تطلبت هذه وتلك ضرائب فادحة ألقاها المترفون على المنتجين لضرورات الحياة . وكانت النتيجة إن زاد فقر الفلاحين ، واستسلموا للاسترقاق الأرضى ، وأن سكن عمال المدن اليدويون فى مساكن قذرة كثيرة الضجيج ، يُرتكب فى ظلماتها وأقذارها ما لا يحصى من الجرائم .

وكانت حركات ثورية شبه شيوعية تضطرم نارها فى قلوب صعاليك المدن[٢] ، ولكن هذه الحركات قد عفا ذكرها لكثرة ما حدث من أمثالها على مر الأيام . وكان استيلاء الصليبيين على فلسطين قد فتح ثغور الشام لتجارة اللاتين ، وخسرت القسطنطينية ثلث تجارتها البحرية التى استولت عليها المدن الناهضة فى إيطاليا . وكان من أعظم الآمال التى تداعب قلوب المسيحيين والمسلمين

على السواء أن يستولوا على ما فيها من الكنوز التى أنفقت فى جمعها ألف عام ؛ وحدث أن زار المدينة أحد المسلمين الصالحين فى أيام مانويل الزاهرة فدعا الله أن يمن على المسلمين بفضله وكرمه فيجعل القسطنطينية عاصمة بلاد الإسلام[٣] . وحتى البندقية نفسها ربيبة بزنطية دعت فرسان أوربا لأن ينضموا إليها فى انتهاب ملكة البسفور .

ولم تعش المملكة اللاتينية التى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة فى القسطنطينية إلا سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) ، ذلك أن المملكة الجديدة لم تقو على البقاء إلا ريثما كانت بزنطية المتحفزة للثأر منها تعوزها الوحدة وقوة السلاح . أما هى فلم تكن لها أصول تقوم عليها من عنصرية الشعب أو دينه أو عاداته ، وكانت تكرهها الكنيسة اليونانية التى خضعت مكرهة لرومة ، ويضعضعها انقسامها إلى إمارات إقطاعية تدعى كل منها لنفسها السيادة الكاملة ، وتعوزها جميعاً التجربة التى لا غنى عنها لتنظيم اقتصادياتها الصناعية والتجارية ، وتهاجمها الجيوش البزنطية من خارجها ، وتحرقها المؤامرات فى داخلها ، ولا تستطيع أن تستمد من سكانها المعادين لها ما تحتاجه من المال للدفاع العسكرى عن كيانها .

لكن الغزاة الفاتحين كان مصيرهم فى بلاد اليونان خيراً من مصيرهم فى القسطنطينية . ذلك أن الفرنجة ، والبنادقة ، وغيرهم من الأشراف الطليان عجلوا بتقسيم تلك البلاد التاريخية إلى أقسام إقطاعية ، وشادوا القصور الجميلة فوق التلال العالية تشرف على ما حولها من المواقع ، وشرعوا وأظهروا فى حكم السكان المتراخين المجدين حكما حازما جريئا . وحل مطارنة الكنيسة اللاتينية محل أساقفة المذهب الأرثوذكسى الذين نفوا من البلاد ، وأنشأ الرهبان القادمون من بلاد الغرب على التلال أديرة كانت من روائع الفن ومستودعاً لكنوزه . وقام رجل فخور من الفرنجة فلقب نفسه « دوق أثينة » ، وجاء شيكسبير فى غير منطق سليم وأخطأ خطأً يغتفر له ، ورجع به إلى الوراء ألفى عام ، وسماه ثيسيوس ، ولكن الروح

الحربية التى أقامت هذه الممالك الصغيرة كانت هى بعينها القاضية عليها لكثرة ما ثار بينها من المنازعات والأحقاد القاتلة ؛ فقد كانت الأحزاب المتنافسة يحارب بعضها بعضا على تلال المورة وسهول بوءوتيا حرباً طاحنة قضت عليها جميعا ؛ ولما أن غزت اليونان « الشركة القطلونية Catalian Company » الكبرى المؤلفة من جماعة المغامرين القادمين من قطلونيا (١٣١١) ذبحت زهرة فرسان الفرنجة فى المعركة التى دارت قرب نهر سفسوس Cephisus ، وأضحت المنهوكة القوى ألعوبة فى أيدى القراصنة الأسبان .

وبعد عامين من سقوط القسطنطينية أقام ثيودوز لسكاريس Theodoae Lescaris هو ألكسيوس الثالث حكومة بزنطية فى منفاه فى نيقية . ورحبت بحكمه جميع الأناضـــول بما فيها مدائن بورصة ، وفلدلفيا ، وأزمير ، وإفسوس الغنية ؛ وأفاءت إدارته الحازمة القديرة العادلة على هذه الأقاليم رخاء جديداً ، وبعثت فى الآداب اليونانية حياة جديدة ، وأحيت فى قلوب الوطنيين اليونان آمالا جديدة . وأنشأ ألكسيوس كمنينوس ابن مانويل فى شرق تلك البلاد وفى طربزون بالذات مملكة بزنطية أخرى ، ونشأت مملكة ثالثة فى إبيروس برياسة ميخائيل أنجلوس ؛ وضم چون فتاتزيس John Vatatzes زوج ابنه لسكاريس وخليفته (١٢٢٢-١٢٥٤) جزءاً من إبيروس إلى مملكة نيقية ، واسترد سالونيك من الفرنجة (١٢٤٦) ، وكاد يستولى على القسطنطينية نفسها لولا أنه عاد إلى آسية الصغرى لأنه عرف أن البابا إنوسنت قد دعا المغول الزاحفين غربا إلى الإغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) . ورفض المغول مشروع البابا محتجين بتلك الحجة الساخرة وهى أنهم لا يريدون أن يعملوا على « إثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض »[٤] . وكان حكم الملك چون الطويل الأمد من خير الأحكام فى التاريخ وأعظمها تشريفاً لصاحبها ، فقد استطاع أن يخفف الضرائب ، ويشجع الزراعة ، وينشئ المدارس ، ودور الكتب .

والكنائس ، والأديرة ، والمستشفيات وملاجئ لكبار السن والفقراء ، على الرغم من الحروب الكثيرة النفقات التى خاض غمارها ليعيد بها وحدة الإمبراطورية البيزنطية[٥] . وازدهرت الآداب والفنون فى عهده ، وأصبحت نيقية فى القرن الثالث عشر من أكثر مدن العالم ثروة وأعظمها جمالا .

وكان ابنه ثيودور لسكاريس الثانى (١٢٥٤ — ١٢٥٨) شغوفاً بالعلم معتل الجسم ، عالماً ومضطرب العقل ؛ مات بعد حكم قصير ، واغتصب العرش بعد موته ميخائيل پليولوجوس Michael Paleologus زعيم الأشراف المتذمرين (١٢٥٩ — ١٢٨٢) . وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخين قلنا إن ميخائيل كان متصفا بكل نقيصة — كان « أنانيا ، منافقاً . . . كذوباً بغريزته ، مغروراً ، قاسيا ، شرهاً »[٦] . ولكنه كان واسع الحيلة شديد الدهاء ، دبلوماسياً ، معقود لواء النصر ، استطاع بمعركة واحدة أن يثبت قدمه فى إپيروس ، كما استطاع بحلفه مع جنوى أن يفوز بمعونتها على البنادقة والفرنجة فى القسطنطينية ؛ وأمر قائده استراتيجوپولس Strategopulus أن يتظاهر بالهجوم على العاصمة من ناحية الغرب . وزحف استراتيجولس على المدينة ولم يكن معه أكثر من ألف رجل ، فلما وجد حاميتها خفيفة دخلها واستولى عليها دون عناء ، وفر الملك بلدوين الثانى هو وحاشيته ، وتبعه رجال الدين اللاتين الذين كانوا فى المدينة وقد استولى عليهم رعب كانوا خليقين به . وعبر ميخائيل البسفور وهو لا يكاد يصدق النبأ وتوج إمبراطوراً (١٢٦١) ، وهكذا بعثت الإمبراطورية البيزنطية من رقادها ، وكان الناس يظنونها قد قضت نحبها ، واستعادت الكنيسة اليونانية استقلالها ، وظلت الدولة البيزنطية الفاسدة قائمة تصرف شئونها قرنين آخرين احتفظت فيهما بالآداب القديمة ونقلتها إلى العالم الغربى ، وصدت رغم ضعفها جيوش المسلمين فى تلك الفترة من الزمان .

الفصل الثاني

الأرمن (١٠٦٠ — ١٣٠٠)

وحدث حوالى عام ١٠٨٠ أن غادرت أسر أرمنية كثيرة بلادها لعدم رضائها عن سيطرة السلاجقة عليها ، وعبرت جبال طوروس ، وأنشأت مملكة أرمينية الصغرى فى قلبقية . وبينما كان الأتراك ، والكرد ، والمغول يحكمون أرمينية الحقيقية ، احتفظت الدولة باستقلالها مدى ثلاثة قرون ؛ واستطاع ليو الثانى Leo II فى حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١١٨٥ ١٢١٩) أن يصد هجمات سلاطين حلب ودمشق ، ويستولى على إسوريا Isauria وينشئ عاصمة مملكته فى سيس Sis (وهى الآن فى تركيا) ، ويعقد حلفاً مع الصليبيين ، ويدخل الشرائع الأوربية فى بلاده ، ويشجع الصناعة والزراعة ، ويمنح تجار البندقية وجنوى عدداً من الامتيازات ، ويقيم الملاجئ للأيتام ، والمستشفيات للمرضى ، والمدارس لطلاب العلم . واستمتع رعاياه فى أيامه برخاء منقطع النظير ، وكسب بحق اسم ليو الأفخم ، وكان من أعظم ملوك العصور الوسطى حكمة وأكثرهم خيراً وصلاحا . ووجد صهره هثوم الأول Hethuml (١٢٢٦ — ١٢٧٠) المسيحيين غير أهل لأن يعتمد عليهم ، فتحالف مع المغول ، وسره أن يطردوا السلاجقة من أرمينية (١٢٤٠) . فلما أن اعتنق المغول الإسلام حاربوا أرمينية الصغرى ودمروها تدميراً (١٣٠٣ ومابعدها) . وفتح المماليك المصريون أرمينية فى عام ١٣٣٥ ، وقسمت البلاد بعد الفتح بين سادة الإقطاع . وظل الأرمن خلال هذا الاضطراب يبدون ضروباً من المهارة الفنية فى العمارة ، وحذقاً عظيما فى النقش الدقيق ، يستمسكون بنوع من الكثلكة المستقلة عن سائر المذاهب ، استطاعوا به أن يصدروا كل المحاولات التى بذلتها القسطنطينية أو رومة للسيطرة على بلادهم .

الفصل الثالث

روسيا والمغول (١٠٥٤ ـ ١٣١٥)

كانت قبائل نصف همجية تسيطر فى القرن الحادى عشر على بلاد روسيا الجنوبية ، وهذه القبائل هى الكومان Cumans ، والبلغار ، والخزر Khazars ، والپلوڤتسى ، والپتزيناك Patzinaks . . . أما ما بقى من روسيا الأوربية فكان مقسما إلى أربع وستين إمارة ـ أهمها كيف Kiev ، وڤلهينيا Volhynia ، ونڤجورود ، وسزداليا Suzdalia ، واسمولنسك Smolensk ، وريازان Ryazan ، وشرنيجوف Chernigov ، وپرياسلاڤل Pereyaslavl. وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كيف عليها ؛ ولما قربت منية يارسلاف Yaroslav أمير كيف الأكبر (١٠٥٤) وزع هذه الولايات بترتيب أهميتها بين أبنائه حسب سنهم ؛ فأعطى أكبرهم إمارة كيف ، ثم وضع نظاما دورياً فذاً يقضى بأنه إذا مات أمير ينتقل الباقون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التى تلى ولايته فى الأهمية . وانقسمت طائفة من هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر إلى عدد من الإقطاعيات وزعها الأمراء على أبنائهم ؛ ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن ، فكانت أساساً للنظام الإقطاعى المعدل الذى تعاون فيما بعد هو وغارات المغول على إبقاء بلاد الروسيا بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى بعد أن خرجت أوربا الغربية من هذه العصور . على أن بلاد الروسيا كان لها فى هذه الفترة صناعات يدوية نشيطة ، وتجارة أغنى مما أصبح لها فى كثير من القرون المتأخرة .

وكانت سلطة كل أمير وراثية فى العادة ، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الڤيشى Veche ومجلس من أعليان البلاد يدعى بويارسكايا دوما

Boyarskaya duma . وتركت معظم الشئون الإدارية والقانونية فى أيدى رجال الدين ، وكادت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء هم وعدد قليل من الأعيان ، والتجار ، والمرابين . وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية ، فأنشأوا للروسيا آدابها ، وقوانينها ، ودينها ، وفنونها . وبفضل جهودهم هذبت وحددت الحقوق أو القوانين الروسية Russkaya Pravda التى وضعت أول مرة فى أيام يارسلاف ، وصيغت صياغة قانونية (حول ١١٦٠) . وجعلت للكنيسة الروسية الولاية التامة على شئون الدين ورجاله ، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا ، وكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى أملاكها الواسعة . وارتفعت بفضل جهودها منزلة العبيد فى الروسيا من الوجهة القانونية إلى حد ما ، ولكن تجارة الرقيق ظلت قائمة حتى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر(٧) .

وشهد هذا القرن نفسه اضمحلال مملكة كيف وسقوطها ، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة فى غرب أوربا ما يماثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء ؛ وشبت بين عامى ١٠٥٤ ، ١٢٢٤ ثلاث وثمانون حرباً أهلية فى الرسيا ، وأغير عليها ست وأربعون مرة ، وشنت دول روسية ست عشرة حرباً على شعوب غير روسية ، وتنازع ٢٩٣ أميراً عرش أربع وستين إمارة(٨) . وحدثت فى عام ١١١٣ اضطرابات ثورية فى كيف كان سببها ما حل بالأهلين من فقر من جراء الحروب ، وارتفاع سعر الفائدة على الديون ، والاستغلال ، والتعطل . وهاجمت الجماهير الحانقة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبتها ، واحتلت دواوين الحكومة وبسطت سيادتها عليها لحظة من الزمان . واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ Monomakh أمير پريا سلاڤل ليكون أمير كيف الأعظم ؛ وجاء الأمير وهو كاره ، وقام فيها بما قام به صولون فى أثينة عام ٥٩٤ق . م ، فخفض سعر الفائدة على القروض ، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم ، كما قيد سلطة أرباب الأعمال

على العمال والموظفين ؛ فاستطاع بفضل هذه الوسائل وأمثالها — التي لم يرض عنها الأغنياء ووصفوها بأنها بمثابة مصادرة لأموالهم ، وعابها الفقراء لأنها في نظرهم غير كافية — أن ينجي المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام في ربوعها[٩] . وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم ، وتوحيد بلاد الروسيا من الوجهة السياسية . ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به في حكمه الذي لم يدم أكثر من اثني عشر عاما .

وعاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته إلى ما كان عليه من قبل . وفي هذه الأثناء كانت سيطرة القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجاري الدنيا لأنهار الدنيستر ، والدنيبر ، والدُّن ؛ وكان نمو التجارة الإيطالية في القسطنطينية ، والبحر الأسود ، وموانى الشام ، قد حوّلا إلى خلجان البحر المتوسط كثيراً من التجارة التي كانت تنتقل قبل ذلك الوقت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى دويلات البحر البلطي مارة بأنهار الروسيا . ونقصت من جراء ذلك ثروة كيف وضعفت وسائلها المادية وروحها المعنوية ، وأخذ جيرانها الهمج منذ عام ١٠٩٦ يغيرون على ما وراءها من الأصقاع وما حولها من الضواحي ، ينهبون الأديرة ويبيعون من يأسرونهم من الفلاحين بيع الرقيق . وأضحت كيف مكاناً غير أمين ، فنقص سكانها ، وأدى هذا إلى نقص الأيدي العاملة فيها . وهاجم جيش أندري بجوليوبسكي Andrey Bogolyubski كيف في عام ١١٦٩ ، ونهبها وخربها تخريباً كاملا ، واسترق آلافاً من أهلها حتى كادت « أم المدائن الروسية » يعفو ذكرها من التاريخ مدى ثلاثة قرون . وأتم هذا الخراب الذي حل بكيف استيلاء البنادقة والفرنجة على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، وغارات المغول التي امتدت من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٠ .

وانتقلت زعامة الروسيا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من « الروس الصغار » أهل أكرنيا إلى « الروس الكبار » الأكثر منهم غلظة وأقدر منهم

على تحمل المشقة ، وهم أهل الإقليم المحيط بمسكو والممتد على ضفتى الفلجا الأعلى . وكانت مسكو قد أنشئت فى عام ١١٥٦ ، ولم تكن فى ذلك الوقت إلا قرية صغيرة تستخدمها سوزداليا Suzdalia (التى كانت تمتد فى الجهة الشمالية الشرقية من مسكو) مركزاً أماميا على حدودها على الطريق الذى يصل مدائن ڤلادمير Vladimir وسزدال Suzdal بكيف . وحارب أندرى بجوليوبسكى (١١٥٧ — ١١٧٤) ليجعل إمارة سوزداليا الجالس هو على عرشها صاحبة السيادة على الروسيا بأجمعها . ولكنه اغتيل وهو يقاتل ليخضع نفجورود لسلطانه كما أخضع كيف من قبل .

وكانت مدينة نفجورود واقعة فى الشمال الغربى من الروسيا على ضفتى نهر ڤلخوف Volkhav قرب مخرج هذا النهر من بحيرة إلمن Ilmen . وإذ كان نهر ڤلخوف يصب فى بحيرة لدوجا Ladoga فى الشمال ، وكانت أنهار أخرى تخرج من بحيرة إلمن متجهة نحو الجنوب والغرب وإلى البحر البلطى عن طريق بحيرة لدوجا ، فإن هذه المدينة لم تكن قريبة من الحدود قرباً يهدد أمنها ، ولا هى بعيدة عنها بعداً يضر بتجارتها ، ولهذا نشأت فيها تجارة داخلية وخارجية نشيطة ، وأضحت هى المركز الشرقى لتجارة مدن العصبة الهانسية . فكانت تتجر عن طريق نهر الدنيبر مع كيف وبيزنطية ، وعن طريق نهر الفلجا مع بلاد الإسلام . وكادت تحتكر تجارة الفراء الروسية لأن سلطانها كان يمتد من پسكوف Pskov فى الغرب إلى المحيط الجامد الشمالى ، ويكاد يصل إلى جبال أورال فى الشرق . وسيطر تجار نفجورود الأقوياء الأشراف بعد عام ١١٩٦ على الجمعية التى كانت تحكم الإمارة عن طريق أميرها المنتخب . فقد كانت هذه المدينة — الدولة جمهورية حرة تطلق على نفسها اسم « سيدى نفجورود الأكبر » . فإذا لم ينل أمير لها رضاء أهلها فإن « سكانها يقدمون له واجب الاحترام ويرشدونه إلى طريق الخروج » من المدينة ؛ فإذا قاومهم زجوه فى السجن ؛ ولما أراد

اسفياتوبولك Sviatopolk أمير كيف الأكبر أن ينصب ابنه أميراً عليهم رغم أنوفهم (١٠١٥) قال له أهل نفجورود : « ابعثه إلى هنا إن كان له رأس ليس هو فى حاجة إليه »[١٠] . ولكن الجمهورية لم تكن دمقراطية ، لأن العمال وصغار التجار لم يكن لهم صوت فى حكومتها ، ولم يكن فى وسعهم أن يؤثروا فى سياستها إلا بالعصيان المتكرر .

وبلغت نفجورود ذروة مجدها فى عهد الأمير ألكسندر نفسكى Alexander Nevsky (١٢٣٨ — ١٢٦٣) فقد أراد البابا جريجورى التاسع أن يخرج الروسيا من المذهب المسيحى اليونانى إلى المذهب اللاتينى ، ودعا إلى حرب صليبية على نفجورود ، وظهر جيش سويدى على نهر النيفا ، فهزمه ألكسندر بالقرب من مدينة لينتغراد الحالية (١٢٤٠) واشتق لقبه من اسم هذا النهر . وكان نصره هذا أعظم من أن يبقيه رئيساً لجمهورية ، فنفى بسببه من المدينة ، فلما أن تولى الألمان الحرب الصليبية ، واستولوا على پسكوف وتقدموا حتى أصبحوا على بعد سبعة عشر ميلا من نفجورود ، توسلت الجمعية المرتاعة إلى ألكسندر أن يعود ، فعاد ، واسترد المدينة ، وهزم فرسان ليڤونيا Livonie على جليد بحيرة پيپوس Peipus (١٢٤٢) وقضى سنيه الأخيرة ذليلا مهينا يتزعم أهل بلده تحت نير المغول .

ذلك أن المغول دخلوا الروسيا بقوات لا حصر لها . جاءوا من التركستان ، واخترقوا جبال القفقاس ، وأبادوا عندها جيشا من الكرج ، ونهبوا بلاد القرم : واستنجد القومان ، الذين ظلوا عدة قرون يحاربون كيف ، بالروس وقالوا لهم : « لقد امتلكوا اليوم ديارنا ، وسيملكون دياركم غداً »[١١] وعرف بعض الأمراء الروس صدق قولهم وقادوا عدة فرق يريدون أن ينضموا بها للدفاع عن القومان . وبعث المغول رسلا منهم يعرضون على الروس أن يحالفوهم ضد القومان ، فقتل الروس الرسل ودارت معركة على شاطئ نهر كلكا Kalka بالقرب من بحر آزاق Azov ، هزم فيها المغول جيش الروس والقومان ، وأسروا عدداً من قواد الروس

بالخيانة ، وكبلوهم بالأغلال ، وأقاموا فوقهم طواراً جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر ، بينا كان الأسرى الأشراف يموتون اختناقا (١٢٢٣) .

ثم ارتد المغول إلى منغوليا ، وصرفوا جهودهم فى فتح الصين ، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم ، ولكن المغول عادوا فى عام ١٢٣٧ بقيادة باتو Batu ابن ابن أخى جنكيز خان ؛ وكانت عدتهم ٥٠٠ر٠٠٠ كلهم تقريباً من الفرسان ؛ وكان الطريق الذى جاءوا منه حول الطرف الشمالى من بحر الخزر ، وأعملوا السيف فى رقاب البلغار الضاربين على ضفتى نهر الفجا ، وخربوا مدينة بلغار Bolgar عاصمتهم . وبعث باتو برسالة إلى أمير ريازان يقول فيها : إن كنت تبغى السلم فأعطنا عشر ما عندك » ، فرد عليه بقوله : « إن فى وسعك أن تأخذ كل ما عندنا بعد أن نموت »[١٢] ، واستنجدت ريازان بالإمارات الروسية ، فأبت أن تنجدها ؛ فقاتلت وحدها قتال الأبطال ، وخسرت جميع ما تملكه ، فقد نهب المغول الذين لا يغلبون جميع مدن ريازان ، ودكوا أبنيتها ، واجتاحوا سورزاليا ، وبددوا جيشها ، وحرقوا مسكو ، وحاصروا ڤلدمير ؛ وقص النبلاء شعرهم واختبأوا فى الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ، فلما أحرقت الكنيسة والمدينة كلها قتلوا عن آخرهم ؛ ودمرت النيران سزوال ، ورستوف ، وعدداً كبيراً من قرى الإمارة (١٢٣٨) . وزحف المغول على نفجورود ، فلما وقفت فى سبيلهم الغابات الكثيفة ، والأنهار الغزيرة المياه ، خربوا شرنجوف Chernigov وبريسلاڤن ، وبلغوا فى زحفهم مدينة كيف وبعثوا برسلهم يطلبون إلى المدينة الاستسلام ؛ ولما قتل أهل كيف الرسل ، عبر المغول نهر الدنيبر ، وتغلبوا عليها بالقوة بعد مقاومة ضعيفة ، وخربوا المدينة ، وقتلوا آلافا مؤلفة من أهلها ؛ ولما أن رأى چيوڤنى ده پيانو كرپينى هذه المدينة بعد ست سنين من ذلك الوقت ، وصفها بأنها بلدة تحتوى على مائتى كوخ ، وأن الأرض التى حولها كانت تتناثر فيها الجماجم . ولم تكن الطبقات الوسطى والعليا

نجرؤ فى يوم من الأيام على أن تسلح الفلاحين أو العامة من سكان المدينة ، فلما أن جاء المغول كان الأهلون ضعافاً عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . فأخذ الفاتحون يقتلونهم أو يسترقونهم كما يحلولهم .

وتقدم المغول إلى وسط أوربا يَغلبون ويُغلَبون ، ثم عادوا أدراجهم مخترقين الروسيا يعيثون فيها فسادا ، وأقاموا على أحد روافد الفلجا مدينة سراى Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبى . وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتى عام وأربعين عاما من ذلك الوقت ؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبى ، أو للخان الأعظم لقرقورم المغولية ، وأن يقوموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لهما فروض الولاء ، ويقطعون فيها مسافات طويلة . وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ، يدفع الغنى منه بقدر ما يدفع الفقير ، ومن عجز عن الدفع بيع بيع الرقيق . واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية ، وانضموا إلى المغول فى هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها . وتزوج كثيرون من الروس مغوليات ، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه ، والأخلاق المغولية ، فى السلالات الروسية[١٣] . وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم فى التحدث والملبس . ولما أصبحت الروسيا تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية ، وتعاون استبداد الخان مع استبداد أباطرة بيزنطية على إيجاد « حاكم جميع الروس المطلق » فى الدولة المسكوفية المتأخرة .

وعرف زعماء المغول أنهم لايستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها ،

فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها ، وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب ، وجعلوا الإعدام عقابا لمن ينتهك حرماتها . وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله — أو لعلها أرغمت على رده إرغاماً — فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة[١٤] . وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا ؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً وسط الفقر السائد فى جميع البلاد . ونمت فى الشعوب روح الخضوع والاستسلام ، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذى سلط عليها قروناً طوالا . لكن الروسيا ظلت مع ذلك هى الروسيا وإن حنت رأسها لعاصفة المغول الهوجاء ، ووقفت سداً منيعاً تصد عن أوربا سيل الغزاة الأسيويين ؛ فقد تحطمت قوة التيار البشرى الجارف على صخرة الأجناس الصقلبية — الروس ، والبوهيميين ، والمورافيين ؛ والبولنديين — والمجرية ؛ وقضت أوربا الغربية فترة من الزمن ترتجف من الهول ولكنها لم تكد يمسها أذى . ولعل بقية أوربا استطاعت أن تسير فى طريقها نحو الحرية السياسة والعقلية ، ونحو الثروة ، والنعيم ، والفن ، لأن الروسيا ظلت مائتى عام مغلوبة ، ذليلة ، راكدة ، فقيرة .

الفصل الرابع

بحر البلقان المضطرب

يرى الناظر إلى بلاد البلقان عن بعد أنها خليط مضطرب من العواصف السياسية والدسائس ، ومن الخداع الجذاب والمهارة التجارية ، والحروب والاغتيال ، والمذابح المدمرة . أما البلغارى ، والرومانى ، والمجرى ، واليوغسلافى فيرى كل منهم أن أمته هى ثمرة ألف عام من الكفاح للظفر باستقلالها من الإمبراطوريات المحيطة بها ، والاحتفاظ بثقافة فذة باهرة ، والتعبير عن خصائصها القومية فى البناء ، واللباس ، والشعر ، والموسيقى والغناء دون أن يعوقها عن ذلك عائق .

وظلت بلغاريا ، التى كانت من قبل دولة قوية فى عهد كروم Krum وسميون Simeon ، ثمانية وستين عاما ومائة عام خاضعة لبيزنطية ، ووجد تذمر البلغار والفلاخ Vlach أهل ولاشيا Wallachia من يعبر عنه فى شخص أخوين هما يوحنا وبطرس آسن Asen كان لهما من الدهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت وما تحتاجه البلاد . ودعا الأخوان أهل ترنوفا Trnova إلى كنيسة القديس دمتريوس وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة سلانيك اليونانية ليتخذ ترنوفا موطنا له ، وأن فى وسع بلغاريا إذا انضوت تحت لوائه أن تستعيد حريتها . وأفلحا فى بلوغ هدفهما ، وقسما الدولة الجديدة تقسيما وديا بينهما ، فاتخذ يوحنا ترنوفا مقراً لحكمة واتخذ بطرس برسلاف Preslav . وكان أعظم ملك من نسلهما ، وفى تاريخ بلغاريا كله ، هو يوحنا آسن الثانى (١٢١٨-١٢٤١) ؛ ذلك أن هذا الملك لم يضم إلى ملكه تراقيا ، ومقدونية ، وإبيروس ، وألبانيا فحسب ، بل حكم هذه البلاد حكماً عادلا أحبه من أجله رعاياه من اليونان أنفسهم . وكسب

رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق الأموال على الأديرة ؛ وشجع التجارة ، والآداب والفنون بمناصرتها وبما سنه لها من القوانين المستنيرة ، وجعل ترنوفا من أكثر مدائن أوربا جمالا ، ورفع منزلة بلغاريا فى الثقافة والحضارة إلى مصاف معظم الأمم الراقية فى تلك الأيام . لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ؛ وأشاعت غزوات المغول الاضطراب فى الدولة وأضعفتها (١٢٩٢ — ١٢٩٥) ، وأدى ذلك إلى خضوعها فى القرن الرابع عشر إلى الصرب أولا ثم إلى الأتراك فيما بعد .

وأفلح الزهوبان Zhupan (الزعيم) استيفن نمانيا Stephen Nemanga فى عام ١١٥٩ فى إخضاع العشائر والأقاليم الصربية المختلفة لحكمه ، فكان هو المؤسس الحقيقى لمملكة الصرب ، التى ظلت خاضعة لحكم أسرته مائتى عام . وكان ابنه سافا Sava يؤدى للأمة أعمال كبير الأساقفة والحاكم السياسى فى وقت واحد ، فأصبح فيما بعد أعظم قديسيها منزلة فى نفوس الأهلين . وكانت البلاد لا تزال فقيرة ، حتى كانت القصور الملكية نفسها تقام من الخشب . وكانت لها فرضة بحرية مزدهرة هى مدينة راجوسا Ragusa (دبرفنيك Dubrovnik الحالية) ، ولكن هذه المدينة كانت دولة مستقلة مفردة ، أصبحت فى عام ١٢٢١ خاضعة لحماية البندقية . واتخذ الفن الصربى فى خلال هذين القرنين طرازاً خاصا به وبلغ درجة عظيمة من الإتقان فى هذا الطراز الخاص ، نتبينهما فى الصور والنقوش المرسومة على جدران كنيسة القديس بنتيليمون Panteleimon ذات الدير فى نريز Nerez (حوالى عام ١١٦٤) ، فهى تكشف عن واقعية مسرحية لم نعتدها فى التصوير البيزنطى ، وتسبق بقرن من الزمان بعض أساليب التصوير التى كانت فى ظن الناس من ابتكار دشيو Duccio وجيتو Giotto . وتظهر فى هذه الصور الجدارية وغيرها مما رسم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر صور للملوك تنم عن فردية لا تضارعها فيها أية صورة بيزنطية قبل ذلك العهد[١٥]

وبينا كانت بلاد الصرب فى العصور الوسطى تسير نحو حضارة راقية ، حطمت الاضطهادات والمروق من الدين وحدة الأمة ، ولربما كان فى وسعها لولا هذا أن تقف زحف الأتراك . كذلك أضعفت المنازعات الدينية البوسنه Bosnia بعد أن بلغت ذروة مجدها فى العصور الوسطى تحت حكم البان Ban (أى الملك) كولين Kulin (١١٨٠ – ١٢٠٤) ، وما زالت كذلك حتى خضعت إلى المجر عام ١٢٥٤ .

وعم الاضطراب هنغاريا بعد موت استيفن الأول (١٠٣٨) من جراء الفتن التى أثارها المجر الوثنيون على الملوك الكاثوليك ، وما بذله هنرى الثالث من محاولات لضم هنغاريا إلى ألمانيا . وهزم اندرو الأول Andrew I هـ ى ، ولما جدد الإمبراطور هنرى الرابع هذه المحاولة فوّت الملك جيزا الأول Giza I عليه غرضه بأن أعطى هنغاريا إلى جريجورى السابع ، ثم استردها منه إقطاعية بابوية (١٠٧٦) . وأدى التنافس على العرش فى القرن الثانى عشر إلى تقوية الإقطاع فى البلاد ، فقد منح المتنافسون النبلاء إقطاعات واسعة نظير تأييدهم لهم ، حتى بلغ هؤلاء النبلاء من القوة فى عام ١٢٢٢ ما مكنهم من انتزاع « مرسوم ذهبى Golden Bull » شبيه شبهاً عجيباً بالعهد الأعظم (مجنا كارتا) الذى وقعه جون ملك إنجلترا فى عام ١٢١٥ . وقد أنكر هذا المرسوم وراثة الإقطاعيات ، ولكنه وعد أن يدعى مجلس كل عام ، وألا يسجن أى نبيل إلا بعد أن يحاكم أمام كونت من القصر الإمبراطورى ، وألا تفرض ضريبة ما على ضياع الأشراف أو رجال الدين . وظل هذا المرسوم الملكى المعروف باسم المرسوم الذهبى نسبة إلى غلافه أو خاتمه صك الحرية لأشراف هنغاريا ، وأضعف سلطة الملكية الهنغارية وقت أن كان المغول يستعدون لإيقاع أوربا فى أزمة من أشد الأزمات فى تاريخها كله .

وفى وسعنا أن ندرك ما بلغه المغول من سعة الملك وقوة السلطان إذا ذكرنا أن أجادى Ogadi الخان الأعظم سير فى عام ١٢٣٥ ثلاثة جيوش للزحف على كوريا والصين وأوربا . وعبر الجيش الثالث بقيادة باتو نهر الفلجا فى عام ١٢٣٧ ، وكانت عدته ثلثمائة ألف مقاتل . ولم يكن هذا الجيش حشداً غير نظامى ، بل كان قوة جيدة التدريب ، حسنة القيادة مجهزة بآلات قوية للحصار وبأسلحة نارية جديدة عرف المغول طريقة استعمالها من الصينيين . وخرب هؤلاء المحاربون فى مدى ثلاث سنين الروسيا الجنوبية كلها تقريباً . وكأنما كان باتو غير قادر على أن يفكر فى الهزيمة فقسم هذا الجيش قسمين ، زحف أحدهما على پولندة ، واستولى على كركوفيا Cracow ولبلين Lubiin وعبر نهر الأودر وهزم الألمان فى ليجنتز Leignitz (١٢٤١) ؛ وتسلق الجيش الثانى بقيادة باتو نفسه جبال الكرپات ، وهاجم هنغاريا ، والتقى بقوات هنغاريا والنمسا المتحدة عند موهى Mohi وأوقع بها هزيمة منكرة قدّر مؤرخو العصور الوسطى — الذين لا يراعون قط جانب الاعتدال فيما يذكرون من الأرقام — عدد القتلى من المسيحيين بمائة ألف ، وقدّر الإمبراطور فردريك الثانى خسائر الهنغاريين بما « لايكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة »[١٦] . ومن مغربات التاريخ أن الغالبين والمغلوبين فى هذه البلاد كانوا من دم واحد ؛ فقد كان القتلى من أشراف هنغاريا أبناء المجر المغول الذين اجتاحوا البلاد قبل ثلاثة قرون من ذلك الوقت . واستولى باتو على پست Pesth وإزترجوم Eztergom (١٢٤١) ؛ وعبرت قوة من المغول نهر الدانوب ، وأخذت تطارد الملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV حتى وصلت إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار . وأخذ فردريك الثانى يهيب بأوربا

أن تتحد لتستطيع الوقوف فى وجه تيار الغزو الأسيوى الجارف ، ولكن نداءه كان صرخة فى واد . وحاول أنوسنت الثالث أن يدعو المغول إلى المسيحية وإلى السلام ، ولكن دعوته هو الآخر ذهبت أدراج الرياح ؛ وكان الذى أنجى المسيحية وأوربا هو موت أجادى وعودة باتو إلى قرقورم للاشتراك فى انتخاب خان جديد . ولم يحدث فى التاريخ كله تخريب أشمل من هذا التخريب أو أوسع فقد امتد من المحيط الهادى إلى البحرين الأدرياوى والبلطى .

وعاد بيلا الرابع إلى بست المخربة وعمرها بالألمان ، ونقل عاصمة ملكه إلى بودا Buda على الضفة الأخرى من الدانوب (١٢٤٧) ؛ وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة . وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعادت تنظيم المراعى والضياع الكبرى التى كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة . وهبط عمال المناجم الألمان من أرزجبرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنسلفانيا Transylvania . وكانت حياة الأهلين وعاداتهم لا تزال خشنة غليظة ، وأدوات العمل بدائية ، والبيوت أكواخاً من الأغصان والطين . وقام الرجال فى هذه البيئة التى تضطرب فيها الأجناس واللغات ، وينقسم فيها الأهلون إلى طبقات ومذاهب دينية متنابذة متعادية ، قام الرجال فى هذه البيئة يعملون لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم ، ووصل أسباب الاقتصاد الذى هو منبت الحضارة .

الفصل الخامس

دول التخوم

كما أن كل نقطة في الكون اللانهائي يمكن أن تعد مركزاً له ، كذلك نرى كل أمة وكل نفس في موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة نفسيراً يدور حول صفاتها هي والدور الذي قامت به فيه . وكان في شمال جبال البلقان خليط آخر من الشعوب — من البوهيميين ، والبولنديين ؛ واللتوانيين ، والليفونيين ، والفنلنديين ، كل واحد منها يجعل تاريخه القومي المحور الذي يدور حوله العالم كله مستمسكاً في ذلك بالعزة القومية التي تبعث الحياة في نفوس الشعوب .

وكان الفنلنديون الذين تربطهم بالمجر والصرب صلات دم بعيدة ، يعيشون في بداية العصور الوسطى على ضفتي نهر الفلجا الأعلى والأوكا Oka . وقبل أن يستهل القرن الثامن هاجر أولئك الأقوام إلى الأراضي الجدباء المسرحية المناظر المعروفة عند غيرهم باسم فنلندة وعندهم هم باسم السومى Suomi أو أرض المناقع ، ولما أخذوا يغيرون على سواحل اسكنديناوة اضطر إرك التاسع Eric IX ملك السويد إلى فتح بلادهم في عام ١١٥٧ . وترك إرك أسقفاً عندهم في أبسالا لينشر بينهم الحضارة ، فقتل الفنلنديون الأسقف هنرى ثم اتخذوه بعد قتله قديسهم الشفيع ، وأخذوا في بسالة هادئة يزيلون الغابات ويجففون المناقع ، ويصرفون مياه العشرة « الآلاف بحيرة »[١٧] ويجمعون الفراء ، ويجاهدون ضد الثلوج .

وأخذت قبائل أخرى قريبة في أصولها من الفنلنديين تعمل بالفاس والمجرف جنوب خليج فنلندة ، وهي قبائل البروسيين Borussians أو Prussians ، والإستُ Esths (الإستونيين) ، واللف ، Livs (اللفونيين) ، واللتفا Litva

(اللثوانيين) واللت Letts واللتڤين . فكانوا يصيدون الحيوان من الغابات ، والسمك من مياه البحار والأنهار ، ويربون النحل ، ويفلحون الأرض ، ويتركون وراءهم تراثا من الآداب والفنون لمن هم أقل منهم قوة من خلفائهم الذين كانوا هم يكدحون من أجلهم . وظلت هذه القبائل كلها ما عدا الأستونيين وثنية حتى القرن الثانى عشر حين نشر الألمان بينهم المسيحية والحضارة بالنار والسيف . ولما وجد اللڤونيون أن الألمان يتخذون الدين المسيحي وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليهم قتلوا المبشرين ، ونزلوا إلى نهر الدڤينا Dvina ليتطهروا فيه من دنس التعمد ، وعادوا إلى آلهتهم القدامى . ودعا إنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، ودخل الأسقف ألبرت Albert نهر الدڤينا بثلاث وعشرين سفينة حربية ، وشاد مدينة ريجا Riga واتخذها عاصمة للبلاد وأخضع لڤونيا لحكم الألمان ١٢٠١ . وأتمت طائفتان من الفرسان الدينيين — العسكريين طائفتا الفرسان اللڤونيين ، والفرسان التيوتون إخضاع دول البحر البلطى لألمانيا ، وامتلكوا فيها أرضين واسعة ، ونشروا الدين المسيحي بين أهلها ، واتخذوهم رقيق أرض[١٨] . وقويت قلوب الفرسان التيوتون بهذا النجاح ، فتقدموا نحو الروسيا يرجون أن يخضعوا فى القليل ولاياتها الغربية لألمانيا وللمسيحية اللاتينية ، ولكنهم هزموا عند بحيرة پيپوس (١٢٤٢) فى واقعة من مواقع التاريخ الحاسمة التى لا يحصى لها عدد .

وكان بحر آخر من الصقالبة يموج حول هذه الدول البلطية . وكان منهم طائفة تسمى نفسها الپولانيين أى « شعب الحقول » — وكانت تفلح أودية أنهار الوارث Warthe والأودر Oder ، وطائفة أخرى تسمى المازور Mazurs ، تسكن على ضفتى نهر الڤستيولا Vistula ، وطائفة ثالثة تدعى البومرزانى Pomerzani (أى « بجانب البحر ») هى التى اشتق منها اسم پمرانيا Pomerania . وأراد الأمير البولندى ميسزكو الأول Mieszko 1 أن يجنب بلاده فتح الألمان ، فوضع پولندة تحت حماية البابا پوات ، وأدارت پولندة من

ذلك الحين ظهرها نحو صقالبة الشرق نصف البيزنطيين ، وألقت بنفسها فى أحضان أوربا الغربية والمسيحية الرومانية . وفتح بلسلاف الأول Boleslav I (٩٩٢ — ١٠٢٥) ابن ميسزكو پومرانيا ، وضم إلى بلاده برسلو Breslau وكركوفيا Cracow ونصب نفسه أول ملك على پولندة . وقسم باسلاف الثالث Boleslav III (١١٠٢ — ١١٣٩) المملكة بين أبنائه الأربعة ، وضعفت الملكية بعد هذا التقسيم ، وقسم الأشراف الأرض إمارات إقطاعية ، وأخذت پولندة تتقلب بين الحرية تارة والخضوع لألمانيا وبوهيميا تارة أخرى . واندفع عليها تيار المغول الجارف فى عام ١٢٤١ ، واستولوا على كركوفيا عاصمة البلاد ، ودكوها دكا . ولما انحسر تيار الأسيويين طغت فى أثره موجة من المهاجرين الألمان على پولندة الغربية ، وخلقت فيها مزيجا قوياً من لغة الألمان وشرائعهم ، ودمائهم ، ورحب بلسلاف الخامس فى هذا الوقت عينه (١٢٤٦) باليهود الفارين من المذابح فى ألمانيا ، وشجعهم على تنمية الأعمال التجارية والمالية ، واختير ونسسلاس الثانى Wenceslas II ملك بوهيميا ملكا على پولندة فى عام ١٣١٠ ، وضم الأمتين تحت تاج واحد .

واستقر الصقالبة فى بوهيميا ومورافيا فى القرنين الخامس والسادس ؛ وقام زعيم صقلبي يدعى سامو فى عام ٦٢٣ وحرر بوهيميا من حكم الآفار وأسس فيها دولة ملكية مطلقة ماتت بموته فى عام ٦٥٨ . وغزا شارلمان أرضها فى عام ٨٠٥ ، وظلت بوهيميا ومورافيا جزأين من الدولة الكارولنجية زمنا لا نعرف مداه . حتى إذا كان عام ٨٩٤ أخضعت أسرة بريمزل Premysl كلا الإقليمين لسلطانها الدائم ، ولكن المجر حكموا مورافيا نصف قرن من الزمان (٩٠٧ — ٩٥٧) . وفى عام ٩٢٨ أخضع هنرى الأول بوهيميا للألمان . وعم الرخاء بوهيميا فى عهد الدوق ونسسلاس الأول Wenceslas I (٩٢٨—٩٣٥) على الرغم من خضوعها للألمان هذا الخضوع المتقطع ؛ وكانت أم هذا الدوق القديسة لدملا St. Ludmilla

قد ربته تربية مسيحية خالصة ، وظل بعد أن تولى الحكم مسيحياً مخلصاً يطعم الفقراء ويكسوهم ، ويحمى الأرامل والأيتام ، ويستضيف الغرباء ، ويحرر الأرقاء من ماله . وحاول أخوه أن يغتاله لأنه تعوزه الرذائل التى لابد من وجودها فى الملوك ، فضربه ونسسلاس بيده وعفا عنه ، ولكن غيره من المتآمرين اغتالوا الملك وهو فى طريقه لحضور القداس فى اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر عام ٩٣٥ ؛ ولا يزال أهل بوهيميا يحتفلون بهذا اليوم ويسمونه عيد ونسسلاس قديس بوهيميا وحارسها .

وخلفه أدواق ذوو نزعة حربية ، وزحف بلسلاف الأول Boleslav I (٩٣٩ — ٩٦٧) والثانى (٩٦٧ — ٩٩٩) ، وبراتسلاف الأول Bratislav I (١٠٣٧ — ١٠٥٥) من عاصمتهم ذات الموقع الحربى المنيع وفتحوا مورافيا ، وسيلزيا ، وبولندة ؛ ولكن هنرى الثالث أرغم براتسلاف على الجلاء عن بولندة والعودة إلى أداء الجزية لألمانيا . ثم حرر أتوكار الأول Attokar I ١١٩٨ — ١٢٣٠ بوهيميا وصار أول ملوكها ، وأخضع أتوكار الثانى النمسا ، واستيريا Styria وكارنثيا ؛ وكان أتوكار هذا شديد الرغبة فى تنمية الصناعة وإيجاد طبقة وسطى فى البلاد يقاوم بها النبلاء المتمردين ، فشجع الألمان على أن يهاجروا إلى بلاده حتى أصبح العنصر الألمانى هو الكثرة الغالبية من سكان مدن بوهيميا ومورافيا كلها تقريباً[١٩] ، وأصبحت مناجم الفضة فى كتناهورا Kutna Hora أساس رخاء بوهيميا ومطمع غزاتها الكثيرين ؛ وأعلن الألمان الحرب على أتوكار فى عام ١٢٧٤ ، وأبى أشراف بلاده أن يساعدوه على الغزاة ، فتخلى لهم عن فتوحه ، واحتفظ بعرشه بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألمانيا . ولما أن تدخل الإمبراطور رودلف هبسبرج Rudolf of Hapsburg فى شئون بوهيميا الداخلية عبأ أتوكار جيشاً جديداً

حارب به الألمان عند درنكروت Durnkrut ؛ وتخلى عنه النبلاء للمرة الثانية ، فألقى بنفسه فى وطيس المعمعة بين صفوف الأعداء المتراصة ، ومات وهو يقاتل قتال المستيئس .

وصالح ونسسلاس الثانى (١٢٨٧ — ١٣٠٥) الألمان على أن يعود أميراً إقطاعياً خاضعاً لهم ، وبذل جهوداً جبارة فى إعادة النظام والرخاء إلى البلاد . وانتهى بموته عهد الأسرة البريمسلية بعد أن حكمت البلاد خمسمائة عام كان البوهيميون ، والموراڤيون ، والپولنديون هم كل من بقى من المهاجرين لصقالبة الذين كانوا يملأون من قبل ألمانيا الشرقية إلى حدود نهر الإلب ، كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه خاضعين لسلطان الألمان .

الفصل السادس

ألمـــانيـــا

كان الذين كسبوا المعركة فى النزاع التاريخى القائم حول تولى غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشراف ألمانيا — الأدواق واللوردة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة . وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع ، وأقاموا فى البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفكيكها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية ، وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا فى القرن الثالث عشر من زعامة أوربا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ — ١١٢٦) أباه عن العرش ، وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات . ولما رفض پسكال الثانى Paschael II أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه فى تولية غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، زج بالبابا والكرادلة فى السجن . ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية ، وقضوا على الأسرة الفرنكونية Franconian ، وولوا لوثير الثالث Lothair III السكسونى ملكا على البلاد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث Conrad III أسرة هوهنستاوفن Hohenstaufen السوابية أقوى أسرة ملكية فى تاريخ ألمانيا كله .

ولم يوافق الدوق هنرى الباڤارى على من وقع عليه اختيار الناخبين ، وأيده فى هذا الرفض عمه ولف Welf أو جلف Guelf ؛ وشب النزاع من هذا الوقت بين جلف وغبلين "Ghibelline" وهو النزاع الذى اتخذ فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر صوراً كثيرة ، وكانت له نتائج متعددة(*) .

وحاصر جيش آل هوهنستاوفن العصاة البڤاريين فى بلده ويزبرج Weisberg وقلعتها . وتقول إحدى الروايات القديمة إن المدينتين المتنازعتين « هى ولف ! » و « هى ويبلنج ! » سجلتا اسم الطائفتين المقتتلتين ، وتقول القصص الظريفة إنه لما قبل السوابيون المنتصرون استسلام المدينة على أن يؤمن النساء وحدهن من القتل ، وأن يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله ، خرجت النساء القويات الأجسام يمشين وهن يحملن أزواجهن على ظهورهن[٢٠] . وعقدت هدنة فى عام ١١٤٢ حين خرج كنراد للحرب الصليبية ، ولكن كنراد أخفق فى غرضه وعاد يجلله العار . وخيل إلى الناس أن بيت هوهنستاوفن قد تلطخ اسمه بالعار حين جلس على العرش أعظم رجل من رجاله .

وكان فريدريخ Friedrich (سيد السلام) أو فردريك الأول (١١٥٢ — ١١٩٠) فى سن الثلاثين حين اختير ملكا . ولم يكن رجلا مهيب الطلعة — فقد كان قصير القامة ، أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذا لحية حمراء أكسبته فى إيطاليا اسم بربروسا Barbarossa ، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية ؛ قضى حياته فى العمل لخير الدولة ، وأعاد ألمانيا إلى زعامة العالم المسيحى وإن كان قد منى بكثير من الهزائم . وإذ كان يجرى فى عروقه دم آل هوهنستاوفن وآل ولف جميعاً ، فقد نادى بسلم فى البلاد Landfried ، وصالح أعداءه ، وهدأ أصدقاءه ، وقضى بشدة على المنازعات ، والاضطرابات ، والجرائم . ويصفه معاصروه بدماثة الخلق ، وباستعداده الدائم للابتسام ابتسامة رقيقة جذابة ، وإن كان « شديد الوطأة على الأشرار » حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية ، وهمجيتها عاملا فى تقدم الحضارة فى ألمانيا . وكان الناس يثنون بحق على حياته

(*) كانت غبلين أو فيلنجن Waiblingen قرية من أملاك أسرة هوهنستاوفن . ومعنى هذا اللفظ هو « استاوفن العالية » وهو مشتق من اسم حصن جبل وقرية فى سوابيا .

الخاصة لما عرف عنه من تمسكه بأهداب العفة والفضيلة ، وإن كان قد طلق زوجته الأولى لقربها إليه من ناحية العصب ، وتزوج بوريثة كونت برغندية فنال بهذا الزواج مع عروسة مملكة .

وإذ كان يتوق لأن يتوّجه البابا إمبراطوراً ، فقد وعد يوچنيوس الثالث Eugenius III أن يساعده على الرومان المتمردين ، والنورمان المشاكسين ، إذا حقق البابا رغبته ، وقدم الملك الشاب الفخور إلى نيبى Nepi القريبة من رومة حيث التقى بهدريان الرابع البابا الجديد ، وأغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول . وبذلك نزل هدريان إلى الأرض من غير معونة ، وأبى على فردريك « قبلة السلام » وتاج الإمبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة . وظل أعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون فى هذه المسألة ويجعلون تاج الإمبراطورية معلقاً على أداء المراسم الشكلية ، حتى خضع فردريك آخر الأمر ، فانسحب البابا وعاد إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده ، وأمسك فردريك بزمام فرس البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، يرجو من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور هو والبابا النائبان عن الله فى الأرض .

وجعله لقبه الإمبراطورى ملكا على لمبارديا أيضاً ؛ ولم يكن حاكم ألمانى بعد هنرى الرابع يستمسك بحرفية هذا اللقب ، ولكن فردريك سرعان ما بعث إلى كل بلد من بلدان إيطاليا الشمالية حاكما يصرف أمورها باسمه . وقبلت بعض المدن أولئك السادة الأجانب ولم يقبلهم بعضها . وإذ كان فردريك يحب النظام أكثر من الحرية ، ولعله أيضاً كان يرغب فى السيطرة على المنافذ الإيطالية لتجارة ألمانيا مع بلاد الشرق ، فقد خرج فى عام ١١٥٨ ليخضع البلاد الثائرة التى تعشق الحرية أكثر من النظام . واستدعى إلى بلاطه فى رنكاجليا Roncaglia فقهاء القانون الذين كانوا يحيون الشريعة الرومانية فى بولونيا ؛ وسره أن يعرف

منهم أن هذه الشريعة تجعل الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع أجزاء الإمبراطورية والمالك لكل ما فيها ، وتخوله حق تعديل الحقوق الشخصية أو إلغائها إذا رأى فى تعديلها أو إلغائها مصلحة للدولة . ورفض البابا اسكندر الثالث هذه الادعاءات لخوفه منها على حقوق البابوية الزمنية ، وأيد هذا الرفض بإعلانه أن هذه الحقوق هبات من پيپين وشارلمان ؛ ولما أصر فردريك على الاستمساك بمطالبه حرمه البابا من الكنيسة (١١٦٠) ؛ وانتقلت وقتئذ صيحات مدينتى جلف وغبلين لتمثل أولاهما مؤيدى البابا والثانية مؤيدى الإمبراطور . وحاصر فردريك مدينة ميلان العنيدة عامين كاملين ، حتى إذا استولى عليها آخر الأمر حرقها عن آخرها (١١٦٢) . وأغضبت هذه القسوة مدائن ڤرونا ، وڤيسنزا ، وپدوا ، وترڤيزو ، وفرارا ، ومانتوا ، وبرشيا ، وبرجامو ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وپارما ، ومودينا ، وبولونيا ، وميلان ، فعقدت فيما بينهما حلف جامعة المدن اللمباردية (١١٦٧) وهزمت جيوش تلك الجامعة جيش فردريك الألمانى عند لنيانو فى عام ١١٧٦ ، وأرغمته على أن يعقد هدنة تدوم ست سنين . واصطلح الإمبراطور والبابا بعد عام من ذلك الوقت ، ووقع فردريك معاهدة صلح فى كنستانس (١١٨٣) أعاد بها الحكم الذاتى إلى المدن الإيطالية . وأقرت هذه المدن فى نظير هذا بالسيادة الاسمية للإمبراطورية عليها ، ووافقت كرما منها وشهامة على أن تمد فردريك وحاشيته بما يلزمه من الزاد فى زياراته للمبارديا .

وهكذا هزم فردريك فى إيطاليا ولكنه انتصر فى جميع البلاد الأخرى ، وأفلح فى تثبيت دعائم السلطة الإمبراطورية على بولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا . وفرض من جديد على رجال الدين الألمان ، بالفعل إن لم يكن بالقول ، جميع حقوق تولى المناصب التى كان يطالب بها هنرى الرابع ، وكسب معونة هؤلاء الرجال حتى على البابوات أنفسهم[٢١] . ونعمت ألمانيا بما ناله من مجد ، وسرها أن تستدعيه من إيطاليا ، واغتبطت بمواكب الفرسان التى كانت تسير فى حفلاته

تتويجه ، وزيجاته ، وأعياده . وخرج الإمبراطور الشيخ فى عام ١١٨٩ على رأس مائة ألف من الرجال إلى الحرب الصليبية الثالثة ، ولعله كان يرغب فى أن يؤلف من الشرق والغرب إمبراطورية رومانية تعود إلى رقعتها القديمة ؛ ومات الإمبراطور غريقاً فى قليقية بعد عام من ذلك الوقت .

وكان فردريك كما كان شارلمان مشبعاً إلى أقصى حد بالتقاليد الرومانية ، وقد أنهك قواه بما بذله من الجهد لإحياء ماضيها الميت . وحزن أنصار الملكية المطلقة المعجبون بها لما منى به من الهزائم، وعدوها انتصاراً للفوضى ، أما عشاق الدمقراطية فيسرون بها ويرونها مراحل فى طريق الحرية . وإذا ما نظرنا إلى أعماله بعينه هو رأيناه على حق فيما فعل ؛ فقد كانت ألمانيا وإيطاليا تسيران مسرعتين فى طريق الفساد واختلال النظام ، ولم تكن سلطة غير سلطة الإمبراطورية القوية تستطيع القضاء على المنازعات والاضطرابات الإقطاعية والحروب القائمة بين المدن المختلفة ، وكان لابد أن يستتب النظام ليمهد السبيل إلى نشأة الحرية القومية . ونسجت حول فردريك الأول فى عهود الضعف الألمانية المقبلة أقاصيص دالة على حب الشعب له ، وخلع على بربرسا بعد حين من الصفات ما كان القرن الثالث عشر يتصور وجوده فى حفيده : فقيل إنه لم يمت بحق بل كل ما فى الأمر أنه كان نائماً فى جبال كيفهوزر Kyffhauser بثورنجيا Thuringia ، وكان فى مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو مخترقة ما يغطيه من الرخام ؛ وسوف يستيقظ من نومه فى يوم من الأيام ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا النظام والقوة . ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة قال هذا الشعب الفخور إنه هو بربرسا نهض ظافراً من قبره[٢٢] .

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) يحقق حلم أبيه ، فقد انتزع فى عام ١١٩٤ جنوبى إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية . وضمت بروفانس ، ودوفينيه Cauphiné ،

وبرغندية ، وألساس ، ولورين ، وسويسرا ، وهولندة ، وألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى ، واعترفت إنجلترا بسيادته عليها ، وأدى له المسلمون الموحدون الجزية ، وطلبت أنطاكية ، وقليقية ، وقبرص أن تضم إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا وأسپانيا ، وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأولى من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزحار البطن وقضى نحبه فى صقلية وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التى فتحها وأعد العدة لاتقاء تأرها منه . ولم يكن له إلا ولد واحد هو طفل فى الثالثة من عمره ، وأعقبت موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتتلون فيما بينهم . ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت فى إيطاليا على يد ملك ألمانى — نورمانى أصبح إيطاليا ، سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا . وأعقبت موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى يسميها شلر : « العهد المرعب الذى لا سادة فيه » ، باع فيه الأمراء الناخبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوطدوا أركان سلطانهم المستقل . وتكشف عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنستاوفن ، وأنشأ رودلف الهپسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جديدة واتخذ ڤينا عاصمة له . وأراد رودلف أن يكسب تاج الإمبراطورية ، فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلانا يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ، ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية . ولم يصبح رودلف إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته ، وإخلاصه ، ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا ، وأن ينشئ أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .

وبذل هنرى السابع (١٣٠٨—١٣١٣) آخر الجهود لتوحيد ألمانيا وإيطاليا

فعبر جبال الألب (١٣١٠) بمعونة ضئيلة من الأشراف الألمان وقوة صغيرة من فرسان الوالون Walloon ، ورحبت به كثير من مدن لمبارديا ، وكانت قد سئمت حرب الطبقات ونزاع المدن بعضها مع بعض ، وتاقت نفسها إلى التحرر من سلطان الكنيسة عليها . ورحب دانتي بالغزاة برسالة عن الملكية ، أعلن فيها بشجاعة تحرر السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وطلب فيها إلى هنري أن ينقذ إيطاليا من سيطرة البابوية ، ولكن الجلف من أهل فلورنس أصبحت لهم الغلبة في البلاد ، وصحبت المدن المشاكسة تأييدها ، ومات هنري ، وهو محوط بالأعداء ، بحمى الملاريا وهي الداء الذي تجزى به إيطاليا بين الفينة والفينة عاشقيها المملقين .

وصدت ألمانيا في الجنوب حواجز من طبيعة الأرض ، واختلاف العنصر ، واللغة ، فوجدت لها مخرجا وتعويضاً في جهة الشرق ، فاستردت الهجرات والفتوح والاستعمار الألماني والهولندي ثلاثة أخماس ألمانيا من الصقالبة ؛ وانتشر الألمان الكثيرو النسل على ضفتي الدانوب ووصلوا إلى هنغاريا ورومانيا ؛ وأقام التجار الألمان أسواقا وثغوراً في فرانكفورت على الأودر ، وفي برسلاو ، وبراج ، ودانتزج وريجا ودوربات Dorpt وريفال Reval ، ومراكز تجارية في كل مكان في الرقعة المتدة من بحر الشمال والبحر البلطي إلى جبال الألب والبحر الأسود . لقد كانت فتوحهم وحشية ، ولكن النتائج أدت إلى رقي لا يستطاع تقديره في حياة سكان الحدود الاقتصادية والثقافية .

وكان انهماك الأباطرة في هذه الفترة السالفة الذكر في شئون إيطاليا ، وحاجتهم المتكررة إلى ضمان تأييد الأشراف والفرسان ، أو مكافأتهم على هذا التأييد بهبات الأرض أو السلطان ، وما طرأ على سلطة الملوك الألمان من الضعف بسبب مقاومة البابا لهم وخروج اللمبارد عليهم ، كان هذا كله قد ترك الأشراف أحراراً يتملكون الأرض في الريف ، وينزلون الفلاحين منزلة الرقيق ؛ فعلا بذلك شأن الإقطاع في القرن الثالث عشر في ألمانيا بينما كان سلطان الملوك يقضي عليه

فى فرنسا : وأصبح الأساقفة الذين قربهم الأباطرة الأولون ليكونوا شوكة فى ظهر الأشراف، أصبح هؤلاء طبقة ثانية من النبلاء ، لايقلون ثروة وقوة واستقلالا عن الأشراف الدنيويين . ولم يحل عام ١٢٦٣ حتى عهد الإقطاعيون إلى سبعة من الأشراف — هم كبراء أساقفة مينز وتريير ، وكولونى ، ودوقا سكسونيا وباڤاريا ، وكونت پلاتين ومارجريف(*) برندنبرج حق اختيار الملك : وحد هؤلاء الناخبون من سلطان الحاكم ، واغتصبوا الامتيازات الملكية ، واستولوا على أراضى التاج . ولقد كان يسعهم أن يعملوا عمل الحكومة المركزية ويهيئوا للأمة وحدتها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل كانوا فيما بين الانتخابين يسيرون كما يحلو لهم ؛ ولم تكن أمة ألمانية قد وجدت بعد ، وكل ما كان موجوداً هم السكسون والسوابيون ، والباڤاريون ، والفرنجة . . وكذلك لم يكن هناك برلمان قومى ، بل كانت فى البلاد المختلفة مجالس إقليمية تسمى لاندتاج Landtage . ولما قام مجلس ريشستاغ Reichstag أو مجلس لمجموعة البلاد الألمانية فى عام ١٢٤٧ ، اضمحل فيما بين عهدى الانتخاب ، ولم يعل شأنه إلا فى عام ١٣٣٨ ، وكانت طائفة من الموظفين — من رقيق الأرض أو الأحرار المعينين من قبل الملوك . يؤلفون بيروقراطية مفككة ويكسبون نظام الحكم نوعا من الاستمرار غير المترابط . ولم يكن للبلاد عاصمة موحدة يتركز فيها ولاء الشعب واهتمامه ؛ ولم تكن هناك مجموعة موحدة من القوانين تحكم بها البلاد كلها ، فقد احتفظ كل إقليم بعاداته وقوانينه رغم ما بذله بربرسا من الجهد لفرض القانون الرومانى على ألمانيا كلها . وحدث فى عام ١٢٢٥ أن صيغت قوانين سكسونيا فى كتاب واحد سمى المرآة السكسونية Sachsenspiegel ، وفى عام ١٢٧٥ صيغت قوانين سوابيا وعاداتها فى « المرآة السوابية Schwabenspiegel » وأيد هذان القانونان ما كان للشعب من حق

(*) مارجريف Margrave لقب من ألقاب الأشراف فى ألمانيا يعادل لقب مركيز فى فرنسا (المترجم) .

قديم فى اختيار ملوكه ، وما كان للفلاحين من حق الاحتفاظ بحريتهم وأرضهم ، وقالت المرآة السكسونية فى هذا الصدد إن رق الأرض والاستعباد يتعارضان مع الطبيعة البشرية ومع إرادة الله ، وأن أصلهما يرجع إلى القوة أو الغش [٢٣] ، لكن رق الأرض أخذ مع ذلك ينمو ويزداد :

وكان عهد آل هوهنستاوفن (١١٨٣ — ١٢٥٤) أعظم العهود الألمانية قبل بسمارك . نعم إن عادات الشعب وآدابه كانت لا تزال خشنة غليظة ، وكانت قوانينه مضطربة هى والفوضى سواء ، وأخلاقه خليطاً من الأخلاق المسيحية والوثنية ، ومسيحيته نصف ستار لانتهاب الأراضى واغتصابها من أصحابها . كذلك لم تكن ثروة الشعب أو وسائل نعيمه تضارع ثروة شعب إيطاليا أو فلاندرز إذا وازنا مدينة فى ألمانيا بمدينة مثلها فى ذينك البلدين الأخيرين . ولكن الفلاحين الألمان كانوا مجدين كثيرى النسل ، وكان التجار الألمان مغامرين ذوى إقدام ، والأشراف أكثر سكان أوربا ثقافة وقوة ، والملوك هم الرؤساء الزمنيين للعالم الغربى يحكمون بلاداً تمتد من نهر الرين إلى نهر الفستيولا ، ومن نهر الرون إلى جبال البلقان ، ومن البحر البلطى إلى الدانوب ، ومن بحر الشمال إلى صقلية . ونشأت وترعرعت مائة مدينة ومدينة بفضل حياتها الاقتصادية الناشطة ، وكان لكثير منها صكوك ومواثيق تؤيد حكمها الذاتى ؛ وأخذت على مر السنين تزداد ثروتها وتزدهر فنونها حتى كانت فى عصر النهضة فخر ألمانيا وشاهداً على عظمتها ومجدها ، وإنا ليعترينا الآن الأسى والحزن على ما كان لها من جمال زال ولم يبق له وجود .

الفصل السابع

اسكنـــديناوة

عادت الدنمرقة إلى الظهور فى التاريخ مرة أخرى فى عهد ولدمار الأول الأول Waldemar I (١١٥٧ — ١١٨٢) بعد أن ظلت مائة عام تنعم بالاختفاء عنه ، فقد استعان هذا الملك بوزيره أبسالون Absalon كبير أساقفة لند Lund على إقامة حكومة قوية ، طهرت البحار من القراصنة . واعتنت الدنمرقة بحماية التجارة وتشجيعها ، وأسس أبسالون فى عام ١١٦٧ مدينة كوبنهاجن Copenhagen أى « مرفأ السوق » — Kjoebenhaven . وردّ ولدمار الثانى (١٢٠٢ — ١٢٤١) على الاعتداءات الألمانية بالاستيلاء على هولستين Holstein ، وهمبرج ، وعلى البلاد الألمانية الواقعة فى الشمال الشرق من نهر الإلب . ثم قام بثلاث حروب « صليبية » ضد صقالبة البحر البطلطى « تكريماً للعذراء المباركة » واستولى على إستونيا الشمالية ، وأسس مدينة ريفال Reval . وهوجم فى إحدى هذه الحروب وهو فى معسكره ، ويقول الرواة إنه نجا من الموت بسببين أولها شجاعته وثانيهما أنه نزلت من السماء فى وقت الهجوم عليه راية حمراء عليها صليب أبيض . وأصبحت هذه الراية المعروفة باسم الدنبرج Dannebrog أى القماش الدنمرقى علم القتال الدنمرقى ؛ وأسره الكونت هنرى الشويرينى Count Henry of Schwerin فى عام ١٢٢٣ ، ولم يطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر عامين ونصف عام إلا بعد أن نزل للألمان على جميع فتوحه الألمانية والصقلبية ما عدا روجن Rügen . وقضى هذا الملك بقية حياته العجيبة النافعة فى الإصلاحات الداخلية وتقنين جميع شرائع الدنمرقة . وكانت مساحة الدنمرقة حين وفاته ضعفى مساحتها فى هذه الأيام ، وكانت تشمل الجزء الجنوبى من بلاد السويد ، وكان عدد سكانها مساويا لعدد سكان السويد (٣٠٠٫٠٠٠) والنرويج (٢٠٠٫٠٠٠)

مجتمعين . ثم ضعفت سلطة الملوك بعد وفاة ولدمار الثانى ، حتى إذا كان عام ١٢٨٢ حصل الأشراف من إرك جلبنج Eric Glipping على عهد يعترف فيه بأن جمعيتهم « الدنهف Danehof » برلمان قومى .

وليس فى مقدور كائن من كان أن يجعلنا نتصور أعمال أهل اسكنديناوة فى هذه الأيام الأولى اللهم إلا إن كان قصَّاصاً واسع الخيال ، وحسبنا أن نقول عنها إنها جهود جبارة تبذل فى سبيل الاستيلاء على هذه الشبه الجزيرة الوعرة الخطرة يوماً بعد يوم وقدماً بعد قدم . لقد كانت الحياة لا تزال فيها بدائية ؛ وكانت موارد الغذاء الأولية فيها هى صيد الحيوان والسمك والزراعة . وكان لا بد من تقطيع أشجار الغابات المترامية الأطراف ، وتأنيس الحيوان البرى ، وجر الماء إلى مجار تمكن الأهلين من الإنتاج ، وإنشاء المرافئ البحرية ؛ وكان لا بد من أن يعتاد الرجال الجلد وتحمل المشاق لمغالبة الطبيعة التى بدت وكأنها تغضب من تطفل الإنسان عليها وتدخله فى شئونها . وكان للرهبان السسترسين Cistercian شأن عظيم فى هذا الكفاح الذى قضوا فيه حياتهم جيلا بعد جيل ، فكانوا يقطعون الأشجار ، ويفلحون الأرض ، ويعلمون الفلاحين أساليب الزرع الراقية . وكان من أبطال هذا الكفاح إيرل برجر Earl Birger رئيس وزراء السويد من ١٢٤٨ إلى ١٢٦٦ . فهو الذى ألغى رق الأرض ، وأقام حكم القانون ، وأسس مدينة استكهولم Stokholm (حوالى عام ١٢٥٥) ، وأنشأ أسرة فولكنج Folkung (١٢٥٠ — ١٣٦٣) بأن أجلس ابنه ولدمار على العرش . وأثرت مدينة برجن لأنها كانت منفذ تجارة النرويج ، وأضحت مدينة فزبى Visby القائمة على جزيرة جتلند Gotland مركز الاتصال بين بلاد السويد والعصبة الهانسية . وشيدت كنائس فخمة ممتازة ، وتضاعف عدد الكنائس الكبرى والمدارس ، وأخذ الشعراء يغنون قصائدهم ؛ وفى القرن الثالث عشر أضحت جزيرة أيسلندة Iceland القائمة بعيداً عن البلاد فى ضباب المحيط الجامد الشمالى أكثر المراكز الاسكنديناوية فى العالم نشاطاً فى الأدب .

الفصل الثامن

إنجلـــترا

١ – وليم الفاتح

حكم وليم الفاتح إنجلترا حكماً جمع فيه بمهارة عظيمة بين الشدة ، والقانون ، والتقوى ، والدهاء ، والخداع . فلما أن رفعه إلى العرش الويتان Witan تحت تأثير الخوف والإرهاب ، أقسم أن يطيع القوانين الإنجليزية المعمول بها وقتئذ . وانتهز بعض الأعيان فى غربى إنجلترا وشمالها فرصة غيابه فى نورمندى وحاولوا إيقاد نار الثورة فى البلاد (١٠٦٧) ، فعاد إليهم واندفع فى البلاد ينتقم من أهلها أشد الانتقام ، فأطلق لنفسه فيه العنان بقتل الأهلين ، وبهلك الحرث والنسل ، ويدمر البيوت بأساليب منظمة محكمة لم تنج إنجلترا من آثارها كلها حتى القرن التاسع عشر[٢٤] . وقسم أخصب أراضى المملكة إلى ضياع واسعة وزعها على أعوانه النورمان ، وشجعهم على بناء قصور حصينة يتخذونها قلاعاً يدافعون بها عن أنفسهم ضد السكان المعادين(*) . واحتفظ هو بمساحات من الأرض واسعة لتكون ملكاً للتاج ، واتخذ قطعة من هذه الأرض طولها ثلاثون ميلا ؛ مسارح للملك يصيد فيها الوحوش . ودمر كل ما كان فى هذه البقعة من منازل ، وكنائس ، ومدارس ليفسح الطريق للخيل والكلاب ، وكان يعاقب كل من يقتل أيلا أو أيلة فى الغابة الجديدة بفقء عينه[٢٥] .

(*) وربما كان رين هود Robin Hood ، الشهير فى القصص والغامض فى التاريخ الصحيح ، أحد الإنجليز السكسون الذين ظلوا أكثر من مائة عام يحاربون الفاتحين النورمان حرب العصابات . وكان الفقراء الإنجليز يحيون ذكراه ، بوصفه ثائراً لم يغلب يعيش فى غابة شروود Sherwood ، ولا يعترف بالقانون النورمانى وينهب مال الأعيان ، ويساعد أرقاء الأرض ، ويمجد القديسين .

وهكذا نشأت فى إنجلترا طبقة الأشراف الجدد الذين لا يزال أبناؤهم من حين إلى حين يسمون بأسماء فرنسية ، وانتشر الإقطاع الذى كان من قبل ضعيفاً نسبياً فى طول البلاد وعرضها ، وحول الشعب أرقاء أرض . وجعلت الأرض كلها ملكا للملك ، ولكنه سمح للإنجليز الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أنهم لم يقفوا فى وجه الفاتحين بأن يعوودا إلى شراء أرضهم من الدولة . وأراد وليم أن يسجل مغانمه ويعرفها ، فأرسل عماله فى عام ١٠٨٣ ليسجلوا اسم مالك كل قطعة من الأرض فى إنجلترا ، وحالها ، ومحتوياتها ؛ وقد ورد فى هذا السجل أن الملك « شدد عليهم فى أوامره تشديداً لم تبق معه ياردة واحدة من الأرض ، لا . . . بل ولا ثور أو بقرة ، أو خنزير ، لم يكتب فى سجله »[٢٦] . وكانت نتيجة هذا العمل هو **كتاب الأعظام** وهو اسم ينذر بما سيكون له من شأن خطير إذ أصبح هو « الحكم » الأخير فى جميع المنازعات العقارية . وأراد وليم أن يضمن لنفسه معونة البلاد الحربية ، ويحد من سلطان أتباعه العظام ، فاستقدم إليه جميع كبار الملاك فى إنجلترا — وكان عددهم ستين ألفاً — إلى اجتماع عقد فى سلزبرى Salisbury (١٠٨٦) ، وجعل كل واحد منهم يقسم يمين الإخلاص التام للملك . وكان عمله هذا احتياطاً حكيما ضد الإقطاعية الفردية التى كانت وقتئذ تقطع أوصال فرنسا .

وبعد فلابد للإنسان أن يتوقع قيام حكومة قوية بعد الفتح . وهذا ما حدث فى إنجلترا وقتئذ ، فقد أقام وليم أو خلع فرساناً ونبلاء ، وأساقفة ورؤساء أساقفة وأديرة ؛ ولم يتردد لحظة فى أن يزج فى السجن لوردة عظماء : وأن يتمسك بما له من حق تعيين رجال الدين فى مناصبهم . ويقاربه فى هذه الناحية جريجورى السابع الذى كان مثله ذا حول وطول ، والذى كان فى هذا الوقت عينه يستقدم الإمبراطور هنرى الرابع إلى كنوسا Canossa(*) . وأراد الملك أن يمنع الحرائق

(*) يشير المؤلف هنا إلى مذلة كنوسا وسيرد ذكرها فيما بعد (المترجم) .

فأمر سكان إنجلترا بإطفاء نار المدافئ أو تغطيتها(*) قبل الساعة الثامنة مساء ، ومعنى هذا أن يأوى الأهلون إلى فراشهم فى فصل الشتاء فى هذا الوقت[٢٧] . واشتدت حاجته إلى المال للإنفاق منه على حكومته الآخذة فى الاتساع ، وعلى فتوحه المترامية الأطراف ، ففرض ضرائب باهظة على جميع البيوع ، والواردات ، والصادرات ، واستخدام القناطر ، والطرق . وأعاد جميع الضرائب التى ألغاها من قبل إدورد المعترف . ولما علم أن بعض الإنجليز أودعوا أموالهم فى سراديب الأديرة ليخفوها عنه ، أمر بتفتيش جميع الأديرة وبنقل كل ما هو مخبأ فيها إلى بيت ماله ، ولم يكن بلاطه الملكى يتورع عن قبول الرشا ، وتسجيلها بأمانة فى السجل العام[٢٨] . لقد كانت حكومته فى صراحة تامة حكومة فاتحين يعتزمون أن يجعلوا مكاسب مغامرتهم تتناسب مع ما تعرضوا له من الأخطار .

وكان لرجال الدين النورمان نصيبهم من النصر ، فقد جىء بلافرانك Lafranc القدير المرن من كائن Caen ونصب كبيراً لأساقفة كنتربرى وكبيراً لوزراء الملك . فلما جاء وجد رجال الدين الأنجليسكسون مولعين بالصيد ، ولعب النرد ، والزواج[٢٩] ، فاستبدل بهم قساوسة وأساقفة ، ورؤساء أديرة من النورمان ، ووضع دستوراً جديداً للأديرة هو المعروف بعادات كنتربرى ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز من الناحيتين العقلية والخلقية ، وأصدر وليم — بإيحاء منه فى أغلب الظن — قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وأمر بأن ينظر فى جميع المسائل الروحية بمقتضى قانون الكنيسة ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات . وأمر بأن تجبى العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، ولكنه طلب ألا يذاع أو ينفذ قرار بابوى أو رسالة بابوية فى إنجلترا بغير موافقته ، وألا يدخل إنجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكى . وفصلت من ذلك الحين جمعية الأساقفة الوطنية عن الويتان وكانت من قبل جزءاً منه ، وأصبحت

(*) وتسمى هذه العملية باللغة الإنجليزية Curfew . (المترجم)

هيئة مستقلة ، لا تنفذ قراراتها إلا إذا صادق عليها الملك[٣٠] .

ووجد وليم أن حكم مملكته أيسر عليه من حكم أسرته ، شأنه فى هذا شأن الكثرة الغالبة من عظماء الرجال . فقد كانت الإحدى عشرة السنة الأخيرة من حياته مليئة بالنزاع بينه وبين زوجته الملكة ماتلدا Matilda ، وطلب ابنه ربرت أن يكون له السلطان الكامل على نورماندى ، فلما رفض طلبه هذا خرج على أبيه ، وحاربه وليم حرباً غير حاسمة ، ثم صالحه على أن يوصى له بهذه الدوقية بعد وفاته . وزاد جسم الملك زيادة صعب عليه معها أن يركب الخيل ؛ وحارب فليب الأول ملك فرنسا لخلاف على الحدود ؛ ولما طال مكثه فى رون ، وكاد يعجز عن الحركة لبدانته ، سخر منه فليب — على حد قول بعضهم — بأن قال إن ملك إنجلترا « ملازم الفراش للنفاس » ، وأن الشموع ستوقد فى الاحتفال العظيم الذى سيقام فى الكنيسة بعد أن يلد . وأمر وليم جيشه أن يحرق مانت Mantes عن آخرها هى وما جاورها ، وأن تتلف كل المحصولات والفاكهة ، ونفذ أمره بحذافيره . وبينما كان وليم يسير فوق جواده وسط مظاهر التخريب والتدمير وهو ثمل بخمرة النصر إذ عثر به الجواد فسقط فوق قربوس السرج الحديدى ، فحمل إلى صومعة القديس جرڤاس Gervase القريبة من رون ، حيث اعترف بذنوبه اعترافاً كاملا ، وأدلى بوصيته ، وكفر عن هذه الذنوب بأن وزع ثروته على الفقراء والكنيسة ، ووهب المال لإعادة بناء مانت . وترك أبناؤه جميعاً ، عدا ، هنرى ، فراش موته ليقتتلوا من أجل وراثة العرش ، وفر ضباطه وخدمه بما استطاعوا أن يستولوا عليه من المغانم ؛ وحمل جثته قروى من أتباعه إلى « دير الرجال » Abbay aux Hommes فى كائن (١٠٨٧) . ووجد أن التابوت الذى صنع له لا يتسع لجثته ؛ فلما أراد الخدم أن يحشروا جسمه الضخم فى هذا التابوت الضيق ، انفجر الجسم ؛ وملأ الكنيسة كلها برائحة الملك الكريهة[٣١] .

وكانت نتائج الفتح النورمانى كثيرة يخطئها الحصر ، فقد فرض شعب جديد

وفرضت طبقة جديدة على الدنمرقيين الذين حلوا محل الإنجليز والسكسون ، الذين غلبوا البريطانيين الرومان ، الذين فرضوا سيادتهم على الكلت(*) ؛ وكان لابد أن تمر عدة قرون قبل أن يثبت الأنجليسكسون والكلت وجودهم في الدم البريطاني واللغة البريطانية ؛ وكان بين النورمان والدنمرقيين أواشج قربى ، ولكنهم في المائة السنين التي جاءت بعد رولو Rollo أصبحوا فرنسيين ، فلما نزلوا بإنجلترا أصبحت عاداتها الرسمية ولغتها الرسمية عادات ولغة فرنسية ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . وجاء مع الفاتحين من فرنسا إلى إنجلترا نظام الإقطاع بكل ما فيه من زينة الخيول ، وفروسية ، وعلامات الدروع ونقوشها ، والمفردات التي تعبر عنها . وفرض رق الأرض على إنجلترا فرضاً كاملا قاسياً إلى حد لم تعرفه من قبل في تاريخها[٣٢] ، وكان المرابون اليهود الذين جاءوا مع وليم حافزاً جديداً للتجارة والصناعة ؛ ونشأت من الاتصال الوثيق بين إنجلترا والقارة الأوربية أفكار جديدة في الأدب والفن ، وبلغ فن العمارة النورماني ذروة مجده في بريطانيا ؛ وجاء الأشراف الجدد بعادات جديدة وأخلاق جديدة ، وحيوية جديدة ، وبنظام زراعي خير مما كان في البلاد من قبل . وحسن الأشراف والأساقفة النورمان النظام الإداري للدولة تحسيناً كبيراً فقد أصبح الحكم مركزياً ، ووحدت الدولة وإن يكن هذا التوحيد قد تم عن طريق الحكم المطلق ، وأصبحت الحياة والأموال أكثر أمناً من ذي قبل ، وأقبلت إنجلترا على عهد طويل من السلام الداخلي لم تغز بعده أبداً غزواً ناجحاً .

(*) أبقينا هذا التكرار في اسم الموصول وصلته مجاراة للأصل الإنجليزي لأنه مقصود بذاته . (المترجم)

٢ – تومس أبكت

من الأقوال المأثورة فى إنجلترا أن يتوسط ملك ضعيف بين كل ملكين قويين ، ولكن الحقيقة أن الملوك الضعاف الذين يتوسطون ملكين قويين لا حد لعددهم . ومصداقاً لهذا نقول إنه لما مات وليم الفاتح استولى ابنه ربرت على نورمندى وجعلها مملكة مستقلة ، وتوج ابنه الأصغر منه وليم روفس (الأحمر ١٠٨٧ — ١١٠٠) ملكا على إنجلترا بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسلك مسلكا حسناً مع لانفكرانك متوّجه ووزيره . وحكم هذا الملك حكما استبداديا حتّى عام ١٠٩٣ ، ثم مرض ووعد بأن يكون حسن السلوك ، فلما شفى من مرضه ، عاد إلى استبداده وظل كذلك حتّى اغتالته يد مجهولة فى أثناء صيده . وظل الرجل التقى أنسلم الذى أصبح بعد لانفكرانك كبير أساقفة كنتربرى يقاوم مقاومة طويلة ، أعيد بسببها إلى فرنسا .

ودعا ابن ثالث من أبناء وليم الفاتح يدعى هنرى (١١٠٠ — ١١٣٥) أنسلم إلى العودة ، فطلب المطران — الفيلسوف أن يمتنع الملك عن اختيار الأساقفة ، فلما رفض الملك هذا الطلب نشب بينهما نزاع طويل اتفق بعده على أن تختار جمعيات رجال الكنائس والرهبان بحضور الملك نفسه الأساقفة الإنجليز ورؤساء الأديرة ، وأن يقدموا له مراسم الولاء بوصفه مصدر أملاكهم وسلطانهم الإقطاعية . وكان هنرى يحب المال ويكره التبذير ؛ ولهذا فرض الضرائب الفادحة ولكنه راعى جانب الاقتصاد والعدالة فى حكمه ؛ وحافظ على السلم والنظام فى إنجلترا ، عدا معركة واحدة — فى تنشبريه عام ١١٠٦ — استرد فيها نورمندى إلى التاج البريطانى . وأمر النبلاء أن « يضبطوا أنفسهم فى معاملاتهم لزوجاتهم وأبنائهم وبنات رجالهم »[٣٣] . وكان له هو أبناء غير شرعيين وبنات غير شرعيات من عشيقاته المتعددات[٣٤] ، ولكنه أوتى من الكياسة والحكمة

ا جعله يتزوج مود Maud سليلة الملوك الاسكتلنديين والإنجليز السابقين على عهد النورمان ، فطعم بذلك الأسرة المالكة الجديدة بالدم الإنجليزى القديم .

وأرغم هنرى الأشراف والقساوسة على أن يقسموا يمين الولاء لابنته ما تلدا وابنها الشاب الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى . فلما مات الملك غتصب العرش استيفن أمير بلوا Blois وحفيد وليم ، وظلت إنجلترا أربعة عشر عاما تعانى كوارث الموت والضرائب الفادحة فى حرب داخلية امتازت بأشد ضروب القسوة والإرهاب[٣٥] . وكبر هنرى الثانى فى هذه الأثناء ، وتزوج اليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine واستولى على دوقيتها ، وغزا إنجلترا ، وأرغم استيفن على الاعتراف به وارثاً للعرش . ولما توفى استيفن صار ملكا على انجلترا (١١٥٤) ؛ وبذلك انتهى عهد أسرة النورمان وبدأ عهد أسرة البلانتجنت(*) . وكان هنرى رجلا حاد الطبع ، كثير المطامع ، قوى الذهن ، يميل بعض الميل إلى الكفر بالله[٣٦] . وكانت له السيادة الاسمية على مملكة تمتد من اسكتلندة إلى جبال البرانس ، وتشمل نصف فرنسا ، ولكنه ألفى نفسه بادئ العجز فى مجتمع إقطاعى ، مزق فيه كبار الأشراف بجنودهم المرتزقة وحصونهم المنيعة الدولة إلى إقطاعيات يحكمونها بأنفسهم ، ولهذا شرع الملك بنشاط رهيب يجمع المال والرجال ، ويحارب الأشراف ويخضعهم سيداً بعد سيد ، ويدمر القصور الاقطاعية الحصينة ، ويوطد أركان النظام والأمن والعدالة والسلم . وأخضع لحكم إنجلترا أيرلندة التى غلبها ونهبها قراصنة ويلز ؛ وكان فى إخضاعها حكيما مقتصداً فى ماله وفى جنده . ولكن هذا الرجل القوى ، الذى يعد من أعظم الرجال فى تاريخ إنجلترا كله ، قد ذل وتحطم حين التقى بتومس أبكت Thomas à Becket ، وهو رجل

(*) كان جوفرى الأنجوى Jeoffrey of Anjou والد هنرى الثانى قد لبس صلوجاً من نبات الرتم (المسمى planta genêt بالفرنسيه) فى قبعته .

ذو إرادة لا تقل مضاء عن إرادته ودين أعظم قوة من أية دولة قائمة فى ذلك الوقت .

ولد تومس فى لندن عام ١١١٨ من أبوين نورمانيين من أبناء الطبقة الوسطى . واسترعى الغلام انتباه ثيوبولد Theobald كبير أساقفة كنتربرى بذكائه الناضج قبل الأوان ، فأرسله إلى بولونيا Bologna وأكسير Auxerre ليدرس الشرائع المدنية والكنسية . ولما عاد إلى إنجلترا انتظم فى سلك رجال الدين ، وما لبث أن ارتقى فى المناصب الدينية حتى صار كبير شمامسة كنتربرى . ولكنه كان مثل كثيرين غيره من رجال الدين فى تلك القرون الماضية ، رجل عمل أكثر مما كان رجل دين ؛ فكانت الشئون الإدارية والدبلوماسية أكثر ما تظهر فيها مهارته ؛ وأظهر فى هذين الميدانين مقدرة فائقة رفعته إلى مقام الوزارة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره . وساد الوئام بينه وبين هنرى إلى حين ، فكان المستشار الوسيم موضع ثقة الملك فى أخص شئونه ، يشاركه ألعاب الفروسية ، ويكاد يشاركه فى ثروته وسلطانه . وكانت مائدته أفخم الموائد فى إنجلترا كلها ، وكانت صدقاته للفقراء تضارع كرم ضيافته لأصدقائه . وكان فى الحرب يقود بنفسه سبعمائة من الفرسان ، ويبارز الأعداء فرداً لفرد ، ويضع الخطط الحربية ؛ ولما أرسل فى بعثة إلى باريس ارتاع الفرنسيون حين رأوا حاشيته الفخمة المؤلفة من ثمان مركبات ، وأربعين جواداً ، ومائتين من الأتباع ؛ وقالوا فى أنفسهم ترى ماذا يكون الملك الذى له مثل هذا الوزير !

وعين كبيراً لأساقفة كنتربرى فى عام ١١٦٢ ، فلم يكد يتولى منصبه حتى تبدلت أساليبه تبدلا تاماً فجائياً كاملا كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، فتخلى عن قصره الفخم ، وثيابه الملكية ، وأصدقائه من الأشراف ، وبعث إلى الملك باستقالته من الوزارة وارتدى الثياب الخشنة ، فلبس شعاراً من الصوف ، وعاش على الخضر ، والحبوب ، والماء ، وكان فى كل ليلة يغسل قدمى ثلاثة عشر

متسولا وأضحى من ذلك الوقت مدافعاً عن جميع حقوق الكنيسة وامتيازاتها ، ومصادر إيرادها . وكان من بين هذه الامتيازات عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية . وثارت ثائرة هنرى ، وهو الذى كان يطمع فى أن يبسط سلطانه على كافة الطبقات ، حين وجد أن المحاكم الكنسية كثيراً ما تترك رجال الدين دون أن تعاقبهم على ما يرتكبونه من الجرائم ، ولهذا دعا فرسان إنجلترا وأساقفتها إلى اجتماع عقده فى كلارندن Clarendon (١١٦٤) ، وحملهم على أن يوقعوا دستور كلارندن الذى قضى على كثير من الحصانات التى كان يتمتع بها رجال الدين . ولكن بكت رفض أن يختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى ، فما كان من هنرى إلا أن أذاع القوانين الجديدة غير عابئ بهذا الرفض ، وقدم الرئيس الدينى المريض للمحاكمة أمام المحكمة الملكية . وجاء بكت ، وعارض فى هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك أنه مذنب لخروجه على قوانين سيده الإقطاعى ملك البلاد . ولما أمرت المحكمة بالقبض عليه أعلن أنه سيستأنف القضية أمام البابا ، ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التى لم يجرؤ أحد على لمسها . وأطعم فى ذلك المساء عدداً كبيراً من الفقراء فى بيته بلندن ، ثم فر فى أثناء الليل متخفياً سالكاً طرقاً ملتوية إلى القناة الإنجليزية ، وعبر المضيق المضطرب الماء فى قارب ضعيف ، ووجد ملجأ له فى دير قائم فى سانت أومر St Omer فى بلاد ملك فرنسا ، ثم قدم استقالته من منصب كبير الأساقفة إلى البابا اسكندر الثالث . وأيده البابا فى موقفه ، وأعاد تعيينه فى كرسيه ، ولكنه أرسله ليعيش مؤقتاً معيشة راهب سسترشى فى دير پنتنى Pontigny .

ونفى هنرى من إنجلترا جميع أقارب بكت ذكوراً وإناثاً ، صغاراً كانوا أو كباراً . ولما جاء هنرى إلى نورمندى خرج تومس من صومعته وصعد منبراً فى ڤيزلاى Vezelay ، وأعلن حرمان جميع رجال الدين الإنجليز الذين أيدوا دستور كلارندن (١١٦٦) . وكان جواب هنرى أن هدد بمصادرة أملاك جميع الأديرة

والصوامع القائمة فى إنجلترا ، ونورمندى ، وأنجو ، وأكتين ، والمنتسبة إلى دير پنتنى إذا استمر هذا الدير على إيواء بكت . وتوسل الرئيس المرتاع إلى بكت أن يغادر الدير ، وعاش الرجل المتمرد المريض من الصدقات فى نزل قذر ببلدة سان Sens . وأغرى لويس السابع ملك فرنسا البابا اسكندر الثالث ، فأمر هنرى أن يعيد كبير الأساقفة إلى كرسيه ، وأنذره إذا رفض بأنه سيحرم إقامة جميع الصلوات والخدمات الدينية الأقاليم الخاضعة لحكم إنجلترا (١١٦٩) . فاضطر هنرى إلى الخضوع ، وجاء إلى أڤرانش Avranches ، والتقى ببكت ، ووعده بأن يصلح كل ما يشكو منه ، وأمسك بركاب كبير الأساقفة المنتصر وهو يهم بالركوب عائداً إلى إنجلترا (١١٦٩) . فلما عاد تومس إلى كنتربرى كرر قرار الحرمان على الأساقفة الذين قاوموه . فذهب بعضهم إلى هنرى فى نورمندى وأثاروا غضبه ، ولعلهم بالغوا فى وصف مسلك بكت . فصاح هنرى قائلا : « عجباً ! . . . أيجرؤ رجل يُطعم خبزى . . . على أن يهين الملك والمملكة جميعها ، ولا يأخذ بحقى واحد من أولئك الخدم الكسالى الذين يُطعمون على مائدتى فيغسل تلك الإهانة ؟ » . وذهب إلى إنجلترا أربعة من الفرسان الذين سمعوه ، من غير علم الملك على ما يظهر ، ووجدوا كبير الأساقفة عند مذبح كنيسة كنتربرى فى يوم ٣٠ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، فقطعوا جسمه بسيوفهم وهو واقف فى مكانه .

وروعت المسيحية كلها وثار ثائرها على هنرى ودمغته من تلقاء نفسها بطابع الحرمان العام . فاعتزل الملك العالم فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ؛ أصدر بعدها أمره بالقبض على القتلة ، وبعث بالرسل إلى البابا يعلنون براءته من الجريمة ، ووعد بأن يكفّر عن ذنبه بالطريقة التى يرتضيها الإسكندر . ثم ألغى دستور كلارندن ، وردّ إلى الكنيسة جميع مالها فى بلاده من حقوق وأملاك . وقام الناس فى هذه الأثناء يقدسون بكت ويعلنون أن معجزات كثيرة حدثت عند قبره ، وأعلنت الكنيسة قداسته رسميا (١١٧٢) ، وسرعان ما أخذت الآلاف

المؤلفة تحج إلى ضريحه . وجاء هنرى أخيراً إلى كنتربرى حاجا نادماً ؛ ومشى الثلاثة الأميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ؛ ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ، وطلب إلى الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم ؛ وهكذا تحطمت إرادته القوية أمام السخط العام عليه والمتاعب المتزايدة فى بلاده . وأخذت زوجته إليانور ، التى طردها الملك الزانى وسجنها ، تأتمر به مع أبنائه لتخلعه عن العرش ؛ وتزعم هنرى أكبر أبنائه فتنتين إقطاعيتين قامتا عليه فى عامى ١١٧٣ و ١١٨٣ ، ومات وهو خارج على أبيه . ثم تحالف ولداه رتشرد وجون ، بعد أن طال انتظارهما موته ، مع فليب أغسطس ملك فرنسا وانضما به فى حرب ضد أبيهما ، ولماطرد من لمان Le Mans جهر بالطعن على الإله الذى حرمه من البلدة التى ولد فيها وأحبها ، ومات فى شينون Chinon (١١٨٩) ؛ وكان آخر ما نطق به أن سب أولاده الذين غدروا به ، والحياة التى وهبته المجد والسلطان ، والغنى ، والعاشقات ، والأعداء ، والعار ، والغدر ، والهزيمة .

لكنه لم يخفق الإخفاق كله . نعم إنه قد سلم لبكت الميت بما لم يسلم به لبكت الحى ، لكن حجة هنرى هى التى كسبت المعركة على توالى الأيام : ذلك أن المحاكم المدنية هى التى وسعت اختصاصها وبسطت سلطانها فى عهد كل ملك جاء بعده على رعايا الملك سواء كانوا من رجال الدين أو رجال الدنيا(٣٧) . ولقد حرر القانون الإنجليزى من القيود الكنسية والإقطاعية ، ومهد السبيل لنمائه ذلك النماء الذى جعله من أجل الأعمال التشريعية التى ظهرت منذ عهد رومة الإمبراطورية . ولقد حذا حذو جده العظيم وليم الفاتح فقوّى حكومة إنجلترا ووحّدها بإخضاع الأشراف المتمردين الذين أشاعوا الفوضى فى البلاد إلى القانون والنظام . وكان نجاحه فى هذه الناحية أكثر مما يجب أن يكون : ذلك أن الحكومة المركزية قويت حتى كادت تصبح حكومة مطلقة غير مسئولة إلى أقصى حد ، وحتى

كانت الجولة الثانية فى المعركة التاريخية بين النظام والحرية هى التى قام بها الأشراف المناضلون عن الحرية .

٣ - العهد الأعظم أو مجنا كارتا

لقد ورث رتشرد الأول الملقب بلقب الأسد عرش أبيه دون أن ينازعه منازع ، وكان رتشرد ابن اليانور المغامرة المتهورة التى لا تغلب ، ولقد تتبع خطاها ولم يتبع خطا هنرى القدير النكِد . وولد رتشرد فى أكسفورد ١١٥٧ وانتدبته أمه ليصرف شئون أملاكها فى أكتين ، وفيها أشربت نفسه بثقافة پروڤانس المتشككة ، و« بعلوم » الشعراء الغزليين « المرحة » ولم يعد قط رجلا إنجليزيا . وكان حبه للمغامرات والغناء أكثر من حبه للسياسة والإدارة ، وامتلأت الاثنتان والأربعون سنة التى عاشها بحوادث روائية تكفى لأن تملأ مائة عام ، وكان لشعراء زمانه مثالا يحتذونه ونصيرا يلقون منه التشجيع . وقد قضى الخمسة الشهور الأولى من حكمه فى جمع المال اللازم لحرب صليبية ؛ فخصص بهذا الغرض جميع الأموال التى خلفها وراءه هنرى الثانى ، وأقصى آلافاً من الموظفين ثم أعاد تعيينهم نظير جعل يتقاضاه منهم ، وباع صكوكاً بالحرية للمدن التى تستطيع أداء ثمنها ، واعترف باستقلال اسكتلندة نظير ١٥٫٠٠٠ مارك ، ولم يقبل هذا الثمن القليل لأنه يزهد فى المال بل لأنه شديد الحب للمغامرات . ولم يمض على اعتلائه العرش نصف عام حتى أبحر إلى فلسطين ، ولم يكن حرصه على سلامته أكثر من حرصه على حقوق غيره ؛ وقد أثقل كاهل البلاد بالضرائب إلى أقصى طاقتها ، وبدد ما جمعه من المال فى الترف ، والولائم ، والمظاهر الكاذبة ، واندفع فى العمل خلال العقد الأخير من القرن الثانى عشر بجرأة وتهور جعلا زملاءه الشعراء يضعونه فى صف الإسكندر ، وآرثر ، وشارلمان .

وحارب صلاح الدين وأحبه ، وعجز عن هزيمته وأقسم أن يهزمه ، وقفل

راجعا إلى بلاده وأسره فى طريق عودته (١١٩٢) ليوبولد دوق النمسا ، وكان قد أساء إليه فى آسية ، وأسلمه ليوبولد فى بدء عام ١١٩٣ إلى الإمبراطور هنرى السادس . وكان لهنرى هذا ثأر قديم عند هنرى الثانى ورتشرد ، واحتفظ هنرى السادس بملك إنجلترا سجيناً فى حصن ببلدة درنشتين Dürnstein على نهر الدانوب على الرغم من القانون الذى كان معترفا به فى أوربا بوجه عام والذى يحرم اعتقال رجال الحروب الصليبية ؛ وطلب إلى إنجلترا فدية قدرها ١٥٠،٠٠٠ مارك (١٥،٠٠٠،٠٠٠ دولار أمريكى) أى نصف الإيراد السنوى لأملاك التاج البريطانى . وكان چون أخو رتشرد وقتئذ يحاول اغتصاب العرش ، فلما لقى مقاومة فر إلى فرنسا وانضم إلى فليب أغسطس فى هجومه على إنجلترا . ونكث فليب بعهد قطعه على نفسه بالمحافظة على السلم ، فهاجم الأملاك الإنجليزية فى فرنسا واستولى عليها ، وعرض رشا كبيرة على هنرى السادس ليبقى رتشرد أسيراً . وضاقت نفس رتشرد بسجنه المريح ، وكتب قصيدة من الشعر الممتاز(٣٨) ، يطلب فيها إلى بلاده أن تفتديه من الأسر . وكانت إليانور فى أثناء هذه الأحداث المضطربة تحكم البلاد حكماً ناجحاً بوصفها نائبة عن الملك معتمدة على النصائح الحكيمة التى يقدمها لها القاضى الأكبر هيوبرت ولتر Hubert Walter كبير أساقفة كنتربرى ، ولكنهما وجدا من العسير عليهما جمع الفدية المطلوبة . ولما أطلق سراح رتشرد آخر الأمر (١١٩٤) أسرع إلى إنجلترا ، وجبى الضرائب وجمع الجند وقاد بنفسه جيشاً عبر به القناة الإنجليزية ليثأر لنفسه ولإنجلترا من فليب . وتقول الرواية المأثورة إنه ظل عدة سنين يرفض القداس لئلا يطلب إليه أن يصفح عن عدوه الغادر . فلما تم له استعادة جميع الأملاك التى استولى عليها فليب ركن إلى السلم التى أمكنت فليب من أن يعيش . وتنازع فى هذه الأثناء مع أحد أتباعه الإقطاعيين وهو أدهمار Adhemar فيكونت مدينة ليموج Limoges ، وكان قد وجد كنزاً من الذهب مخبوءاً فى أرضه ، وعرض على رتشرد جزءاً منه ، لكن رتشرد أبى إلا أن

بأخذه كله ، وحاصر أدهمار . وأصاب رتشرد سهم منطلق من قصر أدهمار الحصين فمات رتشرد « قلب الأسد » فى الثالثة والأربعين من عمره إثر نزاع قام على كومة من الذهب .

وخلفه على العرش أخوه چون (١١٩٩ — ١٢١٦) بعد أن لقى بعض المقاومة وعدم الثقة ، وبعد أن اضطره ولتر كبير الأساقفة أن يقسم حين تتويجه أنه قد نال عرشه منتخبا من الأمة (أى الأعيان والمطارنة) وبنعمة الله . ولكن چون الذى خان أباه ، وأخاه ، وزوجه ، لم تكن تقف فى وجهه يمين أخرى بعد أيمانه الماضية أو يهتم كثيراً بهذه اليمين ، ولم يكن يبدو عليه شيء من التمسك بالعقائد الدينية شأنه فى هذا شأن هنرى الثانى ورتشرد الأول ، حتى ليقال إنه لم يتناول قط القربان المقدس بعد أن بلغ سن الرشد ، بل لم يتناوله أيضاً فى يوم تتويجه[٣٩] . واتهمه الرهبان بالكفر وقالوا إنه اقتنص مرة وعلاً سميناً وقال : « ما أسمن هذا الحيوان وما أحسن طعامه ! ولكنى أقسم أنه لم يسمع قط بالقداس » وغضب الرهبان من قوله هذا لأنه رأوا فيه سخرية ببدانتهم[٤٠] . وكان چون رجلا حاد الذهن مجرداً من الضمير ، وكان إدارياً حازماً ممتازاً « ولم يكن صديقاً حميماً لرجال الدين » ، ولهذا افترى عليه بعض الافتراء المؤرخون الإخباريون من رجال الأديرة كما يقول هولنشد Holinshed[٤١] ؛ ولم يكن مخطئاً على الدوام ، ولكنه كثيراً ما أغضب الناس بمزاجه الحاد ، وملحه ، وفكاهاته البذيئة الشائنة ، واستبداده وغطرسته ، وما فرضه من الضرائب الفادحة التى يحس أنه مضطر إليها للدفاع عن الأملاك الإنجليزية فى القارة ضد فليب أغسطس .

ونال چون فى عام ١١٩٩ على إذن من البابا إنوسنت الثالث بتطليق إزبل Isabel أميرة جلوسستر Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة ، ولم يلبث

(*) ويسمى من قبيل السخرية بالذى لا أرض له Laekland لأنه لم ينل من أبيه إقطاعية فى أرض القارة كما نال أخوه .

بعد طلاقها أن تزوج بإزبلا أميرة أنجوليم Isabella of Angoulême رغم أنها كانت مخطوبة لكونت لوزنيان Lusignan . وغضب الأشراف فى كلا البلدين لهذا العمل واستنجد الكونت بفليب ليأخذ له بحقه . واحتج فى الوقت نفسه بارونات أنجو ، وتورين ، وپواتو Poitou ، ومين لدى فيليب قائلين إن جون يستبد بأقاليمهم . وكانت فروض الطاعة الإقطاعية التى ترجع إلى عهد تسليم نورمندية إلى رولو تقضى بأن يعترف الأعيان الإقطاعيون فى فرنسا ، حتى فى المقاطعات التى تملكها إنجلترا ، بملك فرنسا سيداً إقطاعياً عليهم ؛ وكان چون حسب قانون الإقطاع ، بوصفه دوق نورمندية ، تابعاً لملك فرنسا ، وأمر فليب تابعة الملكى بالقدوم إلى باريس ، ليبرئ نفسه من عدة تهم وادعاءات ، وأبى چون أن يطيع الأمر ، فقضت محكمة الإقطاع الفرنسية بمصادرة أملاكه فى فرنسا ، ومنحت نورمندية ، وأنچو ، وپواتو لآرثر كونت بريطانى Brittany وحفيد هنرى الثانى . وطالب آرثر بعرش إنجلترا ، وحشد لذلك جيشاً ، وحاصر الملكة إليانور فى ميرابو Mirabeau ، فقادت الملكة بنفسها ، وهى فى الثمانين من عمرها ، قوة للدفاع عن ولدها المشاكس . وأنقذها چون من عدوها ، وقبض على آرثر ، ويبدو أنه أمر بقتله ، فما كان من فليب إلا أن غزا نورمندية ، وكان جون وقتئذ يقضى شهر العسل فى رون وفى شغل شاغل عن قيادة جنده ، فمنوا بالهزيمة . وفرچون إلى إنجلترا ، وانتقلت نورمندية ، ومين ، وأنچو ، وتورين إلى التاج الفرنسى .

وبذل البابا إنوسنت الثالث ، ولم يكن على وئام مع فليب ، كل ما فى وسعه لمساعدة چون ، ثم دب النزاع بينه بين چون . وكان سبب هذا النزاع أنه على أثر وفاة هيوبرت ولتر (١٢٠٥) حمل الملك كبار الرهبان فى كنتربرى على أن يختاروا چون ده جراى John de Gray ، أسقف نوروك Norwich للمنصب الشاغر ، ولكن طائفة من الرهبان الشبان اختارت رچنلد Reginald نائب رئيس ديرهم ليكون كبيراً للأساقفة . وأسرع المرشحان المتنافسان إلى رومة

يطلب كل منهما تأييد البابا ؛ ولكن إنوسنت رفض أن يؤيدهما جميعاً ، وعين فى المنصب الشاغر استيفن لانجتن Stephen Langton ، وهو مطران إنجليزى قضى الخمس والعشرين سنة الأخيرة مقيماً فى باريس ، وكان وقت اختياره أستاذاً للاهوت فى جامعتها . واحتج چون على هذا الاختيار وقال إن لانجتن لم يكن لديه ما يؤهله لأن يشغل أكبر منصب دينى فى إنجلترا ، وهو منصب يجمع بين الوظائف السياسية والدينية . وتجاهل إنوسنت احتجاج چون ، ودشن استيفن كبيراً لأساقفة كنتربرى (١٢٠٧) فى ڤيتربو Viterpo من أعمال إيطاليا . وتحدى چون لانجتن بأن يطأ بقدمه أرض إنجلترا ، وأنذر رهبان كنتربرى العصاة بحرق الأديرة فوق رؤوسهم ، وأقسم « بأسنان الله » بأن ينفى كل قس كاثوليكى من إنجلترا إذا أصدر البابا قراراً بحرمانها ، ويسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقاً لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) ، وامتنعت كل الخدمات الدينية فى إنجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة . وأغلق القساوسة الكنائس ، وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى فى أرض لم تدشن ؛ ورد چون على هذه الأعمال بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأديرة وأعطاها لغير رجال الدين ؛ وحرم إنوسنت الملك من حظيرة المسيحية ، ولكن چون لم يعبأ بقرار الحرمان ، وانتصر فى عدة وقائع حربية ' أيرلندة ، واسكتلندة وويلز . ووجفت قلوب الشعب هلعاً من قرار الحرمان ، ولكن الأشراف رضوا بانتهاب أملاك الكنيسة لأن ذلك الانتهاب يحول نهم الملك إلى حين عن أملاكهم هم .

واختال چون عجباً بانتصاره المؤقت، وأساء إلى الكثيرين بتطرفه عنته ؛ فقد هجر زوجته الثانية ليلد أطفالا غير شرعيين من عشيقات مستهترات ، وزج اليهود فى السجن لينتزع منهم أموالهم ، وترك بعض المطارنة السجناء

يموتون من فرط المشقة ، وأغضب الأشراف بأن أضاف الإهانات إلى الضرائب الفادحة ، وتشدد فى تنفيذ قانون الغابات البغيض . ولجأ إنوسنت فى عام ١٢١٣ إلى آخر ملجأ له ، فأصدر مرسوماً بخلع الملك الإنجليزى عن العرش ، وأعفى رعايا چون من يمين الطاعة التى أقسموها له ، وأعلن أن أملاك الملك أضحت غنيمة مشروعة لكل من يستطيع انتزاعها من يديه النجستين . وقبل فليب أغسطس الدعوة ، وحشد جيشاً رهيباً ، وزحف به على شاطئ القناة الإنجليزية . واستعد چون لصد الغزو ، ولكنه تبين وقتئذ أن أعيان البلاد لن يساعدوه فى حرب ضد بابا مسلح بقوة مادية ودينية معاً . واستشاط الملك غضباً من فعلتهم ، ورأى فى الوقت نفسه خطر الهزيمة محدقاً به . فعقد اتفاقا مع پندلف Pandulf ، مبعوث البابا مضمونه أنه إذا ألغى إنوسنت قرار الحرمان الصادر على الملك وعلى إنجلترا ، وقرار الخلع ، واستحال من عدو إلى صديق ، فإن چون يتعهد بأن يرد إلى الكنيسة كل ما صادره من أملاكها ، وأن يضع تاجه ومملكته تحت سيادة البابا الإقطاعية . واتفق الطرفان على هذا ، وأسلم چون إنجلترا كلها للبابا ، ثم استعادها منه بعد خمسة أيام بوصفها إقطاعية بابوية تدين للبابا بالولاء وتؤتى الجزية عن يد وهى صاغرة (١٢١٣) .

وأقلع چون إلى بواتو ليهاجم فليب ، وأمر بارونات إنجلترا أن يتبعوه بالسلاح والرجال ، ولكنهم لم يطيعوا أمره . وأدت هزيمة چون عند بوفين Bouvines إلى حرمانه من الألمان وغيرهم من أحلافه الذين كان يتطلع إلى معونتهم ضد توسع فرنسا ، فعاد إلى إنجلترا ليواجه الأشراف الحانقين . واستاء النبلاء من فدح الضرائب المفروضة عليهم لتمويل حروبه المخربة ، ومن خروجه على السوابق القديمة والقوانين المرعية ، وتسليمه إنجلترا ليشترى به عفو البابا وتأييده . وأراد چون أن يحسم الأمر فيما بينه وبينهم فطلب إليهم أن يؤدوا اه قدراً من المال بدل الخدمة العسكرية ، ولكنهم بعثوا إليه بدلا من هـــذا المال بوفد يطلب إليه العودة إلى

قوانين هنرى الأول ، التى حمت حقوق الأشراف وحددت سلطات الملك . فلما لم يتلق الأشراف جواباً مرضياً حشدوا قواتهم المسلحة عند استامفورد Stamford ، وبينا كان جون يتلكأ فى أكسفورد بعثوا برسلهم إلى لندن ، فنالوا تأييد حكومة المدينة وحاشية الملك . وعسكرت قوات الأشراف مقابل مؤيدى الملك القلائل عند رنيميد Runnymede على نهر التامز . وهنا استسلم جون استسلامه الثانى الكبير ، ووقع (١٢١٥) العهد الأعظم أشهر وثيقة فى التاريخ الإنجليزى كله :

من چون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى . . . إلى كبار أساقفته ، وأساقفته ، ورؤساء أديرته ، وحملة ألقاب إيرل وبارون . . . وجميع رعاياه الأوفياء . تحية . اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر :

١ — أن ستكون كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شىء من حقوقها وحرياتها . . . .

٢ — أننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد . . . .

١٢ — ألا يفرض بدل خدمة أو معونة . . . إلا المجلس العام لمملكتنا .

١٤ — لكى يجتمع المجلس العام المختص بتقدير المعونات وبدل الخدمات . . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وحملة ألقاب إيرل ، وكبار البارونات فى البلاد(*) . . . وغيرهم ممن هم تحت رياستنا . . .

١٥ — لن نجيز فى المستقبل لكائن من كان أن يأخذ معونة من مستأجريه الأحرار (غير الأرقاء) ، إلا إذا كان ذلك لافتدائه ، أو تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو مرة واحدة لزواج ابنته الكبرى ؛ ولن تكون المعونة فى هذه الحالة إلا معونة معقولة . . .

(*) أصبحت هذه الطوائف الخمس المذكورة هنا مجلس اللوردات الإنجليزى فيما بعد .

١٧ - لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها فى مكان محدد ؛

٣٦ - لن يعطى أو يؤخذ بعد الآن شيء نظير أمر يطلبه شخص ببحث حاله . . . بل يجب أن يعطى هذا الأمر بغير مقابل (أى أنه يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة) .

٣٩ - لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو ينفى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء . . . إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه (أى المساوين له فى المدينة) أو بمقتضى قانون البلاد ؛

٤٠ - لن نبيع العدالة أو حقاً من الحقوق لإنسان ما ولن نحرم منها إنساناً ما .

٤١ - يتمتع جميع التجار بحق الدخول فى إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً أو بحراً سالمين مؤَمَّنين للشراء والبيع . . . دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة ؛

٦٠ - كل العادات والحريات السالفة الذكر . . . يجب أن يراعيها أهل مملكتنا كلهم ، سواء منهم رجال الدين وغير رجال الدين ، كل فيما يخصه ، نحو أتباعهم .

وقعناه بيدنا بحضور الشهود ، فى المرج المعروف باسم رينميد فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية من السنة السابعة عشرة من حكمنا[٤٢] .

والعهد الأعظم أساس الحريات التى يتمتع بها العالم الناطق باللغة الإنجليزية فى هذه الأيام ، والحق أنه خليق بهذه الشهرة . نعم إنه مقيد ببعض القيود ، فهو ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، ولم تبين فيه الوسائل الكفيلة بتنفيذ الإشارة الدالة على التقى والصلاح الواردة فى المادة رقم ٦٠ من العهد ؛ ولقد كان العهد انتصاراً للإقطاع لا للدمقراطية .

كل هذا صحيح ولكنه نص على الحقوق الأساسية وحماها ، وقرر عدم إطالة حبس إنسان بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشئ سلطة على المال اتخذتها الأمة فيما بعد سلاحا لمقاومة الاستبداد ، وبدل الملكية المطلقة ملكية دستورية مقيدة .

بيد أن چون لم يفكر قط فى أنه قد خلد اسمه بالنزول عن سلطاته ومطالبه الاستبدادية ، فقد وقع العهد وهو مرغم ، وأخذ غداة توقيعه يأتمر لإلغائه . فقد لجأ إلى البابا ، وكانت سياسة إنوسنت الثالث وقتئذ تهدف إلى استعانة إنجلترا على فرنسا ، فخف لمعونة تابعه الذليل المهان بأن أعلن أن العهد باطل لا قيمة له ، وأمر چون ألا يخضع لشروطه ، كما أمر الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمره ، أصدر قراراً بحرمانهم هم وأهل لندن والثغور الخمسة ؛ غير أن استيفن لانجتن الذى كانت له اليد الطولى فى صياغة العهد أبى أن ينشر قرار الحرمان ؛ وقرر مبعوثو البابا فى إنجلترا وقف لانجتن عن العمل ، وأذاعوا قرار البابا ، وجندوا جيشاً من المرتزقة فى فلاندرز وفرنسا ، وهاجموا النبلاء الإنجليز ، وأعملوا فيهم النار والسيف ، والسلب والقتل والفسق . ويبدو أن الأشراف لم يلقوا من الشعب معونة خليقة بأن يعتمدوا عليها ؛ ولهذا فإنهم بدل أن يقاوموا الغزاة بقواهم الإقطاعية ، دعوا لويس ابن ملك فرنسا ليغزو إنجلترا ، ويدافع عنهم ، ويستولى على عرش البلاد جزاء له على عمله ؛ ولو نجحت هذه الخطة لأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا . وحذر مبعوثو البابا لويس من عبور القناة ، فلما خالف أمرهم حرموه هو وجميع أتباعه من حظيرة الدين . ووصل لويس إلى لندن ، وتقبل ولاء البارونات وخضوعهم ، ولكن چون انتصر فى كل مكان خارج عن مدينة لندن التجارية ، وكان حين ينتصر قاسياً مجرداً من الرحمة ، ولكنه وهو فى عنفوان نشاطه ونصره أصيب بزحار البطن ، واتخذ طريقه وهو فى شدة

الألم إلى أحد الأديرة ، ومات فى نيوارك Newark فى التاسعة والأربعين من عمره .

وتوج قاصد رسولى ابنا لجون لا يتجاوز السادسة من عمره ملكا على إنجلترا باسم هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) ؛ وعين له مجلس وصاية برياسة إيرل بمبروك Pembroke . وشجع الأشراف ارتقاء واحد منهم إلى هذا المنصب ، فانحازوا إلى هنرى وأرجعوا لويس إلى فرنسا . وشب هنرى وكان ملكا فنانا ، خبيراً بالجمال ، وكان هو الموحى ببناء دير وستمنستر وواهب المال لهذا البناء . وحسب العهد قوة تعمل على التفكك وحاول إلغاءه ولكنه عجز . وفرض الضرائب على النبلاء وأرهقهم إرهاقا أوشكوا من أجله أن يثوروا عليه ، وكان كلما فرض ضريبة أقسم أنها ستكون آخر الضرائب . وكان البابوات أيضاً فى حاجة إلى المال ، وأخذوا يجبون العشور من الأبرشيات الإنجليزية برضاء الملك ليمدوا البابوية بالمال فى حربها مع فردريك الثانى . وكانت ذكرى هذا الابتزاز هى التى مهدت السبيل لثورة ويكلف Wycliffe وهنرى الثامن .

وكان إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) أقل شغفا بالعلم وأكثر عناية بشئون الملك من أبيه . كان رجلا طموحا ، قوى الإرادة ، صبوراً فى الحرب . داهية فى السياسة ، خبيراً بالفنون العسكرية وجر المغانم ، ولكنه يستطيع إذا شاء أن يكون معتدلا حذراً ، بعيد النظر فى أهدافه ؛ ولهذا كان حكمه من أكثر الأحكام نجاحا فى التاريخ الإنجليزى كله . فقد أعاد تنظيم الجيش ، ودرب قوة كبيرة من الرماة على استخدام القوس السمحة ، وأنشأ قوة من الجيش المرابط بأن أمر كل إنجليزى قادر على حمل السلاح أن يكون لديه سلاح وأن يتعلم طريقة استخدامه . ولقد وضع بهذا العمل على غير علم منه أساسا عسكريا للدمقراطية . ولما تمت له هذه القوة فتح بها بلاد ويلز ، وكسب اسكتلندة ثم فقدها ، ورفض أداء الجزية التى تعهد جون بأدائها للبابوات ، وألغى سيادة البابا على إنجلترا .

ولكن أهم ما حدث فى حكمه هو نمو البرلمان ، ولعل إدورد قد صار بغير رضاه أهم شخصية فى أعظم ما حدث فى إنجلترا من أعمال جليلة — وهو التوفيق ، فى الحكم وفى الأخلاق ، بين الحرية والقانون .

٤ — نشأة القانون

وهذه الفترة — من فتح النورمان إلى إدورد الثانى — هى التى اتخذ فيها قانون إنجلترا واتخذت فيها حكومتها الصورتين اللتين احتفظتا بهما حتى القرن التاسع عشر . فقد أصبح القانون الإنجليزى قومياً للمرة الأولى بعد أن بسط القانون الإقطاعى النورمانى سلطانه على القانون الإنجليسكسونى المحلى . فلم يعد القانون الإنجليزى بعدئذ هو قانون إسكس Essex أو مرسيا Mercia أو القانون الدنمرقى بل أصبح « قانون البلاد وعاداتها » ، وإن من العسير علينا أن ندرك الآن ما تنطوى عليه هذه العبارة السالفة الذكر حين نطق بهما رانلف ده جلانفيل Ranulf de Glanville (المتوفى عام ١١٩٠)[٤٣] . ولقد اشتهر القانون الإنجليزى والمحاكم الإنجليزية بفضل الدفعة القوية التى دفعها بها هنرى الثانى وبفضل قيادة جلانفيل كبير القضاة ، اشتهرا بالإنصاف وسرعة الفصل فى المنازعات (مع شىء من الفساد والرشوة) شهرة حملت ملوك أسبانيا المتخاصمين على أن يعرضوا منازعاتهم على محاكم إنجلترا[٤٤] . ولربما كان جلانفيل هو مؤلف « رسالة فى القانون » Tractatus de Legibus التى تعزوها إليه الرواية المأثورة ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن هذه الرسالة هى أقدم ما لدينا من الكتب فى القانون الإنجليزى . وبعد نصف قرن من ذلك الوقت (١٢٥٠ — ١٢٥٦) أخرج هنرى ده براكتن Henry de Bracton أول خلاصة منظمة للقانون الإنجليزى فى كتابه « فى قوانين إنجلترا وعاداتها » Delegibus et Consuetudinibus Anglise وهو كتاب فى خمسة مجلدات ومرجع من أهم المراجع فى القانون الإنجليزى .

وكانت حاجة الملك المتزايدة إلى المال والجند هى التى أدت إلى اتساع الوتنجموت Witengemot الإنجليسكسونى حتى أصبح هو البرلمان الإنجليزى. ذلك أن هنرى الثالث أراد أن يحصل على المال أكثر مما يرغب الأعيان فى أن يمدوه به ، وألا يصبر حتى يوافقوا على طلباته ، فاستدعى فارسين من كل مقاطعة لينضموا إلى البارونات والمطارنة فى المجلس العظيم الذى عقد فى عام ١٢٥٤ . ولما تزعم سيمون ده منت فورت Simon de Montfort ، وهو ابن محارب صليبى من الأسرة الألبجنسية ، ثورة قام بها النبلاء على هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ، أراد أن يضم الطبقات الوسطى إلى قضيته ، فلم يكتف بدعوة فارسين من كل مقاطعة بل دعا أيضاً اثنين من المواطنين البارزين من كل قصبة مقاطعة أو كل بلدة لينضموا إلى البارونات فى جمعية وطنية . وكان خليقاً بهؤلاء الرجال أن يستشاروا هل يؤدون المال أو يكتفون بالكلام ، وذلك لأن البلدان كانت آخذة فى النماء ، وكان التجار ذوى مال . وأفاد إدورد الأول من المثل الذى ضربه له سيمون ، فلما أن تورط فى الحرب مع اسكتلندة ، وويلز ، وفرنسا فى وقت واحد ، اضطر أن يطلب المال من جميع طبقات الأمة ، فدعا لهذا الغرض « البرلمان النموذجى » فى عام ١٢٩٥ وهو أول برلمان كامل فى تاريخ إنجلترا . وقال فى مرسوم الدعوة إن « ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا جميعاً عليه ، وإن الأخطار العامة يجب أن تقابل بوسائل يتفقون عليها جميعاً »[٤٥] . ولهذا دعا إدورد اثنين من أهل « كل مدينة ، وقصبة مقاطعة ، وبلدة كبيرة » للحضور فى المجلس الأكبر الذى سيعقد فى وستمنستر ، ونص على أن يختار أولئك الرجال ذوو المكانة من المواطنين فى كل منطقة ، ذلك أنه لم يكن أحد يحلم وقتئذ بحق الانتخاب العام فى مجتمع لا تعرف القراءة فيه إلا أقلية صغيرة ، بل إن « العامة » فى « البرلمان النموذجى » نفسه لم يكن لهم من السلطان ما للأشراف . ولم يكن قد وجد بعد برلمان سنوى يجتمع بمحض

إرادته ويكون هو المصدر الوحيد للتشريع . ولكن اتفق فى عام ١١٩٥ على المبدإ القائل بأن القانون الذى يقره البرلمان لا يمكن أن يلغيه إلا البرلمان ، ثم اتفق فى عام ١٢٩٧ على ألا تجبى الضرائب إلا بعد موافقة البرلمان ؛ هذه هى المبادئ البسيطة التى قامت عليها أكثر الحكومات دمقراطية فى تاريخ العالم .

ولم يحضر رجال هذا البرلمان الواسع إلا وهم كارهون . وكانوا يجلسون فيه منفصلين عن سائر الطبقات ، ويأبون أن يقترعوا على الأموال المطلوبة إلا فى جمعياتهم الإقليمية ، وظلت المحاكم الكنسية تنظر فى جميع القضايا التى للقانون الكنسى شأن فيها ، وفى معظم القضايا التى يكون أحد رجال الدين طرفاً فيها . وكان فى الاستطاعة محاكمة رجال الدين إذا ارتكبوا جناية كبرى أمام السلطات الزمنية ؛ أما من يحكم عليهم فى جرائم أقل من جريمة الخيانة العظمى فكانوا حسب « ميزات رجال الدين » يسلمون إلى محكمة كنسية من حقها وحدها أن تعاقبهم على جرائمهم . يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من القضاة كانت من رجال الكنيسة ، لأن دراسة القانون كانت مقصورة فى الغالب على رجال الدين . ثم أصبحت المحاكم المدنية فى عهد إدورد الأول أكثر مدنية مما كانت قبله ، ولما امتنع رجال الدين عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات فى الاقتراع على الأموال المطلوبة ، قال إدورد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها ، ثم أمر محاكمه ألا تنظر فى القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى كل قضية يكون أحد رجال الكنيسة هو المدعى عليه فيها[٤٦] . وزاد مجلس إدورد المنعقد فى سنة ١٢٧٩ على هذا بأن حرم بمقتضى قانون مورتمين Mortmain أن تمنح الهيئات الكنيسية أرضاً بغير موافقة الملك .

ونما القانون الإنجليزى نمواً سريعاً فى أيام وليم الأول ، وهنرى الثانى ، وچون ، وإدورد الأول على الرغم من تعدد جهات الاختصاص على النحو

السالف الذكر . وكان هذا القانون إقطاعياً محضاً شديد الوطأة على رقيق الأرض ، فقد كانت الجرائم التي يرتكبها الأحرار على أرقاء الأرض يعاقب عليها بالغرامة ؛ وكان القانون يجيز للنساء أن يمتلكن المال ويورثنه ويتصرفن فيه بالوصية ، كما أجاز لهن أن يتعاقدن ، ويقاضين غيرهن ويُقَاضين ، وجعل من حق المرأة أن ترث ثلث أملاك زوجها العقارية بعد وفاته ، ولكن جميع المنقولات التي جاءت بها إلى البيت وقت زواجها ، أو حصلت عليها في أثناء الزواج ، تصبح ملكا للزوج[٤٧] . وكانت الأرض كلها من الناحية القانونية ملكا للملك ينالها أصحابها منه إقطاعاً . وكانت ضيعة السيد الإقطاعي كلها في العادة يوصي بها لابنه الأكبر ، ولم يكن يقصد بهذا أن تبقى الأملاك غير مجزأة ، بل كان يقصد به فوق ذلك حماية السيد الإقطاعي الأعلى من تجزئة التبعة الإقطاعية في جباية المكوس وأداء التزامات الحرب . أما الفلاحون الأحرار فلم يكن ثمة قانون يلزمهم بأن يورثوا أملاكهم أكبر أبنائهم .

وظل قانون التعاقد غير ناضج في هذا التشريع الإقطاعي . وكانت محكمة للمقاييس والموازين تحدد مستوى الموازين ، والمقاييس ، والنقود ؛ وتفرض رقابة الدولة على استعمالها . وبدأ التشريع التجاري المستنير في إنجلترا « بقانون التجار » (١٢٨٣) و « عهد التجار » Carta Mercatoria (١٣٠٣) - وهما عملان جليلان آخران من الأعمال التي تمت في عهد إدورد الأول .

وتحسنت طرق الإجراءات القانونية تحسناً بطيئاً ، واتبعت لتنفيذ القوانين عدة وسائل ، فجعل لكل حي « رقيب » ولكل حاضرة إقليم شرطي (كنستبل Constable) ولكل إقليم حاكم . وكان القانون يفرض على جميع الرجال أن يرفعوا عقيرتهم «بصرخة وزعقة» إذا شهدوا اعتداء على القانون، وأن يشتركوا في مطاردة المعتدي ، وأجيزت الكفالة . ومن فضائل القانون الإنجليزي أن التعذيب لم يكن يلجأ إليه في مناقشة المتهمين أو الشهود . من ذلك أنه لما أغرى

فليب الرابع ملك فرنسا إدورد الثانى بأن يقبض على فرسان المعبد الإنجليز ، ولم يجد هذا الملك دليلا يأخذهم به ، كتب البابا كلمنت الخامس ، بتحريض فليب بلا ريب ، إلى إدورد يقول : « ترامى إلينا أنك تحرم التعذيب لأنه مخالف لقانون بلدك ، ولكن ما من قانون للدولة يمكن أن يسمو على القانون الكنسى ، قانوننا . ولهذا آمرك أن تعذب هؤلاء الرجال »[٤٨] . وخضع إدورد لأمر البابا ، ولكن التعذيب لم يلجأ إليه مرة أخرى فى الإجراءات القانونية الإنجليزية إلا فى عهد ميرى « اللعينة » (١٥٥٣—١٥٥٨) .

وأدخل النورمان إلى إنجلترا نظام الفرنجة القديم ، نظام التحقيق القضائى أمام المحلفين ، وهم طائفة من المواطنين المحليين ، وذلك فى شئون الأقاليم المالية والقانونية . وارتقت محكمة كلارندن (حوالى عام ١١٦٦) بنظام « المحلفين » بأن أجازت للمتقاضين ألا يقرروا صدقهم أو كذبهم عن طريق القتال ، بل أمام لجنة محكمين أى محلفين مؤلفة من اثنى عشر فارساً يختارهم من بين المواطنين فى الإقليم أمام المحكمة نفسها أربعة من الفرسان يعينهم حاكم الإقليم . وكانت هذه هى الدورة القضائية الكبرى ، أما فى الدورة الصغرى التى كانت تعقد للنظر فى القضايا العادية فكان حاكم الإقليم نفسه يختار اثنى عشر من أحرار الإقليم المجاور للمحكمة . وكان الناس وقتئذ يعارضون فى نظام المحلفين كما يعارضونه الآن ، ولم يكن يدور بخلدهم قط أن هذا النظام سيصبح أساساً من أسس الدمقراطية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان حكم المحلفين قد حل فى إنجلترا كلها تقريباً محل أنظمة التحقيق القديمة التى كانت تجرى حسب الشريعة الهمجية .

٥ — البلاد الإنجليزية

كانت تسعة أعشار إنجلترا فى عام ١٣٠٠ ريفا ، وكان بها مائة بلدة تعد فى نظر المدائن التى خلفتها فى هذه الأيام قرى صغيرة ، وكان بها مدينة واحدة هى لندن

تزهو على غيرها بسكانها البالغين أربعين ألفاً[٤٩] - أى أربعة أضعاف أية مدينة أخرى فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت أقل كثيراً فى ثروتها وجمالها من باريس ، أو بروج ، أو البندقية ، أو ميلان ، دع عنك القسطنطينية أو بالرم ، أو رومة . وكانت بيوتها من الخشب ، تعلو طبقتين أو ثلاث طبقات ، ذات سقف هرمية ، وكثيراً ما كانت الطبقات العليا تبرز عن الطبقات التى تحتها . وكانت قوانين المدن تحرم إلقاء فضلات المطابخ ، أو حجر النوم ، أو الحمامات من النوافذ ، ولكن سكان الطبقات العليا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى هذه الوسيلة الهينة للتخلص من فضلاتهم . وكانت مياه المنازل القذرة تتخذ طريقها إلى مياه المطر التى تجرى عند حافة الإفريز ، وكان إلقاء البراز فى هذه المياه الجارية محرماً أما البول فكان إلقاؤه فيه مسموحا به[٥٠] . وكانت المجالس البلدية تبذل جهدها لتحسين وسائل الصحة العامة - فكانت تأمر أهل المدن بتنظيف الشوارع أمام بيوتهم ، وتفرض الغرامات على من يهملون منهم أمرها هذا ، وتستأجر عمالا يجمعون الفضلات والأقذار ويحملونها فى عربات إلى قوارب الفضلات فى نهر التاميز : وكان كثيرون من السكان يربون الخيل ، والماشية ، والخنازير ، والدجاج ، ولكن هذا العمل لم يكن كثير الضرر ، لأن الأماكن الخالية كانت كثيرة ، ولأن كل بيت تقريباً كانت له حديقة . وكانت تقوم فى أماكن متفرقة أبنية من الحجارة ، مثل كنيسة المعبد Temple Church ، ودير وستمنستر ، وبرج لندن الذى بناه وليم الفاتح ليحمى عاصمته ويضع فيه المسجونين الممتازين . وكان أهل لندن من ذلك الوقت البعيد يفخرون بمدينتهم ، وسرعان ما قال عنهم فرواسار Froissart « إنهم أعظم خطراً من جميع سكان بقية إنجلترا ، لأنهم أقوى أهل البلاد مالا ورجالا » ، ووصفهم الراهب تومس الولسنجهامى Thomas of Walsingham بأنهم « يكادون يكونون أكثر الناس كبرياء ، وغطرسة ، وشرها ، وأقلهم استمساكاً بالعادات القديمة وإيماناً بالله »[٥١] .

وأنتج امتزاج سلالات النورمان ، والأنجليسكسون ، والدنمرقيين ، والكلت ، ولغاتهم ، وأساليبهم فى الحياة ، أنتج هذا الامتزاج الأمة الإنجليزية ، واللغة الإنجليزية ، والأخلاق الإنجليزية . ولما انفصلت نورمندية عن إنجلترا ، نسيت أسر النورمان المقيمة فى إنجلترا بلاد نورمندية ، وتعلمت حب بلادها الجديدة . وظلت صفات الكلت الصوفية الشعرية باقية ، وبخاصة عند الطبقات الوسطى ، ولكنها قد خفف منها بأس النورمان ودنيويتهم ، وظل فى مقدور البريطانى الناشئ من هذا المزيج ، وسط نزاع الأمم ، والطبقات ، وكوارث القحط والوباء ، ظل فى مقدور البريطانى أن يجعل من « إنجلترا المرحة » ، كما يسميها هنرى الهنتنجدونى Henry of Huntingdon (١٠٨٤ — ١١٥٥) أمة جمة النشاط ، والفكاهة النابية ، والألعاب الصاخبة ، والرفقة الطيبة ، والمحبة للرقص والأغانى الشعرية ، والجعة . ومن هذه الأصلاب والأجيال القوية نشأت شهوانية حجاج تشوسر Chaucer العارمة ، والعبارات الطنانة المزوّقة التى كان ينطق بها رجال العصر الإلزبيثى المتفاخرون .

الفصل التاسع

إنجلترا - اسكتلندة - ويلز

(١٠٦٦ - ١٣١٨)

جلس هنرى الثانى على عرش إنجلترا فى عام ١١٥٤ وتولى البابوية فى العام نفسه إنجليزى يدعى نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear وسمى باسم هدريان الرابع ؛ وبعد عام من ذلك الوقت بعث هنرى جون السلزبرى إلى رومة برسالة تنم عن كثير من الدهاء قال فيها إن أيرلندة فى حال يرثى لها من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدبى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى والانحلال ؛ وسأل البابا هل يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ؟ وأجاب البابا هنرى إلى طلبه ، إذا جاز لنا أن نصدق جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis وأصدر مرسوماً بابويا منح فيه هنرى أيرلندة ، مشترطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع رومة ، وأن يُفرض بنس واحد ، أى ما يعادل الآن ($\frac{83}{100}$ من الدولار الأمريكى) فى كل عام على كل بيت فى أيرلندة يؤدى إلى كرسى القديس بطرس[٥٢] . ولم تكن مشاغل هنرى وقتئذ تمكنه من أن يفيد من حالة الفوضى السائدة فى أيرلندة ، ولكنه ظل متحفزاً للإفادة منها .

وحدث فى عام ١١٦٦ أن هزم تيرنان أورورك Tiernan O'Rourke ، ملك بوفنى Bnefni درموت ماك مرو Dermot Mac Murrough ملك لينستر فى حرب قامت بين الملكين لأن ثانيهما أغوى زوجة الأول . ولما طرد رعايا درموت مليكهم من البلاد فرّ هو وابنته الحسناء إيفا Eva إلى إنجلترا وفرنسا ، وحصل على خطاب من هنرى الثانى يؤكد فيه عطفه على فرد من رعاياه

يساعد درموت على استرداد عرش لينستر . وكانت نتيجة هذا التأكيد أن تلقى درموت من رتشرد فتز جلبرت Richdrd Fitz Gilbert إيرل بمبروك پويلز الملقب « بالقوس السمحة » وعداً بالمساعدة العسكرية إذا تعهد له بأن يزوجه بإيفا وأن يخلفه على عرش مملكة درموت . وزحف رتشرد فى عام ١١٦٩ على رأس قوة صغيرة من أهل ويلز إلى أيرلندة ، وأعاد درموت إلى عرشه بمساعدة قساوسة لينستر ، ولما توفى درموت (١١٧١) ورث مملكته . فما كان من رورى أوكنور Rory O,Connor ملك أيرلندة الأعلى وقتئذ إلا أن سار على رأس جيش لقتال الغزاة من أهل ويلز ، وحاصرهم فى دبلن وسد عليهم جميع المسالك . وهجم المحاصَرون هجمة صادقة على الأيرلنديين وفكوا الحصار ، وفرّ الإيرلنديون السيئو التدريب الناقصو العتاد . واستدعى هنرى الثانى رتشرد فعبر البحر إلى ويلز ، وقابل الملك ، ووافق على أن يسلمه دبلن وغيرها من الثغور الأيرلندية ، وأن يتولى ما بقى من لينستر إقطاعية من التاج البريطانى . ونزل هنرى إلى البر قرب ووترفورد Waterford (١١٧١) على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف رجل ، وتلقى معونة رجال الدين الأيرلنديين ، وقدمت له أيرلندة كلها عدا كونوت Connought والسستر Ulster فروض الولاء ، وتبدل فتح ويلز لأيرلندة فتحاً نورمانيا ــ إنجلزيا دون إراقة دماء . وعقد المطارنة الأيرلنديون مجلسا دينيا أعلنوا فيه خضوعهم للبابا خضوعاً تاماً ، وقرروا أن تكون شعائر الكنيسة الأيرلندية من ذلك الحين متفقة مع شعائر كنيستى إنجلترا ورومة . وسمح للكثرة الغالبة من ملوك أيرلندة أن يحتفظوا بعروشهم ، على شريطة أن يعلنوا ولاءهم الإقطاعى لملك إنجلترا ، وأن يؤدوا إليه جزية سنوية .

ونال هنرى بغيته بمهارة فائقة واقتصاد فى المال والأرواح ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن القوة التى تركها وراءه تستطيع المحافظة على السلم والنظام . يضاف إلى هذا أن عماله أخذوا يقتتلون لاقتسام الغنائم ، كما شرع أعوانهم وجنودهم ينهبون

البلاد دون أن تفرض عليهم إلا أقل رقابة ، وسخر الفاتحون جهودهم لتحويل أهل أيرلنده إلى أرقاء أرض . وعمد الأيرلنديون إلى حروب العصابات يقاومون بها الفاتحين ، وكانت نتيجة هذا أن هوت البلاد فى وهدة الفوضى والدمار ، وظلت كذلك قرناً من الزمان ، حتى عرض بعض الزعماء الأيرلنديين بلادهم على اسكتلندة فى عام ١٣١٥ . وكان ربرت بروس Robert Bruce الاسكتلندى قد هزم الإنجليز توا عند بنكبرن Bannockbnrn قبل ذلك . ونزل إدورد أخو ربرت فى أيرلندة ومعه ستة آلاف رجل ؛ وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قراراً بحرمان كل من يساعد الأسكتلنديين ، ولكن لأيرلنديين جميعهم تقريباً ثاروا إجابة لنداء إدورد ، وتوجوه ملكاً على البلاد فى عام ١٣١٦ . ولكنه هزم وقتل بعد عامين من ذلك الوقت ، وأخفقت الثورة وسط مظاهر الفقر واليأس .

ويقول رانلف هجدن Ranulf Higden ، وهو رجل بريطانى عاش فى القرن الرابع عشر ، إن الاسكتلنديين شعب « مرح » ، رجاله أقوياء ، غلاظ إلى حد كبير ، ولكنهم إذا امتزجوا بالإنجليز صلحت حالهم كثيراً . وهم قساة على أعدائهم ، يكرهون القيود أكثر من كراهيتهم كل شىء آخر ، ويرون أن العار كل العار أن يموت منهم رجل فى فراشه ، والفخر كل الفخر أن يموت فى ميدان القتال[٥٣] .

وبقيت أيرلندة أيرلندية ولكنها فقدت حريتها ، وأصبحت اسكتلندة بريطانية ولكنها بقيت حرة ؛ وتضاعف عدد الإنجليز ، والسكسون ، والنورمان فى الأراضى المنخفضة ، وأعادوا تنظيم الحياة الزراعية حسب الأساليب الإقطاعية . وكان ملكولم الثالث Malcolm III (١٠٥٨ - ١٠٩٣) رجلا محارباً غزا إنجلترا عدة مرات ، ولكن زوجته الملكة مرجريت كانت أميرة أنجليسكسونية نشرت اللغة الإنجليزية فى البلاط الاسكتلندى ، وجاءت إلى البلاد برجال الدين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ، وربت أبناءها على أسس التربية الإنجليزية واتخذ داڤد الأول David I ، (١١٢٦ - ١١٥٣) آخر هؤلاء الأبناء وأقواهم

الكنيسة أداته المختارة لحكم البلاد ، وأنشأ فى كلسو Kelso ، ودراى برج Dryburgh ، وملروز Melrose ، وهولى رود Holyrood أديرة يتكلم رهبانها اللغة الإنجليزية ، وجبى العشور (للمرة الأولى فى اسكتلندة) لمعونة الكنيسة ، وأغدق المال على الأساقفة ورؤساء الأديرة إغداقا جعل الناس يحسبونه من القديسين وإن لم يكن منهم ؛ وأضحت اسكتلندة فى عهد داقد الأول كلها عدا مرتفعاتها ولاية إنجليزية[٥٤] .

لكنها لم تكن أقل استقلالا مما كانت قبل ، فقد استحال المهاجرون الإنجليز اسكتلنديين محبين لوطنهم الجديد ، وخرج من بينهم آل استيورت Stuart وآل بروس Bruce . وغزا داڤد الأول نورثمبرلند وافتتحها ، ثم فقدها ملكولم الرابع (١١٥٣ – ١١٦٥) ؛ وحاول وليم الأسد William the Lion (١١٦٥ – ١٢١٤) أن يستردها ، فأسره هنرى الثانى ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بإخضاع التاج الاسكتلندى لملك إنجلترا (١١٧٤) . وبعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت استطاع أن يتحلل من هذا العهد بأن ساعد رتشرد الأول بالمال فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكن الملوك الإنجليز ظلوا يطالبون بسيادتهم الإقطاعية على اسكتلندة . واسترد اسكندر الثالث (١٢٤٩ – ١٢٨٦) جزائر هبريدة Hebrides من النرويج ، واحتفظ بصلات الود والصداقة مع إنجلترا ، ووهب اسكتلندة عصراً ذهبيا يسوده السلم والرخاء .

وتنازع ربرت بروس ، وجون بليول John Balliol ولدا داڤد الأول على العرش بعد وفاة اسكندر . وانتهز إدورد الأول ملك إنجلترا هذه الفرصة وتدخل فى النزاع وأصبح بليول ملكا على اسكتلندة بفضل تأييده له ، واعترف بليول بسيادة إنجلترا العليا على بلاده (١٢٩٢) . فلما أمر إدورد بليول أن يجهز جيشاً ليقاتل مع إنجلترا فى فرنسا ، تمرد النبلاء والأساقفة الاسكتلنديون ، وأمروا بليول أن يعقد حلفاً مع فرنسا على إنجلترا (١٢٩٥) ، وهزم إدورد الاسكتلنديين عند

ودنبار (١٢٩٦) ، وتقبل خضوع أشراف البلاد ، وخلع بليول عن العرش ، وعين ثلاثة من الإنجليز ليحكموا اسكتلندة بالنيابة عنه ، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وكان كثيرون من النبلاء الاسكتلنديين يملكون أرضاً فى إنجلترا ، فكان عليهم لهذا السبب واجب الطاعة لمليكها . ولكن قدماء الغاليين الاسكتلنديين ساءهم هذا الاستسلام أشد الاستياء ، فأعدّ واحد منهم يدعى وليم ولاس William Wallace جيشاً من عامة الاسكتلنديين ، وبدد شمل الحامية الإنجليزية ، وظل عاما كاملا يحكم إنجلترا نائبا عن بليول . ثم عاد إدورد وهزم ولاس فى فولكبرك Falkirk (١٢٩٨) ، وقبض عليه فى ١٣٠٥ ، وأمر به فبقرت بطنه وقطعت أطرافه عملا بقانون الخيانة الإنجليزى .

وأرغم مدافع آخر عن استقلال أيرلندة على الخروج إلى الميدان بعد عام من ذلك الوقت . ذلك أن ربرت بروس حفيد بروس الذى كان يطالب بالعرش فى عام ١٢٨٦ تنازع مع چون كومين John Comn ، من كبار ممثلى إدورد الأول فى اسكتلندة ، وقتله . ولم يكن أمام بروس بعد هذا العمل إلا العصيان ، فتوّج نفسه ملكا على اسكتلندة ، وإن لم يؤيده إلا نفر قليل من أعيان البلاد ، وإن كان البابا قد حرمه جزاء له على جريمته . وزحف إدورد مرة أخرى صوب الشمال ولكنه مات فى الطريق (١٣٠٧) . وكان عجز إدورد الثانى نعمة على بروس وبركة ، فقد انضوى رجال اسكتلندة ورجال الدين فيها تحت لواء طريد القانون ، واستولت جيوشه يقودها أخوه إدورد وسير جيمس دجلاس Sri James Douglas ببسالة عظيمة على إدنبرة ، وغزت نورثمبرلند ، وانتزعت درهام من الاسكتلنديين . وزحف إدورد الثانى فى عام ١٣٠٤ على اسكتلندة بأكبر جيش شهدته البلاد فى تاريخها الماضى كله ، والتقى بالاسكتلنديين عند بنكبيرن Bannockburn . وكان بروس قد أمر رجاله بأن يحفروا أمام موقعه

حفراً يخفونها عن الأعين ، فلما هجم عليه الإنجليز سقط الكثيرون منهم فى هذه الحفر ، وهلك الجيش الإنجليزى حتى لم يكد يبقى منه أحد . واشتبك الأوصياء على إدورد الثالث فى حرب مع فرنسا فى عام ١٣٢٨ ، ووقعوا معاهدة نورثمبتون Northampton ، وتحررت اسكتلندة مرة أخرى .

وقام فى هذه الأثناء نزاع آخر فى ويلز أسفر عن نتيجة تختلف عن النتيجة السابقة . ذلك أن وليم الأول طالب بالسيادة عليها بوصف كونها جزءاً من مملكة هرولد Harold المنهزم . ولم يتسع له الوقت لضمها إلى فتوحه ، ولكنه أقام على حدودها الشرقية ثلاث مقاطعات على رأس كل منها إيرل Earl ، وشجع رؤساء هذه المقاطعات على أن يوسعوا حدودها فى ويلز . وكان القراصنة النورمان يجتاحون وقتئذ ويلز الجنوبية ، وهم الذين تركوا فتز Fitz (أى ابن) فى بعض أسماء أهل تلك البلاد . ثم أخضع كدرجان آب بلدين Cadwgan ap Blepyn أولئك النورمان فى عام ١٠٩٤ ؛ وهزم أهل ويلز الإنجليز عند كروين Corwen فى عام ١١٦٥ ؛ وشغل هنرى الثانى بالنزاع مع بكت ، فاعترف باستقلال ويلز الجنوبية تحت حكم مليكها المستنير رايس آب جرفيد Rhys ap Graffyd (١١٧١) ، وبسط لويلين الأكبر Llywelyn the Great حكمه على جميع البلاد بفضل مقدرته العظيمة فى الحرب والسياسة ؛ ثم تنازع أبناؤه فيما بينهم وأشاعوا الاضطراب فى أنحاء البلاد ، ولكن حفيده لويلين آب جرفيد (المتوفى عام ١٢٨٢) رد إلى البلاد وحدتها ، وعقد الصلح مع هنرى الثالث ، وأنشأ لنفسه لقب أمير ويلز . وعقد إدورد الأول عزمه على أن يضم ويلز واسكتلندة إلى إنجلترا ، فغزا ويلز بجيش ضخم وعمارة بحرية قوية (١٢٨٢) ؛ وقُتل لويلين حين التقى مصادفة بقوة صغيرة على الحدود ، وقبض إدورد على أخيه دافد ، وعلق رأسه بعد أن فصل عن جسمه هو ورأس لويلين من برج لندن ، وتركهما حتى نحلت شعرهما الشمس والرياح والأمطار . وأضحت ويلز جزءاً من إنجلترا (١٢٨٤)،

وخلع إدورد فى عام ١٣٠١ لقب أمير ويلز على ولى عهد إنجلترا :

واحتفظ أهل ويلز فى أثناء هذا الارتفاع والهبوط بلغتهم وعاداتهم ، وظلوا يفلحون أرضهم الصلبة بشجاعة وجلد ، ويسلون أنفسهم فى الليل والنهار بالأقاصيص ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وصاغ شعراؤهم فى ذلك الوقت قصص مابينوجيون Mabinogion ، ومزجوا الأدب مزجاً فذاً مقطوع النظير بالحنان الصوفى ذى النغم الجميل . وكان الشعراء والمغنون الجائلون يجتمعون فى كل عام فى مجلس وطنى نستطيع أن نرجع بتاريخه إلى عام ١١٧٦ ، تعقد فيه المباريات فى الخطابة ، والشعر ، والغناء ، والعزف على الآلات الموسيقية ؛ وكان أهل ويلز مقاتلين بواسل ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون على الحرب الطويلة الأمد ، وكانوا يتوقون إلى العودة إلى أوطانهم يحمون بأنفسهم نساءهم وأطفالهم وبيوتهم ، وكان من أمثالهم مثل يتمنون فيه أن يكون « كل شعاع من أشعة الشمس خنجراً يطعن صدور المحبين للحرب »[٥٥].

الفصل العاشر

بلاد نهر الرين (١٠٦٦ - ١٣١٥)

كانت الأقاليم المحتشدة حول حوض الرين الأدنى ومصابه الكثيرة من أغنى أقاليم العالم فى العصور الوسطى . فقد كان فى جنوب الرين إقليم فلاندرز الممتد من كاليه Calais مخترقاً بلجيكا الحالية إلى نهر الشلد Sheldt . وكان هذا الإقليم من الوجهة الرسمية إقطاعية من ملك فرنسا ، ولكنه كان من الوجهة الفعلية تحت حكم أسرة مالكة من النبلاء المستنيرين لا يحد من سلطتهم إلا ما كان للمدن من استقلال ذاتى تفخر به . وكان الأهلون القريبون من الرين ينتمون إلى العنصر الفلمنكى ، وأصلهم من عنصر ألمانى يسكن البلاد المنخفضة ويتكلمون لهجة ألمانية ؛ أما من كانوا يقطنون فى غرب نهر ليس Lys فكانوا من الولون Walloons - وهم خليط من الألمان والفرنسيين امتزجوا بأصل كلتى - ويتكلمون لهجة فرنسية . وأثرت غنث وأودنارد Audenaarde ، وكورتريه ، وإيبرس ، وكاسل Kassel فى الإقليم الشمالى الشرقى الفلمنكى ؛ وبروج ، وليل ، ودويه فى الإقليم الجنوبى الغربى الولونى ، أثرت هذه البلدان من تجارتها وصناعتها وإن كانتا قد سببتا لها الاضطراب . وكانت كثافة السكان فى هذه المدن أكثر منها فى سائر المدن الأوربية القائمة فى شمال جبال الألب ، وكانت هذه المدن تسيطر على حكامها الأشراف فى عام ١٣٠٠ ؛ فقد كان قضاة المقاطعات الكبرى يؤلفون من بينهم محكمة عليا للبلاد ويتفاوضون مستقلين مع المدن والحكومات الأجنبية[٥٦] . وكان أولئك الحكام الأشراف فى العادة يتعاونون مع المدن ، ويشجعون التجارة والصناعة ، وكانت لهم عملة مستقرة ،

ووضعوا منذ عام ١١٠٠ - أى قبل إنجلترا بمائتى عام - نظاماً عاماً للمقاييس والموازين يعمل به فى جميع المدن .

لكن حرب الطبقات قضت فى آخر الأمر على حرية المدن وحرية حكامها الأشراف . والسبب فى ذلك أن صعاليك المدن زاد عديدهم ، واشتد غضبهم وسلطانهم ، وأن الحكام الأشراف انضموا إليهم ليناهضوا بهم الطبقة الوسطى الغنية المغترة بنفسها ؛ فلجأ التجار إلى فليب أغسطس يطلبون إليه المعونة ، فوعدهم بها يرجو بذلك أن يخضع فلاندرز إلى التاج الفرنسي خضوعاً أتم من ذى قبل . وكانت إنجلترا تحرص على أن تبقى أهم سوق تصرف فيها صوفها بعيدة عن سيطرة ملك فرنسا ، فعقدت حلفاً مع حكام فلاندرز ، مع هينولت Hainault دوق برابانت Brabant وأتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا . وهزم فليب جيوش هذا الحلف عند بوفين (١٢١٤) ، وأخضع حكام فلاندرز ، وحمى النظام الأبلركى للتجار . ولم ينقطع نزاع السلطات والطبقات بعد هذه الهزيمة ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٧ تحالف الكونت جى ده دمبير Guy de Dampierre مرة أخرى مع فلاندرز وإنجلترا ؛ فما كان من فليب الجميل إلا أن غزا فلاندرز ، وزج جى فى السجن ، وأرغمه على تسليم البلاد إلى فرنسا . فلما أن زحف الجيش الفرنسي لاحتلال بروج ، ثار العامة عليه ، وهزموا الجنود ، وذبحوا أغنياء التجار ، واستولوا على المدينة . وبعث فليب بجيش قوى ليغسل هذه الإهانة التى لحقته ؛ وألف عمال المدن من أنفسهم جيشاً مرتجلا عاجلا هزموا به الفرسان والجنود المرتزقة التى بعثت بها فرنسا فى معركة كورتريه (١٣٠٢) ؛ وأخرج جى ده دمبير الشيخ من سجنه وأعيد إلى منصبه ، واستمتع الحلف العجيب بين الحكام الأشراف والصعاليك الثوار بالنصر عشر سنين .

وظلت البلاد المعروفة لنا الآن باسم هولندة جزءاً من مملكة الفرنجة من القرن الثالث حتى القرن التاسع ؛ ثم أصبحت فى عام ٨٤٣ هى الطرف الشمالى

لدولة لورين الحاجزة(*) التى أنشأتها معاهدة فردون Verdun . وقسمت تلك البلاد فى القرنين التاسع والعاشر إقطاعيات كى تستطيع صد غارات الشماليين. وقطع الألمان الأشجار من الإقليم الكثيف الغابات الواقع فى شمال نهر الرين ، واستقروا فيه ، وأطلقوا عليه اسم هولندة ، أى أرض الغابات . وكان معظم أهله أرقاء أرض ، منهمكين فى كدحهم لانتزاع القوت من أرضين لابد لهم أن يقيموا الحواجز حولها لوقايتها من ماء البحر أو لتجفيفها بعد أن تطغى المياه عليها . غير أنها كانت تضم أيضاً مدناً ليست كالمدن الفلمنكية ثروة أو اضطراباً ، بل تعتمد اعتماداً سليما على الصناعة المستقرة والتجارة المنتظمة . وكانت دوردرخت Dordrecht أكثر هذه المدن رخاء ، كما كانت أوترخت Utrecht مركزاً للعلوم ، وهارلم مقر كونت هولندة ، وأضحت دلفت Delft عاصمة البلاد إلى حين ، ثم انتقلت العاصمة حوالى عام ١٢٥٠ إلى لاهاى The Hague(**) . وكان أول ظهور أمستردام فى عام ١٢٠٤ حين شاد أحد الأعيان الإقطاعيين قصراً حصينا عند مصب نهر أمستل Amstel ، واجتذب هذا الموقع الأمين على الزيدرزى Zuider Zee والقنوات الكثيرة التى تخترقه فى كل مكان — اجتذب هذا الموقع التجارة ، ثم جعلت المدينة فى عام ١٢٩٧ ثغراً حراً تفرغ فيه المتاجر ويعاد شحنها دون أن تؤدى ضرائب جمركية ؛ وأضحى لهولندة الصغيرة من ذلك الحين شأن عظيم فى شئون العالم الاقتصادية ، وفيها غذت التجارة الثقافة كما يحدث فى غيرها من البلدان ، فنحن نسمع فى القرن الثالث عشر عن شاعر هولنــدى يدعى مارلانت Maerlant ، يهجو حياة رجال الدين المترفين هجاء لاذعاً . وبدأ الفن

(*) الدولة الحاجزة هى الدولة المحايدة القائمة بين دولتين ليست علاقتهما فى العادة ودية أو قد تصير غير ودية buffer state لمنع الصدام بينهما . (المترجم)

(**) وكان الكونت قد اتخذ هذا المكان ليلتقى فيه برفاق الصيد ، وسميت لذلك جرافن هاج s'Graven Haag أى مأوى الكونت وتسمى الآن دن هاج den Haag

الهولندى حياته الفذة العجيبة فى الأديرة ، وكان يشمل النحت ، وصناعة الخزف ، والتصوير ، وتزيين الكتب .

وكانت دوقية برابانت تقوم إلى جنوب هولندة ، وكانت تشمل وقتئذ مدائن أنفرس Antwerp ، وبركسل ولوفن Louvain . أما لييج فكان يحكمها أساقفتها حكماً مستقلا ، وكانوا يتركون لها قسطا كبيراً من الحكم الذاتى ؛ وكان إلى جنوب برابانت مقاطعات هينولت ، ونامور Namur ، ولمبرج Limburg ، ولكسمبرج ؛ ثم دوقية لورين ومدائنها تريير Trier ، ونانسى Nancy ، ومتز ؛ ثم عدة إمارات أخرى خاضعة خضوعاً اسميا لإمبراطور ألمانيا ، ولكنها كانت متروكة فى الأغلب الأعم لأشرافها الحكام . وكان لكل من هذه الأقاليم تاريخه الحافل بأحداث السياسة ، والحب ، والحرب ؛ فلنودعها ولننتقل إلى غيرها . وكان فى جنوبها وغربها إقليم برغندية التى تكون الآن الجزء الشرقى من وسط فرنسا ؛ وكانت حدودها تتبدل على الدوام تبدلا لا يشجعنا على تعيينها ، أما أحداثها السياسية فإنها كفيلة بأن تملأ مجلدات ضخمة عديمة الفائدة . وحسبنا أن نقول عنها إن رودلف الأول جعلها مملكة مستقلة فى عام ٨٨٨ ؛ وإن رودلف الثالث أوصى فى عام ١٠٣٢ بضمها إلى ألمانيا . ولكن جزءاً منها ضم إلى فرنسا فى هذا العام نفسه وأصبح دوقية تابعة لها . وكان أدواق برغندية ، كما كان ملوكها السابقون يحكمونها ، حكما يدل على الحكمة والذكاء ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تحرص على السلم . ويقع أزهى عصورهم فى القرن الخامس عشر .

وكانت سويسرا فى العصور القديمة موطن عدد من القبائل المختلفة — الهلفيتى Helvetii ، والرئيتى Raeti ، والليبنتى Lepouti — وهم خليط من الأصول الكلتية ، والتيوتونية ، والإيطالية . واحتلت قبائل الألمانى Alemani الهضبة الشمالية وصبغتها بالصبغة الألمانية ؛ ثم قسمت البلاد بعد انهيار الدولة

الكارولنجية إلى إقطاعات خضعت للدولة الرومانية المقدسة . غير أن استعباد سكان الجبال من أشق الأعمال ، ولذلك فإن أهل سويسرا سرعان ما حرروا أنفسهم من الاسترقاق الإقطاعي وإن ظلوا يؤدون بعض الالتزامات الإقطاعية . وكان أهل القرى المجتمعون في جمعيات دمقراطية يختارون موظفيهم ، ويحكمون أنفسهم بمقتضى الشرائع الألمانية القديمة شرائع الألماني Alemanni والبرغنديين . وألف الفلاحون المجاورون لبحيرة لوسرن Lucerne « مقاطعات غابية » (Waldstälte) للدفاع المتبادل — وهذه المدن هي : أوري Uri ، وندولدن Nidewalden ، وشويز Schwyz . ومن هذه المدينة الأخيرة اشتق اسم دولة سويسرا . وكان الأهلون الأشداء سكان المدن التي نشأت عند ممرات الألب — جنيف ، وكنستانس ، وفريبورج ، وبرن ، وبازل — ينتخبون موظفيهم ، وينفذون قوانينهم الخاصة بهم ، ولم يكن سادتهم الإقطاعيون يعترضون على هذا الأسلوب من الحكم ، ما دامت الضرائب الإقطاعية الأساسية تؤدى لهم .

غير أن كونتات آل هبسبرج الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم الشمالية منذ عام ١١٧٣ لم يكونوا يسيرون على هذه القاعدة ، ولما أن حاولوا فرض الالتزامات الإقطاعية بأشد ضروب القسوة ، أغضبوا أهل شويز ، فألفت الثلاث المقاطعات الغابية في عام ١٢٩١ « حلفاً أبدياً » وأقسم أهلها أن يتعاونوا على صد الغارات الأجنبية ، والقضاء على الفتن الداخلية ، وأن يفضوا كل منازعاتهم بالتحكيم ، وألا يعترفوا بقاض يُنصب عليهم إذا كان من غير أهل واديهم ، أو كان قد ابتاع منصبه . وسرعان ما انضمت مدائن لوسرن ، وزيورخ ، وكنستانس إلى هذه الجامعة . وسيّر أدواق هبسبرج في عام ١٣١٥ جيشين على سويسرا ليرغموا أهلها على أداء جميع الالتزامات الإقطاعية ، ولكن مشاة شويز وأوري المسلحين بالرماح ذات البلط في رؤوسها هزموا الفرسان النمساويين في

« مراتون سويسرا » ، هزيمة انسحبت على أثرها القوات النمساوية ، وجددت المقاطعات الثلاث يمين المساعدة المتبادلة (٩ ديسمبر سنة ١٣١٥) ، وأنشأت الاتحاد السويسرى . ولم تكن سويسرا قد أصبحت بعد دولة مستقلة ، فقد كان المواطنون الأحرار يعترفون ببعض الالتزامات الإقطاعية ، وبسيادة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكن السادة الإقطاعيين والأباطرة المقدسين عرفوا كيف يحترمون أسلحة المقاطعات والمدن السويسرية وحرياتها ، ومهد انتصار مورجارتن السبيل لقيام أكثر الدمقراطيات استقراراً وأعظمها تمسكاً بالعقل والاتزان فى التاريخ كله(*) .

(*) يبدو أنه ليس ثمة سند تاريخى دال على وجود وليم تل William Tell(٥٨)

الفصل الحادى عشر

فرنسا (١٠٦٠ — ١٣٢٨)

١ — فليب أغسطس

كانت فرنسا حينما جلس على عرشها فليب الثانى أغسطس (١١٨٠) دولة صغرى تكتنفها الصعاب ، ولا يكاد أحد يرجو لها عظمة فى مستقبل الأيام . فكانت إنجلترا تمتلك نورمندية ، وبريطانى ، وأنجو ، وتورين ، وأكتين — وهى أملاك تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف الممتلكات التى يسيطر عليها ملك فرنسا سيطرة مباشرة . وكان الشطر الأكبر من برغندية فى حوزة ألمانيا ، وكانت مقاطعة فلاندرز المزدهرة إمارة مستقلة فى واقع الأمر ، شأنها فى هذا شأن مقاطعات ليون Lyons ، وساڤوى Savoy ، وشامبرى Cnambery . وكانت هذه أيضاً حال پروڤانس — الجنوب الشرق من فرنسا — الغنية بالخمر والزيت ، والفاكهة ، والشعراء ؛ ومدائن أرل Arles ، وأڤنيون ، وإيكس ، ومارسيليا . وكان إقليم الدوفنيه المحيط بڤينا قد ترك لألمانيا بوصف كونه جزءاً من برغندية ، وكان فى هذا الوقت إقليما مستقلا يحكمه دوفن dauphin اشتق لقبه من الدلفين dolphin (الدُّخس) الذى كان شعار أسرته .

وكانت فرنسا الأصلية مقسمة إلى مقاطعات تحمل أسماء مختلفة — دوقيات ، وكنتيات ، وسنيوريات . وسنسكلتيات sensechalties ، وبيلياچات (مأموريات) Bailliages يحكمها بترتيب أهميتها أدواق ، وكونتون counts ، وسنيورون (سادة) وسنسكالون sensechal (رؤساء خدم الملوك) . ومأمورون bailiffs وكان هذا الحشد المفكك ، الذى كان يسمى فرنسيا Francia منذ القرن التاسع ، خاضعاً لملك فرنسا خضوعاً متفاوت الدرجات ،

مقيداً بقيود كثيرة . وكانت باريس عاصمة الملك فى عام ١١٨٠ مدينة ذات مبان من الخشب ، وشوارع كثيرة الأوحال ، وكان معنى لوتيتيا Lutetia اسمها الرومانى « بلدة الوحل » ، واشمأزت نفس فليب أغسطس من الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع المارة بجوار نهر السين ، فأمر أن ترصف شوارع باريس كلها بالحجارة الصلدة[٥٩] .

وكان فليب أول ملوك ثلاثة رفعوا فرنسا فى ذلك الوقت إلى مكان الزعامة الذهنية ، والأدبية ، والسياسية فى أوربا ، ولكن ملوكاً أقوياء قد سبقوه فى فرنسا ، منهم فليب الأول (١٠٦٠ – ١١٠٨) الذى خلد اسمه فى التاريخ بأنه طلق امرأته وهو فى سن الأربعين وأرغم فولك Fulk كونت أنجو بأن يسلم له الكونتة برتراد Bertrade . ووجد القس الذى يبارك هذا الزنى ويعدّه زواجاً ، ولكن إربان الثانى حين جاء إلى فرنسا داعياً إلى الحرب الصليبية الأولى حرم الملك . وأصر فليب على إثمه اثنتى عشرة سنة ، ثم طرد بعدها برتراد ورفع عنه الحرمان ، ولكنه لم يلبث أن تاب من توبته ، واستردّ ملكته ، وسافرت معه إلى أنجو ، وعلمت زوجيها أن يتصافيا ، ويخيل إلينا أنها متعت كل منهما بكل ما فيها من مفاتن[٦٠] .

وتضخم جسم فليب وهو فى سن الأربعين ، فترك شئون الدولة الخطيرة لابنه لويس السادس (١١٠٨ – ١١٣٧) ، المعروف باسم لويس البدين . لكنه كان خليقاً بخير من هذا الاسم ، فقد ظل يحارب أربعاً وعشرين سنة ، يحارب البارونات الذين كانوا يسلبون المسافرين وانتصر عليهم آخر الأمر ؛ وقوى الملكية بأن نظم لها جيشاً قوياً ، وبذل كل ما فى وسعه لحماية الفلاحين ، والصناع ، والحكومات المحلية للمدن ، وأوتى من الحكمة ما جعله يتخذ سوجر Suger رئيس الدير وزيراً له وصديقاً . وكان سوجر رئيس دير القديس دنيس Denis (١٠٨١ – ١١٥٠) ريشليو القرن الثانى عشر ، دبر شئون فرنسا بحكمة

وعدالة وبعد نظر ؛ وشجع التجارة وأصلح أحوالها ، وخطط وشاد إحدى روائع المبانى القُوطية التى تعد أجمل مبانى ذلك الطراز وأقدمها عهداً ؛ وكتب وصفاً ممتعاً للسنين التى قضاها فى الوزارة ولأعماله فيها : وكان فى الواقع خير ما أورثه لويس البدين ولدَه الذى ظل سوجر يخدمه إلى وقت مماته .

وكان لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠) هو الرجل الذى قالت عنه إليانور الأكتانية إنها تزوجت ملكا فلم تجده إلا راهباً . لقد كان يعمل جادا فى أداء واجباته الملكية ، ولكن فضائله قضت عليه ، فقد بدا لإليانور أن انهماكه فى شئون الحكم إهمال منه للواجبات الزوجية ، وأضاف بصبره على علاقتها بعشاقها الإهانة إلى هذا الإهمال ، فما كان منها إلا أن طلقته ، وأسلمت يدها ودوقية أكتين التى تمتلكها إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا . وخابت آمال لويس فى الحياة فوجه همه إلى الدين وإلى الصلاح ، وترك العمل لبناء فرنسا القوية إلى ولده .

وكان فليب الثانى أغسطس شبيها بفليب الآخر(*) الذى كان سميذعا من الطبقة الوسطى : كان رجلا ذكياً عملياً يلطف ذكاءه نبلُ عواطفه ، كان يناصر العلوم ولا يتذوقها ، يجمع بين الحذر والدهاء وبين الشجاعة والحزم ، حاد الطبع سريع المغفرة ، لايتردد فى أن يسلك أى سبيل تؤدى به إلى التملك ، ولكنه لم يكن شرها فى هذه الناحية ، وكان معتدلا فى تقواه يستطيع أن يكون سخياً للكنيسة دون أن يسمح لسلطان الدين أن يطغى على شئون السياسية ، ذا صبر ومثابرة نال بهما ما لم يكن يستطيع أن يناله بالمغامرة الجريئة . وكان هذا الرجل عادياً وعظيما (أوجست August)(**) معا ، عنيداً فى لطف ، قاسياً فى حكمة ؛ وبهذا كان هو الرجل الذى تحتاجه بلاده فى وقت أحاطت بها إنجلترا أيام

(*) يقصد لوى فليب ملك فرنسا فى القرن التاسع عشر . (المترجم)

(**) هذا هو اللقب الذى منحه إياه راعى كنيسته ولم يشتهر به فى العصور الوسطى غير أن المؤرخين الفرنسيين قد لقبوه به .

هنرى الثانى وألمانيا فى عهد بربرسا ، ولعل الأقدار قد ساقته إلى فرنسا فى هذا الوقت العصيب ، ولولاه لكان من الجائز ألا يبقى لها وجود .

وارتاعت أوربا لزيجاته ، فقد ماتت إزبلا زوجه الأولى فى عام ١١٨٩ ، وبعد أربع سنين من وفاتها تزوج انجبورج Ingeborg الأميرة الدنمرقية . وكان زواجه هذا وذاك زواجاً سياسياً ، فيه من التملك أكثر مما فيه من الغرام . ولم ترق إنجبورج فى عين فليب ، فهجرها بعد يوم واحد ، ولم يمض على زواجه بها أكثر من عام حتى أقنع مجلساً من الأساقفة الفرنسيين أن يجيز له طلاقها ، ولكن البابا سلستين الثالث Celestine III أبى أن يوافق على هذا القرار . غير أن فليب تحدى البابا وتزوج فى عام ١١٦٩ بأنى الميرانية Agnes of Meran ؛ فحرمه سلستين ، ولكن فليب ظل على عناده وقال فى ساعة من ساعات حنانه : « خير لى أن أفقد نصف أملاكى من أن أفارق أنى » . وأمره إنوسنت الثالث أن يرجع إنجبورج ، فلما عصى فليب الأمر حرم البابا الصلب العنيد جميع الخدمات الدينية فى أملاك فليب . وثارت ثائرة فليب فخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة : « ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا » ، وهدد بأن يعتنق الإسلام[٦١] . وواصل حربه الدينية أربع سنين بدأ الشعب بعدها يتذمر خوفاً من عذاب النار ، فطرد فليب محبوبته أنى (١٢٠٢) ولكنه أبقى إنجبورج محبوسة فى إيتامب Etampes حتى عام ١٢١٣ حين ردها إلى عصمته .

وبين هذه الأفراح والاضطرابات فتح فليب نورمندية واسترد ها من إنجلترا (١٢٠٤) ، وضم فى السنتين التاليتين بريطانى ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وپواتو ، إلى أملاكه التى تحت سلطانه المباشر ، وأصبح له وقتئذ من القوة ما يستطيع به أن يسيطر على الأدواق ، والكونتة ، والسادة فى جميع أنحاء مملكته . وكان مأموروه وعماله يشرفون على الحكومات المحلية ، وصارت

مملكته قوة دُوَلية كبرى ، ولم تعد رقعة من الأرض ممتدة على ضفتى نهر السين . ولم يسكت چون ملك إنجلترا على ما أصابه من ضياع ملكه ، فأقنع أتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، وكونتى بولونى وفلاندرز أن ينضما إليه فى الوقوف فى وجه هذا التوسع الفرنسى ، واتفقوا على أن يهاجم چون فرنسا من أكتين (وكانت لا تزال ملكا لإنجلترا) وأن يهاجمها حلفاؤه من الشمال الشرقى . ولم يوزع فليب قوّته لملاقاة هذه الهجمات المتفرقة ، بل سار على رأس جيشه الرئيسى لقتال حلفاء چون ، وهزمه عند بوڤين ، بالقرب من ليل Lille (١٢١٤) . وأسفرت هذه المعركة عن كثير من النتائج الهامة ، أسفرت عن خلع أوتو ، وتولى فردريك الثانى عرش ألمانيا ، وقضت على زعامة ألمانيا للقارة الأوربية ، وعجلت اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية ، وأخضعت كونت فلاندرز وخلفاءه لطاعة ملوك فرنسا ، وضمت أمين ، ودويه ، وليل ، وسان كنتن إلى أملاك التاج الفرنسى ، ووسعت رقعة فرنسا الشمالية الشرقية بالفعل حتى وصلت إلى نهر الرين ، وتركت چون عديم الحول والطول أمام باروناته ، وأرغمته على توقيع العهد الأعظم ، وأضعفت الملَكية وقوّت الإقطاع فى إنجلترا وألمانيا ، على حين أنها قوّت الملكية وأضعفت الإقطاع فى فرنسا ، ويسرت قيام حكومات المدن المحلية والطبقات الوسطى التى عاونت فليب أعظم معاونة فى السلم والحرب .

ولما أن ضاعف فليب أملاكه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل شرع يحكمها حكما طابعه المهارة والإخلاص . وقضى الرجل نصف وقته فى نزاع مع الكنيسة واستبدل برجال الدين فى مجلسه وفى الوظائف الإدارية رجالا من طبقة المحامين الناشئة . ومنح كثيراً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وشجع التجارة بما منح التجار من امتيازات ، وحمى اليهود تارة ، ونهبهم تارة أخرى ، وملأ خزائنه بالمال بأن استبدل بالخدمات الإقطاعية إتاوات نقدية ، وزاد إيراد الملك من ٦٠٠ جنيه فرنسى إلى ١٢٠٠ (نحو ٢٤٠٠٠٠ ريال أمريكى) فى اليوم

وتمت فى أيامه واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame ، وبنى اللوفر ليكون حصناً يحرس نهر السين[٦٢] . ولم يمت فليب حتى كانت فرنسة هذه الأيام قد ولدت .

٢ — القديس لويس

ولم يتمكن ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦) فى حكمه القصير من أن يفعل الشىء الكثير . وأهم ما يذكره به التاريخ أنه تزوج بلانش القشتالية Blanche of Castille ، وأنه أنجب منها الرجل الوحيد فى العصور الوسطى الذى أفلح كما أفلح أشوكا فى الهند القديمة فى أن يكون فى واقع الأمر قديساً وملكا جميعاً . وكان لويس التاسع فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت والدته فى الثانية والثلاثين حين توفى لويس الثامن . وحافظت بلانش على ما يجرى فى عروقها من دم ملكى ؛ فقد كانت ابنة ألفنسو التاسع Alfonso IX ملك قشتالة ، وحفيدة هنرى الثانى وإليانور الأكتانية ، وكانت ذات جمال ، وفتنة ، ونشاط ، وأخلاق قويمة ، ومهارة فائقة . وكانت فى الوقت عينه ذات أثر كبير فى عصرها لما اتصفت به من الفضائل بوصفها زوجة وأرملة ، وإخلاص لبنيها الأحد عشر . ولم تكن فرنسا تكرمها لأنها بلانش الملكة الصالحة Blanche la bonne reine فحسب ، بل كانت تكرمها أيضاً لأنها بلانش الأم الصالحة Blanche la bonne mère . وقد أعتقت فى حياتها كثيرين من أرقاء الأرض الذين يعملون فى الضياع الملكية ، وتصدقت بالأموال الكثيرة ، وأدت من مالها البائنات لكثير من البنات التى يحول فقرهن دون تشجيع الشبان على حبهن . وأعانت بالمال بناء كنيسة شارتر Chartres الكبيرة . وبفضل نفوذها أظهر زجاج الكنيسة الملون العذراء مريم فى صورة الملكة لا فى صورة العذراء[٦٣] . وكانت مفرطة فى حب ابنها لويس ، ولم تكن كريمة فى معاملتها زوجته . وقد عكفت

على تربيته على الفضائل المسيحية ، وكانت تقول له إنها تفضل أن تراه ميتاً عن أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية[٦٤] . على أن أعمالها هذه لم تكن هي التي جعلت لويس رجلا متديناً مخلصاً لدينه ؛ وذلك أنها هي نفسها قلما كانت تضحي بالسياسة في سبيل العاطفة ؛ فقد انضمت إلى الحرب الألبجنسية الدينية ، لكي تبسط سلطان التاج على فرنسا الجنوبية . وظلت تحكم المملكة تسع سنين (١٢٢٦ — ١٢٣٥) كبر في أثنائها لويس ، وقلما استمتعت فرنسا بحكم خير من حكمها . وثار البارونات في بداية حكمها نائبة عن ولدها ، ظنا منهم أن في مقدورهم أن يستعيدوا من امرأة ما انتزعه فيليب الثاني منهم من سلطات ؛ ولكنها تغلبت عليهم بحكمتها وسياستها وطول أناتها ، وقاومت إنجلترا مقاومة شديدة ؛ ثم وقعت معها هدنة بشروط عادلة . ولما بلغ لويس التاسع سن الرشد ، وتولى شئون الحكم ، ورث مملكة قوية ، مستمتعة بالسلم والرخاء .

وكان لويس شاباً وسيماً ، أطول من معظم الفرسان بمقدار طول رأسه ، حسن الملامح دقيقها ، أبيض لون البشرة ، ذا شعر أشقر غزير ، وكان ذا ذوق راق ، مغرماً بالأثاث الفخم المترف ، والثياب الملونة ؛ ولم يكن مكباً على مطالعة الكتب ، بل كان يميل إلى اقتناص الحيوان وصيد الطير ، وضروب التسلية والألعاب الرياضية ؛ ولم يكن قد أصبح بعد قديساً ، وشاهد ذلك أن راهباً شكا بلانش من مغازلة ولدها للفتيات ، فبحثت له عن زوجة ، وعاش معها عيشة الهدوء والاستقرار ، وأصبح مضرب المثل في وفاء الأزواج ونشاط الآباء . وكان له أحد عشر ولداً كان له هو نصيب موفور في تربيتهم ؛ فتخلى على الترف شيئاً فشيئاً ، واعتاد بالتدريج عيشة البساطة المتزايدة ، وصرف همه في شئون الحكم ، والصدقات ، والتقوى . وكان يرى أن الملكية أداة للوحدة القومية واتصالها ، وحماية الفقراء والضعفاء من الأقلية العليا المحظوظة .

وكان يحترم حقوق النبلاء ، ويشجعهم على الوفاء بالتزاماتهم لأرقاء الأرض ،

والأتباع ، والسادة ؛ ولكنه لا يطيق الاعتداء على سلطة الملك الحديثة العهد ؛ ويمنع بعزيمته الماضية أن يقع ظلم من سيد على تابع . وكثيراً ما أنزل أشد العقاب بالبارونات الذين قتلوا أتباعهم من غير محاكمة . ولما أن شنق إنجران ده كوسى Enguerrand de Coucy ثلاثة طلاب فلمنكيين لقتلهم بضعة أرانب برية فى ضيعته ، أمر لويس بسجنه فى برج اللوفر ، وهدده بالشنق ، ولم يطلقه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبنى ثلاث كنائس صغيرة تتلى فيها الصلوات كل يوم لأرواح ضحاياه ، وأن يهب الغابة التى صاد فيها الطلبة الشبان الأرانب لدير القديس نقولاس ، وأن يفقد فى مزرعته حق الصيد والحقوق القضائية ، وأن يخدم ثلاث سنين فى فلسطين ، ويؤدى إلى الملك غرامة قدرها ١٢,٥٠٠ جنيه[٦٥] . وحرم لويس الثأر الإقطاعى والحروب الإقطاعية بين الأمراء ، ونهى عن المبارزة بوصفها وسيلة من الوسائل القضائية . . . ولما حلت المحاكمة عن طريق الأدلة والبراهين محل القتال ، تخلت محاكم البارونات عن مكانها شيئاً فشيئاً للمحاكم الملكية التى نظمها فى كل مقاطعة مأمورو الملك ، وتقرر حق استئناف أحكام القضاة البارونات إلى محكمة الملك المركزية ؛ وشهد القرن الثالث عشر فى فرنسا ، كما شهد إنجلترا استبدال قانون الدولة العام بالقانون الإقطاعى . وقصارى القول أن فرنسا لم تنعم منذ أيام الرومان بما نعمت به فى عهد لويس التاسع من أمن ورخاء ؛ وحسبنا دليلا على هذا أن ثروة فرنسا فى أيامه بلغت من الوفرة درجة ارتفعت بها العمارة القوطية إلى أقصى حدود الكثرة والكمال .

وكان يعتقد أن فى مقدور الحكومة أن تكون عادلة كريمة فى علاقاتها الخارجية دون أن تفقد بذلك هيبتها وقوتها . وكان يتجنب الحرب أطول أمد مستطاع ؛ فإذا لاح خطر الاعتداء عليه نظم جيوشه أحسن تنظيم ، ووضع خططه الحربية ، وقادها — فى أوربا — بجد ومهارة نال بهما سلماً كريمة لم تترك فى نفوس أعدائه رغبة فى الانتقام . وما كادت فرنسا تتأكد من سلامتها ، حتى

عهد الملك إلى سياسة المصالحة التى قبل بمقتضاها التوفيق بين الحقوق المتعارضة ورفض التهدئة الناشئة من إجابة المطالب غير العادلة . وقد رد إلى إنجلترا وأسپانيا أقاليم اغتصبها منهما أسلافه ، وأسف لذلك مستشاروه ، ولكنه ضمن بعمله هذا استتباب السلام ، ونجت فرنسا من الهجوم حتى فى أثناء غياب لويس فى الحروب الصليبية . ويقول عنه وليم الشارتريسى William of Chartres إن « الناس كانوا يخشونه لأنهم موقنون بعدله »[٦٦] . ولم تشتبك فرنسا من ١٢٤٣ إلى ١٢٧٠ فى حرب مع عدو لها مسيحى ؛ ولما أن أخذ جيرانها يحارب بعضهم بعضاً بذل لويس ما يستطيع من جهد للتوفيق بينهم ، وسخر من قول مجلسه إن من الواجب إثارة هذا النزاع لكى تضعف بذلك قوة من قد يصبحون أعداءه فى مستقبل الأيام[٦٧] . وكان الملوك الأجانب يحكمونه فيما يشجر بينهم من نزاع ، وكان الناس يعجبون كيف يستطيع هذا الرجل الصالح أن يكون ملكا صالحاً .

ولم يكن لويس « ذلك الوحش الكامل الذى لم يعرفه العالم قط » — أى الرجل المبرأ من جميع العيوب . فقد كان يغضب أحياناً ، ولعل سوء صحته هو سبب غضبه . وكانت سذاجته تصل فى بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السذاجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم ، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع إذ تورط فى الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة فى مصر وتونس ، حيث ضاعت أرواح كثيرة فضلا عن روحه هو ؛ ومع أنه راعى واجب الشرف والأمانة فى معاملته أعداءه المسلمين ، فإنه لم تطاوعه نفسه على أن يطبق فى معاملته إياهم روح التفاهم الكريم الذى نجح به أيما نجاح مع أعدائه المسيحيين . وقد دفعه إيمانه الدينى القوى الشبيه بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح الدينى ساعدت على إنشاء محكمة التفتيش فى فرنسا ، وهدأت ما تنطوى عليه نفسه من رحمة نحو ضحايا الحرب الصليبية الألبجنسية . وقد امتلأت خزائنه بالبضائع

والأموال التي صادرها من المارقين الذين حكم بإدانتهم[٦٨] ، وقد خانته روحه المرحة وفكاهته في معاملته اليهود الفرنسيين .

فإذا أسقطنا من صحيفته هذه العيوب رأينا أنه قد اقترب قربا يشرفه من المثل المسيحي الأعلى ، انظر إلى ما يقوله عنه جوانفيل Joinville « لم أسمعه قط في يوم من أيام حياتي يقول قالة السوء عن أي إنسان[٦٩] » . ولما أن قبل آسروه المسلمون خطأ منهم عشرة آلاف جنيه فرنسي (أي نحو ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) أقل من الفدية المتفق عليها ، أرسل لويس بعد أن أطلق سراحه جميع القدر الناقص من مال الفداء ، وأغضب بذلك مستشاريه[٧٠] . وقبل أن يغادر البلاد للقتال في حربه الصليبية الأولى ، أمر موظفيه في جميع أنحاء مملكته « أن يتلقوا كتابة ، وأن يحققوا ، كل ما عساه أن يقدم فينا أو في أسلافنا من الشكاوى . وكذلك جميع ما يقام على مأمورينا أو محافظينا أو حراس غاباتنا ، أو رؤساء جنودنا أو مرءوسيهم من دعاوى خاصة بمظالم ارتكبوها أو اغتصاب للأموال »[٧١] . ويقول جوانفيل « وكثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ، ويجلس مستنداً إلى شجرة في غابة ڤنسن Vincenne ويأمرنا بالجلوس حوله . ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب » . ثم يفصل في بعض القضايا بنفسه ، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله ، ولكنه كان يعطي كل شاك حق استئناف الحكم للملك نفسه[٧٢] . وقد أنشأ المستشفيات والملاجئ ، والأديرة ، والمضايف للغرباء ، وبيتاً للمكفوفين ، وآخر للعاهرات التائبات « بنات الله » ؛ وأمر عماله في كل مقاطعة أن يبحثوا عن العجزة والفقراء ، وينفقوا عليهم من الأموال العامة . وكان أينما سار يجعل من مبادئه المقررة أن يطعم مائة وعشرين فقيراً في كل يوم . وكان يأمر بأن يجلس معه على مائدته ثلاثة منهم ، يتولى هو تقديم الطعام لهم ويغسل بنفسه أقدامهم[٧٣] . وكان يفعل ما يفعله هنري الثالث ملك إنجلترا فيقف على المائدة في خدمة المجذومين ، ويطعمهم بيديه . ولما حل القحط

بنورمندية ، أنفق الأموال الطائلة فى توفير الطعام للمحتاجين من أهلها . وكان يقدم الصدقات كل يوم للمرضى ، والفقراء ، والأرامل ، والنساء اللاتى فى حالات النفاس ، والعاهرات ، والعاجزين من العمال « حتى ليتعذر علينا أن نحصى صدقاته »[٧٤] . ولم يكن ليفسد هذه الصدقات بإذاعتها بين الناس . وكان الفقراء الذين يغسل أقدامهم يختارون من بين المكفوفين ، وكان يعمل عمله هذا خفية ، و يقال لهؤلاء إن الملك هو الذى يخدمهم ؛ ولم يكن أحد من الناس يعرف زهده وتعذيبه نفسه حتى شوهدت آثارهما على جسمه بعد وفاته[٧٥] .

وأصيب أثناء حروبه فى عام ١٢٤٢ بالملاريا فى مناقع سانتونج Saintonge ؛ وأسفر هذا المرض عن إصابته بفقر دم خبيث ، وأوشك على الموت فى عام ١٢٤٤ . ولعل هذه المصائب قد زادت روحه الدينية تدريجاً ، فإنه ما كاد يشفى من مرضه حتى أقسم أن يشن الحرب الصليبية ، وأضعف صحته بانهماكه زهده وتعذيب نفسه . ولما عاد من حربه الصليبية الأولى ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره كان قد انحنى جسمه وأصابه الصلع ، ولم يبق من نضرة شبابه وجماله إلا ما يخلعه عليه إيمانه الساذج من خلق جميل وإرادة طيبة . وكان يرتدى قميصاً من الشعر ، تحت مئزر الرهبان الرمادى ، ويأمر بأن يُضرب بسلاسل صغيرة من الحديد ، ويحب طائفتى الرهبان الجديدتين — الفرنسسكان والدمنيكان ، ويهبهم المال بلا حساب ، ولم يمتنع عن أن يكون هو راهباً فرنسسكانيا إلا بعد جهد جهيد . وكان يحضر الصلوات مرتين كل يوم ، ويتلو الأدعية المقررة أدعية الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ودعاء المساء ، ويتلو صلاة العذراء(*) خمسين مرة قبل أن يأوى إلى فراشه ، ويصحو فى منتصف الليل لينضم إلى قساوسته فى صلاة السحر فى كنيسة قصره[٧٦] . وكان يمتنع من مباشرة زوجه فى صيام الميلاد

(*) AveMaria ومطلعها « السلام لك يا مريم » . (المترجم)

والصوم الكبير ؛ وبلغ من تمسكه بشعائر الدين أن كان معظم رعاياه يتسمون من تقواه ويلقبونه « الأخ لويس » . وقالت له امرأة جريئة : « إن من الخير أن يكون فى مكانك ملك غيرك ، فلست أنت إلا ملك الفرنسسكان والدمنيكان ؛ . إن من العار أن تكون أنت ملك فرنسا ، ومن أعجب العجائب ألا يخلعوك » ؛ فأجابها لويس بقوله : « لقد قلت حقاً . . . فلست خليقاً بأن أكون ملكاً . . ولو أراد منقذنا لوضع فى مكانى رجلا غيرى يعرف خيراً منى كيف يحكم المملكة »[٧٧] .

وكان شديد التحمس لخرافات أهل زمانه ويشاركهم فيها . من ذلك أن دير القديس دنيس كان يدعي أن لديه مسماراً من الصليب الحق ، وحدث أن وُضع المسمار فى غير موضعه بعد احتفال عُرض فيه على الشعب ؛ فثارت لهذا الحادث ضجة كبيرة ، ثم وُجد المسمار وارتاح الملك كثيراً لوجوده ، حتى قال : « لقد كان خيراً لى من هذا أن تبتلع الأرض أحسن مدينة فى ملكى »[٧٨] . وفى عام ١٢٣٦ احتاج بولدون الثانى إمبراطور القسطنطينية إلى المال لينقذ دولته المتداعية ، فباع للويس تاج الأشواك الذى لبسه المسيح فى آلامه بأحد عشر ألف جنيه فرنسى (٢,٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . واشترى لويس من الدلاّل نفسه بعد خمس سنين من ذلك الوقت قطعة من الصليب الحقيقى ، ولربما كان المقصود بهذا الشراء وذاك أن يكون المال هبة من لويس لدولة مسيحية تفرج به أزمتها . وأمر لويس بطرس المنتريلى Peter of Montreuil ليبنى سينت شابل Sainte Chapelle ليُودع فيها هذان الأثران .

ولم يكن لويس رغم صلاحه هذا أداة طيعة فى أيدى رجال الدين ، فقد كان يدرك ما فى طبيعتهم البشرية من عيوب ، ويعاقبهم عليها بالقدوة الطيبة والتقريع العلنى[٧٩] . وقد قيد سلطات المحاكم الكنسية ، وبسط سلطة القانون على جميع المواطنين ، سواء كانوا من رجال الدنيا أو من رجال الدين ، وأصدر فى عام

١٢٦٨ أول الأوامر العالية التي قيد بها حق البابا في تعيين أصحاب المناصب الدينية وجباية الضرائب في فرنسا : « تقرر أنه لا يجوز لأحد أن يفرض أو يجبي بأية طريقة كانت فروضاً أو ضرائب مالية فرضتها محكمة رومة ... إلا إذا كانت القضية معقولة ، متفقة مع أصول الدين ، وعاجلة جداً ... ونالت موافقتنا الصريحة من تلقاء أنفسنا ، وموافقة كنيسة مملكتنا »(*) .

وقد بقي لويس الملك على الدوام رغم زهده وميوله الدينية ؛ ولقد حافظ على جلال الملك حتى ساعة أن ظهر واقفاً على قدميه ، مرتدياً ثياب الحاج ، وبيده عصا الحاج ليبدأ حربه الصليبية الأولى (١٢٤٨) . وهو صاحب « الجسم الرفيع » النحيل ، والوجه الشبيه بوجوه الملائكة الأطهار ، والمحيا المليء بشراً وسماحة »(٨١) كما يصفه فراسلمبين Fra Salimbene . وقد بكت الملكة بلانش وهو يفارقها بعد أن أنابها عنه في البلاد وإن كانت في سن الستين وقالت : « يا أحب الأبناء وأجملهم ، يا أجمل الأبناء وأرقهم قلباً ، إني لن أراك بعد اليوم »(٨٢). وأسر لويس في مصر ، وظل في الأسر حتى افتدى بمبلغ من المال جمعته بلانش بعد عناء كبير ، ولكنه لما عاد إلى فرنسا مهزوماً ذليلا وجد أن أمه قد توفيت . ثم أقدم في عام ١٢٧٠ رغم ضعفه ومرضه على حرب صليبية أخرى ونزل هذه المرة في تونس . ولم تكن هذه مغامرة جنونية سخيفة كما بدت للناس بسبب خيبتها . ذلك أن لويس قد سمح لأخيه شارل دوق أنجو أن يقود جيشاً فرنسياً إلى إيطاليا ، وكان يبغي من وراء هذا أن يضعف سيطرة الألمان عليها ، ويرجو أن يتخذ صقلية قاعدة تغزو بها فرنسا بلاد تونس ، وبعد أن وصل المحارب العظيم المحطم الجسم الصغير السن إلى أرض تونس ، مات بزحار البطن . وسلكته

(*) ملمان Milman في ص ١١٩ من المجلد السادس من كتاب « تاريخ المسيحية اللاتينية History of Latin Christianity » . والرأي السائد أن هذا القرار صحيح من الوجهة التاريخية(٨٠) ، ولكن ربما كان المدافعون عن فليب الرابع قد اخترعوه من عندهم ليكون سلاحاً يشهرونه في وجه بنيفاس الثامن . انظر دائرة المعارف الكاثوليكية في اسم لويس التاسع .

الكنيسة بعد سبع وعشرين سنة من موته فى عداد القديسين . وظل الناس بعد وفاته أجيالا وقروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبى فى تاريخ فرنسا ، ويعجبون كيف لا تتيح الأقدار التى لا يفقهون تصريفها لأمور البشر ملكاً آخر لفرنسا يماثله . ذلك أنه كان ملكاً مسيحياً بحق .

٣ — فليب الجميل

زادت الحروب الصليبية من قوة فرنسا ، وكان لها فيها شأن كبير . وأكسبها طول حكم فليب أغسطس ولويس التاسع استقراراً واتصالا فى الحكم فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تعانى الأمرين من إهمال رتشرد الأول ، واستهتار چون ، وعجز هنرى الثالث ، وكانت فيه ألمانيا مفككة الأوصال من أثر الحروب الناشبة بين الأباطرة والبابوات ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت فرنسا أقوى دول أوربا كلها .

وكان فليب الرابع يلقب بالجميل le Bel لجمال جسمه ووجهه ، لا لدهائه السياسى وجرأته وقسوة قلبه . وكان ذا آمال واسعة : كان يأمل أن يخضع كل الطبقات — الأشراف ، ورجال الدين ، وأهل المدن ، وأرقاء الأرض — لحكم القانون وسيطرة الملك مباشرة ، وأن يقيم نماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة لا الزراعة ، وأن يمد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، وجبال البرانس ، والبحر المتوسط ، وجبال الألب ، ونهر الرين . ولم يختر أعوانه ومستشاريه من كبار رجال الدين والأشراف الذين ظلوا يخدمون ملوك فرنسا طوال الأربعة القرون الماضية ، بل اختارهم من طبقة المحامين الذين أقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التى أوحى إليهم بها القانون الرومانى . فكان پير فلت Pierre Flotte وجيوم ده نوجاريه Guilluame de Nogaret من ذوى العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية أو السوابق ؛ وشاد فليب بفضل توجيههم صرح القانون الفرنسى ، وأحلّ الشريعة الملكية محل

الشريعة الإقطاعية ، وانتصر على أعدائه بسياسته الحصيفة ، وحطم فى نهاية الأمر سلطان البابوية ، وجعل البابا فى الواقع سجيناً فى فرنسا . وحاول أن يفصل جوين Guienne عن إنجلترا ، ولكنه وجد إدورد الأول قوياً لا يُغلب ، وحصل على شمبانيا Champagne ، وبرى Brie ، وتبرة بطريق الزواج ، وابتاع بالمال شارتر ، وفرانش كنتيه Franch - Comté ، وإقليم ليون وجزءاً من اللورين .

وكان دائم الحاجة إلى المال ، ولهذا وجّه نصف ذكائه ونصف وقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال ، واستبدل المال بالفروض الإقطاعية الواجب أداؤها للتاج ، وكم من مرة خفض قيمة النقد ، وأصر على أن تؤدى الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح القيمة ، ونفى اليهود واللمبارد وقضى على فرسان المعبد ليصادر أملاكهم ، وحرم إصدار المعادن النفيسة من بلاده ، وفرض رسوماً باهظة على الصادرات والواردات ، والمبيعات ، وضريبة حربية مقدارها بنس على كل جنيه فرنسى فى ثروة الأفراد فى فرنسا . ثم فرض أخيراً ضريبة على الكنيسة دون أن يستشير البابا ، وكانت الكنيسة وقتئذ تمتلك ربع أرض فرنسا . وسنروى قصة هذا الصراع عند الكلام على بنيفاس الثامن . ولما مات البابا الطاعن فى السن بعد أن حطمه الكفاح ، استخدم فيليب ماله وأعوانه فى اختيار رجل فرنسى لقب كلمنت الخامس فى مكانه ، كما استطاع أن ينقل مقر البابا إلى أفنيون ، وهكذا انتصر فيليب على البابوية انتصاراً لم يظفر به من قبل على الكنيسة رجل من غير أهلها ، وأصبح رجال القانون فى فرنسا من هذا الوقت هم الذين يحكمون رجال الدين .

وتنبأ الرئيس الأكبر لفرسان المعبد وهو سائر إلى الخشبة التى يشد عليها من يراد إحراقهم بأن فليب سيتبعه فى خلال عام واحد . وقد صدقت النبوءة ، ولم يمت فيليب وحده فى عام ١٣١٤ بل مات فيها كلمنت أيضاً — ولم يكن الملك

المنتصر قد تجاوز وقتئذ السادسة والأربعين من عمره . وكان الشعب الفرنسى يعجب بشجاعته وصلابة رأيه . وأيده فى صراعه مع بنيفاس ، ولكنه يصب اللعنات على ذكراه ويراه أشد الملوك استبداداً فى تاريخه كله . وكادت انتصاراته تحطم كيان فرنسا . وقد كان تخفيضه قيمة النقد سبباً فى اضطراب الاقتصاد القومى . وكانت الأجور العالية للأراضى الزراعية والأثمان المرتفعة سبباً فى فقر الشعب ، وأضرت الضرائب الفادحة بالصناعة ، كما كان نفى اليهود واللمبارد سبباً فى شل حركة التجارة وفى خراب الأسواق وتعطيل المواسم التجارية . وجملة القول أن الرخاء الذى ازداد فى عهد القديس لويس قد نقص واضمحل فى عهد فليب الذى يتقن جميع ما فى القانون والسياسة من ألاعيب[٨٣] .

وجلس على العرش ثلاثة أبناء لفليب ووراهم الثرى فى خلال الأربعة عشر عاماً التى أعقبت وفاته ، ولم ينجب واحد منهم أبناء يرثون ملكه ، بل ترك شارل الرابع (المتوفى عام ١٣٢٨) بنات ، اتخذ القانون السالى القديم ذريعة لحرمانهم من التاج . وكان أقرب وريث من الذكور للأسرة المالكة هو فليب الفالوازى Philip of Valois ابن أخى فليب الجميل ، فلما تولى الملك انتهت بموته الأسرة المالكة التى تناسلت من الملوك الكابيتيين مباشرة وبدأ عهد أسرة ڤالوا .

وإذا ألقينا نظرة عامة عاجلة على أحوال فرنسا فى ذلك الوقت رأينا أنها تقدمت تقدماً عجيباً فى النواحى الاقتصادية ، والتشريعية ، والتعليمية ، والأدبية ، والفنية . فقد كان نظام رقيق الأرض يختفى من البلاد بخطى سريعة ، لأن نمو الصناعات فى المدن كان يغرى الناس بالنزوح إليها من المزارع ، حتى بلغ سكان باريس مائتى ألف فى عام ١٣١٤ ، وبلغ سكان فرنسا ٢٢,٠٠٠,٠٠٠[٨٤] ، ولما قدم برونتو لاتينى إلى فرنسا فاراً من الاضطهاد السياسى فى فلورنس دهش مما كان يسود شوارع باريس فى عهد لويس التاسع من أمن وطمأنينة ، وما كان فى

المدن من تجارة وصناعة ، وما كان فى الريف الجميل المحيط بالعاصمة من حقول وكروم مثمرة [٨٥] .

وأوشكت الطبقتان الناشئتان ، طبقتا الموظفين ورجال الأعمال ، أن تضارعا فى الثراء طبقة رجال الأعمال ، فاضطرت الدولة إلى تمثيل هاتين الطبقتين فى مجلس الطبقات Etats Generaux الذى دعاه فليب الرابع إلى الانعقاد فى باريس عام ١٣٠٢ ليقدم له المعونة الأدبية والمالية فى نزاعه مع بنيفاس . ولم تكن هذه المجالس العامة التى تمثل فيها الطبقات — الأعيان ، ورجال الدين ، والعامة — لم تكن هذه المجالس تدعى إلى الانعقاد إلا فى الضرورات القصوى (١٣٠٢ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٤ . . .) وكان المحامون الذين يخدمون الملك بوصفهم مجلسا للدولة Conseil d'etat يوجهونها توجيهاً ماهراً نحو الهدف الذى يريدونه . أما برلمان باريس الذى اتخذ شكله المعروف به فى عهد لويس التاسع فلم يكن جمعية نيابية ، بل كان هيئة مؤلفة من أربعة وتسعين من المحامين ورجال الدين يعينهم الملك ويجتمع مرة أو مرتين فى العام ليكون محكمة عليا . وقد نشأت من أحكامه مجموعه من التشريعات القومية تعتمد على القانون الرومانى لا على شرائع الفرنجة ، وتهب الملكية المعونه الكاملة المستمدة من التقاليد القانونية القديمة .

وقد بقيت الفورة العقلية التى سادت عهد فليب الرابع محفوظة لأهل هذا الجيل فى الرسائل السياسية التى كتبها أحد أنصاره — بيير دوبوا Pierre Dubois (١٢٥٥ — ١٣١٢) ، وهو محام مثل كوتانس Coutances فى مجلس الطبقات الذى عقد فى عام ١٣٠٢ . فقد عرض دوبوا فى رسالتين من رسائله « ملتمس مقدم من شعب فرنسا إلى الملك ضد البابا بنيفاس Supplication de peuple de France Contre le pape Boniface (١٣٠٤)» ، وفى نبذة عن

« استرداد الأرض المقدسة » (١٣٠٦) آراء تكشف لنا عن الثغرة الواسعة التي كانت تفصل في ذلك الوقت عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة في فرنسا . من ذلك ما قاله دوبوا من أن الكنيسة يجب ألا تحبس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ؛ ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة ، وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السلطة العليا . وقال أيضاً إن فليب يجب أن يعين إمبراطوراً لدولة أوربا الموحدة ، وأن تكون القسطنطينية عاصمته ؛ وأن تؤلف محكمة دولية لتفصل فيما يشجر بين الأمم من نزاع ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أية أمة مسيحية تحارب أمة مسيحية أخرى ؛ وأن تنشأ في رومة مدرسة للدراسات الشرقية ؛ وأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص تعليمية ، وأن يتساوين مع الرجال في جميع الحقوق السياسية(٨٦) .

وكان هذا العصر عصر شعراء الفروسية الذين يتغنون بالحب العذرى في پروڤانس ؛ وعصر قصاصي الملاحم في شمالي فرنسا ، وعصر أغنية رولان Chanson de Roland ، وغيرها من الأغاني الرمزية : وأغنية أوكسان ونيقولت Aucassin et Nicolette ، وقصة الوردة Roman de la Rose ، والعصر الذي ظهر فيه المؤرخان اللذان يعدان طليعتي المؤرخين الفرنسيين البارزين وهما ڤلاردوين Villardhouin وچوانڤيل . ونظمت في هذا العهـــد الجامعات الكبرى في باريس وأورليان ، وأنچير Angers ، وطولوز (طلوشة) ، ومنپلييه . بدأ هذا العصر بروسلن Roscelin وأبلار Abélare وانتهى بأعلى ما وصلت إليه الفلسفة المدرســـية Scholastic Philosophy . وكان عصر النشوة القوطية — التي ظهرت في الكنائس الفخمه الكبرى في سان دنيس ، وتشارتر ، ونوتردام ، وأمين ،

وريمس ، وفى النحت القوطى فى أكمل مظاهره الروحية . وكان الفرنسيون وقتئذ يفخرون فخراً لا نلومهم عليه بوطنهم ، وعاصمتهم ، وثقافتهم ؛ وكانت وطنية قومية تعمل لوحدة البلاد تحل تدريجاً محل النعرة الإقليمية التى كانت تسود عصر الإقطاع ؛ وأخذ الناس ذلك الحين يتحدثون حديث الحب والإعزاز عن « فرنسا الحلوة » ، كما نرى ذلك فى أغنية رولان .
وملاك القول أن الحضارة المسيحية قد بلغت عظمتها فى فرنسا وإيطاليا .

الفصل الثانى عشر

أسبانيا : ١٠٩٦ - ١٢٨٥

سار المسيحيون فى فتح أسبانيا بالسرعة التى أمكنتهم منها الفوضى الناشئة من تطاحن الملوك الأسبان ، ومنح البابوات من عاونوا على إخراج المسلمين من أسبانيا لقب المحاربين الصليبيين وامتيازاتهم ؛ وأقبل بعض فرسان المعبد من فرنسا للانضمام إلى أهل البلاد المسيحيين ؛ وتكونت فى القرن الثانى عشر ثلاث جماعات دينية حربية - فرسان كلاترافا Calarrava ، وفرسان سنتياجو ، وفرسان القنطرة ؛ واستولى ألفنسو الأول (الأذفنش) فى عام ١١١٨ ملك أرغونة على مدينة سرقسطة ؛ وفى عام ١١٩٥ هزم المسيحيون ، ولكنهم كادوا يبيدون جيش الموحدين الأكبر فى واقعة العقاب Las Navkas de Tolosa فى عام ١٢١٢ . وكان نصرهم فى هذه الواقعة نصراً حاسماً ، تحطمت على أثره مقاومة المسلمين وسقطت قلاعهم واحدة بعد واحدة فى أيدى المسيحيين : قرطبة (١٢٣٦) ، وبلنسية (١٢٣٨) ، وإشبيلية (١٢٤٨) ، وقادس (١٢٥٠) ، ثم وقف فتح المسيحيين نحو قرنين ليفسح الوقت إلى حروب الملوك .

ولما هزم ألفنسو (الأذفنش) الثامن ملك قشتالة هجم على مملكته ملكا ليون ونبرة وكانا قد وعداه من قبل بأن يخفّا لمساعدته ، واضطر ألفنسو إلى عقد الصلح مع المسلمين ليحمى نفسه من غدر المسيحيين[٨٧] . وأعاد فرنندو الثالث Fernando III (١٢١٧ - ١٢٥٢) توحيد ليون Leon وقشتالة ، ووسع حدود المملكة الكاثوليكية إلى غرناطة ، واتخذ إشبيلية عاصمة لملكه ، وحول مسجدها العظيم إلى كنيسة ، واتخذ القصر Alcazar مسكناً له ، وكانت الكنيسة تعدّه وقت مولده ابناً غير شرعى ، ولكنه عدّته قديساً بعد

وفاته . وكان ابنه ألفنسو (الأذفنش) العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عالماً ممتازاً ، ضعيف العزيمة ، وأعجب الأذفنش الحكيم (el Sabio) بما وجده فى إشبيلية من علوم المسلمين ، فتحدى المتعصبين من أهل ملته باستخدام العلماء من العرب واليهود والمسيحيين على السواء لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية كى تستطيع أوربا أن تفيد من هذه العلوم . وقد أنشأ هذا الملك مدرسة لعلم الهيئة هى صاحبة « الأزياج الأذفنشية » الخاصة بالأجرام السماوية وحركاتها التى أضحت المرجع الذى يعتمد عليه علماء الهيئة المسيحيون . ونظم هذا الملك هيئة من المؤرخين ، وضعت كتاباً سمته باسمه جمعت فيه تاريخ أسپانيا ، وتاريخاً عاماً واسعاً للعالم كله ، ونظم نحو ٤٥٠ قصيدة ، بعضها بلغة قشتالة ، وبعضها باللغة الجليقية — البرتغالية ؛ ولُحِّنَ الكثير منها ، ولا تزال هذه القصائد باقية حتى اليوم ، أثراً خالداً لأغا العصور الوسطى . وفاضت ?استه الأدبية فى عدة كتب ألفها هو أو أمر بتأليفها ، فى ألعاب الداما ، والشطرنج ، والنرد ، والموسيقى ، والملاحة ، والكيمياء ، والفلسفة . ولعله أيضاً قد أمر بترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى القشتالية مباشرة . وقد رفع اللغة القشتالية إلى المرتبة العليا التى أمكنها من أن تسيطر من ذلك الوقت إلى يومنا هذا على الحياة الأدبية فى أسپانيا ؛ ولقد كان هو فى واقع الأمر منشئ الأدب الأسپانى والبرتغالى ، وعلم التاريخ الأسپانى ، والمصطلحات العلمية الأسپانية . ولكنه لوّث تاريخه الوضّاء بما حاكه من الدسائس للاستيلاء على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنفق فى هذه المحاولة كثيراً من أموال أسپانيا ، وعمل على ملء خزائنه بزيادة الضرائب وتخفيض قيمة النقد ، ثم خُلع ورُفع ابنه إلى العرش ، وعاش بعد سقوطه عامين ، ثم مات محطما كسير القلب .

وارتفع شأن أرغونة بزواج ملكتها پترونلا Petronella من الكونت رامون برنجر Ramon Barenger صاحب برشلونة (١١٣٧) ؛ وحصلت أرغونة

بفضل هذا الزواج على قطلونية المشتملة على أعظم الثغور الأسپانية . وعم الرخاء هذه المملكة الجديدة على يد پدرو الثانى Pedro II (١١٩٦ — ١٢١٣) ، بتأمين الموانى ، والأسواق ، والطرق ، وبصرامته فى تنفيذ القانون على من يعبث بهذه المرافق ، وجعل بلاطه فى برشلونة مركز الفروسية والأسپانية والشعراء الغزليين ، وزاد من بهجته أن كان ملتقى المحبين ، ثم تقرب إلى الله — وضمن لنفسه لقبه — بأن قدم أرغونة إلى إنوسنت الثالث على أن يأخذها منه إقطاعية . وكان ابنه چيم Jaime أوچيمس James الأول (١٢١٣ — ١٢٧٦) فى الخامسة من عمره حين قتلى پدرو فى ميدان القتال ؛ واغتنم أشراف أرغونة هذه الفرصة السانحة ليستعيدوا استقلالهم الإقطاعى ؛ ولكن چيمس تولى زمام الأمور وهو فى العاشرة ، وسرعان ما أخضع الأشراف لسلطان الملك . وكان لا يزال شابا فى سن العشرين حين استولى على جزائر البليار ذات الموقع الحربى المنيع من المسلمين (١٢٢٩ — ١٢٣٥) ، واسترد منهم بلنسية وأليقانط . وقام فى عام ١٢٦٥ بحركة من حركات الفروسية التى هيأتها له الوحدة الأسپانية ، فاستولى على مرسية من المسلمين وأهداها إلى ملك قشتالة . وكان أكثر حكمة من الفنسو الحكيم ، حتى أصبح بفضل هذه الحكمة أقوى ملوك أسپانيا فى ذلك القرن ، لا يقل فى ذلك عن فردريك الثانى ولويس التاسع ، فقد كان يشبه أولهما فى ذكائه ودهائه ، وبسالته المجردة من الضمير . لكن تحلله من قيود الأخلاق . وكثرة طلاقه نساءه ، وحروبه العوان ، وما كان يلجأ إليه من الأعمال الوحشية فى بعض الأحيان تجعل الفرق بينه وبين القديس لويس كبيراً من هذه الناحية .

وقد دبر المؤامرات للاستيلاء على الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا ، ولكن لويس استطاع أن يتغلب عليه بقوة صبره وإن كان قد نزل له عن منبلييه . ودبر فى أخريات أيامه مؤامرة أخرى للاستيلاء على صقلية ليتخذها قاعدة حربية ، ومركزاً تجارياً ، وليجعل البحر المتوسط الغربى بحيرة أسپانية . ولكن هذا

الحلم لم يتحقق إلا فى عهد ولده . ذلك أن بدرو الثالث (١٢٧٦ — ١٢٨٥) ، تزوج ابنة مانفرد ملك صقلية ابن فردريك ، وظن أن هذه الجزيرة من حقه هو حين استولى عليها شارل كونت أنجو ؛ وبارك البابا استيلاءه عليها ، فما كان من بدرو إلا أن ألغى سيادة البابا على أرغونة ، وارتضى الحرمان البابوى ، وركب البحر إلى صقلية .

وشهدت هذه الفترة فى أسبانيا ما شهدته فى إنجلترا وفرنسا من قيام الإقطاع واضمحلاله . بدأه الأشراف بأن تجاهلوا أو كادوا يتجاهلون السلطة المركزية ، فقد كانوا هم ورجال الدين معفين من الضرائب التى كان عبؤها الباهظ واقعاً على عاتق المدن والتجارة ، ثم انتهوا بأن خضعوا للملوك المسلحين بجيوشهم هم ، تؤيدهم موارد المدن وحاجياتها ، ويعلى من مكانتهم إحياؤهم القانونى الرومانى ، الذى كان يفترض أن الحكم الملكى المطلق من بداته نظام الحكم . ولم يكن ثمة قانون أسپانى فى بداية تلك الفترة ، بل كانت هناك قوانين متفرقة لكل دولة من دول أسبانيا ، ولكل طبقة من طبقات كل دولة . ثم شرع فردريك الثالث يضع نظاماً جديداً لقانون قشتالة ، وأتم ألفنسو العاشر هذا النظام الذى عرف باسم قانون السبعة الأقسام (Siete Partidas) لأنه كان مقسما سبعة أقسام (١٢٦٠ — ١٢٦٥) ، وهو من أتم القوانين وأعظمها شأناً فى تاريخ التشريع . وقد أسس قانون السبعة الأقسام على قوانين القوط الغربيين الأسبان ولكنه عدل لكى يتفق مع قوانين جستنيان ، وكان أرقى من العصر الذى وُضع فيه ، ولهذا ظل مهملا إلى حد كبير ؛ ولكنه أصبح فى عام ١٣٣٨ قانون قشتالة النافذ ، ثم صار فى عام ١٤٩٢ قانون أسبانيا كلها . ثم أدخل جيمس الأول قانوناً مثله فى أرغونة ، فقد نشرت أرغونة فى عام ١٢٨٣ قانوناً تجاريا وبحريا نافذاً ، وأقامت فى بلنسية ثم فى برشلونة وميورقة بعدئذ محاكم تدعى محاكم « قنصلية البحر » .

وتزعمت أسبانيا بلاد العالم فى العصور الوسطى فى إقامة المدن الحرة والأنظمة

النيابية . ذلك أن الملوك أرادوا أن يحصلوا على تأييد المدن فى صراعهم مع الأشراف ، فنحوا كثيراً من البلدان عهوداً بالحكم الذاتى . وأصبح استقلال المدن بشئونها شهوة جامحة فى أسپانيا كلها ، فأخذت البلدان الصغرى تطالب بتحررها من البلدان الكبرى أو من الأشراف أو الكنيسة ، أو الملك ؛ فلما أفلحت فى نيل هذه الحرية أقامت مشانقها فى السوق العامة رمزاً لحريتها . وكان يحكم برشلونة فى عام ١٢٥٨ مجلس مؤلف من مائتى عضو ، تمثل كثرتهم الغالبةشئون الصناعة والتجارة[٨٨] . وبلغت سيادة المدن زمنا ما حد الاستقلال ، وأخذت تشن الحرب على المسلمين أو بعضها على بعض ؛ ولكنها بالإضافة إلى هذا الاستقلال ألفت من نفسها أخوة hermandades للتعاون على العمل أو للمحافظة على أمنها وسلامتها . ولما أن حاول الأشراف فى عام ١٢٩٥ أن يخضعوا حكومات المدن المحلية ألفت ثلاث وأربعون مدينة « أخوة قشتالة » ، وتعهدت كلها بالاشتراك فى الدفاع عن استقلالها ، وأنشأت لها جيشاً مشتركا . ولما أن هزمت هذه « الأخوة » الأشراف ، فرضت رقابتها على موظفى الملك وكبحت جماحهم ، وسنت قوانين تراعيها المدن المنضمة إلى هذا الحلف التى بلغ عددها مائة مدينة فى بعض الأحيان .

ولقد جرت عادة الملوك الأسپان من زمن بعيد أن يعقدوا من حين إلى حين جمعية من الأشراف ورجال الدين ؛ وأطلق اسم كورتز Cortes أى المحاكم لأول مرة على إحدى هـــذه الجمعيات التى عقدت فى عام ١١٣٧ . وضم كورتز ليون الذى اجتمع فى عام ١١٨٨ بعض رجال الأعمال يمثلون المدن . وأكبر الظن أن هذا هو أقدم مثل من أمثلة النظم النيابية السياسية فى أوربا المسيحية . ووعد الملك فى هذا المجلس التاريخى ألا يعلن الحرب أو يعقد الصلح ، أو يصدر قراراً إلا بعد موافقة الكورتز[٨٩] . واجتمع فى قشتالة أول مجلس من هذا النوع مؤلف من الأعيان ، ورجال الدين ، ورجال المال من الطبقة الوسطى فى عام ١٢٥٠

أى قبل اجتماع « برلمان » إدورد الأول « النموذجى » بخمس وأربعين سنة . ولم يكن الكورتز هو الذى يضع القوانين بنفسه ، ولكنه كان يصوغ « الملتمسات » ويعرضها على الملك ، وكثيراً ما كان لهذا المجلس سلطان على المال يحمل الملك على أن يوافق على هذه « الملتمسات » . وأصدر كورتز قطلونية فى عام ١٢٨٣ قراراً صادق عليه ملك أرغونة بألا يصدر بعد ذلك الوقت أىّ تشريع قومى بغير رضاء المواطنين (cives) ، ثم صدر قرار آخر يطلب إلى الملك أن يدعو الكورتز إلى الاجتماع كل عام ، وسبقت هذين القرارين مثلهما من القرارات التى أصدرها البرلمـــان الإنجليزى (١٣١١ ، ١٣٢٢) بأكثر من ربع قرن من الزمان . هذا إلى أن الكورتز عيّن أعضاء يختارهم من كل طبقة من الطبقات الاجتماعية يؤلفون جنتا (Junta) أى اتحاداً ليشرف فى أثناء الفترات التى تقع بين أدوار انعقاد الكورتز على تنفيذ القوانين وإنفاق الأموال التى وافق عليها[٩٠] .

وكان من العوامل التى عقدت مشكلة الحكم فى أسبانيا قيام الجبال التى قسمتها أقساماً منفصلة ، وعرقلت تنفيذ قانون عام موحد فى جميع ربوعها . يضاف إلى هذا أن عدم استواء أرضها ، وجفاف هضبتها ، وما كان يحل بها من الدمار حيناً بعد حين بسبب الحروب ، كل هذا قد عطل الزراعة ، وجعل أسبانيا فى معظم أجزائها مراعى للماشية والضأن ؛ وكانت قطعان الضأن الجميلة الصوف تغذى آلاف الأنوال فى البلدان ؛ ولقد حافظت أسبانيا على شهرتها العالمية القديمة بجمال أصوافها . وكانت التجارة الداخلية تقف فى سبيلها صعاب النقل ، واختلاف الموازين والمقاييس والنقد ، غير أن التجارة الخارجية تمت فى موانئ برشلونة ، وطرقونة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، وقادس ؛ وكان تجار قطلونية يجوبون جميع الأقطار ؛ وكان لتجار قشتالة فى عام ١٢٨٢ مركز فى بروج لا يضارعه إلا مركز العصبة الهانسية[٩١] . وأصبح التجار والصناع أعظم من يمدون التاج بالمعونة

المالية ، ونظم صعاليك المدن لهم نقابات طوائف Gremios ، ولكن الملوك كانوا يسيطرون سيطرة قوية على هذه النقابات ، وكانت الطبقات العامة تعانى مساوئ الاستغلال الاقتصادى دون أن تستمتع بحق التمثيل النيابى السياسى .

وكانت كثرة الصناع إما من اليهود أو المسلمين المقيمين فى أسبانيا المسيحية . فأما اليهود فقد أثروا فى أرغونة ، وقشتالة ، وأسهموا بحظ موفور فى حياة المملكتين العقلية ، وكان عدد كبير منهم تجاراً أغنياء ، ولكن قيوداً متزايدة فى شدتها فرضت عليهم فى نهاية هذه الفترة . وأما المسلمون المقيمون فى أسبانيا المسيحية فقد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وقسط كبير من الاستقلال بحكم أنفسهم ، وكان منهم أيضاً تجار أغنياء ، ودخل عدد قليل منهم فى بلاط الملوك ، كما كان لأرباب الحرف منهم أثر قوى فى العمارة الأسبانية ، وأعمال النجارة الدقيقة ، وأشغال المعادن ، ونتج من أثرهم هذا طراز أسبانى إسلامى أدى إلى استخدام الموضوعات والأشكال الإسلامية فى الفن المسيحى . وقد سمّى ألفنسو السادس نفسه فى إحدى نشواته الدينية « إمبراطور العقيدتين Emperador de los Dos Cultos[92] . ولكن المسلمين فى أسبانيا المسيحية كانوا يرغمون فى العادة على لبس زى خاص ، وعلى أن تكون منازلهم فى كل مدينة فى حى منعزل عن سائر أحيائها ، وكانت تفرض عليهم ضريبة فادحة أكثر مما تفرض على غيرهم ؛ وأخيراً أشعلت الثروة التى جمعوها بفضل مهارتهم فى الأعمال الصناعية والتجارية نار الحسد فى قلوب الأغلبية المسيحية ؛ فأصدر چيمس الأول عام ١٢٤٧ أمراً بطردهم من أرغونة ، فغادرها أكثر من مائة ألف يحملون معهم حذقهم الفنى ، وتدهورت الصناعة فى أرغونة من ذلك الحين .

وبعث امتزاج الحضارة الأسبانية بجزء غير قليل من الثقافة الإسلامية ، والقوة الناشئة من الانتصار على عدو قديم ، وتقدم الصناعة وازدياد الثروة ، وارتقاء العادات والأذواق ، بعث هذا كله فى الحياة العقلية بأسبانيا نشاطا عظيما ؛

فشهد القرن الثالث عشر نشأة ست جامعات ° أسبانيا ، وكان ألفنسو الثانى ملك أرغونة (١١٦٢ — ١١٩٦) أول الشعراء الغزلين الأسبان ، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشعراء يعدون بالمئات ، ولم يكن هؤلاء يقرضون الشعر فحسب ، بل صاغوا من احتفالات الكنيسة مسرحيات زمنية ، ومهدوا بذلك السبيل إلى روائع لوبى ده ڤيجا Lope de Vega وكلدرون Calderon . وكان من روائع ذلك العصر أيضاً ملحمة السيد Cid ملحمة أسبانيا القومية . وكان خيراً من هذا كله فنون الموسيقى ، والغناء ، والرقص التى كانت تفيض من قلوب الشعب فى المنازل والشوارع ، والتى كانت مصدر العظمة والفخامة فى قصور الملوك . وكانت أول مصارعة للثيران على الطراز الحديث سجلت فى تاريخ أسبانيا هى المصارعة التى أقيمت فى أبيلا عام ١١٠٧ فى حفلة عرش ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت تلك المصارعة من الألعاب العامة فى المدن الأسبانية . وجاء الفرسان الفرنسيون الذين أقبلوا على أسبانيا ليساعدوا أهلها فى حروبهم مع المسلمين ، جاءوا معهم فى الوقت عينه بمبادئ الفروسية واحتفالاتها ، فأصبح احترام النساء ، أو احترام ملكية الرجل دون غيره لامرأة بعينها من مسائل الشرف لا تقل فى هذا عن افتخار الرجل بشجاعته أو استقامته ، وأضحت المبارزة للاحتفاظ بالشرف عاملا أساسيا فى الحياة الأسبانية . وكان امتزاج الدم الأوربى بالدم الأفريقى والسامى ، والثقافة الغربية بالثقافة الشرقية ، والأساليب السورية والفارسية بأصول الفن القوطى ، والخشونة الرومانية بالعواطف الشرقية ؛ كان هذا الامتزاج هو الذى تولد منه الخلق الأسبانى ، والذى جعل الحضارة الأسبانية فى القرن الثالث عشر عنصراً فذاً بارزاً فى موكب الحياة الأوربية .

الفصل الثالث عشر

البرتغال ١٠٩٥

سُرَّ ألفنسو السادس ملك قشتالة وليون فى عام ١٠٩٥ من الكونت هنرى البرغندى أحد الفرسان الصليبيين الأسبان سروراً جعله يزوجه بابنته تريزا ، وأن يجعل من بائنتها مقاطعة من مقاطعات ليون تدعى البرتغال(*) أعطاه إياها إمارة إقطاعية . ولم يكن هذا الإقليم قد استرد من المسلمين إلا قبل ذلك الوقت بإحدى وثلاثين سنة ، وكان المسلمون لا يزالون يحكمون جزأه الواقع جنوب نهر منديجو Mondego . وساء الكونت هنرى أن يكون أقل من ملك ، فأخذ هو وزوجته منذ قرانهما يأتمران ليجعلا من إقطاعياتهما دولة مستقلة ؛ ولما مات هنرى (١١١٢) واصلت تريزا سعيها لنيل الاستقلال ، وعلمت أعيان بلادها وأتباعها أن يفكروا على الدوام فى حريتهم القومية ، وشجعت مدنها على أن تحصن نفسها وتدرس فنون الحرب وأساليبها ، وقادت بنفسها جنودها فى حرب إثر حرب ؛ وكانت فى فترات السلم تحيط نفسها بالموسيقيين ، والشعراء ، والعشاق[٩٣] . وهُزمت ، وأُسرت ، ثم أُطلق سراحها ، وأعيدت إلى إقطاعياتها ؛ وأنفقت المال جزافاً فى حب محرَّم ، وخُلعت عن عرشها ، ونُفيت مع حبيبها ، وماتت فقيرة معدمة (١١٣٠) .

وكان إلهامها واستعدادها هما اللذين أمكنا ولدها أفنسو الأول هنريك Affonsol Henriqnes (١١٢٨ — ١١٨٥) أن يحقق أغراضه : ذلك أن ألفنسو السابع صاحب قشتالة وعده بأن يعترف به حاكماً مستقلا تام السيادة على جميع البلاد التى ينتزعها من المسلمين جنوبى نهر الدوو . فهاجم هنرى المسلمين

(*) هذا الاسم مشتق من ثغرها المسمى پورتس كالى Portus Cale عند الرومان والمسمى اليوم أپرتو Oporto (الثغر) .

بكل ما ورثه عن أبيه من شجاعة وتهور ، وعن أمه من روح عالية وصلابة ، وهزمهم فى أوتريك Outrique (١١٣٩) ، وتادى بنفسه ملكا على البرتغال . وأقنع رجال الدين الملكين بأن يعرضا الأمر على البابا إنوسنت الثالث ، فكان حكمه لصالح قشتالة ، فما كان من أفنسو هنريك إلا أن نقض هذا الحكم بأن عرض مملكته الجديدة على البابا إقطاعياً له . وقبل إسكندر الثالث هذا العرض واعترف به ملكاً على البرتغال (١١٤٣) على شريطة أن يؤدى جزية سنوية إلى كرسى رومة[٩٤] . وواصل أفنسو هنريك حروبه مع المسلمين ، واستولى على سنترية Santarem ولشبونة ، ومد رقعة مملكته إلى نهر التاجه Tagus . ووصلت البرتغال فى عهد أفنسو الثالث (١٢٤٨ — ١٢٧٩) إلى حدودها الأرضية التى لها فى الوقت الحاضر ، وأصبحت لشبونة ثغرها وعاصمتها لموقعها الحربى على مصب نهر التاجه (١٢٦٣) . وتقول إحدى الأساطير القديمة إن يولسيز — أوديسيوس Ulysses – Odysseus ، هو الذى أنشأ المدينة وسماها باسمها القديم يولسپو Ulissipo الذى حرفه الناس فيما بعد بإهمالهم فكان أولسپو Olisipo أو لشبونة Lisbon .

ونغصت سنى أفنسو الثانى الأخيرة الحربُ الأهلية التى شبت نارها بينه وبين ابنه دنيز Dinliz الذى كان يأخذه العجب من أن والده قد طال عمره أكثر مما يجب . وانتقل دنيز من هذه البداية المريبة إلى حكم صالح طويل (١٢٧٩ — ١٣٢٥) عقد فيه الصلح بين ليون وقشتالة بحلف بينهما سببه الزواج ، وامتنع النزاع بينه وبين وارث آخر للعرش بفضل توسط إزبل Isabel ، زوجة دنيز الصالحة ، وترك دنيز مجد الحروب ووجّه جهوده إلى إصلاح حال بلاده من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فأنشأ مدارس زراعية وعلّم الأهلين طرقاً للزراعة خيراً من الطرق التى كانوا يجرون عليها ، وغرس الأشجار لتمنع تعرية التربة ، وشجع التجارة ، وأنشأ السفن والمدن ، ونظم للبرتغال أسطولا حربياً ، وعقد

معاهدة تجارية مع إنجلترا ، فاستحق بذلك اللقب الذى أطلقه عليه شعبه حباً فيه وهو Re Lavrador أى الملك العامل . والحق أنه كان إدارياً مجداً ، وقاضياً عادلا ، يعين الشعراء والعلماء ، وقد كتب هو أحسن ما كتب من الشعر فى زمنه وبلاده ، وبفضله ارتقت اللغة البرتغالية ، فلم تعد كما كانت من قبل لهجة جاليقية بل أضحت لغة أدبية ؛ وقد صاغ فى أغانيه الرعوية pastorellas أغانى شعبه صياغة أدبية ، وشجع الشعراء الغزلين فى بلاطه على أن يتغنوا بمباهج الحب وآلامه . وكان دنيز نفسه عليما بأحوال النساء ، وكان يفضل أبناءه غير الشرعيين على ابنه الشرعى الوحيد . ولما أن خرج هذا الابن على أبيه ، وحشد جيشاً ليخلع به أباه عن عرشه ، ركبت إزبل ، وكانت تعيش بعيدة عن مرح بلاط الملك ومباهجه ، ووقفت بين القوتين المتحاربتين ، وعرضت أن تكون أولى ضحايا نزاعهما وعنفهما . فاستحى زوجها وابنها من فعلهما وامتنعا عن القتال (١٣٢٣) .

الباب السادس والعشرون

إيطاليا قبل النهضة

١٠٥٧ — ١٣٠٨

الفصل الأول

صقلية فى عهد النورمان

من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم بما يتفق مع البيئات الكثيرة المختلفة التى حلوا بها من اسكتلندة إلى صقلية ، وأنهم أيقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الراقدة ، وأن رعاياهم قد امتصوهم امتصاصاً كاملا فى عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

لقد ظلوا مائة عام مفعمة بالاضطرابات يحكمون جنوبى إيطاليا التى كانوا فيها خلفاء للبزنطيين ، وصقلية التى ورثوها عن المسلمين . فقد شرع روچر جسكارد Roger Guescard يغير على هذه الجزيرة بجماعة قليلة العدد من القراصنة فى عام ١٠٦٠ ، فلم يحل عام ١٠٩١ حتى تم له الاستيلاء عليها ، واعترفت إيطاليا بحكمه فيها عام ١٠٨٥ ، فلما مات (١٠١١) كانت « الصقليتان » — الجزيرة وجنوبى إيطاليا — قد أصبحتا ذواتى شأن فى السياسة الأوربية . وكانت سيطرة مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وأفريقية ، قد أكسبت النورمان ميزات تجارية وحربية عظيمة ، وأضحت مدائن أملفى ، وسلرنو ، وبالرم مراكز للتجارة الناشـطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها

مراكز التجارة الإسلامية فى بلاد تونس وأسبانيا . وأضحت صقلية وقتئذ إقطاعية بابوية فحولت المساجد الإسلامية كنائس فخمة زاهية ، وحل القساوسة الروم الكاثوليك محل المطارنة اليونان فى إيطاليا الجنوبية .

واتخذ روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) مدينة بالرم عاصمة لملكه ووسع أملاكه فى إيطاليا حتى ضمت نابلى وكپوا ، ورفع لقبه فى عام ١١٣٠ من كونت إلى ملك . وكان له من الطموح والشجاعة ، والدهاء وسعة الحيلة ما لعمه ربرت جسكارد ؛ فقد كان نابها يقظاً فى تفكيره ، نشيطاً فى عمله إلى حد جعل الإدريسى المسلم كاتب سيرته يقول عنه إنه قد أنجز وهو نائم ما لم ينجزه غيره من الرجال وهم أيقاظ . وكان يقاومه البابوات لأنهم يخشون اعتداءه على الولايات البابوية ، ويقاومه الأباطرة الألمان الذين ساءهم استيلاؤه على أبرزى Abruzzi ، والبيزنطيون الذين كانوا يحلمون باسترجاع إيطاليا الجنوبية ، ومسلمو أفريقية الذين كانوا يتوقون إلى استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً ، وكان فى بعض الأحيان يحارب عدة طوائف منهم فى وقت واحد ، وخرج من حربهم ومملكته أعظم مما كانت حين جلس على عرشها ، وقد ضم إليها أملاكاً جديدة هى مدائن تونس ، وصفاقس ، ووهران ، وطرابلس . واستعان بمن فى صقلية من النابهين المسلمين ، واليونان ، واليهود ، لتنظيم أداة حكومية مدنية وبيرقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى فى أوربا وقتئذ . وأبقى على نظام الزراعة الإقطاعى فى صقلية ، ولكنه كبح جماح البارونات بفضل المحكمة الملكية التى كانت قوانينها تفرض على جميع الطبقات . وقد أصلح نظام صقلية الاقتصادى بأن جاء إليها بناسجى الحرير من بلاد اليونان ، ووسع نطاق التجارة بتأمين الناس على حياتهم فى حلهم وترحالهم وعلى أملاكهم . ومنح المسلمين واليهود ، واليونان ، والكاثوليك حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافى ، وفتح أبواب المناصب العليا لذوى المواهب على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، ولبس زى الثياب الإسلامية التى يلبسها رجال الدين

المسلمون ، وعاش معيشة ملك لا تيني فى بلاط شرقى . وظلت مملكته جيلا من الزمان « أغنى دول أوربا وأعظمها حضارة[٢] » ، وكان هو أكثر ملوك زمانه استنارة[٣] ، ولولاه لما وجد فردريك الثانى ، وهو ملك أعظم منه .

وفى وسعنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية فى عهد النورمان باطلاعنا على كتاب رجارى[*] للإدريسى . فقد كان فيها فلاحون أقوياء مجدون يفلحون أرضها الخصبة ويخرجون الزرع ويمونون المدن . نعم إنهم كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ويعانون ما يعانيه النافعون على أيدى الماهرين من استغلال ، ولكن تقواهم المشرقة كانت تكسب حياتهم كرامة ، وأعيادهم وحفلاتهم وأغانيهم كانت تملأ هذه الحياة بهجة وبهاء . فقد كان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصه وأغانيه ، وكان يصحب موسم جنى الكروم أعياد خمرية تجمع بين الساترناليا Saturnalia القديمة وحفلات التنكر الحديثة ، وحتى الفقراء أنفسهم بنى لهم الحب ، والأغانى الشعبية التى تختلف من الفحش والهجاء إلى الأناشيد الشعرية الموفية على الغاية القصوى من الحنان والعفة . ويقول الإدريسى عن بلدة « شنت ماركو »[**] (إن لها بادية ومزارع واسعة ومياه نابعة) وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الزكى الرائحة العطر الفائحة .

وعادت مسينا ، وقطانيا ، وسرقوسة إلى الازدهار كعهدها أيام القرطاجنيين واليونان ، والرومان ؛ وخيل إلى الإدريسى أن پالرم « هى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعلى فى بلاد الدنيا ، وإليها فى المفاخر النهائية

(*) هكذا يسميه المستشرقون أما اسمه الحقيق فهو « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وتوجد منه فى دار الكتب المصرية نسخة مطبوعة فى إيطاليا ومعها ترجمتها باللغة الإيطالية ، وهى التى نقلنا عنها النصوص الوارة هنا . (المترجم)

(**) هكذا يكتبها الإدريسى فى نزهة المشتاق والجزء المحصور بين قوسين غير موجود فى الأصل الإنجليزى ولكنا نقلناه للفائدة . (المترجم)

القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف »(*)
وقال عنها « ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها
ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها » وقال عن شارعها الأوسط : « فالسماط
الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، (وكثير من
المساجد) والفنادق ، والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار . . . وشيدت
بنيانها ونمقت بأعجب المغربات ، وأودعت بدائع الصفات ، فشهد لها
بالفضل المسافرون ، وعلّى فى وصفها المتجولون ، وقطعوا قطعا ألا مبانى
أشرف من مغانيها ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن دورها مفازة
النور » . « ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول
العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين »(**) .

ولما شاهد ابن جبير الرحالة المسلم مدينة بالرمة فى عام ١١٨٤ صاح
قائلا : إنها أم الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة . . . تروق
الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن . . . قد زخرفت فيها لملكها
دنياه . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب »(†) .

وكان من يزورون بالرم يدهشون من كثرة اللغات المختلفة التى يتكلمها
أهلها ، ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطاً لا يعكر صفوه ما بينهم من
اختلاف ، ومن تجاور الكنائس المسيحية ، والمعابد الإسرائيلية ، والمساجد

(*) هذا الوصف هو المقابل لقول المؤلف إن الإدريسى يصف بالرم بأنها أجمل مدينة فى العالم . (المترجم)

(**) أضاف مؤلفنا هذا الجزء الأخير من وصف الإدريسى لبالرم فى آخر ما نقله عنه ، ولكن موضعه الصحيح من وصف الإدريسى قبل الجزء السابق . (المترجم)

(†) نقلنا هذا النص من كتاب رحلة ابن جبير المعروفة باسم « رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » تأليف أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى وهو يسميها بالرمة ، وتشتهر باسم المدينة ، ولكن الإدريسى يكتبها بالرم من غير تاء . (المترجم)

الإسلامية واختلاطها بعضها ببعض ، من ثياب أهلها الرشيقة ، وشوارعها الكثيرة النشاط والحركة ، وحدائقها الهادئة ، وبيوتها المريحة .

وكانت فنون الشرق تستخدم فى تزيين القصور والبيوت التى يقيم بها الفاتحون من أهل الغرب . كذلك كانت أنوال بالرم تنسج الأقمشة الحريرية الفخمة والثياب المطرزة بالذهب ، وكان صناع العاج يصنعون أقداحاً صغيرة مشكلة أو محفورة ذات صور خيالية غريبة أو فنية دقيقة . كما كان صناع الفسيفساء يغطون أرض البيوت ، وجدرانها ، وسقفها بالرسوم التى تمثل موضوعات شرقية . وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس ، والأديرة ، والقصور ، فلا يظهر فى هندستها أو فى زخرفها أثر للطراز النورمانى بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطى أو العربى من آثار الألف العام السابقة . وشاد الفنانون اليونان فى عام ١١٤٣ ديراً للراهبات اليونانيات بأموال وهبها چورچ أمير بحرية روچر وأهداه إلى سانتا ماريا دل أمرجليو Santa Maria dell Ammiraglio ولكنه يعرف الآن بالمرتورانا Martorana نسبة إلى مؤسسه . ولقد جدد بناء هذا الدير مراراً كثيرة حتى لم تبق إلا القليل من عناصره التى كان عليها فى القرن الثانى عشر . ويحيط بقبته الداخلية نقش عربى من ترنيمة مسيحية يونانية . وأرض الدير من الرخام البراق المختلف الألوان ، وبه ثمانية عمد من الحجر السماقى الملون تحيط بأقباء ثلاث ، وتيجان الأعمدة منحوتة نحتاً جميلا ؛ أما الجدران ، والأجزاء المثلثة التى بين العقود ، والقباب فتتلألأ فيها الفسيفساء الذهبية المشتملة على صورة شهيرة للملك الكرى فى قبة المحراب . وأجمل من هذا الدير نفسه كنيسة القصر الخاصة Capella palatina التى بدأها روچر الثانى فى عام ١١٣٢ ، فكل ما فى هذه الكنيسة غاية فى الرونق والجمال : من رسوم الأرضية الرخامية البسيطة ، إلى العمد الرفيعة الدقيقة البالغة حد الكمال ، وتيجانها المختلفة الأشكال ، وقطع الفسيفساء البالغ عددها ٢٨٢ قطعة والتى تملأ كل فراغ ، وصورة المسيح الرهيبة

القائمة فوق المذبح والتى تعد من أروع ما فى العالم من نقوش الفسيفساء ، يعلو هذا كله سقف من الخشب على شكل قرص العسل ، منحوت أو مذهب ، أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة ، وريم ، وغزلان ، و « ملائكة » ، أكبر الظن أنها كانت صوراً مما يحلم به المسلمون فى جنات النعيم . وليس فى فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع هذه التحفة الفنية التى هى أثمن جوهرة فى صقلية النورمانية .

ومات رچار (روچر) فى عام ١١٥٤ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره . واستحق ابنه وليم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) لقب « الخبيث » ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن سيرته قد كتبها أعداؤه ، وبعضه الآخر إلى أنه ترك مقاليد الحكم لغيره وعاش هو مترفاً منعما بين الخصيان والمحاظى . وثار فى أيامه المسلمون فى تونس على المسيحيين ، وقضوا على سلطان النورمان فى أفريقية . وعاش وليم الثانى (١١٦٦ - ١١٨٩) عيشة أشبه ما تكون بعيشة وليم « الخبيث » ، ولكن كاتبى سيرته لقبوه وليم « الطيب » ، ولعلهم لم يكن لهم غرض من وراء هذه التسمية إلا أن يحولوا دون اختلاط الأسماء . وأراد أن يكفّر عن انحلال أخلاقه بما أنفق من المال فى عام ١١٧٦ على دير منريل Monreale - « الجبـــل الملكى » - وكنيسته وهما على بعد خمسة أميال فى خارج پالرم . ويتألف بناء هذا الدير وتلك الكنيسة من خليط مشوّه من القواعد والعمد المتشابكة ؛ أما الأروقة فذات قوة وجلال ، وجمال ، ونقوش الفسيفساء ذائعة الصيت رغم فجاجتها ؛ وتيجان العمد غنية بالنقوش المحفورة التى تمثل الحياة الواقعية - فيها نوح ثمل ونائم ، وراعى خنازير يعنى بخنزير ، وبهلوان واقف على رأسه .

ولعل ما انغمس فيه ملوك صقلية النورمان من النعيم قد أوهن بنيتهم وقصر آجالهم ، فقد ماتت أسرة روچر الثانى ميتة غير شريفة بعد أربعين عاماً من موته ،

ولم يعقب وليم الثانى أبناء فاختير للجلوس على العرش ابن غير شرعى لأحد أبناء روچر الثانى يدعى تانكرد Tancaed (١١٨٩) . وكان هنرى السادس إمبراطور ألمانيا قد تزوج فى هذه الأثناء من كنستانس Constance ابنة عمه وليم الثانى . وكان يتوق إلى توحيد إيطاليا كلها تحت تاج الإمبراطور ، فطالب بعرش الصقليتين ؛ وعقد حلفاً مع پيزا وجنوى اللتين كانت تجارتهما ترزح تحت سيطرة النورمان على وسط البحر المتوسط ؛ وفى عام ١١٩٤ وقف أمام پالرم بقوة عظيمة لا تقهر ، وأقنع أهلها بأن يفتحوا له أبوابها ، وتوّج فيها ملكا على صقلية . ولما مات (١١٩٧) ترك عروشه لابنه فردريك البالغ من العمر ثلاث سنين ، والذى صار فيما بعد أقوى الملوك المستبدين وأعظمهم استنارة فى القرن الثالث عشر الغنى بملوكه الأقوياء .

الفصل الثانى

الولايات البابوية

كانت دولة مدينة بنفنتو تقوم فى شمالى إيطاليا النورمانية ، وكان يحكمها أدواق من أصل لمباردى . وكان من ورائها الأراضى التى تخضع لحكم البابوات الزمنى — « ميراث بطرس » — وتشمل أنيانى ، وتيفولى ، وروما ، ثم تمتد من المدينة الأخيرة إلى بروجيا Perugia .

وكانت رومة مركز المسيحية اللاتينية ، ولكننا لا نستطيع أن نعدّها أنموذجاً للمسيحية ؛ ذلك أنه لم تكن فى العالم المسيحى مدينة أقل منها احتراماً للدين ، إلا باعتباره إحدى مصالحها المكتسبة ، ولم يكن لإيطاليا فى الحروب الصليبية نصيب كبير ، فلم تشترك مدينة البندقية مثلا فى الحرب الصليبية الرابعة إلا لتستولى على القسطنطينية ، ولم تكن المدن الإيطالية تنظر إلى هذه الحروب إلا على أنها فى الأغلب الأعم فرص تمكنها من إنشاء ثغور ، وأسواق ، وتجارة فى بلاد الشرق الأدنى . وقد أجل فردريك الثانى حملته الصليبية إلى أبعد أجل مستطاع ، ثم أقدم عليها وفى قلبه أضعف قسط من العقيدة الدينية . ولسنا ننكر أنه كان فى رومة رجال ذوو روح دينية رحيمة يساعدون الحجاج على تعهد أضرحة القديسين والاحتفاظ بها ، ولكن أصوات هؤلاء الرجال لم تكن تعلو على صخب السياسة وضجيجها .

وإذا ماغضضنا النظر عن البابوية ، وجدنا رومة فى ذلك الوقت مدينة فقيرة ، فقد كان انتهاب النورمان إياها خاتمة ستة قرون من الدمار والإهمال ، نقص فيها عدد السكان إلى أربعين ألفاً أو نحوها ، وكان عددهم فى العهد القديم مليوناً . ولم تكن مركزاً للتجارة أو الصناعة ؛ وبينا كانت مدن إيطاليا الشمالية تتزعم الثورة

الاقتصادية ، كانت الولايات البابوية لاتزال تتلكأ متوانية فى النظام الزراعى الساذج ؛ فكانت حدائق الخضر ، والكروم ، وحظائر الماشية تختلط بالبيوت والخربات داخل أسوار أوريليا . وكانت الطبقات الدنيا من أهل العاصمة تعيش إما من صناعاتها اليدوية أو من الصدقات الكنسية ؛ أما الطبقات الوسطى فكانت خليطاً من التجار ، والمحامين ، والمدرسين ، ورجال المصارف ، وطلاب العلم والقساوسة المقيمين فيها أو الذين يأتون لزيارتها ؛ وأما الطبقة العليا فكانت من كبار رجال الدين وكبار الملاك الزراعيين . وكانت العادة الرومانية القديمة ، عادة امتلاك الأرض فى الريف والإقامة فى المدن ، لا تزال سائدة . وكان أشراف الرومان قد تجردوا من زمن بعيد من النزعة الوطنية العامة التى تؤلف بين قلوبهم وتدعوهم إلى الدفاع عن أنفسهم ، فانقسموا لهذا السبب شيعاً وأحزاباً تتزعمها الأسر الغنية القوية — الفرنجيبانى Frangipani ، والأرسينى Orsini ، والكولنا Colonna ، والبرليونى Pierleoni ، والكيتانى Caetani ، والسافلى Savilli ، والكرسى Carsi ، والكنتى Conti ، والأنيبلدى Annibaldi . وجعلت كل أسرة مسكنها قلعة حصينة ، وسلحت أفرادها وأتباعها ، وكثيراً ما كانت تشتبك هى وغيرها من الأسر فى شجار فى الشوارع ، وتشتبك من حين إلى حين فى حروب أهلية . أما البابوات فلم تكن لهم إلا أسلحة روحية قلما يخشاها أحد فى رومة ، وأخذوا يكافحون عبثاً ليحفظوا النظام فى المدينة . وكثيراً ما كانوا يتلقون فيها الإهانات ، ويعتدى عليهم فى بعض الأحيان . وفر كثير منهم إلى أنانى ، أو فيتربو Viterbo أو بروچيا بل إن منهم من فروا إلى ليون وأخيراً إلى أفنيون لينجوا من الموت أو يعيشوا فى هدوء وسلام .

وكان البابوات يحلمون بأن يقيموا حكماً دينياً تكفى أن تكون فيه كلمة الله ، كما يفسرونها هم ، هى القانون ، ولكنهم وجدوا أنفسهم لاحول لهم ولا طول بين استبداد الأباطرة وألجركية الأشراف ، ودمقراطية الشعب . وحافظت بقايا السوق

الكبرى والكبتول بين الرومان على ذكرى جمهوريتهم القديمة ، وكانت جهود تبذل من حين إلى حين لإعادة نظم الحكم الذاتى وأشكاله القديمة . وظل الأشراف القدماء يسمون الشيوخ وإن كان مجلس الشيوخ قد اختفى من الوجود . وكان القناصل ينتخبون أو يعينون ، وإن لم يكن بيدهم شىء من السلطان ، وكانت بعض مخطوطات قديمة ، نسيت أو كادت تنسى ، تحفظ للبلاد الشرائع الرومانية . وبعث قيام المدن الحرة فى شمالى إيطاليا فى أهل رومة روحاً جديدة ، فأخذوا يطالبون بالعودة إلى الحكم الذاتى المدنى لا الدينى ، واختاروا فى عام ١١٤٣ مجلس شيوخ مؤلف من ستة وخمسين عضواً ، وظلوا عدة سنين بعد هذا التاريخ يختارون له أعضاء جدداً فى كل عام . وكانت أحوال ذلك الوقت تتطلب صوتاً يرتفع بتغييرها ، ووجدت هذا الصوت فى رجل من أهل بريشيا Brescia يدعى أرنولد Arnold . وتقول الرواية المتواترة إنه درس على أبيلار Abelard فى فرنسا ثم عاد إلى بريشيا راهبا ، وبلغ من زهده وتقشفه أن وصفه برنار بأنه رجل « لا يأكل ولا يشرب » . وكان شديد التمسك بالدين القويم ، ولكنه ينكر صحة العشاء الربانى إذا قدمه القساوسة المذنبون . وكان يرى أن مما يجافى القانون الأخلاقى أن يكون للقس أملاك ، ويطالب بأن يعود رجال الدين إلى الفقر الذى كان يتصف به الحواريون ، وأشار على الكنيسة بأن تنزل للدولة عن جميع أملاكها المادية وسلطانها السياسى . وأدانه إنوسنت الثانى فى مجلس لاتران عام ١١٣٩ وأمره أن يلزم الصمت ، ولكن البابا أوچنيوس الثالث Eugenius III عفا عنه على شريطة أن يحج إلى عدد من الكنائس فى رومة . وكان هذا خطأ كريماً من البابا ؛ لأن منظر معالم الجمهورية القديمة ألهب خيال آرنلد ، فأهاب بالرومان وهو واقف وسط خرائب المدينة بأن ينبذوا حكم رجال الدين ، ويعيدوا الجمهورية الرومانية (١١٤٥) . وافتتن الشعب بحماسته فاختار قناصل وتربيونين ليكونوا هم حكامه الحقيقيين ، وأقام طائفة من هيئة من الفرسان ليكونوا قادة

فى جيش إقليمى للدفاع . وسكر أتباع آرنلد بخمرة هذا النصر الهين فلم يكتفوا بنبذ سلطة البابوات الزمنية بل نبذوا أيضاً سلطة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الألمان فى إيطاليا . ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فقالوا إن الجمهورية الرومانية يجب ألا تحكم إيطاليا وحدها بل أن تحكم « العالم » كما كانت تحكمه فى الزمن القديم(٥) . وأعادوا بناء الكبتول ، واستولوا على كنيسة القديس بطرس ، وأحالوها قلعة ، واستولوا على الفاتيكان ، وفرضوا الضرائب على الحجاج ؛ وفر أوجنيوس الثالث إلى ڤيتربو وپيزا (١١٤٦) بينا كان القديس برنار يصب اللعنات من كليرفو Clairvaux على شعب رومة ، ويذكرهم بأن كيانهم موقوف على وجود البابوية ، وظلت حكومة رومة الذاتية عشر سنين تحكم مدينة القياصرة والبابوات .

واستجمع أوجنيوس الثالث شجاعته وعاد إلى رومة فى عام ١١٤٨ ، وقصر واجباته وقتاً ما على الواجبات الروحية ، وأخذ يهب الصدقات ، وكسب بذلك قلوب الشعب . وغضب خليفته هدريان الرابع أشد الغضب من مقتل كردينال فى شجار عام ، فأصدر قراراً بحرمان العاصمة (١١٥٥) ، وخشى مجلس الشيوخ أن تقوم فى المدينة ثورة لا يستطيع الأشراف تحمل آثارها ، فألغى الجمهورية واستسلم إلى البابا . واختبأ آرنلد المطرود من حظيرة الكنسية فى كمپانيا ؛ ولما أن اقترب فردريك بربرسا من رومة طلب إليه هدريان أن يقبض على هذا الرجل المتمرد ؛ وكشف مخبأ آرنلد وقبض عليه ، وأسلمه الإمبراطور إلى صاحب شرطة البابا فى رومة ، وشنقه (١١٥٥) . ثم حرقت جثته ، وألقى برماده فى نهر التيبر « خشية أن يجمعها الناس ويكرموها بوصفها رماد شهيد » كما يقول أحد معاصريه(٦) . وعاشت آراؤه بعد موته ، وعادت إلى الظهور عند زنادقة لمباردى الپاترين Paterine والوالدنسيين Waldensian ، وعند الألبجنسيين فى فرنسا ، وفى مرسليوس Marsilius من أهل پدوا ، وفى زعماء حركة الإصلاح . وظل مجلس الشيوخ قائماً حتى عام ١٢١٦ حين أفلح إنوسنت الثالث فى أن

يستبدل به شيخاً أو شيخين من المناصرين لقضية البابا . وظلت سلطة البابوات الزمنية قائمة حتى عام ١٨٧٠ .

وكانت الولايات البابوية فى أوقات مختلفة تشمل أمبريا Umbria بما فيها اسبليتوا Spoleto وبروچيا ؛ وأرض التخوم المشتملة على أنكونا الواقعة على البحر الأدرياوى ، ورومانيا Romagna ، أو الإقليم الخاضع لحكم رومة والمشتمل على مدائن رمينى Rimini ، وإمولا Imola ، ورافنا Ravenna ، وبولونيا Bologna ، وفرارا ferrare . وظلت رافنا فى هذا الوقت آخذة فى الانحطاط ، بينا أخذت فرارا تزداد شهرة بحكمة زعمائها من آل إست Este . وقامت فى بولونيا حياة ناشطة قوية فى ظل حكومتها الذاتية بزعامة رجالها القانونيين العظام خريجى جامعاتها . وكانت من أولى المدائن التى اختارت لها حاكماً ذا سلطان Podesta يتولى الشئون الداخلية فى حكومتها الذاتاة ، ورئيساً Capitano ليشرف على شئونها الخارجية . وكانت تشترط فيمن يتولى الشئون الداخلية صفات خاصة : كان يجب أن يكون من الأشراف ، وأن يكون من غير أهل المدينة ، وأن تزيد سنه على ستة وثلاثين عاما ؛ وألا تكون له أملاك فى داخل نطاق البلدة ذات الحكم الذاتى ، وألا يكون له أقارب بين الناخبين ، وألا يكون من أقارب الحاكم السابق أو من موطنه . وكانت هذه القواعد الغريبة التى وضعت لتضمن النزاهة فى إدارة شئون المدينة هى المتبعة فى كثير من المدن الإيطالية ذات الحكم الذاتى . أما « رئيس الشعب (قبطانه) » فلم يكن يختاره مجلس المدينة ، بل يختاره حزب الشعب الذى تسيطر عليه نقابات التجار الطائفية ؛ ولم يكن يمثل الفقراء بل كان يمثل طبقة رجال الأعمال . وقد بسط سلطانه فى القرون التالية بإضعاف سلطان البودستا ، وذلك بعد أن تفوق رجال الطبقة الوسطى الرأسمالية على الأشراف فى الثروة والنفوذ .

الفصل الثالث

البندقية تنتصر : ١٠٩٦ - ١٣١١

كان إقليم ڤنيتو Veneto يقع إلى شمال كرارا ونهر البو ، وكان هذا الإقليم يفخر بمدائنه الهامة - البندقية ، وترڤيزو ، وپدوا ، وڤيسنزا ، وڤيرونا .

وفى هذا العصر بالذات عظمت قوة البندقية ، فأمكنها حلفها مع بيزنطية من أن تصل إلى ثغور بحر إيجه والبحر الأسود ، حتى ليقال إن بنيها الذين كانوا فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر زادوا على مائة ألف ، وإنهم كانوا يشيعون الرعب فى أحد أحياء المدينة بوقاحتهم ومشاحناتهم . ثم انقلب مانيول Manuel إمبراطور الروم فجاءة على البنادقة المقيمين فى عاصمته ، وألقى القبض على عدد كبير منهم ، وأمر بأن تصادر بضائعهم كلها (١١٧١) ، وكان أهل جنوى هم الذين حرضوه على هذا العمل غيرة منهم وحسداً . وأعلنت البندقية الحرب ، وأخذ أهلها يعملون ليلا ونهاراً لإنشاء أسطول ، فلما كان عام ١١٧١ قاد الدوج ڤيتالى ميشيلى الثانى Doge Vitale Michieli II عمارة بحرية مؤلفة من ١٣٠ سفينة لقتال جزيرة عوبية Euboea ليتخذها قاعدة بحرية لأعماله المقبلة ضد المضيقين . ولكن جنوده أصيبوا وهم على سواحل عوبية بمرض يقال إن سببه تسمم اليونان موارد الماء فى الجزيرة ! وهلك منهم آلاف مؤلفة بلغ من كثرتها أن السفن لم تجد بعد ذلك من يحاربون على ظهرها . وقاد الدوج عمارته عائداً إلى البندقية ، وفشا الطاعون فيها وأهلك عدداً كبيراً من أهلها ؛ ولما أن اجتمعت الجمعية وجهت اللوم إلى الدوج على هذه الكوارث ، وأصيب بطعنة قاتلة (١١٧٢)[٧] . ومن واجبنا ألا نغفل عن هذه الحوادث حين ندرس ما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ، والثورة الألجركية التى غيرت دستور البندقية :

وخشى كبار التجار أن تنهار إمبراطوريتهم التجارية إذا دامت هذه الهزائم، فعقدوا النية على أن ينتزعوا من الجمعية العمومية حق انتخاب الدوج، وأن ينشئوا مجلساً من صفوة الأهلين يكون أقدر على بحث شئون الدولة وتصريفها ، وعلى الوقوف فى وجه أهواء الشعب واستبداد الدوج ، ثم أقنعوا أكابر قضاة الجمهورية الثلاثة بأن يعينوا لجنة تضع للبلاد دستوراً جديداً . وأوصت هذه اللجنة فى تقريرها أن يختار كل حى من أحياء دولة المدينة الستة اثنين من كبار الأهلين يختار كل منهم أربعين من خيرة الرجال ، وأن يتألف من الأربعمائة والثمانين عضواً الذين يختارون على هذا النحو مجلس أعظم Maggior Consiglio يكون هو الهيئة التشريعية العامة للأمة ثم يختار المجلس الأعظم ستين عضواً من أعضائه يكونون مجلس الشيوخ الذى يشرف على الشئون التجارية والمالية والعلاقات الخارجية . وكان من هذه التوصيات ألا تجتمع الأرنجو Arrengo أى الجمعية الشعبية إلا للتصديق على اقتراحات الحرب والسلم أو رفضها ، وأن يختار رجل من كل حى من الأحياء الستة يتألف منهم جميعاً مجلس خاص يحكم الدولة إذا ما أصبح عرش الدوج شاغراً ، وكان لا بد من أن يقر هذا المجلس كل عمل حكومى يقوم به الدوج لكى يصبح هذا العمل مشروعاً . واختار أول مجلس أعظم انتخب بالطريقة السالفة الذكر أربعة وثلاثين من أعضائه ، اختاروا من بينهم أحد عشر عضواً ، عقدوا اجتماعاً علنياً فى كنيسة سان ماركو اختاروا فيه الدوج (١١٧٣) . ورفع الشعب عقيرته باحتجاج لحرمانه من حق اختيار رئيس الدولة ، ولكن الدوج الجديد وجه الاضطراب وجهة أخرى بأن نثر النقود على الجموع المحتشدة[٨]، ولما اختار المجلس الأعظم أنريكو دندولو Enrico Dandolo دوجاً فى عام ١١٩٢ طلب إليه أن يقسم فى يمين تتويجه أن يطيع جميع قوانين الدولة ، وبهذا أضحت ألجركية التجارة صاحبة السلطة العليا فى البلاد .

وأثبت دندولو ، وكان وقت اختياره فى الرابعة والثمانين من عمره ، أنه من أقدر الزعماء فى تاريخ البندقية ؛ فقد استطاعت البندقية فى أيامه ، وبفضل سياسته المكيڤلية ، وبسالته الشخصية ، أن تثأر لنفسها من الكارثة التى حلت بها عام ١١٧١ ، فتستولى على القسطنطينية وتنهبها فى عام ١٢٠٤ ، وبهذا أصبحت البندقية القوة المسيطرة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، والبحر الأسود ؛ وانتقلت الزعامة التجارية فى أوربا من بيزنطية إلى إيطاليا . وساعد أهل جنوى فى عام ١٢٦١ اليونان على استعادة القسطنطينية ، وكوفئوا على عملهم هذا بأن منحوا فيها ميزات تجارية ؛ ولكن أسطول البندقية هزم أسطول جنوى بالقرب من صقلية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، وأرغم إمبراطور الروم على أن يرد إلى البندقية مركزها الممتاز فى عاصمة ملكه .

وتوجت الألجركية الظافرة هذه الانتصارات الخارجية بضربة دستورية جديدة . فقد عرض الدوج پيترو جرادنجو Pietro Gradenigo فى عام ١٢٩٧ على المجلس الأعظم اقتراحاً ، حمله على الموافقة عليه ، يقضى بألا يختار لعضوية هذا المجلس إلا من كان من أعضائه منذ عام ١٢٩٣ أو كان من أبنائهم الذكور[٩] . وكان من أثر « إغلاق المجلس » فى وجه المواطنين أن حرمت الكثرة الغالبة من الشعب من الوظائف العامة ، وأن وجدت طبقة مغلقة لا يستطيع الانتماء إليها إلا أبناء أعضائها . وأنشئ « كتاب ذهبى » Libro d'oro لتسجيل عقود الزواج والوفيات بين أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية ليضمن به نقاءها واحتكارها للسلطان ، وبهذا جعلت الألجركية التجارية نفسها ألجركية المولد . ولما أن دبر الشعب ثورة على هذا الدستور الجديد ، سمح لزعمائه بأن يدخلوا قاعة المجلس ثم شنقوا من فورهم (١٣٠٠) .

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن هذه الألجركية السافرة القاسية قد أحسنت الحكم ، فقد كانت فى محافظتها على الأمن والنظام ، وفى حسن توجيهها للسياسة العامة ،

وفى العمل على استقرار القانون وبسط سلطانه ، تفضل غيرها من المجتمعات الإيطالية فى العصور الوسطى . وسبقت القوانين التى سنتها البندقية لتنظيم أعمال الأطباء والصيادلة أمثالها فى فلورنس بنصف قرن من الزمان ؛ وحرمت القوانين فى عام ١٣٠١ قيام الصناعات المضرة بالصحة بين المساكن ، وأخرجت من البندقية جميع الصناعات التى تنفث الدخان المؤذى فى الهواء . وكانت قوانين الملاحة شديدة مفصلة ، كما كانت جميع الواردات والصادرات خاضعة لرقابة الدولة وسيطرتها ، وكانت التقارير الدبلوماسية تعنى بأحوال التجارة أكثر من عنايتها بالشئون السياسية ، وأصبحت الإحصاءات الاقتصادية للمرة الأولى جزءاً من الحكم فى هذه المدينة(١٠) .

وكادت الزراعة تكون غير معروفة فى البندقية ، أما الصناعات اليدوية فكانت متقدمة لأن هذه المدينة استوردت من مدن البحر المتوسط القديمة فنوناً وحرفاً كادت تقضى عليها الاضطرابات السياسية فى الغرب ، واشتهرت مصنوعات الحديد ، والشبه ، والزجاج ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب والحرير ، واشتهرت كلها فى القارات الثلاث ، وأكبر الظن أن بناء القوارب للتنزه ، أو الاتجار ، أو الحرب كان أعظم صناعات البندقية . وقد وصلت هذه الصناعة إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالى بالجملة ، والتمويل الجماعى ، وكادت تصل إلى المرحلة الاشتراكية لسيطرة أكبر عميل لهذه الصناعة وهو الدولة . وكانت سفائن جميلة المنظر عالية الجؤجؤ ، منقوشة الأشرعة ، فى بعضها مائة وثمانون مجذافاً تربط البندقية بالقسطنطينية ، وصور ، والإسكندرية ، ولشبونة ، ولندن ، وعشرات من المدن الأخرى بسلسلة ذهبية من المرافئ والمتاجر . وكانت بضائع من وادى البو تصل إلى البندقية كى يعاد شحنها منها إلى الخارج ؛ وكانت بضائع مدن نهر الرين تأتيها بعد أن تجتاز جبال الألب لتنتشر من موانيها فى عالم البحر المتوسط ؛ وكان مصفق المدينة Rialto أكثر الأماكن حركة فى سائر أنحاء أوربا ،

يزدحم بالتجار ، والملاحين ورجال المصارف القادمين من مائة قطر ، ولم تكن ثروة شمالى أوربا تضارع غناء هذه المدينة التى يرتبط كل شىء فيها بعجلة التجارة والمال ، والتى كانت السفينة الواحدة من سفنها التى ترسل إلى الإسكندرية تعود منها بربح يعادل ألفاً فى المائة من المال المستثمر فى بضائعها — إذا لم تلاق عدواً ، أو قرصاناً ، أو عاصفة مدمرة[١١] . وقصارى القول أن البندقية كانت أغنى المدن الأوربية فى العصور الوسطى ، ولعلها لم يكن يضارعها فى ثرائها إلا المدائن الصينية التى وصفها ماركو پولو ابن البندقية وصفاً لا نستطيع تصديقه .

إلا أن العقيدة تضمحل كلما زادت الثروة . ولقد كان البنادقة يكثرون من استخدام الدين فى الحكم ، ويواسون من لا أصوات لهم فى إدارة الشئون العامة بالمواكب ويعنونهم بجنة النعيم ؛ غير أن الطبقات الحاكمة قلما كانت تسمح للمسيحية أو للحرمان من حظيرة الكنيسة بأن يعترض سبيل الحرب أو الأعمال المالية ، فقد كان شعارها « نحن بنادقة ، ونحن بعد ذلك مسيحيون Siamo Veneziani poi Cristiani »[١٢] . وتطبيقاً لهذا الشعار لم يكن لرجال الدين نصيب ما فى الحكم[١٣] ، وكان التجار البنادقة يبيعون السلاح والرقيق ، ويمدون المسلمين الذين يقاتلون المسيحيين بالمعلومات الحربية[١٤] . وكان شىء من التسامح يصحب هذا الحرص على الكسب المتميز بسعة الأفق ؛ فقد كان فى وسع المسلمين أن يأتوا إلى البندقية وهم آمنون ، وكان اليهود — وخاصة فى الجيودكا Giudecca جزيرة أسپنالنجا Spinalunga يقيمون شعائر دينهم فى معابدهم وهم آمنون .

وقد ندد دانتى بـ « بمجور البنادقة الطليق »[١٥] ، ولكن ليس من حقنا أن نصدق ما يوجهه من نقد رجل يصب اللعنات ذات اليمين وذات الشمال . وأكثر من أقوال دانتى دلالة على أخلاق البنادقة تلك العقوبات الصارمة الواردة

فى الشرائع البندقية لتوقع على الآباء الذين يحرضون أبناءهم على الفسق ، وتلك القوانين التى تكرر وضعها بلا جدوى لمنع الارتشاء فى الانتخابات(١٦) . والصورة التى تنطبع فى أذهاننا منها هى صورة أرستقراطية صارمة ساطعة اعتادت منظر بؤس الجماهير فلم تعد تتأثر به ؛ وسوقة تخفف من حدة الفقر بمباهج الحب الطليق . ونحن نسمع منذ عام ١٠٩٤ عن مواكب « الكرنفال » وذكرت « المساخر » لأول مرة فى عام ١٢٢٨ ؛ وفى عام ١٢٩٦ جعل مجلس الشيوخ اليوم السابق للصوم الكبير عيداً شعبياً . يزدان فيه السكان — رجالا ونساء — بأغلى أثوابهم وأبهى زينتهم ، فكانت النساء ذوات الثراء يتوجن أنفسهن ، بتيجان أو قلانس أو عمائم منسوجة بخيوط الذهب ، وتتلألأ عيونهن تحت أقنعة من نسيج الذهب أو الفضة ، وفى أعناقهن عقود من اللؤلؤ ، وفى أيديهن قفازات من جلد الشموا Chamois أو نسج الحرير ، وفى أقدامهن أخفاف أو أحذية من الجلد ، أو الخشب ، أو الفلين ، حمراء اللون أو ذهبية ؛ وأثوابهن من نسيج التيل الرفيع أو الحرير العادى أو المشجر أو المطرز ، والمنثورة ، عليه الجواهر ، يكشف عن أعناقهن وما تحت أعناقهن ، فكن بذلك فتنة لأهل زمانهن وشاهداً على ما فيه من فضائح وآثام . وكن يضعن على رؤوسهن شعراً مستعاراً ، ويستعملن الأدهان الملونة والمساحيق ، ويصمن لكن تصبح أجسامهن نحيلة رشيقة(١٧) . وكن يسرن بكامل حريتهن وسط الجماهير فى أى وقت يردن ، ويشتركن فى غواية وخفر فى حفلات اللهو والتنزه فى القوارب ، ويستمعن فى سرور إلى الشعراء الغزلين الذين أدخلوا أساليب الغناء البروفنسية فى موضوعات الحب الأبدية .

ولم يكن البنادقة يميلون فى هذا الوقت إلى الثقافة . نعم إنهم كانت لهم مكتبة عامة طيبة ، ولكن يبدو أنهم قلما كانوا يفيدون منها ، ولم يسهموا بنصيب فى العلوم ، ولم يخلفوا وراءهم شعراً خالداً ظهر فى وسط هذا الثراء المنقطع النظير .

وكانت المدارس كثيرة عندهم فى القرن الثالث عشر ، ولدينا ما يدل على أنهم كانوا يعطون الطلاب الفقراء منحاً تمكنهم من مواصلة الدرس ، ولكننا نعرف أنه كان لديهم فى القرن الرابع عشر قضاة لا يعرفون القراءة[١٨] . وكانوا يقدرون الموسيقى أعظم تقدير ، أما الفن فلم يكن قد وصل إلى الدرجة العالية التى بلغها فيما بعد ؛ غير أن الثراء كان يأتى إلى البندقية بالفن من بلاد كثيرة ، وكان ذوق الأهلين آخذاً فى الارتقاء ؛ وكانت أسسه توضع فى هذه الفترة وبخاصة فن الزجاج ، وقد بقى لهم بعض ما كان للرومان الآخرين من حذق فيه .

وليس من حقنا أن نصور البندقية فى ذلك العصر بتلك الصورة الجميلة التى وجدها عليها ڤاجنر Wagner أو نتشه فى القرن التاسع عشر . فقد كانت بيوتها مقامة من الخشب ، وشوارعها من الأرض العادية ؛ وإن كان طريق سان ماركو قد رصف بالآجر فى عام ١١٧٢ ؛ وكان الحمّام موجوداً فى المدينة منذ عام ١٢٥٦ . وبدأ البنادقة يقيمون الجسور على القنوات وكان أصحاب القوارب ينقلون الناس فى القناة العظمى . أما القنوات الجانبية الصغرى فالراجح أنها كانت أقل بهجة مما هى عليه الآن ؛ ذلك أن النضوج الكامل فى كل شىء يتطلب بعض الوقت . غير أن ما فى الشوارع والقنوات من عيوب لا يمكن أن يحجب عن العين عظمة مدينة ترتفع جيلا بعد جيل من مناقع البحر الضحل وضبابه ، أو يحول بين الإنسان وبين الدهشة من شعب يدفع هامته من الخراب والعزلة ليغطى سطح البحر بسفنه ويجبى المال ويستورد الجمال من نصف العالم .

وكانت مدينة ترڤيزو Treviso وتخومها تقع بين البندقية وجبال الألب ، ولن نقول عن هذه المدينة إلا أن أهلها كانوا يحبون الحياة حباً جماً ، ويسمونها بلد الحب ويقولون إن المدينة احتفلت فى عام ١٢١٤ بعيد

قصر الحب ، فأقيم قصر من الخشب علقت فيه الطنافس والأقشة المزركشة ، وتيجان الزهر ، وجاءت نساء المدينة فأمسكن بالقصر وهن مسلحات بالماء المعطر ، والفاكهة ، والأزهار ، ثم أقبل الفرسان الشبان من أهل البندقية ينافسون شباب بدوا المرح الجرىء فى حصار السيدات ، ويعطرونهن وابلا مماثلا لقذائفهن ؛ ويقال إن البنادقة كسبوا المعركة بأن خلطوا الأزهار بقطع النقود الذهبية . ومهما يكن سبب هذا النصر فقد سقط الحصن وحامياته الحسان فى أيديهم[١٩] .

الفصل الرابع

من منتوا إلى چنيوى

كانت المدائن الشهيرة فى لمباردية تحكم السهول الواقعة فى غرب ڤنيتو والمحصورة بين نهر البو وجبال الألب وهى : منتوا ، وكرمونا ، وبريشيا ، وبرجامو ، وكومو ، وميلان ، وپاڤيا . وكانت فى جنوب نهر البو ، فى المقاطعة المعروفة باسم إميليا Emilia فى هذه الأيام ، مدائن مودينا ، ورجيو ، وپارما ، وپياسنزا ، ولسنا نعتقد أن من يحبون إيطاليا سيملون من تكرار هذه الأسماء على مسامعهم . وكانت ولاية پيدمونت Piedmont المحصورة بين لمباردية وفرنسا تضم فرسلى Vercelli وتورين ، وفى جنوبى هاتين البلدتين كانت تنحنى حول خليج چنوى ومدينة چنوى نفسها . وثروة هذا الإقليم هدية من نهر البو الذى يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، يحمل المتاجر ، ويملأ القنوات ويروى الحقول . وكان نشاط الصناعة والتجارة فى هذه المدن هو الذى حباها بالثروة والعزة اللتين جعلتاها تغض الطرف فى معظم الأوقات عما كان للإمبراطور الألمانى من سيادة اسمية عليها وأمكناها من أن تخضع الأشراف شبه الإقطاعيين المقيمين خلفها .

وكانت كنيسة كبرى تقوم عادة فى وسط كل بلدة من هذه البلدان الإيطالية ، لكى تخلع البهجة والسرور على الحياة بمواكب التقى وقوة الأمل . وكان إلى جانبها مكان التعميد الدال على تمتع الطفل بمزايا المواطنية المسيحية وتبعاتها ، وبرج الأجراس التى تدعو الناس إلى العبادة أو الاجتماع أو حمل السلاح . وفى الميدان العام المجاور للكنيسة الكبرى كان الفلاحون والصناع يعرضون

بضاعتهم ، والممثلون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والشعراء الجائلون يمثلون أدوارهم ، والمنادون يعلنون ما يريدون ، والمواطنين يثرثرون بعد قداس أيام الآحاد ، والشبان أو الفرسان يتبارون فى الألعاب الرياضية أو البرجاس . وكانت قاعة عامة للمدينة ، وبضعة حوانيت وبيوت ومساكن مشتركة يتكون منها سياج من الآجر حول الميدان . ومن هذا المكان الوسط تمتد الشوارع المتعرجة الملتوية التى يبلغ من ضيقها أنه إذا سار فيها راكب فرس أو مرت بها عربة اضطر الراجلون إلى الانزواء فى مدخل بيت أو الالتصاق بجدار . ولما تقدم القرن الثالث عشر وازدادت ثروة الأهلين استخدمت قطع القرميد فى تسقيف البيوت المطلية جدرانها بالمصيص فراق منظرها فى أعين من يستطيعون نسيان الوحل والروائح الكريهة . وكان الميدان والشوارع الكبرى دون غيرها هى المرصوفة ، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج وشرفات لأن الحروب كانت كثيرة فى تلك الأيام ، وكان من واجب الإنسان أن يعرف كيف يقاتل إذا لم يشأ أن يكون راهباً .

وكانت ميلان وجنوى أكبر هذه المدن كلها . وكانت جنوى — الفخمة كما كان يسميها أحباؤها — ذات موقع ممتاز للعمل والمتعة . فقد كانت تقوم على تل مواجه للبحر الذى يغرى بالاتجار ، وتستمتع بجو الرفييرا الدافئ الذى يمتد إلى رابلو Rapallo فى الشرق وسان ريمو San Remo فى الغرب . وكانت جنوى منذ أيام الرومان ثغرا نشيط الحركة ، ولهذا كان سكانها تجاراً ، وصناعاً ، ورجال مصارف ، وصناع سفن ، وبحارة ، وجنوداً ، وساسة . ونقل مهندسو جنوى الماء النقى إليها من الألب الليجورية Ligurian Alps فى قناة مسقفة لاتقل عن قنوات رومة القديمة ، وأقاموا حاجزاً ضخماً فى الخليج المسمى باسمها ليجعلوا مرفأها العظيم آمناً فى أثناء العواصف والحروب . وقلما كان أهل جنوى يعنون بالآداب أو الفنون فى تلك الأيام ؛ شأنهم فى هذا شأن البنادقة المعاصرين لهم ؛ فقد كانوا يصرفون جهودهم كلها فى التغلب على منافسيهم وارتياد سبل جديدة

للكسب . وكاد مصرف جنوى يكون هو الدولة ، فقد كان يقرض المدينة المال بشرط أن يحصل هو إيراداتها ، وكان يفضل سلطانه هذا يسيطر على الحكومة ، وكان كل حزب يتولى السلطة يتعهد بأن يكون وفياً مخلصاً للمصرف ؛ ولكن أهل جنوى كان لهم من الشجاعة بقدر ما لهم من حب الكسب ، فقد تعاونوا مع أهل پيزا على إخراج المسلمين من غربى البحر المتوسط (١٠١٥ — ١١١٣) ، ثم حاربوا بيزا حروبا منقطعة حتى قضوا على القوة المنافسة لهم فى واقعة ملوريا Meloria البحرية (١٢٨٤) . وجندت پيزا فى هذه الحرب الأخيرة كل من كان فيها من الرجال بين العشرين والستين من العمر ، كما جندت جنوى كل من كان فيها بين الثامنة عشرة والسبعين . وتلك حقيقة فى وسعنا أن نعرف منها روح ذلك العصر وحالته النفسية . وكتب الراهب سلمبينى Salimbene فى ذلك يقول « بين أهل پيزا وأهل جنوى ، وكذلك بين أهل بيزا وأهل لوكا Lucca ، من الحقد والاشمئزاز الطبيعى بقدر ما بين الآدميين والأفاعى[٢١] » . وظل الرجال يقتتلون يدا بيد فى هذه الواقعة الأخيرة التى حدثت فى البحر قرب ساحل قورسقة حتى هلك نصف المحاربين » وارتفعت فى جنوى وبيزا أصوات الحزن والعويل كما لم ترتفع فى هاتين المدينتين من يوم أنشئنا إلى أيامنا هذه »[٢٢] . ولما علم أهل لوكا وفلورنس الأخيار بالكارثة التى حلت ببيزا وفلورنس ظنوا أنهم قد لاحت لهم أحسن فرصة لإرسال حملة لقتال تلك المدينة البائسة ، ولكن البابا مارتن الرابع أمرهم أن يكفوا عن القتال ، واندفع أهل جنوى فى هذه الأثناء نحو الشرق وتضاربت مصالحهم مع مصالح البنادقة ، فنشأت بينهم أشد الأحقاد ، وتنازع أهل المدينتين فى عام ١٢٥٥ على امتلاك عكا ، وانحاز فرسان المستشفى فى المعركة إلى جانب أهل جنوى ، كما انضم فرسان المعبد إلى البنادقة ؛ وسقط فى هذه المعركة وحدها عشرون ألف رجل[٢٣] ، وكانت سبباً فى تحطيم وحدة المسيحيين فى بلاد الشام ، ولعلها هى التى قررت

إخفاق الحروب الصليبية . وظل النزاع قائماً بين جنوى والبندقية حتى عام ١٣٧٩ ، حين منيت جنوى بهزيمة ساحقة لا تقل فى ذلك عما لحق بييزا على يديها قبل ذلك بمائة عام .

وكانت ميلان أغنى مدائن لمباردية وأقواها ؛ وكانت من قبل إحدى العواصم الرومانية ، ولهذا كانت تفخر بقدم عهدها وتقاليدها . ذلك أن قناصل جمهوريتها قد تحدوا الأباطرة ، وأساقفتها تحدوا البابوات ، وآوى أهلُها الملحدين الذين تحدوا المسيحية نفسها أو اشتركوا معهم فى إلحادهم . وكان فيها فى القرن الثالث عشر مائة ألف من الأهلين ، وثلاثة عشر ألف بيت وألف حانة[٢٤] . وكانت هى مولعة بالحرية حريصة عليها ، فلم تتخل عنها راضية إلى غيرها ، وكان جنودها يطوفون بالطرق ليرغموا القوافل ، أياً كانت وجهتها ، على أن تعرج على ميلان أولا . وقد دمرت كومو ولودى Lodi ، وحاولت أن تخضع پيزا ، وكرمونا ، وپافيا ، ولم تركن إلى السكون حتى سيطرت على جميع تجارة نهر الپو[٢٥] . ووقف رجلان من أهل لودى أمام مجمع كنستانس عام ١١٥٤ وتوسلوا إلى فردريك بربرسا أن يحمى مدينتهم ؛ وبعث الإمبراطور إلى ميلان يحذرها من مواصلة العدوان على لودى ؛ فرفضت المدينة رسالته فى سخرية ووطئتها بالأقدام . واغتنم فردريك هذه الفرصة ليحقق رغبته التى طالما تاقت نفسه إليها وهى تدمير ميلان (١١٦٢) ، ولم تمض خمس سنين على هذا التدمير حتى أعاد الباقون من أهلها هم وأصدقاؤهم بناء المدينة ، وابتهجت لمباردية جميعها ببعثها ، ورأت فيه رمزاً لتصميم إيطاليا على ألا يحكمها قط ملك ألمانى . وخضع فردريك ، ولكنه قبل أن يموت زوج ابنه هنرى السادس من كنستانس ابنة روجر الثانى ملك صقلية ؛ ووجدت العصبة اللمباردية فى ابن هنرى رجلا أشد رهبة من فردريك .

الفصل الخامس

فردريك الثانى ١١٩٤ – ١٢٥٠

١ – الصليبى المحروم

كانت كنستانس فى سن الثلاثين حين تزوجت هنرى ، وكانت فى الثانية والأربعين حين ولدت ابنها الوحيد . وخشيت أن يرتاب الناس فى حملها وفى شرعية طفلها فأمرت بأن تنصب خيمة فى السوق العامة أيزى lesi (القريبة من أنكونا) ؛ وفيها وعلى مرأى من الحاضرين جميعاً ولدت الغلام الذى أصبح فيما بعد أكثر الناس فتنة فى القرن الأخير من العصور الوسطى . وكان يجرى فى عروق الوليد دم ملوك النورمان الإيطاليين ممتزجا بدماء أباطرة هوهنستاوفن الألمان .

وكان فى الرابعة من عمره حين توج فى پالرم ملكا على صقلية (١١٩٨) ؛ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه . وأوصت قبل موتها أن يكون البابا وصيا على ابنها ، وأن يتولى تعليمه وحمايته السياسية ، وعرضت عليه فى نظير ذلك راتباً مجزيا ، وأن ينوب عنه فى الحكم ، وأن تعاد له السيادة على صقلية . وقبل البابا هذا العرض مسروراً ، واستخدم مركزه فى إنهاء ذلك الاتحاد بين صقلية وألمانيا الذى أقامه والد فردريك ؛ ذلك أن البابوات كانوا يخشون بحق قيام دولة كبرى تحيط بولايات البابا من جميع الجهات ، وتكون فى الواقع سجنا للبابوية وصاحبة السلطان عليها . وأعد إنوسنت العدة لتعليم فردريك ، ولكنه أيد أتو الرابع فى أن يتولى عرش ألمانيا . وشب فردريك محوطا بالإهمال وبالفقر فى بعض الأحيان ؛ حتى كان ذوو القلوب

الرحيمة من أهل بالرم يأتون الطعام لهذا الغلام الملكي البائس[٢٦] . وكان يسمح له بأن يجرى فى شوارع العاصمة المتعددة الأجناس واللغات وفى أسواقها كما يشاء ، وأن يختار أصدقاءه كما يشتهى . ولم يتلق الغلام تعليما منتظما ، ولكن عقله المتعطش للمعرفة كان يتعلم من كل ما يرى ويسمع ، حتى لقد دهش العالم فيما بعد من اتساع معلوماته ودقتها . فقد تعلم فى تلك الأيام وبالطريقة السالفة الذكر اللغتين العربية واليونانية ، وبعض معارف اليهود ، وعرف فى أيام شبابه خلقا من شعوب مختلفة ، ذوى ملابس ، وعادات ، وعقائد متباينة ، ولم يتخل قط عن عادة التسامح التى ألفها فى صغر سنه . وقرأ كثيراً من كتب التاريخ ، وأصبح كاتبا بليغا ومثاقفا ماهراً ، ومغرما بالخيل والصيد . وكان قصير القامة ، قوى البنية ، « ذا وجه جميل جذاب »[٢٧] ، وشعر متلو أحمر طويل ، نشيطا ، فخوراً ، سريع البت فى الأمور . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصل الرجل الذى انتدبه البابا لينوب عنه فى الوصاية عليه وتولى زمام الأمور بنفسه . وبلغ الحلم فى الرابعة عشرة وتزوج فى الخامسة عشرة من كنستانس الأرغونية Constance of Aragon ، وشرع يعمل ليسترد عرش الإمبراطورية .

وواتاه الحظ فنال بغيته ، ولكن ذلك لم يكن من غير ثمن . وتفصيل ذلك أن أتو الرابع نقض العهد الذى قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا فى الولايات البابوية ، فحرمه البابا من الكنيسة ، وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فردريك الشاب الذى تحت وصايته « لأن له حكمة الشيوخ وإن كان لا يزال فى سن الشباب »[٢٨] . ولكن إنوسنت ، وقد مال فجأة إلى فردريك ، لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها . ولهذا طلب إلى فردريك نظير تأييده إياه (١٢١٢) أن يتعهد له أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية ، وأن يحمى الولايات البابوية من كل عدوان ؛ وأن تظل « الصقليتان » — وهما إيطاليا الجنوبية النورمانية والجزيرة — منفصلتين

انفصالا دائماً عن الإمبراطورية ، وأن يقيم فى ألمانيا بوصفة إمبراطوراً عليها ، ويترك الصقليتين لابنه الطفل هنرى ليكون مكاً على صقلية ، وأن ينوب عنه فى حكمها نائب يعينه إنوسنت ؛ وتعهد فردريك فضلا عن هذا كله أن يحافظ على جميع حقوق رجال الدين وسلطانهم فى دولته ، وأن يعاقب المارقين ، وأن يحمل الصليب ويخرج إلى الحرب الصليبية . ودخل فردريك ألمانيا بعد أن أمده البابا بالمال اللازم لرحلته ورحلة حاشيته . وكانت لا تزال تحت سلطان جيوش أتو . لكن هذه الجيوش منيت بالهزيمة فى بوفين على يدى فليب أغسطس ؛ فانهارت مقاومة أتو ، وتوج فردريك إمبراطوراً باحتفال فخم مهيب فى آخن (١٢١٥) . وفيها جدد الوعد الذى قطعه على نفسه من قبل بأن يشن حرباً صليبية . وتأثر كثير من الأمراء بحماسة النصر الذى ناله الشاب فأقسموا يميناً مثل يمينه . وخيل إلى ألمانيا حيناً من الدهر أنه داود ثان بعثه الله لينقذ أورشليم بلد داود من ورثة صلاح الدين .

لكن الأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة ، فقد حشد هنرى أخو أتو جيشاً ليخلع به فردريك ، ووافق هونوريوس الثالث Honorius III البابا الجديد على أن يدافع الإمبراطور الشاب عن عرشه . وانتصر فردريك على هنرى ، ولكنه تورط وقتئذ فى الشئون السياسية للإمبراطورية ، ويلوح أنه كان يحن إلى موطنه الأول فى إيطاليا ، فقد كان دم الجنوب وحرارة الجنوب ممتزجين بطبعه ، وكانت ألمانيا تضايقه ، فلم يقض فيها من سنيه الست والخمسين إلا ثمانية أعوام لا أكثر . وقد أعطى البارونات سلطات إقطاعية واسعة ، ومنح عدداً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وعهد بحكم ألمانيا إلى إنجلبرت كبير أساقفة كولونى ، وهرمان السالزى Herman of Salza الرجل الحازم القدير كبير الفرسان التيوتون . وتمتعت ألمانيا بالسلم والرخاء فى السنين الخمس والثلاثين التى تولى فيها العرش على الرغم من إهماله الظاهرى لشئونها . وبلغ من رضاء البارونات

والأساقفة عن سيدهم الغائب أن توّجوا مرضاة له ابنه هنرى البالغ من العمر سبع سنين « ملكاً على الرومان » — أى وارثاً لعرش الإمبراطورية (١٢٢٠) . وعين فردريك نفسه فى الوقت عينه نائباً فى صقلية عن هنرى الذى بقى وقتئذ فى ألمانيا . وبدّل هذا العمل خطط إنوسنت تبديلا تاماً ، ولكن إنوسنت كان قد فارق هذا العالم . وخضع هونوريوس للأمر الواقع ، ولم يكتف بالخضوع له بل توّج فردريك إمبراطوراً فى رومة ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يرحل فردريك من فوره لإنقاذ الصليبيين فى مصر . لكن بارونات إيطاليا الجنوبية ومسلمى صقلية خرجوا عليه وقتئذ ، وقال فردريك إنه لا بد له أن يعيد النظام فى مملكته الإيطالية قبل أن يخاطر بالغياب عنها زمناً طويلا . يضاف إلى هذا أن زوجته ماتت فى ذلك الوقت (١٢٢٢) . وأراد هونوريوس أن يغريه بأن يبرّ بقسمه فأقنعه بأن يتزوج إزابلا Isabella ، وارثة عرش أورشليم الضائعة ، ووافق فردريك على هذا الزواج وأضاف لقب « ملك أورشليم » إلى لقبيه الآخرين وهما ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ثم أخرت سفره مرة أخرى متاعب قامت فى المدن اللمباردية . ومات هونوريوس فى عام ١٢٢٧ واعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة . وأخذ فردريك وقتئذ يعد العدة فى جد ، فأنشأ أسطولا عظيما ، وحشد أربعين ألفاً من المحاربين الصليبيين فى برنديزى ، لكن وباء مروعاً فشا فى جيشه ، مات منه آلاف ، وفرّت منه آلاف أكثر منها . وأصيب بهذا الوباء الإمبراطور نفسه ، وكبير قوّاده لويس الثورنچيانى Louis of Thuringia . ومع هذا فقد أصدر فردريك أمره بالرحيل ، ومات لويس ، وساءت حال فردريك ، وأشار عليه أطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بأن يعود إلى إيطاليا ، فعمل بمشورتهم ، وطلب العلاج من مرضه فى بزيولى Pozzuoli . ونفد صبر البابا جريجورى ؛ فلم يستمع إلى أقوال رسل فردريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور .

وبعد سبعة أشهر من ذلك الوقت أبحر فردريك إلى فلسطين (١٢٢٨) وهو لا يزال مطرودا من حظيرة الدين . فلما سمع جريجورى بوصوله بلاد الشام أحل رعايا فردريك وابنه هنرى من يمينى الولاء لهما ، وأخذ يعمل لخلع الإمبراطور . وعد نائب فردريك فى إيطاليا هذه الأعمال إعلانا للحرب من جانب البابا ، فهاجم الولايات البابوية . ورد جريجورى على هذا العمل بأن أرسل جيشاً لغزو صقلية ، وأشاع الرهبان أن فردريك قد مات ؛ وما لبث جزء كبير من صقلية وإيطاليا الجنوبية أن سقط فى يدى البابا . ووصل مندوبان عن البابا من رهبان الفرنسسكان مدينة عكا بعد أن وصلها فردريك بزمن قليل ، وحرما على كل رجل فى صفوف المسيحيين أن يطيع أمر الرجل الطريد . ودهش الكامل قائد جيوش المسلمين إذ وجد حاكما أوربيا يعرف اللغة العربية ، ويقدر الآداب والعلوم والفلسفة العربية أعظم التقدير ، فعقد صلحا مواتيا مع فردريك ، دخل على أثره الإمبراطور بيت المقدس فاتحا دون أن يريق فى هذا الفتح قطرة دماء . ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتتويجه ملكا على بيت المقدس فما كان منه إلا أن توج نفسه فى كنيسه الضريح المقدس . وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فردريك فى الضريح والمدينة قد دنسهما ، فحرما إقامة الخدمات الدينية فى بيت المقدس وعكا . وترامى إلى بعض فرسان المعبد أن فردريك يعتزم زيارة المكان الذى يقال إن المسيح قد عمد فيه فى نهر الأردن ؛ فبعث برسالة سرية إلى الكامل يقول فيها إن الفرصة قد واتته لأسر فردريك . فما كان من القائد المسلم إلا أن بعث بالرسالة إلى فردريك . وأراد الإمبراطور أن ترفع اللعنة عن بيت المقدس فغادرها فى اليوم الثالث بعد التتويج وسافر إلى عكا ، وفيها أخذ عامة المسيحيين يلقون عليه الأقذار وهو خارج منها إلى سفينته[٢٩] .

ولما وصل فردريك برنديزى جيش فيها من فوره جيشا جديداً . وزحف

به ليسترد المدن التي استسلمت للبابا . وفرجيش البابا أمامه وفتحت له المدن أبوابها ، ولم يقاوم منها إلا سورا Sora فضرب عليها الحصار حتى استولى عليها عنوة وأشعل فيها النار فدمرتها تدميرا . ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية ، وأرسل إلى البابا يدعوه إلى الصلح ، فأجاب البابا دعوته ووقعا معاهدة سان جرمانو San Germano (١٢٣٠) ، وألغى قرار الحرمان ورفرف لواء السلم إلى حين .

٢ — أعجوبة العالم

ثم وجه فردريك عنايته للشئون الإدارية ، فأخذ يعالج من مقره فى فجيا Foggia من أعمال أبوليا Apulia مشاكل دولته التي اتسعت فوق ما ينبغي أن تتسع . وزار ألمانيا فى عام ١٢٣١ وأيد فى « قانون لمصلحة الأمراء » ما كان هو وولده قد منحه من سلطان البارونات ؛ وذلك بأنه كان يرضى أن يسلم ألمانيا للإقطاع إذا كان تسليمه يتيح له السلم التي تمكنه من أن ينفذ ما يريده لإيطاليا ، ولعله أدرك أن معركة بوفين قد أنهت زعامة ألمانيا لأوربا ، وأن القرن الثالث عشر هو عصر فرنسا وإيطاليا ؛ وقد جوزى على إهماله شئون ألمانيا بتمرد ابنه وانتحاره .

واستطاع أن يؤلف بين عواطف الصقليين المتعددة وينشئ منها صرحا من النظام والرخاء يعيد إلى الأذهان مجدها فى أيام روجر الثانى . فقد ألقى القبض على المسلمين الثائرين المعتصمين بالجبال ، ونقلهم إلى إيطاليا ، ودربهم ليجعل منهم جنوداً مرتزقة ، فأصبحوا خير من يعتمد عليهم فى جيش فردريك . وفى وسعنا أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده . وظلت بالرم حتى ذلك الوقت عاصمة الصقليتين من الوجهة القانونية ، ولكن فجيا كانت هى العاصمة الحقيقية . وكان فردريك يحب إيطاليا حبا لا يعادله حب معظم الإيطاليين ، وكان يعجب كيف يقدر يهوه فلسطين هذا التقدير العظيم وإيطاليا على ظهر الأرض ؛ وكان يسمى إيطاليا الجنوبية « قرة عينه وملجأ وسط السيول »

وجنة وسط برية من الأشواك »[٣٠] ، وشرع فى عام ١٢٢٣ يشيد فى فجيا القصر الحصين الهائل الذى لم يبق منه اليوم إلا مدخله ؛ وسرعان ما قامت حول بيته مدينة من القصور يسكنها أعوانه ، ودعا أشراف مملكته الإيطالية ليكونوا وصفاء فى بلاطه ، وما زالوا يرقون فى خدمته حتى كان منهم عماله الذين تولوا شئون الحكومة الإدارية . وكان على رأس هؤلاء جميعاً پيرو دلى ڤجنى Piero delle Vigne خريج مدرسة الحقوق فى بولونيا . وقد عينه فردريك أميناً على بيت المال وأحبه كحبه ابنه أو أخاه ، وحل رجال القانون محل رجال الدين فى دولاب الحكم فى باريس بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ؛ فهنا فى أقرب الدول إلى كرسى القديس بطرس انتقل الحكم انتقالا تاما من أيدى رجال الدين إلى أيدى رجال الدنيا .

وإذ كان فردريك قد نشأ فى عصر الفوضى ، وتشبع بالآراء الشرقية ، فإنه لم يخطر بباله قط أن النظام المعروف باسم الدولة يستطاع المحافظة عليه بغير سلطان الملوك . ويبدو أنه كان يعتقد مخلصاً أنه إذا انعدمت السلطة المركزية القوية أهلك الناس أنفسهم ، أو افتقروا المرة بعد المرة بسبب الإجرام والجهل ، والحرب ؛ وكان مثل بربرسا يرى أن نظام المجتمع أعظم قيمة من حرية الشعب ، ويحس أن الحاكم الحازم الذى يستطيع المحافظة على النظام يستمتع بكل ما فى ملكه من نعيم . وكان يسمح للشعب بقدر من التمثيل فى حكومته : فقد أنشأ جمعيات تنعقد مرتين كل عام فى خمسة مواضع من مملكته ، لتعالج المشاكل ، والشكاوى والجرائم المحلية . ولم يدع إلى هذه الجمعيات أشراف الإقليم ومطارنته فحسب ، بل كان يدعو إليها بالإضافة إليهم أربعة مندوبين عن كل مدينة كبيرة ، ومندوبين اثنين عن كل بلدة . أما فيما عدا هذا فقد كان فردريك ملكا مطلق السلطان ، يرى أن القاعدة الأساسية التى يقوم عليها القانون الرومانى — وهى أن الأهلين قد عهدوا إلى الإمبراطور دون غيره الحق المطلق فى التشريع —

يرى أن هذه القاعدة من البدائه التي لا تقبل الجدل . وأصدر للدولة من ملفى Melfi عام ١٢٣١ الكتاب الأعظم وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد جستنيان ، وأهم كتاب في فقه التشريع في تاريخ القانون كله . ويرجع أكبر الفضل في صدوره إلى مهارة پيرودلى فجنى وحسن مشورته . وكان هذا القانون رجعياً من بعض الوجوه ؛ فقد أقر ما في النظام الإقطاعي من فروق بين الطبقات . وأيد ما كان للسيد الإقطاعي من حقوق قديمة على أرقاء أرضه ، لكنه كان في كثير من النواحي قانونا تقدمياً : فقد حرم الأشراف من سلطاتهم التشريعية والقضائية ، وحقهم في سك العملة ، وركز هذه الحقوق كلها في الدولة ؛ وألغى نظام التقاضي بالقتال أو التحكيم الإلهي ، وأنشأ نظام المدعين العموميين المعينين من قبل الدولة لتعقب الجرائم التي ظلت حتى ذلك الوقت تفلت من العقاب إذا لم يتقدم مواطن ما بعرضها على القضاء . وندد الكتاب بالتباطؤ في إصدار الأحكام ، ونصح القضاة بتقصير خطب المحامين ، وحتم على محاكم الدولة أن تعقد جلساتها في كل يوم ما عدا أيام العطلة الرسمية .

وعنى فردريك كما عنى معظم الحكام في العصور الوسطى بتنظيم شئون الاقتصاد القومي ، فحدد « ثمناً عادلا » لعدد من مختلف الخدمات والسلع . وأممت الدولة إنتاج الملح ، والحديد ، والصلب ، والقنب ، والقار ، والمنسوجات المصبوغة ، والأقمشة الحريرية[٣١] ؛ وأقامت الدولة مصانع للنسيج تعمل فيها إماء مسلمات على أعين رؤساء من الخصيان[٣٢] ؛ وكانت تمتلك وتدير مذابح الحيوانات والحمامات العامة ؛ وأنشأت مزارع نموذجية ، وشجعت زراعة القطن وقصب السكر ، وطهرت الغابات والحقول من الحيوانات الضارة ، وشقت الطرق وأقامت القناطر ، وحفرت الآبار لتزيد موارد المياه[٣٣] . وكان الجزء الأكبر من التجارة الخارجية في يد الدولة تنقله سفن تمتلكها الحكومة ، كان في واحدة منها ثلثمائة من الملاحين[٣٤] . وخفضت المكوس المفروضة على التجارة الداخلية إلى الحد

الأدنى ، ولكن العوائد المفروضة على الصادرات والواردات كانت أكبر مورد من موارد الدولة . وكان ثمة ضرائب أخرى كثيرة ، لأن هذه الحكومة كانت تستطيع أن تجد على الدوام ، كما تجد سائر الحكومات ، منافع للمال . ومن بين الأعمال التى تعلى من قدر فردريك أنه وضع نظاماً سليماً للنقد روعيت فيه واجبات الشرف والأمانة .

وكان فردريك وحده سيد هذه الدولة والمدير لجميع شئونها ، وأراد أن يجعلها ذات جلال وقداسة دون أن يعتمد على المسيحية التى كانت فى العادة مغاضبة له ، فبذل غاية فى جهده فى أن يخلع على نفسه كل ما كان يحيط بالإمبراطور الرومانى من رهبة وجلال . فلم يطبع على نقوده الجميلة الشكل شعاراً أو لفظاً مسيحياً ، بل طبع حول أحد وجهيها تلك الأقصوصة Aug Cesar Rom Imp (الإمبراطور الرومانى قيصر أغسطس) وطبع على الوجه الآخر النسر الرومانى يحيط به اسم Fredericus (فردريكوس) . ولقن الناس أن الإمبراطور كان بمعنى ما ابن الله ، وأن شرائعه هى العدالة الإلهية مقننة ، وكانوا يشيرون إليه بلفظ Iustitia وهى كلمة تكاد تكون صيغة الغائب الثالوث جديد . وكان فردريك يحرص على أن يوضع إلى جانب أباطرة الرومان فى التاريخ ومعارض الفن ، فأمر المثالين بأن ينحتوا له تماثيل من الحجارة ، وزينت رأس قنطرة فى ڤلتورنو Volturno ، وفتحة باب فى كپوا ، بنقوش من الطراز القديم تمثله هو وأعوانه ؛ ولم يبق من هذا كله إلا رأس أنثى ذو جمال بارع[٣٥] . لكن هذه المحاولة التى بذلت قبل عصر النهضة لإحياء الفن القديم أخفقت لأن تيار الفن القوطى قد اكتسحها أمامه .

واستطاع فردريك ، رغم اقترابه من الألوهية ، وجده المتواصل فى شئون الملك أن يستمتع بالحياة بمختلف نواحيها فى بلاطه بفجيا . فقد كان لديه جيش من الأرقاء ، كثرتهم من المسلمين ، يقومون على خدمته ، ويشرفون على

دولاب حكومته وموظفيه . ولما توفيت زوجته الثانية تزوج بإزبلا الإنجليزية عام ١٢٣٥ ؛ ولكن إزبلا الإنجليزية لم يكن فى مقدورها أن تفهم عقليته أو أخلاقه ، فآثرت الانزواء وتركت فردريك يستمتع بعشيقاته حتى ولد له ابن غير شرعى . وكان أعداؤه يتهمونه بأنه أنشأ لنفسه « حريماً » ، كما اتهمه جريجورى التاسع باللواط[٣٦] ؛ ورد فردريك على ذلك بقوله إنه يحتفظ بجميع أولئك النساء البيض والسود ، والغلمان لبراعتهم فى الغناء ، والرقص ، والألعاب البهلوانية ، أو غيرها من ضروب التسلية المعتادة فى بلاط الملوك . وكان يحتفظ فضلا عن هذا كله بحديقة للحيوان البرى ، وكان يسافر أحياناً وفى صحبته عدد من الفهود ، والوشق ، والآساد ، والنمورة الرقطاء ، والقردة ، والدببة ، مسلوكة فى السلاسل يقودها عبيد من المسلمين . وكان فردريك مولعاً باقتناص الحيوان وصيد الحيوان بالصقورة ، وجمع الطيور الغريبة ، وقد كتب لابنه مانفرد Manfred رسالة علمية فى الصيد بالبزاة جديرة بالإعجاب .

وكان أعظم ما يستمتع به بعد الصيد هو الحديث الظريف المهذب — delico parlare ، فكان يفضل التقاء العقول الحصيفة على المبارزة بالسلاح ، وكان هو نفسه أعظم المحدثين ثقافة فى أيامه ، وقد اشتهر بفكاهته وسرعة بديهته ، وكان هو ڤلتير نفسه[٣٧] . وكان يتحدث بتسع لغات ويكتب سبعاً منها ، ويراسل الكامل باللغة العربية ، ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده ، ويكتب باللغة اليونانية إلى چون ڤاتتزس John Vatatzes زوج ابنته وإمبراطور الروم ؛ وباللغة اللاتينية إلى العالم الغربى . وكان رفاقه — وبخاصة پيرودلى ڤجنى — يصوغون أسلوبهم اللاتينى البليغ على نمط الكتب الرومانية القديمة ؛ لأنهم كانوا يحسون بروح الكتاب الرومان الأقدمين تسرى فى نفوسهم ويعملون على محاكاة هؤلاء الكتاب ، وكادوا يكونون هم الرواد السباقين لكتاب عصر النهضة ذوى النزعة الإنسانية . وكان فردريك نفسه شاعراً ، أثنى دانتى

على شعره اللاتيني ، وقد أدخل غزل پروڤانس والشعراء المسلمين الغزلين في بلاطه ، وتعلق به ، وقلده النبلاء الشبان الذين كانوا في خدمة المليك . وكان الإمبراطور نفسه يحب أن يستريح من العناء بعد أن يقضي يوماً في تصريف شئون الملك أو الصيد أو الحرب ومن حوله النساء الحسان والشعراء يتغنون بأمجاده ومفاتن نسائه ، كما كان يفعل بعض الأمراء في بغداد .

وكان فردريك كلما تقدمت به السن يوجه قسطاً متزايداً من اهتمامه إلى العلوم والفلسفة . وكان أكبر ما يبعث فيه هذه الرغبة العلمية هو التراث الذي خلفه المسلمون في صقلية . وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة ، واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين واليهود ، وأجاز العلماء على ترجمة المراجع الهامة اليونانية والإسلامية إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر بأن يبعث له بأحد الرياضيين الذائعي الصيت ، كما كان على صلة ودية وثيقة بليوناردو فيبوناتشي Leonards Fibonacci أعظم علماء الرياضة المسيحيين في أيامه . لكنه كان يشارك أهل زمانه في بعض خرافاتهم ، واشتغل بالتنجيم والكيمياء الكاذبة ، وأغرى ميخائيل اسكت Michael Scot الذي كان واسع المعرفة في علوم مختلفة بأن يجيء إلى بلاطه ، وأخذ يدرس معه بعض العلوم الخفية بالإضافة إلى الكيمياء ، والتعدين ، والفلسفة . وكان شغوفاً بالإطلاع في جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين في بلاطه وإلى غيرهم في البلاد النائية كمصر ، وبلاد العرب ، والشام والعراق . وكانت لديه حديقة للحيوان يتخذها للدرس لا للهو ، ونظم تجارب علمية في تربية الدجاج ، والحمام ، والخيل ، والجمال ، والكلاب ، ووضع قوانين لتحريم الصيد في مواسم معينة قائمة على أساس سجلات دقيقة خاصة بمواسم التزاوج والتوالد عند الحيوان حتى قيل إن حيوانات أپوليا كتبت إليه تشكره على حسن صنيعه . وقد تضمنت شرائعه تنظيماً مستنيراً لمهنة الطب ، والجراحات

الطبية وبيع العقاقير . ولم يكن يرى حرجاً فى تشريح جثث الموتى ، وكان الأطباء المسلمون يعجبون من سعة علمه بالتشريح . أما الفلسفة فحسبنا دليلا على واسع علمه بها أنه طلب إلى بعض علماء المسلمين أن يفسروا ما بين آراء أرسطو والإسكندر الأفروديسى من تناقض فى خلود العالم . ولقد حياه ميخائيل اسكت بقوله : « أيها العاهل المحظوظ ، إنى لقوى الاعتقاد بأنه لو كان فى مقدور رجل ما أن يفر من الموت بعلمه لكنت أنت ذلك الرجل »(٣٨) .

وكان فردريك يخشى أن تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، فأنشأ فى عام ١٢٢٤ جامعة نابلى – وهى أنموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة إلى موافقة السلطات الدينية على إنشائها . وقد استدعى إليها علماء متبحرين فى جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ، ورتّب إعانات مالية ليمكن النابهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرّم على شباب مملكته أن يخرجوا منها فى طلب التعلم العالى ؛ وكان يأمل أن تنافس نابلى بعد وقت قصير مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرّب الناس على أعمال الإدارة العامة .

وبعد فهل كان فردريك ممن ينكرون وجود الله ؟ لقد كان فى شبابه من الأتقياء الصالحين ، ولعله ظل مستمسكا بالعقائد الأساسية فى الديانة المسيحية إلى أيام حربه الصليبية . ثم يبدو أن اتصاله الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية . وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدراً من أفكار المسيحيين ومعارفهم أيامه . ومما يدل على ذلك أنه لما عقد مجمع الأمراء الألمان فى فريولى Friuli (١٢٣٢) استقبل وفداً من المسلمين أحسن استقبال ، ثم اشترك على رأى من الأساقفة والأمراء مع هؤلاء المسلمين فى وليمة أقيت للاحتفال بأحد الأعياد الدينية الإسلامية(٣٩) . ويقول عنه ماثيوباريس Matthew Paris : « ويقول أعـــداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد

ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى . . . وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين »[٤٠] . وشاعت عنه شائعة صدقها جريجورى التاسع تتهمه بأن قال إن « ثلاثة من المشعوذين ساقوا بدهائهم أهل زمانهم ليسودوا بهم العالم — موسى ، وعيسى ، ومحمداً ! » . ودوى هذا السباب والكفران فى جميع أنحاء أوربا ، وأنكر فردريك التهمة ، ولكنها ساعدت على نفور الرأى العام منه فى آخر أزمات حياته . وما من شك فى أنه كان حر الفكر إلى حد ما ، فقد كانت لديه شكوكه فى العقيدة القائلة بأن العالم خلق دفعة واحدة فى زمن معين ، وفى خلود الفرد ، وفى ولادة العذراء ، وفى أمثالها من العقائد الواردة فى الدين المسيحى[٤٢] . وقال حين رفض مبدأ التحكيم الإلهى : « منذا الذى يصدق أن الحرارة الطبيعية الكامنة فى فى الحديد المتوهج تبرد من غير سبب كاف ، أو أن عنصر الماء يرفض قبول (غمر) المتهم لأنه ميت الضمير »[٤٣] . ولم ينشئ فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة .

وقد منح جميع أصحاب العقائد المختلفة فى مملكته حرية العبادة ببعض القيود ، فقد كان الروم الكاثوليك ، والمسلمون ، واليهود يمارسون شعائر دينهم دون أن يصيبهم أذى ، ولكنهم لم يكن فى مقدورهم (إلا فى حالة واحدة) أن يدرّسوا فى الجامعة ، أو أن يرقوا إلى منصب رسمى فى الدولة . وكان يحتم على جميع المسلمين والعبرانيين أن يرتدوا ثيابا تميزهم عن المسيحيين ، وألزم المسلمين واليهود بأن يؤدوا نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ضريبة الفرضة التى كان الحكام المسلمون يفرضونها على المسيحيين واليهود ؛ وكانت شرائع فردريك تعاقب من يعتنق الدين اليهودى أو الإسلامى من المسيحيين أشد العقاب ، غير أنه لما اتهم يهود فلدا Fulda فى عام ١٢٣٥ بأنهم يقتلون طفلا مسيحياً ليستخدموا دمه فى عيد فصحهم هب فردريك لإنقاذهم ، وكذب القصة وقال إنها خرافة اخترعها غلاظ القلوب ، وكان عنده فى بلاطه عدد من العلماء اليهود[٤٤] .

وأشد ما يلاحظ من تناقض فى حكم هذا المليك الذى يجرى على سنن العقل هو اضطهاده الإلحاد والملحدين . ذلك أن فردريك لم يكن يسمح فى بلاده بحرية التفكير أو القول لإنسان ما حتى أساتذة جامعته ، بل اختص نفسه ورفاقه دون غيرهم بهذه الميزة ، فقد كان كمعظم الحكام يرى أن الدين ضرورى لا غنى عنه للنظام الاجتماعى ، ولم يكن يقبل أن يقوض علماؤه دعائمه ؛ يضاف إلى هذا أن القضاء على الإلحاد ييسر قيام السلام المتقطع مع البابوات ؛ وجرياً على هذه السياسة أيد فردريك محكمة التفتيش كل التأييد على حين أن بعض الملوك فى القرن الثالث عشر ترددوا فى معاونتها ، وبذلك اتفق البابوات هم وعدوهم الألد فى هذه المسألة وحدها .

٣ – النزاع بين الإمبراطورية والبابوية

وأخذت أهداف فردريك البعيدة الواسعة المدى تزداد وضوحاً كلما تقادم حكمه فى فوجيا : كان يبغى أن يبسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها ؛ وأن يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ، ولعله كان يبغى أيضاً أن يجعل رومة كما كانت قبل عاصمة العالم الغربى السياسية والدينية معاً . ولما أن دعا الأعيان الإيطاليين والمدن الإيطالية إلى مجمع فى كرمونا Cremona عام ١٢٢٦ كشف عن أغراضه بأن أرسل الدعودة أيضاً إلى دوقية اسبليتو ، وكانت وقتئذ ولاية بابوية ، وبأن سير جنوده فى أراضى البابوات . وأمر البابا أعيان اسبليتو ألا يحضروا الاجتماع . وارتابت مدن لمباردية فى الدعوة فرأت فيها وسيلة يبغى بها فردريك أن يخضعها للإمبراطور خضوعاً حقيقياً لا خضوعاً اسمياً فحسب ، فأبت أن ترسل مندوبين عنها إلى الاجتماع ؛ ولم تكتف بهذا بل ردت على هذه الدعوة بأن ألفت العصبة اللمباردية الثانية التى تعهدت فيها مدائن ميلان ، وتورين ، وبرجامو ، وبرشيا ، ومانتوا ، وبولونيا ، وفيسنزا ،

وفيرونا ، وبدوا ، وتريفزو أن تعقد فيا بينها حلفا دفاعيا هجوميا يدوم خمساً وعشرين سنة ؛ وبهذا لم يجتمع المجمع قط .

وخرج هنرى على أبيه فردريك فى عام ١٢٣٤ ، وتحالف مع العصبة اللمباردية ، فركب فردريك من جنوبى إيطاليا إلى رمز Worms وليس معه جنود ، بل كان معه بدلا منهم مال كثير ؛ وخمدت الفتنة حين ترامت إلى القائمين بها أخبار قدومه أو حين مست أيديهم ذهبه ؛ وزج هنرى فى السجن ، وظل يكتوى بناره سبع سنين ؛ وبينا كان ينقل إلى مكان آخر يحبس فيه ، عدا بجواده فوق جرف عال وهوى إلى أسفله جثة هامدة . وواصل فردريك سيره إلى مينز ، ورأس فيها مجمعاً ، أقنع فيه كثيرين من النبلاء الحاضرين أن ينضموا إليه فى حملة يعيد بها سلطة الإمبراطورية على لمباردية . واستطاع بفضل هذه المعونة أن يهزم جيش العصبة اللمباردية (١٢٣٧) ؛ واستسلمت له جميع مدنها ما عدا ميلان وبريشيا ، وعرض جريجورى التاسع وساطته بين الطرفين ، غير أنه لم يكن من المستطاع التوفيق بين آمال فردريك فى الوحدة وحب الإيطاليين الحرية .

وقرر جريجورى فى هذه الساعة الفاصلة أن ينضم إلى جانب العصبة ، وأن يجعل مصير سلطة البابوات الزمنية موقوفة على نتيجة هذه الحرب ، مع أنه كان وقتئذ رجلا مريضاً فى سن التسعين . ولم يكن جريجورى، مولعاً بحب المدن اللمباردية ، فقد كان مثل فردريك يرى أن حريتها هى الطريق المؤدى إلى النزاع والفوضى ، ويعرف أنها تأوى الملحدين الذين يعارضون جهرة فى ثروة الكنيسة وسلطته الزمنية . وفى هذا الوقت بالذات كان الملحدون من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التى تحمل صورة المسيح[**] . ولكن جريجورى كان يعتقد أنه إذا تغلب فردريك على هذه المدن ، ابتلعت إيطاليا الموحدة الولايات البابوية ، وتألفت منها كلها إمبراطورية موحدة يسيطر عليها عدو للمسيحية وللكنيسة . ولهذا أقنع جريجورى مدينتى البندقية وجنوى

بالانضمام إليه هو والعصبة فى حرب يشنها على فردريك ؛ ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة ، اتهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف ، والاستبداد ، وبالرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه فى عام ١٢٣٩ ، وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التى أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة دورية بعث بها إلى ملوك أوربا ينفى فيها تهمة الكفر ، ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية ، وأخذ النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجرى فى مجراه .

وأظهر ملوك أوربا عطفهم على فردريك ، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه إليهم من معونة . كذلك انحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه ، لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدنهما إلى طاعتهم الإقطاعية ؛ أما فى المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام إلى جانب البابا ، وعادت إلى الوجود عبارتا ويبلنج وولف Waibling and Welf بعد أن تحولتا إلى لفظى جبلين وجلف Ghibelline and Gulf ليدل أول اللفظين على أنصار الإمبراطورية ، والثانى على المؤيدين للبابوية . ولم تخل رومة نفسها من هذا الانقسام ، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك ؛ ولما أن اقترب من رومة بجيش صغير أخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له أبوابها لأنها رأت فيه قيصراً ثانياً . وتوقع فردريك أن يلقى القبض عليه ، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين . وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه ، وعمد الكثيرون منهم إلى أسلحتهم للدفاع عنه . ولم يشأ فردريك أن يحسم الموقف فى ذلك الوقت فمر برومة دون أن يعرج عليها وقضى الشتاء فى فجيا .

وكان قبل ذلك قد أقنع الأمراء الألمان بأن يتوجوا ابنه كنراد ملك الرومان (١٢٣٧) ، ووضع زوج ابنته على رأس حكومة ڤيسنزا ، وبدوا ،

وتريفيزو ، كما وضع على رأس حكومة المدن الأخرى التى استسلمت له انزيو أحب أبنائه إليه وهو « صورة منا فى وجهه وقوامه » ، فقد كان وسيما ، فخوراً ، مرحاً ، شجاعاً فى الحرب ، بارعاً فى قول الشعر . واستولى الإمبراطور على رافنا وفائنزا فى عام ١٢٤٠ ، وخرب فى عام ١٢٤١ بنفنتو مركز القوات البابوية . واعترض أسطوله قافلة بحرية من جنوى تنقل إلى رومة طائفة من الكرادلة ، والمطارنة ، ورؤساء الأديرة ، والقساوسة الفرنسيين والأسبان والإيطاليين ، وحجزهم فردريك فى أبوليا ليتخذهم رهائن يساوم بهم ؛ وما لبث أن أطلق الفرنسيين منهم ، ولكنه أطال احتجاز الباقين ، ومات عدد منهم فى السجن ، فارتاعت أوربا التى طالما رأت أن رجال الدين محصنون يجب ألا يعتدى عليهم ، وكثر وقتئذ عدد الذين يعتقدون أن فردريك هو المسيح الدجال الذى تنبأ بظهوره يواقيم الفلورى Joochim of Flora الصوفى منذ بضع سنين . وعرض فردريك أن يطلق رجال الدين إذا رضى جريجورى أن يعقد معه الصلح ولكن البابا لم يتزحزح عن موقفه إلى يوم مماته (١٢٤١) .

وكان إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه ، فقد وافق بتحريض القديس لويس على شروط للصلح (١٢٤٤) ، ولكن مدن لمبارديا امتنعت عن التصديق على الاتفاق ، وذكرت إنوسنت بأن جريجورى قد تعهد بألا تعقد البابوية صلحاً منفردا مع فردريك . وغادر إنوسنت رومة سراً ، وهرب إلى ليون Lyons ، وواصل فردريك الحرب ، وبدا أن ليس ثمة قوة تستطيع منعه من فتح الولايات البابوية وضمها إلى دولته وإقامة سلطانه فى رومة . ودعا إنوسنت رجال الدين إلى مجلس عقد فى ليون ، وكرر هذا المجلس حرمان الإمبراطور وخلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق ، عاق ، وتابع عديم الولاء لسيده البابا الذى يقر بسيادته عليه (١٢٤٥) . واختار النبلاء الألمان ، بتحريض البابا ، هنرى رابس Henry Rapse إمبراطوراً بدل فردريك ، فلما مات نادوا بوليم الهولندى William of Holland

خلفاً له . وأصدر البابا قراراً بحرمان كل من يساعد فردريك ، وحرمت الخدمات الدينية فى كل الأقاليم الموالية له ؛ وأعلنت عليه هو وإنزيو حربا صليبية ، ومنح الذين حملوا الصليب للقتال فى فلسطين إذا اشتركوا فى قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التى تمنح الصليبيين .

وأطلق فردريك العنان لحقده وشهوة انتقامه ، وأقدم على أعمال قطعت عليه خط الرجعة . فأصدر « منشوراً للإصلاح » يعلن فيه أن رجال الدين « عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شىء من تقواهم »[٤٦] . ثم صادر ما للكنيسة من أملاك فى الصقليتين ليستخدم ثمنها فى حربه ، ولما أن تزعمت بلدة فى أبوليا مؤامرة للقبض عليه ، أمر برؤساء المتآمرين فاقتلعت عيونهم وبترت أعضاؤهم ثم قتلوا . ولما أن استنجد به ابنه كنراد ، اتخذ سبيله إلى ألمانيا ، ولكنه علم وهو فى تورين أن پارما قد انتقضت على حاميته التى بها ، وأن الخطر محدق بإنزيو ، وأن الثورة قد اندلع لهيبها فى إيطاليا الشمالية كلها وصقلية نفسها ، فأخذ يقلم أظفار فتنة بعد فتنة فى مدينة تلو مدينة ، ويأخذ الرهائن من كل واحدة منها ، ويقتل أولئك الرهائن حين تثور عليه مدنهم . وإذا وجد فى الأسرى رسلا للبابا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم[٤٧] .

وبينا كان الحصار مضروباً على پارما سئم فردريك طول البطالة فخرج هو وإنزيو وخمسين من الفرسان لصيد طيور الماء فى المستنقعات المجاورة للمدينة . وبينا هم فى صيدهم خرج رجال پارما ونساؤها على المحاصرين وهجموا عليهم هجوم اليائسين ، فتغلبوا على قوات الإمبراطور المختلة النظام المعدومة القيادة ، واستولوا على أموال الإمبراطور وحريمه ووحوشه ، فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة ، وجهز جيشاً جديداً ، وواصل القتال . وجاءته الأنباء بأن پيرو دلى فجنى وزيره الأول وموضع ثقته قد غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده ؛ فأمر بالقبض عليه وفقء عينيه ، فما كان من پيرو بعد أن فعل به هذا إلا أن أخذ يضرب

برأسه جدران سجنه حتى مات (١٢٤٩) . وجاءته الأنباء فى تلك السنة نفسها أن سكان بولونيا قد أسروا إنزيو فى المعركة التى قامت عند لافسالتا La Fossaalta ، وحدث فى الوقت عينه أن حاول طبيب فردريك أن يقتله بالسم ؛ وحطمت هذه الضربات المتوالية السريعة روح الإمبراطور ، فارتد إلى أبوليا ولم يشترك بعدئذ فى الحرب القائمة . وانتصر قواده فى عدة معارك عام ١٢٥٠ ، ولاح أن الحظ قد عاد يواتيه . فقد طلب القديس لويس وهو فى أسر المسلمين فى مصر إلى إنوسنت الرابع أن يضع حداً للقتال حتى يستطيع فردريك أن يخف لنجدة الصليبيين . ولكن صحة الإمبراطور أخذت فى الوهن ولم تفدها هذه الآمال المنعشة ، فقد حطم الزحار — وهو البلية التى طالما أذلت ملوك العصور الوسطى — ، جسم الإمبراطور المتغطرس . وطلب أن تغفر له ذنوبه ، فأجيب إلى طلبه ، ولبس الإمبراطور الملحد مسوح الرهبان السسترسين ، ومات فى فلورنتينو فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠ . وتهامس الناس بأن روحه قد حملتها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم .

ولم يظهر بعد موته ما له من نفوذ ، فسرعان ما انهارت إمبراطوريته ، وتفشت فيها الفوضى أشد مما كانت عليه حين جلس على عرشها ، واختفت الوحدة التى قضى حياته يحارب من أجلها حتى من ألمانيا نفسها ، وسارت المدن الإيطالية فى ركب الحرية وقوتها الناشطة المبدعة ، وسلكت طريق الفوضى ، فأدى بها إلى استبداد الأدواق والزعماء اللصوص الذين ورثوا ، وهم لايكادون يدركون ، فساد فردريك الخلقى ، وحريته الفكرية ، ومناصرته الآداب والفنون . والحق أن ما كان يتصف به طغاة عصر النهضة من ذكاء قوى مجرد من الضمير كان صدى لخلق فردريك وعقله خالياً من ظرفه وفتنته . وإنا لنستبين فى تفكير فردريك وفى حاشيته حلول الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس ، والعقل محل الإيمان ، والطبيعة محل الله ، والضرورة محل العناية الإلهية ،

ثم استولت هذه النزعة بعد فترة من الاستمساك بالدين على عقول فلاسفة النهضة وكتابها الإنسانيين . وملاك القول أن فردريك كان « رجل النهضة » قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام . نعم إن مكيڤلي كان يتحدث فى كتاب الأمير وفى عقله سيزارى بورچيا Coesar Borgis ولكن فردريك هو الذى مهد السبيل لفلسفة كتاب الأمير . وكذلك كان نتشة ينظر بعين فكره إلى بسمارك ونابليون ، ولكنه لم يكن ينكر أثر فردريك — « أول من يوافق هواى من الأوربيين »[٤٨] . وقد ارتاعت الأجيال التى جاءت بعده بأخلاقه ، وافتتنت بعقله ، وقدرت بعض التقـــدير عظمة مطامعه الإمبراطورية ، فوصفته المرة بعد المرة بالصفات التى ابتدعها ماثيو باريس حين قال عنه إنه الرجل « العجيب الذى بدل العالم وأثار عجبه super mundi et immutator mirabilis » .

الفصل السادس

تمزق إيطاليا

أوصى فردريك لابنه كنراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد Manfred ابنه غير الشرعي نائباً عن الإمبراطور فى إيطاليا ، وشبت نار الفتنة فى كل مكان تقريباً فى إيطاليا ، وخضعت نابلى ، واسپليتو ، وأنكونا ، وفلورنس لمبعوثى البابا ، ونادى إنوسنت الرابع : « فلتبتهج السماء ولتفرح الأرض ! » وعاد البابا منتصراً إلى إيطاليا ، واتخذ نابلى مقر قيادته الحربية ، وزحف منها ليضم الصقليتين إلى الولايات البابوية ، ووضع الخطط ليفرض على مدن إيطاليا الشمالية سيادة أقل سفوراً من سيادته على تلك الولايات . ولكن هذه المدن عقدت العزم على أن تحمى استقلالها من البابوات والأباطرة على السواء ، وإن رضيت أن تشترك مع البابا فى الصلوات . وكان إزلينو Ezzlino وأبرتو پلاڤيسينو Uberto Pallavicino يسيطران على عدد من المدن ويدينا فيها بالولاء لكنراد . ولم يكن فى قلب كلا الرجلين شىء من الاحترام للدين ، فنشأ الإلحاد فى أيامهما ، وكان يخشى أن تفقد الكنيسة شمالى إيطاليا كله . وهبط كنراد الشاب فجاءة بجيش جديد من جبال الألب ، وأعاد فتح البلدان الإيطالية المتذمرة ، ودخل مملكة الصقليتين منتصراً ، ولكنه لم يدخلها إلا ليموت بالملاريا (مايو سنة ١٢٥٤) . وتولى مانفرد قيادة قوات الإمبراطور ، وبدد شمل جيش بابوى بالقرب من فُجيا (٢ ديسمبر) . وبلغت هذه الهزيمة مسامع البابا وهو على فراش الموت فمات بائساً مغموماً (٧ ديسمبر) يقول بصوت خافت : « رباه لقد أفسدت الإنسان عقاباً له على ظلمه » .

أما ما بقى من القصة فهو الفوضى السافرة ، فقد شن البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤ – ١٢٥٦) حرباً صليبية على إزلينو ، جرح فيها هذا الطاغية ووقع فى الأسر ، وأبى أن يعوده الأطباء أو القساوسة أو أن يتناول الطعام، وأمات نفسه جوعا ، دون أن يتوب أو يقبل منه الاعتراف (١٢٥٩) . وأسر أيضا أخوه ألبريجو Alberigo ، وكان مثله فى وحشيته وجرائمه ، وأرغم على أن يشهد بعينيه تعذيب أسرته ؛ ثم انتزع لحمه من جسمه بالكلاليب ، وشد وهو لا يزال حيا إلى جواد ؛ وجر على الأرض حتى مات[٤٩] . واندفع المسيحيون والكافرون وفتئذ فى الأعمال الوحشية ما خلا مانفرد المرح النَّغِل ، وبقى مانفرد طوال الست السنين التالية سيد إيطاليا الجنوبية بعد أن أوقع بالجيوش البابوية هزيمة أخرى عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) . وكان يجد متسعاً من الوقت للغناء وكتابة الشعر « ولم يكن له مثيل على ظهر الأرض » على حد قول دانتى « فى العزف على الآلات الوترية »[٥٠] . ولما يئس إربان الرابع (١٢٦١ – ١٢٦٤) من أن يجد فى إيطاليا من يرد مانفرد عن غيه ، وأدرك أن البابوية يجب أن تعتمد من ذلك الوقت على حماية فرنسا إياها ، طلب إلى لويس التاسع أن يقبل ملك الصقليتين إقطاعية من البابا . ورفض لويس هذا العرض ، ولكنه أجاز لأخيه شارل دوق أنجو أن يقبل من إربان « مملكة نابلى وصقلية » (١٢٦٤) . واخترق شارل إيطاليا على رأس ثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين وبدد شمل جيش مانفرد الذى كان أقل من جيشه عددا وقفز مانفرد فى وسط أعدائه ومات ميتة أشرف من ميتة أبيه . ونزل فى العام الثانى صبى فى الخامسة عشرة من عمره وهو كنرادين Conradin من ألمانيا ليتحدى شارل ، ولكنه هزم عند تجلياكزو Tagliacozzo وضرب رأسه علنا فى ميدان السوق بنابلى عام ١٢٦٨ . وانتهى بمقتله وموت إنزيو الذى طال سجنه بعد أربع سنين من ذلك الحين أجل بيت هوهنستاوفن نهاية محزنة ، وأصبحت الدولة الرومانية المقدسة شيئاً لا وجود

له إلا فى المظاهر والحفلات ، وانتقلت زعامة أوربا إلى فرنسا .

واتخذ شارل نابلى عاصمة له ، وأوجد فى الصقليتين أرستقراطية وبيرقراطية فرنسيتين ، وأقام فيها جيشاً فرنسيا ، ورهباناً وقساوسة فرنسيين ، وحكم البلاد وجبى الضرائب بوسائل استبدادية جعلت أهلها يتمنون لو بعث فردريك حيا ، كما جعلت البابا كلمنت الرابع يتمنى لو أن البابوية لم تنتصر . وبينما كان شارل يستعد لقيادة أسطوله لفتح القسطنطينية إذ ثار العامة فى بالرم يوم الاثنين التالى لعيد القيامة من عام ١٢٨٢ بعد أن انطلق حقدهم الكامن فى صدورهم لأن جنديا فرنسيا أساء الأدب مع عروس صقلية ، وقتل الغوغاء كل فرنسى فى المدينة . وليس أدل على الحقد الدفين الذى كان يغلى فى صدور الصقليين من الوحشية التى كانت تدفع رجالهم لأن يشقوا بسيوفهم أرحام النساء اللاتى حملن من الجنود أو الموظفين الفرنسيين ثم يطأون الأجنة الأجنبية حتى تموت تحت أقدامهم[٥١] . وحذت مدن أخرى حذو بالرم حتى قتل ثلاثة آلاف من الفرنسيين فى مذبحة تعرف باسم « مذبحة صلاة المساء » لأنها بدأت فى ساعة تلك الصلاة . ولم ينج من القتل رجال الدين فى الجزيرة ؛ فقد هاجم الصقليون المعروفون بالتقى والصلاح الكنائس والأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة دون أن يعبأوا بكرامة رجال الدين . وأقسم شارل دوق أنجو أن ينتقم من الجزيرة انتقاما لا تنمحى آثاره مدى ألف عام ، وتوعدها بأن يتركها « صخرة صماء جرداء خالية من السكان »[٥٢] . وحرم البابا مارتن Martin الرابع العصاة من حظيرة الدين وأعلن حربا صليبية على صقلية . ولما عجز الصقليون عن حماية أنفسهم عرضوا الجزيرة على بدرو الثالث صاحب أرغونة . وجاء بدرو إلى الجزيرة بجيش وأسطول وثبت أسرة أرغونة ملوكا على صقلية (١٢٨٢) . وبذل شارل كل ما فى وسعه ليسترد الجزيرة ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فقد دمر أسطوله ، ومات وهو منهوك القوى مغموماً حزيناً

فى فجيا (١٢٨٥) . واكتفى خلفاؤه بعد سبعة عشر عاما من الكفاح غير المجدى بمملكة نابلى .

أما المدن الإيطالية القائمة فى شمال رومة فقد أخذت تثير الخصام بين الإمبراطورية والبابوية ، واستطاعت بذلك أن تحتفظ بنوع من الحرية الطائشة الجموحة . وظلت أسرة دلا تورى Della Torre تحكم ميلان عشرين عاماً حكما ارتضاه سائر أهلها ، ثم استولت على زمام الأمور عصبة من النبلاء بزعامة أتوفسكنتى Otto Visconti عام ١٢٧٧ ، وأنشأ آل فسكنتى الملقبين بالكبتانى (الرؤساء) أو الدوتشى duci حكومة أبلجركية حازمة قديرة حكمت المدينة مائة وسبعين عاماً . وكانت الكونتة ماتلدا قد أوصت للبابوية بإقليم تسكانيا بما فيه مدائن أرزو Arezzo ، وفلورنس ، وسينا Siena ، وبيزا ، ولوكا (١١٠٧) ؛ ولكن هذه السيادة البابوية الصورية قلما كانت تنقص من حق مدائن الإقليم فى أن تحكم نفسها أو تولى عليها من تختارهم من الطغاة .

وكان لسينا كما كان لكثير غيرها من المدن التسكانية ماض تعتز به ، يرجع إلى أيام التسكانيين الأقدمين . وكانت غارات البرابرة قد خربت تلك المقاطعة ، ولكنها انتعشت فى القرن الثامن لأنها أضحت محطة وسطى فى طريق الحج والتجارة بين فلورنس ورومة . ونحن نسمع عن وجود نقابات طائفية للتجار بتلك المدينة فى عام ١١٩٢ ثم بمثلها للصناع ثم لأصحاب المصارف ، حتى أصبح بيت بونسنيورى Buonsignori الذى أنشئ فيها عام ١٢٠٩ من أشهر المؤسسات التجارية والمالية فى أوربا كلها ، وكان له وكلاء فى جميع أنحائها ، وبلغت القروض التى أمد بها التجار ، والمدن ، والملوك ، والبابوات مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل . وكانت فلورنس وسينا تتنازعان السيطرة على طريق فرنسيسا Via Francesa الذى يصل كلتيهما بالأخرى ، وظلت المدينتان التجاريتان تحارب كلتاهما الأخرى حروبا منقطعة منهكة من عام ١٢٠٧ إلى عام ١٢٧٠ ؛ وانضمت سينا إلى الأباطرة فى الكفاح

القائم بين البابوية والإمبراطورية لأن فلورنس انحازت إلى جانب البابوية ، وكان انتصار مانف د عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) فى واقع الأمر نصراً لسينا على فلورنس . ومع أن أهل سينا كانوا يقاتلون البابا ، فإنهم كانوا يعزون ما نالوه من نصر فى تلك الواقعة إلى قديستهم الشفيعة العذراء أم الإله . ووهبوا مدينتهم لمريم إقطاعية لها ، وطبعوا على نقدهم تلك العبارة الدالة على الزهو والخيلاء وهى دولة العذراء ، وضعوا مفاتيح المدينة تحت قدمى العذراء فى الكنيسة الكبرى التى سموها باسمها . وكانوا فى كل عام يحتفلون بذكرى انتقالها إلى السماء ويقيمون لذلك احتفالا رهيباً مثيراً . فقد كان جميع المواطنين من سن الثامنة عشرة إلى سن السبعين يسيرون إلى الكنيسة (duomo) فى ليلة العيد وبيد كل منهم شمعة مضاءة فى موكب فخم وراء قساوستهم وكبار موظفيهم ، فإذا أتوا الكنيسة جددوا يمين الولاء والطاعة إلى العذراء . وكان موكب آخر يسير فى يوم العيد نفسه ويتألف من ممثلين للمدن والقرى والأديرة المفتوحة أو التابعة لسينا ، وكان هؤلاء المندوبون يسيرون أيضاً إلى الكنيسة يحملون الهدايا ، ويجددون يمين الطاعة والخضوع لحكومة مدينة سينا ولملكتها . وكانت سوق عامة تقام فى ميدان المدينة فى هذا اليوم ، ويستطيع الأهلون أن يشتروا فيها بضائع آتية من مائة مدينة ، ويقوم فيها البهلوان والمغنى والموسيقى بأدوارهم ، ولم يكن يزيد عن عدد الذين يؤمون وكر الميسر فى المدينة إلا من يؤمون ضريح مريم نفسها .

وكانت الأعوام المائة التى بين ١٢٦٠ ، ١٣٦٠ هى التى بلغت فيها ذروة عظمتها ، ففى هذه السنين المائة شادت كنيستها (١٢٤٥ — ١٣٣٩) ، وأنشأت قصرها العام الذائع الصيت (١٣١٠ — ١٣٢٠) ؛ وبرج الأجراس الجميل (١٣٢٥— ١٣٤٤) . ونحت نقولو بيزانو Nccolo Pisano فسقية فخمة للكنيسة فى عام ١٢٦٦ ؛ ولم يحل عام ١٣١١ حتى كان دوتشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna قد شرع يزين كنائس المدينة بعدد من أقدم روائع صور النهضة

الزيقية . بيد أن هذه المدينة الفخورة كانت تقوم بأعمال لا تحتملها مواردها ، وكان نصر منتابرتو ضربة قاضية على سينا ، فقد أصدر البابا المهزوم قرار الحرمان على المدينة ، وحرم دخول البضائع فيها أو أداء الديون لها ، وأفلس عدد كبير من مصارفها ، حتى إذا كان عام ١٢٧٠ ضم شارل دوق أنجو المدينة المعذبة إلى عصبة الجلف (أو العصبة البابوية) . وظلت سينا من ذلك الحين تسيطر عليها وتفوقها منافستها القوية الفاتحة في الشمال والتي لا تشعر نحوها بشيء من الرحمة .

الفصل السابع

نهضة فلورنس : ١٠٩٥ - ١٣٠٨

سميت فلورنس بهذا الاسم لكثرة أزهارها ، وقد نشأت قبل المسيح بمائتي عام لتكون محطة تجارية على نهر الآرنو حيث يلتقي برافده المنيون Magnon ، وخربتها غارات البرابرة ، ولكنها استفاقت فى القرن الثامن وصارت ملتقى الطرق على ڤيا فرنسيسا Via Francesa بين فرنسا ورومة . وكانت سهولة اتصالها بالبحر المتوسط عاملا فى تشجيع تجارتها البحرية . وأنشأت فلورنس أسطولا تجارياً كبيراً يحمل إليها الأصباغ والحرير من آسية ، والصوف من إنجلترا وأسپانيا ، ويحمل منها المنسوجات إلى نصف بلاد العالم . واحتفظت فلورنس ببعض الأسرار الصناعية التى أمكنت صباغيها من أن يلونوا الأقمشة الحريرية والصوفية بظلال من الألوان الجميلة ، لا تعلو عليها ألوان أخرى حتى فى بلاد الشرق التى برعت فى هذه الصناعة من زمن بعيد . وكانت نقابتا الصوف الشهيرتان - وهما **نقابة الصوف** **ونقابة الحارة الخبيثة**(*) . تستوردان حاجتهما من الصوف وتجنيان مكاسب طائلة من نسجه وتحويله بضائع جاهزة . وكان الجزء الأكبر من العمل يجرى فى مصانع صغيرة بعضها فى بيوت المدن أو الريف . وكان التجار هم الذين يوردون إليها المواد الغفل ، ويجمعون البضائع التى تباع فى الأسواق ، ويدفعون أثمانها قطعة قطعة . وكانت المنافسة القائمة بين الصناع الذين يعملون فى منازلهم - وخاصة السيدات العاملات - سبباً فى بقاء مستوى الأجور منخفضاً فى هذه

(*) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مركز المعروضات فيها المسمى بهذا الاسم والذى كان من قبل مكاناً مخصصاً للعاهرات .

المصانع ، ولم يكن يسمح للنساجين بأن يقوموا بعمل إجماعى لرفع أجورهم أو تحسين أحوال أعمالهم ، وكانت الهجرة محرمة عليهم . وأراد أصحاب هذه المصانع أن يزيدوا من تأديب الصناع وإرغامهم على حفظ النظام ، فأقنعوا الأساقفة بأن يصدروا رسائل دينية تتلى من فوق المنابر أربع مرات فى العام وتنذر العامل الذى يعتاد إتلاف الصوف بغضب الكنيسة وبالحرمان نفسه(٥٣) .

وكانت هذه الصناعة والتجارة محتاجتان إلى رءوس الأموال لتستثمر فيهما ، وسرعان ما أدى هذا إلى قيام التنافس بين التجار وأصحاب المصارف للسيطرة على الحياة فى فلورنس . واستطاع أصحاب المصارف أن يمتلكوا ضياعا واسعة باستيلائهم على الأراضى المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهونها ، كما أصبحوا ممن لا غنى عنهم للبابوات لسيطرتهم المالية على أملاك الكنائس المرهونة لهم ، وكادوا فى القرن الثالث عشر يحتكرون شئون البابوات المالية فى إيطاليا(٥٤) . ولهذا فإن تحالف فلورنس مع البابوات بصفة عامة فى نزاعهم مع الأباطرة كان الباعث عليه هذه العلاقة المالية من جهة وخشية الفلورنسيين من اعتداء الأباطرة والأشراف على حرية البلد والتجار من جهة أخرى . ومن أجل هذا كان رجال المصارف أكبر المؤيدين لحزب البابا فى فلورنس ، فهم الذين قدموا المال اللازم لحملة شارل دوق أنجو على إيطاليا إذ أقرضوا البابا إربان الرابع ١٤٨,٠٠٠ جنيه فرنسى (أى ٢٩,٦٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما استولى شارل على نابلى سمح لأصحاب المصارف الفلورنسيين أن يسكوا النقود ويجبوا الضرائب فى المملكة الجديدة ، وأن يحتكروا تجارة الأسلحة ، والحرير ، والشمع ، والزيت ، والحبوب ، وتوريد الأسلحة والمؤن للجنود ، كل ذلك ليضمنوا تحصيل قرضهم السالف الذكر(٥٥) . وإذا جاز لنا أن نصدق دانتى ، فإن هؤلاء الماليين الفلورنسيين لم يكن لهم ما لأمثالهم فى هذه الأيام من ظرف وكياسة ، بل كانوا قناصة للمال ، غلاظا شرهين ، يجنون الأرباح الطائلة بالاستيلاء على الأراضى التى يغلق رهنها ، ويتقاضون فوائد باهظة

عن القروض دون أن يكون لهم وازع من دين أو ضمير — وما أشبههم بفلكو بوتنارى Folco Potinari متبنى بيتريس Beatrice فى ملهاة دانتى[٥٦] . وكانوا يقومون بأعمالهم فى إقليم واسع الرقعة ، فنحن نجد مصرفين فلورنسيين — مصرف برونلسشى Brunelleschi ومصرف ميديشى Medici يسيطران على الأعمال المالية فى نيمر Nimes ، وأمديت فرانزيسى Franzesi الفلورنسى فليب الرابع بما يحتاجه من المال لحروبه ودسائسه ، وظل الماليون الإيطاليون من بداية حكمه يسيطرون على الشئون المالية الفرنسية حتى القرن السابع عشر . كذلك استدان إدورد الأول ملك إنجلترا ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠ فلورين ذهبى (١٦٠٠٠٠ر٢٫ ريال أمريكى) من بيت فرسكوبلدى Frescobaldi الفلورنسى عام ١٢٩٥ . وكانت هذه القروض معرضة للخطر ، كما كانت تخضع الحياة الاقتصادية فى فلورنس إلى الحوادث النائية التى ليست لها فى ظاهر الأمر أية صلة بها . وعقدت عدة صفقات استثمار سياسية ، وعجزت بعض الحكومات عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، ثم سقط بنيفاس الثامن وانتقل مقر البابوية إلى أفنيون (١٣٠٧) فأدى هذا إلى إفلاس عدد من المصارف فى إيطاليا وإلى حلول كساد عام وحرب عوان بين الطبقات .

وكانت ثلاث طبقات تقتسم الحياة المدنية غير الدينية فى فلورنس : « الشعب الصغير popolo minuto — ويشمل أصحاب الحوانيت ، والشعب السمين popolo grasso ويشمل أصحاب الأعمال ورجال الصناعة والتجارة ، والعظماء grandi أى النبلاء . وكان الصناع يؤلفون النقابات الصغرى ويستغلهم فى الأعمال السياسية أصحاب الأعمال والتجار ورجال المال الذين يملأون النقابات الطائفية الكبرى . وكان « الشعب الصغير » و « الشعب السمين » يأتلفان وقتاً ما للوقوف فى وجه الأعيان فى التنافس القائم للسيطرة على الحكومة . وكان هؤلاء الأعيان يطالبون لأنفسهم بمكوس إقطاعية من المدينـــة ، وقد أيدوا فى أول الأمر الأباطرة ثم أيدوا البابوات ضد حركات المدينة . ونظمت هاتان الطبقتان

المؤتلفتان جيشاً إقليمياً كان على جميع الصحيحى الأجسام من أهل المدينة أن ينضموا إليه وأن يتعلموا فيه فنون الحرب . فلما تهيأت أسباب القوة بهذا الاستعداد استولوا على قصور الأشراف الحصينة القائمة فى الريف ، ودمروها وأرغموا أصحابها على السكنى داخل أسوار المدينة والخضوع للقوانين البلدية . وكان النبلاء لا يزالون أغنياء بما يحصلون عليه من ريع أملاكهم فى الريف ، فشادوا لهم قصوراً حصينة فى المدن ، وانقسموا أحزاباً ، وأخذوا يتقاتلون فى الشوارع ، ويتنافسون ليروا أى حزب يسبق الآخر لقلب الدمقراطية الضيقة المدى القائمة فى فلورنس وإحلال دستور أرستقراطى محلها . وتزعم حزب الأوبرتى Uberti ثورة قام بها الغبليون ليقيموا فى فلورنس حكومة موالية لفردريك ، واستبسلت الطبقتان المؤتلفتان فى المقاومة ، ولكن كتيبة من الفرسان الألمان أوقعت بهما هزيمة ساحقة ، وسقطت الدمقراطية الفلورنسية ، وفر زعماء الجلف من المدينة ، وهدمت بيوتهم انتقاماً لما قاموا به من تدمير قصور رجال الإقطاع منذ مائة عام ؛ وجرى الأهلون من ذلك الوقت عقب كل انتصار فى حروب الطبقات والأحزاب على أن يحتفلوا بالنصر بنفى زعماء الطبقة المغلوبة ومصادرة أملاكهم أو تخريبها(٥٧) ؛ وظل أشراف الغبليين ثلاث سنين يحكمون المدينة تؤيدهم حامية من جنود الألمان ، فلما مات فردريك قامت ثورة جلفية من الطبقتين الوسطى والدنيا واستولى الثوار على زمام الحكم (١٢٥٠) وعينوا زعيما للشعب ليراقب أعمال البودستا كما كان التربيونون فى رومة القديمة يراقبون أعمال القناصل . واستدعى زعماء الجلف المنفيون ، وأيدت الطبقات الوسطى المنتصرة ما نالته من نصر داخلى بحروب شنتها على بيزا وسينا للسيطرة على طريق تجارة فلورنس إلى البحر وإلى رومة ، وأصبح أغنى أغنياء التجار نبلاء جدداً ، وعملوا على احتكار وظائف الدولة لأنفسهم .

ولما هزم مانفرد وسينا مدينة فلورنس فى منتابرتو أعقب ذلك فرار زعماء

الجلف مرة أخرى ، وظلت فلورنس بعد فرارهم ست سنين يحكمها مندوبون عن مانفرد . فلما خسرت الإمبراطورية قضيتها فى عام ١٢٦٨ عادت السلطة مرة أخرى إلى أيدى الجلف الخاضعين خضوعا اسميا لشارل دوق أنجو . وأرادوا أن يقيدوا سلطان البودستا المعين من قبل شارل فأقاموا إلى جانبه هيئة مؤلفة من اثنى عشر من الأنزيانى anziani (أى « الأقدمين » أو الكبراء) ليسدوا النصح إلى ذلك الموظف ، ومجلساً مكونا من مائة عضو « لا ينفذ عمل من الأعمال العامة ولا ينفق أى اعتماد مالى إلا إذا وافق عليه أولا »[٥٨] . واغتنمت الطبقات الوسطى الرأسمالية فرصة انشغال شارل « بالمذبحة المسائية » فقاموا فى عام ١٢٨٢ بانقلاب دستورى أصبحت بمقتضاه هيئة مؤلفة من الرؤساء ومختارة من النقابات الطائفية الكبرى هى المسيطرة بالفعل على حكومة المدينة . وظل منصب البورستا باقيا فى خلال هذه التقلبات ، ولكنه كان مجردا من السلطان ، لأن السلطة العليا انتقلت إلى أيدى التجار وأصحاب المصارف .

وأعاد حزب الأشراف القدامى المغلوب تنظيم نفسه برياسة كرسو دوناتى الرجل الوسيم المتغطرس ، وأطلق عليهم لسبب غير معروف اسم « النرى Neri » أى السود ، وسمى النبلاء الجدد أصحاب المصارف والتجار الذين تزعمتهم أسرة شرشى Cherchi باسم البيض Bianchi . ويئس النبلاء القدامى من معونة الإمبراطورية المحطمة فولوا وجههم شطر البابا يستعينونه على الطبقة الوسطى الرأسمالية . ودبر دوناتى Donati ، بوساطة آل سبينى Spini وكلائه فى فلورنس ، تدبيره مع بنيفاس الثامن للاستيلاء على فلورنس ؛ وكانت الأحزاب التسكانية قد امتد نفوذها إلى الولايات البابوية فلم تترك لبنيفاس أملا فى إعادة النظام إليها إلا إذا كان له صوت مسموع فى حكومات تسكانيا البلدية[٥٩] . وعرف أحد رجال القانون الفلورنسيين خبر هذه المفاوضات فاتهم ثلاثة وكلاء من أسرة سبينى فى رومة بخيانة فلورنس ، وأدانت الهيئة الحاكمة المؤلفة من مندوبى النقابات

الطائفية الكبرى ثلاثتهم (إبريل ١٣٠٠) فهدد البابا من اتهموهم بالحرمان ؛ وهاجمت جماعة من النبلاء المسلحين من حزب دوناتى عدداً من كبار رجال النقابات ، فقررت هيئة المندوبين السالفى الذكر ، وكان دانتى وقتئذ من أعضائها ، نفى عدد من النبلاء متحدية بذلك البابا (يونية ١٣٠٠) : واستنجد بنيفياس بشارل دوق ڤالوا Valois وطلب إليه أن يدخل إيطاليا ، ويخضع فلورنس ، ويسترد صقلية من أرغونة .

ووصل شارل فلورنس فى نوفبر من عام ١٣١٠ ، وأعلن أنه لم يأت إليها إلا لإعادة النظام والسلم فى ربوعها ، ولكن كرسو دوناتى دخل المدينة بعد قليل من ذلك الوقت على رأس جماعة مسلحة ، ونهب بيوت المندوبين الذين نفوه ، وفتح أبواب السجون ، ولم يطلق أصدقاءه وحدهم ، بل أطلق كل من أراد الخروج منها . وساد الهرج والمرج المدينة ، واشترك النبلاء والمجرمون فى السرقة ، وخطف الآدميين ، وقتلهم ؛ ونهبت مخازن التجارة ، وأرغمت الوارثات على الزواج من خطاب مفاجئين ، واضطر الآباء إلى إمضاء وثائق ببائنات كبيرة . وأخرج كرسو آخر الأمر هيئة مندوبى النقابات والپودستا من وظائفهم ، واختار السود مندوبين جدداً يعرضون جميع اقتراحاتهم على زعماء السود ، وظل كرسو سبع سنين حاكما بأمره لا معقب لحكمه فى فلورنس . وحوكم المندوبون المعزولون وأدينوا ، وحكم عليهم بالنفى ومنهم دانتى نفسه (١٣٠٢) ، وحكم على ٣٥٩ من البيض بالإعدام ، ولكن أجيز لمعظمهم النجاة من الموت بالنفى من البلاد .. وقبل شارل ڤالوا هذه الحوادث راضيا ، وقبل معها ٤٤٫٠٠٠ فلورين (٤٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على ما عانى من مشقة ، وغادر فلورنس إلى الجنوب . وفى عام ١٣٠٤ أحرق السود الذين أفلت زمامهم بيوت أعدائهم ، فدمر فى هذه الحرائق ١٤٠٠ بيت ، وأصبح وسط فلورنس رماداً وخرائب . ثم تفرق السود

أحزاباً جدداً ، وحدثت أعمال من العنف لاحصر لها طعن فيها دوناتى طعنة أردته قتيلا (١٣٠٥) .

• • •

وبعد فإن علينا أن نذكر مرة أخرى أن المؤرخ كالصحفى ينزع على الدوام إلى أن يضحى بما هو طبيعى وعادى فى سبيل ما هو مسرحى مثير ؛ وأنه لا يرسم أبدا صورة وافية لأى عصر من العصور . لكن من واجبنا أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن إيطاليا كانت تستند فى أثناء هذا النزاع بين البابوات والأباطرة ، وبين الجلف والغبليين ، وبين السود والبيض ، إلى الفلاحين الكادحين ، ولربما كانت حقول إيطاليا فى ذلك الوقت كما هى الآن ميداناً للعمل الزراعى الفنى والجدى ، وأنها كانت مقسمة ومنظمة تسر العين وتطعم الفم . فقد كانت التلال والصخور والجبال تحفر وتدرج لتزرع فيها الكروم ، وأشجار الفاكهة ، وبساتين الجوز واللوز ، وأشجار الزيتون ؛ وكانت الحدائق تسور لمنع عوامل التعرية من اكتساح تربتها والاحتفاظ بالمطر الثمين . وكان فى الحواضر عدد لا يحصى من الصناعات يستوعب الكثرة الغالبة من الرجال ، ولايترك إلا القليل من الوقت يصرف فى الخطب والانتخابات ، والمدى ، والسيوف . كذلك لم يكن التجار وأصحاب المصارف كلهم رجالا شرهين قساة القلوب ، وكانوا هم أيضاً ممن جعلوا المدينة تعج بالأعمال وتنمو وتتسع رقعتها لما يضطرم فيها من حمى الكسب إن لم يكن لشىء سواها ؛ وكان فى وسع النبلاء أمثال كورسو دوناتى ، وجيدو كفكنتى Guido Covalcanti ، وكان جراندى دلا اسكالا Can Grandi della Scala أن يكونوا رجال ثقافة ، وإن عمدوا إلى سيوفهم من حين إلى حين ليحسموا أمراً من الأمور . وكانت النساء ينخطرن بكامل حريتهن فى هذا المجتمع المرح ؛ ولم يكن الحب فيه لفظاً أجوف يردده الشعراء الغزلون أو يتمشدق به الفلاحون الكادحون ، أو خدمات يؤديها فارس لمعبودته الضنينة ؛ بل كان

هياماً سامياً حاسياً ينتهى بالاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وبالأمومة غير المتعمدة . وكان المدرسون فى أماكن متفرقة من هذا البحر العجاج يجاهدون صابرين ليلقنوا المعارف إلى الشباب المحجم عن معارفهم ، والعاهرات يخففن من شبق الرجال الواسعى الخيال ؛ والشعراء يستعيضون عن آمالهم الخائبة بقرض الشعر ، والفنانون يعيشون على الطوى وهم يسعون وراء الكمال ، والقسيسون ينهمكون فى السياسة ويواسون الفقراء والمنكوبين ، والفلاسفة يجاهدون ليخرجوا من متاهة الأساطير إلى سراب الحقيقة البراق. وكان فى هذا المجتمع دوافع للعمل ، وأسباب لإثارة النفوس ، وللتنافس تقوى أذهان الرجال وألسنتهم ، وتستثير ما لديهم من قوى مختزنة لم يكن لأحد يتوقع وجودها فيهم ، وتغريهم بتمهيد السبيل للنهضة وتهيئة أسبابها . وهكذا جاء البعث الجديد بعد أن عانت المجتمعات فى أوربا كثيراً من الآلام ، وأريقت فى سبيله أنهار من الدماء .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXIII

1. Thompson *Middle Ages*, I, 565'
2. Le Strange, *Palestine under the Moslems*, 202.
3. Coulton, *Panorama*, 327.
4. Lacroix, *Military and Religious Life*, 108.
5. Ogg. 282-8.
6. William of Malmesbury, 358.
7. *Chanson de Roland*, II. 848f. in French Classics, Paris, n.d.Lib. Hatier.
8. Munro, D. C., in *N. Y. Herald Tribune*, Apr. 26, 1931.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 389.
10. Guizot, *France*, I, 384.
11. Lacroix P. *History of Prostitution*, 904.
12. Guizot, *France*, 338.
13. *Cambridge Medieval History*, IV.
14. Gibbon, VI. 334.
15. *Gesta Francorum*, app.
16 Thompson, *Social and Economic History* , 396.
17. Gibbon, VI, 75.
18. William of Tyre, *Sieg. of Jerussalem*, ch. clxi,
19. In Taylor, *Medieval Mind*, I,551.
20. Albertus Aquens in Milman, IV, 38n.
21. Thompson, *Economic History*, 397.
22. Archer and Kingsford, *Crusades* 171.
23. Milman, IV, 251.
24. William of Tyre, xxi, 7.
25. Archer 176.
26. Muir *Caliphate*, 587.
27. Guizot, *France*,427 f; *Cambridge Medieval History*, V. 307.
28. Adams, B. *Law of Civilization and Decay*, 94.
29. In Munro and Sellery, 276f.
30. Lane-Poele, *Saladin*, 176.
31. Ibid., 205f.
32. 232.
33. 236.
34. De Vaux, Carra, *Pensears d'Islam* I, 26.
35. Guizot, *France*, 439f ; Gibbon, VI, 119.
36. Lane-Poele. *Saladin*, 307.
37. Ibid., 351f.
38. 357.
39. Ibid.
40. De Vau, I, 27.
41. Lane-Poele, *Saladin*, 367.
42. Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales*, i, 3.
43. Adms, *Civilization and Decey*,
44. Gibbon, ed, Bury, VI. 528.
45. Villehardouin, Introd., xvii.
46. Adams. *Civilzation and Decay*, 130.
47. Gibbon, VI. 100.

48. Oman, C. W. C., *Byzantine Empire*, 280-2.
49. Robert of Clari in Villehardouin, Introd., xxiv.
50. Villehardouin, 31.
51. Jackson, Sir T. C., *Byzantine and Romanesque Architecture*, I I, 101.
52. Diehl, *Manuel*, 635.
53. Dalton, *Byzantine Art*, 538.
54. Gibbon VI. 171.
55. Beard Miriam, *History of the Business Man*, 109.
56. Encyclopaedia Britannica, VI. 788; MacLaurin,C., *Mere Mortals*, II, 215f.
57. Kantorowicz, E. *Frederick II* 185f.
58. Villehardouin, 177
59. Ibid., 220.
60. 320.
61. Day, Clive, *History of Commerce*, 88.
62. Hitti 346.
63. Guizot, *Civilization*, I, 534.
64. Lea, *Auricular Confession*, III, 152.
65. *Speculum*, Oct. 1938, 391.
66. In Gibbon., VI. 1, 25n.
67. *Speculum*, Oct. 1938, 403.
68. Hitti, 665.
69 Arnold, *Legacy of Islam*, 60.

CHAPTER XXIV

1. Day, *Commerce*, 67; Pirenne, *Medieval Cities*, 87.
2. Boissonnade, 173.
3. Thompson, *Economic History*, 577.
4. *Speculum*, Apr. 1940.
5. Boissonnade, 173.
6. Coultron, *Panorama*, 325.
7. Ibid, 322. *History*, VI. 491.
8. Beard, 79.
9. Zimmern, J. W., *The Hansa Towns*, 183.
10. Ibid., 95.
11. Ibid., 152, 200.
12. Thompson, J. W, *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 451.
13. Id. *Economic and Social History, of the Middl Ages*, 581.
14. *Cambridge Medieval History*, VI, 478.
15. Gest, A. P. *Roman Engineering*, 142.
16. Haskins C. H., *Studies in Medieval Culture*, 101.
17. Usher *History of Inventions*, 135.
18. Thompson, *Later Middle Ages*,
20. Rickard, *Man and Metals*, II,
21. Salzman, L.F., *English Industries of the Middle Ages*, 1.
22, Rickard, II. 595.
23. Ibid., 615.
24. *Cambridge Medieval History*, VI, 500.
25. Renard, G., *Guilds in the Middle Ages*, 24.
26. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 211.
27. Thompson, J. W., *Later Middle Ages*, 5.
28. Boissonnade. 187.
29. Ibid., 186.
30. Pirenne, H., *Economic History*, 118.
31. *Anglo - Saxon Chronicle*, 198.
32. Schoenchof, J. *History of Money and Prices*, 98.
33. Jusserand, J. J. *English Wayfaring Life, in the middle Ages*. 192.
34. Boissonnade, 281.

35. Coulton, *Panorama*, 285.
36. Id., *Five Centuries of Religion*, V, 282.
37. Pirenne, *Economic History*, 120
38. Coulton, *Panorama*, 343.
39. Boissonnade, 167.
40. Pirenne, 128.
41. Pirenne, *Cities*, 223.
42. Mathew Paris, *Historia maior*, 1235, I. p. 2.
43 Ashely, *English Economic History and Theory*, I, 201.
44. Pirenne, *Economic History*, 130.
45. Ibid., 135.
46. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 15.
47. Ibid.
48. Id., *Later Middle Ages*, 449; Day, 93.
49. Schoenhof, 63.
50. Ibid., 57; Thompson, *Later Middle Ages*, 432.
51. Adams, *Law of Civilization*, 167.
52. Lacroix, *Manners, Customs, and Dress*. 272.
53. Davis, *Medieval England*, 376.
54. Zimmern, *Hansa*, 165; Thompson. *Later Middle Ages*, 449.
55. Molmenti, *Venice*, Par. I, Vol. I. Vol. I, 149; Thompson, C.O., *Legacy of the Middle Ages*, 441.
56. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 449-50.
57. Aristotle. *Politics*, I, 10.
58. Luke *vi*, 34.
59. In Ashely. *Economic History and Theory*, I, 126.
60. Ibid., 128.
61. Ibid.
62. 156.
63. 149.
64. 411.
65. Coulton, O.G., *Medieval Scene*, 146.
66. Ashley, I, 149, 157.
67. Ibid., II, 405.
68. Pirenne *Economic, History*, 137.
69. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 688.
70. Coulton, *Medieval Village*, 284.
71. Pirenne *Economic History*,
72. Ashely, I, 198.
73 *Cambridge Medieval History*, VI 491.
74. Thomas Apuinas *Summa Theologica*, II IIae, lyxviii, 2.
75. Ashley, I, 196; Coulton, *Panorama*, 336.
76. Boissonnade, 166.
77. Ashely, I, 203.
78. Abbott, O. F., *Israel in Egypt*, 112.
79. Baron, S. *Social and Religious of the Jews* II, 16.
80. Rivoira, G., *Lombardic Architecture*, I, 108.
81. Dovach, 338.
82 *Cambridge Medieval History*, VI, 484.
83. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 792.
84. Lethaby, W., *Medieval Art*, 145.
85. Richard, E., *History of German Civilization*, 196; Lacrox, *Manners* 271.
86. Saunders, O.E., *History of English. Art in the Middle Ages*, 85.
87. Thompson. *Economic History of the Middle Ages*, 493.
88. Id., *Later Middle Ages*, 196.
89. Day, 47.
90. Coulton, *Medieval Scene*, 92.
91. Walsh, J. J., *Thirteenth the Greatest of Centuries*, 437.
92. Barnes, *Economic History*, 184; Renard, *Guilds*, 37.

93. Ashley, I, 81.
94. Addison J., *Arts and Crafts*, 2.
95. Power Eileen, and Power, R., *Cities and Their Stories*, 74.
96. Bebel, 59.
97. Villari, P., *Two First Centuries of Florentine History*, 35.
98. Guibert of Nogent, *Autobiography*, 6-bis, 7-9.
99. Pirenne, H., *History of Europe*, 276.
100. Boissonnade, 207; Renard, *Guelds*, 92; Coulton, *Panorama*, 293; Schevill, *Siena*, 68.
101. Barnes. *Economic History*, 162-3.
102. Gay, 51.
103. Headlam. C., *Story of Nuremberg*, 152.
104. Salzman, 335.
105. Pirenne, *Economic History*, 213.
106. Coulton, *Chaucer*, 128; *Medieval Village*, 329.
107. Boissonnade 287.
108. Pirenne, *Cities*, 75.
109. Barnce, *Economic History*, 168.
110. Clapham and Power, 337.
111. Ibid.
112. Matthew aris. I, 11, 42, 48, 156, 164, etc.
113. Coulton, *Panorama*, 466.
114. Porte, *Medieval Architecture*, II, 149.
115. Thompson, *Economic History of the Middle Age*, 801.
116. Guizot, *France*, I, 614.
117. Beard, 85.
118. In Zimmern, *Hansa*, 49.
119. Coulton, *Social Life in Britain*, 11; Schoehof, 126.
120. Rogers J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 92; Jusserand, 99; Schoenhof 119.
121. Rogers, 73; Renard 16.
122. Matthew Paris, 1251: *Middle Ages*, I, 270.
123. Munro and Sellery, 490.
124. Pirenne, *Economic History*, 203.
125. Ashley, I. 82.
126. Ralph Higden's *Chronicle*, viii, 145, in Coulton, *Social Life*, 356.
127. Beard, 145.

CHAPTER XYV

1. Benjamin of Tudela in Komroff, *Contemporaries*, 265; Diehl. *Manuel*, 390.
2. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
3. Vasiliev, A. A., *History of the Byzantine Empire*, II, 151.
4. Matt. Paris *Chronica, maiora* 88.
   Historia minor, ril, 38-9, in *Cambridge Medieval History*, IV, 498.
5. Vasiliev, II, 237, 241.
6. Finlay, G., *History of Greece* III, 372.
7. Kluchevsky, I, 185; Pokrovsky, 78.
8. Rambaud, 1, 96.
9. Vernadsky, G., *Kievan Russia*, 93-5.
10. Rambaud, I, 129; Kluchevsky, I 323.
11. Vasiliev, II, 287.
12. Rambaud, I, 154.
13. Affirmed by Karamsin, denied by Soloviev cf. Rambaud. I, 160
14. Rambaud I, 172.
15. Morey, *Medieval Art*. 160f.
16. *Cambridge Medieval History*, VI, 468.
17. Lönnrot, E., *Kalevala*, I, vii.
18. Rambaud, I. 144.
19. Lützow, *Bohemia*, 44

20. *Cambridge Medieval History*, V, 348.
21. Richard, *German Civilization*, 186; Thompson *Feudal Germany* 161.
22. Richard, 186.
23. Carlyle, R. W *Medieval Political Theory*, V. 88 ; III, 86.
24. Freeman, *Norman Conquest*, II, 181.
25. *Anglo-Saxon Chronicle*, 168.
26. Ibid,, 163.
27. Voltaire, *Works* XIII, 274.
28. Hume, D., *History of England*, I, 504.
29. Davis, *Medieval England*, 355 ; IV, 298, 302.
30. Stubbs, *Constitional History*, I, 303; Ereeman,*Norman Conqusel*, IV, 430.
31. Ibid., 714.
32. Vinogradoff, P,, *English Society in the Eleventh Century*, 472, Coulton, *Medieval Village*, 11.
33. Stubs, I, 330.
34. Encyclopaedia Britannica, XI, 432.
35. Cf. *Anglo - Saxon Chronicle*, 206-8.
36. Coulton, *Life* III, 5-7 *Panorama*, 229.
37. Ppllock and Maitland, I, 104 ; Freemau, *Historical Essays*, 2d. Series, 114.
38. Text in Rowbotham. 62.
39. Coulton, *Panorama*, 231.
40. Hume D., *I*, 478.
41. Holinshed, *Chronicle*, 18.
42. Ogg., 304-10.
43. Jenks. 35.
44. Poilock and Maitland, I, 138.
45. Encyclopedia, Britannica, VIII, 9a.
46. Draper, *Intellectual Development of Europe*, II, 81.
47. Pollock and Mait'and, I, 465.
48. Coulton, *Panorama*, 379.
49. Home, *Roma London*, 118.
50. *Speculam* Jan 1937, 20.
51. Coulton, *Panorama*, 297.
52. Joyce *Irland* 246 - 8 ; Hume, I, 356. Cardinal Gapequet *(Monoslic Life in the M. Ages* 169) argues unconvincingly against the authenticity of this bull.
53. In Colton, *Panorama*, 66.
54. Brown, P.H. *History of Scotland* I, 88.
55 Thierry, A , *Conquest of England by the Normans*, I. 21.
56. Blok, P. J. *History of . . . the Netherlands*, I, 230.
57. May, Sir T., *Democracy in Encope*, I, 338-9.
58. Encyclopaedia Britannica, XXI, 912 c.
59. Guizot, *France*, I, 524.
60. Ibid. 312.
61. 522.
62. Belloc, *Paris*, 164.
63. Adams, H. *Mont St. Michel and Chartres*, 177.
64. Joninville, *Chronicle*, 153.
65. Lacroix, *Manners*, 32.
66. In Munro and Sellery, 520.
67. Joiniville 308.
68. *Cambridge Modievul History*, VI, 347.
69. Joinville, 139.
70. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 365.
71. *Cambridge Medieval History*, VI, 349.
79. Joinville, 149.

73. Ibid., 310; Guizor, *France I*, 556; Munro and Selly, 496.
74. Joinville, 316
75. Munro and Sellery, 498.
76. Joinviile, 148.
77. Munro and Sellery, 493, 500.
78. Guizot, *France*, I, 543.
79. Joinville 150.
80. Guizot, *Civilization*, I, 148; Lacroix, *From St. Francis*, 140.
81. Coulton, *From St. Francis*, 140.
82. Guizot, *France'* I, 452.
83. Thompson, *Economic Histoy of the Middle Ages*, 44; Porter, *Medieval Architecture*, II, 264
84. Thompson, 40.
85. Ibid 22.
86. Hearnshaw, F., *Medieval Contributions to Modern*, Civilization, 67; Encyclopaedia Britannica, X, 702b; Hearnshaw. *Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinaers*, 145, 157, 163.
87. *Cambridge Medieval History*, VI, 409.
88. Thompson, 349.
89. Chapman, C. E., *History of Spain*, 90.
Carlyl, R. W., *Political Theory*, V, 134.
90. *Cambridge Medieval History* VII, 695 - 702.
91 Pirenne, J., *Les grands courants*, II, 157.
92. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, I, 58.
93. Sterling, M. B., *Story of Parzival*, of.
32. 310.

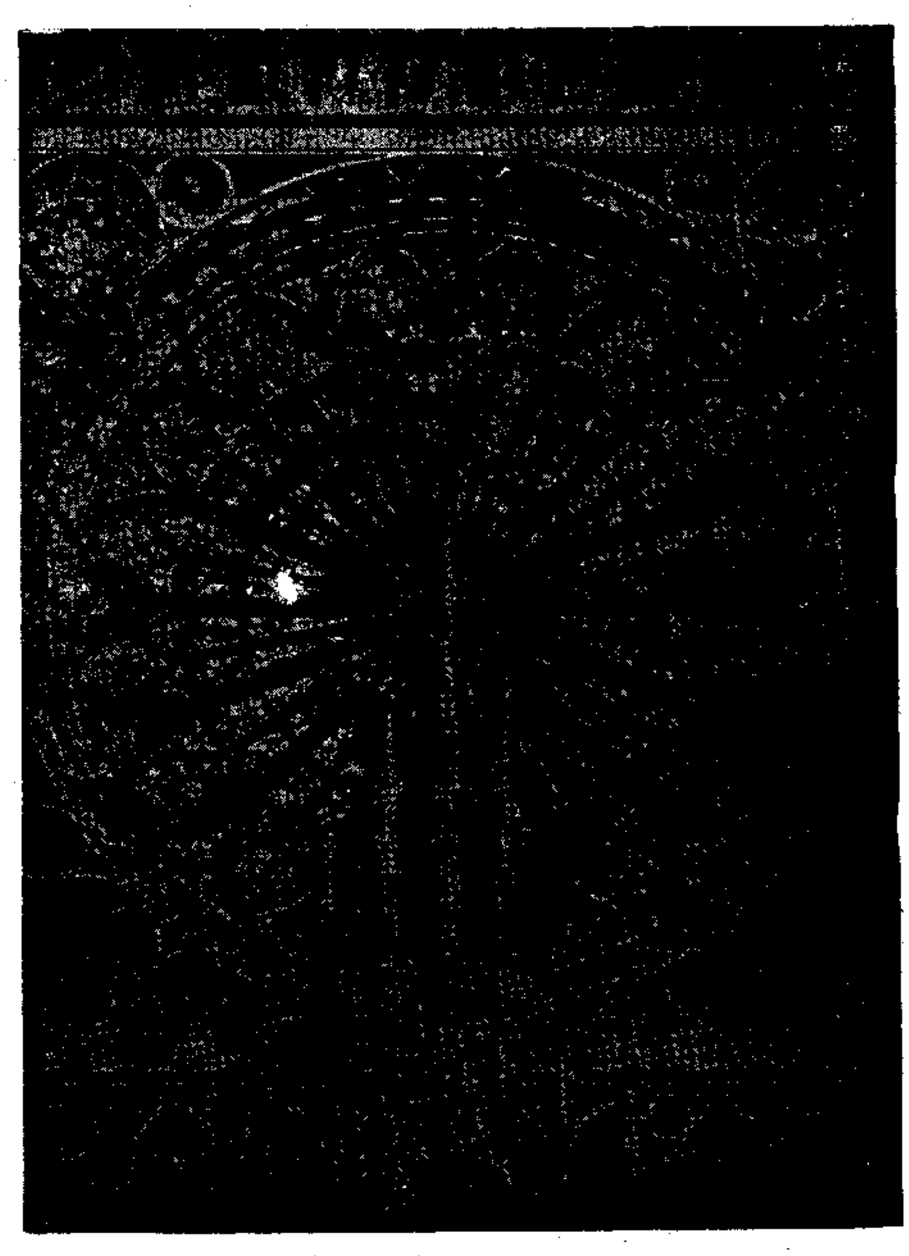
CHAPTER XXXVI

1. In Wern, *Sicily*, 86.
2. *Cambridge Medieval History*. VI, 131.
3. Sarton, II (1), 119.
4. In Waern. 50f.
5. Bryce. 292.
6. Catholic Encyclopedia I, 749a.
7. Hazlitt, W C, *Venetian Republic*, I, 190f.
8. Molmenti, I (1), 82.
9. Ibid., 841.
10. 145.
11. Thompsod, *Eonomic History of the Later Middle Ages*, 11.
12. Beard, 107.
13. Ruskin, *Stones of Venic*, I, 8.
14. Beard, 102–5.
15. Dante, *Eleven Letters*, 190, letter of March 1314 to Guido
16. Molmenti, I (2), 49, 53.
17. Ibid, 9, 13 - 15; Sedgwick, H.D., *Italy in the thirteenth Century*, II, 200.
18. Molmenti, I (2), 139, 154, 157.
19. Molmenti, I (1), 204.
20. Beard. 146.
21. Coulton, *From St. Francis*, 215.
22. Ibid.
23. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 421.
24. Sedgwick, I, 175.
Cambridge Medieval History, V, 230.
26 Kantorowicz, 26.
27. Ibid., 30.
28. *Cambridge Medieval History*, VI, 137.
29. Kantorowicz, 204.
30. Ibid , 219.
31. 282.
32. 310.
Cambridge Medieval History, VI, 150.
34. Kantorowicz, 288.
3 . Ibid , 529.
36. Pirenne, J., *Grands courants*, II, 114; Kantorowicz, 311.

37. Ibid. 30.
38. 365.
39. 366.
40. Matt. Paris, 1228, 157.
41. Ibid.
42. Sedgwick, I, 133; Kantorowicz, 308.
43. Ibid., 251.
44. 343.
45. 460.
46. 615.
47. 624 - 82.
48. Nietzsche, F., *Beyond Good and Evil*, II 200.
49. Kantorowicz, 611.
60. Sedgwick, I, 440 ; Kantorowicz, 332.
51. Ibid., 292.
52. Milman, VI, 240f.
53. Renard. 42; *Cambridge Medieval History* VI, 496.
54. Thompson, *Later Middle Ages*, 259.
55. Beard, 140.
65. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 471.
67. Villari, *First Centuries of Florentine History*, 178.
58. Ibid , 221.
59. 598.

قصة الحضارة

دائرة معارف كبرى فى حضارة العالم من أقصى طرفة الشرق فى اليابان والصين إلى أقصى طرفه الغربى فى أمريكا ومن أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحـ اضر . وهى أهم مؤلفات الكاتب الأمريكى الكبير ول ديورانت الذى خصها بالجزء الأكبر من حياته ، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة . وستتألف بعد تمامها من سبعة مجلدات .



(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج.

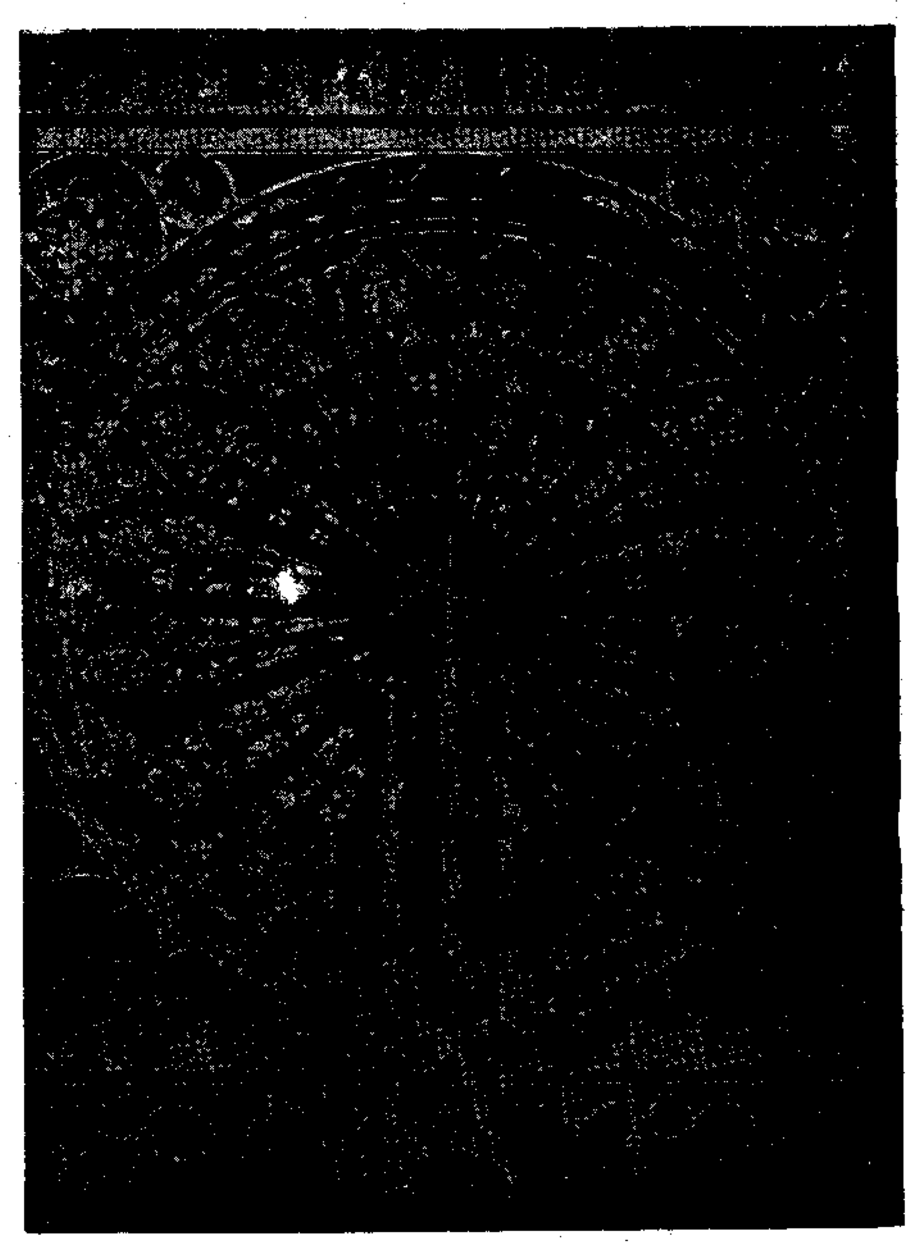


الفهـــرس

الكتاب الخامس – المسيحية فى عنفوانها

الباب السادس والعشرون : إيطاليا قبل النهضة

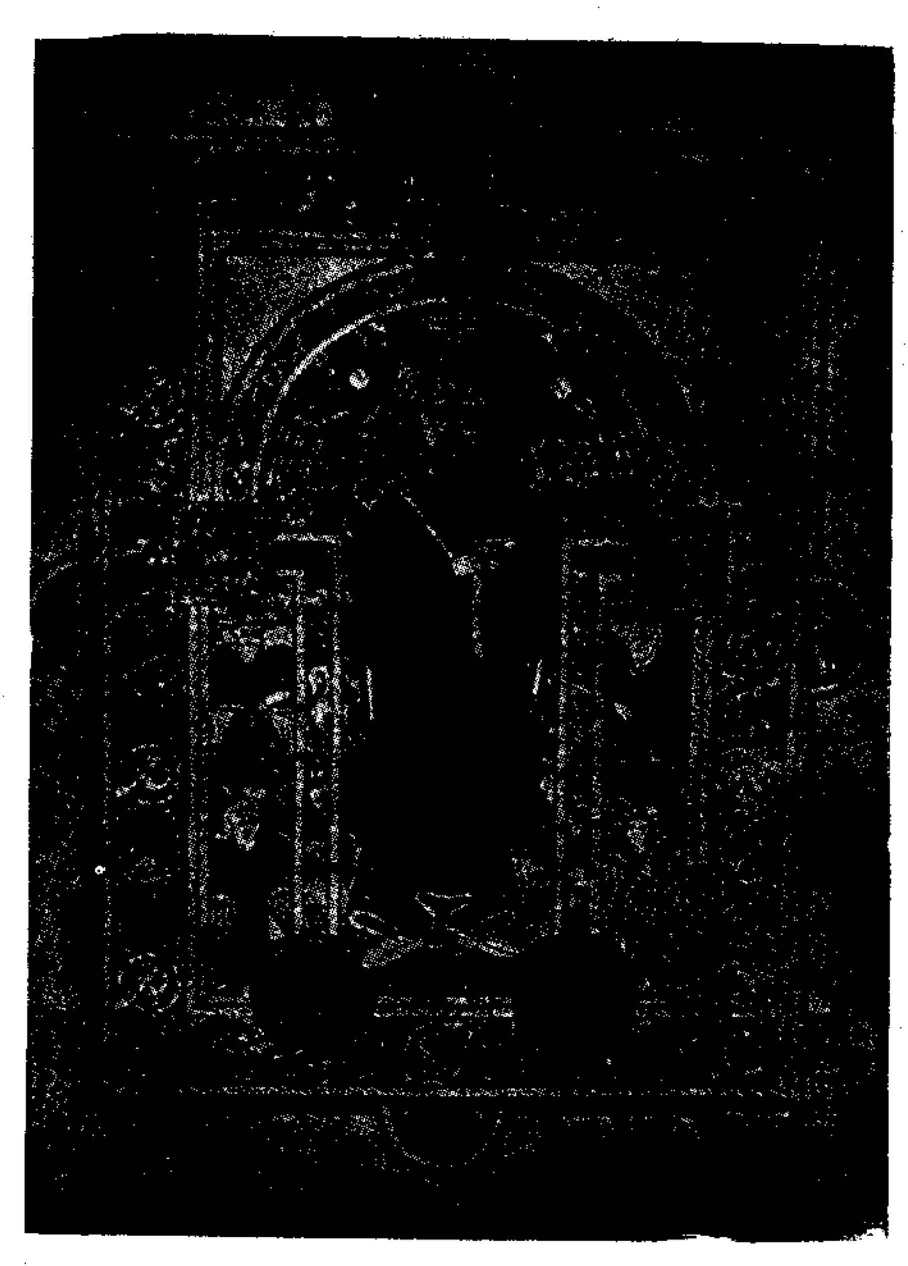
فهرس الصــــور



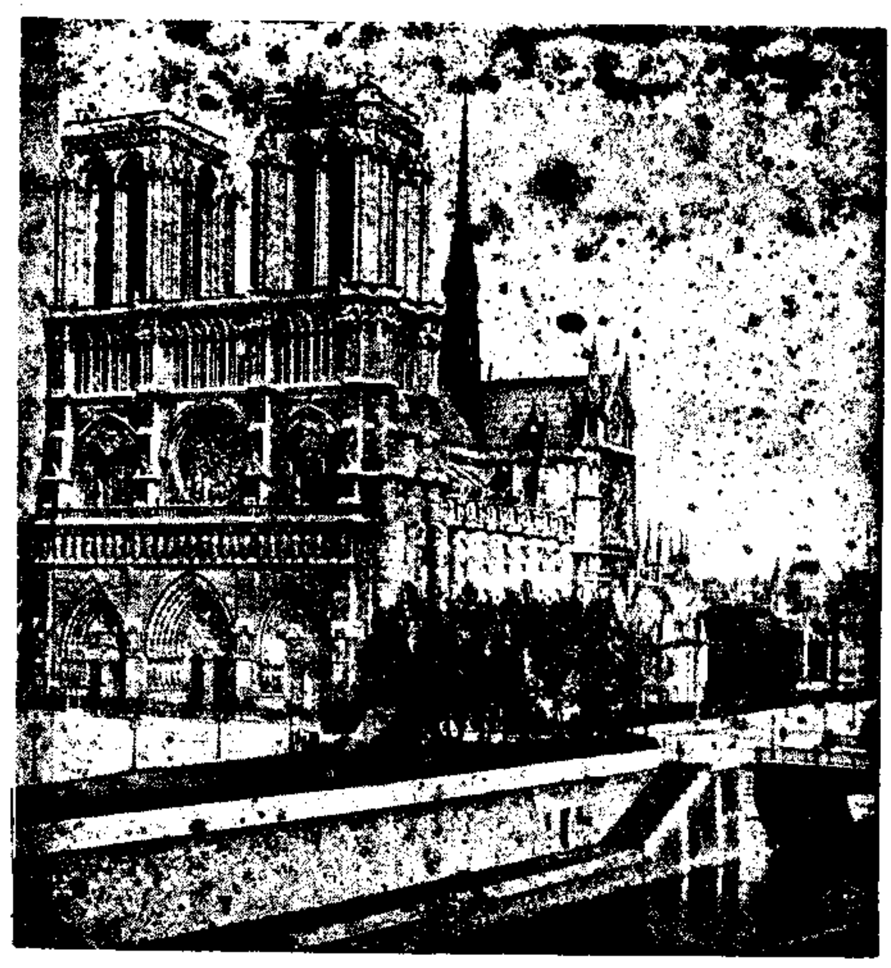
(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج.



(صورة ٢) العذراء مع الملائكة والقديس فرانسس فى كتدرائية أسيسى



(صورة ٣) صورة قديس



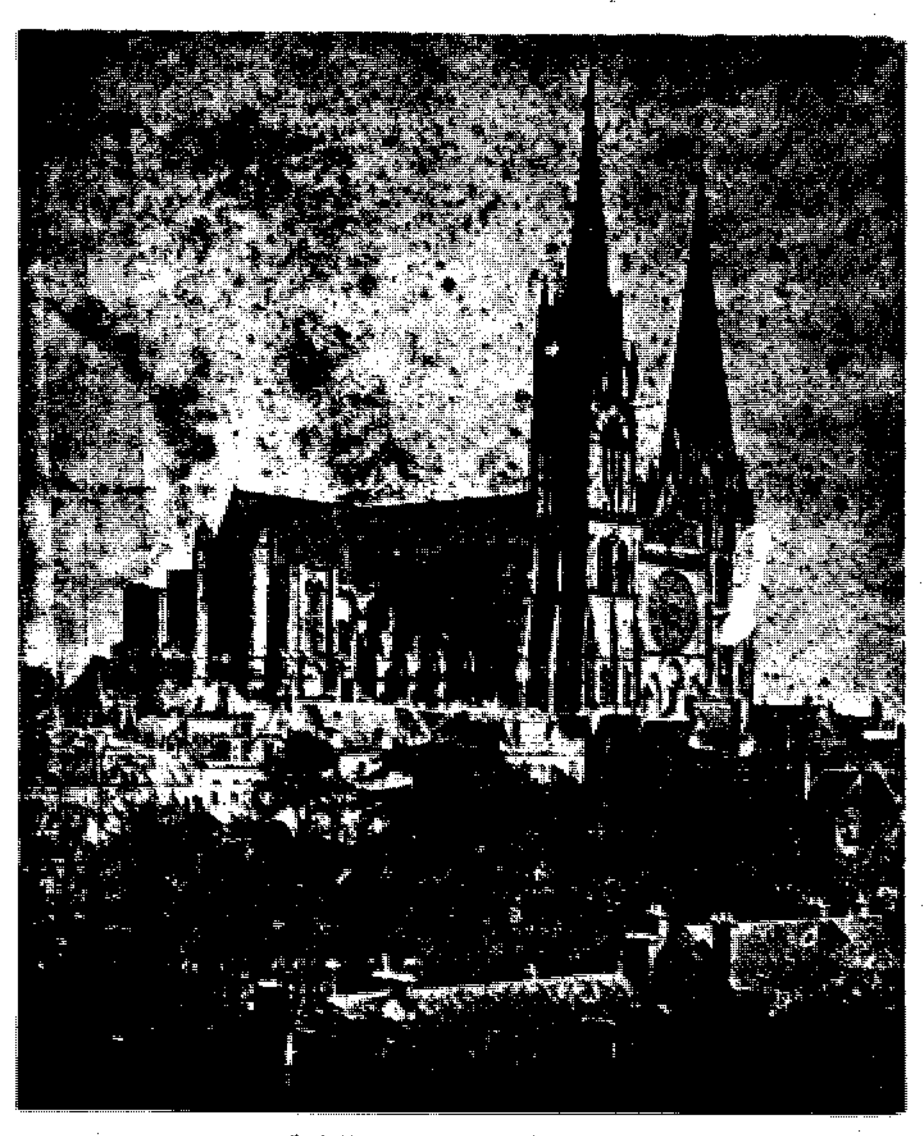
(صورة ٤) كنيسة نتردام ، باريس



(صورة ٥) عذراء العمود
من كنيسة نوتردام ، باريس



(صورة ٦) جارجويل
نتردام ، باريس

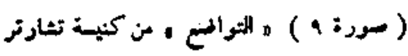


(صورة ٢) كتدرائية تشارتر – المنظر الغربي



(صورة ٨) « الزيارة » من كنيسة تشارتر





(صورة ٩) « التواضع » من كنيسة تشارتر



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الرابع

(١٦)





تونس بيروت

الباب السابع والعشرون

مذهب الروم الكاثوليك

١٠٩٥ – ١٢٩٤

الفصل الأول

عقيدة الشعب

يعدّ الدين من كثير من الوجوه أكثر أساليب الإنسان طرافة لأنه آخر ما تفسر به الحياة ، وهو سبيله الوحيدة لاتقاء الموت . وليس فى تاريخ العصور الوسطى كله ما هو أعظم أثراً فى النفس من الدين ، فإنك تراه فى كل مكان ، ويكاد يكون أعظم القوى فى تلك العصور . وليس من السهل على من يعيشون الآن منعمين تتوافر لهم جميع حاجاتهم أن يدركوا حق الإدراك ، ما كان فى تلك العصور من فوضى وعوزهما اللذان شكلا عقائد الناس فى خلالها . ولكن من واجبنا أن ننظر إلى ما كان عند المسيحيين واليهود من خرافات ، وأسرار خفية ، ووثنية ، وسذاجة ، وسلامة طوية . نقول إن من واجبنا أن ننظر إلى هـذا كله بنفس العطف الذى يجب أن ننظر به إلى عنائهم ، وفقرهم ، وأحزانهم ، وإن فرار الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء من « الدنيا ، واللحم ، والشيطان » إلى أديرة الرجال والنساء ليوحى إلينا بما كان يسود ذلك الوقت من اضطراب ، واختلال أمن ، وعنف أوفت على الغاية أكثر مما يوحى بجبن أولئك الفارين وخور عزيمتهم . وبدا أن من البدائه أن لا سبيل إلى السيطرة على الدوافع البشرية

الوحشية إلا بقانون أخلاقى تؤيده قوة تعلو على القوى البشرية . وكان أكبر ما يحتاجه العالم وقتئذ هو عقيدة توازن المحن بالآمال ، وتخفف من وقع الحرمان بالسلوى والعزاء ، وتزيل من ملل الكدح بخيال العقيدة ، وتمحو قصر الأجل بعقيدة الخلود ، وتضفى على المسرحية الكونية معنى ملهما يشرفها ويرفع من قدرها ، لولاه لكانت موكبا لا معنى له ولا يمكن احتماله ، موكبا من الأنفس ، والأجناس ، والنجوم ، تهوى واحدة بعد واحدة إلى الفناء الذى ليس منه محيص .

وسعت المسيحية إلى الوفاء بهذه الحاجات بفكرة حماسية رائعة عن الخلق والخطيئة الآدمية ، والأم العذراء ، والإله المعذب ، والنفس الخالدة التى قُدّر عليها أن تواجه يوم الحساب فيقضى عليها بالتردى فى الجحيم إلى أبد الآبدين ، أو أن تنجو وتنال النعيم السرمدى على يد كنيسة توفر لها بأسرارها المقدسة البركة الإلهية التى حلت على العالم بموت منقذه . وكانت حياة الكثرة الغالبة من المسيحيين تجول وتجد معناها فى هذه النظرة الشاملة إلى العالم . وكان أعظم ما أهدته العقيدة الدينية إلى العالم فى العصور الوسطى هو ثقته بأن الحق سيعلو آخر الأمر ، وأن كل نصر ظاهرى للشر سيفنى آخر العهد حين يظفر الخير بالشر فى العالم كله ، وتلك ثقة تعلى من قدر البشرية وتدعم كيانها .

وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة المسيحية واليهودية والإسلامية . وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيداً ليوم الحساب الأخير ، بقى هذا الاعتقاد بعد حبوط مسعى الرسل ، ومرور العام المتم للألف بعد المسيح ، ومخاوف أربعين قرناً وآمالها . نعم إن هذا الاعتقاد أضحى أقل وضوحاً وأضيق انتشاراً مما كان قبل ، ولكنه لم ينمح من النفوس ، فقد قال روجر بيكن Roger Bacon فى عام ١٢٧١ : إن « العقلاء من الناس » يرون أن نهاية العالم قد قربت(١) ، وكان كل وباء شامل ، وكل

كارثة مدلهمة ، وكل زلزال مروع ، وكل مذنّب يظهر فى السماء ، وكل حادثة غير عادية ، كان كل شيء من هذا القبيل يعد نذيراً بنهاية العالم ، وحتى إذا ظل العالم باقيا فإن أرواح الموتى وأجسامهم ستبعث من فورها(*) بعد وفاتها لتحاسب على ما قدّمت من خير وشر .

وكانت تجيش فى صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكنهم كانوا يخافون النار خوفا واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، وكان فى الدين المسيحى فى العصور الوسطى كثير من الرقة والرأفة ، ولكن رجال الدين والوعاظ الكاثوليك ، والبروتستنت الأولين ، كانوا يشعرون بأن من الواجب عليهم أن يروعوا الناس بأهوال الجحيم(**) . ولم يكن المسيح فى هذا العهد هو « عيسى الوديع الرقيق » ، بل كان هو المنتقم الجبار لكل ما يرتكبه البشر من آثام . وكان فى الكنائس كلها تقريباً رمز من يمثل المسيح فى صورة قاض ، وكان فى الكثير منها صور ليوم الحساب ، تمثل ضروب التعذيب التى يلقاها الملعونون تمثيلا أشد وضوحاً من النعيم الذى يتمتع به السعداء المقربون . ويقال إن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس **Bóris** ملك بلغاريا باعتناق الدين المسيحى بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر الملكى[٤] . وكان كثيرون من المتصوفة يدعون أنهم رأوا فى أحلامهم صوراً للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب[٥] ، ونقل إلينا الراهب تنديل **Tundale** من رهبان القرن الثانى عشر تفاصيل لها دقيقة : فقال إن فى وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتهبة من الحديد بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط

(*) وكانت النظرية المسيحية القائلة بأن حساب الموتى سيؤجل إلى « يوم الحشر » الذى سيفنى فيه العالم ، كانت هذه النظرية قد استبدلت بها العقيدة القائلة إن كل إنسان سيحاسب بعد موته مباشرة[٢] .

(**) قارن هذا بقول القائد وليم بوث **William Booth** (١٨٢٩ — ١٩١٢) عن أساليب وعاظ جيش النجاة : « لا شيء يؤثر فى قلوب الناس كما تؤثر فيه الأشياء الرهيبة المروعة . فهم لا يتأثرون إلا إذا تصاعد أمام أعينهم لهيب الجحيم »[٣] .

الألم ، ويداه طليقتان يمدهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب . ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد فى النار مرة وفى الماء الزمهرير مرة أخرى ، أويعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها فى النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج . وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين . وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هـــذه الآلام المختلفة التى لا يحصى لها عد[٦] . أما الكنيسة نفسها فلم يصدر عنها رسمياً قول يحدد مكان النار أو يصفها ، ولكنها كانت تعلن سخطها على أمثال أرجن Origen الذين يرتابون فى حقيقة نيرانها المادية[٧] . ولو أن أهوال هذه العقيدة قد نالها بعض التخفيف لأخفقت فى تحقيق غرضها ، ولهذا فإن القديس تومس أكويناس كان يؤمن بأن « النار التى ستعذب فيها أجسام المجرمين نار مادية » وحدد مكان الجحيم « فى أسفل الأرض »[٨] .

ولم يكن الشيطان فى خيال العامة من أهل العصور الوسطى . وفى خيال رجال من أمثال جريجورى الأكبر ، رمزاً أو كناية أو تشبيها ، بل كان جسما حقيقيا حياً من لحم ودم ، يغشى كل مكان فى العالم ، يغوى الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر . وكان من المستطاع عادة أن يطرد بقضه وقضيضه بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب ، ولكنه فى هـــذه الحال يخلف وراءه رائحة خبيثة هى رائحة الكبريت المحترق . والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغوى بها ضحاياه ، وينال رضاءهن فى بعض الأحيان — إذا كان لنا أن نصدق النساء أنفسهن . فقد اعترفت امرأة من طلوشة (طولوز Toulouse) أنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها وهى فى الثالثة والخمسين من عمرها والدت منـــه هولة لها رأس ذئب ، وذنب أفعى[٩] . وللشيطان فى رأى

أقوام العصور الوسطى عدد لا يحصى من أعوانه الأبالسة ، يحومون حول كل نفس ، ويعملون دائبين على جرها إلى ارتكاب الإثم . وهؤلاء أيضاً يحبون أن يضاجعوا النساء اللاتى يهملن أنفسهن ، أو ينمن وحدهن ، أو ينقطعن للدين والعبادة(١٠) . وقد وصف الراهب ريكالم Richalm أولئك الأبالسة بأنهم « يملأون العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا فى كل زمان ومكان . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى واحد منا حيا يرزق ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم »(١١) . وكان الناس كلهم تقريباً بما فيهم الفلاسفة أنفسهم يؤمنون بهذا العدد الجم من الأبالسة والشياطين ، ولكن روح الفكاهة المنجية كانت تخفف من رهبة هذا الإيمان بهم ، وكان كثير من الرجال ذوى العقول المتزنة ينظرون إلى أولئك الأبالسة الصغار على أنهم جماعة من الخبثاء أكثر منهم خلائق مروعين . وكان من العقائد الشائعة أن أولئك الأبالسة يتدخلون تدخلا مسموعاً ، ولكنه غير منظور ، فى أحاديث الناس ، ويخرقون أثوابهم ، ويلقون بالأقذار على عابرى السبل . ويقال إن شيطاناً متعباً جلس مرة على خسَّة فأكلتها راهبة وهى لا تدرى ما تفعل(١٢) .

وأكثر رهبة من العقيدة السالفة الذكر الاعتقاد بأن « كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون » (الآية ١٤ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى) . وكان المؤمنون المستمسكون بدينهم يعتقدون أن الكثرة الغالبة من الجنس البشرى ستتردى فى الجحيم(١٣) ، وكان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المعزو إلى المسيح : « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » (مرقس إصحاح ١٦ الآية ١٦) . ووصل القديس أوغسطين على الرغم منه إلى النتيجة القائلة إن من مات من الأطفال قبل التعميد مآله النار(١٤) ، وكان القديس أنسلم يظن أن ليس فى عذاب الأطفال غير المعمدين (الآثمين لأن آدم وحواء قد ارتكبوا الإثم) من المخالفة للعقل والمنطق أكثر مما فى فرض الرق على

أبناء الأرقاء — وهو لايرى أن فى هذا بعداً ما عن المعقول[١٥] . وقد خففت الكنيسة من هول هذه العقيدة بأن علمت الناس أن الأطفال غير المعمدين لايلقون فى الجحيم بل يلقون فى يمبوس **Jnfernus puerorum** حيث لايكون عذابهم إلا ما يشعرون به من ألم لأنهم حرموا من الجنة[١٦] . وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعاً — كما كانت الكثرة الغالبة من المسلمين ما عدا النبى محمداً تعتقد أن المسيحيين جميعاً — سيلقون فى النار ، وكان الاعتقاد السائد أن « غير المؤمنين سيعذبون[١٧] . وذهب مجلس لاتران الرابع إلى أبعد من هذا فأعلن (١٢١٥) أن لا نجاة لأحد من النار إذا لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة[١٨] . وقرر البابا جريجورى التاسع أن ما كان يأمله ريمند للى **Raymond Lully** من أن « الله يحب شعبه حباً يؤدى إلى نجاة الناس جميعاً تقريباً ، لأنه لو كان المعذبون أكثر من الناجين لكانت رحمة المسيح خالية من كثير الحب »[١٩] ، وليس ثمة رجل آخر من رجال الدين البارزين أجاز لنفسه أن يعتقد — أو أن يقول — إن الناجين سيزيدون على المعذبين[٢٠] . وقدر برثلد الرجنزبرجى **Bertshold of Regensburg** ، وهو من أشهر وعاظ القرن الثالث عشر وأحبهم إلى الناس ، نسبة المعذبين إلى الناجين بمائة ألف إلى واحد[٢١] . ويرى القديس تومس أكويناس أن « فى هذا أيضاً تظهر رحمة الله أكثر مما تظهر فى شىء سواه ، لأنه يرفع القليلين إلى معارج النجاة ، التى يعجز عن إدراكها الكثيرون »[٢٢] . وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن البراكين هى أفواه جهنم ، وأن قعقعتها ليست إلا صدى خافتاً لأنين المعذبين[٢٣] ، وكان جريجورى الأكبر يقول إن فوهة بركان إتنا تزيد اتساعا فى كل يوم لتبتلع العدد الذى لا يحصى من الأرواح التى كتب عليها العذاب[٢٤] . وكانت أحشاء الأرض المزدحمة تضم ثناياها الحارة الكثرة الغالبة من جميع من ولدوا من بنى الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر ؛ وفى

ذلك يقول برثلد : أحص رمال شواطىء البحار ، أو الشعر الذى ينبت على أجسام البشر والحيوان من يوم أن خلق آدم ، وقدر سنة من العذاب لكل حبة رمل أو شعرة ، ثم اعلم أن هذه الحقبة من الزمن التى تصل إليها لا تكاد تمثل بداية آلام المعذبين[٢٥] . وكانت اللحظة الأخيرة فى حياة الإنسان هى اللحظة فى الأبدية كلها ، وكان خوف الناس من أن يكون الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة آثماً لم تغفر له ذنوبه ، كان هذا الخوف عبئاً ثقيلا ترزح تحته النفوس البشرية .

وكانت عقيدة المطهر أو الأعراف تخفف من هذه الأهوال تخفيفاً غير قليل . وكانت الصلوات من أجل أرواح الموتى عادة قديمة قدم الكنيسة نفسها ، وفى وسعنا أن نرجع طقوس التكفير عن الذنوب والصلاة على أرواح الموتى إلى عام ٢٥٠ م[٢٦] . وقد تحدث أوغسطين عن وجود موضع يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيراً كافياً بعد موتهم ؛ وقبل جريجورى الأول هذه الفكرة ، وقال إن ما تعانيه الأرواح فى المطهر من آلام قد يخفف ويقصر مداه بفضل دعاء الأحياء من أصدقائهم وصلواتهم[٢٧] . غير أن هذه النظرية لم تصبح من العقائد الواسعة الانتشار حتى نفخ فيها بطرس دميان Peter Damian حوالى عام ١٠٧٠ من روحه الحماسية وأذاعها ببلاغته . وزاد انتشار هذه الفكرة فى القرن الثانى عشر حين ذاعت قصة تقول إن القديس بتريك St. Patrick أراد أن يقنع بعض المتشككين فأجاز حفر حفرة فى أيرلندة نزل إليها بعض الرهبان ، ثم عاد بعضهم . كما تقول القصة . ووصفوا المطر والنار وصفاً واضحة ثبط عزيمة من يريدون أن يحذوا حذوه ، وادعى أون Owen الفارسى الأيرلندى أنه نزل من هذه الحفرة إلى الجحيم فى عام ١١٥٣ . ووصف ما لاقاه فى العالم السفلى وصفاً لاقى نجاحاً منقطع النظير[٢٨] . فقد

أقبل الناس من بعيد لزيارة هذه الحفرة ، ونشأت من ذلك شرور ومساوئ مالية اضطرت البابا اسكندر السادس أن يأمر فى عام ١٤٩٧ بردمها لأنها من الادعاءات الباطلة[٢٩] .

ترى كم من الناس فى العالم المسيحي أثناء العصــور الوسطى كانوا يصدقون العقائد المسيحية ، إننا نسمع عن وجود ملحدين كثيرين ، ولكن الكثرة الغالبة من أولئك الملحدين كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية ، وقد حدث بمدينة أورليان Orleans فى عام ١٠١٧ أن « رجلين من أكرم الناس أبا وأوسعهم علماً » أنكرا عقائد خلق العالم ، والتثليث ، والجنة ، والنار ، وقالا إنها كلها مجرد هذيان »[٣٠] . ويقول چون السلزبرى John of Salisbury فى القرن الثانى عشر إنه سمـــع كثيرين من الناس يتحدثون « أحاديث لا يقبلها الدين »[٣١] ، ويقول ڤلانى Villani إنه كان بمدينة فلورنس فى ذلك القرن نفسه جماعة من الأبيقوريين ، يسخرون من الله والقديسين ، ويطلقون العنان لشواتهم الجسمية[٣٢] . ويحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٤٦ ؟ — ١٢٢٠) عن قس ، لا يذكر اسمه ، لامه قس آخر على عدم عنايته بالاحتفال بالقداس ، فكان رده أن سأل ناقده هل يؤمن هو حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه ، وبعقيدة التجسد ، وبمولد المسيح من مريم العذراء ، وبالبعث — وزاد على ذلك أن قال هذا كله قد اخترعه القدماء الماكرون ليرهبوا الناس ويسيطروا عليهم(*) ، وإن طائفة من المنافقين يحذون الآن حذوهم[٣٣] . وينقل جرلد الويلزى نفسه قول العالم سيمون التورنائى Simon of Tournai (حوالى ١٢٠١) فى حسرة وألم : « ربّاه ياذا الجلال !

(*) يذكرنا هذ بقول أبى العلاء المعرى :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما　　دياناتكم مكر من القــدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأفلحوا　　وماتوا فبادت سنة اللؤماء

وبغير هذين البيتين من أقواله وقد ورد بعضها فى الجزء الثانى من هذا المجلد . (المترجم).

إلى متى تبقى هذه الشيعة الخرفة من المسيحيين ، وتدوم هذه البدعة التى لا أصل لها ؟»[٣٤] . وتقول إحدى القصص المتداولة عن سيمون هذا إنه أثبت فى محاضرة له عقيدة التثليث بالحجج القوية البارعة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه بنفسه عجباً فقال إن فى وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أخرى أقوى من حججه الأولى ، فلما نطق بهذا — كما تقول القصة — أصيب من فوره بالشلل والعته[٣٥] . وفى عام ١٢٠٠ كتب بطرس رئيس دير الثالوث المقدس Holy Jrinity فى ألدجيت Aldgate بلندن يقول : « من الناس من لا يعتقدون بوجود الله ، ويقولون إن العالم تسيره الصدفة . . . ومنهم كثيرون لا يؤمنون بالملائكة الأخيار أو الأشرار ، ولا بالحياة بعد الموت أو بأى شىء روحى لا تراه العين »[٣٦] . وقد أثار شجن فنسنت من أهل بوڤيه Vincent of Beauvais (١٢٠٠؟ — ١٢٦٤) أن كثيرين يسخرون من الرؤى ومن القصص (قصص القديسين) » ويقولون « إنها من خرافات العوام أو إنها بدع كاذبة ، ويضيف إلى ذلك قوله : « وليس لنا أن نعجب من أن هذه القصص لا تقبلها عقول الذين لا يعتقدون بوجود النار »[٣٧] . ولقد كانت عقيدة الجحيم من العقائد التى لا يستسيغها الكثيرون . وكانت بعض النفوس الساذجة تتساءل : « لم خلق الله الشيطان إذا كان قد سبقت فى علمه خطيئته وسقوطه ؟ »[٣٨] . وقال بعض المتشككين إن الله لا يمكن أن تصل قسوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم الغير المحدود ، ويجيب رجال الدين عن هذا الاعتراض بقولهم إن الذنب الذى يرتكبه الآدمى إجرام فى حق الله ، وإنه لهذا يعد إثماً لا نهاية له . ولم يقنع هذا القول ناسجا كان يعيش فى طولوز عام ١٢٤٧ فقال : « لو أننى استطعت أن أقبض على هذا الإله الذى لا ينجى من كل ألف من خلقه إلا واحداً ثم يعذب الباقين ، لانتزعت أسنانه وأظافره كما تُفعل بالخونة المارقين ، ولبصقت فى وجهه »[٣٩] . ولبعض المتشككين أقوال لا تبلغ من

العنف هذا المبلغ كله ، فيقولون مثلا إن نار الجحيم لا بد أن تُكَلِّس الروح والجسم حتى يصبحا عديمي الإحساس بها ويصير « من اعتاد الجحيم مستريحا فيها راحته في أي مكان سواها »[٤٠] . وتبدو في نشيد أوكاسين ونيقولت Queassin et Nieolette (حوالى عام ١٢٣٠) الفكاهة القديمة القائلة بأن الإنسان يلقى في الجحيم صحابا أظرف ممن يلقاهم في الجنة[٤١] . ويشكو القسيسون من أن معظم الناس يؤجلون التفكير في النار إلى آخر لحظة في حياتهم لوثوقهم من أنهـم مهما تكن آثامهم فإن « ثلاث كلمات » (ego-te absolvo) « تكفى لنجاتى »[٤٢] .

ويبدو أنه كان في القرى وقتئذ كما فيها الآن من لا يؤمنون بالله ، ولكن الكافرين القرويين لا يتركون وراءهم ذكريات تحدث عنهم ، يضاف إلى هذا أن معظم ما وصل إلينا من أدب العصور الوسطى قد كتبه رجال الدين أو أن رجال الدين قد أخفوا الجزء الأكبر منه ولم يبرزوا لنـا إلا ما وقع عليه اختيارهم . وسنجد فيما بعد « علماء جوالين » يقولون شعراً يبدو فيه عدم الاحتشام ، ولصوصاً غلاظاً ينطقون بأشد الأقوال تجديفاً ، وأناساً ينامون ويغطون[٤٣] ، بل ويرقصون[٤٤] ويفجرون[٤٥] في الكنائس ، كما نجد من يرتكبون « العهر ، والنهم ، والقتل ، والسرقة في يوم الأحد » (كما يقول أحد الرهبان) « أكثر ممن يرتكبون هذه الذنوب في جميع أيام الأسبوع الذى قبله »[٤٦] . وفي وسعنا أن نذكر في هذه الصفحة ما لا يحصى من الأمثلة نجمعها من مائة بلد وبلد ، ومن ألف عام وعام . وكلها تدل على ما كان في العصور الوسطى من نقص في الإيمان الحق ، وتحذرنا من التغالى في الاعتقاد بتقوى الناس في تلك العصور ؛ ولكن العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث في جو من العبادات والعقائد الدينية ؛ فلقد كانت كل دولة أوربية تأخذ المسيحية في كنفها وتحت حمايتها ، وترغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة ؛ وكان كل ملك ، إلا القليل النادر منهم ، يثقل

الكنيسة بالهبات ، وكانت كل حادثة تقع فى التاريخ ، إلا ما ندر منها ، تفسر على أساس من الدين ، وكل واقعة فى أسفار العهد القديم تسبق إلى تصوير شىء أسفار العهد الجديد .

ومن أمثلة ذلك ما يقوله الأسقف العظيم من أن داود حين يراقب بثشبع وهو يستحم إنما يرمز إلى المسيح إذيرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا[٤٧]. وكان كل شىء عادى طبيعى علامة على شىء خارق للعادة ، كما كان لكل جزء من كنيسة ، فى رأى جيوم ديوراند Guillame Durant (١٢٣٧ — ١٢٩٦) ، أسقف مندى mende ، معنى دينى ؛ فمدخل الكنيسة هو المسيح ، الذى يوصلنا إلى الجنة ؛ وعمدها تمثل المطارنة وعلماء الدين ، الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التى يلبس فيها القس ثيابه هى رحم مريم ، الذى يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين[٤٨]. ويقول أصحاب هذه النزعة إن لكل حيوان معنى فى الدين ؛ من ذلك ما جاء فى كتاب فى الحيوان مؤلف فى العصور الوسطى وهو نموذج لغيره من أمثاله : « إذا ولدت لبؤة شبلا ، فهى تلده ميتاً ، وتظل تعنى به ثلاثة أيام حتى يأتى أبوه فى اليوم الثالث وينفخ فى وجهه ، ويبعث فيه الحياة . وبهذه الطريقة عينها أحيا الله جل وعلا ابنه سيدنا عيسى المسيح من بين الموتى[٤٩] .

وكان الناس يسرون بسماع مائة ألف من القصص عن الحوادث ، والقوى ، ووسائل الشفاء الخارقة ، أو يخلقونها خلقاً من عند أنفسهم ، كقولهم إن صبياً إنجليزياً حاول أن يسرق بعض زغاليل الحمام من عشها ، فالتصقت يده بقوة سماوية بالحجر الذى اتكأ عليه ، ولم تفك إلا بعد أن قضى أهله ثلاثة أيام فى الصلاة والدعاء[٥٠]. وقدم طفل طعاما لتمثال المسيح الطفل المنحوت فى مزار صور فيه مولده ؛ فما كان من الطفل المسيح إلا أن شكره ودعاه إلى دخول الجنة ؛ ولم تمض على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى توفى الطفل الذى قدم الخبز للمسيح[٥١] .

وكلف قس فاسق بإحدى النساء ، فلما عجز عن استمالتها إليه احتفظ بجسم المسيح الطاهر فى فمه بعد القربان ، لعله إذا قبلها والجسم فى فمه استجابت إلى رغبته بقوة القربان المقدس . . . ولكنه لما أراد أن يخرج من الكنيسة خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى اصطدم رأسه بسقفها » . فدفن الخبز المقدس فى أحد أركان الكنيسة ؛ واعترف بعدئذ بما حدث لقس آخر ، فأخرجا الخبز من الأرض فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم(٥٢). واحتفظت إحدى النساء بالخبز المقدس فى فمها وهى فى طريقها من الكنيسة إلى بيتها ، ثم وضعته فى قفير نحل لتقلل بذلك من عدد ما يموت من نحلها ، فما كان من النحل « إلا أن بنى لضيفه العزيز من أحلى ما يخرجه من الشهد معبداً صغيراً بديع الصنع »(٥٣). وملأ البابا جريجورى الأول مؤلفاته بقصص من هذا القبيل . ولعل الناس ، أو المتعلمين منهم ، كانوا يشكون فى هذه القصص ويرون أنها أقاصيص مسلية طريفة وليست أسوأ من القصص العجيبة التى يطرد بها الملوك ورؤساء الجمهوريات الوقت الحاضر السأم عن أنفسهم ويريحون بها عقولهم المجهدة ، ولعل السذج فى العصور الخالية لم يقبلوا أكثر من تبديل نوعها لا مداها ، وإن فى كثير من أقاصيص العصور الوسطى لشواهد على إيمان أهل تلك العصور إيماناً يحدث فى النفس أعمق الأثر ؛ وحسبنا أن نذكر منها أنه لما عاد البابا ليو التاسع المحبوب إلى إيطاليا بعد رحلة الإصلاح التى قام بها فى فرنسا وألمانيا انشق له نهر أنين Aniene كما انشق البحر الأحمر لموسى ليستطيع أن يجتازه(٥٤).

وترجع قوة الدين المسيحى إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ؛ وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون آن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التى ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوها توكيداً

يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطئ تارة وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها ، ولعلهم كانوا يرتابون المعرفة ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريماً ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السذاجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للإيمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم وبالدولة . انظر إلى قول فليب أغسطس لملاحيه أثناء عاصفة ثارت فى منتصف الليل : « إنكم تهلكوا لأن آلافا من الرهبان يقومون من فراشهم فى هذه اللحظة ، ولن يلبثوا أن يصلوا من أجلكم(٥٥) » . وكان الناس يعتقدون أنهم تسيطر عليهم قوة أعظم مما تستطيع المعرفة البشرية أن تهبهم ، وكانوا فى العالم المسيحى ، كما كانوا فى العالم الإسلامى ، يسلمون أنفسهم إلى الله ، كما كانوا حتى فى دنسهم ، وعفتهم ، وفجورهم يبتهلون إليه أن ينجيهم . لقد كان هذا عصراً ثملا بنشوة الإيمان بالله .

الفصل الثانى

الأسرار المقدسة

كانت القوة الثانية من قوى الكنيسة التى تلى تحديد الدين هى عملها فى أداء الأسرار المقدسة — أى الشعائر التى ترمز إلى منح البركة الإلهية . ويقول القديس أوغسطين فى هذا : « لا يستطيع الناس فى دين من الأديان أن يرتبط بعضهم ببعض إلا إذا اجتمعوا فى نوع من الزمالة عن طريق رموز أو شعائر يرونها رأى العين »[٥٦] . ويكاد اللفظ اللاتينى الذى يعبر عن هذه الأسرار المقدسة وهو لفظ Sacramentum ينطبق فى القرن الرابع الميلادى على كل شىء مقدس — على التعميد ، وعلى الصليب ، والصلاة ؛ وأطلقه أوغسطين فى القرن الخامس على الاحتفال بعيد القيامة ؛ ثم قصره إزدور الأشبيلى Isidore of Seville فى القرن السابع على التعميد وتثبيت العماد ، والقربان المقدس . فلما كان الثانى عشر حددت الأسرار المقدسة بسبعة أسرار : التعميد ، وتثبيت العماد ، والكفارة ، والقربان المقدس ، والزواج ، ورتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الإلهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب — فلم تكن من هذه الأسرار وسميت sacramentals أى المتعلقة بتلك الأسرار تمييزاً لها عن الأسرار الأصيلة .

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل ، وأنموذجه ، وحاميه ، وهذا هو « اسمه المسيحى » أو الخاص . وقبل أن يحل القرن

التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى — طريقة غمر الطفل كله — قد استبدلت بها تدريجا طريقة الرش لأنها أقل خطراً على الصحة من الطريقة الأولى فى الجواء الباردة الشمالية . وكان فى وسع أى قسيس — أو أى مسيحى عند الضرورة — أن يقوم بعملية التعميد ؛ وكانت الطريقة القديمة ، طريقة تأجيل التعميد حتى يكبر الطفل ، قد استبدلت بها طريقة التعميد فى سن الرضاعة ؛ وقد أنشأت بعض الجماعات وبخاصـــة فى إيطاليا كنائس صغرى خاصة لأداء هذه الشعيرة .

وكانت مراسم تثبيت العماد والقربان المقدس تقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة . أما عند أتباع الكنيسة الغربية فقد أجلت سن تثبيت العماد شيئاً فشيئاً إلى السنة السابعة من حياة الطفل حتى يستطيع أن يتعلم المبادئ الأساسية للدين المسيحى . ولم يكن يقوم بهذه العملية إلا أحد الأساقفة ، ويصحبها دعاء إلى الروح القدس أن يدخل فى جسم التعميد ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ولطمه لطمة خفيفة على خده ؛ وبهذه الطريقة الشبيهة بما كان متبعاً فى مراسم الفروسية يثبت المسيحى الصغير فى دينه ، ويكون له تبعاً لذلك كل ما للمسيحى من حقوق وعليه كل ما على المسيحى من واجبات .

وأهم من هذا مراسم الكفارة . فإذا كانت عقائد الكنيسة تلقِّن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفَّارات . فقد ورد فى الإنجيل (متَّى الآية ١٩ من الأصحاح السادس عشر ، والآية ١٨ من الأصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا . وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة « الربط والحل » . وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن . واستبدلت

بطريقه الاعتراف العلنى التى جرت بها العادة فى أيام المسيحية الأولى طريقة الاعتراف السرى الفردى حتى لا تمس كرامة بعض الكبار ؛ ولكن الاعتراف العلنى بقى عند بعض الطوائف الخارجة على مبادئ الكنيسة . وكانت الكفارة العلنية تفرض أحياناً عند ارتكاب بعض الجرائم الشنيعة كمذبحة سالونيك أو قتل بكت Becket . وقد قرر مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) أن يتكرر الاعتراف والعشاء الربانى كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ومن الدفن دفنة مسيحية . وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمايتهم فوضع « خاتم » على كل توبة بمفردها ؛ ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقس أن يفشى ما اعترف له به . ونشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدد الكفارة القانونية (التى قررتها الكنيسة) لكل مذنب — الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ، أو غيرها من أعمال التقى أو التصدق .

ولهذا « النظام العجيب » ، كما يصف ليبنتز مراسم الكفارة ، كثير من النتائج الطيبة . فهو يريح التائب من آلام وخز الضمير الصامتة المنهكة للأعصاب ؛ وهو يمكن القس من إصلاح أحوال أتباعه الخلقية والجسمية ، وهو يريح بال المذنب بما يبعثه فيه من أمل فى صلاح حاله ، وهو كما يقول ڤلتير المتشكك ، قيد يقلل من ارتكاب الجرائم[٥٨] . ويقول جيته Goethe « لقد كان من الواجب ألا يحرم بنو الإنسان من الاعتراف السمعى »[٥٩] . لكنه لم يخل من بعض النتائج السيئة : فقد كان هذا النظام يستخدم أحياناً لتحقيق أغراض سياسية ، وذلك حين كان القساوسة مثلا يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات[٦٠] . وكان يستخدم أحياناً فى محاكم التفتيش كما حدث حين أمر القديس شارل برميو St. Charles Borromeo (١٥٣٨ — ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة على أيديهم أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفونهم من الملحدين أو ممن تحوم حولهم شبهة الإلحاد[٦١]

وأخطأ بعض السذج فظنوا أن الغفران يبيح لهم أن يعودوا إلى ارتكاب الذنوب . ولما ضعف التحمس الدينى كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب ، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا على التائبين عقوبات مخففة ، كانت فى العادة هى التصدق بالمال لغرض ترتضيه الكنيسة . ونشأت من هذا « التخفيف » صكوك الغفران .

ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم ، بل كان إعفاء جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذى يستحقه الإنسان جزاء له على آثامه الدنيوية ، أو من هذا العقاب كله ، وهذا الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة . وكان الغفران الذى يمنح عند الاعتراف يمحو الخطيئة التى لولاه لأدت بكاسبها إلى الجحيم ، ولكنه لم يكن يعفيه من العقاب « الزمنى » المترتب على إثمه . وكانت أقلية صغرى من المسيحيين هى التى تكفر عن ذنوبها فى هذا العالم تكفيراً تاماً ، أما ما بقى من هذا التكفير فيحدث فى المطهر . وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حتى التجاوز عن هذا العقاب ؛ وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسما صغيراً عن كنوز البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ؛ وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ؛ وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه إربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادات سُنَّة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق ، أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات ، أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسى ، أو حرب مسيحية . . . واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ، ولكنها فتحت الأبواب

للمطامع البشرية ؛ فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ، ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها الطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وقد نشأ من هذه العروض التى يسميها الإنجليز « غافرات pardoners تنافس شديد جلل بالعار كثيراً من المسيحيين ، فكانوا يتظاهرون بتعظيم بعض الآثار الدينية المزورة ليحملوا الناس على التبرع بالمال ، وكانوا يحتفظون لأنفسهم من هذه الأموال بقسط قليل أو كثير . وبذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوئ ، من ذلك أن مجلس لاتران الرابع أمر المطارنة أن ينبهوا المؤمنين إلى ما هنالك من الآثار الدينية الكاذبة والشهادات المزورة ؛ وحرمت رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران ، وفرضت بعض القيود على حق المطارنة فى إصدارها ، وحثت جميع رجال الدين على أن يراعوا جانب الاعتدال فى تحمسهم لهذه الوسيلة الجديدة . وندد مجلس مينز الدينى فى عام ١٢٦١ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين ، مرنوا على البكاء حين يشاءون ، يساومون على التطهير من الذنوب بأكبر ما يستطيعون الحصول عليه من المال وبأقل ما يقدمونه من الأدعية والصلوات[٦٢] . وشهرت بها مجالس كنسية أخرى مثل هذا التشهير كمجلس ڤين Vienne (١٣١١) ومجلس رافنا (١٣١٧)[٦٣] ، لكن هذه المساوئ لم تنقطع .

وكان العشاء الربانى أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد . ذلك أن الكنيسة تمسكت بحرفية العبارة المعزوة إلى المسيح وقت تناول العشاء الأخير ، والقائلة إن الخبز هو جسمه وإن النبيذ دمه . وأهم ما تقوم عليه شعيرة العشاء الربانى هو تحول رغيف الخبز وكأس النبيذ إلى جسم المسيح ودمه بقدرة القسيس المعجزة ؛ وكان الغرض الأول من القداس هو أن يسمح للمؤمنين بأن يشتركوا فى « جسم »

الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى « دمه ، وروحه ، وألوهيته » ، وذلك بأكل القربان المقدس ، وشرب النبيذ المقدس . وإذا كان شرب هذا النبيذ يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت فى القرن الثانى عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الربانى بالخبز وحده ؛ ولما أن طالب بعض المحافظين (الذين أخذ عنهم الهوسيون البوهيميون (Hussites of Bohemia) أراءهم فيما بعد أن يتناولوا القربان بصورتيه ليتأكدوا من أنهم حصلوا على دم المسيح وجسمه ، قال لهم علماء الدين إن دم المسيح « ملازم » لجسمه فى الخبز ، وإن جسمه « ملازم » لدمه فى النبيذ[٦٤] . وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكاذبين[٦٥] . وكان يطلب إلى كل مسيحى أن يتناول العشاء الربانى مرة فى العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحى لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ونشأت عقيدة حضور المسيح فى أثناء العشاء الربانى نشأة بطيئة . وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هى التى أذاعها مجلس نيقية فى عام ٧٨٧ . ثم قام راهب بندكتى فرنسى يدعى رتراموس Ratramus فى عام ٨٥٥ وقال إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح ودمه إلا بطريقة روحية لا جسدية . وقام برنجار Berenegar رئيس شمامسة تور حوالى عام ١٠٥٤ وجهر بارتيابه فى تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه ، فكان جزاؤه الحرمان من الدين ، وكذب لافرانك Lafranc رئيس دير بلك Bec رداً عليه (١٠٦٣) يقرر فيه العقيدة الدينية الصحيحة قال فيه :

إنا لنعتقد أن المادة الأرضية . . . تستحيل بتأثير القوة السماوية التى لا يستطيع أحد وصفها ... أو إدراك كنهها إلى جوهر جسم المسيح ؛ على حين أن مظهره ، وبعض صفاته الأخرى المتصلة بهذه الحقائق نفسها ، تبقى خافية حتى

ينجو الناس من هول رؤية الأشياء النيئة المخضبة بالدماء ، وحتى ينال المؤمنون الجزاء الكامل لإيمانهم . ومع هذا كله فإن جسم المسيح ذاته يبقى فى الوقت عينه فى السماء ... مصونا كاملا ، لايمسه أذى أو دنس(٦٦).

وأعلن مجلس لاتران فى عام ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية فى الدين المسيحى ، وأضاف مجلس ترنت Trent إلى هذا القول فى عام ١٢٦٠ أن كل جزىء من الخبز المقدس مهما كسر يحتوى جسم عيسى المسيح كله ، ودمه ، وروحه ؛ وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر فى الأديان البدائية — وهى أكل الإله .

وقد رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها عقدة دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التى ورثها عن الرسل والتى يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفى آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير ، يستمع القس إلى اعترافات المسيحى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التى تنجيه من النار ، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل . ويدفنه الأحياء من أهله دفنة مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون ، لأن الكنيسة كانت تقول إن الجسم أيضاً يبعث حيا بعد الموت ، وهم يلفونه فى كفنه ، ويضعون قطعة من النقود فى تابوته كما كان يفعل الأقدمون إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون Charon لنقله إلى الدار الآخرة(٦٦) ، ثم يحملونه إلى قبره باحتفال مهيب ينفق فيه الكثير من المال . وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليبكوه وينوحوا عليه ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف لطول مدة الحزن أن قلباً تائباً ، وقساً خادما ، قد ضمنا لهذا الرجل جنة النعيم .

الفصل الثالث

الصـــلاة

الشعائر الدينية فى كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها ، فهى تعلم الإيمان ، وتغذيه ، وتوجده فى كثير من الأحيان ؛ وهى تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه ؛ وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها ، وفنها ؛ وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة مؤتلفة حين تقنعهم بالاشتراك فى شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وأدعية وصلوات واحدة ، ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحدا .

وأقدم الصلوات المسيحية هما الصلاة التى مطلعها « أبانا الذى فى السموات » والتى مطلعها « نؤمن بإله واحد » ، وقبل أن ينتهى القرن الثانى عشر بدأت الصلاة الرقيقة المحببة التى مطلعها « السلام لك يا مريم » تتخذ صيغتها المعروفة . وكانت هناك غير هذه الصلوات أوراد شعرية من الثناء والتضرع . ومن الصلوات فى العصور الوسطى ما يكاديكون رقى تمكن من يتلوها من الإتيان بالمعجزات ، ومنها ما هو إلحاح متكرر لا يتفق مع تحريم المسيح « للتكرار العديم النفع »(٦٧) . ونشأت عند الرهبان والراهبات تدريجاً ، وعند غير رجال الدين فيما بعد ، عادة استعمال المسبحة ، وهى عادة شرقية جاء بها الصليبيون(٦٨) . ونشر الرهبان الدمنيك هذه العادة ، كما نشر الفرنسسكان عادة « طريق الصليب » أو « مواضعه » وهى التى تقضى بأن يتلو المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح ؛ فكان القساوسة ، والرهبان ، والراهبات ، وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية ــ وهى أدعية ، وقراءات ، ومزامير ، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم

وجمعها ألكوين **Alcuin** وجريجورى السابع فى كتاب موجز . وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء من مليون كنيسة وبيت متفرقة فى جميع أنحاء الأرض كل يوم وليلة فى فترات بين كل واحدة والتى تليها ثلاث ساعات . وما من شك فى أن نغماتها الموسيقية كان لها أحسن الوقع على آذان أصحاب البيوت التى تستمع إليها كما يقول أوردركس ڤيتالس : **Ordericus Vitalis** « ما أحلى أناشيد العبادة الإلهية التى تطمئن بها قلوب المؤمنين . وتدخل عليهم السرور »[٦٩] .

وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التى تتلى فى الكنائس توجَّه إلى الله الأب ، وكان عدد قليل منها يوجَّه إلى الروح القدس ، ولكن صلوات الشعب كانت توجه فى الأغلب الأعم إلى عيسى ومريم ، والقديسين . وكان الناس يخافون الله سبحانه وتعالى ، فقد كان لا يزال يتصف فى عقول العامة بكثير من القسوة التى كانت ليهوه ؛ وكيف يجرؤ الشخص المذنب الساذج أن يوجه صلاته إلى ذلك العرش الرهيب البعيد ؟ إن عيسى لأقرب إليه من ذلك العرش ، ولكنه هو أيضاً إله ، ومن أصعب الأشياء أن يجرؤ الإنسان على مخاطبته، وجهاً لوجه بعد أن أنكر نعمه هذا النكران التام . ومن أجل هذا بدا للناس أن من الحكمة أن توجه الأدعية والصلوات إلى أحد القديسين (أو إحدى القديسات) تشهد قوانين الكنيسة بمقامه فى الجنة ، وأن يتوسل إليه بأن يكون وسيلته عند المسيح . وبهذه الطريقة بعثت فى عقول العامة من الماضى الذى لا يبيد أبداً جميع مظاهر الشرك الشِّعرية الخيالية . وملأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم ، وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء . وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتاماً ؛ فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ،وكنيسة، وحرفة، ونفس ، وأزمة من أزمات الحياة ، وليّها الشفيع النصير ، كما كان لكل منها إلها فى رومة القديمة . كان لإنجلترا القديس

چورچ ، ولفرنسا القديس دنيس ؛ وكان القديس بارثولميو حامى الدابغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ؛ كان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ؛ وكان القديس كرستفر St. Christopher نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور لأنها صبت زيوتاً عطرة على قدمى المسيح المنقذ . وكان لكل من يحدث له حادث طارئ ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السموات ؛ فكان القديس سبستيان والقديس رتش Roch ذوى قوة وبأس فى أيام الوباء . وكان القديس أپولينيا St.Appolinia الذى كسر الجلاد فكه يشفى ألم الأسنان ؛ والقديس بليز St. Blaise يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنى St. Corneille يحمى الثيران ، والقديس جول Gall يحمى الدجاج والقديس أنطون يحمى الخنازير ؛ وكان القديس ميدار Médord هو الذى تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القديسين لينزل إليها المطر ، فإذا لم ينزله ألقى عباده الذين ينفد صبرهم تمثالا له فى الماء من حين إلى حين ، ولعل هذا كان بمثابة رقية سحرية(٧٠) .

ووضعت الكنيسة تقويماً كنسيا جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين . ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى . وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين أن التقويم العادى قسم السنة الزراعية أقساما أطلق على كل منها اسم أحد القديسين ؛ فى فرنسا مثلا كان عيد القديس چورچ يوم البذر ، وفى إنجلترا كان عيد القديس ڤالنتين St. Valentine يحدد آخر فصل الشتاء ؛ فإذا حل ذلك اليوم ، على حد قولهم ، تزاوجت الطيور بحماسة فى الغابات ، ووضع الشباب الأزهار على أعتاب النوافذ فى بيوت البنات اللاتى يحبونهن . ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم وإحياء ذكراهم ، أو لأن مكاناً ما قد أصر على هذه العبادة على الرغم من

معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس ، والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى ، وتلقت من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطمى العصور المقدسة . واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس « يعبدون صور القديسين ؛ . . . فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما فى الأمر أنهم غيروا أسماءها »[٧١] . وبهذه الطريقة ، على الأقل ، أوجدت إرادة الشعب وحاجته شكل العبادة التى يتعبدها .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم — عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم . وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذة المخلفات ؛ فكانت باسلقا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسدى القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت رومة بفضلهما كعبة الحجاج من جميع أنحاء أوربا . وكانت كنيسة فى سانت أومر St. Omer تدعى أن فيها قطعاً من الصليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، ومن مهده ، وقبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون ، ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شَعر تومس أبكت وقلنسوته ، وقيصه المنسوج من الشعر ، والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سَجّلت عليها الوصايا العشرَ إصبعُ الله نفسه[٧٢] ، وتحتوى كنيسة أمين Amiens رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية [٧٣] ، ويحتوى دير القديس دنيس جسم ديونيسيوس الأريوبجى Dionysius the Areopagite وتاجه الشوكى . وتدعى واحدة من ثلاث كنائس متفرقة فى فرنسا أن فيها جسد مريم المجدلية كاملا[٧٤] ؛ كما تؤكد خمس كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الحقيقى الوحيد الباقى من ختان المسيح[٧٥] . وتعرض كنيسة إكستر Exter أجزاء من

الشمعة التى استعملها ملاك الله لإضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى[٧٦] . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه[٧٧] . ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه ، والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها[٧٨] . وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكان فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لاتزال حمراء من دمه ، والعصا التى ضُرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . .[٧٩] . وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نهبت القسطنطينية ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تتنقل من كنيسة إلى كنيسة فى بلاد الغرب إلى أيدى من يؤدى فيها أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات . وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل أثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما — كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب علبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح . وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع فى جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدرّ على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلا لهذا أن نذكر أن « نقل » عظام تومس أبكت إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتربرى الكبرى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل مايقدر بنحو ٣٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى بنقود هذه الأيام[٨٠] . واجتذب هذا العمل الرابح كثيراً من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ « كشف » مخلفات

جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته[٨١] .

ومما يذكر بالحمد لبعض رجال الدين من غير رجال الأديرة ، وللكثرة الغالبة من الأديرة نفسها ، أنها لم تكن ترضى ، وأنها كثيرا ما كانت تندد ، بهذه الدكاكرية (الفيتنشية) المسرفة الواسعة الانتشار . ومن الرهبان الذين يسعون إلى العزلة فى عباداتهم من لم يكونوا يرضون عن المعجزات التى تفعلها مخلفات أديرتهم . من ذلك أن رئيس جرامونت Grammont توسل إلى مخلفات القديس استيفن أن تمتنع عن الإتيان بخوارق العادات ، لأنها تغرى الجموع الصاخبة بالتجمع ؛ ثم هدد القديس بقوله : « وإلا ألقينا عظامك فى النهر »[٨٢] . ولم تكن الكنيسة هى التى تزعمت حركة خلق الأقاصيص الخرافية عن معجزات المخلفات أو مضاعفة عددها ، بل الشعوب هى التى فعلت هذا ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الجماهير من تصديق ما يذاع من تلك الأقاصيص[٨٣] . مثال ذلك أن مرسوما إمبراطورياً لعله صدر بناء على طلب الكنيسة حرَّم على الناس « حمل » مخلفات القديسين « أو بيعها » وأن القديس أوغسطين شكا من المنافقين الذين يلبسون مسوح الرهبان » والذين « يتجرون فى أجسام الشهداء ، إذا كانوا شهداء بحق » ؛ وقد أعاد جستنيان نشر هذا المرسوم[٨٤] . وكتب الأب جيبرت النوجنتى Guibert of Nogent حوالى عام ١١١٩ رسالة فى مخلفات القديسين ينادى فيها بوضع حد لجنون المخلفات ، ويقول إن الكثير من هذه الآثار « لأولياء اشتهروا فى سجلات لا قيمة لها » ، وإن بعض « رؤساء الأديرة أغوتهم كثرة ما يحمل إليهم من الهدايا ، فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة » ، « وثمة نساء عجائز ونساء ساقطات كثيرات يتغنين بالأقاصيص الكاذبة عن القديسين الشفعاء وهنَّ يعملن على أنوالهن . . . فإذا ما فند إنسان أقوالهن هاجمته . . . بلقاطاتهن » . ويقول إنه قلما أوتى أحد من رجال الدين

الجرأة أو الشجاعة على الاحتجاج ، ويعترف بأنه هو نفسه قد سكت حين رأى تجار المخلفات يعرضون على المؤمنين المصدقين « بعض ذلك الخبز عينه الذى مضغه السيد المسيح بأسنانه نفسها » ؛ ذلك « أنى لو جادلت المجانين لحقّ علىّ القول بأنى مجنون »(٨٥) . ويضيف إلى ذلك أن فى عدد من الكنائس رءوساً كاملة ليوحنا المعمدان ، ويعجب مما كان لهذا القديس من رءوس كثيرة لا يمكن أن يقطعها قاطع(٨٦) . وجرم البابا اسكندر الثالث (١١٧٩) على الأديرة أن تطوف بما عندها من المخلفات لجمع التبرعات ؛ كما حرّم مجلس لاتران المنعقد فى عام ١٢١٥ عرض المخلفات فى خارج الأضرحة(٨٧) ؛ وندد مجلس ليون الثانى (١٢٧٤) بـ « الحط من قدر » المخلفات والصور(٨٨) .

ويمكن القول بوجه عام إن ما قامت به الكنيسة لم يكن هو تشجيع الخرافات بل كان أكبر نصيب لها فى هذه الناحية هو أنها ورثتها من خيال الناس أو من تقاليد عالم البحر المتوسط . وكان الإيمان بما لبعض المخلفات ، والطلاسم ، والتمائم ، والرقى ، من قدرة على الإتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة . وبقيت أشكال قديمة من عبادة عضو التذكير زمناً طويلا فى العصور الوسطى ، ولكن الكنيسة ألغتها شيئاً فشيئاً(٨٩) . وورثت عبادة الله بوصفه رب الجيوش ، وملك الملوك ، بعض أساليب التقرب إليه وتعظيمه ، ومخاطبته ، من الساميين والرومان ؛ وتذكرنا عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعادة تقريب القرابين المحروقة ؛ أما عادة الرش بالماء المقدس فكانت صورة قديمة من التعاويذ ؛ وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى القدم ؛ وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية . ووجدت الكنيسة أن معتنقى المسيحية من أهل الريف لا يزالون يعظمون بعض العيون ، والآبار ، والأشجار ،

والحجارة ؛ فرأت أن من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء ، وأن يستخدمها المسيحيون بدل أن تقضي قضاء مفاجئاً سريعاً على عادات شديدة الارتباط بعواطف الخلق . واتباعاً لهذا دشنت مجموعة من الحجارة فى صورة مائدة فى بلواريه Plouaret على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحللت عبادة شجرة البلوط بأن علقت على الأشجار صور القديسين المسيحيين[٩٠] . وعادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التى لا بد منها لكى تبيح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية ، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران فى منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا[*] ؛ وسمى عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثنى القديم Eostre وهو اسم إلهة الربيع التيوتونية القديمة ، وحل تقويم القديسين المسيحى محل التقويم الرومانى ؛ وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين ، فأضحت إلهة النصر Deä Victovria إلهة إقليم الألب الأدنى هى القديسة ڤكتوار St. Victoire ، كما ولد كاستر وپلكس Castor and Pollux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Cosmas ودميان Damian .

وكان أعظم ما ظفرت به هذه الروح ، روح التكيف المتسامحة ، من نصر هو السمو بعبادة الإلهة الأم الوثنية واستحالتها إلى عبادة مريم أم المسيح . وهنا أيضاً كان الشعب هو البادئ بهذا التسامى . ذلك أن سيريل Cyril كبير أساقفة الإسكندرية وصف ، فى موعظة له شهيرة ألقاها فى إفسس Ephesus عام ٤٣١ ، مريم بكثير من العبارات التى كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها « إلهتهم الكبرى » أرتميس — ديانا Artimis-Diana دلالة على حبهم إياها

(*) ويطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلهة يحتفل به فى يوم الاعتدال الربيعى . (المترجم)

واعتزازهم بها ، ووافق مجلس إفسس فى تلك السنة على أن تلقب مريم « أم الإله » وعلى الرغم من احتجاج نسطوريوس Nestorius . وما لبثت أرق صفات عشتروت ، وسيبيل ، وأرتميس ، وديانا ، وإيزيس أن جمعت كلها فى عبادة مريم . ثم قررت الكنيسة فى القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء ، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس[٩١] . وأضحت مريم القديسة الشفعية للقسطنطينية وللأسرة الإمبراطورية ، وكانت صورتها تحمل فى مقدمة كل موكب عظيم ، وكانت (ولا تزال) تعلق فى كل كنيسة وبيت فى العالم المسيحى اليونانى . وأكبر الظن أن الصليبيين هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب بعبادة العذراء عبادة قوية بمظاهر ذات جمال وروعة[٩٢] .

ولم تشع الكنيسة نفسها عبادة مريم . نعم إن آباء الكنيسة كانوا قد كرموا مريم وفضلوها عن حواء ؛ ولكن عداءهم للمرأة بوجه عام ، ووصفهم إياها بأنها « الوعاء الضعيف » ، ومصدر كل غواية بارتكاب الإثم ؛ وخوف الرهبان من النساء وفرارهم منهن ، وحملة الوعاظ على مفاتن النساء ونقائصهن — هذا كله لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى عبادة مريم هذه العبادة القوية الشاملة . وكان الشعب وحده هو الذى ابتدع أجمل زهرة فى العالم الروحى أثناء العصور الوسطى وجعل مريم أقرب الأشخاص إلى القلوب فى التاريخ كله . ذلك أن سكان أوربا المستفيقة من رقدتها لم يعودوا يقبلون تلك الصورة الصارمة لإله يعاقب الكثرة الغالبة من خلقه بإلقائهم فى نار جهنم ، فخففوا من تلقاء أنفسهم الأهوال التى يحدثهم عنها علماء الدين بما خلعوه على أم المسيح من صفات الرحمة والحنان ، وكانوا يرون أن فى وسعهم أن يقتربوا من عيسى — وهو لايزال عندهم أسمى وأعدل من أن يتصلوا به مباشرة — عن طريق أمه التى لاترد سائلا ، والتى لا يستطيع ابنها أن يرد لها شفاعة . وحسبنا دليلا على رأى الناس

فى مريم القصة التى يرويها قيصريوس الهسترباخى Caesarius of Heisterbach (١٢٣٠) وهى أن شابا أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة وعدها إياه ، ولكنه لم يفلح فى أن يغريه بإنكار مريم ؛ فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه . ويحدثنا الراهب نفسه عن أخ له سترسى من غير رجال الدين سمعه يناجى المسيح بقوله : « رباه ! إن لم تنقذنى من هذه الغواية فسأ شكوك إلى أمك »[٩٣] . وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى فى صورة من يغار منها ، فيقولون إن شخصاً ملأ السموات بصلاة العذراء « السلام لك يا مريم » فظهر له المسيح ، كما تقول القصة الطريفة ، وأنبه أشد التأنيب وقال له : « إن أمى لتشكر لك كثيراً ما قدمت لها من أدعية وصلوات ، ولكن عليك مع ذلك ألا تغفل عن الصلاة لى أيضاً »[٩٤] . ولقد كانت عدالة المسيح فى حاجة إلى رحمة مريم لتخففها ، كما كانت صرامة يهوه فى حاجة إلى المسيح . والحق أن أم المسيح أصبحت كما وصفها القرآن ، ثالثة الثالوث الجديد ، يشترك كل إنسان فى حبها والثناء عليها ؛ فالعصاة أمثال أيلار ينحنون لها إجلالا وتكريماً ، والهجاءون أمثال روتبوف Rutebeuf ، والمتشككون الصخابون أمثال المدرسين الجوالين لم يكونوا يجرءون على النطق بكلمة نابية عنها ؛ وكان الفرسان ينذرون أنفسهم لخدمتها ، والمدن تقدم لها مفاتيحها ، والطبقات الوسطى الرأسمالية الناشئة ترى فيها الرمز الطاهر للأمومة والأسرة ؛ والجفاة الغلاظ من رجال النقابات الطائفية — وحتى أبطال الثكنات وميادين القتال الذين لا يتورعون عن النطق بأقبح الألفاظ فيما هو مقدس — يتبارون مع الفتيات القرويات والأمهات الثاكلات فى توجيه صلواتهم إليها ووضع هداياهم تحت قدميها[٩٥] . وكان أقوى أسفار العصور الوسطى عاطفة هو ذلك الورد الذى يعلن فى حماسة متأججة متزايدة مجدها ويطلب معونتها . ولم يكن مكان ما يخلو من صورة لها ، بل لم تخل منها منحنيات

الشوارع وملتقيات الطرق والحقول . ولما أن تمخض القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن أنبل مولد للشعور الدينى فى التاريخ أقبل الفقراء والأغنياء ، والأذلاء والعظماء ، ورجال الدنيا ورجال الدين ، والفنانون ، والصناع ، أقبل هؤلاء جميعاً يجودون بما ادخروه من مال وبما لديهم من حذق ومهارة لتكريمها فى ألف كنيسة وكنيسة سميت كلها إلا القليل منها باسمها أو كان أبهى ما فيها حرماً خاصاً هو ضريحها .

وعلى هذا النحو نشأ دين جديد ، ولعل السبب فى بقاء الكثلكة إلى هذا اليوم هو أنها استوعبت هذا الدين . وصبغ إنجيل لمريم ، لا تعترف به الكنيسة ، ولا يصدقه العقل ، ولكنه يُفتتن به افتتاناً يجل عن الوصف ، وضع الشعب ما فيه من القصص وسطرها الرهبان ؛ نذكر منها **القصة الذهبية** التى تقول إن أرملة قدمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها ، فلما أسره العدو أخذت الأرملة تصلى إلى العذراء فى كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها ؛ ومرت على ذلك أسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها ، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعى أمه وأخفته فى بيتها ، وحينئذ فتحت العذراء السجن ، وأطلقت سراح الشاب ، وأمرته أن « بلّغ أمك ، يا بنى أن ترد إلىّ ولدى بعد أن رددت إليها ولدها »[٩٦] . وجميع رئيس دير فرنسى يدعى جولتييه ده كوانسى Gaultier de Coincy أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، نجد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها العذب . وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة ، وعلق اللص ليشنق ، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد فلما تبين الناس أنها تحميه ، أطلق سراحه ؛ وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد عدة سنين تائبة محطمة الروح ، وجدت العذراء — التى لم تغفل هى عن الصلاة إليها فى كل يوم — قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن

إنساناً ما لم يلاحظ غيابها[٩٧] . ولم يكن فى مقدور الكنيسة أن ترتضى هذه القصص كلها ، ولكنها كانت تقيم احتفالات عظيمة فى ذكرى الحوادث البارزة فى حياة مريم — كالبشارة ، والزيارة(*) ، والتطهير (عيد تطهير العذراء ودخول المسيح إلى الهيكل) ، والصعود ؛ ثم خضعت الكنيسة آخر الأمر إلى إلحاح أجيال من غير رجال الدين ومن الرهبان الفرنسسكان فأجازت للمؤمنين أن يعتقدوا ، ثم أمرتهم فى عام ١٨٥٤ أن يعتقدوا ، بالحمل بلا دنس — أى أن مريم قد حملت مبرءاً من أثر الخطيئة الأولى التى تلطخ ، حسب قول الكنيسة ، كل طفل يولد من رجل وامرأة من عهد آدم وحواء .

واستحالت الكثلكة بفضل عبادة مريم من دين رهبة — لعلها كانت ضرورية فى العصور الوسطى — إلى دين رحمة وحب ؛ وإن نصف ما فى العبادات الكاثوليكية من جمال ، وكثيراً مما فى الفن الكاثوليكى والغناء الكاثوليكى من روعة وجلال ، لمن خلق هذا الإيمان السامى الذى يتجلى فى وفاء امرأة ورقتها ، بل وفى جمال جسمها ورشاقتها . لقد دخلت بنات حوّاء الهيكل وبدلت روحه ؛ وكانت هذه الكثلكة الجديدة من الأسباب التى طهرت الإقطاع فاستحال فروسية ، ورفعت من شأن المرأة إلى حد ما فى عالم من صنع الرجال ؛ وبفضله وهب النحت والتصوير فى العصور الوسطى فن تلك العصور عمقاً ورقة قلما كان اليونان يعرفونهما فى عهدهم . وفى وسع الإنسان أن يعفو عن كثير مما فى دينٍ وفى عصرٍ أوجدا مريم وكنائسها الكبرى .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات قبل أن تلد هذه ابنها يوحنا المعمدان ، وتحتفل الكنيسة بهذه الذكرى فى ٢ يولية من كل عام . (المترجم)

الفصل الرابع

الطقـــوس

لقد كانت الكنيسة حكيمة إذ أفسحت فى فنها ، وترانيمها ، وصلواتها ، مكاناً لعبادة العذراء ، ولكنها أصرّت فى العناصر القديمة من عباداتها وطقوسها على النواحى الصارمة الجدية من الدين . من ذلك أنها جرت على السنة التى كان يجرى عليها الأقدمون ، ولعلها رأت فى هذه السنة فائدة للصحة ، فشرعت الصيام فى أوقات معينة ، نهت فيها عن أكل اللحم فى جميع أيام الجمعة ، كما حرمت أكل اللحم، والبيض ، والجبن ، طوال أيام الصوم الكبير الأربعين ، وأمرت أن يدوم ذلك الصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وأمرت كذلك ألا يكون فى هذه الفترة زواج ، أو طرب ، أو صيد ، أو محاكمات فى دور القضاء ، أو صلات جنسية بين الرجال والنساء[٩٨] . وكانت هذه نصائح لمن أراد أن يكون مسيحيا كاملا ، وقلما كان أحد يتمسك بها ، أو يرغم على اتباعها ، ولكنها أفادت فى تقوية الإرادة وكبح الشهوات عند خلائق نهمين شهوانيين .

وكانت الصلوات أيضاً مما ورثته الكنيسة عن الأقدمين ، ثم عدلت فصارت أشكالا من التمثيل الدينى ، والموسيقى الدينية والفن الدينى ، رفيعة ، سامية ، مؤثرة فى النفس . وكانت أقدم العناصر فى الصلاة المسيحية هى مزامير العهد القديم وأدعية هيكل أورشليم وعظاته ، وقراءات من العهد الجديد ، وتناول القربان المقدس . وأدى انقسام الكنيسة شرقية وغربية إلى اختلاف فى الشعائر الدينية ، كما أدى عجز البابوات الأولين عن أن يفرضوا إرادتهم كاملة خارج حدود إيطاليا الوسطى إلى وجود خلاف فى الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة

اللاتينية نفسها . من ذلك أن أحد الطقوس الذى استقر فى ميلان انتشر إلى أسبانيا ، وغالة ، وأيرلندة ، وشمالى بريطانيا ، ولم تتغلب عليه الطقوس الرومانية إلا فى عام ٦٦٤ . وأصلح البابا هدريان الأول طقوس الكنيسة فى منشور خاص بعث به شرلمان حوالى آخر القرن الثامن ؛ ولعل عمله هذا كان إتماما لجهود بذلها جريجورى الأول فى هذه السبيل ، ودوّن جويوم دوران Guillaume Durand أهم طقوس الكنيسة الرومانية فى كتابه « عرض للوظائف الدينية قائم على العقل Rationale divinorum officiorum » (١٢٨٦) . وفى وسعنا أن ندرك ما لقيه هذا المؤلف من قبول إذا عرفنا أنه أول ما طبع من الكتب بعد الكتاب المقدس . وكان المحور الذى تدور عليه العبادات المسيحية وأهم شعائرها هو القداس . وكان هذا الاحتفال يعرف فى القرون الأربعة الأولى باسم « الحمد Eucharist » ، وقد بقيت هذه الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وعمادها الأساسى ، ثم اجتمعت حولها فى خلال اثنى عشر قرناً من الزمان مراسيم متتابعة معقدة من الأدعية والترانيم تختلف باختلاف أيام السنة ، وفصولها ، والغرض الذى يقام من أجله هذا القداس أو ذاك ، ودوّنت هـذه المراسم فى كتاب القداس ليسهل على القس الرجوع إليها . وكانت الكنيسة اليونانية تفصل بين الرجال والنساء وقت الاجتماع لإقامة القداس كما كانت الكنيسة اللاتينية تفعل ذلك فى بعض الأحيان . ولم تكن هناك كراسىٌّ يجلس عليها المصلون ، بل كانوا يؤدون الصلاة وهم وقوف ، وكانوا فى بعض اللحظات الرهيبة يؤدونها راكعين ؛ ويعفى من الوقوف والركوع الشيوخ والضعفاء ؛ وأقيمت للرهبان والقساوسة الذين يضطرون إلى الوقوف خلال الصلاة الطويلة أفاريز صغيرة فى أمكنة الترتيل لتسند الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وأضحت هذه الرحمات miserieovoliae موضع عناية ناحت الخشب وحذقه. وكان القس الذى يقيم القداس يدخل وعليه (توغا toga) كالتى

يرتديها اليونان والرومان الأقدمون ، يغطيها قميص أبيض طويل all ، وحلة القداس Cbasuble وبطرشيل stole وكلها أثواب زاهية عليها زخارف رمزية ، أكثرها ظهوراً الأحرف IHS وهى أوائل الكلمات Jesos Huiss Soter أى عيسى ابن (الله) المنقذ . وكان القداس نفسه يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع : سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن : « إلى الله الذى يضفى البهجة على شبابى » . ثم يصعد القس المذبح ويقبّله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديس . ويترنم بالدعاء الذى مطلعه كيرى اليسون kyrie eleison (« ارحمنا يا ألله ») وهو بقية يونانية فى القداس اللاتينى . ويتلو بعدئذ دعاء المجد (« المجد لله فى العلا ») والدعاء الأسامى الذى مطلعه « نؤمن بإله واحد » ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى .

Hoc est corpus meum و Hic est sanguinis meus(*)

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة — أى ابن الله — لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله وإحياء لذكرى التضحية على الصليب ، وبديلا من التضحية القديمة بالأحياء . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : « إنا نرفعها إلى الرب » . ويتلو القديس بعدئذ القداس المثلث Triple Sanctus وحَمَل الله Ognus Dei ، وأبانا الذى ، ويشترك هو نفسه فى تناول الخبز والخمر المقدسين ، ويقدم العشاء الربانى إلى الحاضرين ، وبعــد أن يؤدى عدة صلوات إضافية ينطق بالصيغة الأخيرة وهى : تفرقوا ، حان الفراق Ite missa est . ولعل لفظ القداس الإنجليزية mass مشتق من لفظ missa هذا[٩٩] . ويبقى بعد هذا من القداس فى أشكاله المتأخرة أن يبارك القس المصلين ، وأن تتلى بعض فقرات أخرى من الإنجيل — وهى

(*) ومن هذه الألفاظ اشتق الساحرون « لفظ hevuspocus »

عادة الديباجة الأفلاطونية الجديدة من إنجيل يوحنا . ولا يقام القداس عادة إلا على يد مطران ، وبعد القرن الثانى عشر لم يكن يقام إلا إذا ألقى فيه راهب موعظة .

وكان القداس يُنشد على الدوام فى أول الأمر ، وكان المصلون يشتركون فى إنشاده ؛ ثم قلّ اشتراكهم فيه أثناء القرن الرابع وما بعده ، وأخذ مرتلون مختصون يردون على المنشد(*) . وتعدّ الترانيم التى يتغنى بها فى الصلوات المختلفة بالكنائس من أعظم ما أنتجته العاطفة والفن فى العصور الوسطى روعة وأقواها فى النفس أثراً . ويبدأ التاريخ المعروف للترانيم اللاتينية بهلارى Hilary أسقف بواتييه (المتوفى عام ٣٦٧) . ذلك أنه لما عاد إلى غالة من منفاه فى بلاد الشام جاء معه ببعض الترانيم اليونانية — الشرقية ، وترجمها إلى اللغة اللاتينية ، وأضاف إليها ترانيم أخرى من عنده ، وقد فقدت هذه كلها . ووضع أمبروز Ambrose بداية أخرى فى ميلان ، ولدينا من ترانيمه الطنانة ثمان عشرة ترنيمة كان لحرارتها المكبوتة أعظم الأثر فى نفس أوغسطين . وأكبر الظن أن ترنيمه الشكر والإيمان النبيلة التى مطلعها « الشكر لك يا ألله » والتى كانت تعزى قبل إلى أمبروز قد كتبها نيقيتاس مطران رمسيانا Remisiana فى أواخر القرن الرابع . وربما كانت الترانيم اللاتينية قد أصبحت أرق من الترانيم السابقة إحساسا وأجمل صورة لتأثرها بالشعر العربى الإسلامى والبروفنسالى(١٠٠) . ومن الترانيم ما يكاد يكون عبارات ركيكة لا تزيد على ألفاظ رنانة ، مقفاة ؛ غير أن ترانيم عهد العصور الوسطى الزاهر — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — أضحت من جوامع الكلم ، محكمة العبارات ، تتخللها القوافى الرخيمة ، وتعبّر عن أفكار طيبة رقيقة ، ترفعها إلى مستوى أعظم الشعر الوجدانى الذى أنتجه الأدب العالمى .

(*) انظر الباب الثالث والثلاثين ففيه تفصيل واف لموسيقى القداس .

وجاء إلى دير القديس ڤكتور الشهير القائم فى خارج باريس حوالى عام ١١٣٠ شاب من بريطانى بفرنسا ، لا نعرف من اسمه أكثر من آدم نزيل دير القديس ڤكتور . وقضى الشاب فى ذلك الدير الستين عاما الباقية من عمره هادئاً راضياً ، وتشرّب بروح هوجو Hugo وتشرد الصوفين الذائعى الصيت ، وعبّر عن هذه النزعة الصوفية تعبيراً متواضعاً ، حلواً ، قويا ، ترانيم يقصد بمعظمها أن تتلى بعد مراسم القداس . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألف راهب فرنسسكانى يدعى چكوپون ده تودى Jacopone de Todi (١٢٢٨ ؟ — ١٣٠٦) أعظم ترنيمة فى العصور الوسطى وهى المعروفة باسم « وقفت الأم Sébat mother » . وكان چكوپون هذا محامياً ناجحاً فى تودى القريبة من پروجيا Perugia ، واشتهرت زوجته بصلاحها وجمالها ، وماتت هذه الزوجة إثر حادث سقوط طوار عليها فى أحد الأعياد ؛ فذهب الحزن بعقل چكوپان ، وأخذ يجول على غير هدى فى طرق أمبريا Umbria مردداً بأعلى صوته ذنوبه وأحزانه ، وطلى نفسه بالقار والريش ، وأخذ يمشى على أربع ، وانضم إلى جماعة الفرنسسكان وأنشأ القصيدة التى تحتوى فى إيجاز ما كان فى هذا الوقت من تُقى وحنان :

وقفت الأم كسيرة القلب ،
تزرف الدمع أمام الصليب
وابنها معلق يحتضر ؛
وقد نفذ فى روحها المثقلة بالأحزان ،
وهى تندبه وتتألم من أجله ،
سيف الأسى البتار .
ألا ما أشد حزنها
تلك الأم التى أنعم الله عليها بابنها الوحيد ،
والتى رماها الزمان بسهامه !

وأخذت وقتئذ تنتحب وتندب سوء حظها ،
وترتجف حين أبصرت عذاب ابنها النبيل .
ومنذا الذى لا يحزن
إذا شاهد أم منقذنا
وقد شجتها الغصة ؟
منذا الذى يستطيع أن يحاجز نفسه عن أن يشاركها أحزانها حين يرى هذه الأم الحنون
تندب مصير ولدها ؟ . . .
أقبلى يا أماه ، يا منبع الحب ،
وأشعرينى آلامك بأكلها
دعينى أشاركك أحزانك ،
واشعلى فى قلبى نار الشوق
وحب المسيح إلهنا ومنقذنا ،
دعينى أفعم قلبه بالسرور !
أيتها الأم المقدسة ، افعلى هذا رحمة بى !
اغرسى ضربات من مات شهيداً
عميقة فى قلبى .
دعينى أقاسى آلام
ابنك الذى أصيب بجرح أليم
وتحمّل الهوان من أجلى !
دعينى أبكِ بحق إلى جانبك ،
وأقض سنى حياتى كلها

آشاركك الحزن على ابنك المصلوب .
ألا ليتنى أستطيع أن أكون معك ،
وأقف بجوار الصليب فى صحبتك ،
راضياً ، مغتبطا ، مرتبطا فى الحزن بك
فليحمنى الصليب ،
ولتنجنى آلام المسيح المنقذة للبشر ،
ولترعنى بلطفه ،
وإذا ما بلى جسمى
فلتنظر روحى فى أمجاد السماء
إليه وجهاً لوجه .

وليس فى الشعر ما يضارع هذه الترانيم المسيحية التى قيلت فى العصور الوسطى إلا قصيدتان إحداهما هى قصيدة عيد القربان Pange Lingue ، والأخرى قصـــيدة « يوم الغضب » الرهيبة التى كتبها تومس السلانوى Thomas of Celono حوالى ١٢٥٠ ، والتى تنشد فى القداس الذى يقام للموتى ؛ وهنا توحى رهبة يوم الحساب بقصيدة لاتقل كآبة وكمالا عن أى حلم من أحلام دانتى المعذّبة(١٠١) .

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها ذات الأثر الشديد فى النفس والمشتملة على الأدعية والترانيم والقداس ــ أضافت إلى هذه الطقوس ما يحدث فى الأعياد الدينية من حفلات ومواكب . وأخذ عيد الميلاد فى البلدان الشمالية المراسم المفرحة للطبقة التى كان التيوتون الوثنيون يقيمونها احتفالا بانتصار الشمس وقت الانقلاب الشتائى على الظلمة المقبلة ؛ ومن هذا نشأت كُتَل عيد الميلاد التى تحرق فى بيوت الألمان ، وأهل فرنسا الشمالية ، والإنجليز ، وأهل اسكنديناوة ، كما

نشأت شجرة عيد الميلاد التي تثقل بالهدايا ، والولائم المرحة التي تتخم البطون القوية حتى الليلة الثانية عشرة بعد هذا العيد ، وكان ثمة أعياد واحتفالات أخرى يخططها الحصر — عيد الغطاس ، وعيد الختان ، وحد السعف ، وعيد القيامة ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة . . . وكانت هذه الأعياد وأيام الآحاد كلها إلى درجة أقل منها قليلا ، أحداثاً مثيرة فى حياة رجل العصور الوسطى . وكان يستعد لاستقبال عيد القيامة بالاعتراف بما يهمه أن يتذكره من ذنوبه ، ويستحم ، ويحلق لحيته أو يقص شعره ، ويلبس خير ملابسه وأكثرها مضايقة له ، ويَطْعَمُ الله فى العشاء الربانى ؛ ويحس أعمق الإحساس بالمسرحية المسيحية الخطيرة الشأن التى قُدّر عليه أن يكون جزءاً منها . وكانت حوادث آلام المسيح تمثل فى كثير من المدن فى الثلاثة الأيام الأخيرة من أسبوع الآلام ، تتضمنها مسرحية دينية ذات حوار وأغان بسيطة ، كذلك كانت عدة أوقات أخرى من السنة الكنسية تمتاز بأمثال هذه « الطقوس الخفية » . وحدث فى عام ١٢٤٠ أن أبلغت يوليانا Juliana رئيسة دير قريب من لييج Liége قس القرية التى تقيم فيها أن رؤيى سماوية قد نبهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه فى العشاء الربانى وذلك بإقامة عيد فخم رهيب ، وأقر البابا إربان الرابع هذا الاحتفال فى عام ١٢٦٢ وعهد إلى تومس أكوناس أن يضع له « صلاة مؤلفة من ترانيم وأدعية تناسبه » . وقام الفيلسوف بهذه المهمة على خير وجه ، وفى عام ١٣١١ ثبت أخيراً عيد القربان واحتفل به فى أول يوم خميس بعد عيد العنصرة بأفخم موكب من مواكب السَّنَة المسيحية بأجمعها . وكانت هذه الحفلات تجتذب إليها جموعا لا يحصى عددها ، وتبعث البهجة والمرح فى قلوب الكثيرين ممن يشتركون فيها ؛ وهى التى مهدت السبيل للمسرحية غير الدينية فى العصور الوسطى ، وساعدت على قيام مواكب النقابات الطائفية واحتفالاتها ، وألعاب المهرجان والاحتفال بتنصيب الفرسان ، وتتويج الملوك ، وشغل ما هنالك من فراغ

فى حياة الأهلين الذين لا يميلون بفطرتهم إلى السلم والنظام بالحركات المنبعثة عن التقى ، والصلاح ، والمناظر التى تسمو بأرواحهم إلى أعلى الدرجات . ولم تكن الكنيسة تقيم تعاليمها الأخلاقية ، التى تصل إليها عن طريق العقائد المبنية على الجدل المؤدى إلى الإقناع ، بل كانت تلجأ فى الوصول إلى هذا الغرض إلى الحواس عن طريق التمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والقصص ، والشعر ؛ ولا يسعنا إلا أن نعترف أن الالتجاء إلى العواطف على هذا النحو أكثر نجاحا وأهدى إلى الغرض — شراً كان أو خيراً — من الالتجاء إلى العقل المتقلب ذى النزعة الفردية . ولقد أوجدت الكنيسة بالتجائها إلى هذا فن العصور الوسطى .

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج . فقد كان الرجال والنساء يحجون ليكفروا عن ذنب أو يوفوا بنذر ، أو يطلبوا شفاء من داء بإحدى المعجزات ، أو ينالوا غفرانا ؛ وما من شك فى أنهم كانوا يسعون ، كما يسعى السياح فى هذه الأيام ، ليشاهدوا بلدانا جديدة ومناظر جديدة ، وليقوموا فى طريقهم بمغامرات تطرد ما يلقونه فى حياتهم الضيقة الرتيبة من ملل وسآمة . وكان هناك عشرة آلاف مكان معترف بجواز الحج إليها فى أواخر القرن الثالث عشر . وكان أكثر الحجاج شجاعة يؤمون فلسطين النائية ، ومنهم الحفاة ، ومنهم من لا يلبسون إلا قميصا واحداً ؛ وكانوا يحملون فى الصلاة ، صليبا ، وعكازا ، وكيسا من النقود تناولوها كلها من يد قسيس . وحدث فى عام ١٠٥٤ أن سار ليدبرت Leidbert أسقف كمبريه على رأس ثلاثة آلاف حاج إلى بيت المقدس ، وفى عام ١٠٦٤ سار كبير أساقفة كولونى ، ومينز ، وأساقفة اسپاير ، وبامبرج ، وأوترخت إلى بيت المقدس أيضا ، ومن ورائهم عشرة آلاف مسيحى هلك منهم ثلاثة آلاف فى الطريق ، ولم يعد منهم إلى أوطانهم سالمين إلا ألفان . وعبر حجاج آخرون جبال البرانس ، أو جازفوا بحياتهم فى المحيط الأطلنطى

ليزوروا الأماكن التي يقال إن بها عظام الرسول يعقوب بقمبستيلا Compostela من أعمال أسبانيا . وفى إنجلترا كان الإنجليز يحجون إلى قبر القديس كثبرت Cuthbert فى درهام ، وإلى قبر ادورد المعترف Edward the Confessor فى وستمنستر ، أو إلى قبر القديس إدمند St. Edmund فى بيورى Bury ، أو إلى الكنيسة التى أنشأها كما يقولون يوسف الأرماثيانى Joseph of Aremathea فى جلاستنبرى Glastonbury وكان أهم من هذه الأماكن كلها فى نظر الإنجليز ضريح تومس أبكت فى كنتربرى . وكانت فرنسا تجتذب الحجاج إلى قبر القديس مارتن فى تور وإلى نتردام فى تشارتر ، ونتردام فى له — پوى — أن — ڤلاى Le-puyen-Velay وفى إيطاليا كنيسة القديس فرانسس وعظامه فى أسسى Assisi ، وفيها أيضاً سانتا ، كاسا Santa Casa أو البيت المقدس فى لوريتو Loreto ويعتقد المتقون أنه هو البيت الذى سكنت فيه مريم مع عيسى فى الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك آخر الصليبيين منها ، وطارت به فى الهواء ثم أنزلته فى دلماشيا (١٢٩١) ، ثم طارت فوق البحر الأدرياوى إلى غابات أنكونا (اللورتوم Louretum) التى اشتق منها اسم هذه القرية المكرمة .

وآخر ما نذكره فى هذا المقام أن كل طرق العالم المسيحى كله كانت تؤدى بالحجاج إلى رومة ، ليشاهدوا قبرى بطرس وبولس ، ولينالوا الغفران بزيارة المنازل المقدسة ، أو الكنائس القائمة فى تلك المدينة ، أو للاحتفال بعيد من الأعياد ، أو ذكرى سارة فى التاريخ المسيحى . وحدث فى عام ١٢٩٩ أن أعلن البابا بنيفاس الثامن أن سيقام عيد كبير فى عام ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد فى كنيسة القديس بطرس فى ذلك العام . ويقال إن عدد من دخل أبواب رومة من الغرباء فى كل يوم من أيام هذه الشهور الاثنى عشر لم يكن يقل عن مائتى ألف ، وإن مليونى زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا

ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ؛ وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حدا شغل قسيسين ظلا يعملان بالمجارف ليلا ونهارا لجمع النقود[١٠٢].
وكانت دلائل السياح ترشد الحجاج إلى الطرق التي يسلكونها ، والأماكن التي لا بد لهم أن يزوروها فى طريقهم أو حين يحطون رحالهم . وفى وسعنا أن نرسم لأنفسنا صورة حقيقية من فرحة الحجاج المتعبين ، وقد كساهم العثير ، وحين تقع أبصارهم آخر الأمر على المدينة الخالدة ، وحين ترتفع عقيرتهم بأغنية الفرحة والحمد التى يتلوها الحجاج : « أى رومة النبيلة ، يا ملكة هـــذا العالم كلة ، ويا خير المدائن كلها ، يا ذات اللون الأحمر الياقوتى الذى كستك به دماء الشهداء الوردية ، ولكنك كالسوسن النقى بمن فيك من العذارى . إليك نهدى تحياتنا خلال السنين وندعو لك بالخير ، ونحييك من خلال القرون ! » .

وقد أضافت الكنيسة إلى الخدمات الدينية المختلفة خدمات أخرى اجتماعية ؛ فقد أشعرت الناس بما للعمل من كرامة ، ومارس رهبانها العمل فى الزراعة والصناعة . ووافقت على أن ينتظم العمال فى نقابات طائفية ، ونظمت نقابات طائفية دينية للإشراف على أعمال الصدقات[١٠٣] . وكانت كل كنيسة حرماً مقدساً من حق كل من يُطارَد أن يلجأ إليها ليجد فيها مُقاماً له حتى تهدأ سورة من يطارده ويخضع للإجراءات القانونية ، وكان إخراج هؤلاء الرجال من هذا الحرم الأمين تدنيساً له يعاقب من يرتكبه بالطرد من حظيرة الدين . وكانت الكنيسة الصغيرة والكبيرة المركز الاجتماعى فى القرية أو المدينة . وكان حرمها المقدس فى بعض الأحيان أو الكنيسة نفسها يستخدمان برضاء القساوسة لخزن الحبوب أو الدريس أو النبيذ ، كما كانا يستخدمان أيضاً فى طحن الحبوب أو عصر الجعة[١٠٤] . وفى الكنيسة عُمِّد معظم أهل القرية ، وعندها سوف تدفن كثرتهم . وفيها يجتمع الكبار فى أيام الأحد ليتجاذبوا أطراف الحديث أو يتناقشوا فى شؤون القرية ، ويجتمع الشـــبان والشابات ليرى بعضهم بعضاً .

وعندها يجتمع المتسولون وتوزّع الكنيسة صدقاتها ، وفيها يجتمع كل ما تعرفه القرية من فن إلا القليل منه ليجمل بيت الله ، ويبتهج ألف فقير بما يشهد من مجد المعبد المقدس الذى شاده الناس بأموالهم وأيديهم ، والذى يعدّونه ملكا لهم ، وموطنهم الجماعى والروحى . وكانت الأجراس المعلقة فى برج الكنيسة تدق ساعات اليوم ، أو تدعو المؤمنين إلى الصلاة والدعاء ، وكانت موسيقى هذه الأجراس أحلى من كل ما عداها إذا استثنينا الترانيم التى تؤلف بين الأصوات والقلوب وتوحدها ، أو تبعث الحماسة فى قلوب ذوى الإيمان الفاتر بتسابيح القداس . وقد ارتفعت أبراج الكنائس ، المستدق منها وغير المستدق ، فى أقطار الأرض من نفجورود إلى فارس ، ومن بيت المقدس إلى هبريدة تشق الفضاء لأن الناس لا يستطيعون الحياة بلا أمل ولا يرضون بالموت .

الفصل الخامس

القانون الكنسى

نمت إلى جانب الطقوس الدينية المعقدة الرائعة طائفة من الشرائع الكهنوتية أكثر منها تعقيداً ، تنظم أعمال الكنيسة وقراراتها . وكانت الكنيسة ذلك الوقت تسيطر على دولة أعظم رقعة وأكثر تبايناً من أية إمبراطورية . وقد نشأ القانون الكنسى شيئاً فشيئاً من العادات الدينية القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين رومة أو القبائل المتبربرة ، وقرارات مجالس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم . وعدّلت أجزاء من قانون جستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكى يتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا . وأعدت مجموعات من الشرائع الدينية فى البلاد الغربيـــة فى القرنين السادس والثامن ، كما أعد أباطرة بزنطية من حين إلى حين مجموعات مثلها فى بلاد الشرق . وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان Gratian حوالى عام ١١٤٨ .

وكان جراتيان هذا من رهبان بولونيا ، ولذلك لا يبعد أن يكون قد درس على إرنيريوس Irnerius فى جامعة تلك المدينة . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن الذى لا شك فيه أن الموجز الذى أصدره يدل على علم غزير بالقانون الرومانى وفلسفة العصور الوسطى . وقد سمى كتابه **التوفيق بين القواعد المتعارضة** Concordia discordantium Canonum ، ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة اسم **القرارات** . وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين ، وما كان لها من عادات ، وما أصدرته المجالس الدينية والبابوات حتى عام ١١٣٩ من قرارات

خاصة بالعقائد الدينية ، والطقوس ، والأنظمة ، والقواعد الإدارية ، والمحافظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنسية ، وما لها من سوابق ، وتنظيم حياة الرهبنة ، وعقود الزواج وقواعد الوصية . وربما كانت طريقة العرض قد أخذت عن كتاب أبلار . Sic et non « هكذا وإلا فلا »

وما من شك فى أنها كان لها بعض الأثر فى الطريقة المدرسية بعد جراتيان Gratian ، فهى تبدأ بقضية مقررة ثم تنقل أقوالا أو سوابق تعارضها ، وتحاول أن تزيل هذه الاعتراضات وتضيف بعض الشروح والتعليقات . ولم تتخذ الكنيسة فى العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً نهائيا ، ولكنه أصبح فى الفترة التى كان قائما فيها نصا لا غنى عنه ، ويوشك أن يكون نصا مقدسا . وأضاف إليه جريجورى التاسع (١٢٣٤) وبنيفاس الثامن (١٢٩٤) وكلمنت الخامس (١٣١٣) ملاحق من عندهم ، وقد نشرت هذه الملاحق وبعض إضافات أقل منها شأناً مع كتاب جراتيان فى عام ١٥٨٢ باسم « مجموعة من القوانين الكنسية مقابلة لمجموعة قوانين جستنيان المدنية »(*) .

والحق أن الميدان الذى يشغله القانون الكنسى كان أوسع من الميدان الذى يشغله أى قانون مدنى معاصر له ، فهو لا يقتصر على البحث فى تكوين الكنيسة ، وعقائدها ، وأعمالها ، بل يبحث فوق ذلك فى القواعد التى تعامل بمقتضاها غير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ؛ والطرق التى تستخدمها عند النظر فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدين ؛ وفى تنظيم الحروب الصليبية ؛ وفى قوانين الزواج وشرعية الأبناء ، والمهور ، والزنى ، والطلاق ، والوصايا ، والدفن وأحوال الأرامل ، واليتامى ؛ وفى قوانين الإيمان ، ونقضها ، وانتهاك حرمة المعابد ، والتجديف والمتاجرة بالدين والرتب الكهنوتية ، والسب ،

(*) وفى ٢٠ مايو ١٩١٨ أصبحت مجموعة القوانين الكنسية المعدلة هى قانون الكنيسة الرسمى .

والربا ، والأثمان العادلة ؛ وفيه قواعد لتنظيم المدارس والجامعات ، وهدنة الله وغيرها من الوسائل المقيدة للحرب والمنظمة للسلم ؛ وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ؛ وتوقيع العقوبات الكنسية ؛ والعلاقة القائمة بين المحاكم المدنية والمحاكم الدينية ، وبين الدولة والكنيسة . وكانت الكنيسة ترى أن الواجب المفروض على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا هـذه المجموعة الضخمة من القوانين ، وأن من حقها هي أن توقع على كل من يخرج على أي شيء منها مختلف العقوبات البدنية أو الروحية ، لايستثنى من ذلك إلا شيء واحد وهو أنه لا يجوز لأية محكمة كنسية أن تنطق بـ « حكم الدم » — أي أن تحكم بالإعدام على شخص ما .

وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش(*) تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي ؛ فكان الحرمان الأصغر **Minor excommunication** يمنع المسيحي من الاشتراك في العشاء الرباني وفي طقوس الكنيسة ؛ وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة ؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر **Maior excommunication** (وهو الحرمان الوحيد الذي تستخدمه الكنيسة في هذه الأيام) فلا يصدره إلا مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة ، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة . فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي : فلا يستطيع أن يقاضي ، أو يرث ، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية ، ولكنه يجوز لغيره أن يقاضيه ، ويحرم على أي مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . ولما أن صدر قرار الحرمان على ربرت ملك

(*) أو دواوين التحقيق كما يسميها بعضهم

فرنسا (٩٩٨) لزواجه من ابنة عمه ، تركه جميع رجال حاشيته وجميع خدمه تقريباً ؛ وكان الخادمان اللذان بقيا عنده يلقيان فى النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته ، حتى لا تدنسهما هذه البقايا . وكانت الكنيسة فى الحالات القصوى تضيف إلى الحرمان عقوبة اللعنة Anathema ، وهى عقوبة ذكر فيها بعناية وبأقوى عبارة ، وبكل ما تحتويه العبارات القانونية من لغو ، كل ما يتصل بهذه العقوبة . وكان آخر ملجأ للكنيسة هو حق البابا فى أن يصدر قرار تحريم (Interdict) على أية بقعة من العالم المسيحى — أى أن يمنع إلى أجل جميع الخدمات الدينية أو الكثرة الغالبة منها . وإذ كان الناس فى تلك الأيام يشعرون بحاجتهم إلى العشاء الربانى ، ويخشون أن توافيهم المنية قبل أن يعفى عن خطاياهم ، فقد كان المحروم يضطر عاجلا أو آجلا إلى مصالحة الكنيسة . وقد صدرت قرارات بالحرمان من هذا النوع على فرنسا فى عام ٩٩٨ ، وعلى ألمانيا فى عام ١١٠٢ ، وعلى إنجلترا فى عام ١٢٠٨ ، وعلى رومة نفسها فى عام ١١٥٥ .

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً فى ضعف أثرهما فى القرن الحادى عشر[١٠٥] . فقد كان البابوات يصدرون بين الفينة والفينة قرارات لأغراض سياسية ؛ كما حدث حين هدد إنوسنت الثا‍ مدينة بيزا بإصــدار قرار التحريم عليها إذا لم تنضم إلى الجامعة التسكانية[١٠٦] . وبلغت قرارات الحرمان بالجملة — للغش فى أموال الزكاة التى كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين — من الكثرة أن أضحت أقسام كثيرة من المجتمع المسيحى محرومة كلها فى وقت واحد ، ومنها ما لم تكن تعرف أنها محرومة ، كما أن منها ما أغفل قرار الحرمان أو سخر منه[١٠٧] ولم يعبأ به . من ذلك أن قرار الحرمان بالجملة صدر على ميلان وبولونيا وفلورنس ثلاث مرات فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وظلت ميلان اثنين وعشرين عاماً تتجاهل القرار الثالث . ويحدثنا الأسقف جويوم له مير

Guillaume le Maire فى عام ١٣٩١ عن هذه القرارات فيقول : « لقد رأيت بعينى فى بعض الأحيان أربعمائة محروم فى أسقفية واحدة بل رأيت سبعمائة منهم . . .(*) يزدرون سلطة المفاتيح ويوجهون ألفاظ التجديف والسباب للكنيسة ورجالها(١٠٨) » ولم يعبأ فليب أغسطس وفليب الجميل بقرارات الحرمان التى صدرت عليهما .

وكان ما يحدث آناً بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسى على غير رجال الدين فى أوربا . وكانت الكنيسة قد أخضعت لسلطانها طائفة كبيرة من شئون الحياة البشرية حين تضعضعت السلطات المدنية فى الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحى ؛ فلما أن قويت الحكومة المدنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر استرد القانون المدنى من القانون الكنسى طائفة بعد طائفة من الشئون البشرية . نعم إن الكنيسة قد نالت مكاسب جديدة فى التعيين فى الوظائف الدينية ، أما فى معظم الميادين الأخرى فقد أخذ سلطانها يضمحل فى شئون التعليم ، والزواج ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والحرب . فقد أعلنت الدول التى نمت وترعرعت فى ظل النظام الاجتماعى الذى أوجدته هى والذى أجاز لها أن تنمو وتترعرع ، أعلنت هذه الدول أنها شبت عن الطوق وبدأت تلك العملية الطويلة — عملية التحرر من السلطة الدينية — التى بلغت غايتها فى هذه الأيام . ولكن جهود واضعى القانون الكنسى لم تذهب هباء ، كما لا تذهب هباء معظم الجهود المبدعة الخلاقة فى هذا العالم ، فهى التى أعدت ودربت أعظم من أخرجتهم من الحكام ؛

(*) لعله يريد سلطة رجال الدين الذين كانت بيدهم مفاتيح السماء فى ظنهم . (المترجم)

وأسهمت فى نقل القانون الرومانى إلى العالم الحديث ، وأيدت الحقوق القانونية للأرامل والأطفال ، ووضعت فى القانون المدنى المعمول به فى أوربا الغربية المبدأ الذى يجعل للزوجة فى حياتها نصيبا من مال زوجها[١٠٩] ، وكان له نصيب فى صياغة الفلسفة المدرسية ووضع مصطلحاتها . وملاك القول أن الشريعة الكنسية كانت من أعظم الأعمال التى تمخض عنها العقل البشرى فى العصور الوسطى .

الفصل السادس

رجال الدين

كان الناس فى حديثهم العادى فى العصور الوسطى يقسمون الخلق طبقتين : طبقة رجال الدين وطبقة « رجال الدنيا » وكان الراهب من رجال الدين وكانت الراهبة من نسائه ، ومن الرهبان من كانوا أيضاً قسيسين وهؤلاء يكونون « رجال الدين النظاميين » أى رجال الدين الذى يتبعون قانون الأديرة (regula) ، أما غيرهم من رجال الدين فكانوا يسمون « دنيويين » أى يعيشون فى الدنيا » (saeculum) ، وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز من غيرها بحلق قمة الرأس وبأن يلبس أفرادها مئزراً طويلا ذا لون واحد أيا كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر ، تضمه أزرار بطوله كله من الرأس إلى القدمين . ولم يكن لفظ رجال الدين يطلق على من كان منهم فى « الدرجات الصغرى » فحسب — أى بوابى الكنائس ، وقارئى الصلوات ، وقارئى الرُّقَى ، والسدنة — بل كان يطلق كذلك على جميع طلبة الدين ومدرسيه فى الجامعات ، وعلى كل من حلقوا قمة رءوسهم — أى دخلوا فى زمرة رجال الدين — وهم طلاب ثم أصبحوا فيما بعد أطباء أو محامين ، أو فنانين ، أو مؤلفين ، أو اشتغلوا محاسبين أو مساعدين لرجال الأدب . وهذا هو السبب الذى من أجله ضاق معنى لفظى Clerical ، Clerk فصارا «كتابياً» و« كاتباً» . وكان يسمح لرجال الدين من غير الطبقات العليا أن يتزوجوا وأن يشتغلوا بأية مهنة محترمة ، ولم يكونوا يلزمون بأن يظلوا مستمسكين بعادة حلق قمم رؤوسهم .

أما الطبقات الثلاث « الكبرى » أو « الطبقات المقدسة » — أتباع الشمامسة — والشمامسة — والقساوسة — فلم يكن يجوز لمن انضم إليها أن يخرج

منها ؛ وقد أغلق أمام أفرادها بوجه عام باب الزواج بعد القرن الحادى عشر ، ولكن لدينا شواهد تدل على أن بعض القساوسة اللاتين بعد أيام جريجورى السابع كانوا يتخذون لهم أزواجاً أو خليلات[١١٠] ، غير أن هذه الحالات أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى كانت من الحالات الشاذة النادرة[*] ، وكان على قس الأسقفية أن يقنع بالمتع الروحية . وإذ كانت حدود الأسقفية تتفق فى العادة مع حدود الضيعة أو القرية ، فإن مالك الضيعة كان فى أغلب الأحوال هو الذى يعين القس[١١١] بالاشتراك مع الأسقف . وقلما كان هذا القس ممن نالوا قسطاً موفوراً من التعليم ؛ وسبب ذلك أن التعليم الجامعى كان وقتئذ كبير النفقة ، وأن الكتب كانت نادرة ؛ ولهذا كان يكفيه أن يعرف كيف يقرأ الصلوات والقداس ، ويقوم بتقديم العشاء الربانى وتنظيم شئون العبادة والصدقات فى الأسقفية . ولم يكن فى كثير من الحالات أكثر من مساعد أو نائب يستأجره قس أكبر منه ليؤدى الخدمات الدينية فى الأسقفية نظير ربع دخله من معاشه . وكان فى مقدور القس الكبير بهذه الطريقة أن يكون له معاش من أربع

(*) لقد خلقت العزوبة العامة بين الرهبان والقساوسة والراهبات بعد عام ١٢١٥ مشكلة من المشاكل الجنسية . ولربما كانت أوربا قد قاست بعض الخسارة فى القوة الحيوية من جراء امتناع عدد كبير من الأشخاص الأصحاء عن الاضطلاع بواجب الأبوة والأمومة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد تورث القدرة العالية على التناسل . وأقرب من هذا البحث إلى الناحية العلمية أثر التفاوت فى العدد بين الرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى الطبقات الدينية والناشئ من تحريم الزواج على الرهبان والقسيسين . ولما زادت نسبة الوفيات بين الرجال على مثلها بين النساء بسبب الأسفار للتجارة وغيرها ، وبسبب الحروب العادية والصليبية ، والنزاع بين الأفراد والجماعات ، وغير هذه من الأخطار ، بقيت نسبة كبيرة من النساء عانسات أو لجأن إلى الاختلاط الجنسى غير المشروع . وكانت الكنيسة ترحب بمن يردن أن يترهبن من النساء إذا استوفين شروط الترهب ، ولكن عدد الرهبان والقساوسة مجتمعين كان يفوق عدد الراهبات كثيرا . ومن أجل هذا فإن بنات الأشراف اللاتى لا يتزوجن كثيراً ما كن يوجهن إلى الأديرة أما بنات غير هـــذه الطبقة فكن يلجأن إلى العمل على عجلة الغزل ، أو يعشن مع بعض أقاربهن ، أو يحيين فى جو من العار والريبة ليشبعن مطالب رجال من ذوى المكانة .

أبرشيات أو خمس ، أما قس الأبرشية فكان يحيا حياة الفقر والمذلة[١١٢]، يعتصر دخله من « رسوم المذبح » أو التعميد ، أو عقود الزواج ، أو الدفن ، أو قراءة القداس للموتى . وكان فى بعض الأحيان ينحاز إلى جانب الفقراء فى حرب الطبقات ، كما فعل جون بول John Ball[١١٣]، ولم يكن مستواه الخلقى يضارع مستوى قس هذه الأيام الذى سما إلى ما سما إليه بفضل المنافسة الدينية ، ولكنه كان بوجه عام يقوم بعمله صابراً حريصاً على إطاعة نداء الضمير وواجب الشفقة والرحمة . فكان يعود المرضى ، ويواسى المحرومين ، ويعلم الشباب ، ويلوك صلواته ، ويبث فى الأهلين الغلاظ الشداد شيئاً من التحضر والخلق الطيب . ويقول أقسى ناقدى هذه الطائفة إن كثيرين من قساوسة الأبرشيات « كانوا ممن لا غنى عنهم فى هذا العالم »[١١٤]، وقال عنهم لكى Lecky المتحرر من قيود الدين : « ليس ثمة طائفة غيرهم أظهرت ما أظهروه هم من غيرة جامعة مجردة من الانهماك فى متاع الدنيا ، لا يثنيها عن هدفها مصالحها الشخصية ، يضحى أفرادها فى سبيل الواجب المفروض عليهم أعز ما فى العالم من متاع ، ويواجهون جميع الصعاب أياً كان نوعها وألوان العذاب والموت ببسالة لا تتزعزع ولا تلين »[١١٥] .

وكان القساوسة والأساقفة يؤلفون فيما بينهم طبقة رجال الكهنوت . فأما الأسقف فكان قساً اختير ليؤلف من عدة أبرشيات وعـــدد من القساوسة أسقفية واحدة . وكان الذين يختارونه لهذا المنصب من الوجهـــة النظرية وفى بداية الأمر هم القساوسة والشعب ، ولكن الذى كان يرشحه لمنصبه عادة قبل أيام جريجورى السابع هو البارون أو الملك ، وكان يختاره بعد عام ١٢١٥ كهنة الكنيسة الكبرى بالاشتراك مع البابا نفسه . وكان يعهد إليه بكثير من الشئون الدنيوية والكنسية ، كما كانت محكمته الأسقفية تنظر فى بعض القضايا المدنية وفى جميع القضايا التى تمس رجال الدين على اختلاف طبقاتهم . وكان من حقه

أن يعين القساوسة ويفصلهم ، ولكن سلطته على الأديرة ورؤسائها فى أسقفيته نقصت فى الوقت الذى نتحدث عنه لأن البابوات أخضعوا طبقات الرهبان لسلطانهم المباشر لخوفهم من سلطان الأساقفة . وكان إيراد الأسقف يأتى بعضه من الأبرشيات التابعة له ، ولكن معظمه كان يأتيه من الضياع التابعة لكرسيه ؛ وكان فى بعض الأحيان يعطى إحدى الأبرشيات من المال أكثر مما يأخذ منها . وكان المتقدمون لشغل مناصب الأساقفة يتعهدون عادة بأن يؤدوا — للملك أولاثم للبابا فيما بعد — قدراً من المال نظير ترشيحهم؛ وكانوا بوصفهم حكاماً دنيويين يطرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم من ميل لتعيين أقاربهم فى المناصب ذات الإيراد المجزى — وكان مما يشكو منه البابا إسكندر الثالث أنه « لما حرم الله الأساقفة من الأبناء وهبهم الشيطان أبناء الإخوة والأخوات »[١١٦] . وكان كثيرون من الأساقفة يحيون الحياة المترفة ، التى تليق بالسادة الإقطاعيين . ولكن كثيرين منهم كانوا يهبون أنفسهم لواجباتهم الروحية والإدارية . ولقد كان أساقفة أوربا ، بعد أن أصلح ليو التاسع نظام الأسقفيات ، خير الطوائف كلها فى العصور الوسطى من الناحيتين العقلية والخلقية .

وكان يرأس أساقفة كل إقليم كبير الأساقفة أو المطران ، وكان له هو وحده حق دعوة مجلس الكنيسة الإقليمى ورياسته . وكان بعض كبار الأساقفة ، بما أوتوا من قوة فى الخلق أو سعة فى الثراء ، يسيطرون على حياة أقاليمهم من نواحيها كلها تقريباً . وكان كبار أساقفة مدن همبرج ، وبرمن ، وكولونى ، وترير ، وميتز ، ومجدبرج ، وسلزبرج الألمانية من السادة الإقطاعيين الأقوياء ، يختارهم الأباطرة فى كثير من الأحيان لتصريف شئون الإمبراطورية أو ليكونوا لهم سفراء أو مستشارين . وكذلك اضطلع كبار أساقفة ريمس ، وروِن ، وكنتربرى ، بمثل هذا الواجب الخطير فى فرنسا ، ونورمندية ، وإنجلترا . ومن كبار الأساقفة — فى

طليطلة ، وليون ، ونربوتة ، وريمس ، وكولونى ، وكنتربرى — من أصبحوا « رؤساء » كباراً ذوى ساطان غير منازع على جميع رجال الدين فى أقاليمهم .

وكان كبار الأساقفة يجتمعون فى مجلس تتألف منه من حين إلى حين حكومة نيابية للكنيسة . وكانت هذه المجالس فى العهود المتأخرة تدعى لنفسها سلطات تعلو على سلطات البابا ؛ أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، عصر أعظم البابوات ، فلم يكن أحد فى أوربا الغربية ينازع سلطان أسقف رومة سلطاته العليا الدينية والروحية . وكانت فضائل ليو التاسع وهلدبراند قد كفّرت عن فضائح القرن العاشر ، كما أخذ سلطان البابوية ينمو بين صروف القرن الثانى عشر المتقلبة وكفاحه نمواً مكن إنوسنت الثالث من أن يدّعى أن هذا السلطان يمتد إلى جميع بقاع الأرض . فقد كان الملوك والأباطرة يمسكون بركاب خادم خدم الله ، ذى الثياب البيض ، ويقبّلون قدميه . وأضحى منصب البابوية فى ذلك الوقت أسمى ما يطمع فيه إنسان على ظهر الأرض ، فكانت أذكى العقول وقتئذ تتهيأ فى أشد مدارس اللاهوت والقانون صرامة لتشغل فيما بعد مكاناً بين رجال الكنيسة . وكان الذين يرقون منهم إلى الذروة رجالا من ذوى العقول الجبارة والقلوب الباسلة لا يخشون أن يحكموا قارة بأجمعها ؛ وقلما كان موت الواحد منهم يثنى غيره عن مواصلة السياسة التى وضعها هؤلاء الرجال هم ومجالسهم ؛ فلقد أتم إنوسنت الثالث ما لم يتمه جريجورى السابع ، وفاز إنوسنت الرابع والإسكندر الرابع بالنصر فى الكفاح الذى قام به إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ضد الأباطرة الذين أرادوا تضييق سلطان البابوية .

وكان سلطان البابا يؤول إليه من الوجهة النظرية من الحقوق التى منحها المسيح الحواريين . وكانت حكومة الكنيسة بهذا المعنى حكومة دينية — أى حكومة الشعب ، عن طريق الدين ، على أيدى خلفاء الله فى الأرض . لكن الكنيسة كانت بمعنى آخر حكومة دمقراطية : فقد كان فى وسع أى إنسان فى

العالم المسيحى ، عدا المصابين فى عقولهم أو أجسامهم ، والمحكوم عليهم فى جرائم ارتكبوها ، والمطرودين من حظيرة الدين ، والأرقاء — كان فى وسع أى إنسان عدا هؤلاء أن يُختار قسًّا أو بابا . وكان الأغنياء فى هذا المجال ، كالأغنياء فى كل مجال سواه ، تتاح لهم فرص أكثر من غيرهم لأن يُعِدوا أنفسهم لتسنم درجات هذا السلم الدينى الكثيرة ؛ غير أن الباب كان مفتوحاً لجميع الناس على السواء ، وكانت المواهب العقلية ، لا الآباء والجدود ، هى التى يعتمد عليها النجاح فى أكثر الأحيان . وقد خرج مئات من الأساقفة وعدد كبير من البابوات من بين صفوف الطبقة الفقيرة(١١٧) ، وكان سريان هذا الدم الجديد من جميع الطبقات فى طوائف رجال الدين بمثابة غذاء مستمر لعقولهم ، وقد « ظل عصوراً طوالا الاعتراف العملى الوحيد بمساواة الناس بعضهم بعضاً »(*) .

ولقد مر بنا أن حق اختيار البابا قد اقتصر على « الأساقفة الكرادلة » المقيمين فى رومة ؛ ثم زيد عدد هؤلاء الكرادلة السبعة تدريجاً بمن ضمهم البابوات إليهم من أمم مختلفة ، حتى أضحوا كلية مقدسة مؤلفة من سبعين عضواً يمتازون من غيرهم بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأرجوانية ، وأضحوا طبقة جديدة فى سلم الدرجات الدينية لا يعلو عليهم إلا البابا نفسه .

(*) من كتاب جيمس وستفول طمسن **James Westfall Thomsou** « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى **Economic and Social History of the Middle Ages** المطبوع بنيويورك سنة ١٩٢٨ ص ٦٠١ . انظر أيضاً قول ڤلتير : « كانت الكاثوليكية تمتاز على الدوام بأنها تخص بذوى الجدارة ما تختص به الحكومات الأخرى ذوى النسب العريق » . مقال فى آداب أوربا وأخلاقها **(Essay on the Manners and Morals of Europe** فى مجموعة مؤلفاته المطبوعة فى نيويورك عام ١٩٢٧ المجلد الثالث عشر ص ٣٠) ويقول هتلر إن هذا هو مصدر السلطة القوية التى لا يصدقها العقل والتى تستقر فى هذه المنظمة المعمرة . ذلك أن هذا الحشد الكبير من الرؤساء الدينيين ، بفضل السنة التى جرى عليها دائما دون استثناء سنة سد ما يطرأ على صفوفه من نقص بين أدنى طبقات الأمم ، يفضل هذه السنة يحتفظ هذا الحشد بما بينه وبين عالم العاطفة الشعبية من رابطة غزيرية ، ويضمن لنفسه فوق هذا قدراً من الطاقة والنشاط والقوة سيظل بهذه الصورة موجوداً إلى أبد الدهر فى جمهرة الشعب . من كتاب كفاحى **Mein Kemp** المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٤٣) .

وكان البابا يحكم دولة روحية بلغت فى القرن الثالث عشر ذروة مجدها ، ويساعده فى حكمها أولئك الرجال وطائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً « الكوريا » Curia أو المحكمة التنفيذية والقضائية . وكان من حقه وحده أن يدعو للانعقاد مجلسا عاما من الأساقفة ، ولم يكن لما يصدرونه من الشرائع أية قوة إلا إذا صدق عليه البابا بمرسوم من قبله . وكان له الحرية المطلقة فى تفسير قانون الكنيسة ، وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفاءه من قواعده . وكان هو المحكمة العليا التى تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذى يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى ، أو يسلك شخصاً فى زمرة القديسين . وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبى البابا على شئونهم . وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية ، وأمم كالإنجليز ، والمجر ، والأسبان تعترف بأنه سيدها الإقطاعى وترسل إليه الجزية ؛ وكان فى وسعه أن يرقب بعينيه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة ؛ والقساوسة ، والرهبان ، المنبثين فى كل مكان ، فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها فى أية دولة من الدول . وهكذا عاد إلى رومة شيئاً فشيئاً ، بدهاء بابواتها ، ما كان لها من سلطان على أوربا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة .

الفصل السابع

البابوية فى أوجها ١٠٨٥ ــ ١٢٩٤

ولم يقض على النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة حول المناصب الكنسية بعد عهد جريجورى السابع وانتصار الإمبراطورية فى الظاهر . بل ظل هذا النزاع قائماً جيلا من الزمان ، تولى فيه عدة أحبار ، وانتهى بتراض بين الطرفين فى اتفاق ورمز Worms (١٢٢٢) الذى عقد بين البابا كلكستس الثانى Calixtus II والإمبراطور هنرى الخامس . وقد سلم هنرى بمقتضى هـــذا الاتفاق بحق الكنيسة فى « تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا » ، ورضى أن « يجرى » انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة « حسب القوانين الكنسية » ، أى أن يقوم به رجال الدين أو الرهبان ذوو الشأن — « وأن يكون بمأمن من كل تدخل » واستخدام للمال . ووافق كلكستس على أن يجرى انتخاب الأساقفه ورؤساء الأديرة الذين يمتلكون أرضاً من التاج فى حضور الملك ؛ وأنه إذا قام النزاع حول الانتخابات كان من حق الملك أن يفصل بين المتنازعين بعد استشارة أساقفة الإقليم ؛ وأن على الأسقف أو رئيس الدير الذى يمتلك أرضاً من الملك أن يؤدى له جميع الالتزامات الإقطاعية التى يجب على التابع أن يؤديها للمتبوع[١١٨] . وكانت اتفاقات مماثلة لهذا الاتفاق قد عقدت قبل ذلك الوقت مع إنجلترا وفرنسا . وادعى كل من الطرفين أنه هو المنتصر ، والحق أن الكنيسة تقدمت بهذه الاتفاقات خطوة كبيرة نحو استقلالها بشئونها ، ولكن الروابط الإقطاعية ظلت تعطى الملك الكلمة المسموعة فى اختيار الأساقفة فى جميع أنحاء أوربا[١١٩] .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن انقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت إحداهما لكرسى البابوية إنوسنت الثانى واختارت الثانية أنكليتس الثانى Anacletus II . وكان أنكليتس ينتمى إلى أسرة بيرليونى Pierleoni الشريفة ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه « الجد اليهودى » ؛ وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف الخاص صديقاً لليهود ، برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى Lothaire II يقول إن « مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس » — وقد نسى قوله هذا أصل بطرس نفسه . وأيدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم إلا واحداً منهم ، إنوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى أوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لأنكليتس ، واتهامه بأنه يضاجع المحرمات عليه ، وينهب الكنائس المسيحية ليغنى بأموالها أصدقاءه اليهود ؛ ولكن أهل رومة ظلوا يؤيدونه إلى يوم وفاته (١١٣٨) . وأكبر الظن أن قصة أنكليتس هى مصدر خرافة أندريس Andreais التى ذاعت فى القرن الرابع عشر عن « البابا اليهودى »[(١١٩)أ] .

وكان هدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) مثلا آخر لما يستطيع أن يرقى إليه من الدرجات الرفيعة ذوو المواهب السامية . فقد ولد من أسرة وضيعة فى إنجلترا ، وجاء إلى أحد الأديرة يطلب الصدقات . وارتفع نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear بجدارته وحدها إلى منصب رئيس الدير وإلى كردينال ثم إلى بابا . ووهب أيرلندة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وأرغم بربرسا على أن يقبل قدميه ، وكاد يحتال على الإمبراطور العظيم ويقنعه بأن يسلم بحق البابوات فى أن يتصرفوا حسب مشيئتهم فى عروش الملوك . ولما مات هدريان اختارت كثرة الكرادلة إسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) واختارت أقلية منهم فكتور الرابع . وأراد بربرسا أن يستعيد السلطة التى كانت للأباطرة الألمان

على البابوية ، فدعا كلا الرجلين لأن يعرضا عليه مطالبهما . فأما الإسكندر فرفض الطلب ، وأما فكتور فقبله ، وأيد بربرسا فى مجمع پاڤيا المقدس (١١٦٠) اختيار فكتور لكرسى البابوية ، فما كان من الإسكندر إلا أن أصدر قراراً بحرمان فردريك ، وأعفى رعايا الإمبراطور من طاعته فى الشئون المدنية ، وساعد الثورة القائمة عليه فى لمباردية . وأذل انتصار الجامعة اللمباردية فى لنيانو (١١٧٦) فردريك ، فعقد الصلح مع الإسكندر فى مدينة البندقية ، وقبل قدمى البابا مرة أخرى . وأرغم هذا البابا نفسه هنرى الثانى ملك إنجلترا على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت Becket ، وأن يتلقى هناك درساً فى الطاعة من قساوسة كنتربرى . وكان كفاح الإسكندر زمنا طويلا ونصره المؤزر فى هذا الكفاح هما اللذين مهدا السبيل لبابا من أعظم البابوات على بكرة أبيهم .

وولد إنوسنت الثالث فى أنيانى القريبة من رومة فى عام ١١٦١ . وكان وهو لا يزال يسمى لوتاريودى كنتى Lotariodei Conti ، ابن كونت سنى Segni يتصف بجميع المزايا التى يمتاز بها أبناء الأشراف ممن نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة . ثم درس الفلسفة واللاهوت فى باريس ، والشريعة الكنسية والمدنية فى بولونيا Bologna ، ولما عاد إلى رومة استطاع بمهارته الدبلوماسية ، وعلمه الواسع بالعقائد الدينية ، وصلاته بأصحاب النفوذ ، أن يرقى رقياً سريعاً فى المناصب الدينية ؛ فكان وهو فى الثلاثين من عمره شماساً أكبر ، ولما بلغ السابعة والثلاثين اختير بابا بإجماع الآراء وإن لم يكن قد أصبح قسيساً (١١٩٨) ، وجلس على كرسى البابوية فى اليوم التالى ليوم اختياره ، وكان من حسن حظه أن الإمبراطور هنرى السادس الذى تمت له السيادة على إيطاليا وصقلية قد مات فى عام ١١٩٧ وترك عرش الإمبراطورية لفردريك الثانى ، وهو طفل فى الثالثة من عمره . وانتهز إنوسنت هذه الفرصة السانحة ، وكان فى استخدامها جد عنيف : فقد طرد رئيس بلدية رومة الألمانى من منصبه ، وأخرج الملتزمين الألمان من

اسبوليتو Spoletp وپروچيا Perugia ، وتقبل خضوع تسكانيا ، وأعاد حكم البابا فى الولايات البابوية ، واعترفت به أرملة هنرى سيدا أعلى للصقليتين ، وقبل هو أن يكون وصياً على ابنها ، ولم تمض عشرة شهور حتى كان إنوسنت سيد إيطاليا بلا منازع .

ويدل ما لدينا من الشواهد على أنه كان أعظم أهل زمانه عقلا ، فقد ألف وهو فى بداية العقد الرابع من عمره أربعة كتب فى علوم الدين ، تمتاز بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، ولكن هذه الكتب قد طغى عليها سنا شهرته السياسية . وكانت عباراته التى ينطق بها فى الشئون البابوية تمتاز بالوضوح والتفكير المنطقى السليم ، وقوة العبارة ؛ ولولا منصبه الدينى لبلغ فى الفلسفة ما بلغه أكويناس ، ولبلغ فى الأدب مبلغ أبلار وإن امتاز عنه بصدق العقيدة . وقد أكسبته عيناه الثاقبتان ، وأكسبه وجهه الأسمر ، مهابة لم ينتقص منها قصر قامته . ولم تكن تعوزه الفكاهة ، وكان يجيد الغناء ، ويقرض الشعر ، وكان رقيق الحاشية ، وفى وسعه إذا شاء أن يكون رحيما ، صبورا ، ومتسامحا فيما يمس شئونه الخاصة . أما فيما يختص بعقيدته وأخلاقه ، فلم يكن يقبل أى انحراف عن أحكام الكنيسة أو مبادئها الخلقية ؛ وإذ كان عالم الإيمان والأمل المسيحيين هو الدولة التى دعى لحمايتها فقد كان يسعه كما يسع غيره من الملوك أن يدافع عن دولته بحد السيف إذا لم تكف الكلمة للدفاع عنها . وكان وهو الذى ولد فى مهد الثراء يعيش عيشة البساطة الفلسفية ، طول حياته ، طاهر اليد فى عصر فشت فيه الرشوة فى كل مكان[١٢٠] . وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفى هيئة الكرادلة أن يتقاضوا أجرا على ما يقومون به من أعمال . وكان يحب أن يرى كرسى الرسول بطرس يثرى من مال العالم كله ، ولكنه كان يصرف أموال البابوية بنزاهة معقولة . وكان دبلوماسيا بارعا ، وكان له نصيب معتدل من النقائص الخلقية التى تلازم هذه الحرفة الممتازة[١٢١] . وكأن الزمن قد عاد به

أحد عشر قرنا إلى الوراء ، فجعله إمبراطورا رومانيا رواقيا أكثر منه مسيحيا ، لا يشك قط فى أن من حقه أن يحكم العالم .

وكان من الطبيعي ، وذكرى هؤلاء البابوات الأقوياء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل رومة ، أن يقيم إنوسنت سياسته على الاعتقاد بقداسة منصبه ورسالته . ولهذا كان شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط أمام الجماهير عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته . وكان صادق الإيمان بأنه هو وارث السلطات التى يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، فلم يكن فى مقدوره أن يعترف بأن لأحد ما له هو من السلطان . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب بل ترك له حكم العالم بأجمعه »(١٢٢). ولم يكن يدعى لنفسه السلطة العليا فى الشئون الأرضية أو الزمنية الخالصة ، اللهم إلا فى الولايات البابوية(١٢٣) ، ولكنه كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية كما تسمو الشمس على القمر . وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذى ستمسك به جريجورى السابع — وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان فى دولة عالمية يتولى البابا رياستها ، على أن تكون له الكلمة العليا فى جميع الشئون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الدينية ، وأوشك فى وقت ما أن يحقق هذا الحلم ، فقد نفذ جزءاً من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، إذ خضعت الكنيسة اليونانية إلى أسقف رومة ، واستطاع أن يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير المخيط ؛ وأخضع بلاد العرب وأرمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسى البابوى فى رومة ؛ واستطاع أن يكون هو صاحب الحق فى تعيين رجال الدين فى مناصبهم ؛ واندفع فى سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوربية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل . هذا فى

فى خارج إيطاليا ، أما فى إيطاليا نفسها فكانت سياسته أقلّ من هذا نجاحاً : فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الإيطالية ، ونغّص عليه أعداؤه السياسيون فى رومة حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان فى وقت من الأوقات يخشى المقام فى عاصمته . كذلك أفلح الملك شفير Severre النرويجى (١١٨٤ — ١٢٠٢) فى مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه[١٢٤] هو وبلاده ، وتجاهل فليپ الثانى ملك فرنسا أمره حين عقد الصلح مع إنجلترا ، وإن كان قد خضع لما أصر عليه البابا من أن يعيد زوجته التى هجرها ، واقتنع ألفنسو التاسع صاحب ليون Leon أن يفارق برنجاريا Berengaria التى تزوجها لأنها من قريباته المحرمات عليه . واعترفت البرتغال ، وأرغونة ، وبلاد المجر ، وبلغاريا ، بأنها إقطاعيات بابوية ، وأعطت البابا جزية سنوية ، ولما رفض الملك جون أمر البابا بتعيين لانجتن Langton كبيراً لأساقفة كنتربرى اضطره البابا بقرار التحريم الذى أصدره على إنجلترا وبدهائه السياسى أن يضم إنجلترا إلى الإقطاعات البابوية . ووسع إنوسنت سلطاته فى ألمانيا بأن أعان أتو الرابع على فليپ صاحب سوابيا Swabia ، ثم أعان فيليب على أتو ، وحصل فى كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين ، فضلا عن تحرير الولايات البابوية مما كان يتهددها من التطويق ؛ وأذكر الإمبراطور أن بابا من البابوات هو الذى « نقـــل » السلطة الإمبراطورية من اليونان إلى الفرنجة ، وأن شارلمان لم يصبح إمبراطوراً إلا بعد أن مسحه البابا وتوّجه ، وأن فى مقدور البابوات أن يستردوا ما منحوا . وحسبنا دليلا على سلطان إنوسنت ما وصفه به زائر بيزنطى إلى رومة إذ قال إن إنوسنت « ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين »[١٢٥]

وقد أحبط ما بذله الحكام الزمنيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضاء البابا ، ورصد المال فى الكرسى البابوى لمعونة القساوسة المحتاجين ،

وبذل ما فى وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم ؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عرّف الكنيسة بأنها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هى جميع رجال الدين المسيحيين ؛ وقاوم عادة استيلاء الأساقفة أو رؤساء الأديرة على العشور التى تجمع من الأبرشيات وحرمان قساوسة الأبرشية منها[١٣٦] . وعمل على إصلاح ما كان فى أديرة الرجال والنساء من تراخ وإهمال بأن نظم زيارات متتابعة لهذه الأديرة لمعرفة أحوالها والتفتيش عليها . واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات أن يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين ، وبين القساوســة والأساقفة ، والأساقفة والبابوات . ورفع من شأن المجلس البابوى فجعله محكمة قديرة للمشورة ، والإدارة ، والقضاء ، حتى أضحت وقتئذ أقدر هيئة حاكمة فى زمانها ، وقد ساعدت إجراءاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها . وأكبر الظن أن إنوسنت نفسه كان أعظم أهل زمانه تبحراً فى القانون ، وأنه كان قادراً على أن يجد فى المنطق والسوابق سنداً قانونياً لكل قرار يصدره . وكان العلماء والمشترعون يهرعون إلى « مجمع الكرادلة » حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا ، ليفيدوا من نقاشها وأحكامها فى المسائل القانونية المدنية والدينية ؛ وقد أسماه بعضهم « أبا القانون Pater iuris »[١٢٧] ، وأسماه آخرون حباً وتفكهاً سليمان الثالث[١٢٨] .

وكان آخر ما ناله من نصر بوصفه مشترعاً وبابا أن رأس فى عام ١٢١٥ مجلس لاتران الرابع الذى عقد فى كنيسة القديس يوحنا برومة . وأقبل على هذا المجلس العام الثانى عشر ألف وخمسمائة من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وغيرهم من علية رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الأمم ذات الشأن فى العالم المسيحى المتحد . وكانت خطبة الافتتاح التى ألقاها البابا اعترافا وتحديا غاية فى الجرأة إذ قال « إن أكبر سبب فى فساد الخلق هو فساد رجال الدين أنفسهم ، وهذا هو مصدر كل ما فى العالم المسيحى من شرور : فقد

انمحى الإيمان ، وطمست معالم الدين . . . ووطئت العدالة بالأقدام ، وكثر الخارجون على الدين ، وجرؤ الناس على الانشقاق ، وازداد غير المؤمنين قوة ، وانتصر المسلمون[١٢٩] » . ورضيت سلطات الكنيسة وعقولها المجتمعة فى هذا المجلس أن يسيطر عليها رجل واحد سيطرة تامة ، فكانت أحكامه هى قرارات المجلس ، وقبلت هذه السلطات أن يعيد هو تعريف عقائد الكنيسة الأساسية ، وأن يحدد معناها ؛ وعرّفت لأول مرة تعريفاً رسمياً عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه . وقبل المجلس قرارات البابا التى تطلب إلى غير المسيحيين فى البلاد المسيحية أن يلبسوا شارة خاصة تميزهم من غيرهم ؛ واستجاب بحماسة إلى دعوته بشن حرب على الملاحدة الألبجنسيين ؛ ولكنه أيضاً أيده فى الاعتراف بنقائص الكنيسة وعيوبها ، وشهّر ببيع المخلفات الزائفة ، وانتقد انتقاداً شديداً صكوك الغفران التى « لا يتورع بعض رجال الدين . . . عن منحها ويسرفون فى ذلك إسرافاً بعيداً عن الحكمة ، والتى أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة ، وفقدت التوبة ما كان لها من قوة »[١٣٠] . وحاول المجلس أن يصلح حياة الرهبنة إصلاحاً شاملا ، وندد بإدمان رجال الدين الخمر وما انحدروا إليه من فساد فى الأخلاق ، وزواج فى الخفاء ؛ واتخذ بإزائهم إجراءات شديدة ؛ ولكنه رفض ما ادعاه الألبجنسيون من أن كل اتصال بين الرجال والنساء إثم . وملاك القول أن مجلس لاتران الرابع كان فى كثرة من حضره ، وفى اتساع مداه وآثاره ، أهم مجمع عقدته الكنيسة بعد مجلس نيقية .

وبعد أن بلغ إنوسنت ذروة المجد فى حياته أخذ ينهار مسرعا نحو منيته العاجلة . ذلك أنه قد انهمك فى توسيع سلطانه وإدارة أعماله انهماكاً دائماً لم يخلد فيه قط إلى شيء من الراحة ، وأنهك قواه وهو لا يزال فى الخامسة والخمسين من عمره . ومن أقواله وهو يتحسر : « ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه فى الشئون السماوية ، بل إنى قلما أجد وقتاً للتنفس ، ولقد كرست حياتى لغيرى

حتى كدت أصبح غريباً عن نفسي[١٣١] » ، ولعله كان يسعه فى آخر سنة من حياته أن يرجع بذاكرته إلى أعماله ، وأن يحكم عليها حكماً موضوعياً أصدق من حكمه عليها فى غمرة النزاع الذى كان وقت أن قام بها . لقد أخفقت الحملات الصليبية التى نظمها لاسترداد فلسطين ، وكانت الحملة التى نجحت بعد وفاته هى التى أبيد فيها الألبجنسيون فى جنوبى فرنسا بوحشية مجردة من كل رحمة . نعم إنه نال إعجاب مواطنيه ، ولكنه لم ينل حبهم كما ناله جريجورى الأول أو ليو التاسع ، وقد شكا بعض رجال الدين من أنه كان ملكاً أكثر منه رجل دين ؛ وظن القديس لتجاردس Lutgardis أنه لن يستطيع الفرار من النار إلا بشق الأنفس[١٣٢] ؛ وحتى الكنيسة نفسها امتنعت عن أن تسلكه فى عداد القديسين وفيهم من هم أقل وأكثر منه إطاعة لصوت الضمير ، وإن كانت تفخر بعبقريته وتشكر له صادق جهوده .

ولكننا لا ينبغى لنا أن نضن عليه بأنه رفع الكنيسة إلى ذروة مجدها ، وأوشك أن يحقق ما كانت تحلم به من أن تصبح دولة عالمية مسيطرة على شئون الناس الأخلاقية . وكان هو أقدر حكام زمانه ، يعمل لتحقيق أغراضه ببعد نظر ، وإخلاص ، ومزيج من الإصرار والمرونة ، وجهود لا يكاد يصدقها الإنسان ؛ فلما مات فى عام ١٢١٦ كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم ، وعظيم الأبهة ، وبعد الصيت ، وقوة السلطان ، ما لم تعرف له نظيراً قبل ، وما لم تستمتع به بعد إلا فى فترات جد نادرة وقصيرة .

وليست لهونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) منزلة عالية فى سجلات التاريخ القاسية . لأنه كان لرقة حاشيته عاجزاً عن أن يخوض بقوة الحرب الناشبة بين الإمبراطورية والبابوية ؛ أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فقد خاض غمار هذه الحرب بعزيمة تكاد تصل إلى درجة التعصب ، وإن كان قد بلغ الثمانين من العمر حين جلس على كرسى البابوية ؛ وقد حارب فردريك

الثانى وانتصر عليه انتصاراً كان من أثره أن تأخر عصر النهضة مائة عام ؛ وهو الذى نظم محكمة التفتيش ، ولكنه كان إلى ذلك مخلصاً إخلاصاً لا يرقى إليه الشك ، تقيا إلى حد البطولة ، قويا فى دفاعه عما حسبه أثمن ما يملكه بنو الإنسان وهو الدين الذى جاء به المسيح .

وهل كان هــذا الرجل قاسياً غليظ القلب ، وهو الذى حمى كردينال فرانسس وهداه بحكمته ، ولولا هذا لكان من الجائز أن يصبح من الملحدين المارقين . وقضى إنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) على فردريك الثانى ، وأقر استخدام محكمة التفتيش للتعذيب[١٣٣] . وكان نصيراً صادقاً للفلسفة ، مساعداً للجامعات ، مؤسساً لمدارس القانون . وكان اسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٦١) محباً للسلم ، رحيما ، شفيقاً عادلا « أدهش العالم ببعده على الاستبداد »[١٣٤] ومعارضته لصفات أسلافه العسكرية »[١٣٥] ، بفضل التقى عن السياسة ، وقد مات « كسير القلب » كما يقول مؤرخ فرنسسكانى « ولم ينقطع يوما عن التفكير فيما بين المسيحيين من نزاع متزايد رهيب »[١٣٦] ؛ وعاد كلمنت الرابع (١٢٦٥ — ١٢٦٨) إلى امتشاق الحسام ، ودبر هزيمة مانفرد Manfred ، وقضى على أسرة هوهنستاوفن وعلى ألمانيا الإمبراطورية . ولما استعاد اليونان مدينة القسطنطينية تعرض الاتفاق القائم بين الكنيسة اليونانية والرومانية لخطر الزوال ، ولكن جريجورى العاشر (١٢٧١—١٢٧٦) استحق حمد ميخائيل پليلجوس Miehael Palealogus بمقاومته مطامع شارل دوق أنجو فى الاستيلاء على القسطنطينية ؛ فلما عاد إمبراطواطور الروم إلى ملكه أخضع الكنيسة اليونانية إلى رومة ، وعادت البابوية إلى ما كانت عليه من تفوق .

الفصل الثامن

مالية الكنيســـة

لقد كانت الكنيسة فى واقع الأمر دولة أوربية فوق الدول جميعها : تضطلع بشئون العبادات ، والأخلاق ، والتعليم ، والزواج ، والحروب العامة ، والحروب الصليبية ، والموت ، والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكا فعايا فى تصريف الشئون الزمنية ، وتقيم أكثر الصروح نفقة فى تاريخ العصور الوسطى ، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدر من مصادر الإيراد .

وكانت العشور أكبر مصادر هذا الإيراد : ذلك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمان على جميع الأراضى التى يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عيناً أو نقداً إلى الكنيسة المحلية ؛ كذلك فرض على كل أبرشية بعـــد القرن العاشر أن تبعث بجزء من عشورها إلى مطران الأسقفية . وأجازت مبادئ الإقطاع أن تقطع عشور الأبرشية للغير ، وترهن ، ويوصى بها ، وتباع ، شأنها فى هذا شأن جميع الأملاك أو الإيراد ، فلم يكد يحل القرن الثانى عشر حتى نشأت شبكة مالية معقدة كانت الكنيسة المحلية وقسيسها هما القائمين على جمع عشورها ولم يكونا من مستهلكيها . وكان ينتظر من القس أن « يصب اللعنات من أجل عشوره » على حد قول الإنجليز — أى أن يُخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها أو يزورون فى إيرادهم ؛ لأن الناس فى تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التى يرون أن أعمالهـــا لازمة لنجاتهم ، كما يكرهون فى هذه الأيام أداء الضرائب للدولة . فنحن نسمع عن ثورات يقوم بها دافعو العشور من آن إلى آن : فقد حدث فى رجيوإميليا Reggio Emilia عام

١٢٨٠ ، كما يقول الراهب سلمبين Salimbene ، أن تحدى الناس قرارات الحرمان والتحريم ، وتعاهدوا على « ألا يؤدى أحد منهم أى عشور إلى رجال الدين . . . وألا يجلسوا معهم على مائدة الطعام . . . وألا يقدموا لهم طعاما أو شرابا — وهو حرمان معكوس ، اضطر معه الأسقف إلى أن يترضاهم[١٣٧] .

وكان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هو أراضيها التى حصلت عليها بالهبة أو الوصية ، وبالبيع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضى البور بأيدى جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية . وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الإقطاعية أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ؛ وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب فى صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن فى الأراضى المخصصة للموتى الصالحين[١٣٨] . وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين ، فإن القس كان هو الذى يدعى فى العادة إلى كتابة الوصايا . وقد أصدر البابا إسكندر الثالث فى عام ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا فى حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين[١٣٩] ، وكانت الكنيسة وحدها هى المختصة بإثبات صحة الوصايا . وكانت الهبات أو الوصايا لكنيسة ما فى نظر الناس هى أول الطرق الموثوق بها للنجاة من آلام المطهر . وكان عدد كبير من الوصايا للكنيسة ، وبخاصة قبل عام ١٠٠٠ م يبدأ بهذه العبارة : Adventante mudi vespero ، ومعناها أنه « لما كانت أمسية العالم قريبة »[١٤٠] . ولقد سبق القول إن بعض الملاك كانوا ينزلون عن أموالهم إلى الكنيسة بوصف ذلك تأميناً لهم من العجز : فكانت الكنيسة تؤدى للراهب راتباً سنويا وترعاه فى حالتى المرض والشيخوخة ، على أن تتسلم تركته خالية من جميع الحقوق العينية حين وفاته[١٤١] . وكانت بعض الأديرة « تؤاخى » المحسنين إليها فتمنحهم نصيباً من تخفيف عذاب المطهر ، وهو

التخفيف الذى ناله الرهبان بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم[١٤٢] . ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم إلى الكنيسة بأثمان بخسة ليحصلوا ببيعها على ما يحتاجونه من المال ، بل إنهم استدانوا الأموال من الهيئات الكنسية بضمان ممتلكاتهم أو برهنها لها ؛ وكثيراً ما كانت هذه الممتلكات تؤول إلى تلك الهيئات لعجز أصحابها عن أداء ما عليها من الديون . ومن الناس من كانوا يموتون وليس لهم ورثة طبيعيون فيتركون أملاكهم كلها للكنيسة ، من ذلك أن ماتلدا دوقة تسكانيا Countess Matilda of Tuscany حاولت أن توصى للكنيسة بما يكاد يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها .

وإذ كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها ، وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة فى الأحوال العادية من الضرائب الزمنية[١٤٣] ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون ، فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى ، أو يمتلك دير للرجال أو النساء ، عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله نحو اثنى عشرة بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين[١٤٤] . فقد كان أسقف لانجر Langres مثلا يمتلك المقاطعة كلها . وكان دير القديس مارتن فى تور يحكم عشرين ألفا من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألفى ضيعة ، وكان الدير لورسش Lorsch مثل هذا القدر من الضياع ، وكان لدير لاس هوبلجاس Las Huelgas فى أسپانيا أربع وستون بلدة[١٤٥] ؛ وكانت الكنيسة فى قشتالة تمتلك حوالى عام ١٢٠٠ م ربع الأراضى الزراعية ؛ وكانت فى إنجلترا تمتلك خمسها ، وفى ألمانيا ثلثها ، وفى ليڤونيا Livonia نصفها[١٤٦] . على أنه يجدر بنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه التقديرات تقريبية ، وليست كلها مما يوثق بصحته . وأضحت هذه الثروة المكدسة موضع حسد الدولة ومطمعها . فقد صادر شارل مارتل أملاك الكنيسة ليمول بها حروبه ، وأصدر لويس التقى القوانين التى تحرّم على من كان له أبناء أن يوصى بأملاكه إلى الكنيسة[١٤٧] .

وجرّد هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا كثيراً من الأديرة من أراضيها ، وقال فى تبرير هذا العمل إن الرهبان قد نذروا أن يعيشوا فقراء ، ووضعت بعض القوانين الإنجليزية الخاصة بالأموال المرصودة قيوداً على انتقال الأملاك إلى « الهيئات » أى الجماعات الكنسية . واستولى إدورد الأول من الكنيسة الإنجليزية فى عام ١٢٩١ على عُشر أملاكها ، كما استولى منها فى عام ١٢٩٤ على نصف دخلها السنوى . وبدأ فليب الثانى سُنّة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وجرى القديس لويس على هذه السنّة وجعلها فليب الرابع شريعة مقررة . ولما تقدمت الصناعة والتجارة ، وكثرت النقود ، وارتفعت الأثمان ، أصبح دخل الأديرة والأسقفيات الآتى معظمه من الرسوم الإقطاعية التى كانت مقدرة من قبل على أساس مستوى الأثمان المنخفضة ، والتى لم يكن يستطاع رفعها فى هذه الأيام ، نقول أصبح دخل الأديرة والأسقفيات لايفى بمعيشة من فيها ، دع عنك ترفهم(١٤٨) ، فلم يحل عام ١٢٧٠ حتى كانت كثرة الكنائس والأديرة فى فرنسا مستغرقة فى الدين ؛ ذلك أنها كانت قد استدانت من أصحاب المصارف بفوائد مرتفعة لتفى بمطالب الملوك ؛ وكان هذا من أسباب ضعف نشاط البناء فى فرنسا فى آخر القرن الثالث عشر .

وزاد البابوات فى فقر الأسقفيات بما فرضوه من الضرائب على أملاكها وإيرادها ليمولوا الحروب الصليبية فى بادئ الأمر ، وليوفوا بنفقات الكرسى البابوى المطردة الزيادة فيما بعد ؛ وكان لا بد من وجود مصادر للدخل المركزى كلما وسعت البابوية مجال أعمالها وزادتها تعقيداً . وتحقيقاً لهذه الغاية أمر البابا إنوسنت الثالث (١١٩٩) جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى كرسى القديس بطرس جزءاً من أربعين جزءاً من إيرادهم فى كل عام ، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء ، وعلى الكنائس الداخلة فى دائرة الحماية البابوية مباشرة . وفرض البابوات على كل أسقف فى أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة

النظرية جميع إيراده فى السنة الأولى ، ولكنها كانت من الوجهة العملية نصف هذا الإيراد ؟ وذلك نظير تثبيته فى منصبه . وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسى البابوى بنساً سنويا (٩/١٠٠ من الريال الأمريكى) يعرف باسم « بنسات بطرس » . وقد جرت العادة على أن تفرض رسوم على القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية . وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسى فى بعض الحالات ، كالإذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوى القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج ، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التى ينطلبها هذا العمل . كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ، ومن الحجاج القادمين إلى رومة . وقد حسب دخل الكرسى البابوى فى عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوربية الزمنيين مجتمعين[١٤٩] . ولقد تلقى البابا من إنجلترا فى عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثـال إيراد التاج[١٥٠] .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد فى هذا العصر . فقد أعلن آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك مآله النار لا محالة[١٥١] . وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses ، والباترين Paterines ، والكاثارى Cathari على ذلك فشنوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح . وكان من قصائد الهجاء المتداولة فى القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها « الإنجيل حسب الماركات الفضية » مطلعها : « وقال البابوات للرومان فى تلك الأيام : إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فليكن أول ما تقولون : أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان ؟ فإذا لم يعطكم شيئا فألقوا به فى الظلمات الخارجية »[١٥٢] . وإنا لنجد فى جميع آداب ذلك الوقت — فى الأقاصيص الخرافية ، وفى الأغانى ، وفى قصة الوردة Roman de La Rose

وفى قصائد الشعراء الجائلين ، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين ، وفى قصائد دانتى ، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم(١٥٣) . وقد ندد ماثيوباريس Mathew Paris أحد الرهبان الإنجليز بجشع رجال الدين الإنجليز والرومان الذين يعيشون منعمين من أملاك المسيح(١٥٤) . وكتب هيوبرت ده رومان Hubert de Romans رئيس طائفة الرهبان الدمنيك عن « بائعى صكوك الغفران البابوية الذين يفسدون المحاكم الدينية بما يقدمونه من الرشا »(١٥٥) . ويتحدث پترس كانتور Petrus Cantor وهو نفسه قسيس ، عن القساوسة الذين يبيعون القداس أو أدعية الغروب(١٥٦) ؛ وشنع بكت Beckte رئيس أساقفة كنتربرى بمجلس القضاء البابوى الذى يباع ويشترى ، وينقل عن هنرى الثانى قولا له يفخر فيه بأن جميع أعضاء مجلس الكرادلة يتقاضون منه أجورا(١٥٧) . والحق أن تهم الرشوة والفساد قد وجهت إلى كل حكومة ظهرت فى التاريخ . وإن فى هذه التهم لشيئاً من الحقيقة فى جميع الأحوال ، غير أن فيها كذلك بعض المبالغة فى حوادث منشؤها أمثلة صاخبة حدثت فى بعض الأوقات ، ولكن هذه التهم تثير أحياناً غضباً يكاد يبلغ حد الثورة ، ولقد كان يسع الأهلين الذين أقاموا بدريهماتهم الكنائس لمريم العذراء أن يحتجوا وهم غضاب على جشع الكنيسة مجتمعة ، وكم من مرة قتلوا قسا عنيداً(١٥٨) .

واشتركت الكنيسة نفسها فى نقد جشع رجال الدين ، وبذلت كثيراً من الجهود للقضاءعلى شره رجالها وترفهم . فلقد حاول مئات من رجال الدين من القديس بطرس داميان St. Peter Damian ، والقديس برنار St. Bernard والقديس فرانسس ، والكاردينال ده فترى Cardinal de Vitry إلى صغار الرهبان تقليل هذه المساوئ(١٥٩) ، وإن ماكتبه هؤلاء المصلحون من رجال الكنيسة لهو أهم المصادر التى عرفنا منها ما نعرفه عن هذه المساوئ . وقام عدد من طوائف الرهبان ينادون بضرورة إصلاحها ، ويضربون بأنفسهم المثل لما

يجب أن يكون عليه هذا الإصلاح ، وندد البابا اسكندر الثالث ومجلس لاتران الذى عقد فى عام ١١٧٩ بفرض الأجور على أداء مراسم التعميد ، أو مسح المشرفين على الموت ، أو القيام بمراسم الزواج ، ودعا جريجورى العاشر مجلس ليون الجامع سنة ١٢٧٤ خاصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإصلاح الكنيسة . ولم يكن البابوات أنفسهم فى ذلك العصر ممن يبدو عليهم ميل إلى الترف ، وقد كسبوا مالهم بالانهماك فى أداء واجباتهم المنهكة . وإن من المآسى التى تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها إذا لم يعن بتنظيمها ، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية .

الباب الثامن والعشرون

محاكم التفتيش فى بداية عهدها

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسى

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً فى آخر القرن الثانى عشر. فقد كان فى عصر الإيمان مخابئ منعزلة من التصوف الدينى والعاطفة الدينية، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة، غير راضية عن أعمالها. وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقى لعلها سارت فى ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنينية المانوية(*) والشيوعية المزدكية. وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشمئزاز من القساوسة؛ وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفى فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسى ومعونة إلهية. وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وپروڤانس عن طريق بلاد البلقان فارّين نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطى، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الربانى، ورجال الدين، وقسموا الكون إلى عالم روحى

(*) المانوية أتباع مانى، وهو رجل من أهل همذان عاش بين عامى ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر. (المترجم)

من خلق الله وعالم مادى من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو يهوه الوارد ذكره فى العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أى أصدقاء الله) فى بلغاريا ، وتسمّوا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا فى البوسنة بنوع خاص ؛ وهوجموا بالسيف والنار فى أوقات مختلفة فى القرن الثالث عشر ، واستماتوا فى الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر (١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت فى عام ١٠٠٠ شيعة فى طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح فى القربان المقدس ، وتأثير الصلوات للقديسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حوربوا ، وأحرق ثلاثة عشر منهم أحياء فى عام ١٠٢٣ . ونشأت شيع ملحدة أخرى شبيهة بهم ، وأعقبت نشأتهم اضطرابات فى كمبريه ، ولييج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar (١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولونى (١١٤٦) ، وغيرها من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجى Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعة فى القرن الثالث عشر[١] ؛ منها جماعات عديمة الضرر تلتقى ليقرأ بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ، وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس فى تفسيرها ؛ ومنها جماعات عدة كالهيومليانى Humiliati فى إيطاليا . والبجوين Béguines والبغارد Beghards فى البلاد الوطيئة ، تتمسك بالدين فى كل شىء إلا فى إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسيسكان شيعة من هذا الصنف ، وكانت تعدُّ من الشيع الملحدة ولم تنج من هذا إلا بشق الأنفس .

لكن الولدنزيين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo فى عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى اللانج دك langue d'oc لغة جنوبى فرنسا . وأقبل على درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم ملك خاص . ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقى منها على الفقراء ، وقام يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هى « رجال ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ، ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاعة[٢] . وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم فى شىء ، وسمحوا لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا فى الكنائس[٣] . ولكن بطرس ضرب بمنجله محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعظوا الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه من أشهر رجال الدين تمسكا بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ، ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الربانى الذى يقدمه قس آثم ، وعزت إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر ، وتحول القربان المقدس إلى جسم المسيح ودمه ، والصلاة للقديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن « الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكا مشاعاً »[٤] . ونادت طائفة أخرى بأن الكنيسة هى المرأة الحمراء المذكورة فى سفر الرؤيى[٥] . وصدر فى عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة . وقبل إنوسنت الثالث فى الكنيسة عام ١٢٠٦ فئة منها هى فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما كثرتها الغالبة فقد أصرت على آرائها الخارجة على الدين ، وانتشرت من فرنسا إلى أسبانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد فى طولوز عام ١٢٢٩ ، ليقاوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وجرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها[٦] . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حُرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه فى بوهيميا فى عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثانى عشر كانت بلدان أوربا الغربية معششاً للشيع الملحدة ، حتى قال أحد الأساقفة فى عام ١١٩٠ إن « المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »[٧] ، وكان فى ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيع الملحدة فيها شيعة البترياثيين Patarines — ويبدو أن اسمهم مشتق من پتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة فى البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحالت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثراء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التسرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجال الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمزاد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة »[٨] . ونشأت شيع مثلها ضد رجال الدين فى ڤيتربو Viterbo ، وأرڤيتو Orvieto وڤيرونا Verona ، وفرارا Ferrara وپارما Parma وپياسـنزا Piacenza ، وريمينى Rimini . . .[٩] ، وكانت هذه الشيع فى بعض الأوقات هى المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية[١٠] . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه فى لمبارديا أن يستقسم جميع موظفى البلديات ألا يعيّنوا أحداً من الملاحدة فى أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعين من هذا القبيل . وثار الغوغاء فى مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخذوا « يجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، ودنسوا عدة كنائس « بالأقذار التي نستنكف عن ذكرها »[11] .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع الملحدة كلها ، فكانت تسمى شيعة الكاثارى ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » أو البلغارى نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ، والألبجنسيين نسبة إلى بلدة ألبي Albi التي كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منبليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع الملحدة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد فى البوسنة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد فى طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويدك Languedoc وپروڤانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها فى هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهذبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحة ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيهما كما كان وشيك البدء فى إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشئونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا رباط واه . وكان نبلاء طولوز هم أعظم السادة فى ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضى أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثارى وشعائرهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسى الذى انتشر فى فرنسا الجنوبية فى عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الكمل Perfecti ، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل . . . وألا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر(*) » . وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيُّوا كل واحد من الكمل بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى. وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى. وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى »[١٣] . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يدنس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء[١٤] . ويصف أعداء الألبجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله. ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصـــة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى[١٥] . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ، وكانوا يعلّمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكونى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش[١٢] . ولسنا نعرف شيئاً من عقائد الكاثارى وشعائرهم إلا منقولا عن أعدائهم . أما ما كتبوه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة[١٦] . ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب فى عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ؛ ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكى يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحى القداس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القداس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير فى ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القداس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسيمه . وكان القساوسة الألبجنسيون يتهمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان يميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير[١٧] .

ولقد كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية ، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصراً منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ميلك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ؛ وما من شك — كما يقول الكاثارى — فى أن رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويين ، والرهبان السمان ، هم الفَرِّيسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال[١٨] . وكانوا يندّدون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة[١٩] ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والخاتمات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن سخريتهم[٢٠] . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغانى التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدُّون من أنصار الألبجنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ، وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين »[٢١] .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد[٢٢] . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون فى عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشئونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد[٢٣] . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة فى لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث فى عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزيير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبى Albi فى السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آليه Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس فى السجن . فلما مات هذا السجين نصب الفيكونت المرح جثته فى المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا فى مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روجر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير باميير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنودُه أذرع الصلبان التى عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الدينى كان وقتئذ أمراً لا قيمة له فى نظر الأشراف المقيمين فى فرنسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتنقيها حماياتهم[٢٤] .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسى البابوية فى عام ١١٩٨ رأى فى هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الدينى العظيم الذى وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذى بدا له أقوى عاصم من العنف البشرى ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك — ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ، وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف . لقد ارتكبت الدولة هي أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها . وهل يستطاع إقامة نظام اجتماعي دائم على المبادئ التي تنهى عن الأبوة ، وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجد الفقر ويخلو من كل ما في الملكية من حافز إلى السعي والعمل ؟ وهل يستطاع إنقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من الفوضى الوحشية إلا بنظام كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثاري لإنوسنت كأنها خليط من السخف ، نفثت فيها سذاجة الجماهير سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch في غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج البحر ، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي . . . أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا في تحررها من جميع القيود وفي شدة أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها ، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية . وإذ كان . . . هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها ، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة . . . وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القويّ النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها . . . وفى وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف[٢٥].

ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش – وهو رجل متسامح مع غيره كما هو متسامح مع نفسه – لم يقم بالعمل الذى تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛ أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزيير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات تتزعمهن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام شهده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين مندوبا آخر أشد منهم بطشا وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو Arnuad رئيس الرهبان السسترسين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تجيز له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا وأشرافها عفواً شاملا لكى يساعدوه فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ، ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلا عن هذا أن يمنحه نظير هذه المساعة جميع الأراضى التى يمتلكها من يأبون الانضمام إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين[٢٦] . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم قبيل ذلك الوقت فتح نورمندية ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت يهضم فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم طريقة الإقناع مع الملحدين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ، فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ، وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛ «كيف نفعل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهالينا ، ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟ »[٢٧] . وأقبل على القوم القديس دمنيك من أسبانيا ، وأخذ يخطب داعيا إلى مسالمة الزنادقة ، وعاد

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه[٢٨] . ولعل المشكلة كانت تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل پيير ده كاستلنو Pierre de Castelnau أحد مندوبى البابا بيد فارس بسط عليه ريمند بعدئذ حمايته[٢٩] . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التى بذلها نحو عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملحدة تبوء بالخيبة ، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد ، وحرم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضى الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضى على كل مسيحى يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين فى جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا فى هذه الحرب ، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون فى هذه الحرب بالغفران الشامل الذى وعد به من يحملون الصليب للقتال فى فلسطين . وطلب ريمند المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار فى كنيسة القديس چيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك فى الحرب المقدسة (١٢٠٩) .

وقاوم معظم سكان لانجويدك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك الصليبيين ، لأنهم رأوا فى هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغى الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال[٣٠] . ولما اقترب الصليبيون من بيزيير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملحدين الذين دوّن أسقفها أسماءهم ، ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يُضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ، واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل[٣١] . ومن القصص التي شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصريوس هيستر باخ Caesarius Heisterbach بعد عشرين عاما من ذلك الوقت ، وهي تقول إن أرنود Arnaud مندوب البابا سُئل هل يؤمّن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »[٣٢] ، ولعله كان يخشى أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بزيير عن آخرها تقدم الصليبيون بقيادة ريمند ليهاجموا حصن كاركسون حيث وقف روجر كونت بزيير وابن أخي ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط في أيدى المهاجمين ومات روجر بزحار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة في هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت Simon de Montfort . وقد وُلد سيمون هذا في فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليستر Earl of Leicester ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات في كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة في حروب فلسطين . وأخذ في هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة في إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهلين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضّل مئات أن يقتلوا[٣٣] . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها في عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبي البابا في منپلييه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين استولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نُهبوا وقُتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون[٣٤]. وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنويا ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابع سن الرشد فتح طولوز واستردها من سيمون ؛ ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت ، وخرج من بقى حيا من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا فى عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ، وأن يقضى على كل الخوارج فى أملاكه ، إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولسنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أوشك أن ينتصر فيها حين وافته المنية فى منپلييه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة النائبة فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته چين Jeanne على ألفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى چين وزوجها . وكانت بلانش يؤرقها ويقض مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح فى باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبچنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ؛ وحرم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس[٣٥]. وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية فى

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزلين فى جنوبى فرنسا .
وماتت فى عام ١٢٧١ چين هى وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج الفرنسى ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة هى ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبجنسية .

الفصل الثاني

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سنّ كتّاب العهد القديم قانوناً بسيطا لمعاملة المارقين من الدين ، يقضي بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجموا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التشريع ١٣ : ١٠)(*) :

إذا قام في وسطك نبي أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه يتكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم . . . فتنزعون الشر من بينكم . وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك ، أو ابنك أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره بل قتلا تقتله . (تثنية التشريع ١٣ : ١ — ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد في إنجيل يوحنا (١٥ : ٦) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية في العصور الوسطى من الوجهة

(*) في الأصل الإنجليزي (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ(٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio)، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين(٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفى الدولة إياهم أو سجنهم(٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب جستنيان(٣٩). وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين — ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم — أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدإ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكى جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هى أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل رجل من رجال الحكم يغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا . وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوربا الأخلاقية والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث : « إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصادر أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من الإساءة إلى جلالة الملك »(٤٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى - صارم - إذا كانا فى داخله ؛ يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجيز لكل إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ، وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى حفظ لأوربا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة لاضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتنق آراء رجال الدين السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا فى غمار الجماهير المجتمعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

التبعات بوصفهم أفراداً . وأياً كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة فى اضطهادهم بزمن طويل »[41] ، بل لقد كان الأهلون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين[42] ، وكانوا فى بعض الأحيان « يختطفون المنشقين من أيدى القساوسة الذين يحمونهم »[43] ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس فى هذه البلاد أنك لا تراهم دائما على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل إنهم ليبعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالا »[44] ؛ وحدث فى عام ١١١٤ أن زج أسقف سواسون ببعض الضالين فى سجن ، ولكن العامة انتهزوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجردوا الضالين منه وحرقوهم أحياء[45] . وأصر العامة فى لييج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adlbero لا يزال يأمل فى هدايتهم[46] . ولما قال بير ده بروى Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصلبان فى يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة فى مكانه وأحرقوه لساعته[48] .

واشتركت الدولة على كره منها فى اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التى تغرس فى قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الدينى ستاراً يختفى وراءه التطرف السياسى ، ولم تكن فى ظنها هذا مخطئة على الدوام[49] . وقد يكون للاعتبارات المادية أثر فى هذا الشأن لأن الضلال الدينى أو السياسى كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأى العام بين الطبقات العليا — مع استثناء لانجويدك مرة أخرى — يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء[50] . ولهذا أمر هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصادر جميع أملاكهم ، وأصدر أتو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى . وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى « اليد الزمنية — أى إلى ولاة الأمور المحليين — وأن يحرقوا أحياء ، فإذا ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب ذى دخل أو كرامة ، إلا إذا كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط(٥١) . وأضاف لويس التاسع الرقيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن الملوك هم الذين كانوا ينازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين . وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر ضالا فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من حوادث إعدام الضالين بعد إعدام برسليان Priscillian بأيدى السلطات الزمنية فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شنق هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين أو الكاثاريين فى جسلار غير عابئ باحتجاج وازو Wazo أسقف ليبج وقوله إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين(٥٢). وفى عام ١١٨٣ « بعث » الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم واقتسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضجيـــج الذى يدلهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعمدون إلى طريق التحكيم الإلهى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرمها . وساء البابا لوسيوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم يمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاة الأمور المحليين . وخوّل مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال[٥٤] . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته[٥٥] ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفى ومصادرة الأملاك[٥٦] .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيغ والضلال ، حتى لقد أضحت الكنيسة . ولما يمض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يتهددها خطر الانقسام والتفكك .
وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن فى السن ، أن الكنيسة وهى تقاتل فردريك والضلال فى وقت واحد ، إنما تقاتل فى سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التى تحتمها حالة الحرب . وروّع جريجورى أن عرف أن الأسقف فلبو باترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد أسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعيّن لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها فى فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة فى واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى فى قانون الكنيسة الشرائع التى سنها فردريك فى عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسميا تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً متزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لا يستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبح لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمنيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين)(٥٧) . وكان كثيرون منهم رجالا متزمتين فى أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمائر حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمنيكى Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل فى يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحرقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة(٥٨) .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين(٥٩) . ولقد بذل الدمنيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحيه ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون فى هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود فى عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين فى بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء[٦٠] . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعلن بهذا حرمان جميع الضالين ونصبّ عليهم اللعنة — الكاثارى ، والپتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفّر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة ... وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، يحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملا ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها فى العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا فى مسائل الدين الكاثوليكى ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى — هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر[٦١] .

ويجوز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه فى ضلالهم أحياناً ، وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين فى مكان ما للبحث المبدئى . والذين يقرون بضلالهم فى خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوما ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمال التقى ، أو يتصدقون بالمال[٦٢] . أما الضالون الذين لا يعترفون فى أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم فى هذا التحقيق المبدئى ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق[٦٣] ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف فى الأحوال العادية من اثنى عشر رجلا يختارهم الحاكم الزمنى فى الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا فى السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم[٦٤] . ويسمح لجميع المتهمين فى مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا الثبت لا يدل أى متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أى متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه . وفى ذلك يقول لى Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »[٦٥] . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أى دليل يقدمه أولئك الأعداء[٦٦] .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب(٦٧) ، ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية(٦٨) ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوى يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطيبة فى الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم(٦٩) . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى فى بعض الأحيان لتبدى رأيها فى الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنبههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البرىء ، وأن من واجبهم أن يحصلوا إما على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الرومانى القديم يجيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ، ولم تكن هذه الطريقة تتبع فى المحاكم الأسقفية ، أو فى السنين العشرين الأولى من سنى محـــاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحبار(٧٠) . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدى إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة فى كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب فى بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم فى كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعـــترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين(٧١) . وكان من أنواعه الجلد ، والكى بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادى فى جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ، أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بملك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفسانى ، كالوعد بالرأفة أو التهديد بالقتل(٧٢) . وقلما كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذى يأتى من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أبى أمكن تعذيبه من جديد . وحدث فى عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذى يلجأ إليه المحقق چان جالان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى چان هذا يتركون زمناً طويلا فى السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس فى برازهم ، أولا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة(٧٣) . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات فى أثناء التعذيب(٧٤) . وشنع فيلب على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحدّ من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره(٧٥) .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانون بعدئذ ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجين شيئاً من الحرية فى التنقل ، والزيارة ، والألعاب ، أو يشدّد بحرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال(٧٦) . وكان الذين يدانون بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى فى إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما فى فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموتى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البريئين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح[٧٧] . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول(*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته[٧٨] .

وكان المحققون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعفى التائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسبانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤمرون بألا يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين تبعث إلى السلطات الزمنية بالذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاة رجال الدولة

(*) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها ١/٢٠ من الجنيه الفرنسى استبدل بها « الصلدى » . (المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يحرقوا عند عمود الإحراق (٧٩) .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقده المؤرخون فى وقت من الأوقات (٨٠) . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنار ده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية (٨١) . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين (٨٢) . وكانت الأحكام الصادرة فى حفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصاً بأن يخرجو للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الإيمان الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية (٨٣) . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفتها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتـــائج

لقد حققت محاكم التحقيق فى العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثاربة فى فرنسا ، ولم تبق من الولدنسيين إلا عددا قليلا من المتحمسين المتفرقين فى أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبى إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوربا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة ، بعد أن قويت باستيلائها على لانجويدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها فى أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها فى السجن فى عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق فى أسبانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند البنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمنيكى عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق فى بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسن فى عام ١٢٣٣ قانوناً يجعل الدولة هى التى تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه فى القرون التالية حافزاً قويا للملوك الذين وجلوا أن التحقيق والاستيلاء عملان شديدا الاتصال أحدهما بالآخر .

وفى شمالى إيطاليا ظل الضالون كثيرى العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك فى اصطياد الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزلينو Ezzelino فى فيسنزا Vicenza وبلافيشينو Pallavicino فى كرمونا وميلان يحمون الضالين سراً أو جهراً . وفى فلورنس أنشأ الراهب روجييرى Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم البتاريون فى معارك دموية فى الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة فى فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث فى عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب بيرو دا فرونا Piero da Verona فى ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة فى عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر فى مقاومة الضلالة فى شمالى إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشنت البابوية حروباً صليبية على إزلينو وبلاڤنسينو ، وقضى على أولها فى عام ١٢٥٩ وعلى الثانى فى عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة فى إيطاليا نصراً حاسماً فى ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها فى إنجلترا . نعم إن هنرى الثانى حرص على إثبات تمسكه بدينه فى أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار فى أكسفورد عام ١٢٦٦[٨٤] . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة فى إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفى ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث فى عام ١٢١٢ أن أحرق هنرى أسقف استرسبرج ثمانين ضالا فى يوم واحد ، وكان معظمهم ولديين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلا زواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفى عام ١٢٢٧ عيّن جريجورى التاسع كنراد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق فى ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصمهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كنراد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة ، وخيّر كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف فالعقاب ، أو الإنكار فالموت حرقاً . ولما أن سار فى إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض فى مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا إجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذى قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، فى بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فإنا حين نصدر حكما على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذى قتّل فى الحروب وأزهق من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصر ونابليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلازم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيف بتّار . ولقد أقر أفلاطون التعصب فى « قوانينه » ، وأقره المصلحون فى القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التى سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سراً فى هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الرومانى . وإذا وازنّا بين اضطهاد المسيحيين للضالين فى أوربا من ١٢٢٧ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين فى الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذاك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال فى حكمه ، وما يسمح به للمسيحى من تمسك بدينه ؛ إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق فى مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أى وحش من الوحوش .

الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب ، بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الديني والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلا طيباً من الإخلاص المطهر للنفوس .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ، وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هـذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الأتقياء أو ثقال الظهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلفى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس تومس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينذره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه[٣] . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد[٤] ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن فى حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع فى يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثما .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب فى أثنائها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفى ذلك يقول الراهب قيصريوس الهيستر باخى Caesarius of Heisterbach إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهى أنه يخشى الحشرات التى فى ثياب (الرهبنة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »[٥] . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات فى الصلاة ؛ وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى فى العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصريوس بأن ديره وزع أثناء القحط الذى حدث فى عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام فى يوم واحد و « حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »[٦] وذبح دير للسسترسيين فى وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآنيته المقدسة ، ليطعم الفقراء[٧] ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت فى ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفنهم فى غمار الصلاحية الأنانيّة ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم(*) .

وفاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلا دير القديس ركويبه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت فى البلدة التى كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجريها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخصى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر نقدى معتدل لكل فرد ولكنه فى مجموعه كبير(٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهى أديرة مونتى كسينو Monte Cassino ، وكلونى Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis ؛ وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبجل رئيس دير كلونى ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند فى بيورى ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلطان سياسى واجتماعى عظيم ؛ وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة(٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يقول عالم من كبار العلماء ليس فى العادة ممن يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التى يذيعها السفلة وهى أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التى بقيت حتى اليوم ، والتى تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة فى إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادى لأوربا فى العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكا وزراعا أذكياء » تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى لطمسن Thomson, Eeouomic and Social History ot the Midd'e Ages ٦٣٠ ؛ ويقول رينان المتشكك : « إن أكمل أعمال المسيحية وأعظمها أثرا هى التى قامت بها طوائف الرهبان » طبعة مارك أوريل Marc Anrèle بباريس ٦٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية(٩) ، ولعل القديس برنار كان يع
سوجر حين كتب يقول : « لو أنني قلت إني لم أر رئيس دير يركب على
أس موكبه مؤلف من ستين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »(١٠) .
ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة
والفخامة ليؤثر بذلك فى نفوس الشعب ! أما فى حياته الخاصة فكان يعيش
عيشة التقشف والبساطة ، فى خلوة متواضعة مراعياً جميع قواعد طائفته
بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلا صالحاً
ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية
فى الأديرة التابعة لدير كلونى — وهى التى كانت من قبل تتزعم حركة
الإصلاح — إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى
وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أمكنتها موارده
من الظهور ، وفى كل جماعة كبيرة أيا كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من
إيمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفية لها ،
ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً .
وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعيّنه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من
طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا
يستمتعون بالصيد ، والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛
وسَرَت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدس كمبرنسس Giraldus
Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إفشام Evesham بصورة مروعة
فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه يحصون له ثمانية عشر
ولداً ، وكان لا بد من خلعه آخر الأمر(١١) . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبّون على
مباهج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفاً لسخرية الشعب وتشهير
الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولترماب Walter Map[١٢] . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلا من الهناءة ، وفى وسعنا أن ندرك مقدار مللهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا يسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين[١٣] .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التى يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصريوس الهيسترباخى قصة تتكرر كثيراً فى العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت فى حياتى كلها »[١٤] . ويقول الزاهد بطرس داميان فى آخر أيام حياته الورعة المريرة :

فى وسعى وأنا الآن رجل طاعن فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجعّد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإنى أغضّ طرفى عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! — الذى لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التى قرأتها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تنمحى منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة[١٥] .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفسانى بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقية فى بعض الأحيان يرطبها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبّرون عن رؤاهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمى[١٦](*) . وكانت قصائد أوفد من الأشعار المحبوبة فى بعض الأديرة ،

(*) وإنا لنجد هذا بعينه فى أشعار الصوفية المسلمين . (المترجم)

ولم تكن مؤلفاته فى فن الحب بأقل منها تداولا بين الرهبان(١٧) . وكانت التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة فى أثاثها ، بل الرسوم المصورة فى بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات - تمثل خنازير فى ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر فى كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى - ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعيم - سمحوا بأن تبقى هـذه الرسوم الهزلية فى أماكنها ؛ ولكن رجال الدين فى هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكى تعيد الرهبان ورؤساء الأديرة إلى المثل العليا التى جاء بها المسيح .

الفصل الثانى

القديس برنار

عمت العالم المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتلأت القلوب تحمساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثنائها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسّس القديس يوحنا جلبرتس St. John Galbertus[١٩] طائفة من الڤلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة ومواردها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هـذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكوّنوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطين أو الأوسطين Austins »(*) . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرثوزيين Corthusians ، وذلك بأن أسّس ديراً فى

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطيين أو الأوسطين الذى أنشأهم الزهاد فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منعزلة تدعى كارتريز Chartreuse فى جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرثوزية فى أماكن منعزلة بعد أن سئموا ما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب فى هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، فى خلوته الخاصة المنعزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل ، ويكاد يلازم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفى أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون فى الحديث ويُطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ ربرت المولسميسى Robert of Molesmes فى عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد فى مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Dijon ، وذلك بعد أن أعيته الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التى كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرثوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsestershire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع عهد الحب Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمى الموحّد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعلم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأمروا أن يتجنبوا جميع مظاهر الأبهة فى الملابس الدينية ، والآنية ، والأبنية . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك فى الأعمال اليدوية فى الحدائق والمصانع التى تجعل الدير مستقلا عن العالم الخارجى ، فلا يكون لراهب ما

حجة فى مغادرة ديره . وامتاز السسترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ، رهبانية كانت أوغير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم فى الأعمال الزراعية ، وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم فى الأصقاع غير المسكونة ، وجففوا المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ، وكان لهم فضل كبير فى استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التى ألحقها وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السسترسيين فى هذه الجهود التى يبذلونها فى سبيل الحضارة إخوان علمانيون *مهتدون* نذروا أن يبقوا عزاباً ، صامتين ، أمين[٢٠] ، يعملون زرّاعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس والمسكن[٢١] .

وبعثت هذه الصرامة الخوف فى قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس برنار فى الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها فى مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمى إلى طبقة الفرسان ، وكان فى صباه شاباً حيياً تقياً ، يؤثر العزلة ، ولم يجد راحة فى العالم الدنيوى ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة فى الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا معه ديرسيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفتيات الصالحات للزواج كانت ترتعد فرائصهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغرى أبناءهن أو عشاقهن بالتزام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن قبل فى دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ؛ وأفلح فيما بعد فى إقناع أمه وأخته بأن تترهبا ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب بعد أن توعده بأنه « إن لم يكفّر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر . . وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة »[٢٢] .

وأعجب استيفن هاردنج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً سسترسيا جديداً يكون هو رئيسه . واختار برنار لبيته الجديد بقعة شَجِرة على بعد تسعين ميلا من سيتو تعرف باسم **الوادي اللامع** Clara vallis أو Clairvaux ، ولم يكن في هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط إنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتآخية أن بنت بأيديها « ديرها » الأول — وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعما ، وفي أعلاهما مكان للنوم يصلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون في صناديق نثرت عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شيء . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلما كانوا يشربون نبيذاً ؛ فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغبون في طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناوبون عليه . وكان من القواعد التي وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكا ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون في هذا الوادي الهادئ في صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم . ويجتمعون في أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . ويصفهم وليم السانت تيري William of St. Thierry بقوله : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقيني أنهم أعظم أتباع المسيح كمالا . . . لا ينقصون إلا قليلا عن الملائكة ، ولكنهم أرقى كثيراً من الآدميين »[٢٣] . وانتشرت أنباء هذا السلام المسيحي وهذا الاستقلال الذاتي حتى كان في كلير فو قبل موت برنار سبعمائة من الرهبان . وما من شك في أنهم كانوا سعداء في ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيئة الشيوعية ليكونوا رؤساء أديرة ، أو أساقفة ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ؛ وكان برنار نفسه — وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها — يحن دائما للعودة إلى صومعته فى كليرفو « حتى تسبل أيدى أبنائى عينىّ ، وحتى يوارى جسدى فى كليرفو بجوار أجساد الفقراء » .

وكان رجلا متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه فى الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل فى الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى فى ضياء معجزات الوحى غير سائل أو متشكك ، مفضلا هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة فى رأيه بيداء من الشك الحالك الظلام ، وكلما أوغل الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له فى رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك فى العشاء الربانى ، وقال له : « اذهب واشترك فيه بإيمانى أنا » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجى روحه[٢٥] . وكان فى وسع برنار أن يكره ويطارد حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيانى لأنهم أضعفوا كنيسة تبدو له رغم أخطائها وعيوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان فى وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التى كان يعبدها بغيرة منقطعة النظير . ورأى يوماً لصا يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شمپانيا ووعده أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة[٢٦] . وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضاً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة فى واديه . وكان يتسامح فى أخطائهم ، ويهديهم بما يضربه لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل فى تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضطر رئيسه فى سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش فى صومعة واحدة ضيقة فى كلبرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة فى الجدار[٢٧] . وكانت طيبات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شىء إذا قيست إلى التفكير فى المسيح ووعده . وكتب وهو فى هذه النشوة عدة ترانيم غاية فى البساطة والرقة الأخاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،
هب القلب البهجة الحقة ؛
إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها
مشهده الحلو ،
وليس فى كل ما يُغَنَّى شىء أجمل من ذكر عيسى ابن الله
ولا فيما يسمع شىء أحسن وقعاً على الأذن منه
ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .
أى عيسى يا أمل التائبين
ما أرقّ قلبك على المتوسلين !
وما أقربك لطالبيك !
تُرى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعنى بغير الجمال الروحى رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يخطى

عينيه خشية أن تسرفا فى الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا[٢٩] . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلونى لكثرة ما ينفقه من المال فى بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول فى هذا : « إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التى تأخذها من البائسين »[٣٠] . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالفرسان المتكبرين المدرعين بدل العبّاد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش اللصوص »[٣١] . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسته ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن إصلاح الأديرة الذى سطع ضياؤه من كليرڤو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذى لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر فى جميع الطبقات وفى خلال نصف القرن الذى عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينقضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف فى كليرڤو[٣٢] . وقد استطاع بعظاته — وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً — أن يؤثر فى نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله — وهى آيات خالدة فى الدعوة الحماسية الحارة — أن يؤثر فى المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياستى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس دير ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى حبر من الأحبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت فى العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طائفتان متنازعتان

أنكليتس الثانى وإنوسنت الثانى للجلوس على كرسى البابوية (١١٣٠) أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليتس على رومة دخل برنار إيطاليا وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛ وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره إربا اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى فى ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرهما من الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كليرفو بعد انتصاراته الدبلوماسية جاءته جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعالى التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى كدحهم مرفوعى الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار فى عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسين قد زاد من ثلاثين ديراً فى عام ١١٣٤ (وهى السنة التى مات فيها استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها ستين ألفاً يقيمون فى ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة فى القرن الثانى عشر ، فأنشأ ربرت الأبرسولى **Robert of Abrissol** حوالى عام ١١٠٠ طائفة الفنتفرول **Fontevroult** فى أنجو ، وفى عام ١١٢٠ تخلى القديس نربر **Norbert** عن ثروة عظيمة آلت إليه وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود »(*) النظامية فى بريمنتريه **Premontré** بالقرب من ليون **Leon** . وفى عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) **Premonstrateusian** وتسمى أيضا طائفة النربيرتيين نسبة إلى منشئها . أما تسميتها بطائفة المرعى الموعود فسببها كما يقول نربير أن المكان الذى نشأوا فيه قد حدد له فى رؤيه ظهرت له وهو فى غابة كوسى **Coucy** بالقرب من ليون **Leon** فى مقاطعة ابن **Aisne** .

(المترجم)

السمبر نجهام Sempringham الجلبرتيين الإنجليز على غرار طائفة فنترفول . وفى عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلى وانتشروا فى جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ، وإنجلترا . وفى عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » وحضهم على افتداء المسيحيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة مشعلا أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الاصلاح فى الأديرة التى بلغت ذروتها على يد القديس برنار تضعف فى خلال القرن الثانى عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول ، غير أنه لم يكن من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على هذا النظام الصارم فى ذلك العهد السريع الخطى ؛ فأثرى السسترسيون — ومنهم أتباع برنار نفسه فى كليرڤو — على مر الزمن بما انهال عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة من « التائبين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ[٣٣] ، وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين[٣٤] ، وكانت لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة فى منتجات صناعاتهم المشاعة ؛ وأثاروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة على نقل البضائع[٣٥] . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة شيوعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحى الصادق أن يبتعد عن الثروة والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ، وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس(*)

وُلد چيوفنى ده برنادون Giovanni de Bernadone فى أسيسى Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرپيترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع پروفانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى پيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسى . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدّل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أى فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لپيكا . وشب الطفل وترعرع فى أجمل صقع فى إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسمائها الصافية . وتعلّم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعليم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم فى عمل أبيه ، وأغضب سرپيترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم يداً ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغانى الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجائلين المتعددة الألوان(٣٦) . وكان شابا وسيما ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت. ويقول المترجمون الأولون له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذ كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التى خلفتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض فى الصفحات التالية ونبهنا القارئ إلى طبيعته هذه فى كل مرة . ونقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Fioretti » و « مرآة الكمال Speculum Perfectiones » من القصص الموضوعة . وعلى هذا النحو يجب أن يفسر ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما[٢٧] ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه فى تلك السنين التى يتشكل فيها خلقه شيئا عن الضالين الإلبجنسيين والولدنسيين فى جنوبى فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد إنجيل الدعوة إلى الفقر

وحارب فى عام ١٢٠٢ فى جيش أسيسى ضد بروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى فى الأسرسنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفى عام ١٢٠٤ تطوع فى جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينا هو طريح الفراش فى إسپوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمير إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربَّاه ماذا تريدنى أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل »[٢٨] . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى ، ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقلّ واهتمامه بالدّين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينا كان فرانسس يصلى فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ما معه من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجذام ففر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لعدم إخلاصه للمسيح ، وعاد أدراجه وأفرغ ما كان فى كيسه من النقود فى يد المجذوم وقبّل يده ، ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد فى حياته الروحية[٢٩] . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجذومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام فى المصلى أو بالقرب منها . ويبدو أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام إلا القليل الذى لا يغنى من جوع ، فلما ظهر مرة أخرى فى أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال فى الميدان العام يصيحون

« پزو ، پزو ! pazzo ! pazzo, المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ، وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة ضيقة . ولما أن أطلقته أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولامه لأنه لم يفد شيئاً من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها ؛ وكان فرانسس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجيورى ، مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد چيوتو هذا المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسس إلى حجرة فى قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف بثيابه المحزومة وما كان باقيا معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظللت حتى هذه الساعة أدعو پيترو برنادون أبى ، أما الآن فإنى أحب أن أكون خادماً لله ، ولهذا فإنى أرد إليه هذا المال . . . هو وثيابى وكل ما حصلت عليه منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات »[٤٠] . وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرنسس المرتجف بمئزره ، وعاد فرانسس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوبا من أثواب النساك ، وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيها « أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً فى الطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ولا عصا » (متّى ١٠ : ٧ — ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليه مباشرة ، وصمم على أن يطيع هذه الألفاظ وينفذها بنصها — أن يدعو إلى ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الوراء خلال المائتين والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف فى ربيع ذلك العام فى ميدان أسيسى متحدياً سخرية الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشمأزت نفسه مما كان سائداً فى هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه من ترف بعض رجال الدين وأبهتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس[٤١] ؛ وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء . واستمعت إليه جماعات قليلة فى دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو لى أن طريقتك فى الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس » أجابه فرانسس بقوله : « مولاى ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى الأسلحة للدفاع عنه »[٤٢] . وتأثرت به بعض النفوس . وعرض عليه اثنا عشر ممن تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سننه ، فرحب بهم ، ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة يسيرون عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون كل يوم حفاة ، ليس معهم شىء من المال ، يعظون الناس . وكانوا فى بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام، وينامون فى مخازن الدريس، أو مستشفيات المجذومين، أو تحت أبواب الكنائس؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام.

وكانوا يحيون بعضهم البعض، ويحيون كل من يلتقون بهم فى الطريق، التحية الشرقية القديمة: «سلام الله عليكم» ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم «فرانسسكان»، فقد كانوا يسمون أنفسهم «الإخوان الصغار Minorites Fratres أو المينوريين Minores». ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأناً، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه، ولم يرسم إلا عدد قليل منهم فى الجيل الأول من نشأتهم قساوسة، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس، وكانوا فى جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً، ويشتغلون بالأعمال اليدوية، ولم يكونوا يسمحون بوجود متعطل منهم، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم، لأن فرانسس لم يكن يرى فى المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان: «وسيجد إخوانى الذين تغويهم الرغبة فى العلم أنهم صفر الأيادى فى يوم المحنة»[٤٣]. وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال[٤٤]. وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذى لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال: «ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذى يستخدمه فى العمل»[٤٥] ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما فى ذلك كتاب الترتيل نفسه؛ وكانوا فى عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجائلـين فيكونون مطربى الله[٤٦].

وكان الإخوان أحياناً يُسخر منهم ويُضربون، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير. وقد أمرهم فرانسس ألا يبدوا أية مقاومة. وكان المعتدون

فى كثير من الأحيان يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والملك ، وهو احتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه[٤٧] . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من **زهيرات القديس فرانسس** تاريخ حق أوخيال ، ولكنه فى كلتا الحالين يصوّر نشوة التقوى التى تسرى فى كل ما نسمعه عن القديس :

قال فرانسس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من پروچيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهذيب ، ومع هذا فاكتب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهمْ ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . وبعد أن واصل فرانسس السير فى طريقه بعض الشىء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوّموا المعوجّين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلة ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحذق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكتب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : . . . « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتما ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلا : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران فى الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا فى خارجه نعانى آلام الجوع والبرد طوال الليل فى المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد فى ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا — ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردنا وهو غاضب ، وسبّنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبْعِدا أيها اللصان السافلان ! — فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلبينا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعوناه بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعصا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلنسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا فى آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها فى صبر وسرور مدفوعين إليها بحب الله — فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفى هذا يوجد السرور الكامل »[٤٨] .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكرة تبعث فى نفسه شعوراً بالخطيئة يؤرقه ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء فى الزهيرات فإنه كان فى بعض الأحيان يسائل نفسه فى حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه فى الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن فى وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتجل فرانسس ورداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تتهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة فى كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »[٤٩]. وحدث في مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نقه توًّا من الحمى ، أن طلب أن يُجَرّ وهو عار من الثياب أمام الناس في سوق أسيسي وأن يلقي أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أني ولي صالح ، ولكني أعترف لله ولكم أني في ضعفي هذا أكلت لحماً وشربت مرق لحم »[٥٠] . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أخاً شاباً أبصر المسيح والعذراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمرضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذي يلبسه حتى كان مريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسياً . وتقول **مرآة الكمال** التي هي في أكبر الظن من نسج الخيال[٥١] :

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى في طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المئزر إلى صاحبه ، لأنا لم نأخذه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عُدّ هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجماد نفسه ؛ وتعزو إليه **مرآة الكمال** التي لم تثبت صحتها تسبيحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس في الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمد الله الذي خلقها لننتفع بها ... وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذي أمدنا بأختنا النار التي تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد في إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض فى أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حى من أواشج القربى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثانى الذى كان مولعاً بصيد الطير) « لكى يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخوتنا القبرات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب فى خارج المدن والقصور فى يوم عيد الميلاد من كل عام حتى تجد أخواتنا القبرات وغيرها من الطير ما تأكله »(٥٢) والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قمريات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبنى القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ؛ وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الدير سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التى يطعم عليها أولئك الرهبان(٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب فى « أخواتى الصغار من الطير » وهو فى طريقه من كانورا Cannora إلى بيفانيا Bevagna ؛ فنزلت إليه الطيور التى على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكتة بينا كان فرانسس يختم عظته :

أخواتى الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مدينات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبكن أينما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التى تمكنكن من الذهاب أينما شئتن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهبكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ ويهبكن الجبال والوديان لتأوين إليها ، والأشجار الباسقة التى تبنين فيها أعشاشكن ، وإذ كنتن لا تستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتى الصغار أن ترتكبن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله(٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان چيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحنى احتراماً لفرانسس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهيرات Fioretta التى نقلنا منها هذه القصة هى تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهى أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد فى مستوى أجمل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة فى عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمى للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبنائى الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لى أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبى أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون »[٥٥] . وأصر فرانسس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر — خضعت القوة الممثلة فى شخص البابا إلى الإيمان الممثل فى شخص فرانسس — ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين فى مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيسى على مصلى القديسة مارى الملائكية St.Mary of the Angels ، وهى مصلى لا يزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم پورتى أنكولا Portiuncula — « أى الجزء الصغير » . وبنى الإخوان لهم أكواخاً حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية فى الثامنة عشرة من عمرها هى كلارا دى اسكفى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج — فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقر، والطهر، والطاعة، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس — هى الطائفة الثلاثية — من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة إنجيلها إلى بلدان أمبريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشىء عن الضلالة ، بل كانوا يعظون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقر ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه . . . وتوبوا إليه واستغفروه . . . فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون . . . تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أمبريا أن القديس فرانسس مقبل عليها . فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد[٥٦] . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهوا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين[٥٧] . وكانت هذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالملاريا التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

بيد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهله بالإسلام قد شجعاه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحي . ولهذا أبحر فى عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلماشيا واضطرته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاصيص تقول إن « القديس فرانسس أدخل فى دينه سلطان بابل »(٥٨) . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر فى ذلك العام نفسه إلى أسپانيا ليدخل المسلمين فى دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطر مريديه أن يعودوا به إلى أسيسى . وتروى قصة أخرى مشكوك فى صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام فى صفوف جيش المسلمين الذى كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحى إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروع فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبحون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط(٥٩) ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزونا ، وأصيب وهو فى مصر ، فضلا عن مرض الملاريا ، برمد أوشك فى مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وازداد أتباع القديس فى أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم. ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون أن يفكروا فى الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخر من صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك فى أن انتشار الطائفة التى انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة فى أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه فى عبادته الصوفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث فى لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالهم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة[٦٠] . وتخلى فرانسس فى عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخى فى إطاعة المبادئ الأولى (١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة - هى « العهد » الذائع الصيت - أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التى أقسموا أن يراعوها، ونهى الرهبان عن الانتقال من أكواخهم عند البورتى أنكولا إلى الأحياء الطيبة الهواء التى أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس الثالث فأحالها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت قد أخذت بنحو اثنتى عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلها من التعديلات المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس فى ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها فى التفكير ، والعزلة ، والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى حين برؤى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفى عام ١٢٢٤ غادر أسيسى مع ثلاثة من مريديه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزى Chiusi ، وأقام منفرداً فى كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ، وأمره ألا يأتى إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجيء إذا لم يتلق رداً على ندائه بأنه قريب منه . وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضاها ساهراً مصلياً - فى هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية فى كفيه وظهرى يديه ، وفى أسفل قدميه وأعلاها ، وفى جسمه كله شبيهة فى أماكنها

وفى لونها بالجروح التى أحدثتها فى ظن الناس المسامير التى يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح فى الصليب والحربة التى نفذت فى جنبه(*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسيسى ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً فى زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداناً تاما . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته فى دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه ألف فى يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالنثر الإيطالى الموزون ، ولعله ألفها وهو فى نشوة الفرح أيام النقاهة من مرض عينيه(٦٣) :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،
إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛
إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خليق بها
وما من أحد يليق به أن يذكرك .
إليك الحمد يارب أنت وجميع مخلوقاتك ،
وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخينا الشمس
الذى يهبنا النهار ويضيئنا به
والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،
بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،
تسبّح بحمدك يا رب قمر السماء ونجومها ؛
فقد خلقتها فى السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقاقيع هو الملاريا الخبيثة . ومما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً فى الجلد من الدم الأرجوانى ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة(٦١) .

نُسبّح بحمدك يا رب الرياح ، والهواء ، والسحب ، والجواء كلها ،
الطيّب منها وغير الطيب ، وهي التي تهب بها القوت لمخلوقاتك .
تُسبّح بحمدك يا رب أختنا المياه
ذات النفع العظيم والتواضع الجم ، الثمينة النقية .
تُسبح بحمدك يا رب أختنا النار
التي أضاءت بها دجى الليل ،
وهي جميلة ، ومبتهجة ، وشديدة وقوية ،
تُسبح بحمدك يا رب أختنا وأمنا الأرض ،
التي تمدنا بالغذاء وتسيطر علينا ،
وتخرج لنا الفاكهة المختلفة الأشكال والأزهار ،
والأعشاب ذات الألوان .
يُسبح بحمدك يا رب من يعفون عن الناس حبا فيك ،
ويحتملون آلام المرض والمحن ،
طوبى لمن يحتملونها فى هدوء ،
لأنك أنت يا ذا العظمة ستضع على رءوسهم التيجان .

ورأى بعض الأطباء فى ريتى أن يمروا بقضيب من الحديد المتوهج على جبهته ليعالجوا بذلك مرض عينيه بعد أن مسحوهما « ببول غلام لم يباشر قط النساء » . ويقال إن فرانسس نادى : « الأخ النار : إنك جميل فوق كل المخلوقات ؛ فمن على فى هذه الساعة ؛ وإنك لتعلم مقدار حبى العظيم الدائم لك » ؛ وقال فيما بعد إنه لم يحس قط بألم . واسترد من قوة البصر ما يكفيه لأن يبدأ رحلة أخرى يعظ فيها الناس ، ولكن متاعب السفر لم تلبث أن أنهكت قواه ؛ وأقعده داء الملاريا ومرض الاستسقاء ، فعادوا به إلى أسيسى .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد فى قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقيل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسبيحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من منت علينا بأختنا ميْتةَ الجسد التى لا ينجو منها بشر .

فوا أسفى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع إرادتك المقدسة ،
لأن الميتة الثانية لن ينالهم منها أذى(٦٣) .

ويقال : إنه ندم فى تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم »(٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتى أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهى وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا فى بيوت لا تتفق مع الأيمان التى أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم(٦٥) :

وأدركته المنية فى اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان فى اللحظة الأخيرة ينشد أحد المزامير . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيمان آخران يسيطران على هذا العصر القوى الحركة هما إنوسنت الثالث وفردريك الثانى . فأما إنوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فردريك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسس قد بالغ فى فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة فى الدين المسيحى بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه فى قلوب الملايين من بنى الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التى أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت فى بلاد المجر ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسپانيا . وكانت هى الدعامة التى تعتمد عليها الكنيسة فى عودة شمالى إيطاليا من الضلالة إلى الكثلكة . ولم تقبل إنجيل الفقر والأمية الذى كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوربا أصرّت على التخبط فى تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفى هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التى وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظَر من الناس أن يبقوا زمناً طويلا ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محتفظين بذلك المستوى العالى من الزهد الذى لا يكاد يقبله عاقل ، والذى عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشىء زاد عدد الإخوان الصغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتى ألف راهب يقيمون فى ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجال الدين بما ضربوه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برنردينو السينائى **Bernardino of Siena** والقديس أنطونى البدوائى **Antony of Padua** ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس **Dun Scotus** ومعلمون مثل اسكندر الهاليسى **Alexander of Hales** ، وأضحى بعضهم عمالا لمحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسى الأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية فى بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسس تلك الباسلقا الرائعة التي لا تزال تتوّج تل أسيسي وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيمابيو Cimabue وجيتو Giotto في هذه الباسلقا أول نتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذي كان للقديس فرانسس ولتاريخه وقصصه في الفن الإيطالي .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة في جبال الأپنين يعيشون فيها زهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيسيين فقد آثروا الأديرة الرحبة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا فنتورا Bonaventura ، وصدّق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأي في عام ١٢٧٩ ؛ غير أن البابا يوحنا الثاني والعشرين أعلن في عام ١٣٢٣ أنه رأي خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عــدّ « الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدإ من الضالين ، وقمعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسس حرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لجأت إليه من إرهاب ، فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يجله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجلين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لايعمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الضالين أعظم أسلحتهم إقناعا — وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلا من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القحط بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطعم بثمنها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينيا نظاميا فى كنيسة أسما Osma، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفئة الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسيا ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصح الأسقف ، والمثل الذى ضربه له بعض الضالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى.

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى فى منپلييه بثلاثة من مندوبى البابا — أرنلد Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنووى Peter of Castelnaw وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقروا به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يؤنبهم بجرأة لاتقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لايردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحماسى ، وبالخشوع المماثل لخشوع الحواريين ، وبالتقشف ، والاستمساك بالدين »(٦٦) ويقال إن المندوبين استحوا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالهم .

وأقام دمنيك فى لانجويدك عشر سنين (١٢٠٥ — ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق(٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم — Persecutor Haere ticorum — وليس معنى هذا حتماً أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويبث فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يجوسون خلال أوربا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهدوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقنع دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخوانا ، متسولين ، جوالين . ويصف ما يثوباريس فى عام ١٢٤٠ طائفتهم فى إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد فى طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون فى الغد ، ولا يحتفظون بشيء ما للصباح التالى . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق بها الناس عليهم . يسيرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم[٦٨] .

واضطلعوا فى أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات فى مناصب رفيعة وأرسلوهم فى بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجلان جباران فى الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنس وتومس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنقذوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجلا مسيحيا . ولقد أحدثوا هم والفرنسيسيون ، وإخوان الكرمل وأوستن ثورة فى حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعامة الشعب كل يوم فى أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة فى القرن الثالث عشر فوهبوها من القوة والجلال ما لم تستمتع بمثله قبل.

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لاتؤيد إسراف علماء الأخلاق فى مدحها ولاسخرية شانئها . وفى وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة نقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد نجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتهم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شامخة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روچر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى »(٦٩) . ولكن هذه ليست هى الصـــورة التى يصورها لنا الأخ سلمبين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فها هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جوا من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحياة الشاقة المكبوتة(٧٠) . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضفى مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمبين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيطاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا امر أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنج منه الإخوان ، لأن هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صداه فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع القساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسميا أن يردوه إلى أمه التى خدعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيطرد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبى فى كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتى إليه ويخدمه فى ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفى هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس بيديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وجملة القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاما ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئا سالما كما تنام الزغبة(*) :

(*) وتسمى أيضاً الفأرة النوامة وهى حيوان بين الفأر والسنجاب **dormouse** .
(المترجم)

الفصل الخامس

الراهبـــات

كانت العادات المألوفة في المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتى يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهن أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء في القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شئون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، ونذرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافه . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر في أنحاء أوربا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان السترسيين أول دير للنساء في عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal في عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان في أوربا ٧٠٠ دير سسترسي للنساء[٧٢] . وكانت معظم الراهبات اللاتى دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا[٧٣] ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنســاء اللاتى تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتى لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرّم على الآباء التخلص من بناتهـم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة[٧٤] . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها[٧٥] . ولهذا

كان فى وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها فى أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدير أملاكاً واسعة هى مصدر إيراد ديرها ؛ وكانت الراهبة فى تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » .

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً فى نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً فى نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara فى عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها فى أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشاها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسيين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين فى سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتى عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعنين بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التى لا تكاد تقل فى تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكى يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا فى خشوع عظيم ، وسألته أن يتفضل فيبارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصا ، إنى أحب أن تباركى أنت هذا الخبز ، وأن ترسمى فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذى وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أننى ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بى الجرأة أن أنطق بهذه البركة فى حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم » . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجرأتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى آمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتئذ مناصاً من أن تبارك الخبز فى خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملا بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا[٧٦] .

وماتت كلارا فى عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيسيون فى عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف الكلارية ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات فى أوربا لايقل عن عدد الرهبان . ونزعت أديرة الراهبات فى ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفى فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتى « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتى أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو الثكل . ويكشف دستور الناسكات Ancren R wle ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به فى القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف پور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائى فى ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جوٌّ قاتم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الذم التجديفى لجسم المرأة[٧٧] . ولكن نغمة من الإخلاص الجميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبلها[٧٨] .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقي المألوف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن[٧٩] ووجدن متاعب في حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحرما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات[٨٠] . وكتب إيفو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ — ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة في أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت عدوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته في جميع أنحاء الإقليم المجاور له[٨١] . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة في أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشتبه في أنهن يحترفنه ، « ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الخمر ليلة واحدة »[٨٢] . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية في الأديرة فأمر بالتشديد في عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن في الإمكان تنفيذه[٨٣] ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار في أحد أديرة النساء في أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط[٨٤] ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه في قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة في أقاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج[٨٥] .

ولو أن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التي تخرق فيها هذه القواعد ، لاستطعنا في أغلب الظن أن نذكر في مقابل كل زلة آثمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة في كثير من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليقة

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرثوزيات ، والسسترسيات أن يلتزمن الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام بد — وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات فى العادة يقمن بجميع ما يحتجنه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ، والحياطة ؛ ويصنعن الملابس للرهبان ، والفقراء ، والأغطية التيلية للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكنّ ينسجن السجف ، والأقمشة التى تزين بها الجدران ، وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ، نصف تاريخ العالم . وكن ينسخن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة فى الدير ، ويعلمنهم الأدب ، وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات فى المستشفيات ، وكن يقمن فى منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى فى ساعاتها المحددة . وكانت أيام كثيرة أيام صوم ، لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

وإنا لنأمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا ما رجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التى عاشتها المسيحية ، وإلى من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين ، صعب علينا أن نحصى كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحى كما اقتربت منه الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التى سعدت بفضل حياتهن التى تفيض بالخشوع الهادئ والعمل فى ابتهاج لخدمة بنى الإنسان . ولو أن آثام التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل ولكفّرت عن كل ما اقترفه الجنس البشرى من ذنوب .

الفصل السادس

المتصـــوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكنّ قديسات لأنهن أحسسن بالألوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس فى العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثراً جعل الرؤى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شىء خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويكمن فيها — أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقدور ذروة العقل أن تمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملا فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتى علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الرؤى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الرؤى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوّته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وحبها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والألوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نفى طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افترقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعِد المسيحُ ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون فى كل عصر ، وفى كل دين ، وفى كل أرض ، وامتلأت بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلى ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذى نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقلما استطاع إنسان أن يطول تحدثه إلى الذات العلية كما طال تحدث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسى والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفى ليقاوما به النزعة العقلية التى كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبووى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ فى إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس فكتور St. Victor الأوغسطينى ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفتاه هيو Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهم ، فلم يقيما قواعد الدين على الحجة والبرهان ، بل أقاماها على الإحساس الصوفى بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى فى كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة بسكال ، ويصف بمنطق العالم القدير السمو الصوفى للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تاقت نفس يواقيم الفلورائى Joachim of Flora — أو چيوفنى دى يواقيمى دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori — أحد نبلاء كلابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده فى طريقه من بؤس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الذليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى فى سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن حالة عظيمة تبدت له فى يوم عيد القيامة ، وملأته نوراً إلهيا فهم به لساعته كل ما جاء فى الكتاب المقدس ، وكل ما فى المستقبل والماضى . فلما عاد إلى كلابريا أصبح راهبا وقسا مسترسيا ،

وتاقت نفسه إلى الزهد والتقشف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلستين الثالث Calestine III على ما وضعه لهم من دستور للفقر والصلاة . وبعث إلى إنوسنت فى عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحى من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليبحثها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت .

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية — التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم — القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الوارة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولاها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية يحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقر ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوبى عالمية من السلام والعدالة والسعادة[٨٦] .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة ، ما قاله يواقيم عن الوحى الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يغمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان **الإنجيل الخالد** وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثانى ، وإن الحاجة إلى العشاء الربانى وإلى القساوسة تنتهى فى العهد الثالث حين يسودْ الحب العالمى . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسيس يدعى جراردو دا بورجا Ghérards da Borga ظُن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يُتداول سرا ، وكان له أثر بالغ فى التفكير الصوفى وفى تفكير الطوائف الضالة فى إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتى — الذى جعل ليواقيم مكاناً فى الجنة .

وتأججت حول بروصة فى عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالى إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد فى ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسيرون فى مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقويهم ، يبكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب اللصوص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتا ما أن إيمانا جديداً صوفياً سيغمر أوربا بأجمعها متجاهلا الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت فى الأعماق النفسية التى خرجت منها(٨٧) .

وفى فلاندرز سارت حركة التصوف سيراً هادئاً متصلا . ذلك أن قسا من لييج يدعى لامبر له بيج Lambert le Beuge (أى المتهته) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse فى عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتى يردن أن يعشن معاً فى

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويعُلن أنفسهن بنسج الصوف وعمل المخرمات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من بيوت الله مماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهيات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لاقتنائها الأملاك ، وسلكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجزبرج عام ١٢٦٢ شيعة أخرى هى شيعة إخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحى الصوفى الذى يعفيها من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيها فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى[٨٨] . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى العمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهرة عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعة المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى وممن بعثوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، ففيها عاشت هلدجارد البنجنية Hildegarde of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سبيلة الرين » the Sibyle of the Rhine كل حياتها البالغة اثنين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والرؤى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طبيبة وقديسة ؛ وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنغمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لاتينية رصينة قوية قوة لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الرؤى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ، وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لاذعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛ وستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن تتردّيا فى هوة الإلحاد . . . ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما . . وستضم الوثنيين ، واليهود ، وعبّاد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالمَ ربيعُ الدهر والسلام بعد مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واثقون إلى السكنى بين الآدميين(٨٩) .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إليصابات الثورنجيائية (١٢٠٧ — ١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التى قضتها زاهدة متبتلة . وإليصابات هذه ابنة الملك اندرو **Andrew** وقد تزوجت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها بأمير ألمانى ، وكانت أمًّا فى الرابعة عشرة ، وأرملة فى سن العشرين . ونهب أخو زوجها مالها وطردها فى فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ، وتغسل جروحهن . وكانت هى الأخرى تتراءى لها رؤى سماوية ، ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت بكنراد الماربرجى **Conrad of Marburge** عضو محاكم التحقيق الشرس افتتنت افتتاناً وبيلا بقسوته فى إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته المطيعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتقى ، فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضروباً شديدة من التقشف عجلت منيتها ولما تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها(٩٠) . وبلغ من اشتهارها بالتقوى أن من كان يسير فى جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنيها ، وحلمتى ثدييها ليتخذوها مخلفات مقدسة(٩١) . ودخلت إليصابات أخرى الدير النسائى البندكتى فى شنو **Schonau** القريبة من بنجن وهى فى الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت فى عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمى ، وإسرافها فى زهدها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تتلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقويباً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذبلت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلىّ أنا نفسى »[٩٢] .

وعلت موجة التصوف فى أواخر ذلك العهد فى ألمانيا ، وكان من متصوفتها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية فى ١٣٢٦ ، والذى حوكم و توفى فى عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذاه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحـــدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد الينابيع التى فاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة فى العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم فى كنفها . نعم إنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحدخروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو تجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالا مباشراً بالله عز وجل ، وتستمع فى غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومنهم ذوو المناصب العالية فى الكنيسة ، يعطفون على ناقديهم ، ويعترفون بما فى الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها فى الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما فى الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبّتوا قواعد الدين المسيحى بين زعازع الإلهام الجنونى التى كانت تهدد العقول فى العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا فى دراسة أقوال متصوفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمساك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقى من انتشار الخرافات المعدية ، وأن الكنيسة من إحدى النواحى عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من الفوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكا بآداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهد واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حدا للحروب القائمة بينها ، وعمل على إن يختار رودلف هپسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ، ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجبلين Ghibelline فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسيهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جبلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون »[٩٣] . ودعا أحبار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلا لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسى البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودُعى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظير[٩٤] ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوربا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لاتزال أقوى الحكومات الأوربية ، وأحسنها تنظيما ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، فى هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن يختتم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والغطرسة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصا خاليا من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلوا من الفضائل الفاتنة : فقد كان محبا للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ؛ أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين چيتو Giorro وأرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرڤيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسنمه عرش البابوية بأن أقنع سلستين الخامس Celesrine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر — وكان هذا عملا لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط بنيفاس من بادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلستين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ؛ ولما فر سلستين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يجول فى أنحاء أپوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدرياوى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجىء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferintino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦)[٩٥] .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فردريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فردريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب[٩٦] ، واضطر بنيفاس فى آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه فى الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم فى فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب ڤالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا فى كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا . وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم فى ولاياته البابوية فحاول أن يفض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن پيترو Pietro وجاكوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضاً عروضه ففصلهما ، وحرمهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعا على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية پلستينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمتهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينا كان بنيفاس يلاقى هذه المحن فى إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة فى فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذى يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها فى الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

فى حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجبهم أن يشتركوا بالمال فى الدفاع عن الدوله التى تحمى أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة فى فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة فى يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين فى فرنسا ؛ فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة فى الإدارة الحكومية وفى مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان السسترسيين فمنعوا عن فليب خمس إيرادهم الذى طلبه ليستعين به فى حرب إنجلترا ، وبعث رئيسُ الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابد لبنيفاس أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية فى كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادى لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيرادها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر فى شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابويا يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم فى التاريخ الكنسى كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأولين منه Clericis laicos ، وكانت جملته الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجورى السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديدو العداء لرجال الدين ؛ وتجاربنا لا تترك مجالا للشك فى صدق هذا القول فى الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أى جزء من إيراده أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا ، عرض نفسه للحرمان من الدين ... ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ، أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب فى اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان[٩٧] .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة فى فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها فى نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء فى فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيرادها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية فى الشرق . ولهذا نكص بنيفاس فى مرسومه ineffabirlis Amor (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين فى سبيل الدفاع الضرورى عن الدولة ، واعترف بحق الملك فى أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس — لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عاديا — حكما فى النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب فى معظم أوجه النزاع ، وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يملأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا[٩٨] . ونجح فى هذه الخطة نجاحاً تاماً ؛ فلم تشهد رومة من قبل جموعاً كالتى شهدتها فى ذلك الوقت . وفرضت حينئذ ، ولعلها فرضت للمرة الأولى ، قواعد المرور للإشراف على حركات الناس[٩٩] . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفورا وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا فى هذا الوقت عينه يسلون فليب بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث نزاع بين أعوان فليب وبرنارد سيسر **Bernard Saisser** المندوب البابوى . وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يحرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) . وارتاع بنيفاس للسرعة التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فيليپ فى مرسومه المسمى **استمع يا ولدى Ausculta fili** (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية ، وأعلن أنه سيدعو الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك »[١٠٠]. وحينما عرض المرسوم على فليپ ، اختطفه كونت أرتوا **Artois** من يدى رسول البابا وألقاه فى النار . وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليپ تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليپ إلى بنيفاس تُبَلِّغ « حماقتك العظيمة أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان[١٠١] .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « **استمع يا ولدى** » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليپ أن يستبق المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع فى باريس فى شهر ابريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث — الأشراف ؛ ورجال الدين ، والعامة — فى هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه فى تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذى عقد فى شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذى حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلفت الأنظار . وجاء فى هذا المرسوم أنه لاتوجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد فى خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح وممثله البابا الرومانى ، وأن هناك سيفين أى قوّتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة ، والثانى يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس وبإذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسمى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضرورى للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الدينى الرومانى »[١٠٢] .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (فى شهرى مارس ويونية من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسميا بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر[١٠٣] ، وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك وليم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليبلغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ فى القصر البابوى بأنانى Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذى يحق له أن يدعو مجلساً عاما ، وأعدّ مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار وليم نوجارت وسيارا كولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة

واقتحما القصر ، وقدما إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »[١٠٤] إن سياراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقى ثلاثة أيام سجيناً فى قصره والجنود المرتزقون ينهبونه . ولكن أهل أنانى يؤيدهم أربعمائة فارس من عشيرة أرسينى Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ؛ لأنه وهو واقف فى السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لى صدقة من النبيذ والخبز ، فإنى أمنحها بركة الله وبركتى » . وقاده فرسان الأرسينى إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وحرم خليفته بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) نوجارت ، وسياراكولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر فى أنانى . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت فى بروجيا ، وربما كان أحد الجبلين الإيطالين قد دس له السم[١٠٥] . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Berlrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسى البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة فى المائة مدة خمس سنين ، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم ، وأن يشهر بذكرى بنيفاس[١٠٦] . ولسنا نعرف إلى أى حد وافق برتراند على هذه المطالب ؛ وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذره الكرادلة بأنه لن يكون آمناً على حياته فى رومة ، فنقــل

كلمنت كرسى البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، فى خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مريح من فليب ، وهكذا بدأ « الأسر البابلى » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة فى يد فليب الذى لاحد لمطامعه ، فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيرا (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدى مجمع كنسى عقد فى جروسو Groseau القريبة من أفنيون . وشهد ستة من رجال الدين فى التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكا حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة فى آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلا ، أو أن الله قد صار إنسانا ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلة . « هذا ما أومن به وما أعتقده ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوقة فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقة ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال ، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيها بعد . ونقل رئيس دير القديس چيلز St. Giles القائم فى سان چمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحرى بـ « قوى الظلام »(١٠٧) .

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس فينا العام الذى سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثّل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدّين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحديين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التي قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذى كان يجرى فى الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل الصفعة — المادية أو السياسية — التي وجهت إلى بنيفاس فى أنانى بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، وللدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوفن وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، فى الوقت الذى زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويدك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلا على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت(١٠٨) ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط فى هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط فى استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراع ، وأن الحياة والتفكير قد نزعا نزعة زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضى سبعون سنة كانت الدولة قد طوت الكنيسه تحت جناحيها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع فى ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية فى العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها فى كل مكان انتشاراً أكسب أوربا

الغربية – أوربا غير الصقلبية ، وغير البيزنطية – وحدة فى العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف فى التاريخ كله نظاما فى غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم فى مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام پمپى الى أيام ألريك Alaric أى أربعمائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطورية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـــة فقد ظلت صاحبة السلطة العليا فى أوربا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه فى الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يؤت رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من الهمج المسلوبى العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس فى أوربا الغربية التعليم الوحيد المستطاع فى خلال القرون الخمسة التى كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة فى أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما ، محكمة عالمية تحكم فى فض المنازعات الدولية ، وتضييق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة فى نزعتها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت فى تلك القرون أحسن العقول تدريباً ، وكان فى وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة فى العالم المسيحى اللاتينى .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوربا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التى تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لا بد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قاريَّة ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس فى سلام ، وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوربا الغربية ويرون أنه خليفة الله فى أرضه ؟ وحسبنا دليلا على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية فى عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا فى مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع إنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقبيه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم[١٠٩] ، ولو أن الكنيسة اقتصرت فى استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع — ولجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى بشتات العالم المسيحى لقتال الاتراك ؛ فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدى البابوات الملطخة بدماء المسيحيين .

وكانت الكنيسة إذا لم يهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم نكن نتوقعه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاضعة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوما منهم

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن ينبذوا عقيدتهم وكنيستهم(١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدرية ، وإن كثيراً من العناصر التي لم تكن مستمسكة بالدين الرسمي ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمي بحرية أوسع مما يظن الناس عادة(١١١) .

وجملة القول أن الصورة التي نرسمها في أذهاننا للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى هي أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما في وسعها ، رغم ما يتصف به أبناؤها وزعماؤها من عيوب كامنة في فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقي والاجتماعي ، ونشر العقيدة الدينية التي تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف ثائرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاهة .

لقد كانت أوربا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطا من الألسنة والعقـــائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التي لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقيا تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفي لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة في نفوس ذوي العنف من الناس ، ووهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوي المخطوطات القديمة ، وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها في المدارس والجامعات ، وذللت قيادة ملوك الأرض لتحمـــل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما في التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواه بين رجال مختلفي الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحمت الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلا ريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة في تاريخ أوربا خلال العصور الوسطى .

الباب الثلاثون

الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

٧٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

القانون الأخلاقى المسيحى

كان لابد للإنسان فى مرحلة سكنى الغاب أو فى مرحلة الصيد أن يكون شرهاً – حريصاً فى بحثه عن الطعام ، نهما فى ابتلاعه – لأنه إذا جاءه الطعام مرة لايدرى متى يأتيه مرة أخرى . وكان لا بد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أماً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائم الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل فى وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء – بقاء الفرد وبقاء النوع – هى سبيل التنظيم الاجتماعى ، وسع نطاق عصبة الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعى لا بد فيها من كبح جماح الغرائز التى كانت عظيمة النفع فى مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطاع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ، فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنسى الطليق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيوياً للحضارة . فقد خلّق الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أو تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبة . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لابد له أن يكون مختوماً بخاتم قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولابد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذا مكانة فوق المكانة الآدمية تحترمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهار فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس فى قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلابد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولاتقبل قط نزاعاً ، بل هى أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلا . وإذ كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزى والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلا عن هذا، الأمل فى نعيم السماء تناله الفضيلة التى لا تلقى جزاءها فى هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التى يتردى فيها الآثمون الذين لايلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتى من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى فى اللاهوت المسيحى هى التى مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » فى الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم فى الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام فى هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشرى على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian فى كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذى اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمى وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرّضاً للعقوق والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه »[١] لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذى كفّر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذى يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذى ضربه المسيح الشهيد فى الوداعة ودماثة الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التى لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا ، بعثت هذه

الدعوة فى الكثيرين من الناس فى العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذى غلب على كثير من أدبهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الدينى ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدتين بين المتطهرين المتزمتين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا – الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها فى رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون – الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » – الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الاتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالى) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان – واجباته نحو نفسه ، ونحو بنى جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوادع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية فى العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم فى هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والدول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم فى زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثاني

الآداب قبل الزواج

ترى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولا إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحادثات التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جدياً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع — أو يخضع عنه من يعمدونه — إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » — ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول : ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ، أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء مسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman ومائيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وربرت لتانى Robert Litany ، وربرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن(٣) ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثرة الغالبة منهن لا تفعلنه[٤] . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون فى هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم فى سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم فى مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم فى اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً فى معارفهم وخبثهم . وفى ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano فى القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الخبث ، وكلما تقدموا فى السن زادوا سوءا على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »[٥] . ولكن الذين يكتبون فى الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم فى الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانونى فى السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجئ بعد النضج الجنسى أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة فى تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشاب فى العصور الوسطى كان فى أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهـــور فى أثناء الحروب الصليبية ، وفى أثر تيار الآراء الشرقية[*] ، وعزلة الرهبان والراهبات[٦] . وكانت المسيحية قد أفلحت فى مهاجمـــة هذا الداء فى العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا فى عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه العادة المعيبة فى الحروب ، وقد وجدت فى الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إلى الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما ناله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم(*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها »[٧] واتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم . وفى كتب التوبة الدينية التى تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين[٨] . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفى سجلات البرلمان الإنجليزى ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هى ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم فى تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفى خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انشارها فى أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثانى عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التى تقيمها الشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن فى آخر الأسبوع يكفّر عن مرحهن وبطنتهن . وكان الاغتصاب شائعاً [٩] رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريمات المولد نظير قبلة أو لمسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادمات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية[١٠] كان مما يأسف له فارس لاتور لاندرى La Tour Landry انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التى ينتمى إليها كانوا يفسقون فى الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا ببهجتهن الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة فى أثنـــاء الصلاة المقدسة فى يوم خميس الصعود

(*) بلدة لوط المذكورة فى الكتاب المقدس . (المترجم)

أثناء الصيام »[١١] . ويصف وليم المالمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون فى البطنة والدعارة » وأنهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض[١٢] خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص فنهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووليم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين فى تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ، كما يقول الأسقف بنيفاس ، ببيع أجسادهن فى المدن القائمة فى طريقهن[١٣] . وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لايقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء فى ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التى تتاح لهن مع الرجال »[١٤] . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه فى أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء » فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيأ لهم ما هيء لهؤلاء[١٥] . ويقول چرانڤيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس فى حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك »[١٦] . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة فى باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا فى محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة[١٧] .

وأباحت بعض المدن — أمثال طولوز (طلوشه) ، وأفنيون ، ومنبلييه ، ونورمبرج — هذه الدعارة قانوناً ، ووضعتها تحت إشراف البلدياب بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمنات على أنفسهن[١٨] . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق »[١٩] ، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس[٢٠] . وكان فى لندن فى القرن الثانى عشر صف من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر فى بادئ الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد[٢١] . وقد حرم القانون الذى أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » — وهذا أول ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع فى عام ١٢٥٤ نفى جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ، ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكا أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا القرار فى آخر الأمر حتى ألغى فى عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد الأماكن التى تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن فى باريس ، وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاقين roi de ribauds[٢٣] . ونصح لويس التاسع وهو يحتضر ولده أن يعيد المرسوم الذى قضى بنفى العاهرات ، ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هى النتيجة السابقة نفسها ؛ وبقى القانون مدوناً فى سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ[٢٤] . وكان فى رومة ، كما يقول الأسقف دوران الثانى المندى Bishop Durand II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور[٢٥] . وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتائبات من النساء ، ووزعت على الفقيرات الصدقات التى كانت تتلقاها من العاشقات التائبات[٢٦] .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب فى عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان فى وسع الطفل وهو فى السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم فى بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أوحمايتها . ولقد تزوجت جراس صليبى Grace de Saleby فى الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنيـــة ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهى فى السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهى فى الثالثـــة عشرة بشريف ثالث(٢٧) . وكان يستطاع حل هذا الرباط فى أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هى الثانية عشرة للبنت ، والرابعة عشرة للولد(٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ؛ ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق المِلْـــكية فى هذه المسأله كانت تطغى على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج إلا حادثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة فى مزرعته . وكان هذا الحق فى إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة فى ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثواب الثمينة ، والآنية والأثاث ، والأملاك فى بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو مواثيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزى **Wedding** مشتق من اللفظ الإنجليسكسونى **Weddian** ومعناه الوعد) وكان القرين **spouse** هو الشخص الذى أجاب **responded** « إنى أريد » .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحا إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى(٢٩) . وكانت الكنيسة تريد أن تحمى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغويهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يرحب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن **Bracton** (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لابد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحا . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقا مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجا على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وصية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبتاً طويلا من « موانع الزواج » ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعمد محرما ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود(٣٠) . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسكين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمحرومين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحا(٣١) . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة – أى أنه يجب ألا يكون لها جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدنين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ، ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا التزاوج الداخلى فى القرى الريفية ؛ فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس — بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة — يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعقبه الحفلات فى هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحا حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرما ، ويرى أكويناس أنه جريمة لاتزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد(٣٢) ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية ، كانت تستخدم لهذا المنع ، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع(٣٣) . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسى ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباعة المتنقلين . وكانت العقوبات التى وضعها ربانس مورس **Rabanus Maurus** للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »(٣٤) . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات فى القرن السادس وما بعده ملاجئ للقطاء فى عدة مدن ؛ ودعا مجلس عقد فى رون **Rouen** فى القرن الثامن النساء اللاتى ولدن أطفالا فى السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ؛ وكان أولئك الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون فى أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو فى الخلاء يصبحون عبيداً لمن يتقدمهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منپلييه حوالى عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التى تخصصت فى حماية اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسيا ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدع أنفها وصلم أذنيها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرا رغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها(٣٥) ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغوون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فمن « وطئ » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها — أدى للمحكمة ثلاثة شلنات(٣٦) ؛ ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصرا فاسقا » ، وكان يعجب من وفاء وليم الفاتح الظاهرى لزوجته(٣٧) وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول تومس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعا فاسد الأخلاق فاجراً »(٣٨) .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا ، أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى divortium ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هـــذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكيما مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يؤدى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان(٣٩) . وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة فى سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذى تقدم به إليه فليب أغسطس ملك فرنسا القوى :

الفصل الرابع

النســاء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة فى إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة فى تلك القرون لاتزال فى نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريسستوم — « شراً لا بدّ منه ، وإغواء طبيعيا ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزليا ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء »(٤٠) . وكانت لا تزال حواء مجسدة فى كل مكان ، حواء التى خسر بسببها الجنس البشرى جنات عدن ، وأداة الشيطان المحببة التى يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو فى العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فينزلها من بعض النواحى منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً (٤١)... والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها ، كما أن الله مبدأ كل شىء ومنتهاه(٤٢) ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك(٤٣) . . . ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم(٤٤) .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، فى صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسى على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة »(٤٥) . على أن فى هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة لا الحقائق الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تحتم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقى ذا مستوى واحد للرجال والنساء على السواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة فى وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة[٤٦] ، ولما أن أمرت « قوانين بوفيه وعاداتها فى القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »[٤٧] كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدنى ينص على ألا تُسمع للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن »[٤٨] ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها[٤٩] . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمَثِّلن ضياعهن فى برلمان إنجلترا أو فى الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فى ريعه[٥٠] . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طبيبة .

وكان فى حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان فى حياة الرجل ، فكانت تتعلم وتباشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع ، والزبد والجبن ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة التيلية من الكتان ، وتخيط الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التى تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحتفظ به نظيفا إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربى الأطفال . وكانت فى خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد فى أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى فى

البيت أو فى الحانوت ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ فى إنجلترا فنون غزل الحرير وثنيه ونسجه(٥١) . وكان عدد النساء فى معظم نقابات الحرف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب فى هذا إلى أن الصناع كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن فى النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان فى باريس فى آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات فى نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مثير فى الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التى تقام فى البلدة . وقد ارتفعت نساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن فى تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن فى ظرف وتمنع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبجيل والغرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة فى العصور الوسطى بفضل مفاتنها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحرر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتى حكمن رجالهن(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ؛ فكانت فى أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والفن ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان فى وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية فى القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتصطنع الإغماء كما تصطنعه البطلة فى روايات رتشردسن Richardson. وكانت فى الوقت نفسه تنافس الرجل فى حريته البذيئة فى القول والفعل ، وتتبادل

وإياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هى البادئة فى الغرام دون حياء(٥٤) . وأيا كانت الطبقة التى تنتمى إليها فقد كانت تتنقل بكامل حريتها ، وقلما كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال فى الحج ، وتشترك فى الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت فى بعض الأوقات جنديا فى عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الحوارو العود يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتتلون لنيل رضاها والشعراء يقرّون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلٰهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات فى العصور الوسطى — أمثال جلا بلاسيديا Galla Plaidedia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كمينا Anna Commena ، وماتلده كونتة تسكانيا ، وماتلده ملكة إنجلترا ، وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور وليم العاشر الأكتانى ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعيما لهم . وكان يفد إلى بلاطه فى بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة فى جنوبى فرنسا الغربى ؛ وقد تربّت إليانور فى هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان فى هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة فى الجسم ، ورشاقة فى الحركة ، وقوة فى العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية فى العقل والآداب والحديث ، وخيال شعرى ، وروح مشرقة ، وهيام لا حد له بالحب ، والحرب ، والملذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثغرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد ورع ، منهمك أشد الانهماك فى شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافى .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعتزمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ، ولبست هى ووصيفاتها ملابس الرجال والحلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن فى ازدراء إلى الفرسان القاعدين فى أوطانهم ، وركبن فى مقدمة الجيش يلوحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون[٥٥] . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها فى أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند البِنتيرى Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جميلا ، وقال النمامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقىّ الورع نفسه[٥٦] . وصبر لويس على هذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، ولكن القديس برنار شهر بها فى العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته فى عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل فى الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إليانور إلى بوردو ، واستعادت حقها فى ملك أكتين ، وفيها التفّت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى بلانتاجنت Henry Plantagenet ولىّ عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إليانور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) — « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى انجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت فى فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصّاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التى تمكنها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى ما يشينها .

ولكن الآية انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إليانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تحتمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غصنها فيه وإن لم يفلّ ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، وائتمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعينّها نائبه لملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها چون ملكا ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إليانور « زوجة فاسدة ، وأمًّا فاسدة ، وملكة فاسدة »[٥٧] ؛ ولكن منذا الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحِكَم الأخلاقية فى كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس فى العصور الوسطى الطيِّب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم فى هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل فى العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزوّر الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد فى يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ ويزوّر الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً فى السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزوّرون العهود ليكسبوا بها منحاً لأديرتهم من الملوك(٥٨) . ولقد زوّر لافرانك رئيس أساقفة كانتربرى ، كما تقول المحكمة البابوية ، عهداً يثبت به قِدم كرسيه الدينى(٥٩) ؛ وزوّر المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات فى كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب التقية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة فى التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون(٦٠) ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لممتحنيهم(٦١) ، ورجال الحكم يقدمون الرشا ليعيَّنوا فى المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال(٦٢) . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكى يقسموا أى قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة(٦٣) ؛ وقد اضطر إدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاته ووزرائه فى عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون (٦٤)

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الأيمان فى كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو المخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم فى بعض الأحيان أن يقسموا بألا ينقضوا القَسَم الذى يوشكون أن يقسموه [٦٥] ؛ ومع هذا فإن الحنث بالأيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر [٦٦] .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف فى العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يحتالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الخبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملاكهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً فى وعاء العجين ؛ وكانت أقمشة رخيصة توضع سراً فى مكان أقمشة غالية دفع ثمنها وتعهد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزيَّن » لكى يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود [٦٧] ، وكانت الحجارة تخبأ فى أكياس الدريس والصوف التى تباع بالوزن [٦٨] ؛ واتهم الذين يعبثون اللحوم فى نوروتش Norwich بأنهم « يشترون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزما وفطائر مضرة بالصحة » [٦٩] . ويصف برتلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg (حوالى ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التى تستخدم فى الحرف المتباينة ، والحيل التى يحتال بها التجار فى الأسواق على أهل الريف [٧٠] . وكان الكتّاب والوعّاظ يندِّدون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حِكمة ألمانية من حِكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين فى تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية [٧١] . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة فى نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعناها من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس فى عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم فى عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا فى الاحتفاظ بالنظام العام ضد ما ركب من نزعة فردية فى طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبى السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها — من النشل فى الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الربن — كانت من الجرائم الواسعـــة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد فى ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاغتصاب ، والاغتيال[٧٢] . وتدل سجلات أسباب الوفاة فى « إنجلترا الطروب » فى القرن الثالث عشر على « نسبة فى الاغتيال إذا حدثت فى هذه الأيام عُدّت من الفضائح »[٧٣] . ويكاد الاغتيال يبلغ ضعفى عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهى صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما نالته من نصر متواضع فى هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التى كانت من إحدى النواحى حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون فى الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين المنتمين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منهما فى أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونساؤهم يصفعون خدمهم ويصفع

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائى قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعذراء ، وبجفنة الزيت الملتهب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم فى العقاب . وكان القانون الأنجليسكسونى يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية[٧٥] . ويقول سلمبينى Salimbene الراهب الإيطالى فى تاريخه الإخبارى ، وكان معاصراً للحروب التى شبت نارها فى إيطاليا الوسطى فى القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانـــوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها فى شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخاة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض ، ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم ، ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب . . . أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب) ويبقونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عاريا من اللحم ، وهو عمل تكفى رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس[٧٦] .

وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوربا الغربية فى هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولائم شراب ، وميسر ،

ورقص ، وانطلاق فى العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة فى بذاءتها صراحة لا تكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام[٧٧] ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا[٧٨] ؛ وقلما كان رجل فى فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول جوانفيل[٧٩] . وكان الناس فى العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يبرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التى وردت فى مقالات ربليه Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الراهبات فى كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأقذار الواردة فى قصة ملر Miller's Tale ؛ وفى أخبار سلمبينى الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة[٨٠] . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجعة على طراز هذه الأيام[٨١] . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات فى أيام الآحاد ، ولكنها لم تلق إلا قدراً ضئيلا من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر فى بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف فى حجرة الخمور يدمنّ الشرب من تحت أقنعتهن[٨٣] . وكان فى كولونى جمعية يلتقى أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال فى السلوك والأدب فى الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيجا بشريا كاملا من الشهوانية والغرام ،والذلة ،والأنانية ، والقسوة ، والرقة ،والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة ،رحماء رحمة تمس شغاف القلوب ، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هى الآن حيوانات مدللة ، وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين[٨٥] ، وقد نمت فى قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيلهم ،وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً جديداً فى القرنين الثانى

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفيـــة ، والحكومات ، والكنيسة تشترك كلها فى تخفيف آلام المنكوبين . وكان إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ؛ فالذين يرجون دخول الجنة يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء فى كل يوم ، والمئات منهم فى الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت الأشراف ثلاث مرات فى الأسبوع على كل من يطلبه[٨٦] . وكانت كل سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهن ، تحس أن واجبها الاجتماعى ، إن لم يكن واجبها الأخلاقى ، أن تشترك فى تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر بيكن فى القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيداً للإنفاق منه على الفقراء ، والمرضى ، والطاعنين فى السن[٨٧] ، ولكن القسط الأكبر من هذا العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ؛ فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها مُنَظَّمة للصدقات تشمل القارة بأسرها ؛ وكان جريجورى الأكبر ، وشارلمان ، وغيرهم يحتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبيها كل أبرشية لمعونة الفقراء والعجزة[٨٨] ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أخل بإدارتها لمواردها فى القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ، وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع فى هذه النواحى لتعد من أنصع الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم فى تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام . وكانت الأديرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأيتام ، ويعملون فى المستشفيات ؛ وكان دير كلونى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطورى القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين.

ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابَها العُرج ، والمقعـــدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين يتنقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيمات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الاتساع والإصرار حداً لا نظير له فى أفقر الأراضى فى الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوربا فى العصور الوسطى ؟ ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من « العنصر الأبيض » إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطا متنوعاً من الخَلْق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛ والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان — المغاربة — اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ، والتسكان ، واللمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها بثيابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛ وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسپانيا ، وكان منهم الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم أهل الأراضى الوطيئة الفلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛ ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز ، والسكسون ، والدنمرقيون والسلالات النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والنرويجيون ، والسويديون ، والدنمرقيون ؛ ومنهم مئات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ، والمجر والبلغار ؛ وصقالبة پولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ، والروسيا . وقصارى القول أن أوربا قد تجمع فيها خليط من الدماء والأجناس . والأنوف ، واللحى ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألمانى قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد أوربا الغربية ما عدا جنوبى إيطاليا وأسپانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التي لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشَعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغاً اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكي يوفّق بين هذا الإعجاب وبين العبارة الوارة فى نشيد الإنشاد القائلة : إنى أسود ولكن جميل ؛ وكان الفارس المثالى طويلا ، أشقر ، ملتحياً ؛ كما كانت المرأة المثالية فى الملاحم والروايات نحيلة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ، ذات شَعر طويل أشقر أو ذهبي . وقد حل محل شَعر الفرنجة الطويل عند الطبقات العليا فى القرن التاسع رءوس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس عليها من الشعر إلا غطاء فى أعلاها ؛ واختفت اللحى بين الطبقات العليا من الأوربيين فى القرن الثانى عشر ؛ غير أن الذكور من الزرّاع ظلوا يطيلون لحاهم القذرة وشعر رأسهم إلى حد اضطروا معه أحياناً إلى جمعه فى جدائل[٩٠] . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رأسهم ، وكان المتأنقون الفناجرة فى القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوُونه بمكاوٍ من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة[٩١] . وكانت النساء المتزوجات فى هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ، بينا كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم فى بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان فوق أكتافهم[٩٢] .

وكان أهل أوربا الغربية فى العصور الوسطى أكثر وأجمل ثياباً مما كانوا قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء فى زينة الثياب وبهجة ألوانها . وكانت الجبة والعَباءة الرومانيتان الفضفاضتان فى القرن الخامس عشر تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التى كان الغاليون يلبسونها ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق وأسمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة فى الثياب . فكان الرجل العادى يلبس سروالا طويلا ضيقا يعلوه قباء ، أو قميص نصفى ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعلق فى منطقته سكينا ، وكيسا ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصناع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفاعة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ، ويغطى رجليه بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذى استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين فى العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذى كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط فى البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون فى إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزرار التى كانت تستعمل من حين إلى حين فى العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها فى شىء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية[٩٣] . ونشأت فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذى حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التى تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعنق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتعلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من الروسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أرضهم ليبتاعوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورباً طويلا ملوناً فى أغلب الأحيان ، ومصنوعا عادة من الصوف ، وفى بعض الأحيان من الحرير ؛ وقيصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر وردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مئزراً ، ومن فوقها كلها فى الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمد حتى تغطى الرأس . وكانت بعض القلانس ذات قمة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلانس المعروفة باسم « ألواح الملاط mortiers » المحامون والأطباء فى أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن فى أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأنقون فى الثياب يلبسون قفازين فى كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلابيبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس فيتالس Ardericus Vitalis شاكيامتحسرا(٩٤) .

ولم يكن الرجال يزينون بالحلى أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضا ثيابهم – قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بذيئة(٩٥) ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثيابا من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مئزرا مزركشا بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندية يلبس مئزرا فخما مطعما بالحجارة الكريمة ومثقلا بها يقدر ثمنه بمائتى ألف دوقة (نحو ٠٠٠ر٠٨٢ر١ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمزه الخاص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيعه هو نفسه .

وكانت الملابس تعد دليلا على منزلة الإنسان أو ثرائه ، وكانت كل طبقة تحتج إذا قلدت أثوابها الطبقة التى دونها ، وقد سنت القوانين المالية – كما حدث

فى فرنسا فى سنتى ١١٤٩ و ١٣٠٦ - لتنظم ما ينفقه الناس على ملابسهم حسب ثرواتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس فى المناسبات والأعمال الرسمية أثوابا يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذى يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية livrée (وبالإنجليزية livery) (ومعناها الموزَّعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (deliver) مرتين فى العام . على أن الأثواب الجيدة فى العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من تؤول إليه فى وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قميصاً طويلا من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من الفراء يصل إلى القدمين ويعلوه قميص نصفى يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن فى الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوّار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن نحيلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشاموا . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار فى شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين[٩٦] . وأصبحت الكعاب العالية فى أواخر العصور الوسطى هى الطراز المحبب ، وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهن الظريفة ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت رؤيتها غالية الثمن . وقد ندد دانتى بنساء فلورنس لظهورهن علناً فى ثياب « تكشف عن صدورهن وأثدائهن »[٩٧] . وكانت ثياب النساء فى حفلات

البرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذى قبل »[٩٨] ؛ وكان جويو البروفنسى Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستخدمن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شيء تلون به الصور والتماثيل فى الكنائس ، وأنذرهن بقوله إنهن حين يلبسن الشعر المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق الفول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يُضفن بذلك مئات السنين لمقامهن فى الأعراف[٩٩] . وقد عنّف برثلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ماكان أضيعها :

أيتها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع فى الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شَرَك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها فى زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثنى وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنتن لا تكتفين بإظهار فخركن فى عُرَى أزراركن نفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنتن تشغلن أنفسكن ببراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها فى مواضع مختلفة بخيوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة فى صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثنى الرجال على ثيابها فيقولون : « ربّاه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه فى الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا نفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، يا سيدتى ، صدقينى ؛ لو أن رَجُلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية . . . إن فى وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ؛ بالقول الحسن أوّلا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة . . . وانتزعوه من فوق رءوسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه فى النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ؛ وسترون أنهن سرعان ما يرجعن عن غيهن[١٠٠] » .

وكانت النساء فى بعض الأحيان يتأثرن بهـذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتى عام أن ألقين ببراقعهن وحليهن فى النار[١٠١] ؛ ولكن أمثال هذه التوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل .

الفصل السابع

فى المـــنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ، وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لتمنع البرد ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات الهوائية تدخله من مئات الثقوب التى فى الجدران ، وتجعل المقاعد ذات الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا فى الشتاء قبعات وفراء مدفئة فى داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد الصنع ، والكراسى أيضاً قليلة ، وكانت فى العادة غير ذات ظهور ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان محفورة حفراً جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر فى أبنية الجدران أو تبنى فوق صناديق فى مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسبانيا كانتا تستعملانها ؛ ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا فى عام ١٢٥٤ للزواج من إدورد الأول غطى خدمُها أرض جناحها فى وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسبانيا — ومن ثم انتشرت هذه العادة فى إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة الرائحة إلى حد يأبى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة تغطى بعض الجدران ، لتزينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وپروڤانس تحتفظ بذكريات الترف الرومانى ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوربا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى فى ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ[١٠٢] . .

ولم تكن النظافة فى العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمامات وقالت إنها بؤر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المنديل على الطريقة الحديثة معروفاً فى ذلك الوقت[١٠٣] ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعى ، ورجل الطبقة الوسطى المثرى ، يستحمان مرات معقولة فى أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء فى القرن الثانى عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا فى القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتاب إن أهل باريس كانوا يستحمون فى عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون فى القرن العشرين[١٠٤] ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوربا[١٠٥] ؛ وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها فى كثير من تلك الحمامات ؛ وكان فى بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأديرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها فى بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم فى مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجى الواحد فى كثير من الحالات يفى بحاجة اثنى عشر منزلا[١٠٦] . وكانت الأنابيب التى تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التى أدخلت إلى إنجلترا فى عهد إدورد الأول (١٢٧١ — ١٣٠٧) وكانت أوعية حجرات النوم فى بيوت باريس فى القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ فى شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau — وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها فى المسالى إلى أيام موليير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها فى سان جمنيانو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شيء منها[١٠٧] ، فكان الناس يقضون حاجتهم فى فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفى الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث فى قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت فى باريس أن ينشئوا مرحاضاً فى كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف[١٠٨] .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان فى اليوم ، إحداهما فى الساعة العاشرة صباحا ، والأخرى فى الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات ، وكان موعد الوجبة فى البيوت الكبيرة يعلن بالنفخ فى بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحيانا خوانا عظيما متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفراً يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت فى بعض البيوت الفرنسية آلات عجيبة ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تزيلها من فورها حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام[١٠٨] ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويجففهما فى قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم فى القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يجففون أيديهم فى غطاء المائدة[١١٠] . وكان الطاعمون يجلسون أزواجا ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد[١١١] . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة فى القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ، والصحاف تصنع عادة من الخشب[١١٢] ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخزف أو من مزيج القصدير والرصاص ، ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة ، بل إنها كانت تتخللها آنية من الذهب فى بعض الأحيان[١١٣] . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة فى صورة سفينة . تحتوى أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز ، مستوية ، ومستديرة ، وسميكة . يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذهما بأصابعه من الصحفة العامة التى يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى الكلاب والقطط التى يغص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران . وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنبيذ .

وكان الطعام موفوراً ، أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام وسائل التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التى يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه ؛ وكانت بعض هذه التوابل تستورد من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها فى حدائق البيوت — ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ، واليانسون ، والثوم ، والشبت . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛ وكان الطاهى فى المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كتفيه كرامة البيت وسمعته . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلى ، والقدور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التى تسر العين وتلذ الفم . وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا[١١٤] ، وإن كان ثمنها مع ذلك يضطر الفقراء إلى الاقتصار على الخضر وهم كارهون[١١٥] . وكان الفلاحون يطعمون الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملا ، يخبز فى البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض - يصنعه الخبازون - يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف. ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاى ؛ ولكن اللحوم والخضر التى تؤكل الآن فى أوربا - ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية - كانت كلها تقريبا مما يطعمه رجل العصور الوسطى[١١٦] . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوربيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع النقل الأسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادراً فى القرن الثالث عشر فى شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشاراً هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التى تلقى فى الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجذام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والفصيد[*] من الأطعمة المحببة فى العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العظماء يضع على المائدة فى بعض الأحيان خنزيراً كاملا ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشهية التى لا تقل فى ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركى . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنكة من الأطعمة التى يعمد إليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه فى هذه الأيام ، ولكن جُبن برى Brie اشتهر منذ ذلك الوقت البعيد[١١٧] . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ، وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل عسل النحل فى التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هى الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكلها الخبازون هى والكعك بألطف ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلا كان أو امرأة[١١٨] . وقد يبدو من الأمور الغريبة التى

(*) دم يوضع فى معى ويشوى . (المترجم)

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخنون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجد فى الجعة والنبيذ بديلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفى هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمور خمر التفاح والكمثرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكْر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والجعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجالون من الجعة لكل شخص فى اليوم(١١٩) . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن الجعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوربا اللاتينية ، يفضلون عليها النبيذ ؛ وكانت فرنسا تحصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمديحه فى مئات الأغانى الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية . وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزلاء دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جىء بهم إلى الدير وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة ، ووضعت هناك خابية كبيرة ، وملئت بالنبيذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطاهى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملا الثالث إلى العربة(١٢٠) .

وكان رب البيت عادة يسلي المدعوين بعد الوليمة بضروب من الشعوذة ، والشقلبة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون فى وسعهم أن يوجهوا وقاحتهم المرحة وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو تأنيباً . وإذا أراد المدعوون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان فى وسعهم أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ، أو يتغازلوا ، أو يلعبوا النرد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛ وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت القوانين الفرنسية الصادرة فى عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع النرد أو لعبه ، ولكن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت سينا Siena تهيئ له أمكنة فى الميدان العام[١٢١] ؛ وقد حرم بأمر من مجلس عقد فى باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛ ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحت هذه اللعبة من ضروب التسلية التى ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاتاً طوالا ، وهى التى اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التى كان إيراد الدولة يعد عليها[١٢٢] . وقد ذهل أهل فلورنس فى أيام دانتى من لاعب مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة فى وقت واحد مع أمهر لاعبى المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينيه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع اللوحتين الأخريين فى عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث[١٢٣] . وكانت لعبة الداما معروفة فى فرنسا وإنجلترا ، وتسمى فى الأولى dames وفى الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيح الرقص فى حفلات العرس ، أو فى الاحتفال بقدوم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومى ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان فى حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة[١٢٤] ؛ وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح ، ولكن رجال الأخلاق فى العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعدونه من اختراع الشيطان[١٢٥] ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفساد[١٢٦] ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجرىء كل ما فى وسعه لتبرير مخاوفها[١٢٧] . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيراً من ضروبه الشعبية ؛ يمارسونها فى مواسم السنة الزراعية ، أو فى الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات فى الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامة من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحياناً يسرفون فى الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث فى عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم فى الطريق ، وظل بعض من نجا منهم يعانون مرض الرُّقاص St Yttus'Dance(*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم[١٢٨] .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفى الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات

(*) اضطراب عصبى مصحوب بتشنجات متقطعة . (المترجم)

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غاليا فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلما كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحياناً أن يجد الإنسان فراش نوم إضافى فى بهو المسكن أو فى حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائد معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العظماء تغطى بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسى . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً صغاراً أو كبارا فى حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات فى إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة[١٢٩] .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التى تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام يخففها بعض ما فى التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسالمة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الظريفة أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى فى الظروف المختلفة — فى البيت ، وفى أثناء الرقص ، وفى الشوارع ، وفى ألعاب البرجاس ، وفى بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحيين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤلف ما يعرف باسم آداب البلاط Courtoisie . وقد نشرت فى القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة(١٣٠) .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضافون أثناء سفرهم فى أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضفن فى أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضايف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لخيولهم(١٣١) . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون فى « نُزُل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفى استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون أخطار السفر - لما يجدونه فى الطريق من أسباب الراحة السالفة الذكر - ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ، والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون أنهم سيكونون أسعد حالا إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة فى الأسفار كما هى فى التسلية والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ، وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ، أو مالك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة فى موكب فخم واصطف الناس على جانبى الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم يرجاس أو عقدت محاكمة بالاقتتال وسمح للجمهور بحضورها . وكانت المشاهد المنظمة جزءا أساسياً من الحياة فى العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التى تقيمها نقابات الحرف ، تملأ الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار السمان ، والفرسان المتبخترين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة فى القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة فوق هاويات سحيقة خطرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبون ، وحيث يقتتل حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعمد إليها الأشراف ولا تقل شأناً عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة فى العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوربا لا تزال مسكناً لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان فى حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلا قد هاجمتها الذئاب عدة مرار فى العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدمى المزعزعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العملين شأناً أنه كان يُعد نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان فى الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجاناً . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحياناً بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن فى رشاقة على الجياد المتبخترة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال فى حلل زاهية وعدَّة حربية متباينة — القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحربة ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاودها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصـيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً[١٣٢] . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص فى أكثر ضروب الصيد أرستقراطية — وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان فى جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمناً هى البزاة . وكان البازى يعلَّم الجلوس على معصم السيد أو السيدة فى أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها وهنَّ

يستمعن إلى الصلاة فى الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثانى كتاباً ممتازاً فى الصيد بالبزاة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذى جاء إلى أوربا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازى وتشوّفه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البزاة تدرّب على الطيران العالى ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجليها فى شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازى الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ؛ وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولداً له بأن أرسل اثنى عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البزاة الأكبر فى فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتبا فى المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبى تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم فى شمالى أوربا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعـــة الانتشار وبخاصة فى إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمى بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هى التى كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت فى العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمى القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس فى فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامى ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسى أى « العب » — وهو اللفظ الذى كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه[١٣٣] . وقد انتشرت هذه اللعبة فى فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة فى دور التمثيل أو الهواء الطلق[١٣٤] . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثانى الميلادى ، ويصف مؤرخ بيزنطى من رجال القرن الثانى عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة فى الجحفة (البولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية[١٣٥] . ويقول أحد مؤرخى العصور الوسطى الإخباريين(*) وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغيضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها فى الهواء ، بل يضربها بالقدم »[١٣٦] . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا[١٣٧] وإنجلترا حيث انتشرت فى القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثانى لأنها تؤدى إلى تعكير السلم (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلا إلى التآلف والاشتراك فى الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر فى أديرة الرجال والنساء ، وفى الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مرحة فى أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ؛ فنى تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر ما يستطيعون[١٣٨] وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور فى أيام عيد الميلاد تعين « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجماهير ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحى المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسيرون فى الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغانى عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنائس تزدان بشرابة الراعى والليلاب « وبكل ما هو أخضر فى هذا الفصل من السنة[١٣٩] » . وكانت هناك

(*) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون فى تواريخهم بإيراد الحوادث وتواريخها Chronicler مع وصف لما يشاهدونه فى بعض الأحيان أمثال الجبرتى . (المترجم)

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، ولنقابات الحرف ، وقلما كان يوجد فى تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحة أسواق تنساب فيها الأموال وتجرى فيها الجعة جرياناً سريعاً ولكنه ليس بالمجان ؛ وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هى نفسها اتخذتها أعياداً لها فى القرن الخامس عشر[١٤٠] .

وقد كيفت بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية فى قالب هزلى ، دعابة تختلف من الفكاهة الساذجة إلى الهجاء الشائن المقذع ، وكانت مدينتا بوڤيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرهما من البلدان الفرنسية تحتفل فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد الحمار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حماراً ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحنى ويثنى ركبته اليمنى احتراما وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمديحه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريما لهذا الحيوان الذى أنجى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم[١٤١] . وكانت أكثر من عشر مدائن فى فرنسا تحتفل فى كل عام – ويكون ذلك عادة فى يوم عيد الختان – بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح فى هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثأر لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون فى ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بذيئة ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون النرد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة فى المبخرة ، ويلقون مواعظ مرحة[١٤٢] . وكانت

كثير من البلدان فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان **episcopus puerorum** ، ليرأس زملاءه فى تقليد فكه للحفلات الكهنوتية(١٤٣) . وكان رجال الدين المحليون يبسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلا تغض النظرَ عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف فى التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر فى القرن السادس عشر(*) .

وكانت الكنيسة بوجه عام متسامحة لينة الجانب إزاء فكاهات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التى تعد فى الأوقات العادية ضرورية للمجتمع المتمدين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمتين أمثال القديس يوحنا كريسستوم **St. John Chrysostom** وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجعة لم تنقطع ، والنبيذ ظل يجرى ساخنا فى الأفواه » ، وكان القديس برنار يرتاب فى المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا فى القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون فى هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهة حلوة أو رأوا ساقا جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، والعاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلمان لا يزال ينتخب فى كل عام فى أدلستون **Addlestone** من أعمال سرى **Surrey** بإنجلترا .

وإنى لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت فى كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد فى كل مكان يطرقه الإنسان ، وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محب محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقا أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة(١٤٥) .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوربا فى العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إلى الصورة التى تنطبع فى أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللاديني الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ؛ ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرفا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية للدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوانيتهم زيادة فى الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم فى الحديث ، وعدم حيائهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا فى الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم اللذين لا حد لها[١٤٦] » ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بوناڤنتورا ، وفنسنت البوڤيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هى الفظاظة التى لاأمل فى إصلاحها ، وقال الأسقف جروستستى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك فى جملتهم أحلاف الشيطان »[١٤٧] . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ — ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكما متطرفا كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله فى الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له فى أى عصر سابق ... فيه الفساد الذى لا حد له ... والعهر ... والنهم ... ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحى المسيح . . . اللذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يجلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فى هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت[١٤٩] .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هى مغالاة ضرورية يعمد إليها المصلحون ، وأن فى وسع الإنسان أن يجد أمثالها فى كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم فى رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون فى أيامنا هذه أو فى ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هى التى خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هى التى أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التى أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت .
ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهى غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التى يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصة ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء »[١٤٩] ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحماسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثام عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدنيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التي نشاهدها فى هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سيل الهمجية القوى الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلـهى فى المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال فى المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم فى أراضيها ، وغرست فى النفوس احتراما جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التى كان يفرضها القانون الرومانى وقانون القبائل المتبربرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم المحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشره والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقيا واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشىء من التضحية التى لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدوَلية التى تتمناها وتكافح من أجلها فى هذه الأيام — نعنى بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها فى معارك السلام وانتصاراته .

الباب الحادى والثلاثون

بعث الفنون

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

يقظة حاسة الجمال

ترى لأى سبب بلغت أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر درجة عليا فى الفنون تضارع ما بلغته أثينة فى عصر بركليز وروما فى عهد أغسطس ؟

الحق أن لهذه النهضة الفنية أسباباً كثيرة . لقد صدت أوربا غارات أهل الشمال وغارات العرب ؛ ولقد بعثت الحروب الصليبية فى نفوس أهلها نشاطا مبدعاً قوياً ، وجاءت إلى أوربا بألف فكرة وفن من الشرق البيزنطى والإسلامى . ونشأت من إعادة فتح البحر المتوسط وفتح المحيط الأطلنطى لتجارة الأمم المسيحية ، ومن الأمن والتنظيم اللذين استمتعت بهما التجارة المنقولة فى أنهار فرنسا وألمانيا ، والبحار الشمالية ، واتساع نطاق الصناعة والشئون المالية ، نقول نشأت من هذا كله ثروة لم تعرفها أوربا منذ أيام قسطنطين ، وقامت فيها طبقات جديدة فى مقدور كل منها أن تساعد الفن بالمال ، ومدن غنية ذات حكم ذاتى تعمل كل منها جاهدة لكى تشيد كنيسة كبرى أجمل من آخر كنيسة فيها . وكانت خزائن رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، والبابوات تفيض بالمال الذى يأتيها من العشور وعطايا التجار ، وهبات النبلاء والملوك . وكانت حركة تحطيم الصور

قد قضى عليها ، ولم يعد الفن يومم كما كان يومم من قبل بأنه عودة إلى عبادة الأصنام ؛ ووجدت فيه الكنيسة ، التى كانت من قبل تخشاه ، وسيلة نافعة تغرس بها عقائدها ومثلها العليا فى نفوس غير الجهلاء ، وتبث فيها ذلك الورع الذى جعلها ترفع الأبراج إلى السماء كأنها أدعية وأوراد صاعدة إلى عرش الله . يضاف إلى هذا أن دين مريم الجديد ، المنبعث من قلوب الناس من تلقاء نفسه ، قد أفرغ ما ينطوى عليه من حب وثقة فى معابد فخمة يستطيع آلاف من أبنائها أن يجتمعوا فيها دفعة واحدة يقدمون لها فروض الولاء ويطلبون إليها العون . لقد اجتمعت هذه المؤثرات وأخرى كثيرة لتغمر نصف قارة من الأرض بسيل جارف من الفن لم يسبق له مثيل .

وكانت الفنون قد بقيت فى أماكن متفرقة لم تقض عليها أعمال البرابرة المخربة ، ولم يمح معالمها ما طرأ على البلديات من ضعف وانحلال ، فالمهارات القديمة التى اشتهر بها أهل الإمبراطورية الشرقية لم تضع قط ؛ وكانت بلاد الشرق اليونانية وإيطاليا البيزنطية هى البلاد التى دخلت منها كثرة الفنانين والموضوعات الفنية فى حياة الغرب الذى بعث من جديد . ولقد أدخل شارلمان فى خدمته فنانين يونان فروا من وجه محطمى الصور البيزنطيين ، وهذا هو الذى جعل فن آخن يقرن الرقة والنزعة الصوفية البيزنطية بالصلابة والنزعة الدنيوية الألمانية . وبدأ رهبان دير كلونى الفنانون فى القرن العاشر عهداً جديداً فى فن العمارة الغربية وزينتها ، وكان أول ما فعلوه أن نقلوا النماذج البيزنطية . وكان معلمو مدرسة فن الأديرة التى أقامها فى منتى كسينو Mante Cassino الرئيس دزدريوس Abbot Desederius (١٠٧٢) من اليوناس يسيرون على الأساليب البيزنطية ؛ ولما أراد هونويوس الثالث (١٢١٨) أن يزين جدران سان بولو بالنقوش الجدارية بعث بطلب صناع نقوش الفسيفساء من البندقية ، وكان الذين جاءوا متشبعين بالتقاليد البيزنطية . وكان من المستطاع وجود جاليات من الفنانين البيزنطيين فى كثير من

المدن الغربية ؛ وكان طرازهم فى التصوير هو الذى شكل طراز دوتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue وطراز چيتو Giotto نفسه فى بداية عهده . وجاءت الموضوعات البيزنطية أو الشرقية — كالنقوش المركبة من خوص النخل أو ما يشبهه ، وأوراق الأقنتا(*) ، والحيوانات التى فى داخل الرصائع — جاءت هذه الموضوعات إلى بلاد الغرب على المنسوجات ، وعلى العاج ، وعلى المخطوطات المزخرفة ، وعاشت مئات السنين فى طراز النقوش الرومانى . وعادت أشكال العمارة السورية ، والأناضولية ، والفارسية — العقد ، والقبة ، والواجهة المحوطة بالأبراج ، والعمود المركب الجامع لعدة طرز مختلفة ، والشبابيك المجتمعة مثنى أو ثلاثاً تحت قوس يربطها — عادت هذه الأشكال إلى الظهور فى عمارة الغرب . ألا إن التاريخ لا يعرف الطفرات ولا شىء قط يضيع .

وكما أن تطور الحياة يتطلب الاختلاف كما يتطلب الوراثة ، وكما أن تطور المجتمع يحتاج إلى التجديد التجريبى وإلى العادة التى تعمل على الاستقرار ، كذلك لم يكن تطور الفن فى أوربا الغربية يتضمن استمرار التقاليد القديمة فى المهارات والأشكال ، والحافز الناشئ من المُثُل البيزنطية الإسلامية ، بل كان يتضمن بالإضافة إلى هذا عودة الفنان المرة بعد المرة من المدرسة الفنية التى ينتمى إليها إلى الطبيعة ، ومن الأفكار إلى الأشياء ، ومن الماضى إلى الحاضر ، ومن تقليد النماذج إلى التعبير عن الذات . لقد كان من خصائص الفن البيزنطى القتام المقبض والسكون ، ومن خصائص النقش الغربى الرشاقة الهشة النسائية ، وليس فى مقدور هذه الصفات أن تمثل ما فى الغرب وقتئذ من رجولة حيوية ، وما عاد إليه من نزعة همجية ، ونشاط قوى . وكانت الأمم الخارجة من العصور المظلمة إلى ضياء القرن الثالث عشر تفضل رشاقة نساء چيتو النبيلة عن صور ثيودور الجامدة

(*) ويسمى أيضاً شوكة الجمل أو شوك اليهود أو الكنكر وهو نبات شوكى اتخذت رسوم أوراقه فى الزينة المعمارية . (المترجم)

المنقوشة فى الفسيفساء البيزنطية ؛ وتسخر من خوف السامين من الصور والتماثيل ؛ ولهذا حولت الزخارف المحضة إلى صور الملاك الباسم التى تشاهد فى كنيسة ريمس الكبرى ، وإلى صورة العذراء الذهبية فى أمين Amiens ؛ وهكذا غلبت بهجة الحياة خوف الموت فى الفن القوطى .

وكان الرهبان هم الذين حافظوا على الأساليب الفنيـة فى الفن الرومانى ، واليونانى ، والشرقى ، ونشروها ، كما حافظوا على الآداب اليونانية والرومانية القديمة . ذلك أن الأديرة لحرصها على أن تستقل بذاتها دربت النازلين فيها على فنون الزخرفة كما دربتهم على الحرف العملية . فقد كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحا ، وأثاثاً للمحراب ، وكأساً للقربان ، وصندوقا وعلبا لحفظ المخلفات ، وأضرحة ، وكتباً للصلاة ، وماثلات ؛ وقد تتطلب نقوشا من الفسيفساء ، وصوراً على الجدران ، وتماثيل وصوراً تبعث التقى فى القلوب ، وكان الرهبان يصنعون معظم هذا بأيديهم ؛ بل إنهم هم الذين يخططون الدير ويبنونه ، كما فعل البندكتيون بدير مونتى كسينو الذى لايزال قائما إلى اليوم شاهداً على ما بذلوه فى بنائه من جهود . وكانت فى معظم الأديرة مصانع واسعة ؛ مثال ذلك أن برنارد تيرون Bernard de Tiron أنشأ بيتاً دينيا جمع فيه على ما يقولون « صناعا فى الخشب والحديد ، ونحاتين ، وصائغين ، ونقاشين ، وبنائين ... وغيرهم من العمال الحاذقين جميع الأعمال الدقيقة »[١] . ولقد كانت المخطوطات المزخرفة التى كتبت فى العصور كلها تقريباً من عمل الرهبان ، وكانت أرق المنسوجات من صنع أيدى الرهبان ، والراهبات ، وكان المهندسون المعماريون الذين شادوا الكنائس على الطراز الرومانى فى عهدها الأول رهبانا[٢] ، وأمد دير كلونى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر بالمهندسين المعماريين وبكثير من المصورين والمثالين[٣] ؛ وكان دير القديس دنيس فى القرن الثالث عشر مركزاً جم النشاط لمختلف الفنون ؛ بل إن أديرة السسترسيين نفسها ، وهى التى أوصدت أبوابها دون أعمال الزخرفة فى

أيام برنار اليقظ ، سرعان ما استسلمت لمغريات الأشكال وبهجة الألوان ، وشرعت تبنى أديرة لا تقل فى زينتها عن دير كلونى أو دير القديس دنيس . وإذ كانت الكنائس الإنجليزية الكبرى فى العادة كنائس أديرة ، فإن رجال الدين النظاميين أو الرهبان ظلوا إلى آخر القرن الثالث عشر أصحاب السيطرة على عمارة الكنائس فى إنجلترا .

لكن الدير ، مهما بلغ من صلاحيته لأن يكون مدرسة وملجأ للروح ، مقضى عليه بسبب عزلته أن يكون مستودعا للتقاليد لا مسرحا للتجارب الحية ، فهو أصلح للحفظ منه للابتكار ؛ ولم تجد حياة العصور الوسطى التعبير الخصب الغزير فى أشكال لم تمل التكرار ، وصلت بالفن القوطى إلى درجة الكمال ، لم تجد تلك الحياة هذا التعبير إلا بعد أن أمدت المطالب الواسعة لذوى الثراء من غير رجال الدين الفنون الدنيوية بحاجتها من الغذاء . ثم تجمع العلمانيون المتخصصون المحررون فى إيطاليا أولا ، ثم تجمعت كثرتهم فى فرنسا وقلتهم فى إنجلترا ، فى نقابات الحرف ، وانتزعوا الفنون من أيدى معلمى الأديرة وصناعها ، وشادوا هم الكنائس الكبرى .

الفصل الثانى

زينـــة الحياة

ومع هذا فإن راهباً هو الذى كتب أكمل وأوضح موجز فى فنون العصور الوسطى وحرفها ، ذلك هو ثيوفيلس Theophilus — حبيب الله — الراهب فى دير هلمرزشوزن Helmershausen القريب من پادربورن Paderborn والذى كتب حوالى عام ١١٩٠ موجزاً فى مختلف الفنون يقول فيه :

ثيوفلس ، القس الوضيع . . . يوجه كلماته إلى كل من يرغب فى أن ينفض عنه كل غبار الكسل وشرود الروح . . . بالعمل اليدوى النافع ، وبالتفكير السار فيما هو جديد . . . (هنا يجد الناس) كل ما عند بلاد اليونان من ألوان ومركبات مختلفة ، وكل ما عرفته تسكانيا من فنون الميناء . . . وكل ما تستطيع بلاد العرب أن تعرضه من الأعمال التى تتطلب الليونة ، والصهر ، والنقش ، والحفر ، وكل المزهريات الكثيرة والجواهر المحفورة ، والعاج الذى تزينه إيطاليا بالذهب ، وكل ما تقومه إيطاليا من أنواع الشبابيك المختلفة الغالية ، وكل ما يثنى عليه الناس من أعمال الذهب ، أو الفضة ، أو النحاس ، أو الحديد ، أو العمل الدقيق فى الخشب أو الحجر ،

فها نحن أولاء فى هذه الفقرة نشهد ناحية أخرى من نواحى عصر الإيمان ، نشهد رجالا ونساء ، ونشهد بنوع خاص رهباناً وراهبات ، يعملون لإشباع الرغبة الغريزية فى التعبير ، ويجدون متعة فى التناسب ، والتناسق ، والأشكال ، ويحرصون على أن يجعلوا النافع جميلا . ولقد كانت أهم ما تحتويه المناظر التى صوّرت فى العصور الوسطى صوراً للرجال والنساء وهم يعملون ، وإن غلبت عليها

النزعة الدينية ، وكان الغرض الأول والأساسى الذى يهدف إليه فنهم هو تجميل أعمالهم ، وأجسامهم ، وبيوتهم . وكان آلاف من صناع الخشب يستخدمون السكين ، والمثقب ، والأزميل المقعر ، والمنحت ، ومواد الصقل ، لحفر النضد ، والكراسى ، والمقاعد ، والصناديق ، والعلب ، والخزائن ، وأعمدة الدرج ، والوزرات ، والأسرّة ، والأصونة ، وخزانات الطعام والشراب ، والصور والتماثيل المقدسة ، وأجزاء المذابح الكنسية ، وأماكن المرتمين . . . وتزيينها بما لا يحصى من أنواع الأشكال والموضوعات ، بارزة وغير بارزة ، وكثيراً ما كانوا يضفون عليها الفكاهات الخبيثة التى لاتعرف الفوارق بين ما هو مقدس وما هو دنس . وفى وسعنا أن نجد على الخناجر أشكالا للبخلاء ، والنهمين ، والثرثارين ، والحيوانات والطيور الغريبة ذات الرءوس الآدمية . وكان ناحتو الخشب من أهل البندقية يصنعون فى بعض الأحيان براويز أجمل من الصور التى فى داخلها وأعظم منها قيمة ، وفى القرن الثانى عشر بدأ الألمان فى صناعة حفر الخشب العجيبة التى أضحت من الفنون الكبرى فى القرن السادس عشر(*) .

ولم يكن الذين يعملون فى المعادن أقل شأناً من العاملين فى الخشب . فقد كانوا يصنعون الحديد المشغول الرشيق للنوافذ، والأفنية، والأبواب الخارجية، والمفصلات قوية تمتد فى عرض الأبواب الضخمة ذات أشكال نباتية متنوعة (كالتى نشاهدها فى كنيسة نتردام Notre Dame فى باريس) ،وكان مايصنع منه لمقاعد المرتمين فى الكنائس الكبرى « صلباً كالحديد » ورقيقاً كالمخرمات . وكان الحديد، أو البرنز ، أو النحاس يصهر أو يطرق لتصنع منه أجمل المزهريات ، والقدور ، والأباريق ، والماثلات ، والمباخر ، والعلب ، والمصابيح ؛ وكانت صفائح البرنز تغطى كثيراً من أبواب الكنائس . وكان صناع الأسلحة يحبون أن

(*) انظر سورة « الصّلب » الباقية من القرن الثانى عشر فى متحف هلبرستادت أو تمثال جيمس الأصغر James the Less الباقى من القرن الثالث عشر والمحفوظ بالمتحف الفنى فى نيويورك .

يضفوا شيئاً من الزينة على السيوف وأغمادها ، والخوذ ، والتروس والدروع ؛ وحسبنا شاهداً على مقدرة صناع المعادن الألمان الثريا البرنزية الضخمة التي أهداها فردريك الثاني لكنيسة آخن الكبرى ، وعلى مقدرة أمثالهم الإنجليز الماثلة البرنزية الضخمة (المصنوعة حوالى ١١٠٠) المنقولة من جلوسستر Gloucester والمحفوظة فى متحف ڤكتوريا وألبرت Victoria and Albert Museum ؛ وإن ولع صناع العصور الوسطى بأن يجعلوا من أبسط الأدوات تحفاً فنية ليتجلى فى مزاليج الأبواب ، وأقفالها ومفاتيحها ؛ وحتى دوارات الهواء نفسها قد عنوا بزخرفتها بالنقوش الجميلة التى لا تستطاع رؤيتها إلى بالمرقب .

وازدهرت فنون المعادن النفيسة والأحجار الكريمة وسط مظاهر الفاقة العامة ، فقد كان للملوك الميروفنجيين صحاف من الذهب ، وقد جمع شارلمان فى آخن كنزاً من المصنوعات الذهبية . وكانت الكنيسة تحس ، ومن حقها أن نغفر لها هذا الإحساس ، أنه إذا كان الذهب والفضة يزينان موائد الأشراف وأصحاب المصارف ، فإن من الواجب أن يسخرا أيضاً لخدمة ملك الملوك . ولهذا صنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة ، وبعضها من الذهب المنقوش ، كما نشاهد فى كنيسة القديس أمبروز St. Anbrose بميلان وفى كنيستى پستويا Pistoia وبازل . وكان الذهب هو المعدن الذى تصنع منه عادة الحُقَّةُ التى يوضع فيها الخبز المقدس ، ويصنع منه الوعاء الذى يعرض فيه على المؤمنين ليعظموه ، والكأس التى تحتوى النبيذ المقدس ، والعلب التى تحفظ فيها المخلفات المقدسة . ولقد كانت هذه الآنية فى كثير من الأحيان أجمل صنعا من أغلى الكؤوس التى تهدى للفائزين فى المباريات فى هذه الأيام . وكان الصياغ فى أسپانيا يصنعون الخيام البديعة التى يحمل فيها الخبز المقدس أثناء سير موكبه فى الشوارع . وفى باريس استخدم الصائغ بنار Bonnard (١٢١٢) ١٥٤٤ أوقية من الفضة وستين أوقية من الذهب ليصنع منها ضريحاً لعظام القديس جنيڤيڤ Genevieve . وحسبنا دليلا على

اتساع مجال فنون الصياغة الفصول التسعة والسبعون التي خص بها ثيوفيلس هذا الفن في كتابه . فيها نجد أن كل صائغ في العصور الوسطى كان ينتظر منه أن يكون هو وقليني Cellini سواء — يصهر ، وينحت ، ويطلي بالميناء ، ويركب الجواهر ، ويطعم . وكان في باريس في القرن الثالث عشر نقابة قوية للصياغ وتجار الجواهر ، وذاعت منذ ذلك الحين شهرة قاطعي الجواهر الباريسيين في عمل الجواهر الصناعية(*) . وكانت الأختام التي يبصم بها الأغنياء الشمع الموضوع على رسائلهم أو مظاريفها تصمم وتحفر بعناية فائقة ؛ وكان لكل رئيس ديني خاتم رسمي ، وكان كل رجل ظريف أو متظرف يتباهى بخاتم ، إن لم يتباهَ بأكثر من خاتم ، في يده . ألا إن الذين يقدمون لبني الإنسان أسباب غرورهم قلما يعدمون قوتهم .

وكانت النقوش البارزة الصغيرة على المواد الثمينة شائعة بين الأغنياء . وكان لهنري الثالث ملك إنجلترا نقش من هذا النوع قدرت قيمته بمائتي جنيه (٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) ، وجاء بولدوين الثاني بنقش أعظم من هذا قيمة من القسطنطينية ليضعه في سنت شابل Sainte Chapelle بباريس . وكان العاج يحفر بأعظم عناية ويبذل في حفره جهد كبير طوال العصور الوسطى ، وتصنع منه أمشاط ، وعلب ، ومقابض ، وقرون للشرب ، وتماثيل مقدسة ، وجلود للكتب ، ومحافظ لأوراق الكتابة مزدوجة الثنايا أو مثلثتها ، وعصى ، وصوالج الأساقفة ، وعلب وأضرحة ... وفي متحف اللوفر مجموعة من الأدوات العاجية من مخلفات القرن الثالث عشر تقرب من الكمال قربا يثير الدهشة ، وتمثل النزول عن الصليب . وقد غلب الخيال وغلبت الفكاهة على التقى في أواخر هذا القرن ، فظهرت في بعض الأحيان نقوش دقيقة لمناظر غاية في الدقة في بعض الأحيان على علب المرايا وصناديق الزينة المعدة للنساء اللاتي لا يستطعن أن يعكفن على التقى في جميع الأوقات .

وكان العاج إحدى المواد التى استخدمت للتطعيم ، وهو الذى يسميه الإيطاليون intarsia (وهى كلمة مشتقة من اللفظ اللاتينى interserere ومعناه يدخل أو يحشر) ويسميه الفرنسيون تلبيساً Marquetry (من Marquer أى يعلم) . وكان الخشب نفسه يطعم به غيره من أنواع الخشب : كأن يحفر رسم فى قطعة من الخشب ثم تدخل فيها قطع من خشب آخر وتضغط وتغرى فى مواضع الحفر . وكان من أدق الفنون فى العصور الوسطى عمل الميناء السوداء (النيلو Niello من اللفظ اللاتينى Nigellus أى أسود)ـــ فكان السطح المعدنى يحفر ويطعم بعجينة سوداء مكونة من مسحوق الفضـــة ، والنحاس ، والكبريت ، والرصاص ؛ فإذا جفت العجينة بُرِد سطحها حتى تلمع الفضة التى فى المزيج . وقد اصطنع فنجويرا Finiguerra من هذا الفن فى القرن الخامس عشر صناعة النقش على ألواح النحاس .

وقامت صناعة الخزف مرة أخرى من صناعة الفخار حينما أيقظ الصليبيون العائدون من الشرق أوربا من العصور المظلمة . وجاءت صناعة الميناء ذات الحزوز إلى بلاد الغرب من بيزنطية فى القرن الثامن . ولدينا من القرن الثانى عشر لوحة مصورة تمثل يوم الحساب(*) ، حفرت فيها الأجزاء المحصورة بين خطوط الشكل المرسوم على أرضية من النحاس ثم ملئ الفراغ بعجينة الميناء . وكانت مدينة ليموج Limoge الفرنسية تصنع الآنية المطعمة بالميناء منـــذ القرن الثالث ، فلما كان القرن الثانى عشر أضحت هى المركز الرئيسى فى غربى أوربا لصناعة الميناء ذات الحزوز والميناء المصبوبة فوق النحاس . وكان الفخرانيون المسلمون فى أسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر يغطون الآنية بطبقة لامعة من القصدير لا ينفذ فيها الضوء ، أو من الميناء ، ويتخذونها قاعدة

(*) وهى الآن فى متحف فكتوريا وألبرت .

للزخارف المصورة ؛ وفى القرن الخامس عشر استورد التجار الإيطاليون هذه الآنية من أسبانيا فى سفن مملوكة لأهل جزيرة ميورقة وسموا هذه الآنيــة ميوليقة ، فاستبدلوا بحرف r حرف l على طريقتهم فى الترخيم .

وعاد فن الزجاج ، الذى كاد يبلغ حد الكمال فى رومة القديمة ، إلى مدينة البندقية من مصر وبيزنطية ؛ فنحن نسمع منذ عام ١٠٢٤ لا بعد عن اثنى عشر مصنعاً فى تلك المدينة ، بلغ من تنوع منتجاتها أن بسطت الحكومة حمايتها على هذه الصناعة . واقترحت أن يطلق على صانعى الزجاج اسم « السادة » . وفى عام ١٢٧٨ نقل صناع الزجاج إلى حى خاص فى جزيرة مورانو **Murano** ليكونوا هناك آمنين من جهة ، وللاحتفاظ بسرية الصناعة من جهة أخرى . وسنت قوانين صارمة تحرم على صناع الزجاج الانتقال إلى خارج الجزيرة أو الكشف عما فى هذه الصناعة من أسرار خفية . وظل البنادقة أربعة قرون يسيطرون من هذه البقعة الأرضية الضيقة على فن الزجاج وصناعته فى العالم الغربى ، وارتقى فنا طلاء الزجاج بالميناء وتذهيبه ؛ وكانت أليڤو ده ڤينزيا **Olivo de Venezia** تصنع منسوجات من الزجاج ؛ كما كانت مورانو تخرج مقادير كبيرة من الفسيفساء والخرز ، والقنينات ، والأكواب ، وأدوات المائدة ، المصنوعة كلها من الزجاج ، بل كانت تخرج مرايا زجاجية أخذت فى القرن الثالث عشر تحل محل المرايا المصنوعة من الصلب المصقول . وكانت فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا تصنع هى الأخرى زجاجاً فى هذه الفترة ذاتها ، ولكنه كان يستخدم كله تقريباً فى الأغراض الصناعية ، ما عدا الزجاج الملون البراق الذى كان يستخدم فى الكنائس الكبرى .

وكانت النساء على الدوام يُغمط فضلهن فى تاريخ الفن فلا ينلن ما هن خليقات به من التقدير . إن الزينة الشخصية والمنزلية من العناصر الجليلة الشأن فى فن الحياة ، ولقد هيأت أعمال النساء فى تصميم الأزياء ، وزينتها الداخلية ،

وزخرفها ، ونسجها ، والتصوير عليها ، هيأت أعمالهن فى هذا أكثر مما هيأت معظم الفنون من أسباب المتعة غير لحسة التى نستمدها من وجود الأشياء الجميلة الصامتة معنا أو بالقرب منا . وكان للمنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية ذات المنظر الجميل والملمس اللطيف قيمة عالية فى عصر الإيمان ؛ فقد كانت تغطى مذابح الكنائس ، ومخلفات الأولياء ، والآنية المقدسة ، ويرتديها القساوسة ، وأفراد الطبقة الراقية فى المجتمع رجالا كانوا أو نساء . وكانت هذه المنسوجات نفسها تلف فى ورق ناعم لطيف رقيق ، اشتق اسمه من اسمها فسمى « ورق النسيج » واستطاعت فرنسا وانجلترا فى القرن الثالث عشر أن تنزلا القسطنطينية عن عرشها بوصفها أكبر منتج للتطريز الفنى ؛ فنحن نسمع فى عام ١٢٥٨ عن نقابات المطرزين فى باريس ؛ ويحدثنا ماثيو باريس Matthew Paris تحت عنوان سنة ١٢٤٦ أن البابا إنوسنت الرابع ذهل حين رأى الأحبار الإنجليز الذين زاروا رومة يرتدون ملابس مطرزة بالذهب وأمر أن تصنع مثل هذه الزخارف الإنجليزية الفخمة لحرامله وحلله التى يلبسها فى أوقات القداس . وكانت بعض ملابس رجال الدين مثقلة بالجواهر ، وخيوط الذهب ، واللوحات المصورة المصنوعة من الميناء إلى حد يصعب عليهم معه المشى وهم يرتدونها[٦] ؛ ولقد اشترى ثرى أمريكى ثوباً كهنوتياً يعرف باسم حبريه أسكولى Cope of Ascoli[*] بستين ألف دولار . وكان أشهر ثوب مطرز فى العصور الوسطى هو « ثوب شارلمان الدلماشى » وكان . الاعتقاد السائد أنه صنع فى دلماشيا ، ولكن يغلب على الظن أنه صنع فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر ، وهو الآن من أثمن التحف فى كنوز الفاتيكان .

(*) ولما عرف أنها مسروقة أعادها إلى الحكومة الإيطالية ، واكتفى بعلاوة جزاء له على أمانته .

وحلت السجف أو الأقمشة المطرزة التى تزين بها الجدران محل الصور الملونة فى فرنسا وإنجلترا ، وبخاصة فى الأبنية العامة . وكان يحتفظ بعرضها كاملة لأيام الأعياد ، فكانت فى تلك الأيام تعلق تحت العقود بين أعمدة الكنائس ، وفى الشوارع ، وعلى القوارب فى المواكب ؛ وكانت تنسج عادة من الصوف أو الحرير بأيدى « المُتْعَبات » أى الوصيفات اللاتى يخدمن قصور سادة الإقطاع تحت إشراف أمينة القصر . وكان عدد كبير منها تنسجه الراهبات ، وبعضه ينسجه الرهبان . ولم تكن المنسوجات التى تزدان بها الجدران تطاول الصور الدقيقة الملونة فى جمالها ؛ وكان يقصد بها أن ترى عن بعد ، وكان يضحى فيها بدقة الخطوط والظلال فى سبيل وضوح الصورة ولألاء اللون وثباته . وكان يقصد بها تخليد ذكرى حادثة تاريخية أو قصة خيالية ذائعة الصيت ، أو تفريج هم من فى داخل البيوت بتمثيل المناظر الطبيعية ، أو الأزهار ، أو البحر . وقد ورد ذكرها فى فرنسا منذ القرن العاشر ، ولكن أقدم نموذج لها باق إلى اليوم لا يكاد يرجع عهده إلى ما قبل القرن الرابع عشر . وكانت فلورنس فى إيطاليا ، وشنشيلا فى أسبانيا وبواتييه ، وأراس ، وليل فى فرنسا ، تتزعم مدائن الغرب فى فن أقمشة الجدران والطنافس . هذا وليست أقمشة بايو Bayeux الذائعة الصيت فى العالم كله من نوع هذه الأقمشة إذا أردنا الدقة فى التعبير ، لأن النقوش التى عليها مطرزة على سطحها وليست جزءاً من النسيج . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى كنيسة بايو التى ظلت تحتفظ بها زمناً طويلا ؛ وتعزوها الرواية المتواترة إلى ماتلدة زوجة وليم الفاتح وإلى السيدات اللاتى كن فى بلاط ملوك النورمان ؛ ولكن العلماء الذين لا يبالون بإغضاب كرائم العقائل يفضلون أن يعزوها إلى صناع غير معلومين ، وإلى عصر أحدث من عصر وليم [٨] . وهذه الزينات تُنَافس المؤرخين الإخباريين فى كونها مصدراً من مصادر الفتح النورماندى . فقد نقش على قطعة من نسيج التيل الأسمر ، عرضها تسع عشرة بوصة وطولها إحدى وسبعون ياردة ،

ستون منظراً تصور على التوالى الاستعداد إلى الغزو ، وسفائن النورمان تشق القناة الإنجليزية بحآجنها العالية المصورة ، ومعركة هيستنج الوحشية ، وهارولد Harold يتلقى الطعنة ويموت ، وهزيمة الجنود الأنجليسكسون وتبدد شملهم ، وانتصار القوة المباركة . وهذه الأغطية أمثلة من أعمال التطريز الناطقة بالصبر الطويل ، ولكنها ليست من أجمل ما صنع من نوعها ؛ وقد اتخذها نابليون فى عام ١٨٠٣ وسيلة يثير بها الفرنسيين إلى غزو إنجلترا[٩] ، ولكنه نسى أن يستعين على هذا الغزو ببركة الآلهة .

الفصل الثالث

التصــوير

١ ـ الفسيفساء

اتخذ فن التصوير فى عصر الإيمان ثلاثة أشكال رئيسية : الفسيفساء ، والتحلية الصغيرة للكتب ، والصور الجدارية ، والزجاج الملون .

فأما فن الفسيفساء فكان وقتئذ فى عهد الشيخوخة ، ولكنه كان فى خلال الألفى عام التى مرت عليه قد أثمر كثيراً من الدقة ؛ فقد كان صانعوه ، إذا أرادوا عمل الأرضية الذهبية التى يحبونها حباً جماً ، يلفون ورقة رقيقة من الذهب حول مكعبات من الفضة ، ويغطون هذه الورقة بغشاء رقيق من الزجاج ليمنعوا تلوث الذهب وقتامه ، ثم يضعون المكعبات المذهبة فى سطوح غير مستوية بعض الشىء ليمنعوا بذلك بريق السطوح . وكان الضوء ينعكس من هذه المكعبات فى زوايا مختلفة وبذلك يكسب القطعة كلها نسيجاً حياً .

وأكبر الظن أن فنانين بيزنطيين هم الذين غطوا القباء الشرقى فى إحدى الكنائس القديمة فى ترشلو Torcello — وهى جزيرة صغيرة قريبة من البندقية — وجدارها الشرقى بنقوش من الفسيفساء تعد من أروع ما خلفته العصور الوسطى(١٠) . وتمتد أعمال الفسيفساء فى كنيسة القديس مرقص على مدى سبعة قرون ، وتمثل أنماطها تلك القرون السبعة ؛ فقد أمر الدوج دمنيكو سلفو Domenico Selvo بعمل أولى نقوش الفسيفساء الداخلية فى عام ١٠٧١ ؛ ويظن أنه استخدم فى هذا العمل فنانين بيزنطيين ؛ كذلك تمت فسيفساء عام ١١٥٣ تحت إشراف فنانين بيزنطيين ؛ ولم يكن للفنانين الإيطاليين الشأن الأكبر فى

تزيين كنيسة القديس مرقس بالفسيفساء قبل عام ١٤٥٠ ؛ وإن الرسم الفسيفسائى المنقوش فى القبة الوسطى فى القرن الثانى عشر ، والذى يمثل صعود المسيح لهو أسمى ما بلغه هذا الفن ، ويقرب منه فى روعته النقش الفسيفسائى الذى يمثل يوسف والموجود فى قبة البهو . ولقد ظل النقش الفسيفسائى الرخامى الموجود فى طوار الكنيسة مدى سبعمائة عام يقاوم خطى بنى الإنسان .

وفى الطرف الآخر من إيطاليا اتحد الفنانون اليونان والمسلمون فى صنع آيات النقش الفسيفسائى فى صقلية النورمانية — فى الكابلا بلاتينا Capella Palatina وفى كنيسة مرترانا Martorana بمدينة بالرم Palermo ، وفى دير منريال Monreale وكنيسة كفالو Cefalu (١١٤٨) . وربما كانت حروب البابوية التى شبت نارها فى القرن الثالث عشر قد عاقت تقدم الفن فى رومة ؛ ولكن نقوشاً فسيفسائية متألقة صنعت فى ذلك القرن لتزدان بها كنائس سانتا ماريا مجيورى Santa Matia Maggiore ؛ وسانتا ماريا فى ترستفيرى Trastevere والقديس يوحنا فى لاتران « والقديس بولس خارج الجدران » . وكان فنان إيطالى هو الذى وضع تصميم النقش الفسيفسائى لكنيسة التعميد فى فلورنس ، ولكن هذا النقش لا يبلغ من الروعة ما بلغته أعمال الفنانين اليونان فى البندقية أو صقلية . وكان لدير سوجر فى سانت دنيس (١١٥٠) أرضية فسيفسائية فخمة احتفظ ببعض أجزائها فى متحف كلونى ؛ وإن طوار دير وستمنستر (حوالى عام ١٢٨٨) لمزيج من الظلال الفسيفسائية يثير الدهشة والإعجاب . غير أن فن الفسيفساء لم يزدهر قط فى شمال جبال الألب ، فلقد طغى عليه فى تلك البلاد الزجاج الملون كما طغت عليه فى إيطاليا نفسها حتى كادت تخرجه منها الصور الجدارية حين أقبل على هذا الفن دتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue ، وجيتو .

٢ ـ نقوش المخطوطات

ظل تزيين المخطوطات بالرسوم والنقوش الصغيرة بالفضة المذابة والذهب المذاب ، وبالمداد الملون ، فناً محبوباً يوائم تقوى الأديرة وجوها الهادئ . وقد بلغ هذا الفن ذروته فى بلاد الغرب فى خلال القرن الثالث عشر ، شأنه فى هذا شأن كثير من أوجه النشاط فى العصور الوسطى ، ولم يبلغ بعدئذ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى خلال ذلك القرن من دقة وابتكار وكثرة ، فقد حلت فى ذلك العهد محل الصور والكسى الجامدة ، والألوان الخضراء والحمراء القاسية التى كانت سائدة فى القرن الحادى عشر ، حلت محلها بالتدريج أشكال رشيقة رقيقة فى ألوان جمة العدد ، على أرضية زرقاء أو ذهبية ؛ وغلبت صور الغبراء على هذه النقوش ، كما أخذت من ذلك الوقت تكثر فى الكنائس الكبرى .

ولقد أتلفت كتب كثيرة فى العصور المظلمة ، وتضاعف قيمة ما بقى منها لأنها كانت فى نصها وفنها خيطا رفيعاً من خيوط الحضارة إذا صح هذا التعبير[11] . وكان الناس فى تلك الأيام يعتزون بكتب الترانيم ، وبالأناجيل ، والتراتيل ، وكتب القداس ، وكتب الصلوات ، وأدعية الساعات ، ويحسبونها الأدوات الحية التى تنقل إليهم الوحى الإلهى ، ولم يكونوا يرون أن أى مجهود يبذل فى تزيينها الزينة اللائقة بها أكثر مما تستحق . فكان الواحد منهم يبذل يوما كاملا فى كتابة الحرف الأول من كلمة ، وأسبوعا كاملا فى كتابة عنوان صفحة ، ولا يرى فى هذا خروجاً على المعقول ، وقد حدث فى عام ٩٨٦ أن أقسم هارتكر Hartker أحد رهبان القديس جول Gall أن يظل ما بقى من حياته الدنيوية داخل جدران أربعة ، ولعله كان يتوقع انتهاء العالم فى ذلك القرن . وظل فى صومعته الصغيرة حتى مات بعد خمسة عشر عاما من دخولها ، وفيها زين بالصور والنقوش **ترانيل القديس جول**[12] .

وكان فن المنظور وعمل القوالب وقتئذ أقل شأناً مما كانا عليه أيام ازدهارهما في عصر الكارولنجيين ، فقد كان أصحاب النقوش الصغيرة يعنون بعمق اللون وبهائه ، وازدحام الصور وحيويتها ، أكثر من عنايتهم بأن يخدعوا الناظر حتى يظن أن ما أمامه فضاء ذو ثلاثة أبعاد . وكانت أكثر موضوعاته تؤخذ من الكتاب المقدس ، أو من الأناجيل غير القانونية ، أو من أقاصيص القديسين ، ولكن صوراً للنبات والحيوان كانت تستخدم أحياناً في تلك الزينة ، وكان يسر صاحبها أن يصور نباتات وحيوانات خيالية كما يصور نباتات وحيوانات حقيقية . وكانت القواعد الكنسية المفروضة على الموضوعات وطريقة معالجتها في الكتب المقدسة نفسها أقل دقة وتحديدا في الغرب منها في الشرق ، وكان يسمح للمصور أن ينتقل ويلهو حرا في مجاله الضيق . وكانت رءوس بشرية مركبة على أجسام حيوانات ، ورءوس حيوانات على أجسام بشرية ، وكان قرد في زي راهب ، وقرد يختبر في وقار كوقار الطبيب قنينة ملأى بالبول ، وموسيقيٌّ يطرب سامعيه بحك فكي حمار — كانت هذه هي الموضوعات التي ازدان بها كتاب صلوات ساعات العذراء[١٣] . ونشأت نصوص غير هذه مقدسة ودنسة ، واتخذت لها مكانا في مناظر الصيد ، أو البرجاس ، أو الحرب ؛ وكان من الصور التي اشتمل عليها كتاب ترانيم من القرن الثالث عشر صورة تمثل داخل مصرف إيطالي ، ذلك أن العالم الدنيوي ، وقد استفاق من رهبة الأبدية ، أخذ يغزو أرباض الحياة الدينية .

وكانت الأديرة الإنجليزية موفورة الإنتاج في هذا الفن السلمي ، فقد أخرجت مدرسة أنجليا الشرقية كتب مزامير واسعة الشهرة : منها كتاب محفوظ في مكتبة بركسل ، وآخر (« الأورمزي Ormbsy ») في أكسفورد ، وثالث (القديس أومر Omer) في المتحف البريطاني . ولكن خير ما أنتجه هذا الفن كان في فرنسا ؛ فقد بدأت كتب التراتيل التي زينت للويس التاسع طرازاً من النقوش الجامعة المركزة ، وتقسيما إلى مدليات داخل إطارات ، نُقلت

بلا ريب عن زجاج الكنائس الملون . واشتركت الأراضى الوطيئة فى هذه الحركة ، فبلغ رهبان لييج وغنت فى فن تزيين الكتب بعض ما بلغه فن النحت فى أميّن Amiens وريمس Reims من الشعور الحماسى والرشاقة الفياضة ؛ وأخرجت أسبانيا أعظم آية مفردة من آيات هذا الفن فى القرن الثالث عشر فى كتاب ترانيم للعذراء هو تسابيح (ألفونسو العاشر) **الملك الحكيم** (حوالى عام ١٢٨٠) . وإن نقوشه الصغيرة البالغ عددها ١٢٢٦ نقشاً لتشهد بما كان يبذل فى كتب العصور الوسطى من كد وإخلاص . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الكتب كانت كتب خط كما كانت كتب تصوير ، وكان الفنان الواحد فى بعض الأحيان ينسخ أو يؤلف النصوص ويكتبها ، ثم يرسم النقوش بيده . وإن الإنسان ليتردد ، إذا أراد أن يحكم على كثير من الكتب ، أيهما أجمل زينتها أو نصها . ألا إننا قد خسرنا بالطباعة الشىء الكثير .

٣ – النقوش الجدارية

من العسير علينا أن نقول إلى أى حد أثرت زخارف الكتب من حيث موضوعها وأشكالها فى نقوش الجدران واللوحات المصورة ، والصور المقدسة ، ونقوش الخزف ، والنحت البارز ، والزجاج الملون ، وإلى أى حد أثرت هذه فى زخارف الكتب . لقد كان بين هذه الفنون تبادل كثير فى موضوعاتها وأنماطها ، وتفاعل مستمر ، وكان الفنان الواحد بعض الأحيان يمارسها جميعا ؛ وإنا لنظلم الفن والفنان معاً إذا ما فصلنا أحد هذه الفنون عن بقيتها فصلا تاما ، أو فصلنا الفنون عن الحياة القائمة فى أيامها ؛ ذلك أن الحقيقة أكثر ارتباطا فى أجزائها من تواريخنا ؛ وإذا ما جزأ المؤرخ عناصر الحضارة التى يجرى تيارها مجتمعاً فى مجرى واحد ، فإنما يفعل ذلك لسهولة البحث والإيضاح لا غير . وليس من حقنا أن نفصل الفنان عن الثقافة المعقدة التى ربته وعلمته ، وأمدته بالتقاليد والموضوعات —

وأثنت عليه أو عذبته ، واستخدمته ، ودفنته ، ونسيت اسمه أكثر مما ذكرته .

وكانت العصور الوسطى تقاوم الفردية ، وتعدّها من العقوق المفلس ، وتأمر العبقرى أن يغمر نفسه فى أعمال زمانه ومجرى حوادثه . وكانت الكنيسة ، والدولة ، والمدينة المستقلة ، ونقابة الحرف فى عرف ذلك الوقت هى الحقائق الخالدة ؛ وكانت هى الفنانين أنفسهم ، ولم يكن الأفراد إلا أيدى الجماعة ، وإذا ما قامت الكنيسة الكبرى على قواعدها كان جسمها وروحها يمثلان جميع ما قدسه واستنفده تصميمها ، وبناؤها ، وتزيينها من أجسام وأرواح . ومن أجل هذا ابتلع التاريخ جميع أسماء الرجال الذين نقشوا جدران عمائر العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر ، ولم يبق من هذه الأسماء إلا القليل ، وكادت الحروب ، والثورات ، والرطوبة التى توالت مدى الدهور . تبتلع أعمالهم . ترى هل كان فى أساليب ناقشى الجدران عيوب ؟ لقد كانوا يستخدمون أساليب المظلمات وأدهنة الجدران القديمة ، فيضعون الألوان على الجدران قبل أن يجف بياضها ، أو يرسمون على الجدران الجافة بألوان يجعلونها لزجة بما يدخلونه فيها من المواد الغروية . وكانوا يقصدون بكلتا الوسيلتين أن يخلدوا ما يرسمون ، إما بنفاذ الألوان فى الجدران أو بتماسكها ؛ ومع هذا كله كانت الألوان تتطاير على مر السنين ، ولذلك لم يبق لدينا إلا القليل من الرسوم الجدارية التى عملت قبل القرن الرابع عشر(*) . ويصف ثيوفيلس (١١٩٠) طريقة تحضير الألوان الزيتية ، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ كثيراً من الرقى قبل عهد النهضة .

ويلوح أن تقاليد النقش الرومانى القديم على الجدران قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة وما أعقبها من فقر دائم عدة قرون . ولما أن بُعث فن النقش الجدارى الإيطالى ، لم يسترشد باعثوه بالتقاليد القديمة ، بل استرشدوا بأساليب

(*) لهذا يدهش الإنسان من براعة المصريين الأقدمين لأنه يرى الألوان على بعض آثارهم وكأنها قد خرجت تواً من تحت أيديهم . (المترجم)

بيزنطية النصف اليونانية والنصف الشرقية ؛ وإنا لنجد فى أوائل القرن الثالث عشر مصورين يونان يعملون فى إيطاليا — ثيوفانيس فى البندقية ، وأبلونيوس فى فلورنس وملورمس Melormus فى سينا . . . وتحمل أقدم لوحات الفن الإيطالى الموقع عليها من راسميها فى ذلك العهد أسماء يونانية ، وقد جاء هؤلاء الرجال معهم بموضوعات وأنماط بيزنطية — بصور رمزية ، دينية — صوفية ، وهم لا يدعون قط أنهم يمثلون مواقف أو مناظر طبيعية .

ولما زاد الثراء وارتقى الذوق تدريجاً فى إيطاليا خلال القرن الثالث عشر ، واجتذبت الهبات العالية التى كان يعطاها الفنانون رجالا من ذوى المواهب العالية ، شرع المصورون الإيطاليون — جيونتا بيزانو Giunta Pisano فى بيزا ، ولابو Lapo فى پستويا ، وچيدو Guido فى سيّنا ، وپيترو كڤلينى Pietro Cavallini فى أسيسى ورومة ؛ شرع هؤلاء المصورون يهجرون الطريقة البيزنطية الخيالية الحالمة ، وينفثون فى رسومهم اللون الإيطالى والعاطفة الإيطالية . ولهذا نقش جيدو (١٢٧١) فى كنيسة سان دمنيكو فى سينا صورة للعذراء بزت بصورة « وجهها الصافى الحلو »[١٤] أشكال الرسوم البيزنطية الضعيفة التى لا حياة فيها ، والتى كانت سائدة فى ذلك العصر وتكاد هذه الصورة تكون بداية عصر النهضة الإيطالية .

وبعد جيل من ذلك الوقت دفع دنشيو دى بيونسنيا Duccio di Bouninsegna (١٢٧٣—١٣١٩) مدينة سينا فى سورة مدنية جمالية بصورة « الجلالة » Maesta التى تمثل العذراء فوق عرشها . وتفصيل ذلك أن المواطنين ذوى الثراء قرروا أن الأم المقدسة ، ملكتهم الإقطاعية ، يجب أن ترسم صورتها فى حجم رائع بيد أعظم فنان يعثرون عليه فى أى مكان ، وسرهم أن يختاروا لهذا الغرض دتشيو ابن بلدتهم ، ووعدوه بأن يقدموا له الذهب ، ووفروا له الطعام والوقت ، وراقبوا كل خطوة يخطوها فى عمله . ولما أتم الصورة بعد ثلاث سنين

(١٣١١) وأضاف إليها ذلك التوقيع المؤثر : — « أى أم الإله المقدسة ، هي سينا السلام ودتشيو الحياة لأنه صورك فى هذه الصورة » — حملت الصورة (وكان طولها أربع عشرة قدماً وعرضها سبع أقدام) إلى الكنيسة يحف بها موكب من الأساقفة ، والقساوسة ، والرهبان ، والموظفين ، ونصف سكان المدينة ، وسط دوى الأبواق ودق النواقيس ، وكانت الصورة لا تزال نصف بيزنطية فى طرازها ، تهدف إلى التعبير الدينى لا التصوير الواقعى ، فقد كان أنف العذراء أطول وأكثر اعتدالا مما يجب أن يكون ، وكانت عيناها أكثر قتاماً ، ولكن الصور المحيطة بها كانت ذات رشاقة وصفات أخلاقية واضحة ، وكانت المناظر المأخوذة من حياة مريم والمسيح ، والمرسومة على منصات المذابح والأبراج ذات فتنة جديدة وجلية . وجملة القول أن هذه الصورة كانت أعظم ما صور قبل جيتو Giotto(*) .

وكان چيوڤنى سيمابو Giovanui Cimabue (١٢٤٠ ؟ — ١٣٠٢) قد بدأ وقتئذ فى فلورنس أسرة من المصورين قُدّر لها أن تسيطر على الفن الإيطالى ما لا يكاد يقل عن ثلاثة قرون . وقد ولد چيوڤنى لأسرة شريفة ، وما من شك فى أنه قد أحزنها حين هجر القانون إلى الفن ؛ وكان ذا روح عالية متكبرة ، لا يتردد فى أن يطرح وراء ظهره أية صورة يجد فيها هو أو غيره من الناس عيباً ما . ومع أن مدرسته الفنية ، كمدرسة دتشيو ، فرع من المدرسة الإيطالية — البيزنطية ، فإنه قد أفرغ كل كبريائه وكل نشاطه ، فى فنه ؛ وأثمرت جهوده هذه ثمرة أوفت على الثورة ؛ وقد عمل هو ، أكثر مما عمل دتشيو الذى يعلو عليه فى مكانته الفنية ، على إبطال الطراز البيزنطى وشق طريق للرقى جديد . فثنى ورق الخطوط الجامدة التى كان يرسمها أسلافه ، وكسا الروح لحماً ، ووهب اللحم دماً ودفئاً ، والآلهة والقديسين حناناً آدمياً ، واستخدم فى تصويره الألوان الزاهية

(*) والصورة الرئيسية محفوظة الآن فى « الأبرا » أى متحف كنيسة سينا .

الحمراء ، والقرنفلية ، والزرقاء ، فنفث فى صوره حياة ولألاء لم تعرفهما إيطالية العصور الوسطى قبل أيامه ، على أننا مضطرون إلى قبول كل ما ذكرناه عنه مستندين إلى شهادة معاصريه ؛ لأن الصور التى تعزى له ليس فيها صورة واحدة موثوق بأنها من صنع يده ، وأكبر الظن أن صورة **العذراء والطفل مع الملائكة** المرسومة بالطلاء المائى لمصلى روشلاى Rucellai فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا Santa Maria Novella بمدينة فلورنس ، أكبر الظن أن هذه الصورة من صنع دتشيو[١٥] . وتعزو رواية يشك فيها بعضهم ، ولكنها فى أغلب الظن صادقة ، إلى سمابيو صورة **العذراء والطفل بين أربعة ملائكة** الموجودة فى كنيسة سان فرانسسكو السفلى فى أسيسى . وهذا المظلم الضخم الذى يُرجع المؤرخون تاريخه عادة إلى عام ١٢٥٦ والذى أعيد فى القرن التاسع عشر ، هو أولى الآيات الفنية الباقية حتى الآن من روائع فن التصوير الإيطالى . وصورة القديس فرانسس التى فيه واقعية إلى حد يشهد بجرأة راسمها — فهى تمثل رجلا روعته رؤية المسيح إلى حد هزل معه جسمه ؛ وصورة الملائكة الأربعة هى بداية التآلف بين الموضوعات الدينية والجمال النسوى .

وعُيّن سمابيو فى آخر سنى حياته كبير أساتذة الفسيفساء فى كنيسة بيزا ؛ وفيها ، كما يقولون ، وضع لقبا الكنيسة تصميم فسيفساء **المسيح فى المجد بين العذراء والقديس يوحنا** . ويروى ڤسارى Vassari قصة لطيفة يقول فيها إن سمابيو وجد فى يوم من الأيام غلاماً من الرعاة فى العاشرة من عمره يسمى چيتو دى بندونى Giotto di Bondone ، يرسم بقطعة من الفحم صورة حمل على أردواز ، فأخذه إلى فلورنس وجعله تلميذاً له[١٦] . وليس ثمة شك فى أن چيتو عمل فى مرسم سمابيو ، وأنه شغل منزل أستاذه بعد موته . وهكذا بدأت أعظم أسرة من المصورين فى تاريخ الفن .

٤ ـ الزجاج الملون

سبقت إيطاليا شمالى أوربا بمائة عام كاملة فى النقوش الجدارية والفسيفساء ، وتأخرت عن تلك البلاد مائة عام فى العمارة والزجاج الملون . وكان فن تلوين الزجاج معروفا عند الأقدمين ، ولكن أكثر ما عرف منه كان فى صورة الفسيفساء الزجاجية ؛ فقد ملأ جريجورى التورى Gregory of Tours (٥٣٨ ؟ — ٥٩٣) نوافذ كنيسة القديس مارتن بزجاج « مختلف الألوان » ؛ وتحدث بولس المنظم(*) Paul the Silentiary عن جمال ضوء الشمس حين يمر خلال الشبابيك المختلفة الألوان فى كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية . ومبلغ علمنا أنه لم تبذل فى هذه الحالات أية محاولة لرسم صور بالزجاج الملون ، لكن أدلبرو Adalbero أسقف مدينة ريمس زين كنيسته حوالى عام ٩٨٠ بشبابيك « تحتوى تواريخ »[١٧] ، وتحتوى أخبار القديس بنينيس St. Benignus على وصف لـ « شباك مصور قديم جدا » يمثل القديس باسكاسيوس St. Paschasius ، فى كنيسة بديجون[١٨] . لقد كان هذا زجاجاً مؤرَّخاً ؛ ولكن يبدو أن اللون هنا قد وضع على الزجاج ولم يصهر فيه . ولما أن قلل فن العمارة القوطية من الثقل الذى تتحمله الجدران وهيأ بذلك مكاناً للنوافذ الواسعة ، سمح الضوء الكثير الذى يدخل الكنيسة بهذه الوسيلة — أو بالأحرى تطلب هذا الضوء — تلوين ألواح الزجاج ، وبهذا وجدت الحوافز القوية الكثيرة عن وسيلة لتلوين الزجاج تلويناً أبقى على الزمن من الوسيلة القديمة .

والراجح أن الزجاج ذا الألوان المصهورة قد تفرع من الزجاج المطلى بالميناء. ويصف ثيوفيلس فى عام ١١٩٠ هذه الصباغة الفنية الجديدة فيقول إن « رسما » أو تصميما يوضع على منضدة ويقسم أقساما صغيرة ، ويميز كل منها برمز للون

(*) المنظم هنا بمعنى الذى يحفظ النظام فى الاجتماع . (المترجم)

المرغوب فيه . ثم تقطع قطع من الزجاج قلما يزيد طولها أو عرضها على بوصة واحدة بقدر مساحة الرسم . وتلون كل قطعة من الزجاج باللون المطلوب وذلك بصبغة مكونة من مسحوق الزجاج المخلوط بأكاسيد معدنية مختلفة — الكوبلت للون الأزرق ، والنحاس للون الأحمر أو الأخضر ، والمنجنيز للأرجوانى . . . ثم يحرق الزجاج المطلى بعدئذ لتنصهر الأكاسيد والطلاء فى الزجاج ، وتوضع الأجزاء بعد تبريدها على التصميم ، وتلحم بعضها ببعض بقطع رفيعة من الرصاص . وإذا نظر الإنسان لشباك مصنوع من هذا الزجاج الفسيفسائى فإن العين لا تكاد تلاحظ قطع الرصاص ، بل تحسب أجزاءه سطحاً ملوناً متصلا . وكان أكبر ما يهتم به الفنان فى هذه الحال هو اللون ، وكان هدفه هو مزج الألوان ؛ ولم يبحث فى عمله عن الواقعية ، ولم يعن بالمنظور ؛ وكان يظهر الأشياء المرسومة فى صورته بأغرب الألوان — ففيها جمالة خضر ، وآساد قرنفلية ؛ وفرسان زرق الوجوه[١٩] . ولكنه حصل على النتيجة التى يبتغيها : حصل على صورة متلألئة مخلدة اللون ، وعلى تخفيف الضوء الداخل فى الكنيسة وتلوينه ، وعلى تعليم العابدين والسمو بنفوسهم .

وكانت الشبابيك — حتى « الورود » العظيمة منها — تقسم فى معظم الأحوال إلى لوحات مصـــورة ، ورصائع ، ودوائر ، ومعينات ، ومربعات ، وذلك لكى يمثل الشباك الواحد عدة مناظر فى سيرة أو موضوع ما . فكان أنبياء العهد القديم يصورون أمام نظائرهم فى العهد الجديد أو أمام نبوءاتهم التى تحققت فيه . وكان العهد الجديد تضاف إليه أجزاء من الأناجيل غير القانونية ، وقد كان ما تحتويه هـــذه الأناجيل الأخيرة من الأقاصيص ذات الخيال الجميل عزيزا على عقل العصور الوسطى محبباً له . وكانت القصص المأخوذة من حياة القديسين أكثر فى النوافذ من الحوادث المستقاة من الكتاب المقدس ؛ مثال ذلك أن مغامرات القديس يوستاس St. Eustace كانت تروى على شبابيك شارتر ،

وعلى شبابيك سان **Sens** ، وأوكسير **Auxerre** ولمـان **Le Mans** ، وتور . وقلما كانت حوادث التاريخ غير الدينى تظهر على الزجاج الملون .

ولم يمض نصف قرن على ظهور أول مثل للزجاج الملون فى فرنسا حتى وصل إلى درجة الكمال فى تشارتر ، وكانت شبابيك تلك الكنيسة الكبرى نماذج ينسج على منوالها أو أهدافا يسعى لبلوغها فى سان **Sens**، وليون **Leon** ، وبورج **Bourges** ، ورون . ومن هنا انتقل الفن إلى إنجلترا ، وأوحى إلى صناع زجاج كنتربرى ولنكلن ، وقد نصت معاهدة عقدت بين فرنسا وإنجلترا على أن يسمح لأحد المصورين على الزجاج عند لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠) بأن يأتى إلى إنجلترا[٢٠] . وفى القرن الثالث عشر كبرت الأجزاء التى يتكون منها لوح الزجاج وفقد اللون بعض ما كان فى الأعمال الأولى من دقة واهتزاز ، وحلت فى أواخر ذلك القرن الزخارف المكونة من خطوط خارجية رفيعة حمراء أو زرقاء اللون على قاعدة من لون واحد رمادى محل الألوان المتناسقة فى الكنائس العظمى ، وكان لفواصل الشبابيك نفسها ، وقد أخذت أشكالها تزداد تعقيداً على مر الأيام ، شأن أكبر فى الصورة ؛ ومع أن الزخارف السالفة الذكر أضحت على مر الزمان فنا جميلا ، فإن مهارة المصور على الزجاج أخذت تضعف تدريجيا . ذلك أن روعة الزجاج الملون جاءت مع الكنائس القوطية الكبرى ، فلما زال مجد القوط ، زالت معه نشوة الألوان .

الفصل الرابع

النحت

لقد دُمر الكثير من أعمال النحت لأن البرابرة نهبوه على أثر انتصارهم في غزواتهم ، ولأن المسيحية الناشئة حسبته من قبيل عبادة الأوثان الدنيئة ؛ ولكن قليلا منه نجا من هذا الدمار وبخاصة في فرنسا ، فأثار خيال البربرية بعد أن روضت ، والثقافة المسيحية بعد أن نضجت . واحتفظت الدولة الرومانية الشرقية في هذا الفن ، كما احتفظت في غيره من الفنون ، بالنماذج والمهارات القديمة ، وأضافت إليها أساليب العرف والتصوف الأسوية ، وعادت فوزعت على الغرب البذور التي جاءت إليها قبل من رومة . وانتقل النحاتون اليونان إلى ألمانيا بعد أن تزوجت ثيودورا من أتو الثاني (٩٧٢) ؛ وانتقلوا كذلك إلى البندقية ، ورافنا ، ورومة ، ونابلي ، وصقلية ، ولعلهم انتقلوا أيضا إلى برشلونة ومرسيليا ؛ وليس ببعيد أن يكون المثالون الذين كانوا يعملون عند فردريك الثاني قد أخذوا فنهم عن هؤلاء الرجال وعن الفنانين المسلمين الخاضعين لسلطانه ؛ ولما أثرت البربرية كان في وسعها أن تجمع بين الهمجية والجمال ؛ ولما أثرت المسيحية ، سخَّرت النحت كما سخرت غيره من الفنون لخدمة عقائدها وشعائرها الدينية ، وكانت هذه في آخر الأمر هي الطريقة التي نمت بها الفنون الكبرى في مصر ، وآسية ، وبلاد اليونان ، ورومة ؛ ذلك بأن الفن العظيم وليد الإيمان المنتصر .

ولم يكن النحت يفكر فيه على أنه فن مستقل بذاته ، بل كان يعد مرحلة من فن شامل ، ليس له اسم في لغة من اللغات — ذلك هو زخرفة العبادة ،

وشأنه فى هذا شأن الصور الجدارية ، والفسيفساء والزجاج الملون . فكانت مهمة المثال الأولى هى تجميل بيت الله بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت مهمته الثانية هى صنع الصور والتماثيل الدينية لبث روح التقى فى البيت ؛ فإذا بقى بعد ذلك وقت ومال كان فى وسعه أن ينحت تماثيل لأشخاص دنيويين ، أو يزين أشياء لا تمت بصلة إلى الدين . وكانت المادة المفضلة فى النحت الخاص بالكنيسة هى التى تتسم بالبقاء كالحجر ، والرخام ، والمرمر ، والبرنز ؛ أما التماثيل فكانت الكنيسة تفضل أن تصنعها من الخشب ، ذلك بأن هذه التماثيل يستطيع حملها من غير مشقة المسيحيون السائرون فى المواكب الدينية . وكانت التماثيل تلون كما كان يحدث فى الفن الدينى القديم ، وكانت فى أكثر الأحيان واقعية أكثر منها مثالية ، تهدف إلى أن يشعر العابد بالنظر إلى صورة القديس أنه بين يديه ؛ وقد بلغ من نجاح المثالين فى بلوغ هذه الغاية أن كان المسيحى ، كما كان العابد فى الأديان القديمة ، ينتظر أن يصنع التمثالُ نفسُه المعجزات ، وقلما كان يخامره الشك إذا سمع أن ذراع المسيح المصنوعة من المرمر قد تحركت لتبارك إنساناً ، أو أن ثدى عذراء من الخشب قد در اللبن .

وخليق بكل من يدرس فن النحت فى العصور الوسطى أن يستشعر الندم حين يبدأ هذه الدراسة . ذلك أن قسما كبيراً من آثاره دمرها المتطهرون المتعصبون فى إنجلترا ، وكان البرلمان فى بعض الأحيان هو الآمر بهذا التدمير ، كما دمر الكثير من هذه الآثار فى فرنسا أثناء الإرهاب الذى تعرض له الفن أيام الثورة . وكان ذلك العمل الرجعى فى إنجلترا موجها إلى مابدا لمحطمى الصور الجدد أنه زخرفة وثنية للأضرحة المسيحية ؛ أما فى فرنسا فكان يهدف إلى مهاجمة قبور الأشراف المكروهين وما لديهم من مجموعات فنية ودمى . ولهذا نجد فى جميع أنحاء البلدين تماثيل بلا رءوس ، وأنوفاً مكسورة ، وتوابيت مهشمة ، ونقوشاً بارزة ، وطنفاً ، وتيجان عمد محطمة . ذلك أن ثورة جامحة من الحقد الدفين

الذى ظل يغلى زمناً طويلا فى الصدور على الاستبداد الكنسى والإقطاعى قد انفجر مرجلها آخر الأمر فى صورة تخريب شيطانى لهذه الآثار — وكأن الزمن وأتباعه من العناصر الجوية قد أجمعت أمرها فى ثورة من التدمير، فاكتسحت ظاهر التماثيل ، وأذابت الحجارة ، ومحت النقوش ، وشنّت على أعمال الإنسان حرباً باردة صامتة ، لم تتخللها قط هدنة ؛ وشن الإنسان نفسه على هذه الآثار ألف حرب سعى فيها إلى النصر بالتنافس فى التدمير ، فكان من أثر ذلك أننا لا نعرف النحت فى العصور الوسطى إلا من حطامه .

وإذا ما نظرنا إلى عناصره المتناثرة فى المتاحف ، أضفنا إلى الأذى سوء الفهم . ذلك أن الفن الذى تمثله هذه العناصر لم يكن يقصد به أن ينظر إليه متفرقاً على هذه الصورة ، فقد كان فى أصله جزءاً لا يتجزأ من موضوع دينى ، وكان صرحاً معمارياً كاملا ، ولهذا فإن ما قد يبدو لنا فجاً قبيحاً وهو بمفرده ، قد يكون موائماً أحسن مواءمة لما يحيط به من الحجارة . لقد كان التمثال القائم فى الكنيسة الكبرى عنصراً فى مجموعة ، موضوعاً فى المكان اللائق به ، وكأنه يستطيل ليطاول علو الكنيسة الشامخ : فقد كانت الساقان متلاصقتين ، والذراعان ملتصقتين بالجسم ؛ وكان تمثال القديس فى بعض الأحيان يدق ويمتد حتى يصل إلى أعلى قائمة كتف الباب . وكان المثال يهدف فى أحيان قليلة إلى تقوية الأثر الأفقى لاالرأسى فى نفس المُشاهد ؛ فكان يجعل التماثيل المقامة فوق الأبواب بدينة مفلطحة ، كالتى نشاهدها فوق مدخل تشارتر ؛ أو كان رجل أو حيوان يحشر فى تاج عمود كما كان يحشر الإله اليونانى قوصرة الباب أو الشباك ، وبهذا انصهر فن النحت القوطى فأصبح جزءاً لا يتجزأ من فن العمارة الذى يزينه .

وكان خضوع النحت للعمارة فى طرازها وهدفها الهدف الذى يمتاز به فن القرن الثانى عشر بنوع خاص . ثم شهد القرن الثالث عشر ثورة جامحة من

جانب المثال فخرج وفتئذ من النزعة الشكلية إلى الواقعية ، ومن الصلاح إلى الفكاهة والهجاء وتذوق الحياة الأرضية . فبينا نرى تماثيل القرن الثانى عشر الموجودة فى تشارتر مكتئبة جامدة ، إذ نرى تماثيل القرن الثالث عشر فى ريمس وقد فاجأها المثال أثناء حديثها الطبيعى أو عملها التلقائى . فعارفها فردية ، وفى وضعها رشاقة ملحوظة ، وإن كثيراً من هذه التماثيل القائمة فى كنائس تشارتر وريمس لتشبه الفلاحين الملتحين الذين لا نزال نلتقى بهم فى القرى الفرنسية ، وتمثال الراعى الذى يدفئ نفسه بالنار والقائم فوق باب أمين Amiens الغربى قد يكون له نظير فى حقل بنورمندية أو جسپيه Gaspé فى هذه الأيام . وليس فى التاريخ كله نحت يضارع النقوش القوطية الكنسية فى واقعيتها الغريبة . ففى رون نجد تمثال فيلسوف مفكر له رأس خنزير محشوراً فى أزهار من ذوات الورقات الأربع ، وطبيباً نصفه آدمى والنصف الآخر إوزة ، يدرس أنبوبة أخرى مليئة بالبول ، ومعلم موسيقى نصفه آدمى ونصفه ديك يلقى درسا على عضو غنطروس ، ورجلا أحاله ساحرٌ كلبا ، وظلت قدماه تلبسان حذاءيه[٢١] . وهناك صورة صغيرة مضحكة جاثمة تحت التماثيل فى تشارتر ، وأمين ، وريمس . وفى كنيسة استرسبرج تاج عمود أعيد إلى وضعه الأول منذ قليل يمثل دفن رينارد الثعلب Reynard the Fox : يحمل نعشه خنزير وجدى ، ويحمل الصليب ذئب ، وينير الطريق أرنبٌ بشمعة ، ويرش دب الماء المقدس ، وينشد القداسَ وعلٌ ، ويتلو حمار صلاة الجنازة من كتاب مستند إلى رأس قطة[٢٢] . وفى كنيسة بفرلى Beverley ثعلب على رأسه قلنسوة راهب يرتقى منبراً ويعظ طائفة من الإوز التقية المتدينة[٢٣] .

وتمثل الكنائس فيما تمثله حدائق حيوانات من الحجارة ، تكاد تجمع كل ما عرفه الإنسان من الحيوان ، وإن كثيراً من الحيوانات التى لم تمر إلا بمخيلة رجال العصور الوسطى لتجد لها مكاناً فى هذه المجموعات الضخمة التى لا تحصى

عديدها . ففى ليون Leon ستة عشر ثوراً تخور فوق أبراج الكنيسة الكبرى ، ويقولون لنا إنها تمثل الوحوش القوية التى ظلت السنين الطوال تنقل جلاميد الحجارة من المحاجر إلى الكنيسة القائمة على رأس التل . وتقول إحدى القصص الظريفة : إن ثوراً كان فى يوم من الأيام يصعد بمشقة فوق التل فوقع على الأرض من فرط الإعياء ، وظل الحمل متزناً اتزاناً مزعزعاً على منحدر التل حتى ظهر ثور بمعجزة من المعجزات ، وانزلق تحت عدة الثور الملقى على الأرض ، وجر العربة إلى قمة التل ، ثم اختفى فى الهواء السماوى الإعجازى[٢٤] . وإنا لنبتسم ساخرين من هذه القصص الخيالية ، ونعود إلى قراءة قصصنا التى تحدثنا عن الجرائم وعن العلاقات الجنسية .

واتسعت الكنائس أيضاً لحدائق النبات ، وهل ثمة بعد العذراء والملائكة ، والقديسين ، زينة لبيت الله أحسن من النباتات ، والفاكهة ، وأزهار الريف الفرنسى ، أو الإنجليزى ، أو الألمانى ؟ ولقد بقيت الزخارف النباتية القديمة — التى تمثل أوراق الكنكر والكرم — فى فن العمارة الرومنسية (٨٠٠ — ١٢٠٠) ؛ ثم حلت محل هذه الزخارف الشكلية العرفية فى الفن القوطى طائفة تدهش الإنسان لكثرتها من النباتات المحلية ، منقوشة على قواعد الأعمدة وتيجانها ، والأجزاء الشبه المثلثة التى بين العقود ، والعقود نفسها ؛ وفى الطنف ، والعمد نفسها ، والمنابر ، ومقاعد المرنمين ، وقوائم الأبواب ، والمصاطب ... وليست هذه الأشكال مما حدده العرف ، بل هى فى كثير من الأحيان أنواع فردية ، محبوبة فى البيئة التى صورتها ، وبعث فيها المؤلف الحياة . وتراها فى بعض الأحيان زينات مركبة من نباتات مختلفة جمعت بعضها إلى بعض ، وذلك أيضا مما ابتدعه الخيال القوطى ، ولكنها مع ذلك ظلت تُشعر الناظر إليها بأنها من صنع الطبيعة . ترى هناك الأشجار ، والغصون ، والعساليج ، والأوراق ، والبراعم ، والأزهار ، والفاكهة ، والسرخس ، والشقيق الأصفر ، والطلح ، والكرسون المائى ، وعود الريح ، وأشجار الورد ،

والشليك ، والحسك ، والقصعين ، والبقدونس ، والسريس ، والكرنب ، والكرفس ، تساقط من مستودع الكنيسة الذي لا ينضب معينه ، لقد كان المثال ثملا ببهجة الربيع ، فهدت يده الإزميل فى الحجر . وليس الربيع وحده هو الذي تمثله هذه النباتات والأزهار المنحوتة ، بل إن جميع فصول السنة ممثلة فيها ؛ وهي فوق هذا تطالعك بكل ما فى أعمال البذر ، والحصاد ، وعصر الخمر ، من كدح ومتعة ، وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل فى نوعه من « تاج عصر العنب » فى كنيسة ريمس الكبرى[٢٥] .

ولكن هذا العالم كله — عالم النبات والزهر ، والحيوان والطير — كان فى المرتبة الثانية إذا قيس إلى الموضوع الرئيسي فى فن النحت أثناء العصور الوسطى — وهو حياة الإنسان وموته . ففي تشارتر ، ولاءون ، وليون Lyons ، وأكسير ، وبورج نقوش أولية تروى قصة الخَلْق . وفى لاءون يعد الخالق على أصابعه ما بقى له من الأيام حتى يتم عمله ، وتراه فى مناظر متأخرة عن هذا المنظر ، وقد أجهده كدحه فى خلق الكون ، متكئاً على عصاه ، وجالساً ليستريح ، ونائماً . ذلك إله يسع كل فلاح ساذج أن يفهمه . وثمة نقوش بارزة فى كنائس أخرى تصور أشهُر العام وما اختص به كل شَهْر منها من عمل وبهجة ؛ وتبين نقوش غير هذه وتلك مختلف أعمال الإنسان فتصور الفلاحين فى الحقل أو عند معصرة الخمر ؛ وترى بعضهم يقودون الخيل أو الثيران وهي تشق الأرض أو تجر العربات ؛ ومنهم من يجز الضأن ، أو يحلب البقر . وهناك طحانون ، ونجارون ، وحمالون ، وتجار ، وفنانون وطلاب علم ، بل إن هناك أيضاً فيلسوفاً أو فيلسوفين . ويصور المثال المعنويات المجردة عن طريق الأمثلة : فدونارتس Donartus يمثل النحو ، وشيشرون الخطابة ، وأرسطو الجدل ، وبطليموس الفلك . وتجلس الفلسفة ورأسها فى السحب ، وفى يمناها كتاب ، وفى يسراها صولجان ، فهي ملكة العلوم . وثمة نقوش ترمز إلى الإيمان وعبادة الأوثان ، والأمل واليأس ، والصدقات والبخل ،

والعفة ، والدعارة ، والسلام ، والشقاق ؛ وفى لاءون نقش على باب عال يصور معركة بين الفضائل والرذائل ؛ وعلى الواجهة الغربية من كنيسة نوتردام فى باريس صورة امرأة رشيقة معصوبة العينين تمثل المعبد ، وأمامها امرأة أجمل منها فى ثياب ملكية وعليها سيماء من اعتادت الأمر والنهى وتمثل الكنيسة بوصفها عروس المسيح . أما المسيح نفسه فيبدو تارة رحيما وتارة أخرى رهيباً ؛ وتمثله بعض الصور وأمه تنزله من الصليب ؛ أو يقوم من القبر وبالقرب منه رسم رمزى يمثل أسداً يعيد الحياة بأنفاسه إلى أشباله ؛ أو يقضى فى رهبة بين الأحياء والأموات . وترى صور يوم الحساب فى كل مكان منحوتة أو مرسومة ملونة فى الكنائس ؛ ذلك أنه لم يكن يسمح للإنسان أن ينساها ؛ وهنا أيضاً لم يكن يستطاع الاعتماد إلا على شفيع واحد لغفران الذنوب ، ذلك هو مريم العذراء التى تبدو لهذا السبب فى الصور المنحوتة ، كما تبدو فى الأوراد ، صاحبة المكان الأول ، ومنبع الرحمة اللانهائية ، التى لا تسمح لابنها أن يفسر تفسيراً حرفياً تلك الكلمات القائلة إن الكثيرين يُدْعَون والقليلين يُختارون .

إن فى فن النحت القوطى لعمقاً فى الشعور ، وتنوعاً ونشاطاً فى الحياة ، وتعاطفاً مع أشكال عالَم النبات والحيوان جميعاً ، وإن فيه لرقة ، وظرفاً ، ورشاقة ؛ فهو معجزة من الحجارة لا تكشف عن اللحم بل عن الروح ؛ وهذه كلها تحركنا وتشبعنا بعد أن فقدت روعة أجسام التماثيل اليونانية بعض ما كان لها من جاذبية . ولعل سبب ضياعها هو أننا بلغنا سن الشيخوخة . وتبدو الآلهة الثقيلة القائمة فى قوصرة البارثنون إذا وضعت إلى جانب الصور الحية التى أخرجها إيمان العصور الوسطى باردة ميتة . ولسنا ننكر أن النحت القوطى معيب من الناحية الفنية ، فليس فيه ما يضارع كمال إفريز البارثنون ، أو جمال آلهة بركستليز وإلاهاته الشهوانية ، أو سيدات نقش السلام وشيوخه فى رومة ؛ وما من شك فى أن صور أولئك الشبان ذوى الوسامة ، وصور أفروديتى اللينة العريكة ، كانت تمثل فى وقت ما

متعة الحب والحياة السليمة . ولكن آراءنا الدينية المبتسرة ، إذ تذكرما فيها من جمال وتغفل عما فيها من رهبة ، تعود بنا المرة بعد المرة إلى الكنائس الكبرى وترجّح كفة **الإله الجميل** المصور فى أمين **والملاك** الباسم المصور فى ريمس ، **وعذراء شارتر** .

وكان المثال فى العصور الوسطى كلما زادت مهارته فى فنه قوى أمله فى تحرره من فن العمارة وفى أن يعمل فيه أعمالا توائم الذوق الدنيوى المتزايد عند الأمراء والأحبار ، والأشراف ، والطبقة الرأسمالية المتوسطة . ففى إنجلترا كان نحاتو الرخام فى بربك **Purbeck** يستخدمون النوع الممتاز الذى يقطعونه من نتوء دورسسترشير **Dorestershire** ، واشتهر فى القرن الثالث عشر بالعمد والتيجان الجاهزة ، وبالدمى المضطجعة التى ينحتونها على توابيت الأموات الأغنياء — وصب وليم تورل **William Torel** وهو صائغ من أهل لندن حوالى عام ١٢٩٢ تمثالين من البرنز لهنرى الثالث وإليانور القشتالية زوجة ولده ليوضعا فى قبرهما الرخاميين فى دير وستمنستر ؛ ويبلغ هذان التمثالان من الجمال والدقة ما تبلغه أية تحفة برنزية فى ذلك العصر . واجتمعت فى ذلك الوقت مدارس للنحت عظيمة الشأن فى ليبج ، وهلسدهايم **Hildesheim** ونومبرج **Naumburg** . ونحت مثّال غير معروف حوالى عام ١٢٤٠ التمثالين القويين البسيطين — ذوى الأثواب الفخمة — لهنرى الأسد وابنته القائمين فى كنيسة برنزويك **Brunswick** . وتزعمت فرنسا أوربا بأجمعها فى جمال تماثيلها الرومنسية (فى القرن الثانى عشر) والقوطية (فى القرن الثالث عشر) ولكن معظم هذه التماثيل قائمة فى كنائسها الكبرى ، ولهذا فإن خير مكان تدرس فيه هو هذه الكنائس .

ولم يكن النحت فى إيطاليا وثيق الصلة بالعمارة ، ولا بالمدن ذات الحكومات المستقلة ، ولا بنقابات الحرف كما كان فى فرنسا ؛ ولهذا فإنا فى القرن الثالث عشر

نجد فنانين منفردين تسيطر شخصياتهم على أعمالهم وتخلد أسماءهم . من هؤلاء نيقولو پيزانو Niccolo Pisano الذى اجتمعت له عدة مؤثرات مختلفة انصهرت كلها فخرجت منها شخصية مركبة فذة . فقد ولد هذا الفنان فى أپوليا عام ١٢٢٥ ، واستمتع فيها بالجو الحافز الذى يحيط بحكم فردريك الثانى ؛ ويبدو أنه درس فيها بقايا الفن الإيطالى القديم وآثاره المعادة[٢٦] . ثم انتقل إلى پيزا وورث فيها التقاليد الرومنسية ، وسمع بالطراز القوطى الذى بلغ وقتئذ ذروة مجده فى فرنسا . ولما أن نحت منبراً لمكان التعميد فى پيزا اتخذ له نموذجاً تابوتاً فى عهد هدريان . وقد تأثر أشد التأثير بالخطوط القوية الرشيقة التى تمتاز بها الأشكال القديمة ؛ ولهذا فإن معظم الأشكال التى فى منبره ذات ملامح وثياب رومانية وإن كانت أقواسه رومنسية وقوطية ؛ فوجه مريم الذى نراه فى لوحة المخاض وثيابها هما بعينهما وجه امرأة رومانية وثيابها ، ونرى فى إحدى الزوايا صورة لشخص رياضى عار شاهدة على الروح اليونانية القديمة التى كان يتأثر بها هذا الفنان . ودبت الغيرة من هذه التحفة فى قلب سينا (١٢٦٥) فاستخدمت نقولو وابنه چيوڤنى ، وتلميذه أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى صنع منبر أجمل من هذه لكنيستها ، وحالفهم التوفيق فى هذه المهمة . ويقوم المنبر الجديد المصنوع من الرخام الأبيض على عمد ذات تيجان تمثل أوراق النبات ، وتتكرر فيه الموضوعات التى فى منبر پيزا مع لوحة مزدحمة تمثل الصلب . وهنا يتغلب التأثير القوطى على التأثير الرومانى القديم ، ولكن المزاج القديم يظهر فيما يسبغه الفنان على الصور النسائية التى تتوج الأعمدة من صحة سابغة لا خفاء فيها . وكأنما أراد نقولو أن يؤكد عواطفه الرومانية القديمة فنحت فوق قبر القديس دمنيك الناسك فى بولونيا صوراً كاملة الرجولة على الطراز الوثنى مليئة ببهجة الحياة . وانضم فى عام ١٢٧١ إلى ابنه وأرنلفو لينحتوا الواجهة الرخامية التى لا تزال حتى اليوم قائمة فى ميدان پروجيا العام . ومات بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وهو لا يزال إلى

حد ما فى سن الشباب ، ولكنه مهد فى أثناء حياته السبيل إلى دناتلو Donatello وإلى بعث فن النحت القديم فى عصر النهضة .

وكان ابنه چيوڤنى پزانو (حوالى ١٢٤٠ إلى حوالى ١٣٢٠) يضارعه فيما تعرض له من تأثير متعدد النواحى ، ولكنه يفوقه فى مهارته الفنية . وقد عهدت إليه پزا بناء مقبرة تليق بالرجال الذين كانوا فى ذلك الوقت يقتسمون البحر المتوسط الغربى مع جنوى . وجىء بالتراب المقدس للميدان المقدس Compo Santo من جبل كلفارى . وأقام الفنان حول مستطيل كلىء عقوداً رشيقة امتزج فيها الطرازان الرومنسى والقوطى . وجيئت بروائع النحت لتزيين البوائك ، وظل الميدان المقدس قائما يخلد ذكرى چيوڤنى پزانو حتى حطمت الحرب العالمية الثانية نصف عقوده وتركته أنقاضاً مهملة(*) .

ولما منى الپزيون بالهزيمة على أيدى الجنويين (١٢٨٤) لم يعد فى مقدورهم أن يمدوا چيوڤنى بما يحتاجه من المال ، فانتقل إلى سينا . ونحت فى عام ١٢٩٠ بعض النقوش البارزة لواجهة كنيسة أرڤيتو Orvieto الغربية غير المألوفة . ثم عاد فانتقل شمالا إلى پستونيا Pistonia ونحت لكنيسة سانت أندريا Santa Andrea منبراً صوره أقل اكتمالا فى رجولتها من صور منبر والده فى پزا ، ولكنه يفوق منبر أبيه فى رشاقته وفى اتفاقه مع الطبيعة ، والحق أن هذا المنبر لهو أجمل ما أخرجه فن النحت القوطى فى إيطاليا .

وظل أرنلفو دى كمبيو (١٢٣٢ — ١٣٠٠) ثالث هؤلاء الثلاثة الذائعى الصيت يمارس عمله على الطراز القوطى برعاية البابوات ، وكانت لمعظمهم روابط سابقة بفرنسا . فقد اشترك وهو فى أرڤيتو فى قطع واجهة كنيستها ، وصنع تابوتاً جميلا للكردنال ده براى Cardinal de Braye . وكان شبيهاً بفنانى النهضة فى

(*) والعمل يجرى الآن فى إعادة الميدان المقدس إلى ما كان عليه .

تعدد مهاراتهم ؛ وبهذه المهارات المتعددة صمم ، وشرع ينفذ ، ثلاثة من الأعمال المجيدة التى تفخر بها فلورنس : كنيسة سانت ماريا دل فيورى Santa Maria del Fiori ، وكنيسة سانتا كروس Santa Croce (الصليب المقدس) والبلازو ڤتشيو Plazzo Vecchio (قصر ڤتشيو)

ولكننا حين نتحدث عن أرنلفو وعن هذه الأعمال ننتقل بالقارئ من النحت إلى العمارة . فقد عادت كل الفنون وقتئذ إلى الحياة وإلى الصحة ؛ ولم ترجع المهارات القديمة إلى سابق عهدها وكفى ، بل أخذت تغامر فى اتجاهات وصياغات فنية جديدة تكاد لكثرتها تبلغ حد التهور ؛ وتآلفت الفنون وتوحدت ، كما لم تتآلف أو تتوحد من قبل ولا من بعد ، فى المغامرة الواحدة وفى الرجل الواحد . وكان كل شىء قد أعد لتلك الدرجة الرفيعة التى بلغها فن العصور الوسطى ، فتجتمع الفنون كلها وتتعاون أكمل تعاون وأعظمه ، ويطلق اسم فنها الجامع على طراز ذلك العصر وفنه .

الباب الثانى والثلاثون

ازدهار الفن القوطى

۱۰۹٥ – ۱۳۰۰

الفصل الأول

الكتدرائيات(*)

نرى لم شادت أوربا هذا العدد الجم من الكنائس فى الثلاثة القرون التى أعقبت عام ۱۰۰۰ بعد الميلاد ؟ وأية حاجة دعت إلى أن تنشأ فى أوربا التى لا يكاد سكانها فى ذلك الوقت يصلون إلى خمس سكانها الحاليين معابد قلما تمتلئ لسعتها بالمصلين فى أكثر الأيام قدسية ؟ وكيف استطاعت حضارة زراعية أن تنشئ بمواردها تلك الصروح الكثيرة النفقة التى تكاد الحضارة الصناعية تعجز عن الاحتفاظ بها ؟

لقد كان السكان قليلين ، ولكنهم كانوا مؤمنين ؛ وكانوا فقراء ، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم . ويقول سوجر رئيس دير القديس دنيس إن العابدين فى أيام الأعياد ، وفى الكنائس التى يؤمها الحجاج ، كانوا من الكثرة بحيث « تضطر النساء إلى الجرى إلى المذبح متخذات من رءوس الرجال طوارا »(1) ، ولسنا ننكر أن الرئيس العظيم كان يجمع المال لبناء تلك الآية الفنية ، وأنه

(*) الكتدرائية هى الكنيسة الرئيسية فى الأسقفية وفيها يكون مقر الأسقف أو عرشه . (المترجم)

خليق لهذا السبب بأن نغفر له بعض مغالاته . ولكن أسبابا كثيرة كانت تدعو إلى بناء الكنائس بهذه الكثرة وتلك السعة : لقد كان من المرغوب فيه أن يجتمع سكان بعض المدن مثل فلورنس ، وپيزا ، وتشارتر ، ويورك ، فى صرح واحد فى بعض المناسبات . كذلك كان لا بد أن تتسع كنيسة الدير المزدحم للرهبان والراهبات ولغير رجال الدين . وكان لا بد من أن تحفظ المخلفات المقدسة فى أضرحة خاصة تتسع أيضا للصفوة من العابدين ، وكانت الحاجة تدعو إلى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة ، وإلى مذابح جانبية فى الأديرة والكتدرائيات التى ينتظر أن يتلو قساوستها الكثيرون القداس فى كل يوم ؛ وكان الاعتقاد السائد أن مذبحا أو مصلى يخصص لكل قديس محبوب قد يدعوه إلى إجابة طلبات من يتوسلون إليه ؛ وكان لا بد أن يبنى لمريم « مصلى نسائية » إذا لم تكن الكنيسة كلها ملكا لها .

أما نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ مما يجمع من الأموال فى كرسى الأبرشية ؛ وكان الأساقفة فضلا عن هذا يطلبون العطايا من الملوك والنبلاء ، والمدن ذات الحكم الذاتى ، والنقابات الطائفية والأبرشيات ، والأفراد . وكانت المنافسة الطيبة تثار بين المدن التى أضحت الكتدرائية فيها رمزا لثرائها وسلطانها ، تتحدى بهما غيرها من المدن ؛ وكان المتبرعون يوعدون بأن تغفر لهم ذنوبهم ، كما كانت المخلفات المقدسة يطاف بها فى الأبرشية لتحفز الناس إلى العطاء ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يحرض الناس على البذل والسخاء بمعجزة من المعجزات[٢] . وكان التنافس فى بذل المال للبناء شديداً ؛ وكان الأساقفة يعارضون فى جمع المال من أبرشياتهم لإقامة منشآت فى غيرها ، ولكن أساقفة من أجزاء أخرى ، ومن بلاد أجنبية فى بعض الأحيان ، كانوا يمدون بالمعونة مشرعات فى غير بلادهم كما حدث فى مدينة تشارتر . ولسنا ننكر أن بعض هذه الطبقات كانت تقرب أحيانا من الإلزام ، ولكنها قلما تصل إلى قوة

المؤثرات التى تعبأ لتمويل الحروب الحديثة من الأموال العامة . وقد استنفدت هيئات القساوسة فى الكتدرائيات الفرنسية أموالها الخاصة ، وكادت تفلس من أجل ذلك الكنيسة الفرنسية فى خلال سورة البناء القوطية . ولم يكن الناس أنفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستَغلون ، وقلما كانوا يحسون بفقد القليل الذى يبذله كل فرد منهم ، لأن هذا القليل كان يرد إليهم فيما يعود عليهم من عزة جماعية وعمل جليل عظيم ، وفيما يكون لهم من بيت للعبادة ، ومكان رحب يجتمعون فيه ، ومدرسة يتعلم فيها أبناؤهم ، ومدرسة للفنون والحرف تتلقاها فيها نقاباتهم الطائفية ؛ وكانت فى نظرهم كتاباً مقدسا من الحجارة يقرءون فى تماثيله وصوره بعين بصيرتهم قصة إيمانهم . وقصارى القول أن بيت الله كان أيضاً بيت الشعب .

ومن هم الذين خططوا الكتدرئيات ؟ إذا كانت العمارة هى فن تخطيط البناء وتجميله ، وتوجيه القائمين بتشييده فإن علينا أن نرفض — فى حالة الفن القوطى — الرأى القديم القائل إن القسيسين أو الرهبان هم مهندسو هذه الصروح . لقد كانت مهمتهم هى أن يصوغوا حاجتهم ، وأن يتقدموا بفكرة عامة عن البناء المطلوب ، ويحصلوا على مكان يقيمونه فيه ، ويجمعوا ما يلزمه من المال . وقد جرت عادة رجال الدين وبخاصة رهبان دير كلونى قبل عام ١٠٥٠ أن يصمموا البناء ، ويضعوا خطته ، ويشرفوا على بنائه . أما الكتدرائيات الكبرى — كلها بعد عام ١٠٥٠ — فقد كان لا بد فيها من استخدام مهندسين محترفين ، كانوا كلهم — إلا قلة منهم لا تذكر — من غير الرهبان أو القسيسين . ولم يكن المهندس المعمارى يلقب بهذا اللقب قبل عام ١٥٦٣ ، بل كان يسمى فى العصور الوسطى « رئيس البنائين » وأحيانا رئيس المشيدين » ، وتدلنا هذه التسمية على منشئه . فقد كان يبدأ حياته بنَّاء يعمل بيده فى البناء الذى يشرف عليه . فلما استهل القرن الثالث عشر وعظم الثراء ، فشيدت بفضله الصروح الكبيرة ، وزاد

التخصص ، لم يبق « رئيس البنائين » رجلا يشترك بنفسه فى العمل اليدوى ، بل أصبح رجلا يضع الخطط ويعرض المناقصات ؛ ويقبل المشارطات ، ويخطط الأرض ، ويضع الرسوم ، ويحصل على المواد ، ويؤجر العمال والفنانين ، ويؤدى إليهم أجورهم ، ويشرف على أعمال البناء من البداية إلى النهاية . وإنا لنعرف أسماء الكثيرين من هؤلاء المهندسين الذين عاشوا بعد عام ١٠٥٠ ، نعرف أسماء ١٣٧ من المهندسين القوط فى أسپانية العصور الوسطى بله غيرها من البلاد . ومن هؤلاء من كانوا ينقشون أسماءهم على ما يشيدونه من الأبنية ، ومنهم قلة ألفت كتباً فى مهنتها . وقد ترك ڤلار ده هنكور Villard de Honnecourt (حوالى عام ١٢٥٠) سجلا من المذكرات والرسوم التخطيطية المعمارية توضح ما قام به من الأسفار وهو يمارس مهنته من ليون وريمس إلى لوزان وبلاد المجر .

ولم يكن للفنانين الذين يقومون بأعمال أقل درجة من البناء — أى الذين يحفرون الصور ، والنقوش ، أو يدهنون النوافذ والجدران ، أو يزينون المذبح أو مكان المرتلين — لم يكن لهؤلاء الفنانين اسم خاص يمتازون به من الصناع ؛ لقد كان الفنان رئيس صناع ، وكانت كل صناعة تحاول أن تكون فنا . وكانت معظم الأعمال توزع بمقتضى عقود ومشارطات على النقابات الطائفية التى ينتمى إليها الصناع والفنانون على السواء . أما العمل الذى لا يحتاج إلى مهارة فكان يقوم به أرقاء الأرض أو عمال متنقلون مأجورون ؛ وإذا ما طلب العمل الإسراع جندت الحكومة رجالا — وصناعا ماهرين إذا لزم الأمر — لإنجازه[٣] . وكانت ساعات العمل تدوم فى الشتاء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، وفى الصيف من بعد مطلع الشمس إلى قبيل الغروب ، مع السماح للعمال بوقت يتناولون فيه وجبة الغداء . وكان المهندسون الإنجليز يتقاضون فى عام ١٢٧٥ اثنى عشر بنسا فى اليوم (١٢ سنتاً أمريكيا) تضاف إليها أجور الانتقال وهدايا فى بعض الأحيان ؛

وكان تخطيط أرض الكتدرائية فى جوهره هو تخطيط الباسلقا الرومانية : فهو صحن مستطيل ينتهى بمحراب وقبا ، ويرتفع فوق طرقتين وبينهما إلى سقف قائم على جدران وعمد . وطرأ على هذه الباسلقا البسيطة تطور معقد ولكنه فاتن خلاب ، فأضحت هى الكتدرائية الرومنسية أولا والقوطية فيما بعد ، فقطع الصحن والطرقتين صحنٌ عَرْضى يجعل التصميم فى شكل صليب لاتينى . وأخذت مساحة أرض الكتدرائية تزداد بفضل المنافسة أو الحماسة الدينية ، حتى أضحت مساحة كنيسة نوتردام فى باريس ٦٣٫٠٠٠ قدم مربعة ، ومساحة كنيسة تشارتر أو ريمس ٦٥ ألفاً ، وكنيسة أمين ٧٠ ألفاً ، وكولونى ٩٠ ألفاً والقديس بطرس ١٠٠ ألف . وكانت الكنيسة المسيحية تبنى بحيث يكاد رأسها أو محرابها يكون على الدوام متجهاً نحو الشرق — أى نحو بيت المقدس .

ومن أجل هذا كان المدخل الرئيسى فى الواجهة الغربية التى تستقبل زخرفتها الخاصة ضوء الشمس الغاربة . وكان كل مدخل فى الكتدرائيات العظيمة يتألف من باكية ذات « تجويفات داخلة » : أى أن أبعد العقود من الداخل يعلوه عقد أكبر منه يمتد إلى الخارج ، من فوقه هو أيضاً عقد يعلوه عقد ثالث أكبر من الثانى ، ويتكرر هذا الوضع حتى تبلغ العقود فى بعض الأحيان ثمانى طبقات يتكون منها كلها غلاف قابل للاتساع . وهناك « طبقات ثانوية » شبيهة بها تزيد جمال عقود الصحن وأكتاف الشبابيك . ويتسع كل رباط حجرى من العقد المعمارى لتماثيل أو غيرها من الزخارف المنحوتة ، وبذلك يصبح مدخل الكتدرائية ، وبخاصة فى الواجهة الغربية ، وكأنه فصل شامل واف فى كتاب القصص المسيحى الحجرى .

ومما زاد روعة الواجهة الغربية ومهابتها أن أقيم حولها من الجانبين برجان ؛ ذلك أن الأبراج قديمة قدم السجلات التاريخية ؛ ولم تكن تستخدم فى الطرازين الرومنسى والقوطى مكاناً للأجراس فحسب ، بل كانت تستخدم فوق ذلك

لتحمل ضغط الواجهة الجنوبى ؛ وضغط طوب الأجنحة . وكان فى المبانى النورمندية والإنجليزية برج ثالث ذو نوافذ كثيرة ، إذا لم يكن جزؤه الأكبر مفتوحاً عند قاعدته ، وكان هذا البرج بمثابة « فانوس » ينفذ منه الضوء الطبيعى إلى وسط الكنيسة . وقد أراد المهندسون القوط المولعون بالأوضاع الرأسية أن يضيفوا برجا رفيعاً مستدق الطرف لكل واحد من هذين البرجين ، غير أنهم لم يسعفهم المال ، أو المهارة الفنية ، أو الحماسة ؛ وسقطت بعض هذه الأبراج المستدقة كما حدث فى بوفيه ؛ ولم تقم فى كتدرائيات نوتردام ، أو أمين ، أو ريمس أبراج من هذا النوع ، ولم يُبن فى تشارتر إلا برجان من الثلاثة الأبراج المستدقة التى كان فى النية إقامتها ، كما لم يُبن فى لاوُن إلا واحد من خمسة ، وقد دمر هذا البرج المستدق فى أثناء الثورة الفرنسية . وكان برج الجرس يشرف على المدن الإيطالية ، كما كان البرج المستدق يشرف على برارى البلاد الأوربية والشمالية . وكانت هذه الأبراج فى تلك الجهات الشمالية منفصلة عادة عن بناء الكنيسة ، تشبه من هذه الناحية برج بِزا Pisa المائل ، أو برج چيتو فى فلورنس . ولعل من شادوها قد تأثروا بالمآذن الإسلامية ، ثم عادوا فنشروا هذا الطراز فى فلسطين وسوريا ، وأصبحت هى أبراج الأجراس فى المدن الشمالية .

وإذ كانت العمد التى على جانبى الطرقة الوسطى فى داخل الكنيسة تعتمد عليها عقود تنحنى حتى تلتقى فى قبة السقف ، فإن هذه الطرقة تبدو للناظر كأنها هيكل المركب من الداخل فى وضع مقلوب ، ومن هذا الوضع اشتق اسمها nave(*) . وكان طولها ينقص تأثيره فى نفس الناظر إليه أحياناً ، وبخاصة فى إنجلترا ، بإضافة شباك من الرخام أو الحديد المشغول منحوت أو مصبوب نحتاً أو صباً جميلا يعترض الصحن ليقى المحراب من تطفل العلمانيين أثناء الصلاة .

(*) الاسم الإنجليزى nave الذى يطلق على صحن الكنيسة أى جزئها الأوسط العام مشتق من كلمة net الفرنسية المأخوذة من كلمة navis اللاتينية ومعناها السفينة . (المترجم)

وكان فى المحراب مقاعد للمرنمين كلها تحف فنية على الدوام ، ومنبران ، ومقاعد للقساوسة الذين يصلون بالناس ، والمذبح الرئيسى الذى يحتوى فى أغلب الأحيان على ستار خلفى مزخرف . ومن حول المحراب ممشى دائرى يصل صحن الكنيسة بقباها ، ويسمح للمواكب بأن تطوف بالبناء كله . وكانت بعض الكنائس تنشئ تحت المذبح قبواً تحفظ فيه مخلفات القديس الشفيع ، أو عظام الأموات الممتازين ، وكأنها بذلك تذكرنا بحجرات الدفن فى مقابر الرومان .

وكانت المشكلة الكبرى فى العمارة الرومنسية أو القوطية هى طريقة ارتكاز السقف . لقد كانت الكنائس الأولى المقامة على الطراز الرومنسى ذات سقف خشبية مصنوعة فى العادة من خشب البلوط الجيد الجفاف ، وإذا ما أحسنت تهوية هذا الخشب ومنعت عنه الرطوبة فإنه يبقى إلى ما شاء الله ، وشاهد ذلك أن الطرقة الجنوبية المستعرضة فى كتدرائية ونشستر لا تزال محتفظة بسقفها الخشبى المصنوع فى القرن الثانى عشر . وأكبر عيب فى هذه السقف هو تعرضها لخطر الحريق ، فإذ ما شبت النار فيها كان من الصعب الوصول إليها لإطفائها . ولهذا فإنه لم يستهل القرن الثانى عشر حتى كانت الكنائس الكبرى كلها تقريباً قد بنيت سقفها . وكان ثقل هذه السقف هو الذى وجه تطور العمارة الأوربية فى العصور الوسطى ؛ فكان لابد من أن يرتكز قسم كبير من هذا الثقل على العمد المقامة على جانبى الصحن ؛ وإذن فقد كان لا بد من تقوية هذه العمد أو مضاعفة عددها ، وقد تحقق هذا الغرض بضم عدد من العمد فى مجموعة أو إحلال دعامات ضخمة من البناء محل هذه العمد . وكانت مجموعة العمد أو الدعامة الضخمة يعلوها تاج ، وربما كانت لها أيضا عصابة يتسع بها سطحها لتحمل ما يعلوها من ثقل . وكانت مروحة من العقود تقوم فوق كل مجموعة من العمد أو الدعامة : منها عقد مستعرض فى الصحن يمتد إلى الدعامة المواجهه ، وعقد مستعرض آخر يمر فوق الطرقة إلى دعامة فى الجدار ، وعقــدان طوليان يمتدان إلى الدعامتين التاليتين

الخلفية منهما والأمامية ، وعقدان ممتدان على طولى القطرين ويصلان بين إحدى الدعامات ودعامتين مقابلتين لها فى عرض الصحن ؛ وقد يكون هناك عقدان آخران ممتدان إلى دعامتين مقابلتين يعلوان فوق عرض الممشى . وقد جرت العادة أن يكون لكل عقد ركيزته الخاصة فوق عصابة الدعامة أو تاجها . وكان يحدث أحياناً ما هو خير من هذا فيكون مستطيل كل عقد فى خط غير منقطع حتى يصل إلى الأرض ليكون طائفة من العمد المتجمعة أو الدعامات المركبة . وكان الأثر الذى ينتج من هذه العمد والدعامات الرأسية من أجمل خصائص الطرازين الرومنسى والقوطى . وكان كل مربع من الدعامات القائمة فى الصحن أو الطرقات يكون فرجة ترتفع منها العقود منثنية انثناء رشيقاً نحو الداخل ليتكون منها قسم من القبة . وكان هذا السقف يغطى من الخارج بسطح هرمى من الخشب تستره وتقيه طبقة من الاردواز أو القرميد .

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى . وقد سمح مبدأ العقود بإيجاد فضاء يغطى أوسع رقعة من السطح الذى ييسر وجوده السقف الخشبى أو العوارض المرتكزة على العمد . وبهذا أصبح من المستطاع توسيع عرض الصحن حتى يوائم طوله الكبير ؛ فلما زاد هذا العرض تطلب ذلك زيادة ارتفاعه حتى يتناسب الارتفاع مع سعته ؛ وييسر هذا ارتفاع المستوى الذى تقوم فوقه الدعامات أو الجدران ؛ وهذه الاستطالة الجديدة فى العمد زادت هى الأخرى من علو الكتدرائية . وزاد تناسق أجزاء القبة لما أنشئت فى حافاتها « ضلوع » من الآجر أو الحجارة تمتد من زوايا تقاطع العقود . وأدت هذه الضلوع هى الأخرى إلى تحسينات كبرى فى البناء والطراز . فقد عرف البناءون كيف يبدأون القبة بإنشاء ضلع بعد ضلع فوق إطار خشبى يسهل تحريكه ونقله ؛ ثم ملأوا المثلثات التى بين كل ضلعين بالبناء الخفيف مثلثاً بعد مثلث ، وجعلوا هذه الشبكة الرقيقة من البناء مقعرة ؛ وبهذا نقل الجزء الأكبر من ثقله إلى الضلوع

نفسها ، وجعلت هذه الضلوع قوية حتى يلقى الضغط السفلى على نقط معينة — هى دعامات الصحن أو الجدار . ولقد أضحت القبة ذات الأضلاع والعقود المتقاطعة من أهم ما تمتاز به عمارة العصور الوسطى فى أعلى درجاتها .

وعولجت مشكلة ارتكاز البناء العلوى فوق هذا بجعل صحن الكنيسة أعلى من طرقاتها ؛ وبهذا كان سقف الطرقة ، هو والجدار الخارجى ، بمثابة دعامة لقبة الصحن ؛ وإذا ما بنيت فوق الطرقة نفسها قبة ، فإن عقودها المضلعة تلقى نصف ثقلها إلى الداخل لتقاوم بذلك الضغط الخارجى للقبة الوسطى عند أضعف نقط فى دعامات الصحن . يضاف إلى هذا أن جزء الصحن الذى يعلو عن سقف الطرقات يصبح فى الوقت نفسه بمثابة طابق أعلى ترتفع نوافذه فوق مستوى البناء المجاور له ، فتكون بذلك غير محجوبة وتضىء صحن الكنيسة . وكانت الطرقات نفسها تقسم عادة إلى طابقين أو ثلاثة أطباق تكون أعلاها شرفة ، وتسمى التى أسفل منها ذات الأبواب الثلاثة لأن المسافات التى بين العقود والتى تواجه بها الصحن كانت تقسم عادة إلى « ثلاثة أبواب » بعمودين يقومان فيها . وكان ينتظر من النساء فى الكنائس الشرقية أن يصلين فى ذلك المكان وأن يتركن الصحن كله للرجال .

وهكذا قامت الكتدرائية مرحلة فى إثر مرحلة خلال عشرة أعوام أو عشرين عاما أو مائة عام ، تتحدى قوة الجاذبية لتمجد الله سبحانه . فإذا تمت وأصبحت معدّة للصلاة دشنت باحتفال دينى فخم ، يجتمع فيه كبار الأحبار وذوو المقام العالى ، والحجاج ، والنظارة ، وجميع أهل المدينة ما عدا القرويين غير المتدينين . وتمضى عدة سنوات بعد ذلك لتكملة ما تحتاج إليه من الإضافات فى الداخل والخارج وإضافة ألف من الزخارف وضروب التحلية . ويظل الناس قروناً طوالا يقرأون على أبوابها ، ونوافذها ، وتيجان أعمدتها وجدرانها ما حفر أو صور عليها من تاريخ دينهم وقصصه — يقرأون قصة خلق العالم ، وسقوط آدم ، ويوم

الحساب ، وسير الأنبياء والبطارقة وما تعرض له أولياء الله الصالحون من صنوف العذاب وما قاموا به من المعجزات ،والقصص ذات المغزى التي تدور حول عالم الحيوان ، وعقائد رجال الدين التحكمية ، بل وآراء الفلاسفة التجريدية . كل هذه نجدها في الكنيسة تتكون منها موسوعة حجرية كبيرة في الدين المسيحي . وكان المسيحي الصالح يرجو حين يموت أن يدفن بالقرب من تلك الجدران التي تمتنع الشياطين عن الجولان حولها . ويأتي الناس جيلا بعد جيل للصلاة في الكتدرائية ، ويخرجون جيلا بعد جيل من الكنيسة إلى المقابر التي حولها . وتطل الكتدرائية الشهباء عليهم في غدوهم ورواحهم بهدوء الحجارة الساكنة حتى يجيء الموت الأعظم ، ويموت الدين نفسه ، فتستسلم هذه الجدران المقدسة إلى الدهر الذي لا يبقي على شيء ، أو حتى تهدم هذه الكتدرائية لتبنى من أنقاضها هياكل جديدة لآلهة جدد .

الفصل الثانى

الطراز الرومنسى القارى : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لو أننا قلنا إن هذا الوصف العام الذى وصفنا به بناء الكتدرائية يصدق على جميع الكنائس فى العالم المسيحى اللاتينى لأخطأنا خطأ كبيراً فى شأن تنوع العمارة الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر : ذلك أن تأثير الفن البيزنطى قد بقى قائماً فى مدينة البندقية ؛ وقد أضيفت إلى كنيسة القديس بطرس زخارف بعد زخارف ، وأبراج بعد أبراج ، وغنائم تلو غنائم ، ولكنها كانت على الدوام على نمط مثيلاتها فى القسطنطينية ممتزجة بأخرى من بغداد . وأكبر الظن أن طراز القباب البيزنطى ذا المثلثات التى بين العقود القائمة فوق قاعدة يونانية على شكل الصليب ، قد دخل فرنسا عن طريق جنوى أو مرسيليا ، وظهر فى كنيستى سانت إتين St. Etienne وسانت فرونت St. Front فى برجويه Perigucx وفى كتدرائيتى كاهور Cahors وأنجوليم Angoulême . ولما أن اعتزمت البندقية إعادة بناء قصر الدوج وتوسيعه عمدت فى عام ١١٧٢ إلى خليط من الطرز المعمارية — الرومانية ، واللمباردية ، والبيزنطية ، والعربية — وجمعتها كلها فى آية من آيات الفن وصفها فيلهاردون Villehardouin فى عام ١٢٠٢ بأنها جد غنية وجميلة ، ولا تزال حتى الآن أكبر مفاخر القناة الكبرى فى تلك المدينة .

وليس ثمة تعريف لأى طراز معمارى يسلم من الشواذ ، ذلك بأن أعمال الإنسان ، كأعمال الطبيعة نفسها ، تأبى التعميم ، وتلوح بفرديتها فى وجه كل قاعدة . فلنقل إذن إن العقد المستدير ، والجدران والدعامات السميكة ، والنوافذ الضيقة ، ومساند الجدران المتصلة بعضها ببعض أو انعدام هذه المساند ، والخطوط الأفقية فى الغالب ، لنقل إن هذه الصفات هى التى يمتاز بها الطراز الرومنسى ،

ولكن مستعدين مع هذا إلى قبول بعض الانحراف عن هذا الوصف فى هذا الطراز .

وقد طلبت بيزا بعد ما يقرب من قرن من إقامة كنيستها إلى ديوتيسلفى Diotisalvi أن يبنى مكاناً للتعميد فى عرض مربع من مربعات الكندرائية (١١٥٢) . فصمم البناء على شكل دائرة وجعل ظاهر البناء من الرخام ، وشوهه بالبواكى الخالية من النقوش ، وأحاطه بالعمد ، وأقام فوقه قبة لولا أنه جعل أعلاها مخروطى الشكل لكانت كاملة . ثم أقام بونانو Bonanno من بيزا ووليم من إنزبروك Innsbruck البرج المائل ليكون برجا للأجراس (١١٧٤) . وقد تكرر فيه طراز واجهة الكندرائية — فهو سلسلة من البواكى الرومنسية بعضها فوق بعض وفى طبقته الثامنة علقت الأجراس . وهبط البرج فى ناحيته الجنوبية بعد أن بنيت ثلاث طبقات فوق الأساس الذى لم يزد عمقه على عشر أقدام ؛ وأراد المهندس أن يعوض هذا الميل بأن أمال الطبقات الأخرى نحو الشمال . وينحرف البرج الآن عن الوضع العمودى ست عشرة قدماً ونصف قدم فى ارتفاع ١٧٩ قدماً — وقد زاد هذا الانحراف قدماً واحدة بين عامى ١٨٢٨ و ١٩١٠ .

وجاءت الأنماط الرومنسية مع الرهبان الإيطاليين الذين هاجروا إلى فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ولعل هؤلاء الرهبان هم الذين طبعوا معظم الأديرة الفرنسية بالطابع الرومنسى ، ولهذا فقد أصبح طراز الأديرة اسماً ثانياً لهذا الطراز فى فرنسا . وقد شاد رهبان دير كلونى البندكتيون فيها ديراً فخماً (١٠٩٨ — ١١٣١) يحتوى على أربع طرقات جانبية وسبعة أبراج ، ونحتوا طائفة كبيرة من تماثيل الحيوانات أثارت غضب القديس برنار وأنطقته بقوله :

ماذا تريدون أن تفعل هذه الوحوش السخيفة المضحكة فى أروقة الدير تحت سمع الرهبان وبصرهم ؟ وما معنى وجود هذه القردة النجسة ، وتلك

التنينات ، والقنطروسات ، والنمورة ، والآساد . . . وأولئك المقاتلين ، ومناظر الصيد التي تغطي الجدران ؟ . . . وماذا تعمل تلك المخلوقات التي نصفها وحوش ونصفها أناسي ؟ . . . إنا لنرى هنا عدة أجسام تحت رأس واحد ، وعدة رؤوس فوق جسم واحد ، ونرى فى مكان ما حيواناً من ذوات الأربع له رأس ثعبان ، وفى مكان آخر سمكة لها رأس حيوان من ذوات الأربع ؛ ونرى فى مكان غيره جواداً من الأمام وماعزاً من الخلف(٤) .

وقد دمر دير كلونى فى أثناء اضطرابات الثورة الفرنسية ، ولكن أثره المعمارى انتشر فى الألفين من الأديرة المنتسبة إليه . ولا يزال جنوبى فرنسا غنياً بالكنائس الرومنسية ، فقد كانت التقاليد الرومانية فيها قوية فى الفن كما كانت قوية فى القوانين ، وظلت زمناً طويلا تقاوم الطراز « البربرى » القوطى الذى أقبل عليها من الشمال . وإذ كان الرخام نادراً فى فرنسا فقد عوضت نقص البريق الخارجى بكثرة الصور المنحوتة ، وإن ما تمتاز به التماثيل من قوة التعبير لما يثير الدهشة — ففيها يتبين الناظر العزم على نقل الإحساس بدل نقل المنظر ؛ ولهذا فإن صورة القديس بطرس القائمة عند باب دير مواساك Moissac (١١٥٠) بوجهها المعذب وساقيها العنكبوتيتين لم تكن تهدف بلا ريب إلى إبراز خطوط البناء بقدر ما كانت تهدف إلى التأثير فى خيال الناظر إليها وبث الرعب فى قلبه . وتدل صور النبات الدقيقة الواقعية فى تيجان أعمدة مواساك على أن المثالين قد عمدوا عن قصد إلى تشويه ما يرسمون من الصور . وخير ما يوجد من هذه الواجهات الرومنسية فى فرنسا هو المدخل الغربى لكنيسة القديس تروفيم St. Trophime فى آرل (١١٥٢) ، المزدحمة بصور الحيوانات والأولياء الصالحين .

وشادت أسپانيا ضريحاً رومنسياً فخماً فى كنيسة سنتياجو ده كمپستسيلا (١٠٧٨ — ١٢١١) الذى يحتوى « باب المجد » Portico de Gloria فيها

أجمل نحت رومنسى فى أوربا كلها . وشادت كوامبرا Coimbra ، التى أضحت بعد زمن وجيز مدينة البرتغال الجامعية ، كتدرائية رومنسية فى القرن الثانى عشر ، ولكن الطراز الرومنسى لم يبلغ ذروته إلا فى البلاد الشمالية التى هاجر إليها . لقد نبذته إيل ده فرانس Ile de France ولكن نورمندية أحسنت استقباله ، لأن قوتها الخشنة كانت توائم أحسن مواءمة شعباً كان من عهد قريب من بحارة الشمال المغيرين ، ولم يزل حتى ذلك الوقت من القراصنة . ولهذا شاد رهبان چوميبج Jumièges البندكتيون وهى بلدة قريبة من رون — فى عام ١٠٤٨ ديراً اشتهر بأنه أكبر من أى دير سواه شيد فى أوربا الغربية منذ أيام قسطنطين ، ذلك بأن العصور الوسطى كانت تفخر أيضاً بضخامة مبانيها . وقد دمر هذا الدير نصف تدمير على أيدى المتعصبين من رجال الثورة ، ولكن واجهته وأبراجه الباقية حتى الآن تحتفظ بتصميمه الجرىء القوى . والحق أن الفرع النورمندى من الطراز الرومنسى قد تكوّن فى ذلك المكان ، وكان يعتمد فى تأثيره على الحجم وشكل البناء أكثر مما يعتمد على الزينة .

وأراد وليم الفاتح أن يكفر عن ذنبه بزواج ماتلدة أميرة فلندرز فقدم فى عام ١٠٦٦ المال اللازم لبناء كنيسة سانت إتين فى كائن Caen وهى المعروفة بدير الرجال Abbays aux Homme ؛ وقدمت ماتلدة ، لهذا الغرض عينه فيما نظن ، ما يلزم من المال لبناء كنيسة الثالوث La Trinité المعروفة بدير النساء Abbys aux Dames ولما أريد إعادة بناء دير الرجال فى عام ١١٣٥ قسمت كل فرجة بين العمد فى صحن الكنيسة بعمود إضافى فى كل ناحية ، وربط العمودان الجديدان بقوس مستعرضة ، وبهذا أضحت القبة الرباعية قبة سداسية ، وهو شكل انتشر فى أوربا فى القرن الثانى عشر .

وانتقل الطراز الرومنسى من فرنسا إلى فلاندرز وأنشئت على هذا الطراز كتدائية جميلة فى تورناى (١٠٦٦) ؛ ومن فلاندرز ، وفرنسا ، وإيطاليا انتقل

إلى ألمانيا : وكانت مدينة مينز قد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٠٠٩ ، وترير Trier فى عام ١٠١٦ واسپاير Speyer فى ١٠٣٠ ، ثم أعيد بناء هذه الكنائس قبل عام ١٣٠٠ ، واحتفظ فيها حين إعادتها بالطراز المستدير ، وشادت كولونى فى ذلك الوقت فى كپتول Kapitol كنيسة القديسة مارية التى اشتهرت بجمالها من الداخل وكنيسة القديسة مارية الشهيرة بأبراجها . وقد دمرت الكنيستان فى الحرب العالمية الثانية . ولا تزال كتدرائية ورمز التى افتتحت فى عام ١١٧١ وأعيد بناؤها فى القرن التاسع عشر تشهد بعظمة فن نهر الرين الرومنسى . وكان لكل واحدة من هذه الكنائس قبا فى كل طرف ، وقلما كان يعنى فيها بالواجهات ذات التماثيل المنحوتة ، بل كانت تزدان من الخارج بالعمد وتدعم بأبراج أخرى صغيرة رفيعة ذات أشكال مختلفة . وإن الناقد غير الألمانى ليمتدح هذه الأضرحة بالاعتدال المنبعث من نزعته الوطنية ، ولكن الألمانى يرى فيها جمالا فاتنا يوائم كل المواءمة جمال بلاد الرين الجذاب .

الفصل الثالث

الطراز النورمندى فى إنجلترا : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لما جلس إدورد المعترف على العرش فى عام ١٠٤٢ جاء معه بكثير من الأصدقاء والأفكار من بلاد نورمندية التى قضى فيها أيام شبابه . وبدأ دير وستمنستر فى أيامه كنيسة نورمندية ذات عقود مستديرة وجدران ثقيلة ، وقد دفن هذا البناء تحت الدير القوطى الذى شيد فى عام ١٢٤٥ ؛ ولكنه كان بداية انقلاب معمارى خطير ؛ وكان الإسراع فى استبدال الأساقفة النورمنديين بالسكسون والدنمرقيين مما أكد غلبة الطراز النورمندى فى إنجلترا . ونفح وليم الفاتح وخلفاؤه الأساقفة بكثير من الثروة المصادرة من الإنجليز الذين لم يقـــدروا فتح بلادهم حق التقدير وأضحت الكنائس أداة لتهدئة العقول ؛ وما لبث الأساقفة الإنجليز النورمنديون أن بلغوا من الثراء ما بلغه النبلاء الإنجليز النورمنديون ؛ وتضاعف عدد الكتدرائيات والقصور ، وتحالفت بعضها مع بعض فى البلاد المفتوحة . وكتب فى ذلك وليم المالمزبرى William of Malmsbury يقول : « وأخذوا كلهم ينافس بعضهم بعضا فى إقامة العمائر الفخمة على الطراز النورمندى ؛ لأن النبلاء كانوا يشعرون بأن اليوم الذى يحتفلون فيه بعمل فخم عظيم يوم ضائع »[٥] . والحق أن إنجلترا لم تشهد قط سورة جنونية فى البناء كالتى شهدتها فى ذلك الوقت .

وتفرعت العمارة النورمندية الإنجليزية من الطراز الرومنسى وكانت مغايرة له فى بعض أجزائه . فقد حذت حذو المثل الفرنسية فى ارتكاز السقف بعقود مستديرة على دعامات سميكة وجدران ثقيلة — وإن كانت سقفها قد صنعت فى العادة

من الخشب . وإذ كانت القبة من الحجارة فقد كان سمك الجدران يتراوح بين ثمان أقدام وعشر . وكانت معظم الكنائس أشبه بالأديرة فى أنها تقام فى أماكن نائية لا فى المدن . ولم يكن فى الكنيسة إلا قليل من التماثيل الخارجية ، لأن القائمين عليها كانوا يخشون على هذه التماثيل من مناخ البلاد الرطب ، وحتى تيجان الأعمدة كانت تُنحت نحتاً بسيطاً غير دقيق ؛ والحق أن إنجلترا لم تبلغ فى النحت ما بلغته بلاد القارة الأوربية ؛ وإن لم تكن فى تلك البلاد أبراج كثيرة تضارع الأبراج العظيمة التى تشرف على القصور النورمندية أو تحرس وجهات الكنائس النورمندية — أو ملتقى الطرقات المغطاة فيها .

ولا يكاد يبقى إلى وقتنا هذا فى إنجلترا كلها بناء كنسى رومنسى خالص . فقد ارتفعت فى كثير من الكتدرائيات العقود والقباب فى القرن الثالث عشر ، ولم يبق فيها إلا الشكل الأساسى النورمندى ؛ وقد دمرت النار كتدرائية كنتربرى القديمة فى عام ١٠٦٧ ، ثم أعاد لافرانك بناءها (١٠٧٠ — ١٠٧٧) على نمط دير الرجال الذى له فى كائن ، ولم يبق من كنيسة لافرانك إلا قطع قليلة من البناء فى المكان الذى سقط فيه بكت . ثم أقام الرئيسان إرنلف وكنراد سردابا جديداً ومكاناً للمرنمين ، واحتفظا بالعقد المستدير ولكنهما نقلا الضغط على نقط تقويها مساند خارجية . وكان الانتقال إلى الطراز القوطى قد بدأ قبل ذلك الوقت .

واختفت فى عام ١٢٩١ كنيسة يورك التى شيدت فى عام ١٠٧٥ على قواعد نورمندية ، وكان اختفاؤها تحت صرح قوطى ، وأعيد بناء كتدرائية لكلن ، التى كانت فى الأصل (١٠٧٥) نورمندية الطراز ، على الطراز القوطى ، وكان ذلك بعد أن دمرها زلزال عام ١١٨٥ ؛ ولكن الكنيسة النورمندية الأولى بقى منها البرجان الكبيران والأبواب الفخمة النحت ، ومنها يستبين الإنسان ما يمتاز به الطراز القديم من حذق وقوة . وفى ونشستر بقيت من الكتدرائية القديمة التى

أقيمت بين عامى ١٠٨١ و ١١٠٣ طرقاتها المتقاطعة وسردابها . وهذه الكنيسة هى التى بناها الأسقف ولكلين Walkelin لاستقبال الوفود التى كانت تحج إلى قبر القديس إسويثين(*) . وقد لجأ إسويثين إلى ابن عمه وليم الفاتح ليمده بالخشب اللازم لسقف صحنها العظيم الاتساع ؛ وأجاز له وليم أن يأخذ من غابة همپاج Hempage كل ما يستطيع قطعه من الأشجار فى ثلاثة أيام ، فما كان من أتباع ولكلين إلا أن قطعوا جميع أشجار الغابة ونقلوها فى اثنتين وسبعين ساعة . ولما تم بناء الكتدرائية شهد تدشينها رؤساء الأديرة الإنجليزية وأساقفتها كلهم تقريبا ؛ وليس من العسير علينا أن نتصور ما أثاره هذا الصرح الضخم من منافسة قوية فى البناء .

وفى وسعنا أن نتصور كذلك اتساع مجال التنافس فى الأبنية النورمندية إذا لاحظنا أن دير سانت أولبنز بدئ فى عام ١٠٧٥ ، وأن كتدرائية إلى Ely بدئت فى عام ١٠٨١ ، وروشستر فى عام ١٨٠٣ ، وكنيسة وورسستر فى عام ١٠٨٤ ، وكنيسة القديس بولس القديمة فى عام ١٠٨٧ ، وكنيسة جلوسستر فى ١٠٨٩ ، ودرهام فى ١٠٩٣ ، ونوروك فى ١٠٩٦ وتشيشستر فى ١١٠٠ ، وتوكسبرى Tewkesbury فى ١١٠٣ ، وإكستر فى ١١١٢ ، وپيتربرو Peterborough فى ١١١٦ ، وكنيسة دير رمزى Romsey فى ١١٢٠ ، ودير فونتن Fountains فى ١١٤٠ ، وكنيسة القديس داڤد بويلز فى ١١٧٦ . وليست هذه الكنائس مجرد أسماء بل هى كلها آيات فنية ؛ وإنا لنستحى أن نخرج من هذه الكنائس ولما نقض فيها إلا بضع ساعات ، أو أن نفرغ من الكلام عليها فى بعض السطور . وقد أعيد بناؤها أو بُدّلت كلها ما عدا واحدة على الطراز القوطى ، ذلك أن كنيسة درهام لاتزال نورمندية

(*) وهو أسقف من أساقفة ونشستر عاش فى القرن التاسع . وتقول إحدى القصص إن المطر قد أخر نقل جثته إلى الضريح الذى أعد له فى عام ٩٧١ مدة أربعين يوما ؛ ومن ثم نشأ القول المأثور إن نزول المطر فى يوم القديس اسويثين (١٥ يوليه) ينبئ باستمراره أربعين يوما .

فى معظم أجزائها ، ولا تزال أعظم الصروح الرومنسية فى أوربا روعة .

ودرهام بلدة صغيرة من بلدان التعدين يبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألفاً . ويقوم عند ثنية من ثنايا نهر وير Wear نتوء صخرى ، ويقوم على على هذا المرتفع ذى الموقع المنيع صرح الكتدرائية الضخم « نصفه كنيسة لله ونصفه الآخر حصن منيع لصد غارات الاسكتلنديين »(٦) . وقد أقام جماعة من رهبان جزيرة لندسفارن Lindisfarne فارين من المغيرين الدنمرقيين كنيسة من الحجر فى ذلك المكان عام ٩٩٥ ، ثم هدّم أسقفها الثانى وليم السانت كارليفى of St. Carilef هذا البناء فى عام ١٠٩٣ وشاد الصرح القائم مكانه إلى هذا اليوم بشجاعة نادرة الوجود وثروة لا يعرف مصدرها حتى اليوم . وظل العمل فيها قائماً حتى عام ١١٩٥ ، ولهذا فإن الكتدرائية تمثل آمال من شادوها وجهودهم مدى مائة عام كاملة . وصحن الكنيسة الشامخ نورمندى الطراز ، له صفان من البواكى ذات العقود المستديرة المرتكزة على تيجان غير منقوشة ودعامات ضخمة قوية . وقد أدخلت قبة درهام فى إنجلترا فكرتين جديدتين غاية فى الخطر : أولاهما أن ملتقى العقود والأقبية تخرج منه ضلوع ، وهذا يساعد على تركيز الضغط فى مواضع خاصة ؛ والثانية أن العقود المستعرضة مستدقة الرءوس على حين أن الأقطار مستديرة ؛ ولو أن العقود المستعرضة كانت مستديرة لما وصلت تيجانها إلى الارتفاع الذى بلغته الأقطار وهى أطول من العقود ، ولأصبحت قمة القبة خطاً مضطرباً غير متساو فى الارتفاع . فلما رفعت تيجان العقود المستعرضة لتلتقى فى شكل زاوية أمكن إيصالها إلى الارتفاع المطلوب . ويبدو أن هذه الحاجة المعمارية لا الاستجابة إلى حاسة الجمال هى منشأ أهم المظاهر البارزة فى الطراز القوطى .

وأضاف الأسقف بدسى Pudsey فى عام ١١٧٥ إلى الطرف الغربى من

كتدرائية درهام طنفا جميلا جذابا أطلق عليه لسبب لا نعرفه اسم الجليل (*) والعقود القائمة فى هـــذا المكان ـ الذى يحتوى قبر بيد الأب الموقر ـ مستديرة ، ولكن العمد الرفيعة تقترب من الشكل القوطى . وقد تهدمت القبة القائمة فوق موضع المرتمين فى أوائل القرن الثالث عشر ، فلما أعيد بناؤها دعم المهندسون باكية الصحن بسنادات تربط الأجزاء العليا والوسطى من البناء بالسنادات الرأسية التى بالجدران الخارجية ، وتختفى تحت البواكى التى فى الصحن والطرقات . وأضيف إليها بين عامى ١٢٤٠ ، ١٢٨٠ ضريح ذو تسعة مذابح ليحتفظ فيه بمخلفات القديس كثبت Cuthbett ، وكانت العقود التى فى هذا الضريح مستدقة وبذلك تم الانتقال إلى الطراز القوطى .

(*) لعل الذى أوحى بهـــذا الإسم هو الآية السابعة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس . (المترجم)

الفصل الرابع

نشوء العمارة القوطية وارتقاؤها

يمكن تعريف هندسة العمارة القوطية بأنها حصر ضغط البناء فى أماكن خاصة ، وتوازن هذا الضغط ، وتوكيد الخطوط الرأسية ، والقباب المضلعة ، والأشكال المستدقة . وقد نشأ هذا الفن عن طريق حل المشاكل الآلية التى أوجدتها حاجة المبانى الكنسية والأمانى الفنية . ذلك أن خوف احتراق البناء أدى إلى إقامة القباب من الحجارة والآجر ، وأن ازدياد ثقل السقف أوجب بناء الجدران السميكة والدعامات السمجة ، ووجود الضغط السفلى فى كل مكان حدد سعة النوافذ ، وأن الجدران السميكة ظللت النوافذ الضيقة ، ولهذا أصبح داخل الكنيسة شديد الظلمة لا يتناسب مع جو البلاد الشمالية . وقد قلل اختراع القبة المضلعة ثقل السقف فأمكن بذلك إقامة العمد الرفيعة ، وحصر التوتر فى أماكن محددة ؛ كما أن تركيز الضغط وتوازنه قد أكسبا البناء استقراراً من غير زيادة فى الثقل ؛ وحَصْرَ الارتكاز بطريق المساند قد سمح بوجود نوافذ طويلة فى الجدران القليلة السمك ؛ وكانت النوافذ مجالا مغريا لممارســة فن الزجاج الملون الذى كان موجوداً فى ذلك الوقت ، كما أن الإطارات الحجرية التى تعلو النوافذ المركبة قد شجعت على قيام الفن الجديد فن النقوش الغائرة أو الرسوم السطحية ، وجعلت عقود القباب مستدقة ليمكن بها إيصال العقود ذات الأطوال المختلفة إلى تيجانها بارتفاع واحد لها جميعاً ، ثم جعلت العقود الأخرى وأشكال النوافذ مستدقة كذلك لتكون متناسقة مع عقود القبة . ولما تحسنت طرق احتمال الضغط على هذا النحو أمكن زيادة ارتفاع صحن الكنيسة ؛ وأبرزت الأبراج

الكبيرة ، وأبراج الأجراس الرفيعة ، والعقود المستدقة أهمية الخطوط الرأسية وأنتجت ما يمتاز به الطراز القوطى من علو شامخ ورشاقة تبعث البهجة فى النفوس . هذه الخصائص مجتمعة جعلت الكتدرائية القوطية أعظم ما أنتجته النفس البشرية وأجل ما عبرت به عن مشاعرها .

لكننا نعدو طورنا إذا ادعينا أن فى وسعنا أن نفرغ من وصف تطور العمارة فى فقرة من فصل ؛ ذلك أن بعض خطوات من هذا التطور جديرة بالبحث الهادئ على مهل . مثال ذلك أن مشكلة التوفيق بين الرشاقة الرفيعة والصلابة المستقرة قد حلتها العمارة القوطية أحسن مما حلها أى فن معمارى قبل وقتنا الحاضر ؛ ولسنا نعرف إلى متى يستطيع تحدينا لقوة الجذب أن ينجو من قدرة الأرض على تسوية أعلاها بأسفلها . على أن المهندس القوطى لم يصب التوفيق والنجاح على الدوام ؛ فإن تكن كنيسة تشارتر لا تزال قائمة سليمة من الشروخ ، فإن موضع المرتمين فى كتدرائية بوڤيه تهدم بعد اثنى عشر عاما من بنائه ، ولقد كان أهم ما يمتاز به الطراز القوطى هو الأضلاع فى أجزاء البناء المختلفة : أضلاع العقود المستعرضة والممتدة على طول أقطارها ، والتى ترتفع من كل فرجة بين أعمدة صحن الكنيسة ، وتجتمع لتكون شبكة خفيفة رشيقة يمكن أن ترتكز عليها قبة رقيقة من البناء . وقد أضحت كل فرجة فى الصحن وحدة بنائية قائمة بذاتها تتحمل الثقل والدفع الناشئين من العقود القائمة على دعاماتها ، واللذين تساعد على تحملهما ضغوط أخرى مقابلة لها تحدثها الفرجات المقابلة لها فى طرقات البناء وضغوط المساند الخارجية المركبة على الجدران فى النقط التى يبدأ منها كل عقد مستعرض .

والمساند استنباط قديم ، فقد كان لكثير من الكنائس التى شيدت قبل عهد القوط عمد مبنية تضاف إليها من خارجها عند النقط التى يقع عليها ضغط خاص . على أن الدعامات المقوسة التى تصل جدران الأجزاء الداخلية والوسطى من البناء بالدعامات الرأسية للجدران الخارجية تنقل الدفع أو التوتر فوق فراغ

إلى مسند عند القاعدة وإلى الأرض . وقد كانت بعض الكتدرائيات النورمندية تستخدم فى البواكى التى بين الصحن والطرقات الجانبية أنصاف عقود تدعم عقود الصحن ، غير أن هذه المساند الداخلية تصل جدار الصحن فى نقطة منخفضة لا تهب القوة للطبقة العليا المضيئة التى يكون ضغط القبة عليها بالغ الشدة ، والتى يعرضها هذا الضغط إلى الانهيار . ولهذا فإن تقوية البناء فى هذه النقط العالية كان يحتم إخراج المساند من مخابئها ، وإقامتها فوق الأرض الصلبة والانتقال بها فى الفراغ فوق سقف الممشى لتدعم بذلك جدار الطبقة العليا المضيئة مباشرة . وكان أقدم ما عرف من استخدام هذا النوع من المساند فى كتدرائية نوايون **Noyon** حوالى عام ١١٥٠[٧] ، ولم يختتم ذلك القرن حتى أضحت من الاختراعات المحببة . على أنها لم تكن تخلو من أخطاء ذات خطورة : فقد كانت فى بعض الأحيان توحى إلى الناظر بأنها هيكل بنائى ، أو محالات أهملت إزالتها ، أو مهرب لجأ إليه المصمم فيما بعد لأن بناءه هبط من وسطه ، وأن « للكتدرائية عكازات » كما يقول ميشليه **Michelet** . ولهذا نبذ عصر النهضة هذا الضرب من المساند ورآها حواجز قبيحة المنظر ، واخترع أساليب أخرى لحمل أثقال قبة القديس بطرس . لكن المهندس القوطى كان على غير هذا الرأى ؛ فقد كان يجب أن يعرض على الأنظار خطوط فنه وحيله الآلية ؛ وقد أولع بالمساند ولعله ضاعف عددها من غير حاجة إلى هذا التضعيف ؛ وجعلها مساند مركبة حتى تدعم بذلك البناء فى نقطتين أو أكثر من نقطتين ، أو تدعم إحداها الأخرى ؛ ثم جمل الدعامات التى تعمل على استقرارها بما أضافه إليها من « الشماريخ »(*) . وأثبت أحياناً — فى ريمس — أن ملكا واحداً فى القليل يستطيع الوقوف على قمة الشمروخ .

(*) الأبراج المستدقة المرتفعة **pinnacles**. (المترجم)

وكان توزيع التوتر أعظم أهمية فى العمارة القوطية من العقد المستدق ، ولكن هذا العقد أصبح هو السمة الخارجية الظاهرة للرشاقة الداخلية . وكان العقد المستدق هذا من الأشكال القديمة ، فهو يظهر فى ديار بكر بتركيا مقاماً فوق عمد رومانية لا يعرف لها تاريخ ، وأقدم مثل له معروف التاريخ فى قصر ابن وردان ببلاد الشام ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦١[٦] ، ويوجد هذا الشكل فى قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وهو من مبانى القرن السابع ، كما يوجد فى مقياس للنيل بمصر أنشئ فى عام ٨٦١ ، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة الذى أنشئ فى عام ٨٧٩ ، وكثيراً ما كان يقيمه الفرس ، والعرب ، والأقباط ، والمغاربة المسلمون قبل أن يبدأ ظهوره فى أوربا الغربية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[٩] . ولعله جاء إلى فرنسا الجنوبية من أسبانيا الإسلامية ، ولعله جاء به الحجاج العائدون من بلاد الشرق ، أو لعله نشأ فى بلاد الغرب من تلقاء نفسه ليحل مشاكل آلية فى تصميم العمارة . على أننا يجب أن نلاحظ أن مشكلة الوصول بعقود ذات أطوال مختلفة إلى تاج مستو يمكن أن تحل من غير الالتجاء إلى العقد المستدق ، وذلك بتعلية النقطة التى يبدأ عندها من الدعامة أو الجدار فى الداخل . وقد كان لهذه الطريقة أيضاً أثرها الجمالى لأنها تبرز الخطوط الرأسية ، ولهذا استخدمت على نطاق واسع ، وقلما كانت تتخذ بديلا من العقد المستدق بل كانت كثيرة الاستعمال مع هذا العقد لتقويته ومساعدته على أداء وظيفته .
وحل العقد المستدق مشكلة أخرى : ذلك أنه لما كانت الطرقات الجانبية أضيق من صحن الكنيسة فإن فرجة الطرقة كان يزيد طولها على عرضها ، ولهذا فإن تيجان عقودها المستعرضة تكون أقصر كثيراً من عقود قطريها ، إلا إذا كانت العقود المستعرضة مستدقة أو إذا رفعت النقطة التى تبدأ عندها هذه العقود من الداخل ارتفاعاً يحول بين تناسقها مع القطرين . وقد كان العقد المستدق حلا لتلك العملية الصعبة عملية إقامة قبة من عقود ذات تاج

مستو على ممشى القبا ، حيث يكون الجدار الخارجى أطول من الجدار الداخلى ، وحيث تكون كل فرجة شبه منحرف لا يمكن تصميم قبته تصميما مقبولا بغير العقد المستدق . ومما يدل على أن هذا الشكل لم يستخدم فيها لرشاقته فى أول الأمر كثرة المبانى التى استخدم فيها لحل تلك المشكلات ، مع أن العقود المستديرة ظلت تستخدم فى النوافذ ومداخل الأبنية فى الوقت عينه . ثم انتصر العقد المستدق تدريجاً لارتفاعه العمودى ، وقد يكون للرغبة فى تناسق الشكل أثر فى هذا الانتصار . وإن التسعين عاماً من الكفاح المتواصل بين العقد المستدير والعقد المستدق — أى منذ ظهور العقد المستدق فى الكتدرائية الرومنسية بدرهام (١١٠٤) إلى البناء النهائى لكتدرائية تشارتر (١١٩٤) — لهى فترة الانتقال إلى هذا الطراز المعارى فى الهندسة القوطية الفرنسية .

وقد أوجد استخدام العقد المستدق فى النوافذ مشاكل جديدة ، وحلولا لها جديدة ، ومفاتن جديدة ؛ فقد قضى نقل التوتر عن طريق الأضلاع من القبة ومن الدعائم إلى نقط خاصة فى البناء تدعمها سنادات ، قضى هذا على حاجته إلى الجدران السميكة . ذلك بأن المكان الذى بين كل نقطة ارتكاز والنقطة التى تليها ، لم يكن يتحمل إلا ضغطا قليلا نسبيا ، وإذن فقد كان من المستطاع جعل الجدار بين النقطتين رفيعاً ، بل إن من المستطاع إزالته . ولكن ملء هذا الفراغ الكبير بلوح واحد من الزجاج غير مأمون العاقبة ، ولهذا قسم هذا إلى نافذتين مستدقتين (مقصدين) أو أكثر من نافذتين يعلوهما عقد من الحجارة . وبهذا أصبح الجدار الخارجى سلسلة من العقود أو البواكى شأنه فى ذلك شأن صحن الكنيسة . وقد كان « الدرع » البنائى ذو الأربع القمم المتروك بين الأطراف العليا للنوافذ المزدوجة والمستدقة وبين قمة العقد الحجرى المحيط بهذه النوافذ كان هذا الدرع فراغا قبيح المنظر يتطلب الزخرف . وقد حقق المهندسون الفرنسيون حوالى عام ١١٧٠ هذا المطلب بلوحات من النقوش الخطية : فقد ثقبوا الدرع بحيث

يتركون فيه قضباناً حجرية أو فواصل ذات أشكال زخرفية — مستديرة ، أو مسننة أو منتفخة ؛ ثم ملأوا الفجوات والنوافذ بالزجاج الملون . وعمد المثالون فى القرن الثالث عشر إلى قطع أجزاء مطردة الزيادة من الحجارة ، ووضعوا فى الفتحات قضباناً حجرية صغيرة منحوتة على صورة أقداح أو غيرها من الأشكال . وأخذت أشكال هذه الحلى التى على شكل العصى تزداد كل يوم تعقيداً ، ونشأت من هذا التعقيد طرز وعصور من العمارة القوطية أُخذت أسماؤها من الخطوط الرئيسية فى هذه الزخارف : كالعقد الرمحى ، والطراز الهندسى ، والمستدير الخطوط ، والعمودى ، والكثير الألوان . وأنتجت عمليات أخرى شبيهة بهذه العمليات وطبقت على سطوح الجدران فوق مداخل البناء ، أنتجت ما يسمى « بالنوافذ الوردية » ، كانت زخارفها الخطية سبباً فى إطلاق لفظ « المشمع » على الطراز الذى بدأ فى كنيسة نتردام عام ١٢٣٠ ، وبلغ درجة الكمال فى كنيستى ريمس ، وسانت شابل Sainte Chapelle . وما من شىء يفوق جمال النوافذ « الوردية » . فى الكتدرائيات القوطية سوى العقود العليا التى فى القبة .

وانتقلت الزخارف الخطية ، بمعناها الواسع ، أى ثقب الحجارة بأشكال زخرفية من أى نوع كان ، من الجدران إلى غيرها من أجزاء الكتدرائية القوطية — إلى شماريخ المساند ، وإلى السقف الهرمية التى فوق المداخل ، وإلى « بطنيات » العقود ، والأجزاء المثلثة المحصورة بين كل اثنين منها ، وإلى البواكى التى تعلو العقود بين الصحن والطرقات الجانبية ، وإلى ستائر المعبد ، والمنبر والحظار الزخرفى الذى خلف المذبح ؛ ذلك أن المثال القوطى ، لابتهاجه بفنه ، قلما كان يمس سطحاً دون أن يزخرفه ؛ ولهذا كان يزحم واجهات المبانى ، والطنف ، والأبراج ، بصور الرسل والشياطين ، والأولياء ، والناجين والملعونين . وصوّر ما يمليه عليه خياله تيجاناً للعمد ، ورفارف للزينة ، وحليات من خشب أو حجارة ،

وعتبات للأبواب والنوافذ العليا ، وحليات شبكية ، وقوائم أكتاف الأبواب والنوافذ . وكان يمثل بالحجارة ضحكه مع الحيوانات العجيبة والمرعبة التي ابتدعها خياله لتكون ميازيب(*) تبعد المطر الذى يلوث المبانى عن الجدران ، أو تجره إلى الأرض خلال المساند . ولم تجتمع فى غير هذا الفن الثروة ، والمهارة ، والتقى ، والفكاهة العارمة ، لتوجد مثل هذه الكثرة من الزخارف التى تتكشف عنها الكتدرائية القوطية . ولسنا ننكر أن هذه الزخارف كانت فى بعض الأحيان مسرفة فى كثرتها ، وأن الخطوط الزخرفية قد أسرف فيها هى الأخرى إسرافاً جعلها هشة ، وأن التماثيل وتيجان العمد كانت بلا ريب براقة بطلائها الذى محاه كر الدهور . ولكن هذه هى سمات الخصوبة الحيوية التى تكاد تُغتفر معها كل الأخطاء . ولقد يلوح لنا ونحن نجول بين هذه الآجام والحدائق الحجرية أن الفن القوطى كان ، على الرغم من خطوطه وأبراجه الرفيعة الشامخة ، فنا مغرما بالأرض ؛ فنحن نستشف بين أولئك القديسين الذين ينادون بباطل الأباطيل ، وهول يوم الحساب القريب ، صورة فنان العصور الوسطى ، المعجب بحذقه ، المبتهج بقوته ، الساخر من اللاهوت والفلسفة ، الذى يستمتع بشرب كأس الحياة المترعة ذات الحبب حتى الثمالة .

(*) gargoyles أو حلوق صغيرة . (المترجم)

الفصل الخامس

الطراز القوطى الفرنسى (١١٣٣ — ١٣٠٠)

سرى لم بدأ الانقلاب القوطى فى فرنسا وبلغ غايته فيها ؟

نقول أولا إن الطراز القوطى لم يبدأ من لاشىء ، بل إن تقاليد تبلغ المائة عداً قد اجتمعت كلها لتمهد له السبيل : الباسلقا الرومانية ، والعقود ، والقباب ، والطبقات العليا ذات النوافذ ، وموضوعات الزخرف البيزنطية ، والعقد الستينى الأرمنى ، والسورى ، والفارسى ، والمصرى ، والعربى ؛ والقباب ذات الزوايا المتقاطعة ، والدعامات المتجمعة ، والأساليب الغربية ، والنقوش العربية ؛ والقباب المضلعة ، وأبراج الواجهات ؛ والنزعة الألمانية لما هو فكه أو شاذ غريب . . ولكن لم اجتمعت هذه المؤثرات كلها فى فرنسا ؟ لقد كان فى وسع إيطاليا التى امتازت بين بلدان غربى أوربا بثرائها وتراثها أن تحمل لواء ازدهار الفن القوطى ، ولكنها كانت سجينة فى تراثها القديم . لقد كانت فرنسا ، بعد إيطاليا ، أغنى أمم الغرب وأكثرها تقدماً فى القرن الثانى عشر ؛ وكانت هى التى قدمت للحروب الصليبية أكثر الأموال والرجال ، والتى أفادت من حوافزها الثقافية ، وكانت هى التى تزعمت أمم أوربا فى التعلم ، والآداب ، والفلسفة ، وكان العالم يعترف بأن صناعها أمهر الصناع فى الناحية الغربية من بيزنطية وقبل أن يجلس على عرشها فليب أغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) ، كانت السلطة الملكية قد انتصرت على نزعة التفكك الإقطاعية ؛ وكان رخاء فرنسا وقوتها ، وحياتها العقلية قد أخذت تتجمع فى أملاك الملك الخاصة — وهى الأملاك المعروفة بجزيرة فرنسا ، والتى يمكن تحديدها تحديداً غير دقيق بالإقليم الممتد عند مجرى السين الأوسط . وكانت فيها تجارة رابحة رائجة تنتقل فى أنهار

السين والواز Oise ، والمارن ، والأين Aisns ، وتخلف وراءها ثروة استحالت حجارة فى الكتدرائيات التى شيدت فى باريس ، وسانت دنيس ، وسنليس Senlis ، ومانت Mantes ، ونوايون Noyen ، وسواسون Soissons ، ولاوون ، وأمين ، وريمس . وأخصب المال التربة التى نما فيها الفن .

وكانت أولى روائع طراز عهد الانتقال هى كنيسة دير سانت دنيس فى ضاحية باريس المسماة بهذا الاسم . وكانت هذه الآية من عمل أكمل الشخصيات وأكثرها توفيقاً فى التاريخ الفرنسى . لقد كان سوجر (١٠٨١ – ١١٥١) رئيس أحد الأديرة البندكتية ، ونائب الملك فى فرنسا ، رجلا حسن الذوق ، لم تمنعه بساطة عيشه أن يرى أنه ليس من الإثم أن يحب الأشياء الجميلة وأن يجمعها ليزخرف بها كنيسته . ولما أخذ عليه القديس برنار هذا الحب رد عليه بقوله : « إذا كانت الشرائع القديمة قد أمرت أن تستخدم الكؤس الذهبية فى شرب القربان وتَلَقِّى دماء الضأن . . . فإن أولى من هذا أن يخصص الذهب ، والحجارة الكريمة ، وأندر المعادن لصنع الآنية المعدة لتلقى دم سيدنا »[١٠] . وهو لهذا يحدثنا مزهواً عن جمال الذهب والفضة ، والجواهر وقطع الميناء ، والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون ، والثياب والآنية الغالية ، التى جمعها أو صنعها لكنيسته ، وعما كلفته من مال . فى عام ١١٣٣ جمع الفنانين والصناع « من جميع البلاد » ليشيد ويزين بيتاً جديداً للقديس دنيس شفيع فرنسا ، وليكون مقراً لعظام الملوك الفرنسيين . وأقنع لويس السابع ملك فرنسا وحاشيته بتقديم المال اللازم لهذا البناء « فتمثلوا بنا » على حد قوله « وخلعوا الخواتم من أصابعهم » ليقدموا المال اللازم لمشروعه الكثير الأكلاف[١١] . وفى وسعنا أن نتصوره وهو يستيقظ فى الصباح الباكر ليشرف على أعمال البناء ، من تقطيع الأشجار التى اختارها ليأخذ منها حاجته من الخشب ، إلى تركيب الزجاج الملون الذى اختار له موضوعاته وألف له نقوشه . ولما أن دشن هذا الصرح فى عام ١١٤٤

قام بهذه العملية عشرون مطرانا ، وشهد الحفل ملك فرنسا ، وملكتها ، ومئات من الفرسان ، وحق لسوجر أن يشعر بأنه نال بهذا العمل تاجا أجل من تاج أى ملك من الملوك .

ولم يبق فى الصرح القائم فى هذه الأيام إلا أجزاء من كنيسته : وهى الواجهة الغربيـــة ، وفرجتان فى الصحن ، والمصليات التى على جانب الطرقات ، وقبو الكنيسة . أما الجزء الأكبر من داخل الكنيسة فهو بناء معاد قام به پيير ده منتريه Pierre de Montreux بين عامى ١٢٣١ ، ١٢٨١ . والقبو من الطراز الرومنسى ، أما الواجهة الغربية فتختلط فيها العقود المستديرة والمستدقة ، ومعظم تماثيلها المنحوتة من عهد سوجر ، وتشمل ما لا يقل عن مائة صورة ، كثير منها فردى الطابع ، وكلها تدور حول أحسن فكرة عن المسيح القاضى نشاهدها فى كل ما أنتجه فن العصور الوسطى .

وبعد اثنتى عشرة سنة من وفاة سوجر كرمه الأسقف موريس ده سلى Maurice de Sully بأن أدخل التحسين على ما تركه من قواعد ، وقامت كنيسة نتردام ده پارى Notre Dame de Paris على جزيرة فى نهر السين . وإن التواريخ المتصلة ببنائها لتوحى بضخامة العمل الذى استلزمه تشييدها ؛ فقد بنى موضع المرنمين والأجنحة التى على جانب الطرقات بين عامى ١١٦٣ و ١١٨٢ . وبنى الصحن من ١١٨٢ إلى ١١٩٦ ؛ وأقيمت الأجزاء التى بين الأعمـــدة والأبراج فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢٣ ؛ وتم بناء الكتدرائية كلها فى عام ١٢٣٥ . وكان يقصد فى تصميمها الأول أن تكون البواكى القائمة فوق العقود التى بين الصحن والطرقات على الطراز الرومنسى ، ولكن البناء كله اتخذ عند إتمامه الطراز القوطى . والواجهة الغربية أكثر استواء مما تتطلبه الكتدرائية القوطية ، ولكن سبب هذا أن الشماريخ التى كان فى النية إقامتها فوق الأبراج لم تبن قط ؛ ولعل هذا هو منشأ ما فى الواجهة من هيبة ذات بساطة وقوة جعلت العلماء الأفذاذ

يضعونها فى مصاف « أنبل ما أنتجته أفكار الإنسان من آراء فى فن المعمار »[١٢] . والشبابيك الوردية فى كنيسة نتردام ده پارى آية فى النقوش المخطية وجمال التلوين ، ولكنها لم يكن يقصد بها أن توصف بالقول أو بالكتابة . والتماثيل التى بها ، وإن عدا عليها الزمان أو أضرت بها الثورة ، تبرز أحسن ما أنتجه الفن بين عصر قسطنطين وبناء كتدرائية ريمس . وقد نحتت فى قلب المقص القائم فوق المدخل الرئيسى صور يوم الحساب بتؤدة أعظم مما نقش بها هذا الموضوع الذى نراه فى كل مكان ؛ فصورة المسيح هنا ذات جلال هادئ ؛ والمَلَك الذى عن يمينه من أعظم الانتصارات التى أحرزها فن النحت القوطى . وخير من هذا كله صورة عذراء العمود La Vierge de trumeux القائمة فوق المدخل الشمالى : إن فى هذه الصورة لدقة فى التنفيذ ، وفى صقل السطح الخارجى ، وفى الثياب المنسجمة مع الطبيعة ؛ ويسراً جديداً ورشاقة فى أوضاع الوقوف ، وإلقاء ثقل الجسم على إحدى القدمين ، وتحرره بذلك من الوضع العمودى المتصلب . ويكاد فن النحت القوطى يعلن فى هذه الصورة الجميلة استقلاله عن فن العمارة وينتج آية خليقة بأن تنتزع مما حولها ، وتقام بمفردها تعلن عن فوز هذا الفن . وانتهى فى كندوائية نتردام ده پارى طور الانتقال وحل عصر الفن القوطى .

وتُلقِى قصة كتدرائية تشارتر ضوءاً على ما كان عليه موضعها فى العصور الوسطى وعلى خصائص تلك العصور . فقد كانت تشارتر بلدة صغيرة فى الجنوب الغربى من باريس وعلى بعد خمسين ميلا منها ، على أطراف الممتلكات الملكية . وكانت سوقاً لسهل بوس Beauce « هُرى فرنسا » . ولكن قيل إن العذراء نفسها زارت هذا المكان ، واتخذها الصالحون من العرج ، والمكفوفين ، والمرضى ، والثاكلين ، والثاكلات ، مكاناً يحجون إليه ، ومنهم من شفى أو نزلت فى قلبه الطمأنينة عند ضريحها ، وبذلك أضحت تشارتر هى بعينها لورد Lourde . يضاف إلى هذا أن أسقفها فلبير Fulbert ، وهو رجل جمع بين الطيبة ؛

والذكاء ، والإيمان ، قد جعلها فى القرن العاشر كعبة للتعلم العالى وأتاحت حنونا لطائفة من أنبه الشخصيات ذكراً فى الفلسفة المدرسية . ولما أن احترقت فى عام ١٠٢٠ كتدرائية فلبير التى شيدت فى القرن التاسع ، أخذ على عاتقه من فوره أن يعيد بناءها ، وطال عمره حتى شاهد تمام هـذا البناء . ولما دمرته النار للمرة الثانية فى عام ١١٣٤ ، جعل الأسقف ثيودريك إقامة كتدرائية جديدة بمثابة حرب صليبية حقة ، فبعث فى قلوب الناس من التحمس لإنجاز هذا العمل ما جعلهم يغدقون عليه من المال والجهد ما وصفه شاهد عيان هو هيمون Haimon رئيس أحد الأديرة النورمندية فى عام ١١٤٤ بقوله :

رأيت الملوك ، والأمراء ، وذوى القوة والسلطان من رجال العالم المزهوين بألقاب الشرف وبالثراء ، والرجال والنساء من أبناء الأسرة الشريفة ، رأيت هؤلاء يطوقون أعناقهم المنتفخة المنبئة بالعظمة والكبرياء بالأرسان ، ويشدون أنفسهم إلى العربات يجرونها كما تجرها الدواب ، وهى محملة بالنبيذ ، والحبوب ، والزيت ، والجير ، والحجارة ، وكتل الخشب وما إليها من الأشياء اللازمة لحياة الناس أو لبناء الكنائس ... يضاف إلى هذا أنا نشاهد تلك المعجزة تقع فى الوقت الذى يجرون فيه العربات : وهى أن ألفا من الرجال والنساء . . . يشدون أحيانا إلى حبال العربات . . . ومع ذلك فإنهم يتقدمون وهم صامتون لا يسمع لهم صوت ولا همس . . . . فإذا وقفوا فى الطريق لا تسمع منهم ألفاظاً إلا اعترافاً بخطاياهم . . . وضراعة ودعاء طاهرا . . . ويعظهم القسيسون ويدعونهم إلى السلام ، وتسل السخائم والأحقاد من الصدور وتزول أسباب الفرقة والانقسام ، وينزل الدائنون عن ديونهم وتعود الوحدة إلى الصفوف[١٣] .

ولم تكد كتدرائية الأسقف ثيودريك تتم (١١٨٠) حتى شبت فيها النار فى عام ١١٩٤ فدمرت الصحن وهدمت قبته وجدرانه ، ولم يبق من الكنيسة إلا القبو السفلى والواجهة الغربية برجيها وشموخها متفرقة منعزلة . ويقال إن

كل بيت فى البلدة قد دمر فى هذا الحريق المروع الذى لا تزال آثاره باقية تشاهد حتى اليوم فى بقايا الكتدرائية . وفقد الأهلون شجاعتهم إلى حين وفقدوا بفقدها إيمانهم بالعذراء ، وأرادوا أن يغادروا المدينة ؛ ولكن مليور Melior الرسول البابوى الذى لا تلين له قناة قال إن الله قد أصابهم بهذه الكارثة عقاباً لهم على ذنوبهم ، وأمرهم أن يعيدوا بناء كنيستهم وبيوتهم ، وتبرع رجال الدين فى الأسقفية بدخلهم كله تقريباً مدى ثلاث سنين ، وتناقل الناس أخبار معجزات جديدة لعذراء تشارتر ، وبُعث الإيمان فى القلوب من جديد ، وأقبلت الجماعات مرة أخرى كما أقبلت فى عام ١١٤٤ لتساعد العمال المأجورين على جر عربات النقل ووضع الحجارة فى أماكنها ، وتبرعت بالمال كل كتدرائية فى أوربا[١٤] ، ولم يحل عام ١٢٢٤ حتى كان الكدح والأمل قد أتما الكتدرائية التى جعلت تشارتر مرة أخرى مقصد الحجاج من جميع الأنحاء .

وكان التصميم الذى وضعه المهندس المجهول يقضى بألا يقيم الأبراج على جناحى الواجهة الغربية وحدها ، بل أن يقيمها أيضاً على الأبواب التى عند ملتقى الطرقات المتعامدة على الصحن وعند القبا ، غير أنه لم يُبن من هذه الأبراج إلا برجان فوق واجهة الكنيسة . وارتفع برج الناقوس القديم (١١٤٥ — ١١٧٠) بشمروخه إلى علو ٣٥١ قدماً فى الطرف الجنوبى من الواجهة ؛ وهذا البرج بسيط غير مزخرف يفضله المهندسون المحترفون على غيره من الأبراج المزخرفة[١٥] . أما البرج الشمالى — المعروف ببرج الجرس الجديد فقد أحرقت النار شمروخه الخشبى مرتين ؛ ثم أعاد جان له تكسييه Jean le Texier بناءه بالحجارة على الطراز القوطى الكثير الألوان المزدحم بالزخارف الدقيقة ؛ حتى حسبه فرجسون Fergusson « أجمل الشماريخ المنقوشة فى القارة الأوربية »[١٦] ، ولكن المتفق عليه بوجه عام أن هذا الشمروخ الكثير الزخرف لا يتفق مع الوحدة التى تتطلبها الواجهة الكالحة المجردة من الزينة[١٧] .

وتعتمد شهرة كنيسة شارتر على ما تحويه من تماثيل منحوتة وزجاج ، فهذا القصر ، قصر العذراء ، تسكنه عشرة آلاف شخصية منحوتة أو مصورة — من رجال ، ونساء ، وأطفال ، وقديسين ، وشياطين ، وملائكة ، وأشخاص الثالوث . وفى مدخل الكنيسة وحده ألفا تمثال[١٨] ، تضاف إليها تماثيل أخرى مستندة إلى الأعمدة المقامة فى داخل البناء ، وإن الزائرين الذين يصعدون إلى السقف على الدرج البالغ عددها ٣١٢ درجة لتعتريهم الدهشة حين تقع أعينهم على تماثيل منحوتة بعناية وبالحجم الطبيعى فى ذلك المكان الذى لا يبصرها فيه إلا الطُّلَعَةَ المتشوف . وتقوم فوق الباب الأوسط صورة رائعة للمسيح ليست كغيرها من الصور التى نحتت فيما بعد عابسة تحكم على الموتى ، بل يرى فيها جالساً فى جلال هادئ بين طائفة كبيرة من الناس السعداء ، وقد مدت يده كأنه يبارك العباد الداخلين . ويتصل بالتجويف الداخلى لعقد الباب تسعة عشر تمثالا للأنبياء والملوك ، والملكات ، وهى نحيلة ، متصلبة توائم بشكلها هذا عملها بوصفها عمد الكنيسة ؛ وكثير من هذه التماثيل غير متقنة وناقصة ، ولربما كانت تلفت أو بليت لقدم عهدها ، ولكن وجوه بعضها تطالع الناظر إليها بطابع فلسفى عميق ، وبراحة لطيفة ، أو برشاقة العذارى التى بلغت درجة الكمال فى ريمس .

وواجهات الأجنحة والطرقات الجانبية أجمل ما يوجد من نوعها فى أوربا . ولكل منها ثلاثة أبواب على جانبيها عمد وقوائم منحوتة نحتا جميلا تفصل كلا منها عن الأخرى ، وتكاد تغطيتها تماثيل كل منها متفرد بملامح خاصة إلى حد جعل الناس يطلقون على عدد كبير منها أسماء من أهل تشارتر . وتجتمع تماثيل الباب الجنوبى البالغ عددها ٧٨٣ تمثالا حول المسيح الجالس على عرشه فى يوم الحساب . وهنا توضع عذراء تشارتر فى مركز أقل من مركز ولدها . ولكنها تعوض عن هذا ، كما عوضها ألبرتس ماجنس Albertus Magnus ، بالعلوم كلها وبالفلسفة ؛ وترى فى خدمتها على هذا الباب الفنون الحرة السبعة — الموسيقى ويمثلها

فيثاغورس ، والجدل ويمثله أرسطو ، والبلاغة ويمثلها شيشرون ، والهندسة ويمثلها إقليدس ، والحساب ويمثله نيقوماخوس ، والنحو ويمثله برشيان Prician ، والفلك ويمثله بطليموس . وقد أمر القديس لويس أن يتم الباب الشمالى : « بسبب إخلاصه الشديد لكنيسة عذراء تشارتر ، ولنجاة روحه وأرواح آبائه » كما جاء بالنص فى عهده الصادر عام ١٢٥٩[١٩] . وحدث فى عام ١٧٩٣ أن رفضت جمعية الثورة الفرنسية بأغلبية قليلة اقتراحا يقضى بتدمير التماثيل المقامة فى كتدرائية تشارتر باسم الفلسفة واسم الجمهورية ؛ وارتضت الفلسفة بعدئذ ألا تدمر هذه التماثيل واكتفت بتحطيم بعض أيديها[٢٠] . وهذا الباب الشمالى هو باب العذراء ، وهو يروى قصتها رواية ملؤها الحب والإجلال . والتماثيل المجسمة المقامة هنا تمثل فن النحت فى نضوجه ، والثياب التى عليها لا تقل فى رشاقتها ومواءمتها للطبيعة عن مثيلاتها فى أى نحت يونانى ، وصورة « الطهر » تمثل الأنوثة الفنية كأحسن ما يمثلها الفن الفرنسى ، ففيها يكسب الطهر الجمال قوة على قوته ؛ وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل من هذه الصورة ، وفى ذلك يقول هنرى أدمز Henry Adams : « وهذه التماثيل هى أحسن ما صوره الفن الفرنسى فى الرخام »[٢١] .

وإذا ما دخل الإنسان الكنيسة انطبعت فى نفسه أمور أربعة تمتزج بعضها ببعض : الخطوط البسيطة الممثلة فى الصحن والقبة ، التى لا تكاد تبلغ فى حجمها أو جمالها ما يبلغه صحن كنيسة أمين أو ونشستر ؛ وستار مكان المرنمين المزخرف الذى بدأه فى عام ١٥١٤ چان ده تكسيبه المولع بكثرة الألوان ؛ وصورة المسيح الهادئه المقامة على عمود عند ملتقى الصحن بالطرقات الجانبية من جهة الجنوب ، والتى تغمر المكان كله بلون هادئ وزجاج ملون منقطع النظير . ويرى الناظر فى نوافذ هذا المكان البالغ عددها ١٧٤ نافذة ٣٨٨٤ صورة مأخوذة من الأقاصيص أو التاريخ ، تختلف من الأساكفة إلى الملوك ، وتمثل فرنسا فى العصور

الوسطى ؛ يراها الناظر فى أبهى ما أخرجه الفن من ألوان — حمراء داكنة ، وزرقاء خفيفة ، وخضراء زمردية ، وزعفرانية ، وصفراء ، وبنية ، وبيضاء . وفيها ترى مجد تشارتر أكثر مما تراه فى أى مكان سواه . وليس من حقنا أن نتطلب أن تكون الصور التى فى هذه النوافذ صوراً واقعية ؛ ذلك أنها مشوهة ، بل إنها لتبلغ حد السخف فى بعض الأحيان . فرأس آدم فى الحلية الوسطى التى تمثل طرده من الجنة معوج اعوجاجاً يؤلم النظر إليه ، وإن العابد ليصعب عليه إذا ما أبصر مفاتن حواء أن لا يميل إلى شهوته الجنسية . لقد كان هؤلاء الفنانون يظنون أن حسبهم أن تروى الصورة قصة ، بينا تمثل الصورة بألوانها ، التى يختلط بعضها ببعض ويفنى بعضها فى بعض فى عين الناظر ، جو الكتدرائية ، وما أجمل صورة نافذة « الابن المتلاف » ؛ وما أعظم الألوان والخطوط فى صورة « شجرة يسى » الرمزية(*) ؛ ولكن أجمل من هذه كلها صورة « عذراء النافذة الجميلة » . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة البديعة أنقذت من النيران التى اندلعت فى الكنيسة عام ١١٩٤ .

وإذا وقف الإنسان عند تقاطع الطرقات الجانبية والصحن رأى نوافذ تشارتر الكبرى الوردية الشكل . وتمتد النافذة الوسطى فى الواجهة الرئيسية أربعين قدماً كاملة ، وتكاد تضارع فى اتساعها الصحن الذى تطل عليه ، ولقد وصفها بعضهم بأنها أجمل تحفة من الزجاج عرفها التاريخ[٢٣] .

وتغمر النافذة المعروفة باسم « وردة فرنسا » ملتقى الطرق بالصحن من جهته الشمالية بفيض من الضوء . وكان زجاج هذه النافذة قد أهدى إلى لويس التاسع وبلانش القشتالية ، ثم أهدياه هما إلى العذراء ؛ ويواجهها فى الناحية المقابلة لها من الكنيسة « وردة دريه Dreux » القائمة عند تقاطع الطرقات بالصحن فى الواجهة الجنوبية وهى التى أهداها بيير موكلير Pierre Mauclere من دريه عدو بلانش ،

(*) شجرة تسلسل يسوع من يسى والد داود . (المترجم)

والتى تضع ابن مريم مواجهاً « لأم الإله » فى نافذة بلانش . وثمة خمس وثلاثون وردة أصغر من هذه واثنتا عشرة وريدة أصغر من هذه أيضاً ، وبها تتم مجموعة زجاج تشارتر الدائرى ؛ وإذا ما وقف صاحب النزعة الحديثة، الذى تمنعه سرعته واضطراب أعصابه من أن يتطلب الكمال المحتاج إلى الصبر والهدوء ، أمام هذه المناظر ، أخذته الدهشة والحيرة من هذه الأعمال التى يجب أن تُعْزى إلى ما يتصف به الشعب والجماعة ، والعصر ، والعقيدة الدينية ، من سمو فى العاطفة وجد فى العمل لا إلى عبقرية أفراد معدودين .

ولقد اخترنا كنيسة تشارتر لتمثيل العمارة القوطية الناضجة أو المتشععة ، وليس من واجبنا أن نعمد إلى هذه الإطالة نفسها فى الحديث عن كنائس ريمس ، وأمين ، وبوفيه . ولكن منذا الذى يستطيع أن يمر مسرعاً بالواجهة الغربية من كنيسة ريمس ؟ ولو أن الشماريخ الأصلية ظلت حتى الآن قائمة فوق الأبراج لكانت هذه الواجهة أعظم ما قام به الإنسان من أعمال ؛ وإنا لتدهشنا وحدة الطراز وأجزاء الكنيسة المختلفة وتناسقها فى بناء أقامته ستة أجيال من الناس . فقد دمرت النار فى عام ١٢١٠ الكتدرائية التى أتمها هنكمار Hincmar فى عام ٨٤٠ ؛ وبدئت فى يوم الذكرى الأولى لهذا الحريق كتدرائية جديدة من تصميم ربرت دى كوسى Robert de Coucy وچان دوربيه Jean d'orbais تليق بأن يتوج فيها ملوك فرنسا . ودام العمل أربعين عاماً نفد بعدها المال ، فوقف البناء (١٢٥١) ، ولم تتم الكنيسة العظيمة إلا فى عام ١٤٢٧ . ودمرت النار فى عام ١٤٨٠ شماريخ الأبراج ، واستخدمت أموال الكتدرائية المدخرة فى ترميم البناء الرئيسى ، أما الأبراج فلم يجدد بناؤها . ودمرت القنابل فى الحرب العالمية الأولى عدداً من مساند الجدران وأحدثت فجوات كبيرة فى السقف وفى القبة ، ودمرت النار السقف الخارجى وحطمت كثيراً من التماثيل ؛ ودمرت جماعات من المتعصبين عدداً آخر

من الصور ، وعدا الزمان على بعضها الآخر فأبلاه ، ذلك أن التاريخ صراع بين الفن وعوادى الأيام .

وتمثل روائع النحت فى كنيسة ريمس ، كما تمثل واجهتها ، أرقى ما وصل إليه الفن القوطى ؛ فبعضها عتيق فج ولكن الموجود منها فى المدخل الأوسط منقطع النظير ؛ وإنا لنلتقى فى عدة أماكن على أبواب الكنيسة ، وقمم أبراجها المستطيلة ، وفى داخلها ، بتماثيل تكاد تضارع فى صقلها ما نحت فى عصر بركليز . ولسنا ننكر أن منها ما هو مفرط فى الرشاقة كتمثال العذراء القائم على عمود المدخل الأوسط ، وأنها توحى إلى الناظر بضعف قوة القوط ، ولكن تمثال « عذراء التطهير » القائم عن يسار هذا المدخل نفسه ، وتمثال « عذراء زيارة الملاك » القائم عن يمينه ليعدان من حيث التفكير والتنفيذ من الأعمال الجليلة التى يعجز القلم واللسان عن وصفها . وأوسع من هذين التمثالين شهرة ، وإن لم تبلغ مبلغهما من الكمال ، تماثيل الملائكة الباسمة فى مجموعة تماثيل البشارة القائمة فى هذه الواجهة . ألا ما أعظم الفرق بين هذه الوجوه المستبشرة وبين تمثال القديس بولس القائم عند المدخل الشمالى ! وإن كان هذا التمثال من أقوى الصور التى نحتت فى الحجر .

وتفوق التماثيل المنحوتة فى كتدرائية أمين تماثيل ريمس فى رشاقتها وصقلها ، ولكنها تقل عنها فى جلال التفكير وعمق الإيحاء . فهنا نرى فوق الباب الغربى تمثال الرب الجميل Beau Dieu الذائع الصيت ، وهو تمثال تقيد صانعه بعض الشىء بالتقاليد ، وخلا بعض الشىء من الحياة ، وهما عيبان يطالعاننا بعد أن نشاهد تماثيل ريمس الحية الناطقة . وهنا أيضاً تمثال القديس فرمين Firmin وهو لا يمثله زاهداً فزعاً بل يمثله رجلاً هادئاً صلباً لم يُشكَّ فى يوم من الأيام بأن الحق سوف ينتصر ؛ وهنا أيضاً عذراء تحتضن طفلها بين ذراعيها ، ويبدو عليها كل ما تتصف به الأمومة الصغيرة السن من استغراق فى الحنان . وفى الباب الجنوبى

نرى العذراء الذهبية تبتسم وهى ترقب طفلها يلعب بكرة ، وقد جملها المثّال قليلا ، ولكنها أكثر رشاقة من أن تستحق ما وصفها به رسكن Ruskin فى غير كياسة بأنها « مدللة پيكاردى » (soubrette of Picardy) .
وما ألذ أن يرى الإنسان المثّالين القوط يكتشفون الرجال والنساء ، بعد أن ظلوا مائة عام فى خدمة الأغراض الدينية ، وينحتون بعد هذا الكشف متع الحياة على واجهات الكنائس . وغضت الكنيسة النظر عن هذا الكشف بعد أن عرفت هى أيضاً كيف تستمتع بالحياة الدنيا ، ولكنها رأت من الحكمة أن تصور منظر يوم الحساب على الواجهة الرئيسية .

وبنيت كتدرائية أمين فيما بين ١٢٢٠ و ١٢٨٨ ؛ وقام ببنائها سلسلة متتابعة من المهندسين : ربرت ده لوزارك Robert De Luzarches ، وتومس ده كورمنت Thomas de Cormonte وابنه رنيول Regnault . ولم يتم بناء الأبراج إلا فى عام ١٤٠٢ . وداخلها هو أكثر الصحون القوطية نجاحا ؛ فهو يرتفع فى قبة علوها ١٤٠ قدما ؛ ويخيل إلى الناظر أنها تجتذب الكنيسة إلى أعلى ، وليست تتحمل ثقلا . وترتبط بواكى الصحن ذات الثلاث الطبقات جذوع متصلة ممتدة من الأرض إلى القبة فتجعل منها وحدة فخمة ذات عظمة وجلال . وتعد القباب القائمة فوق القبا انتصاراً للتصميم المتناسق على اختلال النظام الباعث على الحيرة والارتباك ؛ وإن المرء ليذهل وتقف دقات قلبه حين تقع عيناه أول مرة على نوافذ الطابق الأعلى وعلى ورود أمكنة تقاطع الطرقات والصحن وعلى الواجهة .

وفى كتدرائية بوفيه عدا هذا الولع القوطى بالقباب طوره وبلغ مصيره المحتوم وهو السقوط . ذلك أن فخامة كتدرائية أمين أثارت الغيرة فى قلوب أهل بوفيه ، فبدءوا البناء فى عام ١٢٢٧ وأقسموا ليرفعن قبة كنيستهم أعلى من قبة أمين بثلاث عشرة قدما . ووصلوا بموضع المرنمين إلى الارتفاع المطلوب ؛ ولكنهم

ما كادوا يضعون سقفه حتى انهار ، واستفاق جيل آخر من هذه الكارثة فأعاد بناء موضع المرنمين إلى ارتفاعه السابق ولكنه انهار مرة أخرى فى عام ١٢٨٤ . وأعيد البناء للمرة الثالثة وعلوا به هذه المرة إلى ارتفاع ١٥٧ قدماً فوق الأرض ؛ ولما نفد ما عندهم من المال تركوا الكنيسة قرنين كاملين من غير جناحين أو صحن . ولما أفاقت فرنسا آخر الأمر من حرب المائة السنين فى عام ١٥٠٠ ، بدئ الجناحان الضخمان ، ثم أقيم فوق ملتقى الجناحين برج فانوس بلغ ارتفاعه خمسمائة قدم ليعلو بذلك على شمروخ كنيسة القديس بطرس فى رومة . وانهار هذا البرج أيضاً فى عام ١٥٧٣ وانهار معه جزء كبير من الجناحين ومكان المرنمين . ثم قنع أهل بوفيه الأبطال آخر الأمر بحل وسط : فرمموا موضع المرنمين وبلغوا به علوه غير الأمين ، ولكنهم لم يضيفوا إليه صحناً ، ولهذا فإن كتدرائية بوفيه كلها رأس بلا جسم ؛ فهى من خارجها واجهتان لجناحين جميلين قيمين ، وقبا تحيط به وتخفيه السنادات ؛ ومن داخلها موضع للمرنمين كالكهف يتلألأ بالزجاج الفخم الملوّن . ويقول أحد الأمثال الفرنسية القديمة إنه لو استطاع الإنسان أن يضم موضع المرنمين فى كنيسة بوفيه إلى صحن كنيسة أمين ، وإلى واجهة ريمس وشماريخ تشارتر ، لو استطاع ذلك لكانت كتدرائية قوطية تبلغ حد الكمال .

وإذا ما عاد الناس بخيالهم فى العصور المقبلة إلى ذلك القرن الثالث عشر فسوف تتملكهم الحيرة فلا يدرون من أين كان لأهل هذا القرن ذلك الثراء الذى أقاموا به على الأرض تلك الصروح الفخمة المجيدة . ذلك أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف ما صنعته فرنسا فى ذلك الوقت — بالإضافة إلى جامعتها ، وشعرائها ، وفلاسفتها ، وحروبها الصليبية — إلا إذا وقف بنفسه أمام واحدة تلو واحدة من تلك الصروح القوطية الجريئة التى لا تعدو أن تكون هنا مجرد أسماء : نتردام ، وتشارتر ، وريمس ، وأمين ، وبوفيه ، وبروج (١١٩٥—١٣٥٠)

ذات الصحن الرحب ، والطرقات الأربع ، والزجاج الذائع اله
والملاك الجميل النحت ذى الميزان ؛ وجبل سانت ميشيل وديره العم
(١٢٠٤ — ١٢٥٠) القائم فى حصن مشرف على صخرة فى وسط ماء البحر
بالقرب من نورمندية ؛ وكنستانس (١٢٠٨ — ١٣٢٨) وشماريخها النبيلة ؛
ورون (١٢٠١ — ١٥٠٠) وبابها الأمامى باب ناشرى الكتب ؛ وسانت
شابل فى باريس — « صندوق جواهر » الزجاج القوطى التى شادها
(١٢٤٥ — ١٢٤٨) بيير ده منتريه لتكون ضريحاً متصلا بقصر القديس
لويس يضم المخلفات التى ابتاعها ذلك الملك من بلاد الشرق . ومن الخير
أن نتذكر فى عصور الدمار أن فى مقدور الناس إذا شاءوا أن يبنوا كما
بنوا فى فرنسا يوما من الأيام .

الفصل السادس

الطراز القوطى الإنجليزى (١١٧٥ — ١٢٨٠)

وزحف الطراز القوطى من تشارتر و « جزيرة فرنسا Ile de Franec » إلى الأقاليم الفرنسية . ثم عبر الحدود إلى إنجلترا . وبلاد السويد ، وألمانيا ، وأسبانيا ، ثم انتقل أخيراً إلى إيطاليا . وكان المهندسون والصناع الفرنسيون يقبلون ما يكلفون به من أعمال فى البلاد الأجنبية ؛ وكان الفن الجديد يسمى أينما حل **العمل المولود فى فرنسا** opus Francigenum ؛ ورحبت به إنجلترا لأنها كانت فى القرن الثامن عشر نصف فرنسية ؛ ولم تكن القناة الإنجليزية إلا نهراً بين ناحيتين من مملكة بريطانية تشمل نصف فرنسا ؛ وكانت رون العاصمة الثقافية لتلك المملكة . واستمد الفن القوطى أصله من نورمندية لا من إيل ده فرانس . واحتفظ بالضخامة النورمندية فى إطار قوطى . وحدث الانتقال من الطراز الرومانسى إلى الطراز القوطى فى فرنسا وإنجلترا فى وقت واحد تقريباً ؛ ففى الوقت الذى كان العقد المستدق يستخدم فى كنيسة القديس دنيس (١١٤٠) أخذ هذا الطراز يعود إلى الظهور فى كتدرائيتى درهام وجلوسستر ، وفى دير الفوارات Fountains Abbey ، وملمزبرى Malmsbury[٢٤] . وكان هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) يعجب بكل ما هو فرنسى ويحسد المجد المعمارى الذى بلغته فرنسا فى عهد القديس لويس . وفرض على رعاياه من الضرائب ما أفقرهم ليعيد بناء دير وستمنستر ، ولينفق على مدرسة الفنانين — البنّائين ، والمثّالين ، والمصورين ، والمزخرفين ، والصياغ — الذين جمعهم قرب بلاطه لينفذوا مشروعاته . وسنقصر وصفنا هنا على الطراز الأول من الطرز التى تنقسم إليها العمارة القوطية الإنجليزية — وهى الطراز الإنجليزى المبكر (١١٧٥ — ١٢٨٠) ،

والطراز المنقوش (١٢٨٠ – ١٣٨٠) ، والطراز العمودى (١٣٨٠ – ١٤٥٠) . وقد اتخذ هذا الفن من النوافذ والعقود الإنجليزية له اسماً آخر فسمى « بالريشة »(*) . وكانت الواجهات والأبواب فى هذا الطراز أبسط من مثيلاتها فى فرنسا ، وإن كانت كنيستا لنكلن وروشستر قد حوتا بعض التماثيل المنحوتة ، وحوت منها كنيسة ولز Wells أكثر من هاتين الكنيستين ؛ ولكن هذه لم تكن هى القاعدة المتبعة ، ولا يمكن على كل حال مقارنة هذه التماثيل ، فى نوعها وعددها ، بالتماثيل المقامة على أبواب كنائس تشارتر ، أو أمين ، أو ريمس . أما الأبراج فكانت تمتاز بالفخامة لا بالارتفاع ، وإن كانت أبراج سالزبرى ، ونوروك ، ولتشفيلد تدل على ما يستطيع البنّاء الإنجليزى أن يفعله إذا ما آثر الرشاقة والارتفاع على الروعة والفخامة . كذلك عجز ارتفاع الكنيسة من الداخل عن أن يغرى المهندسين الإنجليز . لقد حاولوه أحياناً كما فعلوا فى وستمنستر وسلزبرى ، ولكنهم فى الأغلب الأعم كانوا يتركون القبة منخفضة انخفاضاً مقبضاً للنفس ، كما تراها فى جلوسستر ، وإكستر . يضاف إلى هذا أن طول الكتدرائيات الإنجليزية الكبير لم يكن يشجع على بذل الجهود التى تجعل ارتفاعها يتناسب مع هذا الطول ؛ فطول كنيسة ونشستر ٥٥٦ قدماً ، وطول كنيسة إلى Ely ٥١٧ ، وكنتربرى ٥١٤ ، ودير وستمنستر ٥١١ ؛ أما كنيسة أمين فطولها ٤٣٥ ، وريمس ٤٣٠ ، وحتى كنيسة ميلان نفسها لا يزيد طولها على ٤٧٥ . لكن ارتفاع كنيسة ونشستر من الداخل لم يكن يزيد على ٧٨ قدماً . وهو فى كنيسة كنتربرى لا يزيد على ٨٠ . وفى لنكلن لا يتجاوز ٨٢ . وفى وستمنستر لا يتجاوز ١٠٣ ؛ أما أمين فترتفع إلى ١٤٠ قدماً .

(*) والنوافذ التى سمى بها هذا الطراز عالية ضيقة تنتهى بعقد مستدق كثيراً : مزدوج الفتحات أو ثلاثيها . وهو كثير الوجود فى مباني النصف الأول من القرن الثالث عشر . (المترجم)

وظل الطرف الشرقى للكنيسة القوطية الإنجليزية هو القبا المربع المعروف فى الطراز الإنجليسكسونى ، متجاهلا فى ذلك التطور الفرنسى السهل الذى أنتج القبا الكثير الأضلاع أو النصف الدائرى . وكان الطرف الشرقى يوسع فى كثير من الحالات ليكون مصلى خاصة لعبادة العذراء ، وإن كانت عبادة مريم لم تبلغ من الحماسة الدرجة التى بلغتها فى فرنسا . وكثيراً ما كان موضع اجتماع القساوسة فى الكتدرائية وقصر الأسقف متصلين بالكنيسة يكونان معها « حرم الكنيسة » ، وكان يحيط به فى العادة سور . وكان انتشار عنابر النوم ، وقاعات الطعام ، والدير ، والطرقات المنعزلة فى الأديرة القوطية بإنجلترا واسكتلندة – كما هى الحال فى فوانتينز ، ودرايبرج **Dayburgh** ، وملروز **Melrose** ، وتنترن **Tintern** داخل محيط واحد مما جعلها تكون مجموعة فنية ذات جلال وروعة .

ويبدو أن المبدأ الأساسى فى العمارة القوطية – مبدأ توازن الضغوط وتصريفها لتقليل ضخامة الدعائم والمساند – وما ينشأ عن هذه الضخامة من قبح المنظر – لم يجز قط قبولا تاماً فى إنجلترا ، ولم يعدّل سمك الجدران الذى يمتاز به الطراز الرومنسى القديم إلا تعديلا يسيراً فى الطراز القوطى الإنجليزى ، حتى فى الحالات التى يتحتم فيها تكييف التصميم ليوائم القاعدة الرومنسية كما حدث فى سلزبرى . وكان المهندسون الإنجليز ينفرون من المساند المتنقلة نفور المهندسين الطليان . نعم إنهم لجأوا إليها فى بعض الأماكن ، ولكنهم فعلوا ذلك فى غير مبالاة ؛ وكانوا يشعرون بأن دعائم البناء يجب أن يحتويها البناء نفسه ، لا أن تكون فى الزوائد التى تضاف إليه ؛ ولعلهم كانوا فى هذا على حق ؛ وإن لكتدرائياتهم لقوة وصلابة ورجولة تسمو فوق الجمال إلى العظمة والجلال ، وإن كانت تنقصها الرشاقة التى نشاهدها فى روائع الفن الفرنسى .

وبعد أن مضت أربع سنين على مقتل بكت فى كنتربرى احترق موضع المرنمين فى الكتدرائية (١١٧٤) . وروع أهل البلدة لهذه الكارثة ، وأخذوا

يضربون الجدران برؤوسهم فى غضب وحيرة لأن العلى العظيم لم يمنع حلولها بضريح أصبح قبل وقوعها كعبة الحجاج المتدينين(٢٥) . وعهد الرهبان بناء الكنيسة إلى مهندس من أهل سان Sens يدعى وليم ، وهو رجل فرنسى ذاع صيته على أثر بنائه كتدرائية لمدينته . وظل وليم يعمل فى كنتربرى من ١١٧٥ إلى ١١٧٨ ؛ ثم عجز عن العمل لسقوطه من فوق محالة ، فواصل العمل « وليم الإنجليزى William the Englishman » وهو رجل « ضئيل الجسم » كما يقول الراهب جرفاز Gervase ولكنه دقيق أمين فى أعمال كثيرة مختلفة الأنواع(٢٦) . وقد بقيت أجزاء كثيرة من الكتدرائية الرومنسية التى شيدت فى عام ١٠٩٦ ؛ بقيت العقود المستديرة بين التجديدات القوطية بصفة عامة ؛ ولكن السقف الخشبى الذى كان يغطى موضع المرنمين قد استبدلت به قبة من الحجر مضلعة ، وكذلك استطالت العمد فعلت إلى ارتفاعها الكامل الرشيق ، ونحتت تيجانها نحتا بديعا ، وملئت النوافذ بالزجاج الملون البراق . وإن كتدرائية كنتربرى المتجمعة فى محيطها الكتدرائى ، والتى تشرف مع ذلك على بلدتها الجميلة العجيبة لهى اليوم من أكثر مناظر الأرض إيحاء وإلهاما للنفوس .

ونشر الأحبار والحجاج الذين لا يحصى عددهم الطراز القوطى فى أنحاء بريطانيا بما أقيم من كنائس على نمطها . فأقامت بيتربرو Peterborough فى عام ١١٧٧ رواقا فخما ذا عمد فى واجهة الجناح الغربى من كتدرائيتها ، وشيد الأسقف هيو ده لاسى Hugh de Lacy فى عام ١١٨٩ الامتداد الجميل لكتدرائية ونشستر خلف مكان القربان على هذا الطراز . وحدث فى عام ١١٨٦ زلزال تصدعت منه كتدرائية لنكلن من أعلاها إلى أسفلها ؛ وبعد ست سنين من تصدعها شرع الأسقف هيو يعيد بناءها على تصميم قوطى قام به جوفرى دهنواير Geoffrey de Noyers ؛ وأتمها جروستست Grossete الشهم النبيل حوالى عام ١٢٤٠ . وهى قائمة على ربوة تطل على ريف إنجليزى يتمثل فيه

جمال هذا الريف أصدق تمثيل . وقلّ أن يشاهد الإنسان ما يشاهده فى هذه الكنيسة من روعة الحجم قد وفق بينها وبين رقة التفاصيل ؛ فأبراجها الثلاثة العظيمة ، وواجهتها العريضة ببابها ذى التماثيل المنحوتة وبواكيها المعقدة ، وصحنها الفخم الذى يبدو خفيفاً رغم ضخامة حجمه وسعته ، وجذوع أعمدتها الرشيقة وما على دعاماتها من نقوش لا تقل عن هذه الجذوع رشاقة ، ونوافذها المشععة ، وقبوة بيت القساوسة الشبيهة بالنخلة ، وعقود الصوامع الفخمة الرائعة - هذه تكفى وحدها لأن تجعل كتدرائية لنكلن مما يشرف بنى الإنسان ، ولو لم يكن فيها « مرنمة الملائكة » . فقد حدث فى عام ١٢٣٩ أن سقط برج نورمندى قديم وحطم المرنمة التى شادها الأسقف هيو ، فلما سقطت شيدت مرنمة جديدة فى الفترة التى بين ١٢٥٦ - ١٢٨٠ على الطراز المزخرف الوليد ، منقوشة ولكنها بديعة . وتعزو الأقاصيص اسمها إلى الملائكة الذين أقاموها - كما تقول القصة - لأن أيدى بنى الإنسان تعجز من أن تقيم عملا يبلغ هذا المبلغ من الكمال ؛ ولكن أغلب الظن أن هذا الاسم قد اشتق من الملائكة الموسيقيين الباسمين المنحوتة صورهم على الفرج المسدودة حول أقواس طاقات البواكى القـــائمة فوق العقود بين الصحن والجناحين . وأوشك المثالون الإنجليز أن يبلغوا فى تماثيلهم القائمة على باب المرنمة الجنوبى ما بلغه المثالون فى ريمس وأمين . فهناك أربعة تماثيل قد أزال رؤوسها وشوّهها المتطهرون المتزمتون تبلغ فى الجمال مبلغ تماثيل ريمس وأمين ، ومن هذه تمثالان يرمز أحدهما إلى الهيكل وآخر إلى الكنيسة هما أجمل التماثيل الإنجليزية التى نحتت فى القرن الثالث عشر . ويظن السير وليم أسلر Sir William Osler وهو من كبار العلماء ، أن مرنمة الملائكة هذه أجمل روائع الفن البشرى على الإطلاق .

واستأجر الأسقف پور Poore فى عام ١٢٢٠ إلياس ده درهام Elias de Derham ليصمم ويبنى كتدرائية سلزبرى ؛ وقد تم بناؤها فى الفترة القصيرة

المعتادة التي لا تزيد على خمس وعشرين سنة . وهي في جميع أجزائها على الطراز الإنجليزي المبكر ، وتشذ عن القاعدة المتبعة في الكتدرائيات الإنجليزية وهي جمعها بين عدة طرز مختلفة . وإن ما تمتاز به من وحدة في التصميم ، وتناسق في الحجم والخطوط ، وجلال ساذج في برج الجناح وشمروخه ، ورشاقة في القبة المقامة على معبد العذراء ، وجمال في نوافذ بيت القساوسة ، إن ما تمتاز به من هذا كله ليعوضها عن ثقل دعامات الصحن وضيق القبة المقبض . ولا يزال لكتدرائية إلى Ely سقف من الخشب ، ولكنه سقف غير منفر ، فإن في الخشب من صفات الدفء والحيوية ما لا يوجد له مثيل في العمارة الحجرية . وقد أضاف المهندسون القوط إلى الحصن النورمندي بابا غريبا جميلا هو « باب الجليل » (حوالي عام ١٢٠٥) ، وبيتا للقساوسة به مجموعة من العمد الجسيلة منحوتة من رخام بربك Purbeck ، كما أضافوا إليها في القرن الرابع عشر على الطراز القوطي المزخرف مصلى للعذراء ، ومرنمة ، ثم أقاموا عند ملتقى الجناحين بالسقف برج ناقوس ضخم هو « مُثَمَّن إلى » . وكانت كتدرائية ولز (١١٧٤ - ١١٩١) من أقدم أمثلة الطراز القوطي الإنجليزي ، ولم يكن صحنها جيد التصميم ، ولكن الواجهة الشمالية التي أضافها الأسقف جوسلين Jocelyn (١٢٢٠ - ١٢٤٢) « أوشكت أن تكون أجمل ما شيد في إنجلترا »[٢٨] . ولقد كان في كوى الواجهة ٣٤٠ تمثالا ؛ فقد منها ١٠٦ كانت من ضحايا تزمت المتطهرين ، والتخريب ، وعوادي الزمن ، وتكون البقية الباقية أكبر مجموعة من الصور المنحوتة في بريطانيا . وليس في وسعنا أن نقول عن صفاتها مثل ما نقوله عن عددها .

وكانت آخر العمائر التي شيدت على الطراز القوطي الإنجليزي المبكر كنيسة ديروستمنستر . وكان سبب بنائها أن هنري الثالث الذي اتخذ إدورد المعترف قديسه الشفيع أحس بأن الكنيسة النورمندية التي بناها إدورد (١٠٥٠)

غير جديرة بأن تحوى عظام هذا الشفيع ، فأمر فنانيه أن يستعيضوا عنها بصرح قوطى على الطراز الفرنسى ، وجبى لهذا الغرض ضرائب بلغ مقدارها ٧٥٠,٠٠٠ جنيه يمكننا أن نقدرها تقديراً تقريباً بما يعادل ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى حسب قيمة الدولار فى هذه الأيام . وبدأ العمل فى عام ١٢٤٥ ، وظل قائما حتى توفى هنرى فى ١٢٧٢ . وكان تصميمها على غرار تصميم كنيستى ريمس وأمين لا يستثنى من هذا الجناحان الكثيرا الأضلاع اللذان هما من مميزات الطراز القارى ؛ ولقد تأثرت النقوش المنحوتة فى الباب الشمالى ، والتى تصور يوم الحساب ، بالنقوش التى فى الواجهة الغربية لكتدرائية أمين . وفى الفرج المسدودة فى البواكى القائمة فوق العقود التى بين الصحن والجناحين نقوش بارزة مدهشة تمثل الملائكة ، منها ملك فى الفرجة الجنوبية يطل على الزمان بوجه حنون رحيم يضارع ملك كنيسة ريمس . وفوق مدخل بيت القساوسة صورتان تمثلان البشارة وتشير فيهما العذراء إشارة فاتنة تجمع بين التوسل والتواضع . وأجمل من هذا كله على جماله القبور الملكية التى فى الدير ، وأجمل من هذه كلها تمثال هنرى الثالث نفسه ، وقد جمل فيه صانعه الملك البدين القصير فجعله مثلا أعلى فى الجمال وتناسب الأعضاء . ولقد أنست الناس هذه القبور الفخمة جرائم عشرين من الحكام ، وكادت تعوضهم عنها العبقرية الإنجليزية المدفونة تحت حجارة توابيت الملوك .

الفصل السابع

الطراز القوطى الألمانى (١٢٠٠ - ١٣٠٠)

استوردت فلاندرز الطراز القوطى من فرنسا فى تاريخ مبكر . فقد بدأت كنيسة القديس جودول Gudule التى ترفع هامتها كبرياء على تلها ببركسل فى عام ١٢٢٠ ، وأهم ما تفخر به هو زجاجها الملون . وأقيمت فى كنيسة القديس باڤون Bavon بغنت مرنمة قوطية فى ١٢٧٤ ؛ وكانت كنيسة القديس رمبولت Rombault فى مكلن Mechlin تشرف على الريف من أبراجها الضخمة المفرطة فى الزخرف وإن كانت لم تتم فى يوم من الأيام . ذلك أن فلاندرز كانت تهتم بالنسيج أكثر مما تهتم بالدين ، وكانت عمارتها مدنية لادينية ، وكان أعظم ما فيها من العمائر القوطية هو قاعات الأقمشة فى إيبر Ypres وبروج وغنت . وكانت قاعة إيبر (١٢٠٠ - ١٣٠٤) أفخم هذه القاعات : فقد كان لها واجهة ذات ثلاثة أطباق من البواكى طولها ٤٥٠ قدماً دمرت فى أثناء الحرب العالمية الأولى . ولا تزال قاعة النسيج فى بروج (١٢٨٤ وما بعدها) تشرف بقبة ناقوسها الفخمة التى طبقت شهرتها العالم كله على الميدان الذى تقوم فيه . وتوحى هذه المبانى الجميلة هى ومبانى غنت (١٣٢٥ وما بعدها) بما كانت عليه نقابات الحرف الفلمنكية من ثراء ، وما كانت تتيه به من كبرياء هى خليقة به ، وهى بعض ما فى هذه المدن السارة الهادئة فى هذه الأيام من فتنة وروعة .

ولقى الفن القوطى فى انتشاره نحو الشرق إلى هولندة وألمانيا مقاومة متزايدة ؛ ذلك أن رشاقة الطراز القوطى لم تكن تتفق بوجه عام مع النزعة العقلية التيوتونية ، وأن الطراز الرومنسى أكثر مواءمة لهذه النزعة ، ولهذا استمسكت

به ألمانيا حتى القرن الثالث عشر . وتعد كتدرائية بمبرج Bamberg العظمى (١١٨٥ — ١٢٣٧) مرحلة انتقال : فالنوافذ فيها صغيرة وذات عقود مستديرة وليست فيها مساند متنقلة ، ولكن القبة ذات ضلوع من الداخل وذات شكل مستدق . وإنا لنجد هنا فى مطلع عهد الفن القوطى الألمانى تطوراً فى النحت ذا بال : فقد كان فى بادئ الأمر يحذو حذو النحت الفرنسى ، ولكنه سرعان ما خطا نحو طراز من النزعة الطبيعية البديعة والقوة . والحق أن الصورة التى تمثل المعبد فوق كنيسة بمبرج لأوقع فى النفس من الصورة المماثلة لها فى ريمس[٢٩] . وتمثالا اليصابات ومريم اللذان فى المرنمة أقرب إلى أن يكونا نسختين من الموضوعين المماثلين لها فى فرنسا . ذلك أن تمثال اليصابات ذو وجه وشكل يشبهان وجه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى يرتدى الجبة الرومانية (الطوغة) ، وأما مريم فقد مثلت فى صورة امرأة ذات قوة وصـــلابة وهما الصفتان اللتان تحبهما ألمـــانيا على الدوام .

وتكاد كل كتدرائية ألمانية باقية من ذلك العهد تحتوى تماثيل تستلفت الأنظار ، أحسنها كلها التى فى كتدرائية نومبرج Naumburg (حوالى ١٢٥٠) . ففى المرنمة القريبة من هذه الكنيسة اثنا عشر تمثالا متعاقبة تمثل طائفة من علية القوم المحليين ، فى واقعية حازمة ، وتوحى بأن الفنانين لم ينالوا حقهم من الأجر كاملا ، وكأنما أرادوا أن يكفّروا عن هذا الخطأ فكانت صورة يوتا Uta زوجة الأمير تمثل المرأة الألمانيه كما يتوق إليها التفكير الألمانى . وعلى ستار المرنمة نقش يمثل يهوذا يتناول المال ليغدر بالمسيح . والصور هنا مزدحمة وذات قوة ولكنها قوة لا تضر بفرديتها ، فيهوذا قد مثل بحيث يبدو متصفاً بشيء من العطف ، والفريسيون شخصيات ذوات قوة . تلك هى آية فن النحت الألمانى فى القرن الثالث عشر .

وفى عام ١٢٤٨ وضع كنراد الهتشستادنى Conrad of Hochstaden كبير

أساقفة كولونى أشهر الكتدرائيات الألمانية وأقلها موافقة للطراز القوطى . وتقدم العمل تقدماً بطيئاً فى خلال الفوضى التى أعقبت موت فردريك الثانى ، فلم تدشن الكتدرائية إلا فى عام ١٣٢٢ ، ولهذا فإن جزءاً كبيراً منها يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ، أما الشماريخ الرشيقة وما على زواياها من النقوش التى فى صورة أوراق أشجار ملفوفة وزخارف النوافذ الحجرية التى يوضع فيها الزجاج فقد بنيت فى عام ١٨٨٠ حسب تصميم لها من القرن الخامس عشر . وبنيت كتدرائية كولونى على غرار كتدرائية أمين فترسمت الطراز الفرنسى والأسلوب الفرنسى بدقة . فخطوط الواجهة مفرطة فى اعتدالها وصلابتها ، ولكن عمد الصحن السامقة الرفيعة ، والنوافذ المتلألئة ، والتماثيل الأربعة عشر التى على دعامات المرنمة تكسب داخل الكتدرائية جاذبية ، لم تنج من الحرب العالمية الثانية إلا بأعجوبة ، وتكاد تكون إحدى المعجزات .

وكتدرائية استرسبورج Strassbourg أكثر من هذه إمتاعاً للنفس . وهنا أيضاً كان قرب البلدة من فرنسا مما جعل الطراز الفرنسى يبدو وكأنه أقلّ بُعداً عن الطابع الوطنى مما يبدو فى استرسبورج فى هذه الأيام (١٩٤٩) ، فخارجها يمثل الرشاقة الفرنسية وداخلها يمثل القوة الألمانية . ويدخل الإنسان إلى الكتدرائية بعد أن يمر ببيوت مزدحمة جميلة المنظر ذات سقف هرمية . وتزين التماثيل الواجهة ، ولكن النوافذ المشععة الواسعة ذات الروعة أبهى من هذه الزينة . والبرج الوحيد القائم فى ركن واحد من أركان الواجهة يشوه منظرها ، إذ يوحى إلى الإنسان بأن فيها نقصاً ، ولكن الفنان قد أفلح كل الفلاح فى أن يجمع هنا بين المهابة والزخرف ، حتى ليستطيع الإنسان أن يفهم وصف جيته لهذه الواجهة بأنها « موسيقى متجمدة » ، وإن كان علينا نحن أن نستخدم فى وصفها لفظاً غير لفظ « متجمد » . فقد كتب جيته يقول : « لما كنت قد نشأت على احتقار العمارة القوطية ، فقد ازدريت هذه الواجهة ؛ ولكنى لما دخلتها اعترتنى

الدهشة ، وأحسست بما فى جمالها من جاذبية »[٣٠] . والزجاج الملون فى هذه الكتدرائية قديم العهد ، ولعله أقدم من أى زجاج فى فرنسا ؛ والتماثيل المنحوتة التى عند باب الجناح الجنوبى (١٢٣٠ - ١٢٤٠) نادرة الجمال ، وفى القوس التى فوق الباب نقش غائر يمثل موت العذراء ؛ والرسل المجتمعون حول فراشها ذوو ملامح فردية غير وافية ؛ ولكن الفكرة التى أوحت بصورة المسيح جميلة وقد أبرزها المثال بمهارة . ويقوم على جانبى هذا الباب تمثالان عظيمان : يمثل أحدهما الكنيسة فى صورة ملكة ألمانية بشوشة ، والآخر صورة لشخص نحيل رشيق ، مكفوف ولكنه جميل ، يرمز إلى معبد اليهود ؛ ولو رفعت العصابة التى على عينى هذا التمثال لفاق المعبد الكنيسة . وقد أمرت لجنة الثورة الفرنسية فى عام ١٧٩٣ بتدمير تماثيل الكتدرائية لتجعل منها « معبداً للعقل » ؛ ولكن عالما فى التاريخ الطبيعى لا نعرف من اسمه أكثر من هرمان Herman أنقذ تمثالى الكنيسة والمعبد بأن أخفاهما فى حديقته المخصصة لعلم النبات ، كما أنقذ النقوش التى فوق قوس الباب بأن غطاها بلوحة عليها نقش فرنسى : الحرية ، والمساواة ، والإخاء[٣١] .

الفصل الثامن

الطراز القوطى الإيطالى (١٢٠٠ — ١٣٠٠)

أطلق الإيطاليون فى العصور الوسطى على الطراز القوطى اسم طراز تيدسكو ؛ وأخطأ إيطاليو النهضة مثل خطئهم فى أصل هذا الطراز ، فاخترعوا له اسم القوطى لاعتقادهم أن برابرة ما وراء الألب وحدهم هم الذين يستطيعون إيجاد فن يبلغ هذا القدر من الإسراف . ذلك أن ما فى هذا الطراز من كثرة فى الزخارف وعظم فى الجرأة لم يكن يلائم أذواق الإيطاليين ذات النزعة القديمة الطويلة العهد بالنقاء . وإذا كانت إيطاليا قد اتخذت الطراز القوطى، فقد كان ذلك عن إباء يكاد يبلغ حد الاحتقار . ولم يكن فى مقدورها أن تطلع على العالم بلألاء كتدرائية ميلان الغريب وطراز أرفيتو ، وسينا ، وأسيسى ، وفلورنس القوطى — البيزنطى — الرومنسى إلا بعد أن كيفته بما يوائم حاجاتها ومزاجها . وكان الرخام موفوراً فى أرضها وخرباتها وكان فى وسعها أن تبنى واجهات معابدها بألواح منه متعددة الألوان ؛ ولكن كيف تستطيع أن تنحت واجهة رخامية لتشيد منها المداخل المعقدة كما كان ينحت أهل الشمال بالحجارة اللينة ؟ إنها لم تكن فى حاجة إلى النوافذ الكبيرة التى تدعو إليها حاجة بلاد الشمال الباردة القائمة إلى الدفء والضوء ، وكانت لذلك تفضل عليها النوافذ الصغيرة التى جعلت كتدرائياتها معابد قليلة الحرارة تقى روادها وهج الشمس؛ ولم تكن ترى أن الجدران السميكة والأربطة الحديدية نفسها أقبح منظراً من الدعامات المتنقلة ، فكانت لذلك تستخدمها فى تزيين مبانيها ، ولم تتقبل فى يوم من الأيام المنطق الإنسانى فى الطراز القوطى .

ويكاد هذا الطراز فى البلاد الشمالية يكون كله قبل عام ١٣٠٠ مقصوراً

على الكنائس ، لا يستثنى من هذا إلا عدد قليل منها فى المدن التجارية مثل إبر ، وبروج ، وغنت . وكان للعمارة المدنية فى إيطاليا الشمالية والوسطى ، وهما أغنى من الأراضى الوطيئة نفسها فى الصناعة والتجارة ، شأن عظيم فى فى تنمية الفن القوطى ، فقد اتخذت القاعات العامة ، وجدران المدن ، والأبواب ، والأبراج ، وقلاع سادة الإقطاع ، وقصور التجار ، اتخذت هذه كلها الشكل القوطى أو الزخرف القوطى ؛ وبدأت بروجيا دار بلديتها فى عام ١٢٨١ ، وبدأت سينا دارها العامة فى ١٢٨٩ ، وبولونيا دارها الشعبية فى ١٢٩٠ ، وبدأت فلورنس دارها الفذة الرشيقة المعروفة بقصر ڤتشيو Vecchio فى ١٢٩٨ ــ وكلها على الطراز القوطى التسكانى .

وفى أسيسى أراد الأخ إلياس فى عام ١٢٢٨ أن ينشئ مكاناً يتسع للعدد الجم من رهبانه الفرنسيسين وللطوائف المتزايدة من الحجاج إلى قبر القديس فرانسس ، فأمر بتشييد دير سان فرانسسكو وكنيستها العظيمى الاتساع — وهى أول كنيسة شيدت فى إيطاليا على النظام القوطى . وعهد هذا العمل إلى رئيس للبنائين ألمانى يسميه الإيطاليون ياقوبو الألمانى (يعقوب الألمانى Jacopo d,Alemannia) ، ولعل هذا هو السبب فى تسمية الطراز القوطى فى إيطاليا « بالطراز الألمانى » . وشيد ياقوبو « كنيسة سفلى » على الطراز الرومنسى الذى فيه القبة ذات المنحنيات الزاوية عند ملتقى العقود ، ثم أقام فوقها « كنيسة عليا » ذات نوافذ فى عقودها محشوة بزخارف جميلة ، وقباب مضلعة مستدقة . وتكون الكنيستان والدير كتلة من البناء ذات روعة ، وإن كانت لا تبلغ فى الإمتاع ما تبلغه المظلمات العجيبة التى أبدعتها أيدى سمابيو Cimabue ، وجيتو ، وتلاميذ جيتو ، أو السائحين والعباد الذين يهرعون كل يوم من مائة مدينة ومدينة إلى ضريح قديس إيطاليا المحبوب ، أقل من يلقى المبالاة من هؤلاء القديسين .

ولا تزال سينا حتى الآن من مدائن العصور الوسطى : فهى تتكون من

ميدان عام تحيط به دور الحكومة ، وسوق عامة مكشوفة ، تتصل بها حوانيت متضعة لا تبذل فيها جهود لاسترعاء النظر . ويتفرع من هذا الميدان المركزى نحو اثنى عشر طريقاً تتعثر فى طريقها الخطر الظليل بين مساكن قديمة مظلمة لا تكاد يبعد بعضها عن بعض بعشر أقدام ، غاصة بخلائق بشوشين تفوح منهم روائح كريهة ، الماء عندهم ترف أندر وأشد خطورة على أجسامهم من النبيذ . وتقوم على تل خلف المساكن كتدرائية المدينة مبنية من الرخام القاتم والأبيض فى سطور غير ذات جمال . وقد بدئ بناء الكنيسة عام ١٢٢٩ وتم فى عام ١٣٤٨ ؛ وأضيفت إليها فى عام ١٣٨٠ واجهة جديدة ضخمة من تصميم خَلَّفَه چيوڤنى بيزانو . وكلها من الرخام الأحمر أو الأسود أو الأبيض ، وفيها ثلاثة أبواب كبيرة رومنسية الطراز على جانبي كل منها قوائم منحوتة نحتاً بديعاً ، وتحيط بها سقف هرمية ذات نقوش معقوفة ، ونافذة متشععة ترشح أشعة الشمس الغاربة ؛ وتمتد البواكي والعمد على طول الواجهة تطالع الناظر بطائفة كبيرة من التماثيل ؛ وفى الأركان شماريخ وأبراج من الرخام الأبيض تقلل من حدة زواياها ، وفى المقص العالى نقش فسيفسائى ضخم يمثل العذراء الأم تسبح صاعدة إلى الجنة . وكان الفنان الإيطالى مولعاً بالسطوح البراقة الملونة ، ولم يكن كالفنان الفرنسى مولعاً بانعكاسات الضوء والظل الدقيقة على العمد الداخلية فى الأبواب وعلى الواجهات ذات النحت الغائر . وليست هنا مساند للجدران . وتعلو فوق المرنمة قبة بيزنطية الطراز ، تتحمل ثقلها جدران سميكة وعقود مستديرة متسعة اتساعا كبيراً . تقوم على مجموعات من عمد الرخام ، وتحمل قبة ذات أضلاع مستديرة ومستدقة . والطراز القوطى التسكانى لا يزال يغلب عليه هنا الطراز الرومنسى ، ولا يزال بعيداً كل البعد عن طراز كنيستى أمين وكلونى الثقيل المعجز . وفى داخل الكنيسة منبر نقولو وچيوڤنى بيزانو . وتمثال برنزى لقائم بالتعميد صبه دوناتلو Donatello (١٤٥٧) ، ومظلمات من صنع پنتورتشيو Pinturicchio ،

ومذبح من صنع بلدساری بروزيو Baldassare Peruzzio (١٥٣٢) ومقاعـــد للمرنمين كثيرة النقوش المنحوتة من عمل برتولميو نيرونی Bartolomeo Neroni (١٥٦٧) ؛ وهكذا استطاعت كنيسة إيطالية أن تنمو قرناً بعد قرن بفضل سلسلة متصلة الحلقات من العباقرة الإيطاليين .

وبينما كانت كتدرائية سينا وبرج أجراسها يتشكلان تناقل الناس من قرية بلسينا Bolsena معجزة كانت لها نتائج معمارية . ذلك أن قساً ، كان فى سابق أيامه يشك فى عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه ، اقتنع بصدق هذه العقيدة الدينية حين رأى الدم على الخبز المقدس ؛ ولم يكتف البابا إربان الرابع بأن يخلد هذه المعجزة بضم « عيد الجسد » إلى الأعياد المسيحية (١٢٦٤) ، بل أمر بتشييد كتدرائية فى أرڤيتو القريبة من قرية بلسينا . ووضع تصميم هذه الكتدرائية أرنلفو دى كمبيو Arnollo di Cambio ولورنزو مكتانى Lorenzo Mactani وظلا يعملان فى تشييدها من ١٢٩٠ حتى تمت فى ١٣٣٠ . وجعلت واجهتها على طراز كتدرائية سينا ، ولكنها أجمل منها صقلا وتنفيذا ، وأحسن منها تناسباً فى أجزائها ، فكأنها تصوير ضخم فى الرخام ، كل عنصر من عناصرها آية فنية بذلت فيها عناية فائقة . وتروى النقوش البارزة المفصلة تفصيلا لا يكاد يصدقه العقل ، ولكنها مع ذلك دقيقة كل الدقة ؛ وتحدث هذه النقوش القائمة على العمد المربعة العريضة التى بين الأبواب مرة أخرى عن قصة خلق العالم ، وحياة المسيح ، وتطهير المسيح للجنس البشرى من الذنوب والشقاء ، ويوم الحساب . ويمتاز أحدها ، وهو الذى يمثل زيارة العذراء لإليصابات ، بأنه يرقى فى ذلك العهد إلى الكمال الذى بلغه فن النحت فى عصر النهضة . وهناك عمد منحوتة نحتا رقيقا تقسم مراحل الواجهة الشامخة الثلاث ، وتأوى طائفة كبيرة من الأنبياء ، والرسل ، والآباء ، والقديسين . وتتوسط هذه المجموعة المعقدة نافذة مشععة تعزى إلى أركانيا Orcania (١٣٥٩) ، وإن كان

هذا مشكوكاً فيه ، ويعلوها نقش فسيفسائى براق (أزيل فى الوقت الحاضر) يمثل تكليل العذراء . وداخل الكنيسة الذى تتناوب فيه الخطوط الملونة تناوباً غريباً عبارة عن باسلقا ساذجة تحت سقف منخفض من الخشب ؛ والإضاءة فيها ضعيفة ، وليس فى وسع الإنسان أن يمتدح المظلمات التى صنعها فرا أنجليكو Fra Angelico وبنزو جنزولى ، Benozzoli Gozzoli ولوكا سنيورلى Luca Signorelli .

ولكن سورة البناء التى اجتاحت إيطاليا فى القرن الثالث عشر أتت بأعظم عجائبها فى مدينة فلورنس الثرية . فقد شاد أرنلفو دى كمبيو فى عام ١٢٩٤ كنيسة الصليب المقدس (سانتاكروس Santa Croce) واحتفظ فيها بنظام الباسلقا التقليدى الخالى من الجناحين ، ذى السقف الخشبى المستوى ، ولكنه استخدم العقد المستدق فى النوافذ ، والصحن ذا البواكى والواجهة الرخامية . ولا يعتمد جمال الكنيسة على هندستها المعمارية بقدر ما يعتمد على كثرة ما فى داخلها من التماثيل ، والنقوش المنحوتة ، والمظلمات ، التى تكشف عن مهارة أصحاب الفن الإيطالى السائر نحو النضوج . وفى عام ١٢٩٨ أنشأ أرنلفو لمكان التعميد واجهة من طبقات الرخام يتعاقب فيها اللونان الأسود والأبيض ذلك التعاقب الذى يمجه الذوق السليم ، ويشوه كثيراً من مبانى الطراز التسكانى ، لأنه يخضع الارتفاع العمودى لحشد من الخطوط المستقيمة . ولكن روح العصر المزهوة بنفسها — وهى بشير آخر بعصر النهضة — يمكن تبينها فى المرسوم (١٢٩٤) الذى كلف به أرنلفو ببناء الكتدرائية العظيمة :

لما كان الحزم أجمع يقضى على ذوى الأصول الكريمة أن يختطوا فى أعمالهم خطة تجعل ما يتبعونه فيها من حكمة وفخامة تظهر فى صورة تراها العين ، فقد أمرنا أن يعد أرنلفو رئيس المهندسين فى المدينة نماذج أو تصميمات لإعادة بناء (كتدرائية) سانتا مارية ربراتا Sante Maria Reparata ، بحيث تبدو

فى أسمى حلة من الفخامة مهما أنفق فيها من المال ، وبحيث لاتستطيع جهود البشر ولا قواهم أن تبتكر شيئاً أيا كان ، أو أن تتعهد بالقيام بشىء ، يفوقها سعة أو جمالا ؛ وأن يراعى فى هذا العمل ما أعلنه أحكم الحكماء من المواطنين وأشاروا به فى مجلسهم العام وفى اجتماعهم العام وهو ألا تمس يد أعمال المدينة إلا إذا كان فى نية صاحبها أن يجعلها موائمة للروح النبيلة المؤلفة من أرواح جميع مواطنيها مجتمعة فى إدارة موحدة[٣٢] .

وأثار هذا التصريح الواسع الانتشار حماسة الجماهير ، وهو الهدف المقصود منه بلا ريب ، فأخذوا يتبرعون بالمال . واشتركت نقابات الحرف الطائفية فى المدينة فى تمويل المشروع ؛ ولما أن تباطأت غيرها من النقابات فيما بعد تعهدت نقابة عمال الصوف بنفقات المشروع كله ، وتبرعت لهذا الغرض بمبلغ ارتفع إلى ٥١٫٠٠٠ ليرة ذهبية (أى ما يعادل ٩٫٢٧٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) فى العام[٣٣] . ولهذا صمم أرنلفو البناء على أبعاد ضخمة ، فقدر ارتفاع القبة الحجرية بمائة وخمسين قدماً ، أى بما يساوى ارتفاع قبة بوفيه ، وقدر اتساع الصحن بمائتين وستين قدماً فى خمس وخمسين ؛ واعتزم أن تتحمل ثقل البناء جدران سميكة ، وأربطة حديدية ، وعقود فى الصحن مستدقة ، اشتهرت بقلة عددها الذى لا يزيد على أربعة ، وبامتدادها الهائل الذى يبلغ خمساً وستين قدماً فى الطول وتسعين قدماً فى العرض . وتوفى أرنلدو فى عام ١٣٠١ ؛ وظل العمل قائماً بعد وفاته وأدخل على تصميمه كثير من التعديل بإشراف چيتو ، وأندريا پزانو ، وبرونلسكى Brunelleschi وغيرهم ،ولم تدشن هذه الكتلة الضخمة المشوهة من البناء إلا فى عام ١٤٣٦ ،وغير اسمها إلى سانتا ماريا ده فيورى Santa Maria de Fiore . وهى صرح ضخم غريب المنظر استغرق تشييده ستة قرون ، وغطى مساحة قدرها ٨٤٫٠٠٠ قدم مربعة ، وتبين فيما بعد أنه يتسع لمستمعى شڤنرولا Savonarola .

الفصل التاسع

الطراز القوطي الأسباني (١٠٩١ - ١٣٠٠)

حمل رهبان فرنسا فى القرن الثانى عشر الطراز القوطى إلى أسبانيا فوق جبال البرانس ، كما نقلوا طراز العمارة الرومنسى إلى تلك البلاد فى القرن الحادى عشر . وكانت كتدرائية سان سلڤادور القائمة فى بلدة أڤيلا الصغيرة (١٠٩١ وما بعدها) هى بداية الانتقال من الطراز الرومنسى إلى القوطى ، وذلك بما احتوته من العقود المستديرة ، والباب القوطى الطراز ، والعمد الشيقة التى فى القبا والتى ترتفع حتى تتصل بالأضلاع المستدقة فى القبة . واحتفظ أهل سلمنقه Salamanca الأتقياء بالكتدرائية القديمة التى تمثل دور الانتقال والتى شيدت فى القرن الثانى عشر إلى جانب الكتدرائية الجديدة التى شيدوها فى القرن السادس عشر ؛ وتكون الكنيستان معا مجموعة من أكبر المجموعات البنائية وأعظمها روعة فى أسبانيا . وفى طرقونة Tarragona كانت الصعاب المالية سبباً فى إطالة عملية بناء الكرسى الكهنوتى من ١٠٨٩ إلى ١٣٧٥ ؛ وإن ما يتصف به البناء من بساطة ومتانة ليوائم الزخارف القوطية والإسلامية ، وما فيه من الأروقة — المكونة من عمد رومنسية تحت قبة قوطية — لمن أجمل ما أخرجه فن العصور الوسطى .

وطراز البناء فى طرقونة واضح المعالم ، أما بورجوس Burgos ، وطليطلة وليون فهى أكثر منها نزعة فرنسية ، وتزيد كل واحدة عن التى قبلها فى هذا الاتجاه . ذلك أن زواج بلانش القشتالية من لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٠٠) قد أدى إلى زيادة أسباب التدخل الذى بدأه من قبل الرهبان المهاجرون . وكان

ابن أخيها فرنندو الثالث ملك قشتالة هو الذى وضع الحجر الأساسى لكتدرائية بورجوس فى عام ١٢٢١ ؛ وكان مهندس فرنسى غير معروف هو الذى قام بتصميم البناء ، وألمانى من كولونى — جوان ده كولونيا Juan de Colonia — هو الذى أقام الشماريخ (١٤٤٢) ، وبرغندى يدعى فليپه ده برجونيا Felipé de Borgonia هو الذى بنى الناقوس العظيم فوق ملتقى الجناحين (١٥٣٩ — ١٥٤٣) ؛ ثم قام أخيراً تلميذه جوان ده ڤليجو Juan de Vallego الأسبانى بإتمام الصرح كله ١٥٦٧ : وإن الشماريخ المزخرفة النوافذ ، والأبراج المفتوحة التى تعتمد عليها هذه الشماريخ ، والباكية ذات التماثيل ، لتخلع على كنيسة سانتا ماريا لا مايور Senta Maria la Mayor (القديسة مارية الكبرى) مهابة وفخامة لا يستطيع الإنسان أن ينساهما فى وقت قصير . وقد كانت هذه الواجهة الحجرية كلها فى بادئ الأمر مطلية ، ولكن الألوان زالت عنها من زمن بعيد ، ولهذا فإن كل ما نستطيعه الآن هو أن نحاول تصور هذا الصرح المتلألئ الذى كان فى وقت من الأوقات يضارع الشمس بهاء .

كذلك قدم فرنندو الثالث نفسه الأموال اللازمة لبناء كتدرائية طليطلة الأكثر من كتدرائية بورجوس فخامة . وقلّ أن توجد فى المدن الداخلية مدينة جميلة الموقع كمدينة طليطلة — فهى تجثم فى ثنية من ثنايا نهر التاجه ، تخثمها تلال تحميها من الأعـــداء ؛ وما من أحد يعرف ما هى عليه من فقر فى هذه الأيام يتصور أن ملوك القوط الغربيين ومن جاء بعدهم من أمراء المسلمين ، ثم ملوك اليون Leon وقشتالة المسيحيين ، قد اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم . وقد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٢٢٧ وأخذت ترتفع فى الجو ببطء مرحلة بعد مرحلة ، حتى أوشكت على التمام قبيل عام ١٤٩٣ . ولم ينشأ من التصميم الأصلى إلا برج واحد ؛ وهى من طراز نصف إسلامى مغربى كطراز الخرلدة فى أشبيلية ، وتكاد تماثلها فى رشاقتها . وبنيت فوق البرج الثانى فى القرن السابع عشر قبة أعدّ تصميمها أشهر

أبناء طليطلة دومنجو تيوتوكوپولى Domingo Teotocopuli الملقب باليونانى Elgreco . وطول الكنيسة من الداخل ٤٩٥ قدماً وعرضها ١٧٨ ؛ وهى متاهة تحتوى على خمس طرقات ذات دعامات عالية ، ومصليات مزخرفة ، وتماثيل حجرية للأولياء الزهاد ، وشبابيك من حديد مشغول ، و ٧٥٠ شباكاً من الزجاج الملون . ويتمثل فى هذه الكتدرائية الضخمة كل ما يتصف به الخلق الأسپانى من جد ، وكل ما يتصف به التقى الأسپانى من كآبة وقوة انفعال ، وما فى الآداب الأسپانية من رقة ودماثة ، كما يتمثل فيها أيضاً بعض ما يتصف به المسلمون من ولع بالزخرف .

ومن الأمثال السائرة فى أسپانيا أن « فى طليطلة أغنى كنائسنا ، وفى أڤيدو أكثرها قداسة ، وفى سلمنقة أعظمها قوة ، وفى ليون أعظمها جمالا »[٣٤]. وقد بدأ الأسقف منريك Manrique كتدرائية ليون Leon فى عام ١٢٠٥ وجمع المال اللازم لها من تبرعات صغيرة جوزى عليها من قدموها بصكوك الغفران ، وتم بناؤها فى عام ١٣٠٣ . وقد عمد المهندسون فيها إلى الخطة القوطية الفرنسية وهى أن يكون معظم بناء الكتدرائية مكوناً من نوافذ ؛ ولزجاجها الملون منزلة عالية بين روائع ذلك الفن . وقد يكون حقاً أن تصميم الأرض التى بنيت عليها مأخوذ من كتدرائية ريمس ، وأن الواجهة الغربية قد أخذت من شارتر ، والباب الجنوبى الكبير من برجوس . ولهذا تمثل الكنيسة خليطاً عجيباً من الكتدرائيات الفرنسية — يحتوى على أبراج وشماريخ مصقولة .

وقامت كنائس أخرى ابتهاجاً باستعادة المسيحية أسپانيا — فى رمورة عام ١١٧٤ ، وفى توطيلة عام ١١٨٨ ، ولريده ١٢٠٣ ، وبلنسية ١٢٦٢ ، وبرشلونة ١٢٩٨ . ولكننا يصعب علينا أن نصف الكنائس الأسبانية التى قامت فى تلك الفترة من الزمان بأنها قوطية الطراز ، لا يستثنى من ذلك التعميم إلا كنيسة ليون . فقد خلت هذه الكنائس من النوافذ الكبيرة والمساند

المتنقلة ، واعتمد ثقل أبنيتها على جدران ودعامات ضخمة ؛ وتمتد هذه الدعامات نفسها حتى تكاد تصل إلى القبة ؛ بدل أن تمتد ضلوع العقود من القاعدة إلى السقف ؛ وهذه العمد العالية التى تقوم كالمردة الحجرية فى كهوف الصحون الضخمة تكسب داخل الكنائس الأسپانية عظمة قاتمة مظلمة تخشع لها النفوس رهبة ؛ على حين أن الطراز القوطى الشمالى يسمو بها لما يغمرها من ضوء . وكثيراً ما احتفظت الأبواب والنوافذ فى الطراز القوطى الأسپانى بالعقود الرومنسية ، كما احتفظت الزخارف المكونة من طبقات مختلفة ورسوم من الآجر الملون بعنصر إسلامى مغربى بين زخارفها القوطية ؛ وبقى تأثير الطراز البيزنطى فى القباب وأنصاف القباب القائمة ، ذات التقاسيم الثلاثية المتناسقة القائمة على قاعدة كثيرة الأضلاع . وهذه العناصر المختلفة هى التى أنشأت منها أسپانيا طرازاً فذاً من الكتدرائيات يعد من أجمل كتدرائيات أوربا .

وليست قصور الريف الحصينة وقلاعه ، ولا جدران المدن وأبوابها ، أقل الأعمال المعمارية فى العصور الوسطى نبلا وفخامة . فلا تزال جدران أڤيلا قائمة إلى اليوم تشهد بإدراك العصور الوسطى لجمال الشكل ، كما جمعت بعض الأبواب الكبيرة كباب الشمس Puerto de Sol فى طليطلة بين الجمال والمنفعة . كذلك أقام الصليبيون من ذكرياتهم للقلاع الرومانية ، فى الشرق الأدنى — ولعل ذلك كان أيضاً من ذكرياتهم لما شاهدوه من حصون المسلمين(٣٥) — حصوناً قوية ضخمة كحصن الكرك (١١٢١) ، تفوق فى حجمها وشكلها أية حصون من نوعها فى ذلك العهد الحربى . وشادت بلاد المجر ، حصن أوربا الحصين من المغول ، قصوراً فخمة حصينة فى خلال القرن الثالث عشر . ثم انتقل هذا الفن إلى بلاد الغرب وترك فى إيطاليا آيات من الفن الحربى مثل برج ڤلتيرا Voltera الحصين ، وفى فرنسا فى القرن الثالث عشر قصور كوسى Coucy وپييرفون Pierrefonds ، وقصر جويارد Chatean Guillard الذى شـــاده رتشرد قلب الأسد

(١١٧٩) على أثر عودته من فلسطين . ولم تكن القصور المحصنة فى أسبانيا بدعة من بدع الخيال ، بل كانت كتلا ضخمة قوية من البناء صدت المسلمين المغاربة ، واشتق منها اسم قشتالة(*) . ولما استرد الفنسو السادس (الأذفنش) (١٠٧٣ — ١١٠٨) ملك قشتالة مدينة سيجوفيا Ssgovia من المسلمين ، أقام فيها قصراً حصيناً على نمط « قصر » طليطلة . وقامت أمثال هذه القصور الحصينة فى إيطاليا لتكون قلاعاً يسكنها النبلاء ، ولا تزال مقاطعتا تسكانيا ولمبارديا مليئتين بها ؛ وكان فى سان جنيانو San Gimignano وحدها ثلاثة عشر قصراً حصيناً من هذا النوع قبل الحرب الأوربية الثانية . وبدأت فرنسا منذ القرن العاشر لا بعد تبنى فى شتودون Chateaudun القصور التى أضحت فى عصر النهضة من أفخم مظاهر فنها المعمارى . وانتقلت الأساليب الفنية فى بناء القصور الحجرية إلى إنجلترا مع أتباع إدورد المعترف المحبَّبين ، وارتقت بما اتخذه وليم الفاتح من إجراءات هجومية دفاعية فى البلاد ، فاتخذت فى أثناء قبضته الحديدية عليها صروح برج لندن ، وقصر ونزر Windsor ، وقصر درهام اتخذت هذه الصروح أقدم صورها . ومن فرنسا أيضا انتقل بناء القصور الحصينة إلى ألمانيا ، حيث شغف به الأعيان الخارجون على القانون ، والملوك المحاربون ، والقديسون الغازون . فشاد اسكلس Schloss الكنجزبرجى الرهيب (١٢٥٧) حصنا استطاع الفرسان التيوتون أن يحكموا منه السكان المعادين لهم ، حتى كان هذا الحصن ضحية هو خليق بها من ضحايا الحرب العالمية الثانية .

(*) Castile من Castle . (المترجم)

الفصل العاشر

لمحات متفرقات

لقد كانت العمارة القوطية أجل ما تكشفت عنه النفس البشرية فى العصور الوسطى . ذلك أن أولئك الرجال ، الذين أقدموا على تعليق هاته القباب على مشاءات قليلة من الحجارة ، قد درسوا عملهم ، وعبروا عنه بإحكام أكثر مما فعله فى برجه العاجى أى فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى ، وقد أثمرت هذه الدراسة ما لم تثمره دراسة أولئك الفلاسفة ؛ وإن خطوط كنيسة نتردام وأجزاءها المتناسقة لتؤلف قصيدة أعظم من *الملهاة الإلهية* . هذا وليس فى وسعنا أن نعقد موازنة عامة بين العمارتين القوطية واليونانية — الرومانية القديمة ، لأن هذه الموازنة تحتاج إلى كثير من التخصص . ولسنا ننكر أنه ما من مدينة واحدة فى أوربة العصور الوسطى قد أخرجت من العمائر ما أخرجته أثينة أو رومة ، وأنه ليس من الأضرحة القوطية ضريح حوى من الجمال الصافى ما حواه البارثنون ؛ ولكنا لا نعرف فى العمائر اليونانية — الرومانية القديمة ما يضارع العظمة المعقدة التى نراها فى واجهة كتدرائية نتردام أو الوحى الذى ينزل على النفس فيسمو بها حين تشهد قبة كتدرائية أمين ؛ وإن ما يتمثل فى الطراز القوطى من تقييد واطمئنان ليعبر عن تعقل واعتدال كانت تدعو بلاد اليونان إليهما أهلها ذوى العاطفة القوية الجائشة ؛ وإن النشوة الخيالية التى فى الطراز القوطى الفرنسى ، والضخامة القائمة التى تمتاز بها كتدرائيتا برجوس وطليطلة ، واللتين ترمزان من غير قصد إلى ما فى روح العصور الوسطى من شوق وحنان ، وإلى ما فى العقيدة الدينية من رهبة ، وإيمان بالأساطير والعقائد الخفية . لقد كانت العماة والفلاسفة

اليونانيتان — الرمانيتان القديمتان علمين يهدفان إلى الثبات والاستقرار ؛ ذلك أن العوارض الراكزة على الأعمدة والتى كانت تربط عمد البارثنون كانت هى التفسير الدنيوى لنقوش دلنى مع توكيد للتسامى ، والنضج بالثبات ، وهى توشك أن ترغم أفكار بنى الإنسان على العودة إلى هذه الحياة وهذه الأرض . ولقد كانت تسمية روح بلاد الشمال بالروح القوطية تسمية صادقة تنطبق على الواقع ، لأنها ورثت الجرأة القلقة التى هى من مميزات البرابرة الفاتحين ؛ وكانت تنتقل منهومة من نصر إلى نصر ، حتى حاصرت آخر الأمر السماء بمساندها المتنقلة ، وعقودها السامقة ، ولكنها كانت بالإضافة إلى هذا روحا مسيحية تطلب إلى السماء أن تهبها الرحمة التى أقصتها البربرية عن الأرض . وكانت البواعث المتعارضة هى التى أدت إلى أعظم انتصار للشكل على المادة فى تاريخ الفن من أوله إلى آخره .

ولكن لِمَ اضمحلت العمارة القوطية ؟ لقد كان من أسباب اضمحلالها أن كل فن يقضى على نفسه بتعبيره الكامل عن نفسه ، ويدعو إلى رد الفعل أو التغيير . ثم إن تطور الفن القوطى إلى العمودى فى إنجلترا ، وإلى كثرة الألوان والزخارف فى فرنسا ، لم يترك للشكل مستقبلا سوى المغالاة ثم الاضمحلال . يضاف إلى هذا أن إخفاق الحملات الصليبية ، وضعف العقيدة الدينية ، وتحول الأموال من مريم العذراء إلى رب المال ، ومن الكنيسة إلى الدولة ، قد حطم روح العصر القوطى . وفوق هذا وذاك فإن فرض الضرائب على رجال الدين بعد أيام لويس التاسع قد أفرغ من المال خزائن الكتدرائيات ، وفقدت المدن المستقلة ونقابات الحرف الطائفية ، التى كانت تُسهم فى مجد العمارة القوطية ونفقاتها ، استقلالها ، وثروتها ، واعتزازها بنفسها ؛ وأنهك الموت الأسود ، وحرب المائة السنين فرنسا وانجلترا كليهما ؛ فكانت النتيجة أن المبانى الجديدة فى القرن الرابع عشر لم تقل فحسب ، بل إن الكثرة الغالبة من الكتدرائيات

العظيمة التى بدأت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر قد تُركت ناقصة .
وآخر ما نذكره من أسباب هذا الضعف أن إعادة كشف الكتّاب الإنسانيين
الحضارة القديمة ، ونهضة العمارة الجديدة فى إيطاليا التى لم تمت فيها هذه
الحضارة قط ، قد أحلا محل الفن القوطى فنا خصبا جديداً موفور النماء ،
فسيطر فن النهضة المعمارى من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر على
أوربا الغربية ، لا يستثنى من ذلك الإسراف فى الزينة وكثرة التفاصيل .
ولما جاء الدور على النزعة اليونانية — الرومانية القديمة فأصابها هى الأخرى
الوهن أعادت الحركة الإبداعية التى قامت فى بداية القرن التاسع عشر
العصور الوسطى إلى خيال أصحاب النزعة المثالية ، وعادت العمارة القوطية إلى
الوجود . ولا يزال الكفاح قائماً بين الطرازين اليونانى — الرومانى والقوطى
فى كنائسنا ومدارسنا وأسواقنا وحواضرنا ، على حين أن طرازاً معمارياً
أصيلا أعظم جرأة من الطراز القوطى أخذ يعلو فى أجواز الفضاء .

وظن رجل العصور الوسطى أن الحقيقة قد تكشفت له فلم يعد فى حاجة
إلى الجرى الوحشى وراءها ؛ ولهذا فإن الجهد الطائش الذى نبذله الآن
فى الجرى وراء تلك الحقيقة قد وجه فى تلك الأيام إلى خلق الجمال ، وقد
وجد الناس بين كوارث الفاقة ، والأوبئة الفتاكة ، والحروب ، من
الوقت والروح القوية ما مكنهم من أن يجملوا ألفاً من الأدوات المختلفة
الأنواع تختلف من حروف أسمائهم الأولى إلى الكتدرائيات الشامخة . وإذا
ما وقفنا محتبسى الأنفاس أمام بعض مخطوطات العصور الوسطى ، أذلاء
أمام نتردام ، وتمثلنا صورة صحن كنيسة ونشستر البعيدة ما كان فى عصر
الإيمان من خرافات وأقذار ، وحروب دنيئة ، وجرائم وحشية ؛ وأدهشنا
مرة أخرى ما كان يتصف به أجدادنا فى العصور الوسطى من صبر طويل ،
وذوق جميل ، وخشوع وإخلاص ؛ وحمدنا لألف ألف من الرجال المنسيين
ما بثوه فى دم التاريخ من قداسة الفن .

الباب الثالث والثلاثون

موسيقى العصور الوسطى

(٣٢٦ – ١٣٠٠)

الفصل الأول

موسيقى الكنيسة

لقد أسأنا نحن إلى الكتدرائية . إنها لم تكن هذه المقبرة الباردة الخالية التي يدخلها الزائر في هذه الأيام ، بل كان لها عمل تؤديه ؛ ذلك أن من كانوا يدخلونها للعبادة لم يكونوا يجدون فيها تحفة فنية فحسب ، بل كانوا يجدون فيها مريم وابنها يواسيانهم ، ويشدان عزمهم . وكانت تستقبل الرهبان والقساوسة الذين كانوا يقفون عدة مرات في اليوم في مواضع الترنيم ينشدون أناشيد الصلوات الدينية . وكانت تستمع إلى أدعية المصلين الملحين يستمدون من الله الرحمة والعون . وكان صحنها وجناحاها تهدى المواكب التي كانت تحمل أمام الشعب صورة العذراء أو جسم ربهم ودمه . وكانت جنباتها الرحبة تردد في جد ووقار موسيقى القداس ، ولم تكن هذه المسيقى أقل شأناً من صرح الكنيسة نفسه ، وكانت تؤثر في النفس تأثيراً أعمق من تأثير جلال الزجاج والحجارة . وما أكثر النفوس الجامدة القوية ، المتشككة في العقيدة الدينية ، التي أذابتها الموسيقى فخرت راكعة أمام ذلك السر الذي تعجز الألفاظ عنه .

وقد اتفق تطور موسيقى العصور الوسطى اتفاقاً عجيباً مع تطور الطرز

المعمارية ؛ فكما أن الكنائس الأولى انتقلت فى القرن السابع من شكلها القديم شكل القباب والباسلقات ، إلى الشكل الرومنسى القوى المتين ، وانتقلت فى القرن الثالث عشر إلى الطراز القوطى المعقد ، العالى ، المزخرف ، كذلك احتفظت الموسيقى المسيحية إلى زمن جريجورى الأول (٥٤٠ - ٦٠٤) بنغمات بلاد اليونان والشرق الأدنى الحزينة ، وانتقلت فى القرن السابع إلى الترنيم الجريجورى أو الترنيم البسيط ، ثم ازدهرت فى القرن الثالث عشر فتعددت نغماتها وكثرت أصواتها القوية الجريئة تنافس الأساليب المتزنة التى تقوم عليها الكتدرائية القوطية .

وتضامنت غارات البرابرة فى الغرب ، مع بعث النزعة الشرقية فى الشرق الأدنى ، فى تحطيم التقليد اليونانى الذى كان يرمز إلى النغمات الموسيقية بحروف توضـــع فوق الكلمات ؛ ولكن الأساليب اليونانية الأربعة - اللورى ، والفريجى ، والليدى ، والمكسوليدى Mixolydean بقيت وتولد منها بطريق التقسيم الأساليب الثمانية فى التأليف الموسيقى - التأملى ، والمحبوس ، والجدى ، والرزين ، والمرح ، والمبتهج ، والقوى ، والمنتشى . وظلت اللغة اليونانية ثلاثة قرون بعد الميلاد باقية فى موسيقى الغرب الكنسية ، ولا تزال باقية فى صلاة ارحمنا يارب Kyrie eleison . واتخذت الموسيقى البيزنطية شكلها فى عهد القديس باسيلى ، وقرئت الترانيم اليونانية بالسورية ، وبلغت ذروتها فى ترانيم رومانوس (حوالى ٤٩٥) وسرجيوس (حوالى ٦٢٠) ونالت أعظم نصر لها فى الروسيا

وكان بعض المسيحيين الأولين يعارض فى استخدام الموسيقى فى الدين ، ولكن سرعان ما تبين أن دينا بغير موسيقى لا يمكن أن يقوى على منافسة العقائد التى تمس حساسية الإنسان الموسيقية . ومن أجل ذلك تعلم القس أن يغنى القداس ، وورث بعض الألحان التى كان يتغنى بها المرتل العبرى ؛ وعلم الشمامسة

وخدم الكنيسة أن يغنوا الردود ؛ وعلم بعضهم تعليما فنياً فى مدارس خاصة للترنيم جعلت البابا سلستين الأول Celestine I (٤٢٢ – ٤٣٢) يصبح هو نفسه مرنما حاذقا ، وكان هؤلاء المرنمون المدربون يكونون فرقاً عظيمة منهم ، كان فى فرقة أياصوفيا ٣٥ مرنماً ، ١١١ « قارئا » معظمهم من الغلمان[١] . وانتشر غناء المصلين من الشرق إلى الغرب ، وكان الرجال يتبادلون مع النساء أغنيات متجاوبة ويشتركون معهن فى التسبيحات الدينية . وكانوا يظنون أن المزامير التى يغنونها تردد أو تقلد على الأرض تسابيح المديح التى يغنيها الملائكة والقديسون بين يدى الله فى الجنة . وأدخل القديس أمبروز فى أسقفيته تبادل الغناء بين الرجال والنساء على الرغم من نصيحة الرسل بأن تظل النساء صامتات فى الكنيسة ؛ وقال هذا الإدارى الحازم إن « المزامير حلوة النغم فى كل عصر ، وتليق بكلا الجنسين ، وهى تخلق رابطة عظيمة من الوحدة حين يرفع الناس جميعاً عقيرتهم فى ترنيمة واحدة »[٢] . وبكى أوغسطين حين سمع المصلين فى كنيسة ميلان يتلون ترانيم أمبروز ، وصدّق عليه قول القديس باسيلى إن المستمع الذى يستسلم للذة الموسيقى يستجيب للنشوة الدينية والتقوى[٣] . ولا تزال ترانيم أمبروز تتلى فى كنائس ميلان إلى يومنا هذا .

وثمة رواية متواترة كان أهل العصور الوسطى عامة يؤمنون بصحتها ، وأضحت الآن بعد شكوك دامت زمنا طويلا مقبولة بوجه عام[٤] ، تعزو إلى جريجورى الأكبر وأعوانه إصلاحاً وتجديداً فى الموسيقى الكنسية الكاثوليكية الرومانية ، أدى إلى اعتبار « النشيد الجريجورى » الموسيقى الرسمية للكنيسة مدى ستة قرون . واجتمعت الألحان الهلنستية والبيزنطية مع الإيقاع العبرى فى الهيكل والمعبد فشكلت هذا النشيد الرومانى أو النشيد البسيط . وكان هذا النشيد موسيقى تتألف من أغنية واحدة ؛ وأيا كان عدد الأصوات المشتركة فيه ، فقد كانت كلها تغنى نغمة واحدة ، وإن كان النساء والغلمان كثيراً ما يغنون طبقة فى السلم الموسيقى

أعلى من التى يغنيها الرجال ؛ وكان هذا النشيد موسيقى سهلة على ذات المدى القليل ، وكانت تسمح من حين إلى حين بإضافة نغمة أو بضع نغمات مركبة غير لفظية تحلى بها الأغنية ، وكانت فى مجموعها فواصل متصلة متحررة من قيود الوزن والقافية غير مقسمة إلى أوتاد أو تقسيم للوقت الذى تلقى فيه .

وكانت العلامات الموسيقية الوحيدة المستعملة فى النشيد الجريجورى قبل القرن الحادى عشر تتألف من إشارات صغيرة مأخوذة من علامات التنبر اليونانية توضع فوق الكلمات المراد غناؤها . وكانت هذه « الأنفاس » تدل على ارتفاع النغمة أو انخفاضها ، ولكنها لا تدل على درجة الارتفاع أو الانخفاض ، ولا على طول مدة النغمة ؛ فقد كانت هذه تُعرف بالتواتر الشفوى وبحفظ طائفة جد كبيرة من أغانى الطقوس الكنسية . ولم يكن يسمح بأن تصحب الغناء آلة موسيقية ؛ ولكن النشيد الجريجورى أصبح على الرغم من هذه القيود — أو لعله أصبح بسبب هذه القيود — أعظم مظاهر الطقوس الكنسية المسيحية وقعاً فى النفس . وإن الأذن الحديثة التى اعتادت التوافق الموسيقى المعقد لتجد هذه الأغانى مملة رقيقة ، وترى فيها استمراراً للتقاليد اليونانية ، والسورية ، والعبرية ، والعربية ذات الصوت الواحد التى لا تقدرها فى هذه الأيام إلا الأذن الشرقية . لكن الأناشيد التى تغنى فى كتدرائية رومانية كاثوليكية فى أسبوع الآلام ، تنفذ بالرغم من هذا النقص إلى قلوب المستمعين بقوة سريعة عجيبة لا نجدها فى الموسيقى التى تلهى تعقيداتها الأذن بدل أن تحرك الروح .

وانتشر النشيد الجريجورى فى أوربا الغربية كأنه انتشار آخر للدين المسيحى ، ورفضته ميلان ، كما رفضت السلطة البابوية ، وظلت أسبانيا زمناً طويلا محتفظة بنشيد « مستعرب Mozarabic » ألفه المسيحيون الخاضعون لحكم المسلمين ، وهو نشيد لايزال يتلى حتى اليوم فى جزء من كتدرائية طليطلة . واستبدل شارلمان ، وهو الحاكم المحب للوحدة ، النشيد الجريجورى بالنشيد الغالى

فى غالة ، وأنشأ مدارس لموسيقى الكنيسة الرومانية فى متز وسواسون ؛ ووجد الألمان ، الذين تكونت حناجرهم بتأثير مناخهم وحاجاتهم ، صعوبة فى هذه الأغانى ذات الألحان الرقيقة . وفى ذلك يقول الشماس يوحنا : « إذ أصواتهم الخشنة التى تشبه هزيم الرعد ، لا يمكن أن تنطق بالنغمات الرقيقة ، لأن هذه الأصوات مبحوحة من كثرة الشراب »[٥] .

وربما كان الألمان قد كرهوا الأسلوب الذى أخذ منذ القرن الثامن وما بعده يزين النشيد الجريجورى بـ « المحط القصيرة » وبسلسلة النغمات التى تتعاقب بانتظام . وقد بدأ « المحط » بوصفه طائفة من الكلمات يسهل بها تذكر اللحن ، ثم صار بعدئذ إدماجا للألفاظ والموسيقى فى النشيد الجريجورى ، كما كان يحدث حين لا ينشد القس Kyrie eleison **ارحمنا يارب** بل ينشد Kyrie eleison (fon Piltatis, a quo bona cuncta Priocedant) **ارحمنا يامن تَمُن علينا بجميع الخيرات يارب** . وأجازت الكنيسة هذه التحليات ولكنها لم تقبلها قط ضمن الترانيم الرسمية . وكان الرهبان المتضايقون من حياة الأديرة يسلون أنفسهم بتأليف هـــذه العبارات وإدخالها ضمن الأناشيد ، حتى كثرت فيها كثرة أدت إلى وضع كتب خاصة بها لتعلم الناس العبارات المحببة منها أو تحفظها من النسيان . ونشأت موسيقى التمثيل الكنسى من هذه العبارات . وقد وضعت سلاسل النغمات المتعاقبة على نسق تسابيح القداس . ونشأت هذه السنة من إطالة الحرف المتحرك الذى فى آخر الكلمة إطالة سموها اليوبيلوس iubilus أى نشيد الابتهاج ؛ وكتبت فى القرن الثامن عدة نصوص لهذه التوقيعات التى أدخلت فى الألحان . وأصبحت هذه السنة فنا راقيا حوّل النشيد الجريجورى تدريجا إلى طراز مزخرف لا يتفق مع روحه الأولى أو مع قصده « البسيط »(*) . وقضى هذا

(*) ولم تقبل الكنيسة فى أورادها إلا خمسة من هذه الأناشيد .

التطور على نقاء النشيد الجريجورى وسلطانه فى القرن الثانى عشر الذى شهد الانتقال من الطراز الرومنسى إلى الطراز القوطى فى العمارة فى بلاد الغرب .

وتطلب نقل هذه الكثرة من التواليف المعقدة علامات موسيقى أحسن من العلامات التى استعملت فى تلك الأغنية السهلة . ولهذا قام أدو Odo رئيس دير كلونى ونوركر بلبولس Norker Balbulus أحد رهبان دير القديس جول Gall فى القرن العاشر بإحياء الطريقة اليونانية القديمة طريقة تسمية النغمات بحروف . وفى القرن الحادى عشر اقترح كاتب لم يفصح عن اسمه استخدام السبعة الحرف الكبيرة الأولى من السلم الموسيقى ، واستخدام ما يقابلها من الحروف الصغيرة اللاتينية فى الطبقة الثانية من السلم ، والحروف اليونانية للطبقة الثالثة منه(٦) . وقام حوالى عام ١٠٤٠ راهب من بمبوزا Pomposa القريبة من فرارا Ferrara يدعى جيدو الأرزوى Guido of Arezzo فسمى الست النغمات الأولى من السلم الموسيقى بأسمائها الحالية الغربية بأن أخذ المقاطع الأولى من كل نصف شطر من ترنيمة ليوحنا المعمدان :

Ut queant laxis *re* sonare floris
Mira gestorum *famuli* tusrum
Solve polluti *labii* reatum

أنقذ الدنيا من دنس الشفاه
حتى يستطيع عبيدك
الذين يقومون بخدمتك
أن يرددوا أعذب
الألحان فى الفضاء
الواسع المزهر

وأصبحت تسمية النغمات الموسيقية بالمقاطع : أت أو دو ، رى ، مى ، فا ، صل ، جزءاً لا يتجزأ من شباب الغرب .

وأهم من هذا تطور « الموسيقى » على يد جيدو . فقد نشأت حوالى عام ١٠٠٠ عادة استخدام خط أحمر للتعبير عن النغمة التى يمثلها حرف F ، ثم أضيف بعدئذ خط آخر أصفر أو أخضر ليمثل حرف C ، ثم وسع جيدو أو شخص آخر قبله هذه الخطوط ليجعل منها مدرجا ذا أربعة خطوط ، أضاف إليه معلمو

الموسيقى فيما بعد خطا خامسا . وكتب جيدو يقول إن غلمانه المرنمين قد استطاعوا بهذا المدرج الجديد وبالنغمات أت ، رى ، مى ، أن يتعلموا فى أيام قليلة ما كان يتطلب منهم قبلئذ عدة أسابيع » وكان هذا تقدما يسيراً ولكنه تقدم عظيم الشأن بدأ به عهد جديد فى تطور الموسيقى ؛ وبفضله لقب جيدو بلقب **مخترع الموسيقى** وأقيم له تمثال فخم لا يزال يُرى فى ميدان أرزو العام إلى هذا اليوم . وأحدث هذا التطور انقلاباً عظيما فى الموسيقى ؛ فبفضله تحرر المغنون من حفظ الترانيم الموسيقية الدينية كلها عن ظهر قلب ، وأصبح من الميسور أكثر من ذى قبل تأليف الموسيقى ، ونقلها ، وحفظها ، كما أصبح فى مقدور العازف أن يقرأ النغمات الموسيقية بمجرد النظر إليها ، ويستمع إليها بعينه ؛ ولم يعد المؤلف مضطراً إلى أن يكون قريباً من الألحان التقليدية خشية أن يرفض المغنون حفظ الأدوار التى يؤلفها ، بل أصبح فى مقدوره أن يغامر بألف من التجارب . وأهم من هذا كله أنه قد أصبح فى وسعه أن يكتب موسيقى متعددة الأنغام ، يمكن أن يغنيها صوتان أو أكثر من صوتين فى وقت واحد ، أو أن يعزف اثنان أو أكثر من اثنين ألحاناً مختلفة ولكنها متوافقة .

ونحن مدينون لآبائنا فى العصور الوسطى باختراع آخر أمكن بفضله وجود الموسيقى الحاضرة . ذلك أنه قد أصبح من المستطاع تلحين الغناء بنقط توضع على سطور المدرج الموسيقى أو بينها ، ولكن هذه العلامات لم تكن تدل أية دلالة على المدى الذى يجب أن تمتد إليه النغمة ، وأصبح لا بد لتطور الموسيقى ذات اللحنين المستقلين (أو الأكثر من لحنين) تعزفان متناسقين فى وقت واحد ، أصبح لا بد لهذا التطور من وجود طريقة يُقاس بها زمن كل نغمة وتدل على هذا الزمن ، وربما كانت معلومات منقولة عن رسائل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وغيرهم من علماء المسلمين وفلاسفتهم الذين عالجوا موضوع أطوال النغمات الموسيقية أو علامات القياس[٧] . وكتب قس عالم فى الرياضة من كولونى

يدعى فرانكو فى وقت ما فى القرن الحادى عشر[8] رسالة فى **قياس الغناء** جمع فيها كل ما وجد قديما من المقترحات النظرية والعملية . ووضع أساس طريقتنا الحاضرة للدلالة على أطوال النغمات الموسيقية ، واختير عود ذو رأس مربع كان فى بادئ الأمر يستخدم للدلالة على النغم ، استخدم هذا العود ليمثل النغمة الطويلة ، وكبرت علامة أخرى هى النقطة حتى أضحت شبه منحرف ومثلت بها النغمة القصيرة . ثم بدلت هذه العلامات على مدى الأيام ، وأضيفت إليها ذيول حتى تطورت منها بمثات من السخافات طريقتنا السهلة التى نستخدمها الآن لقياس النغمات .

وقد مهدت هذه التطورات الخطيرة السبيل إلى الموسيقى المتعددة النغمات ، وكانت هذه الموسيقى قد كتبت قبل فرانكو ، ولكنها كانت موسيقى خشنة تعوزها الرقة ، فلما أشرف القرن التاسع على الانتهاء وجدنا طريقة فى الموسيقى تدعى « التنظيم » — أى غناء النغمات المتطابقة بأصوات متوافقة . ثم انقطعت أخبار هذه الطريقة فلم نعد نسمع منها إلا القليل النادر قبل نهاية القرن العاشر إذ نجد لفظى organum وسمفونيا symphonia (الأغنية المنتظمة والإيقاع) يستعملان لهذه النغمات المركبة من صوتين . وكانت الأرغنة (الأغنية المنتظمة) قطعة من القداس يواصل فيها الصادح لحناً قديما موحد النغمة ، فى الوقت الذى يضيف فيه صوت آخر لحناً يتفق معه . ثم نشأت صورة أخرى من هذا النوع نفسه كان للصادح فيها نغمة جديدة عجيبة ، واجتذبت صوتاً آخر فى اللحن المشترك . وخطا المؤلفون فى القرن الحادى عشر خطوة لا تقل فى نوعها جرأة عن توازن قوة الدفع فى العمارة القوطية . فقد كتبوا قطعاً متعددة الأصوات بوحدة ملائمة لم ينقد فيها الصوتُ « المنجذب » إلى الصادح انقياداً أعمى فى علو اللحن وانخفاضه ، بل اندفع إلى ألحان أخرى ذات نغمات لا يحتم عليها أن تتحرك فى خط متواز مع أصوات الصادح . وكاد هذا الإعلان للاستقلال يصبح ثورة حين

صحب الصوت الثانى نغمة الصادح الآخذة فى الارتفاع بحركة انخفاض مقابلة لها ؛ وأصبح هذا التوافق عن طريق التباين وحل التنافر المؤقت فى يسر ، أصبح هذا وذاك هياما عند المؤلفين يكاد يجرى مجرى القانون ؛ وهذا دعا چون كتن John Cotton أن يكتب حوالى ١١٠٠ يقول : « إذا كان الصوت الرئيسى يرتفع ، وجب أن ينخفض الجزء المصاحب له »[٩]

وانتهى الأمر بأن جعلت ثلاثة أصوات مختلفة ، أو أربعة ، أو خمسة بل ستة فى بعض الأحيان تغنّى فى مجموعة متشابكة من الإيقاع الانفرادى ، تتقابل فيه الألحان المتباينة المتطابقة وتمتزج فى انسجام رأسى أفقى دقيق ، رشيق ، شبيه بالعقود المتقابلة فى قبة قوطية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان هذا الفن القديم فن تعدد الأصوات قد وضع أساس التأليف الموسيقى الحديث .

وكان التحمس للموسيقى فى هذا القرن ذى العواطف الثائرة والمهتاجة يضارع الولع بالعمارة والفلسفة . وكانت الكنيسة تنظر شزراً إلى تعدد الأصوات فى الموسيقى ، لأنها لم تكن تثق بقوة التأثير الدينى للموسيقى إذا ما أصبحت فى نفسها إغراء وغاية . ولهذا دعا چون أسقف سلزبرى وفيلسوفها إلى وجوب وقف حركة التعقيد فى التأليف الموسيقى . ووسم الأسقف جويوم دوراند Guillaume Durand الصادح بأنه « موسيقى مختلة النظام » ؛ وأسف روچر بيكين ، الثائر فى ميدان العلم ، لزوال النشيد الجريجورى الضخم . وندد مجلس ليون Lyons (١٢٧٤) بالموسيقى الجديدة ، وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر (١٣٢٤) اعتراضا على الموسيقى المتعددة الأصوات لأن المؤلفين أصحاب هذه البدعة : « يفتتون الألحان . . . فتندفع بعضها فى إثر بعض بلا توقف ، حتى تسكر الأذن من غير أن تهدئها ، وتقلق بال المتعبد الخاشع دون أن تثير فيه خشوعه »[١٠] . لكن الثورة ظلت تجرى فى مجراها ، ففى أحد حصون الكنيسة الحصينة – كنيسة نتردام فى باريس – ألّف ليونينس Leoninus رئيس جماعة

المرنمين حوالى عام ١١٨٠ أجمل أغنية فى أيامه ، وارتكب خليفته پترونيوس Petronius إثما كبيراً إذا ألف مقطوعات من ثلاثة أصوات أو أربعة . وانتشرت الموسيقى المتعددة الأصوات ، كما انتشر الطراز القوطى ، من فرنسا إلى إنجلترا وأسپانيا . وقال چرالدس كمبرنسس Giraldus Cambarensis (١١٤٦ — ١٢٢٠) بوجود أغانى مكونة من جزأين فى أيرلندة ، كما قال عن بلدة ويلز قولا لا نخطئ إذا قلناه عنها اليوم :

وهم فى أغانيهم لا ينطقون بالنغمات متحدة . . . بل ينطقون بنغمات كثيرة — بطرق كثيرة وأصوات كثيرة ؛ ومن ثم فإن وجود المغنين الكثيرين الذين جرت عادة هـذا الشعب على جمعهم ، يؤدى إلى سماع أصوات يبلغ عددها عدد من تقع عليهم العين من المغنين ، كما يؤدى إلى سماع أجزاء مختلفة متباينة تجتمع آخر الأمر فى لحن متوافق متحد[١١] .

وخضعت الكنيسة آخر الأمر لروح العصر ونزعته اللتين لا تخطئان أبداً ، وارتضت الموسيقى المتعددة الأصوات ، واتخذتها خادما قوية للإيمان ، وأعدتها لمـا نالته من انتصار فى عهد النهضة .

الفصل الثاني

موسيقى الشعب

وظهرت الرغبة فى الوزن فى مائة صورة من الموسيقى والرقص غير الدينيين . وكان لدى الكنيسة من الأسباب ما يجعلها تخشى هذه الغريزة إذا لم تفرض عليها رقابة . وكان من الطبيعى أن تتحالف هذه الرغبة مع الحب مصدر الأغانى والمنافس القوى للدين من هذه الناحية . وكانت النزعة الأرضية القوية التى تغلب على عقول العصور الوسطى فى غيبة القسيس مما يميل بتلك العقول إلى التحرر فى النصوص وإلى البذاءة فيها فى بعض الأحيان ، تحرراً وبذاءة ارتاع لهما رجال الدين وأثارا المجامع الدينية إلى إصدار قرارات لم يكن لها أثر . وكان المتعلمون الجوّالون يلقون فى تجوالهم أو يؤلفون فى أثنائها أهازيج فى النساء والخمر ، ويقلدون الطقوس المقدسة تقليداً ساخراً معيبا . ونشرت مخطوطات تحتوى مقطوعات موسيقية جدية تلحن الألفاظ المرحة لقداس السكيرين ، كما نشر كتاب صلوات الصخابين[١٣] . وكانت أغانى الحب كثيرة كما هى فى هذه الأيام ، وكان منها ما هو فى رقة ابتهالات الحور وحنانها ، ومنها ما هو حوار للإغواء تصحبه نغمات رقيقة ؛ ولا حاجة إلى القول بأنه كانت فى ذلك الوقت أغان حربية ، يقصد بها الوصول إلى الوحدة عن طريق اتحاد الأصوات ؛ أو تحث على طلب المجد بالألفاظ الموزونة التى تسلب الحس . وكانت بعض الموسيقى أغانى شعبية وضعها عباقرة غير معروفين ، وادّعاها عامة الشعب — أو لعلهم نقلوها عن مؤلفيها ، كما كان البعض الآخر من الموسيقى الشعبية ثمرة قرائح محترفين ماهرين يستخدمون كل ما تعلّموه فى أوراد الكنيسة من فنون الموسيقى المتعددة الأصوات . ووُحد

فى إنجلترا ضرب من الموسيقى المتعددة الألحان المحبوبة وهو الموسيقى الدَّوْرية؛ فيها يبدأ أحد الأصوات لحناً ، ثم يبدأ صوت ثان هذا اللحن عينه أو لحناً آخر مؤتلفا معه حين يصل الأول إلى نقطة متفق عليها فيه ، ثم يبدأ ثالث والثانى مستمر فى غنائه ، وهكذا دواليك حتى يجتمع عدد من الأصوات قد تبلغ الستة فى دورة مرحة نشطة من النغمات المجتمعة .

وتكاد أغنية « الصيف مقبل » الذائعة الصيت تكون أقدم أغنية دورية ؛ وأكبر الظن أن مؤلفها راهب من رهبان بلدة ردنج Reading وأن ذلك كان فى عام ١٢٤٠ . وتدل هذه الأغنية المعقدة ذات الستة الأجزاء على أن الموسيقى المتعددة الألحان قد استقرت بين الشعب . ولا تزال ألفاظ هذه الأغنية شاملة لروح ذلك القرن الذى كانت فيه حضارة العصور الوسطى كلها فى طريق الازدهار :

الصيف مقبل
فغنّ يا وقوق بصوت عال !
فالبذور تنبت والكلأ يتمايل
والزهر يتفتح الآن فى الغاب
غنّ يا وقوق !
النعجة تثغى وراء الْحمَل
والبقرة تخور وراء وليدها
والثور يقفز والوعل يفرّ
غن مرحاً يا وقوق !
يا وقوق يا وقوق ما أعذب شدوك ؛
فلا تقف عن الغناء ، لا تقف الآن أبداً ،
غن يا وقوق الآن ، غن يا وقوق ،
غن يا وقوق ، غن يا وقوق الآن .

وما من شك فى أن هذه الأغنية وأمثالها توائم المغنين الجوالين الذين كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة ، ومن بلاط إلى بلاط ، بل من قطر إلى قطر . فنحن نسمع عن مغنين من هذا النوع يأتون من القسطنطينية ليغنوا فى فرنسا ، وعن آخرين من إنجلترا يغنون فى أسبانيا . وكان وجود هؤلاء المغنين وقيامهم بعملهم جزءاً معتاداً فى كل وليمة رسمية . فقد استخدم إدورد الأول ملك إنجلترا (٤٢٦) مغنيا فى الاحتفال بزواج ابنته مرجريت[١٣] . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات من المغنين تنشد أغانى مجزأة كما كانت فى بعض الأحيان معقدة تعقيداً غير مألوف . وكانت هذه الأغانى يؤلفها عادة – ألفاظها وموسيقاها – شعراء غزلون فى فرنسا وآخرون مثلهم فى إيطاليا وألمانيا(*) . وكان معظم الشعر فى العصور الوسطى يُكتب لكى يُغنّى ، وفى ذلك يقول فلكيه Folquet الشاعر الغزلى الفرنسى : « إن القصيدة بغير الموسيقى كطاحون بلا ماء »[١٤] . ولدينا فى هذه الأيام موسيقى لمائتين وأربع وستين أغنية من الأغانى الباقية للشعراء الغزلين البالغ عددها ٢٦٠٠ ، وتتألف هذه الموسيقى فى العادة من نغمة متتابعة ذات مقطع واحد ووصلات على مدرج من أربعة خطوط أو خمسة . وأكبر الظن أن شعراء أيرلندة وويلز كانوا يغنون ويعزفون على آلات .

وإن كثرة الآلات الموسيقية واختلافها فى العصور الوسطى لما يثير الدهشة : فآلات القرع – كالأجراس ، والصنوج ، والدفوف ، والمثلث الموسيقى ، والطبلة – والآلات الوترية – كالقيثارة على اختلاف أنواعها ، والربابة ، والعود ، والكمان الأصغر ، وذات الوتر الواحد وغيرها ؛ وآلات النفخ ، كالصفارة ، والناى ، والمزمار ، والآلة ذات القربة ، والنفير ، والبوق والقرن ، والأرغن ، هذه أمثلة اخترناها من مئات . لقد كان لدى أهل تلك الأيام

(*) وكانوا يسمون Trobadors فى فرنسا ، و Troubadors فى إنجلترا و Trovatore فى إيطاليا و Menalsingers فى ألمانيا . (المترجم)

كل ما تتطلبه اليد أو الإصبع ، أو القدم ، وكل ما يحتاجونه لضبط الأوتار . وكانت بعض هذه الآلات قد بقيت من أيام اليونان وجاء بعضها الآخر ، بصورته واسمه ، من بلاد الإسلام كالرق والناى والقيثارة ، ومنها ما كان نماذج قيمة لتحف فنية من المعدن أو العاج أو الخشب . وكانت الآلة العادية للمغنى الجائل هى الكمان الصغيرة ، وهى آلة كالكمان قصيرة يعزف عليها بقوس كقوس الرامى منحنية الظهر . وكان أكثر أنواع الأرغن انتشاراً قبل القرن الثامن هو الأرغن المائى ؛ ولكن جيروم وصف فى القرن الرابع أرغناً هوائياً[17] ، وكتب بيدى يصف أرغناً ذا « أنابيب من الشبه تملأ بالهواء من منفاخ ويصدر منه نغمات فخمة حلوة إلى أقصى حد »[18] . وقد اتهم القديس دنستان St. Dunstan (٩٢٥ ؟ — ٩٨٨ ؟) بالسحر حين صنع قيثاراً يعزف إذا وضع أمام ثقب فى جدار[19] ؛ ووضع فى كتدرائية وستمنستر حوالى عام ٩٥٠ أرغن ذو ستة وعشرين منفاخا ، واثنين وأربعين نافخا لهذه المنافيخ ، وأربعمائة أنبوبة ، وكانت منافيخه ضخمة ضخامة تضطر العازف إلى أن يضربها بقبضات تحميها قفازات ذات بطانات سميكة[20] . وكان فى ميلان أرغن أنابيبه من الفضة ، وفى البندقية أرغن ذو أنابيب من الذهب[21] .

وبعد فإن كل ما يبعثه وصف العصور الوسطى للجحيم من رهبة فى النفس ليفنى إذا ما نظر الإنسان إلى مجموعة الآلات الموسيقية فى تلك العصور . وإن الصورة التى تبقى لدينا من ذلك الوقت لهى صورة قوم لا يقلون عنا سعادة إن لم يزيدوا علينا ، يستمتعون بمرح الحياة ومطامعها ، لا ينوء بهم الخوف من نهاية العالم أكثر مما تنوء بنا شكوكنا هل تدمر الحضارة وتفنى قبل أن تتم كتابة تاريخها ؟

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتـــدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHPTER XXVII

1. In Coulton, *Social Life*, 15.
2. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxiv, 4.
3. In Coultron, *Five Centuries of Religion*, I, 60.
4. Ibid., 31.
5. Gregory I. *Dialogues*, iv, 30, 35, in Lecky, *Morals*, II, 220.
6. Ibid., 221.
7. Westermark, *Moral, Ideas*, I, 723, Coultion, *Five Centuries*, I, 71.
8. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, Supplement, xcyii, 5,7.
9. Les, *Inquisition in Middle Ages*, III, 384.
10. Ibid.,385
11. Coulton, *Conturies*, I, 40.
12. Gregory I, *Dialogues*, i, 4, in Duddeu, II, 367.
13. Coulton, *Five Conturies*, I, 445-9, II, 665.
14. Coultron, *Panorama*, 416.
15. Id., *Social Life*, 337.
16. Westermark, *Moral Ideas*, I, 722.
17. Coultron. *Panorama*, 416.
18. *Cambridge Medieval History*, VII, 635.
19. Coultron, *Inquisition and Liberty* 19.
20. Id., *Panorama*, 417.
21. Id., *Medieval Village*, 241.
22. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xxiii, 7.
23. Coulton, *Life*, I, 54.
24. Lecky. *Morals*, II, 220.
25. In Coultron, *Inquisition and Liberty* 18.
26. Lea, *Auricular Confession*, III, 322.
27. Dudden, II, 427.
28. Renan, E., *Poetry of the Celtic Races*. 177.
29. Coultron, *Five Conturies*. I, 75.
30. Id., *Inquisition and Liberty*, 2.
31. John of Salisbury, *Metalohicus*, vii, 2.
32. in Munro and Sellery, 489.
33. Giraldus Cambrensis, *Gemma Ecclesiastica*, ii, 24, in Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 311.
34. Ibid., i, 51, in Robertson, II,311.
35. Lea, *Inquisiton in Middlle Ages*, III, 558.
36. Coulton, *Social Life*, 218 ; *Five Centuries*, I. 71.
37. Vencent of Beauvais, *Speculum Morale*, ii, 3-6, ii, 1.11.
38. Coulton, *Five Centuries*, I, 31.
39. Coulton *The Inquisition*, 62.
40. Quoted by Berthold of Regensburg in Coulton, *Five Centuries*, I, 72.
41. *Aucassen et Nicolette*, iine 22.
42. Coulton, *Panorama*. 17.
43. Id., *Five Centuries*, I, 308.
44. Reese, G., *Music in the Middle Ages*, 110.

45. Wright, Th., *The Book of the Knight of La Tour - Landry*, prologue, and ch. 35, 174.
46. Coulton, *Village*, 524.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 358
48. Durand, *Rationale divinorum officiorum*, in Raby, 357.
49. Raby, 356.
50. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, i, 1.
51. Vencent of Beauvais, *Speculum Historiale*, vi, 99, in Coulton, *Life*, I, 1,
52. Caesar of Heisterbach, ii, 170.
53. Ibid.
54. Milman, III, 242.
55. Coulton, *Five Centuries*, i, 300.
56. Moore, *Judaism*, II, 4.
57. Catholic Enclopedia, I, 634.
58. Voltaire, *Works*, XIII, 136.
59. In Spengler, O , *Decline of the West*, II, 295.
60. Voltaire, III, 137.
61. Lea, *Auricular Confession*, II, 443
62. Ibid , III, 285.
63. Catholic Encyclopedia. VII, 787.
64. *Cambridge Medieval History*, VI, 678, Funk, I, 379.
65. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*, 64.
66. Lanfranc. *Decocorpore et sanguin Dominal*, in *Cambridge Medieval History*, VI, 678.
66a. Lacroix. *Military*, 454,
67. Matt. vi. 7.
68. EncyclopaediaBritannica, VI, 795
69. Montalembert. i, 57.
70. Male, E.. *L'art religieux du XIIIe siècle en France*, 309-11.
71. Coulton, *Panorama*, 107.
72. Coulton, *Life*, I, 168.
73. Addison, *Arts*, 65.
74. Coulton, *Five Centuries*, IV, 94.
75. Haskins, *Renaissance of Twelfth Century*, 235.
76. Jusserand. 327.
77. Ibid.,
78. Coulton. *Five Centuries*, IV, 106
79. Calvijo, G. de, *Embassy to Tamerlane*, 7, 63, 81.
80. Coulton, *Five Cecturies*, V, 105
81. Ibid., IV, 120.
82. V, 99.
83. Coulton, *Five*, IV, 98.
84. Ibid., 116.
85. III.
86. Haskins, *Renaissance*, 235.
87. Coulton, *Five Centuries*, IV, 121
88. Funk, I, 297.
89. Howard, C., *Sex Worship*, 78-93; Coulton, *Life* IV, 209-10.
90. Davis. *Medieval England*. 202, Frazer, Sir J., *Magic Art* II, 370.
91. Weigall, A., *The Paganism in Our Christiany* 131.
92. Adams, H., *Most St. Michel*, 91.
93. Coulton, *From St., Francis*, 119.
94. In Adams, H., 262.
95. Ibid., 93, 254.
96. 259.
97. 258.
98. Funk. I, 296.
99. Catholic Enclopedia, IX, 991d
100. Julian Ribera in Thorndike, *ShortHistory of Civilization*. 36(
101. For tr. of *Dies irae* cf. Van Doren, M., *Anthology*, 460.
102. Gibbon, VI, 494f.
103. Renard, 42; Brentano in Smith, T., *English Guids* ixxxv.
104. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 674 Barnes. *Economic History*. 164.
105. Catholic Encyclopedia, V, 679.
106. Viliari, 161.
107. Coulton, *Five Centuries*, VI, 383; *Medieval Village*, 294.

108. Ibid.,
109. Maine, *Ancient low*, 132.
110. Coulton, *Panorama*, 172, 293, *From St. Francis*, 293, Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 238, Matthew Paris, I, 83.
111. Davis, *Medieval England*, 28.
112. Coulton, *Panorama*, 137, 164.
113, Id., *Medieval Village*, 205.
114. Ibid., 303, id., *Panorama*, 197, 204, *Social Life*, 213,*Life*, III 30
115. Lecky, *Morals*, II, 335.
116. Coulton, *Panorama*, 120.
117. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 3.
118. Thatcher, 165-6.
119. *Cambridge Medieval History*, VI, 543
119a. Jewish Encyclopedia, I, 560.
120. Lea, op. cit., I, 13.
121. *Cambridge Medieval History*, VI, 8.
122. Ibid 3; Taylor, *Medieval Mind*, II, 303.
1 23. Carlyle, R.W., *Political Theory*, V, 157, 182.
124. Ibid, 162,
125. Encyclopaedia Britannica, II, 370 a,
126, Clayton, J,, *Pope Innocent III*, 181,
127, Walsh, J, *Thirteenth Century* 370,
128. *Cambridge Medieval History*, VI, 2,
129. In Lea, *Inqnisition in Middle Ages*, I, 129
130. *Cambridge Medieval History*, VI, 694
131. Encyclopaedia Britannica, XII, 370b.
132, Coulton, *From St. Francis* 275
133, Funk, I, 368
134, Coulton, *From St Francis* 277,
135, *Cambridge Medieval History* VI, 120
136. Luke Wadding in Coulton, *From St. Francis* 277,
137. Ibid, 225,
138. Coulton, *Panorama*, 165
139. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 686
140. Voltaire, XIII, 130,
141. Clapham and Power, 189
142. Lea, *Auricular Confession*, III, 17
143. Taylor *Medieval Mind*, II, 303; Thompson, *Economic Middle Ages*, 689
144. Id., *Feudal Germany*, 19
145. Boissonnade, 82, 243
146. Ibid,, Lacroix, *Manners* 12
147. Fisher H,L. *Medieval Empire*, II, 64.
148. Thompson, *Economic History of the middle Ages*, 692
149. Ibid., 691
150. Id., *Later Middle Ages*, 12
151, Funk, I, 355,
152. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 624
153. Lavisse, E., *Histoire de France* III, 318,
154. Matthew Paris, I, 50
155. Coulton, *Five Centuries* IV, 522
156. Coulton, *Life*, I, 36
157. Milman, V, 139
158. Porter, *Medieval Architecture* II, 164; Coulton, *Social Life*, 215
159, Cf, Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 21-38, for many instances of ecclessiastical self-reform

CHAPTER XXVIII

1. Coulton, *From St, Francis*, 12
2. Beer, M, *Social Straggles in the Middle Ages*, 185, 177

3. Luchaire in Munro and Sellery, 438.
4. Ibid., Beer, 133.
5. Encyclopaedia Britannica, XXIII, 288b.
6. Coulton, *Panorama*, 463
7. Vacandard, *Inquisition*, 70
8. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 622
9. *Cambridge Medivale History*, VI, 21.
10. Sabatier, *Life of St. Francis*, 43
11. Matthew Paris, I, 66
12. Vacandard, 83
13. Ibid., 74.
14. 91.
15. Luchaire, 444.
16. Vacandard, 77 ; Beer, 129-31.
17. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 79, Vacandard, 97; Luchaire, 441
18. Coulton, *Inqnisition and Liberty* 70, Vacandard, 73, Morey. *Medieval Art* 255.
19. Vacandard, 77.
20. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 103.
21. Rowbotham, 293.
22. Luchaire. 434.
23. Ibid., 436.
24. Lea, I, 120, 133.
25. Thatcher, 209.
26. Lea I, 139.
27. Ibid., 141.
28. Ibid.
29. 146.
30. 153.
31. 164.
32. Guizot, *France*, I, 507 Coulton. *Life*, I, 68.
33. Lea, I, 162.
34. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 490.
35. Lea, 654.
36. Maimönides, *Guide to the Perplexed*, III, intord., xli.
37. Vacandard, 48.
38. Ibid.
39. 63.
40. 68.
41. Sumner, *Folkways*, 238.
42. Catholic Encyclopedia, VIII, 28c.
43. Lea, 237.
44. Vacandard, 63.
45. Coulton, *Inquisition aud Liberty*, 49.
46. Vacandard, 37.
47. Lea, 69.
48. Mickerson. H., *Inquisition*, 61.
49. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 680.
50. Lea, 318.
51. Ibid, 321,
52. Coulton, *Inquisiton aud Liberty*, 49,
53. Catholic Encyclopedia, VIII, 29a; Vacandard, 52,
54. Ibid, 119,
55. Coulton, *Inquistion* 59 ; *Inquisition and Liberty*, 66,
56. Vacandard, 61,
57. Sarton, II(2), 646,
58. Vacandard, 183,
59. Ibid, 163,
60. Davis, *Medieval England*, 406,
61. Thatcher, 309,
62. Lea, 371 ; Vandard, 190.
63. Lea, 381,
64. Ibid, 436,
65. 317,
66. Catholic Encyclopedia, VIII, 31d
67. Lea, 441.
68. Catholic Encylodedia, VIII, 31c
69. Lea, 441,
70. Catholic Encyclobedia, VIII, 32b
71. Ibid, 32d,
72. Ibid

73. Caulton, *Inquisition*, 86.
74. Vacandard, 183.
75. Lea, II, 97.
76. Catholic Encyclopedia, VIII, 33d.
77. *Cambridge Medieval History* VI, 723; Vacandard, 203.
78. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 689.
79. Vacandard, 144, 178.
80. Lea, I, 549.
81. Ibid., 550.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 723; Vacandard, 196, Lea, I, 551.
83., Ibid., 393.
84. 113.

CHAPTER XXIX

1. Thompson, *Economic History, of the Midd e Ages*, 603.
2. Coulton, *Five Centuries*, IV, 15.
3. Gilson, E., *Philosophy of St. Bonaventure*, 31.
4. Coulton, *Life*, IV, 98.
5. In Coulton, *From Francais*, 70.
6. Coulton, *Life*, IV, 238.
7. Lea, I, 35.
8. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 604.
9. Milman, IV, 259.
10. Coulton *Life*, IV, 155.
11. Coulton, *five Centuries*, IV, 96, 367-77.
12. In Coulton, *Life*, VI, 199.
13. Caesar of Heisterbach, i, 249, in Coulton; *Five Centuries*, i, 377; Jocelyn's *Chronicle*, in Carlyle, Th., *Past and Present*, p. 72.
14. Waddell, H., *Wandering Scholars* 210.
15. Taylor, *Medieval Mind*, I, 268.
16. Ibid., 430.
17. Coulton, *Five Centuries*, I, 183.
18. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, 692.
19. Cf. Longfellow's "Golden Legend."
20. *Cambringe Medieval History*, V, 676.
21. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 612.
22. Étienne de Bourbon, *Anecdotes*, in Coulton, *Five Centuries*, i, 79
23. Ogg. 258.
24. Coulton, *Five Centuries*, I, 308.
25. Ibid., IV, 165.
26. I, 304.
27. Munro and Sellery, 410.
28. In Gilson, E., *La philosophie au moyen âge* I, 92.
29. W. B. Yeats, introd. to Tagore, R., *Gitanjali*, xviii.
30. Munro and Sellery, 412.
31. Ibid.
32. Coulton, *Five Centuries*, I, 305.
33. Ibid., 391.
34. 336.
35. 387.
36. Jörgensen, *Francis*, 12.
37. in Sabatier, 149
38. Jörgensen, 21
39. Sabatier 26, Bonaventure, *Life of St. Francis*, ch. 1.
40. Sabatier, 59f
41. *Mirror of Perfection*, ch. 14
42. *Tres Socii*, 35, in Sabatier, 74
43. *Mirror*, ch. 69
44. Ibid, ch. 11
45. Ibid.
46. Coulton, *Panorama*, 529
47. *Tres Socii*, 38-41
48. *Little Flowers of St. Francis*, *ch.* 8.
49. Ibid., ch. 9
50. *Mirror*, ch. 16
51. Ibid., chs. 29-35
52. Ibid., ch. 114
53. *Little Flowers*, ch. 22

54. Ch. 16.
55. Sabatier. 97.
56. Arnold, M., *Essays in Criilcism* First Series, 155.
57. *Little Fllowers*, ch. 11.
58. Ch. 24.
59. Sabatier, 229.
60. Ibid., 227.
61. Dr. E. F. Hartung in *Time*, Mar 11, 1935.
62. *Mirror*, ch. 116.
63. Ch. 120.
64. Faure, E., *Mediel Art*, 398.
65. Text of the will in Sabatler, 837
66. Milman, V, 242.
67. *Cambridge Medieval History* VI, 737f.
68. Matt. Paris. ii, 443, in Coulton, *Five Centuries* IV, 170.
69. Ibid., 388.
70. Coulton, *From Francis*, 101-2.
71. Ibid.
72. Funk. I, 370.
73. Cromp, 413.
74. Lea, *Sacerdotal Cslibacy*, 106.
75. Power E. *Medieval People*, 64.
76, *Liti.e Flowers*, ch. 33.
77. E g., *Nan's Rule*(Ancren Riwel) 105. 185.
78. Cf. pp. 294-6.
79. Montalcmbert, II, 703.
80. Ibid.
81. Lea. *Celibacy* 264.
82. Taylor, *Medieval Mind*, I, 492.
83. Coulton. *Panorama*, 622.
84. Power, *Medieval people* 80.
85. Ibid.
86. Lea, *Inquisition diddle Ages*, III, 10-17.
87, Lea. I, 272,
88. *Cambridge Medeival History*, *VII*, 789.
89, Sabatier, 52.
90. Lea, II, 326,
91. Coulton, *Life*, III,54 ; Kantorowicz., 419.
92. Sabatier, 52 ; Taylor. *Medieval Mind*, I, 460.
93, Milman. *V* I, 183.
94. Coulton, *Life*, I, 205.
95. Catholic Encyclopedia, II, 662d.
96. Ibid., 663,
97. Thatcher, 311.
98. *Canbridge Medieval History* VII, 7-8.
99. Milman, *V*I, 282; Coulton,*Panorama*, 212,
100. Guizot, *France*, I, 591,
101. Catholic Encyclopedia, II, 666c
102. Ibid., 667c. Ogg, 383-8,
103. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*. 173, Draper, *Intellectual Development*, II, 83
104. Guizot, *France*, 596.
105. *Cambridge Medieval History*, *V*II, 18
106. Gnizot, 601 ; Draper, II, 86.
107. Milman *V*I, 494f.
108. Lea. II, 58.
109. Hume. *England*, I. 511,
110, Coulton, *Five Centures*, I*V*, 118
111. Coulton, *From Francis*, 160.

CHAPTER XXX

1. In Coulton, *Five Centuries*, I, 176
2. Id., *Medieval Village*. 103.
3. Bede, i, 27,
4. Coulton, *Life*, I*V*, 160n.
5. In Coulton *From Francis*, 18.
6. Benvenuta da Imola in Coulton, *From Francis*, 416, Lecroix, *Prostitution*, I, 694,
7. Ibid, 695,
8. 700
9. 697,
10. II, 908.

1, Wright, ed., *Book of the Knight, of La Tour-Landry* Prologne, and ch. 35.

12, In Briffaulte, *Mothers*, III, 417.

13. Lecky, *Morals*, II, 152.

14. Lacroix, *Prostitution*, II, 904

15. Ibid., 904

16. 905

17. I, 721.

18. II, 869. Snmner, *Folkways*, 529, Bebel, 61, Garrison, *History of Medicine*, 192, Sanger, Wm., *History of Prostitution*, 98.

19. St. Augustine, *De ordine*, ii, 4.

20. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II, IIea, x, 11.

21. Encyclopaedia Britannic, *V*XIII, 598a

22. Ibid.

23. Lacroix, *Prostitution*, I, 733-42.

24. Ibid., II, 751, Tanger, 95

25. Coulton, *Panorama*, 172.

26. Lecky, *Morals* II, 218.

27. Power, E. *Medieval People*, 118.

28. Pollock and Maitland, II, 387.

29. Coulton, *Panorama*, 634

30. Bevan, E., and Singar, C. *Legacy of Israel*, 102

31, Cremp, 846

32. Thomas Aquinas, *Summa Contra Gentiles*, iii, 122

33. Himes, *Contraception*, 160f

34. Lacroix, *Prostitution* I, 699

35. Coulton *Medieval Village*, 404.

36. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 122

37. Freeman, *Norman Conquest*, II, 166.

38, Wright, Th., *History of Domestic Manners and Sentiments*, 216,

39, Pollock and Maithland, II, 390; Crump, 297; Butler, P, *Women of Medieval* France, 30,

40, St. John Chrysostom in James, B., *Women of England*, 108

41. Thomas Aqnihas, *Snmma Theologica*, Supplement, lxxxi, 3.

42. Ibid. I, xciii, 4

43. Supplement, xxxix, 3

44. II, iiae, xxvi, 10

45. In Coulton, *Panorama*, 614, quoting Gratian, *Decretum*, II, xxxiii, 5

46. Coulton, *Life*, III, 114, *Five Centuries*, I, 174

47. Id., *Chaucer's England*, 212

48. Id., *Panorama* 618.

49. Schoenfeld, 41.

50. Davis, *Life on a Medieval Barony* 102.

51. James, *Women of England* 182.

52. Renard, 20,

53. Cf. James, 116

54. Wright, T. *Domestic Manners*, 273-4

55. Bulder *Women of France*, 104

56. Adams, H. *Mont st., Michel*, 211

57. Butle, 123

58. Tout. T.F., *Medieval Forgers*, in Coulton *Five Centuries* IV, 310

59. Haskins, *Renaissance* 89

60. Exs. in Coulton, *Chaucer's England*. 200, *Five Centuries*, 1,251

61. Locroix, *Manners*, 41

62. Coulton, *Medieval Village* 72,344

63. Id., *Panorama* 74, 369

64. Encyclopaedia Britannica VIII. 8d

65. Coulton *Inquistion*, 47

66. Hume I. 185

67. Salzman 309

68. Ashley, II, 73

69. Coulton *Chaucer*. 131

70. Coulton. *Life* III. 57f

71. Id., *Medieval Village* 50

72. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 571, Potter *Medieval Architecture*. II. 159.

73. Coulton, *Panorama*, 377.
74. Ibid.
75. Lea. *Inquisition in Middle Ages* I, 234-5.
76. Coulton. *From Francis*. 218
77. Sumner. 472, Jusserand. 212. Boissonnade. 262-
78. Coulton. *Social Life*. 395.
79. Joinvile, 309
80. Cf. Coulton. *From Francis*, app C.
81. Jusserand. 132f.
82. Davis. *Medieval England*. 425
83. Zimmern. *Hansa* 111
84. Ibid.
85. Coulton. *Social Life*, 371, 425
86. Ashley, II. 326
87. Bacon. R. *Opus maius*. ed. Bridges. II. 251
88. Ashley. II. 307.
89. Ibid., 323
90. Davis. *Life on a MedievalBarony* 95.
91. Traill. I. 484
92. James. *Women*, 208
93. *Speculum*. Apr. 1940. 148. Encyclopaedia Britannica. IV. 470.
94. In Adams. H. 202
95. Frienländer *Roman Manners*. II. 183.
96. Butler *Women*, 147.
97. Dante, *Purgatorio*. xxiii. 102
68. Coulton. *From Francis*. 271
99. Davis. *Life on a Medieval Barony*, 96
100. In Coulton. *Life*. III. 64
101. Crump. 431
102. Beard. 69
103. Coulton. *Life*. IV. 173
104. *Speculum*. Apr. 1928
105, Sarton, II (1), 69
106. *Speculum*. Jan. 1934 306
107. Ibid.
108. Lowie. *Are We Civilized?* 75
109. Lacroix. *Manners*, 176
110. Butler. *Women*. 150
111. Giraldus Camprensis, *Description of Wales* i. 10
112. Salzman. 171.
113. Lacroix P. *Arts of the Middle Ages*. 13
114. Rogers. *Sex Centuries* 46
115. Sedgwick, *Italy*. II. 197
116. Power. *Medieval People*. 103.
117. Thompson *Economic History of the Middle Ages* 595
118. Müller. Lyer. *Marriage* 56.
119. Coalton *Panorama* 313. Addison *Arts*. 272
120. Coulton *Medieval Village*. 27
121. Schevill. *Siena*. 349
122 Haskins. *Studies in Medieval Culture*. 192
123. Sedgwick. II. 206
124. Coulton. *Panorma* 96
125. Power E. *Medieval People*. 76
126. Laroix. *Manners*. 239. Coulton. *Medieval Village*. 559
127. Coulton. *Panorama* 96
128. Kirstein L. *Dance*. 88
129. Wright, Th. *Domestic Manners* 257.
130. Walsh J. *Thirteenth Century*. 452.
131. Davis *Medieval England*. 372.
132. Davis, *Life on a Medieval Barony*. 64
133. Encyclopaedia Bretannica. XIII. 791c
134. Lacroix. *Manners*. 233
135. Gardiner. E. N. *Athletics of the Ancient World*. 287
136. Coulton *Panorama* 83
137. Gardiner. 238
138. Coulton. *Panorama* 95
139. Coulton. *Social Life* 292
140. Id., *Chaucer*, 278.

141. Chambers. E. K. *The Medieval Stage.* I. 287. Maitland. *Dark Ages.* 174. Lacroix *Science and Literature in the Middle Agas* 240.
142. Ibid., Chambers. i. 23. Coulton *Panorama*, 616.
143. Chambers I. 343.
144. *Time* Dec. 31. 1945.
154. Waddell. *Wandering Scholars.* 200.
146. Coulton, *From Francis.* 56.
147. Ibid. 66.
148. 57.
149. 13.

CHAPTER XXXI

1. Jackson. Sir T. *Bezantine and Romanesque Architecture.* 94.
2. Id. *Gothic Architecture.* I. 59.
3. Spencer. H. *Principles of Sociology* III. 291. Coulton *Life* IV. 169.
4. Theophilus *Schedula diversarum artium.* Introd. in Dillon. *Glass* 126.
. Addison *Arts* 86. 59.
6. Ibid. 186.
7. Walsh *Thirteenth Century.* 515.
8. Saunders. *English Art in the Middle Ages.* 65
9. Ackerman. Phyllis. *Tapesty.* 421
10. Ruskin. *Stones of Venice* I. ch. 2.
11. Morey. 195.
12. Short E. H. *The Painter in History* 75.
13. Mâle. *L'art religieux du XIIIe siècle.* 80
14. Taine. H. *Italy : Florence and Veince,* 49.
15. Encyclopaedia Birtannica.V.706d
16 Vasari, *Lives.* I. 66
17. Morey. 267
18. Lacroix. *Art* 251 i
19. Adams H. *Mont St. Michel.* 137
20. Saunders. 105
21. Mâle. 78
22. Bond. F. *Wood Carvings inEnglish Churches.* 167
.3, Ibid
24. Mâle 74
25. S Reinach in Walsh. *Thirteenth Century.* 106.
26. Kantorowicz. 535. Morey. 314. Sedgwick, II 225.

CHAPTER XXXIII

1. Pope A.U. *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture.* 127
2. Porter. II. 170
3. *Speculum* Jan 1927. 23
4. Mâle 66. Morey 214
5. William of Malmerbury, v.3
6. Encyclopaedia Britannica,VII 763
7. Cram, *Substance of Gothic* 119.
8. Pope *Contributions* 137
9. Bond. F. *Gothic Architecture in England* 263. Pirenne. *J Grands Courants.* II. 135. Porter II. 63.
10. Addison. *Arts* 201
11. Panofsky. I. *Abbot Suger*
12. Cram 144
13. Coulton, *Life* II, 18 Porter I. 151f.
14. Headlam. C, *Story of Chartres* 140
15, Jackson *Gothic Architecture*, I. 96
16. Ferguson. J *History of Architecture* I, 540
17. Adams H, 66
18, Headlam. *Chartres*, 229
19. Ibid, 208

20. Ibid
21. Adams H. 76
22. Connick C. J., *Adventures in Light and Color.* 10
23. Robillard. M. *Chartres.* 54.
24. Faure. *Medieval* Art. 848. Bood. *Gothic Architecture in England* 33. Moore. C. H., *Development of Gothic Architecture.* 124
25. Jackson, *Gotbic Architecqure*, I, 189
26. Ibid
27. Walsh *Thirteenth Century*, 108
28. Armstrong, Sir W., *Art in Great Britain*, 46
29. Morcy, 293. Germany was closed to more scholars during the composition of these pages, which must therefore speak of German architecture and sculpture at second had, or from vague memories of visits in 1912 and 1932
30. De Wulf, *Medieval Philosophy* I, 3.
31. Morey, 297
32. In Taine, *Italy* : *Florence*, 89
33. Beard, 143
34. Streat G. *Gothic Architecture in Spain.* 106
35. Arnold, *Legacy of Islam*, 168, Dieulafoy. *Art in Spain*, 147.

CHAPTER XXXIII

1. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 61.
2. Ibid., 43
3. Recse, *Music in the Midle Ages*, 63
4. Ibid., 2of, *Oxford History of Music*, introductory volume, 137
5 Lang, 71
6. Grove, *Dictionary of Music*, s.v. Notation.
7. Arnold, *Legacy of Islam*, 17. Sarton, II (1), 26, 406
8. The date and identity of Franco are disputed, cf. Grove, s.v. Franco of Cologne
9. Lang, 180
10. Ibid. 139
11. GiraldusCambrensis. *Description of Wales* I, 8.
12. Lang. 97.
13. Jusserand. 196
14. Reese 206
15. Ibid , 246.
16. So argues, with considrable scholership. Julian Ribera in *La musica de las cantigas*; cf. McKinney H. D.; and Anderson. W. R., *Musice in History*. 181. Beck Gennrich, and Reere prefer to derive the name and songs of the troubadours from the trope, cf. Reere. 218.
17. Lacroix, *Arts*, 203.
18. Addison, *Arts*, 110.
19. Ressse, 123.
20. Rowbotham, 6. Lacroix, *Arts*, 205.
21. Ibid.,, 204.

الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

الباب السابع والعشرون : مذهب الروم الكاثوليك

الباب الثامن والعشرون : محاكم التفتيش فى بداية عهدها

الباب التاسع والعشرون : الرهبان والإخوان

الباب الثلاثون : الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

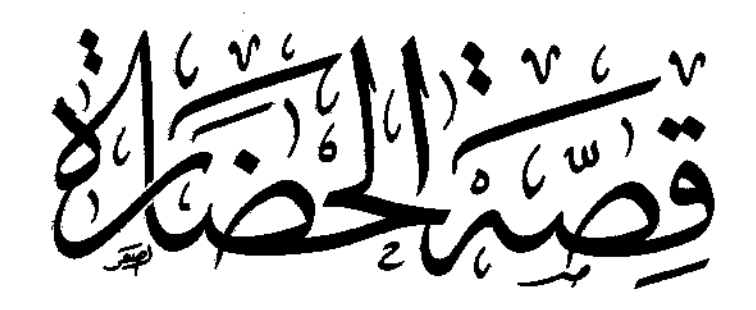
الموضـــوع الصفحة

الباب الحادى والثلاثون : بعث الفنون

الباب الثانى والثلاثون : ازدهار الفن القوطى

الباب الثالث والثلاثون : موسيقى العصور الوسطى

فهرس الصـــور



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الخامس من المجلد الرابع





تونس



بيروت



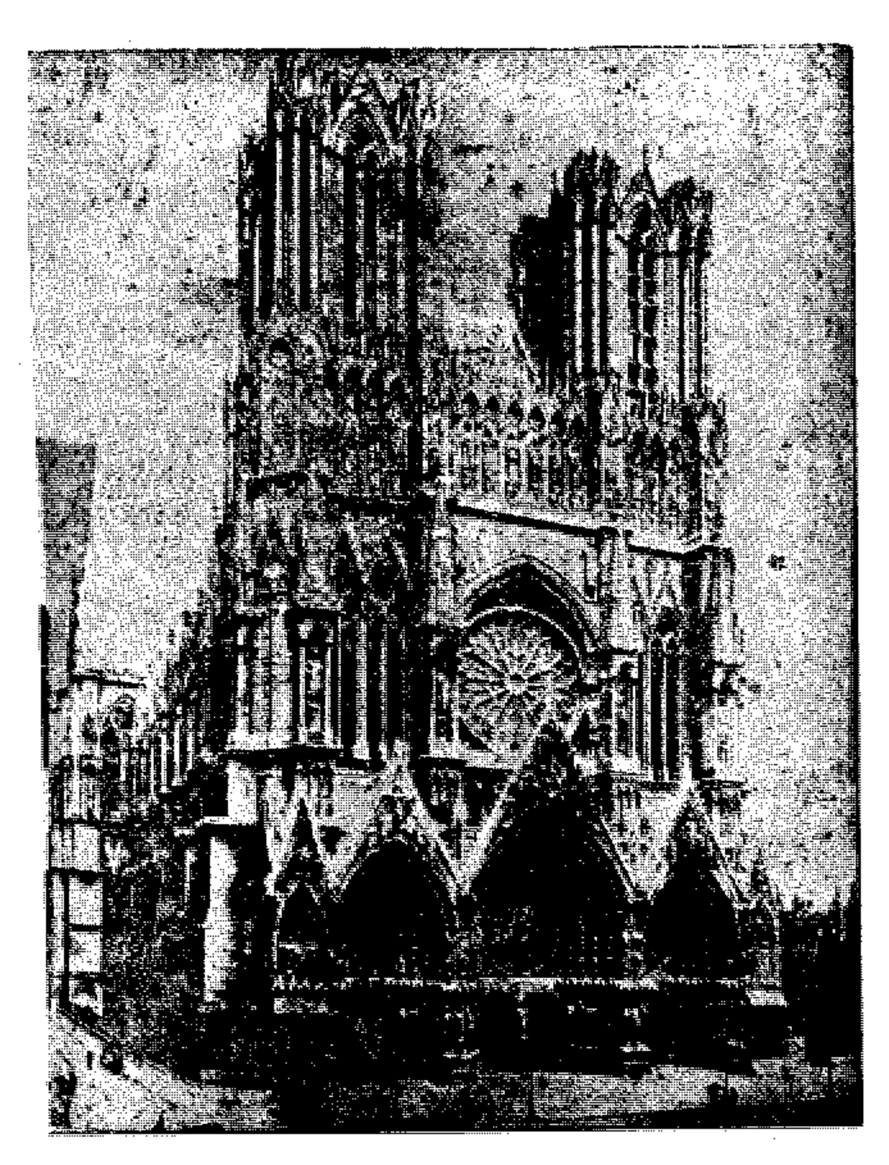
(الصورة رقم ١) الدربزة المشبكة من الحديد المشغول فى دير أورسكامب



(الصورة رقم ٢) القديس نيكيوس بين ملاكين — من كتدرائية ريمس



(الصورة رقم ٣) « البشارة والزيارة » في كتدرائية ريمس



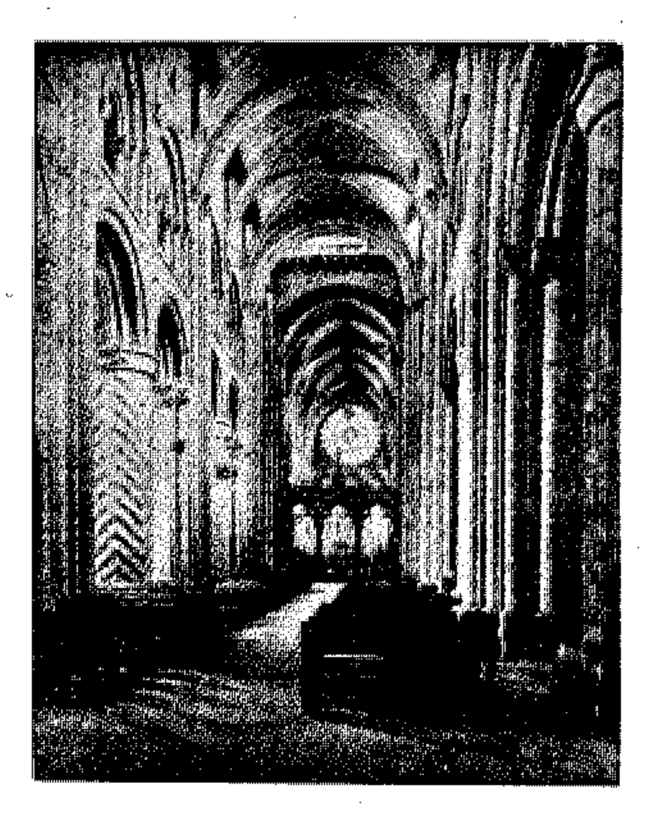
(الصورة رقم ٤) كتدرائية ريمس



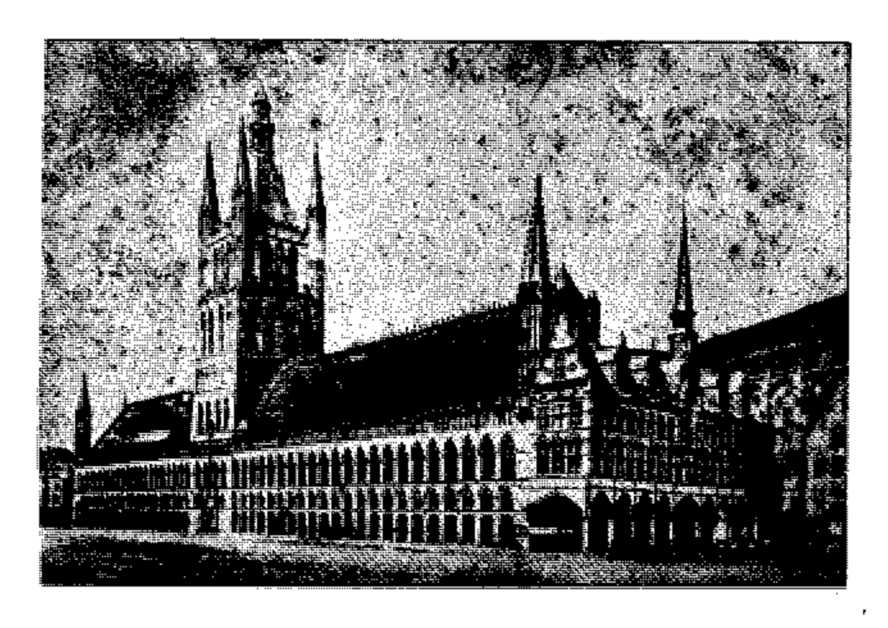
(الصورة رقم ٥) دير وستمنستر بلندن



(الصورة رقم ٦) داخل كتدرائية ونشستر



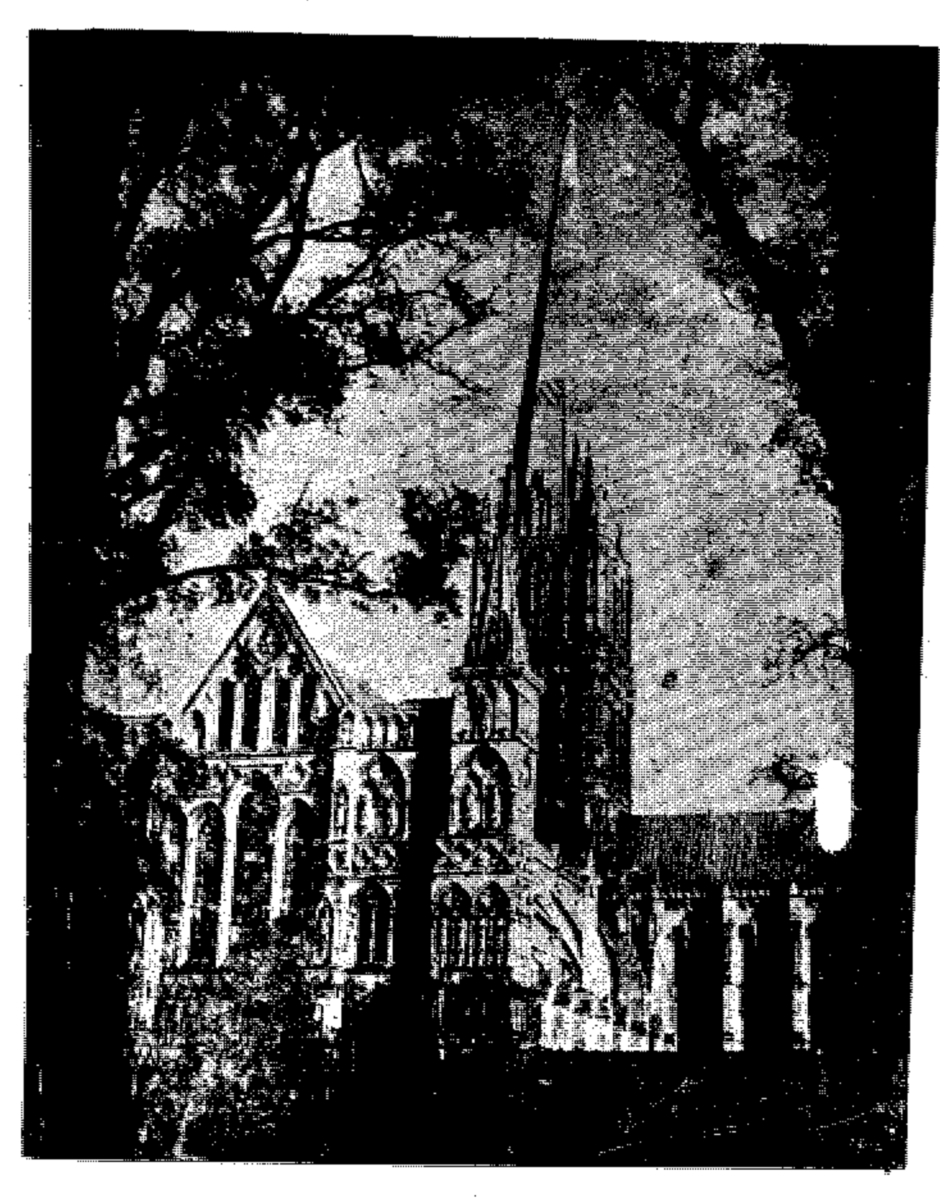
(الصورة رقم ٧) داخل كتدرائية دورهام



(الصورة رقم ٨) « فندق المدينة » إيبر



(الصورة رقم ٩) كتدرائية كنتربرى



(الصورة رقم ١٠) كتدرائية سلزبرج



ول وايريل ديورانت

عصر النهضة

ترجمة
محمد بدران

الجزء السادس من المجلد الرابع

(١٧)







بيروت

الباب الرابع والثلاثون

انتقال المعـــارف

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوربا الغربية التي حققتها الدولة الرومانية وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها على تراث روماني لم يبق له وجود في هذه الأيام – هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين في إيطاليا، وأسپانيا، وفرنسا، وإنجلترا، واسكنديناوة، والأراضي الوطيئة، وألمانيا، وپولندة، وبلاد المجر، وبلاد البلقان الغربية. لقد كان المتعلمون من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية في مراسلاتهم، وفي سجلات أعمالهم التجارية والمالية، والدپلوماسية، وفي القانون والأعمال الحكومية، وفي العلم والفلسفة، وفي آدابهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر. وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية، تشتق في كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على الحقائق أو الأفكار الجديدة أو المتغيرة في حياتهم؛ وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب إلى الرسائل الفصحى الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار(*) **Héloïse and Abélard**. ولم يكن الكتاب يؤلف لأمة بل لقارة، ولم يكن في حاجة

(*) انظر هذه الرسائل وقصتها في كتابنا «أشهر الرسائل العالمية». (المترجم)

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفتين فى هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان فى وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها فى بولونيا ، وسلمنقة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأپسالا Uppsals ، وكولونى . ولم يكونوا يترددون فى استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان ذلك يزعج فى بعض الأحيان الآذان التى اعتادت سماع لغة پترارك وشيشرون . وهكذا يستخدم العهد الأعظم الإنجليزى Magna Carta لفظى dessaisiatus و imprisonatus حين يقول إنه لا يصح أن « يقبض » على رجل حر أو « يسجن » . وأمثال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحديثة — مثل instance ، و substantive, و esssence و entity(*) — لتنحدر من الكلمات التى أضيفت إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذى أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة فى العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد فى الكلام تلك الاختلافات التى ما لبثت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين بها بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينيه كانت تعانى فى أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه . وكانت قد تبدلت فى موطنها الأصلى نفسه . وكان موت الأدب قد أفسح الميدان لمفردات الرجل العامى وتراكيب جمله ، وهى مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطباء . وجاء تدفق الألمان ، والغاليين ، واليونان ، والأسيويين على إيطاليا باختلافات كثيرة فى النطق ، وتخلص اللسان والعقل الكسولان بفطرتهما مما فى الحديث الفصيح

(*) ومعناها المِثْل ، والاسم (فى النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

الدقيق من علامات التصريف و الإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به فى اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف V ينطق به فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف W فى اللغة الإنجليزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزى . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (المائدة) أصبح ينطق بها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين Æ و Œ وكان ينطق بهما فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف I ، OI فى ا للغة الإنجليزية فأصبح ينطق بهما كحرف A الإنجليزى الطويل أو حرف E الفرنسى . ولمـــا كانت الحروف الساكنة فى آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت (portus, porto, porte ؛ rex, re,roi ؛ Coelum, cilo, ciel) فقـــد اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب فى الأسماء ، وبعلامات التعريف فى أواخر الكلمات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، و illa فأصبحا هما أدوات التعريف il ، el ، lo ، le ، la ؛ واقتضب لفظ unus (واحد) اللاتينى ليكون أداة التنكير un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الاسم فاعل أو مفعول قبل الفعل أو بعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية — عملية التبدل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغـــة اللاتينية لا تزال هى اللغة الحية الأدبية فى إيطاليا ، وفرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقدر ما تغيرت لغته هو لغة رميولوس أو لغتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسپانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ، وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت الهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية بلهجات أيبريا سبباً فى ترقيق الحروف الساكنة اللاتينية فى أسپانيا : فرقت T إلى D ، P إلى B ، و K إلى G ؛ فـ Totum أصبحت todo ، و operan

(*) لغة الأمريكيين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra ، و ecclesia أصبحت iglesia . كذلك رققت اللغة الفرنسية الحروف الساكنة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطتها فى النطق وإن ظلت محتفظة بها فى الكتابة : tout ، oeuvre ، église ، est . ونطق بالقسم الذى أقسمه لويس الألمانى Louis the German . وشارل الجسور بلغتين هما الألمانية والفرنسية(*) — الفرنسية التى كانت لا تزال لاتينية إلى حد سميت معه اللغة الرومانية lingua romana ، ثم انقسمت هذه اللغة الرومانية إلى ما سمته فرنسا لغتين : langue d'oc وهى لغة فرنسا الواقعة فى جنوب نهر اللوار و langue d'oïl وهى لغة فرنسا الشمالية(**) ؛ فلقد كان من عادات العصور الوسطى التفريق بين اللهجات بالطريقة التى ينطقون بها اللفظ المقابل للفظ « نعم » العربى ؛ فأهل فرنسا الجنوبية كانوا يعبرون عنه بلفظ oc المشتق من اللفظ اللاتينى hoc ومعناه هذا ، أما أهل الشمال فكانوا يستعملون لفظ oïl وهو مزيج من اللفظين اللاتينيين hoc ille ، أى هذا — ذاك ؛ وكان لفرنسا الجنوبية لهجة من لهجات اللانج دك تسمى البروفنسال أضحت فيما بعد لغة أدبية مصقولة على أيدى الشعراء الغزلين ، ولكن الحروب الصليبية الألبجنسية كادت تقضى على هذه اللغة .

وكونت إيطاليا لغتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغتا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن اللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذين كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد فى إيطاليا ، وأن استمرار

(*) وتدل الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذى نشأت به اللغتان الفرنسية والألمانية "Pro Deo amur et pro Christian poblo et notre Commun salvament, dist di in avant, in quant Deus savir et podir me punt". "In Godes min a ind in these Christian folches unser bedhero gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Got gewizci indi madh forgibit"

وترجمتها العربية هى : حبا فى الله ، ولخير الشعب المسيحى ، ولنجاتنا جميعا ، ومن هذا اليوم إلى ما بعده ، بقدر ما يهبنى الله من الحكمة والقوة » .

(**) معنى اللفظين oc و oïl كليهما « نعم أو هذا » وكل الفرق هو فى طريقة النطق باللفظ الذى يحمل هذا المعنى . (المترجم)

ثقافتها ومدارسها منع اللغة أن تتغير بنفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت بهما في بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحد رجال الدين في پدوا في ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ يخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها في پدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتيني زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة[٢] . ولم يكد يكون للغة الإيطالية وجود في بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ما كان في إيطاليا في ذلك الوقت نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هي استمراراً وتحريفاً متنوعاً للهجات السوقة لا تكاد إحداها يفهمها الباقون الذين لا ينطقون بها ، وتعتز كل منها بما بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حي من الأحياء المختلفة في المدينة الواحدة — كمدينة بولونيا — في بعض الأحيان لهجة مختلفة . لهذا كان لزاماً على أسلاف دانتي أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدباً . ولقد حسب الشاعر في أحد أخيلته الظريفة أن الشعراء الغزلين التسكانيين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأنهم كانوا يكتبون في الحب ، ولأن السيدات اللائي كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية[٣] . غير أنه مع هذا تردد في عام ١٣٠٠ بين اللغة اللاتينية واللهجة التسكانية أيهما يختار لكتابة *الملهاة الإلهية* . وكان الفارق البسيط بين اللغة التي اختارها والتي لم يخترها هو الذي أنجاه من النسيان .

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الألمانية القديمة تتفتت هي الأخرى إلى اللغة الألمانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والهولندية ، والفلمنكية ، والإنجليزية ، والدنمرقية ، والسويدية ، والنرويجية والأيسلندية . وليست عبارة « الألمانية القديمة » إلا تعبيراً سهلا يشمل اللهجات الكثيرة التي كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليمية في ألمانيا قبل عام ١٠٥٠ :

وهى اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإبستفالية (الغالية الشرقية) والألمانية Allemanic ، والباڤارية ، والفرنكونية ، والثورنچية ، والسكسونية ، والسيكيزية . . . . وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ — ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا التطور تدفق الكلمات الجديدة التى جاءت مع الدين المسيحى . ذلك أن الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا فى وضع المصطلحات التى كانوا فى حاجة إليها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا فى بعض الأحيان يدخلون كلمات لاتينية بنصها إلى اللغة الألمانية — مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة) ؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المآسى تأثير التركيب اللاتينى للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة — فقد أحل الوقفات الجامدة المقلوبة القاطعة للأنفاس التى نراها فى الأسلوب الألمانى المتأخر محل التراكيب السهلة التى كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية[٤] . ولعل أجمل اللغات الألمانية كانت هى اللغة الألمانية العليا الوسطى التى كتب بها الشعراء العظام فى القرن الثالث عشر — ولتر ڤن در ڤوجلويد Walter vsn der Vogelweide ، وهارتمـــان ڤن أوى Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسبرجى Goufried of Strassbourg ، وولفرام ڤن اشنباخ Wolfram von Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هين Heine وجيتة الشاب .

وانتقل اللسان التيوتونى إلى انجلترا فى القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والچوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذى حباها بكل ما تنطوى عليه تقريباً من كلمات قصيرة طلية . ثم طغت اللغة الفرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٠٦٦ إلى ١٣٦٢ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة فى

الدين والتعليم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة الوثائق الرسمية ؛ ودخلت آلاف الكلمات الفرنسية فى اللغة الإنجليزية ، وبخاصة فى الثياب ، والطهو ، والقانون ؛ حتى أصبحت نصف المصطلحات فى القانون الإنجليزى فرنسية(٥) ؛ وظلت آداب فرنسا وإنجلترا مدى ثلاثة قرون آداباً واحدة ؛ كما ظلت الرسائل الإنجليزية فى روحها ولغتها حتى زمن تشوسر لا قبل (١٣٤٠ — ١٤٠٠) نصف فرنسية . ولما فقدت إنجلترا أملاكها فى فرنسا عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية فى اللسان الإنجليزى ؛ ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الألمانى من ألفاظ فرنسية ولاتينية ، أن تعبر عن كل فكرة من آلاف الأفكار المختلفة بثلاثة تعبيرات مختلفة (kingly, royal) بمعنى ملكى ؛ towfold, double, duplex بمعنى مزدوج ؛ daily, Journal, diurnal بمعنى يومى ؛ ...) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من مترادفات تميز بها الفروق المختلفة فى المعانى والاختلافات الدقيقة فى ألفاظ الحديث . ومن يعرف تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل الثاني

عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة أيديهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة « جارية » ، ربطوا فيها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التي كانت سهلة الاستعمال في الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الخشب . وكانت الكنيسة في تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف « الكبيرة » لتسهل بذلك قراءة كتب القداس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون في عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استخدموا في عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك « الحروف الصغيرة المقررة » التي ظلت أربعة قرون الطريقة العادية التي تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الخصيبة التي أخذت تنمو في العمارة القوطية فأضيفت إليها شرط تزينها ، وخطوط شَعْرية رفيعة ، وزوائد معقوفة ، فأصبحت هي الحروف « القوطية » التي ظلت منتشرة في أوربا إلى عهد النهضة ، وفي ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا في عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التي ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نفسه قد ضاقت في أثناء الغوص التي صحبت غارات البرابرة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن الثالث عشر ولكنها لم يعم استعمالها حتى قررتها الطباعة في القرن الخامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما في عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك في أديرة

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المنسوجات(٦) . وكانت أشكال كثيرة من الاختزال تستخدم فى تلك الأيام ، وكلها أحط كثيراً من « العلامات التيرونية » التى توصل إليها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الجلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطير ، أو بأقلام الغاب ، ويستخدمون لذلك مداداً أسود أو ملوّناً . واختفى البردى من الاستعمال العام فى أوربا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخذ من جلد الخراف الصغيرة غالى الثمن ، وكان لذلك يُدخر للمخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة للكتابة عليها فى العصور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته فى ألمانيا وفرنسا فى عام ١١٩٠ ، وشرعت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق يُمحى ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه « الممحو مرة ثانية » . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ، وبالوضع الخاطئ للمخطوطات ، وبالحرب والنهب ، والحريق والتلف . فقد نهب الهون مكاتب الأديرة فى بافاريا ، ونهب أهل الشمال مكاتبها فى فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين نُهبت القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر تعارض فى قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة فى كل قرن تقريباً تندد بهذه الكتب ، منها أصوات جريجورى الأول ، وإزدور الأشبيلى ، وبطرس دميان . ودمر توفيلس كبير أساقفة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع القساوسة اليونان ، على حد قول دمتريوس كلكنديلاس Demetrius Chalcondylas(٧) ، أباطرة الروم بإحراق جميع مؤلفات الشعراء الغزليين ومنهم سابفو وأنكريون . غير أنه

كان فى هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولعين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب . وكانوا فى بعض الحالات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثنى تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستعارات الظريفة أن يحولوا شعر أوفد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق . وكذلك احتفظ النساخون فى الأديرة بقسم كبير من التراث الأدبى القديم(٨) ؛ وكان يقال للرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لهم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر ينسخونه ، ويحدثنا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان نجا من الجحيم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه(٩) . ويلى الرهبان وحدهم فى نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الخصوصيون أو المحترفون الذين يستخدمهم الأغنياء أو بائعو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هؤلاء النساخين مجهداً مملا جعلهم يدوّنون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات المنسوخة مطالب غريبة كقول أحدهم :

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لى جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب فى آخر مخطوطه تلك الخاتمة : « فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة »(١٠) .

ولم تفرض كنيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب ؛ فإذا تبين أن كتاباً ما مناقض للدين ، وكان فى الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أبيلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئذ أقل من أن يكون شديد الخطر على الدين القويم ؛ وحتى الكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود فى خارج الأديرة ، فقد كان نسخُه يحتاج إلى عام كامل ، وشراؤه يحتاج إلى إيراد قس أبرشية ؛ ولهذا قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه [١٢] . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت فى القرن الثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ ولم يكن يستطاع استعمال هذه الكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة فى مكتبة الدير ، وكانت فى بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلسلة للمحافظة عليها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسيين والألبچنسيين ينشرون ويوزعون تراجمهم هم للكتب المقدسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى نربونه (١٢٢٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أى جزء من الكتب المقدسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل[١٣] . ولكن يمكن القول بوجه عام إن الكنيسة لم تكن قبل القرن الرابع عشر تعارض فى أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأنها لم تكن تثق بتفسير العامة لأسرار الكتب الدينية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يحددهما ما يستطاع وجوده من الجلود ، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه « ملزمة » ، ولم تكن الكتب بعد القرن الخامس تصدر فى صورة ملفات كما كانت تصدر فى العهود القديمة[*] ، بل كانت الجلود تقطع قطعاً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو ثمان ، أو اثنتى عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم مؤلفات طويلة فى كتب صغيرة الحجم توضع فى الجيب لتكون سهلة الاستعمال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القماش ، أو الجلد المدبوغ ، أو الورق المقوى . وكان الغلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

(*) وظل كثير من السجلات الحكومية يكتب فى ملفات ؛ حتى أن « أنابيب الملفات » كانت تستعمل فى إنجلترا من عام ١١٣١ إلى عام ١٨٣٣ . وكان المكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات » .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن المحمى . وجاء الفنانون المسلمون الذين استقروا فى البندقية إلى أوربا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الغلاف بألوان ذهبية . أما الغلاف الخشبى فقد كان يزخرف أحياناً بالميناء أو العاج المحفور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس چيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثمينة ، مع أن المسيح مات عارياً ! »[١٤] وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخم الذى حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بين ١٦٠ دولاراً ومائتى دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها فى عام ١٩٤٩[١٥] . وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة فى القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقدس بيعت بعشر وزنات — أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب للصلوات استبدلت به كرمة ؛ وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة فى القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض[١٦] . وعاق غلو الكتب قيام تجارة بائعها حتى القرن الثانى عشر ؛ حين استأجرت مدن الجامعات رجالا من الورّاقين وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب ، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أثمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط بخلدهم أن يؤدوا شيئاً من المال لمؤلف حى . وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو يبحث عن ملك ، أو نبيل ، أو ثرى ينفحه بهبة من المال نظير إهدائه.

بالكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن فى وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن فى وسعه أن ينشره — أى يذيعه على الجمهور — إلا بالعمل على أن يستخدم فى إحدى المدارس أو أن يتلى أمام من يستطيع جمعهم من المستمعين . وبهذه الطريقة قرأ چرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندة فى عام ١٢٠٠ كتابه فى تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمعية فى أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد فى بلاد اليونان أو الرومان الأقدمين لحالهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على « خدم الدين » — وهم رجال الدين ، والحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك فى أن رجال الأعمال كانوا فى القرن الثانى عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأنهم كانوا يحتفظون بحسابات دقيقة محكمة . وكان الكتاب فى المنزل تحفة ثمينة ؛ وكان فى العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعين ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيما بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأسر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العدد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتى مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزيين والسسترسيين تجد فى جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار للعلم ، كذلك كان لكثير من الكتدرائيات — أمثال كتدرائيات طليطلة ، وبرشلونة ، وبامبرج Bamberg وهلدسهايم Hildesheim — مكتبات كبيرة ؛ فكان فى كنيسة كنتربرى مثلا ٥٠٠٠ كتاب فى عام ١٣٠٠ ، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس عليه[17] ، أما معظم المكتبات فكان فى الواحدة منها ما يقل عن مائة كتاب ؛ وكان فى مكتبة كلونى وهى من أحسن المكتبات ٥٧٠ مجلداً[18] . وكان عند مانفرد ملك

صقلية مجموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد بدأت المكتبة البابوية فى عهد البابا دمسوس Damasus (٣٦٦ — ٣٨٤) ، ثم فقدت مخطوطاتها الثمينة ومحفوظاتها القيمة فى فوضى القرن الثالث عشر ، ولهذا يرجع تاريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات — أو على الأصح قاعات كلياتها — تنشئ لها مكتبات فى القرن الثانى عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سانت شابل Sainte Chapelle فى باريس ، وأغناها بالكتب التى أمر بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، كمكتبات نتردام ، وسان چرمان ده پريه St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطلبة الموثوق بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب فى الخارج بضمان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التى كانت المدينة والكلية تضعها بين يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة فى أماكن متفرقة ، وإنا لنجد فى ظلمات القرن العاشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة محبى الكتب الحقة ؛ وكان لغيره من رجال الدين أمثال چون السلزبرى مجموعات خاصة بهم . كما كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة فى قصورهم ؛ وكان لفردريك بربروسا وفردريك الثانى مجموعات كبيرة ، وجمع هنرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرقت علنا لاتهامه بالاتصال بالشيطان[١٩] . وجاء دانيل من أهل مورلى Morley إلى إنجلترا من أسبانيا فى عام ١٢٠٠ « بطائفة كبيرة قيمة من الكتب »[٢٠] . وكشفت أوربا فى القرن الثانى عشر ثروة أسبانيا العظيمة من الكتب فهرع العلماء إلى طليطلة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وعبرت جموع رجال العلم الجديد التى لا حصر لها جبال البرانس وأحدثت فى الحياة الذهنية فى بلاد الشمال التى كانت وقتئذ فى دور المراهقة انقلابا عظيم الأثر .

الفصل الثالث

المترجمون

كانت أوربا فى العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتينى والآخر يونانى وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشتركة . وكان النصفان متعادين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسى الشرق اليونانى التراث اللاتينى ما عدا القانون ، كذلك نُسى التراث اليونانى فى الغرب كله ما عدا الصقليتين ؛ لكن بعض هذا التراث اليونانى كان مختبئاً وراء أسوار المسيحية — فى بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وأسپانيا ؛ أما العالم الواسع الرقعة البعيد الشقة الذى يشمل الهند والصين واليابان ، والذى كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع اليهود ببعض العمل الذى يهدف إلى ربط الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، فقد كانوا ينتقلون بين هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصبة تحت تربة الأرض . ولما كثر عدد اليهود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماؤهم أنه يجدر بهم أن يترجموا المؤلفات العربية (التى ألف اليهود كثيراً منها) إلى اللغة التى لا يعرف علماء هذا الشعب المشتت غيرها وهى اللغة العبرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قمحى (١١٠٥ ؟ — ١١٩٠ ؟) فى نربونة كتاب « المرشد إلى واجبات القلب » تأليف الفيلسوف اليهودى بهيـة إلى تلك اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من جلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كعبا فى شؤون الترجمة أبناء يهوذا بن شاؤل بن طبون (١١٢٠ ؟ — ١١٩٠ ؟) ؛ وكان هو أيضاً قد هاجر من بلاد الأندلس الإسلامية إلى جنوبى فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا فى مهنته كان له

من النشاط ما استطاع به ترجمة المؤلفات اليهودية العبرية لسعديه جاوْن ، وابن جبيرول ، ويهودا هليفى إلى اللغة العبرية . وأثار ابنه صموئيل (١١٥٠ ؟ — ١٢٣٢) العالم اليهودى إلى ترجمة كتاب **دليل الحيران** لابن ميمون إلى اللغة العبرية ، وترجم موسى بن طبون كتاب **العناصر** لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب **القانون** الصغير لابن سينا ، وكتاب **الترياق** للرازى ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد **القصيرة** لأرسطو . وتزعّم يعقوب بن طبون حفيد صموئيل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون فى منپليه ، واشتهر بنبوغه فى علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . وتزوجت ابنة صموئيل عالما أوسع شهرة من أبيها هو يعقوب أناضولى . وقد ولد يعقوب هذا فى مرسيلية حوالى عام ١١٩٤ ودعاه فردريك الثانى لتدريس اللغة العبرية فى جامعة نابلى ، وفيها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ابن رشد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر فى الفلسفة اليهودية . وكانت ترجمة **كتاب المنصورى** للرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٦٤) فى مرسيلية حافزاً قويا إلى النهضة الطبية عند العبرانيين .

وترجمت إلى اللغة اللاتينية كثير من التراجم العبرية للكتب العربية من ذلك أن كتاب **التيسير** لابن زهر ترجم إلى اللغة اللاتينية فى پدوا (١٢٨٠) ؛ وفى بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد اليهود أسفار العهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العبرية إلى اليونانية مباشرة . وتمثل لنا ترجمة كتاب **كليلة ودمنة** لبيدبا الطرق الملتوية التى كانت تسير فيها الهجرة الثقافية : فقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من ترجمة أسبانية لترجمة لاتينية لترجمة عبرية ، لترجمة عربيــة لترجمة فهلوية لترجمة للنسخة السنسكريتية المزعومة[٢١] .

أما التيار الرئيسى الذى صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية فى العالم الغربى فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم قسطنطين الأفريقى حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب الاعتبار للرازى وكتب إسحق يوديوس فى الطب ، وترجمة حنين العربية لأمثال أبقراط وشرح جالينوس . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) المستنير المتسامح كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسلفى وعهد إليهم ترجمة الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفية . وكان معظم هؤلاء المترجمين من اليهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسبانية ، بالإضافة إلى اللاتينية فى بعض الأحيان . وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد اليهود المتنصرين يدعى حنا الأسبانى (أو « الأشبيلى ») وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهى ابن داود فسموه أفنديث Avendeath . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، والغزالى ، والفارابى ، . . . والخوارزمى عن أصولها العربية أو عن تراجمها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الخوارزمى الأرقام الهندية – العربية فى بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مدسوس على أرسطو فى الفلسفة والأسرار الخفية يدعى Secretum Secretorum وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتى نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . وبهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح Fon Vitae أو ينبوع الحياة وبه أصبح ابن جبيرول « Avicebron » من أشهر الفلاسفة فى محيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك روافد أخرى تغذى هذا التيار اللاتينى العربى . من ذلك أن

عالما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية فى أنطاكية ، وطرسوس ، وطليطلة ثم نقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمين إلى الغرب بترجمته أزياج الخوارزمى (١١٢٦)[٢٣] .

وفى عام ١١٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو وثلاثة من العلماء المسيحيين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العالم اللاتينى بترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية فى عام ١١٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيڤولى بترجمة رسالة هيورها مشيحه العظيمة الشأن لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبيهم رجلا يدعى حرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لما قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوالى ١١٦٥ أعجبه بثروة العرب فى العلوم والفلسفة فصمم على أن يترجم خير ما فى هذه الثروة إلى اللغة اللاتينية ، وقضى فى هذا العمل التسع السنين الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يبـدو بمسيحى من أهل المدينة وبآخر يهودى[٢٤] .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسبعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شىء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية للتراجم العربيـة لكتب أرسطو فى التحليلات ، وفى السموات والأرض ، والكون والفساد ، والمتيورولوجيا ؛ وبطائفة من الشروح لاسكندر الأفروديسى ، والعناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة لأرخميدس ، والمخروطات لأپلونيوس البرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جالينوس ، وعدة مؤلفات فى الفلك يونانية الأصل ، وأربعة مجلدات يونانية — عربية فى الطبيعة ، وأحد عشر كتاباً فى الطب عند العرب ، من بينها أكبر كتب الرازى وابن سينا والفارابى

وثلاثة من كتب الكندى ، وكتابين لإسحاق إسرائيلى ، وأربعة عشر كتاباً فى الرياضة والهيئة عند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة مؤلفات عربية فى الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس فى التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل چرار هذا . ولا يضارع چرار فى عمله هذا إلا عمل حنين بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة » الذى أنشأه الميمون ، وهما اللذان صبا العلوم والفلسفة اليونانية فى القالب العربى .

ويلى أسپانيا فى مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمين ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية فى الرياضة والهيئة المنتشرة فى پالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثانى هذا العمل فى فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلاً من أعجب العقول وأكثرها نشاطا فى أوائل القرن الثالث عشر ونعنى بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلى فى اسكتلندة ؛ وتراه فى طليطلة عام ١٢١٧ وفى بولونيا عام ١٢٢٠ ، وفى رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدئذ فى فوجيا أو نابلى . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية للبطروجى وهو نقد كتاب بطليموس ؛ وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حرية واتساع فى الأفق فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه « أجزاء الحيوان » و « توالد الحيوان » ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجم كتب « ما وراء الطبيعة » ، و « الطبيعة » و « النفس » ، و « والسموات » ، ولعله ترجم كذلك كتاب « الأخلاق » . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروچر بيكن ، وكان لها أثر كبير فى الحركة العلمية فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنچو مناصرة الترجمة فى جنوبى إيطاليا ، وعمل له فى هذا العالم اليهودى موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن

شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (١٢٧٤) للرازى وهى المعروفة باسم «كتاب الحاوى» إلى اللغة اللاتينية على يد العالم اليهودى فرج بن سالم الجرجنتى .

وكانت جميع التراجم اللاتينية السالفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم منقولة عن التراجم العربية — وكان منها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية للأصل الذى يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراجم خالية من الدقة إلى الحد الذى اتهمها به روجر بيكن ؛ ولكن ما من شك فى أن الحاجة كانت منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم هذه التراجم الأصلية ترجمة كتب أرسطو على يد جيمس الذى لا نعرف عنه أكثر من أنه «كاتب من البندقية» قبل عام ١١٢٨ . وفى عام ١١٥٤ ترجم يوجين «أمير» بالرم كتاب بطليموس فى «البصريات» ، ثم اشترك فى عام ١١٦٠ فى ترجمة لاتينية لكتاب المجسطى من اللغة اليونانية مباشرة . وكان أرستيس من أهل قطانيا قد ترجم فى الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب حياة الفلاسفة لديوجنيز ليرتيوس وكتاب مينون وفيدون لأفلاطون . ولم يؤثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الترجمة بالقـــدر الذى كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فنحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقبت ذلك ترجمة جديدة شرع بعدها فى عام ١٢٦٠ وليم الموربيكى William of Moerbeke كبير أساقفة كورنث الفلمنكى يعاونه فى أغلب الظن عدد من المترجمين بترجمة طائفة من الكتب عن اللغة اليونانية مباشرة . وإن عدد هذه التراجم وأهميتها لتنزلانه بين أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو عليها إلا منزلة جرارد الكريمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب الدمنيكى تومس أكويناس من الأسباب التى حملته على ترجمة عدد كبير من مؤلفات أرسطو

تاريخ الحيوانات ، وتوالد الحيوانات ، والسياسة ، والبلاغة ، وعلى إتمام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : الميتافيزيقا والميترولوجية (الأرصاد الجوية) وفي النفس . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ، وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب التشخيص لأبقراط وكتاب جالينوس في الطعام وعدة مؤلفات في علم الطبيعة لهيرون الإسكندري وأرخميدس . ولعلنا مدينون له أيضاً بترجمة لكتاب الأخلاق لأرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربرت جروستستي ، وكانت هذه التراجم جزءاً من المادة التي بنى عليها تومس كتابه العظيم الأثر في اللاهوت . ولم يحل عام ١٢٨٠ حتى كانت كتب أرسطو كلها تقريباً في متناول العقل الغربي .

وقد أحدثت هذه التراجم كلها في أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ؛ وكان لا بد أن تحدث تطورات جديدة في النحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب في نشأة الجامعات ونمائها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية في اللغات الأوربية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض في أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجبر ، وعلامة الصفر ، والنظام العشري في الحساب قد دخلت كلها في بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملية تقدم تقدماً عظيماً بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، واليهود ، وأن ما كان لعلم الهيئة اليوناني والعربي من شأن خطير قد أحدث ، وكان لا بد أن يحدث ، توسعاً في علوم الدين ، وفي تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاصا بتغيير فى هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوپرنيق . وإن فى إشارات روچر بيكن المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى لدليلا على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفى ذلك يقول روچر بيكن نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب »[٢٥] ، وسنرى أن الذى دعا تومس أكوناس لتأليف كتابه الجامع فى اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية . وهكذا ردّ الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام ؛ وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظيم عصر العلوم والفلسفة العربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأرغمته على أن يشيد ذلك الصرح العقلى الخطير صرح الفلسفة المدرسية ، وأن ينقض ذلك الصرح الفخم حجراً بعد حجر ، فينهار بذلك نظام العصور الوسطى الفلسفى فى القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة فى غمرة المتحمس العظيم أثناء عصر النهضة .

الفصل الرابع

المـــدارس

وكان الذى يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جيل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية فى العصور الوسطى ، على حساب الثقافة العقلية ، كما يعنى اليوم بالتربية العقلية ، على حساب التأديب الخلقى.. ولم يكن من غير المألوف فى إنجلترا بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد فى سن السابعة أو نحوها ليربى وقتاً ما فى بيت غير بيته ؛ وكان الغرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللين المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى[٣٦] . وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد انهار فى خلال الفوضى الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة فى القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحى وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ ـ ٨٠٠) تخص بعنايتها التدريب الأخلاقى ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها . ولكن الكتدرائيات ، والأديرة ، وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليما عاما .

وحملت مدارس الأديرة وحدها فى أول الأمر هذا العبء كله تقريباً . وكانت المدارس نوعين مدرسة داخلية تهيئ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آباؤهم للرهبنة أو الكنيسة ، ومدرسة خارجية تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر[٢٧] . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مثمر في النهضة الأتونية Ottonian ؛ وكانت ألمانيا في القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا في كل ما يزين العقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجي في فرنسا ، وغارات أهل الشمال ، كانا ضربتين قويتين وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان في بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (في عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقفة ورجال الدين في خارج الأديرة أغنى من رؤساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكتدرائيات في القرن العاشر في باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاؤن ، وريمس ، ولييج ، وكولونى ؛ على حين أن مدارس الأديرة ضعفت في ذلك القرن ؛ ولما توفي فلبرت الصالح العظيم في شارتر ، احتفظ الأسقف إيڤو Ivo بالمستوى الرفيع وبحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كتدرائيتها في الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجرى برنار أسقف شارتر الذي خلف إيڤو على تقاليد سلفه الطيبة ؛ وقد وصف حنا السلزبرى برنار هذا في القرن الثاني عشر بقوله إنه « في الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب في غالة وأعظم هذه المنابع روعة »[٢٨] . وفي إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تعبر ألكوين إلى شارلمان ؛ وكادت مدرسة كنتربرى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظيم حنا السلزبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا في العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين يهيأون لأن يكونوا قساوسة كان ينفق عليهم من أموال الكتدرائية ، أما غيرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أجوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : « لكي لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرقى . . . يجب أن يخصص مرتب كاف لمدرس يعلم بالمجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة

والفقراء من التلاميذ »[٢٩] وطالب مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) بأن ينشأ كرسى للنحو فى كل كتدرائية من كتدرائيات العالم المسيحى ، وأمر كل كبير أساقفة بأن يكون لديه كرسيان للفلسفة والقانون الكنسى[٣٠] . وحض البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فى أوامره السامية كنائس الأبرشيات على أن تنشئ مدرسة للتعليم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس الأبرشيات هذه — المخصصة أولا للتعليم الدينى — كانت منتشرة فى جميع أنحاء العالم المسيحى[٣١] .

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يؤمون هذه المدارس ؟ أما البنات فلم يكن يذهب إليها فيما يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة التى فى أرجنتى Argenteuil ؛ وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليما ممتازاً (حوالى عام ١١١٠) ، ولكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تدخلها إلا نسبة صغيرة من البنات . ومن مدارس الكتدرائيات ما كانت تقبل البنات ، فها هو ذا أبلار يحدثنا عن « النساء الشريفات المولد » اللائى كن يذهبن إلى مدرسة نتردام فى باريس عام ١١١٤[٣٢] . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن ينال تعليما ما[٣٣] . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم باكسفورد[٣٤] . وكان كثير من المواد التى تعلم الآن فى المدرسة يعلم وقتئذ فى المنزل أو بالتدرب فى الحوانيت ؛ ولا ريب فى أن انتشار الفنون فى العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التى بلغتها يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة للتدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا فى عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفاً من بين سكانها الذين يقدرون فى ذلك الوقت بخمسة ملايين ، أى بجزء من ثلاثين جزء من سكانها فى عام ١٩٣١[٣٥] ، ولكن دراسة حديثة لهذا

الموضوع تقول إن « القرن الثالث عشر كان أقرب إلى التعليم الشعبي والاجتماعي من القرن السادس عشر »[٣٦] .

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذى يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء مختلفة هى ارشكولا (كبير المدرسة) Archiscola أواسكلاريوس scolarius أواسكلاستكس Scolasticus (المدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعدّ من مستلزمات التعليم كما كانت الجحيم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحيي طلابها ببيت من الشعر سداسي الأوتاد صريح فى معناه وهو : «Aut disce, an discede manet sors tertia caedi» ومعناه « تعلّم أو ارحل والثالثة التى تختارها هى أن تضرب » . وكان المنهج يبـدأ بالمجموعة الثلاثية — النحو والبلاغة ، والمنطق — ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى « المجموعة الرباعية » — الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك ؛ وكانت هذه هى « الفنون الحرة السبعة » . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها فى ذلك الوقت نفس المعنى الذى لها فى الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية Trivium فكان معناها بطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهى التى عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ؛ بل يسعون وراء التفوق العقلى والخلقى[٣٨] . وكان فارو (١١٦ — ١٢٧ ق . م) قد كتب سبعة كتب فى التأديب ذكر فيها سبع دراسات وصفها بأنها تؤلف المنهج اليونانى الرومانى . وكتب مارتيانس كابلا Martianus Capella فى القرن الخامس الميلادى كتاباً فى مبادئ التربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « فى زواج الفلسفة وعطارد On the Marriage of Philosophy and Mercury » ، وأخرج الطب والعمارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان

عمليتان أكثر مما يجب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبع الدراسات الشهيرة . ولم يكن « النحو » هو الدراسة المملة التي تضيع فيها روح اللغة بدراسة عظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, graphs) ؛ وقد عرفه كسيودورس بأنه هو دراسة العظيم من الشعر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ فى مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم تنتقل إلى غيرها من أسفار الكتاب المقدس ، ثم إلى كتب آباء الكنيسة اللاتين ، ثم إلى الآداب اللاتينية القديمة ــ شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، واستاتيوس ، وأوفد . وظل معنى البيان هو فن الحديث ، ولكنه كان يشمل أيضاً دراسة واسعة فى الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التي لا يمكن أن تشملها المجموعة الثلاثية . ولكن يبدو أنه كان من الخير للتلاميذ أن يتعلموا اتباع قواعد المنطق حين يبدءون يحبون الجدل .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئا من التغيير فى ميدان التعليم ، فقد أحست المدن التي تعيش بالعمل فى التجارة والصناعة بحاجتها إلى موظفين ذوى تدريب عملى ؛ ولهذا أنشأت ، رغم معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعلّم فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتقاضونها من آباء التلاميذ . وكان الأجر السنوى فى المدرسة العامة التي فى مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خمسة (٤٫٢ دولار أمريكى) ؛ وقد أحصى ڤلانى Villani فى عام ١٢٨٣ تسعة آلاف ولد وبنت فى مدارس الكنائس بفلورنس ، و١١٠٠ فى ست من مدارس « المعَبَرات » التي تهيؤهم للاشتغال بالأعمال التجارية والمالية ، و٥٧٥ تلميذاً فى المدارس الثانوية . ونشأت المدارس الزمنية فى فلاندرز فى القرن الثانى عشر ؛ ولم يحل النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى كانت هذه الحركة قد انتشرت فى لوبك Lübeck ومدن البحر البلطى . ونقرأ فى عام ١٢٩٢ عن معلمة تدير مدرسة خاصة فى باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من كثيرات مثلها(٣٩) ، فقد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدنيوية يجرى مجراه .

الفصل الخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدينية كثيرة فى إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها فى العادة من غير رجال الدين بخلاف ما كانت عليه الحال فيما وراء الألب ، كما كانت الروح والثقافة الإيطاليتان بوجه عام أقل فى نزعتهما الدينية مما كانت عليه الحال فى غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالى عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعى ڤلجاردس Vilgardus حركة فى راڤنا تهدف إلى إعادة الوثنية[٤٠] . وكان فى البلاد بطبيعة الحال كثير من مدارس الكتدرائيات ، وكانت مدارس كتدرائيات ميلان ، وباڤيا ، وأوستا Aosta ، وپارما ذات كفاية خاصة ، وفى وسعنا أن نحكم على مقدار هذه الكفاية إذا عرفنا أن من خريجيها لافرانك وأنسلم ، وكادت مدرسة مُنتى كازينو فى عهد دزدريوس تكون جامعة . ولقد تضافر بقاء الأنظمة البلدية ، ونجاح المدن اللمباردية فى مقاومة بربروسا (١١٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه العوامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق فى مضمار إنشاء الجامعات فى العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا فى عام ١٩٤٥ بالعيد المتمم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I . وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لا جامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها مدرسة عامة إلا فى عام ١٣٦١ . وكان هذا هو الاسم الذى يطلق فى العصور الوسطى على الجامعة التى تضم عدداً من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التى شرعت من القرن

التاسع عشر وما بعده تحيي دراسة القانون الروماني : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان في القرن التاسع ؛ ومدارس ميلان ، ونربونة ، وليون Lyons في القرن العاشر ؛ ومدارس ڤرونا ، ومنتوا ، وأنجرس Ongers في القرن الحادي عشر . ويبدو أن بولونيا هي أولى مدائن غربي أوربا التي وسعت مدرستها فجعلتها مدرسة عامة ، وفي ذلك يقول المؤرخ الإخباري أودوفريدوس Odsfredus في عام ١٠٧٦ : « شرع مدرس يدعى پيپو Pepo يحاضر القانون على مسئوليته الخاصة . . . في بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة »[٤١] . ثم انضم إليه غيره من المدرسين ، حتى غدت مدرسة الحقوق في بولونيا قبل أيام إرنريوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس أوربا على الإطلاق ؛

وبدأ إرنريوس يدرس القانون في بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز في تدريسه من جانب الحلف إلى جانب الجبليين ، وفسر فقه القانون الذي عاد وقتئذ إلى الحياة تفسيراً يتفق ومصلحة المطالب الإمبراطورية . ولسنا نعلم أكان منشأ هذا العمل من جانبه أن دراسة القانون الروماني أقنعته بقوة الحجج التاريخية والعملية التي تؤيد تفوق السلطة الإمبراطورية على السلطة الدينية ، أم أن المكافآت التي تتيحها له الخدمة الإمبراطورية قد أغرته بهذا الانحياز ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا المال على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنريوس مجلداً في التأويلات أو الشروح على كتاب القوانين لجستنيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . ويعد كتاب قوانينه الذي جمعه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجيد والحجج القوية .

وبدأ بإرنريوس العصر الذهبي في التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا من جميع بلاد أوربا اللاتينية ليتلقوا فيها علم القانون الذي عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتيان تلميذ إرنريوس الأساليب الجديدة على التشريع الكنسى ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من القانون الكنسى . وجاء بعد إرنريوس « العلماء الأربعة » — بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقوبس Jacobus ، وهو جو Hugo — بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية فى القرن الثانى عشر ، وأفلحوا فى إدخال القانون الرومانى إلى ميدان مطرد الاتساع . وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ — ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالهم فى شروح عامة أصبحت هى المرجع المعتمد الذى استعان به الملوك والعامة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعى ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجد لتعطل حركة بعث القانون الذى يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غذت النزعة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت هى المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مر الأيام وتجد فى تخفيض نصيب الكنيسة فى الحكم وتوسيع سلطان الدولة ؛ ووصل الأمر إلى حد شكا معه القديس برنار من أن محاكم أوربا تدوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله[٤٢] . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزاً إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشغف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدئذ أركانها .

ولسنا نعلم متى قامت مدرسة للفنون — أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا نعلم أيضاً متى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تنحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجاتها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم

الأساتذة أنفسهم فى نقابة كنقابات الحرف ، وحوالى عام ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم فى اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب . وضمت هذه « الجامعات » من بداية القرن الثالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان فى كليات بولونيا فى القرن الرابع عشر أستاذات(٤٣) .

وأنشئت نقابات الطلاب فى بداية الأمر لتقوم بواجب الحماية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ؛ ثم صار لها فى القرن الثالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان فى مقدور الطلبة أن يحولوا بين أى إنسان وبين الاستمرار فى حياة التدريس فى بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضيهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأساتذة كانت فى كثير من الأحيان تؤديها « جامعات الطلاب » ، وكان الأساتذة يرغمون على أن يقسموا أن يطيعوا « مديرى الجامعات » أى رؤساء نقابات الطلاب(٤٤) . وكان على المدرس الذى يرغب فى إجازة للتغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميذه عن طريق رؤساء نقاباتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن « يبتدع عطلات بمحض رغبته »(٤٥) . وكانت اللوائح التى تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التى يبدأ فيها المدرس محاضرته ، والتى ينتهى فيها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات التى تفرض عليه إذا خالف هذه القواعد . وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن يغادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ محاضرته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلا أو مرسوماً فى شرحه القوانين ؛ كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المنهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ فى بداية كل سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنيهات فى أحد مصارف بولونيا ، تخصم منها الغرامات التى يفرضها عليه رؤساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه ما يبقى منها فى نهاية العام الدراسى بناء على أوامر أولئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعين لمراقبة سلوك كل مدرس وتبلغ رؤساء النقابات كل ما تراه من شذوذ أو عيب فى هذا السلوك(٤٦) . وإذا ما بدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق فى جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأنهم كانوا فى سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ، وأنهم جاءوا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن موظفاً عند أمناء الجامعة ، بل كان محاضراً حراً يؤجره الطلبة فى واقع الأمر لكى يعلمهم . وكان مرتب المدرس فى بولونيا يتكون من الأجور التى يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم غير نظام الأداء حوالى آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات تؤديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوى لاثنين من الأساتذة ؛ ولكن اختيار الأساتذة ظل متروكا للطلاب ، وزاد عدد هذه المرتبات السنوية التى تؤديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر انتقل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية فى عام ١٥٠٦ صار تعيين الأساتذة من اختصاص السلطات الكنسية .

بيد أن جامعة بولونيا انطبعت فى القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقلما نجدها فى غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجرى غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة بولونيا . فبينا كانت كلية أصول الدين أهم الكليات فى هذه الجامعات الأخرى ، لم يكن فى بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ، بل حل القانون الكنسى فيها محل علم اللاهوت ؛ وحتى علم البيان نفسه قد اتخذ صورة القانون ، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى — فى جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنهلييه ، وتور ، ؛ ؛ . فن كتابة الوثائق القانونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرسمية ، وكانت درجات جامعية خاصة تمنح فى هذا الفن(٤٧) . وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعليم إلى الأحوال الواقعية هو الذى يتلقاه الطلاب فى بولونيا ؛ وتروى إحدى القصص المتداولة أن أحد علماء التربية الباريسيين نقض فى بولونيا ما علمه فى باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فيها ما علمه فى بولونيا(٤٨) . وتزعمت بولونيا فى القرن الثانى عشر الحركة العقلية فى أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمد حتى أضحى فلسفة للقانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدساً لايكاد يقبل التغيير ، ويعطل تكييف القانون تكييفاً تقدمياً يوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت روح البحث إلى ميادين أوسع حرية من ميدان القانون .

وانتشرت الجامعات فى جميع أنحاء إيطاليا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ؛ ومن ذلك أن پليوس غادرها فى عام ١١٨٢ لينشئ مدرسة فى مودينا ؛ وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra خرج منها إلى رجيو إميليا Reggio Emilia فى عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميذه ، ونشأ من هجرة أخرى حدثت فى أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو اتحاد مؤلف من عدة كليات فى ڤيسنزا ؛ وفى عام ١٢١٥ غادر رفريدس Roffredus جامعة بولونيا ليفتتح مدرسة للحقوق فى أرزو Arezzo ؛ وفى عام ١٢٢٢ وسع عدد كبير من المدرسين والطلاب الذين غادروا بولونيا مدرسة قديمة كانت فى پدوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التى كانت فى هذه المدينة ؛ وبعثت إليها مدينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيما كانت تؤديه المدينة من مرتبات للأساتذة ؛ وبذلك أصبحت پدوا فى القرن الرابع عشر من أنشط مراكز

التفكير الأوربى . وفى عام ١٢٢٤ أسس فردريك الثانى جامعة نابلى ليمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشمال : ولعل هذا السبب عينه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذى حمل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التى تبعت البلاط البابوى فى هجراته ومنها هجرته إلى أفنيون نفسها . وفى عام ١٣٠٣ أسس بنيفاس الثامن جامعة رومة التى بلغت مجدها فى أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سپنزا Sapienza (العاقلة) فى عهد بولس الثالث . وبدأت سينا جامعة بلديتها فى عام ١٢٤٦ ، وپياسنزا فى عام ١٢٤٨ ؛ وقبل أن يختم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، فى كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسپانيا فذة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخدمهم وتخضع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ؛ وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى بالما (١٢٨٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لريدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسپانية تقبل إشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك ؛ ومنها ما نشأ من مداس الكتدرائيات كجامعة بالنسية . وخص سان فرنندو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة بأموال كثيرة فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ماساوت هذه الجامعة فى شهرتها ومركزها العلمى جامعتى بولونيا وباريس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة اللاتينية ، والعلوم الرياضية ، والفلك ، وعلوم الدين ، والقانون ؛ ومنها ما كان يعلم الطب ، واللغة العبرية ، أو اليونانية . وافتتح راهب دمنيكى فى عام ١٢٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية فى طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك فى أن هذه المدرسة قد أفادت خيراً كثيراً لأن أحد خريجيها ريمند مارتن Raymond Martin (حوالى عام ١٢٦٠) أظهر علماً واسعاً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز فى جامعة أشبيلية التى أنشأها ألفنسو الحكيم فى عام ١٢٥٤ . وأنشأ الملك الشاعر دنيز Diniz فى لشبونة جامعة للبرتغال عام ١٢٩٠ .

الفصل السادس

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلا ريب الزعيمة العقلية لأوربا فى العصور الوسطى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت لمدارس كتدرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نمت وازدهرت حتى أضحت جامعة عظيمة فى باريس لا فى شارتر ، أو لاؤن ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التى توجد عادة فى العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء الذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين فى مدرسة كتدرائية نتردام هو وليم الشامپووى William of Champeaux (١٠٧٠ - ١١٢١) ، وكانت محاضراته التى تلقى فى أبهاء نتردام مثار الحركة العقلية التى نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أبلار من بريطانى (حوالى عام ١١٠٣) ووجه إلى وليم قياساً منطقياً أفعمه وقضى على سمعته ، وبدأ أشهر المحاضرات فى التاريخ الفرنسى ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد طلاب باريس وتضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) فى عالم التربية بباريس فى القرن الثانى عشر رجلا أجاز له رئيس كتدرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس فى ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا نستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كنيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا المصدر الوحيد مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالمجان لكل من قضى وقتاً كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن يوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من التهم التى وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضى فترة التلمذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أى الأستاذ المعلّم والصبى المتعلم ، من الأصول التى قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتذة أنشأوا لهم بطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (جامعة Universitas) يطبق منذ قرون على كل هيئة من عدة أفراد بما فى ذلك النقابات الطائفية . وفى عام ١٢١٤ وصف ماثيو باريس « زمالة الصفوة المختارة من المدرسين » فى باريس بأنها منظمة قائمة من زمن بعيد . ولنا أن نفترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن « الجامعة » اتخذت حوالى عام ١١٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٢١٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث — وكان هو نفسه من خريجى جامعة باريس — مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين المدونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خوّل فيه النقابة أن تختار مندوباً عنها يمثلها فى المحكمة البابوية .

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو(*) جامعة باريس إلى أربع « سلطات » أو كليات كما نسميها الآن (faculties)(**) : اللاهوت ، والقانون الكنسى ، والطب ، و « الفنون » . ولم يكن للقانون المدنى بعد عام ١٢١٩ مكان فى جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال فى جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى الفلسفة وينتهى بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون Arts (وكانوا يسمون Artistae أى فنانين) هم المقابلين عندنا « للطلاب » الذين لا يزالون فى الجامعة ؛ وإذ كانوا هم يؤلفون الجزء

(*) لا يفرق المؤلف فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة بين مدرس وأستاذ .
(المترجم)

(**) الكلمة ذات صلة بكلمة facile الفرنسية ومعناها تيسير أو تخويل أو سلطة للعمل .
(المترجم)

الأكبر من المتعلمين فى باريس فقد انقسموا — لتبادل المعونة ولأغراض الألفة والاختلاط — إلى أربع أمم Nations حسب مسقط رأسهم natio أو أصلهم : « فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضعة خضوعاً مباشراً للملك الفرنسى) وپكاردى Picardy ، ونورمندية ، وإنجلترا ؛ وضم طلاب جنوبى فرنسا وإيطاليا وأسپانيا إلى الطلبة الفرنساويى المولد ، وضم طلبة الأراضى الوطيئة إلى «پكاردى» وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى « إنجلترا » ، وكان الطلاب الذين جاءوا من ألمانيا من الكثرة بحيث تأخرت تلك البلاد عن إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جماعة « وكيل procurator » أو مدير ، وكل كلية عميد : وكان لطلاب كلية الفنون — ومدرسها فى أغلب الأحيان — مدير برأسهم ، ثم اتسعت دائرة أعماله تدريجاً حتى أصبح قبل عام ١٢٥٥ مدير الجامعة كلها .

ولسنا نسمع عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن المحاضرات كانت تلقى أثناء القرن الثانى عشر فى أروقة نتردام ، وسان چنفييڤ ، وسان ڤكتور ، وغيرها من الأبنية الدينية ، ولكننا نجد فى القرن الثالث عشر مدرسين يستأجرون حجرات خاصة لفصولهم . وكان المدرسون — الذين أصبحوا يسمون أيضاً أساتذة professores ومعنى هذا اللفظ اللاتينى « المعلنون » — رجال دين مترهبين يفقدون مناصبهم إذا تزوجوا . وكانت طريق التعليم هى المحاضرات ، وأكبر السبب فى هذا أنه لم يكن فى مقدور كل تلميذ أن يبتاع الكتب التى تجب عليه دراستها ، أو يحصل على نسخ منها من دور الكتب . وكان الطلاب يجلسون على الطوار أو على الأرض ويدوّنون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقى على ذاكرتهم شديداً اضطرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ فى العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمعنى بغيضة الصورة . وكانت لوائح الجامعة تحرم على المدرس أن يقرأ محاضرته للطلاب ، بل كان يطلب

إليه أن يتكلم ارتجالا ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يُقطّع الكلام . وكان الطلاب يتبرعون بتحذير المستجدين من أن يؤدوا أجر أى منهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكا وليم الكنشيسى فى القرن الثانى عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بذلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التى تعطى للطالب مجالا واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخذت تنزل بمستوى التعليم(٥٠) .

وكان التعليم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حين إلى حين بمناقشات عامة تجرى بين المدرسين ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى فى العادة على شكل مقرر محدد يسمى **النقاش المدرسى** : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هذا الجواب بعبارات مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آباء الكنيسة ، وبالاستنباط الذى يتخذ شكل الاعتراضات ؛ ويتلو ذلك جواب إيجابى يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات ؛ والنقاش المدرسى هو الذى حدد الصورة النهائية للفلسفة المدرسية فى عهد تومس أكوناس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية مناقشات غير رسمية يسمونها « *أى شىء تحب* quodiberta » — يستطيع المناقش بموجبها أن يتقدم بأى سؤال يناقش فى التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هى الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلا منها فى كتابات القديس تومس الصغرى ؛ وشحذت المناقشات الرسمية منها وغير الرسمية العقول فى العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شىء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية التى تكدس جبالا من الجدل حول أتفه النقط .

وكان معظم الطلاب يعيشون فى مضايف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب . وكانت بعض المضايف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمى ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكتدرائية نتردام خصص حجرة « للطلبة الفقراء » . ثم اشترى چوسيوس اللندنى Jucius of London هذا المسكن فى عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشفى فى تقديم المسكن والمأكل لثمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حتى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها **جماعة الثمانية عشر** . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الخيرون ، مضايف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحبست عليها الحبوس ، أو خصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفى عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس « بيت السربون » المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون(*) وأنشئت كليات — Collegia بمعناها القديم وهو الجماعات — بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إليها ليسكنوا فيها ، وعملوا مدرسين خصوصيين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و « يقرأون » معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الخامس عشر يدرسون بعض المناهج فى أبهاء المساكن ، وازداد عدد المناهج التى تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها فى خارجها ، حتى أصبحت « الكلية » مكاناً للتعليم ومسكناً للطلاب فى وقت واحد .

(*) وأصبحت السربون فى القرن السادس عشر الكلية الدينية فى الجامعة ، ثم أغلقتها الثورة فى عام ١٧٩٢ ، وأعادها بعدئذ نابليون ؛ وهى الآن مركز لتدريس مناهج عامة فى العلوم والآداب فى جامعة باريس .

وحدث مثل هذا التطور فى الكلية من بيت الطلبة فى أكسفورد ، ومنبلييه ، وطولوز . وهكذا بدأت الجامعة من جمعية للمدرسين حتى أضحت جمعية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب فى باريس مسكنان مخصصان للطلاب المبتدئين الجدد فى طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من بداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لهم مدارس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale فى كولونى ، وكانت لهم معاهد أخرى من نوعها فى بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أساتذة فى هذه المدارس ، يعلّمون فى الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفى عام ١٢٣٢ . انضم ألكسندر الهاليسى Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين فى باريس إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور فى دير الكردلير Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون فى باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إليهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم « كالطيور المنفردة فى أعلى البيوت » ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المدرسين غير الرهبان يسرفون فى الطعام والشراب ، فأضحوا لذلك كسالى بلداء[٥١] . وحدث فى عام ١٢٥٣ أن قتل طالب فى شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاة الأمور فى المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتذة الجامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون بوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان الدمنيك ، وواحداً من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية المدرسين ، لم يطيعوا أمر الامتناع عن إلقاء المحاضرات ، فقررت الجمعية وقف عضويتهم فيها ؛ غير أنهم لجأوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتذة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدرسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر فتفرقوا ، وحرمهم البابا من الدين واعتدى الطلاب والغوغاء على الرهبان فى الشوارع ؛ ودام الجدل ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتذة بعد أن نظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطيعوا من ذلك الوقت قوانين « الجامعة » . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرمانا دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك فى نزاعهم مع البابوات ، وأضحت فى مستقبل الأيام مركز حركة « غاليّة » تسعى لفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة .

ولم يكن لأى معهد علمي منذ أيام أرسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتذب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنا السلزبرى ، وألبرتس مجنس ، وسيجر البرابنتى ، وتومس أكويناس ، وبورفنتونا Boroventura ، وروجر بيكن ، ودنزاسكوتس ، ووليم الأكامى William fs Occam — هؤلاء يكادون يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك فى أنه كان فى باريس مدرسون أفذاذ هم الذين أخرجوا أولئك الرجال العظام ، ونشروا من المتعة العقلية ما لا يوجد إلا فى ذرى التاريخ البشرى . يضاف إلى هذا أن جامعة باريس كانت خلال هذه القرون ذات سلطان قوى فى الدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعبر عن الرأى العام ، وكانت فى القرن الرابع عشر من أعظم مراكز التفكير الحر ، وفى القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين القويم والمحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها « لم تضطلع بدور حقير » فى الحكم على جان دارك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب فى رفع فرنسا إلى منزلة الزعامة الثقافية فى أوربا . فقد كان فى أورليان مدرسة للقانون منذ القرن التاسع لا بعد ، وكانت

فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر ، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بولونيا فى تدريس القانون المدنى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر **Angers** وهى المدرسة التى أضحت فى عام ١٢٣٢ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز « طلوشة » مدينة بجامعتها إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٢٢٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً — فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون — يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النفوذ على الشبان الأكتانيين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة فى خارج باريس هى جامعة منبلييه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بمزيج وثاب من الدم الفرنسى ، واليونانى ، والأسبانى ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطاليين وبقية من الجالية الإسلامية المغربية التى كانت فى وقت ما تحكم المدينة وكانت تجارتها رائجة ناشطة . وأنشأت منبلييه فى وقت غير معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة سلرنو ، ولسنا نعلم علم اليقين أكان إنشاؤها أثراً من آثار طب سلرنو ، أم طب العرب ، أم اليهود . وأضيفت إلى هذه المدرسة مدارس للقانون وعلوم الدين ، و « الفنون » ، واكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه الكليات وتعاونها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة منها كلية مستقلة . واضمحل شأن الجامعة فى القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت فى عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٥٣٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربليه يلقى سلسلة من المحاضرات عن أبقراط باللغة اليونانية .

الفصل السابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسپورس المماثلة لها فى اسمها ، لتكون، معبراً للماشية ؛ ذلك بأن نهر التاميز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبنى حصن عندها فى عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت، Cnut وهرلد Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمن طويل . ويبدو أن مدارس نشأت فى اكسفورد فى أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدرائية بها . ونسمع حوالى عام ١١٧ عن وجود « أستاذ فى أكسفورد » ، Oxenford . وفى عام ١١٣٣ جاء من باريس، ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر فى اللاهوت فى أكسفورد[٥٢] . وخطت المدرسة خطوات لايعرف التاريخ عنها شيئاً الآن ، أضحت بعدها مدرسة أكسفورد فى القرن الثانى عشر مدرسة عامة أى جامعة — « ولا يعرف أحد متى تم ذلك »[٥٣] وفى عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان فى أكسفورد ثلاثة آلاف طالب ومدرس[٥٤] . وكان فيها كما كان فى جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قانون الكنيسة . أما تدريس القانون المدنى فقد أغفلته الجامعات فى إنجلترا واستقر فى دور المحاكم فى لندن — وكانت دار لنكولن ، وجراى ، والمعبد الداخلى Inner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple فى القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التى كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثانى عشر يستقبلون فيها الطلاب ليدربوهم .

وبدأت الكليات فى أكسفورد كما بدأت فى باريس وكمبردج أروقة محبوسة عليها الأموال لفقراء الطلاب ، وأصبحت فى زمن مبكر ، بالإضافة إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فيها مع الطلاب ، ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هى الأقسام المادية والتعليمية التى تكونت منها الجامعة . وحوالى عام ١٢٦٠ أنشأ سير چون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندى (والد الملك الذى حكم اسكتلندة فى عام ١٢٩٢) « بيت باليون » فى أكسفورد ؛ ليكفر به عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سموا socii أى الزملاء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات أمريكية) فى الأسبوع . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أنشأ ولترده مرتون Walter de Merton « بيت طلاب مرتون » فى مولدن Malden أولا ثم فى أكسفور بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، ليبعنى بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكا معه كبير الأساقفة بكهام Peckham فى عام ١٢٨٤ من أن « الطلبة الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة »[٥٥] . ويمكن القول بوجه عام إن الكليات الإنجليزية لم تفتن بفضل المنح الدراسية وغيرها من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضياع التى حبست عليها . وفى عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة — وهى الآن كلية الجامعة University College بهبة من وليم الدرهامى كبير أساقفة رون Rouen . ويتبين الإنسان كيف بدأت هذه الكليات الشهيرة بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على وجود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين يهمهم أن يسكنوا معهم . وكان الأساتذة يختارون واحداً من بينهم ليكون « الزميل الأكبر »

أو « الرئيس principal » وهو الاسم الذى يعرف به عمداء الكليات الإنجليزية فى هذه الأيام . وكانت جامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر هى هذه الكليات مجتمعة فى نقابة الأساتذة «University» ؛ وكان هؤلاء يحكمهم وكلاء عنهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركزاً للنشاط الذهنى والنفوذ العام لا تفوقها فى ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجيها كلهم هو روجر بيكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيس من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتومس اليوركى Thomas of York ، وجون بكهام John Peckham ، فتألفت منه ومنهم جماعة ممتازة من رجال العلم . وكان زعيمهم وملهمم ربرت جروستستى Robert Grosseteste (١١٧٥ ؟ — ١٢٥٣) أظرف شخصية فى حياة أكسفورد فى القرن الثالث عشر : فقد درس فيها القانون والطب ، والعلوم الطبيعية ، وتخرج فى عام ١١٧٩ ، ونال درجته فى علوم الدين فى ١١٨٩ ، وسرعان ما اختير بعدئذ « أستاذ مدارس أكسفورد » — وتلك أقدام صوورة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح فى عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو فى منصبه هذا على إتمام الكتدرائية العظيمة . وأبدى نشاطا عظيما فى دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم فى الجهود العقلية الجبارة التى بذلت فى القرن الثالث عشر للتوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبيعة لأرسطو ، والتحليلات ، ولخص علوم زمانه فى موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ التى يقوم عليها المجهر والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجر بيكن فى الرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ وأكبر الظن أنه هو الذى عرف بيكن بالخصائص المكبرة

للعدسات[٥٦] . ويبدو أن كثيراً من الآراء التى نعزوها إلى بيكن – فى فن المنظور ، وقوس قزح ، والمد والجزر ، والتقويم ، والاعتماد على التجارب العلمية – قد أشار بها عليه جروستستى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها فى الفضاء تتبع أشكالا وقواعد هندسية[٥٧] . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة فى الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالما فى الدين وفى العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان يهدف بذلك إلى هداية اليهود إلى الدين المسيحى ، وكان فى هذه الأثناء يعاملهم معاملة المسيحى الكثير التسامح ، ويحميهم قدر ما يستطيع من حقد الجماهير واعتدائهم . وكان فوق هذا كله مصلحا اجتماعيا نشيطا ، يدين على الدوام بالولاء للكنيسة ، ولكنه جرؤ على أن يعرض على البابا إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكرة مكتوبة يعزو فيها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسى البابوى[٥٨] . وأنشأ فى أكسفورد أول « صندوق » يقرض الطلاب المال بغير فائدة[٥٩] ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النابهة الذين أوجدوا بأعمالهم الجليلة هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة فى عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعى معاً ، تصنع السيارات كما تصنع العظماء ، أما كيمبردج فلا تزال مدينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر العصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن الذوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمى إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقلى الذى هو من خصائص العصور الوسطى باقيا فى هذه البلدة ، أجمل البلدان الجامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمتها الذهنية يجب أن ترجع إلى حادث اغتيال وقع فى أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب فى عام ١٢٠٩ امرأة فى تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشنقوا طالبين أو ثلاثة منهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

العمل احتجاجا على ما اقترفه أهل المدينة ؛ وغادر أكسفورد ٣٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من المدرسين — إذا صدقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كبيراً منهم ذهبوا إلى كيمبردج وأقاموا فيها قاعات وكليات . ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أعلى درجة من مدرسة أولية . وحدثت هجرة ثانية — من الطلاب الباريسيين فى ١٢٢٨ — زاد بها عدد الطلاب زيادة كبيرة . وفى عام ١٢٨١ نظم أسقف إلى Ely أولى الكليات غير الدينية فى كيمبردج وهى كلية القديس بطرس التى تسمى الآن پيترهوس « بيت بطرس » . وشهدت القرون الثلاثة الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إنشاء كليات أخرى وازدهارها ، منها ما هو آية من آيات العمارة فى العصور الوسطى . ويحتضنها كلها نهر كام Cam الهادئ المتثنى ، وتكون هى وملحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصل الثامن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون فى أى سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أو رئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون متزوجاً أو غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره ؛ يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منپلييه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ؛ أو يجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى امتحاناً للدخول فى الجامعة ، بل كل ما كان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مدرس يدرس منهجه عليه . فإذا كان فقيراً ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو بمعونة تسديها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات[٦٠] . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل **أخبار جوسلين** Jocelyn's Chronicle **والماضى والحاضر** لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقير كان يبيع الماء المقدس ليؤدى لسامسون أجر تعليمه[٦١] . وكان الطالب الذاهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التى فى طريقه[٦٢] .

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو پاريس أو بولونيا ألفى نفسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ؛ الحيارى ، المقبلين على العلم يجرفهم تيار دافق من الحماسة يجعل الفلسفة – المشوبة بنزعة إلى الإلحاد – مثيرة كالحرب ؛ كما

يجعل الجدل ممتعا فتانا كأنه ألعاب البرجاس . وإذا كان يعيش فى عام ١٣٠٠ فإنه يجد فى باريس ٧٠٠٠ طالب ، وفى بولونيا ٦٠٠٠ ، وفى أكسفورد ٣٠٠٠(*) . وكان عدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا فى القرن الثالث عشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله « أسرته » وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه — ربما كان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسئولين فقد يعطى سريراً ويترك مع غيره من الطلاب فى حجرة فى « بيت الطلبة » ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب فى أكسفورد عام ١٣٧٤ يؤدى مائة شلن وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) فى العام نظير مسكنه وطعامه وعشرين شلناً (أن مائتى دولار) أجراً لتعليمه وأربعين شلناً ثمناً لملابسه[٦٥] .

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الخارجى بالأزرار وألا يمشى حافى القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه[٦٦] . وكان الأساتذة يميزون بلبس القبة Cappa وهى « حرملة » حمراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومُقَنَّعة ، وكانوا فى بعض الأحيان يغطون رءوسهم بقلنسوة مربعة فى أعلاها خصلة بدل « الشرابة » . وكان الطالب فى جامعة باريس فى منزلة رجل الدين ويتمتع بحصاناته . فكان

(*) هذه هى تقديرات راشدول Rashdall المتحفظ[٦٣] . أما أودوفردوس Odofredus العالم القانونى الذى كان يكتب فى عام ١٢٥٠ فقد قدر عدد طلاب بولونيا فى عام ١٢٠٠ بعشرة آلاف طالب ، وقدر رابانس جوما Rabanus Gaume وهو راهب نسطورى عدد طلاب جامعة بارس فى عام ١٢٨٧ بثلاثين ألفا ، وقال فتز رالف Pitzralph كبير أساقفة أرماغ Armagh حوالى عام ١٣٦٠ إنه كان فى جامعة أكسفورد فى وقت ما ثلاثون ألف طالب ؛ وقدرهم ويكلف Wyclif فى عام ١٣٨٠ بضعفى هذا العدد ؛ وعاد الأسقف غاسقوين Gascoigne الذى كان رئيس شرف فى جامعة أكسفورد فقدرهم بثلاثين ألفا[٦٤] ؛ ولا يخفى أن هذه التقديرات كلها إنما تعتمد على الحدس والتخمين ، وأنها مبالغ فيها بلا ريب ولكننا لا نستطيع البرهنة على كذبها .

يعفى من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب التى تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل فى سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغم على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه فى هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسى المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده ڤترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس فى عام ١٢٣٠ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحبن الطلاب إلى المواخير سحباً يكاد يكون قوة واقتداراً ، ويفعلن ذلك علناً فى شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن الدخول اتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تملأ المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبل أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد فى المنزل الواحد حجرات للدرس فى الطابق العلوى وماخور فى أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون فى الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدنيئة فى الطبقة السفلى ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمع فى البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوّادين[٦٧] .

هذا وصف يحمل فى طياته المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنتجه منه أن لفظى **طالب العلم والقديس** لم يكونا مترادفين فى باريس(*) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل « أمة » من الطلاب كانت لديها صفات محببة لها تصف بها « الأمم » الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لهم ذيولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين مخنثين ؛ والألمان

(*) ولكن قارن هذا بقول راشدول : « وإن الأدلة الكثيرة على أن الصورة التى يصور بها ده ڤترى الحياة المدرسية ليست فى أساسها غير صادقة وإن كان فيها مبالغة[٦٨] » .

كانوا صخابين ؛ « بذيئين إذا شربوا » ؛ والفلمنكيون كانوا بدناً نهمين « ليِّنين كالزبد » ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما ينتقلون بهذا الاغتياب من الألفاظ إلى اللكمات »[٦٩] . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولا فى الجزيرة التى تقوم عليها كتدرائية نُتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هى الحى اللاتينى الأصلى ، وكان سبب تسميتها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد منهم أن يتكلموا باللغة اللاتينيه — حتى فى حديثهم غير المدرسى — وهى قاعدة كثيراً ما كانت تخرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحى اللاتينى حتى شملت الطرف الغربى من الضاحية الممتدة فى جنوب نهر السين ، كان عدد الطلاب فيها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة عليهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا فى باريس ، وفى أكسفورد كان ناقوس سانت مارى يدعو الطلاب ، وناقوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بين بلدة وبلدة . وقد حدث شغب فى أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرار قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠،٠٠٠ دولار)[٧٠] . وأصدر موظف فى باريس (١٢٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين « يرتكبون بالنهار والليل فظائع تؤدى إلى إصابة الكثيرين بالجروح وإلى قتلهم ، ويخطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت » ، ويرتكبون « مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من الفظائع »[٧١] . ولربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكاً فى الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فيها ، وتنفيذ العقاب فى القاتل كان نادراً ؛ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل فى أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقاباً له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيمبردج[٧٢] .

وإذ كان شرب الماء غير مأمون العاقبة وقتئذ ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاى ، أو القهوة ، أو المدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بين حاجتهم من جهة ، وبين مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالخمر والجعة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء « نقابات » الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشرب الكثير جهرة . وكانت كل خطوة فى السنة المدرسية « موسماً للطرب » يحيا بالشراب . وكان الطلاب فى كثير من الحالات يقدمون هذه المرطبات لممتحنيهم . وكانت « الأمم » فى العادة تنفق فى الحانات كل ما بقى لديها من المال فى آخر العام الدراسى . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الدينى على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نتردام(٧٣) . أما فى الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقى ، والرقص ، والشطرنج ، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوى المناقير الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم الذين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الخمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجَلْد فى تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه فى المدارس العامة . وكان ولاة الأمور فى الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة فى جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا ينتقم من الممتحنين الذين يسقطونه فى الامتحان(٧٤) ، فكان التلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل . لقد كان الحنث فى الأيمان كثيراً لأن الجحيم لم تكن ترهب رجال الدين المحدثين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسماع المحاضرات . وكان منهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إليهم من الشهرة ؛ فكانوا لذلك

يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ فى الساعة الثالثة وتمكنهم من أن يواصلوا نومهم[٧٥] . وإذ كانت الساعة الثالثة بحساب ذلك الوقت هى الساعة التاسعة صباحاً ، فإنه يظهر من هذا أن معظم الفصول كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان فى الساعة السابعة صباحاً . وكانت السنة الدراسية فى بداية القرن الثالث عشر تدوم أحد عشر شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت « العطلة الطويلة » ، التى نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب فى زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سبتمبر ، وفى جامعتى أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، أما فى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب أكبر سناً وأكثر غنى ، ولعلهم كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عيد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكانوا يعطون واحداً وعشرين يوماً فى الحفلات التى تسبق الصوم الكبير .

ويبدو أنه لم تكن تعقد امتحانات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلقاء ونقاش ، وكان يمكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمضى خمس سنين مقيما فى الجامعة للدراسة ، أن يؤدى امتحاناً أولياً أمام لجنة من « أمته » . وكان هذا يتضمن أولا اختباراً خاصاً منفرداً — يشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانيا مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعترضين ، ثم يختتم النقاش بتلخيص للنتائج . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح يسمون البكالرى Baccalarii أى الأتباع ؛ وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذاً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين « عاجلين » . وكان فى وسع التابع أن يواصل دراساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى ، فإذا رأى أستاذه بعدئذ أنه خليق بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة .

وكان ينتظر من الأساتذة ألا يقدموا طلاباً يتضح أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هؤلاء الطلاب من ذوى الثراء أو المكانة الممتازة ؛ وكان الامتحان فى هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب ، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاما[٧٦] . وكانت الصفات الخلقية من الموضوعات التى يشملها الامتحان ؛ لذلك فإن الجرائم الخلقية التى يرتكبها الطالب خلال السنين الأربع أو السبع التى يقضيها فى الجامعة قد تحول بينه وبين الحصول على الدرجة التى يريدها ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرقى الأخلاقى والاستعداد العقلى فى وقت واحد . وحسبنا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعين تقدموا لامتحان جامعة فينا فى عام ١٤٤٩ رسبوا كلهم لنقص فى أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته العقلية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلنى والأخير أصبح أستاذاً أو « دكتوراً » وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليدَرِّس فى أى مكان شاء فى العالم المسيحى . وكان وهو « تابع » يُدَرِّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوّج بقلنسوة ، ويقبّله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه فى كرسى الأستاذية ، فيلقى محاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشا افتتاحيا ؛ وكان هذا هو بداية عمله أستاذاً . وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع أساتذة الجامعة أو كثرتهم إلى وليمة ويقدم لهم الهدايا ، وبهذه الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأساتذة .

ومما يريح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل الدراسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقبلين فى

معاملات الجامعة . وكان افتراض ذوى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يلتزم بها المؤمنون بالدين مما يدعو عقول الطلاب للدعة لا للعمل . وكان البحث عن الحجج التي تثبت هذه العقائد ، وإيراد الشواهد من الكتاب المقدس أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتفسير أقوال أرسطو بحيث تتفق معها ، كان هذا كله يدرّب العقول على التقسيم الشّعرى الدقيق أكثر مما يدرب الذهن على توخى الحقيقة والإذعان لما يمليه الضمير الحى . وفى وسعنا أن نسارع إلى العفو عن هذه الأخطاء إذا ذكرنا أن أى أسلوب من أساليب الحياة ينمى مثل هذا التعسف فى الإيمان بالفروض التى يقوم عليها هذا الأسلوب . وها نحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكّون فى عقائد آبائهم الدينية ، ولا نتركهم أحراراً يشكون فى عقائدهم السياسية ؛ وهاهو ذا الإلحاد السياسى يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعى كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الدينى فى عصر الإيمان . والآن ورجل الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل محل الله ، فقد أصبح الارتياب فى الدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يغض النظر عن تحدى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها .

وما من شك فى أن انتقــال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأعظم قدراً فيما يبدو لنا مما كانا فى العصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الخلقية . ولم تكن المقدرة العملية مما تعوز خريج الجامعة فى العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج فى كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية الفرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا سفينة المسيحية فى بحار العقل الصاخبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحذت المسيحية ذكاء

الرجل الغربى ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعليم وهيبته ، وقضت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التى تدمر كل شئ فى سبيلها ، أما الجامعات التى خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فها هى ذى تكيف نفسها حسب التطورات التى لا مفر منها ، وتخلع عن نفسها إهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنتظر منا أن نعقد لواءها بلواء الحكومة .

الباب الخامس والثلاثون

أبـــلار

١٠٧٩ – ١١٤٢

الفصل الأول

الفلسفة القدسية

ليسمح لنا القارئ بأن نخص أبلار بباب كامل ، وليس حديثنا عنه فى هذا الباب مقصوراً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل فى إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلواز ممثلين لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويبهر العقل فى ذلك العصر . كان مولد أبلار فى قرية له باليه Pallet القريبة من نانت Nantes إحدى مدن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم بيرنجر Bérenger ولا شىء غير هذا ، صاحب ضيعة متواضعة ، وكان فى مقدوره أن يهيئ لأولاده الثلاثة ولابنته تعليماً حراً . وكان بيير Pierre (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكبر أولئك الأبناء وكان فى مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكبر فى ميراث أبيه ؛ ولكنه كان مولعاً بالدرس والتفكير إلى حد جعله بعد أن كبر ينزل لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه فى أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلقى بنفسه فى معركتها أينما حمى وطيسها ، أو أينما وجد معلماً ذائع الصيت يدرسها : وكان من أعظم ما أثر فى حياته المستقبلة أن كان من أول

أساتذته چان روسلان Jean Roscelin (حوالى ١٠٥٠ ــ حوالى ١١٢٠) ، وهو رجل متمرد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده سخط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذى أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجاف الموغل فى الجفاف ، والتى تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذى ، وهى الوجود الموضوعى « للكليات » . وكان « الكلى » فى الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة التى تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب ، والحجر ، والكوكب ، والرجل ، والنوع الإنسانى ، والشعب الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجمال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العليم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاء ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالجمال أكثر حقيقة من فرينى Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرستيديز ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذى كانت العصور الوسطى تعبر عنه « بالواقعية » . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن « الكلى » ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثل صنفاً من الأشياء المتماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا يوجد إلا فى صورة أعضائه التى يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل يوجد « عقل جماعة » منفصلا عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن « العقل » الفردى نفسه ليس إلا اسماً مجرداً لسلسلة الأحاسيس والأفكار ، والإرادات التى فى كائن حى ولمجموعها . ولم يكن اليونان يهتمون اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين — هو برفيرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ ــ حوالى ٣٠٤) الذى أقام فى الشام وفى رومة — بصياغتها دون أن يعرض حلا لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها

مسألة حيوية . فقد كانت الكنيسة تزعم أنها موجود روحى بالإضافة إلى مجموع الأفراد المنضمين إليها ، وكانت تشعر بأن « للكل » صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ؛ ولم يكن فى مقدورها أن تعترف بأنها فكرة مجردة ، وأن الأفكار والعلاقات التى لا نهاية لها والتى يُوحى بها لفظ « الكنيسة » ليست إلا أفكاراً ومشاعر فى أعضائها المكونين لها ، بل إنها هى « عروس المسيح » الحية . وشر من هذا قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هى وحدها الموجودة ، فماذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأقانيم الثلاثة فكرة مجردة لا أكثر ، أو هل هى ثلاثة آلهة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نضع أنفسنا فى الجو اللاهوتى المحيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولسنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (flatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فموجودة ، والأفراد المفرودون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأجناس ، والأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ؛ فالإنسان لا وجود له ، بل الذين يوجدون هم الرجال ، ولا وجود للون إلا فى الأشياء الملونة . وما من شك فى أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق هذه « الاسمية » على الثالوث . فقد نُقل عنه أنه قال إن الله لفظ أطلق على أقانيم الثالوث الثلاثة ، كما أطلق لفظ الإنسان على كثيرين من الرجال ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الثلاثة — أى ثلاثة آلهة فى واقع الأمر . وفى هذا اعتراف بالشرك الذى يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيا خمس مرات فى اليوم من فوق ألف مأذنة(*) . ولم تكن الكنيسة ترضى

(*) يقصد حين يقول المؤذن « لا إله إلا الله » ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً للمسيحة بل تقريرا لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بصدور هذه التعاليم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كمپينى Compiègne . ودعى روسلان للمثول بين يدى مجمع دينى مقدس فى سواسون (١٠٩٢) وخيير بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وفر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ؛ ثم عاد إلى فرنسا ودرس فى تور ولوش Loche . ويبدو أن هذه البلدة هى التى جلس فيها أبلار عند قدميه وهو نافد الصبر متململ[٢] . ورفض أبلار فكرة « الاسمية » ولكنه حرم من الدين مرتين لشكه فى الثالوث . وخليق بالملاحظة أيضا أن القرن الثانى عشر كان يسمى الواقعية « العقيدة القديمة » وأنه كان يسمى معارضيها الحديثين moderni[٣]

ودافع أنسلم (١٠٣٣ — ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً فى عدة مؤلفات يبدو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أسرة من أشراف إيطاليا ؛ وعين رئيساً لدير بك Bec فى نورمندية عام ١٠٧٨ . وأضحى دير بك فى أثناء حكمه ، كما أضحى فى أيام لافران La Faanc مدرسة من أكبر المدارس التعليمية فى الغرب . ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيدمر Eadmer فى ترجمة له تنم عن تعلقه به ، زاهداً ظريفاً لا يرغب فى شىء سوى التفكير والصلاة ، خرج من صومعته كارهاً ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أبعد الأشياء عن رجل مثله ، بل كان الإيمان عنده هو الحياة ، و « يجب أن يسبق الإيمان ؛ وكيف يستطيع عقل محدود أن يأتى عليه يوم يفهم فيه الله ؟ » وفى هذا يقول كما يقول أوغسطين : « لست أسعى للفهم لكى أعتقد ، بل إنى أعتقد لكى أفهم » ، ولكن تلاميذه طلبوا إليه حججاً يجادلون بها الكفار ؛ وكان هو نفسه يرى أن « من الإهمال ، وقد تثبتنا فى ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا »[٤] ؛ وكان

شعاره هو *الإيمان يطلب الفهم* ؛ وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحي دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع فى رسالة صغيرة تدعى « *حديث للنفس* » عن الوجود الموضوعى للكليات فقال : « إن آراءنا فى الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ؛ وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله — وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق — هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لا بد منه فى حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ما وراء المادة الذى أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة فى رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال — وهو الوجود : وإذن فالله ، وهو أكمل الكائنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ، يدعى جونيلو Gaunilso ، ويرمز لاسمه بلفظ *الأبله* Insipio — إلى أنسلم احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننتقل هذا الانتقال السحرى من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة فى قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكوناس يتفق فى الرأى مع جونيلوه . ثم حاول أنسلم فى مقالة رائعة ولكنها غير مقنعة أسماها « ابن الله الإنسان » أن يجد أساساً معقولا للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أمبروز ، والبابا ليو الأول وطائفة من آباء الكنيسة(٦) ، تقول إن آدم وحواء حين

أكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسهما وباعا كل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والجحيم إلا موت الله الذى أصبح إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ فقال : إن عصيان أبوينا الأولين كان ذنباً غير محدود لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ؛ ولا شيء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ؛ ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة الغير المحدودة إلا كائن غير محدود ؛ ومن أجل هذا صار الإله إنسانا لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى .

ونمت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١٠٧٠ ؟ — ١١٢١) . فقد بدأ وليم فى عام ١١٠٣ يعلم الجدل فى مدرسة كتدرائية نتردام بباريس . وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار — الذى كانت براعته الحربية تحول دون براعته التاريخية — قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونيا أكثر من أفلاطون نفسه حين قال إن الكليات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد تحوير عارضى للحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه فى الكلى ؛ وعلى هذا فالإنسانية هى الكائن الحقيقى ، الذى يدخل فى سقراط ، ويكسبه وجوده . وينقلون عن وليم أنه قال فضلا عن هذا إن الكلى بأجمعه حاضر فى كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة فى سقراط وفى الإسكندر .

وألقى أبلار عصا التسيار فى مدرسة وليم بعد كثير من التجوال العلمى (١١٠٣) ، وكان وقتئذ فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسيم الخلق حسن القوام ، بهى الطلعة[٧] ، ذا جبهة عريضة تبعث فى النفس الروعة ؛ وكانت روحه المرحة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغانى وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزلزل الضعاف فى قاعات الجدل . وكان شابا مرحاً طروباً ، عرف فى الوقت نفسه باريس والفلسفة.

وكانت عيوبه هي العيوب التي تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهواً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التي كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التي كانت سائدة في عصره وبين أساتذته . وقد أسكرته « بهجة » الفلسفة « المحببة » إليه ؛ فهذا العاشق الذائع الصيت يحب الجدل أكثر مما يحب هلواز :

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة في سقراط ؟ إذن فحين تكون الإنسانية كلها حاضرة في الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذي تشمله الإنسانية كلها) حاضراً في الإسكندر . ويخيل إلينا أن ما كان يقصده وليم هو أن جميع العناصر الجوهرية التي في الإنسانية حاضرة في كل كائن بشرى . على أننا لم تصل إلينا حجج وليم في هذا النقاش ، ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشيء منها . فقد عارض واقعية وليم واسمية روسلان بالفلسفة التي سميت فيما بعد بالفلسفة الإدراكية ، وهي تقول إن الصنف (الإنسان والحجر) ليس له وجود جسمي إلا في أفراده التي يتكون منها (الرجال ، والحجارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لها إلا في الأجسام ، أو الأفعال ، أو الأفكار التي تصفها . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التي نلاحظ وجودها مشتركة بين طائفة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا في الصور الفردية . وليست المدركات التي نفكر بها في هذه العناصر المشتركة — الأفكار الجنسية أو الكلية التي نفكر بها في الأصناف المكونة من أجسام متماثلة — ليست هذه المدركات « رياح الصوت » ، بل هي أكثر أدوات التفكير نفعا وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بقى مع وليم « بعض الوقت » . ثم شرع هو نفسه يدرس فى ميلون Melun أولا ثم فى كوربى Corbeil بعدئذ ، وتبعد أولى البلدتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خمسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ « حانوته » بعد تدريب جد قصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بديهته وزلاقة لسانه . وكان وليم فى هذه الأثناء قد أصبح راهباً فى دير القديس فكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر فى إلقاء محاضراته ؛ وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد « مرض شديد » . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحم أكثر مما توحى به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التى كتبها بنفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشاتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة وليم فى الهبوط . وعرض الأستاذ الذى خلفه والذى عينه بنفسه فى نتردام أن يخلى مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلار محاضراته فى مليون ، ثم فوق جبل سانت چنڤييڤ المجاور لباريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلابهما ، حرب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعيم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين أصحاب المدرسة « الحديثة » . وبينما هو يخوض غمار هذه الحرب ترهّب والداه . ولعلهما فعلا ذلك استعداداً للموت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون فى وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلار إلى باريس فى عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين فى لاءون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، فى قاعات نتردام التى كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت باثنتى عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق فى ذلك معارضة ما . وكان وقتئذ من موظفى الكتدرائية وإن لم يصبح من قساوستها(٨) . وكان فى مقدوره أن يتطلع إلى

المناصب الكهنوتية العليا إذا لزم الصمت ، ولكن هذا الشرط كان ثقيلاً عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً فى عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ، وكان كغيره من الفرنسيين يرى أن الوضوح فى التعبير واجب تحتمه المبادئ الخلقية ، ولم يكن يخشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التى يدرس لها كبيرة كبراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأمم[٩] ، تشهد بذلك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فيها :

بعثت إليك رومة أبناءها تعلّمهم : : : ولم تمنع المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوديان أو الطرق الموبوءة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . وازدحمت فصولك بالشبان الإنجليز الذين عبروا البحر المفعم بالأخطار ، وأقبل عليك التلاميذ من جميع أنحاء أسپانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم يملّوا من الثناء على قوة عقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقاصى فرنسا التى كانت هى الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطاع أخذه عنك[١٠] .

وما دام قد بلغ هذه الذروة من المجد والنجاح وبُعد الصيت ، فلِمَ لا يرقى إلى كرسى الأسقفية (كما ارتقى إليه وليم) ، ثم إلى كرسى رئيس الأساقفة ، ولِمَ لا يرقى إلى كرسى البابوية ؟

الفصل الثانى

هلـــواز

ويؤكد أبلار أنه حل حتى ذلك الوقت « مستعففاً إلى أقصى حدود الاستعفاف » ، وأنه كان « حريصاً على الامتناع عن جميـــع ضروب الإفراط »(١١) . ولكن هلواز ابنة أخى فلبير Fulbert قس الكتدرائية كان لها من جمال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامنا فى أبلار من حساسية مرهفة برجولته وإعجاب بعقليته . وفى خلال تلك السنين المحمومة التى كانت الحرب ناشبة فيها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم يبق لأبويها أثر . وبعث بها عمها إلى دير فى أرجنتى Argentuil لتقضى فيه عدداً كبيراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما فى مكتبته الصغيرة من الكتب هياما أصبحت معه أنبه راهبة فى الدير . ولما عرف فلبير أنها تستطيع التحدث باللاتينية بنفس الطلاقة التى تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكتف بهذا بل أخذت تتعلم العبرية(١٢) ، لما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه فى بيته القريب من الكتدرائية .

وكانت فى سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؛ وفى ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وما من شك فى أنها كانت قد أبصرت مئات الطلاب تغص بهم الأبهاء وقاعات المحاضرات ، وقد جاءوا ليستمعوا إليه ؛ ولعلها وهى ذات الحماسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أو علناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفى وسعنا أن نتصور حياءها وارتياعها حين أخبرها فلبير أن أبلار سيسكن معهما ويصبح معلمها

الخاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسير كيف حدث هذا :

« وكانت هذه الفتاة الصغيرة هي التي . . . اعتزمتُ أن أرتبط بها برباط الحب . والحق أن هذا العمل من أسهل الأمور . فهاهو ذا اسمي على كل لسان ، ولي من مزايا الشباب والجمال ما لا أخشى معه أن ترفضني امرأة ، أيا كان شأنها ، أتعطف عليها بحبي . . . وهكذا شرعت ، وقلبي ملتهب بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التي تمكنني من أن أتحدث إليها في كل يوم حديث المودة الخالية من الكلفة ، حتى يسهل عليّ بذلك أن أحظى بموافقتها . ومن أجل هذا أقنعت عم الفتاة . . . أن يأويني في بيته . . . نظير أجر قليل أؤديه له . . . وكان هو رجلا بخيلا حريصا على المال و . . . اعتقد أن ابنة أخيه ستفيد كثيراً من تعليمي . . . ولقد ذهلت من سذاجة الرجل ، ولو أنه عهد بحَمَل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد من ذلك دهشة وذهولا . . .

« ولِمَ أطيل القول ؟ واجتمعنا أولا في المسكن الذي أظل حبنا ، ثم في القلبين اللذين كانا يتحرقان بين جنبينا . وقضينا الساعات الطوال ننعم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . . وكانت قُبلاتنا يزيد عديدها على كلماتنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها عن صدرينا ، وكان الحب يجذب عينَيّ كل منا إلى الآخر[١٣] » .

وهكذا أحالت رقة هلواز العاطفة التي بدأت رغبة جسمية بسيطة « حناناً أذكى من عرف الطيب » . وكانت هذه تجربة جديدة في حياته لهته عن الفلسفة ، فقد استعار من محاضراته وجداً وهياما لحبه ، فأضحت هذه المحاضرات مملة على خلاف عادتها . وأسف طلابه لما أصاب الجدلي المنطيق ، ولكنهم رحبوا بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأثم ، وعزوا أنفسهم عما فقدوه من الحجج الدامغة بترديد أغاني الحب التي بدأ يؤلفها ؛ وكانت هلواز

تسمع من نافذة بيتها أغانى افتتانه بها تتردد أصداؤها الصاخبة على ألسنة تلاميذه[١٤] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن اختطفها سراً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته فى بريطانى[١٥] . ودفعه الخوف من جهة والرحمة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحانق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فلبير بأن يظل أمر الزواج سراً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطانى فى أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج . وكان عمر ابنهما أسطرلاب Astorlabe ثلاثة أيام حين أقبل هو على والدته . وظلت هلواز زمناً طويلا ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسين على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبقى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سراً يخفى عن الناس بحكمة ، لن تحول بينه وبين الرقى فى مناصب الكنيسة كما يحول الزواج[١٦] . وقد أورد أبلار فى كتابه تاريخ مصائبى (الفصل السابع) فقرة طويلة يعزو فيها إلى هلواز فى هذا الظرف ثبتاً طويلا من المراجع والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية فى الاعتراض على « حرمان الكنيسة من ضوئه البراق » : « تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف طهرت الفلسفة من هذا العار الذى دنسها تطهيراً خسيسا حتى يكون الناس بعدئذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً » ، ثم ينقل عنها قولها : « إنها أحلى لها كثيراً أن تسمى عشيقتى من أن يعرف الناس أنها زوجتى ، بل إن هذا يكون أيضا أشرف لى »[١٧] . ولكنه أقنعها بأن وعدها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة بهما .

وتركا أسطرلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فلبير . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب ، وعادت هلواز إلى السكنى مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيبين يرى الآخر إلا نادراً وخلسة . ولكن فلبير ، فى حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذى قطعه لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، « وأنزل بها فلبير العقاب بعد العقاب » . فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرجنتى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألاّ تقسم اليمين أو تلبس النقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فلبير وأقاربه بهذا « أيقنوا أننى قد غدرت بهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرغمتها على أن تترهب . فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة على ؛ وبينا كنت نائماً ذات ليلة . . . فى حجرة سرية بمسكنى ، إذ اقتحموها علىّ بمعونة خادم من خدمى قدموا له رشوة ، وانتقموا منى انتقاما شنيعا يجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمى التى فعلت بها ما كان سبباً فى حزنهم . ولاذوا بالفرار بعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قُبض عليهما وفقدا أعينهما وأعضاء تناسلهما »[١٨] .

ولم يكن فى وسع أعدائه أن يختاروا له عقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب . نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطفت عليه[١٩] ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فلبير واختفى وجرّ عليه النسيان ذيوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن « قصة هذا الاعتداء الشنيع ستنتشر حتى تبلغ أطراف الأرض » . ولم يعد يستطيع التفكير فى الرقى فى مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطيبة قد

« محيت من الوجود محواً تاما » ، وأنه سيكون مضغة فى أفواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن فى سقوطه هذا قسطا من العدالة الطبيعية غير الشعرية ، فقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذى أذنب ، وغدر به نفس الرجل الذى غدر هو به من قبل . وأمر هلواز أن تلبس النقاب وتترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة(*) .

(*) اقرأ قصة هلواز وأبلار مفصلة فى الجزاء الأول من كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الفصل الثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيبا لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقيها فى « صومعة » فى شعبة دير ميزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد فى كتبه أهم ما كان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قلق مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن نحدد تواريخها . وقد راجعها فى سنيه الأخيرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندرى مقدار ما تحطم من حرارة الشباب بفعل الزمن . ولأبلار أربعة كتب صغرى فى المنطق تدور كلها حول مسألة الكليات . ولا حاجة بنا إلى أن نوقظها من رقادها ، لكن كتابه الجدل رسالة تقع فى ٣٧٥ صفحة فى المنطق بمعناه عند أرسطو : فهى تحليل عقلى لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والوضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة ») وأشكال القضايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حين يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة فى أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوئيثيوس Boethius وبرفيرى . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له) . ولهذا لم يكن كتاب أبلار فى الجدل كتاباً ممتعاً خلاباً . ولكننا نسمع فى صفحاته التى تعنى بالشكل قبل كل شىء إلى طلقة أو طلقتين من تلك المناوشات الأولى فى الحرب التى قامت بين الدين والعقل ودامت مائتى عام .

وكيف نستطيع ونحن فى عصر أخذ يشك فى العقل نفسه ، أن ندرك لألاء ذلك العهد الذى بدأ فى التو يكشف « سر المعرفة العظيم ؟ »[٢٠]

ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ؛ وإلا لكان الله الذى وهبنا هذه وتلك يخدعنا بإحداهما[٢١]

ولعله قد كتب فى عهده الباكر — قبل مأساته — كتابه **حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى**. وفيه يقول : « إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه فى رؤى أثناء الليل » وسألوه بوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل فى نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقدسة ، أما الفيلسوف فيرفضها ، ويقترح أن يقيم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعى . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء فى أباطيلهم ، وأن نزج فى الجحيم من لا يقبلون هذه السخافات التى لا تفترق فى شىء عن عبث الأطفال ! » . ويختتم قوله اختتاما غير فلسفى فيرمى اليهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه اليهودى بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هى التى أبقت على شجاعة اليهود وأخلاقهم خلال ما أصابهم من التشتت والمآسى التى دامت قروناً طوالا . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش آباؤكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزمن طويل ؟ — وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم فى الدنيا ، ومع هذا فقد تركتكم تقاسون آلام الفاقة والبؤس ؟ ويقبل المسيحى كثيراً مما قاله الفيلسوف واليهودى ، ولكنه يقول إن المسيحية قد نمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة اليهودى الموسوية ؛ وإنها قد سمت بمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا اليهودية ، كما جاءت فى الكتب المقدسة ، قد وهبت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعذَّب ، هذا الأمل فى السعادة ، وهى لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذى لم ينته إلى غاية لحو ثمرة رائعة من نتاج قس فى كتدرائية بباريس عام ١١٢٠ .

وقد وَجَدت حرية فى النقاش شبيهة بهذه الحرية نفسها منفذاً لها فى كتاب آخر لأبلار يعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب نعم ولا sic et non (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب فى رسالة كتبها رجل من سانت تييرى St. Tierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سراً بين تلاميذ أبلار والمتشيعين له[٢٣] . ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حين كشف فكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتبة فى أفرانش Avranche . وما من شك فى أن شكل الكتاب نفسه قد أحزن هذا الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تنم عن التقى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت فى عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تؤيد الرد الإيجابى والأخرى تؤيد الرد السلبى ، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقدس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من فن الحب لأوفد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يُلجأ إليهـا فى النقاش المدرسى ، ولكن مقدمته تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة — سواء أراد الكاتب ذلك أو لم يرده — لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، بل إنها لتظهر تناقض كل منهم لنفسه . ولم يشك أبلار فى قيمة الكتاب المقدس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لغته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد فى بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل . وكتب فى نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق بها شكوك ديكارت بأربعمائة عام فقال ؛ « إن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على الأسئلة وتكرارها . . . لأن الشك يؤدى بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة »(٢٤) . ويقول إن عيسى نفسه حين واجه العلماء فى المعبد أمطرهم وابلا من الأسئلة . ويكاد الحوار الأول فى الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : « يجب أن يكون أساس الإيمان فى عقل الإنسان وفى القضايا المتناقضة » . وهو ينقل أقوالا عن أمبروز ، وأوغسطين ، وجريجورى الأول ، تؤيد الإيمان ، ويستشهد بأقوال من هيلارى Hilary ، وجيروم ، وأوغسطين ، على أن من الخير أن يستطيع الإنسان أن يثبت دينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الخطيئة والشر فى عالم خلقه إله خيِّر قادر على كل شىء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شىء . وما من شك فى أن استدلاله الحر فى هذه المسائل قد زلزل إيمان الطلاب الشبان المولعين بالجدل . على أن هذه الطريقة — طريقة التعليم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية — أضحت هى الخطة المألوفة المتبعة فى الجامعات الفرنسية وفى الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذى ضربه لها أبلار(٢٥) . وسنرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشى شيئا ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وجدت النزعة العقلية مكاناً لها فى مستهل عهد الفلسفة المدرسية .

وإذا كان كتابه **نعم ولا** لم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تحكيم العقل فى

موضوع التثليث — وهو الموضوع الشديد الغموض — لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذى كان لهذا الكتاب ، ولم يكن ارتياع الناس له محصوراً فى القليل منهم ؛ وذلك لأنه كان موضوع محاضراته التى ألقاها فى عام ١١٢٠ ، وموضوع كتابه **فى وحدة الإله والتثليث** . وقد كتب هذا الكتاب ، كما يقول هو نفسه : « لطلابى لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية ، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها ، ويقولون إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولا ، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[٢٦] » .

وهو يقول إن هذا الكتاب « انتشر انتشاراً واسعا جداً » وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . فى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته ، وإحسانه ، وحبه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ؛ ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وحبه[٢٧] . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن هذا التشبيه مما يمكن التجاوز عنه والسماح به ؛ ورفض أسقف باريس ما طلبه إليه روسلان — وكان قد أصبح وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن مستمسكا بالدين — أن يتهم أبلار بالكفر ؛ ودافع جيفروى Geoffroy أسقف شارتر عن أبلار طوال فترة السخط الذى حل بهذا الفيلسوف المستهتر . ولكن ألبريك Alberic ولوتاف ، وهما مدرسان فى ريمس كانا قد تنازعا مع أبلار فى لاءون عام ١١١٣ ، حرّضا كبير الأساقفة على أن يأمره بالمجىء إلى سواسون ومعه كتابه عن التثليث ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار إلى سواسون (١١٢١) وجد أن الغوغاء قد أثيروا عليه ، وأنهم

« يوشكون أن يرجموني بالحجارة . . . لاعتقادهم أني قلت بوجود آلهة ثلاثة »(٢٨) . وطالب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرغمه على أن يلقي كتابه في النار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار Medard أن يحجزه في الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعاده إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار في الدير سنة في شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر Suger العظيم على إذن بأن يبني لنفسه صومعة في بقعة منعزلة في منتصف المسافة بين فونتينبلو Fontainebleau وتروى (١١٢٢) ، وهناك أقام بمعونة رفيق في الدرجات الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها « الثالوث المقدس » . ولما سمع الطلاب أنه قد أجيز له مرة أخرى أن يُدرِّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة مرتجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، وناموا على القش والبوص ، وطعموا « الخبز الخشن وأعشاب الحقول »(٢٩) . وظهر في هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملأها بالطلاب . والحق أن العصور المظلمة أضحت في هذا المكان وكأنها كابوس أوشك أن يندرج في طيات النسيان . وأخذ الطلاب ، في نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يحرثون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الخشب والحجارة سماها الروح القدس ، كأنه يريد أن يقول إن حب مريديه قد نزل عليه نزول الروح القدس في اللحظة التي فر فيها من المجتمع إلى العزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنين التي قضاها في ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأكبر الظن أن المحاضرات التي ألقاها على هؤلاء

الطلاب المشوقين قد احتُفظ بها وأعيدت صياغتها فى كتابين يسمى أحدهما **الديون المسيحى** Theologia Christiana ويسمى الثانى **الديون** Theologia لا غير . وكانت العقائد الواردة فى الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذى كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلسفة اليونانية قد راعه بعض الشيء أن يجد فى الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهى(٣٠) . ولم يكن فى وسع أبلار أن يعتقد أن جميع هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة(٣١) ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار(٣٢) ؛ وعاد أبلار فى غير ندم يدافع عن تحكيم العقل فى أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف(٣٣) ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون فى كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلّموا الدين تعليماً يدركه العقل(٣٤) ، وتلك شوكة نفذت من غير شك فى جلود بعض الناس ! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحى تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرؤ على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً فى قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجرأته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم فى زمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل ، وفوق إدراكه .

وخلقت له جرأته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً . فقد كتب يشير فى أغلب الظن إلى برنار الكليرفوكسى Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البريمنستراتنسين يقول :

يهرول بعض الرسل الجدد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهشون عرضى دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن فى أن يجعلونى هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أننى كلما علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتى (٣٥) .

ولعله أراد أن يكسب أولئك الناقدين . فترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس فى بريطانى (١١٢٥ ؟) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكمته هذه النقلة مؤملا بهذا أن تسكن العاصفة . وكان فى هذا الانتقال ترقية لأبلار وسجن له فى وقت واحد ، فقد ألفى الفيلسوف نفسه وسط سكان من « البرابرة الذين « لا يفهمون » ، وبين رهبان « أدنياء لا يُرَوَّضون » يعيشون جهرة مع حظياتهم (٣٦) . ونفر أولئك الرهبان من إصلاحاته فدسوا له السم فى الكأس التى كان يشرب منها وقت العشاء الربانى ؛ فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يدس له السم فى الطعام ؛ ولكن راهباً غيره تناول الطعام « وخر صريعاً من فوره » (٣٧) ؛ غير أن مرجعنا الوحيد فى هذه الأقوال هو أبلار وحده . واستبسل أبلار فى النضال فى هذه المعركة لأنه بقى فى هذا المكان المنعزل إحدى عشرة سنة تتخللها بعض فترات كان فى أثنائها بعيداً عنه .

الفصل الرابع

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة المعتدلة حين قرر سوجر أن يستخدم البيت الذى فى إرچنتى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مذ افترقت عن أبلار قد عكفت فى هذا البيت على أداء الواجبات التى تفرضها عليها حياة الرهبنة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانتها عند الجميع . . . فأحبها الأساقفة حب الآباء للأبناء ، وأحبها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحبها غير رجال الدين كما يحب الأبناء الأمهات » . ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبحثن عن مكان لهن جديد ، عرض عليهن مصلى « الروح القدس » ومبانيها ، وذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامتهن فى مقرهن الجديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن ويعظ القرويين الذين أقاموا بالقرب منهن . وهمس النمامون « أننى لا زالت تسيطر علىّ مباهج الحب الأرضى ، وأنا الذى لم أكن أطيق فى الأيام الخالية أن أفارق من امتلأ قلبى بحبها »(٣٨) .

وكانت هذه الفترة المضطربة التى قضاها رئيساً لدير القديس جلداس هى التى كتب فيها سيرته « تاريخ مصائبى » (١١٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السيرة ، فهى تتخذ شكل مقالة يواسى بها صديقاً يشكو بؤسه ، « حتى إذا وازنت أحزانك بأحزانى ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتى تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السيرة كان يقصد بها أن يطلع عليها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول رواية قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن نسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هذا الرد العجيب :

« إلى سيدها ، بل أبيها ، إلى زوجها ، بل أخيها : من خادمته ، بل ابنته ، من زوجته ، بل أخته : إلى أبلار ، من هلواز :

« لقد جيء إلىّ مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذى كتبته يا حبيبى تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لايستطيع أحد أن يطلع عليها دون أن تفيض عيناه بالدمع لأنها تجدد أحزانى كاملة ... فباسم الله الذى لايزال يرعاك ... باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا فى رسائل منك متتابعة عن المصائب التى لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الأقل فى أحزانك ومسراتك ، نحن اللذين بقينا على الدوام أوفياء لك ...

« إنك لتعرف يا أعز الناس علىّ — وإن الناس كلهم ليعرفون — ماذا خسرتُ بفقدك ... لقد بدلت ثيابى وقلبى طوعاً لأمرك ، كى أظهر لك أنك مالك جسمى وعقلى ... ولم أكن أتطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرنى به ... وإذا كان اسم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإنّ أحب إلىّ ، اسم الصديقة منه وأعذب على الدوام ، أو ، إذا لم يكن فى هذا ما تستحى منه ، اسم العشيقة أو العاهرة ... وإنى لأشهد الله لو أن أغسطس الذى حكم العالم كله رأى أنى خليقة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملّكنى العالم بأسره أحكمه حكما يدوم أبد الدهر ، لكان قولهم إنى مومسك أحب إلىّ من قولهم إنى إمبراطورته ...

« وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك فى شهرتك ؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لرؤيتك ؟ ومَن من الناس لم يستحث الخطى لينظر إليك ، حين تبدو أمام الجماهير ؟ ... وأية زوجة ، وأية عذراء ، لم تتلهف عليك وأنت غائب ، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر ؟ وأية ملكة أو سيدة ذات سلطان لم تحسدنى على مباهجى وفراشى ؟

« هلا حدثتنى عن شيء واحد إن استطعت : لم أهملتنى ونسيتنى ، بعد أن سلكتُ سبيل الحياة الدينية التى كنت أنت دون غيرك الآمر بها ، فلم أحظ بعدئذ

بكلمة منك أو نظرة إليك تبتهج بها نفسى ، أو رسالة منك ، غيبتك يرتاح لها قلبى ؟ ألا فحدثنى عن شىء واحد لا أكثر إن استطعت ، أو دعنى أفض إليك بما أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هى التى وثقت الصلة بينى وبينك ... فلما أن نلت ما تبغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به ... ليس هذا يا أحب الناس إلىّ ، ما أظنه أنا وحدى ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أتمنى أن يكون هذا ظنى دون غيرى ، وأن يجد حبك من يبرره غيرى فتخفّ بذلك بعض الشىء لواعج أحزانى .

« أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... فى الوقت الذى أخادع نفسى فيه بوجودك معى فى ألفاظك المكتوبة على الأقل — وهى ألفاظ لديك منها الشىء الكثير — أهد إلىّ صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر منها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التى غويت حياة الدير الخشنة فى سن الشباب ... لا عن تقى وحب للدين بل إطاعة لأمرك لا لشىء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من الله على هذا العمل ، لأنى لم أعمل شيئاً لوجه الله كما تعرف ذلك حق المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذى وهبت له نفسك ، وأتوسل إليك أمام الله أن تعيد إلىّ وجودك بأية سبيل فى استطاعتك ، ولو بكلمة منك تخفف عنى آلامى ... وداعاً يا كل من أحب »(٣٩) .

لكن أبلار كان عاجزاً عجزاً جسمياً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الجياشة بعواطف من نوعها ، ولهذا كانت الرسالة التى تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكيراً لها بالنذر الدينى الذى نذر له نفسه : « إلى هلواز أخته العزيزة فى المسيح ، من أبلار أخيها فى المسيح نفسه » ؛ وهو يوصيها بأن تقبل ما حل بهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب للنجاة من عند الله . ويطلب إليها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحزانها بأملها فى أن يجتمعا معاً فى السماء ، ويرجوها أن تواريه الثرى حين يموت فى أراضى « الروح

القدس » . وتعيد فى رسالتها الثانية عبارات الهيام وعدم التقى فتقول : « لقد كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لا أن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضائه ... فانظر أية حياة تعسة لابد أن أحياها إذا كنت أقاسى كل هذا عبثاً ، لا أمل لى فى أن أثاب عليه فى المستقبل . لقد ظللت ، كما ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلا مغروراً بخداعى وتمويهى فحسبت النفاق ديناً »[٤٠] . فيجيبها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبها بحق : لقد كان هيامى شهوة جنسية لا حباً . ولقد أشبعت شهوتى الدنيئة فيك ، وكان هذا كل ما أحببت... فاذرفى الدمع من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجيك لا من أجل مدنسك[٤١] . ثم يؤلف دعاء مؤثراً يطلب إليها أن تتلوه من أجله . وتبدو فى رسالتها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى ؛ ولاتطلب إليه وقتئذ إلا قاعدة جديدة تستطيع هى ومن معها من الراهبات أن يحيين بها حياة دينية حقة. ويستجيب هو إلى رغبتها ويضع لهن دستوراً رحيما معتدلا ، ويكتب مواعظ يقوى بها إيمانهن . ويبعث بهذه كلها إلى هلواز موقعة بتوقيع دقيق : « وداعاً فى الرب إلى خادمته ، من كانت فى وقت ما عزيزة علىّ فى هذا العالم ، وأضحت الآن أعز الناس فى المسيح » . لقد كان فى ثنايا قلبه المحطم لا يزال يهيم بحبها .

وبعد ، فهل هذه الرسائل الشهيرة حقيقية ؟ إن هذه المشكلة لتواجهنا قوية مستعصية . يقال إن أولى رسائل هلواز قد كتبت على أثر ظهور كتابه تاريخ مصائبى وهو يذكر فيه عدة زيارات قام بها أبلار لهلواز فى الروح القدس ؛ ومع هذا فهى تشكو أنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء منقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هى السابقة على الرسالة . ثم إن النزعة الشهوانية الجريئة الظاهرة فى بعض فقراتها تبدو غير معقولة لصدورها من امرأة أكسبها تقاها وتفانيها فى أمور الدين مدى أربعة عشر عاما ذلك الإجلال السامى عند جميع الناس . وهو الإجلال الذى يشهد به بطرس المبجَّل Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هذا ما فى الرسائل من تنميق بلاغى ومقتبسات من كتب الأدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها فى عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التقى أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ويبدو أن چان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية فى عام ١٢٨٥ (٤٢) ؛ وإلى أن نجد أدلة أكثر مما لدينا قوة فإن لنا أن نختتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبدع الوثائق المزورة فى التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها قسم خالد لا يفنى من أدب فرنسا الغرامى (٤٣) .

الفصل الخامس

المـــدين

لسنا نعرف متى فر أبلار من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتيح له هذا الفرار. فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع إلى محاضرات أبلار على جبل سانت چنڤييف فى عام ١١٣٦، كذلك لا نعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم، ولعله لم يطلب ترخيصا ما، ولعله قد استهزأ فى وقت ما بآداب الكنيسة فثار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملتوية أدت إلى سقوطه الأخير.

وإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته، فإنا لا نرى أثراً لهذا فى الكتب التى نقلت إلينا أسس تعاليمه. وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجا صريحا على الدين، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارت بلا ريب غضب رجال الدين. من ذلك أنه يقول فى كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه **اعرف نفسك** Scito te ipsum إن الخطيئة ليست فى العمل نفسه بل فى نية العامل، وإن العمل أيا كان — حتى القتل نفسه — ليس خطيئة فى ذاته. مثال ذلك أن أماً لم تجد لديها من الثياب ما يكفى لتدفئة طفلها فضمته إلى صدرها وأماتته خنقاً على علم منها، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فعاقبها القانون العقاب الذى تستحقه كى يصبح غيرها من النساء أكثر منها عناية، ولكن هذه الأم بريئة من الذنب عند الله. وفوق هذا فلكى تكون هناك خطيئه، يجب أن يكون مرتكبها قد خالف ضميره الأخلاقى لا ضمير غيره من الناس وحدهم، وعلى هذا فإن قتل الشهداء المسيحيين لا يعد إثما ارتكبه الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هؤلاء المسيحيين واجب للإبقاء على دولتهم أو دينهم الذى خالوه صحيحاً . وأكثر من هذا ، أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ، وهم يرون من واجبهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثما من حيث عملهم ، ولكن لو أنهم امتنعوا عن اضطهادهم مخالفين بذلك ما تمليه عليهم ضمائرهم لارتكبوا بذلك إثما أكبر »[٤٤] . قد يكون هذا كله منطقا سليما ومثيراً معا ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها من حيث مخالفتها لأوامر الله معرضة لأن تتبخر فى تيار الجدل القائم حول النيات فلا يبقى لها وجود قط ، فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس وعدداً قليلا ممن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟ وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التى أدين أبلار من أجلها فى عام ١١٤١ مأخوذة من هذا الكتاب .

وكان الذى أزعج الكنيسة أكثر من أى إلحاد معين تبينته عند أبلار هو افتراضه أن لا أسرار فى الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة فى صدور هذا القول منه . ألم يكن ثملاً بنشوة المنطق الذى جرؤ على أن يربطه بكلمة لله ويكاد يجعله من العلوم القدسية ؟[٤٥] . ولنا أن نتساءل كم من العقول القاصرة غير الناضجة التى تأثرت بجرثومة ذلك التحليل المنطقى قد ضلت طريقها بحججه الطلية المؤيدة والمعارضة إذا سلمنا بأن هذا الاستاذ الذى افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولو أنه لم يكن له أمثلة من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون ، وكان ثمة معلمون غيره — وليم الكنشسى William of Conches ، وجلبرت ده لابريه Gibert de la Porrée ، وبرنجر الثورى Berenger of Tours — وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى مجراه ، فإلى متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان

اللتين يقوم عليهما — فيما يبدو لها — نظام أوربا الأخلاقى والاجتماعى ؟ ألم يشرع آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشعل فعلا نار الثورة فى إيطاليا ؟

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو نحوها هى التى أوقفت القديس برنار موقف العداء جهرة أمام أبلار . ذلك بأن حارس الدين الحريص على سلامته قد اشتم رائحة الخطر الذى يتهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعين الارتياب إلى هجمات العقل الجرىء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعينها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدسة بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة ؛ والعقل الذى يبدأ بتفسير هذه الأسرار الخفية سينتهى آخر الأمر إلى تدنيسها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما آن لفت وليم التيبرىّ أحد رهبان ريمس نظره فى عام ١١٣٩ إلى ما فى تعاليم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يتهم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئاً . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد مجلس الكنيسة المقبل فى تلك المدينة ، فرصة يدفع فيها عن نفسه تهمة الإلحاد التى يذيعها بعضهم عنه . ووافق كبير الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأساً فى أن يكون كرسيه قبلة العالم المسيحى ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أبى وقال إنه سيكون فى حلبة الجدل « طفلا لا أكثر » أمام أبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عاما . غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة يحثهم على الحضور للدفاع عن الدين :

« يحاول بطرس أبلار أن يقوّض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعتماد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى السموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شىء أن يختفى

عنه ! . . . وهو لا يكتفى بأن ينظر إلى الأشياء من خلال المنظار نظرة غير واضحة ، بل يرى أن لا بد له من النظر إلى الأشياء وجها لوجه . . . إن فيه لشبهاً بأريوس حين يتحدث عن التثليث ، وببلاجيوس Pelagius حين يتحدث عن البركة ، ونسطوريوس حين يتحدث عن شخص المسيح . . . إن دين المتقين هو الإيمان والتصديق ، لا المجادلة ؛ أما هذا الرجل فليس له عقل يصدق به ما لم يسبق له أن ناقشه بمنقطه(٤٦) .

وتغلب أتباع برنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (بونية سنة ١١٤٠) وجد الجماهير ، كما وجدها فى سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ثائرة عليه لمجرد وجودبرنار فى المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرؤ على الظهور فى شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوعا كاملا وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذى أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب فى قلوبهم جميعاً ؛ وكان بعض أولئك الأحبار قد أحسوا فرادى أو مجتمعين بوخز الطعنات التى وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولفساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التنحى عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد له أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن فى ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته فى التثليث التى يقول فيها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهو لا يكاد يملك شروى نقير ،

واعترضه فى السفر شيخوخته وضعفه فتأخر كثيراً فى الطريق . ولما وصل إلى دير كلونى فى برغندية استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح فى الدير بضعة أيام قليلة . وفى هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثانى قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصمت الدائم على أبلار ، والأمر بحجزه فى أحد الأديرة . ورغب أبلار بالرغم من صدور هذا القرار أن يواصل حجه ، ولكن بطرس أقنعه بألا يفعل ، وقال له إن البابا لا يمكن أن يصدر قرراً يخالف ما يراه برنار . وخضع أبلار لهذا الرأى لما عاناه من الإعياء الجسمى والروحى ، فصار راهبا فى دير كلونى واختفى فى ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصمته ، وصلواته . وكتب إلى هلواز — التى لم يرها قط بعد ذلك الوقت — يعترف اعترافا مؤثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لها فى أغلب الظن ترانيم من أجمل ما يحتويه أدب العصور الوسطى . وتعزى إليه « مرثية » فى صورة رثاء من داود إلى يوناثان ، ولكن فى وسع أى قارئ أن يلمح فيها أنيناً رقيقاً :

لو قُدّر لى أن أرقد معك فى قبر واحد
لرأيت السعادة فى أن أموت ،
فلست أعرف من النعم التى يمكن أن يهبها الحب فى هذه الدنيا ما هو
أعظم من هذه النعمة .
ولو أننى عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك
لكان ذلك هو الموت الأبدى ،
ولن يكون فى شبحى نصف روح
يمسك على حياتى أو نصف نفسى .

* * *

هأنذا ، ألق قيثارتى ،
ألا ليتنى أستطيع
أن أمسك كذلك دموعى وأنينى !
لقد آلم العزف يدى
وبحّ صوتى
من فرط الحزن ، وحل بروحى الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرسله رئيس الدير الرحيم إلى دير القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء . وهنالك وفى اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . ودفن فى كنيسة الدير ؛ ولكن هلواز ذكّرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب فى حياته أن يدفن فى « الروح القدس » . وجاء إليها الرئيس الرحيم نفسه بالجثة ، وحاول أن يواسيها بالتحدث عن حبيبها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ؛ وترك معها رسالة تفيض بالحنان المسيحى :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة فى الله ، إن الرجل الذى اجتمعت وإياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير منها وأقوى هى رابطة الحب المقدس ، والذى خدمت . . . الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ، فهو صورة أخرى منك ، وينفث فيه دفء صدره ؛ ويحتفظ به حين يُدوى صوت الملاك الأكبر ، وينفخ فى الصور من السموات العلى ، ليرده إليه نعمة منه ورحمة[٤٨] .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ، وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجـواره فى حديقة « الروح القدس » .

ودمرت هذه الحديقة فى أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدى بالقبور ، ولعلها اختلط بعضها ببعض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأب لاشيز Père Lachaise بباريس عام ١٨١٧ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون فى أيام الأحد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بها القبر(*) .

(*) لقد أوردنا قصة أبلار وهلواز ورسائلهما فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » فليقرأها من أراد الاطلاع على هذه السيرة العجيبة . (المترجم)

الباب السادس والثلاثون

مغامرات العقل

١١٢٠ — ١٣٠٨

الفصل الأول

مدرسة شارتر

ترى كيف تفسر تلك السورة الفلسفية العجيبة التي بدأت بأنسلم، وروسلان، وأبلار، وبلغت ذروتها في ألبرتس مجنس والقديس تومس أكوناس؟ لقد كان لهذه السورة، كما هي العادة، كثير من الأسباب: منها أن الشرق اليوناني لم يكن قد تخلى قط عن تراثه الثقافي القديم، بل كانت كتب الفلاسفة الأقدمين تدرس في كل قرن في القسطنطينية، وأنطاكية، والإسكندرية؛ وكان رجال أمثال ميخائيل بسلس Miehael Psellus، ونقفورس بلميدس Nicephorus Blemydes (١١٩٧؟ — ١٢٧٢)، وجورج بشميرس George Pachymeres (١٢٤٢؟ — ١٣١٠)، وبارهبريوس Bar Hebareus السوري (١٢٢٦؟ — ١٢٨٢) كان رجال من أمثال هؤلاء مطلعين على مؤلفات أفلاطون وأرسطو بلغتها الأصلية؛ وأخذ المعلمون اليونان يدخلون بلاد الغرب كما أخذت المخطوطات اليونانية تدخلها تدريجاً. وحتى في تلك البلاد نفسها كان قليل من التراث اليوناني قد بقي بعد العاصفة البربرية؛ فقد بقي الجزء الأكبر من **أرغنون** أرسطو في المنطق، ومن كتابي **مينون وتيماوس** لأفلاطون، وكانت

الصورة التي رسمها هذا الفيلسوف لإر Er هي التي لوّنت خيال المسيحيين عن الجحيم . وقد جاءت الموجات المتتابعة من الكتب العربية واليونانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بما تحتويه الفلسفتان اليونانية والإسلامية من أفكار جديدة تتحدى الأفكار المسيحية وتختلف عنها اختلافاً يهدد باكتساح لاهوت العالم المسيحي كله إذا لم تنشئ المسيحية لها فلسفة مناهضة لها . على أن هذه المؤثرات لم تكن تستطيع أن تنشئ تلك الفلسفة المسيحية إذا كان الغرب قد ظل فقيراً كما كان ؛ أما الذي جعل لهذه العوامل أثراً فعالا فهو نمو الثروة حين أخذت الزراعة تغزو القارة الأوربية ، واتسع نطاق التجارة والصناعة ، وتكاثرت الأموال وما تؤديه من خدمات . وتعاونت هذه النهضة الاقتصادية مع تحرر المدن ذات الحكم الذاتي ، وقيام الجامعات ، وإحياء الآداب اللاتينية والقانون الروماني ، وتقنين الشريعة الكنسية ، ومجد الفن القوطي ، وازدهار الأدب الخيالي ، و « علم » الشعراء الغزلين « المرح » ، واستيقاظ العلوم ، وبعث الفلسفة ، تعاونت هذه كلها على إيجاد « نهضة القرن الثاني عشر » .

وجاء في أعقاب الثروة الفراغ ، والدرس ، والمدارس ، وكانت كلمة Scholê تعني في أول الأمر الفراغ . وكان الأسكلاستكوس scholasticus هو المدرس أو الأستاذ ، كما كانت عبارة « الفلسفة المدرسية » تعني الفلسفة التي تدرس في مدارس العصور الوسطى الثانوية أو في الجامعات التي نشأت كثرتها الغالبة من هذه المدارس الثانوية . كذلك كانت « الطريقة المدرسية » هي أسلوب الجدل الفلسفي والعرض الفلسفي اللذين يستخدمان في هذه المدارس . وإذا ما استثنينا فصول أبلار التي كانت في باريس أو قريبة منها ، فقد كانت مدرسة شارتر أكثر هذه المدارس نشاطاً وأعظمها شهرة ؛ ففيها امتزجت الفلسفة بالأدب ، وكان في وسع من يتخرج فيها أن يكتب في المسائل الخفية العويصة بالوضوح والظرف اللذين أصبحا من التقاليد المشرّفة في فرنسا . وكان أفلاطون ، الذي جعل هو

أيضاً الفلسفة مفهومة مستساغة ، من الفلاسفة المحببين هناك ؛ وفيها سُوِّىَ النزاع القائم بين الواقعيين والقائلين بأن الكليات إن هى إلا ألفاظ وليس لها وجود حقيقى فى العقل أو خارجه ، سوّى هذا النزاع بقولهم إن الكليات « الحقيقية » هى بعينها الأفكار الأفلاطونية ، أو النماذج الأولى الخلاّقة التى فى عقل الله . وبلغت مدرسة شارتر ذروة نفوذها فى عهد برنار أحد مواطنيها (حوالى ١١١٧) وأخيه ثيودريك (حوالى ١١٤٠) ؛ وكان ثلاثة من خريجيها يسيطرون على ميدان الفلسفة بأوربا الغربية فى النصف القرن التالى لحياة أبلار وهم : وليم الكوشى ، وجلبرت ده لابُرِّيه ، ويوحنا السلزبرى .

ويتبين الإنسان اتساع مجال الفلسفة المدرسية بوضوح عجيب فى سيرة وليم الكوشى (١٠٨٠ ؟ — ١١٥٤) . فقد كان رجلا ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوش ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريقى ، بل وحتى دمقريطس نفسه[١] . وقد افتتن بالنظرية الذرية ، واستنتج أن جميع أعمال الطبيعة تبدأ فى الأصل باجتماع الذرات ، ويصدق هذا على أرق عمليات الجسم البشرى وأعظمها خطراً[٢] . والنفس عنده هى اتحاد العناصر الجوهرية فى الفرد مع النفس الكونية أو العنصر الجوهرى فى العالم[٣] . ونهج وليم نهج أبلار فى إحدى المسائل الخفية الشديدة الخطورة فكتب يقول : « فى الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهى التى يسميها القديسيون أقانيم ثلاثة[٤] » . وهو يفهم القصة القائلة إن حواء خلقت من ضلع آدم فهماً يعتمد على المجاز الواسع . وهو يرد بعنف على شخص ما يدعى كرنفيوس Cornifius وغيره من « الكرنفيوسيين » الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن فى الإيمان الساذج ما يكفيهم . « فهم لا يطيقون أن يبحث غيرهم شيئاً ما ، ويريدون منا أن نؤمن كما يؤمن السذج والهمج من غير أن نسأل عن السبب ، كى يكون لهم رفاق فى الجهالة . . . ولكنا نقول : إن من واجبنا أن نبحث لكل شىء عن علة ، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة

وكلنا الأمر إلى ... إلى الروح القدس وإلى الإيمان[٥] ... (ويقولون) : لسنا نعرف كيف يكون هذا ، ولكننا نعرف أن فى قدرة الله أن يفعله . ألا أيها البلهاء المساكين ! إن فى قدرة الله أن يخلق غراباً من شجرة ، ولكن هل فعل الله هذا فى يوم من الأيام ؟ فعليكم إذن أن تدلوا بعلة لوجود شىء ما بالصورة التى هو عليها ، وإلا فامتنعوا عن الاعتقاد بأنه على هذه الصورة...[٦] إننا لا نسرنا الكثرة ، وإنما تسرنا القلة المختبرة ، ونحن نكد فى البحث عن الحقيقة وحدها .

لقد كان هذا القول أكثر مما يطيقه وليم التيرى ، ولهذا بادر الراهب المتحمس ، الذى أغرى القديس برنار بمهاجمة أبلار ، بالطعن على هذا الثائر الجديد صاحب النزعة العقلية والتنديد به عند رئيس دير كليرفو اليقظ المترقب . ورجع وليم الكوشى عن إلحاده ، ووافق على أن حواء خلقت من ضلع آدم[٨] ، وهجر الفلسفة لأنها مغامرة لا يتناسب فيها الكسب مع ما يتعرض له صاحبها من أخطار ، واشتغل مربياً لهنرى پلانتجنت Henry Plantagenet الإنجليزى واختفى اسمه من التاريخ .

وكان جلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porrée (١٠٧٠ — ١١٥٤) أكثر من وليم توفيقاً فى هذا العمل المفعم بالأخطار . فقد تعلم ودرس فى شارتر وفى باريس ، وصار أسقفاً لپتيير Potiers ووضع كتابا ذا ستة مبادئ Liber sex prencepiorium ظل ستة قرون النص الذى يرجع إليه فى علم المنطق ؛ ولكن التعليق على بؤثيوس قد فهم منه أن طبيعة الله بعيدة عن إدراك العقل البشرى بعداً يتحتم معه أن يؤخذ كل قول عنها على أنه تشبيه أو مجاز لا أكثر ، ثم إنه أكد وحدة الله تأكيداً يجعل التثليث يبدو وكأنه مجاز لا غير[٩] . وفى عام ١١٤٨ اتهمه القديس برنار بالإلحاد ، وإن كان وقتئذ فى سن الثانية والسبعين ، وحوكم على هذه التهمة فى أوكسير Auxerre ، وحير

معارضيه بما أورده من فروق دقيقة ، وعاد إلى موطنه غير مدين . وحوكم مرة أخرى بعد سنة من ذلك الوقت ، ورضي أن تحرق بعض فقرات انتزعت من كتبه ، ولكنه عاد حراً إلى أبرشيته ؛ ولما طلب إليه أن يناقش آراءه مع برنار رفض الاقتراح وقال : إن هذا القديس يعوزه التبحر في اللاهوت إلى حد لا يستطيع معه فهم آرائه[١٠] ، ويقول عنه يوحنا السلزبري : إن جلبرت « ناضج في الثقافة الحرة نضوجاً لا يفوقه فيه أحد من الناس[١١] » .

وكان في مقدور يوحنا أن يقول هذا القول عن نفسه ، لأنه كان من بين الفلاسفة المدرسيين أوسعهم ثقافة وأكثرهم تهذيباً ، وأبلغهم قلماً . وكان مولده في سلزبري حوالي عام ١١١٧ . وتتلمذ على أبلار في جبل القديس چينيف ، وعلى وليم الكوشي في شارتر ، وعلى جلبرت ده لاپريه في باريس ، ثم عاد إلى انجلترا في عام ١١٤٩ ، وعمل أميناً لاثنين من رؤساء أساقفة كنتربري هما : ثيوبولد وتومس أبكت ، وقام لهما بعدة مهام دبلوماسية ، زار فيها إيطاليا ست مرات ، وأقام في البلاط البابوي ثماني سنين ، وشارك بكت في فرنسا ، وشاهد مقتله في كتدرائيته ، وعين أسقفاً لشارتر في عام ١١٧٨ ، وتوفي في عام ١١٨٠ . وكانت حياته مليئة بالجد ، متعددة النواحي ، عمل فيها هذا الرجل على وضع المنطق تحت مخبار تجارب الحياة ودراسة الفلسفة بتواضع منقطع النظير . ولما تقدمت به السن ورجع إلى آراء المدارس الفلسفية المختلفة أدهشه أن يراها لا تزال تجادل في الفرق بين الاسمية والواقعية : « ليس في مقدور الإنسان أن يتجنب هذه المسألة ، ولقد هرم العالمَ وهو يبحثها ، واستغرق بحثها من الوقت أكثر مما استغرقه القياصرة في فتح العالمَ وحكمه ... وأياً كانت النقطة التي يبدأ منها النقاش ، فإنه يعود على الدوام ويرتبط بتلك المسألة ، فهي أشبه بجنون روفس Rofus بنيڤيا Naevia « إنه لا يفكر في شيء آخر ، ولا يتحدث عن شيء آخر ، ولو أن نيڤيا لم يوجد لظل رفس أبكم لا يبين »[١٢] .

وحسم يوحنا نفسه الأمر من أيسر السبل حين قال : إن الكلى مدرك عقلى ييسر ربط الصفات المشتركة للكائنات المفردة ؛ وكان چون لا أبلار هو الذى اقترح النظرية القائلة إن الكليات توجد فى العقل مستقلة عن أفرادها المجسمة المادية .

وألف فى تاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية كتاباً بلغة لاتينية هى أحسن ما كتب منذ ظهرت رسائل ألكوين — ويعدّ هذا الكتاب شاهداً عجيباً على اتساع الأفق العقلى فى العصور الوسطى اتساعا مطرداً ؛ وظهر بعده كتاب المتالوچيكون Metalogicon الذى خفف فيه علم المنطق بما أضافه من ترجمة لنفسه ، ثم كتاب پوليكراتكس Polycraticus (١١٥٩) الذى وضع له عنواناً ثانويا غريبا « فى *سخافات رجال الحاشية وآثار الفلاسفة* » De nugis Curialium et vistigüo philosophorum . وكان هذا الكتاب أول مقال فى أدب العالم المسيحى عن الفلسفة السياسية . وهو يكشف عن أخطاء الحكومات القائمة فى أيامه ورذائلها ، ويرسم صورة للدولة المثالية ، ويذكر صفات الرجل المثالى ، ثم يواسينا بقوله : « كل شىء يشترى علناً ، إلا إذا كان تواضع البائع هو الذى يمنع هذا الشراء ، إن نار الجشع الدنسة تهدد مذابح الكنائس نفسها ... وإن أحبار الكرسى الرسولى نفسه لايضنون بأيديهم عن أن تدنسها العطايا ، بل إنهم فى بعض الأوقات يجوسون خلال الأقاليم فى عربدة جنونية »[١٣] . وإذا جاز لنا أن نصدق روايته التى نقلنا منها فقرات من قبل فإنه أبلغ البابا هدريان الرابع أن للكنيسة نصيبا موفوراً فيما يسود تلك الأيام من فساد ، وأن البابا أجابه بما معناه أن الآدميين سيظلون آدميين مهما كانت أثوابهم ؛ ويضيف يوحنا إلى ذلك تلك العبارة الحكيمة : « فى منصب من مناصب بيت الله (الكنيسة) إذا كان بعض رجالها يتكاســلون ، فإن غيرهم يضافون إليهم ليؤدوا

عملهم . ولقد شاهدت من بين الشمامسة ، ورؤساء الشمامسة ، والأساقفة ، والأحبار من يقومون بما يوجبه عليهم الله بجد وإخلاص يستبين الإنسان معهما أنهم أوتوا من مزايا الإيمان وفضائله أن من عهدوا إليه بحرث أبينا قد أحسنوا كل الإحسان »[١٤] . وهو يرى أن الحكومة المدنية أكثر فساداً من رجال الدين ، وأن من الخير لحماية الخلق أن يكون للكنيسة سلطان أخلاقى على جميع العالم ودوله[١٥] .

وأوسع الفقرات شهرة فى كتاب پوليكراتكس هى التى تشير إلى قتل الطغاة .

« إذا حاد الأمراء شيئاً فشيئاً عن الطريق الحق ، فليس من الخير فى شىء أن يطاح بهم كلية على الفور ، بل يكفى لومهم على ظلمهم بتعذيرهم والصبر عليهم ، حتى يتبين أخيراً أنهم معاندون مصرون على فعل الشر ... أما إذا تعارض سلطان الحاكم مع الأوامر الإلهية وأراد أن يحملنى على أن أشاركه فى حربه على الله ، فإنى لا أتردد قط فى أن أرد عايه بقولى إن الله يجب أن يفضل على كل إنسان على ظهر الأرض أيا كان قدره ... وليس قتل المستبد مشروعا فحسب ، بلى هو حق وعدل »[١٦] .

كانت هذه سورة من چون مهيجة مثيرة ، أضاف إليها فقرة أخرى فى موضع بعدها من الكتاب نفسه « بشرط ألا يكون القاتل مرتبطا بالولاء للمستبد »[١٧] . وهى جملة فيها نجاة للمستبدين لأن كل حاكم يلزم رعاياه بأن يقسموا يمين الولاء له . وفى القرن الخامس عشر دافع جان بتى (Jean Petie) عن اغتيال لويس صاحب، أورليان بعبارات نقلها عن الپوليكراتكس ، ولكن مجلس كنستانس تغلب على پتى بحجة أن الملك نفسه لايحق له أن يدين متهما دون أن يدعوه للمثول أمامه ويحاكمه .

ونحن « المحدثين » لانستطيع أن نتفق على الدوام مع « المحدثين » فى القرن الثانى عشر الذين كان يوحنا واحداً منهم ؛ وهو يقول من آن إلى آن كلاما

يبدو لنا أنه هراء ، ولكن هراءه نفسه مصوغ فى أسلوب من التسامح والظرف لا نكاد نعثر على ما يماثله بعدئذ قبل إرزمس Erasmus . وكان يوحنا أيضاً من الإنسانيين ، يحب الحياة أكثر مما يحب الخلود ، ويعشق الجمال والرحمة أكثر مما يعشق العقائد التحكمية فى أى دين ، ويقتبس من الآداب اليونانية — الرومانية القديمة وهو منشرح مغتبط أكثر منه حين يقتبس من صحف الكتاب المقدس . وهو يضع ثبتاً « بالأشياء التى يصح للرجل الحكيم أن يشك فيها dubitabilia ، ومنها طبيعة النفس ومنشؤها ، وخلق العالم ، والعلاقة بين علم الله السابق وحرية الإرادة . ولكنه كان أحصف من أن يندفع إلى الإلحاد ، بل كان يسير وسط الجدل القائم فى أيامه بحصافة دبلوماسية وسحر خلاب . ولم يكن يرى أن الفلسفة صورة من صور الحرب ، بل كان يراها بلسماً للسلام ، ويقول إن الفلسفة قوة ملطفة معدلة فى الأشياء جميعها ، وإن من وصل بطريق الفلسفة إلى الإحسان والمحبة فقد بلغ هدفها الحق »(١٨) .

الفصل الثاني

أرسطو في باريس

نشر بطرس لمبارد أحد تلاميذ أبلار في عام ١١٥٠ كتابا جمع فيه آراء أبلار مطهرة من الإلحاد ، وكان في الوقت عينه بداية للفلسفة المدرسية الرسمية ؛ وكان بطرس هذا ، كما كان أنسلم ، وآرنلدا البريشياني ، وبنوفنتورا ، وتومس أكوناس ، إيطاليًّا جاء إلى فرنسا ليواصل العمل الراقي في اللاهوت والفلسفة . وكان يحب أبلار ويسمى كتابه **نعم ولا** كتاب صلواته ، ولكنه إلى هذا كان يريد أن يكون أسقفاً ، وقد طبق في كتابه المسمى *أربعة كتب في الآراء* Sententearum libr IV طرائق نعم ولا بعد أن طهرها : وذلك بأن وضع تحت كل سؤال من أسئلة اللاهوت طائفة من العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس ومن كتب آباء الكنيسة بعضها يؤيده وبعضها يعارضه ؛ ولكن بطرس هذا جد مخلصا لكي يحيل كل الآراء المعارضة إلى نتائج تتفق مع الدين القويم . وقد عين أسقفاً لباريس وظل كتابه مدى أربعة قرون النص المحبب في برامج التعليم الديني إلى حد دعا روجر بيكن أن يأخذ عليه أنه حل محل الكتاب المقدس نفسه ؛ ويقال إن أربعة من علماء اللاهوت ومنهم ألبرت وتومس كتبوا شروحا على هذا الكتاب .

وإذا كان كتاب لمبارد قد أيد سلطان الكتب المقدسة والكنيسة على مطالب العقل الفردي ، فقد حال مدى نصف قرن دون تقدم النزعة العقلية ؛ ولكن حادثة عجيبة وقعت في تلك الخمسين عاما بدلت علم اللاهوت ؛ ذلك أن دخول أفكار أرسطو في ثوبها اللاتيني إلى أوربا بعد عامي ١١٥٠ و ١٢٥٠ دفع علماء الدين الكاثوليك إلى أن يحاولوا التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليونا

وعلم اللاهوت المسيحي ، كما أن ترجمة مؤلفات أرسطو العلمية وفيما وراء الطبيعة إلى اللغة العربية دفعت المفكرين المسلمين إلى أن يحاولوا التوفيق بين العقائد الإسلامية والفلسفة اليونانية . وكما أن اصطدام آراء أرسطو بعقول العبرانيين فى أسبانيا قد أخذ يدفع ابن داود وابن ميمون فى القرن الثانى عشر لأن يحاولا التوفيق بين اليهودية والتفكير الهليني ، وإن كان أرسطو قد بدا فوق متناول سلطان الكتب المقدسة ، فقد اضطر علماء الدين المسيحى إلى استخدام لغة العقل والمنطق وأسلحتهما . ولو أن الفليسوف اليونانى كان حيا فى هذه الأثناء لتبسم وهو يشهد كم من الأديان التى زلزلت العالم تجل آراء .

ولكن ليس من حقنا أن نغالى فى تقدير أثر المفكرين اليونان فى ازدهار الفلسفة أثناء تلك الفترة من الزمن . ذلك أن انتشار التعليم ، وما كان للجدل والحياة الذهنية من قوة حيوية فى المدارس والجامعات خلال القرن الثانى عشر ، والحافز القوى الذى كان لرجال من أمثال روسلان ، ووليم الشمبوكسى ، وأبلار ، ووليم الكنشيسى ، ويوحنا السلزبرى ، واتساع آفاق الفكر بتأثير الحروب الصليبية ، وازدياد علم الأوربيين بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامى فى الشرق والغرب — كل هذا كان من شأنه أن يخلق رجالا على شاكلة أكوناس ولو ظل أرسطو مجهولا ، والحق أن منشأ الجد الذى اتصف به أكوناس لم يكن حب أرسطو بل خشية ابن رشد . ذلك أن الفلاسفة العرب واليهود أخذوا منذ القرن الثانى عشر يؤثرون فى التفكير المسيحى فى أسبانيا ، فقد دخل الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن جبيرول ، وابن رشد ، وابن ميمون أوربا اللاتينية من نفس الأبواب التى دخلها منها أفلاطون ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس .

وكان غزو التفكير الأجنبى على هذا النحو من أقوى الصدمات الذهنية للعقل الغربى الذى لم ينضج بعد، فلا عجب والحالة هذه إذا قوبل فى بادئ الأمر

بالعمل على قمعه أوتأخيره ، بل إن علينا أن نعجب من قوة التكييف المدهشة التي مكنت الدين الجديد من امتصاص المعارف القديمة - الجديدة . وكان الأثر الأول لكتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ، ولشروح ابن رشد ، وهي الكتب التي وصلت إلى باريس في العشر السنين الأولى من القرن الثالث عشر ، أن زلزلت عقائد كثيرين من الطلاب ، وأن قام من العلماء أمثال أملريك البيني Amalric of Bène وداود الدينتي David of Dinant يهاجمون بعض العقائد المسيحية الجوهرية كعقيدة خلق العالم ، والإيمان بالمعجزات ، والخلود الفردي . وظنت الكنيسة أن تسرب الأفكار العربية - اليونانية إلى جنوبي فرنسا أدّى إلى تحلل الطبقات المتعلمة من الاستمساك بالدين القويم ، وأضعف من عزمها على مقاومة إلحاد الألبجنسيين . ولهذا اجتمع مجلس كنسي في باريس عام ١٢١٠ وأدان أملريك وداود وحرّم قراءة كتب أرسطو فيما « بعد الطبيعة والفلسفة الطبيعية » كما حرم قراءة « شروحها » . وإذ كان هذا التحريم قد كرره مندوب من قِبَل البابا في عام ١٢١٥ فإن لنا أن نفترض أن مرسوم عام ١٢١٠ قد أغرى الناس بقراءة هذه المؤلفات التي لولا هذا التحريم لكانت عندهم ممقوتة . وأجاز مجلس لاتران الرابع قراءة كتابي أرسطو في المنطق والأخلاق ولكنه حرم غيرهما من كتبه . وفي عام ١٢٣١ عفا جريجوري التاسع عن الأساتذة والعلماء الذين عصوا هذه المراسيم ، ولكنه جدّد المراسيم « إلى أجل موقت حتى تبحث هذه الكتب وتطهر مما فيها » . ويبدو أن الثلاثة الأساتذة الباريسيين الذين عينوا للقيام بمهمة تطهير كتب أرسطو قد تركوا هذا العمل . ولم تنفذ مراسيم التحريم زمناً طويلا ، لأن كتابي الطبيعة وماوراء الطبيعة (الفيزيقا والميتافيزيقا) وغيرهما من كتب أرسطو كانا يقرآن في جامعة باريس عام ١٢٥٥ (١٩) . وأعاد إربان الرابع أمر التحريم في عام ١٢٦٣ ؛ ولكن يبدو أن تومس أكويناس أكد له أن كتب أرسطو يمكن أن تطهر ،

ولم يعمل إربان على تنفيذ تحريمه . وانتهى الأمر فى عام ١٢٦٦ إلى أن كان مبعوثو إربان الخامس فى باريس يطلبون إلى جميع الطلاب المتقدمين لنيل درجة فى الآداب دراسة جميع مؤلفات أرسطو دراسة وافية شاملة[٢٠] .

وأحدثت المشكلة التى واجهت العالم المسيحى اللاتينى فى الربع الأول من القرن الثالث عشر أزمة كبرى فى تاريخ الدين المسيحى . ذلك أن التعطش إلى الفلسفة الجديدة كان وقتئذ حمى ذهنية لا يمكن السيطرة عليها ؛ ولهذا لم تواصل الكنيسة جهودها لفرض هذه السيطرة ، بل إنها بدلا من هذا وجهت قواها لحصار الغزاة وامتصاصهم فيها ، فأخذ رهبانها الأوفياء يدرسون هذا اليونانى المدهش الذى قلب ثلاثة أديان رأساً على عقب ؛ حتى أن الرهبان الفرنسيس وهم الذين يفضلون أوغسطين على أرسطو ، رحبوا بالإسكندر الهاليسى الذى بذل أول الجهود للتوفيق بين « الفيلسوف » والمسيحية . وبذل الرهبان الدمنيكيون كل تشجيع مستطاع لألبرتس وتومس أكوناس فى هذا المشروع عينه ؛ ولما أن أتم هؤلاء الرجال الثلاثة عملهم بدا أن أرسطو لم يعد خطراً على المسيحية .

الفصل الثالث

الزنادقة

إذا شئنا ألا نفهم الفلسفة المدرسية على أنها تكديس لا طائل من ورائه للتجريدات المملة. وجب علينا ألا ننظر إلى القرن الثالث على أنه الميدان الذى يصول فيه الفلاسفة المدرسيون ويجولون غير منازعين ، بل أن ننظر إليه على أنه ميدان اصطرع فيه مدى سبعين عاما المتشككة ، والماديون ، والأحديون القائلون بوحدة الوجود ، والجاحدون بالله ، اصطرع فيه هؤلاء مع علماء اللاهوت المسيحيين للاستحواذ على العقل الأوربى .

ولقد لاحظنا من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضئيلة من سكان أوربا ، وزادت هذه الأقلية فى القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية . ولما تبين الأوربيون وجود دين آخر عظيم ، أخرج رجالا عظاما أمثال صلاح الدين والكندى ، وفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد ، كان ذلك فى حد ذاته كشفاً اضطربت له نفوسهم ؛ ذلك أن مقارنة الأديان لا تنفع الدين أى نفع . ومن الشواهد على هذا ما نقله ألفنسو الحكيم Alfonso the Wise (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عن انتشار عدم الاعتقاد بالخلود بين مسيحيي أسبانيا[٢١] ؛ وليس ببعيد أن تكون آراء ابن رشد قد تسربت إلى الشعب نفسه . وكان فى جنوبى فرنسا فى القرن الثالث عشر جماعة من أصحاب النزعة العقلية القائلين بأن الله بعد أن خلق العالم تركه تسيره القوانين الطبيعية ، وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة ، وأن الصلاة لا تستطيع تغيير مسلك العناصر ، وأن الأنواع الجديدة لم تخلق خلقاً خاصاً وإنما وجدت بالتطور الطبيعى[٢٢] . وكان بعض أصحاب التفكير الحر

— وبعض القساوسة أنفسهم — ينكرون تحول العشاء الربانى إلى جسم المسيح[٢٣] . وأخذ أحد المدرسين فى أكسفورد يشكو قائلا « إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند المذبح »[٢٤] . ويقول ألان الليلى Alain of Lille (١١١٤ — ١٢٠٣) إن كثيرين من المسيحيين الزائفين فى وقتنا هذا ينكرون البعث لأن الروح تفنى مع الجسم » ؛ وهم يؤيدون اعتقادهم بأقوال أبيقور ولكريشيوس . ويعتنقون مذهب الجوهر الفرد ، ويخرجون من هذا إلى أن خير ما يفعله الإنسان هو أن يستمتع بالحياة على ظهر الأرض[٢٥] .

ويبدو أن انتشار الصناعة فى حواضر فلاندرز قد عمل على نشر الإلحاد . وشاهد ذلك أننا نجد داود الدينتى فى بداية القرن الثالث عشر وسيجر البرابنتى قرب اختتامه يتزعمان حركة تشكك قوية . وكان داود (حوالى ١٢٠٠) يدرس الفلسفة فى باريس ، ويمتع إنوسنت الثالث بجدله الدقيق[٢٦] ، ويعبث بضرب مادى من عقيدة الأحدية مضمونه أن الله ، والعقل ، والمادة الخالصة (المادة قبل أن تتشكل) أصبحت كلها وحدة فى ثالوث جديد[٢٧] وحرم كتابه الكواترنولى Quaternuli ، الذى لا وجود له الآن ، وأحرق بأمر مجلس باريس المقدس الذى عقد فى عام ١٢١٠ . وندد هذا المجلس نفسه بأحدية قال بها أستاذ آخر من جامعة باريس هو أملريك البينى ، ومضمونها أن الله والخليقة شىء واحد . وأرغم أملريك على أن يرجع عن قوله ومات ، كما يقول ، من حسرة الخيبة (١٢٠٧)[٢٨] . وأمر المجلس بأن تنبش عظامه وتحرق فى ميدان باريس إرهاباً لأتباعه الكثيرين . غير أنهم ظلوا مستمسكين بآرائهم على الرغم من هذا ، ووسعوا نطاق آرائه فأنكروا وجود الجنة والنار ، وقوة القربان المقدس . وحرق عشرة من أتباع أملريك هذا أحياء (١٢١٠)[٢٩] .

وازدهر التفكير الدينى الحر فى جنوبى إيطاليا الذى كان يحكمه فردريك الثانى ، حيث شب القديس تومس ، وحيث أعلن الكردنال أبلدينى صديق

فردريك جهرة اعتناقه المذهب المادى[٣٠] . أما فى إيطاليا الشمالية فإن عمال الصناعة ، ورجال التجارة والمال ، والمحامين ، وأساتذة الجامعات اندفعوا إلى حد ما فى تيار المتشككين . واشتهرت جامعة بولونيا بعدم مبالاتها بالدين ، فكانت المدارس الطبية فيها وفى غيرها من المدن مراكز للشك ، وفيها نشأ القول المأثور « حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين ubi tres medici duo athei »[٣١] ، وكادت آراء ابن رشد حوالى عام ١٢٤٠ تصبح الطراز العصرى بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين فى إيطاليا . وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعى يحكم العالم دون تدخل من قبل الله ؛ وإن العالم مخلد كالله ؛ وإنه لا يوجد إلا نفس واحدة خالدة هى « عقل » الكون « الفعال » ، وإن النفس الفردية ليست إلا مظهراً أو صورة عابرة زائلة من هذا العقل ، وإن الجنة والنار قصص اخترعت لتغرى العامة أو ترهبهم فيحسن سلوكهم[٣٢] . وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد أن يستر ضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة : فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أو حسب التعليل الطبيعى ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحى ؛ وأقروا فى الوقت نفسه أنهم يؤمنون بمقتضى الدين بما يشكون فيه حسب قواعد العقل والمنطق . وهذه النظرية تنكر الفرض الأساسى من فروض الفلسفة المدرسية — وهو إمكان التوفيق بين العقل والدين .

وكانت جامعة بدوا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزاً مضطرباً لفلسفة ابن رشد . ونذكر من الشواهد الدالة على هذا الاضطراب أن بطرس الأبانوى Peter of abano (حوالى ١٢٥٠ — ١٣١٦) أستاذ الطب فى جامعة باريس ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة بدوا ، ألّف كتاباً يراد به التوفيق بين النظريات الطبية والفلسفية . وقد اكتسب مكانة

ملحوظة فى تاريخ العلوم الطبيعية لأنه قال فى دروسه إن المخ هو مصدر الأعصاب وإن القلب مصدر الأوعية الدموية ، ولأنه قدّر طول السنة تقديراً مدهشاً فى وقته وهو ٣٦٥ يوما ، وست ساعات وأربع دقائق(٣٤) . وكان لثقته بالفلسفة يُرجع العلل كلها تقريبا لقوة النجوم وحركاتها ، وكاد يبعد الله عن حكم العالم(٣٥) . واتهمه رجال محاكم التفتيش بالإلحاد ؛ غير أن المركيز أزو دست Azzo d'Este والبابا هونوريوس الرابع كانا من بين مرضاه فبسطا حمايتهما عليه . ثم اتهم مرة أخرى فى عام ١٣١٥ ، ونجا هذه المرة من المحاكمة بأن مات ميتة طبيعية . وحكم قضاة محكمة التفتيش بأن تحرق جثته فى ميدان الحريق ، ولكن أصدقاءه أخفوا رفاته إخفاء محكما اضطرت المحكمة معه أن تنفذ حكمها بحرق صورة له(٣٦) .

ووجد تومس أكوناس بعد انتقاله من إيطاليا إلى باريس أن فلسفة ابن رشد قد استحوذت من زمن بعيد على جزء كبير من الجامعة ، ويؤيد هذا ما لاحظه وليم الأوفرنى فى عام ١٢٤٠ من أن فى الجامعة « كثيرين من الرجال يلتهمون هذه النتائج (من فلسفة ابن رشد) من غير تمحيص » ؛ وأن تومس نفسه وجد فلسفة ابن رشد منتشرة بين شباب الجامعة(٣٧) . ولعل ما نقله تومس عن هؤلاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع (١٢٥٦) فكلف ألبرتس مجنس أن يكتب رسالة **فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد** . ولما جاء تومس ليدرس فى باريس (١٢٥٢ – ١٢٦١ ، ١٢٥٩ – ١٢٧٢) كانت حركة الفلسفة الرشدية قد بلغت ذروتها ؛ وقد درس زعيمها فى سيجر البرابنتى Siger of Brabant فى هذه الجامعة من ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ . وظلت فلسفة ابن رشد والكثلكة تتخذان من جامعة باريس ميداناً لاقتتالها جيلا من الزمان .

وكان سيجر (١٢٣٥؟–١٢٨١) وهو قس من غير رجال الأديرة متجراً فى العلم ؛ وحتى الأجزاء القليلة الباقية من مؤلفاته تنقل عن الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن جبيرول ، وابن ميمون . ويقول سيجر فى سلسلة

من الشروح والتعليقات على أرسطو ، وفى مقالة جدلية ضد رجلى **الفلسفة الذائعى الصيت ، ألبرت وتوماس** ، يقول سيجر فى هذه وتلك إن ألبرت وتوماس يفسران الفلسفة تفسيراً خاطئاً وإن ابن رشد يفسرها تفسيراً صحيحاً (٣٩) . وهو يستخلص ما يستخلصه ابن رشد من أن العالم أزلى ، وأن القانون الطبيعى لا يتبدل ، وأن نفس النوع وحدها هى التى تبقى بعد موت الفرد . ويقول سيجر إنَّ الله هو العلة النهائية ، لا العلة الفعالة ، للأشياء — وهو هدف الخليقة لا علتها . وقد افتتن بالمنطق فقاده هذا الافتتان كما قاد ڤيكو Vico ونتشة إلى الإيمان بعقيدة تسلسل الحادثات تسلسلا لانهائياً فقال : بما أن جميع الحادثات الأرضية تحددها فى نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدود ، فإن كل تجمع لا بد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة فى زمن لانهائى ، تكراراً تعقبه حتما نفس النتائج التى أعقبته من قبل ؛ وبذلك تعود « نفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان »(٤٠) . وقد حرص سيجر على أن يضيف إلى هذا « ونحن نقول هذا أخذاً برأى الفيلسوف ، دون أن نقطع بصحته »(٤١) . وكان يضيف مثل هذا الاحتياط إلى كل رأى من آرائه الملحدة . ولم يكن يجهر بعقيدة الحقيقتين ؛ وكان يُعلِّم تلاميذه أن بعض النتائج تستتبعها آراء أرسطو ويستتبعها العقل ؛ فإذا كانت هذه النتائج تناقض العقائد المسيحية ، فإنه يؤكد إيمانه بعقائد الدين ، ويسمها هى وحدها ، دون الفلسفة ، بميسم الحق(٤٢) .

ويدل تقدم سيجر إلى المطالبة بأن يكون مديراً للجامعة على أنه كان له فيها أتباع كثيرون ، وإن لم يوفق فى طلبه هذا (١٢٧١) . وليس أدل على تمكن فلسفة ابن رشد فى جامعة باريس من تنديد إتين تمپييه Étienne Tempier أسقف باريس بهذه الحركة المرة بعد المرة . ففى عام ١٢٦٩ حكم بأن ثلاث عشرة

قضية من القضايا التي يعلمها في الجامعة بعض الفلاسفة مبادئ إلحادية لا تتفق مع الدين ، وهذه القضايا هي :

أنه لا يوجد في الناس كلهم إلا عقل واحد . . . وأن العالم أزلي . . . وأنه لم يوجد قط رجل أول . . . وأن النفس تفسد بفساد الجسم . . . وأن إرادة الإنسان تريد وتختار بحكم الضرورة ... وأن الله لا علم له بالحوادث الفردية . . . وأن أعمال الإنسان لا تسيطر عليها العناية الإلهية[٤٣] .

ويبدو أن مدرسة ابن رشد الفلسفية ظلت تعلم كما كانت تعلم من قبل ، وشاهد ذلك أن الأسقف أصدر في عام ١٢٧٧ ثبتاً بتسع عشرة ومائتي مسألة قرر رسميا أنها تسم القائلين بها بالإلحاد . وهذه المسائل ، على حد قول الأسقف ، كان يعلمها سيجر أو بوئيثوس الداشياوى Boethius of Dacia أو غيرهما من أساتذة جامعة باريس ومنهم القديس تومس نفسه . وكانت هذه المسائل التسع عشرة والمائتين تشمل التي حكم عليها في عام ١٢٦٩ وغيرها من المسائل الشبيهة بالأقوال الآتية :

أن عملية الخلق مستحيلة . . . أن الجسم إذا فسد (بالموت) لا يمكن أن يقوم بعدئذ بوصف كونه الجسم نفسه . . . أن من واجب الفيلسوف ألا يؤمن ببعث في المستقبل ، لأن هذا لا يمكن أن يمحصه العقل . . . أن أقوال علماء الدين قائمة على الخرافات . . . أن علوم الدين لا تضيف شيئاً ما إلى معلوماتنا . . . أن الدين المسيحي يقف في سبيل العلم . . . أن الإنسان يحصل على السعادة في هذه الحياة لا في غيرها . . . أن العقلاء في هذه الأرض هم الفلاسفة وحدهم . . . أنه ليس ثمة حالة أفضل من أن يجد الإنسان فراغاً للدراسة الفلسفية[٤٤] .

وأدانت محكمة التفتيش سيجر في شهر أكتوبر من عام ١٢٧٧ ؛ وقضى سنيه الأخيرة في إيطاليا سجيناً بأمر المحكمة الرومانية حتى اغتاله مغتال نصف مجنون في أرڤيتو Orvieto .

الفصل الرابع

تطور الفلسفة المدرسية

لم يكن الحكم على هذه القضايا الإلحادية يكفى لصد هذا الهجوم الشديد على الدين المسيحى . ذلك أن الشباب ثمل بخمر الفلسفة القوى . فهل كان كسب المعركة بالالتجاء إلى العقل ؟ لقد أقبل علماء الدين من الرهبان الفرنسيس والدمنيكيين ، والأحبار من غير الرهبان أمثال وليم الأوفر وهنرى الغنتى Henry of Ghent ، للدفاع عن المسيحية وعن الكنيسة ، كما كان المتكلمون من قبلهم يدافعون عن الإسلام ضد المعتزلة .

وقسم الدفاع نفسه إلى معسكرين رئيسيين : المعسكر الصوفى ـ الأفلاطونى ومعظم رجاله من الرهبان الفرنسيس ؛ والمعسكر العقلى — الأرسطوطاليسى ومعظم رجاله من الرهبان الدمنيكيين . أما البندكتيون أمثال هيو Hugh ورتشرد السانت فكتورى فقد كانوا يحسون أن خير دفاع عن الدين هو إدراك الإنسان المباشر وجود حقيقة روحية أعمق من كل تعمق ذهنى . وكان « المتزمتون » أمثال بطرس رجل بلوا Blois ، واستيفن رجل تورناى يقولون إن الفلسفة يجب ألا تبحث فى مسائل اللاهوت ، فإذا فعلت فعليها أن تتحدث وتسلك بوصفها خادمة للاهوت[٤٦] . ومن واجبنا أن نذكر أن هذا الرأى لم يكن يقول به إلا قسم من الجبهة المدرسية[٤٧] .

وعالج عدد قليل من الرهبان الفرنسيس أمثال اسكندر الهاليسى (١١٧٠ ؟ ـ ١٢٤٥) المسألة عن طريق العقل ، وحاولوا أن يدافعوا عن المسيحية باستخدام المصطلحات الفلسفية والأرسطوطاليسية ، ولكن معظم الرهبان الفرنسيس

لم يكونوا يثقون بالفلسفة ؛ وكانوا يحسون أن مغامرات العقل مهما تأت للكنيسة بالقوة والمجد إلى حين ، قد تفلت من السيطرة عليها فيما بعد ، وتبعد الناس عن الدين بعد أن تترك المسيحية ضعيفة لا نصير لها فى عالم جاحد فاسد الأخلاق . فكانوا لهذا يفضلون أفلاطون عن أرسطو ، وبرنار عن أبلار ، وأوغسطين عن أكوناس . وكانوا يعرفون النفس كما عرفها أفلاطون بأنها روح مستقلة تسكن الجسم وتسجن فيه ، وهالهم أن يروا تومس يأخذ بتعريف أرسطو للنفس بأنها « الصورة المادية » للجسم . وقد وجدوا فى أفلاطون نظرية للخلود غير الشخصى لا فائدة منها قط فى قمع غرائز الناس الحيوانية . واتبعوا رأى أوغسطين فوضعوا الإرادة فوق العقل فى الله وفى الإنسان على حد سواء ، وكان الهدف الذى يبتغونه هو الخير لا الحقيقة . وكانوا فى ترتيبهم للقيم يجعلون الصوفى أقرب من الفيلسوف لجوهر الحياة الخفى ومعناها .

وسيطر القسم الأفلاطونى — الأوغسطينى من جيش المدرسين على العلوم الدينية التقليدية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وكان أعظم الناطقين بلسان هذا القسم هو بونا فنتورا التقى — وهو رجل طيب القلب طارد الإلحاد ، وصوفى يكتب فى الفلسفة ، وعالم يستهجن العلم ، وصديق مدى الحياة ومعارض لتومس أكوناس ، ومدافع عن الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ومضرب المثل لهذا الفقر ، جمعت طائفة الرهبان الفرنسيس بإشرافه ورعايته قدراً كبيراً من الثروة الجماعية . وقد ولد چيوڤنى دى فدانزا Giovanni di Fidanza فى تسكانيا عام ١٢٢١ ثم أصبح اسمه لسبب لا نعرفه بونافنتورا — الحظ الحسن . وكاد يموت وهو صغير من أحد أمراض الأطفال ، وأخذت أمه تصلّى إلى القديس فرانسس ليمنّ عليه بالشفاء ؛ وأحس چيوڤنى بعدئذ بأنه مدين بحياته إلى هذا القديس . ولهذا انضم إلى أتباعه وأرسل إلى باريس ليدرس على الإسكندر الهاليسى ، ثم شرع فى عام ١٢٤٨ يعلّم اللاهوت فى الجامعة ، واختير فى عام ١٢٥٧ ،

وهو لا يزال شابا فى السادسة والثلاثين من عمره ، راعيا عاما لطائفة الرهبان الفرنسيس ، فلم يدخر وسعا فى إصلاح ما دبّ فى الطائفة من تراخ ، ولكن دماثة أخلاقه لم تمكنه من النجاح ، وإن كان هو نفسه يحيا حياة الزاهد البسيطة ؛ ولما جاءه الرسل يبلغونه أنه اختير كردنالا وجدوه يغسل الصحاف ، ومات بعد عام واحد (١٢٧٤) من فرط الإجهاد .

وكانت كتبه جيدة الأسلوب ، واضحة موجزة . وكان يتظاهر بأنه جامع لها لا أكثر ، ولكنه بعث فى كل موضوع مسه بقلمه روح النظام ، والحماسة ، والتواضع الذى يستل السخائم . وكان كتابه **القول الموجز** خلاصة للاهوت المسيحى تثير الإعجاب ، كما كان **الحديث المفرد** ، و **رحلة العقل إلى الله** درّتين فى تاج التقى الصوفى . ومن أهم مبادئه أن المعرفة الحقة لا تأتى عن طريق إدراك الحواس للعالم المادى بل تأتى بإدراك النفس للعالم الروحى عن طريق اللقانة . وكان بونا فنتورا يحب القديس تومس ، ولكنه كان يعارض فى قراءة الفلسفة ، وينتقد فى صراحة بعض ما استخلصه أكوناس من النتائج . وكان يذكر الرهبان الدمنيكيين بأن أرسطو كان كافراً ، وأنه يجب ألاّ توضع أقواله فى منزلة أقوال آباء الكنيسة ، وتساءل هل فى مقدور فلسفة أرسطو أن تفسر حركات نجم من النجوم لحظة واحدة ؟(٤٨) . وهو يقول إن الله ليس نتيجة يصل إليها العقل عن طريق الفلسفة بل هو وجود حى ، الإحساس به خير من تحديده ، وإن الخير أسمى من الحقيقة ، والفضائل الساذجة تعلو على كل العلوم . ويقولون إن الأخ إجيديو Egidio هاله فى يوم من الأيام تبحر بونافنتورا فى العلم فقال له : « واحسرتاه ! ماذا نفعل نحن الجهلاء السذج كى نكون خليقين بحب الله ؟ » فأجابه بونا فنتورا بقوله : « أخى ، إنك لتعلم حق العلم أنه يكفيك حب الله » فرد عليه إجيديو بقوله : « فهل تؤمن إذن بأن فى مقدور امرأة ساذجة أن تسُرَّه كما يسُرُّه أستاذ فى اللاهوت ؟ » . فلما أجابه بنعم اندفع إجيديو إلى الطريق وصاح

فى امرأة متسولة : « ابتهجى ، لأنك إذا أحببت الله ، فقد يكون لك مكان فى ملكوت السموات أعلى من مكان الأخ بونا فنتورا ! »(٤٩) .

وجلى أن من الخطأ أن نظن أن « الفلسفة » المدرسية المعروفة بهذا الاسم إنما هى آراء وأساليب فى البحث مجدبة متفق عليها بالإجماع . لقد كانت هناك فى واقع الأمر مائة من الفلسفات المدرسية ؛ فقد كانت الكلية الواحدة من كليات الجامعة تضم أحد أشياع تومس الذى يمجد العقل ، وأحد أنصار بونا فنتورا الذى يستهجنه ويزدريه ، وأحد أتباع وليم الأوفرنى (١١٨٠ — ١٢٤٠) الذى يقول مع ابن جبيرول بحرية الإرادة ، وأحد أتباع سيجر يعلم فلسفة ابن رشد . وكاد الاختلاف والنزاع بين أنصار الدين القويم يبلغان من الشدة ما بلغاه بين الدين واللادين . فكان يوحنا بكهام الأسقف الفرنسيسى يندد بأكوناس تنديداً لا يقل صرامة عن تنديد تومس بسيجر وابن رشد ؛ وكتب ألبرتس مجنس فى ساعة فارقه فيها صلاحه يقول : « هناك أناس جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص بالذكر من هؤلاء الرهبان الفرنسيس — أولئك الوحوش الكاسرة الذين يسبون ما لا يعرفون »(٥٠) .

وكان ألبرت يحب العلم ويعجب بأرسطو إلا حين يتطرق إلى الإلحاد فى الدين ، وكان أول من درس من الفلاسفة المدرسيين جميع مؤلفات الفيلسوف الكبرى ، وأخذ على نفسه أن يفسرها تفسيراً يوافق الدين المسيحى . وكان مولده فى لاننجن Laningen بسوابيا Swabia حوالى عام ١٢٠١ ووالده هو الكونت بلستادت Bollstädt الثرى ، ثم درس فى پدوا وانضم إلى الرهبان الدمنيكيين واشتغل بالتدريس فى مدارس الدمنيك فى هلدسهايم Hildesheim ، وفرايبرج Freiburg ، وراتسبون Ratisbon ، واستراسبورج ، وكولونى (١٢٢٨ — ١٢٤٥) وباريس (١٢٤٥ — ١٢٤٨) . ثم عين بعدئذ مندوباً إقليميا

لطائفته فى ألمانيا ثم أسقفاً لراتسبون (١٢٦٠) على الرغم من تفضيله حياة التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمشى حافى القدمين فى جميع أسفاره[٥١] . وفى عام ١٢٦٢ سمح له أن يعتزل العمل ويأوى إلى دير فى كولونى ، ثم ترك ما كان فيه من هدوء وهو فى السادسة والسبعين من عمره (١٢٧٧) ليدافع عن عقيدة تلميذه المتوفى تومس أكوناس وعن ذكراه فى جامعة باريس . وأفلح فيما ندب إليه ، فعاد إلى ديره ، وتوفى فى التاسعة والسبعين من عمره . وإن حياته العامرة بالوفاء والإخلاص لدينه ، وتواضعه الخلقى ، وتعدد نواحى نشاطه العقلى ، لتظهر فيها حياة الأديرة فى خير مظاهرها .

وليس ثمة ما يفسر لنا كيف يستطيع رجل قضى ما قضى من الوقت فى التدريس والأعمال الإدارية أن يكتب مقالات فى كل فرع من فروع العلم تقريباً ، ورسائل قيمة فى كل فرع من فروع الفلسفة وعلوم الدين ، نقول ليس ثمة شىء يفسر لنا هذا إلا هدوء حياة الأديرة الرتيبة والصبر الفائق الذى يمتاز به العلماء الألمان(*) . وقلما يوجد فى التاريخ من كتب هذا القدر من الكتب والرسائل والمقالات ، أو أخذ من غيره مثل ما أخذ ، أو اعترف بمثل صراحته

(*) وإلى القارئ كتب ألبرت الكبرى فى الفلسفة واللاهوت بأسمائها الأصلية :

(١) فى المنطق Philosophia Rationalis Perihermenias; de praedicaabilibus; de sex principüs; de praedicamentis Analytica priora, (De iuterpretatione i.e.); libri elenchorum; Tropica; Analytica posteriora.

(٢) وفيما وراء الطبيعة De unitae intellictus contra Averroistas; metaphysica; de fato

(٣) وفى علم النفس De anima; De sensu et sensato, De memoria et reminiscentia, De intellectua et ietelligibili, De potentüs animae

(٤) وفى علم الأخلاق Ethica (٥) وفى السياسة Politica

(٦) وفى اللاهوت Summa de creaturis; Summa theologiae Commentarium in sententias Petri Lombardi; commentarium de divinis naminibus

وتتكون الرسائل الخمس الواردة فى هذا الثبت من واحد وعشرين مجلدا من مؤلفات ألبرت التى لم تنشر كلها بعد .

بدينه لمن أخذ عنهم . ويتخذ ألبرت مؤلفات أرسطو أسساً لكتبه وتكاد عناوينها كلها تكون هي بعينها عناوين مؤلفات الفيلسوف القديم ؛ وهو يستعين بشروح ابن رشد على تفسير مؤلفات ذلك الفيلسوف ، ولكنه يفسر المؤلفات الأصيلة والشروح تفسيراً جريئاً إذا ما ناقضت الدين المسيحي . وهو يرجع إلى آراء المفكرين المسلمين بدرجة جعلت مؤلفاته مصدراً هاماً لما نعرفه عن الفلسفة الإسلامية . ولا تخلو صفحتان من كتبه من أقوال يقتبسها من ابن رشد ، ويرجع أحياناً إلى كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون ، ويعترف بأن أرسطو أعظم مرجع فى العلوم والفلسفة ، وأوغسطين أعظم مرجع فى علوم الدين ، والكتاب المقدس أعظم المراجع فى كل شىء . ومقالاته المكدسة التى يخطئها الحصر سيئة الترتيب ولا يمكن أن يستخلص منها نظام متسق للتفكير ، وهو يدافع عن عقيدة ما فى موضع ، ثم يهاجمها فى موضع آخر أو فى الموضع نفسه أحياناً ؛ ولم يتسع وقته لتصفية متناقضاته . وكان إفراطه فى الطيبة والتقى يحول بينه وبين التفكير الموضوعى ؛ وكان فى وسعه أن يتبع تعليقاً على أرسطو برسالة طويلة مؤلفة من اثنى عشر « كتاباً » فى الثناء على مريم العذراء المباركة يقول فيها إن مريم كانت ملمة إلماما كاملا بالنحو ، والبيان ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك .

فما هى إذن أهم أعماله ؟ إن أهم هذه الأعمال هى أنه كان له نصيب موفور فى البحث العلمى فى ذلك الوقت وفى نظرياته ؛ وأنه فى ميدان الفلسفة « قدم أرسطو للاتين » ، وهو كل ما كان يهدف إليه ؛ وكان له الفضل فى استخدام مؤلفات أرسطو فى تعليم الفلسفة ، وجميع كنوز التفكير والجدل الوثنية والعربية واليهودية والمسيحية التى استخدمها تلميذه الذائع الصيت فى فلسفته التركيبية التى تفوق فلسفة أستاذه وضوحا وتنظيما . ولسنا نجافى الحقيقة إذا قلنا إنه لولا ألبرت لما وجد تومس .

الفصل الخامس

تومس أكوناس (أو تومس الأكوينى)

كان تومس ، كما كان ألبرت ، من أسرة شريفة ، ولكنه تخلى عن الثراء لينال جنة الخلد ؛ فقد كان والده الكونت لاندلف الأكوينى Count La of Apuino من النبلاء الألمان ، وابن عم بربرسا ، ومن أبرز الشخصيات فى البلاط الأكوينى لفردريك الثانى الزنديق . كذلك كانت أمه من سلالة أمراء صقلية النورمان . ومع أن تومس إيطالى المولد فقد كان من ناحيتى أبيه وأمه ينتمى إلى أصل شمالى أهم ما يجرى فى عروقه هو الدم التيوتونى ؛ ولم يكن فيه شىء من ظرف الطليان وخبثهم ، بل شب على ضخامة الجسم الألمانية ، فكان كبير الرأس ، عريض الوجه ، أشقر الشعر ، هادئا راضيا بجده الذهنى ، وكان أصدقاؤه يلقبونه « ثور صقلية الأبكم العظيم »[٥٢] .

وقد ولد فى عام ١٢٢٥ بقصر أبيه فى ركاسكا Roccosecca ، على بُعد ثلاثة أميال من أكوينو وفى منتصف الطريق بين نابلى وروما . وكان دير جبل كسينو قريباً من مسقط رأسه ، وفيه تلقى تومس تعليمه المبكر ، ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره بدأ دراسته فى جامعة نابلى واستمرت هذه الدراسة خمس سنين ، وكان فى هذه الجامعة ميخائيل اسكت يترجم مؤلفات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية ؛ ويعقوب الأناضولى يترجم مؤلفات هذا الفيلسوف إلى اللغة العبرية ؛ وبطرس الأيرلندى أحد أساتذة تومس الشديد التحمس لأرسطو . وكانت هذه الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية ، تصطدم فيها بالأفكار المسيحية . واتجه إخوة تومس نحو الشعر ؛ ودخل أحدهم رينلدو Rainaldo

فى بلاط فردريك وصار فيه من الصائدين بالبزاة ، وطلب إلى تومس أن ينضم إليه ، وأيده فى هذه الدعوة پيرو دل ڤنى Piero delle Vigne وفردريك نفسه ، ولكن تومس ، بدلا من أن يقبل الدعوة ، انضم إلى الرهبان الدمنيكيين (١٢٤٤) ؛ وأرسل بعد قليل من ذلك الوقت الى باريس ليدرس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه فى بداية رحلته بتحريض أمهما ؛ وجيء به إلى قصر ركاسكا حيث وضع تحت الرقابة مدة عام[٥٣] ، اتخذت معه فى خلاله كل وسيلة لمنعه من الاتجاه إلى هذه الناحية ، وتروى إحدى القصص ، وأكبر الظن أنها موضوعه ، أن فتاة حسناء أدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من المدفأة شعلة ملتهبة أخرجها بها من الحجرة ، وحرق علامة الصليب التى كانت بالباب[٥٤] . وما لبثت شدة تقواه أن ضمت أمه إلى جانبه ، فساعدته على الفرار ، ثم أصبحت أخته ماركتا Marcotta ، بعد أحاديث كثيرة معه ، راهبة بندكتية .

وكان ألبرت الأكبر أحد معلميه فى جامعة باريس (١٢٥٤) ، فلما نُقل ألبرت إلى جامعة كولونى تبعه تومس إليها ، وظل يدرس معه فيها حتى عام ١٢٥٢ . وكان تومس يبدو غبياً فى بعض الأحيان ، ولكن ألبرت كان يدافع عنه ويتنبأ بعظمته[٥٥] . ثم عاد بعدئذ إلى باريس وأخذ يدرس فيها بعد أن نال درجة البكالوريوس فى علوم الدين ، وحذا فى هذا الوقت حذو أستاذه فبدأ سلسلة من المؤلفات يعرض فيها فلسفة أرسطو فى ثياب مسيحية . وغادر باريس فى عام ١٢٥٩ ليدرس فى المعهد الذى أقامه الديوان البابوى تارة فى أنانى وتارة فى آرڤيتو ، وطوراً فى ڤيتربو . والتقى فى الديوان البابوى بوليم موربيك William Moerbeke وطلب إليه أن يصدر ترجمة لاتينية لمؤلفات أرسطو من اللغة اليونانية مباشرة .

وكان سيجر برابانت وقتئذ يتزعم فى جامعة باريس ثورة تدعو إلى فلسفة ابن رشد ، فأرسل تومس ليقاوم هذه الدعوة ؛ ولما وصل إلى باريس نقل مركز

المعركة إلى معسكر العدو برسالته **فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد** (١٢٧٠) واختتمها بهذه الفقرة النارية التى لا عهد للناس بها :

انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء ؛ إنا لم نبنِ هذا التفنيد على أسس من وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين ، بل بيناه على علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم : فإذا وُجد إنسان يفخر مزهواً بحكمته المزعومة ، ويرغب فى نقض ما كتبناه ، فعليه ألا يفعل هذا فى ركن من الأركان ، أو أمام أطفال لا قدرة لهم على البت فى مثل هذه المسائل الشائكة . عليه أن يجيب علناً إذا كان له من الشجاعة ما يمكنه من هذا العمل ، وسيجدنى مستعداً لمواجهته ، ولن يجد شخصى العاجز وحده ، بل سيجد كثيرين غيرى ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراستهم ؛ سنحارب أخطاءه ونداوى جهله[٥٦] .

ولم تكن الحرب فى ميدان واحد ، لأن تومس لم يكن مضطراً فى هذه الفترة الثانية من اشتغاله بالتدريس أن يقاوم فلسفة ابن رشد وحدها ، بل كان عليه فوق ذلك أن يصد هجمات زملائه الرهبان ، الذين لم يكونوا يثقون بالعقل ، ويرفضون قول تومس إنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية . ووجه جون بكهام الذى خلف بونا فنتورا فى كرسى الرهبان الفرنسيس للفلسفة بجامعة باريس أشد اللوم إلى تومس لربطه اللاهوت المسيحى بفلسفة إنسان وثنى . ويقول بكهام فيما بعد إن تومس لم يتحول عن موقفه ورد عليه « برفق وتواضع عظيمين »[٥٧] . وربما كانت هذه السنوات الثلاث التى احتدم فيها الجدل هى التى أنهكت قواه .

ودعى فى عام ١٢٧٢ إلى العودة إلى إيطاليا بدعوة من شارل دوق أنجو ليعيد تنظيم جامعة نابلى ، ثم امتنع عن الكتابة فى سنيه الأخيرة ؛ ولسنا نعرف أكان سبب هذا ما اعتراه من ملل أم أنه قد خاب ظنه فى فائدة النقاش والجدل . ولما أن ألح عليه صديق له بأن يتم كتابه **الموجز فى علوم الدين** أجابه

بقوله : « لا أستطيع ؛ لقد تكشفت لى أشياء يبدو لى معها أن ما كتبته ليس إلا هباء »[٥٨]. ودعاه جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٤ لحضور مجلس ليون ؛ فبدأ سفره الطويل على ظهر بغل مخترقا إيطاليا ، ولكنه اعتراه الضعف فى الطريق بين نابلى ورمة ، فآوى إلى الفراش فى دير السسترسيين فى فسانوڤا Fossanuova بكمپانيا ، وتوفى فيه عام ١٢٧٤ غير متجاوز التاسعة والأربعين من عمره .

ولما ضم بعد وفاته إلى مجمع القديسين شهد الشهود بأنه كان حلو اللسان ، سهل الحديث ، بشوش الوجه وديعاً ... كريم الأخلاق ، صبوراً إلى أقصى حد ، يتلألأ وجهه بالبشاشة والتقوى الممزوجة بالرقة ، شديد العطف على الفقراء[٥٩] . وكان منهمكا فى التقى والدرس انهماكاً يشغل كل تفكيره وكل لحظة يقضيها فى يومه . يحضر جميع الصلوات المقررة فى مواعيدها ، يتلو قداسا أو يستمع لقداسين فى كل صباح ، ويقرأ ويكتب ، ويعظ ويعلّم ، ويصلى . وكان من عادته قبل أن يلقى عظة أو محاضرة ، وقبل أن يجلس للدرس أو التأليف ، أن يصلى ؛ وكان زملاؤه الرهبان يظنون أنه « مدين بعلمه إلى صلواته أكثر مما هو مدين به إلى جهود عقله »[٦٠] . وإنا لنجد من حين إلى حين على هامش مخطوطاته دعوات صالحات مثل « السلام عليك يامريم ! Ave Maria »[٦١] . وقد انهمك فى الحياة الدينية والعقلية انهماكاً قلّما كان يلاحظ معه ما يحدث حوله ؛ فكانت صحفته ترفع وتغيّر فى غرفة الطعام دون أن يدرى ما بها فى بعض الأحيان ؛ ولكن يبدو أن شهيته للطعام كانت جيدة . دعى مرة للعشاء مع جماعة من رجال الدين على مائدة لويس التاسع ، فترك العنان للتفكير وهو جالس إلى المائدة حتى نسى نفسه ، ثم ضرب المائدة فجاءة بقبضته وصاح قائلا : « هذه هى الحجة الدامغة ضد المانونين ! » . وأنّبه رئيس ديره على عمله هذا وقال له : إنك جالس إلى مائدة ملك فرنسا ، ولكن لويس أظهر من الرقة والمجاملة ما هو خليق بملك مثله ، فأمر أحد أتباعه بأن يأتى للراهب المنتصر بأدوات

كتابية(٦٢) . ومع هذا كله كان فى مقدور الراهب المنهمك فى أمور الدين أن يكتب فى كثير من شئون الحياة العملية كتابة جيدة المعنى . وكان الناس يلاحظون كيف يستطيع أن يكيف مواعظه لتوائم عقول زملائه الرهبان المجدين فى الدرس ، أو عقول العامة السذج . وكان بعيداً عن التكلف ، عديم مطالب الحياة ، لا يسعى إلى ألقاب التعظيم ، ويرفض الرقى إلى مناصب الكنيسة ، وقد انتشرت كتاباته فى جميع العالم ، ولكنها لا تحتوى على كلمة واحدة نابية ؛ وهو يواجه بها كل حجة مقاومة لدينه ، ويقرعها بالحسنى وفى هدوء .

وجرى على عادة زمانه وزاد عليها ، فكان يعترف صراحة بما يأخذه عن غيره ، فهو يقتبس من ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ؛ وما من شك فى أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسية من غير أن يدرس ما سبقها من فلسفات المسلمين واليهود . ولا يشارك تومس وليم الأوفرنى فى تقديره لابن جبيرول ، ولكنه عظيم الإجلال « للرابى ميسيز Rabbi Moyses » كما يسمى موسى بن ميمون ، ويقول بما قال به هذا الفيلسوف من أنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، ولكنه يوافقه أيضاً على أن بعض أسرار الدين بعيدة عن متناول العقل ؛ وينقل الحجج المؤيدة لهذا البعد من كتاب دلالة الحائرين (٦٣) . وهو يتفق مع ابن ميمون فى أن فى مقدور العقل البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لمعرفة صفاته ، وهو يتتبع خطى ابن ميمون خطوة خطوة فى بحث أزلية العالم(*) . ويسترشد فى المنطق وما بعد الطبيعة بأرسطو ويكاد ينقل عنه فى كل

(*) ويقول العالم جلسن Gilson : « لو أن ابن ميمون لم يتأثر بابن رشد فيعتنق فكرة خاصة من الخلود ، لكان فى وسعنا أن نقول إن ابن ميمون وتومس يتفقان فى جميع النقط الهامة » (٦٥) وفى هـذا القول شىء من المبالغة إلا إذا قلنا إن التثليث وتجسد الأقنوم الثانى ، والكفاوة من العناصر غير ذات الشأن فى الدين المسيحى

صفحة من كتبه ، ولكنه لا يتردد فى أن يخالفه حينما يحيد الفيلسوف عن العقائد المسيحية ؛ وبعد أن يعترف بأن التثليث ، والتجسد ، والافتداء ويوم الحساب لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ، يتقبل حكم العقل فى جميع المسائل الأخرى قبولا كاملا لا تردد فيه ، ارتاع له أتباع أوغسطين . وكان ينزع إلى مبادئ الصوفية فى اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البشرى ، ويشاركهم فى الشوق إلى الاتحاد مع الله ؛ ولكنه كان من جماعة « العقليين » لأنه يفضل العقل على « القلب » بوصفه أداة توصل إلى الحقيقة . وقد تنبأ بأن أوربا مقبلة على « عصر العقل » ، وكان يرى أن من واجب الفيلسوف المسيحى أن يستعد لملاقاة هذه النزعة الجديدة فى ميدانها . وكان يبدأ حججه المنطقية بأقوال يقتبسها من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ولكنه يقول بصراحة محكمة قوية : « إن الحجة التى تستند إلى أقوال الغير أوهن الحجج »[٦٦] . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن دراسة الفلسفة لا تهدف إلى الكشف عما فكر فيه الآخرون بل تريد أن تصل إلى حقيقة الأمور »[٦٧] . وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فيما يسرى فيها كلها من منطق .

وقلما نجـــد فى التاريخ كله عقلا واحداً أخضع مثله ميداناً من ميادين التفكير بمثل هذه السعة لحسن التنظيم وللوضوح . ولن نجد فى أسلوب تومس ما يبهرنا أو يخلب لبنا ، فهو أسلوب سهل يصل إلى الهدف من أقرب السبل ، موجز ، دقيق ، خال من الحشو والزخرف ؛ ولكننا لا نجد فيه مثل ما نجد فى أسلوب أوغسطين من قوة ، وسعة الخيال ، وانفعال ونزعة شعرية . وكان تومس يرى أن لا محل فى الفلسفة للبلاغة ، وكان يستطيع إذا شاء أن ينازل الشعراء فى ميدانهم ؛ ذلك أن أقرب ما كتبه إلى الكمال هو الترانيم والأوراد التى وضعها لعيد القربان المقدس ، ومن بينها ترنيمة **Lauda Sion salvatorem** التى تقول بوجود جسم المسيح ودمه وجوداً حقيقياً فى العشاء الربانى ، وصاغها فى شعر فخم

طنان رنان . وفى التسابيح ترنيمة تبــدأ بعبارة من أقوال أمبروز : Verqum supernum prodiens ، وتختم بمقطوعتين Osalularis Bostia تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى . وفى صلاة المساء ترنيمة هى أعظم ما وجد من التراتيم فى جميع العصور ، وهى مزيج من الشعر واللاهوت :

تغنَّ ، يا لسان ، بسر الجسم المجيد ،
وبالدم الذى لا يقدر بمال ، والذى أراقه
ملك الخلائق جميعاً ، وثمرة أكرم الأرحام ،
فداء للعالمين .
أهدته إلينا وولدته عذراء لم يمسسها بشر ،
وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التى استحالت لحما ،
أقام بيننا فى تواضع ، ثم اختتم مقامه اختتاماً عجيباً .
وفى ليلة العشاء الأخير والرسل لا يزالون مضطجعين ،
مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة فى شأن الطعام الذى وضعته الشريعة ،
الطعام الذى يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه ،
إن الكلمة التى تجسدت تحيل الخبز بكلمة إلى لحمه ؛
والنبيذ يصبح دم المسيح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى ،
فليقو الطهر فى القلب بالإيمان وحده .
ومن أجل هذا نجلّ هذا العشاء الربانى العظيم ونحن سجّد ؛
ألا فلتخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة ،
وليُنج إيماننا عجز حواسنا المظلمة .
سبّحوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أبهج الأغانى ،

سلام ، وتكريم ، وسلطان ، وبركات كثيرة
وليرفع له تسبيحنا غير منتقص
صادر عن حواسنا وقلوبنا(*) .

وتكاد كتابات تومس تساوى فى كثرتها كتابات ألبرت ، وإن كانت حياة أولها لا تزيد إلا قليلا على حياة الأخير . وقد كتب شروحاً على أحكام بطرس لمبارد ، وعلى أناجيل إشعيا ، وأيوب ، وبولس ، وعلى كتاب تياوس لأفلاطون ، وعلى مؤلفات بؤيثيوس والمؤلفات المدسوسة على ديونيسيوس ، وعلى كتب أرغنون ، وفى السماء والأرض ، والكون والفساد ، والأفلاك ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وفى النفس ، والسياسة ، والأخلاق ، وفى الحقيقة ، وفى السلطان ، وفى الشر ، وفى العقل ، وفى الفضيلة ، وغيرها من كتب أرسطو ؛ وكتب يبحث نقطاً تثار عارضة فى جلسات الجامعة . وله رسائل فى قوانين الطبيعة ، والكائن ، والجوهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الخفية ، وكتاب فى أربعة مجلدات يسمى : **خلاصة المذهب الكاثوليكى ضد الوثنيين** Summa de veritate catholica de contra Gentiles (١٢٦٧ - ١٢٧٣) **وخلاصة اللاهوت** Compendium theologiae (١٢٧١ - ١٢٧٣) . ويملأ ما نشر من مؤلفات تومس ١٠٫٠٠٠ صفحة من القطع الكبير ذى العمودين فى كل صفحة .

وكان إعداد خلاصة الدين الكاثوليكى ضد الوثنيين بطلب من ريمند البنيافورتى Raymond of Penafort زعيم طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ليستعين به على ضم المسلمين واليهود فى أسبانيا إلى الدين المسيحى . ولهذا فإن تومس يكاد

(*) والمقطوعتان الأخيرتان تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى وتتلى الترنيمة كلها فى موكب يوم خميس الصعود .

يستند فى كل ما يورده من حجج فى هذا الكتاب إلى العقل والمنطق ، وإن كان يقول فى أسف إن « هذا لا يكفى فى الأمور المتعلقة بالله »[٦٨] . وهو يتخلى فيه عن الطريقة المدرسية فى النقاش ، ويعرض مادته أسلوب يكاد يكون هو الأسلوب الحديث بعينه ، ويعرضها أحياناً بمرارة لا تليق بهذا العالم الوديع الشبيه بالملاك . وهو يقول إن المسيحية دين إلهى بلا ريب ؛ لأنها غلبت رومة وأوربا على الرغم من دعوتها ضد ملاذ الدنيا وملاذ الجسد ، وهى الدعوة التى لا يرحب بها الناس[٦٩] ؛ وهو يعترف صراحة فى الجزء الرابع من الكتاب بأن العقائد الأساسية فى الدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالاستناد إلى العقل والمنطق ، وإنها تتطلب الإيمان بالوحى الإلهى كما جاء فى الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين .

ويوجه تومس أوسع كتبه كلها وهو **خلاصة اللاهوت** إلى المسيحيين أنفسهم ؛ وهو محاولة لشرح مجموعة العقائد الكاثوليكية فى الفلسفة واللاهوت والدفاع عنها بالاستناد إلى الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة وإلى العقل[*] . ومما جاء فى مقدمة الكتاب : « سنحاول أن نتتبع الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة بإيجاز ووضوح بقدر ما تسمح به مادة هذا الموضوع » . وقد يكون من حقنا أن نبتسم لهذا الإيجاز الذى يحتويه واحد وعشرون مجلداً ، ولكن هذا ما يقوله المؤلف . والحق أن هذه **الخلاصة** ضخمة الحجم ولكنها بعيدة عن الحشو واللغو ؛ وليست ضخامة حجمها إلا نتيجة سعة مجال بحثها ؛ ذلك أن فى هذه الرسالة عن اللاهوت رسائل كاملة فيما بعد الطبيعة ، وفى علم النفس ، والأخلاق ، والقانون ؛ وفيها ثمان وثلاثون رسالة ، و ٦٣١ سؤالا أو موضوعا ، وعشرة آلاف اعتراض أو رد . وترتيب الحجج الخاصة بكل سؤال مما يدعو إلى الإعجاب .

(*) هذا الكتاب من أوله إلى السؤال التسعين من الجزء الثالث بما فيه هذا من تأليف تومس ؛ أما بقية الكتاب فقد يكون من تأليف ريجنلد البپرنوى رفيقه وناشر كتبه .

أما تركيب الكتاب فقد نال من الثناء أكثر مما يستحق ، فهو لا يضارع التنظيم المنطقى لكتاب الأخلاق لاسپنوزا أو التتابع المسلسل لكتاب الفلسفة التركيبية لاسپنسر . ورسالته فى علم النفس (الجزء الأول المشتمل على الأبواب من ٧٥ إلى ٩٤) موضوعة بين بحثه فى الستة الأيام التى تم فيها الخلق وبين دراسة الإنسان وهو فى عهد البراءة الأولى . وشكل الكتاب أكثر طرافة من تركيبه ؛ وهو فى جوهره يواصل طريقة أبلار من الحد الذى بلغته على يد بطرس لمبارد ويبلغ بها درجة الكمال : يبدأ بالسؤال ، تتلوه الحجج النافية ، والاعتراضات على الحجج الموجبة ، ثم الحجج الموجبة المأخوذة من الكتاب المقدس ، ومن كتب الآباء ، والمستندة إلى العقل ، ثم الردود على الاعتراضات . وهذه الطريقة تضيع الو أحياناً لأنها تورد حججاً واهية ثم تدحضها ، ولكن النقاش أحياناً نقاش جوهرى وحق ، ومن خصائص تومس أنه يورد الرأى المخالف لرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وبهذه الطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصين للعقائد المسيحية ، ويمكن اتخاذه كتاباً جامعاً للشكوك . وقد لا نقنع على الدوام بردوده ، ولكننا لا نستطيع أن نشكو قط من أن الشيطان لم يجد له مدافعا قديراً .

الفصل السادس

فلسفة تومس

١ – المنطق

ما هى المعرفة ؟ هل هى نور إلهى بعثه الله فى الإنسان ، وبغير هذا لا يمكن أن تكون ؟ يخالف تومس منذ البداية أوغسطين ، والمتصوفة ، والقائلين بمذهب اللقانة(*) ؛ فالمعرفة فى رأيه نتاج طبيعى ، يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات . وهى معرفة محدودة غاية فى القصور فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الذبابة[٧٠] . ولكن المعرفة فى داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الخارجى قد يكون كله خداعا فى خداع . ويقبل تومس تعريف المدرسيين للحقيقة بأنها مطابقة الفكرة للشىء adequatio rei et intellectus [٧١] . وإذ كان العقل يستمد كل معلوماته الطبيعية من الحواس[٧٢] فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام — أى على عالم الحس أو المحسوس ، وليس فى مقدوره أن يعرف من طريق مباشر العالم الذى فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة ، العقول التى فى داخل الأجسام أو الله فى خلقه ؛ ولكن فى وسعه عن طريق المقارنة والقياس أن يستمد من تجارب الحس معرفة غير مباشرة بالعقول الأخرى ، وأن يحصل بمثل هذه الطريقة على معرفة غير مباشرة بالله[٧٣] . أما العالم الثالث عالم ما فوق الطبيعة — حيث يوجد الله — فليس فى مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئا إلا من طريق الوحى

(*) Intuitionists

الإلهي . وفى وسعنا أن نعرف بطريق الفهم الطبيعي أن الله موجود ، وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلألآن فى عجائب العالم وحسن تنظيمه ؛ ولكننا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره أوحقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة أنفسهم قاصر ومحدود وإلا كانوا آلهة .

وقصور علمنا فى حد ذاته دليل على وجود عالم فوق الطبيعي . ويكشف الله لنا عن هذا العالم فى كتبه المقدسة ، وكما أن من الحمق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلسفة كاذبة لأنه يعجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحمق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحي الإلهي بحجة أنه يبدو له فى بعض النقط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية . وعلينا أن نثق بأنه لوكانت معلوماتنا كاملة ، لما كان ثمة تناقض بين الوحي والفلسفة ، ومن الخطأ أن نقول إن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة فى الفلسفة وصحيحة فى الدين ، ذلك بأن الحقائق كلها تأتى من عند الله وهي واحدة . غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل وما نعتقده عن طريق الإيمان[٧٤] ، لأن ميدانى الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان ، ويجوز للعلماء أن يبحثوا فيما بينهم ما يعترض به على الدين ، ولكن « لا يحسن بالسذج من الناس أن يستمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين » لأن العقول الساذجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضين[٧٥] . ويجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة ؛ ومن واجبنا أن نهتدى بهديها فى كل شيء[٧٦] ؛ لأنها هى المكان الذى أودع فيه الله الحكمة الإلهية ؛ وقد أعطى البابا « الحق فى أن يصدر أحكاما نهائية فى شؤون الدين حتى يأخذها الناس جميعا بإيمان لا يتزعزع[٧٧] » . وبغير هذا لا مفر من الفوضى العقلية ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

٢ — ما وراء الطبيعة

(الميتافيزيقا)

ميتافيزيقية تومس تعريفات معقدة عويصة وفروق دقيقة يقوم عليها كلها لاهوته .

١ — الجوهر والوجود فى الأشياء المخلوقة مختلفتان ، فالجوهر هو ما لا بد منه لإدراك الشيء ، والوجود هو عملية الكينونة . فجوهر المثلث — أى أنه ثلاثة خطوط مستقيمة تضم بينها فراغاً — واحد لا يتغير سواء وجد المثلث أو كان مجرد إدراك ذهنى . أما فى حالة الله فالجوهر والوجود شىء واحد ؛ لأن جوهره هو أنه العلة الأولى ، والقوة التى تقوم عليها كل الأشياء (أو التى تقف تحت الأشياء) كما يقول اسپنوزا . وتعريفه يحتم وجوده لكى يوجد كل ما عداه من الأشياء .

٢ — والله موجود بالحقيقة ، وهو الكائن المكون لجميع الكائنات ، وعلتها التى تستند إليها . وكل الكائنات الأخرى موجودة بالتصور لا غير ، وبالاشتراك المحدد فى حقيقة الله .

٣ — وكل الكائنات المخلوقة فاعلة ومنفعلة معاً — أى أنها تفعل وتنفعل . وهى أيضاً مزيج من الكينونة والصيرورة : فلها صفات معينة قد تفقد بعضها وتكسب غيرها — فالماء مثلا قد يدفأ . ويعبر تومس عن هذا التأثر بالعمل الخارجى أو التبدل الداخلى بلفظ الإمكانية potentia . والله وحده هو المنزه عن هذه الإمكانية ، فهو لا ينفعل ولا يتبدل ، وهو نشاط خالص ، وحقيقة خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شىء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب الموجودات التى دون الله ترتيباً تنازلياً يقوم على عظم إمكانيتها فى التأثر بما هو

خارج عنها والتحدد به . وعلى هذا يكون الرجل أرقى من المرأة لأن « الأب هو المبدأ الفعال ، على حين أن الأم هي المبدأ المنفعل أو المادى ؛ فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القوة المكونة التى فى منى الأب »(٢٨) ؛

٤ — كل الكائنات ذات الأجسام تتكون من مادة وصورة ، ولكن الصورة هنا (كما هى عند أرسطو) ليس معناها الشكل بل العنصر الفطرى المنشط المميز . وحين تكوّن الصورة أو العنصر الحيوى جوهرَ كائن ما فهى تكون صورة أساسية جوهرية ، وبهذا تكون النفس العاقلة — أى القوة التى تهب الحياة والقادرة على التفكير — هى صورة الجسم الأساسية ، والله هو صورة الكون الأساسية .

٥ — والحقائق كلها إما جوهر أو عرض : إما أن تكون موجودات منفصلة كالحجر والإنسان ، أو أنها لا توجد إلا على هيئة صفات فى شىء آخر كالبياض والكثافة . أما الله فهو جوهر محض ، لأنه هو الحقيقة الكاملة الموجودة بذاتها .

٦ — والجواهر كلها فردية ، ولا شىء غير الأفراد موجود إلا فى الفكر ، والفكرة القائلة بأن الفردية خداع هى نفسها خداع .

٧ — وفى الكائنات المكونة من مادة وصورة يكون العنصر الأساسى أو مبدأ الانفراد — أى تضاعف عدد الأفراد فى النوع أو الصنف — هو المادة . أما الصورة أو المبدأ الحيوى فى النوع بأكمله فهى فى جوهرها واحدة . وهذا المبدأ يستخدم فى كل فرد ، مقداراً معيناً وشكلا من المادة . ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلا ؛ وهذه المادة التى تعينت بكميتها هى مبدأ الانفرادية — وليست الانفرادية هى الفردية بل الذاتية المنفصلة .

٣ – اللاهوت

المحور الذى تدور حوله فلسفة تومس وموضوع بحثها هو الله لا الإنسان ، وقد كتب فى ذلك يقول : « إن أرق ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه فى هذه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه »(٧٩) . وهو يرفض حجج أنسلم الكونية ، ولكنه يقترب منها حين يقول إن وجوده وجوهره شيء واحد ، فالله عنده هو الوجود نفسه : « أنا من أنا » .

ويقول تومس إنه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : (١) فالحركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من أخرى قبلها ، وهذه إما أن تنتهى إلى محرك أول أو أن تستمر فى الرجوع إلى حركات أسبق منها رجوعا لا نهاية له وهذا مستحيل ، (٢) كذلك يتطلب تسلسل العلل علة أولى ، (٣) والعرضى ، وهو ما قد يكون ولكن لا يتحتم أن يكون ، يعتمد على الضرورى الذى لا بد أن يكون ؛ ويعتمد الممكن على الواقع ، وهذا التسلسل يرجع بنا إلى كائن ضرورى هو الحقيقة الخالصة ، (٤) والأشياء طيبة ، وحقة ، وسامية ، بدرجات مختلفة ، ولا بد أن يكون هناك أصل أو مصدر لهذه الفضائل الناقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، (٥) فى العالم آلاف من الشواهد الدالة على ما فيه من نظام ، وحتى الجمادات نفسها تتحرك بطريقة منظمة ، وكيف يمكن وجود هذا إلا إذا كانت هناك قوة عاقلة هى التى خلقت هذه الأشياء ؟(*)(٨١) .

وإذا ما استثنينا مسألة وجود الله قلنا إن تومس يكاد يكون لا أدريا فى اللاهوت الطبيعى « لا نستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه »(٨٢) — إنه لا يتحرك ، ولا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان . ولِمَ تريد العقول المتناهية فى الصغر أن تزيد علمها بما لا نهاية له ؟ ويقول تومس

(*) ١ ، ٢ ، ٥ منقولة عن ألبرت عن أرسطو (٣) عن ابن ميمون (٤) عن أنسلم

إن من الصعب علينا أن نتصور الروح غير المادية (وهو يسبق برجسون فى قوله هذا) لأن العقل يعتمد على الحواس . ولأن تجاربنا الخارجية كلها مقصورة على الأشياء المادية ؛ وعلى هذا « فإنا لا نعرف الأشياء المجردة من الأجسام ، والتى لا صور لها ، إلا بمقارنتها بالأجسام المحسوسة التى لها صور »[٨٣] . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله (كما يقول ابن ميمون) إلا عن طريق المجاز والتشبيه ، فنستدل عليه من أنفسنا ومن تجاربنا ؛ وعلى هذا فإذا كان فى الناس خير ، وحب ، وحق ، وعقل ، وقدرة ، وحرية ، أو أية ميزة أخرى ، فلابد أن تكون هذه أيضاً فى خالق الإنسان ، وأن تكون فيه بدرجة أعلى تتفق مع النسبة الموجودة بين اللانهائية وبيننا نحن . وإذا ما استعملنا ضمائر المذكر حين نتحدث عن الله فليس ذلك إلا من قبيل التيسير ؛ أما الحقيقة فليس ثمة ذكر وأنثى فى الله ولا فى الملائكة . والله واحد لأنه حسب تعريفه هو الوجود ذاته ؛ وإن سير العالم الموحد ليكشف عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم فى هذه الوحدة الإلهية لهو سر غامض لا يدركه العقل ، ولابد أن نعتقده بإيمان الواثقين .

وليس فى مقدورنا كذلك أن نعرف هل خلق العالم فى وقت بعينه ، وبذلك يكون قد خلق من لا شىء ، أو هل هو أزلى كما يظن أرسطو وابن رشد ؟ ومن رأيه أن الحجج التى يدلى بها رجال الدين ليثبتوا بها خلق العالم فى زمن بعينه حجج واهية يجب رفضها « حتى لا تبدو العقيدة السمحة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاء »[٨٤] . ويستنتج تومس من هذا أن علينا أن نعتقد بالاستناد إلى إيماننا وحده بخلق العالم فى وقت معين ؛ ولكنه يضيف إلى هــذا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت لم يكن له وجود قبل الخلق ، إذ ليس ثمة وقت بلا تغير ، ولا مادة تتحرك . وهو يحاول بأقصى جهده أن يشرح كيف ينتقل الله من لا خلق إلى خلق دون أن يعتريه تغير . وعملية الخلق فى رأيه أزلية ، ولكنها

تشمل فى إرادة القيام بها تحديد الوقت الذى يتطلبه ظهور نتائجها[٨٥] — وتلك طريقة ظريفة يروغ بها هذا الرجل العنيد من المشكلة التى يواجهها .

والملائكة فى رأيه هم أرقى طبقات الخلق ، وهم عقول بلا أجسام ، غير قابلين للفساد ، مخلدون . وهم رسل الله فى حكم العالم ، بهم تتحرك الأجرام السماوية وبهم تهتدى[٨٦] ، ولكل إنسان ملك يحرسه ، وكبار الملائكة يعنون بجماعات كبيرة من الناس . وإذ كان الملائكة عقولا بلا مادة ، فإن فى مقدورهم أن ينتقلوا من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر من غير أن يجتازوا ما بينهما من فضاء . ويملأ تومس ثلاثاً وتسعين صفحة فى طبقات الملائكة ، وحركاتهم ، وحبهم ، وعلمهم ، وإرادتهم ، وكلامهم ، وعاداتهم — وهذا هو أكثر أجزاء الخلاصة الطويلة تكلفاً وأكثرها استعصاء على التفنيد .

وكما أن هناك ملائكة فكذلك يوجد عفاريت ، وهم أبالسة صغار يأتمرون بأمر الشيطان ؛ وليس هؤلاء مجرد خيالات تخلقها عقول العوام ، بل هم كائنات حقيقية يسببون ما لا حصر له من الأذى ؛ وفى وسعهم أن يجعلوا الرجل عاجزاً عن القيام بالوظيفة الجنسية بأن يثيروا فيه كره المرأة[٨٧] ، ويقومون بضروب مختلفة من السحر ؛ فقد يرقد العفريت تحت الرجل ، ويتلقى منيّه ، ويحمله مسرعا فى الفضاء ، ويجامع امرأة ، فتحمل من منىّ رجل غائب[٨٨] . وفى وسع العفاريت أن يمكنوا السحرة من أن يتنبئوا بالحوادث التى لا تعتمد على إرادة الإنسان الحرة . وفى وسعهم أن يبلغوا الناس معلومات بأن يطبعوها فى خيالهم ، أو بأن يظهروا أمام عيونهم ، أو يتحدثوا لهم بصوت مسموع ؛ وقد يتعاونون مع الساحرات ، ويساعدونهن على إيذاء الأطفال ، عن طريق الحسد[٨٩] .

وكان تومس يعتقد بصدق التنجيم فى كثير من الأمور ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من معاصريه ، وكثيرين من معاصرينا نحن :

يجب أن نربط بين حركات الأجسام . . . على هذه الأرض وحركات

الأجرام السماوية وهي علتها . . . وثمة طريقتان يستطاع بهما تفسير قدرة المنجمين فى كثير من الأحيان على التنبؤ بالحقائق برصد النجوم : أولاهما أن عدداً كبيراً من الناس يسيرون وراء انفعالاتهم الجسمية ، وبذلك تتجه أعمالهم فى معظم الأحيان حسب ميل الأجرام السماوية ، على حين أن هناك قلة منهم — وهم العقلاء وحدهم — يهدئون ميولهم بعقولهم . . . وثانيتهما ناشئة من تدخل العفاريت(٩٠) .

بيد أن « أعمال البشر لا تخضع لفعل الأجرام السماوية إلا خضوعاً عارضا وبطريق غير مباشر »(٩١) ، وفيها مجال كبير لحرية الآدميين .

٤ — علم النفس

يعنى تومس ببحث المشاكل الفلسفية التى يتضمنها علم النفس ، والصفحات التى يخصصها لهذا الموضوع من أحسن ما فى كتابه من تحليل . وهو يبدأ بفكرة أن الكائن الحى عضوى معارضا فى ذلك فكرة أنه آلى : فالآلة تتكون من أجزاء تضم بعضها إلى بعض من الخارج ، أما الكائن الحى فيكوّن أجزاءه بنفسه ويحرك نفسه بما فيه من قوة داخلية(٩٢) . وهذه القوة الداخلية المكوّنة هى النفس ، ويعبر تومس عن هذه الفكرة بمصطلحات من كتب أرسطو : فالنفس عنده « صورة هيولية » للجسم — أى أنها هى المبدأ الحيوى والطاقة التى تعطى الكائن الحى وجوداً وشكلا : « النفس هى المبدأ الأول لغذائنا ، وإحساسنا ، وحركتنا ، وفهمنا »(٩٣) . والنفس ثلاث درجات : النفس النابتة — أى القدرة على النماء ، والنفس الحاسة — أى القدرة على الشعور ، والنفس العاقلة — أى القدرة على التعقل والاستدلال . والأولى موجودة فى كل ما هو حى ، أما الثانية فلا توجد إلا فى الحيوانات والآدميين ، وأما الثالثة فلا توجد إلا فى بنى الإنسان . غير أن الكائنات الحية العليا تمر فى نمائها الجسمى والفردى بالمراحل التى تبقى فيها

الكائنات السفلى ؛ و « كلما علت الصورة فى سلم المخلوقات . . . زاد عدد الأشكال الوسطى التى تمر بها قبل أن تصل إلى صورتها الكاملة »[٩٤] – ويشبه هذا القول نظرية « الإعادة » التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والتى تقول إن جنين الإنسان يمر بالمراحل التى مر فيها النوع أثناء نموه .

وبينا كان أفلاطون ، وأوغسطين ، والرهبان الفرنسيس يظنون أن النفس سجينة فى الجسم ، ويقولون إن الإنسان هو النفس لا غير ، كان تومس جريئاً فى قبول فكرة أرسطو ، وهو يعرف الإنسان – بل يعرف الشخصية نفسها – بأنه مزيج من الجسم والنفس ومن المادة والصورة[٩٥]. فالنفس وهى الطاقة الداخلية التى تبعث الحياة ، وتخلق الصورة ، توجد فى كل جزء من أجزاء الجسم كاملة غير قابلة للانقسام[٩٦] وهى ترتبط بالجسم بألف طريقة . فهى بوصفها نفساً نباتية تعتمد على الطعام ، وبوصفها نفساً حاسة تعتمد على الإحساس ، وبوصفها نفساً عاقلة تحتاج إلى الصور التى تنتج أو تتركب من الإحساسات . وحتى المقدرة العقلية والمدركات الأخلاقية تعتمد على وجود جسم سليم إلى حد معقول . فالجلد السميك يدل على النفس العديمة الإحساس[٩٧] ؛ وللأحلام ، والانفعالات ، والأمراض العقلية ، والأمزجة أسس فى وظائف الأعضاء[٩٨] . ويتحدث تومس فى بعض الأحيان كما لو كان الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، أى الطاقة الداخلية والصورة الخارجية لكل لا يتجزأ . ومع هذا فقد كان يبدو له واضحاً كل الوضوح أن النفس العاقلة – المجردة ، المعممة ، والمستدلة ، المصورة للكون ، – حقيقة غير جسمية ؛ وأننا مهما حاولنا ، وعلى الرغم من ميلنا إلى التفكير فى جميع الأشياء بمصطلحات مادية ، لانستطيع أن نجد شيئاً مادياً فى الإدراك ؛ فهو حقيقة تختلف كل الاختلاف عن جميع الأشياء المادية أو المكانية ؛ ويجب أن نصف هذه النفس العاقلة بأنها روحية ، شيء يبعثه فينا الله وهو القوة النفسية القائمة وراء كل الظواهر المادية . والقوة غير المادية وحدها هى التى تستطيع

أن تكون فكرة كلية ، أو تقفز إلى الأمام وإلى الخلف فى الزمان ، أو تدرك الكبير والصغير بدرجة واحدة من السهولة[٩٩] . وفى مقدور العقل أن يدرك نفسه ، ولكن من المستحيل أن يتصور كائناً ماديا يدرك نفسه .

ولهذا فلا حرج علينا إذا اعتقدنا أن هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبقى بعد موت الجسم ؛ ولكن النفس التى تفارق الجسم على هذا النحو ليست ذات شخصية ، فهى لا تقدر أن تحس أو تريد ، أو تفكر ، بل هى طيف لا قوة له ولا يستطيع أن يقوم بعمل بغير الجسم[١٠٠] ، ولا تكوّن مع الجسم شخصية منفردة لا يجوز عليها الموت إلا إذا عادت إلى الاتحاد مع الجسم ، أى مع الإطار الجسدى الذى كانت هى حياته الداخلية . ولقد كان السبب الذى دفع ابن رشد وأتباعه إلى النظرية القائلة بأن « لا خلود إلا للعقل الفاعل » وحده ، أو نفس الكون ، أو نفس النوع ، هو عدم إيمانهم ببعث الجسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الجدل ليدحض هذه النظرية ، وعنده أن اختلافه عن ابن رشد فى مسألة الخلود هو أهم المشاكل القائمة فى القرن الذى يعيش فيه ، وأن ما ينشأ عن الوقائع الحربية من تبديل فى الحدود وتغيير فى الألقاب يبدو إلى جانبها عبثا وجنونا لا أكثر .

ويقول تومس إن للنفس خمس صور أو قوى : النفس النباتية وبها نطعم ، وتنمو ونتكاثر ؛ والنفس الحاسة وبها نستقبل التنبيهات من العالم الخارجى ؛ والنفس المشتهية ، وبها نرغب ونريد ؛ والنفس المحركة وبها تحدث الحركة ؛ والنفس العاقلة وبها نفكر[١٠١] . والمعلومات كلها تبدأ بالحواس ، ولكن التنبيهات لا تسقط على سطح فارغ أملس ، بل يتلقاها بناء معقد هو مركز الإحساس المشترك ، الذى يصوغ هذه التنبيهات أو الأحاسيس فيؤلف منها أفكاراً . ويتفق تومس مع أرسطو ولُك Locke فى أنه « لا شىء فى العقل لم يكن له من قبل وجود فى الحواس » ، ولكنه يضيف إلى ذلك كما يضيف كانت وليبنتز قوله :

« إلا العقل نفسه » — وهو قوة منظمة تستطيع تنظيم التنبهات إلى أفكار ، وأخيراً إلى تلك الكليات والأفكار المجردة التي هي أدوات الاستدلال ، والميزة التي اختص بها الإنسان على هذه الأرض .

والإرادة أو الرغبة هي الموهبة التي تستطيع بها النفس أو القوة الحيوية أن تتحرك نحو ما يرى العقل أنه خير . ويعرف تومس الخير كما يعرفه أرسطو بأنه « هو الشيء المرغوب فيه »[١٠٢] . والجمال شكل من أشكال الخير ، لأنه هو الذي تسر رؤيته . ولم كانت رؤيته سارة ؟ إنها تسر لما بين أجزائها من تناسب وتناسق يجعل منها كلا منظما . والعقل خاضع للإرادة لأن الرغبة تستطيع أن تحدد اتجاه الفكر ، ولكن الإرادة نفسها خاضعة للعقل لأن رغباتنا تحددها الطريقة التي تدرك بها الأشياء ، والآراء التي تكونها عنها (مقلدين في ذلك غيرنا عادة) . وليست الحرية مستقرة حقيقة في الإرادة التي « يحركها بالضرورة » فهمنا للمادة كما يعرضها علينا العقل[١٠٣] ، بل هي مستقرة في التمييز (arbitirium) : ولهذا تتناسب الحرية تناسباً مطرداً مع درجات المعرفة ، والقدرة على الاستدلال ، والحكمة ، وعلى قدرة العقل أن يعرض صورة صحيحة للحالة القائمة على الإرادة ، ومن ذلك يرى أن الحكماء وحدهم هم الأحرار حقاً[١٠٤] . وليس الذكاء خير مواهب النفس وأسماها فحسب بل هو أيضاً أعظمها قوة : « وطلب الحكمة هو من بين مطالب الإنسان كلها أكملها ، وأسماها ، وأعظمها نفعاً ، وأجلبها للسرور »[١٠٥] : « وعمل الإنسان الخليق به هو أن يفهم »[١٠٦] .

٥ — علم الأخلاق

وإذن فغاية الإنسان الحقة هي أن يصل إلى الحقيقة في الحياة الدنيا ، وأن يشهد هذه الحقيقة في الله في الحياة الآخرة ؛ ذلك أننا إذا سلمنا مع أرسطو بأن ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة ، فأين يجد أحسنها ؟ إنه لا يجدها في الملاذ

الجسمية ، ولا فى الشرف ، ولا فى الثروة ، ولا فى السلطان . بل إنه لايجدها فى الأعمال الصادرة عن الفضيلة الخلقية ، وإن حصل من هذه كلها على البهجة . ولنسلم كذلك بأن « النظام الكامل للجسم ضرورى . . . للسعادة الكاملة »[١٠٧] . ولكن ليس فى هذه الطيبات كلها ما يضارع السعادة الهادئة الشاملة المتصلة الناشئة من الفهم . ولعل تومس كان يذكر وتنشد قول فرچيل : « ما أسعد من استطاع أن يعرف علل الأشياء ! » فاعتقد أن أسمى عمل تقوم به النفس وأعظم ما تغتبط به — أى الذروة الطبيعية لعقليتها الخاصة — هى « أن ينقش عليها النظام الكامل للكون وأسبابه »[١٠٨] . وإن السلام الذى يعلو على الفهم لينشأ من الفهم .

ولكن هذه السعادة الدنيوية العليا نفسها لاتترك الإنسان راضياً كل الرضا قانعاً كل القناعة ، فهو يعرف معرفة غامضة أن « السعادة الكاملة الحقة لايمكن أن تنال فى هذه الحياة » . وأن فى داخله صوتاً لايمكن إسكاته يجعله يتوق على الدوام لسعادة وفهم لايتأثران بما يتعرض له الآدميون الفانون من تغيرات ومن صروف الزمان . وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها فى الطيبات الوسطى ، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحق وجماعه وهو الله[١٠٩] . فنى الله وحده الخير الأسمى لأنه مصدر كل الطيبات الأخرى ، ولأنه علة سائر العلل ، وحقيقة كل الحقائق ، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعيم الباهر — الرؤى التى تهب السعادة(*) .

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية ؛ ويمكن تعريف الطيبة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدى إلى غاية الإنسان الحقة وهى أن يرى الله والإنسان بطبعه ميال إلى الخير — المرغوب فيه : ولكن ما يراه هو خيراً ليس فى كل الأحوال خيراً

(*) وهو النور الذى يراه الملائكة والأبرار عند دخولهم الجنة . (المترجم)

من الناحية الأخلاقية ؛ وقد عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء فى الحكم على ما هو خير ، وهو يحمل الآن فى كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى(*) .
وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله ، الذى يعرف كل شىء قبل حدوثه ، رجلا وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة ، وخلق جيلا قدر عليه أن يكون ملوثاً بهذا الإثم الموروث ، أجابه تومس أن من المستحيل على أى مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملا . وأن حرية الإنسان فى أن يأثم هى الثمن الذى يجب عليه أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار .
وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لاتسمو على الخير والشر بل تنحط دونها ، ولا تكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

وإذ كان تومس قد انغمس فى عقيدة الخطيئة الأولى ، وانغمس فى مبادئ أرسطو ، وفى الخوف من النساء واعتزلهن اعتزالا ناشئا من حياة الأديرة ، فقد كان لابد أن يكون سيئ الظن بالنساء ، وأن يتحدث عنهن حديث الرجال ، وليس عليه فى هذا لوم . وهو يحذو حذو أرسطو فى أنانيته البالغة الخطورة حين يظن أن الطبيعة كبطارقة العصور الوسطى ترغب على الدوام فى أن تخرج ذكوراً ، وأن المرأة مخلوق عاجز عارض ، أو أنها ذكر أخطأه التوفيق (mas occasisnatum) ، وأكبر الظن — على حد قوله — أنها نتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر خارجى مثل ريح جنوبية رطبة[١١١] . وكان يظن بالاعتماد على آراء أرسطو وبعض معاصريه فى علم الأحياء أن المرأة ليس لها إلا المادة المنفعلة فى الذرية ، أما الرجل فهو الذى يعطى الصورة الفاعلة ؛ وأن المرأة هى انتصار المادة على الصورة ؛ وهى من ثم أضعف الأوعية فى الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها

(*) لم يكن تومس يعرف أن الكنيسة ستقر نظرية الحمل بلا دنس الخاصة بالعذراء — أى تحررها من التلوث بالخطيئة الأولى — ولهذا ظن أن مريم أيضاً قد « حملت فى إثم » وقد أضاف إلى ذلك فى شهامة لم تمح ما قرره قبل « أنها قد طهرت قبل أن تلد من الرحم »[١١٩] .

مع الإنسان شأن الحواس مع العقل . وفيها تسود الشهوة الجنسية ؛ أما الإنسان فهو المعبر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما صُوِّرا فى صورة الله ، ولكن الرجل أشبه به من المرأة . والرجل هو مبدأ المرأة وغايتها ، كما أن الله هو مبدأ الكون وغايته ، وهى تحتاج إلى الرجل فى كل شىء ، أما هو فلا يحتاجها إلا للتناسل ؛ والرجل قادر على أن يؤدى جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة — لا يستثنى من هذا العناية بالبيت(١١٢) ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام فى الكنيسة أو الدولة ؛ وهى جزء من الرجل وإن شئت الدقة الحرفية فهى ضلع من ضلوعه(١١٣) ؛ وعليها أن تنظر إلى الرجل نظرتها إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاده ، وتخضع لتقويمه وتأديبه ، وبهذه الطريقة تؤدى رسالتها وتحظى بسعادتها .

هذا هو ما يقوله تومس عن المرأة ؛ أما الشر فيبذل غاية جهده ليثبت أنه فى نظر علم ما وراء الطبيعة لا وجود له ؛ ويقول إن الشر ليس موجوداً إيجابيا ، لأن كل حقيقة بوصفها حقيقة خير(١١٤) ؛ وليس الشر إلا غياب صفة أو مقدرة يجب أن تكون موجودة فى الكائن بطبيعته ، أو هى الحرمان من هذه الصفة أو المقدرة . فليس شراً فى الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشر فى الطائر ألا تكون له يدان . وكل شىء طيب كما خلقه الله ، ولكن الله نفسه لا يستطيع أن ينقل كماله اللانهائى إلى مخلوقاته . والله يجيز بعض الشرور بقصد الوصول إلى بعض الغايات الخيِّرة أو لمنع شرور أشد منها كما « تجيز بعض الحكومات ... بحق بعض الشرور — كالعهر مثلا — خشية ... أن يؤدى منعها إلى أضرار أشد منها »(١١٥) .

والخطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذى هو أيضاً نظام الكون . ونظام العقل هو التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات ، وهو فيما يختص بالإنسان تكييف السلوك بحيث يؤدى إلى السعادة السرمدية . والله يهنا

حرية ارتكاب الخطأ ، ولكنه يهبنا أيضاً ، بوحيه الإلهي ، الشعور بالصواب والخطأ . وهذا الضمير الغريزي ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع مهما تكن النتيجة ؛ فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشيء يخالف ضميره وجب عليه أن يعصى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر ، وجب عليه أن ينفر من ذلك الدّين[١١٦] .

والضمير في الأحوال العادية لا يميل بنا إلى الفضائل الطبيعية وحدها كالعدالة ، والفطنة ، والجلَد ، بل يميل بنا أيضاً إلى الفضائل التي يأمرنا بها الدين كالإيمان ، والأمل ، والصدقات . وهذه الثلاث الصفات الأخيرة هي الصفات الخلقية التي يمتاز بها الدين المسيحي ، وهي أيضاً سبب مجده . والإيمان واجب أخلاقي على الإنسان لأن العقل البشري قاصر محدود ؛ فعلى الإنسان أن يصدق تصديقاً قائماً على الإيمان عقائد الكنيسة التي تعلو على إدراك العقل وعقائدها التي يستطيع أن يعرفها بطريق العقل . وإذا كان الخطأ في شئون الدين قد يؤدي بالإنسان إلى الجحيم ، فإن من الواجب ألا يتسامح في عدم الإيمان إلا إذا قصد بذلك تجنب شر أكبر ؛ « فالكنيسة قد أجازت في بعض الأحيان شعائر الملحدين والوثنيين أنفسهم ، حين كان غير المؤمنين كثيري العدد »[١١٧]. ويجب ألاّ يسمح لغير المؤمنين بأن يكون لهم السيطرة أو السلطان على المؤمنين[١١٨] ؛ ويمكن التسامح بوجه خاص مع اليهود لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحي قبل ظهوره ، فتشهد بذلك على صحة هذا الدين[١١٩] . ويجب ألا يُرغم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحي[١٢٠] ، ولكن الملحدين — وهم الذين تخلوا عن إيمانهم بعقائد الكنيسة — يجوز إرغامهم دون أن يكون في ذلك حرج على من يرغمهم[١٢١] . ويجب ألا يعدّ أي إنسان ملحداً إلا إذا أصرّ على خطئه بعد أن تبينه له سلطة كهنوتية ؛ والذين يرجعون عن إلحادهم يمكن أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، بل يمكن فوق ذلك أن تعاد لهم كرامتهم الأولى ؛ فإذا عادوا

إلى الخادم « جاز أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، ولكنهم لا ينجون من آلام الموت »[١٢٢] .

٦ — علم السياسة

كتب تومس في الفلسفة السياسية ثلاث مرات : في شرحه لكتاب **السياسة** لأرسطو ، وفي **الخلاصة في اللاهوت** ، وفي رسالة قصيرة تسمى : **في حكم الأمراء** De regimine principum[*]. ويبدو لأول وهلة أن تومس إنما يُعيد أقوال أرسطو ، ولكننا إذا واصلنا القراءة أدهشتنا كثرة ما في كتاباته من أفكار أصيلة قاطعة .

فهو يقول إن التنظيم الاجتماعي أداة أوجدها الإنسان بدلا من أعضاء الجسم للحصول على مطالبه والدفاع عن نفسه ، وإن المجتمع والدولة قد وجدا للفرد ، ولم يوجد الفرد للمجتمع والدولة ، وإن السيادة تأتي من عند الله وهي حق للشعب ؛ ولكن الشعب كثير العدد ، مشتت ، متقلب ، جاهل ، وهو لذلك عاجز عن أن يمارس حقوق السيادة بنفسه وبحكمة ؛ ولهذا فإنه يكل هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذا النحو يستطاع إلغاؤه على الدوام ، و « لا يحتفظ الأمير بسلطة التشريع إلا من حيث هو ممثل لإرادة الشعب »[١٢٣] .

ويمكن أن ينيب الشعب عنه في ممارسة سيادته عدداً كبيراً من الناس أو عدداً قليلا منهم أو فرداً واحداً . وتصلح الدمقراطية ، والأرستقراطية ، والملكية إذا صلحت القوانين وحسن تنفيذها . ويمكن القول بوجه عام إن خير

(*) لم يكتب تومس من هذه الرسالة إلا الكتاب الأول والفصول ١ — ٤ من الكتاب الثاني . أما بقية الرسالة فقد كتبها بطليموس اللوقي Ptolemy of Lucca .

أنواع الحكومات هو الحكومة الملكية الدستورية ، لأنها تمكن للوحدة ، والاستمرار ، والاستقرار . « وحكم الجماهير » كما يقول هوميروس « على يد الفرد خير من حكمهم على أيدى الكثيرين »[١٢٤] . غير أن الأمير أو الملك يجب أن يختاره الشعب من أية طبقة حرة من السكان[١٢٥] ؛ وإذ استبد الملك وجب خلعه بعمل منظم يقوم به الشعب[١٢٦] ، ويجب أن يظل على الدوام خادم القانون لا سيده .

والقانون ثلاثة أنواع : قانون طبيعى مثل « القوانين الطبيعية للكون » ؛ وإلهى كالقوانين الواردة فى الكتاب المقدس ، وبشرى أو وضعى كالقوانين التى تسنها الدولة . وقد أصبح النوع الثالث منها ضرورياً بسبب ما فى طباع الناس من انفعالات ، وبسبب قيام الدولة . ومن أجل هذا كان آباء الكنيسة يعتقدون أن الملكية الفردية تتعارض مع الشريعتين الطبيعية والإلهية ، وأنها نتيجة لنزعة الإنسان فى ارتكاب الآثام . ولكن تومس لا يعترف بأن الملكية تتعارض مع القوانين الطبيعية ؛ فهو يبحث فى حجج الشيوعيين أيامه ويرد عليهم كما يرد أرسطو بأن إذا كان كل واحد من الناس يملك كل شىء فإن أحداً من الناس لا يعنى بأى شىء[١٢٧] . غير أن الملكية الفردية — فى رأيه — وديعة عامة ، « فالإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا ما احتاجوا إليها »[١٢٨] . وإذا ما اشتهى الإنسان الكثير الزائد من الثروة ، أو سعى إلى أكثر مما يحتاجه منها لحفظ مركزه فى الحياة ، كان طامعا أثيما[١٢٩] . « وكل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجتهم إنما يقصد به حسب القانون الطبيعى مساعدة الفقراء » و « إذا لم يوجد علاج آخر فإن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره ، بالاستيلاء عليه سراً أو جهراً »[١٣٠].

ولم يكن تومس الرجل الذى يجعل الاقتصاد علماً مملا غير شيق بفصله عن

الأخلاق . فكان يؤمن بحق الجماعة فى تنظيم أعمال الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والإشراف على الربا ، وبلغ منه أن طالب بتحديد « ثمن عادل » للخدمات والسلع . وكان ينظر بعين الريبة إلى عملية الشراء بثمن منخفض والبيع بثمن مرتفع . ويندد أشد التنديد بجميع أنواع المضاربة فى التجارة ، وبكل المحاولات التى تبذل للحصول على الكسب بالمهارة فى الاستفادة من تقلبات السوق(١٣١) . وكان يعارض فى الإقراض بفائدة ، ولكنه لا يرى إثما فى الاقتراض « لغرض طيب » من مقرض محترف(١٣٢)

ولم يكن أرقى من أهل زمانه فى نظرته إلى الاسترقاق ، فقد كان الفقهاء السوفسطائيون ، والرواقيون ، والرومان ، يعلمون أن الناس « بطبيعتهم » أحرار ؛ وكان آباء الكنيسة يوافقون على الرق ويفسرونه كما يفسرون الملك بأنه ناشئ من نزعة الإنسان الآثمة التى كسبها نتيجة لسقوط آدم . وبرر أرسطو صديق الأقوياء الرق بزعمه أنه نتيجة لعدم المساواة الطبيعية فى الإنسان . وحاول تومس أن يوفق بين هذه الآراء المتعارضة : فقال إنه لم يكن ثمة رق فى حالة البراءة ، أما بعد سقوط آدم فقد وجد أن من الخير إخضاع السذج للعقلاء ، لأن من لهم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد أريد لهم بحكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء(١٣٣) . لكن العبد ليس ملكا لسيده إلا بجسمه لا بروحه ؛ وليس العبد مرغما على قبول الاتصال الجنسى بالسيد ، ويجب أن تتبع قواعد الأخلاق المسيحية بأجمعها فى معاملة العبد .

٧ – الدين

وبدا لتومس أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية فى آخر الأمر مسائل أخلاقية ، فإن من العدل أن يوضع الدين فى مرتبة أعلى من مرتبة السياسة والصناعة ، وأن تخضع الدولة فى مسائل الأخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها

وكلما سمت أغراض السلطة ازداد نبلها ؛ ويجب أن يخضع ملوك الأرض ، الذين يهدون الناس إلى السعادة الدنيوية ، لسلطان البابا الذى يهدى الناس إلى السعادة الأبدية . على أنه يجب أن تبقى الدولة صاحبة السلطان فى الشئون الدنيوية ، غير أن من حق البابا فى هذه الشئون نفسها أن يتدخل إذا خالف الحكام قواعد الأخلاق الصالحة أو تسببوا فى الإضرار بشعوبهم إضرراً كان يستطاع تجنبه . ولهذا فمن حق البابا أن يعاقب الملك المسىء أو يعفى رعاياه من يمين الولاء له ؛ وفوق هذا فإن من واجب الدولة أن تحمى الدين ، وتؤيد الكنيسة ، وتنفذ قراراتها[١٣٤] .

والمهمة العليا للكنيسة أن تهدى الناس إلى سبيل النجاة ؛ وليس الإنسان مواطناً فى هذه الدولة الأرضية وحدها ، بل هو فوق ذلك مواطن فى مملكة روحية أعظم إلى أبعد حد من أية دولة أخرى . وحقائق التاريخ الكبرى تنبئ أن الإنسان قد ارتكب جرماً لا حد له بعصيان الله ، فاستحق بهذا العصيان عقاباً لا حد له ، وأن الله الابن قد أصبح إنساناً وقاسى العار والموت ، وأنه قد خلق رصيداً من البركة المنجية يستطيع الإنسان أن ينجو به رغم خطيئته الأولى ؛ والله يهب من يشاء من هذه البركة ما يشاء ؛ وليس فى مقدورنا أن نتبين أسباب اختياره ، ولكن « ما من أحد من الناس قد بلغ من الجنون حداً يقول معه إن الجدارة هى سبب الاختيار الإلهى »[١٣٥] . وتتردد عقيدة بولس وأوغسطين الرهيبة فى أقوال تومس الرفيق الظريف :

« من الخير أن يسيّر الله الإنسان بقضائه وقدَره ، لأن الأشياء جميعاً خاضعة لمشيئته ... وإذ كان الناس قد هيئوا للحياة السرمدية بمشيئة الله ، فإن من مشيئة الله أيضاً أن يسمح لبعضهم أن يعجزوا عن بلوغ هذه الغاية ، وهذا هو ما يسمى « الشقاء » ... وإذ كان قضاء الله وقدَره يشمل إرادته فى أن يهب البركة والمجد ، فإن الشقاء أيضاً يشمل إرادته فى أن يسمح لشخص ما أن يقع فى الخطيئة ،

وأن يعاقب على تلك الخطيئة بعذاب الجحيم . . . » اختارتنا فيه قبل تأسيس العالم »[١٣٦] .

ويبذل توماس ما وسعه من جهد ليوفق بين قضاء الله وقدَره وبين حرية البشر ، وبين لِمَ يجب على الإنسان الذى قُدّر له مصيره أن يعمل لكسب الفضيلة ، وكيف تستطيع الصلوات أن تؤثر فى الله الذى لا يتغير ولا يتحول ، وماذا يكون عمل الكنيسة فى مجتمع قسّم أفراده من قبل إلى ناجين ومعذَّبين ؟ وهو يجيب عن هذا بأن كل ما هنالك أن الله قد عرف من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؛ وهو يفترض أن الوثنيين جميعهم من المعذبين مع جواز استثناء عدد قليل منهم بعث الله إليهم بوحى شخصى خاص[*][١٣٧] .

وأعظم ما يناله الناجون من السعادة هو فى رأيه رؤية الله ؛ وليس معنى هذا أنهم سيفهمونه ؛ إذ لا يفهم اللانهائىَّ غيرُ اللانهائى ؛ بيد أن المنعمين بما ينفخ فيهم من النعمة الإلهية سوف يشهدون جوهر الله[١٣٩] . وبما أن الخليقة كلها قد نشأت من الله فإنها ستعود إلى الله ، والنفس البشرية التى هى منحة من كرمه لا تستريح حتى تعود فتنضم إلى مصدرها . وهكذا تتم الدورة المقدسة دورة الخلق والعودة ، وتختتم فلسفة توماس كما بدأت بالله .

٨ — كيف استقبلت فلسفة توماس ؟

لقد رأت الكثرة الغالبة من معاصريه أنها تكديس فظيع للاستدلالات الوثنية شديدة الخطر على الدين المسيحى ؛ وصدمت مشاعرَ الرهبان الفرنسيس الذين كانوا يسلكون لمعرفة الله طريق الحب الصوفى الذى يقول به أوغسطين

(*) إن الفقرة التى تقول إن كثيراً من المنعمين فى الجنة يزيد نعيمهم بمشاهدة عذاب المعذبين توجد فى ملحق كتاب الخلاصة (٩٧ : ٧) وليست هذه الفقرة المخزية من أقوال توماس بل هى من أقول ريچنلد الپيرنوى[١٣٨] .

« نزعةُ » تومس « العقلية » ، ورفعُه العقل فوق الإرادة ، والفهم فوق الحب . وعجب الكثيرون كيف يمكن الدعاء والصلاة لإله فاتر ، سلبي ، يُعبد كالإله الموصوف فى كتاب **الخلاصة** ؟ وكيف يمكن أن يكون عيسى جزءاً من هذا المعنى المجرد ؟ وماذا كان يقول القديس فرانسس عن الله أو بأى شيء كان يتحدث إليه ؟ وبدا لهم قوله إن الجسم والنفس يكونان وحدة سيقضى على عقيدة خلود النفس وعدم فسادها ، وقوله إن المادة والصورة وحدة سيؤدى ، رغم إنكار تومس المتكرر ، إلى الانحدار إلى نظرية ابن رشد القائلة بأن العالم أزلى ، وإن المادة ، لا الصورة ، هى مبدأ الانفرادية سيحول دون التفرقة بين نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشد القائلة بوحدة النفس وخلودها اللاشخصى . وشر من هذا كله أن غلبة أرسطو على أوغسطين فى فلسفة تومس قد بدت للرهبان الفرنسيس كأنها انتصار للوثنية على المسيحية . ألا يوجد من الآن فى جامعة باريس معلمون وطلاب يرفعون كتب أرسطو فوق الأناجيل ؟

ودافعت المسيحية « السنية » عن نفسها فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر عن فلسفة تومس الأرسطوطيلية ، كما قاوم أهل السنة المسلمون ابن رشد لاعتناقه فلسفة أرسطو ونفوه ، وكما حرق اليهود السنيون فى بداية القرن الثالث عشر كتب ابن ميمون لنزعته الأرسطوطيلية . فقد حدث فى عام ١٢٧٧ أن أصدر أسقف باريس بإيعاز البابا يوحنا الحادى والعشرين مرسوما باعتبار ٢١٩ قضية من قضايا تومس خروجا على الدين . وكان من بين هذه القضايا ثلاث « بنوع خاص » اتهم بها الأخ تومس ، وهى قوله إن الملائكة لا أجسام لها ، وإن كل واحد منهم يكون بمفرده نوعا منفصلا عن غيره ؛ وإن المادة أساس الانفرادية ؛ وإن الله لا يستطيع مضاعفة الأفراد فى نوع ما من غير المادة . وقال

الأسقف إن كل من يعتنق هذه العقائد يُعدّ بهذا العمل وحده محروما من الدين . وبعد أيام قلائل من صدور هذا المرسوم أقنع ربرت كلواردبي Robert Kilwardby أحد كبار الرهبان الدمنيك أساتذة جامعة أكسفورد بأن ينددوا ببعض عقائد تومس ومنها وحدة النفس والجسد فى الإنسان .

وكان قد مضى على وفاة تومس فى ذلك الوقت ثلاث سنين ، ولم يكن فى وسعه أن يدافع عن نفسه ، ولكن ألبرت أستاذه القديم ، اندفع من كولونى إلى باريس وأقنع رهبان فرنسا الدمنيك بأن يشدوا أزر زميلهم وأخيهم ؛ ودخل راهب فرنسيسى يدعى وليم ده لا مار William de la Mare فى المعركة برسالة سماها : Correctorium fratris Thomae يقول فيها إن تومس على حق فى ١١٨ نقطة ، فقام راهب فرنسيسى آخر يدعى يوحنا بكهام ، كبير أساقفة كنتربرى يندد رسميا بفلسفة تومس وينادى بالعودة إلى بونا فنتورا والقديس فرانسس . وانضم دانتى إلى المتنازعين فصاغ من فلسفة تومس فلسفة معدلة كانت الإطار العام الذى وضع فيه **الملهاة المقدسة** ، واختار تومس ليقوده على السلم الموصل إلى أعلى سماء . ودامت الحرب مائة عام أقنع بعدها الرهبان الدمنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن تومس من القديسين ، وكان تقديسه (١٣٢٣) انتصاراً لفلسفته . ووجد المتصوفة من ذلك الوقت فى كتاب **الخلاصة**[١٤٠] أعمق وأوضح عرض للحياة الصوفية الأكرية . ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ — ١٥٦٣) وضع كتاب **الخلاصة** على المذبح إلى جانب الكتاب المقـــدس وكتاب القوانين الكنسية[١٤١] . وفرض إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola على اليسوعيين أن يعلّموا فلسفة تومس ، وقرر البابا ليو الثالث عشر فى عام ١٨٧٩ ،

والبابا بندكت الخامس عشر فى عام ١٩٢١ أن تكون مؤلفات تومس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، وإن لم يعلنا أن هذه المؤلفات سليمة من الأخطاء ؛ وهذه الفلسفة تدرس الآن فى جميع كليات الروم الكاثوليك ؛ ولقد كسبت لها أنصاراً جدداً فى وقتنا الحاضر ، وإن كان لها نقاد من بين علماء الدين الكاثوليك ، وهى الآن من أقوى أنظمة التفكير الفلسفى تأثيراً وأبقاها على الزمن ، لا تقل فى ذلك عن الأفلاطونية والأرسطوطيلية .

وبعد فإن من السهل على من يقف الآن على كتفى السبعمائة العام الأخيرة أن يشير فى مؤلفات أكونوس إلى بعض العناصر التى لم تثبت الأيام صحتها . وإن مما يعيبه ويشرفه معاً أنه كان كثير الاعتماد على أرسطو ، وبقدر هذا الاعتماد كان يعوزه الابتكار ويظهر من الشجاعة ما أنار السبل للعقول فى العصور الوسطى . وعنى تومس بالحصول على تراجم دقيقة لأرسطو منقولة عن اللغة اليونانية مباشرة ، فكان لهذا يجيد معرفة مؤلفاته الفلسفية (لا العلمية) أكثر مما يجيد معرفتها أى مفكر آخر فى العصور الوسطى عدا ابن رشد . ولم يكن يستنكف أن يأخذ العلم عن المسلمين واليهود ، ويعامل فلاسفتهم باحترام صادر عن وثوقه بنفسه . وإنا لنجد فى نظامه الفلسفى قدراً كبيراً من السخف والأباطيل التى نجد مثلها فى جميع الفلسفات التى لا تتفق مع فلسفتنا ؛ وإن من أعجب الأشياء أن يكتب هذا الرجل المتواضع بمثل ما كتب من الطول عن الطريقة التى يعرف بها الملائكة ما يعرفون ، وعما كان عليه الإنسان قبل سقوطه ، وعما كان يؤول إليه أمر الجنس البشرى لولا رغبة حواء فى المعرفة . ولعلنا نخطئ إذ نفكر فيه على أنه فيلسوف : فقد كان هو نفسه أميناً إذ سمى مؤلّفه كتاباً فى علم الدين ، ولم يدع أنه يسير وراء العقل إلى حيث يقوده ، ويعترف أنه يبدأ بنتائجه ، وهو عمل يسمه معظم الفلاسفة بأنه خيانة للفلسفة وإن كانت كثرتهم تفعله . وقد كان

مجال بحثه أوسع مما جروء عليه مفكر بعده عدا اسپنسر ، وكان فى كل ميدان واضحاً هادئ المزاج بعيداً عن المغالاة يبحث عن الطريقة الوسطى المعتدلة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « أن الرجل العاقل يخلق النظام »[١٤٢] . ولم يفلح فى التوفيق بين أرسطو والمسيحية ، ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيراً إلى قاعة الدين ؛ ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان .

الفصل السابع

خلفاء تومس

يسرف المؤرخ على الدوام فى التبسيط ، ويتعجل فيعمد إلى حشد كبير من الأنفس والحوادث لا يستطيع قط أن يلم بها كل الإلمام أو يفهمها كل الفهم ، ويختار من بينها عدداً قليلا من الحقائق والوجوه يراها أطوع لقلمه من غيرها . وليس من حقنا أن نظن أن الفلسفة المدرسية معانى مجردة أزيلت منها آلاف الحقائق الغريبة ؛ بل علينا أن ننظر إليها على أنها اسم غامض غير دقيق يطلق على مئات الفلسفات المتناقضة والنظريات اللاهوتية التى كانت تعلّم فى مدارس العصور الوسطى من أيام أنسلم فى القرن الحادى عشر إلى أيام أكام Occam فى القرن الرابع عشر . والمؤرخ يخضع أشد الخضوع وأثقله على نفسه لقصر الوقت ونفاد الصبر الذى هو من طبيعة بنى الإنسان ؛ ويخط سطراً واحداً يحط به من قدر رجال خلّدوا أسماءهم فى أحد الأيام ولكنهم اختفوا الآن فى طيات التاريخ .

وكان من أعجب الشخصيات فى القرن الثالث عشر المليء بذوى المواهب المتعددة من الرجال رامون لُلْ Ramon Lull أو ريمند لَلّى Raymond Lully (١٢٣٢ ؟ – ١٣١٥) . وقد وُلد فى پالما لأسرة قطالية Catalan وشق طريقه إلى بلاط جيمس الثانى فى برشلونة ، واستمتع بشباب صاخب ، ثم أخذ يضيّق نطاق عشقه حتى اكتفى بزوج واحدة . ولما بلغ سن الثلاثين نبذ على حين غفلة ملاذ العالم ، والجسم ، والشيطان ، ووهب نشاطه المتعدد النواحى للتصوف والمعارف الخفية ، وحب الإنسانية ، والتبشير بالدين ، والسعى للاستشهاد . ثم درس اللغة العربية ، وأنشأ كلية للدراسات العربية فى ميورقة ، وطلب إلى مجلس

ثينا أن ينشئ مدارس للغات والآداب الشرقية تعد الناس للتبشير بين المسلمين واليهود . واستجاب المجلس لرغبته وأنشأ خمس مدارس من هذا النوع — فى رومة ، وبولونيا ، وباريس ، وأكسفورد ، وسلمنقة — كان فيها كراسى للغات العبرية والكلدانية ، والعربية . ولعل للى نفسه تعلم اللغة العبرية لأنه أصبح عالما متبحراً فى القبالة .

ويستحيل علينا أن نقسم مؤلفاته البالغ عددها ١٥٠ أصنافا . وحسبنا أن نسجلها هنا فنقول إنه فى شبابه أنشأ الأدب القطالى بان كتب عدة مجلدات من الشعر الغزلى ؛ ثم ألف باللغة العربية كتاباً ترجمه فيما بعد إلى اللغة القطالية «كتاب التفكير فى الله» . وليس هذا الكتاب مجرد حلم صوفى بل هو موسوعة فى علوم الدين من ألف ألف كلمة (١٢٧٢) . وبعد عامين من ذلك الوقت ، وكأنما بدل نفسه ، ألف كتاباً فى حرب الفروسية ، وألف فى الوقت عينه تقريباً كتاباً فى التربية سماه «كتاب فى عقائد الشباب» ، ثم جرب حظه فى الحوار الفلسفى ونشر فيه ثلاثة كتب يعرض فيها وجهات النظر الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية الرومانية ، والتتارية ، بتسامح ونزاهة ، ورفق ، تثير الدهشة . وألف حوالى عام ١٢٨٣ رواية دينية طويلة سماها **بلانكيرنا** Blanquerna حكم الخبراء الذين أوتوا الصبر على قراءتها بأنها «من روائع آداب العصور المسيحية»[١٤٣] . ثم أصـــدر فى رومة عام ١٢٩٥ موســوعة أخرى سماها **شجرة العلم** Arbre de sciencis حوت أربعة آلاف سؤال فى ستة عشر علماً مع أجوبة عنها موثوق بها . وحارب أثناء مقامه فى باريس (١٣٠٩ — ١٣١١) فلسفة ابن رشد التى كانت آثارها لا تزال باقية فيها ، وذلك فى عدة مؤلفات دينية صغرى وقعها بإمضاء دقيق دقة لم يعتدها وهو Phantasticus «الواهم» وظل خلال حياته الطويلة يصدر مجلدات فى العلوم والفلسفة بلغت من الكثرة حداً يصعب معه حصرها .

وافتتن فى أثناء هذه المشاغل كلها بفكرة استهوت عقول العباقرة فى هذه الأيام — وهى أن جميع قوانين المنطق وعملياته يمكن ردها إلى صور رياضية أو رمزية . فيقول ريمند إن « الفن العظيم » — فن المنطق — هو كتابة المدركات الأساسية للفكر البشرى على مربعات متحركة ، ثم جمع هذه المربعات فى أوضاع مختلفة ليس القصد منها رد جميع الأفكار الفلسفية إلى معادلات وأشكال فحسب ، بل يقصد بها كذلك أن تثبت بالمتساويات الرياضية حقائق الدين المسيحى . وكان ريمند يتصف بما يتصف به بعض مرضى العقول من دعة ولطف ، فيأمل أن يرد المسلمين عن دينهم إلى الدين المسيحى بتأثير فنه المقنع . ورحبت الكنيسة بهذه الثقة ، ولكنها لم ترض عما اقترحه من رد جميع أصول الدين إلى العقل ووضع التثليث والتجسد على مشرحة منطقه[١٤٤] .

واعتزم فى عام ١٢٩٢ أن يستعيض عن استيلاء المسلمين على فلسطين بتحويل أفريقية الشمالية إلى بلاد مسيحية ، فعبّر البحر إلى تونس ، ونظم فيها سراً جالية مسيحية صغيرة ، ثم قبض عليه فى عام ١٣٠٧ أثناء رحلة تبشيرية إلى تلك البلاد وجىء به أمام قاضى القضاة . وعقد القاضى مناقشة علنية بين ريمند وبعض علماء الدين المسلمين . ويقول صاحب سيرة ريمند إنه انتصر فيما دار من نقاش وإنه ألقى فى السجن ، ولكن بعض التجار المسيحيين أفلحوا فى إنقاذه وإعادته إلى أوربا . ويلوح أنه كان يتوق إلى الاستشهاد فعبر البحر مرة أخرى إلى بوجى فى عام ١٣١٤ ، وأخذ يدعو للمسيحية علناً فرجمه الغوغاء المسلمون بالحجارة حتى مات (١٣١٥) .

وإذا انتقلنا من ريمند للى إلى جون دنز اسكوتس John Duns Scotus كنا كمن ينتقل من **فاوست** إلى **كلافيكو الصافية المزاج**[*] . واشتق

(*) تمثيليتان غنائيتان أولاهما لبيزيه والثانية لبانغ .   (المترجم)

اسما چون الثانى والثالث من مسقط رأسه فى دنز Duns من أعمال بروكشير (؟) Bérwick-shire ولما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير للرهبان الفرنسيس فى دنفريز Dunfries ، وانضم إلى طائفة الرهبان رسمياً بعد أربع سنين من دخول الدير . وتلقى العلم فى جامعتى أكسفورد وباريس ثم علّم أكسفورد ، وباريس ، وكولونى ، ومات وهو كهل فى الثانية والأربعين من عمره (١٣٠٨) ، بعد أن خلف وراءه عدداً جماً من المؤلفات معظمها فيما وراء الطبيعة تمتاز كلها بالغموض والخفاء بدرجة يندر أن تظهر مرة أخرى فى الفلسفة إلا إذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنزاسكوتس ليشبه إلى حد كبير عمل كانت الذى جاء بعده بخمسة قرون — فهو يقول إن العقائد الدينية يجب أن يدافع عنها بأنها لا غنىً عنها من الوجهة الأخلاقية العملية لا بتماسكها المنطقى . ورضى الرهبان الفرنسيس أن يقبلوا الفلسفة لينقذوا أوغسطين من تومس الدمنيكى فاتخذوا دكتورهم الشاب بطلا لهم ونصيراً ، وانضووا تحت لوائه ، فى حياته وبعد مماته ، طوال عدة أجيال من الحرب الفلسفية .

وكان دنز هذا ذا عقل من أشد العقول توقداً وذكاء فى تاريخ العصور الوسطى . فقد درس الرياضة وغيرها من العلوم ، وتأثر فى أكسفورد بجروستستى وروجر بيكين ، فتكونت لديه فكرة صارمة عما يجب أن يكون البرهان الصحيح ، وطبق هذا الاختبار على فلسفة تومس فقضى بذلك على تهوره فى اقتران الدين والفلسفة ، ولما يكد هذا الاقتران يتم شهر العسل . وكان دنز يفهم الطريقة الاستقرائية فى المنطق ولكنه كان يقول عكس ما يقوله فرانسس بيكن بالضبط ، وهو أن كل استقراء ، أى برهان — من النتيجة إلى العلة — برهان غير موثوق به ، وإن البرهان الحقيقى الوحيد هو البرهان الاستنتاجى أى إظهار أن نتائج معينة لا بد أن تحدث من طبيعة العلة ذاتها . مثال هذا أننا إذا أردنا أن نثبت وجود الله فإن علينا أن ندرس أولا علم ما وراء الطبيعة — أى أن

تدرس « الكائن بوصفه كائناً » ، ثم نصل عن طريق المنطق الدقيق إلى الصفات الجوهرية للعالم . وفى عالم الجواهر لا بد أن يكون هناك جوهر هو مصدر كل ما عداه منها وهو **الكائن الأول** ، وهذا الكائن الأول هو الله . ويتفق دنز مع تومس فى أن الله هو **الحقيقة الخالصة** ولكنه لا يفهم تلك العبارة على أنها الواقعية الخالصة بل يفهم منها أنها الفاعلية الخالصة . فالله هو أولا إرادة لا عقل ، وهو علة العلل جميعها ، وهو أزلى ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عنه بطريق العقل . أما أنه إله الرحمة ، وأنه ثلاثة فى واحد ، وأنه خلق العالم فى وقت ، وأنه يسيطر على جميع الأشياء بقدرته — هذه وجميع عقائد الدين المسيحى كلها تقريباً يجب أن نؤمن بها أى أن نصدقها اعتماداً على الكتب المقدسة والكنيسة ولكنا لا نستطيع إثباتها بالفعل . والحق أننا فى الساعة التى نبدأ فيها باستخدام العقل فى إثبات وجود الله نقع فى متناقضات تحيرنا (وهى التى يسميها كانْت « متناقضات العقل الخالص ») . وإذ كان الله قادراً على كل شيء ، فهو علة كل النقائص ، ومنها كل الشرور ؛ وإذن تكون العلل الثانوية ومنها الإرادة البشرية ، وهماً لا حقيقة ولكى نتلافى هذه النتائج الهدامة ، ولما كانت العقيدة الدينية لازمة للحياة الأخلاقية (وهو ما يسميه كانت « العقل العملى ») فإن من الحكمة ألا نلجأ إلى فلسفة تومس التى تحاول أن تثبت الدِّين بالفلسفة ، وأن نقبل عقائد الدين بالرجوع إلى الكتاب المقدس وإلى الكنيسة[١٤٥] . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله ولكننا قادرون على أن نحبه ، وهذا الحب خير من المعرفة[١٤٦] .

ودنز فى علم النفس « واقعى » من الطراز الدقيق الخاص به : فالكليات عنده حقيقة موضـــوعية بمعنى أن تلك المظاهر الموحدة التى يجردها العقل من الأجسام المتماثلة ليكون منها فكرة عامة ، لابد أن تكون موجودة فى الأجسام ، وإلا لما استطعنا أن ندركها ونجردها . وهو يتفق مع تومس فى أن جميع المعرفة

الطبيعية مستمدة من الحواس ، أما فيما عدا هذا فإنه يخالفه فى جميع آرائه الفلسفية . فهو يقول إن أساس الانفرادية ليس هو المادة بل الصورة ، والصورة بمعناها الضيق الدقيق الذى نستطيع أن نقول عنها « هـــذه » haecceitas — أى الصفات الخاصة والعلامات المميزة للشخص أو الشىء الفردى . وليست مواهب النفس مُميَّزة بعضها عن بعض ، وليست من النفس ذاتها . وليست موهبة النفس الأساسية هى الفهم بل هى الإرادة ، فالإرادة هى التى تعين الإحساس أو القصد الذى يجب أن يتجه إليه العقل ، والإرادة voluntas وحدها لا قوة الحكم (arbitrium) هى الحرة ؛ ومن رأيه أن قول تومس إن تعطشنا للاستمرار وللسعادة الكاملة يثبت خلود النفس قول مبالغ فيه لأنه يمكن تطبيقه على كل حيوان فى الحقول ، وليس فى مقدورنا أن نثبت الخلود الشخصى ، بل علينا أن نؤمن به لا أكثر .

وكان فى وسع الرهبان الدمنيك أن يروا فى دنز انتصار الفلسفة الغربية على الفلسفة الإسلامية ، كما كان الرهبان الفرنسيس يدعون أنهم يرون فى تومس انتصار أرسطو على الأناجيل ، ففلسفة ما وراء الطبيعة عنده هى فلسفة ابن رشد ، وفلسفة شرائع الكون هى فلسفة ابن جبيرول ، ولكن الحقيقة الأساسية الداعية إلى الأسى فى اسكوتس هى تخليه عن محاولته إثبات العقائد المسيحية الأساسية بالالتجاء إلى العقل . واشتط أتباعه فذهبوا فى هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة من ميدان العقل ، وضاعفوا بذلك ما وضعه من الفروق والمميزات الدقيقة إلى حد جعل لفظ « الدنزى » فى إنجلترا يعنى الأبله المولع بالتقسيم الشَّعرى ، والسوفسطائى : البليد والغبى(*) . وأبى الذين يحبون الفلسفة أن يخضعوا لعلماء اللاهوت الذين نبذوا الفلسفة وتنازعت الدراستان وافترقتا ؛ وأدى رفض الدين للعقل إلى رفض العقل للدين ، وانتهت بذلك المغامرة الجريئة الكبرى التى قامت فى عصر الإيمان .

(*) dunce واللفظ مشتق من اسمه duns . (المترجم)

وبعد فقد كانت الفلسفة المدرسية مأساة يونانية تكمن فى جوهرها الأسباب التى قضت عليها . ذلك أن فى محاولتها إثبات الدين عن طريق العقل اعترافا ضمنيا بسلطان العقل ، وأن اعتراف دنز اسكوتس وغيره بأن الدين لا يمكن إثباته بالعقل قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين فى القرن الرابع عشر إضعافا أدى إلى نشوب الثورة على طول جبهة العقائد الكنسية . لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية للمسيحية اللاتينية ، وكانت أشبه بجواد طروادة يخفى فى باطنه ألف عنصر من العناصر المعادية لهذا الدين . ولم تكن هذه البذور التى نبتت منها النهضة والاستنارة « هى انتقام الوثنية » من المسيحية فحسب ، بل كانت فوق ذلك انتقاما للإسلام على غير علم منه . فقد غزت المسيحية بلاد فلسطين ، وأخرجت المسلمين من أسبانيا كلها تقريبا فنقلوا علومهم وفلسفتهم إلى أوربا الغربية ، وكانت هذه العلوم والفلسفة قوة من القوى العاملة على تفكك المسيحية وتفرقها ، وكان ابن سينا وابن رشد ، كما كان أرسطو ، هما اللذين بثّا جراثيم النزعة العقلية فى أوربا المسيحية .

ولكن مهما يكن من عيوب المغامرة المدرسية فإن شيئا منها لا يمكن أن يغشى لألاءها الساطع . لقد كانت مغامرة جريئة مشهورة جرأة الشباب وتهوره ؛ وكان لها ما للشباب من إفراط فى الثقة وإسراف فى الجدل ؛ وكانت صوت أوربا الجديدة الناقهة التى كشفت من جديد قوة العقل المثيرة . ولقد استمتعت الفلسفة المدرسية فى خلال القرنين اللذين سمت فيهما إلى علياتها بحرية فى البحث ، والتفكير ، والتعليم ، لا نكاد نجد ما يفوقها فى جامعات أوربا فى هذه الأيام ؛ وذلك على الرغم من المجالس التى كانت تطارد الإلحاد وبالرغم من محاكم التفتيش ؛ واستطاعت بمعونة فقهاء القانون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن تشحذ عقول الغربيين بما صاغته من أدوات المنطق ومصطلحاته ، وبالاستدلال الدقيق

المتقن الذى لا يفوقه فى الفلسفة الوثنية شيء . وما من شك فى أن هذه السهولة فى الجدل قد أسرف فيها إسرافا كبيراً ، وأنها ولدت الجدل المفعم بالحشو ولغو الكلام « والتفتيت المدرسى » الذى لم يثر عليه روجر بيكن وفرانسس بيكن وحدهما ، بل ثارت عليه أيضاً العصور الوسطى نفسها(*) . ومع هذا فإن كفة الخير فى هذا التراث ترجح كفة الشر . ذلك أن « المنطق ، وعلم الأخلاق ، وما وراء الطبيعة » على حد قول كندورسيه Condorcet « مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من دقة لا يعرفها الأقدمون أنفسهم » ، كما يقول سير وليم همنتن إن « اللغات العامية مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من إحكام ودقة تحليلية »(١٤٩) ، وإن أكثر ما فى العقل الفرنسى من صفات خاصة ينفرد بها عما عداه — وهى حبه المنطق ، ووضوحه . ودقته — قد كوّنه المنطق أيام مجده فى مدارس فرنسا أثناء العصور الوسطى .

وكانت الفلسفة المدرسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تقدما ثوريا فى التفكير البشرى أو فى إعادته إلى سابق عهده . ذلك أن التفكير « الحديث » يبدأ بنزعة أبلار العقلية ، ويسمو إلى ذروته الأولى فى وضوح تومس أكوناس ومغامرته ، ويصاب بهزيمة مؤقتة على يد دنز اسكوتس ، يفيق منها على يد أكَّام ، ويستحوذ على البابوية حين يخضع ليو العاشر لسلطانه ، وعلى المسيحية حين يقبض على إرزمس Erasmus ، ويضحك بأعلى صوته فى ربليه ، ويبتسم فى منتانى ، ويصخب فى ڤلتير ، وينتصر متهكما فى هيوم ، ويحزن على ما فاته من نصر فى أناطول فرانس . ولقد كان الاندفاع وراء العقل فى العصور الوسطى هو الذى أقام هذه الطائفة من الفلاسفة المتهورين ذوى الأسماء اللامعة والعقول الباهرة .

(*) يحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis عن شاب قضى خمس سنين يدرس الفلسفة فى باريس على نفقة أبيه الذى لم يكن موفور المال ، فلما عاد أثبت لأبيه بمنطقه القاسى الصارم أن ست بيضات موضوعة على المائدة كانت اثنتى عشرة بيضة ، فما كان من الأب إلا أن أكل البيضات الست التى كان فى وسعه أن يراها وترك الأخرى لولده(١٤٨) .

الباب السابع والثلاثون

العلوم المسيحية

١٠٩٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

البيئة السحرية

كان الرومان فى أوج مجدهم الإمبراطورى يقدرون العلوم التطبيقية ، ولكنهم كادوا ينسون علوم اليونان البحتة . وإنا لنجد منذ العهد القديم فى كتاب **التاريخ الطبيعى** تأليف بلنى الأكبر خرافات يظنها الناس من اختراع العصور الوسطى ، ولا تكاد تخلو منها صحيفتان من ذلك الكتاب . ولقد تآزرت قلة عناية الرومان والمسيحيين بالعلوم حتى كادت تجدب البلاد منها قبل أن يغزوها البرابرة بزمن طويل وينثرون حطام المجتمع المدمر فى سبيل انتقال الثقافة . ودفن ما بقى فى أوربا من علوم اليونان فى مكتبات القسطنطينية ، وحتى هذا القليل الباقى امتدت إليه يد التدمير حين نهبت المدينة فى عام ١٢٠٤ . وهاجرت علوم اليونان فى القرن التاسع إلى بلاد المسلمين عن طريق الشام ، ونهبت أفكارهم فقامت فى بلادهم نهضة ثقافية من أعظم النهضات وأكثرها إثارة للدهشة فى التاريخ كله ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا المسيحية تجاهد للخروج من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لا بد للعلوم والفلسفة فى العصور الوسطى أن ينمو غرسهما فى جو من

الأساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفأل ، والطيرة ، والعفاريت ، والهولات ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهي العقائد التي لا تنتشر إلا في عصور الفوضى والخوف . كل هذه كانت توجد في العالم الوثني ، ولا تزال توجد في هذه الأيام ، ولكنها يخفف من حدتها فكاهة المدنية والعقول المستنيرة . وكانت ذات سلطان قوي عند الأقوام الساميين ، وأضحت لها الغلبة بعد أيام ابن رشد وابن ميمون ، وحطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادي عشر أسوار الثقافة في غربي أوربا ، وغمرت عقول الناس في العصور الوسطى في بحر زاخر من الآراء الغامضة الخفية والسذاجة التي تصدق كل ما يقال مهما كان بعيداً عن المعقول . وحسبنا أن نذكر مثلا لذلك أن أوغسطين كان يعتقد أن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة في صورة عفاريت ، وأن جن الحراج وجنياتها حقيقة[1] . كما كان أبلاريظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم بأعمال السحر لمعرفتها الوثيقة بأسرار الطبيعة[2] . وكان ألفنسو الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل النبوءات عن طريق النجوم[3] ؛ وإذ كان هذا هو اعتقاد أولئك الرجال فكيف يشك فيه من هم أقل منهم شأناً ؟

وتسربت طائفة كبيرة من الكائنات الخفية غير الطبيعية من الوثنية إلى المسيحية ، وكانت في الوقت الذي نتحدث عنه لا تزال تتسرب إليها من ألمانيا واسكنديناوة وأيرلندة في صورة سحَرة ، وجن ، ومردة ، وجنيات ، وأغوال وهولات عجيبة ، وشياطين وعفاريت تمتص الدماء . وظلت خرافات جديدة تدخل أوربا من بلاد الشرق ؛ فكان الأموات يمشون في الهواء في صورة أشباح ، وكان الخلائق الذين باعوا أنفسهم للشيطان يجوسون خلال الغابات والحقول كما كانت تجوس خلالها الذئاب ؛ وكانت أرواح الأطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا تغشى المستنقعات وتظهر للناس في صورة غاز المستنقعات المضيء ؛ ولما أن رأى القديس إدمند رتش St. Emund Rich جماعة من الغربان السود أدرك من

غوره أنها سرب من الشياطين جاءت لتحمل روح غراب فى تلك المنطقة(٤) ؛ وكانت كثير من قصص العصور الوسطى تقول إنه إذا أخرج شيطان من جسم رجل ، فإن فى مقدور من حوله أن يروا ذبابة كبيرة سوداء تخرج من فمه(٥) ؛ وكانت دنيا الشياطين لا يعتريها الضعف مطلقاً .

وكانت مئات الأشياء — كالأعشاب ، والحجارة ، والتمائم ، والأقراط ، والجواهر — تلبس لكى ترد بقوّتها السحرية الشياطين وتأتى للابسها بالحظ الطيب . وكان حذاء الفرس مجلبة للحظ الطيب لأنه على شكل الهلال ، الذى كان فى وقت ما إلهة معبودة ، وكان الملاحون الذين هم تحت رحمة العناصر الطبيعية ، والفلاحون الذين تتحكم فيهم تقلبات الأرض والسماء ، يرون خوارق الطبيعة أينما ساروا ، ويعيشون فى جو من الخرافات والأوهام . وانتقل الاعتقاد بأن لبعض الأعداد قوى سحرية من فيثاغورس عن طريق الآباء المسيحيين : فكان رقم ٣ وهو عدد الثالوث المقدس أكثر الأعداد قداسة ، وكان يرمز إلى النفس البشرية ؛ وكان الرقم ٤ يمثل الجسم ؛ ورقم ٧ وهو مجموع الرقمين يرمز إلى الإنسان الكامل ؛ ومن ثم كانت فضائل الرقم ٧ — سبعة أعمار الإنسان ، والكواكب السبعة ، والسبع الفضائل الرئيسية ، والخطايا السبع المهلكة . وكانت عطسة فى غير الوقت المناسب نذير سوء ، وكان من الخير أن يتقى شرّها بعبارة « يرحمك الله » ، كلما حدثت . وكان مزيج من الدواء يعطى لتوليد الحُبّ أو القضاء عليه ؛ وكان منع الحَمْل ببصق ثلاث مرات فى فم ضفدعة ، أو إمساك حصاة من حجر اليشب باليد أثناء الجماع(٦) . وكان أجوبار Agobard المستنير كبير أساقفة ليون Lyons فى القرن التاسع عشر يشكو من أن المسيحيين يؤمنون بهذه السخافات التى لم يكن يستطيع الإنسان قبل ذلك الوقت أن يحمل الكفرة على تصديقها (٧) » .

وقاومت الكنيسة وثنية هذه الخرافات ، ونددت بكثير من المعتقدات

وأعمال الشعوذة ، وعاقبت مرتكبيها بضروب من الكفارات متدرجة فى صرامتها ، فكانت تندد بالسحر الأسود - الالتجاء إلى العفاريت لنيل السلطان على الحوادث - ، ولكن هذا الضرب من السحر كان واسع الانتشار فى ألف مكان خفى . وكان الذين يمارسونه يوزعون سراً كتاب اللعنة المحتوى على أسماء العفاريت الكبرى ومساكنها ، وقواها الخاصة(٨) . وكان كل إنسان تقريبا يؤمن ببعض الوسائل السحرية التى تحول مقدرة الكائنات فوق الطبيعية إلى غايات محبوبة . وهاهو ذا يوحنا السلزبرى يحدثنا عن ضرب من السحر يستخدمه شماس وقس وكبير أساقفة(٩) . وكان أبسط أنواع السحر ما يحدث بتلاوة الرقية وهى عبارة تتلى عدة مرات فى العادة ؛ وبها يمكن اتقاء شر ، وشفاء من مرض ؛ وإبعاد عدو من الطريق . وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدّون علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria رقى سحرية ، ويستخدمون الماء المقدس ، والعشاء الربانى على أنهما من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة .

وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يكون عاما فى ذلك الوقت ، فهاهو ذا كتاب التوبة الذى وضعه أسقف إكستر Exter يـنـدد بالنساء اللائى يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبًّا ، والحب كُرهاً ، أو « سحر بضائع الناس وسرقتها » ، أو « يدعين القدرة على أن يركبن فى بعض الليالى على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت فى صورة النساء ، وعلى أن ينضممن إلى تلك الجماعات »(١٠) - وذلك هو « سبت الساحرات » الذى ذاعت سمعته السيئة فى القرن الرابع عشر . وكان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وإنفاذ الإبر فيها ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها ؛ وقد اتهم وزير من وزراء فليب الرابع بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك . وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن

يؤذين أو يقتلن بنظرة من « عيونهن الحاسدة » . وكان برثولد الرجنزبرجي Berthold of Regenesburg يظن أن سيلقى فى الجحيم من النساء أكثر ممن سيلقى فيها من الرجال لأن كثيرات من النساء يمارسن فنون السحر — فلديهن « رُقىً للحصول على الزواج ، ورقى للزواج ، ورقى قبل مولد الطفل ، ورقى قبل التعميد ... ومن عجب أن الرجال لا يفقدون عقولهم بسبب فنون السحر الرهيبة التى تمارسها النساء عليهن »(١١) . وكانت قوانين القوط الغربيين تتهم النساء باستحضار العفاريت ، وبتقريب القرابين للشياطين ، وبإثارة العواصف وما إلى ذلك ، وتأمر بأن تحلق رؤوس من تثبت عليهن هـذه الجرائم ، وجلدهن مائتى جلدة(١٢) . وكانت قوانين كانوت Cnut فى انجلترا تعترف بأن من المستطاع قتل إنسان بالسحر . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر سهلة مع أصحاب هذه العقائد الشعبية ، ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ولكن الذى حدث كان عكس هذا ، فقد أخذت تزيد وتنتشر ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٨ شنت محكمة التفتيش حملة قوية بغية القضاء على السحر بحرق الساحرات علناً . ذلك أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يعتقدون مخلصين أن من النساء من كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية . ويؤكد لنا قيصريوس الهسترباخي Caesarius of Heisterbach أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتحالفون مع الشياطين(١٣) ، ويقال إن من يمارسون السحر الأسود كانوا يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بأن يعبدوا الشيطان بقداس أسود(١٤) . وكان كثيرون من المرضى وضعاف النفوس يعتقدون أنهم قد لبستهم العفاريت ؛ ولربما كان القصد من الأدعية ، والصيغ ، والاحتفالات التى تتلى أو تقام لإخراج هذه العفاريت والتى تستخدمها الكنيسة لهذا الغرض ، أن تتخذ علاجا نفسانياً لتهدئة عقول المخرفين .

وكان الطب فى العصور الوسطى إلى حد ما فرعاً من اللاهوت والشعائر

الدينية ؛ فقد كان أوغسطين يظن أن أمراض الآدميين تسببها العفاريت ، ووافقه لوثر على ظنه هذا ؛ وبدا من ثم أن علاج الأمراض بالصلوات ، وعلاج الأوبئة بالمواكب الدينية وإقامة الكنائس ، أمر يتفق مع المنطق السليم . ومن أجل هذا بنيت كنيسة سانتا ماريا دلاسالوتى Santa Matia della Salute فى البندقية لمقاومة طاعون ؛ وقد شفيت تلك المدينة – على حد قولهم – من وباء الزحار بفضل الصلوات التى أقامها القديس جربولد Gerbold أسقف بايو Bayeux[١٥] . وكان الأطباء الصادقون يرحبون بما يسديه الإيمان بالدين من عون لنجاح وسائل العلاج ، فكانوا يوصون بإقامة الصلوات ، ولبس التمائم[١٦] ؛ ولهذا نجد منذ عهد إدورد المعترف لا يعد الحكام الإنجليز يباركون الخواتم لعلاج الجذام[١٧] . وكان الملوك الذين نالوا القداسة بلمس المخلفات الدينية يشعرون أن فى مقدورهم علاج المرضى بوضع أيديهم عليهم ، وكان يظن أن المصابين بالداء الخنازيرى يستجيبون أكثر من غ هم للمس الملوك ؛ ولهذا سمى هذا المرض « داء الملك King's evil » . وما أكثر ما تحمل القديس لويس من العناء الطويل فى مس المصابين بهذا الداء ، ويقال إن فليپ ڤالوا « مس » ألفاً و خمسمائة من الأشخاص فى جلسة واحدة[١٨] .

وكان ثمة وسائل سحرية للمعرفة وللصحة جميعاً ، فقد انتشرت فى العصور الوسطى كلها معظم الوسائل الوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيب أو رؤية الغائبين على الرغم من تنديد الكنيسة بهذه الوسائل ؛ مثال ذلك أن تومس أبكت Thomas à Becket أراد أن يسدى النصح إلى هنرى الثانى فى مشروعه لغزو بريطانى فاستشار للملك عرّافاً بزجر الطير ومراقبة طيرانها ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده[١٩] . ويدعى قارئو الكف أن « علمهم » هذا مؤيد من عند الله ، ويستدلون على صدق السحر بآية من سفر الخروج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الثانى والعشرين) التى تقول : لا تدع ساحرة تعيش .

وكان غير هؤلاء من المتنبئين يحاولون معرفة الغيب بمراقبة حركات الرياح ، أو المياه ، أو الدخان المتصاعد من نار . وكان بعضهم يعلمون مواضع خبط عشواء على الأرض (أو أية مادة من مواد الكتابة) ويصلون هذه النقط بخطوط ،ويتنبئون بحظ السائل بالنظر فى الأشكال الهندسية التى تحدث بهذه الطريقة . ويقال إن بعضهم كانوا يتنبئون بالمستقبل باستحضار أرواح الموتى ؛ من ذلك أن ألبرتس جروتس Albertus Grotus استحضر - على حد قولهم - روح زوجة الإمبراطور فردريك بربرسا بناء على طلبه[٢٠] . ومنهم من كان يستشير كتب التنبؤ بالغيب ، كالكتب التى يقال إنها تحتوى على نبوءات السيبلات Sibyls أو مرلين Merlin أو سليمان . ومنهم من كان يفتح الكتاب المقدس أو الإنياذة فى غير موضع معين ، ويتنبأ بالمستقبل بقراءة الآية أو بيت الشعر الذى تقع أعينهم عليه . وكان أكثر المؤرخين جداً ووقاراً فى العصور الوسطى يجدون - كما وجد ليڤى - أن الحوادث ذات البال قد عرفت قبل وقوعها إما مباشرة أو رمزاً ، بالنذر ، أو الرؤى ، أو النبوءات ، أو الأحلام . وكانت توجد أكداس من الكتب - ككتاب آرنلد الڤلانوڤى Arnold Villanova - تعرض أحدث التفسيرات العلمية للأحلام - ولم تكن هذه التفسيرات أكثر سخفاً مما كتبه أشهر العلماء فى القرن العشرين . وكان الناس فى الزمن القديم يمارسون الأساليب المتبعة للتنبؤ أو الجلاء البصرى كلها تقريباً كما يمارسونها فى هذه الأيام .

غير أن زماننا الحاضر ، على الرغم مما بذل فيه من بعض الجهود ، لم يبلغ ما بلغه عصر الإيمان - فى الإسلام أو اليهودية أو المسيحية - من اعتقاد بأن المستقبل مكتوب فى النجوم كتابة لايستطاع حل رموزها(*) . فإذا كان مناخ الأرض - على حد قولهم - ونمو النبات يتأثران تأثراً واضحاً بالأجرام السماوية ،

(*) لعل الكاتب يريد أن بعض المسلمين كانوا يعتقدون أن المستقبل مدون فى النجوم وربما كان هذا صحيحاً ولكن الدين الإسلامى نفسه لا يشير بهذا لا تصريحاً ولا تلميحاً . (المترجم)

فكيف لا تؤثر هذه الأجرام ، فى أحوال الناس والدول ، بل كيف لا تحدد هذه الأحوال تحديداً فتسيطر على نموهم ، وطبيعتهم ، وأمراضهم ، ومراحل حياتهم ، وخصوبتهم ، وما يفشو بينهم من أوبئة ، وما يقع لهم من أحداث وثورات ، وتقرر مصيرهم ؟ هذا ما كان راسخاً فى عقل كل إنسان تقريباً فى العصور الوسطى . وقلما كان يخلو بيت ملك أو أمير من منجم محترف . وكان الأطباء يحجمون مرضاهم ، كما لا يزال كثير من الفلاحين يبذرون حبهم ، حسب أوجه القمر ؛ وكانت معظم الجامعات تدرس مناهج فى التنجيم ، ويقصدون به « علم النجوم » ؛ وكان علم الفلك نفسه جزءاً من التنجيم ، وكان من أكبر أسباب تقدمه اهتمام الناس بالتنجيم وأغراضه . وكان العلماء الجادون يقررون أنهم وجدوا علاقات ثابتة منتظمة يمكن التنبؤ بنتائجها بين الأجرام السماوية والأرض ؛ فالذين يولدون وزحل فى أوجه يكونون باردى المزاج ، نكدين ، منقبضى الصدور ، والذين يولدون والمشترى فى أوجه يكونون معتدلى المزاج مرحين ؛ ومن يولدون تحت تأثير المريخ يكونون ملتهبى المزاج ذوى نزعة عسكرية ؛ ومن يولدون تحت تأثير الزهرة يتصفون بالرقة وكثرة النسل ؛ ومن يولدون تحت تأثير عطارد يصيرون خلائق متقلبين لا يثبتون على حال ؛ ومن يولدون والقمر فى كبد السماء يكونون سوداويين قد تصل حالهم إلى حد الجنون . وكانت قراءة طالع المولود تنبئ بحياتها كلها بالنظر إلى البرج الموجود وقت مولده . ولهذا فإن من يريد معرفة الطالع الصحيح لشخص ما يجب عليه أن ينظر إلى الساعة ويعرف بالدقة اللحظة التى ولد فيها ، وموضع النجوم بغاية الدقة والتحديد . ومن ثم كانت أهم الأغراض التى وضعت من أجلها الأزياج الفلكية هى المساعدة على معرفة هذه الطوالع .

وتبرز فى تلك الأيام أسماء المتبحرين فى هذه العلوم الخفية ؛ من هؤلاء بطرس الأبنووى Peter of Abano الذى كان ينزل بالفلسفة فيجعلها تنجيما . وكان لآرنلد الفلانوفى الطبيب الشهير ولع بالسحر ؛ وكان سكوداسكولى

Cecco d'Ascoli (١٢٥٧ ؟ — ١٣٢٧) مدرس التنجيم فى جامعة بولونيا يفخر بأنه يستطيع قراءة أفكار أى إنسان ، أو يعرف ما يخبؤه فى يده إذا عرف تاريخ مولده . وأراد أن يشرح آراءه هذه فعمل على كشف طالع المسيح ، وأثبت أن البرج الذى كان فى السماء ساعة مولده قد جعل صَلْبه أمراً محتوماً . وأدانته محكمة التفتيش (١٣٢٤) ، وأرغم على إنكار دعواه ، وعفى عنه على شريطة أن يلزم الصمت ، وخرج إلى فلورنس ، ومارس التنجيم لعدد من العملاء ، ثم حرق علناً لأنه أنكر حرية الإرادة (١٣٢٧) . واتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم — ومنهم قسطنطين الأفريقى ، وجربرت ، وألبرتس مجنس ، وروچر بيكن ، وڤنسنت البوڤيسى Vincent of Beauvais — بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية . وكان ميخائيل اسكت هدفاً للريبة لأنه كتب رسائل ذائعة الصيت عن العلوم الخفية ، منها كتاب فى التنجيم ، وكتاب فى العلاقة بين الصفات الخلقية وصفات الجسم ، وكتابين فى الكيمياء الكاذبة . وكان ميخائيل يندد بالسحر ، ولكنه يسره أن يكتب عنه ، وقد ذكر ثمانى وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب ، ويبدو أنه كان يؤمن بها كلها[٢١] . وكان كمعظم معاصريه دقيق الملاحظة ، يجرى بعض التجارب ؛ ولكنه يقول إن حمل حجر اليشب أو الياقوت الأصفر يساعد الرجل على الامتناع عن الجماع[٢٢] . وقد بلغ من مهارته أن ظلَّ حسن الصلة بفردريك الثانى والبابابوات ، ولكن دانتى الصلب الذى لا يقبل شفاعة جعل مثواه الجحيم .

وكانت الكنيسة ومحكمة التفتيش جزءاً من البيئة المحيطة بالعلوم الأوربية فى القرن الثالث عشر . وكانت الجامعات تعمل فى الأغلب الأعم تحت سلطان الكنيسة ورقابتها . بيد أن الكنيسة كانت تترك للأساتذة قدراً كبيراً من حرية العقيدة ، وكانت فى كثير من الأحوال تشجع طلب العلم . من ذلك أن

وليم الأوفرنى أسقف باريس (المتوفى عام ١٢٤٩) ، كان يناصر البحث العلمى ، ويسخر من الذين يتسرعون فيرون فى كل حادثة غير مألوفة عملا من أعمال الله مباشرة . وقد برع جروستستى أسقف لنكلن فى دراسة العلوم الرياضية ، والبصريات ، وفى العلوم التجريبية ، براعة جعلت روجر بيكن ، يضعه منزلة أرسطو. ولسنا نعرف أن طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس قد أثارتا اعتراضاً على الدراسات العلمية التى قام بها ألبرتس مجنس أو روجر بيكن ؛ أما القديس برنار وبعض المتحمسين المتزمتين فكانوا يعارضون فى طلب العلم ؛ ولكن الكنيسة لم تأخذ برأيهم هذا[٢٣] ؛ وكانت ترى أن من الصعب عليها أن ترضى بتشريح جثث الآدميين لأن من عقائدها الأساسية أن الإنسان خلق فى صورة الله ، وأن الجسم والروح كليهما سيقومان من القبر . وكان المسلمون واليهود يرون معها هذا الرأى بعينه[٢٤] ، كما كانت تقول به الكثرة الغالبة من الناس[٢٥] . وقال جيدو الڤچيڤانوى Guido of Vigevano فى عام ١٣٤٥ عن التشريح إنه « محرم بأمر الكنيسة »[٢٦] . ولكننا لانجد ما يحرمه فى أوامرها قبل مرسوم البابا بنيفاس الثامن الصادر فى عام ١٣٠٠ ، وحتى هذا المرسوم لا ينهى إلا عن تقطيع الجثث وغلى لحمها ، لكى ترسل عظام الصليبيين المقمة إلى أهليهم ليدفنوها فى بلادهم[٢٧] . وربما فسر هذا تفسيراً خاطئاً ففهم على أنه نهى عن تشريح الجثث بعد الموت ، ولكننا نجد منديو Mondino الجرّاح الإيطالى يغلى الجثث ويشرحها حوالى عام ١٣٢٠ ؛ ومبلغ علمنا أن الكنيسة لم تحتج على عمله هذا[٢٨] .

وبعد فإذا ما بدت ثمار العلوم الطبيعية فى الغرب أثناء العصور الوسطى ضئيلة قليلة الغناء فى هذا الموجز الذى يراه القارئ فيما بعد ؛ فإن علينا أن نذكر أنها نشأت فى بيئة من الخرافة والسحر معادية للعلم ، وفى عصر تتجه فيه خير العقول إلى القانون ، واللاهوت ، وفى وقت يعتقد فيه الناس كلهم تقريباً أن المسائل

الكبرى الخاصة بنشأة الكون ، وبنى الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس قد حلت كلها . ولكن العقول فى أوربا الغربية استفاقت من رقدتها بعد عام ١١٥٠ لما أن ازداد الفراغ ، ونمت الثروة ، وأخذت التراجم تنصب صبا فى أوربا من بلاد الإسلام ، واشتدت رغبة الناس فى المعرفة حتى صارت ولعاً وتحمساً ، وشرعوا يبحثون شئون العالم القديم العظيم الذى كان يبحثه اليونان دون أن تقام فى وجههم العقبات والعراقيل ، ولم يمض إلا قرن من الزمان حتى كانت أوربا اللاتينية كلها تموج بالعلم والفلسفة .

الفصل الثانى

الثورة الرياضية

إن أول الأسماء العظيمة فى علوم ذلك الوقت اسم لبونارد وفيبوناتشى البيزى Leonardo Fibonacci of Pisa .

لقد انتقلت علوم الرياضة السومرية ، التى لا نعرف نشأتها ، إلى بابل عن طريق بلاد اليونان ؛ وانتقل علم الهندسة المصرية ، الذى لا يزال ماثلا أمام أعيننا فى الأهرام ، إلى أيونيا وبلاد اليونان ، ولعل انتقاله كان عن طريق كريت ورودس ؛ وانتقلت علوم الرياضة اليونانية إلى أيونيا فى أثر الإسكندر ، وكان لها شأن أيما شأن فى ذلك التطور الذى بلغ ذروته فى براهماجبتا Brahmagupta (٥٨٨ ؟ — ٦٦٠ ؟) وترجمت مؤلفات الهنود الرياضية إلى اللغة العربية حوالى ٧٧٥ ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت ترجمت مؤلفات اليونان فى هذا العلم إلى تلك اللغة نفسها ؛ ودخلت الأرقام الهندية إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالى عام ٨٣٠ ؛ ثم نقلها جربرت Gerbert إلى فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ ، ودخلت علوم الرياضة اليونانية ، والعربية ، والعبرية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بلاد أوربا الغربية عن طريق أسبانيا وصقلية ، وحملها التجار الإيطاليون إلى البندقية وجنوى ، وأملفى ، وبيزا ؛ وشأن النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة .

وظهر طريق آخر من طرق نقل العلوم فى القرن السادس قبل الميلاد وذلك فى صورة « المعدّ » الصينى ؛ وهو أداة للعد بنقل عصى صغيرة من الخيزران من مجموعة إلى أخرى ؛ ولا تزال أداة منقولة عن هذه تستعمل فى بلاد الصين إلى يومنا هذا ؛ ويقول هيرودوت إن المصريين فى القرن الخامس

قبل الميلاد كانوا يستخدمون الحصا فى العدّ ، وينقلونه بأيديهم من اليمين إلى اليسار » . أما اليونان فقد ساروا فيه من اليسار إلى اليمين » واستخدم الرومان أشكالا كثيرة من المِعَدّ ، كانت أدوات العد فى أحدها تنزلق فى حزوز ، وكانت هذه الأدوات تصنع من الحجارة ، أو المعادن ، أو الزجاج الملون ؛ وكانوا يسمونها الكالسكولى Calculi أى الحجارة الصغيرة(٢٩) . ويذكر بوئثيوس حوالى عام ٥٢٥ المعد ويقول عنه إنه يمكن الإنسان من العد بالعشرات ؛ ولكن هذه البداية لاستخدام الطريقة العشرية أهملت ؛ وكان تجار إيطاليا يستخدمون المعد ، ولكنهم يكتبون نتائجه بالأرقام الرومانية السمجة .

وولد ليو ناردو فيبوناتشى فى بيزا عام ١١٨٠ ؛ وكان والده مديراً لإحدى المؤسسات التجارية فى بلاد الجزائر ، وانضم إليه ليوناردو فى تلك البلاد وهو فى سن المراهقة ، وتعلم على أستاذ مسلم ، ثم طاف ببلاد مصر ، والشام ، واليونان ؛ وصقلية ، ودرس أساليب التجار ، وتعلم طريقة العد ، على حد قوله « بوسيلة عجيبة استخدم فيها أرقام الهنود التسعة »(٣٠) ؛ وهنا كانت الأرقام الهندية فى بداية تاريخها الأوربى تسمى بحق أرقاما هندية ؛ وكانت هذه الأرقام التى هى من أسباب الملل والإجهاد لأطفال هذه الأيام موضع الدهشة والبهجة فى ذلك الوقت . ولعل ليوناردو قد تعلم اللغة اليونانية كما تعلم العربية ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فإنا نجده ملماً كل الإلمام برياضيات أرخميدس ، وإقليدس ، وهيرون ؛ وديوفانتس Diophantus . ونشر فى عام ١٢٠٢ كتاب العد Liber abaci وهو أول عرض أوربى كامل للأرقام الهندية ، وللصفر ، والطريقة العشرية ، يقوم به مؤلف مسيحى ، وكان بداية بعث العلوم الرياضية فى بلاد أوربا المسيحية . وأدخل هذا الكتاب نفسه الجبر العربى فى أوربا الغربية ، وأحدث انقلابا بسيطا فى ذلك العلم لأنه كان يستخدم من حين إلى حين حروفاً بدل الأرقام لتعميم

المعادلات الجبرية واختزالها . واستخدم ليوناردو فى كتابه الهندسة التطبيقية Practica geometrica (١٢٢٠) — لأول مرة فى العالم المسيحى على ما نعلم — الجبر فى حل النظريات الهندسية . ووضع فى كتابين آخرين نشرا فى عام ١٢٢٥ طرقاً مبتكرة لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية . وفى تلك السنة نفسها رأس فردريك الثانى فى مدينة بيزا مهرجاناً رياضيا ، وضع فيه يوحنا بالرمو John Palermo مسائل مختلفة حلها فيبوناتشى .

وظل تجار أوربا يقاومون طريقة العد الجديدة على الرغم من ظهور هذا المؤلف الذى يُعدّ بداية عهد جديد فى تاريخ العلوم الرياضية ، فقد كان كثيرون منهم يفضلون تحريك المعدّ بأصابعهم وكتابة النتائج بالأرقام الرومانية ؛ وفى عام ١٢٩٩ استطاع « العدّادون » فى فلورنس أن يقنعوا ولاة الأمور بسن قانون يحرم استعمال « الأرقام الخيالية الجديدة[٣٢] » ، ولم يدرك إلا عدد قليل من الرياضيين الرموز الجديدة وهى الصفر وترتيب الخانات العشرية فى آحاد وعشرات ومئات ... قد مهدت السبيل إلى تطور يكاد يكون مستحيلا إذا ظلوا يتخذون الحروف القديمة اليونانية والرومانية واليهودية أرقاما . ولم تحلّ الأرقام الهندية آخر الأمر محل الأرقام الرومانية إلا فى القرن السادس عشر ، ولا تزال طريقة العد الاثنا عشرية مستخدمة فى ميادين كثيرة فى إنجلترا وأمريكا لأن رقم ١٠ لم ينتصر بعد فى كفاحه الطويل الذى دام ألف عام انتصاراً حاسماً على رقم ١٢ .

وكان للعلوم الرياضية فى العصور الواسطى أغراض ثلاثة : خدمة التجار ، وإمساك حسابات رجال الأعمال ، ورسم خرائط للسماء . وكانت علوم الرياضة ، والطبيعة ، والفلك وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ومن كتب فى واحد منها أفاد العلمين الآخرين ؛ ومن أمثلة هؤلاء العلماء جون الهوليوودى John of Holywood (فى يوركشير) المعروف فى العالم اللاتينى باسم جوانس ده سكروبسكو

Johannes de Saerobosco الذى درس فى أكسفورد، وكان أستاذاً فى جامعة باريس ، وألف رسالة عن الكرة الأرضية وعرضاً للرياضة الجديدة سماه الرياضة للجمهوريين (حوالى ١٢٣٠) . وكان لفظ اللوغاريتمات وهو اسم ممسوخ من اسم الخوارزمى اصطلاحاً لاتينياً يطلق على الطريقة الرياضية التى تستخدم الأرقام الهندية . ويعزو چون إلى العرب فضل اختراع هذه الطريقة ؛ وهو من المسئولين عن الخطأ الذى أدى إلى تسمية الأرقام الهندية بـ « الأرقام العربية »[٣٢] . وجاء رجل من تشستر يدعى ربرت حوالى ١١٤٩ بحساب المثلثات العربى إلى إنجلترا ، وأدخل لفظ الجيب فى العلم الجديد ، وذلك فى أثناء تعديل أزياج البتانى والزرقانى .

وكان من أسباب دوام الاهتمام بالفلك حاجات الملاحة والرغبة الشديدة فى التنجيم . وكانت المكانة العظيمة التى يمثلها كتاب المجسطى الذى ترجم مراراً كثيرة من أسباب جمود علم الفلك فى أوربا المسيحية واستمساكه بنظرية بطليموس نظرية الدوائر المختلفة المراكز والدوائر التى فى محيطات دوائر أخرى ، والقائلة إن الأرض هى محور الكون . وأحست بعض العقول اليقظة كعقول ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ؛ وروچر بيكن ، بقوة النقد الذى وجهه العالم الفلكى البطروجى ، لهذه النظرية فى القرن الثانى عشر ، ولكن لم توجد نظرية سماوية مقبولة تحل محل نظرية بطليموس الميكانيكية قبل أيام كوپرنيق . فقد كان علماء الفلك المسيحيون فى القرن الثالث يتصورون أن الكواكب تدور حول الأرض ، وأن النجوم الثوابت مرصوصة فى قبة من البلور يسيرها العقل الإلهى ، وتدور فى حشد منظم حول الأرض وأن مركز الكون كله وأرقى ما فيه هو ذلك الإنسان الذى يصفه علماء الدين بأنه دودة حقيرة ملوثة بالذنوب ، ومحكوم على كثرة أفراده بأن يصلوا نار الجحيم . وقد بحث علماء الفلك الساميون فى القرن

الثالث عشر رأى هرقليدس القائل بأن منشأ حركة السماء اليومية الظاهرة دوران الأرض حول محورها ، ولكن العالم المسيحي نسى هذا الرأى نسياناً تاماً ؛ ونقل مكروبيوس Macrobius ومارتيانس كابلا Martianus Capella رأياً آخر لهرقليدس وهو أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس ، واستمسك جون اسكوتس إرجينس بهذا الرأى فى القرن الثامن ثم طبقه على المريخ والمشترى ، وبهذا أوشكت النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم أن تنتصر[٣٤] . ولكن هذه الفروض الباهرة كانت من بين الأفكار التى اندثرت فى العصور المظلمة ، وظلت الأرض مركز الكون حتى عام ١٥٢١ ، وإن كان علماء الفلك جميعهم قد اتفقوا على أن الأرض كرية[٣٥] .

وجاءت الأزياج والآلات الفلكية إلى الغرب من بلاد الإسلام ، أو عملت على غرار الأزياج والآلات الإسلامية . ورصد ولشر اللوربنى Walcher of Lorraine الذى أصبح فيما بعد رئيساً لدير ملفرن Malvrn خسوف القمر فى إيطاليا بأسطرلاب ، وكان هذا أول الأرصاد الفلكية المعروفة فى العالم المسيحى الغربى ؛ ولكن وليم الكلودى William of St Cloud اضطر بعد مائتى عام من ذلك الوقت (حوالى ١٢٩٦) أن يذكر الفلكيين ، بأقواله وبما ضربه لهم من مثل بنفسه ، أن خير ما يتقدم به العلم هو الملاحظة لا القراءة أو الفلسفة . وخير ما قدم لعلم الفلك المسيحى من عون فى ذلك الوقت هو الأزياج الأنفسية لحركات الأجرام السماوية التى أعدها عالمان يهوديان أسبانيان لأنفسو الحكيم .

وتجمعت المعلومات الفلكية فكشفت عن أخطاء تقويم يوليوس قيصر (٤٦ ق . م) الذى وضع على أساس عمل سوسيجنيس والذى يجعل السنة أطول من حقيقتها بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية . وكان ازدياد تنقل الفلكيين ، والتجار ، والمؤرخين بين أقطار العالم مما كشف عن الصعاب التى يلاقونها

من جراء اختلاف التقاويم . وكان البيرونى قد قام بدراسات نافعة للطرق المختلفة المتبعة فى تقسيم الزمن وتاريخ الحوادث (حوالى عام ١٠٠٠) ، وواصل هارون ابن مشلام وابراهام بارخية هذه الدراسة فى عامى ١١٠٦ و ١١٢٢ ، وأعقبها ربرت جروستسى وروجر بيكن فعرضا فى القرن الثالث عشر مقترحات عملية ، أسفرت (حوالى عام ١٢٣٢) عن وضع جروستسى لطائفة من الأزياج لتعيين أوقات الحوادث الفلكية والتواريخ المتغيرة كتاريخ عيد القيامة ، وكانت هذه الأزياج أول خطوة لوضع التقويم الجريجورى (١٥٨٢) الذى يرشدنا ويضللنا فى هذه الأيام .

الفصل الثالث

الأرض وحياتها

وكان أكثر العلوم تقدماً فى العصور الوسطى هو علم طبقات الأرض ؛ وسبب ذلك أن الأرض كانت فى رأيهم موطن المسيح ، وغلاف الجحيم ، وأن الأحوال الجوية من تقدير الله . وكان المسلمون واليهود والمسيحيون على السواء يغشون علم التعدين بغلاف من الخرافات . ويؤلفون « الجوهريات » فيما للحجارة من قوى سحرية . من ذلك أن ماربو Marbood أسقف رنن Rennes (١٠٣٥ — ١١٢٣) كتب بالشعر اللاتينى كتاباً شعبيا سماه كتاب الجواهر وصف فيه القوى الخفية الكامنة فى ستين نوعا من الحجارة الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر فى العلوم إنه إذا أمسك الإنسان بيده حجراً من الياقوت الأزرق أثناء الصلاة كان ذلك أدعى لاستجابة الله إلى دعائه[٣٦] ، وإن حجر عين الهر إذا لف فى ورقة من نبات الفار يُخفى من يمسك به عن أعين الناس ، وإن حجر الجمشت يجعله بمأمن من السكر ؛ وإن الماس يجعل من يمسك به صنديداً لا يُهزَم[٣٧] .

وكان التشوف والتحمس اللذان أحاطا معادن الأرض بهذه الخرافات هما اللذين بعثا الناس فى العصور الوسطى على التجوال فى أوربا وبلاد الشرق ، فأغنوا بذلك علم الجغرافيا على مهل . من هؤلاء جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis — جزالد الويلزى Girald of Wales (١١٤٧ — ١٢٢٣) — الذى طاف ببلاد كثيرة وكتب فى موضوعات كثيرة ، وأتقن لغات كثيرة ليس

منها لغته هو ، والذى صحب الأمير چون إلى أيرلندة ، وعاش فيها عامين ، ثم طاف بأنحاء ويلز يدعو الناس إلى الحرب الصليبية الثالثة ، وألف أربعة كتب ممتعة عن هذين البلدين . وقد أثقل صحف كتبه بتحيزه وبكثرة ما أورده فيها من أخبار المعجزات ، ولكنه خففها بوصفه الواضح الحى للأشخاص والأماكن ، وحديثه الظريف عن الأشياء التافهة التى توضح خصائص الأشخاص والعصور . وكان واثقاً من أن كتبه سوف تخلد ذكره[٣٨] ، ولكنه استخف بما يمتاز به الزمان من قدرة على النسيان .

وكان هو واحداً من آلاف الرجال الذين حجوا إلى بلاد الشرق فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وقد رسمت خرائط البلاد والطرق ليهتدى بها هؤلاء الحجاج ، وأفاد من ذلك علم الجغرافية . وحدث بين عامى ١١٠٧ و ١١١١ أن أبحر سجورد چوراسلفار Siguard Jorasalfare ملك النرويج فى حملة صليبية ومعه ستون سفينة ، ومرّ بإنجلترا ، وأسپانيا ، وصقلية ، ووصل إلى فلسطين . وحارب المسلمين كلما لاحت له فرصة لحربهم ، ثم قاد حملته بعد أن هلك منها من هلك إلى القسطنطينية ، ومنها اجتاز بلاد البلقان ، وألمانيا ، والدنمرقة بطريق البر حتى وصل إلى النرويج . وتكون قصة هذه الرحلة المفعمة بالأخطار جزءاً من قصص اسكنديناوة الشعبية العظيمة . وفى عام ١٢٧٠ أعاد لنزارتى مالوسلو Lanzarotte Malocello كشف جزائر الخالدات التى كانت معروفة للأقدمين . وتقول إحدى الروايات المتواترة التى لم تحقق بعد إن أوجولينو Ugo'ino وڤادينو ڤيڤلدو Vadino Vivaldo أبحرا من چنوى حوالى عام ١٢٩٠ على ظهر سفينتين كى يصلا إلى الهند بالطواف حول قارة أفريقية . ويبدو أن جميع من كانوا على ظهر السفينتين من الملاحين لقوا حتفهم . وانتقلت قصة هذه الرحلة بطريقة ساحرة فى صورة رسالة من « برستر جون » Prester John أسقطورى (حوالى عام ١١٥٠) يتحـــدث فيها عن أملاكه فى أواسط آسية ،

وعن جغرافية بلاد الشرق حديثاً مليئاً بالأوهام والخرافات . وقلّما كان المسيحيون يعتقدون بوجود أرضين وسكان فى الأجزاء المقابلة لبلادهم وعلى سطح الأرض ، وذلك على الرغم من قيام الحروب الصليبية وما استتبعته من الأسفار . وكان القديس أوغسطين يرى أن « من غير المعقول أن يسكن الناس فى الجهة المقابلة لنا على سطح الأرض ، حيث تغرب الشمس حين تشرق عندنا ، وحيث يمشى الناس وأقدامهم فى اتجاه أقدامنا »[٣٩] ؛ وكان راهب أيرلندى يدعى القديس فرجيل St. Fergil قد أشار حوالى عام ٧٤٨ إلى إمكان وجود « عالم آخر وخلق آخرين تحت الأرض »[٤٠] . وقبل ألبرتس مجنس وروجر بيكن هذه الفكرة ، ولكنها بقيت خيالا جريئاً يطوف بعقول قلة من الناس حتى طاف مجلان Magellan بالكرة الأرضية .

وجاءت إلى أوربا أهم المعلومات عن الشرق الأقصى من راهبين فرنسيسيين . ذلك أن إنوسنت الرابع أرسل فى إبريل من عام ١٢٤٥ إلى بلاط المغول فى قرقورم چيوڤنى ده بيانوكربينى Giouanni de Piano Carpèni ، وهو رجل بدين فى الخامسة والستين من عمره . ولاقى چيوڤنى ورفيقه من الصعاب شد ما يلقاه الإنسان فى حياته ، فقد ظلا مسافرين خمسة عشر عشر شهراً ، يبدلان الجياد فى كل يوم . وإذا كانت قوانين الرهبان الفرنسيس تحرم عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يموتان جوعاً بين البدو الذين لا يكادون يجدون غيره طعاما يعدونهما به وأخفق چيوڤنى فى مهمته ، ولكنه كتب بعد عودته وصفاً لرحلته يعد الآن من أمهات كتب الأدب الجغرافى — فهو يمتاز بوضوحه ، وإنكاره لشخصه ، واهتمامه بالحقائق دون غيرها لا يذكر فيها كلمة شكوى أو كلمة عن نفسه . وأرسل لويس التاسع فى عام ١٢٥٣ ولیم الربركويزى William of Rabruquis (ولیم ڤان رويزبروك William van Ruysbrook إلى الخان الأعظم ليعيد على مسامعه رغبة البابا فى عقد حلف معه . وعاد ولیم يحمل معه دعوة جافة

بخضوع فرنسا إلى سلطة المغول[٤١] ، وكان كل ما أثمرته البعثة هو وصف وليم الشيق الممتاز لعادات المغول وتاريخهم . وعرف الأوربيون وقتئذ لأول مرة منابع نهرى الدن Don والفلجا ، وموضع بحيرة بلكاش ، وشعائر الدلاى لاما Dalai Lama ، وأماكن النساطرة المسيحيين فى الصين ، والفرق بين المغول والتتار .

وأشهر الرحالة الأوربيين إلى بلاد الشرق الأقصى فى العصور الوسطى وأعظمهم نجاحا هم أسرة پولو تجار البندقية . فقد كان لأندريا بولو Andrea Polo أبناء ثلاثة هم ماركو الأكبر، ونقولو ، ومافيو Maffeo ؛ وكانوا كلهم يعملون فى تجارة بزنطية ويعيشون فى القسطنطينية . وانتقل نقولو ومافيو حوالى عام ١٢٦٠ إلى بخارى حيث بقيا ثلاث سنين ، ومنها سافرا فى أعقاب بعثة سياسية تتارية إلى بلاط كوبلاى خان فى شانجتو . وأعادهم كوبلاى فى بعثة إلى البابا كلمنت الرابع ؛ واستغرقت عودتهما إلى البندقية ثلاث سنين ، فلما جاءا إليها كان كلمنت قد مات . وفى عام ١٢٧١ خرجا من البندقية عائدين إلى الصين ، وأخذ نقولو معه ابنه ماركو الأصغر وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره . وقضيا ثلاث سنين ونصف سنة فى رحلتهما مخترقين قارة آسية عن طريق بلخ ، وهضبة البامير وكاشغر ، ولوب نور وصحراء غربى ، وتنجوت . فلما وصلا إلى تنجوت كان ماركو فى الحادية والعشرين من عمره ؛ وأعجب به كوبلاى ، وخصه بمناصب رئيسية ، ووكل إليه القيام ببعثات هامة ، وأبقى أفراد أسرة بولو الثلاثة فى الصين سبعة عشر عاما . ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم ، وقضوا فى عودتهم ثلاث سنين عن طريق جاوة ، وسومطرة ، وسنغافورة ، وسرنديب ، والخليج الفارسى ؛ ثم ساروا براً إلى طربزون ، ومنها ركبوا السفينة إلى القسطنطينية والبندقية . فلما استقروا فيها لم يصدق أحد ، كما يعرف العالم كله ، القصص التى أخذ يقصها « ماركو ذو الملايين » عن « بلاد الشرق

الفخمة » . وأسر ماركو وهو يحارب فى جيش البندقية فى عام ١٢٩٨ ، وألقى فى سجن جنوى عاماً كاملا ، وفيه أملى قصته على زميل له فى السجن ؛ وأثبتت بحوث الرواد بعدئذ صحة عناصر قصته كلها تقريباً ، وكانت تعد من قبل غير معقولة . فقد وصف ماركو للمرة الأولى رحلة تخترق جميع بلاد آسية ، وفى كتابه أول لمحة كتبها أوربى عن بلاد اليابان ، وأول وصف صادق لبكين ، وجاوة ، وسومطرة ، وسيام ، وبورما ، وسرنديب ، وساحل زنجبار ، ومدغشقر ، وبلاد الحبشة ؛ وكشف كتابه للغرب الستار عن بلاد الشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال الأفكار ، وكان له نصيب فى تشكيل علم الجغرافية الذى أوحى إلى كولمبس بالسفر إلى الشرق بالاتجاه نحو الغرب .

ولما اتسع ميدان التجارة والأسفار أخذ علم رسم الخرائط يعود متثاقلا إلى المستوى الذى بلغه فى أيام أغسطس ، وشرع الملاحون يُعِدُّون كتباً يُهتَدَى بها إلى الثغور التجارية ، تحتوى خرائط ، ورسوماً ، وإرشادات للسائحين ، وأوصافاً ، لمختلف المرافئ ؛ وبلغت هذه الكتب على أيدى أهل بيزا وجنوى درجة كبرى من الدقة . وكانت خرائط العالم التى رسمها الرهبان فى ذلك الوقت إذا قورنت بغيرها تسير على نمط محدد لاتحيد له ويصعب فهمها .

وكانت رسائل أرسطو فى علم الحيوان ، وكتاب ثيوفراسطس الحجة فى النباتات ؛ حافزاً قويا لعقل الغرب المستيقظ من رقاده ، فأخذ يكافح للخروج من القصص ومن أقوال يلنى إلى علم الحيوان والنبات . وكان كل إنسان تقريبا فى ذلك الوقت يعتقد أن الكائنات العضوية الصغيرة ، بما فيها من الديدان والذباب ، تتولد من تلقاء نفسها من التراب ، والطين ، والمواد المتعفنة ، الفاسدة . وكادت الكتب التى تصف الحيوانات — الحقيقى منها والخرافى — وترسم صوراً لها تحل محل كتب علم الحيوان ، وإذ كان الرهبان هم الذين يؤلفون معظم هذه الكتب فقد كان علم الحيوان يوصف فى عبارات مستمدة من كتب اللاهوت

بأنه مستودع للرموز المقوية للإيمان ، وابتدعت منه مخلوقات إضافية ابتكرها الخيال للهو والتسلية ، أو خلقتها الحاجة إلى التقى والصلاح . انظر مثلاً إلى قول الأسقف هونوريوس الأوتونى Honorius of Autun من رجال القرن الثانى عشر الميلادى :

وحيد القرن ، وحش شديد الافتراس له قرن واحد ، فإذا أريد القبض عليه وُضعت فى الحقل فتاة عذراء ، إذا رآها اقترب منها واستراح فى حجرها ، وبذلك يُقبض عليه . ويمثل هذا الحيوان المسيح ، ويمثل قرنه قوة المسيح التى لا تُغلب ... فقد انتزعه الصيادون وهو فى رحم عذراء — أى أن الذين أحبوا المسيح وجدوه فى صورة إنسان(٤٢) .

وكان أقرب كتب الأحياء إلى العلم الصحيح فى العصور الوسطى هو كتاب فردريك الثانى المسمى « **فن القنص بالطير** » وهو رسالة فى هذا الفن فى ٥٨٩ صفحة ، تعتمد فيما تعتمد عليه على المخطوطات اليونانية والإسلامية ، ولكن الجزء الأكبر منها مستمد من الملاحظة والتجربة . وكان فردريك نفسه من أشهر الصائدين بالبزاة ؛ ويحتوى وصفه لأجسام الطير على عدد كبير من المعلومات الأصيلة التى لم يسبقه إليها غيره من المؤلفين ، ويدل تحليله لطيران الطيور وهجرتها ، وتجاربه فى تفريخ البيض بالطرق الصناعية ، وأعمال الصقورة ، على روح علمية لا نظير لها فى أيامه(٤٣) . وقد وضح فردريك نصوص كتابه بمئات من صور الطير ، ربما كانت من صنع يده — وهى رسوم « صادقة حتى فى أدق التفاصيل »(٤٤) . ولم تكن مجموعات الحيوانات التى جمعها ، مجرد هوى شاذ يقصد به التظاهر كما كان يظن بعض معاصريه ، بل كانت معملاً يدرس فيه دراسة مباشرة مسلك الحيوانات . وبذلك كان هذا الإسكندر أرسطو نفسه .

الفصل الرابع

المادة والطاقة

كان حظ الطبيعة والكيمياء أحسن من حظ علمى طبقات الأرض والأحياء ، ذلك أن قوانينهما وعجائبهما كانت فى جميع الأوقات أكثر ائتلافاً مع عقيدة الإيمان بالله من « أنياب العالم الطبيعى ومخالبه الحمراء » . ويدلنا على قوة هذين العلمين فى بداية تلك الفترة ما كان يبذله ألفر المالمزبرى Oliver of Malmesbury من جهود لصنع طائرة ؛ فقد أتم فى عام ١٠٦٥ تركيب جهازه ، وعلا به فى الجو من مكان مرتفع ولقى حتفه(٤٥) .

ولمع فى علم الميكانيكا فى القرن الثالث عشر اسم عظيم ، اسم راهب دمنيكى سبق إسحق نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية فى هذا العالم . ذلك هو جردانس نموراريوس Jordanus Nemorarius الذى أصبح فى عام ١٢٢٢ القائد الثانى للرهبان الدمنيكيين . وإن قيامه بأعماله الباهرة فى ميدان العلوم الطبيعية ليشهد بما كان عليه الإخوان الواعظون من حماسة عقلية وغيرة علمية . وقد ألف هذا الراهب ثلاث رسائل فى العلوم الرياضية نافس فيها رسائل فيبوناتشى فى شجاعته ونفوذه العظيم ، استخدم فيها الأرقام الهندية ، وارتقى بعلم الجبر بحرصه الدائم على استعمال الحروف بدل الأرقام فى قوانينه العامة وقد درس فى كتابه Elements super demonstrationem ponderis فعل الجاذبية فى مسير جسم متحرك ، ووضع القانون المعروف الآن باسم بديهية جردانس . وهو أن القوة التى تستطيع رفع جسم معين إلى ارتفاع معين تستطيع رفع جسم أثقل من الأول ك المرات إلى ارتفاع يقل عن الارتفاع الأول ك المرات . وحلل فى رسالة أخرى De ratione ponderis (لعل مؤلفها أحد

تلاميذه) فكرة قوة السكون ــ حاصل قوة ما في طول ذراع رافعتها ، واستبق الأفكار الحديثة في ميكانيكية الروافع والمستويات المائلة[٤٦] . وحاولت رسالة أخرى تعزى إلى « مدرسة چوردانس » أن تعبر عن نظرية الإزاحة الافتراضية ــ وهي المبدأ الذي قدره فيما بعد ليوناردرو دافنشي ، وديكارت ، وچون برنولي John Bernoulli وصاغه آخر الأمر ج . ولارد چبز J. Willard Gibbs في القرن التاسع عشر .

وأثر تقدم الميكانيكا في الاختراع تأثيراً بسيطاً . من ذلك أن ربرت الإنجليزي Robert of England عرض في عام ١٢٧١ نظرية رقاص الساعة عرضاً واضحاً ؛ وفي عام ١٢٨٨ نسمع عن ساعة كبيرة في برج وستمنستر ، كما نسمع حوالي ذلك الوقت نفسه عن ساعات ضخمة مثلها في كنائس أخرى بالقارة الأوربية ، ولكننا لا نجد دليلا قاطعاً على أن هذه الساعات كانت آلات ميكانيكية كاملة ؛ أما أول ذكر صريح لساعة تدار بالبكرات ، والأثقال ، والتروس فيرجع تاريخه إلى عام ١٣٢٠[٤٧]

وكان أكثر فروع علم الطبيعة نجاحاً في ذلك الوقت هو علم البصريات ، ذلك أن رسالة ابن الهيثم العربية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية قد فتحت آفاقاً جديدة في بلاد الغرب ؛ وقد تحدث ربرت جروستستي عن هذا العلم في مقال له عن قوس قزح نشر حوالي عام ١٢٣٠ عن فرع ثالث من فن المنظور . . . لم يطرق بابه ولم يعرفه بيننا أحد حتى هذا الوقت ...(وهو) يعرفنا كيف نجعل الأشياء الشديدة البعد عنا تبدو شديدة القرب منا ، وكيف نجعل الأشياء الكبيرة القريبة تبدو جد صغيرة ، وكيف نجعل الأشياء البعيدة تظهر بالحجم الذي نريده .

ويضيف إلى ذلك قوله إنه يمكن الوصول إلى هذه الأشياء العجيبة بتكسير « شعاع الضوء » وذلك بجعله يمر خلال عدة أجسام شفافة ، أو عدسات مختلفة التركيب . وافتتن تلميذه روچر بيكن بهذه الآراء أيما افتتان . وبحث چون بكهام ، وهو في أغلب الظن تلميذ من تلاميذ جروستستي في جامعة أكسفورد ،

فى انعكاس الضوء ، وانكساره ، وتركيب العين فى رسالة سماها فن **المنظور العام** Perspetiva Communis ؛ وإذا ذكرنا أن بكهام أصبح بعدئذ كبير أساقفة كنتربرى ، أدركنا مرة أخرى ما كان بين العلوم وكنيسة العصور الوسطى من وفاق .

وكان من نتائج هذه الدراسات فى الضوء اختراع النظارات . فقد كانت المجاهر — النظارات المكبرة — معروفة لليونان الأقدمين(٤٨) ، ولكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمعاً صحيحاً وهى قريبة من العين كان لا بد أن ينتظر البحوث التى تجرى فى هندسة انكسار الضوء . وتوجد وثيقة صينية ترجع إلى تاريخ غير موثوق بصحته بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٠٠ تتحدث عن نظارات تسميها آى تاى Ai tai يستطيع بها كبار السن أن يقرأوا الكتابة الدقيقة . وجاء فى موعظة لراهب دومنيكى ألقاها فى بيسانزا عام ١٣٠٥ : « منذ عشرين عاماً قبل هذا الوقت كشف فن صنع النظارات (أكشيالى occhiali) التى تمكن الإنسان من أن يحسن القراءة ... ولقد تحدثت بنفسى إلى الرجل الذى كان أول من كشفها وصنعها » . وورد فى خطاب مؤرخ عام ١٢٨٩ : « لقد تقدمت بى السنون حتى أصبحت عاجزاً عن القراءة والكتابة بغير النظارات المسماه (أكيالى okiial) التى اخترعت من وقت قريب » . ويعزى فضل اختراعها عادة إلى سلفينو دا مارتو Salvino da Marto الذى كُتب على شاهد قبره المصنوع فى عام ١٣١٧ « مخترع النظارات » . وفى عام ١٣٠٥ أعلن طبيب من منبلييه أنه أعد غسيلا للعين يجعل الإنسان فى غنى عن النظارات(٤٩) .

وكانت قوة المغنطيس الجذابة معروفة هى الأخرى لليونان ، ويلوح أن الصينيين هم الذين كشفوا فى القرن الأول الميلادى قدرته على تعيين الاتجاه . وتعزو إحدى الروايات الصينية المتواترة إلى المسلمين أول استعمال للإبرة المغنطيسية فى إرشاد السفن حوالى عام ١٠٩٣ . وأكبر الظن أن استعمالها كان واسع

الانتشار بين الملاحين المسلمين والمسيحيين قبل نهاية القرن الثانى عشر ؛ وترجع أقدم إشارة لهذا الاستعمال عند المسيحيين إلى عام ١٢٠٥ ، وعند المسلمين إلى عام ١٢٨٢(٥٠)، ولكن لعل الذين عرفوا هذا السر الثمين من زمن طويل لم يتعجلوا فى إذاعته ؛ يضاف إلى هذا أن الملاحين الذين كانوا يفيدون من هذا الاختراع كانوا يُرتاب فى أمرهم فيظن أنهم سحرة ، وبلغ من أمرهم أن بعض الملاحين رفضوا أن يسافروا مع أمير سفينة يحتفظ معه بهذه الآلة الشيطانية(٥١) . ونجد أول وصف معروف لبيت إبرة تتحرك على نقطة ارتكاز فى رسالة فى المغنطيسية كتبها بطرس برجرينس Petrus Peregrinus فى عام ١٢٦٩ . وقد سجل الحاج بطرس هذا كثيراً من التجارب ، ودعا إلى الطريقة التجريبية ، وأوضح فعل المغنطيس فى جذب الحديد ، ومغنطة غيره من الأجسام ، وتعيين اتجاه الشمال ، وحاول كذلك أن يصنع آلة دائمة الحركة تعمل بمغنطيسات تولد بنفسها القوة اللازمة لتحريكها(٥٢) .

وكانت البحوث فى الكيمياء الكاذبة أكبر العوامل فى تقدم علم الكيمياء ؛ فقد أخذت النصوص العربية فى هذا العلم تترجم إلى اللغة اللاتينية من القرن التاسع وما بعده ، وما لبثت البحوث الخاصة بهذا النوع من الكيمياء أن انتشرت فى بلاد الغرب حتى لم تخل منها الأديرة نفسها . فقد نشر الأخ إلياس خليفة القديس فرانسس كتاباً فى الكيميا القديمة طلبه إليه فردريك الثانى ؛ وكتب راهب فرنسيسى آخر يشايع فكرة تحويل المعادن بعضها إلى بعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها فى ذلك العهد كتاب فى العلل يعرض الكيمياء القديمة والتنجيم كما وردا فى كتاب مدسوس على أرسطو . وكان عدد من ملوك أوربا يستخدمون الكيميائيين القدامى ليسدوا ما ينقص من أموال خزائنهم بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب(٥٣) . وواصل غيرهم من المتحمسين البحث عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . ولم تنقطع هـــذه البحوث

رغم أن الكنيسة حرمتها فى عام ١٣٠٧ ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية ، ولعل بعض المؤلفين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أرادوا النجاة من غضب الكنيسة بأن عزوا مؤلفاتهم إلى « جبر » Gebir(*) المسلم .

وأضافت التجارب الطبية على العقاقير معلومات كثيرة إلى علم الكيمياء ، كما أن العمليات الخاصة بالصناعة كادت ترغم على الكشف إرغاما ، وأفاد علم الكيمياء فوائد جمة من أعمال عصر الجعة ، وصنع مواد الصباغة ، والخزف ، والميناء ، والزجاج ، والغراء ، واللك ، والمداد ، ومواد التجميل . وألف بطرس العمرى Peter of St. Omer حوالى عام ١٢٧٠ **كتاب صنع الألوان** libier de coloribus fasciendis ، فيه ذكر لعدد من المواد الملونة المستخدمة فى التصوير تصف واحدة منها كيفية صنع ألوان زيتية بخلط الألوان الملونة بزيت بذر الكتان[٥٤]. ونشرت حوالى عام ١١٥٠ رسالة تعرف باسم Salernus Magister — ربما كانت من رسائل مدرسة الطب فى سلرنو — ذكر فيها تقطير الكحول ، وكان هذا أول ذكر صريح لهذه العملية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم فى هذه الأيام . وكانت الأقطار التى تنتج العنب تقطر النبيذ وتسمى ما ينتج من تقطير هذا العصير **ماء الحياة** aqua vitae أو eau de vie أما بلاد الشمال ذات العنب القليل والبرد القارس فكانت تجد تقطير الحبوب أقل نفقة من تقطير العنب ، وكان لفظ **يسكيبثا** uisqebeatha الكلتى الذى اختصر فصار **وسكى** whisky يعنى أيضاً « ماء الحياة »[٥٥] . على أن التقطير كان معروفاً عند الكيميائيين المسلمين قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، غير أن استكشاف الكحول ثم استكشاف الأحماض المعدنية بعد ذلك فى القرن الثالث عشر وسعا دائرة المعارف الكيميائية وآفاق الصناعة توسيعاً كبيراً .

(*) يريد جابر بن حيان الكيميائى الشهير . (المترجم)

ويكاد يضارع تقطير الكحول فيما له من آثار خطيرة استكشاف البارود . ويرتاب العلماء الآن فيما كان يظن قديماً من سبق الصينيين إلى هذا الاختراع . وليس فى المخطوطات العربية ذكر صريح له قبل عام ١٣٠٠[٥٦]. وكانت أول إشارة معروفة لهذه المادة المفرقعة هى التى وردت فى *كتاب النيران لحرق الأعداء* الذى ألفه ماركس غريقس Marcus Graecus حوالى عام ١٢٧٠ ، فقد وصف مارك اليونانى النار اليونانية والتألق الفصفورى ، ثم وصف طريقة عمل البارود فقال : حوّل إلى مسحوق دقيق – كلا على انفراد – رطلا من الكبريت الحى ، ورطلين من الفحم النباتى المصنوع من شجر الليمون الحامض أو الصفصاف ، وستة أرطال من ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، ثم امزجها كلها[٥٧] . ولم نعثر على ذكر لاستخدام البارود فى الأعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر .–

الفصل الخامس

إحياء علم الطب

يخلط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب لأن الأساطير حرة لا ثمن لها والعلم غال عزيز المنال . والصورة الأساسية لطب العصور الوسطى هي صورة الأم ومخزنها الصغير من وسائل العلاج المنزلية ؛ والنساء العجائز غزيرات العلم بالأعشاب واللاصوق ، والرقى السحرية ؛ وجامعي حشائش التطبيب يطوفون بها على الناس ، والعقاقير المجربة ذات الفائدة الأكيدة ، والحبوب ذات القوة المعجزة ؛ والقابلات المتأهبات على الدوام لفصل الحياة الجديدة عن القديمة في عملية الولادة المخزية السخيفة ، والدجالين المتأهبين لمداواة الناس أو قتلهم نظير أتفه الأجور ؛ والرهبان بما ورثوه من طب الأديرة ؛ والراهبات يواسين المرضى في هدوء بما يقدمن لهم من خدمات أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدربين في أماكن متفرقة يعالجون القادرين ويمارسون طبهم القائم على أساس علمي إلى حد ما . وانتشرت العقاقير الغريبة المروعة والصيغ السحرية العجيبة ؛ وكما أن بعض الحجارة إذا أمسكت باليد كانت في رأى بعض الناس تمنع الحمل ، كذلك كانت بعض النسوة وبعض الرجال — حتى في سلرنو مدينة الطب نفسها — يأكلون روث الحمير لتقوى قدرتهم على الإخصاب .

وظل بعض رجال الدين يمارسون الطب حتى عام ١١٣٩ ، وكل ما كان هناك من علاج في المستشفيات كان يوجد عادة في ملاجئ أديرة الرجال والنساء . وكان للرهبان فضل عظيم في حفظ التراث الطبي من الضياع ؛ وهم الذين مهدوا السبيل لزراعة النباتات الطبية ، وربما كانوا يعرفون ما يفعلون وهم يخلطون الطب بالمعجزات : وحتى الراهبات أنفسهن كن في بعض الأحيان يحذقن علاج

المرضى ، فقد كتبت هلدبجاردى Hildegarde المتصوفة رئيسة دير بنجن Bengin كتاباً فى الطب العلاجى — وهو كتاب **العلل والعلاج** (حوالى عام ١١٥٠) — وكتاباً فى المواد الطبية أفسدته فى بعض مواضعه بالرقى السحرية ولكنه ملئ بالمعلومات الطبية . وربما كانت الرغبة فى القيام بالخدمة الطبية الدائمة من البواعث على التجاء الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء إلى الأديرة . ولما أن تقدم الطب الذى يمارسه غير رجال الدين ، وسرى حب الكسب فى القائمين على العلاج فى الأديرة ، حرمت الكنيسة فى أوقات مختلفة (١١٣٠ ، ١١٣٩ ، ١١٦٣) على رجال الدين ممارسة الأعمال الطبية جهرة ، ولم يحل عام ١٢٠٠ حتى كاد هذا الفن القديم كله يصبح فى أيدى غير رجال الدين .

ويرجع أكبر الفضل فى بقاء الطب العلمى فى بلاد الغرب أثناء العصور المظلمة إلى الأطباء اليهود ، الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية — العربية فى بلاد العالم المسيحى . وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التى انتشرت فى جنوبى إيطاليا وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية ؛ وربما كانت مدرسة سلرنو الطبية قائمة فى أحسن المواقع . وكانت أحسن المدارس استعداداً للإفادة من هذه المؤثرات ، فقد كان الأطباء اليونان ، واللاتين ، والمسلمون ، واليهود يعلمون أو يتعلمون فيها ؛ وظلت حتى القرن الثانى عشر أكبر المعاهد الطبية فى أوربا اللاتينية . وكانت النساء يدرسن التمريض والقبالة فى سلرنو[٥٩] وأكبر الظن أن النساء اللاتى يسمين طبيبات سلرنو كن قابلات تدربن فى تلك المدرسة . وكان من أشهر ما أخرجته مدرسة سلرنو الطبية رسالة فى التوليد نشرت فى القرن الثانى عشر بعنوان : **ترتولا وعلاج أمراض النساء** ، وأكثر المؤرخين مجمعون على أن ترتولا Trotula هذه كانت قابلة فى سلرنو[٦٠] ولقد وصلتنا من مدرسة سلرنو عدة رسائل هامة

تشمل فروع الطب كلها تقريباً ، منها رسالة لأرخماثيوس Archimatheus تصف حال الطبيب وهو واقف بجوار سرير المريض : يجب أن يتحلى الطبيب وهو ينظر إلى حال المريض بالرزانة ، حتى لا تقلل من مكانته خاتمة المريض السيئة ، وحتى يضيف شفاؤه عجيبة أخرى إلى ما اشتهر به من العجائب ؛ وعليه ألا يغازل زوجة المريض أو ابنته أو خادمته ؛ وحتى إذا لم تكن ثمة ضرورة لدواء ما وجب عليه أن يصف له مركباً عديم الضرر ، حتى لا يظن المريض أن العلاج لا يساوى أجر الطبيب ، وحتى لا يظن أن الطبيعة هي التي شفت المريض دون معونة الطبيب[٦١] .

وحلت جامعة نابلى محل مدرسة سلرنو بعد عام ١٢٦٨ ، حتى لم نعد نسمع عن هذه المدرسة إلا الشيء القليل . وكان خريجوها قبل ذلك العام قد نشروا طب سلرنو فى طول أوربا وعرضها . وكانت ثمة مدارس للطب صالحة فى القرن الثالث عشر فى بولونيا ، وبدوا ، وفرارا ، وبروچيا وسينا ، وروما ومنبلييه ، وباريس ، وأكسفورد ؛ وامتزجت فى هذه المدارس التقاليد الطبية الثلاثة الشهيرة — اليونانية ، والعربية ، واليهودية ، وامتصتها امتصاصاً تاماً ، وصيغ التراث الطبي كله صياغة جديدة حتى اصبح هو أساس علم الطب الحديث ، واحتفظ أسلوبا التشخيص القديمان — وهما فحص جدران الصدر بالمسماع وتحليل البول — بشهرتهما وكثرة استعمالها (ولا يزالان يحتفظان بهما إلى يومنا هذا) . وبلغ من انتشارها أن كانت المبولة رمز مهنة الطب أو دلالتها فى بعض الأماكن[٦٢] . كذلك بقيت أساليب العلاج القديمة بالمسهلات والحجامة ؛ وكان الطبيب فى انجلترا « مركب عَلَق » . وكانت الحمامات الحارة من طرق العلاج المحببة . فكان المرضى يسافرون « ليأخذوا الماء » من العيون المعدنية . وكان الطعام الخاص بالمرضى يوصف وصفاً دقيقاً فى الأمراض كلها تقريباً[٦٣] ، ولكن العقاقير الطبية كانت موفورة ، فقلما كان هناك عنصر من العناصر لا يستخدم فى العلاج — من الأعشاب البحرية (الغنية باليود) التي وصفها روجر السلرنى عام ١١٨٠

لعلاج تضخم الغدة الدرقية إلى الذهب الذى كان يتعاطى « لتسكين آلام لأطراف »(٦٤) — ويظهر أن هذه هى طريقتنا الحديثة لعلاج التهاب المفاصل . ويكاد كل عضو من أعضاء الحيوان يكون له عمل فى أقرباذين العصور الوسطى — قرون الغزال ، دماء التنين ، وصفراء الأفاعى ، ومنىّ الضفادع ؛ وكان براز الحيوان يوصف فى بعض الأوقات(٦٥) . وكان أكثر العقاقير استعمالا هو الترياق theriacum ، وهو مزيج غريب من نحو سبع وخمسين مادة أشهرها لحم الأفاعى السامة . وكانت عقاقير كثيرة تستورد من بلاد الإسلام وظلت محتفظة بأسمائها العربية .

ولما ازداد عدد الأطباء المدربين شرعت الحكومات تنظم صناعة الطب . من ذلك أن روچر الثانى صاحب صقلية قصر مهنة الطب على الذين ترخص لهم الدولة ، وأكبر الظن أنه حذا فى ذلك حذو السوابق الإسلامية القديمة . وحتم فردريك الثانى (١٢٢٤) على من يريد ممارسة هذه المهنة أن يحصل على ترخيص بذلك من مدرسة سالرنو ؛ فإذا أراد إنسان أن يحصل عليها وجب عليه أن يتلقى منهاجاً يدوم ثلاث سنين فى العلوم المنطقية Scientia logicalit — ونظن أن معنى هذا اللفظ العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ وكان عليه بعدئذ أن يدرس الطب فى المدرسة مدة خمس سنين ، وينجح فى امتحانين ، ويتمرن عاما تحت إشراف طبيب مجرب(٦٦) .

وكانت كل مدينة ذات شأن تدفع أجور الأطباء لعلاج الفقراء مجاناً(٦٧) . وكان فى بعض المدن أطباء موظفون . من ذلك أنه كان فى أسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر طبيب تستأجره البلدية للعناية بقسم خاص من الأهلين ، فكان يفحص فى فترات محددة كل شخص فى الإقليم المخصص له ، ويسدى النصيحة له حسب ما يكشف عنه الفحص . وكان يعالج الفقراء فى مستشفى عام ، ويجبر

على زيارة كل مريض ثلاث مرات في الشهر ؛ وكان كل هذا يؤدى من غير أجر إلا إذا زار المريض أكثر من ثلاث مرات في الشهر ، فيصرح له في هذا الحال أن يطلب أجراً عن الزيارة التالية . وكان الطبيب الذى يؤدى هذه الخدمات يعفى من الضرائب ويتقاضى مرتباً سنويا مقداره عشرون جنيها(٦٨) قيمتها أربعة آلاف دولار في هذه الأيام(*) .

وإذا كان الأطباء المرخصون قليلى العدد في أوربا المسيحيه أثناء القرن الثالث عشر ، فقد كانت أجورهم عالية ، وكانت لهم منزلة اجتماعية سامية ؛ فمنهم من جمعوا ثروات طائلة ، ومنهم من أصبحوا من هواة جمع التحف الفنية ، ومنهم من كانت لهم شهرة عالمية . فمن هؤلاء الأطباء بطرس هسپانس Petrus Hispanus — بطرس اللشبونى ولكمپستيلى Peter of Lis bon and Compostela — الذى هاجر إلى باريس ثم إلى سينا وكتب أوسع كتب الطب انتشاراً في العصور الوسطى وهو كتاب كنز الفقراء ، وخير بحث في علم النفس في تلك العصور وهو كتاب النفس De anima ؛ وصار بعدئذ البابا يوحنا الحادى والعشرين في عام ١٢٧٦ . ثم قضى نحبه حين سقط عليه سقف في عام ١٢٧٧ . وكان أشهر طبيب مسيحى في ذلك الوقت هو آرنلد الفلانوفى (حوالى ١٢٣٥ — ١٣١١) . وقد ولد بالقرب من بلنسية وتعلم اللغات العربية ، والعبرية ، واليونانية ؛ ودرس الطب في نابلى ، وعلمه هو أو الفلسفة الطبيعية في باريس ، ومنپلييه ، وبرشلونه ، وروما ، وألف عدداً كبيراً من الكتب في الطب ؛ والكيمياء ، والتنجيم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النبيذ ، وتفسير الأحلام . ولما عين طبيباً لجيمس الثانى ملك أرغونة أنذر الملك مراراً أنه إن لم يحم الفقراء من الأغنياء فإنه سوف يلقى في الجحيم(٧٠) . وكان جيمس يحبه رغم هذا التحذير

(*) ولم يكن يحق للطبيب حسب قوانين القوط الغربيين في أسبانيا أن يتقاضى أجراً إذا توفى مريضه(٦٩) .

ويرسله فى كثير من البعثات الدبلوماسية . وهاله ما رآه فى كثير من البلدان من البؤس والاستغلال ، فأضحى من أتباع يواقيم الفلورى Joachim of Flora وأعلن فى رسائل يبعث بها إلى الأمراء والأحبار أن آثام الأقوياء وترف رجال الدين نذيران بخراب العالم . ورمى الرجل بالسحر والإلحاد واتهم بأنه صنع باستخدام الكيمياء سبائك من الذهب لربرت ملك نابلى . وأدانته محكمة الكنيسة ولكن البابا بنيفاس الثامن أطلق سراحه ؛ ونجح فى علاج البابا الشيخ من حصا فى الكلى ، فأهداه البابا قصراً فى أنيانى . ثم أنذر بنيفاس أنه إذا لم تصلح الكنيسة أحوالها ، فسيحل عليها غضب الله سريعاً . وما لبث بنيفاس بعدئذ أن حلت به النوائب التى ذاعت أخبارها فى طول البلاد وعرضها ومات من فرط اليأس . وظلت محكمة التفتيش تطارد آرنلد ولكن الملوك والبابوات كانوا يدافعون عنه لأنه يداوى أسقامهم ، إلى أن مات غريقاً أثناء بعثة من قبل چيمس الثانى لكلمنت الخامس[٧١] .

هذا من حيث الطب ، أما الجراحة فى ذلك الوقت فقد كانت تحارب فى جبهتين إحداهما الحلاقين والثانية ضد المطببين العموميين . فقد كان الحلاقون من زمن بعيد يعطون الحقن ، ويخلعون الأسنان ، ويعالجون الجروح ، ويحجمون . وكان الجراحون الذين تلقوا تدريبا طبيا يحتجون على أداء هذه الخدمات التى تستخدم فيها القوة العضلية ، ولكن القانون ظل يحمى الحلاقين طوال العصور المظلمة كلها ، حتى لقد ظل من واجبات جراحى الجيش فى بروسيا إلى عهد فردريك الأكبر أن يحلقوا ذقون الضباط[٧٢] . وكان من نتائج هذا الخلط فى الواجبات أن ظل الجراحون أقل منزلة من الأطباء فى العلم وفى نظر المجتمع ، فكان ينظر إليهم على أنهم صناع بسطاء يطيعون أوامر الطبيب الذى كان قبل القرن الثالث عشر يستنكف أن يمارس الجراحة بنفسه[٧٣] . وكان مما يثبط همم الجراحين زيادة على هذا خشيتهم من السجن أو الموت إذا أخفقوا فى أعمالهم ؛

ولم يكن يجرؤ على القيام بالجراحات الخطرة إلا أعظمهم شجاعة ؛ وكان معظم الأطباء يطلبون قبل إقدامهم على هذه المجازفة ضمانا كتابيا بأنهم لن يصيبهم مكروه إذا أخفقوا فى عملهم(٧٤) .

ومع هذا فقد تقدمت الجراحة فى ذلك الوقت أسرع من تقدم أى فرع آخر من فروع الطب ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنها كانت تعنى بأحوال قائمة لا بنظريات ، كما يرجع بعضه إلى ما كان يتاح للجراحين من فرص قيمة فى معالجة جراح الجنود . ونشر روجز السالرنى حوالى ١١٧٠ كتابه العمليات الجراحية وهو أقدم رسالة فى الجراحة معروفة فى بلاد الغرب المسيحية ؛ وظلت هذه الرسالة من المراجع الهامة ثلاثة قرون ، وفى عام ١٢٣٨ أمر فردريك الثانى أن تشرح جثة مرة كل خمس سنوات فى سالرنو (٧٥) ؛ وظل تشريح الجثث يجرى بانتظام فى إيطاليا بعد عام ١٢٧٥(٧٦) ؛ وفى عام ١٢٨٦ فتح طبيب فى كرمونا جثة ليدرس عليها سبب وباء انتشر فى ذلك الوقت ، فكان هذا أول تشريح لجثة بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة ؛ وفى عام ١٢٦٦ بدأ تيودريكو برجنيونى Theodorico Brogognomi أسقف سرفيا Cervia كفاحاً طويلا فى الطب الإيطالى ضد الفكرة العربية القائلة إن تكوين الصديد يجب أن يشجع أولا فى علاج الجروح ؛ ويعد بحثه فى التعقيم من أعظم البحوث فى طب العصور الوسطى . وخطا ججليلموساليستى Guglielmo Salicetti — وليم السالسيتوى William of Saliceto (١٢١٠ — ١٢٧٧) — أستاذ الطب فى جامعة بولونيا خطوات كبيرة إلى الأمام فى تحسين الجراحة ، وذلك فى كتاب الجراحة الذى صدر فى عام ١٢٧٥ . وقد قرن فى هذا الكتاب التشخيص الجراحى بمعرفة الطب الباطنى ، وكان يعنى بالاحتفاظ بسجلات للمرضى ، وأظهر كيف يوصل الأعصاب المنفصلة ، ودعا إلى استعمال المشرط بدل الكى الذى

كان واسع الانتشار عند الأطباء المسلمين ، لأن جروح المشرط أضمن من النار شفاء ولا تترك من الأثر فى الجسم مثل ما تتركه النار . وقال وليم فى رسالة عامة إن سبب تضخم الغدة اللمفاوية والقرحة الزهرية هو الاتصال الجنسى بعاهر مصابة بالمرضين ، ووصف داء الاستسقاء وصفاً دقيقاً وقال إنه ينشأ من تحجر الكليتين وضيقهما ، وأسدى نصائح طبية ممتازة الصحة والتغذية لكل سن فى حياة الإنسان .

ونقل تلميذاه هنرى المندڤيلى Henri de Mondeville (١٢٦٠ — ١٣٢٠) وجيدو لانفرانشى Guido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣١٥) المعارف الطبية من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندڤيلى ما عمله تيودوريكو فحسن طرق التعقيم بأن دعا إلى العودة إلى طريقة إبقراط وهى الاحتفاظ بالجرح نظيفاً بأبسط الوسائل . ولما نفى لانفرانشى من ميلان فى عام ١٢٩٠ انتقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب التشريح الكبير Chirurgia Magna الذى أصبح المرجع المعتمد فى هذا العلم فى جامعة باريس . وقد وضع لانفرانشى مبدأ بفضله أنقذ علم التشريح من الوسائل الهمجية وهو : « ليس فى وسع إنسان أن يكون طبيباً قديراً إذا كان يجهل علم التشريح ، وليس فى مقدور إنسان ما أن يجرى جراحات ناجحة إذا كان يجهل الطب » . وكان لانفرانشى أول من استخدم تشريح الأعصاب لعلاج التتنوس ، وإدخال أمبوبة فى المرىء ، وهو أول من أدلى بالوصف الجراحى لارتجاج المخ . وقصارى القول أن الفصل الذى وصف فيه إصابات الرأس من المعالم البارزة فى تاريخ الطب .

وقد ورد ذكر الجرعات المنومة فى كتب أرجن Origen (١٨٥—٢٥٤) وهيلارى أسقف بواتيه Hilary Bishop of Poitiers (حوالى ٣٥٣) . وكانت طريقة التخدير المألوفة فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى هى طريقة

الاستنشاق مصحوبة فى أغلب الظن بشرب مزيج أساسه المندرغورة(*) ، ويحتوى فى العادة على الأفيون وعصير الشوكران ، والتوت . وقد ورد ذكر هذه « الإسفنجة المنومة » فى القرن التاسع وما بعده[٧٨] . أما التخدير الموضعى فكان يستعان عليه بضمادة غمست فى محلول شبيه بهذا : وكان المريض يوقظ بتشميمه عصير الشمر . ولم تكن أدوات الجراحة وقتئذ قد تقدمت عما كانت عليه عند اليونان الأقدمين ؛ أما فن التوليد فقد انحط عما كان عليه فى عهد سورانس Soranus (عام ١٠٠ م) وبولس الإيجينى Paul of Aegina (حوالى ٢٤٠ م) . وقد ذكرت العملية القيصرية(**) فى الأدب ولكن يبدو أنها لم يكن يلجأ إليها . وكان تقطيع الجنين عند تعسر الولادة لتخليصه من الرحم يلجأ إليه فى كثير من الأحيان لأن القابلة قلما كانت تعرف كيف تغير وضع الجنين . وكانت الولادة تحدث فى كرسى يعد لهذا الغرض خاصة[٧٩] .

وتقدمت المستشفيات وقتئذ عما عرف عنها فى أى عصر من العصور القديمة فقد كان عند اليونان الأقدمين مؤسسات دينية لعلاج المرضى ؛ وأنشأ الرومان مستشفيات لعلاج جنودهم ، ولكن نظم الصدقات المسيحية كانت هى السبب فى تقدم نظام المستشفيات تقدماً كبيراً . وحسبنا أن نذكر عن هذا التقدم أن القديس باسيلى أسس فى مدينة قيصرية من أعمال كبدوكيا داراً سميت **الباسلياس** نسبة إليه ، كان فيها عدة مبان للمرضى ، والممرضات ، والأطباء ، والمصانع ، والمدارس . وافتتح القديس إفرايم Ephraim مستشفى فى الرها عام ٣٧٥ ؛ وأنشئت مستشفيات أخرى فى جميع أنحاء الشرق اليونانى وتخصصت وتنوعت . وكان عند اليونان البيزنطيين مصحات للمرضى ، وملاجئ للقطاء ، وأخرى لليتامى ، وملاجئ للفقراء ،

(*) وتسمى البيروح وهى نبات من الفصيلة الباذنجانية معروف فى العالم القديم شبيه بصورة الإنسان (من قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

(**) وهى تخليص الجنين بشق البطن بدون استئصال الرحم . (المترجم)

وغيرها للفقراء أو العاجزين من الحجاج أو للشيوخ الطاعنين في السن . وقد أسست فابيولا Fabiola في رومة عام ٤٠٠ أول مستشفى في البلاد المسيحية اللاتينية . وأنشأت أديرة كثيرة مستشفيات صغيرة ، وقام عدد من الرهبان — رهبان المستشفيات ، ورهبان المعبد ، والأنطونيين ، والألكسيين Alexians ، — والراهبات بالعناية بالمرضى . ونظم إنوسنت الثالث في رومة عام ١٢٠٤ مستشفى الروح القدس Santo Spiriot ، وقامت بوحى منه مؤسسات من نوعه في جميع أنحاء أوربا ، فكان في ألمانيا وحدها في القرن الثالث عشر أكثر من مائة من « مستشفيات الروح القدس » : وكانت المستشفيات في فرنسا تعنى بالفقراء ، والطاعنين في السن ؛ والحجاج ، كما تعنى بالمرضى ؛ وكانت كمؤسسات الأديرة تستضيف هذه الطوائف ؛ وأنشأ لويس التاسع حوالى عام ١٢٦٠ ملجأ في باريس يدعى الثلاثمائة Les quiuze-vingt ؛ وكان في بادئ الأمر مأوى للمكفوفين ، ثم أضحى مستشفى للرمد ، وهو الآن من أهم المراكز الطبية في باريس ؛ وأنشئ أول المستشفيات الإنجليزية المعروفة في التاريخ (وليس من الضروري أن يكون أول ما أنشئ منها في إنجلترا) بكنتربري عام ١٠٨٤ . وكانت هذه المستشفيات تقوم في العادة بأداء الخدمات بالمجان لمن يعجزون عن أداء الأجور ، وكانت ممرضاتها (ما عدا مستشفيات أديرة الرجال) من الراهبات . واتخذت الأثواب التي ترتديها « ملائكة الرحمة ورسلها » ، وهي التي تبدو في نظرنا مرهقة لهن ، في القرن الثالث عشر ، وأكبر الظن أنها اتخذت هذا الشكل لحمايتهن من الأمراض المعدية ؛ ولهذا السبب عينه جرت عادة قص الشعر وتغطية الرأس (٨٠) .

وتطلب مرضان معينان اتخاذ وسائل خاصة للوقاية ، وهذان المرضان هما « نار القديس أنطونيوس » وهو وباء جلدي — لعله مرض الحمرة — وهو مرض بلغ من خبثه أن تألفت حوالى عام ١٠٩٥ طائفة من الرهبان هي جماعة

الأنطونيين لمعالجة ضحاياه . ويذكر جريجوري التوري Gregory of Tours (حوالى عام ٥٦٠ م) مستشفيات الجذام ؛ وتألفت جماعة القديس لازار St. Lazarus من الرهبان للخدمة في مستشفيات الجذام . وكانت أمراض ثمانية تعد من الأمراض المعدية : وهي الطاعون الدملي ؛ والتدرن الرئوي ، والصرع ، والجرب ، والحمرة ، والبثرة الخبيثة ، والرمد الحبيبي ، والجذام . وكان يحرم على المصاب بأحد هذه الأمراض أن يدخل مدينة إلا معزولا عن غيره ، أو أن يعمل في بيع الطعام أو الشراب . وكان يفرض على المجذوم أن يحذر الناس من اقترابه بالنفخ في قرن أو بدق ناقوس . وكان مرضه يبدو عادة في شكل طفح صديدي على الوجه والجسم . وليس هذا المرض شديد العدوى ، ولكن أكبر الظن أن ولاة الأمور في العصور الوسطى كانوا يخشون انتشاره بطريق الجماع . وربما كان هذا اللفظ يشمل فيما يشمله ، ما يعرف الآن عند الأطباء بأنه مرض الزهري ، ولكننا لانجد إشارة صريحة لهذا الداء قبل القرن الخامس عشر(٨١) . ويبدو أنه لم تتخذ أية وسيلة خاصة لعلاج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الخامس عشر .

وعانت العصور الوسطى من فتك الأوبئة أكثر مما عاناه أي عصر آخر معروف ، وذلك لأن الفقر كان يحول بين أهلها وبين النظافة أو الغذاء الصالح ، ومن أمثلة ذلك « الوباء الأصفر » الذي اجتاح أيرلندة في عامي ٥٥٠ و ٦٦٤ وأهلك كما تقول الأخبار غير الموثوق بصحتها ثلثي الأهلين(٨٢) . واجتاحت أوبئة مثله بلاد ويلز في القرن السادس ، وإنجلترا في القرن السابع . وفشا في فرنسا وألمانيا في أعوام ٩٩٤ ، ١٠٤٣ ، ١٠٨٩ ، ١١٣٠ وباء يسميه الفرنسيون mal des ardents (وباء الاحتراق) وقد وصف بأنه يحرق الأمعاء . وربما كان الصليبيون هم الذين نشروا وباءى الجذام والأسقربوط ، ويبدو أن مرض **التثني البولندي** Plica Polonica —

وهو مرض من أمراض الشعر — قد جاء به الغزاة المغول إلى بولندة حين غزوها فى عام ١٢٨٧ ؛ وكان السكان البائسون يعزون هذه الأوبئة للقحط ، والجدب وجيوش الحشرات ، وتأثير النجوم ، وتسميم اليهود لآبار المياه ، أو غضب الإله . وأقرب من هذه الأسباب إلى العقل ازدحام المدن الصغيرة المسورة بالسكان ، وعدم وجود الاحتياطات الصحية أو مراعاة قواعدها ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف مقاومة الأهلين للعدوى التى يحملها الجنود والحجاج والطلاب العائدون إلى أوطانهم(٨٣) . وليست لدينا إحصاءات عن عدد الموتى فى العصور الوسطى ولكن أكبر الظن أن الذين كانوا يصلون إلى سن النضوج لم يزيدوا على نصف المواليد ، وكانت خصوبة النساء تعمل جاهدة للتكفير عن غباء الرّجال وبسالة الجنود .

وتحسنت وسائل المحافظة على الصحة العامة فى القرن الثالث عشر . ولكنها لم تبلغ قط فى العصور الوسطى الدرجة الممتازة التى بلغتها أيام الإمبراطورية الرومانية . وكانت معظم المدن ، وأحياء المدن ، تعين موظفين للعناية بشوارعها(٨٤) ، ولكن أعمال هؤلاء الموظفين كانت بدائية ، وكان من يزورون المدن المسيحية من المسلمين يشكون — كما يشكو من يزورون المدن الإسلامية من المسيحيين فى هذه الأيام — من قذارة « مدن الكفار » ورائحتها الكريهة(٨٥) . فقد كانت الفضلات وأقذار البالوعات تجرى فوق البالوعات فى شوارع كمبردج التى تبلغ الآن درجة كبرى من الجمال والنظافة ، وكانت تنبعث منها « روائح كريهة . . . يمرض منها الكثيرون من المدرسين والطلاب »(٨٦) . وكانت لبعض المدن فى القرن الثالث عشر قنوات مغطاة لنقل ماء الشرب ، وبالوعات ، ومراحيض عامة ؛ وكانت الأمطار هى التى يعتمد عليها فى معظم المدن لاكتساح الأقذار ، وكان تدنيس الآبار ينشر وباء التيفود ؛ وكانت المياه التى تستخدم فى عمل الخبز وعصر الخمر تؤخذ عادة — فى البلاد الواقعة فى

شمال الألب - من المجارى المائية التى تتلقى أقذار المدن[٨٧] . وكانت إيطاليا أكثر رقياً من غيرها من البلدان ، وأكبر السبب فى هذا ما ورثته عن الرومان ، وما سنه فردريك الثانى ، من تشريعات مستنيرة لإزالة الأقذار ، ولكن عدوى الملاريا الناشئة من المستنقعات المحيطة بها جعلت رومة مدينة غير صحية ، قتلت كثيرين من كبار موظفيها وزائريها ، وأنجت المدينة بين الفينة والفينة من الجيوش المعادية التى استسلمت للحمى وسط انتصاراتها .

الفصل السادس

ألبرتس مجنس ١١٩٣ – ١٢٨٠

تبرز أمامنا فى تلك الفترة من الزمان أسماء ثلاثة رجال، وهبوا أنفسهم للعلم : أدلارد الباثى Adelard of Bath ، وألبرت العظيم ، وروچر بيكن . فأما أدلارد فقد تلقى العلم فى كثير من الأقطار الإسلامية ثم عاد إلى إنجلترا وكتب (حوالى عام ١١٣٠) حواراً طويلا سماه الأسئلة الطبيعية يشمل كثيراً من العلوم . ويبدأ الكتاب على الطريقة الأفلاطونية بوصف اجتماع أدلارد بجماعة من أصدقائه ، ويسألهم عن الحالة فى إنجلترا ، فيجيبونه بأن الملوك يشعلون نيران الحروب ، والقضاة يرتشون ، وكبار رجال الدين يسرفون فى شرب الخمر ، وأن العهود جميعها تنكث ، والأصدقاء كلهم يتحاسدون . ويتقبل أدلارد هذا على أنه هو الحال الطبيعية التى لا تقبل التغير ، ويعرض على أصدقائه أن ينسوها . ويسأل ابنُ أخ لأدلارد عمَّه ماذا تعلم فى بلاد المسلمين ؟ فيجيبه بأنه يفضل علوم المسلمين عن علوم المسيحيين ، فيتحداه أصدقاؤه وتكون أجوبته لهم مختارات طريفة من جميع علوم ذلك العصر . ويندد فيها بما تفرضه التقاليد والسلطات من قيود ثقيلة ويقول : لقد تعلمت عن أساتذتى العرب أن أسترشد بالعقل ، أما أنتم يامن أسرتكم ... السلطات ، فإنكم تسيرون إلى حيث يقودكم المقود والزمام . . . وماذا عسى أن تسمى السلطة غير المقود والزمام ؟ » إن الذين يحسبون الآن من أصحاب السلطان إنما حصلوا على سلطانهم باتباع العقل ، لا السلطات . ثم يقول لابن أخيه : « فإذا شئت إذن أن تسمع منى أكثر مما سمعت فأعط العقل وخذه . . . إذ ليس شىء أكثر ضماناً من العقل . . . وليس شىء أكثر كذباً

من الحواس »[٨٨] . ويدلى أدلارد ببعض الأجوبة الطريفة وإن كان يسرف فى اعتماده على المنطق الاستدلالى . فإذا سئل ما الذى يمسك الأرض فى الفضاء أجاب بأن أسفل الأرض ومركزها شىء واحد ؛ ويسأل إلى أى مدى يسقط الحجر إذا ألقى فى ثقب يخترق مركز الأرض إلى الجانب الآخر منها ؟ فيجيب بأنه لا يصل إلا إلى مركز الأرض . وهو يذكر فى وضوح مبدأ عدم فناء المادة ، ويقول إن مبدأ الاستمرار العالمى يجعل وجود الفراغ مستحيلا . وجملة القول أن أدلارد برهان ساطع على يقظة العقل فى أوربا المسيحية أثناء القرن الثانى عشر . فقد كان شديد التحمس لإمكانيات العلوم ، ويسمى فى زهو وخيلاء عصره أى عصر أدلارد بالعصر الحديث[٨٩] ، وأعلى ما وصل إليه التاريخ كله .

أما ألبرتس مجنس فلم تبلغ روحه العلمية ما بلغته روح أدلارد ، ولكن شغفه بمعرفة حقائق الكون أدى به إلى إنتاج ضخم أكسبه اسم « العظيم » . واتخذت معظم مؤلفاته العلمية ، كما اتخذت معظم مؤلفاته الفلسفية ، صورة شروح لرسائل أرسطو المقابلة لها ، ولكنها تحتوى من حين إلى حين نسمات جديدة من الملاحظات المبتكرة ، وتتاح له وسط سحب المقتبسات المنقولة عن المؤلفين اليونان ، والعرب واليهود فرص ينظر فيها إلى الطبيعة بنفسه . وقد زار معامل التجارب ، والمناجم ، ودرس كثيراً من المعادن المتنوعة ، وفحص عن حيوان بلاده الأصلية — ألمانيا — ونباتها ، ولاحظ حلول البحر محل الأرض والأرض محل البحر ، وفسر بذلك وجود الحفريات القديمة فى الصخور . وإذا كانت فلسفته قد طغت على علمه فحالت بينه وبين الدقة العلمية ، فقد ترك نظرياته « القبْلية » (*) تؤثر فى نظرياته العلمية ، مثال ذلك ادعاؤه أنه رأى شعر الخيل يتحول فى الماء إلى ديدان . ولكنه كان مثل أدلارد يرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأنها تحدث

(*) النظريات القبلية هى التى تكون فى عقل الباحث قبل أن يثبتها بالأدلة الاستقرائية .

تبعاً لإرادة الله ، ويقول إن الله يعمل وفق علل طبيعية ، وإن من واجب الإنسان أن يبحث عن الله فى هذه العلل نفسها .

وقد طمست ثقته بأرسطو رأيه فى التجارب العلمية . وإنا لنثير عقولنا فقرة شهيرة فى الكتاب العاشر من مؤلفه De vegetabilis يقول فيها : « إن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة Experimentum solum Certificat » ولكن كلمة تجربة experimentum كان لها وقتئذ معنى أوسع من معناها فى هذه الأيام كما يبدو ذلك من سياق هذه الفقرة : « إن كل ما هو مدون هنا إما ثمرة تجربتنا أو مأخوذ من مؤلفين نعلم أنهم قد كتبوا ما أيدته تجربتهم الشخصية ، لأن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة » . ومع هذا كله فقد كان عمل ألبرتس تقدماً سليما عظيم النفع . ويسخر ألبرتس من المخلوقات الأسطورية أمثال الحيوان الذى نصفه أسد ونصفه نسر ؛ والهولة المفترسة القذرة التى لها جسم امرأة ، وجناحا الطير الجارح ومخالبه وقدماه ، والتى هى رسول انتقام الآلهة ، والخرافات وقصص الحيوانات الخرافية الواردة فى أحد الكتب الواسعة الانتشار فى ذلك الوقت وهو كتاب Physiologus ؛ ويذكر فيما يذكره أن « الفلاسفة يذكرون كثيراً من الأكاذيب » (٩٠) . وكان فى بعض الأحيان — ولا نقول فى أغلب الأحيان — يجرى تجارب ، كما حدث حين أثبت هو ورفاقه أن « زير الحصيدة » (Cicada) ظل يغنى لحظة وجيزة بعد أن قطع رأسه . ولكنه كان يثق بأقوال يلى ثقة الإنسان البرىء بأولياء الله الصالحين ، ويصدق تصديق السذج البلهاء القصص التى يرويها الكذابون من صائدى الوحوش والسمك .

وقد خضع لزمانه حين آمن بالتنجيم ، ويعلم بالغيب وعزا قوى عجيبة للجواهر والأحجار ، ويدعى أنه شاهد بعينيه ياقوتة زرقاء شفت قرحاً . وهو يرى ، كما يرى تومس الواثق من نفسه ، أن السحر من الحقائق المؤكدة ، وأنه من فعل

العفاريت ، ويؤمن بأن الأحلام تنبئ أحياناً بالحوادث المستقبلة ، ويقول : « إن النجوم فى الحقيقة هى التى تحكم العالم » فى الأحوال الجسمية ، وأن اقتران الكواكب يفسر فى أغلب الظن « أحداثاً خطيرة وأعاجيب عظيمة » ، وأن المذنبات قد تنذر بالحروب وموت الملوك : « إن فى الإنسان مصدراً مزدوجاً للعمل — الفطرة والإرادة ؛ فأما فطرته فتحكمها النجوم ، وأما الإرادة فحرة ؛ لكن الإرادة إذا لم تقاوم ، اكتسحتها الفطرة » . ويعتقد أن فى وسع المنجمين القادرين أن يتنبئوا إلى حد كبير بما سوف يحدث للإنسان فى حياته ، أو بنتيجة ما سوف يقدم عليه من المشروعات ؛ وذلك بالنظر فى مواقع النجوم . وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائيين القدامى ، (أو المذهب النووى الحديث) القائل بتحول العناصر بعضها إلى بعض[٩٢] .

وكان أحسن ما عمله فى علم النبات . فقد كان أول عالم فى النبات من أيام ثيوفراسطس (على قدر ما وصل إليه علمنا) يدرس النبات للعلم بالنبات لا لفائدته فى الزراعة أو الطب . وقد صنف النباتات ، ووصف ألوانها ، وروائحها ، وأجزاءها ، وثمارها ، ودرس قوة إحساسها ، ونومها ، وتذكيرها وتأنيثها ، ونموها ، وحاول أن يكتب مقالا فى الفلاحة . وقد دهش همبولدت Humboldt إذ وجد فى كتاب النبات لألبرت : « ملاحظات غاية فى الدقة عن التركيب العضوى للنبات وعن وظائف أعضائه »[٩٣] . وأما كتابه الضخم فى الحيوان فعظمه شرح لأرسطو ، ولكننا نجد فيه أيضاً ملاحظات أصيلة . فهو يحدثنا مثلا بأنه « سافر فى بحر الشمال للقيام ببحوث فيه ، وبأنه نزل فى الجزائر ، وعلى الشواطئ الرملية ليجمع » نماذج للدرس[٩٤] وقد وازن بين الأعضاء المماثلة فى الحيوان والإنسان[٩٥] .

وإذا ما نظرنا إلى هذه الكتب فى ضوء علمنا الحاضر حكمنا على أن فيها كثيراً من الأغلاط ، ولكننا إذا نظرنا إليها فى ضوء ما كانت عليه عقول الناس فى الزمن الذى ألفت فيه حكمنا بأنها من أعظم ما أثمرته العقول فى العصور

الوسطى . فقد كان الناس فى ذلك الوقت يعترفون بأن ألبرت أعظم المعلمين فى زمانه ، ولقد طال به العمر حتى رأى رجالا من طراز بطرس الأسبانى Peter of Spain ، وڤنسنت البوڤيزى اللذين ماتا قبله ينقلون عنه فى مؤلفاتهم . نعم إنه لم يكن فى مقدوره أن يضارع ابن سينا أو ابن ميمون أو تومس فى دقة الحكم وصدقه أو فى قبضته على ناصية الفلسفة ، ولكنه كان أعظم علماء التاريخ الطبيعى فى زمانه .

الفصل السابع

روجر بيكن — حوالى عام ١٢١٤ — ١٢٩٢

ولد أشهر علماء العصور الوسطى فى سمرست حوالى عام ١٢١٤ ، ونحن على يقين من أنه عاش حتى عام ١٢٩٢ ، وأنه قال عن نفسه فى عام ١٢٦٧ إنه شيخ كبير[٩٦] . ودرس فى أكسفورد على جروستستى وكسب من هذا العالم المحيط بشتى الفنون افتتاناً بالعلم . وكانت الروح الإنجليزية ، روح النفعية والاعتماد على الاختبار ، قد أخذت تتشكل . وسافر بيكن إلى باريس حوالى عام ١٢٤٠ ، ولكنه لم يجد فيها الحافز القوى الذى بعثته فيه أكسفورد ، وأدهشه كثيراً أن لم يجد إلا قلة ضئيلة من أساتذة جامعة باريس تعرف لغة من لغات العلم خلاف اللغة اللاتينية ، وأنهم لا يولون العلم إلا قدراً ضئيلا من وقتهم ، وأنهم ينفقون الكثير منه فى الجدل المنطقى والميتافيزيقى وهو الذى كان يبدو لبيكن عديم النفع فى الحياة إلى حد الإجرام . ودرس الطب وشرع يكتب رسالة فى تخفيف متاعب الشيخوخة . وسعى للحصول على ما يلزمه من المعلومات لهذه الرسالة بالسفر إلى إيطاليا ؛ ودرس اللغة اليونانية فى بلاد اليونان الكبرى(*) ، وفيها عرف بعض المؤلفات الطبية الإسلامية ، ثم عاد إلى أكسفورد فى عام ١٢٥١ ، وانضم إلى هيئة التدريس فى تلك الجامعة ؛ وكتب فى عام ١٢٦٧ يقول إنه أنفق فى العشرين السنة السابقة على ذلك العام ألفى جنيه فى شراء « الكتب السرية والآلات » وفى تعليم الشبان اللغات والعلوم الرياضية[٩٧] . واستأجر اليهود ليعلموه هو وطلابه اللغة العبرية وليعاونوه على قراءة العهد القديم بلغته الأصلية .

(*) كان اليونان فى الزمن القديم يطلقون هذا الاسم على جنوب إيطاليا . (المترجم)

وانضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيس حوالى عام ١٢٥٥ ، ولكن يبدو أنه لم يصبح فى يوم من الأيام قسا .

وعافت نفس بيكن ميتافيزيقية المدرسيين ، فألقى بنفسه بحماسة بالغة فى تيار العلوم الرياضية ، والتاريخ الطبيعى ، والفلسفة . وليس من حقنا أن نفكر فيه على أنه مبتكر فذ ، وصوت عالمى يدوى فى بيداء الفلسفة المدرسية ؛ لأن الواقع أنه كان فى كل ميدان مديناً لمن سبقوه ؛ وأن ما وهب من القدرة على الابتداع كان هو الذروة المحتومة لتطور طويل المدى. ولقد وضع ألكسندر نكهام، وبارثلميو الإنجليزى Bartholomew the Englishman ، وربرت جروستستى ، وآدم مارش Adam Marsh فى أكسفورد تقاليد علمية ثابتة ، ورثها بيكن ، وأعلنها إلى العالم ؛ وكان يعترف بفضل أولئك السابقين عليه ويثنى عليهم ثناء لا حد له : وكان يعترف كذلك بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله ، وبما هو مدين لليونان عن طريق العلماء المسلمين ؛ وأشار إلى أن علماء اليونان والمسلمين « الكفرة » كانوا هم أيضاً ممن تلقوا الوحى والهداية من الله[٩٨] . وكان يجل إسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول وغيرهما من المفكرين العبرانيين ، ووجد فى نفسه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول كلمة طيبة عن اليهود الذين كانوا يقيمون فى فلسطين حينما صلب المسيح[٩٩] . ولم يكن يأخذ العلم بنهم عن العلماء وحدهم ، بل كان يأخذه أيضاً عن أى إنسان تستطيع معارفه فى الصناعات اليدوية أو الأعمال الزراعية أن تزيد ما لديه من معلومات . وكتب فى هذا المعنى بتواضع لا عهد لنا به :

لاريب فى أن إنساناً ما لن يستطيع ، قبل أن يرى الله وجهاً لوجه ، أن يعرف شيئاً مؤكداً تأكيداً نهائياً ... لأنه لا يوجد إنسان ملم بجميع أحوال الطبيعة إلماما يمكنه من أن يعرف كل شىء .. عن طبيعة ذبابة واحدة وخواصها.. وإذ كانت الأشياء التى يجهلها الإنسان لاحصر لها ؛ وكانت أعظم وأجمل إذا

قيست إلى ما يعرفه منها ، فإن من يمتدح نفسه بكثرة ما يعرفه ، مجهول قد اختلت موازين عقله . وكلما زاد الناس حكمة ، كانوا أكثر تواضعاً واستعداداً لتلقي العلم من غيرهم ؛ وهؤلاء لايحتقرون من يأخذون عنه لسذاجته ، ولكنهم يظهرون التواضع للفلاحين ، وللعجائز من النساء وللأطفال ، لأن السذج وغير المتعلمين يعرفون أشياء كثيرة تخفى على الحكماء . . . ولقد عرفت أنا نفسي من أناس ذوي مكانة وضيعة حقائق أكثر أهمية من التي عرفتها من جلة العلماء الذائعي الصيت . فليحذر كل إنسان إذن أن يفاخر بما أوتي من حكمة(١٠٠) .

واندفع في العمل بجهد وسرعة أثرتا في صحته حتى اعتل جسمه في عام ١٢٥٦ ، فانسحب من الحياة الجامعية ولم نعد نعرف عنه شيئاً في العشر السنين التالية . وأكبر الظن أنه ألف في هذه الفترة بعض كتبه الصغيرة أمثال : **في العدسات المحرقة وفي قوى الاختراع والطبيعة العجيبة** ، **وتقرير الحادثات الطبيعية** . ووضع في هذا الوقت خطه « **الكتاب الرئيسي** » وهو موسوعة من عمل رجل واحد أراد أن تكون في أربعة مجلدات : (١) النحو والمنطق . (٢) الرياضة ، والهيئة ، والموسيقى . (٣) العلوم الطبيعية — البصريات ، والجغرافية ، والتنجيم ، والكيمياء القديمة ، والزراعة ، والطب ، والعلوم التجريبية . (٤) ما وراء الطبيعة والأخلاق .

وبعد أن كتب أجزاء متفرقة من هذه الموسوعة واتته فرصة خيل إليه أنها فرصة سعيدة ، فحالت بينه وبين إنجاز برنامجه . ذلك أن جاي فولك Guy Foulques كبير أساقفة نربونة ارتقى عرش البابوية في شهر فبراير من عام ١٢٦٥ وتسمى باسم كلمنت الرابع ، وجاء معه إلى البابوية ببعض الروح الحرة التي نشأت في جنوبي فرنسا من اختلاط الشعوب والعقائد الدينية . وكتب إلى بيكن في شهر يونية يأمره بإرسال « نسخة مبيضة » من مؤلفاته « سراً وعاجلا »

و« دون مبالاة بتحريم أى رئيس دينى ، أو لائحة الطائفة التى تنتمى إليها»[١٠١].
وشرع بيكن بكل ما فى وسعه من جهد (كما يتبين ذلك من أسلوبه الحماسى) يعمل ليتم موسوعته ؛ ولكنه خشى أن يتوفى كلمنت أو يفقد اهتمامه بالعمل قبل تمامه ، فأجله ، وألف فى اثنى عشر شهراً — أو جمع من مخطوطاته — الرسالة الأولية المعروفة لنا باسم **الكتاب الأكبر** Opus Maius ؛ وظن أن هذا المؤلف نفسه قد يكون أطول مما يريده البابا الكثير المشاغل فكتب عناصر منه سماها **الكتاب الأصغر** ؛ وأرسل هذين المخطوطين فى أوائل عام ١٢٦٨ إلى كلمنت ومعها مقال **عن تضاعف الرؤية** . وخشى أن تضيع هذه فى طريقها إلى البابا فكتب خلاصة أخرى لآرائه هى **الكتاب الرابع** وأرسلها إلى كلمنت مع رسول خاص ، مصحوبة بعدسة ، وأشار على البابا أن يجرى بها تجارب بنفسه . وتوفى كلمنت فى شهر نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومبلغ علمنا أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو ممن جاءوا بعده اعترافاً منه أو منهم بوصول هذه الكتب .

فالكتاب الأكبر إذن هو عندنا « أكبر مؤلفات » بيكن ، وإن كان هو لم يرده إلا أن يكون فاتحة لمؤلفاته . وهو كتاب ضخم يضم ثمانمائة صفحة مقسمة إلى سبع رسائل : (١) فى الجهل والخطأ . (٢) وفى العلاقة بين الفلسفة وعلوم الدين . (٣) وفى دراسة اللغات الأجنبية . (٤) وفى فائدة العلوم الرياضية . (٥) وفى فن المنظور والبصريات ، (٦) وفى العلوم التجريبية . (٧) وفى الفلسفة الأخلاقية . وفى الكتاب قدره الخليق به من السخافات ، وفيه كثير من الاستطراد ، وأكثر مما يليق من المقتبسات الطويلة من مؤلفات غيره ؛ ولكنه يمتاز بالقوة ، والإخلاص ، والاتجاه إلى القصد مباشرة ، ويقبل عليه

القراء فى هذه الأيام أكثر من إقبالهم على أى مؤلف آخر من مؤلفات العصور الوسطى فى العلوم أو الفلسفة . وإنا ليسهل علينا أن نفهم الاضطراب الحماسى ، والإشادة بالبابوية ، والحرص الشديد على الجهر بالتمسك بالدين القويم ، والنزول بالعلم والفلسفة إلى منزلة الخدم لعلوم الدين ، نقول إنا ليسهل علينا أن نفهم وجود هذا كله فى كتاب يبلغ هذا المبلغ من اتساع المدى وتعدد الموضوعات ، كتب ليكون خلاصة عاجلة ، ويراد به الحصول على تأييد البابا للتربية العلمية والبحث العلمى . ذلك أن روجر بيكن كان يشعر به فرانسس بيكن وهو أن تقدم العلوم فى حاجة إلى معونة رؤساء الدين وكبار رجال الدولة ، وإلى أموالهم لتبتاع بها الكتب ، والآلات والسجلات ، ومعامل الاختبار ، والتجارب ، ولأداء أجور الموظفين .

وكأنما أراد أن يستبق سميه إلى تحطيم « الأصنام » بثلثمائة عام ، فبدأ بذكر أربعة أسباب هى التى توقع الإنسان فى الخطأ وهى : « الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها ، والعادة التى استقرت من زمن بعيد ، وإحساس الجماهير الجاهلة ، وتغشية الجهل بستار من التظاهر بالحكمة »[١٠٢]. ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه « لايشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التى .. وهبت إلى الكنيسة » . (٥) وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفى لأن تكون قضية ما فى رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجد فى أرسطو ، ويجهر بأنه لو أوتى السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف ، لأنها فى رايه منبع الأخطاء ومصدر الجهل[١٠٣] ، ثم تراه بعد هذا لاتخلو صفحتان من كتابه دون عبارة مقتبسة من أرسطو .

ويكتب فى أول الجزء الثانى يقول : « وبعد أن أقصيت أسباب الخطأ الأربعة وألقيت بها فى الدرك الأسفل أحب أن أبين حكمة واحدة لا أكثر هى الحكمة الكاملة ، وهى الحكمة التى يحتويها الكتاب المقدس » . وفى رأيه أنه

إذا كان فلاسفه اليونان قد ألهموا نوعاً من الإلهام الثانوى ، فسبب ذلك أنهم اطلعوا على كتب الأنبياء والبطارقة(١٠٤). ويبدو أن بيكن يؤمن بقصص الكتاب المقدس إيماناً ساذجاً ، ويعجب لم لا يسمح الله للناس أن يعيشوا ستمائة عام(١٠٥). ويؤمن كذلك بقرب نزول المسيح وبنهاية العالم . وهو يدفع عن العلم لأنه يكشف عن الخالق فى خلقه ، ولأنه يمكن المسيحيين من أن يهدوا الكفار الذين لايتأثرون بالكتاب المقدس . وهكذا « يتأثر العقل البشرى فيؤمن بحقيقة مولد المسيح من العذراء ، لأن بعض الحيوانات تحمل وهى عذراء وتلد صغاراً ، ومن أمثلة ذلك الصقورة والقردة ، كما يقول أمبروز فى كتابه **الأيام الستة** (*) . هذا إلى أن الخيل فى كثير من البلدان تحمل بفعل الرياح وحدها حين تشتهى الذكر كما يقول بلنى(١٠٦) ، وتلك كلها أمثلة يؤسف لها اعتمد فيها على أصحاب « السلطة » العلمية لا أكثر .

ويبذل بيكن فى الجزء الثالث من كتابه غاية جهده ليعلم البابا اللغة العبرية لأن دراسة اللغات فى رأيه لازمة للدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وذلك لأن الترجمة أيا كانت لا تنقل معنى الكتب المقدسة أو أقوال الفلاسفة الكفرة نقلا دقيقاً . ويتحدث بيكن فى **الكتاب الأصغر** حديثاً علميا مدهشاً عن التراجم المختلفة للكتاب المقدس ويثبت علمه الواسع بالنصوص العبرية واليونانية . ويقترح أن يعين البابا لجنة من العلماء المتبحرين فى اللغات العبرية واليونانية ، واللاتينية لمراجعة الترجمة اللاتينية القديمة لهذا الكتاب ، وأن تكون هذه الترجمة المراجعة — **لا أحكام** بطرس لمبارد هى التى تدرس مع علوم الدين ويحث على إنشاء كراسى أساتذة لتدريس اللغات العبرية واليونانية والعربية ، والكلدانية ؛ ويعارض فى استخدام القوة لتحويل غير المسيحيين إلى الدين المسيحى ، ويتساءل

(*) يريد الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم . (المترجم)

كيف تستطيع الكنيسة أن تتصل بالمسيحيين اليونان ، والأرمن ، والسوريين ، والكلدان إلا عن طريق لغاتهم . وكان بيكن يعمل بجد فى هذا الميدان ويعظ الناس ، وكان أول العلماء فى العالم المسيحى الغربى يتم وضع كتاب نحو يونانى ليستخدمه الذين يعرفون اللاتينية ، وأول مسيحى يؤلف فى نحو اللغة العبرية . وكان يقول إن فى مقدوره أن يكتب باللغتين اليونانية والعبرية ، ويبدو أنه درس أيضاً اللغة العربية[١٠٧] .

وحين يصل بيكن إلى موضوع الرياضيات تصبح كتبه مسرحاً للتحمس البليغ والنظريات الغامضة . ويقول عن الرياضيات : « واعتقادى أن العلوم الرياضية لازمة وأنها تلى فى ذلك اللغات » . ويكشف عن خضوعه لتأثير الدين حين يقول إن العلوم الرياضية « يجب أن تساعد على معرفة مكان الجنة والنار » ، وتزيد من علمنا بجغرافية الكتاب المقدس والتواريخ الدينية ، وتمكن الكنيسة من إصلاح التقويم[١٠٨] . ويقول : ولنلاحظ كيف تساعدنا « القضية الأولى فى الهندسة » — وهى إنشاء مثلث متساوى الأضلاع على خط معلوم — على « أن ندرك أننا إذا سلمنا بشخص الله الأب ، تبدى أمامنا الثالوث ذو الأشخاص المتساوين »[١٠٩] ثم ينتقل من هذا المركز السامى الذى يضع فيه الرياضة فيستبق استباقا مدهشاً علم الطبيعة الرياضية الحديث بإصراره على أن العلم لا يبلغ حد الكمال فى الخصائص العلمية إلا إذا صاغ نتائجه كلها فى صورة رياضية ، وإن كان لا بد له أن يجعل التجارب هى الطريقة التى يستخدمها فى الوصول إلى تلك الغاية . وعنده أن جميع الظواهر غير الروحية أثر من آثار المادة والقوة ، وأن جميع القوى تعمل فى تناسق وانتظام ، ولهـذا فإنها يمكن التعبير عنها بخطوط وأشكال « ومن الواجب تحقيق الأشياء بالبراهين المبينـة بخطوط وأشكال » ، وليست جميع العلوم الطبيعية فى آخر الأمر إلا علوما رياضية[١١٠]

ولكن إن كانت الرياضة هي النتيجة ، فإن التجربة يجب أن تكون وسيلة العلم وطريقة اختيار نتائجه . ولقد أحدث بيكن ثورة علمية أداتها الرياضيات والتجارب ، على حين أن الفلاسفة المدرسيين من أبلار إلى تومس أكوناس قد وضعوا كل ثقتهم فى المنطق ، وكادوا يضمون أرسطو إلى الثالوث المقدس ، لأنهم فى واقع الأمر جعلوه روحا قدسا . فهو يقول إن أدق النتائج التى يؤدى إليها المنطق تتركنا غير واثقين من صدقها حتى تؤيدها الخبرة ، فالحرق وحده هو الذى يقنعنا بحق أن النار تحرق ؛ « ومن يُرد أن يبتهج ابتهاجاً لا ريب فيه بالحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية فليهب نفسه للتجارب العلمية »[١١١] . ويبدو أنه فى بعض الأوقات يرى أن التجربة experimentum ليست وسيلة من وسائل البحث ، بل هى الطريقة النهائية من طرق البرهان بوضع الأفكار — التى وصل إليها الإنسان بالخبرة والاستدلال — موضع الاختيار . وذلك بأن تصنع على أساسها أشياء ذات فائدة عملية[١١٢] . وهو يدرك ويعلن فى وضوح . أكثر من فرانسس بيكن أن التجربة فى العلوم الطبيعية هى البرهان الذى لا برهان غيره . ولم يكن يدعى أن هذه الفكرة جديدة أتى بها من عنده ، بل يعتقد أن أرسطو ، وجالينوس ، وبطليموس ، والعلماء المسلمين ، وأدلارد ، وبطرس الأسپانيولى ، وربرت جروسنستى ، وألبرتس مجنس وغيرهم قد قاموا بالتجارب العلمية أو امتدحوها ، وكل ما فعله روجر بيكن أن جعل الضمنى صريحاً ؛ وأن ثبت راية العلم فى الأرض المنتزعة من بيداء الجهل .

ولم يفد روجر بيكن العلوم نفسها ، كما لم يفدها فرانسس بيكن ، إلا فى القليل الذى لا يغنى ، إذا استثنينا من ذلك علم البصريات وإصلاح التقويم . ذلك أن هذين الرجلين لم يكونا عالمين بل كانا من فلاسفة العلم . وقد واصل روجر عمل جروسنستى وأمثاله فاستنتج أن التقويم اليوليوسى بالغ فى طول السنة الشمسية فزادها يوماً فى كل ١٢٥ سنة — وهو أدق تقدير وصل إليه العالم فى ذلك

الوقت — وأن التقويم كان فى عام ١٢٦٧ متقدماً عن الشمس بعشرة أيام ؛ ولهذا اقترح إسقاط يوم من التقويم اليوليومى فى كل ١٢٥ سنة . ولا تكاد الصفحات المائة التى خصها بعلم الجغرافية فى الجزء الرابع من **الكتاب الكبير** تقل براعة عن هذه الفكرة البارعة . فقد تحدث روجر بحماسة بالغة مع وليم ربرسكوى William of Rubresquis عن عودة زملائه الرهبان الفرنسيس من الشرق ، وعرف الشيء الكثير عنه ، وانطبع فى ذهنه قول وليم إن ثمة ملايين لا حصر لها من الناس لم يسمعوا شيئاً قط عن الدين المسيحى . وأعلن بالاستناد إلى أقوال وردت فى أرسطو وسنكا أن « البحر الذى يفصل طرف أسبانيا الغربى عن شرقى الهند يمكن اجتيازه فى بضعة أيام قليلة جداً إذا كانت الريح مواتية »(١١٣) . وقد اقتبس كولمبس الفقرة التى نقلت عنه فى **مصور العالم** (١٤٨٠) لكردنال پيير دايى Pierre d, Ailly فى خطاب كتبه إلى فرديناند وإزبلا فى عام ١٤٨٠ وقال إنها مما أوحى إليه بالرحلة التى قام بها فى عام ١٤٩٢(١١٤) .

وكأنما كان بيكن فى العمل الذى قام به فى علم الطبيعية يرى بعين الخيال المخترعات الحديثة ، وإن كان يغشاها من حين إلى حين الآراء السائدة فى عصره . وإلى القارئ ترجمة حرفية لفقرات مشهورة يقفز فيها من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين :

يختص جزء من خمسة أجزاء من كل علم بصنع آلات عظيمة النفع إلى أقصى حد كالآلات التى تستخدم فى الطيران ، أو بالانتقال فى مركبات لاتجرها دواب ، ولكنها تجرى مع هذا بسرعة لاتعادلها قط سرعة أخرى ؛ أو فى عبور البحار من غير مجاديف وبسرعة أكبر مما يظن أنها مستطاعة على أيدى الآدميين . ذلك أن هذه الأشياء قد حدثت فى أيامنا هذه . وليس من حق أى إنسان أن يسخر أو يدهش منها . وهذا الجزء من العلم يرينا كيف نصنع آلات يستطاع

بها رفع أثقال لا يصدقها العقل أو إنزالها بغير مشقة ولا جهد ....[١١٥]. ألا إن من المستطاع صنع آلات طائرة . . . إذا جلس الرجل فى وسط الواحدة منها أمكنه أن يديو دولاباً عجيب الابتكار تستطيع به أجنحة صناعية أن تضرب الهواء كما يضربه جناحا الطائر . » . ويمكن أيضاً صنع آلات يمشى بها الإنسان فى البحر أو النهر وفى قاعهما نفسه ، من غير خطر عليه[١١٦] .

وفى **الكتاب الأكبر** فقرة فسرت بأنها تشير إلى البارود :

لقد كشفت فنون جديدة لمقاومة أعداء الدولة يستطاع بها إهلاك كل من يجرؤ على مقاومتها وإن لم يستخدم فى ذلك سيف أو غيره من الأسلحة التى تحتاج إلى الاتصال البدنى . . . . ذلك أن دوياً مروعاً يصدر من قوة الملح المعروف بنيترات البوتاس إذا اشتعل فيه جسم ضئيل الحجم ، وهو قطعة صغيرة من الرق . . . وهذا الدوى المروع يفوق هزيم الرعد وينبعث منه بريق أشد من البرق الذى يصحب الرعد .

وفى فقرة لعلها مدسوسة على **الكتاب الثالث** يضيف بيكن إلى القول السابق قوله إن بعض اللعب « المفرقعة » تستعمل فى ذلك الوقت وتحتوى على خليط من نيترات البوتاس (بنسبة ٢ر٤١٪) والفحم النباتى (بنسبة ٤ر٢٩٪) والكبريت (بنسبة ٤ر٢٩٪)[١١٧] ، ويشير إلى أن قوة هذا المسحوق المفرقعة يمكن مضاعفتها بوضعه فى داخل مادة صلبة . وهو لا يدعى بأنه اخترع البارود ، وكل ما فى الأمر أنه كان من أوائل من درسوه كيميائياً وتنبأوا بإمكانياته .

وخير ما كتبه بيكن على الإطلاق هو الجزء الخامس من **الكتاب الأكبر** « فى علم المنظور » . وفى الرسالة المكملة له **فى تضاعف الرؤية** . وقد تفرعت هذه المقالة البارعة فى البصريات من كتاب جروستستى عن قوس قزح ، ومن تلخيص وتلو Witelo لكتاب ابن الهيثم ، ومن دراسات علم البصريات التى تنقلت من

ابن سينا ، إلى الكندى ، إلى بطليموس ، وبلغت غايتها فى إقليدس (٣٠٠ ق.م) الذى برع فى تطبيق الهندسة النظرية على حركات الضوء . وكان من البحوث التى قام بها بيكن : هل الضوء هو انبعاث جزيئات من الجسم المرئى؟ أو هل هو تحرك الوسط الكائن بين هذا الجسم والعين ؟ ويعتقد بيكن أن كل جسم مادى يشع قوة فى جميع الاتجاهات ، وأن هذه الإشعاعات قد تنفذ فى الأجسام الصلبة :

ليس ثمة جسم يبلغ من الكثافة حداً يمنع الأشعة منعاً باتاً من أن تمر فيه ذلك أن المادة التى تتركب منها الأجسام واحدة فيها جميعاً ، ولهذا فليس ثمة جسم لا تحدث الأفعال التى تصحب مرور شعاع ما تغيرا فيه ... إن أشعة الحرارة والصوت تخترق جدران إناء من الذهب أو الشبه ، ويقول بوثيثيوس إن عين الوشق(*) تخترق الجدران السميكة(١١٨) .

ولسنا واثقين من هذه القوة المعزوة إلى الوشق ، ولكننا إذا استثنينا هذا القول حق علينا أن نعجب بهذا الخيال الجرىء للملك الفيلسوف ، وهو « الخيال المتماسك فى كل أجزائه » . وحاول بيكن وهو يقوم بالتجارب على العدسات والمرايا أن يصوغ قوانين انكسار الضوء ، وانعكاسه ، وفعل الأشعة الضوئية فى تكبير الأجسام وتصغيرها . ومثل لنفسه قدرة العدسة المحدبة على تركيز كثير من أشعة الشمس فى نقطة واحدة ، ثم تشتيت هذه الأشعة خلف هذه النقطة لتكون منها صورة مكبرة فكتب يقول :

فى مقدورنا أن نشكل الأجسام الشفافة (العدسات) ونرتبها بالنسبة إلى قوة بصرنا والأجسام المرئية ترتيباً يجعل الأشعة تنكسر وتنحنى فى أى اتجاه نريده ، فنرى من أية زاوية نشاء الجسم قريباً منا أو بعيداً عنا . وعلى هذا فإن فى وسعنا أن نقرأ أصغر الحروف من بعد لا يصدقه الإنسان ، وأن نعد حبات

(*) Lynx وهو حيوان من فصيلة الهر مرتفع الجسم عند مؤخره ، ذو شعر طويل ، وذيل قصير ، تنتهى أذناه بخصيلتين من الشعر ويقال إنه حاد البصر . (المترجم)

التراب او الرمل ... وعلى هذا فإن جيشاً صغيراً يمكن أن يبدو للناظر كبيراً ... وقريباً منه كل القرب ... وفى وسعنا أيضاً أن نجعل الشمس ، والقمر ، والنجوم تبدو كأنها قد نزلت إلينا ، ... وما إلى هذا من الظواهر الكثيرة المماثلة مما لا يتقبله عقل الشخص الذى يجهل الحقائق ...[١١٩] ويمكن إلى هذا تصوير السماء بكل ما لها من طول وعرض بصورة مجسمة تتحرك حركتها اليومية ، وقيمة هذا عند الرجل العاقل تعادل مملكة بأسرها ... وثمة عجائب أخرى غير هذه يخطئها الحصر ويمكن عرضها على العين[١٢٠] .

تلك فقرات ذات روعة وجلال ، ويكاد كل عنصر من عناصر النظرية التى نبسطها يوجد قبل بيكن وخاصة فى كتب ابن الهيثم ؛ ولكنه هو الذى جمع مادتها كلها فى صورة عملية ثورية استطاعت وقت أن حل أوانها أن تبدل العالم . وهذه الفقرات هى التى أرشدت ليونارد دجس Leonard Diggis (المتوفى حوالى ١٥٧١) إلى وضع النظرية التى اخترع المرقب على أساسها[١٢١]

ولكن ما الذى يحدث إذا زاد تقدم العلوم الطبيعية من قدرة الإنسان دون أن يسمو بأغراضه ؟ لعل أكثر نظرات بيكن نفاذاً إلى الصميم هى سبقه إلى تصور مشكلة لم تتضح للعالم إلا فى أيامنا هذه ، فها هو ذا فى الكتاب الأكبر يعبر عن اعتقاده الراسخ أن العلم وحده لا ينجى الإنسان :

كل هذه العلوم السالفة الذكر نظرية . ولسنا ننكر أن لكل علم وجهة عملية ؛ ... ولكن الفلسفة الأخلاقية وحدها هى التى نستطيع أن نقول عنها ... إنها عملية فى جوهرها ... لأنها تبحث فى سلوك الإنسان ، فى الفضيلة والرذيلة ؛ فى السعادة والشقاء ... والعلوم الأخرى كلها لا قيمة لها إلا من حيث أنها تعين على العمل الصالح ؛ وعلى هذا الاعتبار تصبح العلوم « العملية » ، كالتجارب والكيمياء ، وغيرهما علوماً نظرية إذا قورنت بالعمليات التى تعنى بها العلوم الأخلاقية أو السياسية . وعلم الأخلاق هذا هو سيد كل فرع من فروع الفلسفة[١٢٢] .

ويصور بيكن حكمه الأخير في صالح الدين لا في صالح الفلسفة ، فبالأخلاق وحدها يؤيدها الدين يستطيع الإنسان أن ينجي نفسه . ولكن أي دين يقصد ؟ إنه يحدثنا عن ندوة الأديان – البوذية ، والإسلام ، والمسيحية – وهي الندوة التي عقدت ، على ما يقول وليم الربرسكوى في قرقورم Karakorum بناء على دعوة منجوخان وتحت رياسته[١٢٣] . ويفاضل بيكن بين الأديان الثلاثة ، ويصدر حكمه في صالح الدين المسيحي ، ولكنه لا يصدر هذا الحكم له بوصفه ديناً يتعبد به الناس في العالم وكفى . وهو يشعر بأن البابوية ، مهما وجه إليها جروستستى من نقد لاذع ، هي الرابطة الروحية لأوربا ، وبدونها تمزقها فوضى العقائد والحروب ، وكان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم ، واللغات ، والفلسفة يمكنها من أن تحكم العالم حكما روحياً خيراً من حكمها الحاضر[١٢٤] . وختم كتابه كما بدأ بالجهر الصادر عن عقيدة قوية بولائه للكنيسة ، ويمجد في نهايته القربان المقدس – كأنه يقول إن الإنسان إذا لم يعمل من حين إلى حين للاتصال بأسمى مثله العليا احترق في لهيب هذا العالم .

ولعل عجز البابوات عن الاستجابة بوسيلة ما إلى المنهج الذي وضعه بيكن وإلى دعواته المتكررة قد أظلم روحه وأمرّ قلمه . وكانت نتيجة هذا أنه نشر في عام ١٢٧١ **موجزاً للدراسات الفلسفية** غير كامل لم يضف إلا القليل للفلسفة ، ولكنه أضاف الشيء الكثير إلى **الأحقاد الدينية** التي كانت تمزق المدارس تمزيقاً . وفيه قضى قضاء عاجلا على الجدل الآخذ وقتئذ في الضعف بين الواقعية والصورية فقال : « ليس الكلي إلا تماثل عدة أفراد » و « في الفرد الواحد من الواقعية أكثر مما في الكليات كلها مجتمعة »[١٢٥] . وأخذ بنظرية أوغسطين ووصل إلى أن جهود الأشياء كلها لإصلاح شأنها قد أحدثت سلسلة طويلة من التطورات[١٢٦] . كما أخذ بفكرة أرسطو القائلة بوجود العقل الفاعل

أو العقل الكونى الذى « يسرى إلى عقولنا وينيرها » وأقترب اقتراباً شديداً من مبدأ وحدة الوجود الذى ينادى به ابن رشد[١٢٧] .

ولكنه لم يهز مشاعر معاصريه بآرائه الفلسفية بقدر ما هزها بهجومه على منافسيه وعلى مبادئ زمانه الأخلاقية . ذلك أنه فى **موجز الدراسات** الفلسفية كاد يلهب بسوطه جميع نواحى الحياة فى القرن الثالث عشر : اضطراب نظام المحاكم البابوية ، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة ، وجهل رجال الدين ، وثقل مواعظهم وخلوها من التشويق ، وفساد أخلاق طلاب العلم ، وما فى الفلسفة من لغو وتلاعب بالألفاظ . وذكر فى رسالة له عن أخطاء الطب « ستة وثلاثين عيباً أساسياً كبيراً » فى النظريات والأعمال الطبية فى عصره ، وكتب فى عام ١٢٧١ فقرة ربما تدعونا إلى التسامح فى عيوب أيامنا هذه :

يُرتكب فى عصرنا هذا من الذنوب أكثر مما يرتكب فى أى عصر قبله . فالكرسى البابوى يمزقه خداع الظالمين وغدرهم ... ولقد فشا الكبرياء بين الناس ؛ وغلت مراجل الطمع فى الصدور ؛ وأنشب الحسد أنيابه فى جميع النفوس ؛ والبلاط البابوى كله يسربله الفجور بالعار ، والنهم هو سيد الجميع ... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تفعل سائر الأعضاء ؟ فلننظر إلى كبار رجال الدين كيف يجرون وراء المال ، ويهملون العناية بالأرواح ، ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولى الأرحام ؛ والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شىء بنصائحهم ... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين ، لست أستثنى أحداً مما أشاهده بينهم ؛ انظروا فى أية هاوية ترددوا ، وهووا من شامخ مجدهم فرادى وجماعات ، وهاهم أولاء الرهبان (الإخوان) الجدد قد فسدوا فساداً مروعاً وحادوا عن تقواهم الأولى . إن رجال الدين على بكرة أبيهم لا هم لهم إلا التكبر ، والفجور ، والبخل ، وحيثما يجتمع طلاب العلم ...

لا تسمع منهم إلا اغتياب غير رجال الدين والتشهير بحروبهم ومنازعاتهم وغيرها من الرذائل . والأمراء ، والأشراف ، والفرسان يظلم بعضهم بعضاً ، ويشقون رعاياهم بحروبهم ومطالبهم التى لا حد لها . . . . والشعب الذى يشقى بأمرائه ، يحقد على هؤلاء الأمراء ، ولا يدين لهم بولاء إلا إذا أرغم على ذلك قوة واقتداراً ؛ وقد أفسده المثل السيئ الذى ضربه له سادته وكبراؤه ، فترى أفراده يظلم بعضهم بعضاً ويخدعه ويغشه ، ونحن نشهد هذا كله بأعيننا فى كل مكان ، وهم منهمكون فى فسقهم ونهمهم ، وقد بلغوا من الانحطاط حداً يعجز اللسان عن النطق به . أما التجار والصناع فحدث عنهم ولا حرج ، لأن الخداع والغش هما ديدنهم فى جميع أقوالهم وأفعالهم . . . لقد كان الفلاسفة الأقدمون ، وإن أعوزتهم الكياسة المنعشة التى تجعل الناس خليقين بالخلود ، يعيشون خيراً منا إلى أبعد حد مستطاع ، سواء فى أدبهم أو فى احتقارهم هذا العالم وكل ما فيه من بهجة وغنى ، وثروة ، وألقاب التكريم ، كما يتبين الناس جميعاً من مؤلفات أرسطو ، وسنكا ، وتلى Tully ، وابن سينا ، والفارابى ، وأفلاطون ، وسقراط وغيرهم ؛ وبهذا وصلوا إلى أسرار الحكمة ، وكشفوا عن جميع المعارف ؛ أما نحن المسيحيين فلم نكشف شيئاً بما كشفه أولئك الفلاسفة ؛ بل إننا لنعجز عن إدراك حكمتهم . ومنشأ جهلنا هذا هو أن أخلاقنا شر من أخلاقهم . . . . وليس ثمة بين العقلاء من يخالجه أدنى شك فى أن الواجب يقضى بتطهير الكنيسة(١٢٨) .

ولم تنطبع فى عقله صورة طيبة من الفلاسفة المعاصرين له ، وشاهد ذلك ما كتبه عنهم إلى كلمنت الرابع يقول إن أحداً منهم لا يستطيع فى عشر سنين أن يؤلف كتاباً مثل **الكتاب الأكبر** ، فقد كانت مؤلفاتهم فى نظر بيكن مجلدات ضخمة من « الكذب الذى لا يستطاع وصفه » والحشو الذى لا ضرورة له(١٢٩) ؛ وكان هيكل تفكيرهم كله يقوم على الكتاب المقدس

ومؤلفات أرسطو ، وذاك قد أسيء فهمه وهذه قد أسيئت ترجمتها[١٣٠] .
وكان يسخر من نقاش تومس الطويل فى عادات الملائكة ، وسلطانهم ،
وذكائهم ، وحركاتهم[١٣١] .

وما من شك فى أن هذا الإسراف فى اتهام حياة أوربا وأخلاقها ، وتفكيرها ، فى ذلك القرن المتلألئ الباهر قد جعل بيكن وحده فى ناحية وأوربا كلها فى ناحية أخرى . ولكننا لا نجد دليلا على أن طائفته أو الكنيسة قد اضطهدته أو تدخلت فى حرية فكره أو قوله قبل عام ١٢٧٧ ، أى قبل أن يكتب المرثاة السالفة الذكر بست سنين . ولكن حدث فى تلك السنة أن أخذ يوحنا الفرشلى John of Vercelli رئيس الرهبان الدمنيك وجيروم الأسكولى Jerome of Ascoli رئيس الرهبان الفرنسيس يتفاوضان ليخففا من حدة بعض النزاع الذى شجر بين الطائفتين . واتفقا على أن يمتنع الإخوان فى كل طائفة عن نقد الطائفة الأخرى ، وأن « كل أخ يتبين أنه أساء إلى أخ من الطائفة الأخرى بالقول أو بالفعل يجب على مجلس مقاطعته أن يوقع عليه من العقاب ما يرضى أخاه الذى أسيء إليه[١٣٢] . وبعد قليل من ذلك الوقت قام جيروم — على حد قول **أخبار قادة الطائفة الأربعة والعشرين** التى كتبت فى القرن الرابع عشر — « عملا بمشورة كثيرين من الإخوان فعارض واستقبح تعاليم الأخ روجر بيكن مدرس علم اللاهوت المقدس لأنها تحتوى على بدع تثير الشك ، ومن أجل هذا حكم على روجر المذكور بالسجن »[١٣٣] . ولسنا نعلم عن هذه المسألة شيئاً غير هذا ؛ فهل كانت هذه « البدع » هى الإلحاد ، أو ارتياب من حكموا عليه فى أنه يمارس فنون السحر ، أو أن هذا الأمر يخفى فى طياته قراراً بإسكات هذا الناقد البغيض إلى الدمنيك والفرنسيس على السواء ؟ ولسنا نعرف كذلك ما فرض من التضييق على بيكن فى سجنه أو طول الزمن الذى ظل فيه

سجيناً مضيقاً عليه . وكل ما نعرفه أن بعض المساجين الذين حكم عليهم بالسجن فى عام ١٢٧٧ ، قد أطلق سراحهم فى عام ١٢٩٢ ، وربما كان بيكن ممن أطلق سراحهم فى ذلك الوقت أو قبله . لأنه نشر فى عام ١٢٩٢ *موجزا فى الدراسات اللاهوتية* ، ثم لا نجد بعد ذلك إلا كلمة فى سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن الجليل القدر فى كنيسة جريسى فريرز Grecy Friars (كنيسة الرهبان الفرنسيس) بأكسفورد فى عام ١٢٩٢ »[١٣٤] .

ولم يكن لبيكن فى عصره إلا أثر قليل . فكل ما يذكره به ذلك العصر أنه رجل يأتى بكثير من الأعاجيب ، وأنه ساحر ومشعوذ . وقد صور بهذه الصورة فى مسرحية كتبها روجر جرين RogerGreen بعد ثلاثمائة سنة من وفاته . وليس من السهل علينا أن نعرف مقدار ما يدين له به سميه فرانسس بيكن (١٥٦١ — ١٦٢٦) ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا أن فرانسس وروجر على السواء كلهما رفضا منطق أرسطو ، والطريقة المدرسية ، وارتابا فى الاعتماد على المراجع القديمة ، وعلى العادات وغيرها من أصنام التفكير التقليدى ، وامتدحا العلوم ، وذكرا ما يتوقع اختراعه بالاعتماد عليها ، ورسما منهاجاً لها ، وأكدا فائدتها العملية . وأخذت شهرة بيكن تعظم وتنتشر ببطء من القرن السادس عشر حتى أصبحت حياته من القصص الخرافية — فقيل إنه مخترع البارود ، والبطل الحر التفكير ، الذى ظل طول حياته مضطهداً من رجال الدين ، والمبتكر العظيم للتفكير الحديث . والآن أخذت الآية تنقلب ، فالمؤرخون يقولون إنه لم تكن لديه إلا فكرة مهوشة عن التجارب العلمية ، وإنه لم يجر من هذه التجارب إلا القليل ، وإنه كان فى الدين أكثر حرصا على تقاليده من البابا نفسه ، وإن صفحات كتبه تنتشر فيها الخرافات ، والسحر ، والخطأ فى الاقتباس ، والتهم الكاذبة ، والقصص غير الصادقة المأخوذة من التاريخ .

وهذا كله صحيح ؛ وصحيح أيضا أنه وإن لم يجر من التجارب إلا القليل ، قد ساعد على دعم مبدأ التجربة العلمية ، ومهد السبيل إلى قيامها ، وأن جهره بالتمسك بالسنن الدينية قد يكون إجراء سياسيا من رجل يسعى للحصول على تأييد البابوية للعلوم التى كانت مثاراً للريبة . أما أخطاؤه فقد كانت عدوى زمانه ، أو لعلها قد نشأت من العجلة التى تسير بها روح تحرص على أن تجعل المعارف كلها ميدانا لها . وأما امتداحه نفسه فقد كان هو البلسم الشافى لتجاهل عبقريته ؛ كذلك كان هجومه على غيره تنفيسا لغضب إنسان جبار خابت آماله ، فأخذ يشهد إخفاق أحلامه النبيلة تغرق فى بحر من الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل فى الفلسفة والعلم فقد أنار السبيل لتفكير أوسع مجالا وأكثر حرية مما كان فى زمانه ؛ كذلك كان تأكيده لأسس العلم وأهدافه الرياضية تقدما بخمسمائة عام عن العصر الذى يعيش فيه ؛ وخير من هذا كله فى تحذيره الناس من إخضاع الأخلاق للعلم درس لرجال الغد يجب أن يأخذوا به . وملاك القول أن **الكتاب الأكبر** رغم أخطائه وآثامه ، خليق باسمه ، وأنه أعظم من أى مؤلف فى جميع آداب ذلك القرن العجيب .

الفصل الثامن

أصحاب الموسوعات

وقف العلماء المحيطون بمختلف العلوم موقفاً جريئاً بين العلم والفلسفة يعملون لبث النظام والوحدة فى معارف عصرهم التى كانت آفاقها تزداد اتساعاً على مر الأيام ؛ وليكونوا من العلم الفن ، والصناعة والحكومة ، والفلسفة والدين ، والأدب والتاريخ ، وحدة كلية منتظمة يمكن أن تتخذ أساساً للحكمة . ولهذا بز القرن الثالث عشر سائر القرون بما وضع فيه من الموسوعات ، والخلاصات التى كانت كتباً جامعة طابعها التركيب . وكان أكثر أصحاب الموسوعات تواضعاً يقنعون بتلخيص موضوعات العلوم الطبيعية ، ومن هؤلاء الكسندر نكهام رئيس دير سرنسستر Cirencester (حوالى عام ١٢٠٠) ؛ وتومس الكنتمبريئى Thomas of Cantimpré تراهب الدمنيكى الفرنسى (حوالى عام ١٢٤٤) ؛ وقد كتب كلاهما موجزاً فى العلوم بعنوان **طبيعة الأشياء** ، ومنهم بارثلميو الإنجليزى Bartholomew of England وهو راهب فرنسيسى أخرج مجلداً كثير الحشو فى **خصائص الأشياء** (حوالى ١٢٤٠) ؛ وفى عام ١٢٦٦ كتب برونتو لاتينى Brunetto Latini وهو مسجل صكوك من فلورنس نفى من بلده لمبادئه السياسية الجلفية (Guelf) ، وأقام بضع سنين فى فرنسا ، كتب بلغة دوئيل lange d'oil **كتاب الكنز** Le Livre de Tresor وهو موسوعة موجزة فى العلوم والأخلاق والتاريخ والحكم . وظلت هذه الموسوعة واسعة الانتشار حتى أن نابليون نفسه فكر فى أن تصدر الدولة طبعة منها بعد أن تراجع ، وذلك بعد خمسين عاما من إصدار ديدرو Diderot موسوعته الكبرى التى هزت العالم هزاً . وكانت هـذه

المؤلفات كلها التي صدرت في القرن الثالث عشر تمزج اللاهوت بالعلوم ، والخرافات بالمشاهدات ، لأنها كانت تتنفس هواء زمانها ؛ ولو أننا قدر لنا أن نعرف نظرة الناس إلى علمنا الجامع بعد سبعة قرون من هذه الأيام لأغضينا ما نرى .

وأشهر موسوعات المسيحيين في العصور الوسطى موسوعة ڤنسنت بوڤيه المسماة **المرآة الكبيرة** (١٢٠٠ — ١٢٦٤ أو حوالي ذلك الوقت) . وقد انضم بوڤيه هذا إلى جماعة الرهبان الدمنيك ، وأصبح معلماً للويس التاسع وولده ، وعهد إليه الإشراف على مكتبة الملك ، وأخذ على عاتقه هو وجماعة من أعوانه أن يضع في صورة سهلة التناول جميع ما يحيط به من ألوان المعرفة . وقد أطلق على موسوعته اسم **صورة العالم** Imago mundi ، ومثل فيها العالم بمرآة ينعكس عليها الذكاء القدسي والتخطيط الإلهي ، وكانت موسوعة ضخمة تعادل في حجمها أربعين مجلداً من المجلدات الكبيرة الحجم في هذه الأيام . وأتم منها ڤنسنت مع النساخين ثلاثة أجزاء : **المرآة الطبيعية** ، **ومرآة العقائد** ، **ومرآة التاريخ** ، وأضاف إليها من خلفوه في هذا العمل ، حوالي عام ١٣١٠ **مرآة الأخلاق** ومعظمها مأخوذ من موجز تومس أكوناس . وكان ڤنسنت نفسه إنساناً متواضعاً ظريفاً ، قال عن نفسه . « إني لا أعرف علماً واحداً » ، وهو يتنصل من أنه ابتكر شيئاً ما ، ويقول إن كل ما أراد أن يفعله هو أن ينقل أقوال ٤٥٠ مؤلفاً يونانياً ، ولاتينياً ، وعربياً . وقد نقل أخطاء بلني بأمانة ، وصدق كل عجائب التنجيم ، وملأ صحفه بالصفات السحرية للنبات والحجر ، ولكن عجائب الطبيعة وروائع جمالها تبدو مع ذلك واضحة في كتابه من حين إلى حين ، تنفذ من خلال ما فيه من أقوال غير ذات قيمة ، ويحس هو بها كما لا يستطيع أن يحس بها ملتهم الكتب فحسب :

أعترف ، وأنا الإنسان المذنب ، ذو العقل الملوث فى الجسد ، أنى تدفعنى الروح السامية نحو الخالق المسيطر على هذا العالم ، وأنى أزداد تعظيما له حين تقع عينى على ما خلقه ... من عظمة وجمال . ذلك بأن العقل إذا ارتفع من الأقذار التى يحبها ، وسما ، وهو القادر على السمو ، إلى نور التأمل ، أبصر من شاهق علوه عظمة الكون المحتوى على أماكن لا حصر لها مليئة بطوائف المخلوقات المختلفة الأنواع (١٣٥) .

ويضارع النشاط العلمى الذى انبثق فى القرن الثالث عشر عظمة فلسفاته المختلفة ، وآدابه المتنوعة الباهرة ، من الشعراء الغزلين إلى دانتى . لقد كان علم تلك الأيام ، كما كانت موجزاته العظيمة والمسلاة الإلهية ، يعانى الشىء الكثير من إسراف أصحابه فى الوثوق به ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن خلط المعارف بالدين بلا تفريق بينهما . ولكن سفينة العلم الصغيرة التى كانت تسبح فى بحر من المزاعم الخفية خطت خطوات واسعة فى عصر الإيمان نفسه . فقد بدأ أدلارد وجروستستى ، وألبرت ، وآرنلد الفلانوفى ، ووليم السليستوى ، وهنرى المندفيلى ، ولا نفرانشى ، وروجر بيكن ، وبطرس الحاج وبطرس الأسبانى ، بدأ هؤلاء كلهم مشاهدات وملاحظات جديدة ، وتجارب صغيرة أخذت تحطم ما كان لأرسطو ، وبلنى ، وجالينوس من سلطان على العقول . وملأ التحمس للارتياد والمغامرة أشرعة سفينة الرواد ، وقد عبر عن ذلك الإخلاص العلمى الجديد ألكسندر نكهام فى بداية ذلك القرن العجيب فكتب يقول « إن العلم لا ينال إلا بثمن باهظ ، هو اليقظة الدائمة ، وإنفاق الوقت الطويل ، وبالجد والكدح المتواصلين ، وباستخدام العقل بحماسة وقوة »(١٣٦) .

ولكن مزاج العصور الوسطى يتحدث إلينا قبيل نهاية كتاب ألكسندر أحسن أحاديثه ، ويتحدث إلينا برقة لا تتناسب مع عصره فيقول :

ربما عشت أيها الكتاب بعد ألكسندر هذا ، وربما أكلني الدود قبل أن تقرض صفحاتك ... إنك مرآة عقلي ، وشارح تأملاتي ... والشاهد الصادق على ضميري ، والمواسي الرحيم لأحزاني ... وإنك أنت المستودع الأمين الذي أودعت فيه أسرار قلبي ... فيك أقرأ ما في نفسي ... سوف تقع في يدي قارئ تقي ينزل من عليائه فيدعو لي بخير ، وإذن فسيفيد منك صاحبك أيها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزي إسكندرك أحسن جزاء وأعظمه ، ولست آسفاً على كدحي ، فستصادف إخلاص قارئ صالح يضعك تارة في حجره ، ويرفعك تارة إلى صدره ، ويتخذك حيناً وسادة تحت رأسه ، ويطويك برفق ، ويدعو لي في حرارة وإخلاص عيسى المسيح الذي يعيش مع الله والروح القدس خلال الأحقاب التي لا نهاية لها — آمين(١٢٧) .

الباب الثامن والثلاثون

عصر الخيـــال

١١٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

إحياء اللغـــة اللاتينية

كل عصر فى حياة العالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخبز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثانى عشر والثالث عشر من تاريخ أوربا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم العصور الأخرى. ذلك أن هذين القرنين لم يرثا جميع المخلوقات الخفية التى ابتدعها خيال أوربا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما فيها من جمال الخيال ورهبته ، واتخذا الحب والحرب فناً وديناً ؛ وشهد هذان القرنان الحروب الصليبية وجاءا بمئات القصص والعجائب من بلاد الشرق ، وكتبا فى واقع الأمر أطول القصص الخيالية المعروفة فى التاريخ كله .

وكان مما ساعد على ازدهار الأدب فى هذين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الدينى ، ونشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة فى الدين ، ونظام الفروسية . ولما تضاعف عدد المدارس بهر شيشرون ، وفرچيل ، وهوراس ، وأوفد ، وليفى ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وچوفنال ، وكونتليان ، وسيوتونيوس ، وأپوليوس ، وسيدونيوس ، وحتى ماربتال وپترونيوس

السفيهان المفحشان ، بهر هؤلاء بفنهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجئ الأساتذة والأديرة المنعزلة عن العالم وتسربا فى بعض البلاد إلى قصور الأعيان ؛ واختلست الأرواح المسيحية من چيروم إلى ألكوين ، إلى هلواز ، وهيدلبيرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشدوا أغانى الإنياذة وهم صامتون . وكانت جامعة أورليان تعتز اعتزازاً خاصاً قوياً بآداب رومة الوثنية ، حتى شكا أحد المتزمتين وهو مرتاع وجل قائلا إن الآلهة القدامى ، لا المسيح أو مريم ، هى التى تعبد فيها . وكاد القرن الثانى عشر يصبح « عصر أوفد » ؛ فقد أنزل فرچيل عن العرش الذى رفعه إليه ألكوين حتى جعله شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، « والعلماء الجائلون » على السواء يقرأون بنشوة وابتهاج كتب **التحولات** ، **والهيرويدات** ، **وفن الحب** . وفى وسعنا أن نعفو عن كثير من أسباب اللهو المباح عند الرهبان الذين أحبوا هذه الكتب الملعونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها بإخلاص ووفاء إلى الشبان المتبرمين الشاكرين .

ونشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ، كان فيها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة فى الكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذى لم يكن يعتد إلا قليلا بالمزايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقدح الفصيح ، واللغة اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظاة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ، وبرثولد الرچنزبرجى للغة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون فى الأديرة بلغة لاتينية فظيعة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشبع حاسة الجمال لدى القراء . بل كانوا يسجلون أولا نشأة أديرتهم وتاريخها — انتخاباتها ، ومبانيها ، ووفاة رؤسائها ، ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الخسوف

والكسوف ، والمذنبات ، والجفاف ، والفيضان ، والقحط ، والأوبئة ، وندر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية نفسها . وقل منهم من كان يبحث فى المراجع التى يعتمد عليها بروح النقد الصحيح ، أو يفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهملين غير دقيقين ، يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفرين ليبعثوا الحياة فى الإحصاءات الميتة ؛ وكلهم بلا استثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سذاجة واستعداداً ظريفاً لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخباريين الفرنسيين افترضوا أن فرنسا قد استوطنها الطرواديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على بيت المقدس ، وحاول كتاب **أعمال الفرنسيين** Gesta Francorum (حوالى ١١٠٠) أن يروى بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب **أعمال الرومان** Gesta Romanortum (حوالى ١٢٨٠) يروى فى صراحة تاريخاً مخترعاً لتشوسر ، وشيكسبير ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل جوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth حوالى (١١٠٠ – ١١٥٤) من كتابه **تاريخ بريطانيا** Historia Britonum ضرباً من الأساطير القومية ، وجد فيها الشعراء قصص الملك لير ، وآرثر ، وميرلين Merlin ، ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وبرسفال Perceval ، وجريل المقدس Holy Grail . ومن الأدب الحى حتى الآن ثرثرة جوسلين Jocelyn وما رواه من أخبار بيورى سانت إدمندس Bury St. Edmonds (حوالى ١٢٠٠) وما رواه الأخ سلمبينى Salimbene عن بارما (حوالى ١٢٨٠) .

وفى عام ١٢٠٨ أهدى ساكسولانج (اللغوى) Saxo Lange الذى سمى بعد وفاته ساكسو النحوى Saxo Grammaticus إلى أبسالوم كبير أساقفة لند Lund كتابه **أعمال الدنمرقيين** ، وهو كتاب فيه بعض الحشو وفيه من سرعة التصديق ما لا يصدقه الإنسان(١) . ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فيها من

الاتصال أكثر مما فى كثير من تواريخ الغرب فى هذه الأيام . ففى الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أملث Amleth أمير جتلندة Jutland الذى قتل عمه الملك وتزوج الملكة . ويقول سكسو إن أملث هذا « اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوعى فقداناً كاملا ، وضمن بهذا الصنع الماكر سلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين فى ذينك القرنين من طبقة الإخباريين إلى طبقة المؤرخين وإن احتفظوا بالطابع الإخبارى . من هؤلاء وليم الملزبرى (حوالى ١٠٩٠ — ١١٤٣) الذى رتب مادة كتابه **أعمال الأحبار** Gesta Pontificum ، **وأعمال الملوك الإنجليز** Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزيهة ، جديرة بالثقة ، تروى أخبار الأحبار والملوك . وأرسل أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis (حوالى ١٠٧٥ — ١١٤٣) المولود فى شروزبرى Shrewsbury إلى دير القديس إڤرول St. Evroul فى نورمندية فى العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فيها بقية سنيه الثمان والستين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثمانى عشرة فى كتابة **تاريخ الكنيسة** المكون من خمسة مجلدات ، ولم يمتنع عن العمل فى خلال تلك السنين ، كما يقول الرواة ، وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أصابعه تفقد حساسيتها من فرط البرد . ومن عجب أن عقلا مضيقاً عليه فى المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن فى مختلف الشئون الدينية والدنيوية ، فضلا عن استطرادات فى تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أتو Otto أسقف ڤرايزنج (حوالى ١١١٤ — ٥٨) فى كتابه **فى المدينتين** تاريخ الدين والعالم الدنيوى من خلق آدم إلى ١١٤٦ ، وبدأ ترجمة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك بربروسا ، ولكنه توفى ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعين رجل فرنسى مولود فى فلسطين يدعى وليم الصورى William of Tyre (حوالى ١١٣٠ — ١١٩٠) مستشاراً لبولدون الرابع ملك بيت المقدس ،

ثم أصبح بعدئذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلا من اللغة العبرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر فى تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، وسماه تاريخ حوادث ما وراء البحار Historia reum in partibus transmarinis gestarum . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته فى تصوير أخلاق نور الدين ٭ ... د وصلاح الدين من أكبر أسباب عقيدة أوربا المسيحية فى هذين العاهلين اللذين يخالفانها فى الدين . وكان ماثيو پاريس (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٥٩) راهباً فى دير سانت أولبنز ، وشغل أولا منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هنرى الثالث ، واستعان بهذين المنصبين على تأليف كتابه التاريخ الكبير بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التى وقعت فى تاريخ أوربا بين عامى ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتاز كتابه بالوضوح والدقة ، ولكن فيه تحيزاً لم يكن متوقعاً منه ؛ ونددفيه « بالبخل الذى نفر الشعب من البابا » ، وانحاز إلى فردريك الثانى ضد البابوية . وملأ صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة اليهودى الجوال (فى عام ١٢٢٨) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن فى انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر (١٢٤٧) . ووضح كتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهى خير ما رسم من الخرائط فى ذلك الوقت ، وربما كان هو الذى رسم أيضاً الأشكال التى وضح بها كتابه . وإنا لنعجب بجده وغزارة علمه ، ولكن الصورة التى رسمها للنبى محمد (١٢٣٦) تكشف عما يمكن أن يكون عليه رجل مسيحى متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامى .

أما أعظم المؤرخين فى ذلك العصر فهما فرنسيان كتبا بلغتهما القومية ، وكان لهما مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها الفضل فى جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوفروى ده فيل هاردون Geoffroy de Villehardouin (حوالى ١١٥٠ — حوالى ١٢١٨) . فكان من النبلاء والمحاربين لم ينل من التعليم النظامى إلا القليل ؛ ولكن جهله بالحيل البلاغية التى تعلم فى المدارس هو الذى مكنه من أن يملى كتابه **فتح القسطنطينية** (١٢٠٧) بلغة فرنسية دقيقة خالية من التنميق ، تتجه نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ما كتب فى فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بُعده عن التحيز ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى تلك الخيانة الجميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعين الرجل الموضوعى الذى ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان فى وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس بها حين وقوعها ، مما أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبليها الزمن . وظهر بعد قرن أو نحوه من ذلك الوقت چان سير ده چوانفيل Jean Sire de Joinville قيم القصر فى شمبانيا ؛ وبعد أن خدم لويس التاسع فى حملته الصليبية وفى فرنسا ، كتب وهو فى الثامنة والخمسين من عمره كتابه **تاريخ القديس لويس** (١٣٠٩) ؛ ونحن نحمد له وصفه خلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف ، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التى توضح سيرهم وتنير ما يكتنفها من ظلمات . وبفضله نستطيع أن نحس بالجو الذى كان سائداً فى ذلك العصر كما لا نحس به فى كتاب فيل هاردون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهن ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ، ويقول إنه لم يجرؤ على النظر إلى الوراء حتى لا يذوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لفيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطرى السليم ، وكان يرى ما فى قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينضم إلى الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضمام إليها ،

لأنه رأى ببصيرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أيهما تفضل - أن تصاب بالجذام أو أن ترتكب خطيئة موبقة ؟ » .

« فأجبته وأنا الذى لم يكذب عليه قط بأنه خير لى أن أرتكب ثلاثين خطيئة موبقة من أن أصاب بالجذام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعانى وحدى وأجلسنى عند قدميه وقال لى : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ ... فأجبته بأنى قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد علىّ بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمق فى ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جذام أبشع من ارتكاب الخطيئة الموبقة ... وسألنى : هل غسلت أقدام الفقراء يوم خميس الصعود ؟ فأجبته : يا مولاى ، لو فعلت لأصبت بالغثيان ، إنى لن أغسل قط أقدام أولئك الأدنياء . فقال لى الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت بهذا القول ، لأن عليك ألا تحتقر ما فعله الله ليعلمنا ، ولهذا فإنى أرجوك بحق حبك الله أولا وحبك إياى ثانياً أن تعوّد نفسك غسل أقدام الفقراء »[٢] .

ولم تكن حياة القديسين كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالتزام الأمانة ومراعاة الضمير فى رواية التاريخ كانا من الضعف فى عقول الناس فى العصور الوسطى بحيث يخيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظنون أن لا ضرر مطلقاً فى اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الخير كل الخير فى أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المؤلفين كانوا فى معظم الأوقات يأخذون القصص المنتشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون . وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القارئ مثلا إلى الطريقة التى حصل بها القديس كرستفر Christopher على اسمه لقد كان فى أول حياته رجلا جباراً من أهل كنعان يبلغ طوله

ثمانى عشرة قدماً ، ثم دخل فى خدمة أحد الملوك لأنه سمع أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حين ذكر بعضهم أمامه اسم الشيطان ، فاستدل كرستفر من هذا على أن الشيطان أقوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل فى خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارباً ، واستدل كرستفر من هذا على أن عيسى (عليه السلام) أقوى بلا شك من الشيطان ، فوهب نفسه للمسيح . ووجد الرجل مشقة فى الصوم المسيحى ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر فى أبسط الصلوات . ووضعه ناسك صالح على شاطئ مخاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتيازها . وحمل كرستفر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر فى أمان دون أن يبتلّوا بالماء ، حتى كان فى يوم من الأيام يحمل طفلا صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلا ؛ ولما سأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : « أنا المسيح عيسى » ثم اختفى ؛ وفى هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرستفر وكان قد غرسها فى الرمل[٣] . ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس چورچ شفيع بريطانيا . فمن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيلينم Silenum فى ليبيا تنين يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاما له ؛ وكان الشاب (أو الشابة) يختار بالقرعة ويقدم للتنين حتى لا يسمم القرية بنَفَسه . ووقعت القرعة فى أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البركة التى يقيم فيها التنين ، فرآها القديس چورچ وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : « أيها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبيراً نبيلا ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالابتعاد عنى » . وأبى الشاب أن يجيبها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله، فلما فعلت قال لها:

« لا تخاف فإنى سأساعدك باسم عيسى المسيح » . وخرج التنين من الماء فى هذه اللحظة ورسم چورچ علامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على التنين ، وطعنه بحربته ، وأمر الفتاة أن تلقى بمنطقتها حول عنق التنين الجريح ، ففعلت ما أمرها به ؛ وخضع التنين لسحر جمالها الفتان كما يخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خلفها مطيعاً ذليلا طوال حياتها وجمع ياقوبو ده ڤوراجين Jacopo de Voragine كبير أساقفة جنوى هاتين القصتين وأمثالها فى كتاب ذائع الصيت نشر حوالى ١٢٩٠ ؛ فكان يروى لكل يوم من أيام السنة قصة قديسها المخصص هذا لليوم له ، وسمى كتابه **قراءات عن القديسين** Legenda sanctorum . وصارت مجموعة قصص ياقوبو من الكتب المحببة للقراء فى العصور الوسطى ، وأطلقوا عليها اسم **القراءات الذهبية** . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط فى تصديق بعض هذه القصص(٤) ، ولكن الناس أحبوها وصدقوها كلها ، ولعلهم لم يكونوا فى هذا أكثر انخداعا فى الحياة عن السذج من الناس الذين يصدقون القصص الخرافية فى هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ما كتب باللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع المواد التلقينية على اختلاف أنواعها — من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطب — كانت تكتب فى أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بذلك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة **الكسندريس** Alexandreis (١١٧٦) التى نظمها ولتر الشاتيونى Walter of Châtillon وتبدو لنا هذه الملاحم الآن مملة بقدر ما تبدو قصيدة **الفردوس المفقود** Paradise Lost وكتب أيضاً جدل شعرى — بين الجسم والنفس ، والموت والإنسان ، والرحمة والصدق ، والفلاح والقس ، والمرأة والرجل والنبيذ والماء ، والنبيذ والجعة ، والورد والبنفسج ، والطالب الفقير والقس

الذى ينال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فكتب جدلا بين هيلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال للنساء وعشق الرجال للغلمان(٥) . وقصارى القول أن شيئاً ما من شئون الآدميين لم يكن غريبا على الشعر .

وترك الكتّاب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون فى الشعر القديم ، وجاء الشعر اللاتينى المستمد من الشعور العام لا من الفن العلمى بنوع من الشعر جديد يعتمد على النبرات والوزن والقافية . وكانت هذه الضروب من الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلت ألف عام مع الطراز اليونانى . وبقيت الأنماط الفصحى — من شعر سداسى الأوتاد ، ومراث ، وشعر من نوع شعر سابفو طوال العصور الوسطى ؛ ولكن العالم اللاتينى حل هذه الأنماط ، فقد خيل إليه أنها لا تتناغم مع أمزجة التقى ، والرحمة ، والرقة ، والأدعية الدينية التى نشرها الدين المسيحى ؛ فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هى الأبيات القصيرة من البحر العميق(*) تكاد تنقل كل عاطفة بشرية من خلجات القلب إلى ضربات أرجل الجند الزاحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحى الغربى وإن كان الكثيرون يبدون آراء تعتمد على الحدس وحده . لقد اتبعت القافية فى عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ، وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحياناً فى الشعر العبرى والسريانى ، واستعملت مراراً متفرقة فى الشعر اللاتينى أثناء القرن الخامس ؛ وهى شائعة الاستعمال فى الشعر العربى منذ عهـــد قديم يرجع إلى القرن السادس الميلادى . ولعل حب المسلمين للقافية قد أثر فى

(*) Iambic بحر من الشعر مؤلف من فواصل قصيرة تليها فواصل طويلة ، أو من مقاطع لها نبرة صوتية تليها مقاطع غير ذات نبرة صوتية . (المترجم عن قاموس سعادة)

المسيحيين الذين اتصلوا بالإسلام ، وبذكرنا الإفراط فى التزام القافية فى أواسط الأبيات وأواخرها فى شعر العصور الوسطى اللاتينى بهذا الإفراط عينه فى الشعر العربى . ومهما يكن فى هذا من خير أو شر فإن هذه الصيغ الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتينى ، يختلف فى كل شيء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلا من شعر بطرس دميان (١٠٠٧–١٠٧٢) الناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة محب فتاة يحبها :

منذا الذى يدق بابى ؟
أتريد أن تبدد أحلام ليلى ؟
فيناديني ، يا أجمل العذارى ،
يا أختى ، ورفيقتى ، يا جوهرة متألقة !
أسرعى ! قومى ! افتحى يا أحلى الفتيات !

* * *

أنا ابن الملك العلى الأعلى
أنا أكبر أبنائه وأصغرهم
هبط من السماء إلى هذه الظلمة
ليحرر أرواح الأسرى .
لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأذى » .

* * * .

فغادرت فراشى من فورى
وهرولت نحو عتبة الباب
لكى يُفتح البيت كله إلى الحبيب
وتتملى روحى برؤية

من تتحرق شوقاً إليه .
ولكنه مرّ بنا مسرعاً
وغادر بابى
فماذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟
فتبعت والدمع ينهمر من عينى
الشاب الذى صوّرت يداه الإنسان .

وكان قول الشعر عند بطرس دميان أمراً عارضاً ؛ أما عند هيلدبرت اللڤرديني Hildebert of Lavardin (١٠٥٥ — ١١٣٣) كبير أساقفة تور فكان هياماً شق به طريقه إلى الإيمان . ولعل برنجر Birenger عالم تور Tours الذى درس على فلبرت فى بلدة شارتر Chartres قد بعث فيه حباً للآداب اللاتينية القديمة . ونزلت به محن كثيرة سافر بعدها إلى رومة ؛ وهو لا يدرى أى الأمرين أقوى عنده من الآخر : أهو السعى إلى البركة البابوية ، أم إلى رؤية الأماكن التى جعلتها القراءة عزيزة عنده ؟ وتأثر الرجل بعظمة العاصمة القديمة واضمحلالها ، وأنطقه شعوره بمرثاة من الطراز القديم :

« أى رومة ! ليس فى المدائن كلها ما يماثلك ! وإن كدت تصبحين خربات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من الدمار ! إننا نتعلم منك فى محنتك ؛ لقد حطم كبرياءك مر الدهور ، فتداعت فى المناقع حصون قيصر مع هياكل الأرباب . وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح الشاهقة التى كان البرابرة العتاة يرتعدون خوفاً حين يرونها قائمة ، ويحزنون حين يرونها متداعية . . . ولكن كر الدهور وقعقعة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد » .

فى هذه المرثاة برع شاعر فى العصور الوسطى فى استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة ڤرجبل نفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعته المسيحية ، فقد كان يجد من السلوى فى المسيح ومريم أكثر مما يجدها فى جوپتر ومنيرڤا ، ولهذا

نراه فى قصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة يهجر الأضرحة القديمة ويقول :

(رومة تتحدث) : إن هذه الهزيمة أحلى عندى من تلك الانتصارات ، وإنى فى فقرى لأعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لأعظم منى وأنا رفيعة العماد ، ولقد أمدنى علَم الصليب بأكثر مما أمدتنى النسور ، ووهبنى بطرس أكثر مما وهبنى قيصر ، وحبتنى الجموع العزلاء بأكثر مما حبانى القواد المدججون بالسلاح . لقد سدت الأمم وأنا قائمة على قدمى ، وهأنذا وأنا مخربة أضرب فى أعماق الأرض ؛ ولقد سيطرت على الأجسام وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا محطمة جاثية أحكم الأرواح ؛ لقد كنت فى الزمن القديم آمر شعبا بائسا ، أما الآن فإنى أصدر أوامرى إلى أمراء الظلام ؛ لقد كانت المدائن مملكتى فى الزمن القديم أما الآن فمملكتى هى السماء .

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشعر منذ أيام فورتناتس Fortunatus .

الفصل الثانى

الخمر والمرأة والأغانى

من الطبيعى أن يكون علمنا بالنواحى الوثنية أو المتشككة فى حياة العصور الوسطى قطعاً متفرقة ؛ ذلك بأن الماضى لم يصل إلينا نزيهاً أميناً إلا فى دمائنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر — أو روح الزمالة فى الغبطة — التى حملت دير بندكتبيرن Benediktbeuern (فى باڤاريا العليا) على الاحتفاظ بالمخطوط الذى شق طريقه إلى المطبعة فى عام ١٨٤٧ وسمى باسم **قصائد بيرانه** Carmina Burana والذى يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر « العلماء الجوالين »(*) . ولم يكن هؤلاء من الذين يضربون فى الآفاق ؛ فقد كان منهم رهبان ضلوا فى طريقهم إلى أديرتهم ، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثرتهم طلاباً فى طريقهم من موطنهم إلى جامعتهم أو من إحدى الجامعات إلى الأخرى ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثيرون من الطلاب يعرجون على الحانات فى الطريق ، ومنهم من كانوا يتذوقون الخمر والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوا يؤلفون الأغانى ، ويتغنون بها ، ويبيعونها لمن يطلبها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم فى أن يكونوا من رجال الدين فكانوا يعيشون بأقلامهم يخصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان . وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ، ولكن شعرهم ما لبث أن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية . وكانوا يدعون أنهم ينتظمون فى هيئة خاصة هى **نقابة الجوالين** ، واخترعوا لها مؤسساً ، وهوما

(*) ومن المصادر الأخرى مخطوط فى مكتبة هارلم ألف قبل عام ١٢٦٤ ونشره تومس ريت فى عام ١٨٤١ باسم « قصائد لاتينية تعزى عادة إلى والترميس » .

وقديساً شفيعاً هو شخصية أسطورية شبيهة بشخصيات ربليه وسموه جلياس Golias . وإنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهو القرن العاشر الميلادى ، ولتر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على « أسرة جلياس » المرذولة ، كما أن مجلساً كنسياً عقد فى عام ١٢٢٧ جهر بسخطه على الجليادى Goliardi لأنهم ينشدون أشعاراً يسخرون فيها من أقدس الأناشيد والطقوس الدينية[٦] . ويقول مجلس سلزبرج المنعقد فى عام ١٢٨١ إنهم « يسيرون بين الناس عراة ، وينامون فى أفران الخبز ، ويغشون الحانات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم برذائلهم ، ويتشبثون أشد التشبث بشيعتهم »[٧] .

ولسنا نعرف من هؤلاء الشعراء الجليارديين ، إلا أفراداً قلائل ، منهم شاعر يسمى هيو Hugh أو هوجو بريماس Hugo Primas ، وكان راهباً علمانياً فى أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسيه[٨] بأنه « إنسان دنىء ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشتهر « فى كثير من الأقاليم » بحضور البديهة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم يبتع شعره ؛ وكان يقذف الأغنياء من رجال الدين بأقذع أنواع الهجاء التى يمليها عليه حقده . كان رجلا غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعانى فى شعر سداسى الأوتاد ، لا يقل روعة عن شعر هيلدبرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه « كبير الشعراء Archipoeta » (حوالى ١١٦١) ؛ وهو فارس ألمانى يفضل الخمر والداد عن السيف والدم ، ويعيش عيشاً مضطرباً على الصدقات التى كان يمده بها من حين إلى حين رينلد فن داسل Rainald Von Dassel كبير أساقفة كولونى المنتخب ، وسفير بربرسا فى بافيا . وحاول رينلد أن يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك فى قصيدة من أشهر ما قيل من القصائد فى العصور الوسطى ، وهى قصيدة « اعتراف

جالوت» — التي أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع في الجامعات الألمانية :

١ أنا الذي فاضت نفسي بالحقد الدفين الشديد ،
استمع يا صاح إلىّ أعلن ما في نفسي من حقد مرير :
لقد خلقت من عنصر واحد ، مادتي الطيش ،
أشبه الأشياء بورقة من شجرة في مهب الريح .

* * *

٢ لم أطق حتى اليوم الأحزان ولا الاعتدال في الشهوات ،
أحب النكات ، والمرح عندي أحلى من الشهد .
وكل ما أمرت به ڤينوس هو عندي الغبطة التي لا تعادلها غبطة ،
وهي لم تتخذ قط لها مسكناً في قلب خبيث .

* * *

٣ إني أسير في الطريق الرحب شاباً غير نادم على شيء ؛
ألا فلفّني في الرذائل لفّاً لكي أنسى كل الفضائل(*) .
فإن شرهي لعب اللذات أكثر من شوقي إلى ملكوت السموات ،
لأن ما كان فيّ من روح قد مات ، وأصبح من الخير لي أن أنجي الجسد .

* * *

٤ عفواً أيها السيد الصالح ، يا صاحب العقل الحصيف ،
إن هذا الموت الذي أسعى إليه حلو ؛ وهو سم ما أحلاه .
لقد نفذت في جسمي سهام لحاظ فتاة جميلة .

(*) يذكرنا هذا بقول أبي نواس : تكثر ما استطعت من الخطايا . . . الخ . انظر الجزء ١٣ من هذه السلسلة . (المترجم) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن إليها من سبيل ؟

* * *

٥ ألا تحرقك النار إن جلست فى وسطها ؟
وإن جئت إلى پاڤيا ، فهل تعود منها طاهراً عفيفاً كما جئتها ؟
پاڤيا التى تجتذب الشباب بأطراف أناملها ،
الشباب الذى وقع فى شرك عينيها وافتتن بسحر شفتيها .

* * *

٦ جىء بهپوليتس ليتعشى فى پاڤيا ،
فإذا أصبح الصباح اختفى هپوليتس عن الأنظار .
فليس فى پاڤيا طريق لا يؤدى إلى الفجور ،
وليس فى أبراجها الكثيرة برج واحد للعفاف .

* * *

٧ إن هذا هو معقد أملى ؛ فإذا دنت الساعة منى ،
فدعنى أمت فى الحانة وكأس الخمر إلى جوارى ،
والملائكة يطلون على ويغنون مغتبطين :
« رضى الله عن هذا السكير » (*)

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب : تشمل الربيع ، والحب ، والافتخار بغواية النساء ، والفحش الرقيق ، وأغانى الحب الحنونة التى لا يستجيب لها الحبيب ، وأغنية ينشدها طالب علم يشبر فيها بوقف الدرس ، وتقرير يوم عطلة للحب . . . وفى إحدى الأغانى تفاجىء فتاة شاباً أثناء كدحه وتسأله : « ماذا تفعل ياسيدى ؟ هيا بنا نلعب سوياً » ؛ وتتغنى أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

(*) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الخيام الذى ذكر المؤلف شيئاً منه فى الجزء الذى عقده للحضارة الإسلامية فى هذا المجلد . (المترجم) .

عبرها بحزن فتاة غدر بها الحبيب ، وكانت بدانتها سببا فى الضربات يكيلها لها أبواها . ويتغنى كثير من القصائد بملذات الشراب ، والميسر ؛ ومنها ما يندد بثروة الكنيسة مثل « قصيدة الإنجيل حسب المارك الفضى » ؛ ومنها ما يقلد أنبل الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هوتمان Whitman تتغنى بالطريق المفتوح(١٠) . وكثير منها شعر غث لكن منه ما هو آية رائعة من آيات الشعر الغنائى . وها هى ذى أنشودة محب يتغنى فيها بالموت المثالى :

لما أن استسلمت فى غير مبالاة للحب ولى ،
ضحك الجمال من كوكبها الوضاء البعيد فى السماء ،
وغمرتنى نشوة لا حد لعظمتها ،
ولم يتسع قلبى لهذه الغبطة العظيمة التى فاضت علىّ
حين بدلتنى حبيبتى ، وقد طوقتنى بذراعيها ، غير ما كنت ،
وصبت كل ما فى شفتيها من رحيق فى قُبلة حبانى بها .
وما أكثر ما أحلم بالحرية التى نلتها من صدرها الآن .
لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السماء ،
وإذا ما وجدت يدى مرة أخرى فوق صدرها فسأكون الحكم الأعلى
بين الآلهة والخلق(*)(١١) .

ومعظم الشعر الغزلى فى قصائد بيرن شهوانى صريح . نعم إن فيه أبياتاً تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولو لم نعثر على هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم لڤينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم الكنيسة . ذلك أن المرأة ، وهى الدعامة القوية الوفية للدين ، هى أكبر منافس للآلهة . وظلت الكنيسة تستمع وهى صابرة لهذه الأغانى ، أغانى الحب والخمر ،

(*) وهذا يذكرنا أيضاً بقول امرئ القيس فى معلقته : وبيضة خدر . . . الخ . (المترجم)

ولكن مجلساً لها عقد فى عام ١٢٨١ قرر أن كل قس (ومن ثم كل طالب) يؤلف أغانى شهوانيـــة أو خارجة على الدين ، أو يتغنى بها ، يفقد بذلك منصبه الدينى وحقوقه . وبذلك انحط من بقى من الطلاب بعد هذا القرار موالياً لجولياث إلى منزلة المغنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين المفحشين . ولم يحل عام ١٢٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجوالين قد انقضى . ولكنهم كانوا قد ورثوا تياراً وثنياً يسرى فى طيات القرون المسيحية ، ولهذا فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامنين حتى دخلا فى عصر النهضة .

وكان الشعر اللاتينى نفسه يلفظ آخر أنفاسه بانقضاء عهد الطلاب الجوالين ؛ ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نحو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب القديمة وقنعت بمنزلة صغرى فى برامج الجامعات . ولم يجد الأدب الظريف الممتع أدب هيلد يبرت ويوحنا السلزبرى الذى كان يضارع أدب عصر أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تصرم القرن الثالث عشر واتخذ دانتى اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحت اللغات القومية لغات الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة وخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق بلغات الشعوب .

الفصل الثالث

بعث التمثيـــل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيليات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيليات سنكا وهرسويذا Hroswitha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سبيلها إلى المسرح . وبقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحي النشاط التمثيلي تصلان الماضي القديم بالزمن الذي تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التي كانت تجرى فى الأعياد الزراعية ، وثانيتهما التمثيليات الهزلية التي كان يمثلها المغنون الجوالون والمهرّجون فى أبهاء القصور أو ميادين القرى[١٢] .

ولكن أشهر منابع التمثيل فى العصور الوسطى هى الطقوس الكنسية شأنها فى هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيلي ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بخدمة القداس يلبسون حللا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المتبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توحى بأن التمثيل تطور من الحوار الذى نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفى الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلى نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس فى بعض الطقوس الدينية التى تقام فى يوم عيد الميلاد فى القرن الحادى عشر يدخلون الكنائس فى زى رعاة الغنم ويحييهم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخبار سارّة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الجبس فى مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب فى الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يُجرّ على سلك[١٣] . وكانت بعض الكنائس تمثـــل فى

الثامن والعشرين من ديسمبر « مذبحة البريئين » : فكان بعض الغلمان المرتلين يمشون فى صحن الكنيسة وجناحيها ، ويسقطون على الأرض كأن هيرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصعودهم إلى السماء[١٤] . وفى يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثيرة ترفع صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع فى مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح فى صباح عيد الفصح باحتفال مهيب رمزاً لبعث المسيح[١٥]. وكتب جريجورى نزيانزين Gregory Nazianzen بطريق القسطنطينية فى عام ٣٨٠ لا بعد قصة آلام المسيح فى صورة تمثيلية يوربيدية Euripidean[١٦] ، ولا تزال تمثيلية آلام المسيح من ذلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظيم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هى التى مثلت فى سينا حوالى عام ١٢٠٠ ، ولكن أكبر الظن أن مسرحيات أخرى كثيرة من نوعها مثلت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل .

وإذ كانت الكنيسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى لتطبع فى عقول المؤمنين المناظر والأفكار الرئيسية فى الملحمة المسيحية ، فإنها بذلك كانت تلجأ إلى خيال الشعب وتزيد تقواه بما تضفيه على المناظر التمثيلية فى الأعياد الكبرى من روعة وتفاصيل مطردة الزيادة ؛ وكانت النصوص الموضحة التى أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسبها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيليات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح فى مخطوط من القرن العاشر فى سانت جول St, Gall يدخل الحوار الآتى فى ترنيمة مقسمة لتمثل فيها الملائكة والمريمات الثلاث(*).

الملائكة : منذ الذى تبحثن عنه فى الضريح يا خادمات المسيح ؟

المريمات : نبحث عن المسيح الذى صلب يا رسلا من السماء .

(*) مريم أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية .   (المترجم)

الملائكة : ليس هو فى هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ؛
اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

المرتلون جميعا : احمدوا الرب ، الرب قد صعد[١٧] .

وأخذت المناظر الدينية منذ القرن الثانى تزداد تعقيداً على مر الأيام حتى لم يعد تمثيلها فى داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع فى خارجها ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة لهذا الضرب من التمثيل *تمثيلية آدم* التى كتبت فى القرن الثانى عشر باللغة الفرنسية بينها سطور باللغة اللاتينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليمات للممثلين .

وفى هذه المسرحية يظهر آدم وحواء فى دثارين أبيضين يلعبان فى جنة ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين فى الأثواب الحمراء الملتصقة بالجسم التى أضحت من ذلك الوقت ثيابهم الخاصة فى دور التمثيل ، ويجرى أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطبون وجوههم تقطيباً مروعاً رهيباً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فيرفضها ، فيقدمونها لحواء ، فتتناولها ، وتقنع آدم بأن يحذو حذوها . ويدان آدم وحواء برغبتهما فى المعرفة فيسلكان فى أغلال من الحديد وتجرهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة بحفرة فى الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفى الفصل الثانى يستعد قايين لذبح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله هابيل : « ولم أموت ؟ » فيجيبه قايين : « أتريد أن تعرف لم أريد أن أقتلك ؟ . . . سأخبرك . سبب ذلك أنك تفرط فى سعيك لتنال الحظوة عند الله » . ويلقى قايين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . ولكن مؤلف الرواية تأخذه الرأفة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سيكون تحت ثياب هابيل جفنة »[١٨] .

وأطلق فيا بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب المقدس اسم « الأفعال الخفية » ؛ واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل، وكان هذا أيضاً هو معنى drama . ولما أضحت القصة تمثل أحداثاً وقعت بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات، وكانت تدور فى العادة حول بعض الأفعال العجيبة التى قامت بها العذراء أو قام بها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلار كثيراً من هذه المسرحيات (حوالى ١١٢٥) بخليط من اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التى تكتب بها « مسرحيات المعجزات » . وأخذت الفكاهات المتزايدة الصراحة تصبح فيها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دنيوية غير دينية .

وكانت « المهازل » فى هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستقلا نحو المسرحيات . ويتمثل هذا التطور فى مسرحيتين قصيرتين وصلتا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالى ١٢٦٠) ، وهو رجل أحدب من أراس Arras . وتدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرحية آدم Li Jus Adam ؛ حول حياة المؤلف نفسه . فقد كان يفكر فى أن يكون قساً ، ولكنه أحب مارية الحسناء . « وفى يوم جميل من أيام الصيف سماؤه صافية ، وجوه لطيف ، بينما كانت الطيور تنطلق بأصواتها العذبة ، تحت بين الأشجار العالية على شاطئ النهر فتاة هى الآن زوجتى . . . لقد رويت الآن ظمأى منها » . ويخبرها بهذا فى صراحة ظريفة ويعتزم الذهاب إلى باريس وإلى الجامعة . ويُدخل المؤلف فى هذا الفصل الخاص بشئونه هو وزوجته ، طبيباً ، ومجنوناً ، وراهباً ، يستجدى الناس الصدقات ويعدهم بالمعجزات ، وجماعة من الجنيات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدوار لرقص التى تقحم إقحاماً فى التمثيليات الغنائية الحديثة . ويسىء آدم إلى إحدى الجنيات ، فتصب عليه لعنة تمنعه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور تطوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernaad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينيـة واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حولها إلى السوق العامة أو إلى غيرها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتئذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا فى مكان ما تلك المسرحيات القليلة — وكان ذلك يحدث فى العادة فى عيد من الأعياد الصيفية — يقيمون مسرحاً موقتاً ، ويضعون مقاعد للنظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحيطة بالميدان لتمثيل المناظر الخلفية وغيرها مما يحتاجه الممثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار فى المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما فى المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة « الماجنين » أو المغنين الجوالين ؛ وقلما كانت النساء يشتركن فى التمثيل . ولما زاد بعد التمثيليات عن الكنيسة فى مناظرها وموضوعاتها ، نزعت هذه التمثيليات إلى التهريج والخلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهى التى نشأت فى أحضانها المسرحية الجديدة ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيليات القروية تجافى الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستستى أسقف لنكلن يضم التمثيليات ، ومنها « تمثيليات المعجزات » إلى مجالس الشراب . « وعيد الحمق »(*) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أى مسيحى ؛ وصدرت بعده أوامر شبيهة بهذا الأمر (بين عامى ١١٣٦ و ١١٤٤) تقضى بأن الممثلين الذين يشتركون فى هذه التمثيليات يحرمون من الدين . أما القديس تومس فكان أكثر من هذا تسامحاً ، وقال إن مهنة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذى يمارسها على خير وجه ربما نجا من الجحيم برحمة من الله .

(*) اسم كان يطلق على رأس السنة عند بعض كنائس فرنسا فى العصور الوسطى وسمى كذلك لما كان يحدث فيه من الخلاعة . (المترجم)

الفصل الرابع

الملاحم والقصص المنثورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب . ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن الثانى عشر ، وإن الكتاب الذين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ؛ وكان جمهور القراء يزداد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعى نماء ، وأخذت الآداب القومية ترتقى تدريجاً لتسد مطالب هذا الجمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسىُ فى القرن الحادى عشر ، والأدب الألمانى فى القرن الثانى عشر ، والإنجليزى والأسبانى والإيطالى فى القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعى أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القومى هى الأغنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هى القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل عليها من تطور وتضخم فصارت هى الملحمة الصغرى كملحمة بيولف Beowulf ، وأغنية رولان Chanson de Roland ونيبلنچنلايد Nibelungenlied والسيد Cid . وأكبر الظن أن أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالى عام ١١٣٠ من أغان كانت شائعة فى القرن التاسع أو القرن العاشر . وهى تروى فى أربعة آلاف بيت من الشعر السهل المنسجم العميق الوزن قصة موت رولان فى رنسفال Roncessvales . وتفصيل ذلك أن شارلمان بعد أن « فتح » بلاد الأندلس الإسلامية كان عائداً بجيشه نحو فرنسا ، فما كان من جانيلون Ganelon الخائن إلا أن دل العدو على طريق الجيش ، وتطوع رولان لقيادة المؤخرة لينجيها من مأزق خطر . وبينا هو سائر فى أخدود ضيق

ملتو فى جبال البرانس إذ انقض حشد من الباشقنس من شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . ويرجوه صديقه ألقييه أن ينفخ فى بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجدة ، ويقود هو وألقييه ، وتوربين Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف الدم من جروح مميتة فى رأس ألقييه ويغشى عينيه فيظن رولان جنديا من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؛
ويسأله بصوت لين حنون :
« أيها السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟
إنى أنا رولان الذى يحبك أعظم الحب
ولم تطلب إلىّ النزال »
فيقول ألقييه : « أنا الآن أستمع قولك ؛
ولكنى لا أراك ، رعاك الله وأنجاك !
لقد ضربتك ، فاغفرها لى ! »
فيجيبه رولان : « لم أصب بسوء
وأعفو عنك لساعتى وأشهد الله . »
فلما نطق بهذا انحنى كلاهما لصاحبه
وافترقا متحابين[٢٠] .

وينفخ رولان أخيراً فى بوقه العاجى ، ويواصل النفخ حتى ينبثق الدم من صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطير فى الريح » . ولكن الطريق طويل و « الجبال شامخة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ، والأنهار سريعة التيار » . ورولان فى هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألقييه

يناديها بقوله : « أيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالى طوالا ، لم تسئ إلىّ فيها ولم أسئ إليك ، فإذا مت فالحياة من بعدك كلها آلام » . ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويواصل الحرب حتى يفرّ المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت . ويستجمع آخر ما فيه من قوة ويحطم فوق صخرة من الصخور سيفه دورندال Durendal المطعم بالجواهر حتى لا يقع فى أيدى الكفار . و « رقد الكونت رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسبانيا . . . وطافت به وقتئذ ذكريات كثيرة ، ففكر فى البلاد التى فتحها ، وفى فرنسا الحلوة ، وفى أسرته ، وفى شارل الذى رباه ، وبكى » . ورفع قفازه إلى السماء دليلا على خضوعه لله ، ووفاته . ويقبل شارل ويجده قد مات . تلك هى خلاصة القصة مترجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع محاكاة أصلها السهل الجذل ؛ وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة والعاطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التى يحفظها كل طفل فرنسى ويتلوها فى كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالى عام ١١٦٠ أسبانيا ملحمة قومية يمجد فيها أخلاق راى Ruy أو ردريجو دياز (المتوفى سنة ١٠٩٩) ، وهى المعروفة بملحمة السيد Poema de Cid . وموضوعها هى الأخرى القتال بين الفرسان المسيحيين والمسلمين فى الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ، وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أمجاد الحرب عن ذلة الحب . وينفى رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه فى أحد الأديرة ويقسم ألا يعيش بينهم بعدئذ حتى ينتصر فى خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين . ويردد النصف الأول من القصيد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد فى خلال الفترات الواقعة بين المعارك أموال اليهود ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجذوم ، ويأكل معه فى صحفة واحدة ، وينام معه فى فراش واحد ، ويتبين أنه ألعازر Lazarus الذى

رفعه السيح من بين الموتى . وليست هذه بطبيعة الحال هى صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسىء إلى التاريخ أكثر مما تسىء إليه أغنية رولان بتمجيدها شارلمان وجعلها إياه مثلا أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافزاً قوياً للتفكير الأسبانى والعزة الوطنية الأسبانية ؛ وألفت مئات الأغانى الشعرية التى تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متفاوتة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس فى الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التى تتعاقب على مدى الأيام .

* * *

ولننتقل بعد ذلك إلى أيسلندة فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أخرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التى قست عليها الطبيعة وفصلتها البحار عن غيرها من البلدان ، فى تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب فى مداه ولا فى بهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كبير من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جماعة من الناس معزولة عن غيرها من الجماعات ، وحب للقراءة ، أو الاستماع إلى القارئين — أعان عليه طول ليالى الشتاء . لقد وجد فى الجزيرة منذ القرن الثانى عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهذب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكا للشعراء الشعبيين .

وكان من المصادفات النادرة أن زعيم كتاب القرن الثالث عشر فى أيسلندة كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذى اختير مرتين ليكون رئيساً لجمهوريتها — الناطق بالقانون كما يسمونه فيها . كان أسنرى استورلسون **Snorri Sturlson** (١١٧٨ — ١٢٤١) يحب الحياة أكثر مما يحب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكا فى السياسة والمنازعات ، ثم قتله زوج ابنته وهو فى الثانية والستين من عمره .

وقد روى فى كتابه العالم المستنير Heimskringla تاريخ بلاد الشمال وقصصها بما فطر عليه رجل الجد والعمل من بساطة وإيجاز ؛ وروى فى كتاب إدا استرا استورلسونز Edda Snorra Sturlsnar أو إدا المنثورة موجز التاريخ الوارد فى الكتاب المقدس ، وشذرات من أساطير الشماليين ، وضمنه مقالا فى أوزان الشعر ، ورسالة فيه ، وشرحا فذاً لنشأة هذا الفن من البول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتتلوا ثم عقدوا الصلح بأن أخذوا يبصقون فى جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفازير Kvasir علم الناس الحكمة كما علمهم إياها بروميثيوس . وقتل الأقزام أكفازير ، ومزجوا دمه بالخمر وصنعوا رحيقا يهب كل من يشربه القدرة على الغناء . واتخذ الإله العظيم أودين Odin سبيله إلى المكان الذى خزن فيه الأقزام هذا الخمر الشعرى ، وشربه كله ، وطار إلى السماء ؛ غير أن بعض السائل المحبوس خرج منه بطريقة قلما تستخدم فى الفساق العامة ؛ وسقط هذا الماء الإلهى رذاذاً ماهما على الأرض ، وامتص من سقط عليه موهبة قرض الشعر[٢١] . ذلك هراء جاء به عالم من العلماء وليس هو أبعد عن العقل من التاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسلندة غنية بأدبها غنى تحار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحا ، وفكاهة ، وفتنة شعرية تسرى فى نثره . وكتبت فى ذلك العهد مئات من القصص المنثورة بعضها قصير وبعضها فى طول الروايات النثرية ، بعضها تاريخى وبعضها يخلط التاريخ بالأساطير . وكلها بوجه عام ذكريات للحضارة من عصر الهمجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يعقّدها التقاضى ويخفف من ملالها الحب . وكثيراً ما يرد فى قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أسنرى ذكر فرسان الشمال الذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد منهم نفسه ، أو ذكر أبهائهم أو أقداح شرابهم . وأروع هذه القصص خيالا

قصص الفلسنجاساجا Volsungasaga . وقد وردت قصصها فى صورة باكرة فى الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ، وأحدث صورة لها هى التى وردت فى خاتم النبلنجيين Nibalungs تأليف ڤاجنر Wagern .

والفلسنج Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجدّ سيجورد Sigurd (سيجفريد Siegfried) . والنيبلنجون حسب نص النيبلنجير Nibelungenlied ملوك برغنديون ، أما فى الفلسنجاساجا فهم سلالة من الأقزام يحرسون فى بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلاّن عن التقدير ، ولكنهما يجلبان النقمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيجورد فهنر Fahnir التنين الذى يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل فى تجواله إلى تل تحيط به النيران وتنام عليه برندهلد Brundhild الڤلكيرية Valkyrie (نصف الإلهة التى من نسل أودين) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty . ويفتتن سيجورد بجمالها وتفتتن هى به ، ويقسمان يمين الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره — كما يفعل الرجال فى كثير من قصص العصور الوسطى . ويلتقى فى بلاط جيوكى Gukil أحد ملوك بلاد الرين بالأميرة جدرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكى برندهلد ويأتى بها إلى بلاط أبيه ، ويسوؤها نسيان سيجورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه وتحترق معه .

وأحدث صورة لهذه القصص الأيسلندية هى قصة أنجال المحترق Njal (حوالى ١٢٢٠) . وشخصيات هذه القصة واضحة تحددهم أعمالهم وأقوالهم أكثر مما يحددهم وصفهم . والقصة محكمة البناء وتنتقل حوادثها المثيرة تنقلا يحتمه السياق حتى تصل إلى الكارثة التى تدور حولها حوادثها — وهى احتراق بيت

نجال ، واحتراقه هو وزوجته برجثورا Bergthura وأبنائه على أيدى جماعة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسى Flosi يحقد على أبناء نجال ويعمل على الانتقام منهم :

ثم نادى فلوسى . . . نجال وقال له .

« إنى آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج لأنه لا يليق بك أن تحترق فى داخل الدار »

فيرد عليه نجال قائلا : لن أخرج لأنى شيخ كبير ، لا أقوى على الثأر لأبنائى ، ولكن لن أعيش مجللا بالعار »

ثم نادى فلوسى برجثورا قائلا : « أخرجى يا صاحبة الدار لأنى لا أريد أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب »

فتجيبه برجثورا بقولها : « لقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعدته أن ألقى وإياه نفس المصير »

ثم عادا بعد ذلك إلى البيت :

وسألته برجثورا : « أية نصيحة نتبعها الآن ؟ » .

فيجيبها نجال : « سنذهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما تاقت نفسى إلى الراحة »

ثم قالت للغلام ثورد Thord بن كارى : Kari : « سأخرجك أنت ولن تحترق هنا »

فيجيبها الغلام قائلا : « لقد وعدتنى يا جدتى ألا نفترق ما دمت أرغب البقاء معك ، ولكنى أرى أن موتى معك ومع نجال خير من حياتى بعدكما »

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعته بينها وبين نجال ، ورسما عليهما

وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله ، وكان هذا آخر لفظ سمعه الناس منهما[٢٢]

وكان عصر الهجرة (٣٠٠ — ٦٠٠) قد ترك فى ذكريات الشعوب والمغنين المضطربة ألف قصة وقصة عن الفوضى الاجتماعية ، والشجاعة الهمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد النرويج وأيسلندة وأثمرت الفلسنجا-اما ، وكثير منها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها فى ألمانيا فى صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حتى قام رجل ألمانى غير معروف فى زمن غير معروف أثناء القرن الثانى عشر وصاغ من تلك المواد النيبانجلنيد أو أغانى النيلنجيين . وهى مصوغة فى قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمزجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Gunther وأخواه برغندية زمناً ما فى القرن الرابع الميلادى فى قصرهم فى ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم فى ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيلد Kremhild — « التى لم يكن أجمل منها فى بلد من البلاد » . وكان الملك سجمند فى هذه الأثناء يحكم الأراضى الوطيئة ، وأقطع ابنه سيجفريد (سيجورد) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هى الأخرى على ضفة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيلد فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هناك على الرحب والسعة مدة عام ، ولكنه لم ير كريمهيلد قط وإن كانت هى قد أبصرت من نافذتها الشبان يتثاقفون فى فناء القصر ، فأحبته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب فى قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة فى حربه فى صفوف البرغنديين ؛ وأراد جنثر أن يحتفل بعقد الصلح بعد انتصاره وأمر سيدات القصر أن يشهدن الاحتفال !

وازينت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وتاقت نفوس الشبان لنيل رضاء السيدات وإعجابهن ، ونزلوا عن حقهم في أرض الملك الغنية نظير فوزهم بهذا الإعجاب . . . . : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب الصباح يتألق بين السحب الدكناء ، ولم يكد يراها الشاب الذى انطوى قلبه على حبها من زمن بعيد حتى ذهب عنه ما كان يحس به من تعب . . . . وسر سيجفريد وحزن ، فقد قال فى نفسه : « كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟ تلك لاريب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندى أفضل من البعد عنك » . . . واحمرت وجنتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ، وقالت : « مرحباً بك يا سيجفريد ، أيها الفارس الباسل النبيل » . وامتلأ قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحناءة جميلة شأن الفارس الشهم ، وشكر لها تحيتها . وارتبط قلباهما برباط الحب القوى وتبادلا النظرات سراً .

وترامت أخبار برنهيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقيل له إنها لا ينالها إلا من يتفوق عليها فى ثلاث تجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق فى أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على نيل برنهيلد إذا زوجه بكريمهيلد . ويعبران البحر بسرعة القصص وسهولتها ، ويلبس سيجفريد طيلساناً سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنـــثر على الخروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتى جنثر ببرنهيلد إلى موطنه ليتزوجها على كره منها . وتساعد ست وثمانون فتاة كريمهيلد على إعداد الأثواب الغالية للعروس . ويحتفـــل بزواج جنثر وبرنهيلد وبزواج سيجفريد وكريمهيلد احتفالا فخما .

ولكن برنهيلد تبصر سيجفريد فتحس أنه هو لا جنثر الذى يليق أن يكون زوجها . ويقبل جنثر عليها ليلة زفافها فترده عنها خائباً ، وتربطه فى عقدة وتعلقه على الجدار . وينطلق جنثر من العقدة ويستنجد بسجفريد ؛ وفى الليلة الثانية يتخفى البطل فى زى جنثر وينام بجوار برنهيلد ، بينا يكون جنثر نفسه مختبئاً فى

حجرة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلقى برنهيلد بسيجفريد بعيداً عن الفراش وتشتبك معه فى معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سنن متبعة . ويقول فى نفسه أثناء المعركة : « وا حسرتاه ! إننى إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتقرن أزواجهن » . وتهزم برنهيلد آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسحب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملا معه منطقتها وقرطها ، ويحل جنثر محله بجوار الملكة الخائرة القوى . ويهدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريمهيلد ، ويأتى بها إلى أبيها ، فيتوجه ملكا على الأراضى الوطيئة . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة فى سنيبلنجن فيلبس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمهيلد بعد فترة من ذلك الوقت برنهيلد فى مدينة ورمز . وتبصر برنهيلد أثواب كريمهيلد الغالية فتدب الغيرة فى قلبها ، وتذكرها بأن سيجفريد من أتباع جنثر . وترد عليها كريمهيلد بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لتثبت لها أن سيجفريد لا جنثر هو الذى غلبها على أمرها . وكان لجنثر أخ نكد غير شقيق يدعى هاجن Hagen ملأ صدره حقداً على سيجفريد ؛ فأرسلا إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحنى سيجفريد فوق مجرى ماء ليروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيلد بطلها يلقى منيته « فيغمى عليها وتفقد وعيها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة » . وترث كنز نيبلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغرى جنثر باغتصابه منها ، ويدفن جنثر وإخوته هذا الكنز فى نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن مخبئه .

وتظل كريمهيلد ثلاثة عشر عاماً تفكر فى الثأر لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لا تجد الفرصة التى تمكنها من هذا الثأر ، ثم تقبل ما عرضه عليها إتزل Etzel (أتلا Atilla) ملك الهون من زواجه بها ؛ وتنتقل إلى ڤينا Vienna لتعيش فيها وتكون زوجة له . « وكان إتزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحيين وكفاراً على السواء . . . وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه فى هذه الأيام — يرى المسيحيين والكفرة جنباً إلى جنب. وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جميعاً أيا كانت عقائدهم ، فلم يكن ثمة أحد لا ينال رفده » . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد « حكما صالحا » مدى ثلاثة عشر عاما بدا فيها أنها لم تعد تفكر فى الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إتزل أن يدعو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبى هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتون معهم بحاشية من الفلاحين والفرسان المسلحين . وبينا كان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون فى بهو إتزل ، إذ يقتل الفلاحون الذين فى خارج البهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبأ ، فيستل سيفه ، وتدور معركة رهيبة فى البهو بين البرغنديين والهون (ولعل القصة ذكرى حربهم الحقيقية التى دارت فى عام ٤٣٧م) . ويطيح هاجن بضربته الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإتزل البالغ من العمر خمس سنين ويلقى برأسه فى حجر كريمهيلد وجنثر . ولما كاد البرغنديون جميعا يهلكون يطلب جرنوت Gernot أخو كريمهيلد وجنثر إلى إتزل أن يسمح للباقين من الزوار بالخروج من البهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم فى إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة ؛ ويتوسل إليها جزلهر Gisslher أخوها الأصغر الذى كان غلاما بريئا فى الخامسة من عمره لما قتل سيجفريد ويناديها : « أختى يا أجمل النساء ، بأى ذنب أستحق الموت بأيدى الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيا لك ، لم تمسسك يداى بأذى ؛ ولكنى جئت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأنى وثقت بحبك ، فهلا رحمتنى » . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقون إذا أسلموا هاجن ، فيرد عليها جرنوت بقوله : « ذلك ما يأباه الله فى علو سمائه ، خير لنا أن نهلك عن آخرنا من أن نفتدى أنفسنا بواحد منا » . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء ، وتغلق الأبواب على من

فيه من البرغنديين ، وتأمر بإحراقه . ويجن البرغنديون من فرط الحرارة والظمأ فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطفئوا ظمأهم بشرب دماء القتلى ، فيصدعوا بما يؤمرون ، ويخرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهبة المتساقطة ، وتستمر المعركة دائرة فى الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديتريخ Dietrich القوطى هاجن ، وينتصر عليه ، ويأتى به إلى كريمهيلد مكبلا بالأغلال . وتسأله هاجن أين أخفى كنز نيبلنج ، فيجيبها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السر ما دام جنثر حياً ، ويقتل جنثر ، وكان لايزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها بقوله : « إن مكان الكنز لا يعرفه الآن إلا الله وحده وأنا ، ولن تعرفى هذا السر أيتها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشمئز نفس هالدبراند Hildébrand القوطى مما سفكته كريمهيلد من الدماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فيما هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة مما يحيط بها من ولائم ، ومثاقفة ، وصيد ، وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع الذى تدور حوادثها حوله — فتاة رقيقة يبدلها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحة . ومن عجب أنه قلما يبقى فى القصة بعد هذا شىء يقربها من الدين المسيحى ، فهى فى الواقع مأساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآسى اليونانية إذ تأبى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطغى هذه الجرائم على جميع فضائل الإقطاع فلا يكاد يظهر منها شىء حتى إكرام رب الدار أضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلا وحشية أيامنا نحن .

الفصل الخامس

شعراء الفروسية الغزلون(*)

فى أواخر القرن الثالث عشر ، أى فى الوقت الذى كنا نتوقع فيه أن يكون الأدب الأوربى مصطبغاً بالحماسة الدينية التى بعثها فى الناس الحروب الصليبية ، فى أواخر هذا القرن بالذات نشأت فى جنوبى فرنسا مدرسة من الشعر الغنائى أرستقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، عليها الطابع العربى ، تنبئ بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التى فرضتها نظرية سقوط آدم . وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مع إليانور الأكتانية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشرد الأول ، وأوجد المتصببين بالشعر من الألمان ، وصاغ النغمات العذبة الهادئة التى مهدت السبيل إلى دانتى .

ويتلألأ فى بداية هذا الطراز من الشعر وليم التاسع كونت پواتو ، ودوق أكتين ، وجد إليانور نفسها . وألفى هذا الخليع المستهتر نفسه فى الحادية عشرة من عمره (١٠٨٧) حاكما لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلا بحكمها ؛ واشترك فى الحرب الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء فى أرضه التى طغى عليها الإلحاد ، فكان قليل الإجلال للكنيسة يسخر من قساوستها . وقد وُصف فى ترجمة پروڤنسالية له بأنه « من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية للنساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير التورط فى مغامرات الحب ، يجيد الغناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلا يجول فى البلدان ويغوى النساء »[٢٣] ؛ وقد اختطف وهو متزوج كونتة شاتل رول Châtellerault الحسناء ، وعاش معها علناً دون حياء ؛ ولما أمره أنجوليم Angoulême الأصلع

(*) Troubadour انظر اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . (المترجم)

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : « سأنبذ الكونتة فى الساعة التى يحتاج فيها شَعرك إلى مشط » ؛ والتقى يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطرده من الكنيسة وقال له : « اغفر لى وإلا قتلتك » فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : « اضرب » ، وأجابه وليم : « لست أحبك بالقدر الذى يكفى لأن أبعث بك إلى الجنة »[٢٤] . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلى يكتب إلى النبيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليئة بالمرح ، فقد مات فى السادسة والخمسين من عمره (١١٣٧) ، وأورث إليانور ضياعه الواسعة وذوقه الشعرى والغرامى .

وجمعت إليانور الشعراء حولها فى طواوز ، وسرهم أن يتغنوا لها ولحاشيتها بجمال النساء وما تبعثه مفاتنهن من نشوة . وشرع برنار ده ڤنتادور Bernard de Ventadour ، وكان شعره فى نظر پترارك لا ينقص إلا قليلا عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجمال ڤيكونتة ڤنتادور ؛ وحملت الڤيكونتة مديحه محمل الجد فاضطر زوجها أن يحبسها فى برج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجمال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ ولما أن فضلت حب ملكين أفرغ ما فى قلبه من هيام فى لحن حزين ذائع الصيت . وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلى برتران ده بورن Bertrand de Born صديق رتشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه فى حب السيدة مينز المرتنياكية Dame Maens of Martignac ؛ وصحب شاعر غزلى آخر يدعى پير ڤيدال Peire Vidal (١١٦٧ ؟ — ١٢١٥) رتشرد الأول فى الحرب الصليبية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد مجيئه فقيراً يقرض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضيعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز[٢٥] . ولدينا أسماء ٤٤٦ شاعراً آخر من الشعراء الغزلين ، ولكن حسبنا هؤلاء الأربعة دليلا على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من الخلال .

كان بعض أفرادها موسيقيين أفاقين ، وكانت كثرتهم من صغار النبلاء المولعين بالغناء ، وكان أربعة منهم ملوكا — رتشرد الأول ، وفردريك الثانى ،

وألفنسو الثانى ، وبدرو الثالث ملك أرغونة . وظل هؤلاء الشعراء قرناً من الزمان (١١٥٠ — ١٢٥٠) يسيطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية التى كانت تنتقل فى ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية التى كادت تكفِّر بالمجاملات عن آثام الحرب ، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغزلين هى لانج دك Lsngne Dioc أو لغة الرومان Roman التى كانوا يتكلمون بها فى جنوبى فرنسا وشمالى أسبانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبدور Troubodour مشتقة من الكلمة الرومانية تروبار Trobar ومعناها *يجد أو يخترع* ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore (تروفتورى) مشتقة من تروفارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء[٢٦] . وكانوا يسمون فنهم « الحكمة المرحة » gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الجدية التى تتطلب وقتاً طويلا من المران على الشعر ، والموسيقى ، وآداب الحديث التى تليق بالفرسان أولى النبل والشهامة . وكانو يتزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت حواشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدروع الفرسان ، ويتسابقون فى ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام فى سبيل السيدات اللاتى يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم ؛ ولم يكونوا يكتبون لغير طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلحِّنون بأنفسهم شعرهم الغنائى ويستأجرون المغنين ليغنوه فى المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على القيثار وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التى كانوا يعبرون عنها لم تكن إلا صورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن مسكنهم مع حبيباتهم فى السماء تعبير عن إشباع رغبتهم ، وأن يأس التروبدور الحزن إنهو إلا رخصة شعرية وأداة للتعبير .

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشببون بنسائهم لم يكونوا يرون فى هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور وإذ كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث فى القصص الفرنسى : وأما ما وجد من الحب فى أدب العصور فكان كله من فرنسسكا Francesca وبيتريس Beatrice فى الجنوب إلى إيسلد Isolde وجنيفير Guinevere فى الشمال ، حباً حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة : وكان عجز المحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذى أوجد طائفة التروبدور ؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللائى اختاروهن موضوعاً لأغانيهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خرقاً للمألوف من القواعد فى الشعر ، فقد جرت العادة أن يطفئ الشاعر حرقته بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها : وكان هذا التمنع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر الت وبدور — ولعله تأثر فى هذا الانتقال بعبادة مريم — من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلما كانوا رجالا أتقياء صالحين ، وكان عدم تعففهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد فى هجو كبار رجال الدين ، وفى السخرية من الجحيم(٢٧) ، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التى انتصر فيها فردريك العاصى حيث أخفق لويس الصالح . ولم يرض جولم أديمار Guillem Adémar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبب بها . وكان

ريمون جوردن Ra mon Jorden يفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جنة سماوية يعدونه بها(٢٨) .

وكانت الصور الإنشائية فى نظر شعراء الفروسية الغزلين أجل شأناً من الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالكانزو Canzo أغنية الغرام ، و البلانتى plante مرثية لصديق أو حبيب مات ، و التنسون Tenson حوار مقفى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ، والسرفنتى sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسى ، والسِتِينة sixtene قصيدة تتألف من ست مقطوعات معقدة القافية ، فى كل واحدة منها ستة أبيات ، اخترعها أرنو دانيل Arnaud Daniel وأعجب بها دانتى ، و الرعوية pastourelle حوار بين شاعر فروسية غزلى وراعية ، والفجرية aubade أو alba أغنية الفجر ، وهى فى العادة تنذر العاشقين بأن النهار سوف يفضح أمرهم ، والسيرينا أو السرنيد serena أو serenade أغنية المساء ، و البلادا balada قصة شعرية . وها هى ذى فجرية لشاعر غير معروف تنطق ببعض أبياتها فتاة من فتيات القرن الثانى عشر تذكرنا بجوليت Juliet :

فى حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،
كانت سيدتى يضطجع حبيبها بجوارها
حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر – ويلاه الفجر الذى يحزن المحبين !
رباه ، يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ،
وألا يبتعد عنى حبيبى ،

وألا ينادى الرقيب « الفجر » — الفجر الذى يقضى على السلام !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

« صديقتى الجميلة الحلوة ، أنيليني شفتيك — شفتينا مرة أخرى !
ها هى ذى الطيور فى المراعى تشدو
فليكن نصيبنا الحب ، ونصيب الحسود الألم !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

من تلك الريح الحلوة التى تقبل من بعيد
شربت حتى ارتويت من أنفاس الحبيب ،
نعم ، من أنفاس حبيبى المرح العزيز !
رباه ! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً

* * *

ألا ما أجمل فتاتى وما أظرفها ،
وما أكثر من يرقبون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها
ولا يطوف بقلبها طائف القدر !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً ![٢٩] .

وقضى على حركة شعراء الفروسية الغزلين فى فرنسا منتصف القرن الثالث عشر ، وكان من أسباب القضاء عليها ما فى صياغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخذا يتزايدان على مر الأيام ، وما حل بجنوبى فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجلسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى إليها شعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفسها حصاراً مزدوجاً انهار نظام الفروسية هذا فى أكتنن . وفر بعض المغنين إلى أسبانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيهما بعث فن أغانى الحب بعثاً جديداً فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يكن بترارك ودانتى إلا وريثين للتروبدور . وكان ما خلفوه من تقاليد الشهامة والمرح عوناً على صياغة دستور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبى أوربا الهمج إلى رجال مهذبين ، ولقد ظلت الآداب من ذلك الحين تحس بأثر أغانيهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه فى هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديحهم .

الفصل السادس

المتصببون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلين من فرنسا إلى جنوبى ألمانيا حيث ازدهرت فى عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبى وكان الشعراء الألمان يسمون **المنيسانجر** Mennisänger أى المتصببين بالشعر ، ووجد شعرهم فى الوقت الذى وجدت فيه فى دستور الفروسية المعاصر **خدمة المحبوب** Minnedienst **وخدمة السيدات** Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلثمائة من هؤلاء المتصببين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشراف الدنيا ، وبعضهم من الفقراء ، يرعاهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون منهم أميين وإن التزموا قواعد صارمة فى الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعر يسمى فى ألمانيا إلى يومنا هذا **دختونج** Dichfung أى الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروى لنا الرواة مباراة غنائية Sängerkrieg عظيمة عقدت فى قصر وارتبيرج Wartburg عام ١٢٠٧ ؛ ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام فن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فيها[٣٠](*). وظل المتصببون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة فى ألمانيا ، وأضحت نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفتها تلك البلاد فيما بعد حتى عصر شلر Schiller وجيته .

(*) لقد خلطت القصص بين تان هوزر ، وهو من المتصببين المتأخرين ، وبين الفارس تان هوزر الذى فر من فينسبرج Venusberg إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً فى إحد المسرحيات الغنائية .

ويُضَمّ ولفرام وولتر ڤن در ڤوچلويد Walther von der Vogelweide إلى طائفة المتصبين لأنهما كتبا أغانى فى الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival فى سلك كتاب الروايات الغرامية . وكان مولد ولتر « ابن مرج الطيور » فى مكان ما فى التيرول Tirol قبل عام ١١٧٠ . وكان من طبقة الفرسان ولكنه من فقرائهم ، وزاد أحواله سوءاً على سوء بأن اتخذ الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو فى سن العشرين يكسب قوته بالغناء فى بيوت الأشراف من أهل ڤينا . وكان وهو فى سن الشباب هذه يكتب فى الحب كتابة شهوانية طليقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال الألمان حتى الآن يعتزون بقصيدته *تحت شجرة التيليا* Unter den Linden :

تحت شجرة التيليا وعلى الخلنج

كان لنا نحن الاثنين فراش ،

وهنا كنت تبصرنا وقد التفت حولنا

الأزهار المتقطعة والكلأ الهشيم ؛

ومن أجمة فى الوادى — تندرادى —

يشدو البلبل بألحانه العذبة .

* * *

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ،

ووصل حبيبى إلى المكان قبلى ،

وهناك وقعت فى شرك الحبيب — وكنت أسعد الفتيات ،

وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .

وهناك قبلنى مراراً — تندرادى .

انظروا إلى شفتى ما أشد حمرتها !

* * *

وهنا أسرع وهو مغتبط

فأقام لنا عريشاً من الأزهار ،

ولا يزال هذا دعاية زائلة ،

لأن الذين يمرون بهذا الطريق ويرون المكان الذى

وضعت فيها رأسى بين الورود — تندرادى !

* * *

ولو أن إنساناً (لا قدر الله !) كان بالقرب منا

بالحالنى العار ، فقد رقدنا هناك سوياً :

ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب

والعندليب الصغير — تندرادى ! —

وأنا أعرف أنه لن ينم علينا[٣٢]

ونضج تفكيره لما كبر ، وبدأ يرى فى المرأة مفاتن ومحاسن أجمل من بشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين النساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله فى بيتهما وجميع أيامهما »[٣٣] . وأخذ يندد بتملق زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحق ، وإن « النساء الألمانيات يضارعن الملائكة فى الجمال ، وإن من يذمهن كذاب أشر »[٣٤] .

ومات الإمبراطور هنرى السادس فى عام ١١٩٧ وعمت الفوضى بلاد ألمانيا مدى جيل كامل ولم تنقطع إلا بعد أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد . ولم يعد

الأشراف يناصرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر يتنقل من بلاط إلى بلاط يغني غناء البائس الشقي طلباً للقوت ، ينافسه فيه المشعوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلا على ما كان يعانيه في ذلك الوقت هذه العبارة المنقولة من حساب نفقات ولفجر Wolfger أسقف باسو **Passau** « خمسة صلدات صرفت في ١٢ نوفمبر عام ١٢٠٣ إلى والتر فن درفوچلويد ليشتري بها سترة من الفراء يتقي بها برد الشتاء »[٣٥] . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليني متحمس ، هجا في شعره البابوات ، وندد بعيوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب لتملأ بها خزائن كنيسة القديس بطرس[٣٦] . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظيما سماه « نشيد الصليبيين » ، ولكنه كان يستطيع في بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة
ونحن جميعاً أكفاء من الخارج والداخل ؛
وأفواهنا تطعم كلها بطعام واحد ،
وإذا ما سقطت عظامهم وأصبحت كومة مختلطة
فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء بنظرة إليهم
أيهم الدنيء الآن وأيهم الشريف
بعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟
إن المسيحيين واليهود والكفار كلهم يتعبدون
والله يبسط رعايته على جميع الخلق[٣٧] .

وظل ولتر ربع قرن في تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثاني ضيعة ودخلا ثابتاً (١٢٢١) ، فاستطاع أن يقضي السبع السنين الباقية من حياته

هادئاً مطمئناً . وقد أحزنه أن شيخوخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك فى الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يحب أعداءه[٣٨] . وقد أوصى فى قصيدة له بمن يرث مخلفاته « فللحساد سوء حظى ، وللكاذبين أحزانى وللمحبين الغادرين حماقاتى ، وللسيدات آلام قلبى »[٣٩] . ودفن فى كتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم بالقرب منها نصب تذكارى يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المتصببين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالاة ؛ وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثانى . ويصف لنا الريخ فن لختنشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٦) فى سيرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف « خدمة السيدات » . فاختار سيدة لتكون له معبودة ، وخيطت شفته الشرماء ليقلل نفورها منه ، وحارب من أجلها فى ألعاب البرجاس . ولما قيل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت تظن أنه فقدها فى الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إليها دليلا على الولاء والخضوع . وكاد يغمى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذى غسلت فيه يديها[٤٠] . ولما تلقى منها رسالة ظل يحملها فى جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقرؤها له سراً ، لأن ألريخ كان يجهل القراءة[٤١] . ولما وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومين كاملين فى ثياب المتسولين بين المجذومين الواقفين ببابها ؛ ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها فى ملاءة سرير . وكان له فى ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المتصببين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هنريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذى أحرز بأغانيه فى تكريم

النساء لقب « صداح النساء » . ولما مات فى ميتز عام ١٣١٧ حملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى ووری التراب فى كتدرائية المدينة ، وسكبن فوق تابوته خمراً بلغ من كثرتها أن جرت فى طول الكنيسة كلها[٤٢] . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدى الفرسان إلى أيدى الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الغرامية ، وحل محلها فى القرن الرابع عشر مرح جماعة المغنين فى المدن وفنهم العارمان يرفعان إلى ربات الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

الفصل السابع

الروايات الغرامية

أما فى الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هى المسيطرة على الميدان ؛ ذلك أن شعراء شمالى فرنسا أبناء الطبقة الدنيا ــ المعروفين عند الفرنسيين باسم **التروفير** Trouvères أى المخترعين ــ كانوا يحيون ليالى الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون ــ التروبدور والتروفتورى يكتبون الأغانى الشعرية الرقيقة لنساء جنوبى فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات **المخترعين** تتخذ صور القصص الشعرية ، ballade والأغانى الشعرية lai ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de geste ، والقصص الغرامية . وقد وصلت إلينا نماذج جميلة من الأغانى الشعرية من قول كاتبة تدعى إنجلترا وفرنسا كلتاهما أنها أول شاعراتها العظيمات . فقد انتقلت Marie de Franca (مارية الفرنسية) من بريطانى لتعيش فى إنجلترا فى أيام هنرى الثانى (١١٥٤ ــ ١١٨٩) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص البريطانيين شعراً ، ففعلت وخلعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة ما لم يفقها فيهما أى شاعر من شعراء الفروسية الغزلين . وخليق بإحدى قصائدها العاطفية أن تحتل مكاناً فى صفحات هذا الكتاب ، هى جديرة به ، لموضوعها غير العادى ــ حديث المحبوبة الحية إلى حبيبها الميت :

هل أحبَّكَ هناك إنسان طوال الصيفُ والشتاء ؟

وهل وجدتَ هناك جمالا وضع فى القبر معك !

وهل قبلة الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلتى لك ؟

أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتنى كل النسيان ؟
أى نوم رقيق همت به فلفك لفاً رقيقاً ؟
وأى موت ساحر أغواك بقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالليل والنهار ؟
إنك ترقد فى بقعة صغيرة تحت الكلأ بعيدة عن الشمس والظلال
ولكنها لشدة حزنى بعيدة عنى بعد السماء ...
ستظل ترقد فى ذلك المكان كما ترقد الآن
وإن كان فى العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى
ويحب حبيبتك كما كنت تحبها .
أليس مقامك حلواً تحت النخيل ؟
أليس اليوم الدفىء الهادئ الطويل الجميل الذى لا يعرف كنهه
خيراً من الحب ومن الحياة ؟
ألا ما أشبه أوراق الشجر العطرة العريضة العجيبة
بالأيدى تنسج برد الليل إلى نهايته ،
تنسج النوم الذى لا يستطيع الطير البراق مقاومته ،
أما أنت فالموت ينسج لك النوم
ويسلبك فى الصباح وفى الظهيرة
كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .
ويقينى أنك وأنت فى هذا المكان
قد وجدت الموت إغماء لذيذاً .
لا تستنمسك من هذه الساعة بكلمة قلتها أو غنيتها
فما من شك فى أنك قد سمعت من زمن بعيد أغانى كثيرة أعذب منها ،
لأن التربة الخصيبة قد وصلت بلا ريب إلى قلبك ، وحولت إيمانك أزهاراً ،
واختلست الريح الدفئة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .
ووجدت كثير من البذور الطرية تربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ،
ولا ريب فى أنك قد استمعت إلى كثير
من العواطف القوية الجائشة
التى جعلت ذلك الموضع أجمل مما كان
وجعلت جزءاً من عواطفك لا يحنو علىَّ هناك[٤٣] .

وربما نشأت **أغانى الأفعال** من قصص الحوادث أو الأغانى . فكان الشاعر ينسج حول حادث تاريخى ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين ، قصة من المغامرات الخيالية يرويها فى أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثنى عشر مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تتسع له إلا ليالى الشتاء فى الشمال . ولقد كانت أغنية رولان مثلا متقدماً لهذه الأغانى . وكان البطل المحبب لأغانى الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون من عظمته التاريخية فرفعوه فى شعرهم إلى درجة من العظمة لا يكاد يسمو إليها آدمى ، فبدلوا هزيمته فى أسپانيا فتحاً مبيناً ، وسيروه فى حملات مظفرة إلى القسطنطينية ، وبيت المقدس ، ومن حول لحيته البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغانى الفرنسية مرآة ينعكس عليها عصر الإقطاع فى موضوعاته ، وأخلاق أهله ، وأمزجتهم . وكما كان بيولف والنيبلنجليد يرددان أصداء « عصر الأبطال » فى زمن الهجرات ، كانت هذه الأغانى الفرنسية — أيا كان موضوعها ، أو مكانها أو زمانها — تتحرك فى جو إقطاعى إلى أهداف إقطاعية فى أثواب إقطاعية . وكان موضوعها الذى لا تنفك تردده هو الحرب ، بين سادة الإقطاع ، أو بين الدول ، أو الأديان ، ولم تكن المرأة والحب يجدان بين قعقعة السيوف إلا أصغر مكان .

ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعى ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها فى هذه الأغانى للحب ، فأضحى هو موضوع الشعراء الرئيسى ، فلما كان القرن الثانى عشر حلت القصص الغرامية محل أغانى الأفعال ، وجلست على عرش الأدب ، وظلت تجلس عليه قروناً عدة . وكان اللفظ الفرنسى roman المقابل للرواية الغرامية يعنى فى أول الأمر أى مؤلّف مكتوب باللغة الفرنسية التى كانت تسمى هى الأخرى رومان Roman دليلا على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن القصص الغرامية Romances تسمى فى اللغة الفرنسية بهذا الاسم لأنها قصص وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضحت توصف بأنها رومانسية romantic (وجدانية) لأنها كثيراً ما كتبت بهذه اللغةالرومانية roman الفرنسية . فكانت **رواية الوردة** Roman de la rose أو **طروادة** le Troie أو **الثعلب** de Renard لا تعنى أكثر من قصة عن وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أى الفرنسية الأولى ؛ وإذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد فى عرف الأدباء إلا من أبوين شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى **أغانى الأفعال** ممتزجة مع ما كان فى قصائد شعراء الفروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل بعض مادة هذه القصص قد أخذ من الروايات اليونانية مثل **إثيوبكا** Ethiopica لهليودورس Heliodorus . وكان لكتاب واحد يونانى ترجم إلى اللغة اللاتينية فى القرن الرابع أثر عميق فى هذه الناحية ، ونعنى به سيرة الإسكندر الخيالية التى تعزى زورا إلى كلستنيز Callisthenes مؤرخه الرسمى . ذلك أن القصص التى تروى عن الإسكندر أضحت المعين المحبب الذى لا ينضب للفيض المتتابع من «سلاسل» الروايات التى انتشرت خلال العصور الوسطى فى أوربا وفى بلاد الشرق الناطقة باللغة اليونانية . وكانت أجمل صورة لهذه القصة فى بلاد الغرب **رواية الإسكندر**

Roman d' Alixandre من تأليف الشاعرين الغزليين لامبير لى تور Lambert li Tors وإسكندر البرناي Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع هذه الرواية فى عشرين ألفاً من الأبيات الأثنى عشرية المقاطع ، أى من البحر المعروف بالبحر « الإسكندرى » .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق منها عاطفة سلسلة الروايات الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التى أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو ڤرچيل لاهومر . وكانت القصة التى كتبها ديدو Dido رواية غرامية حقة وإن جاءت فى هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن الطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين بها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا إيطاليا ؟ ثم قام حوالى عام ١١٨٤ شاعر فرنسي غزلى يسمى بنوا ده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ترجمت إلى أكثر من عشر لغات ، ودخلت فى آداب أكثر من عشر أمم . وفى ألمانيا كتب ولفرام ڤن إسشنباخ Wolfram von Eschenbach قصة حصار طروادة التى لا تقل فى حجمها عن الإلياذة نفسها ، وفى إيطاليا أخذ بوكاشيو Boccaccio من بنوا Benoît قصة فيلوستراتو Filostrato ؛ وفى إنجلترا كتب ليامون Layamon قصة بروت Brut (حوالى عام ١٢٠٥) فى ٣٢٫٠٠٠ بيت وصف بها تأسيس لندن على يد بروتس ابن حفيد إينياس Aeneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس وكرسدى Troilus and Criseyde لتشوسر ومسرحية شيكسپير .

وكانت السلسلة الثالثة العظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هى روايات آرثر Arthur . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن آرثر هذا نبيل مسيحى إنجليزى ، حارب الغزاة السكسون فى القرن السادس . ولسنا ندرى من هو الذى خلق منه هو وفرسانه تلك القصص البديعة المطربة التى لم يتذوق جمالها

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذى ابتدع جاوين Gawaine وجـــلاهاد Galahad وپرسڤال Perceval ، ومرلين Merlin وچنڤير Guenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة الكأس المقدسة Holy Grail(*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على الحقيقة المؤكدة(**) . ونجد أقدم إشارة لآرثر فى كتب المؤرخين الإخباريين الإنجليز ، وتظهر بعض عناصر قصته فى أخبار ننيوس Nenius (٩٧٦) ، ووُسِّع نطاق هذه القصة فى التاريخ البريطانى Historia Britonum لجوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة جوفرى شعراً فرنسياً ربرت ويس Robert Wace وهو شاعرغزلى من جرسى Jersey فى رواية بروتس الإنجليزى Le Brut d'A ngletterre (١١٥٥) ؛ وفيها نجد للمرة الأولى قصة المائدة المستديرة . والراجح أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة هى بعض قصص ويلز التى جمعت الآن فى مابنوجيون Mabinogion ؛ وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمائها وتطورها مخطوطات فرنسية . والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقدسة فى ويلز والجنوب الغربى من بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منثورة للقصة هى التى نجدها فى مخطوط إنجليزى يعزى إلى ولتر ماپ Walter Map أحـــد كبار شمامسة أكسفورد (١١٣٧ — ١١٩٦) وإن كان هذا مشكوكاً فى صحته . وأقدم صياغة شعرية لهذه السلسلة هى التى نجدها فى روايات Romans كريتيان ده تروى Chretien de Troyes (حوالى ١١٤٠ — ١١٩١) .

(*) الكأس التى استعملها المسيح فى العشاء الأخير . (المترجم)

(**) يريد فى أغلب الظن ما كان يظنه الناس حقيقة مؤكدة . (المترجم)

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلا لا يكاد يزيد على ما نعرفه عن حياة آرثر . نعرف عنه أنه ألف فى بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى **ترستان** Tristan . ووصلت هذه القصة إلى يدى الكونتة مارى ده شمپانى Marie de Champagne ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت فى قلبها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الخليق بأن يصوغ « الحب الرقيق » ، وأنبل المثل العليا للفروسية فى صورة **الرواية الغرامية** . واستدعته مارى لأن يكون شاعرها الغزلى — إذا صح هذا التعبير — فى بلاطها بتروى Troyes . وكتب وهو فى رعايتها (١١٦٠ — ١١٧٢) أربع روايات غرامية فى شعر مقفى (الشعر الدوبيت العربى) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفى كل بيت ثمانية مقاطع . وهذه الروايات هى **إرك وانيد** Eric et Enide **وكليجيه** Cligès ، **وأيفين** Yvaine **وفارس العربة** Le Chevalier de la Charette — ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرق من هـذا لقصة « الفارس الكامل » لانسلت Lancelot . وبدأ فى عام ١١٧٥ أثناء إقامته فى بلاد فليب كونت فلاندرز رواية كونت دل جرال Conte del Graal أو پرسڤال له جالوا Perceval le Gallois ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غيره فى ٦٠٫٠٠٠ بيت . ويظهر جو هذه فى القصص بداية **إرك** :

عقد الملك آرثر فى يوم عيد الفصح مجلساً للبلاط فى كاردجان Cardigan ، ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجتماع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجتماع كثيرون من صفوة الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما اجتمع منها كثيرات من النساء والفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجمال . وقبل أن ينفض الاجتماع فى ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أنه يرغب فى أن يخرج فى اليوم الثانى لصيد الوعل الأبيض ؛ وكان ذلك استمساكاً منه بالعادة القديمة . فلما سمع لورد جاوين هذا غضب أشد الغضب وقال : « مولاى !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن بعيد ما هى هذه العادة عادة الوعل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوعل الأبيض يجب أن يقبل أجمل فتاة فى حاشيتك . . . ولكن هذا قد يؤدى إلى شر مستطير ، لأن فى هذا المكان خمسمائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة منهن إلا لها فارس جرىء مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التى هو متيم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمهن رقة » . فأجابه الملك بقوله : « إنى أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمى به لا يحول بينى وبين تنفيذ ما اعتزمته . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم بهجة ومرح »[٤٤] .

وفى بداية الرواية أيضاً نجد المبالغات القصصية الممتعة . « لقد عمدت الطبيعة فى تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حذق ، ودهشت الطبيعة خمسمائة مرة من نجاحها فى إبداع هذا المخلوق الكامل » . ويقال فى قصة لانسلت إن « المحب الكامل مطيع على الدوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم (فى سبيلها) محبب إليه ، لأن الحب الذى يهديه ويقوده فى سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه »[٤٥] . غير أن الكونتة مارى كان لها فى الحب رأى فيه شىء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عذراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطيبة ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلل بالعار فى كل بلاط ، أما إذا انتزعها منه وهى تحت حراسته بحد السلاح فارس آخر اشتبك معه فى معركة ، فإن من حق هذا الفارس الثانى أن يفعل بها ما يريد دون أن يجلله عار أو يستحق من أجله لوماً[٤٦] .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكثرته فى عصر السرعة الحديث . لكنه يمتاز بأن فيه أكمل تعبير باق حتى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك فى الصورة التى رسمها الكاتب لحاشية

تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان فى روايته الأخيرة أنه خليق باسمه(*) ، ورفع سلسلة الروايات التى تدور حول الملك آرثر إلى الذروة العليا بأن أضاف إليها قصة الكأس المقدسة(**) فقد جاء فى القصة أن يوسف الأريماثيائى Joseph of Arimathea تلقى بعض دم المسيح المصلوب فى وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله بهذا الوعاء والدم الخالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سجين فى قصر خفى عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسؤاله عن سبب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقلبه . وتقول قصة كريتيان إن پرسڤال الغالى أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجليزية للقصة فتقول إن الذى أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلوت الملوث . وتتفق القصتان فى أن الذى عثر عليها صعد بها إلى السماء . وفى ألمانيا بدل ولفرام ڤن اسشنباخ پرسڤال فجعله پارڤيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر صورة كانت عليها فى العصور الوسطى .

وولفرام هذا فارس باڤارى (حوالى ١١٦٥ — حوالى ١٢٢٠) كان يكسب قوته بشعره ، ثم وجد له نصيراً فى هرمان Hermann أمير ثورنجيا Thuringia ، وأقام فى قصر وارتبرج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة فى القرن الثالث عشر . وما من شك فى أنه كان يمليها إملاء لأن الرواة يؤكدون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيڤال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروڤنسالى يدعى كيو Kiot . ولسنا نعرف شاعراً يسمى بهذا الاسم ، كما أننا لا نعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمنى كريتيان (١١٧٥)

(*) أى بأنه مسيحى صميم . (المترجم)

(**) Holy Grail ويقال إن لفظ Grail مأخوذ من لفظ Gratalis المشتق من اللفظ اللاتينى crater ومعناه الكأس .

وولفرام (١٢٠٥). ويبدو أن أحد عشر «كتاباً» من «كتب» قصيدة ولفرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة **كونت دل جرال** Conte del Graal لكريتيان، ولم يكن المسيحيون الصالحون والفرسان الأمجاد من رجال العصور الوسطى يرون أن من واجبهم أن يعترفوا بما عليهم من ديون أدبية، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الغرامية ملك مشاع، من حق كل من يشاء أن يستعيرها إذا كان فى وسعه أن يرقى بها، ولقد فاق ولفرام فى هذه الناحية أستاذه كريتيان.

وپارزيڤال فى قصة ولفرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة هرزليد Herzeleide (الحزينة القلب) حفيدة تيتورل Titurel — أول حراس الكأس — وأخت أمفورتاس Amfortas الملك المريض فى ذلك الوقت. ويبلغها قبل أن تلد پارزيڤال بقليل أن زوجها خر صريعاً فى معركة بين الفرسان أمام الإسكندرية. وتعتزم ألا تعرض پارزيڤال للموت وهو صغير السن، فتربيه فى عزلة فى الريف؛ وتخفى عنه أصله الملكى، وينشأ جاهلا بفنون القتال وحمل السلاح:

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن، لأنهم رأوه عملا مشئوماً،
وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظيم،
ولكن أمه أخفته فى أودية الغابات البرية،
وحال حبها وحزنها بينها وبين التفكير فى مبلغ إساءتها للطفل الملكى.
فلم تعطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلا ما كان يصنعه لنفسه
فى أثناء لعبه من الأعشاب التى تنبت فى طريقه المنعزل.
فقد صنع لنفسه منها قوساً وسهاماً، يقذف بها،
وهو مرح غافل عن التفكير،
الطيور وهى تشدو فوق رأسه على الأشجار المورقة.

فلما أن سقط طير الغاب المغرد ميتاً عند قدميه ،
مال برأسه ذى الشعر الذهبي فى دهشة وحيرة صامتة ،
واندفع فى غضب الطفولة وحيرتها الصامتة يقتلع غدائر شعره الذهبي :
(فأنا أعلم حق العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه
فى جماله)
وطاف بعقله أن الموسيقى التى ظل طول حياته يعزفها بيده
قد ملأت بأنغامها العذبة قلبه نشوة ، فأحزنه هذا التفكير وأمضه(٤٧).

ويبلغ پارزيڤال طور الرجولة وهو قوى الجسم فارغ العقل ، حتى تقع عينه فى يوم من الأيام على فارسين فى الطريق ، فيعجب بدروعهما البراقة ، ويظنهما إلهين لافارسين ، ويعتزم أن يكون له مثل ما لهما من رونق وبهاء . ويعود إلى موطنه ليبحث عن الملك آرثر الذى يجعل الرجال فرساناً ، وتحزن أمه لذهابه حزناً يكاد يقتلها . ويلتقى پارزيڤال فى طريقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ، ويسلبها منطقتها ، وخاتمها ، ويرتكب بعمله هذا إثماً يدنسه سنين طوالا . ثم يلتقى بإيثر Ither ، الفارس الأحمر ، ويرسل معه هذا الفارس رسالة يدعو فيها الملك آرثر للقتال . ويدخل پارزيڤال على الملك ويستأذنه فى أن يجيب هو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى إيثر ، ويقتله — لأن الحظ فى القصص يكون فى جانب المبتدئ — ، ويلبس دروعه ، ويركب طلباً للمغامرات : ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz فى أثناء الليل أن يستضيفه ، ويعجب به البارون الشيخ ، فيعلمه أساليب القتال الإقطاعية ويسدى إليه نصيحة الفرسان :

اشفق على المحتاجين ، وكن رحيما ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم المحتاج يستحيي أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . . ولكن كن حازماً لاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط . . . لا تكثر من السؤال ، ولاترفض الإجابة عن سؤال خليق أن تسأله . لاحظ واستمع . . . أعف عمن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تخلق بأخلاق الرجولة

وكن مرحاً . . . احترم النساء وأحبهن ، فذلك مما يزيد فى شرف الشاب — كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من الثناء شخص يخون الحب الشريف[٤٨] .

ويخرج پارزيڤال مرة أخرى فى طلب المغامرات ، ويفك الحصار عن كندورامور Kondurramur ، ويتزوجها ، ويتحدى زوجها بعد عودته ، ويبارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته ليبحث عن أمه . وتشاء الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقدسة » فيستضيفه حراسه الفرسان ، وتقع عينه على الكأس (والكأس فى هذه القصة حجر ثمين) ، ويذكر نصيحة جورنمانز الطيب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ، ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو فى صباح اليوم الثانى فيجد القصر كله خاوياً على عروشه ؛ فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أيد مجهولة الجسور الموصلة إلى القصر كأنها تنهاه عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط آرثر ، ولكن العرافة كندرى Kondury تتهمه فى أثناء هذا الترحيب بالجهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم پارزيڤال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته فى تلك الساعة . فهو يشعر أنه غير جدير بما وجهته إليه كندرى من تقريع ، ويدرك كثرة ما فى العالم من مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنين لا يزور كنيسة ، ولا ينطق بصلاة[٤٩] . وتصيبه فى تلك السنين مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن الكأس ولكنه لا يجدها . ثم يعثر فى يوم من الأيام على خلوة ناسك يدعى تريڤريزنت Treverezent ويتبين أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن علة أمفورتاس التى تفارقه سببها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير مشروع . ويعيد الناسك پارزيڤال إلى الدين المسيحى ، ويتحمل عنه عقاب ذنوبه . وهكذا يهون پارزيڤال على نفسه ، ويتطهر من خطاياه، وجهله وينجيه

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندرى أن پارزيڤال ابن أخى أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختير ليخلف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على الكأس . ثم تقوده إلى القصر الخفى ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشفى الملك الشيخ لساعته . ويجد بارزيڤال زوجته كندوبرامور وتأتى إليه لتكون ملكته . ويرزقان بولد يدعى لوهنجرين **Lohengrin** .

وكأنما أراد جتفرايد السلزبرجى **Gottfrind of Salisburg** أن يمد ڤاجنر **Wagner** بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام ١٢١٠ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حماسياً ، وتندد بالدستور الأخلاقى الإقطاعى والمسيحى على السواء .

ولد ترتستان ، كما ولد پارزيڤان ، لأم صغيرة السن تدعى بلانش فلير **Blanche fleur** (الزهرة البيضاء) ولما يمض إلا وقت قصير على نبأ يأتيها بأن زوجها الأمير قتل فى معركة . ولهذا تسمى الطفل ترستان — أى الحزين — وتموت بعد مولده . ويكفل الولدَ عمُّه مارك **Mark** ملك كورنول **Cornwall** ويجعله من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوى نبغ فى ألعاب البرجاس وقتل مورولد **Morold** خصيمه الأيرلندى ، ولكنه يجرح فى المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه مورولد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت **Isenlt** ملكة أيرلندة . فيتخفى فى زى تانتريس **Tantris** العازف على القيثارة ، ويزور أيرلندة وتشفيه ملكتها . ويعين مربياً لابنة الملكة واسمها أيضاً إيزيولت . ويعود بعدئذ إلى كورنوول ويحدث مارك عن جمال إيزيولت الصغيرة وحسن صفاتها وأدبها ، ويرسله مارك مرة ثانية ليخطب له هذه الفتاة . وتأبى إيزيولت أن تفارق وطنها ، وتتبين أن ترستان هو قاتل عمها مورولد فيمتلىء قلبها حقداً عليه ؛ ولكن أمها تقنعها بالرحيل ، وتعطى وصيفتها برنجين **Brangane** شراباً مسحوراً يبعث الحب

فى القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك لتستثير به حبهما . وتخطئ الوصيفة فتسقيه إيزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ، وتكثر الخيانات ويتفقان على أن يخفيا حبهما ، وتتزوج إيزيولت مارك ، وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغى أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل فى هذه القصة (وليس الأمر كذلك فى قصة مالورى) ؛ فهو يكشف الخديعة ، ويخبر إيزيولت وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم منهما ، ويقنع فى ذلك بنفى ابن أخيه من البلاد . ويلتقى ترستان فى تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع فى حبها ، وإن كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك « قلباً واحداً ، وروحاً واحدة ، وجسماً واحداً ، وحياة واحدة » . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة حطمت فيها جميع المثل العليا للفروسية . أما بقية القصة فمن صنع مالورى وعصر متأخر .

وأخرجت ألمانيا فى هذا الجيل العجيب ، الجيل الأول من القرن الثالث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرام ، وجتفرايد أربعة لا يدانيهم أربعة سواهم فى أى مكان آخر فى أدب العالم المسيحى فى أيامهم . بدأ هارتمان فن أو Hartman von Aue بتقليد كريتيان تقليداً أعرج فى روايتيه الشعريتين إرك Erec و إوين Iwein ولكنه لما التفت إلى أقاصيص بلاده سوابيا Swabia أخرج آية فنية صغرى هى Der arme Heinrich (حوالى عام ١٢٠٥) . وكان « هنرى المسكين » كما كان أيوب رجلا غنياً يصاب وهو فى عنفوان مجده بداء الجذام ولا يستطيع أن يشفيه منه إلا موت عذراء طاهرة من أجله (إذ لا بد أن يقول السحر فى العصور الوسطى كلمته فى القصص) . ولا يتوقع هنرى أن يجد هذه التضحية فيستسلم للحزن واليأس ، ولكن فتاة هذه صفاتها فى الوجود ، تعتزم أن تموت كى يشفى هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذى لم يكن أحد يظن أنهما سيوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل للنصل . ولكن هنريخ تدب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بألا تقتل الفتاة ، ويرفض هذه التضحية ، ويمتنع عن العويل ، ويرتضى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، وتتبدل روحه بفضل هذه النزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجثمانى زوالا سريعاً ، ويتزوج الفتاة التى أنقذته ويعوض هارتمان القصة عما فيها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط السلس الخالى من التكلف ، وقد احتفظت ألمانيا بهذه القصيدة حتى هذا العصر القليل الإيمان .

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسى غير معروف فى وقت ما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها هذان هما أوكسان ونيقولت C'est d'Aucaassin et Nicolette. والقصة نصفها رواية غرامية ، ونصفها سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بين النصوص الشعرية .

وخلاصتها أن أوكسان ابن الكونت بوكير Beaucaire يغرم بنيقولت متبناة ڤيكونت بوكير . ويعارض الكونت فى زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابنه من أحد البيوت الإقطاعية التى تستطيع أن تمده بالعون فى الحرب ، ويأمر تابعه الڤيكونت أن يخفى الفتاة . ويريد أوكسان أن يراها فيشير عليه الڤيكونت أن « يدع نيقولت وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أوكسان رداً يتفق مع نزعة التشكك التى أخذت تظهر فى الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ إنى لا يهمنى قط أن أدخلها ، وكل الذى يهمنى أن أحظى بنيقولت ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون فى السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى الذين لا يبارحهم السعال ليلا أو نهاراً أمام مذابح الكنائس ... أما أنا فلا شأن لى بهؤلاء ، بل إنى أريد أن يكون مأواى الجحيم ، لأن الجحيم مثوى العلماء الظرفاء ، والفرسان الأمجاد الذين يقتلون فى ألعاب

الفروسية أو الحروب العوان ، كما هي مأوى النّابل القوى والرجل الوفى : إنى أريد أن أكون مع هؤلاء . وإليها تذهب السيدات الحسان الظريفات اللاتى لكل منهن أصدقاء — اثنان أو ثلاثة — زيادة على زوجها . وفيها يمر العازفون ، والمغنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هؤلاء إذا كانت نيقولت صديقتى الحلوة الجميلة إلى جانبى .

ويغلق والد نيقولت باب حجرتها عليها ، كما يحبس والد أوكسان ابنه فى سرداب أرضى حيث يتغنى الصبى بدواء عجيب مسحور :

نيقولت — يا زهرة الزنبق البيضاء ،
يا أحلى فتاة وجدت فى عريش ،
يا حلوة كالكرمة
التى تفيض بها الكأس المتبلة حلاوة ؛
حدث لك فى يوم من الأيام ،
أن جاء من ليموزين Limousin
حاج متعب خائف ،
يرقد من شدة الألم على فراشه ،
يتقلب ويخشى الموت حين يتنفس ،
مكتئب أشد الاكتئاب ،
قاب قوسين أو أدنى من الموت .
فدخلت يا ذات الطهر والنقاء .
ومشيت بخفة حتى أبصرك الرجل العليل ،
ورفعت ذيل ثوبك المسبل ،
ورفعت الجلباب الموشى بالفراء ؛

ورفعت الشعار وكشفت له بخفة
عن كل عضو فيك جميل .
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،
فقد قام فى تلك الساعة سليما معافى ،
وغادر فراشه ، وأمسك بيده الصليب ،
واتجه مرة أخرى نحو بلاده العزيزة .
يا زهرة الزئبق البيضاء الحلوة ،
ما أحلى وقع قدميك !
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !
وما أجمل لعبنا معاً !
وما أحلى قبلاتك وما ألين ملمسك !
إن الناس كلهم لا بد مولعون بك(٥١) .

وفى هذه الأثناء تفتل زهرة الزئبق حبلا من أغطية فراشها وتنزل به إلى الحديقة . وتمسك ذيل ثوبها بكلتا يديها . . . وانزلقت بخفة فوق الندى المتراكم على الكلأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها ذهبياً ، جعلت منه غدائر حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باسمتين ، ووجهها جميل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حمرة من الوردة أو الكرزة فى حر الصيف ، وأسنان بيضاء صغيرة ، وثديان ناهدان يبدوان تحت ثيابها كأنهما رمانتان ، وكانت ذات خصر نحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت الأزهار التى تتكسر تحت قدميها تبدو سوداء أمام باطنهما وبشرتها . ألا ما أنصع بياض تلك الفتاة الحسناء(٥٢) .

وتتخذ سمتها إلى نافذة سجن أوكسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة من شعرها وتلقيها إليه ، وتقسم أن حبها لا يقل عن حبه . ويرسل والدها من يبحث عنها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الرعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضى فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة عن والده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الغابات ويبحث عنها وتعترضه فى ذلك البحث حوادث لا تخلو من الهزل ، ثم يعثر عليها ويردفها خلفه على جواده و « يقبلها وهما راكبان » . ويريدان الفرار من أبويها اللذين يتعقبانهما ، فيركبان سفينة يعبران بها البحر المتوسط ؛ وينزلان فى أرض بلد فيها الرجال ، ويحترب الناس بالتراشق المرح بالفاكهة . ويعتقلهما محاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أعوام ، ثم يجتمعان آخر الأمر مرة أخرى ؛ ويموت الوالدان الحانقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ونيقولت كونت بوكير وكنتتها .

وليس فى أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبدع من هذه القصة .

الفصل الثامن

الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التي تخللت فصول هذه القصة توحي بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى — وهي القصيدة التي يعرفها من القراء أكثر ممن يعرفون المسلاة الإلهية — بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية في التاريخ كله . وتفصيل ذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris(*)، وهو طالب صغير السن في أورليان ، كتب حوالي عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد بها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صبغتها التجريدية نموذجا لجميع الروايات الغرامية وخلاصة لهذه الروايات . ولسنا نعرف عن وليم اللواري هذا William of the Loire(*) أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٢٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose. وهو يصور نفسه فيها يطوف في حلمه بحديقة حب فخمة تتفتح فيها كل زهرة معروفة وتشدو فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما في حياة الحب من متعة ونعيم — المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رياسة إله الحب . ذلك دين جديد يحتوي فكرة جديدة عن الجنة تحل فيها المرأة محل الله . وفي هذه الجنه يرى الحالم زهرة أبهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحرسها ألف شوكة . وهذه الوردة هي رمز المحبوب . وتتألف من شوق بطل الرواية إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التي تثيرها الشهوة المكبوتة التي تثير الخيال وتغذيه . وليس في القصة كلها إنسان سوى راويها نفسه ، أما من بقي من الممثلين فيها فتجسيد

(*) جيوم هو وليم كما يكتبه الفرنسيون . (المترجم)

لصفات خلقية توجد فى كل القصور التى يطارد فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنذالة ، والحياء ، والثراء ، والبخل ، والحسد ، والخمول ، والنفاق ، والشباب ، واليأس ، و « الفكر الجديد » نفسه — ومعنى الفكر الجديد هنا هو التذبذب . وأعجب ما فى القصة أن جويوم استطاع بهذه التجريدات أن يقرض شعراً ممتعاً — ولعل سبب ذلك أن الحب أياً كان عصره وأياً كان مظهره فيه من المتعة بقدر ما فى الدم من حرارة(*) .

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ، وظل العالم أربعين عاماً حائراً لا يدرى هل فعل المحب الذى أصابه كيوبد إله الحب بسهمه فأخذ يرتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردة . ثم أمسك فرنسى آخر يدعى چان ده مونج Jean de Meung بالشعلة ، وبلغ بها أكثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر فى قصيدة بينها وبين قصيدة وليم من البعد مثل ما بين ربليه وتنيسُنْ Tennyson . ذلك أن مرور جيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت إلى حين كل ما عندها من حديث ، وأخذت الفلسفة تغشى بستار العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن چان كتب الجزء العاصف العجاج الذى أكمل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذى بعث بمحاميه المتشككين ليضحكوا فى وجه البابا . وكان مولد چان كلوپنل Jean Clopinel فى مونج القائمة على شاطئ نهر اللوار حوالىعام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب فى باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبحرا فى العلوم . ولسنا ندرى أى عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

(*) لا تقل ترجمة تشوسر للنصف الأول من قصيدة رواية الوردة "The Romaunt of the Rose" فى جمالها عن أصلها الذى كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم قصيدة غرامية فى الأدب كله . فقد أخذ جان يبسط آراءه فى جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينا ينتظر الحبيب المسكين فى الحديقة طوال هذا الوقت ليقطف الوردة . ويصوغ أبياته فى شعر من نفس البحر ذى الثمانية المقاطع والقافية الواحدة فى كل بيتين كالذى صاغ فيه وليم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة وطرب بعيدٌ كل البعد عن أشعار وليم الحالمة . وإذا كان قد بقى فى قلب جان شيء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الخيالية للعصر الذهبى فى الماضى « لا يقول أحد فيه إن هذا الشيء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة إقطاعيون ، ولا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك أو الطير ، و « تكون فيه جميع خيرات الأرض ملكا مشاعاً بينهم »[٥٣] . وليس جان متحرراً من الدين ، فهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحط من قدرها ، ولكنه يبغض « أولئك الفجار البدن المترفين ، والإخوان المتسولين ، الذين يخدعون الناس بالألفاظ الكاذبة ، ويملأون بطونهم باللحم والشراب »[٥٤] وهو لا يطيق المنافقين ، ويوصيهم بأكل البصل والثوم ليتيسر لهم أن يذرفوا دموع التماسيح[٥٥] . ويقر بأن « حب امرأة ظريفة » خير ما فى الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتذوق قط هذه النعمة[٥٦] ، ولعله لم يكن خليقاً بأن يتذوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة حسناء ؛ ولأن جان كان شديد التأثر بأوفد ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله يفكر فى وسائل الانتفاع بالنساء ، ويُعَلِّم غيره هذه الوسائل ، أكثر مما يحبهن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخف ، لأن الطبيعة قد أعدت الكل للكل — كل النساء لكل الرجال . وهو يُنطق الرجل المشبع بهذه الأبيات يؤنب بها زوجته المزدانة :

وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟
وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذه الحلل ذات القطع
الشاذ الغريب ؟
وماذا يعنينى من هذه العصائب التى تلوين بها شعرك وتعقصينه ،
وتجدلينه بخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعمين بالعاج
مرايا مرصعة بالميناء ، منشورة عليها دوائر ذهبية ؟
وما شأن هذه الجواهر الخليقة بتيجان الملوك ،
لؤلؤ وياقوت أحمر وأزرق جميل ، يبعث فيك الغرور الجنونى
الممقوت ؟
وما جدوى هذه الأقمشة الغالية !
والطيات المثناة المجدولة ، والمناطق التى تطوقين بها خصرك .
محلاة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ؟
ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حذاءين ملتمعين
إلا إذا كنت تشتهين أن تكشفى عن ساقيك الجميلتين ؟
قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأبيعن هذه الأشياء الغثة
قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذنك نبذ الثوب
الخلق !(٥٧) .

وإنا لنجد بعض السلوى حين نعرف أن إله الحب يهاجم فى آخر الأمر ، على رأس أتباعه الذين يخططهم الحصر ، البرج الذى يقوم فيه الخطر ، والحياء ، والخوف (تردد السيدة) بحراسة الوردة ، ويُدخِل الترحابُ الحبيبَ إلى الكعبة الداخلية ويتركه يقتطف آمل أحلامه . ولكن أ لهذه الخاتمة الغرامية التى طال انتظارها أن تمحو ١٨٫٠٠٠ بيت من الواقعية الفظة والبذاءة الساخرة ؟

وكان أكثر ما يقبل الناس على قراءته فى أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كتبٌ ثلاثة هى رواية الوردة ، والقصة الذهبية ، ورينار

الثعلب . وبدأت قصة Reynard باللاتينية فى إيسنجرينس Ysingrinus حوالى عام ١١٥٠ ثم انتقلت منها إلى عدة لغات قومية بأسماء مختلفة Roman de Renart ، Reynard the Fox ، Reineke de Vos ، Reinaert ؛ وانتهى تطوافها برواية Reineke Fuchs لجيته . وأضاف مؤلفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرحة لهذه السلسلة حتى بلغ مجموعها ٢٤٫٠٠٠ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والعيوب الآدمية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلا شيطانية على الأسد نوبل Noble (الشريف) ملك الدولة ، ويُعطِّر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Harouge الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تليران Tallyrand حتى ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن يهب كلا منها طلسما ينبئ الزوج بخيانات زوجته . وبهذه الطريقة تنكشف مخاز رهيبة ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخائنات ، فتفر الزوجات ويحتمين برنار فيتخذهن جميعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشتبك فى ألعاب الفروسية ، وتبدو بأثواب الفرسان الزاهية فى استعراض رائع . وترى الثعلب فى قصة رينار الميت La Mort Renart يحتضر ؛ ويقبل برنار Bernard الحمار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية فى العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجد والوقار . ويعترف رينار بذنوبه ، ولكنه يشترط إذا شفى من مرضه أن يصبح فى حل من يمينه غير مقيد بها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التى خانها فى زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تتظاهر بحزنها ، ولكنها فى خبيئة أمرها سعيدة بموته . ويلقى كبير الأساقفة على قبر الميت عظة شبيهة بأقوال ربليه ، ويلوم رينار لأنه كان يرى « أن كل شىء حسن إذا استطعت أن

تستحوذ عليه » . ولكن رينار تدب فيه الحياة حين يرش عليه الماء المقدس ، ويقبض على عُنق شانتكلير (الديك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى الغابة بفريسته . وبعد فإذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى رينار .

ذلك أن قصة رينار أعظم القصص الخرافية التي تروى على لسان الحيوان لهجاء الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذى الثمانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيتاً وألف بيت ؛ ومنها ما هو قديم يرجع إلى عهد إيسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من بلاد الهند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قذفاً فى حق النساء أو القسيسين ، يحسد النساء على ما حبتهن الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لهم من قوى غير طبيعية ؛ يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المغنين تلاوة القصص الخرافية الشائنة . ذلك أن الخرافات كانت تتجه على الدوام لأصحاب البطون القوية ، وتستخدم لغة الحانات والمواخير ، وصاغت آلافاً من الفكاهات شعراً . ولكن تشوسر ، وبوكاشيو ، وأريستو Ariosto ، ولافنتين ، ومائة غيرهم من القصاصين استمدوا من معينها الفياض كثيراً من القصص المثيرة للدهشة .

وكانت نهضة الشعر الهجائى سبباً فى انحطاط منزلة الشعر الغنائى . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Minstrels الإنجليزى من لفظ Ministeriales ، وهم فى الأصل خدم فى حاشية البارونات ، اشتقوا اسمهم الفرنسى Jonglenurs من اللفظ اللاتينى ioculator أى صاحب النكات . وقد قام هؤلاء بوظيفة شعراء اليونان الدوارين والماجنين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الأنجلسكسون ، وشعراء ويلز وأيرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الروايات الغنائية قمة مجدها فى القرن الثانى عشر يقومون مقام الطباعة فى هذه الأيام ؛ وقد احتفظوا بمكانتهم بما كانوا يروونه أحياناً من القصص الخليقة بأن

تسمى أدباً . فكان الواحد منهم يمسك بقيثارة أو الكمان الكبيرة وينشد الأغانى أو القصص القصيرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغانى أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات(*) . وإذا حل موسم الصوم الكبير ، وقل عليهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنين والماجنين كالمؤتمر الذى نعرف أنه عقد حوالى عام ١٠٠٠ ؛ وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حيل وأساليب ، وما عند شعراء الفروسية الغزلين والقصاصين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبين أن أقواله ذات طابع عقلى أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعوذة ، والألعاب البهلوانية ، وثنى الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون فى المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصين ، تحول المغنى الجائل تدريجاً إلى ممثل للمهازل ذات الأغانى والرقص ، وأصبح المغنى فى واقع الأمر مشعوذاً ، يقذف بالسكاكين ، ويحرك الدمى ، ويعرض ألعاب الدببة المدربة ، والقردة ، والخيل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنين من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزلية ، ومثلها دون أن يمحو ما فيها من فحش . وقاومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنين أو القصاصين لن يدخل الجنة .

وكان حب الشعوب لأولئك المغنين والقصاصين ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب الصاخب الذى لقيته ملحمة جان ده مونج عن الطبقة الوسطى

(*) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء » الذين ينشدون على الربابة قصص أبى زيد الهلالى وغيره من الأبطال والذين أخذوا مع الأسف الشديد ينقرضون فى هذه الايام . (المترجم)

bourgoisie من الطبقات المتعلمة الجديدة وطلبة الجامعات المتمردين ؛ كان هذا خاتمة ذلك العصر . نعم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ، ولكنها كانت تتحداها من كل ناحية القصائد الهجائية ، والفكاهات ، والمزاج الدنيوى الواقعى الذى يسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد سرفنتير Cervantes بزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملا من ذلك الوقت هو المسيطر على الميدان ، يقرض بأنيابه قلب الإيمان ، حتى تزعزت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتحطمت أضلاعه ، وتركت نفس الإنسان مزهوة تترنح على حافة العقل .

الباب التاسع والثلاثون

دانتي

١٢٦٥ – ١٣٢١

الفصل الأول

شعراء الفروسية الغزلون الإيطاليون

كان بلاط فردريك الثاني في أپوليا هو المكان الذي ولد فيه الأدب الإيطالي . وربما كان لمن في حاشيته من المسلمين نصيب في الحافز الباعث على نشأة هذا الأدب لأن كل مسلم يعرف القراءة والكتابة في ذلك الوقت كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو Cillo d'Alcamo (حوالي عام ١٢٦٠) كتب « حواراً » جميلا « بين عاشق وسيدة » . وتكاد مدينة ألكامو إحدى مدن صقلية تكون مدينة إسلامية . ولكن أثراً أقوى من أثر المسلمين جاء إلى الجزيرة من شعراء الفروسية الغزلين في پروڤانس . فقد كان هؤلاء يرسلون أشعارهم ، أو يأتون بأنفسهم ، إلى فردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . ولم يكن فردريك نفسه يناصر الشعر فحسب ، بل كان فوق ذلك يكتبه ، ويكتبه باللغة الإيطالية . وقد ألف كبير وزرائه پيرو دل ڤني Piero delle Vigne أغاني ممتازة ، وربما كان هو الذي صاغها في تلك الصيغة المجهدة . وكان ريناldo داكوينو Rinaldo d'Aquino (أخو القديس تومس) والذي كان يعيش في بلاط فردريك ، وجيدودلي كولن

Iacopo da Lentino القاضى ، وياقوبو دالنتينو Guido delle Colonne أحد مسجلى الصكوك فى بلاط فردريك ؛ كان هؤلاء جميعاً من بين شعراء تلك « النهضة الأبولية » ؛ وإنا لنجد فى أغنية ياقوبو (كتبت حوالى ١٢٣٣) أى قبل مولد دانتى بجيل من الزمان ، ما نجده فى قصائد الحياة الجديدة Vita Nuovo من رقة العاطفة وجمال الصقل :

أجد فى قلبى قوة تدفعنى إلى أن أخدم الله ،
لكى يكون مثواى الجنة
المكان المقدس الذى سمعت أن البهجة والنعيم
بفيضان فى كل مكان فيه .
غير أنى أكره الذهاب إليها من غير حبيبتى
ذات الوجه المتلألئ والشعر البراق ،
لأنى أعرف أنها إن غابت عنها وكنت أنا فيها
كان نعيمى أقل من لا شىء .
ولكن حذار أن تظن أنى أقول هذا
لأنى سأرتكب فيها الآثام ،
بل كل ما أبغيه أن أشاهد طلعتها البهية ،
وعينيها الناعستين الجميلتين ، ووجهها الصبوح
حتى تتم بذلك سعادتى
برؤية سيدتى مبتهجة فى مكانها !

ولما أن سافر فردريك وحاشيته فى بلاد إيطاليا أخذ معه شعراءه وحيواناته البرية ، ونشر هؤلاء الشعراء أثرهم فى لاتيوم ، وتسكانيا ، ولمباردية . وسار ابنه مانفرد Manfred على سنته فى مناصرة الشعر وكتب مقطوعات غنائية استحقت ثناء دانتى . وتُرجم كثير من الشعر « الصقلى » إلى لغة تسكانيا ، وكان

له نصيب فى تكوين مدرسة الشعراء التى انتهت إلى دانتى . وحدث فى ذلك الوقت عينه أن هجر شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون بلاد لانجويدك Languedoc التى مزقتها الحروب الدينية ، ولجأوا إلى بلاد الحكام الإيطاليين ، وعلموا شعراء تلك البلاد فنهم المرح ، كما علموا النساء الإيطاليات أن يرحبن بقصائد المديح ، وأقنعوا كبار الإيطاليين بأن يجزلوا العطاء للشعراء وإن توجهوا بشعرهم إلى زوجاتهم ، وقد بالغ بعض شعراء التسكان فى تقليد شعراء الفروسية فكتبوا شعرهم بلغة پروڤنسال نفسها للفرنسيين . ومن هؤلاء سردلو Sordello (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٠) وهو شاعر ولد فى منتوا Mantua بلدة ڤرچيل ، وأتى ما أغضب إزلينو Ezzelino الرهيب ؛ ففر إلى پروڤانس ، وكتب بلغة تلك البلاد قصائد فى الحب الروحانى الأفلاطونى .

ونشأ من هذه العاطفة الأفلاطونية ، بمزيج عجيب من الميتافيزيقا والشعر ، « الأسلوب الحلو الجديد » التسكانى . ذلك أن الشعراء الإيطاليين خرجوا على الشهوانية الصريحة التى وجدوها عند المغنين من شعراء پروڤانس ، وآثروا أن يحبوا ، أو ادعوا أنهم يحبون ، النساء بوصف كونهن ممثلات للجمال النقى المجرد ، أو كونهن رموزاً للحكمة أو الفلسفة الإلهيتين . وكانت هذه نغمة جديدة فى إيطاليا التى عرفت مائة ألف من شعراء الغزل . وربما كان قلم القديس فرانسس هو الذى حرك هذه الأقلام العفيفة ، أو لعل كتاب *الخلاصة* لتومس أكوناس كان شديد الوطأة عليهم ، أو لعلهم شعروا بتأثير المتصوفة المسلمين الذين لم يكونوا يرون فى الجمال غير الله ، والذين كانوا يوجهون قصائد الحب للخالق جل وعلا .

وتكونت المدرسة الحديثة من سرب من المغنين العلماء ، فأخذ جوتزلى Guinizelli (١٢٣٠ ؟ — ١٢٧٥) أحد مواطنى بولونيا ، الذى سماه دانتى والده فى الأدب[٣] ، يتغنى بفلسفة الحب الجديدة أغنية ذائعة الصيت سماها أغنية « القلب الرقيق » ، وطلب فيها أن يغفر له الله حبه معشوقته لأنها فى رأيه الألوهية

مجسدة ؛ ونشر لاپاجيني Lapa Gianni ، ودينو فرسكوبلدى Dino Frescobaldi ، وجيدو أرلندى Guido Olandi ، وسينودا پستويا Cino da Pastoia ، نشر هؤلاء الأسلوب الجديد فى شمالى إيطاليا ؛ وجاء به إلى فلورنس جيدو كفلكنتى Guido Cavalcanti (حوالى ١٢٥٨ — ١٣٠٠) صديق دانتى وأظرف من عبر عن هذا الأسلوب قبل الشاعر الكبير. وكان جيدو من الأشراف، ولهذا كان يختلف عن سائر هؤلاء الشعراء العلماء، وكان زوج ابنة فاريناتا دجلى أبرتى Farinata degli Uberti الذى قاد حزب الجبلين Ghibelline فى فلورنس. وكان من أصحاب التفكير الحر فى الدين ومن المقتنعين بفلسفة ابن رشد، متشككا فى الخلود وفى الله نفسه[٤]. واضطلع بدور إيجابى، عنيف فى الشئون السياسية، وأصدر دانتى ومن معه من الرؤساء فى عام ١٣٠٠ قراراً بنفيه؛ فلما أصابه المرض عفى عنه، ومات فى ذلك العام نفسه. وكان عقله الأرستقراطى المتكبر ألتق ما يكون لصياغة الأغانى فاترة تماثل فى رقتها الأغانى القديمة:

جمال النساء، وقرار الإرادة العليا؛
والفرسان الأمجاد المسلحون لألعاب الرجولة؛
وشدو الطير الجميل، وإجابات المحب الحلوة؛
وقوة السفن المسرعة فوق متن البحار؛
والهواء الصافى حين يبدأ الضوء أن يكون؛
والثلج الأبيض، الذى يسقط ويستقر فى سكون الريح؛
وحقول الأزهار، والمكان الذى ينبع منه الماء؛
والفضة والذهب، وزرقة الجواهر:
إذا وزنت أمام مالى من قيمة
فى قلب سيدتى العزيزة على

فإنها تبدو ضئيلة . وفى الحق أنى لأسمو فى نظرها
على هذه كلها وأعلو عنها علو السماء عن الأرضين
وكل خير سرعان ما يمتد للخلائق الأقربين(٥)

وأخذ دانتى الشىء الكثير عن جيدو وقلد أغانيه ، ولعله مدين له بعزمه على كتابة الملهاة المقدسة The Divine Comedy باللغة الإيطالية . وشاهد ذلك قول دانتى نفسه : « وقد رغب إلى فى أن أكتب له على الدوام بلغة البلاد لا باللغة اللاتينية »(٦) . وكن أسلاف دانتى هم الذين بدلوا فى القرن الثالث عشر فجاجة اللغة الجديدة وعجزها إلى نغمتها الحلوة ، وإلى العبارات المركزة الدقيقة التى لا تضارعها فيها لغة أخرى من اللغات الأوربية ، وهم الذين خلقوا لغة يستطيع دانتى أن يسميها : « فخمة ، أصيلة ، مهذبة ، عظيمة »(٧) — تليق لأن يكتب بها أعظم العظماء . وكانت أشعار البروفنساليين تبدو إذا قيست إلى أغانى الإيطاليين ناشزة غير متناغمة ، وقصص الأبطال الشعرية ، وغناء المغنين الجائلين تكاد تكون بالنسبة لها تافهة حقيرة . ولم يعد الشعر فى هذه الأغانى الإيطالية مصرفا للثرثرة المرحة ، بل أصبح عملا من أعمال الفن القوية المحكمة يبذل فى صياغته من الجهد ما بذل نقولا لابيزانو وولده فى نحت تماثيل المنابر . وبعد فإن من أسباب عظمة الرجل العظيم أن رجالا أقل منه قد مهدوا له السبيل ، وهيئوا لعبقريته مزاج عصره ، وشكلوا له أداة يمسكها بيديه ، وأسلموه عملا أنجزوا نصفه .

الفصل الثاني

دانتي وبياتريس

فى شهر مايو عام ١٢٦٥ ولدت بلا ألچيرى Bella Alighieri لزوجها ألچيرو ألجيرى Alighiero Aligieri ولدا سموه دورانتي Durante ألچيرى ، ولعلهما لم يفكرا فى ذلك الوقت أن معنى هذين اللفظين هو **حامل الجناح الطويل البقاء** . ويبدو أن الشاعر نفسه هو الذى اختصر اسمه الأول فجعله دانتي(٨) . وكان لأسرته سلسلة نسب طويلة فى فلورنس ، ولكنها حلت بها الفاقة ، وماتت والدة الطفل فى السنين الأولى من عمره ، وتزوج ألچيرى غيرها ، ونشأ دانتي مع زوجة أبيه ، وأخ له غير شقيق ، وأختين غير شقيقتين ، ولعله لم يكن سعيداً معهم(٩) . ومات والد دانتي حين كان ابنه فى الخامسة عشرة من عمره ، وخلف لهم عبئاً من الديون(١٠).

وكان دانتي يذكر من بين مدرسيه برونتو لاتيني Brunetto Latini ولا ينسى فضله عليه . وكان برونتو حين عاد من فرنسا قد اختصر موسوعته الفرنسية **الكنز** Tresor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها **الكنيز** Tesoretto وتعلم منه دانتي كيف يخلد الإنسان ذكره Come l'uom s'eterna(١١) . وما من شك فى أن دانتي قد درس ڤرچيل ، وأنه وجد فى دراسته لذة كبيرة ، فهو يحدثنا عن أسلوب شاعر مانتوا الجميل ، وهل يوجد طالب سواه أحب كتاباً من كتب القدماء حباً جعله يسير وراء مؤلفه فى الجحيم ؟ ويشير بوكاشيو إلى أن دانتي كان فى بولونيا عام ١٢٨٧ . وحصل الشاعر فى هذه البلدة أو فى مكان سواها قدراً يؤسف له من العلوم ومن فلسفة المعجزات التى كانت منتشرة فى زمانه

جعل قصيدته مثقلة بعلمه الواسع الغزير . وكان مما تعلمه فضلا عن هذا ركوب الخيل ، والصيد ، والمثاقفة ، والتصوير ، والغناء . ولسنا نعرف كيف كان يحصل على قوته ، وأيا كانت سبيله فى تحصيله فإنه كان يقبل فى الأوساط المثقفة ، لصداقته لكفلكنتى إن لم يكن لأسباب أخرى مضافة إلى هذه الصداقة ، وقد وجد فى هذه الأوساط كثيراً من الشعراء .

وبدأت أشهر الحوادث الغرامية كلها حين كان دانتى وبياتريس كلاهما فى سن التاسعة . وكانت بدايتها كما يقول بوكاشيو فى حفلة من حفلات أول مايو أقيمت فى بيت فلكو برتنارى **Folco Portinari** أحد كبار المواطنين فى فلورنس . وكانت « بيس » الصغيرة ابنة فلكو ، والراجح أيضاً أنها هى التى يتحدث عنها دانتى باسم بياتريس[١٢] ، ولكن هذا الرجحان لا يقرب من التأكيد قرباً يزيل شكوك المتزمتين . ولسنا نعرف شيئاً عن هذا اللقاء الأول إلا من الوصف الذى كتبه عنه دانتى بعد تسع سنين من ذلك الوقت فى ڤيتا نيوڤو **Vita nuovo** وخلع عليها فيه من الصفات ما جعلها مثلا أعلى قال :

كان لباسها فى ذلك اليوم من أبدع الملابس ، فقد كان ذا لون قرمزى هادئ جميل ، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة . وإنى لأقول صادقاً كل الصدق إن روح الحياة المستكنة فى أعمق خبايا القلب أخذت من تلك اللحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاء جسمى ، وقالت وهى تهتز : « هاهى ذى إلهة أعظم منى قوة مقبلة لتسيطر على » وأصبحت من تلك اللحظة عبداً لهواها[١٣] .

إن فتى يقترب من سن البلوغ لفتى ناضج لهذا الارتجاف متأهب له ؛ ولقد عرف معظمنا هذه التجربة ،وفى وسعنا أن نعود بذاكرتنا إلى ذلك العشق السريع الزوال ، ونرى أنه من أكثر التجارب التى تعترض شبابنا روحانية ، وأنه يقظة عجيبة خفية من يقظات الجسم والروح ، ندرك بها الحياة ، والصلات

الجنسية ، والجمال ، ونقص الواحد منا بمفرده ؛ وإن كان الإنسان مع هذا لا يدرك وقتئذ رغبة الجسم فى الجسم ، بل كل ما فى الأمر أنه يتوق فى حياء لأن يكون قريباً من حبيبته ويخدمها ، ويستمع إلى حديثها ، ويراقب ظرفها ورشاقتها . وإذا ما وهبت نفس الشاب حساسية كحساسية دانتى — أى إذا كان ملتهب العاطفة قوى الخيال ، فقد يبقى هذا الإلهام وذاك النضوج فى ذاكرته مدى الحياة ، ويظل أبد الدهر حافزاً قوياً له . ويصف لنا دانتى كيف كان يتحين الفرص ليرى بياتريس ، وإن لم تتح له إلا نظرة لها دون أن تراه هى ؛ ثم يبدو أنه ظل لا يراها تسع سنين ، حين بلغا الثامنة عشرة من عمرهما ، وفى هذا يقول :

واتفق أن تبدت لى هذه الفتاة العجيبة فى أثواب ناصعة البياض بين سيدتين من كرائم العقائل أكبر منها سناً . وبينا كانت تجتاز الشارع التفتت إلى الناحية التى كنت واقفاً فيها يجللنى الحياء ، وحيتنى بفضل لا أستطيع وصفه ... إذ سلمت على وهى مشرقة البهجة ، تحيط بها هالة من الفضيلة والروعة ، خيل إلى معها فى تلك اللحظة وتلك البقعة أننى قد نلت منتهى ما أصبو إليه من السعادة ... ثم غادرت ذلك المكان ثملا بنشوة من الفرحة ... وفى هذه اللحظة اعتزمت أن أؤلف أغنية ، فقد كنت أنزع إلى حد ما أن أقول الحديث المقفى(١٤) .

وهكذا نشأت سلســلة أغانيه وتعليقاته المعروفة باسم **الحياة الجديدة** La vita nuovo ، إذا جاز لنا أن نصدق ما قاله هو عن نفسه . وأخذ فى فترات من التسع السنين التالية (١٢٨٣ — ٩٢) يؤلف مقطوعاته الغنائية ، ثم أضاف إليها النثر فيما بعد . وكان يرسل إلى كفلكانتى المقطوعة إثر المقطوعة ، وكان كفلكانتى يحتفظ بها ، وأصبح من ذلك الوقت صديقاً له . والقصة الغرامية التى تحدثنا عنها هذه الأغانى من المبتكرات الأدبية إلى حد ما ، وإن ذوقنا الذى تبدل فى هذه الأيام ليمج هذه القصائد لما فيها من تأليه للحب تأليها مسرفاً فى الخيال كما كان يفعل شعراء الفروسية الغزلون ، وللأحاديث المدرسية المملة التى

يفسدها بها ، وما تحتويه من البحوث الخفية الغامضة حول الثلاثات والتسعات .
لهذا كان من الواجب علينا أن نغض الطرف عن هذه العيوب التى هى فى
الحق عدوى زمانه :

يقول الحب فيها : «كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب
نقياً هذا النقاء ؟ » .
ثم يقسم وهو لا ينفك يحدق فيها : « حقاً إنها لمخلوق من خلق الله
لم يعرف من قبل » .
إن لها من شحوب الدرة القدر الخليق بالمرأة الجميلة لا أكثر منه
ولا أقل
ولقد سمت بالقدر الذى يمكن أن تسمو به الطبيعة وإبداع الخالق ،
بها يقاس الجمال ، وكل ما وقعت عليه نظراتها الحلوة
خرجت منه أرواح الحب ملتهبة . فإذا نظر الناس إلى هذه الأرواح
سرت فى عيونهم وأصابت سهام تلك العيون شغاف قلوبهم .
وفى بسماتها ترى الحب مجسما فلا يستطيع إنسان أن يطيل النظر
إليها(١٥)

وبعض النثر أبعث على السرور من الشعر :

فإذا ظهرت فى مكان ما ، خيل إلى وأنا أؤمل أن تحيينى تحيتها الجميلة ،
أن لم يبق لى فى العالم كله عدو ، وغمرنى فى ذلك الوقت فيض من المحبة
لا أشك معه فى أننى سأعفو عن كل من أساء إلىّ مهما تكن إساءته ...
ومشت يجللها التواضع ، فلما أن غادرت المكان قال كثيرون ممن فيه :
« ليست هذه امرأة ، وإنما هى مَلَك جميل هبط من السماء » . وإنى لأقول
بحق إن فيها من الرقة والظرف ما يبعث فى نفس كل من ينظرون إليها
هدوءا وسكينة يعجز البيان عن وصفهما(١٦) .

وليس فى هذا الافتتان ، الذى نحسبه متكلفاً ، إشارة إلى فكرة زواجه من

بياتريس . ولقد تزوجت بالفعل فى عام ١٢٨٩ من سيمون ده باردى Simone de, Bardi ، وهو عضو فى شركة مصرفية كبرى . ولم يهتم دانتى بهذا الحادث العرضى ، بل ظل يكتب فيها القصائد دون أن يذكر اسمها ، فلما ماتت بياتريس بعد عام من زواجها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها ، رثاها الشاعر بقصيدة هادئة ذكر فيها اسمها لأول مرة ، وجاء فيها :

صعدت بياتريس إلى السموات العلى ،
إلى الملكوت الذى يتمتع فيه الملائكة بالسلام :
فهى تعيش معهم ، وإن فقدها الأصدقاء ،
ولم يدفعها إليه زمهرير الشتاء ، كما يدفع غيرها من الناس
لا ولا حر الصيف اللافح ،
وإنما اندفعت بغير هذا وذاك ، بلطفها الكامل ،
لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء ،
فأثارت الدهشة فى نفس الخلاق الأزلى ،
وسرت فيه رغبة حلوة فى ذلك الجمال البارع ،
فأمرها أن تتوق إليه فى علاه ،
لأنه رأى أن هذا المكان الممل الخبيث
غير جدير بكل هذا اللطف وتلك الرقة[١٧] .

ويصورها فى قصيدة أخرى يحيط بها فى الجنة من يقدمون لها فروض الولاء ، ثم يقول :

وبعد أن كتبت هذه المقطوعة ، قدر لى أن أرى رؤى عجيبة . إذ أبصرت أشياء اعتزمت بعدها ألا أقول شيئاً قط عن هذه السيدة المنعمة ، إلى أن يحين الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحدث عنها حديثاً أجدر بها . وأنا أبذل ما وسعنى من جهد لبلوغ هذه الغاية ، كما تعرف هى بحق . ومن أجل هذا فإذا أراد الله

باعث الحياة فى كل شىء أن يطيل حياتى عدداً قليلا من السنين ، فإنى أرجو أن أكتب فيها ما لم يكتب من قبل فى أية امرأة سواها ، فإذا فعلت فقد يرى المنعم المتفضل أن تغادر روحى هذه الأرض لتتملى بمجد سيدتها ، أعنى مجد بياتريس السعيدة التى لا تنفك الآن تتطلع إلى وجه الله العلى القدير .

وهكذا ، أخذ كما يقول فى ختام كتابه الصغير يتطلع إلى وضع كتاب أكبر منه وأعظم ، « وأخذت مقطوعاتى تتابع بلا انقطاع من أول يوم رأيت فيه وجهها فى هذه الحياة ، حتى رأيت هذه الرؤيى » التى يختتم بها أقواله فى الجنة(١٨) . وقلما عرفنا إنسانا رسم طريقاً واضح المنهج ، ولم يحد عنه مهما صادفه من صروف الدهر وطوارق الحدثان .

الفصل الثالث

الشاعر فى غمار السياسة

بيد أنه حاد فى بعض الأحيان عن صراطه المستقيم . فقد تورط دانتى بعد موت بياتريس بوقت ما فى حب خفيف بعد حب خفيف – أحب « پيترا Pietra » ، « وبرجلتا Paragoletta » و « ليزتا Lisetta » « وغيرهن من الأباطيل التى لم ينتفع بهن إلا زمناً قصيراً »[١٩] وقد وجه إلى سيدة واحدة – يسميها السيدة الظريفة قصائد غزلية – أقل روحانية من قصائده إلى بياتريس . ثم تزوج فى عام ١٢٩١ وهو فى السادسة والعشرين من عمره جمادوناتى Gemma Donati ، وهى فتاة من سلالة أقدم الأسر الشريفة فى فلورنس . وأنجبت له فى عشر سنين عدة أبناء يقدرهم البعض بثلاثة ، والبعض باربعة ، والبعض الآخر بسبعة[٢٠] . ويلغ من إخلاصه لدستور شعراء الفروسية الغزلين أنه لم يذكر قط زوجته أو أبناءه فى شعره ، ولو فعل لكان هذا عملا غير لائق به ، لأن الزواج والحب الروائى ضدان لايجتمعان .

ثم ألقى بنفسه فى بحر السياسة ،ولعل الذى ساعده على هذا هو كفلكانتى ؛ وانضم لأسباب لا نعرفها إلى حزب « البيض Blanchi وهو حزب الطبقة المتوسطة العليا . وما شك فى أنه كان ذا مواهب سياسية ، لأنه اختير فى عام ١٣٠٠ لا بعد عضواً فى المجلس البلدى ؛ وحدث فى أثناء اضطلاعه بهذا العبء القصير الأجل أن حاول السود Neir يقودهم كورسو دوناتى Corso Donati أن يحدثوا انقلاباً سياسياً مفاجئاً يعيدون به الأشراف الأقدمين إلى الحكم . ولكن المقدمين – أعضاء المجلس البلدى – قمعوا الفتنة وسعوا

. وافقة دانتى للنشر لواء السلام فى المدينة بنفى زعماء الحزبين — ومنهم دوناتى — صهر دانتى ، وكفلكانتى صديقه . لكن دوناتى غزا فلورنس فى عام ١٣٠١ بعصبة من السود المسلحين ، وخلع المقدمين ، واستولى على زمام الحكم ؛ ثم حوكم دانتى وخمسة عشر من المواطنين فى أوائل عام ١٣٠٢ وأدينوا بعدة جرائم سياسية ، ونفوا من البلدة ، وحكم عليهم بأن يقتلوا حرقاً إذا عادوا إلى فلورنس مرة أخرى . ففر دانتى ولكنه ترك أسرته فى المدينة لأنه كان يأمل فى العودة إليها بعد قليل . واضطره هذا النفى وما صحبه من مصادرة أمواله إلى أن يقضى تسعة عشرة عاماً فى فقر مدقع وتجوال في البلاد ، ملأ قلبه غلا وحقداً ، وكانا من أسباب مزاجه النكد الذى يسود موضوع الملهاة الإلهية . أما شركاؤه فى النفى فقد أقنعوا مدائن أرزُّو ، وبولونيا ، وبستويا بأن تسيِّر على فلورنس جيشاً مؤلفاً من ١٠٫٠٠٠ مقاتل ليعيدهم إلى السلطة أو فى القليل يردهم إلى أوطانهم (١٣٠٤)، وقد فعلوا هذا على الرغم من نصيحة دانتى لهم ألا يقدموا على هذا العمل . وأخفقت هذه المحاولة ، واختط دانتى لنفسه من ذلك الوقت خطة خاصة ، وعاش مع أصدقائه فى أرزو ، وبولونيا ، وبدوا .

وكانت السنون العشر الأولى من نفيه هى التى جمع فيها بعض القصائد التى كتبها إلى السيدة الظريفة ، وأضاف إليها تعليقات نثرية استحالت بها هذه السيدة إلى السيدة الفلسفة . ويحدثنا دانتى فى قصيدة المائدة (Conviuio) (حوالى عام ١٣٠٨) كيف ولى وجهه ، بعد خيبته فى الحب وفى الحياة ، نحو الفلسفة ليخفف بها من آلامه ، وكيف وجد فى هذه الدراسة المغرية إلهاماً مقدساً ، وكيف اعتزم أن يشرك فيما كشفه من إلهام من لا يستطيعون قراءة اللغة اللاتينية بأن يكتب لهم بالإيطالية . ويبدو أنه كان يفكر فى كتابة موجز أو كنز جديد يدعى فيه أن كل جزء من أجزائه تطبيق على إحدى قصائده

عن السيدة الجميلة . وتلك بلا ريب خطة عجيبة أراد بها أن يستعيض عن الحب الشهوانى بالحب المجدب . والكتاب الصغير خليط مهوش من العلوم الغامضة العجيبة ، والاستعارات المتكلفة ، وشذرات فلسفية مستمدة من بوثيوس وشيشرون . ويحق لنا أن نشيد بعبقرية دانتى التى حملته على أن يتخلى عن إتمام هذا الكتاب ، ويراه عملا خاسراً كل الخسران ، بعد أن كتب ثلاثة من الشروح الأربعة عشر التى كان يعتزم كتابتها .

وشرع وقتئذ فى ذلك العمل المتواضع ألا وهو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى إيطاليا ؛ ذلك أن تجاربه قد أقنعته بأن منشأ ما فى المدن الإيطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطئ المجزأ للحرية — فقد كان كل إقليم ، وكل مدينة ، وكل طبقة ، وكل فرد ، وكل ذى شهوة ، يطالب بالحرية الفوضوية . وكان هو يتوق إلى ما تاق إليه مكيڤلى بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، إلى قوة تنسق جهود الأفراد ، والطبقات ، والمدن فتجعل منها كلا منظما يستطيع الناس فى داخله أن يعملوا ويعيشوا فى سلم وأمان . وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتى من البابا أو من رئيس الدولة الرومانية الشرقية ، التى كان شمالى إيطاليا من زمن بعيد يخضع لها من الوجهة النظرية . غير أن دانتى كان قد نفى من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية ؛ وتقول إحدى الروايات غير المؤكدة إنه اشترك فى بعثة سياسية غير موفقة أرسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن ، وقد ظل البابوات زمناً طويلا يعارضون فى توحيد إيطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريتهم الروحية وسلطتهم الزمنية . ولهذا بدا أن الأمل الوحيد فى عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الإمبراطورية ، بالرجوع إلى **السلم الرومانية** التى بسطت لواءها رومة القديمة

وفى هذه الظروف كتب دانتى فى تاريخ غير معروف رسالته المثيرة **فى الملكية المطلقة De monarchia**، كتبها باللغة اللاتينية ، وكانت لا تزال لغة

الفلسفة ؛ وقال إنه لما كان عمل الإنسان الذى يليق به هو النشاط الذهنى ، ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا فى السلم ، فإن الحكم المثالى هو إقامة دولة عالمية تقر السلام الدائم وتبسط العدالة على جميع سكان الأرض . فإذا قامت هذه الدولة كانت الصورة الصحيحة المطابقة للنظام السماوى الذى وضعه الله فى الكون . وكانت رومة الإمبراطورية أقرب الدول إلى هذه الدولة العالمية ، ولقد أظهر الله رضاءه عن هذه الدولة إذ اختار أن يكون إنساناً فى عهد أغسطس ، وإذ أمر المسيح نفسه الناس بأن يخضعوا لسلطان القياصرة السياسى . ولم يكن سلطان الإمبراطورية القديمة مستمداً بطبيعة الحال من الكنيسة المسيحية ، غير أن الدولة الرومانية المقدسة لم تكن إلا هذه الدولة القديمة عادت إلى الوجود . نعم إن البابا هو الذى توج شارلمان إمبراطوراً ؛ ولاح بهذا أن الإمبراطورية قد خضعت للبابوية ؛ ولكن « اغتصاب حق لا يخلق هذا الحق ؛ ولو أنه خلقه لدلت هذه الطريقة عينها على خضوع السلطة الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد الإمبراطور أتو Otto البابا ليو Leo وخلع بنيفاس »[٢١] .

ولقد كان كتاب **الملكية المطلقة** دفاعاً قوياً عن قيام « عالم واحد » ، ذا حكومة واحدة ، وشرائع واحدة رغم ما فى هذا الكتاب من جدل مدرسى لم يعد يتمشى مع طرائق التفكير السائدة فى ذلك الوقت . ولم يكن مخطوط الكتاب معروفاً فى أثناء حياة مؤلفه إلا لعدد قليل من الناس ولكنه انتشر بعد وفاته ، واتخذه لويس البافارى Louis of Bavaria عدو البابوية وسيلة للدعاوة ، ثم أحرق الكتاب علناً بناء على مرسوم بابوى صدر فى عام ١٣٢٩ ، وأدرج فى القرن السادس عشر فى الثبت البابوى المحتوى أسماء الكتب المحرمة ، ثم رفعه من هذا الثبت ليو الثالث عشر فى عام ١٨٩٧ .

ويقول بوكاشيو إن دانتى ألف كتاب **الملكية** « حين جاء هنرى السادس » ذلك أن ملك ألمانيا غزا إيطاليا فى عام ١٣١٠ راجياً أن يبسط على شبه الجزيرة

كلها ، عدا الولايات البابوية ، الحكم الإمبراطورى الذى انقضى عهده بموت فردريك الثانى . ورحب به دانتى وجاشت فى صدره آمال كبار ؛ وأهاب بمدن لمبارديا ، فى « رسالة موجهة إلى أمراء إيطاليا وشعوبها » أن تفتح قلوبها وأبوابها إلى « القادم » اللكسمبرجى الذى سينجيها من الفوضى والبلبوات . ولما وصل هنرى إلى ميلان هرع دانتى إليها وألقى بنفسه وهو فى نشوة الحماسة عند قدمى الإمبراطور ، وخيل إليه أن كل ما كانت تصوره له أحلامه من قيام إيطاليا الموحدة يوشك أن يتحقق . لكن فلورنس لم تستجب لنداء الشاعر ، وأوصدت أبوابها فى وجه هنرى ؛ ووجه دانتى وهو فى سورة الغضب رسالة « إلى الفلورنسيين أشد الناس إجراماً Scelestissimis Florentinis (مارس ١٣١١) قال فيها :

ألا تعرفون أن الله قد أمر أن يخضع بنو الإنسان كلهم لحكم عاهل واحد ليدافع عن العدالة ، والسلم ، والحضارة ؟ وأن إيطاليا كانت على الدوام فريسة للحرب الأهلية كلما زال عنها سلطان الإمبراطورية ؟ يا من تعتدون على القوانين البشرية والإلهية ، ويا من يدفعكم النهم الرهيب إلى ارتكاب كل جريمة مهما بلغت من الشناعة — ألم تروعكم رهبة الميتة الثانية فخرجتم على مجد الأمير الرومانى ، ملك الأرض ومبعوث الله ؟ . . . يا أحمق الناس وأبلدهم إحساساً ! سوف تخضعون صاغرين إلى النسر الإمبراطورى ![٢٤] .

وساء دانتى وملأ قلبه هلعاً أن هنرى ترك فلورنس وشأنها ؛ ولهذا كتب الشاعر إلى الإمبراطور فى شهر إبريل كما كتب نبي من أنبياء بنى إسرائيل يحذر الملوك فقال :

لسنا ندرى أى خمول يقعدك عن العمل هذا الزمن الطويل ...إنك تضيع الربيع كما تضيع الشتاء فى ميلان ... (لعلك لا تعرف) أن فلونس مصدر الشر المستطير ... وأنها هى الأفعى ... التى تنفث من أنفاسها الفاسدة الدخان الموبوء الذى يقضى على القطعان المجاورة لها... هُبَّ إذن يا ابن يسَّى Jesse النبيل ![٢٥]

وكان رد فلورنس أن أعلنت نفى دانتى ، وحرمانه أبد الدهر من كل عفو يصدر عن الخائنين . وترك هنرى فلورنس دون أن يمسها بسوء ، وانتقل عن طريق چنوى وپيزا إلى رومة حيث توفى (١٣١٣) .

وكان موته من أشد الفواجع التى حلت بدانتى ؛ ذلك أنه قد قامر بكل شىء على انتصار هنرى ، وحرق من ورائه كل الجسور الفلورنسية ولم ير أمامه إلا أن يفر إلى جبيو Gibbio وبلجأ إلى دير الصليب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) . ويبدو أنه كتب فى هذا الدير جزءاً كبيراً من الملهاة المقدسة (٢٦) . غير أنه لم يكن قد شبع بعد من السياسة ، فقد كان فى أغلب الظن مع أجشيونى دلا فجيولو Uguccione della Fuggiulo فى لوكا Lucca عام ١٣١٦ ، وفى ذلك العام هزم فجيولو الفلورنسيين عند مونتى كاتنى Montecatini ؛ ثم استفاقت فلورنس من هذه الهزيمة وضمت ابنى دانتى إلى المحكوم عليهم بالإعدام — ولم ينفذ هذا الحكم قط . وخرجت لوكا على أجشيونى وألقى دانتى نفسه مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس فى نشوة النصر أن تكون كريمة ، وأن تنسى أحكامها الأبدية ، فعرضت أن تعفو عن جميع المنفيين وتؤمنهم على حياتهم إذا عادوا إليها ، على شرط أن يؤدوا لها غرامة مالية ، وأن يسيروا فى شوارع المدينة فى أثواب الندم ، وأن يزج بهم فى السجن وقتاً قصيراً . وتطوع أحد أصدقاء دانتى بإبلاغه هذا القرار ، فرد عليه برسالة ذائعة الصيت قال فيها :

إلى صديق فلورنسى : تلقيت رسالتك بما يليق بها من الإجلال والحب ، وأدركت منها بقلب مفعم بالشكر ... أن عودتى إلى بلدى عزيزة على نفسك . ولكن انظر إلى ما هو مفروض علىّ ... ذلك أنى إذا ما قبلت أن أؤدى قدراً من المال وأن أتحمل وصمة السجن ، فيسيعفى عنى فأستطيع العودة من فورى .

فهل هذه إذن هى الدعوة الكريمة التى توجه إلى دانتى الجيرى ليعود إلى

بلده بعد أن صبر على النفى ما يقرب من خمسة عشر عاماً ؟ . . . إن رجلا ينادى بالعدالة لا يطيق أن يؤدى ما له إلى من يرتكبون المظالم ، كأنهم يحسنون إليه . ألا إن هذه ليست الطريقة التى أعود بها إلى بلدى . . . فإذا كان ثمة طريقة أخرى . . . لا تزرى بكرامة دانتى . . . فإنى لن أتوانى قط عن اتباعها ؛ أما إذا لم يكن دخول فلورنس مستطاعاً بهذه الطريقة الأخرى ، فإنى لن أدخلها أبداً . . . ما هذا الذى تقول ! أليس فى وسعى أن أستمتع بنور الشمس وجمال النجوم فى كل مكان على ظهر الأرض ؟ أليس فى مقدورى أن أفكر فى أعظم الحقائق شأناً تحت كل سماء ؟[٢٧]

وأغلب الظن أنه قبل فى أواخر عام ١٣١٦ دعوة وجهها إليه كان جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala ، حاكم فيرونا لأن يجىء إليه ويعيش فى ضيافته . ويبدو أنه أتم فى هذه البلدة قسم الجنة فى الملهاة المقدسة (١٣١٨) – وفيها بلا ريب أهدى هذا القسم إلى كان جراندى . وفى وسعنا أن نصوره فى تلك الفترة من حياته – أى فى الحادية والخمسين من عمره – كما صوره بوكاشيو فى الحياة الجديدة عام ١٣٥٤ ؛ نصوره رجلا متوسط القامة « منحنى الظهر قليلا » يسير بخطى وقورة متزنة تنم عن المهابة والانقباض ، ذا شعر أسود وبشرة سمراء ، ووجه طويل ينم عن كثرة التفكير ، وجبهة بارزة مغضنة ، وعينين غائرتين ذواتى نظرات صامتة ، وأنف رفيع أقنى ، وشفتين منطبقتين ، وذقن بارز[٢٨] . ذلك وجه روح كانت من قبل وادعة ظريفة ، ولكن الآلام جعلتها نكدة مريرة ؛ وليس من السهل على دانتى صاحب الوصف الوارد فى الحياة الجديدة أن يتصنع كل ما وصفه به هذا الكتاب من شفقة ورقة عاطفة ؛ وإن شيئاً من هذه الصفات ليظهر فيما بدا عليه من حنان وهو يستمع إلى قصة فرانسسكا . وكان عبوساً صارماً شأن الرجل المغلوب على أمره المنفى من بلده ، وقد أكسبته الشدائد حدة فى اللسان ، وغطرسة يغطى بها ما فقده من قوة وسلطان .

فكان يفخر بنسبه لأنه كان فقيراً ، ويحتقر رجال الطبقة الوسطى من أهل فلورنس الذين يجرون وراء المال ؛ ولم يكن فى وسعه أن يغفر لبرتنارى زواج بياتريس من مصرفى ؛ وسلك طريق الانتقام الوحيدة التى وجدها أمامه فوضع المرابين فى الدرك الأسفل من النار . ولم يكن ينسى قط أذى أو إهانة ، وما أقل من سلم من أعدائه من سموم قلمه . وكان يرى أن الذين يبقون على الحياد فى الثورات أو الحروب أقل نفعاً فى نظره منهم فى نظر سولون . وكان منبع صفاته الخلقية كلها هو الشدة الملتهبة : « لم أكن ما أنا بفضل ثرائى بل بفضل الله علىَّ ، وإن غيرتى على بيته لتشعل النار فى قلبى »[٢٩] .

وقد أفرغ فى قصيدته كل ما وهبه الله من قوة ، ولم يكن يستطيع أن يعيش بعد تمامها زمناً طويلا . ففى عام ١٣١٩ غادر ڤيرونا وسافر إلى رافنا ليعيش فيها مع الكونت جيدو دا پولنتا Count Guido da Polenta ، ثم تلقى دعوة من بولونيا للقدوم إليها لكى يتوج فيها شاعراً لبلاطها ، ورفض الدعوة بأنشودة رعوية كتبها باللغة اللاتينية . وفى عام ١٣٢١ أرسله جيدو إلى مدينة البندقية فى بعثة سياسية كان نصيبها الإخفاق ، وعاد دانتى من هذه البعثة مريضاً بحمى أصابته من مستنقعات ڤينيتو Veneto . ولم يستطع جسمه الضعيف مقاومة المرض ، فقضى عليه فى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وهو فى السابعة والخمسين من عمره . واعتزم الكونت أن يقيم شاهداً على قبر الشاعر ، ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، أما النقش القليل البروز القائم فوق التابوت الرخامى فى هذه الأيام فقد نحته پيترو لمباردو عام ١٤٨٣ ، والعالم كله يعرف أن بيرون جاء إليه وبكى ، والقبر فى هذه الأيام لا يكاد يبدو للناظر ، يجده الإنسان فى أحد الأركان وهو قادم من أكثر ميادين رافنا ازدحاماً بالأعمال ، وإذا ما قدمت إلى حارسه المقعد الطاعن فى السن بضع لبرات أنشدك بعض قطع جميلة طنانة من القصيدة التى يمتدحها الناس جميعاً ولا يقرؤها منهم إلا القليلون .

الفصل الرابع

الملهاة المقدسة

١ — القصيدة

يقول بوكاشيو إن دانتى بدأها بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد — (ذى الستة التفاعيل) — ولكنه استبدل به اللغة الإيطالية ، لكى تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء . ولعله تأثر فى اختياره بقوة عاطفته ؛ فقد بدا له أن التعبير عن الانفعال باللغة الإيطالية أيسر منه باللغة اللاتينية التى طال ارتباطها بالحياة المدنية والقيود القديمة . وكان فى شبابه قد قصر اللغة الإيطالية على شعر الحب ؛ أما الآن وقد جعل موضوعه أسمى فلسفة ، وهى افتداء البشرية عن طريق الحب ، فقد خطر بباله أن يقدم على التحدث بلغة بلاده . وكان فى وقت ماض غير معروف قد بدأ مقالا لاتينياً لم يتمه سماه **فى فصاحة اللغة الشعبية** De vulgari eloquentia ، أراد به أن يغرى الطبقة المتعلمة بالتوسع فى استخدام اللغة القومية . وقد امتدح فيه جزالة اللغة اللاتينية وإحكامها ، ولكنه عبر عن أمله فى أن تسمو اللغة الإيطالية فوق لهجاتها العامية بفضل أشعار دولة فردريك ، **والأسلوب الجديد** الذى ابتدعه شعراء التسكان واللمبارد القصاصون ، فتصبح (كما ورد فى **المأدبة** « غاصة بأروع التعابير وأجملها »)[٣٠] . ولم يكن دانتى نفسه — الذى نعلم عن كبريائه ما نعلم — يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الإيطالية صالحة للتعبير عن أى غرض من الأغراض الأدبية ، وأنها لن تكتفى بهذا بل ستسمو بهذه اللغة إلى درجة من العذوبة والرقة قلما عرف لها العالم مثيلا .

ولم يبذل فى إعداد قصيدة ما من الجهد مثل مابذل دانتى فى إعداد قصيدته .

وكانت نزعة إلى التثليث — تعبر عن الثالوث الديني المقدس — وتنم عن ضعف الشاعر هي التي عينت شكل القصيدة فجعلتها مؤلفة من ثلاثة « أناشيد » ، في كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية ، تقابل سني حياة المسيح على هذه الأرض ، تضاف إليها أغنية أخرى في النشيد الأول فتكون عدتها مائة كاملة . واعتزم أن يكتب كل أغنية في مجموعات كل منها ثلاث أبيات ، يتفق البيت الثاني من كل مجموعة في قافيته مع البيتين الأول والثالث من المجموعة التي بعدها . وليس ثمة ما هو أكثر تكلفاً من هذا ، ولكن ما من فن يخلو من التكلف ، وخير ما يمكن أن يصنعه الفنان أن يخفي تكلفه ؛ وهذه القافية الثلاثية terza rima تربط كل أغنية بالتي تليها ، وتؤلف منها كلها أغنية واحدة متصلة ، تنساب في لغتها الأصلية انسياباً سهلا على اللسان ، ولكنها إذا ترجمت تعثرت وبدت كليلة . ولقد ندد دانتي مقدماً بكل ترجمة لقصيدته ، فما من شيء يسري فيه توافق الاتصال الموسيقي يمكن أن ينقل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون أن يفقد حلاوته وتوافقه[٣١](*) .

وكما أن أبيات القصيدة هي التي عينت صورتها ، فإن الاستعارات هي التي عينت قصتها ، وقد شرح دانتي في الرسالة التي أهدى بها القصيدة إلى كان جراندي[٣٢] ما تنطوي عليه أناشيده من رموز ، ولنا أن نظن أن شرحه هذا فكرة متأخرة لاحت لشاعر كان يريد أن يكون فيلسوفاً ، ولكن انهماك العصور الوسطى في الرمزية ، وما كان في الكنائس الكبرى من تماثيل رمزية ، ومظلمات جيتو وجادي Gaddy ورفائيل ، وكلها رمزية ، وتسامي دانتي الرمزي في **الحياة الجديدة والمائدة** ، كل هذا يوحي بأن الشاعر كان يفكر في النقط الرئيسية لمشروعه الذي وصفه وصفاً مفصلا قد يكون خيالياً . ويقول دانتي إن

(*) ومن واجبنا أن نستثني من هذا ترجمة دانتي جبريل روزتي للحياة الجديدة ومن جاءوا قبل دانتي .

القصيدة تتبع « جنس » الفلسفة ، وإن موضوعها هو الأخلاق . وهو يفعل ما يفعله عالم الدين الذى يفسر الكتاب المقدس فيجعل لكلماته ثلاثة معان : الحرفى ، والمجازى ، والصوفى .

« وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية . . . هو حال الأرواح بعد الموت . . . أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فإن موضوعها هو الإنسان من حيث تعرضه للثواب والعقاب العادلين اللذين يستحقهما بسبب أعماله الطيبة أو الخبيثة . . والغرض المقصود منها فى مجموعها وأجزائها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء ، وإرشادهم إلى طريق السعادة » .

وإذا عبرنا عن هذه المعانى بطريقة أخرى قلنا إن الجحيم Inferno هى مرور الإنسان بالخطيئة ، والعذاب ، واليأس ؛ وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الإيمان ؛ والفردوس هو نجاته عن طريق الوحى الإلهى والحب غير الأنانى . ويمثل ڤرچيل ، الذى يقود دانتى خلال الجحيم والمطهر ، المعرفة ، والعقل ، والحكمة . وهى التى تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة ؛ والإيمان ، والحب (بياتريس) وحدهما هما اللذان يدخلاننا فيها . وكان النفى فى ملحمة حياة دانتى هو جحيمه ، كما كانت دراساته وكتاباته هى مطهرة ، وكانت آماله وحبه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة أو سعادة . ولعل اتخاذ دانتى رمزيته فى الفردوس مأخذ الجد الشديد هو الذى يجعل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم ؛ ذلك بأن بياتريس التى كانت فى الحياة الجديدة رؤيى سماوية تصبح فى تصويره السماء تجريداً ذا أبهة وفخامة — ومثل هذه الجمال البرىء غير خليق بهذا المصير . ويشرح دانتى لكان جراندى فى آخر الرسالة سبب تسميته ملحمته ملهاة Commedia(*) — فيقول إن القصة انتقلت من الشقاء إلى السعادة ، و « إنها

(*) وقد أضاف إليها المعجبون بها صفة Divrina المقدسة فى القرن السابع عشر .

كتبت بأسلوب مهلهل وضيع ، باللغة العامية التي تتحدث بها ربات المنازل أنفسهن »[٣٣] .

وكانت هذه الملهاة الأليمة وهي « الكتاب الذي هزل فيه جسدي هذه السنين الطوال » شغله وسلوته في منفاه ، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سنين . وقد لخص فيها حياته ، وتعليمه ، وآراءه الدينية ، وفلسفته ؛ ولو أنها احتوت فضلا عن هذا ما كان في العصور الوسطى من فكاهة ، ورقة ، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المؤلفات « الجامعة في العصور الوسطى » . ذلك أن دانتي قد حشر في هذه المائة من الأناشيد الموجزة كل ما أخذه من العلم عن برونتولاتيني ، ولعله حشر فيها أيضاً ما تعلمه في بولونيا — حشر فيها كل ما كان هناك من فلك وعلم الكون ، وطبقات الأرض ، والتوقيت في عصر تمنعه المشاغل من أن يكون عصر علم . ولم يكن يؤمن بالقوى الخفية ، وبالنتائج المحتومة التي يستقيها من التنجيم فحسب ، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعماة الملغزة التي كانت تعزو معاني وقوة خفية للأعداد ولحروف الهجاء . فكان يقول مثلا إن العدد ٩ يميز بياتريس من غيرها لأن جزره التكعيبي هو ٣ الذي جعله الثالوث رقماً مقدساً . وفي الجحيم تسع دوائر ، وتسع طبقات في المطهر ، وتسع طبقات كرية في الفردوس . ويستمد دانتي في رهبة واعتراف بالجميل قسطاً كبيراً من فلسفة تومس أكويناس وعلومه الدينية ، ولكنه لا يسير وراءه سيراً دقيقاً ولا يراعي الأمانة في النقل عنه . وما من شك في أن القديس تومس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة في كتاب الملكية أو إلى رؤية البابوات في الجحيم ، وإن تصوير دانتي لله بأنه نور وحب « الحب الذي يحرك الشمس وسائر النجوم »[٣٣] هو قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلسفة العربية . وكان يعرف الشيء القليل عن الفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ؛ ويضع ابن رشد في المحيط الخارجي للجحيم ، ولكنه يهز مشاعر المتدينين بوضعه

سيجر البرابنتى Siger de Brabant معتنق مذهب ابن رشد فى الفردوس[٣٦] . وفضلا عن هذا فهو ينطق تومس بالثناء على الرجل الذى أثار ثائرة هذا العالم الدينى الذى يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة . غير أنه يبدو أن سيجر أنكر عقيدة الخلود الفردى الذى هو دعامة قصيدة دانتى ؛ ولهذا فإما أن يكون التاريخ قد تغالى فى وصف سيجر بالزيغ والضلال أو فى وصف دانتى بالاستمساك بالدين .

وتؤكد الدراسات الحديثة ما استمده دانتى من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الإسلامية كقصة أردا ڤيراف التى تصف الصعود إلى السماء ، ووصف الجحيم الوارد فى القرآن ، وقصة المعراج ، ووصف الجنة والنار فى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ؛ وفتوحات ابن عربى . . . فنى رسالة الغفران يصور المعرى إبليس يعذب فى الجحيم وهو مقيد بالأغلال ، كما يصور الشعراء المسيحيين وغيرهم من « الكفرة » يعذبون فيها . وتستقبل صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين ، اختيرت لترشده[٣٨] . وقد رسم ابن عربى فى الفتوحات الحياة الآخرة رسماً دقيقاً ، ووصف الجنة والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة ، وقسم النار والجنة إلى سبع طبقات ، وصور مكان الملائكة المسبحين حول النور القدسى — وصف ذلك كله كما ورد فى الملهاة المقدسة لا يفترق عنه فى شيء[٣٩] (ونقول هنا استطراداً إن ابن عربى كتب قصائد فى الحب يفسرها المفسرون تفسيراً مجازياً دينياً) ، ومبلغ علمنا أن شيئاً من هذه الكتابات العربية لم يكن قد ترجم من قبل زمان دانتى إلى أية لغة يستطيع قراءتها .

وقد وردت فى الآداب الدينية اليهودية والمسيحية غير المعترف بها أوصاف لرحلات أو رؤى فى الجنة والنار ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر ما ورد فى وصفهما فى الكتاب السادس من إنيادة ڤرجيل : وتقول قصة أيرلندية إن القديس پاتريك زار المطهر والجحيم ، ورأى فيهما أتواباً وأحزمة من نار ، والمذنبين معلقين فيها من أرجلهم ، أو تلتهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد[٤٠] . ووصف قس إنجليزى

قصاص يدعى آدم ده رس Adam de Ros فى قصيدة طويلة طواف القديس بولس فى النار يقوده الملاك ميخائيل ؛ وينطق ميخائيل بوصف مراتب العقاب التى توقع على درجات الذنوب المختلفة ، ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتى[٤١] . وتحدث قبل هذا يواقيم الفلورى Jaockim of Flora عن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السماء . وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الرؤى والقصص ؛ وأمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتى بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الإسلامية لكى يجد فيها نماذج لوصف الجحيم . ولقد فعل دانتى ما يفعله كل فنان فزج ما لديه من مادة وبدل فوضاها نظاماً ، ووضعها فوق النار بعد أن أضاف إليها خياله القوى وإخلاصه الملتهب . ولقد أخذ عناصر وصفه أنى وجدها — من تومس ، ومن شعراء الفروسية الغزلين ، ومن مواعظ بطرس دميان النارية وما ورد فيها من وصف لعذاب الجحيم ، ومن تفكيره الطويل فى بياتريس فى حياتها وبعد موتها ، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات ، ومن العلوم القليلة التى اعترضت طريقه ؛ ومن اللاهوت المسيحى وما ورد فيه عن سقوط آدم ، وعن التجسد ، والخطيئة ، والغفران ، ويوم الحساب ؛ ومن الفكرة الأفلوطينية — الأوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله . ومن توكيد تومس أن الرؤى الطوباوية هى الهدف الأخير الذى يغتبط به الأبرار ؛ من هذا كله صاغ القصيدة التى وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب ، وأمل ، واغتراب صوتاً ، ورمزاً ، وصورة تعبر بها وتصورها .

٢ — الجحيم

« وجدت نفسى وأنا فى منتصف طريق حياتنا فى غابة مظلمة كانت الجادة فيها غير واضحة ومفقودة »[٤٢] . وبينما كان دانتى يجول فى هذه الظلمة إذ التقى

بڤرچيل « أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأسلوب الجميل الذى شرفت به »[٤٣] . ويخبره ڤرچيل أن السبيل السليمة الوحيدة للخروج من الغابة هي اجتياز الجحيم المطهر ؛ فإذا ما صحبه دانتى فيهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس ، « حيث يتولى إرشادك من هو أجدر منى وأكرم » . ويضيف إلى هذا فى صراحة أنه جاء ليقدم العون إلى الشاعر بأمر بياتريس . ويمران خلال فتحة فى سطح الأرض إلى أبواب الجحيم ، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة : « من خلالى يدخل الإنسان المدينة المحزنة ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان الآلام السرمدية ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان بين الأجناس الضالة . لقد حركت العدالة خالقى الأعلى ؛ وصنعتنى القوة الإلهية هى والحكمة العليا والحب الأزلى . ولم يخلق قبلى سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية أبد الدهر ؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار ! » .

والجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها . ويصورها دانتى بخيال قوى يكاد يبلغ الغاية فى الاكتئاب : فهى هاوية سحيقة مظلمة مرعبة ، بين صخور ضخمة قائمة ؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة ، وتجتاحها السيول الجارفة ، وبها بحيرات ومجار ؛ وعواصف من المطر ، والثلج ، والبرد ، ومشاعل من لهب ؛ وتزمجر فيها الرياح والزمهرير الذى يجمد الدم والجسد ؛ وبها أجسام معذبة ، ووجوه كالحة مقطبة ؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم فى العروق . وفى أعلى مكان فى هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخياراً أو أشراراً ، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر . أولئك يعاقبون بآلام خسيسة ؛ تلسعهم الزنابير ، ويأكلهم الدود ، ويحرق قلوبهم الحسد والندم ، وهؤلاء يزدريهم دانتى الذى لم يقف على الحياد فى يوم من الأيام :

« الرحمة والعدالة تزدريانهم ، ونحن لانتحدث عنهم ، بل نلقى نظرة عليهم ونمر بهم » . ويصل الجائلان إلى نهر أكرون Acheron فى باطن الأرض ،

ويعبره بها كارون Charon الذى يعمل فى ذلك المكان من أيام هومر . فإذا عبراه وجد دانتى نفسه فى المحيط الخارجى للجحيم حيث يقيم الصالحون الذين لم يعمدوا ، ومنهم فرچيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان ، وجميع اليهود الصالحين إلا عدداً قليلا من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسيح حين زار هذا المحيط الخارجى ورفعهم إلى السماء . وكل ما يعذب به هؤلاء هو رغبتهم الأبدية فى مصير خير من مصيرهم ، وعلمهم بأنهم لن ينالوا هذا المصير . وفى هذا الموضع من الجحيم شعراء وثنيون يعظمهم كل المقيمين فيه — هومر ؛ وهوراس ، وأوفد ، ولو كان ؛ وهؤلاء يرحبون بفرچيل ويحلون دانتى المكان السادس بينهم ، ثم يقول دانتى : وأنظر إلى أعلى « فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة » أى أرسطو يحيط به سقراط ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، وديچين ، وهرقليطس وأنكسغوراس ، وأنبادقليس ، وطاليس ، وزينون ، وشيشرون ، وسنكا : وإقليدس ، وبطليموس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا ، وابن رشد « الذى ألف الشرح العظيم »(٤٨) . وما من شك فى أنه لو كان دانتى مطلق الحرية فى رأيه لوضع فى الجنة هذه الفئة النبيلة كلها ، ومن بينها فلاسفة المسلمين المخالفين له فى الدين .

ثم يقوده فرچيل إلى الدائرة الثانية ، حيث تتقاذف الرياح العاتية الذين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً . وهنا يشاهد دانتى پاريس ، وهيلين ، وديدو ، وسميراميس ، وكليوبطرة ، وترستان ، وپاولو ، وفرانسسكا : وقصة فرانسسكا كما يرونها دانتى تتلخص فى أن فرانسسكا داپولنتا الجميلة أريد لها أن تتزوج چيان‌سيتو مالاتستا Gianciotto Malateste الشجاع المشوه لتقضى بزواجها على نزاع قام بين أسرة پولنتا سادة راڤنا ، وأسرة مالاتستا سادة ريمينى . هذا هو الجزء المؤكد فى القصة ، أما بقيتها فغير مؤكدة . فهناك رواية يقبلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسيم أخا چيان سيتو يدعى

أنه هو الخطيب ، وأن فرانسسكا تعاهده على أن تتزوج به ، ولكنها تجد فى يوم العرس أنها تزف على الرغم منها إلى چيان سيتو . ثم لا يمضى إلا القليل من الوقت حتى تستمتع بحب پاولو ؛ ويقبض عليها چيان سيتو ويقتلها فى تلك اللحظة (حوالى ١٢٦٥) . وتقص فرانسسكا دار يمينى قصتها وهى تتأرجح فى الريح خيالا بلا جسد إلى جانب روح حبيبها غير المجسد :

إن أشد ما يحزن الإنسان أن يذكر أيام الهناءة حين يقترب منه الشقاء .. كنا فى يوم من الأيام نتسلى بقراءة لانسلت ، وكيف استبد به الهوى . وكنا فى تلك الساعة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه . وكثيراً ما كانت أعيننا تتبادل النظرات فى أثناء هذه القراءة ، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صورتها . ثم وقعت أعيننا على نقطة فى الكتاب واحدة ، وذلك حين وصلنا إلى تلك القبلة المشتهاة التى طبعها فى هيامه ونشوته فتى برح به الوجد . وفى تلك اللحظة طبع وهو يرتجف قبلة على شفتى ، طبعها ذلك المحب الذى لن يفارقنى قط . لقد كان الكتاب وكاتبه كلاهما مبعوثين من عند الحب . ولم نقرأ شيئاً فى صحفه بعد ذلك اليوم»[٤٧]

ويتملك الأسى دانتى حين يسمع هذه القصة فيغمى عليه ، ثم يفيق فيجد نفسه فى الدائرة الثالثة من الجحيم ، حيث يستقر من كان ذنبهم النهم فى حمأة تحت عاصفة دائمة من الثلج ، والبرد ، والمياه القذرة ، وحيث ينبح فى وجوههم سربيروس Cerberus ويمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية. ثم يهبط ڤرچيل ودانتى إلى الدائرة الرابعة ، حيث يقيم أفلوطس Plutus ، وهنا يلتقى المبذرون والبخلاء ويقتتلون ، ويلقى بعضهم على بعض أثقالا ضخمة فى حرب سيسفية Sisyphean (*)

(*) نسبة إلى سيسفس ملك كورنثية الذى حكم عليه أن يرفع إلى أعلى تل حجراً ضخماً ، وكلما رفع الحجر إلى أعلى التل تدحرج إلى أسفله ، وبهذا أصبح عمله هذا أبدياً لا ينقطع وهذا هو المعنى المقصود بهذا اللفظ فى المتن . (المترجم)

ويسير الشاعران بإزاء نهر استيكس Styx المظلم الذى يغلى ماؤه ، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة ، حيث يقيم من كان ذنبهم الغضب ملطخين بالأقذار ، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم . والذين كان ذنبهم الكسل والتراخى يغمرون فى ماء البحيرة الأستيجية Stygian الآسن ، وتعلو سطحها الطينى فقاعات من زفيرهم . وينقل فلجياس Phlegyas الجائلين على سطح البحيرة حتى يصلا فى الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس Dis ، أو الشيطان Lucifer حيث يشوى الملحدون فى قبور ملتهبة ، ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت رياسة المنوتور Minotaur (*) يكادون على الدوام يغرقون فى نهر من الدماء مضطرب صاخب ، ويرميهم القنطورون(**) بالسهام كلما علت رءوسهم فوق ماء النهر . ويريان فى قسم من هذه الدائرة المنتحرين ومنهم پيرودل ڤنى Piero delle Vigne ، وفى قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله ، أو الطبيعة ، أو الفن يقفون حفاة فوق رمال حامية ، وتسقط على رءوسهم كسف من النار . ويلقى دانتى بين السدوميين بمعلمه القديم برونتو لاتينى — وهو لا يليق بشخص كان هاديا لدانتى وصديقاً له وفيلسوفاً .

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشاعرين وتنحدر بهما إلى هاوية المرابين ، وفى أحد أغوار هـــذه الهاوية يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب بها من يغوون النساء ، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية . وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم فى حفر لا تظهر منها إلا سيقانهم ، ويلحس اللهب أقدامهم تذليلا لهم . ومن بين هؤلاء المتجرين البـــابا نقولاس الثالث (١٢٧٧ — ١٢٨٠) ؛ ويندد دانتى أشد التنديد بسىء أعمال هذا البابا وغيره

(*) مخلوق خرافى له رأس ثور وجسم إنسان . (المترجم)

(**) القنطور أو السنطر مخلوق وهمى نصفه إنسان والنصف الآخر فرس . (المترجم)

من البابوات ؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريئة فيقول إن البابا يحسب أن دانتي هو بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) وأن قدومه إلى الجحيم متوقع فى أية لحظة من اللحظات(٤٨) . ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤) سينضم إليهم بعد زمن قليل . وفى الخور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب ، ورءوس أولئك الأقوام مثبتة فى أعناقهم ومتجهة نحو ظهورهم . ويطل الشاعران من جسر « ماليبلج Malebolge » — فوق الخور الرابع فيريان من تحتهما مختلسى الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر فى فى بحيرة من القار فى درجة الغليان . أما المنافقون فلا ينقطع مرورهم حول الخور السادس فى أردية من الرصاص مطلية بالذهب . ويشاهد فى الممر الوحيد الذى يخترق هذا الخور قيافى مصلوباً و لمى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده . وفى الخور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة ؛ وهنا يتعرف دانتي على عدد من الفلورنسيين ، ويشاهد من عقد قائم فوق الخور الثامن لهيباً يحرق جلود مشيرى السوء ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ؛ ويرى من بين هؤلاء أديسيوس المخادع . وفى الخور التاسع يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنتزع أطرافهم طرفاً بعد طرف .

وفى الخور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون ، المزيفون ، والكيميائيون الكاذبون ، يئنون من أوجاع مختلفة ، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كريهة هى رائحة العرق والصديد ، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد .

وينتهى مطاف الشاعرين بالدائرة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحيم ، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليد ؛ وفيها يدفن الخونة فى الجليد إلى أذقانهم ، وتتجمد دموع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوق وجوههم . ومن بين هؤلاء يرى كونت أجولينو دلا غرار دسكا Count Ugolino della Gherardesca الذى خان بيزا مشدوداً أبد الدهر إلى رجييرى Ruggieri كبير الأساقفة ، الذى

سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً . والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساقفة ، ويظل رجيرى إلى الأبد يمضغ رأس أجولينو . وفى مركز الأرض أى فى قاع فتحة الجحيم الآخذة فى الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً فى الجليد إلى وسطه يرفرف بجناحين ضخمين مثبتين فى كتفيه ، ويذرف من وجوهه الثلاثة التى تقسم رأسه دموعاً من الدم المتجمد من شدة الزمهرير ، ويمضغ فى كل فك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة : بروتس ، وكاسيوس ، ويهوذا Judas .

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة الدموية . وكلما أمعن الإنسان فى قراءة صحفها الرهيبة ازداد رعباً على رعب حتى تطغى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يطيقها . وإن ذنوب الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصور التى يتخيلها الشاعر . وإن فكرة دانتى عن الجحيم لهى منتهى ما وصل إليه لاهوت العصور الوسطى من فظاعة . لقد كان اليونان القدامى يصورون جحيما يسمونها Hades أو Avenrus تتلقى جميع الموتى من الآدميين . وكان مقرها مكاناً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تمييز شىء فيه ، ولكنهم لم يصوروا هذه الجحيم بأنها مكان للتعذيب ؛ وكان لا بد من أن تمر قرون طوال من الهمجية ، والاضطراب ، والحرب قبـل أن يتقول الإنسان على خالقه فيعزو إليه صفتى الانتقام السرمدى والقسوة التى لا ينضب لها معين :

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتى وفرجيل قد مرا من خلال مركز الأرض ، وأنهما قلبا اتجاه رأسيهما وأقدامهما ، وأنهما يتحركان إلى أعلى نحو الجهة المقابلة لبلادنا من الأرض : ويجتاز الشاعران قطر الأرض كله فى سرعة الأحلام

التي تهزأ بمر الزمان ، ويخرجان إلى النصف الجنوبي منها في صباح يوم عيد الفصح ، ويشربان في وضح النهار ، ويقفان عند أسفل الجبل المدرج وهو المطهر .

٣ — المطهر

إذا قيست فكرة المطهر بفكرة الجحيم بدت فكرة رحيمة ؛ ذلك أن في مقدور الإنسان بجهده وألمه ، وأمله ورؤياه ، أن يطهر نفسه من الذنوب والأثرة ، ويرقى خطوة خطوة في مدارج الإدراك ، والحب ، والنعيم . والمطهر ، كما يصوره دانتي ، مخروط جبلي مقسم إلى سبع طبقات : ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح — واحد للتطهير من الذنوب المميتة — وفي أعلاه يقوم الفردوس الأرضي . وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التي تليها وتقل آلامه كلما انتقل إلى طبقة أعلى من التي كان فيها ، وفي أثناء هذا الانتقال ينشد ملك إحدى التطويبات . وتوجد في المراحل السفلى من المطهر سبع عقوبات للذنوب التي اعترف بها وغفرت ، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفي من العقاب . بيد أن هناك فارقاً عظيماً بين المطهر والجحيم من هذه الناحية ؛ في الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهي أن العذاب سرمدي ، أما المطهر ففيه تلك الحقيقة التي تبعث القوة في النفس وهي أن السعادة السرمدية ستعقب العقاب الذي له أجل ينتهي عنده . ويسري في هذه المقطوعات مزاج أرق وضياء أبهى مما يسري في المقطوعات السابقة ، وتكشف عن دانتي يتعلم الرأفة من ڤرچيل مرشده الوثني . ويغسل ڤرچيل بالدهن الندي ما غطى وجه دانتي من عرق الجحيم وأقذارها . وتتلألأ في ضوء شمس المشرقة مياه البحر الذي يحيط بالجبل حين تهتز النفس التي كدرتها الذنوب طرباً وهي تستقبل الرحمة الإلهية . وهنا في الطبقة الأولى يلتقي دانتي كاتو اليوتكي Cato of Utica ، الرواقي الصارم العنيد ، الذي آثر أن يقتل نفسه على أن يتلقى عذاب رحمة قيصر . وقد وضعه دانتي في هذه الطبقة تحقيقاً

لأمل تومس أكوناس فى أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك . وفى هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذى قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر . ويسرع ڤرچيل بدانتى وهو يتلو عليه تلك الأبيات التى تجرى على كثير من ألسنة الناس .

« دع الناس يتكلموا ، وقف أنت كالبرج المتين الذى لا تهتز قمته وإن هبت عليه كل الرياح »[٥٠] . وليس المطهر بالمكان الذى يوائم ڤرچيل ، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة دانتى بالسرعة التى تعود أن يجيب بها عن أسئلته فى الجحيم . وهو يحس بنقص ذكائه ، ويظهر أحياناً حنيناً يؤلمه ، غير أن ألمه هذا يزول حين يلتقى الشاعران بسردلو Sordello . ويحتضن الشاعران ابنا مانتو أحدهما الآخر ، يؤلف بين قلبيهما حبهما للبلدة التى قضيا فيها عهد الشباب . وفى هذه اللحظة ينطلق لسان دانتى بهذا الخطاب المؤلم يوجهه إلى بلده ، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية :

أى إيطاليا المستعبدة ! يا موطن الأحزان ! ياسفينة بغير دليل فى مهب العاصفة الهوجاء ! يا سيدة انتزعت منها ولاياتها الجميلة ، ولم تعد إلا ماخوراً دنساً ! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلا من أهل وطنه مرحباً به مبتهجاً بلقائه . وفيك يقيم الأحياء من أبنائك يقتتلون ؛ يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقد ؛ نعم ما أشد الضغن الذى يملأ قلوب من يحيط بهم جدار واحد وخندق واحد . ألا أيها البائس الحزين طف بشواطئ بحارك ، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم الحلوة ؟ وماذا يفيدك إذا كان چستنيان قد [أحيا القانون الرومانى] من أجلك ، وهل ينفعك أن يصلح العنان إذا كان السرج [بغير ممتطيك] ؟ أيها الخلائق ، يا من يجب عليكم أن تظلوا مخلصين أوفياء : أجلسوا قيصر فى السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله[٥١] ! »

وكأنما أراد دانتي أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأعنة الثابتة ، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى واد مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار ، ويفوح منه شذى عطرها الذكى ، ويقيم فيه الإمبراطور رودلف ، وأتوكار Ottokar ، ملك بوهيميا ، وبطرس الثالث ملك أرغونة ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفليب الثالث ملك فرنسا .

وتقود اوشيا (التى ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتى وفرچيل ، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرفات المطهر . وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً ، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبة . وفى الشرفة الثانية يرى الحاسدون فى أثواب من الخيش الغليظ ، تخاط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد ؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب ، وعلى الرابع الكسل ، وعلى الخامس البخل ، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب . ويرى على هذا السطح الأخير البابا هدريان الخامس ، الذى كان فى وقت ما حريصاً على الثروة ، يكفر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة فى آخر الأمر . وفى إحدى الحوادث الباهرة التى تضىء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الرومانى استاتيوس Statius ويحيي الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتقى بشاعر آخر على ظهر الأرض . ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يطهر النهمون من نهمهم . وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أولئك النادمين ، فإذا امتدت أيديهم إليها لتقطفها استرجعت الأشجار فاكهتها ؛ وتسمع أصوات فى الهواء تردد مافى التاريخ من أعمال القناعة . وعلى السطح السابع والأخير يستقر الذين كان جرمهم أنهم لم يستعفوا ، ولكنهم اعترفوا بذنبهم قبل الموت ، وهؤلاء يمسهم اللهب مساً خفيفاً ليطهرهم من ذنبهم . وهكذا يظهر دانتى أنه يعطف عاطفة الشعراء على

آثام الجسد ، وخاصة إذا ارتكبها ذوو المزاج الفنى ممن هم لهذا السبب رقيقو الإحساس ، واسعو الخيال ، مندفعون فى أعمالهم . ومن بين هؤلاء جيدو جوينزلى Guido Guinuzelli ؛ الذى يحبه دانتى ويسميه أباه فى الأدب ، ويشكر له « الأغانى الحلوة ، التى ستوحى إلينا ما بقيت لغتنا بأن نحب المداد الذى خطت به »(٥٢) .

ويقودهما أحد الملائكة خلال نار فى صعودهما الأخير إلى جنة الأرض ، وهنا يودع ڤرچيل صاحبه بقوله :

« إن علمى لا يصل إلى أبعد من هذا ، لقد سرت بك بحذق وفن إلى هذا الحد ، فاتخذ الآن مسرتك دليلا لك . . . انظر ! تر الشمس التى تسطع أشعتها على جبهتك ؛ انظر ! تر الأعشاب والشجيرات والأزهار التى تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها . وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضاءتان [عينا بياتريس] تشع منهما البهجة ، وهما اللتان جعلتانى ببكائهما أسرع إلى معونتك – أقول إلى أن تأتيك هاتان العينان فأنت مخير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء . ولا تنتظر أن تسمع منى بعد الآن صوتاً أو إشارة تحذرك . وإذ كنت الآن حراً تختار لنفسك ما تشاء ، حصيفاً ، حكيما . . . فإنى أخلع عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك »(٥٣) .

ويجوس الآن دانتى خلال الغابات والحقول ، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه – لا من أمامه – ڤرچيل واستاتيوس ، يستنشق هواءها النقى ذا الرائحة الذكية ، ويستمع من خلال الأشجار شدو الطيور تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتى . وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلت هذه الأرض الجميلة من الناس ، فتقول إنها كانت فيما مضى جنة عدن ، ولكن الإنسان عصى ربه ، فأخرج هو وذريته من مباهجها البريئة . وتنزل بياتريس من السماء إلى هذه الجنة المفقودة يحيط بها لألاء يذهب سناه بالأبصار ،

فلا يستطيع دانتى أن يراها بعينه ، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها :

« ومع أن عينى لم ترياها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد أمسها حتى استبدت بى قوة الحب القديم »(٥٤) .

ويلتفت ليحدث الشاعر الذى يرشده ، ولكن ڤرچيل كان قد عاد إلى المحيط الخارجى للجحيم وهو الموضع الذى جاء به منه استجابة لنداء بياتريس . ويبكى دانتى ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء شهواته التى دنس بها بعد موتها صورتها التى فى قلبه . وتؤكد له أن أن تلك الغابة المظلمة التى أنجته منها على يد ڤرچيل لم تكن إلا حياة الدعارة التى ضل فيها فى منتصف عمره وأظلم أمامه بسببها الصراط المستقيم . ويقع دانتى على الأرض من فرط الخجل ، ويقر بذنوبه ، فتقبل عذارى سماويات ويشفعن له عند بياتريس التى أساء إليها بفعله ، ويرجونها أن تكشف له عن جمالها الثانى الروحى . وليس هـذا لأن بياتريس قد نسيت جمالها الأول :

« فأنت لم تر فى حياتك ، لا فى الفن ولا فى الطبيعة شيئاً يبلـغ من الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التى كانت تلفنى داخل إطارها الجميل ، والتى تناثرت الآن هباء »(٥٥) :

ويرق قلبها ، وتكشف له عن جمالها السماوى الجديد ، ولكن العذارى يحذرن دانتى من النظر إليها مباشرة ، ويطلبن إليه أن يكتفى بالنظر إلى قدميها وتقوده بياتريس هو واستاتيوس (الذى أتم أجله فى المطهر بعد أن قضى فيه اثنى عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه نهران — أحدهما ليثى Lethe (النسيان) والآخر يونوئى Eunoë (الفهم الصالح) . ويشرب دانتى من يونوئى فيتطهر ، وتتجدد حياته ، و« يصلح للصعود إلى النجوم »(٥٦) .

وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هو وحده الجزء الظريف الممتع فى الملهاة

المقدسة . نعم إن وصف المطهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجدبة ، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة للقصيدة به ، ولكنها وقد خلت فى هذا النشيد من رهبة التعذيب ترقى فى مدارج الجمال والحنان خطوة بعد خطوة ، وتغمر هـذا الرقى بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة ، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظيم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجمال الروحانى ، وبفضلها يدخل دانتى الجنة مرة أخرى ، كما دخلها أيام شبابه .

٤ — السموات

لقد كان تفقه دانتى فى علوم الدين مما زاد عمله مشقة ، فلو أنه أجاز لنفسه أن يصور الجنة فى صورة حديقة مليئة بالمباهج الجسمية كما هى مليئة بالمباهج الروحية ، لوجدت فطرته مجالا واسعاً لهذا التصوير . ولكن كيف يستطيع العقل البشرى وهو « المركب المادى » ، أن يتصور جنة ذات نعيم روحى خالص ؟ يضاف إلى هذا أن نشأة دانتى الفلسفية كانت تمنعه أن يصور الله أو ملائكة الجنة وقديسيها بصور مجسدة ؛ بل كان يتمثلهم جميعاً كأنهم صور ونقط من النور ، وكان تصويرهم بهذه الصورة تتبعه تجريدات تضيع فى الفراغ النورانى حياة الجسد المذنب وحرارته . غير أن العقيدة الكاثوليكية كانت تعترف ببعث الجسم بعد الموت ، ولهذا فإن دانتى وهو يحاول أن يكون روحانياً يخلع على بعض سكان الجنة ملامح جسدية وينطقهم بكلام بشرى ، ومما يسر له الإنسان أن يقرأ أن لبياتريس ؛ وهى فى الجنة ، قدمين جميلتين .

ولقد نفّذ الصورة التى صور بها الجنة فى خياله تنفيذاً متناسقا يدعو إلى الدهشة ، ونفذها بخيال رائع ، وتفاصيل دقيقة واضحة . واسترشد بفلك بطليموس فصور السماء كأنها سلسلة من تسع كرات مجوفة مطردة الاتساع تدور حول الأرض ،

وهذه الكرات هي « المساكن الكثيرة » التي فيها « بيت الأب » . وقد ثبت في كل كرة كوكب وعدد كبير من النجوم ، كما تثبت الجواهر في التاج . وكلما تحركت هذه الأجرام السماوية ، وقد وهبت كلها ذكاء ربانيا متفاوت الدرجات ، أخذت تتغنى ببهجة سعادتها وتسبح بحمد خالقها ، وتغمر السماوات بموسيقى تلك الكرات . ويقول دانتي إن النجوم هي أولياء السموات الصالحون ، وأرواح الناجين ، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ما كسبت من عمل صالح في حياتها على ظهر الأرض ، وبقدر هذا الارتفاع تكون سعادتها ، ويكون قربها من أعلى السموات التي يقوم عليها عرش الله .

وكأن النور الذي تشعه بياتريس قد جذب دانتي فارتفع من جنة الأرض إلى الدائرة الأولى من دوائر السماوات وهي دائرة القمر ؛ وفيها تستقر أرواح الذين اضطروا لغير ذنب ارتكبوه إلى الحنث بأيمانهم الدينية ، ومن هؤلاء شخص يدعى بكاردا دوناتي Piccarda Donati . ويقول لدانتي إنهم في أسفل دائرة من دوائر السموات ، وإنهم يستمتعون بقدر من النعيم أقل مما تستمتع به الأرواح التي فوقهم ؛ وقد أنجتهم الحكمة الإلهية من كل حسد ، وشوق ، وتذمر ؛ ذلك بأن جوهر السعادة هو الخضوع لإرادة الله خضوعاً مقروناً بالغبطة والسرور ، لأن « في إرادته راحتنا »(٥٢) . وهذا هو بيت القصيد في الملهاة المقدسة .

ويرقى دانتي مع بياتريس إلى السماء الثانية منجذباً إليها بقوة مغنطيسية سماوية تجذب كل شيء إلى الله . وهذه السماء الثانية هي التي يسيطر عليها الكوكب عطارد . وفيها يقيم الذين كانوا يقومون وهم على الأرض بنشاط عملي يبتغون به الخير ، ولكنهم كانوا أكثر إنهماكا في الشرف الدنيوي منهم في خدمة الله . ويظهر من بين هؤلاء جستنيان ، يصوغ في عبارات ملكية الوظائف التاريخية للإمبراطورية الرومانية والشريعة الرومانية . وعن طريقه يوجه دانتي ضربة أخرى يبغي بها قيام عالم واحد ، خاضع لشريعة واحدة ،

وملك واحد . ثم تقود بياتريس الشاعر إلى السماء الثالثة ، وهي دائرة الزهرة حيث يتنبأ فلك Folque الشاعر البروڤنسالى بمأساة بنيفاس الثامن . وفى السماء الرابعة وهى دائرة الشمس يشاهد دانتى الفلاسفة المسيحيين بوئيثيوس ، وإزدور الأشبيلى ، وبيد Bede ، وبطرس لمبارد ، وجراتيان ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكويناس ، وبونا ڤنتورا ، وسيجرده برابانت . ويتبادل كل من تومس الدمنيكى ، وبونا ڤنتورا الفرنسيسى حديثهما ، فيقص تومس على دانتى حياة القديس فرانسس ، كما يقص عليه بونا ڤنتورا قصة القديس دمنيك . وإذ كان تومس على الدوام رجلا واسع العقل إلى حد ما فإنه يقحم فى قصته أقوالا عن موضوعات دينية دقيقة ؛ وتشتد رغبة دانتى فى أن يكون فيلسوفاً فيمتنع فى عدة أغان عن أن يكون شاعراً .

وتقوده بياتريس إلى السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث تقيم أرواح المحاربين الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة الدين الحق — يوشع ، ويهوذا مكابيوس ، وشارلمان ، وحتى ربرت جوسكاد Robert Guiscard الذى خرب رومة . وينتظم هؤلاء على شكل صليب متلألئ عليه المسيح المصلوب ؛ ويشترك كل نجم من النجوم فى هذا الرمز المضيء فى إيقاع موسيقى سماوى . ويصعد الشاعر وبياتريس إلى السماء الخامسة سماء المشترى فيجد فيها دانتى من كانوا وهم على ظهر الأرض يوزعون العدالة بالقسطاس المستقيم ؛ ففيها داود ، وحزقيال ، وقسطنطين ، وتراچان — وهاهو ذا وثنى آخر يقتحم السماء . وتنتظم هذه النجوم الحية فى صورة نسر ، وتتكلم بصوت واحد ، وتُحدث دانتى فى علوم الدين ، وتردد الثناء على الملوك العدول . ويصعد الشاعر وقائدته إلى ما تسميه بياتريس تسمية مجازية « سلم العصر الخالد » فيصلان إلى السماء السابعة سماء البهجة ، سماء زحل وحاشيته من النجوم . ويزداد جمال بياتريس بهاء كلما علت فى السموات ، كأن كل دائرة تعلو إليها تزيدها بهجة وجلالا ؛ وهى لا تجرؤ على

الابتسام لحبيبها لئلا يحترق ويستحيل رماداً بقوة إشعاعها . وهذه السماء هى دائرة الرهبان الذين عاشوا معيشة الصالحين ، وأخلصوا لأيمانهم ، ومن بينهم بطرس دميان ؛ ويسأله دانتى كيف يوفق بين حرية الإنسان وعلم الله بالغيب ، وما يؤدى إليه هذا العلم من الإيمان بالقضاء والقدر ؟ فيجيبه بطرس بأن أكثر الأرواح استنارة فى السماء تحت عرش الله لاتستطيع الإجابة عن هذا السؤال . وهنا يظهر القديس بندكت ، ويرثى للفساد الذى انحدر إليه رهبانه .

ويسبح الشاعر وقتئذ من دوائر الكواكب إلى السماء الثامنة ، منطقة النجوم الثوابت . ويطل إلى أسفل من كوكبة الجوزاء فيرى الأرض المتناهية فى الصغر « ذات منظر حقير لم أ تمالك معه نفسى من الابتسام » . ولربما كان خليقاً بأن يسرى فيه وقتئذ إلى أمد قصير حنين إلى هذا الكوكب التعس ، ولكن نظرة من بياتريس تنبوءه أن هذه السماء ، سماء الضوء والحب ، لامكان الذنوب والنزاع . هى موطنه الحق .

وتبدأ الأغنية الثالثة والعشرون بتشبيه من التشبيهات التى يمتاز بها شعر دانتى :

كالطائر الذى جلس طوال الليل فى عشه المظلم بين أوراق الشجر ، ومعه صغاره الجميلة ، يتحرق شوقاً إلى رؤية نظراتها الحلوة . وإلى أن يسعى سعيه الحبيب ليأتى إليها بطعامها غير شاعر بما يلاقيه فى سبيلها من مشقة ، جلست تستبق الزمن على الغصن المعلق فوق عشها ، يقظة تترقب أن تطلع الشمس فتطرد من الشرق ستار الفجر .

وتحدق بياتريس بعينيها فى جهة من الجهات مترقبة ، فتنشق السماء فجاءة عن منظر رائع وضاء ، وتناديه قائلة « انظر ! إلى جيش المسيح المنتصر » — أرواح جديدة كسبتها الجنة . ويلتفت دانتى ولكنه لا يرى إلا ضوءاً ساطعاً قوياً يذهب سناه ببصره ، فلا يعرف ما يمر به . وتأمره بياتريس أن يفتح عينيه ،

وتقول له إنه يستطيع فى ذلك الوقت أن يطيق النظر إلى بهائها كاملا . وتبتسم له ، ويقسم أن هذا حادث لا يمحى من ذاكرته . وتسأله : « لم يأسرك جمال وجهى ؟ » وتأمره أن ينظر بدلا منه إلى المسيح ومريم والرسل . ويحاول هو أن يتبينهم ، ولكنه لا يبصر إلا « كتائب من البهاء ، تسقط عليها من فوقها بروق ترسلها أشعة محرقة » ، وتصل إلى أذنيه فى تلك اللحظة موسيقى الكتائب السماوية .

ويصعد المسيح ومريم ، ولكن الرسل يبقون خلفهما ، وتطلب بياتريس إليهم أن يتحدثوا إلى دانتى ، فيسأله بطرس عن دينه ، وتسره أجوبته ، ويوافقه على أن الكرسى الرسولى سيظل شاغراً أو مدنسا ما دام بنيفاس بابا(٥٨) . إن بنيفاس لا يجد فى قلب دانتى ذرة من الرحمة .

ويختفى الرسل فى الطباق العليا ، ويصعد دانتى أخيراً مع « التى أسكنت روحى الجنة » إلى السماء التاسعة ، أعلى السموات جميعا . وليس فى هذه السماء نجوم ، بل كل ما فيها نور صاف ، وفيها الله الروح الخالص ، المجرد من الجسد ، والذى لا علة له ، والأصل الثابت لجميع الأرواح ، والأجساد ، والأسباب ، والنور ، والحياة . ويحاول الشاعر وقتئذ أن يستمتع بنور النعيم الباهر ، ولكنه لا يرى إلا نقطة من الضوء تدور حولها تسع دوائر من الذكاء الخالص — ملائكة الطبقة الأولى ، وأرواح سماوية ، وعروش ، وأملاك ، وفضائل ، وسلطات ، وإمارات ، وملائكة كبار ، وملائكة غير كبار . وعن طريق هؤلاء — وهم عمال الله ومبعوثوه — يحكم الخالق جل جلاله العالم . ولا يستطيع دانتى أن يرى الجوهر الإلهى ، ولكنه يرى كل كتائب السماء تؤلف من نفسها وردة وضاءة ، هى أعجوبة من النور البراق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح زهرة ضخمة .

وحينئذ تترك بياتريس حبيبها ، وتحتل مكانها فى الوردة . ويراها تجلس

على عرشها ، ويظل يرجوها أن تساعده ، فتبتسم له ، وتحدق من ذلك الوقت بعينيها فى مركز جميع الأضواء ؛ ولكنها ترسل القديس برنار ليساعده ويواسيه . ويوجه برنار دانتى نحو ملكة السماء ؛ ويتجه الشاعر نحوها ولكنه لا يرى إلا بريقاً وهاجاً يحيط به آلاف من الملائكة مسربلين بالنور . ويقول له برنار إذا شاء أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يشهد الرؤى السماوية واضحة ، فإن عليه أن ينضم إليه فى الصلاة لأم الإله ، وتبدأ الأغنية الأخيرة بتضرع برنار بنغمه الحلو :

« أيتها الأم العذراء ، يا ابنة ابنك ، يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعة من كل الخلائق » . ويتوسل إليها برنار أن تمن على دانتى بأن يقدر على رؤية ذات الجلال القدسى ، فتنحنى بياتريس وينحنى كثير من القديسين نحو مريم ويرفعون أيديهم مقبوضة يتوسلون إليها بالدعوات . وتلقى مريم نظرة قصيرة رحيمة على دانتى ، ثم تحول عينيها نحو « النور السرمدى » . والآن ، كما يقول الشاعر : « تصفو نظراتى ، فيدخل فيها شيئاً فشيئاً ذلك النور الأعلى وهو الحق » . ويقول إن كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الخيال عن تصوره ؛ ولكن « فى هذه الهوة من البهاء المتألق ، الصافية الشامخة ، خيل إلى أنى أرى كرة ذات ثلاثة ألوان مجتمعة فى لون واحد » . وتختتم الملحمة الفخمة ونظرات دانتى لا تزال مثبتة على النور المتألق ، ويجذبها ويدفعها « حب الله الذى يحرك الشمس وجميع النجوم » .

وجملة القول أن **الملهاة المقدسة** أعجب القصائد كلها وأصعبها . فليس ثمة قصيدة غيرها تضن بكنوزها إلا على من يبذلون فى سبيلها جهوداً جبارة ؛ ولغتها أكثر اللغات إيجازاً وإحكاماً بعد لغة هوراس وتاستس ، فهى تجمع فى كلمة أو بضع كلمات معانى وأفكاراً دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات سابقة غزيرة ، وعقلا مستيقظاً ، وذكاء ، وحتى بحوثها المملة فى علوم الدين ، والنفس ، والفلك ،

تاز بدقة فى اللفظ وغزارة فى المادة ، لايستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسي . ذلك أن دانتي كان يحيا فى عصره حياة قوية عميقة تكاد قصيدته بسببها أن تتحطم تحت عبء الإشارات إلى الحوادث والمعانى المعاصرة التى لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف إليها كثير من الشروح التى تعطل تتابع القصة .

وكان يحب أن يعلم الناس ، ولهذا أراد أن يفرغ قصيدة واحدة ما تعلمه كله تقريباً ، وكانت النتيجة أن البيت الحى من الشعر يرقد إلى جانب السخافات الميتة ، ويضعف جمال بياتريس وفتنتها بأن ينطقها بما يحبه ويكرهه فى الشئون السياسية . وهو يقطع قصته ليصب جام غضبه على مائة مدينة أو جماعة أو فرد ، ويغرق ملحمته أحياناً فى بحر من السباب ؛ وهو متيم بحب إيطاليا ؛ ولكن بولونيا مليئة بالقوادين[٥٩] ، وفلورنس هى الثمرة المحبوبة من ثمار الشيطان[٦٠] ، وبستونيا حظيرة للوحوش[٦١] ، وجنوى « استشرى فيها الفساد »[٦٢] ؛ وأما بيزا « ألا لعنة الله على بيزا ! ألا ليت نهر الآرنو يسد عند مصبه ، ويغرق بيزا كلها ، بما فيها من حرث ونسل ، تحت مياهه الصاخبة ! »[٦٣] . ويظن دانتي أن « الحكمة العليا ، والحب الأزلى » هما اللذان خلقا الجحيم . وهو يعد بأن يزيل الجليد لحظة من الزمان عن عينى ألبريجو Alberigo إذا ما أخبره هذا باسمه وقص عليه قصته . ويجيبه البريجو إلى ما طلب ويرجوه أن ينجز ما وعد — ويقول « مد إلى يدك ، وافتح عينى ! » — ويواصل دانتي حديثه قائلا : ولكننى « لم أفتحها له ، لأن الوقاحة معه هى المجاملة بعينها »[٦٤] . ألا إننا سننجو جميعاً من العذاب إذا كان رجل ملئ قلبه بهذا الغل يستطيع أن يطوف به طائف خلال الجنة .

ومع هذا كله فإن قصيدته أعظم كتب العصور الوسطى ، ومن أعظم كتب التاريخ بأجمعه . ذلك بأن تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجاً خلال أغانيها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لايستطيع قارئ أكمل قراءتها أن ينساها ؛ وهى كما قال فيها كارليل Carlyle أعظم القصائد إخلاصاً ؛ فليس فيها شيء من الادعاء ،

أو الملق ، أو التواضع الكاذب ، أو الخنوع ، أو الجبن ؛ بل إن أقوى رجال ذلك العصر ، ومنهم البابا الذى يدعى أنه صاحب السلطان الأعلى ، يهاجَمون بقوة وحرارة ليس لهما فى الشعر كله مثيل . وفيها فضلا عن هذا كله خيال وثاب يسرى فيها كلها ويبعث فيها القوة ، ويغالب شيكسپير لينتزع منه لواء الشعر : فيها صور واضحة حية لأشياء لم يرها الأرباب أو البشر ؛ ووصف للطبيعة لا تستطيعه إلا روح يقظة قوية الملاحظة مرهفة الحس ؛ وقصص قصيرة ، كقصة فرانسسكا وأجلينو ، تجمع المآسى العظيمة فى حيز صغير دون أن تترك منها شيئاً ذا بال . نعم إن هذا الرجل خلو من الفكاهة ، ولكن فيه حُبًّا ظل حتّى أحالته المصائب لاهوتا .

ويبلغ دانتى آخر الأمر بقصيدته مرتبة السمو . نعم إننا لا نجد فى ملحمته ما نجده فى الإلياذة من تيار الحياة الجارف أو تتابع الحوادث سراعا ، كما أننا لا نجد فيها ما فى شعر ڤرچيل من انسياب سهل هادئ ، أو ما يمتاز به شيكسپير من إدراك شامل ، وتسامح ، وغفران للذنوب ؛ ولكن فيها عظمة ، وقوة معذبة نصف همجية تستبق ميكل أنچلو وتنبئ بقدومه ؛ وإذ كان دانتى ممن يحبون النظام كما يحبون الحرية ، فقد قيد عواطفه ورؤياه فخلع عليهما صورة محددة ، ولهذا أخرج قصيدة ذات قوة ماثلة أمام أعيننا لم يصل إلى مثلها إنسان آخر من بعده . وقد ظلت إيطاليا طوال القرون التى أعقبت عصره تجله وترى فيه الرجل الذى حرر لغتها الذهبية من القيود ؛ وتلقى پتر ارك وبوكاشيو ومائة غيرهما من الأدباء الإلهام من وقائعه وفنه ، وردت أوربا كلها أصداء قصة المنفىّ الفخور الذى سار إلى الجحيم ثم عاد منها ولم يبتسم قط بعد عودته .

الخاتمة

تراث العصور الوسطى

إن من الخير أن نختم بدانتي قصتنا الطويلة المتشعبة ، فقد ظهر فى القرن الذى توفى فيه أولئك الرجال الذين شرعوا بعدئذ فى تحطيم الصرح العظيم صرح الإيمان والأمل الذى عاش فيه : فمن هؤلاء ويكلف Wyclif ، وهوس Huss اللذان مهدا السبيل للإصلاح الدينى ؛ وچيتو Giotto وكريسلاراس Chrysolaras ، وپترارك ، وبوكاشيو الذين بشروا بالنهضة ، وقد يبقى إلى زمن طويل خلال تاريخ الإنسان — ذى العدد الكبير والطبائع المختلفة — مزاج من نوع ما فى نفوس وأماكن أخرى . ففى أوربا مثلا وصل عصر الإيمان إلى عنفوان مجده ، فى دانتى ، ثم أصابته طعنة نجلاء من يد أكام Occam فى القرن الرابع عشر ؛ ولكنه ظل يغالب المرض والضعف حتى أقبل برونو Bruno ، وجليليو وديكارت ، واسپنوزا ، وبيكن ، وهُبز Hobbs ؛ وقد يعود عصر الإيمان إذا ما حلت بعصر العقل كارثة(*) ؛ ولقد بقيت مساحات واسعة تحت شعار الإيمان وسلطانه بينا كانت أوربا الغربية تسير بسفينة العقل فى البحار الغير المطروقة . إن العصور الوسطى حال من أحوال الزمان كما هى فترة من فتراته : ومن واجبنا أن نختتمها فى أوربا الغربية بكولمبس ؛ ولكنها دامت فى الروسيا إلى زمن بطرس الأكبر (المتوفى عام ١٧٢٥) ؛ أما فى الهند فلا تزال باقية إلى اليوم .

ولقد نساق إلى التفكير فى العصور الوسطى على أنها فترة مجدبة محصورة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) وكشف أمريكا ؛ بيد

(*) يقصد بعصر العقل عصرنا الحاضر ، ولهذا يقول إنه سيسمى المجلد السابع من هذه سلسلة وهو المجلد الذى يروى حضارة هذا العصر «عصر العقل» . (المترجم)

أننا يجب ألا ننسى أن أتباع أبلار كانوا يسمون أنفسهم محدثين moderni ، وأن أسقف إكستر Exeter قد وصف فى عام ١٢٨٧ القرن الذى يعيش فيه بأنه « الزمن الحديث moderni tempores »[1]. أضف إلى هذا أن الحد الفاصل بين العصور « الوسطى » والعصور « الحديثة » يتقدم على الدوام ؛ وأن عصر الفحم والزيت والأحياء القذرة المليئة بالدخان والكتّن ، إذا ما حل محله عصر أكثر منه نظاماً وأرحم منه حياة ، قد يعد من العصور الوسطى . كذلك لم تكن العصور الوسطى مجرد فترة بين حضارة وحضارة . ذلك أننا إذا أرخنا بداية هذه العصور بقبول رومة للمسيحية وبمؤتمر نيقية عام ٣٢٥ ، رأيناها تشمل القرون الأخيرة من حياة الثقافة اليونانية — الرومانية القديمة ، ونضوج المسيحية الكاثوليكية حتى أضحت حضارة كاملة غنية فى القرن الثالث عشر ، وانقسام تلك الحضارة إلى الثقافتين المتعارضتين وهما النهضة والإصلاح الدينى . وشىء آخر خليق بالذكر ، وهو أن رجال العصور الوسطى كانوا ضحايا الهمجية ، ثم صاروا هم أنفسهم الغالبين للهمجية ، وأمسوا بعدئذ المنشئين لمدنية جديدة . وليس من الحكمة أن ننظر بعين الكبرياء إلى عصر أنجب هذا العدد الجم من عظماء الرجال وعظيمات النساء ، ورفع منار البابوية فوق أنقاض العصور الوسطى ، وأقام الدول الأوربية ، وجمع بالكدح الدائب تلك الثروة التى خلفتها لنا تلك العصور[*] .

وقد جمع هذا التراث بين الشر والخير . فأما عن الشر فنقول إننا لم نفق بعد كل الإفاقة من العصور المظلمة : من اضطراب الأمن الذى يثير المطامع والشهوات ، والخوف الذى يولد القساوة ، والفقر الذى يوجد القذارة والجهل ، والقذارة التى تتفشى بسببها الأمراض ، والجهل الذى يؤدى إلى سرعة التصديق وإلى الإيمان بالخرافات ، والسحر — كل هذا لا يزال باقيا بيننا ؛ وإن العقائد التحكمية القائمة

(*) قصرنا الجزء الأكبر من هذه الإعادة على الحديث عن المسيحية فى العصور الوسطى ، ولن نعيد هنا الخلاصة التى كتبناها عن الحضارة الإسلامية فى ختام الكتاب الثانى من هذا المجلد .

على غير أساس من العقل ، والتى أدت إلى التعصب وإلى محاكم التفتيش لا تزال تنتهز الفرص أو الإذن لكى تظلم ، وتقتل ، وتدمر ، وتخرب . وليست « العصرية » بهذا المعنى إلا ستاراً يغشى مبادئ العصور الوسطى وعاداتها . ولا تزال هذه المبادئ والعادات باقية فى الخفاء ؛ وليست الحضارة فى أى جيل من الأجيال إلا ثمرة من ثمار الكدح الذى تقوم به قلة مزعزعة مغمورة وميزة اضطرارية لهذه القلة . ولقد خلفت محاكم التفتيش آثارها السيئة فى المجتمع الأوربى : فقد جعلت التعذيب جزءاً مقرراً معترفاً به فى الإجراءات القضائية ، وردت الناس من مغامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبعث من الخوف .

والدين أهم ما أورثنا إياه عصر الإيمان : أورثنا يهودية ظلت حتى القرن الثامن عشر يستوعبها التلمود ؛ وأورثنا الإسلام الذى هدأت عقول أصحابه بعد انتصار السُنّة على الفلسفة فى القرن الثانى عشر ، ومسيحية انقسمت بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ولكنها لا تزال رغم هذا الانقسام أقوى الأديان وأعظمها أثراً فى تاريخ الرجل الأبيض . فعقيدة كنيسة العصور الوسطى يدين بها الآن ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الرومان ، و ١٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ من الأرثوذكس والكاثوليك ، ولا تزال شعائرها تحرك النفوس بعد أن أخفقت كل الحجج المنطقية . ولقد خلفت جهود الكنيسة فى ميادين التعليم ، والصدقات ، وبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الهمج من الناس ، خلفت هذه الجهود إلى العالم الحديث تراثاً ثميناً من النظام الاجتماعى ، والتأديب الخلقى . ولسنا ننكر أن ما كانت تحلم به البابوية من قيام دولة أوربا الموحدة قد قضى عليه النزاع الذى قام بين الإمبراطورية والبابوية ؛ ولكن ما من جيل من الأجيال لا تستثيره رؤى نظام أخلاقى دولى يسمو على النظم الأخلاقية المتضاربة السائدة فى الدول المستقلة ذات السيادة .

ولما أن قضى على ذلك الحلم البابوى اتخذت الأمم الأوربية الشكل الذى

لا تزال تحتفظ به فى جوهر حتى هذا القرن ، وتأهب مبدأ القومية لكتابة التاريخ السياسى للأزمنة الحديثة . وابتدع عقل العصور الوسطى فى هذه الأثناء أنظمة من القانون المدنى والكنسى ، ودساتير بحرية وتجارية ، وعهوداً لحرية المدن ، ونظام المحلفين ، وحق القضاء فى إطلاق سراح المسجون بلا محاكمة . وفى العصور الوسطى وضع نبلاء الإنجليز العهد الأعظم ، وأعدّت المحاكم والمجالس القضائية للدول والكنيسة أساليب الحكم ودواليب الإدارة الباقية إلى هذه الأيام . وظهر نظام الحكم النيابى فى الكورتيز Cortes مجلس أسبانيا النيابى ، والألثنج Althign مجلس أيسلندة ، وجمعية الطبقات الفرنسية ، والبرلمان الإنجليزى .

وكان أعظم من هذا كله تراث العصور الوسطى الاقتصادى : فقد استغلت هذه العصور البرارى المقفرة ، وكان لها النصر فى مغالبة الغابات ، والحراج ، والمستنقعات ، والبحار ، وأخضعت تربة الأرض لإرادة الإنسان . وقضت العصور الوسطى على الاسترقاق فى معظم أجزاء أوربا الغربية ، وكادت تقضى أيضاً على نظام رقيق الأرض . ونظمت العمال المنتجين فى نقابات الحرف ، وهى النقابات التى لا تزال من المثل العليا عند رجال الاقتصاد الذين يسعون لإيجاد طريق وسط بين الأفراد غير المسئولين والدولة الأتوقراطية . ولقد ظل الخياطون ، والأساكفة ، وصناع الملابس إلى وقتنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية فى حوانيت خاصة كما كانوا يقومون بها فى العصور الوسطى ؛ وكان خضوعهم لنظام الإنتاج الكبير وللتنظيم الرأسمالى على مرأى ومسمع منا . وإن المواسم الكبرى التى تعقد فى المدن الحديثة ويجتمع فيها الناس والسلع لمن مخلفات تجارة العصور الوسطى ؛ كما أن من هذا التراث أيضاً ما نبذله من جهد لمنع الاحتكار ، وتحديد الأثمان والأجور ؛ ولقد ورثنا عمليات المصارف الحديثة كلها تقريبا من نظم العصور الوسطى المالية ؛ وحتى منظماتنا الأخوية ، وجمعياتنا السرية تمتد جذورها وشعائرها إلى العصور الوسطى نفسها .

وكانت مبادئ العصور الوسطى الخلقية وليدة الهمجية ومنشأ نظام الفروسية . وإن فكرتنا عن السيد الكامل (السميدع) لمن خلق تلك العصور ؛ ولا تزال مثل الفروسية العليا ؛ وإن بعدت عن أساليب الفرسان القدامى ، من أنبل الأفكار التي طافت بالعقل البشرى ؛ وربما كانت عبادة مريم العذراء قد جاءت بعناصر جديدة من الرقة والحنان إلى أخلاق الرجل الأوربى . وإذا كانت القرون المتأخرة قد ارتقت بأخلاق الناس عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، فقد كان ذلك الرقى على أسس من وحدة الأسرة ، والتربية الخلقية ، والانتشار البطىء لعادات الشرف ، والأمانة ، والمجاملة ، وهى الأسس التى أرست دعائمها العصور الوسطى ، شأنها فى هذا شأن الحياة الأخلاقية للمتشككين المحدثين التى لا يبعد أن تكون صدى للمبادئ الأخلاقية المسيحية التى اعتنقها الناس فى شباب هذا الدين .

أما تراث العصور الوسطى الذهنى فهو أضعف مما ورثناه عن اليونان الأقدمين ، كما أنه يختلط به كثير من المعارف الخفية الفاسدة التى ترجع أصولها إلى الأزمنة القديمة . ولكنه على الرغم من هذا يشمل اللغات الحديثة ، والجامعات ، ومصطلحات الفلسفة والعلوم . وكانت الطريقة الجدلية المدرسية تدريبا فى المنطق لا فتحا فلسفيا دائما ، وإن كانت هذه الطريقة تسيطر على ألف كلية . ولسنا ننكر أن بعض العقائد الدينية فى العصور الوسطى قد عاقت كتابة التاريخ الصحيح ؛ فقد كان الناس فى تلك العصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا نسيجاً من الأساطير كاد يقصر التاريخ على مؤرخى الأديرة الإخباريين . ولكن ليس صحيحا أن مؤرخى العصور الوسطى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التطور والتقدم ؛ وكان القرن الثالث عشر ، كما كان القرن التاسع عشر ، متأثراً أشد التأثر بما تم فيه من جليل الأعمال . كذلك لم تكن العصور الوسطى زمن ركود وجمود كما كنا نظن ذلك مزهويين ؛ ذلك أن بعد ما بيننا وبين تلك

العصور يجعلنا نظن الحركة سكونا ، والفروق معدومة من الوجود ، ونحسب التغير جموداً ؛ ولكن الرغبة فى التغير كانت تلح وقتئذ ، كما تلح الآن ، فى تبديل العادات والثياب ، واللغة والأفكار ، والشرائع ونظم الحكم ، وأساليب التجارة والمال ، والأدب والفن . غير أن مفكرى العصور الوسطى لم يكونوا يعلقون أهمية كبرى على ارتقاء الوسائل غير المصحوبة بإصلاح الغايات كما يفعل المحدثون غير المفكرين أهل هذه الأيام .

وفى الحق أن تراث العصور الوسطى العلمى تراث متواضع ، ولكنه يشمل فيما يشمل الأرقام الهندية ، والطريقة العشرية ، وفكرة العلوم التجريبية ، وقسطاً كبيراً من العلوم الرياضية ، والجغرافيا ، والفلك ، والبصريات . وفى العصور الوسطى كشف البارود ، واخترعت النظارات، والبوصلة البحرية ، والساعة ذات الرقاص(*) ، وتقطير الكحول — الذى يبدو أشد المخترعات لزوما للإنسان ! وفيها ارتقى أطباء العرب واليهود بالطب اليونانى ، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة من فنون الحلاقين ؛ ونصف المستشفيات التى تقوم الآن فى أوربا إما أنها من منشئات العصور الوسطى وإما أنها مؤسسات باقية من ذلك العهد جددت فى العصور الحديثة ، ولقد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير فى العصور الوسطى نزعته الدَّوْلية ، وقسطاً غير قليل من لغته الدَّوْلية .

وأجل ما ورثه العالم من العصور الوسطى بعد التأديب الأخلاقى هو الفن . نعم إن بناء إمبير استيت Empire State Building لا يقل روعة وجلالا عن كندرائية شارتر ، وإنه يدين بعظمته لهندسته وحدها — لثباته رغم ارتفاعه وعتوه ودقة تخطيطه . ولكن اجتماع فنون النحت ، والتصوير ، والشعر ، والموسيقى مع فن العمارة فى حياة الكندرائية القوطية يكسب كندرائيات أميان ،

(*) من حق العرب علينا أن نقول إن هذه المخترعات يكاد يرجع الفضل كله فيها إلى الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

وريمس ، ونتردام سعة وعمقاً فى التوافق الروحى ، وثروة وتنوعاً فى الزخرف ، يملآن النفس غبطة أكثر مما تملؤها عظمة البناء الحديث ، ولا تفترُ معهما متعة الإنسان على مر السنين . وإن من واجب الإنسان أن يغفر الشيء الكثير لذلك العصر الذى أحب بملء قلبه رموز دينه ، وأعمال يديه — من أبواب ، وأبراج ومنارات مستدقة ، وقباب من حجارة تناطح السماء ، وتماثيل ومذابح للقربان ، وواجهات ، ومقابر عنى بنحتها أعظم عناية ، وشبابيك تنافس بألوانها قوس قزح ، وتتقى أشعة الشمس قبل أن تنفذ فيها . ومن أجل الكتدرائيات نشأت الموسيقى المتعددة النغمات ، ووضعت العلامات الموسيقية والسلم الموسيقى ؛ ومن الكنيسة نشأ فن التمثيل الحديث .

ولا يقل تراث العصور الوسطى فى الأدب عن تراث الرومان وإن لم يبلغ فى علو قدره ما بلغه الأدب اليونانى . ففى وسعنا أن نضع دانتى فى مرتبة ڤرچيل ، وپترارك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية الغزلين إلى جانب أوڤد ، وتيبلس ، وپروپرتيوس ؛ وإن روايات آرثر الغرامية لأشد عمقاً وأكثر نبلاً من كل ما حواه كتابا التناسخ والهرو يدات ، ولا يقل عنهما ظرفاً وجمالا ؛ وإن الترانيم الكبرى التى كانت تنشد فى العصور الوسطى لأرقى من أجمل الأغانى الشعرية الرومانية . ولا يقل القرن الثالث عشر رقيا عن عصر أغسطس أو ليو العاشر ؛ وقلما شهد قرن من القرون ما شهده ذلك القرن من ازدهار فنى أو ذهنى كامل متعدد الألوان ؛ وقد اتسع فيه نطاق التجارة اتساعا لا يقل عما وصل إليه فى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت هذه التجارة سبباً فى اتساع رقعة العالم المعروف وازدياد ثروته ويقظته . وكان فى القرن الثالث عشر بابوات أقوياء من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، رفعوا مقام الكنيسة طوى قرن كامل إلى أعلى درجات النظام والقانون فى جميع البلاد الأوربية . ولم يكن

القديس فرانسس يخشى أن يكون مسيحياً ؛ وأعاد الرهبان المتسولون المثل العليا للأديرة ، ورفع الحكام العظام أمثال فليب أغسطس ، والقديس لويس ، وفليب الرابع ، وإدورد الأول ، وفردريك الثانى ، وألفنسو العاشر ، رفع هؤلاء دولهم من بلاد تجرى على العادات والتقاليد إلى دول تتبع القوانين ، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة من الحضارة فى العصور الوسطى . وانبعثت فى القرن الثالث عشر فلسفة وعلوم جديدة تغلبت على النزعات الصوفية التى كانت سائدة فى القرن الثانى عشر ، وكان انبعاثها بحماسة وشجاعة لا يفوقهما ما كان منهما فى عصر النهضة . وفى الأدب خطا « القرن العجيب » من **بارزيفال** تأليف ولفرام فن إسشنباخ إلى فكرة **الملهاة المقدسة** ، ولاح آن عناصر حضارة العصور الوسطى وصلت فى خلال ذلك القرن إلى الوحدة والنضوج وإلى صورتها النهائية .

وبعد فإنا لن نستطيع تقدير العصور الوسطى حق قدرها إلا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية على أنها إتمام لما بدأته لا نقض له . فقد واصل كولمبس ومجلان Magellan مثلا رحلات الارتياد التى قام بها التجار والملاحون من أهل البندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، ولشبونة ، وقادس ، والتى تقدمت على أيديهم تقدما عظيما ؛ وإن الروح التى كانت متأججة فى أثناء القرن الثانى عشر هى نفسها التى أثارت روح الكبرياء والكفاح فى المدن الإيطالية خلال عصر النهضة ؛ كذلك كان النشاط والخلق القوى اللذان امتاز بهما إنريكو دندولو Enrico Dandolo ، وفردريك الثانى ، وجريجورى التاسع هما اللذين تلتهب بهما صدور رجال النهضة ؛ وكان منشأ زعماء عصابات المغامرين العسكريين الذين يبيعون خدماتهم لأى حزب فى كل نزاع من الخطة التى اتبعها ربرت جسكارد Robert Guiscard ؛ ومنشأ الحكام « الطغاة » مثل إزلينو Ezzelino وبلافشينو Pallavicino ؛ وسار المصورون فى الدرب الذى شقه لهم سيمابيو Cimabue ودوتشيو Duccio ؛ وكانت پلسترينا Palestrine همزة الوصل بين الترنيم

الجريجورى وباخ Bach . كذلك كان بترارك وارثا لدانتى وشعراء الفروسية الغزلين ، كما كان بوكاشيو قصاصا إيطاليا جوابا . وقد ظلت الروايات الغرامية مزدهرة فى أوربا أثناء النهضة على الرغم من كتاب دون كيشوت ، وبلغت أساليب كريتيان ده تروى Chrétien de Troyes حد الكمال على يد مالورى Malory . وكانت بداية « إحياء الآداب » فى مدارس العصور الوسطى ؛ وكل ما امتازت به النهضة فى هذه الناحية أنها وسعت دائرة هذا الإحياء حتى شملت الآداب اليونانية بعد أن كان مقصوراً على اللاتينية ، وأنها نبذت الفن القوطى لتنهض بالفن اليونانى . لكننا يجب ألا ننسى أن نقولو بيزانوا Niccolo Pisano اتخذ فن النحت اليونانى فى القرن الثالث عشر نموذجا له ينسج على منواله ، ولما أن جاء كريسلوراس Chrysoloras باللغة اليونانية وآدابها إلى إيطاليا (١٣٩٣) ، كان لا يزال باقيا من عمر العصور الوسطى مائة عام كاملة .

وكان الدين الذى شاد الكنائس الكبرى وألف التراتيم الجميلة هو الدين السائد فى إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا فى عصر النهضة مع فارق واحد ، وهو أن الكنيسة الإيطالية ، التى كان لها نصيب كبير فى ثقافة ذلك الوقت ، وهبت العقل الإيطالى حرية فى التفكير ولدت فى جامعات العصور الوسطى ، وظلت باقية ، بشرط أن يكون مفهوما فهماً ضمنياً أن يسير الفلاسفة والعلماء فى بحوثهم دون أن يحاولوا القضاء على دين الجماهير .

ومن أجل هذا لم تشترك إيطاليا ولا فرنسا فى حركة الإصلاح الدينى ، بل انتقلنا من ثقافة القرن الثالث عشر الكاثوليكية إلى ثقافة القرنين الخامس عشر والسادس عشر « الإنسانية » ، ثم انتقلنا من هذه الثقافة الأخيرة إلى عصر الاستنارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان هذا الاطراد المستمر مضافا إلى تجارة البحر المتوسط قبل كشوف كولمبس هى التى أكسبت الشعوب اللاتينية ميزة ثقافية موقتة على الأمم الشمالية التى اجتاحتها الحروب الدينية ، والتى كان لها فيها

من الآثار المدمرة أكثر مما كان فى البلاد اللاتينية . وتمتد أصول هذا الاطراد مجتازة العصور الوسطى إلى رومة القديمة ومجتازة جنوبى إيطاليا إلى بلاد اليونان القديمة . وكان تيار واحد عظيم من الثقافة يجرى خلال المستعمرات اليونانية فى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وخلال الفتح الرومانى لفرنسا وأسپانيا واصطباغهما بالصبغة اللاتينية مبتدئاً من ساپفو وأنكريون إلى ڤرچيل وهوراس ، وإلى دانتى وپترارك ، وإلى ربليه ومنتانى ، وإلى ڤلتير وأناتول فرانس . ونحن فى انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر النهضة إنما نتقدم من الطفولة المزعزعة غير الواثقة بنفسها إلى الشباب البهيج للثقافة التى قرنت ما كان عند الرومان واليونان الأقدمين من ظرف ورقة إلى ما كان عند البرابرة من قوة ؛ وهى ثقافة نقلت إلينا تراثاً متجدد الشباب موفور الغنى لحضارة من حقها علينا أن نعمل على الدوام لزيادتها وألا نتركها تموت .

شكراً لك مرة أخرى أيها القارئ الصديق

(انتهى المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس فى حضارة عصر النهضة)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAP XXXIV

1. In Ogg, 145.
2. Vossler, K., *Medieval Culture*, I, 5.
3. Dante, *La Vita Nouva*, xxv.
4. Munro and Sellery, 330.
5. Cf. Pollock and Maitland, I, 57.
6. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 438 ; Encyclopaedia Britannica, XXI 1005a.
7. *Lyra Graeca*. III, 676, app. by J. M. Edmonds.
8. Munro and Sellery, 232 ; Haskins, *Renaissanee*, 16 ; id., *Normans*, 236.
9. Haskins, *Renaissance*, 72.
10. Thorndike in *Sppeculum*, Apr. 1937, 268.
11. Haskins, *Renaissance*, 72.
12. Coulton, *Panorama*, 683.
13. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 654.
14. Lacroix, *Arts*, 472.
15. Walsh, *Thirteenth Century*, 156.
16. Coulton. *Medieval Scence*, 124 ; *Panorama*, 576 ; Haskins, *Renaissance*, 71.
17. Encyclopaedia Britannica, XIV,3.
18. Haskins, *Renaissance*, 43.
19. Calvert, *Moorish Remains in Spain*, 426.
20. Haskins, *Studies in Medieval Culture*, 100.
21. Bevan, *Legacy, of Israel*, 230.
22. Ibid., 211.
23. Sarton, II (I), 126.
24. Arnold, *Legacy of Islam*, 347.
25. Ibid., 244.
26. Wright, *Domestis Manners*, 271.
27. De Wulf. *Medieval Philosophy*, I, 61 ; West, *Alcuin*, 57.
28. John of Salisbury, *Metalogicus*, I, 24, in Poole, *Illustrations* 98.
29. Thorndike in *Speculum*, *Oct.* 1940, 401.
30. Walsh, *Thirteenth Century*, 28.
31. Thorndike, I.C. ; Rashdall, *Universities of Europe in the Middle Ages*, III, 350 ; Crump, *Legacy of the Middle Ages*, 262-3.
32. Abélard, *Historia. Calamitatum*, Introd. by R. A. Cram. p v.
33. Coulton, *Medival Village*, 254.
34. Jusserand, 279.
35. Coulton, *Panorama*, 388.
36. Thorndike, *Speculum*, Oct. 1940, 408.
37. Rashdall. *Universities*, III, 370.
38. Aristotle, *Politics*, viii, 1.
39. Crump, 266.
40. Rashpall, 1, 93.
41. Ibid., 113.
42. Lea, *Insquisition in the Middle Ages*, I, 69.

43. Walsh, *Thirteenth Century*, 38; Baedeker, K, *Northern Italy*, 471.
44. Rashdall, I. 149-67.
45. Ibid., 196.
46. 196-7.
47. Paetow, L.J., *Guide to the Study of Medieval History*, 448.
48 Haskins, *Renaissance*, 896,
49. Rashdall, I, 445.
50. Thorndike. *Magic*, II, 58.
51. *Cambridge Medieval History*, VI, 746.
52. Encyclopaedia Britannica, XI, 995
53. Rashdall, III, 29n.
54. Ibid., 38.
55. 199.
56. 246n; Sarton, II (2), 584.
57. Davis, *Medieval England*, 398.
58. Encyclopadia Britannica, X, 9006b.
59. Ashley I, 203.
60. Munro and SelleryX, 350; Walsh, *Thirteenth Century*, 65.
61. Waddell, *Wandening Scholars*, 171.
62. Walsh, 65.
63. Rashdall, IV, 325-36.
64. Ibid.
65. Coulton, *Social Life*, 95.
66. Rashdall, III, 386.
67. Ibid., 439.
68. 441.
69. 440.
70. 96n.
71. 431.
72. 432; Coulton, *Life*, III, 73.
73. Rashdall, III, 439.
74. Castiglione, 328.
75. Munro and Sellery, 350.
76. Rashdall, I, 468-70.

CHAPTER XXXV

1. V. Cousin in Abélard. *Ouvrages inédits*, xcix.
2. Gilson, É, *La philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 238.
3. De Wulf, *Medieval Philosophy*, I, 103.
4. Ibid., 46.
5. Thomas Aquinas. *Summaa Theologica*, I, i, 1.
6. Ueberweg. *History of Philosophy*, I, 386.
7. Abélard, *Historia Calamitatum*, ch. 6.
8. Rémusat, C. de, *Abélard*, I, 39.
9. Abélard, *Calamitatum*, ch. 5.
10. Gilson, *La Philosophia au moyen âge*, ed. 1922, I, 89.
11. Abélard, *Calamitatum* ch. 5.
12. Rémusat, I, 30n.
13. Abélard, ch. 16.
14. Rémusat, I, 54.
15. Abélard, ch. 6. He does not say that he accompanied her.
16. Ibid., ch. 7; Lea, *Celibacy*, 269.
17. Abélard, ch. 7.
18. Ibid.
19. Poole, *Illustrations*, 125.
20 Abélard. *Dialectica*, Introd. to Part IV. in *Ouvrag,s inèdits*.
21. Ibid.
22. In Rémusat. II, 534-5.
23. Ouvrages *inédits*, *p.* clxxxvii.
24. Abélard, *Sic et non*, in *Ouvrages*, p. 16.
25. De Wuls *Medieval Philosophy*, I, 201.
26. Abélard *Calamitatum*, ch. 9.
27. Rémusat, I, 77.
28. Abélard, *Calamitatum*, Ch. 9.
29. Ch. 11.

30. Rémusat, II, 197.
31. Ibid., 196; Gilson, *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, p. 291.
32. Ueberweg, I, 387.
33. Rémusat, II, 203.
34. Ibid., 205.
35. Abérland, *Calamitatum*, ch. 12.
36. Ch. 13.
37. Ch. 15.
38. Ch. 14.
39. In Scott-Moncrieff, *Letters of Abélard* and *Héloïse*, 53-6.
40. Ibid., p. 82.
41. P. 103.
42. Butler, *Women* 68.
43. Prof. Paetow considered the "letters of Héloïse . . . the vain imaginings of a very vain man"- *Speculum*, Apr. 1927, 227. Prof. Gilson concludes in favor of their general authenticity; cf. his *Héloïse et Abélard*, Paris, 1938, and *Speculum*. July 1939, 394.
44. Abélard, *Scito te ipsum*, xiii-xiv, in Rémusat, II, 466.
45. Abélard. Ep. xiii, *Cambridge Medieval History*, V, 798.
46. St. Bernard, Eps. 191 and 338, in Talor, *Medieval Mind*, I, 417, and II, 385; Adams, H., 313; Ueberweg, 396.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 321.
48. Rèémusat, I, 260.

CHAPTER XXXVI

1. Duhem *Système du monde*, III 88.
2. De Wulf, *History of medieval philosophy*, I. 154.
3. Poole, *Illustrations*. 151.
4. Ibid., 185.
5. 108.
6. Thorndike, *Magic*, II, 58.
7. Ibid., 50.
8. Ibid., 58.
9. Poole, 158.
10. Taylor, *Medieval Mind*, II, 402.
11. In Poole,*Illustrations*, 164.
12. In Adams. H , 292.
13. John of Salisbery, *Polycraticus*, v, 16; vi, 24; vii, 17.
14. V, 16.
15. IV, 8.
16. V, 6; vi, 6, 12, 25; iii, 15.
17. VIII, 20.
18. VII, 11.
19. Munro and Sellery, 460; Sarton, II (2) 860; De Wulf, *History of Medieval philosophy*, I, 248.
20. Ibid.
21. Robertson, J M., *History of Free Thought*, I, 325.
22. Lea, *Inquisition in Middle Ages* I, 99.
23. Coulton. *Five Centuries* I, 345.
24. Id.. *Medieval Scene*, 111.
25. De wulf, I, 189.
26. Lea, ed, II, 319.
27. Gilson. *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 384.
28. Rashdall, I, 354.
29. Lea, II, 320-3.
30. Renan. *Averroés*, 288.
31. Coultoh, *Panorama*, 449.
32. Rashdall, I, 264.
33. De Wulf, II, 97.
34. Hernshaw, *Medieval Contributions to Modern Civilization*,145.
35. Lea. III, 440.
36. Castiglione, 330.

37. Coulton, *Panorama*, 461.
38. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1947, 564.
39. De Wulf, II, 103.
40. In Gilson, ed. 1947, 564.
41. Ibid., 565.
42. 562.
43. 558; Renan, *Averroès*, 268.
44. Ibid., 273-5; Gilson, ed. 1947, 559.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 822.
46. De Wulf, I, 144.
47. Id., *Philosophy and Civilization in the Middle Ages*, 51.
48. Gilson, *Philosophy of St. Bonaventure*, 8.
49. Sabatier, 41.
50. Sarton, II (2), 938; Taylor, *Medieval Mind*, II, 451.
51. Sarton, II (2), 938; Taylor, *Medieval, Mind*, II. 451.
52. Maritan, J., *The Angelic Doctor*, 32.
53. Ibid., 29.
54. 31; D'Arcy, *Thomas Aquinas*, 35.
55. Ibid., 51.
56. 46.
57. Grabmann, M., *Thomas Aquinas*, 32.
58. Wicksteed. P. H., *Dante and Aquinas*, 93; D'Arcy, 47.
59. Maritain, 45.
60. D'Arcy, 52.
61. De Wulf, *Philosophy and Civilization*, 186.
62. Maritain, 40.
63. Bevan, *Legacy of Israel*, 267.
64. Diesendruck, Z., *Maimonides and Thomas Aquinas*, 5.
65. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1922, I, 114.
66. In Sarton, II (2), 915.
67. Thomas Aquinas, *De caelo et mundo*, lect.22, in Grabmann, 44.
68. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 2.
69. Ibid.
70. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 833.
71. Id., *Summa Theologica*, I, xvi, 8.
72. I., *Summa Contra Gentiles*, i, 12.
73. Ibid., I, 3.
74. Id., *Summa Thiologica*, II IIae i, 5.
75. Ibid., II IIae, x, 7.
76. Id., *Quodlibeta*, II, *a*, 7, in Grabmann, 50.
77. Id., *Summa Theologica*, II IIae, i, 10.
78. Ibid., xxvi, 10.
79. Id., *De veritate*, ii, 10.
80. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 11.
81. Id., *Summa Theologica*, I, ii, 3; *Summa Contra Gentiles*, i, 16.
82. Ibid., i. 3; i, 30.
83. Id., *Summa contra Gentiles*, ii, 38.
85. Ibid., 35.
86. Ibid., iii, 23.
87. Id., *Quodibeta*, xi 4.
88. Id., *Comm on II Sent.*, VIII, vi, 4, in Hopkins. C. E., *Share of Thomas Aquinas in ... the Witchcraft Delusion*, 78.
89. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, cxvit, 3.
90. Ibid., lcxv, 3; xcv, 5.
91. Ibid., 4.
92. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 146, 157.
93. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, I.
94. In Walsh, *Thirteenth Century*, 444.
95. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxxv, 4.

96. Id., *Summe cantra Gentiles*, ii, 72.
97. D'Arcy, 147.
98. Thsmas Aquines, *Comm. on Aristotle's Metaphysics* 179.
99. Id., *Summa contra Gentiles*. ii, 49.
100. Id., *De auima*, iii, 7.
101. Id. *Summa Theolagica*, I, lxxviii, 1-4.
102. Ibid., I, v 6.
103. De Wulf, *History of Medieval Philosophy*, II, 25.
104. Thomas Aquinas, *De veritate*, xxiv, 1.
105. Id, *Summa coatra Gentiles*, i,
106. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, 1.
107. Idid, IIae, iv, 6.
108. Id., *De veritate*, ii, 2.
109. Id., *Samma eontra Gentiles*, iii, 27-31.
110. Id., *Summa Theologica*, II IIae, xiv, 3; xxvii, I; xxxi, 4.
111. Id., *Comm. on Aristotle's Meto physics* 207; *Summa Theologica*, I, xcii, 1; xcix, 2; cxv,2,
112. Ibid.
113. Ibid., I, xcii, 3.
114. Ibid., I, v, 3.
115. Ibid., II IIae, x, 11.
116. Ibid., II IIae, civ. 1; I IIae, xix, 5; *De veritate*, xvii, 5; *on IV Sent*, 38.
117. Id., *Summa Theologica*, II IIae x, 11.
118. Ibid. 12.
119. Ibid., 11,
120. Ibid.' 8.
121. Ibid.
122. Ibid., II IIae, xi, 4.
123. Ibid., I IIae, xcvii, 3.
124. Ibid., I, clii 3.
125. Ibid., I IIae, cv, 1; cvii, 1.
126. Id., *De regimine principum*, i,6.
127. Id., *Suma Theologica*, II IIae, lxvi, 2.
128. Ibid.
129. Ibid., II IIae, cxviii, 1.
130. Ibid., II IIae, lxvi, 7.
131. Ibid., II IIae, lxxvii, 4.
132. Ibid., II IIae, lxxviii, 1-4.
133. Ibid., I IIae, xcii, 1; cv, 1; II IIae, lvii, 3; lxx, 3.
134. Ibid. I IIae, vii, II; *Comm on II Sent.*, xliv; *Snmma coptra Gentiles*. iv. 76; Hearnshaw, *Social and Political Ideas* 108.
135. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, vxiii, 5.
136. Ibid., I. xviii, 1, 3; *Summa contra Gentiles*, iii, 163,quoting Paul, Ephesians, I, 4.
137. Wicksteed, 266.
138. Gilson, *Bonaventure*. 7.
139. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xii, 1, 7-8.
140. Ibid., II IIae., clxxix-clxxvii.
141. Sarton. II (2), 916.
142. Tnomas Aquinas, *Summa contra Gentiles*, i, 1.
143. Sarten. II (2). 906.
144. Gilson, *Reason and Revelation* 30.
145. Id. *La philosophie*, ed. 1947. 606.
146. De Wulf, *Medieval Philosophy* II, 85,
147. Ibid., 64; Gilson, 603.
148. Quoted in Mill, J. S., *System of Logic*, pret.
149. Waddell, *Wanaering Scholars*, 118.
150. Gilson, *La philosophie*, ed 1922, I, 154.

CHAPTER XXXVII

1. James, *Women*, 120.
2. Thorndike, *Magic*, II, 8.
3, Ibid., 814.
4. Coulton. *Panorama*, 105.

5. Coulton *Five Centuries*. I, 251:
6. Himes, 1.1.
7. Coulton, *Panorama*, 106.
8. Kantorowicz., 354.
9. Thorndike, *Magic*, II, 169.
10. Coulton, *Life*, I, 88.
11. Id., *Panoroma*, 115.
12. Milman, I, 542.
13. Lea, *inquisition in Middle Ages*, III, 424.
14. Hastinge,*Encyclopedia of Religion and Ethres*. III, 42 la.
15. Pauphilet, A., *Jeux et sapience du moyen âge*, 317 n.
16. Coulton, *Social Life*, 526.
17. Singer, Chas., *Studies in the History and Method af Science*, I, 165.
18. Castiglione, 385.
19. Thorndike, *Mogic*, 'II, 167.
20. Lacroix, *Science and Litterature*, 208.
21. Thorndike, II' 319.
22. Ibid., 328.
23. 689. 949.
24. Sarton II (2), 1082.
25. Walsh, *The Popes and Science*, 52.
26. Sarton, II (2), 1082.
27. Cf. text in Walsh, *Popes*, app.
28. Ibid, 31, 43.
29. Pliny, *Natural History*, xxxvi, 26, 67.
30. Thorndike, II, 237.
31. Sarton. II (2), 611.
32. Thorndike, ii' 449.
33. Sarton, II (2), 617.
34. Singer, *Studies*, II' 105.
35. Ibid., I, 18.
36. Thorndike, I, 775.
37: Addison, *Arts*. 78.
38. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, 6
39. Augustine, *City of God*, xvi, 9.
40. Sarton, I, 516.
41. Joinville, 258.
42. Raby, *Chiristian Latih Portey*, 356.
43. Sarton II (2), 575.
44. Kantorowicz. 360.
45. Mumford, 22.
46. Sarton. II (1). 21.
47. *Speculum*, Apr. 1941, 242.
48. Sarton. II (2). 1024.
49. Ibid.; Singer, II, 398.
50. Arnold, *Legacy* of *Islam*, 97.
51. Kantorowicz 354.
52. Sarton. II (2), 1030.
53. Willoughby, W., *Social Jusice.*, 14.
54. Sarton, II (2), 1041.
55. Ibid., 1098.
56. 1037.
57. 1038.9.
58. Thorndike, 1, 710.
59. Garrison, 148.
60. Sarton. ii (1), 81. 242.
61. Garrison, 175.
62. Ibid., 181.
63. Castiglione, 381;
64. Bartholomaeus Anglibus, xiv, 4. in Coulton, *Social Life*, 502.
65. Castiglione, 384.
66. Kantorowicz, 356,
67. Lacroix, *Science*, 149.
68. Thorndike in *Speculum*, Apr. 1928, 194 ; Neuman, *Jews in Spain*, II, 110.
69. Garrison, 170.
70. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 52.
71. Ibid., 52-7.
72. Carrison, 144, 172.
73. Lacroix, *Science*, 154'

74. Garrison, 144.
75. Coulton, *Panorama*, 448.
76. Sarton, II (I), 72.
77. In Castiglione, 337.
78. Carrison, 153.
79. Castiglione. 388.
80. Walsh *Thirteenth Century*, 345.
81. Sarton, II (I), 84.
82. Joyce, *Ireland*, 151.
83. Garrison, 186.
84. *Speculum*, Jan. 1937, 19.
85. Munro and Sellery, 266.
86. In Coulton, *Panorama*, 304.
87. Jackson, *Byzantine and Romanesque Architecture* I, 142; Barne, *Economic History*, 165.
88. Thorndike, II, 28f.
89. Ibid., 25.
90. 538.
91. Ibid.
92. 526, 566, 568, 583.
93. Walsh, *Thirteenth Century*, 48.
94. Albertus Magnus, *De animalibus*, iv, 3, in Sarton, II (2), 938.
95. Sarton, II (I), 72.
96. Bacon *Opus tertium*, ch. 17.
97. Id , *Opus Maius*, I. xi
98. Bridges, J. H., *Life and work of Roger Bacon*, 125.
99. Bacon, *Opus tertium* Brewer ed., p. 28.
100. Id., *Opus maius*, i, 10.
101. In Little A. G., *Rogee Bacon Essays*. 10.
102. *Opus Mais*, i, 1.
103. *Compendium studii philosophiae*, ed. Brewer, p. 469.
104. *Opus maius*, ii, 12.
105. Ibid.
106. VII, 1.
107. Little, 117; Sarton, II (2), 805, 961.
108. *Opus tertium*, ch. 29.
109. *Opus maius*, iv, 16.
110. Ibid., iv, 4; *De Coelestibus*, in Little 16,
111. *Opus maius*, vi, 1.
112. Throndike, II, 650.
113. *Opus manus*, iv, 4.
114. Brioges, 36; Little, 180.
115. Sloane MS., folio 83b, 1-2, in
116. *De secreits operibus artis et naturae*, ch. iv, in Little, 178.
117. Little 321; En. Br., XI, 3.
118. In bridges, 93.
119. *Opus maius*. v. 4.
120. *De secreits operibus*, in Singer. II, 397.
121. Singer, II, 132.
122. *Opus maius*, vii, *at initium*.
123. Bridges, 387.
124. Ibid., 127.
125. 52.
126. De Wulf, *Med. Philosophy*, II, 139.
127. *Opus maius*. ii, 5.
128. *Combendium Philosophiae*, in Coulton, *Life*, II, 55f.
129. *Opus tertium*, in Taylor' *Medieval Mind*, II, 523.
130. Ibid in Coulton, *Five Centuries*, I, 135.
131. Taylor, II, 530.
132. Little, 26.
133. Ibid.
134. 28.
135. Taylor , II, 347.
136. Thorndike, II, 196.
137. Ibid., 203.

CHAPTER XXXVIII

1. Cf. Saxo Grammaticus, 89.
2. Joinville, 140.
3. Iacopo de Voragine *Golden Legend*. pp. 48-56.
4. Mâle, 320.

5. Raby, *Secular Latin Poetry*, II, 289.
6. Haskins, *Renaissance*, 177.
7. Waddell, *Wandering Scholars*, 188.
9. Tr. by Helen Waddell in *Medieval Latin Lyrics*, 171.
10. In Van Doren, M., *Anthology of World Poetry*, 454.
11. In Waddell, op. cit., 278.
12. Bieber, M., *History of the Greek and Roman Theater*, 423.
13. Chambers, *Medieval Stage, II*, 44; Mathews, B., *Development of the Drama*, 115.
14. Mantzius, *History of Theatrical Art*, II, 5.
15. Matthews, 114.
16. Symonds, J. A., *Studies of the Greek Poets*, 310.
17. Raby, *Christian Latin Poetry*, 219.
18. Mantzius, II, 1 of.
19. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II IIae, clxviii, 3.
20. *Chanson de Roland*, II. 1989-2009.
21. Sturluson, *Prose Edda*. # 72, in Vigfusson.
22. Dasent, G. *Story of Burnt Njal*, 237-58.
23. In Butler, *Women*, 101.
24. *Cambridge Medieval History*, III, 128.
25. Cf. an excellent fictionalized biography of Piere Vidal in Cronyon, G., *The Fool of Venus*.
26. Arnold, *Legacy of Islam*, 17.
27. Lecky, *Morals*, II, 232.
28. *Speculum*, Oct. 1938, 380-7.
29. Tr. by Ezra Pound in Van Doren, 660.
30. Rerse, *Medieval Music*, 232.
31. Fiedier, *Das Oxforder Buch Deutscher Dichtung*, 5.
32. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 41.
33. In Taylor, *Medievol Mind*, II, 56.
34. *Songs and Sayings*, 33.
35. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 16.
36. Taylor, II, 62.
37. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 69.
38. Walther von der Vogelweide, *Songs and Sayings*, 22.
39. Taylor, II, 58.
40. Prestage, *Chivalry*, 100: Coulton, *Life*, III. 77: Francke, *German Literature*, 111.
41. Kroeger, A E., *The Minnesigger of Germany*, 4.
42. Schoenfeld. *Women of the Teutonic Nations*, 162.
43. Tr. by Arthur O'Shaughnessy in Van Doren, 663.
44. Chrétien de Troyes, *Arthurian Romances*, I.
45. Ibid., 318, 309.
46. 287.
47. Wolfram vou Eschenbach, *Parzival*, I, 67.
48. In Taylor, II, 8.
49. Wolfram, I 188; vi, 937.
50. *Aucassin et Nicolette*, 6.
51. Ibid., 12. French text in Pauphilet, 444.
52. *Aucassin*, 13.
53. William of Lorris and Jean Clopinel deMeung, *Romance of the Rose*, II. 8767f. 8858.
54. Lines 8511f.
55. 7849.
56. 1685.
57. 9267,70 9725-47.

CHAPTER XXXIX

1. Tr. by D. G. Rossetti.

2. Asin y Palacios, *Islam and the Divine Comedy*. 271 f.
3. Dante, *Porgatorio*, xxxi, 91f.
4. Sedwick, *Italy* II, 277.
5. *Tr*, by D G. Rossetti.
6. Vossler, II, 152.
7. In Ledgwick. II. 291.
8. Cf. *Purgatorio*. xxx, 55.
9. Sedgwick II, 283.
10. Vossler, I, 323.
11. Dante. *Inferno*, xv, 85.
12. Vossler, I, 164.
13. Dante, *La Vita Nuova*, ii, tr. Rossetti.
14. Ibid., iii.
15. xix.
16. xxvi.
17. xxxii.
18. *Paradiso*, xxx, 28.
19. Id., *Purgatorio*, xxxi, 60.
20. Symonds *Dante*, 55.
21. Dante, *De Monarchia*, iii, 11.
22. Ibid., 16.
23. *De Monarchia*, pref., xxxiii.
24. Dante, *Elveu Letters*, vi.
25. Ep. vii.
26. Symonds, *Dante*, 79.
27. Ep. x.
28. Symonds, *Daute*, 92.
29. Litter to the Italian Cardenals, (1314).
30. Dante, *Il Convito*, x, 5.
31. Ibid., vii, 4.
32. The authenticity of this letter has been unconvincingly questioned by Vossler, I, 76.
33. Dante, *Eleveu Letters*, p. 197.
34. In Coulton, *Panorama*, 208.
35. Dante, *Paradiso*, eud.
36. Ibid., x. 1371.
37. Cf. Blochet. *Sources orientales de la Divine Comédie* Paris, 1901. and Asin y Palacios *La escatologia musulmana en la Divina Comedia*, Madrid, 1919, translated as *Islam and the Divina Comedy*.
38. Asin y Palacios. 55-61.
39. Ibid., 171-3, 276-7.
40. Ibid., 232.
41. Rowbotham, 130.
42. Dante, *Interno*, i, 1-3.
43. Ibid., i, 86.
44. Ibid., iii. 1-9.
45. Ibid., iii, 50.
46. Idid., iv, 131-43.
47. Ibid, v, 121-42; tr. Cary.
48. Ibid., xix, 53.
49. Ibid., xxviii, 22-42; tr. Cary.
50. Id., *Pargatorio*, v, 13.
51. Ibid., vi, 76-93.
52. Ibid., xxvi. 112.
53. Ibid., xxvii, end.
54. Ibid., xxx, 37-9.
55. Ibid, xxxi, 49-51.
56. Ibid., end.
57. Id., *Paradiso*, iii, 85.
58. Ibid., xxvii, 22-8.
59. Id, *Inferno*, xviii, 57-68.
60. Id., *Paradiso*, ix, 127.
61. Id., *Inferno*, xxiv, 125.
62. Ibid., xxxiii, 162.
63. Ibid., xxxiii, 80-4.
64. Ibid., xxxiii, 148.

EPILOGUE

1. Coulton, *Medieval Village*, 290.



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء السادس من المجلد الرابع





تونس



بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس الصور

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع والثلاثون : انتقال المعارف

الباب الخامس والثلاثون : أبلار

الباب السادس والثلاثون : مغامرات العقل

الصفحة | الموضوع